الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر — كلية : أصول الدين

للعلوم الإسلامية — قسم : العقيدة ومقارنة الأديان

–قسنطينة — — شعبة : العقيدة

الرقم التسلسلي :..... — رقم التسجيل :.....

منظومة قيم الحياة الإنسانية بين عقيدة التوحيد وبُنَى العلمانية الشاملة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في العقيدة الإسلامية

الجزء الأول

إعداد الطالب : — إشراف:

عبد الحليم لالوسي — د/عمار طسطاس

لجنة المناقشة

اسم ولقب الأستاذ	الدرجة	الجامعة	الصفة
أد / السعيد عليوان	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
د/عمار طسطاس	أستاذ محاضر_أ_	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا
أد/ عفيف منصور	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	مناقشا
د/ الشريف طاوطاو	أستاذ محاضر _أ_	جامعة خنشلة	مناقشا
د/عبد العزيز بوالشعير	أستاذ محاضر _أ_	جامعة سطيف _2_	مناقشا
د/حجيبة شيدخ	أستاذ محاضر_أ_	جامعة الحاج لخضر	مناقشا

السنة الجامعية : 1435هـ- 1436هـ / 2014م-2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

ادْعُإِلِىسَبِيلِرَبِّكَبِالْحِكْمَةِوَالْمَوْعِظَةِالْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمبِالَّتِيهِيَأَحْسَنُإِنَّرَبَّكَهُوَأَعْلَمُبِمَنضَلَّ عَنسَبِيلِهِوَهُوَأَعْلَمُبِالْمُهْتَدِينَ} النحل125

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهداء

- إلى والدي الكريمين.
- إلى كل مع علمني حرفا وأنار طريقي بالعلم الأحياء منهم والأموات.
- إلى كل المقاومين الصامدين في وجه الغزو الفكري والثقافي ، والمنافحين عن بيضة الإسلام بأقلامهم.
- إلى سندي وقرة عيني زوجتي :أم أسامة .
- وأولادي العصافير الثلاثة : أسامة ،أيمن ،أنس.
- إلى إخواني وأخواتي وأصدقائي .
- إلى كل محب للمعرفة والحقيقة .

إلى كل هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل .

شكر وتقدير

بعد حمد الله تعالى على توفيقه ، أتقدم بالامتنان العظيم إلى كل من أعانني على إنجاز هذا العمل ، وأخص بالذكر الأستاذ الفاضل :عمار طسطاس الذي تفضّل بقبول الإشراف ولم يبخل علي بالنصح والتوجيه .

كما لا يفوتني أن أتقدم بكل أدب واحترام ، وبالشكر الجزيل للّجنة الموقرة التي تتحمل مشقة قراءة هذه الأطروحة ، وتصويب أخطائها .

وأسأل الله أن لا يحرم أحدا منا أجر هذا العمل ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد عليه أفضلالصلاة وأزكى التسليم وبعد :

إن دراسة الفكر الإنساني على اختلاف مصادره قضية مهمّة، ولا سيما في بعض المحطات التاريخية، حيث يكون التدافع الفكري عنيفا، ومما لا يخفى على أحد أن الأمة الإسلامية ،بل الإنسانية عموما تتعرض لموجه تشويه لحقائق كثيرة في جوانب حياتها المختلفة، يحمل لواء هذا التشويه دعاة العلمانية، ويقف وراء هذه الفكرة فلاسفة ومفكرين داع صيتهم بين العالمين، ومن سوء حظ الإنسانية أن ما بلغته من تقدم علمي وتكنولوجي وُظِّف توظيفا سيئا مسخ الهوية الإنسانية، وأزّم حياة الإنسان . ومن هنا كان من الواجب توجيه الجهود لدراسة هذه الظاهرة، ومحاولة إعادة تصحيح المفاهيم ورد الأمور إلى نصابها من خلال الكشف عن الحقائق الأصيلة في الحياة الإنسانية ،والمناهج السليمة لإدارتها، والتي بدونها لا يمكن تصور حياة إنسانية راشدة يسعد الإنسان –كل الإنسان– في ظل مناهجها .

لأجل ذلك كان الحديث عن منظومة القيم، وتمييز الغث من السمين ضرورة يقتضيها واقع الإنسان في هذا القرن ويجب أن يتولى أمرها أهل الفكر، لرسم معالم هادية لإنقاذ البشرية من أزماتها التي تجلت في مظاهر شتى . بل لإنقاذ هذا الكوكب من نتائج الفكر العلماني الذي نرى انعكاساته فيما يحدث من حروب، وأمراض، ومجاعات، واستغلال، واستعباد، وتلويث للبيئة، وغيرها من المظاهر المسيئة للإنسان .

أولا:أهمية الموضوع :

تنطلق هذه الدراسة من موضوع لطالما كان ولا يزال يمثل محورا هاما من المحاور التي يدور حولها التفكير البشري ألا وهو موضوع القيم، وها نحن نلاحظ عقلاء العالم لا يفتأون يلحون على ضرورة إعادة صياغة منظومة القيم ويطالبون مؤسسات الدول بخطورة ما تشهده بلدانهم من انهيار أخلاقي،

يؤكده تصاعد أعمال العنف والجريمة، وبالتالي يعتبر موضوع حيوي وهام في مجال الفكر الأخلاقي والاجتماعي والسياسي، فالدراسة تعالج قضية القيم من منظورين مختلفين كل الاختلاف وهما : منظور العقيدة الإسلامية، ومنظور الرؤية العلمانية، متبعين في ذلك منهج القرآن الكريم الذي من بين أساليبه في بيان الحقيقة إجراء هذه المقارنات في كثير من القضايا المتعلقة بالحياة الإنسانية، بل إنه أجرى المقارنة في أخطر القضايا وهي قضية الألوهية، فقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام :{يَاصَاحِبَيِالسِّجْنِأَأَرْبَابٌمُّتَفَرِّقُونَخَيْرٌأَمِاللَّهُالْوَاحِدُالْقَهَّارُ}[1] وذلك لتقييم كل فكرة، وبيان جذورها ودوافعها . ومن ثم تحاول هذه الدراسة الوقوف على مضامين كل منظومة، ثم إجراء المقارنة والرد على الشبهات، وانتقاد المنطلقات والبُنى التي تأسست عليها العلمانية الشاملة تاريخا وممارسة والتي تشكّل الصورة النقيضة للتصورات والقيم الإسلامية. فالمقارنة بين المنظومتين القيميتين اللتين تطرحانكبديل لتنظيم الحياة الإنسانية يصبح من الضرورة بمكان، ولا سيما أن موجة العلمنة اجتاحت كل بلاد الدنيا، وأضلت البشرية، وأفسدت فطرتها، ومناهجها بما في ذلك البلاد الإسلامية، التي كان من المفروض أن لا تقع فريسة لأفكار العلمانية، باعتبارها تملك منهجا ربانيا له القول الفصل في القضايا الوجودية، وفي جميع الأفكار والمذاهب الدخيلة، وخاصة ما تعلق بالعلمانية الشاملة التي بدا لي من خلال الدراسة أنها ليست مجرد فكرة مخالفة للإسلام، بل مناقضة له تمام المناقضة في الكليات والجزئيات، فحتى البديهيات الوجودية أصبح فيها نظر في منطق الفكر العلماني الذي يحمل تناقضات جمّة في أسسه وبُناه .لذلك أرى أن موضوع القيم يكتسي أهميته من عدة وجوه :

1-يسجل موضوع القيم حضوره الدائم في مختلف مناحي الحياة في المجتمعات الإنسانية لارتباطه الوثيق بشبكة العلاقات الاجتماعية، وأنماط السلوك الفردية والجماعية.

2-أن ارتباط القيم بالمنظومات المختلفة وخاصة في هذا العصر -عصر العولمة الثقافية -يفرض علينا معالجته معالجة مقارنة للحفاظ على الهوية وتمييزها عن غيرها .

[1]-سورة يوسف الآية :41

3-حاجة الأمة لمعرفة سُلَّم القيم الذي كان حجر الأساس في نهضتها وبنائها الحضاري.

4-تعتبر العلمانية الشاملة خطرا فكريا يدمِّر الفطرة الإنسانية، ومن ثم وجب الوقوف على أسسها وخلفيتها الفلسفية للتحذير من أفكارها المدمرة للقيم الإنسانية، ناهيك عن مساسها بالمنظومة الإسلامية في العمق.

5- أن البشرية خسرت كثيرا من جراء استبعاد القيم الدينية من منظوماتها المختلفة، التعليمية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والمعرفية. ومن ثم فالدراسة فيها دعوة صريحة للعودة إلى القيم الدينية، والدعوة إلى صياغتها بأسلوب يساهم في معالجة قضايا العصر ومشكلاته.

ثانيا : الإشكالية

لما كان التدافع بين الحضارات، والمذاهب، والمنظومات الفكرية سنة إلهية، فإنه حري بنا أن نعيش أفكار عصرنا، ونحاول أن نفهم ونطلّع على المنظومات القيمية التي تنافس منظومتنا القيمية التي ارتضاها الله سبحانه وتعالى للبشرية ،ونحاول أن نروّج لها ونقنع بها، وفي ظل التدافع الحضاري في عالم اليوم جاءت العلمانية تعرض منظومتهاالشاملة منهجا بديلا للبشرية عن جميع المنظومات الأخرى في ظل ظروف تقهقر المسلمون كثيرا في خدمة دينهموالإغراء بقيّمه الإنسانية الرفيعة التي تملك تصورا صحيحا وشاملا للوجود وللكون، والحياة، والإنسان. ومن هنا وجدت البشرية نفسها أمام منظومة علمانية تضغط على الفكر الإنساني بما تملكه من منتجات مادية هائلة على الرغم من فساد في جوانب من أسسها – كما سنوضح - وشعور الإنسان بغربتها عنه، ومن ثم تصادفنا إشكالية البحث في قيّم المنظومتين، وأيهما أجدر بتنظيم الحياة الإنسانية .ويمكن تحليل هذه الإشكالية إلى التساؤلات الآتية:

-ما مفهوم منظومة القيم؟ وما مضمون عقيدة التوحيد؟ وما المقصود بالعلمانية الشاملة؟ وما علاقة المنظومتين بالحياة الإنسانية؟

-وما هي الخلفية التاريخية والفلسفية للعلمانية الشاملة ؟

وماهي الطرق التي تسللت من خلالها العلمانية للبلاد الإسلامية ؟

وماهي المنهجية العلمية التي يمكن اتباعها في كشف زيف الأسس التي قامت عليها العلمانية سواء في الغرب، أو في بلاد الإسلام ؟

وهل هناك بديل أفضل للإنسانية ؟ وفيم يتمثل ؟

وقد حاولت قدر الإمكان أن أجيب عن هذه التساؤلات بمنهجية علمية، وبموضوعية قدر المستطاع.

ثالثا:أسباب اختيار الموضوع :

يعتبر موضوع القيم من المواضيع الهامة التي تحتاج إلى دراسة متواصلة، وتزداد أهمية دراسته عند ارتباطه بمنظومة فكرية تريد أن تهيمن على القيم العالمية وتنقض بالذات تلك القيم التي مصدرها الوحي، وهذا يعد سببا قويا للدراسة، بالإضافة إلى أسباب أخرى أوردها فيما يلي :

1-الميل إلى الدراسات الفكرية والعقدية، وخاصة المعاصرة التي لها صلة بحياة الأمة.

2- الرغبة في عرض الإسلام بشموليته وجوهره الذي أعطاه القوة الحقيقة عبر القرون، ودفع الصورة المشوّهة له، بالتبسيط، والتجزيئ، والتسطيح، والتأويل الفاسد والتوظيف المغرض .

3-الوقوف على الخلفية الفكرية للعلمانية الشاملة وتمحيصها، ومقارنتها بالفكر الإسلامي والإنساني الأصيل، ومن ثم التأسيس لبديل عن القيم التي تتحكم في السلوك العالمي، بسبب ما ألحقته الفكرة العلمانية من شقاء بالإنسان، ومساس بالكرامة الإنسانية .

4- المساهمة في كشف المغالطات التي يراد تسويقها لتمييع المفاهيم الإسلامية، التي تشترك في مسمياتها مع العلمانية، ولكنها تختلف عنها اختلافا جذريا في مضامينها، ووسائلها، وأساليبها، وغاياتها.

رابعا: أهداف الدراسة :

تعيش البشرية حالة من الاغترار بما أنجزته الحضارة الغربية القائمة على الفكر العلماني ورؤيته للحياة الإنسانية، وانجر إلى هذا الانبهار أبناء الأمة الإسلامية، وخاصة في هذا العصر الذي تحاول فيه القوى العظمى في العالم تنميط الحياة الإنسانية، وذلك بتوظيف الوسائل التكنولوجية لفرض نموذج الغالب وبالطبع الغالب في هذه المرحلة التاريخية هو الغرب . ومن ثم تهدف هذه الدراسة إلى :

1-الوقوف على حقيقة الفكر الغربي في أسسه، وانعكاساته على الحياة الإنسانية .

1-المساهمة في إحياء الأمة بالتنبية إلى القيم الأساسية في بنائها.

2-كشف الفكر الدخيل الذي فرق الأمة، ومزقها وكان سببا في تخلفها .

3-التأكيد على أن فهم الآخر وسيلة هامة للتعارف، والتعايش بدل الحرب والتدمير الذي يشهده العالم، فالإسلام تقوم فلسفته على نشر السلام لا كما يروَّج عنه بأنه دين إرهاب .

4-الرد على الشبهات التي يثيرها الفكر العلماني في العالمعموما، و في البلاد الإسلامية خصوصا، وفضح التزوير الذي لحق كثيرا من الحقائق الوجودية، والإنسانية باسم العلم .

خامسا:الدراسات السابقة:

تعتبر العلمانية ظاهرة إنسانيةقديمة، لكن الجديد فيها أنها عادت في ثوب جديد وهو العلم، ومن ثم استطاعت أن تجد لها رواجا كبيرا في سوق الأفكار، وفي مرحلة تاريخية خفت فيه نور الإسلام وسلطانه بما كسبت أيدي المسلمين. وقد نال موضوع العلمانية حظا من الدراسة، حيث اتجه بعض المفكرين لدراسة هذه الظاهرة في وقت مبكر لظهورها، وتوالت الكتابات، منها ما كان رد فعل غلب عليه الأسلوب العاطفي، ومن المفكرين من قام بدراستها في مرحلة لم تكتمل صورة العلمانية كما هي عليه اليوم، ومنها ما كان دراسات جادة، استطاعت أن تصف الظاهرة وحاولت أن تغوص إلى جوهرها، ومن ثم تحديد الموقف منها.

لذلك فدراسة موضوع العلمانية كظاهرة تناولها الكثير، غير أن التطرق إلى جانب القيّم بالصورة التي تناولتها في إطار دراسة مقارنة، والتركيز على أسسها ظهر لي- في حدود ما اطلعت عليه-أنه من الجوانب الجديدة والجديرة بالبحث في خضم التدافع الحضاري، ولا سيما في تحديد الأسس التي تقوم عليها الظاهرة وخلفيتها الفلسفية، وفي مرحلة تعاني فيها البشرية من عنت كبير من تأثير التصورات العلمانية على الحياة الإنسانية، إضافة إلى العمل على تقديم رؤية سليمة لأجيال الأمة، وتوكيد انتمائها الحضاري، مع الاعتراف أن هناك دراسات عميقة تحتاج إلى الوقوف عليها لأهميتها في تحليل الأسس التي قامت عليها العلمانية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت هناك دراسات في التراث الإسلامي أسست لمنظومة القيم وتحتاج لتجليتها وترتيبها والتنبيه عليها، ومن أهم الدراسات التي تتطلب التنويه بجهود صاحبها، ما قام به عبد الوهاب المسيري في كل مؤلفاته التي ركزت على وصف الظاهرة العلمانية وأسس الفكر العلماني، والقيم التي تدعو إليها العلمانية، ومنها كتاب "العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة"، وكتابه" الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ"، وكتابه" العلمانية والحداثة والعولمة" الذي لخص فيه أهم الأفكار التي تدور حولها العلمانية، وقد استفدت كثيرا من مؤلفاته في تشخيص الظاهرة واستخلاص أسس الفكر العلماني وبُناه، كما لا يفوتني أن أنوّه بما كتبه محمد نقيب العطاس، وعما الدين خليل في كتبهما على التوالي "مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية" و"تهافت العلمانية"، وما امتازت به دراستهما من تحليل عميق لظاهرة العلمانية وقيّمها .

وفي نفس السياق نجد دراسات أنور الجندي التي ركزت على نقد أسس العلمانية و الفكر الغربي عموما، كما في كتابه "التيارات الوافدة" و"سقوط العلمانية" و"نقد الفكر الغربي" كما استفدت في مناقشة ظاهرة العلمانية من كتاب عبد الرحمن حسن حبنكة "كواشف زيوف"وكتاب عبد العظيم المطعني "الإسلام والإيديولوجيات المعاصرة" كما أنني أفادتني كثيرا مؤلفات محمد عمارة، ويوسف القرضاوي اللذان ركزا على دراسة شبهات العلمانيين في البلاد الإسلامية والرد عليها. وترجع أهمية الدراسات الآنفة الذكر لكونها إما :

-أنها دراسات مفكرين عايشوا ظاهرة العلمانية عن قرب في المجتمعات الغربية.

– أو انها دراسات لمفكرين متضلعين في الفكر الإسلامي بالأساس، وواجهوا هذه الظاهرة في إطار التدافع الحضاري بين القيم الأصيلة والدخيلة، حيث اقتحمت هذه الفكرة ديار المسلمين، وتطلب الأمر تحديد موقف منها .

والحقيقة أني لم آلو جهدا في البحث عن المراجع ذات الصلة والسعي لجمع المادة العلمية، ولم يكن الأمر يسيرا، غير أن انتقالي إلى بعض جامعات الأردن، والمغرب ومراكز البحوث فيها سهل علي المهمة بعض الشيء، فاستطعت توفير قدرا لا بأس به من المادة العلمية التي أعانتني على المضي في هذه الدراسة، ومع ذلك فما تيسر لي جمعه ، لم يكن سهلا ترتيبه .

ولا أزعم أني تمكنت من تشريح الظاهرة العلمانية ففيها من التعقيد ما يتطلب جهدا أكبر ووقتا أكثر، بالإضافة إلى كون أي ظاهرة غريبة عن حضارة الباحث لا يمكن الإحاطة بها وفهمها كما يرى شبنجلر وهو يعالج قضايا الحضارة، لأنه من المستحيل على فرد أو أفراد ينتمون إلى إحدى الحضارات أن يفهموا حضارة أخرى غير حضارتهم فهما كاملا ودقيقا ،وذلك بسبب العناصر الغريبة عنهم التي تتشكل منها تلك الحضارة .

سادسا: منهج الدراسة :

تطلبت الدراسة حسب الخطة السابقة أن اعتمد منهجا مركبا من عدة مناهج:الاستقراء، التحليل، الوصف، والمقارنة، وذلك بالبحث عن النصوص المؤيدة للموضوع، ووصف الظاهرة، والقيام بتحليل مضامينها، ثم إجراء المقارنة بين المعطيات المتوفرة .كما أني قمت بتخريج الآيات على رواية حفص لتوفر الأقراص المضغوطة بهذه الرواية، وكذلك خرجت كل الأحاديث من كتب السنة، وترجمت لبعض الأعلام بإيجاز شديد، وعلقت في الهامش على بعض المصطلحات حتى تفهم في سياقها، واستندت قدر الإمكان إلى المراجع والمصادر التي تخدم الدراسة، مع ذكر المعلومات المتعلقة بها على الطريقة المتعارف عليها في البحوث العلمية .وأنهيت هذه الدراسة بذكر الفهارس المختلفة: (الآيات،الأحاديث،الأعلام المترجم لهم، قائمة المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات).

سابعا:الصعوبات :

لا شك وأن أي عمل علمي يبدو واضحا وسهلا في البداية، لكن عند الخوض فيه تتشعب جوانبه، وتزدحم المعلومات المتوفرة حوله، لذلك تواجه الباحث مجموعة من الصعوبات تجعله يبدل جهدا لفرز هذه المادة حتى تنسجم مع الأبعاد التي تتطلبها الدراسة، ومن أهم الصعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة ما يأتي :

1-سعة موضوع القيم، وكثرة الآراء فيه، ومن ثم ليس من السهل انتقاء المناسب، والمفيد من هذه الآراء.

2-أن المذاهب الفكرية الغربية كثيرة جدا، وبصعوبة كبيرة تمكنت من تحديد النظريات والفلسفات التي ساهمت في التأسيس للفكر العلماني وكانت بصماتها بارزة في تشكيله، ومن ثم التعامل معها في تحليل الظاهرة ونقدها.

3- عدم توفر الفرص الكافية للاطلاع على ما يوجد في الجامعات وآخر الإصدارات بالمكتبات في الخارج، ومع ذلك فقد بدلت ما في وسعي وعلى حسابي، واستفدت من مكتبة الجامعة الأردنية، ومكتبة اليرموك، و المكتبة الوطنية بالمغرب، ومكتبة كلية الآداب بالرباط ،والمكتبة الوطنية بتونس ،ومركز الدراسات بالقيروان.

4-صعوبة إصدار المواقف والأحكام، وخاصة فيما يتعلق بظاهرة العلمنة في البلاد الإسلامية، حيث يراد المزج بمغالطة ماكرة بين المفاهيم المتناقضة، أحيانا جهلا، وأحيانا أخرى كيدا ومكرا كأن نجد من يدّعي أنه "علماني مسلم" أو العلمانيون من أهل السنة كما يشار إليهم في العراق الشقيق.

و أخيرا لا أخفي أني دخلت البحث بخلفية عقدية، إلا أن هذا لم يحل بيني وبين قدر من الحياد، لكن الذي هالني، وأنا أطالع الخطاب العلماني من أصول وفروع، مقارنة بما كتبه علماؤنا تبين لي الفرق الشاسع بين الفكر العلماني الشاذ المخالف للفطرة، وبين الفكر المهتدي بالوحي الإلهي الذي اختصر للإنسان طريق الهداية وأراحه من البحث في المجال الذي لا يقدر عليه ولم يكلّف به.

ثامنا : خطة الدراسة :

اقتضت معالجة هذه الدراسة وما تفرع عنها من تساؤلات ما يلي :

1-**مقدمة:**وقد بينت فيها طبيعة الموضوع، وأهميته، وأسباب اختياره، وأهداف هذه الدراسة وإشكاليتها، وأهم التساؤلات المتعلقة بها .

2-**الفصل التمهيدي:**وهو عبارة عن مدخل قمت فيه بضبط المصطلحات والمفاهيم وركزت على المصطلحات الواردة في عنوان الرسالة (منظومة القيم، الحياة الإنسانية،عقيدة التوحيد، العلمانية الشاملة.)

3-**الفصل الأول:**وفيه تفصيل للجوانب الأساسية في منظومة قيم عقيدة التوحيد.

4-**الفصل الثاني:**وعرضت فيه الأسس التاريخية والفلسفية للعلمانية الشاملة وآثارها في الحياة الغربية .

5-**الفصل الثالث:** وجعلته لبيان أسباب دخول العلمانية إلى البلاد الإسلامية،ومظاهرها وآثارها في حياة المسلمين، وما تمخض عن ذلك من أنواع العلمانية في البلاد الإسلامية. وقمت بالرد على المسوغات والشبهات التي يحاول أن يستند إليها العلمانيون في البلاد الإسلامية.

6-**الفصل الرابع:**وقد قمت فيه ببيان أن الجدل منهج أصيل في المنظومة الإسلامية، يستخدم للإقناع بقضاياه أو بدحض الأفكار والمغالطات التي يطرحها الفكر البشري على مر الزمن ،ومن ثم قمت بمناقشة الأسس التي بنيت عليها العلمانية الغربية وموازنتها بقيم الإسلام .وخلصت في النهاية إلى بيان موقف الإسلام من العلمانية سواء في صورتها الغربية أو ما حاول العلمانيون العرب تسويقه في البلاد الإسلامية.

7-**الفصل الخامس** : وحاولت فيه توضيح طبيعة العلاقة بين الحضارات، واجتهدت في صياغة بعض المشتركات الإنسانية التي تساعد على التعايش بين الحضارات على الرغم من اختلافها مستندا في ذلك إلى الرؤية القرآنية الداعية للجدال بالتي هي أحسن والمرغبة في التعارف الإنساني.

8-**الخاتمة** :وفيها خلصت إلى أهم النتائج والتوصيات التي تمخضت عنها الدراسة.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر الله سبحانه وتعالى أن منحني الصبر، وألهمني القوة، لأن أسطِّر فصول هذه الدراسة، وأخرجها على هذه الصورة التي أرجو أن أكون قد حققت فيها نصيبا محترما من البحث الموضوعي.

ثم لا أنسى كل من ساعدنني من قريب أو بعيد بمرجع أو مصدر، أو فكرة ،أو كلمة تشجيع، ومن تجشّم معي عناء هذا البحث، وأسأل الله تعالى أن لا يحرمنا أجر هذا العمل. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد.

الفصل التمهيدي

ضبط المفاهيم

وأتناول فيه ما يلي:

المبحث الأول : مفهوم المنظومة

المبحث الثاني : مفهوم القيم

المبحث الثالث : مفهوم الحياة الإنسانية

المبحث الرابع : مفهوم عقيدة التوحيد

المبحث الخامس : مفهوم العلمانية الشاملة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة :

تعرف الإنسانية في واقعها المعاصر قلقا مخيفا يزيد من اضطراب النفوس، وشقاء الإنسان وتهديد أمن المجتمعات، وذلك لما حدث في الحضارة المعاصرة من اتجاه تام نحو إشباع الحاجات المادية والمتع الجسدية، مما عمّق الشعور باليأس في الحياة وتفاهتها، وضعف الشعور بمسؤولية الخلافة، والوظيفة المنوطة بالإنسانية في مسارها الصحيح، وبخاصة بعد التحولات التي شهدها القرن العشرينالتي أدت إلى خلل كبير في الأطروحات الثقافية وعلى رأسها الأخلاق، والديمقراطية من حيث ارتباطها بالثقافات المختلفة، فتشكل تياران أساسيان :

1-تيار يدعم سيطرة الثقافة الغربية بكل أبعادهوله امتدادات تاريخية، ويزعم أنها الثقافة النهائية التي يتمحور حولها سير التاريخ، وعلى رأس هذا التيار الكاتب الأمريكي "فوكو ياما" في كتابه "نهاية التاريخ".

2-تيار ديني عالمي يريد العودة إلى الأصول والقيم الدينية، واعتبارها الكفيلة باسترجاع إنسانية الإنسان، وهو تيار كبير يرد الأزمة التي يعيشها العالم إلى إقصاء البعد الروحي و الأخلاقي من الحياة الإنسانية.

ولا يشك أحد أن "القيم " تمثّل حجر الزاوية في الحياة الإنسانية، وهي من المجالات الهامة في العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تُسلَّط عليها الأضواء في الدراسات الحديثة، وذلك بسبب المشاكل التي نتجت عن انفصال العلوم التجريبية عن القيمة، وما تولَّد عن الحضارة المادية المجردة عن القيم من معضلات في مختلف المجالات، فأصبح هناك أصوات عديدة تنادي بإعادة النظر الجاد في دراسة موضوع القيم، وبيان مكانتها في منظومة الحياة الإنسانية .

و إذا كانت الدراسات الفلسفية تجعل القيم من أهم مباحثها باعتبار أن القيم قضية محورية عند جميع الأمم – بغض النظر عن مضامينها- فإن الفلسفات الحديثة تقدم مقاربات ليس لدراسة موضوع القيم فحسب، بل لتحليلها وبيان أبعاد غيابها عن المنظومة الثقافية لأي أمة من الأمم،

ومن ثم وجوب إعادة النظر في العمل على إدماجها كمجال مهم وحيوي في الحياة الإنسانية، إذ تبيِّن العديد من الدراسات الاجتماعية في الغرب أن العودة إلى القيم من الضرورة بمكان، إن لم يكن اليوم فغدا ؛لأن بقاء الحياة الإنسانية مرهون بتمكين القيم من ضبط السلوك الإنساني.

ولعل دراسة موضوع القيم سواء من وجهة نظر الرؤية الإسلامية، أو من وجهة نظر الرؤية الوضعية العلمانية ــ وأيهما أقدر على صياغة منظومة قيمية تحفظ الحياة الإنسانية، و تلبي حاجاتها في جميع مجالاتها ــ من أهم القضايا التي تحتاج إلى تداول ومناقشة بين النخب العلمية للوقوف على الأسس المعرفية والمفاهيم المختلفة التي تطرح من وجهة نظر عقيدة التوحيد، أو من وجهة نظر العلمانية الشاملة . ومن هنا نسعى في هذا الفصل إلى بيان المفاهيم الكلية لكلا المنظومتين، حيث نعرض لمفهوم المنظومة، القيم، و الحياة الإنسانية، كمفاهيم عامة، ثم نتطرق لبيان مفهوم عقيدة التوحيد، والعلمانية الشاملة باعتبارهما مرجعية لهذه القيم وتلك، على أساس أن كلا منهما له إطاره المعرفي المختلف عن الآخر في مرجعيته .

فالإطار المعرفي لعقيدة التوحيد يتضمن الحديث عن المطلق ؛ لأنها مرتبطة بالوحي الإلهي، وهو ما يميّزها عن الإطار المعرفي للعلمانية الشاملة التي تتأسس عن النسبية وحكم العقل المادي، وإخضاع كل الظواهر للقياس، والمنفعة العاجلة، واستبعاد الدين عن منهج المعرفة، ونفي العلمية عنه، وجعله ذاته موضوعا من موضوعات الدراسة .

وإذا كانت قضية القيم قد طرحت في كتابات مختلفة فإن هذه المحاولة تكشف ما تطرحه عقيدة التوحيد من قيم شاملة، وتعطي رؤية كلية لمنظومة القيم الإسلامية المستوعبة لكل مجالات الحياة الإنسانية في توازن واعتدال، مراعية لفطرة الله في الخلق.

ولا بأس أن نذكر هنا أن التدافع القيمي بين الرؤية التوحيدية، والعلمانية الشاملة هو حول مضمون القضايا، ومحتوى المفاهيم، فلعلنا نجد كثيرا من التقاطعات في كثير من القضايا والعناوين والمصطلحات، إلا أن البون بين النظرتين شاسع في المضمون.

فلنأخذ مثلا :"قيمة الحرية" فكلا الاتجاهين يقدّس هذه القيمة ويعلي من شأنها، لكن المضمون مختلف اختلافا تاما، فالرؤية التوحيدية تؤمن بقيمة الحرية في إطار العبودية، ولا يمكن أن يكون الإنسان حرا، إلا إذا تحرر من جميع القيود إلا ما ألزمته به الشريعة الإلهية . بينما ترى العلمانية الشاملة أن الحرية تعني إطلاق العنان للإنسان ليرضي غرائزه بدون حدود ولا قيود، وأول ما يجب التحرر منه "الدين". ومن ثم أصبح من الأهمية بمكان دراسة هذين النظرتين بشمولهما لقضايا الحياة حتى يرفع اللبس، وتوضع الأمور في نصابها. ولبيان ذلك حاولت في هذا الفصل تناول المباحث الآتية :

المبحث الأول : مفهوم المنظومة

المطلب الأول : تعريف المنظومة:

أ . تعريفها لغة : من نظم : النون والظاء والميم أصل يدل على تأليف شيء وتأليفه، يقول المحقق هكذا ورد في هذه الكلمة ولعلها وتكثيفه [2].ونظمت الخرز نظما،والنظام الخيط يجمع الخرز .

والمنظومة : مشتقة من النظم وهو التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، ونظم اللؤلؤ تنظمه نظما ونظاما ونَظَمَهُ ألّفه، وجمعه في سلك فانتظم وتنظّم فقره[3].

وكل شيئ قَرَنْته بآخر، أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نَظَمْته . وتناظمت الصخور أي: تلاصقت .

ومن ذلك ما جاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية "النسق (النظام) النسق لغة : هو ما كان على نظام واحد في كل شيء، وكانت عناصره مترابطة متلازمة، بحيث تكوّن كلا عضويا واحدا.

---

[2] –أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر للطباعة والنشر د ط دت. ج5 ص443

2– الفيروز أبادي القاموس المحيط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1 2004 ص 1174/1173

فالمنظومة تتضمن معنى : التأليف، والتناسق، والاقتران والضم، والترتيب، والانسجام، والترابط، بحيث نجد أن الارتباط عضوي، ووظيفي بين أجزائها . ولهذا يمنح لفظ "المنظومة" معنى محددا للمصطلحات بحسب الإضافة فنقول : المنظومة الفلكية، أو المنظومة الصاروخية، أو المنظومة الإلكترونية، أو المنظومة القيمية .

وقد استخدمت لفظة المنظومة عند العرب للدلالة على الكلام الموزون الذي له قافية، وخالية معانيه من العواطف والمشاعر لجمع قواعد علم من العلوم، كما نلاحظ ذلك في منظومة الجزرية وغيرها .

كما يرتبط مفهوم المنظومة بطريقة التفكير، لتناول أي مجموعة من المركبات المرتبطة معا، مع المشاكل المتعلقة بها بصورة شاملة .

أي أن تكون هناك رؤية شاملة، ومتناسقة لعناصر المنظومة، لأن هناك علاقة تسلسلية قائمة بين جميع تلك العناصر التي لها ارتباط وظيفي فيما بينها .

ففي المنظومة لا يمكننا الحديث عن جانب من الجوانب، دون أن نجد صدى للجوانب الأخرى فيه، فالربط هنا يأخذ صفة الإلزام والضرورة حتى لا يقع التناقض في إطار المنظومة .

لذا فالنظرية العامة للمنظومة تتعامل مع المنظومة ككيان له هدف محدد مسبقا، كل عناصرها تخدم هذا الهدف، وبالتالي فالمنظومة تستمد وجودها من هذا الهدف .

ب . تعريف المنظومة اصطلاحا : جاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية :"المقصود بالنسق في الفلسفة والعلوم النظرية :"مجموعة من الأفكار العلمية أو الفلسفية المتآزرة والمترابطة يدعم بعضها بعضا، ومؤلفة لنظام عضوي متين "[4].

وبناء على هذا يمكننا صياغة وضبط مفهوم المنظومة بأنها :" نسق من العناصر المتآلفة والتي تعتمد في عملها على بعضها طبقا لتخطيط ورؤيا محددة تقود إلى أهداف محددة بعينها" .

[4]- جلال الدين سعيد :معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004ص 467

ولما كان هذا المصطلح شديد الارتباط بالقضايا الفلسفية، فذلك يقتضي أن التأمل الفلسفي يسعي إلى تأليف نسق متماسك، بحيث تعرض الأفكار بصورة شاملة وكلية، وأن الأفكار الجزئية المنعزلة لا تحرز على معنى إلا في إطار النسق الذي تندرج فيه.

وإذا كان هذا السياق النسقي يندرج بدوره في سياق نسقي أعم وأشمل، فإن الفكر يصبح أكثر دقة وصرامة، وموضوعية وكلية، لذلك نجد أن كل الفلسفات، أو المناهج الكبرى إنما هي أنساق، باعتبارها تشكّل وحدة مفاهيمية بين عناصرها[5].

المطلب الثاني : خصائص المنظومة

من خلال التعريف السابق يمكن أن نحدد خصائص المنظومة فيما يلي :

1-أنها مجموعة من العناصر المرتبطة وظيفيا .

1- أن للمنظومة هدف، أو أهداف معينة .

2- أنه لا تحمل المنظومة أي تناقض بين العناصر والأهداف .

3- أن عمل المنظومة قائم على منهجية وتخطيط وله رؤيا كلية .

و يمكن الإشارة هنا إلى أن مصطلح "المنظومة" غالبا ما يأتي مضافا إلى قضية تتسم في بنائها بالتناسق، والترابط بين عناصرها كقضية القيمة، فنقول منظومة القيم، كما في موضوع هذه الدراسة، فتكون بذلك دالة على أن هذه القضية عبارة عن كيان متلاحم وليس متجاور فحسب، بل مترابطا ترابطا عضويا لا يمكن فهم أحد أجزاء القضية بعيدا عن الأجزاء الأخرى .

غير أن هذا الترابط يمكن أن يتحول إلى منقصة إذا كان أصحاب المنظومة لا يملكون القدرة للتفاعل مععناصرها وتفعيلها. وهذا ما أشار إليه جلال الدين سعيد ولا حظه على الفكر النسقي عموما فقال: "مما يعاب على النسق، أو الفكر النسقي، أنه قد يبقى منغلقا على نفسه، فيصيبه

---

[5]- جلال الدين سعيد :معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 467.

الجمود، بل قد يقع في التعصب واللاتسامح "[6] . ولعل السبب في الجمود والتعصب واللاتسامح يعود إلى العجز عن القيام بأعباء المنظومة بكل عناصرها، والوفاء بكل متطلباتها، وكذا الخوف من الاختراق . ومن ثم يتعصب أصحاب هذا النسق وينكفئون على أنفسهم، اللهم إلا إذا كان هناك فكر واع يحسن ترتيب العناصر في هذه المنظومة حسب أهميتها، ويحسن عرضها، والتدرج في بلوغ كمالها، فتتمكن من الانفتاح وأخد مكانها في الحياة.

المبحث الثاني : مفهوم القيم

المطلب الأول : تعريف القيّم :

أ–تعريفها لغة : جمع قيمة والقيمة واحدة القيّم، وما له قيمة إذا لم يدم على شيء، واستقام اعتدل، وقوَّمْتُه السلعة واستقمته أي ثَمَنْتُهُ، وأقام بالمكان إقامة، وقامة دام [7].والقيمة من قام بمعنى وقف، واعتدل وانتصب، وبلغ المستوى .

قال ابن فارس : قَوَمَ القاف و الواو والميم أصلان صحيحان: يدل أحدهما على جماعة ناس قوم، وأقوام، وربما استعير في غيرهم .والآخر على انتصاب، أو عزم، قام قياما .

قال :ومن الباب قوّمت الشيء تقويما، وأصله أن تُقِيم هذا مكان ذاك .

ومنه هذا قوام الدين والحق : أي به يقوم، وأما القَوام فالطول الحسن .[8]

فالقيّم جمع قيمة، وقيمة الشيء ما يساويه ماديا، وقيمة البضاعة ثمنها. ومن هذا المعنى المادي انتقل لفظ القيمة للدلالة المجازية، فأصبح يدل على القيمة المعنوية لأي شيء، ثم اعتبرت القيمة معيارا لتقويم السلوك الإنساني والحكم على القضايا المعنوية .

---

[6]– ينظر أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ط1979م المجلد الخامس ص 43

[7]– الفيروز أبادي : القاموس المحيط ص 1162

[2]–ابن فارس: معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر للطباعة والنشر ج 5ص43

كما أننا إذا رجعنا إلى لفظ القيمة وجدناه يدل على ما يقوم به الشيء، ويتكوّن منه، ويستدل به على هيئته . فاللفظ اسم هيئة من قام يقوم، وأصله قَوْمَةٌ بالواو، سُكنت الواو وكُسر ما قبلها فقلبت ياء لمناسبة الكسرة، ومثله قوام الشيء أي : الصفات والخصائص التي يكون بها الشيء هو ذلك الشيء .

فلفظة القيّم تستخدم في الماديات وتعني تثمين الشيء، وبيان مقداره. وفي المعنويات تأتي دالة على الاستقامة، والعلو، والاستواء، والاعتدال، والتمييز . وكل هذه المعاني تصلح للتعبير عن القيّم، وهي من خصائصها كما سنبيّن لاحقا، ذلك أن هذه القيّم أغلى ما في الحياة ، وهي تثمنها، وتجعلها ذات قيمة، وفي استقامة، واعتدال، وتميّز الأمم بعضها عن بعض .

ويذكر ناصر الدين الأسد أن العرب لم يستعملوا هذه الكلمة في تراثهم، وإنما هي كلمة مرادفة وترجمة حرفية لكلمة value بالإنجليزية فيقول " لانعرف أن العرب استعملوا كلمة القيّم في تراثنا لامفردة، ولاجمعا بالمعنى الذي نستعملها له في عصرنا . وأحسبها ترجمة حرفية لكلمة value الإنجليزية، ولمقابلاتها في اللغات الأخرى الأوروبية . قد قالوا في الإنجليزية value system فقلنا نظام القيم، أو منظومة القيم" [9].

و يبدو أن العرب استخدموا لفظ الأخلاق، والمثل العليا، والعمل الصالح، والخير، والفضيلة، وغيرها للتعبير عن القيّم، فلم يستخدم هذا المصطلح في الفكر العربي والإسلامي بنفس المضمون الغربي . بالإضافة إلى ذلك هناك خلاف كبير في تعريف القيّم بين الفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء الاقتصاد، وكذا في المفهوم الديني، وهذا الاختلاف نابع من المرجعية التي ينطلق منها كل هؤلاء باعتبار أن القيمة هي نتاج تصور سابق، وثقافة مسيطرة كما يشير إلى ذلك مالك بن نبي " فكل

[9]- مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية: أزمة القيم ودور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر: مطبعة دار المعارف الجديدة الرباط سنة 2002 ص49

ثقافة تتضمن عنصر الجمال، وعنصر الحقيقة، غير أن عبقرية أحدهما تجعل محورها من الجمال، بينما تفضّل الأخرى أن يكون محورها الحقيقة "[10] .

وبالنظر إلى المعنى اللغوي للفظ القيمة: مستقيم، ثابت، عال، معتدل، حسن... وغيرها، نجد أنها تعبّر عن حقيقة وهي: أن الاستقامة لا تقتصر على الجانب الخلقي السلوكي سواء كان طبعا، أو اكتسابا . بل تتعداه إلى كل تصوّر، أو حكم، أو منهجية مستقيمة تكون خلاصتها سلوكا قويما يرشد الإنسان في جانب التصورات، أو المعاملات، أو العلاقات .

ب- تعريف القيم اصطلاحا

جاء في المعجم الفلسفي [11] أن كلمة القيمة (valeur) مرادفة للثمن، والفرق بينها وبين الثمن، أن الشيء الذي يقدّر كقيمة عِوَضِية في عقد البيع يسمى ثمنا، مثل الدراهم، والدنانير، وغيرها.في حين أن القيمة تطلق على كل ما هو جدير باهتمام الفرد، وعنايته لاعتبارات مختلفة :اقتصادية، أو سيكولوجية، أو اجتماعية، أو خلقية، أو جمالية[12].

ومن ذلك يخلص جميل صليباإلى التمييز بين القيم :

- من الناحية الذاتية فهي :"الصفة التي تجعل ذلك الشيء مطلوبا، ومرغوبا فيه عند شخص واحد، أو طائفة معينة من الأشخاص" [13] .

- أما من الناحية الموضوعية: فيطلق لفظ القيمة "على ما يتميّز به الشيء من صفات تجعله مستحقا للتقدير كثيرا، أو قليلا . فإن كان مستحقا للتقدير بذاته كالحق، والخير، والجمال، كانت

---

[10]- مالك بن نبي: شروط النهضة ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين دار الفكر دون ط ودون تاريخ ص102

[11]-ينظر جميل صليبا :المعجم الفلسفي دار الكتاب اللبناني ط..سنة 1982ج2ص212

[12]- جميل صليبا المرجع نفسه.

[13]- جميل صليبا : المرجع نفسه

قيمته مطلقة، وإن كان مستحقا للتقدير من أجل غرض معين كالوثائق التاريخية، والوسائل التعليمية كانت قيمته إضافية"[14].

وعلى هذا الأساس نجد أن العلماء فرقوا بين القيمة الذاتية للشيء والقيمة المضافة له :

– فالأولى :تنشأ عن العمل المبذول، وهذا الذي أشار إليه ابن خلدون قائلا:" إن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية "[15].

–والثانية: تنشأ مما يتبع ذلك العمل كما في قوله:"إلا أن العمل فيهما أكثر، فقيمته أكثر"[16]

صحيح أن لفظ القيمة اسم هيئة من قام الشيء بكذا يعني كان ثمنه المقابل كذا ؛لكنه استعمل بمعنى القدر والمنزلة، ومن هنا نشأ المعنى الفلسفي لهذه الكلمة . فهو انتقال من دلالة مادية في الحساب، وعلم الاقتصاد السياسي إلى دلالة معنوية على ما في الأشياء من خير، أو جمال، أو صواب :" والقيمة بوجه عام مجموعة الخصائص الثابتة للشيء التي يقدّر بها، ويرغب فيه من أجلها، ويتكوّن سلم القيم للأشياء من جهة تفاوتها فيما يقتضي لها التقدير، أو ما يبحث على الرغبة فيها، وقد يكون ثابتا للشيء باعتبار ذاته، أو باعتباره وسيلة لتحقيق معنى في غيره وهذا هو أساس الرغبة "[17].

والخلاصة أنه ليس من السهل وضع تعريف اصطلاحي للقيّم، وذلك للاختلاف الكبير بين العلماء، والفلاسفة، وعلماء الاجتماع، وعلماء الدين، والمفكرين. وهو راجع أساسا للمرجعية التي يتبناها كل فريق، هذا من جهة . ومن جهة أخرى لتعدّدها وتنوّعها وتفاوت مراتبها من ثقافة إلى أخرى، فهذه الكلمة يستعملها أصحاب الاختصاصات المختلفة فكل يقصد معنى يتناسب مع تخصصه .

---

[14]– ينظر جميل صليبا :المعجم الفلسفي ص 213

[15]–ابن خلدون :المقدمة دار الجيل بيروت دون ط ودون تاريخ ص421

[16]– ينظرالمرجع نفسه ص 423

[17]– فهمي محمد علوان :القيم الضرورية ومقاصد التشريع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة1989ص91

لذا لم تبق دلالة القيمة وقفا على الجانب الأخلاقي من النشاط القيمي الخصب والواسع . صحيح أن الناس ألفوا تناولها في الكلام عن الأفضل، والأحسن، والأجمل، والأكمل في بعض شؤون الحياة، لكن ما فتئت القيمة تكون شديدة الالتصاق بما يجب على الفرد، والجماعة، والأمة، والأمم أن تنهض به من فعال حميدة تساهم في إنماء الحضارة الإنسانية، وإنجاز أهدافها المثلى، وغاياتها النبيلة في كافة شؤون الحياة .

وإذا كانت القيمة تتنوّع وتتعدّد تعريفاتها تبعا للإطار المرجعي الذي يخضع له الباحث، فإنها تلتقي في نقطة جوهرية وهي : اعتبارها موجهات للسلوك، ومعنى ذلك أن مجموعة القيّم التي يتشبّع بها ويعتنقها شخص من الأشخاص هي التي تحركه نحو العمل، و تعتبر مرجعا للحكم على السلوك، والمواقف، والأشياء سواء كانت مرغوبا فيها، أو مرغوب عنها، وهذا التباين بين المجتمعات يصعِّب من إيجاد تعريف موحد لها، فالحرية الجنسية عند فرويد تعتبر سلوكا طبيعيا، بينما في المجتمع المسلم يعتبر هذا السلوك سلوكا مشينا يستوجب العقوبة.

ورغم ذلك التباين سنحاول اختيار بعض التعاريف التي تظهر أنها تعبر عن منظومة القيّم التي تجمع بين الجانب التصوري والسلوكي :

– فيعرفها عبد الكريم بكار بأنها :"منظومات المعايير وتشمل كل ما يتعلق بالقيم الدينية والأخلاقية والجمالية التي يستند إليها الناس داخل ثقافة معينة في الحكم على الأفعال والسلوك "[18]

– ويعرفها عبد الله الفيفي بقوله :"القيمة نموذج ذهني نسبي من المعتقدات والتصورات الإيجابية، والسلبية منسوجة حول شيء، أو معنى، أو نمط سلوكي يتحكم في نفوس الناس وطرائق تفكيرهم، وأحكامهم، واختياراتهم، ومواقفهم، وتصرفاتهم .وذلك بصفة مستمرة نسبيا وتترتب عليه نظرة المجتمع الايجابية، أو السلبية إلى أفراده، ومن ثم فإنه يسهم في تنظيم شبكة العلاقات الحيوية التي

[18]– عبد الكريم بكار :من أجل انطلاقة حضارية شاملة دار القلم دمشق الطبع 2سنة 2001 ص 114.

تحدد هوية الإنسان، ومعنى وجوده، وغاياته فيما بينه وبين نفسه، ثم بينه وبين الآخرين ، والمؤسسة، والواقع العام، مكانا وزمانا ."[19]

– ويعرف جابر قميحة القيم الإسلامية بأنها :" مجموع الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحي مع المجتمع، وعلى التوافق مع أعضائه،وعلى العمل من أجل النفس، و الأسرة، والعقيدة "[20].

وتعرفها فوزية دياب : " يمكننا أن ننظر للقيمة على أنها :الحكم الذي يصدره الإنسان على شيء ما، مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي وضعها المجتمع الذي يعيش فيه، والذي يحدد المرغوب فيه، والمرغوب عنه من السلوك "[21].

ويعطيها جان بول رزقبر مفهوما فلسفيا عاما فيقول :"القيمة بإيجاز هي الوجود من حيث كونه مرغوبا فيه، أو موضع رغبة ممكنة "[22].

ويقدم ماجد عرسان الكيلاني تعريف القيم في عرف علماء الاجتماع والتربية بأنها : " محكّات ومقاييس نحكم بها على الأفكار، والأشخاص، والأشياء، والأعمال، والموضوعات، والمواقف الفردية، والجماعية من حيث حسنها وقيمتها والرغبة فيها، أو من حيث سوؤها وعدم قيمتها وكراهيتها، أو في منزلة بين هذين الحدين"[23].

وخلاصة هذه التعاريف أن القيم هي: مانحكم بأنه من الواجب تحققه، وهي من الناحية الذاتية صفة في الأشياء قوامها أن تكون موضع تقدير كبير أو صغير . فمثلا نجد قيمة الحياة، الصدق،

---

[19]– عبد الله الفيفي : نقد القيم مؤسسة الانتشار العربي الطبعة 1 سنة 2006 ص 21

[20]– جابر قميحة : مدخل إلى القيم دار الكتاب المصري دون طبعة ودون تاريخ ص 41

[21]– فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية دار النهضة العربية بيروت سنة 1980ص 52

[22]–جان بول رزقبر فلسفة القيم عويدات للنشر والطباعة بيروت تعريب عادل العوا ط1سنة 2001ص6

[23]– ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية مؤسسة الريان لطباعة والنشر والتوزيع ط 1998 ص337

الحرية، قيم أخلاقية تواكب قيما أخرى هي القيم الجمالية كالحسن الرشاقة والأناقة، وقيما ثالثة هي: القيم المنطقية كالصواب والخطأ، وقيما أخرى اقتصادية، سياسية واجتماعية ..الخ .

ولا يمكن بأي حال استعراض تعريفات الفلاسفة للقيمة لكثرتها واختلاف أصحابها في التعبير عن مضمونها والدوافع التي ينطلق منها كل فيلسوف، و يرى بعضهم أن القيمة لا يمكن تعريفها رغم وجودها البارز في حياتنا، كما يشير إلى ذلك الربيع ميمون فيقول : "إن القيمة تظهر لنا من خلال ما عرضناه لها من خواص ذات وجود بارز يفرض علينا نفسه أكثر من وجود الأشياء التي تحيط بنا، ولكنها ليست مثلها، لأنها تمتنع علينا كلما دنونا منها، ولا تكشف لنا من نفسها إلا ما يزيدنا تعلقا بها واشتياقا إليها . ولذلك فإنه يجب علينا أن نتساءل عن نوع وجودها إذا كنا نريد أن نزداد فهما لها "[24].

ولا يخفى هنا أن هذه التعريفات جاءت متفاوتة في التعبير عن القيّم و مقتصرة على جانب من جوانب الحياة، أو شخصية الفرد، مما يجعلها قاصرة على وضع مفهوم يستوعب المضمون الواسع للقيمة، غير أن أغلبهم يجمعون على أهمية القيّم، ودورها الفعال في الحياة الإنسانية، وأثرها الكبير في تحقيق معاني الحياة المستقرة سواء على المستوى الفردي أو الاجتماعي .

وخلاصة القول أن التعريف الذي وقفت عليه و رأيت أنه الأوفق في التعبير عن معنى القيمة هو ما ذهب إليه محمد الكتاني حيث يعرّف القيمة بقوله :" أنها الوصف الذي يكتسيه الباعث على إنجاز فعل من الأفعال، بحيث يسد حاجات الإنسان الضرورية، أو الكمالية، أو من حيث يطلب كوسيلة لتحقيق غاية أخرى، أو من حيث يعد تحقيقه مطلوبا لذاته"[25] .

ويلاحظ أن هذا التعريف جاء شاملا لجميع جوانب القيمة، ولمس كل التقسيمات التي يدور حولها اجتهاد العلماء، من حيث طبيعتها، ووظيفتها، ومجالاتها، وأنواعها، وغايتها.

---

[24]- ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص35

[2525]-محمد الكتاني :منظومة القيم المرجعية في الإسلام الرابطة المحمدية للعلماء مركز الدراسات والأبحاث في القيم الرباط المغرب 2011 ص 15

المطلب الثاني : مفهوم القيم في الثقافة الإسلامية :

أيا كان زمن ظهور مصطلح القيم عند أفلاطون أو مع بداية القرن العشرين فإن مفهومه جديد بالنسبة لثقافتنا الإسلامية وإن كانت لفظة القيمة متداولة بين الألسن و في الكتابات دون ضبطها وتحديد معناها الاصطلاحي فنجد :

1-الاستعمال القرآني للجذر ق و م:

ورد الجذر (ق و م)في الاستعمال القرآني إحدى وستين وستمائة مرة "تدور معانيه كلها حول النهوض أو انتصاب القامة أو الاعتدال بمعانيه المادية والمعنوية .

أما لفظ "القيم" التي نص عليها القرآن الكريم في ثمانية مواطن خمسة منها معرفة وثلاث نكرة في قوله تعالى:﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾[26].

قال تعالى:﴿ **ما** تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[27]

قال تعالى :﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[28]

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾[29]

---

[26]-سورة التوبة :الآية 36

[27]-سورة يوسف: الآية 40

[28]- سورة الروم : الآية 30

[29]- سورة الروم: الآية 43

قال تعالى :﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾[30]

قال تعالى :﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[31]

قال تعالى :﴿قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾[32]

قال تعالى :﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[33]

قد جاءت كلها بمعنى واحد وهو الاستقامة والقدر والمنزلة كما جاءت دالة على الدين كله وما يتضمنه من مختلف القيم والعناصر التي تثمّن مجموعة من الفضائل في شتى مجالات الحياة كما وردت بصيغ أخرى ك"أقوم "و"قواما" كما في قوله تعالى:" إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً "[34] وقوله تعالى :" وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً "[35].

ففي سورة الإسراء جاءت بمعنى أعدل وأصوب، وفي سورة الفرقان جاءت بمعنى وسطا .فالمفردات كلها تحمل معان إيجابية تدل في مجموعها على استقامة الأمر، وأفضليته، وعظم منزلته وهو ما يتوافق مع رسالة الإسلام التي جاءت هادية إلى الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه .

---

[30]- سورة البينة : الآية 5

[31]-سورة الأنعام : الآية 161

[32]-سورة الكهف : الآية 2

[33]-سورة البينة : الآية 3

[34]-سورة الإسراء الآية: 9

[35] سورة الفرقان: الآية :67

1-في المعاجم القديمة : لم يتطرق علماؤنا القدامى للفظة القيمة بالمعنى المتداول اليوم وكانوا قد عبروا عن مضمونه بمصطلحات أخرى .

فنجد أن الخوارزمي صاحب كتاب مفاتيح العلوم يدخل علم الأخلاق ضمن علوم العجم في مقالته الثانية[36] ويعتبره بابا من أبواب الفلسفة، ولا وجود للقيم ضمن موسوعته العلمية . مع أن الخوارزمي في مقدمة كتابه " مفاتيح العلوم" قد ذكر لفظة "القيمة" مرتين، إلا أنه لم يصنفها داخل الكتاب ويبين معناها الاصطلاحي فهو يقول: "الحمد لله العلي العظيم القادر الحكيم الذي فضّل الإنسان على سائر الخلق، بما خصّه من مزية التمييز والنطق، وجعل مقادير عباده في الأخطار والقيّم، على حسب حظوظهم من العلوم والحكم، فمن كان قدحه فيها فائزا، ومصلحه بين أهلها بارزا، كان أغلاهم قيمة وأعلاهم همّة فتبارك الله أحسن الخالقين "[37].

أما التهانوي فلا يشير إلى علم اسمه القيّم ضمن كشافه [38]، لكنه يذكر "علم االأخلاق" ويدخله ضمن العلوم العربية، ويسميه أيضا "بعلم التصوف" ويجعله من أشرف العلوم، لأنه يسمى بعلم المعاملة والإخلاص في الطاعات، والتوجه إلى الله من جميع الجهات، ويسمى أيضا ب "علم الحكمة"، وبذلك نجد أن التهانوي يحدد " القيمة" من منطلق تعريفه للأدب والفضيلة، إذ يقول :" الأدب يطلق على العلم، والتهذيب وحميد الخصال وجميلها، والسداد، وحسن السيرة، وحسن الخلق، والرياضة المحمودة التي بها يخرج الإنسان إلى فضيلة من الفضائل "[39] ومن ثم فهو يلتقي مع الجرجاني في تعريفه للأدب حيث يقول :"الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ"[40] .

---

[36] – ينظر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي مفاتيح العلوم مطبعة بليدن ط1سنة 1930 ص 84/83

[37]–الخوارزمي :مفاتيح العلوم ص 2

[38]–محمد علي التهانوي :كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم مكتبة لبنان ناشرون تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم تحقيق غلي دحروج ط1 سنة 1996 م الجزء الأول ص43/42

[39]– المرجع نفسه ص 79

[40]– الجرجاني : التعريفات المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ط1 سنة 1306 ص7

في حين ابن النديم في كتابه الفهرست لم نجده يشير إلى "مصطلح القيم" ولا حتى "الفضائل" أو "الأخلاق".

2-مفهوم القيم عند الدارسين المسلمين:

أ-مفهوم الفلاسفة :

تركز اهتمام الفلاسفة المسلمين عند دراستهم للقيم والفضائل على علم الأخلاق، وذلك من منطلق تأثرهم بالفلسفة اليونانية ومن أهم الفلاسفة والأخلاقيين الذين تأثروا بالفكر اليوناني الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا وابن الطفيل والغزالي في بعض توجهاته، حتى جاء ابن مسكويه الذي حاول الاستقلال ببيان القيم والآداب الإسلامية في كتابه "تهذيب الأخلاق"، غير أنه لم يسلم هو الآخر من أنه تحيّز إلى التصنيف الذي وضعه أفلاطون للفضائل، ومع ذلك يبقى كتابه هذا من أهم الدراسات التي جعلت كثيرا من الدارسين القدامى والمحدثين، ينهجون نهجه في التأليف ويقتفون آثار المنهج القرآني وسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

ب-عند علماء التصوف:

كان علماء التصوف أكثر توفيقا من الفلاسفة في الاهتمام بقيم المنهج القرآني، فقد كانت بصماتهم واضحة في التعبير عن القيم الإسلامية أثناء تحليلهم لآثار العبادة وتبنيهم للسلوك الواجب أتباعه من قبل المريدين، فلا يكاد يخطئ من يقول إن فلسفة الأخلاق نشأت في ظل التصوف ونمت بجهود أهله، كما يشير إلى ذلك توفيق الطويل[41]، حيث أننا نجد أن أهل التصوف في دراستهم للفضائل والرذائل أو ما يسمى عند أكثرهم بالتخلية والتحلية دائما يربطون القيم والفضائل بما ينبغي أن يكون عليه سلوك المريد في طريقه إلى الله تعالى .

---

[41]- ينظر توفيق الطويل : فلسفة الأخلاق دار النهضة العربية ط2سنة 1968ص143.

فهذا عبد الله الحارث المحاسبي ركز في جلّ مؤلفاته على بيان ما يجب على المريد اتباعه كي يفلح في رعاية حقوق الله تعالى، مما جعل سماحة مفتي الديار المصرية الشيخ حسنين مخلوف يصف التصوف في تقديمه لرسالة المسترشدين بقوله :"التصوف الإسلامي تربية علمية وعملية للنفوس، وعلاج لأمراض القلوب وغرس للفضائل واقتلاع للرذائل وقمع للشهوات وتدريب على الصبر والرضا والطاعات"[42] ويتجلى ذلك في تحليلاته لبعض أمهات الأخلاق والفضائل، كذلك في تحليله لبعض الرذائل كالرياء والكبر والحسد حيث يعتبر منهجه في التحليل ذا فائدة طيبة لأي بحث أخلاقي .

أما رسالة أبي القاسم عبد الكريم القشيري فقد نهج فيها منهج المحاسبي في الفصل الثاني منها،والذي خصه بمجموعة من القيم والفضائل الإسلامية بلغ عددها تسعة وأربعين فضيلة ورذيلة وأدبا عاما، حيث قام بتحليل مجموعة القيم منها :كالتواضع والصبر والإخلاص والصدق مستندا في ذلك على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال المتصوفة الكبار، رغم أنه لم يصل إلى مستوى المحاسبي في الجانب التحليلي، إلا أنه كان أكثر غزارة منه في نقله لجزئيات الفضائل والرذائل معا كما يذكر أحمد الزباخ [43].

كما يعد أبو حامد الغزالي عَلَما من أعلام الفكر الصوفي ورائدا من رواده الكبار، وفي معظم كتبه يتناول الجوانب الأخلاقية وبخاصة في كتاب"الإحياء"و"ميزان العمل" إلا أنه يتهم بالتلفيقية في توجهه الأخلاقي حيث حاول التوفيق بين المنهج القرآني وتقسيمات أرسطو للنفس وتصنيفه لأمهات القيم[44]، ومع ذلك يبقى أبو حامد الغزالي مدرسة رائدة في التاريخ الأخلاقي للأمة الإسلامية.

ج–عند علماء الحديث:

---

[42]– عبد الله الحارث المحاسبي: رسالة المسترشدين تحقيق عبد الفتاح أبو غدة مطبعة دار السلام دون تحديد البلد ط5 سنة 1988م ص 8

[43]– ينظر أحمد الزباخ : المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية .ص 36

[44]–ينظر سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام دار المعارف القاهرة ط7سنة 1977 الجزء الأول ص165

تركز اهتمام علماء الحديث على القيم والفضائل والآداب العامة المتعلقة بالأخلاق الإسلامية ونلاحظ ذلك من خلال تبويب كتب الحديث المختلفة،إلا أنه يمكن اعتبار أهم عمل متميّز في هذا الباب ما قام به الإمام البخاري رحمه الله في كتابه "الأدب المفرد" حيث جمع فيه المادة الأخلاقية في ستمائة وأربعة وأربعين بابا من سنة النبي صلى الله عليه وسلم،لكنه لم يتطرق فيها للشرح والتحليل،بالإضافة إلى غيره مؤلفات الحديث التي لا تخلو من تبويب الجانب الأخلاقي فيها.

د–عند علماء الأصول:

على الرغم من أن علماء الأصول لا يهتمون بمعالجة الجزئيات الأخلاقية، إلا أنهم في تطرقهم لموضوع المصلحة والتكاليف الشرعية يشيرون إلى أن كل مأمور به أو منهي عنه يحقق المصلحة فهو مما ينبغي الالتزام به تحقيقا للمصلحة، وهم بهذا يبصّرون بجوانب القيم والآداب الأخلاقية من خلال تقرير القواعد الأصولية التي لا تنفك بحال عن أفعال المكلفين .

هـ–عند علماء الأخلاق :

إن الناظر إلى المؤلفات التي ألفت من قبل علماء الأخلاق يكتشف أن جل المؤلفات مست القيم من منظور إسلامي أصيل أساسه المنهج القرآني والسنة النبوية وتراث الأمة الإسلامية، مع تأثر بعضها بالفكر اليوناني وسأقدم نموذجين في ذلك :

أ–أبو الحسن الماوردي (364هـ–450هـ) صاحب كتاب" أدب الدنيا والدين "الذي أبرز فيه الفضائل والآداب الإسلامية الخالية من كل تأثير أجنبي، وقد تناول ذلك في الباب الرابع والخامس عند حديثه عن" أدب الدنيا والدين" و"أدب النفس" ويعد كتابه ذخيرة أخلاقية لا غنى لأي باحث عنها.

ب–ابن أبي الدنيا (208هـ 281هـ)وهو صاحب كتاب" مكارم الأخلاق" الذي عالج فيه الموضوعات الأخلاقية من خلال الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وأشعار العرب وحكمتهم، وعلى الرغم من صغر الموضوعات التي تناولها إلا أنها تعتبر آية في الإبداع الأخلاقي،

ونموذجا من النماذج العملية في إبراز القيمة الخلقية الإسلامية، فالحافظ ابن أبي الدنيا لم يتحدث عن قيمة من القيم إلا وعززها بنصوص قرآنية أو قصة من القصص سواء كانت للصحابة أو للتابعين، وهذا التنوع كان يثري المواضيع ويعززها .

3- في الدراسات الإسلامية الحديثة:

إن الناظر في المؤلفات الحديثة التي برزت في الساحة الثقافية المعاصرة والمرتبطة بموضوع الأخلاق يلاحظ أن هذه المؤلفاتفي الغالب استخدمت مصطلح الأخلاق للتعبير عن القيم وإن كان بعض منها استخدم مصطلح القيم، غير أن كل كاتب صنف أمهات القيم من وجهة نظره وسياق حديثه، فليس هناك لائحة مضبوطة لدى الدارسين .

فمعظم مفكري الإسلام جرت على ألسنتهم وأقلامهم لفظة الأخلاق أو الخلق وعندما يستخدمونها فهم يعنون المنظومة الأخلاقية بشموليتها أو ما يعبر عنه ب "القيم " ولا يقصدون القيم الخلقية التي تعبر عن صفات معينة فقط، وهذا لما ألفوه من الحديث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم [45]، بالإضافة إلى ذلك فالمعاني اللغوية الواردة جاءت معبرة عن حقيقة وهي أن لفظ "القيم "أو " القيمة " جاء مستغرقا للدين كله ولا يقتصر المعنى على الجانب الخلقي أو السلوكي سواء كان طبعا أو اكتسابا بل تتعداه إلى كل تصور أو حكم أو منهجية مستقيمة تكون خلاصتها سلوكا صائبا مستقيما معتدلا، يرشد الإنسان أو يصلح الحياة أو ينمي العلاقات أو يضبط المعاملات .

كما يمكن أن نلاحظ أن محتوى القيمة يعبر عنه في النصوص بالعمل الصالح أو الخير أو الحق وغالبا ما يكون فيه الربط بين التصور والعمل والجزاء أو المسؤولية . يقول ناصر الدين الأسد :" فلا نكاد نجد آية تذكر "الذين آمنوا " إلا وتقترن بها " عملوا الصالحات " والصالحات ليست بمحض خصائص نفسية ذاتية، وإنما هي سلوك اجتماعي عملي فهي مرتبطة بكلمة "عملوا".ومن ثم فإنها

[45]- ينظر مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية أزمة القيم ودور الأسرة في تطور المجتمع المعاصر ص49

ليست بمعنى التقوى والصلاح الشخصيين، وإنما بمعنى مقابل "الفساد" قال تعالى :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[46]﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾[47]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[48].

وذلك لأن الدعوة القرآنية يتكرر فيها الحث على تحويل الخُلق الشخصي إلى سلوك اجتماعي عملي .قال الله تعالى :" {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[49].

فالقيمة بهذا المعنى هي: مجموعة من المعايير التي تعمل على ضبط التصورات وتوجيه السلوكيات لممارسة جميع أنشطة الحياة بما يتوافق مع التكاليف الربانية والمثل الإنسانية.

وعلى هذا الأساس نجد أن علم القيم في الثقافة الإسلامية على مستوى المعاجم يعني تلك الفضائل والآداب المستخرجة من أخلاقيات القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وتراث الأمة الإسلامية والتي عبر عنها الدارسون المسلمون بمصطلحات مختلفة تارة باسم المبادئ أو الأسس، وتارة باسم المقومات أو الثوابت وتارة أخرى باسم الإسلام والعقيدة .وقد تباينت المصطلحات وإن كان في الغالب يستعملون مصطلح الخلق و الفضيلة والآداب العامة والذي يؤكد التأثير اليوناني الذي كان سائدا يومها في مثقفينا . والحقيقة فإن البحث في القيم هو البحث في الإسلام لأن الإسلام هو دين القيم الإنسانية النبيلة.

المطلب الثالث :مفهوم القيمة في الفكر الغربي :

---

[46]-سورة البقرة الآية :11

[47]-سورة البقرة الآية :205

[48]-سورة البقرة الآية : 30

[49]-سورة آل عمران الآية: 140

وإذا كان المعنى المعجمي للقيمة غير دقيق في اللغة العربية نظرا لتعدد معانيها فإنه كذلك في اللغات الأجنبية لم توضح بما فيه الكفاية، وأكبر دليل على ذلك ما نراه من انقسام بين العلماء الغربيين كما تذكر فوزية دياب [50] .فحينما يعرف كلا من "مور " moore و"لامونت" lamontالقيمة بأنها الخير أو الشر نجد "بير " bir يرى القيمة هي كل شيء خيرا كان أو شرا وإن لم يحددا المعنى الاصطلاحي لكل من الخير والشر .بينما يرى بريpery أن القيمة هي الاهتمام، في حين نجد ثوردنيك thorndik يجعل القيم تفضيلات، إلى غير ذلك من التحديدات الاصطلاحية .

كما نجد أن تعريف القيمة في الفلسفة الغربية تأخذ معاني وجوانب أخرى، سواء كانت عند "فرويد"[51] أو "سارتر"[52] أو "دوركهايم" أو "ماركس"[53] القائلين بنسبية القيم حيث اقتصر تعريفهم

---

[50]-ينظر فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية ص23

[51]- فرويد :هو سيغموند فرويد عاش مابين (1856-1939)من أبوين يهوديين نمساوي، مؤسس مدرسة التحليل النفسي، له عدة مؤلفات مترجمة إلى العربية منها : تفسير الأحلام، ثلاث رسائل في نظرية الجنس، مدخل إلى التحليل النفسي مافوق مذهب اللذة، حياتي، الذات والغرائز، القلق وغيرها، حاول فرويد تطبيق آرائه في تفسير نشأة المجتمع والدين والحضار وتطورا والعوامل الكامنة وراء كل ذلك، وآراؤه كلها تتمحور حول الحرية الفردية وإطلاق العنان للغرائز .

[52]- جون بول سارتر: (1905-1980) كاتب وفيلسوف وجودي فرنسي ملحد تتلمذ على يدي هايدغر الفيلسوف اليهودي الألماني كتب في الأدب والفلسفة بمنظور مادي إلحادي وجودي، وأحب الماركسية ودافع عنها على الرغم من انتقاده لبعض أفكارها، والوجودية التي دعا إليها في الحقيقة ليست مذهبا بل هي تمرد على المذاهب كما يزعم، مع أن الحقيقة أنها تمثل مذهبا تمرديا أنانيا يدعو إلى الحرية المطلقة للفرد ليحقق بها مايشاء، لذلك كان يجحد كل الأديان ويعتبره عوائق ضد حرية الإنسان ويعد التقدم والتطور في الإلحاد. ينظر معجم الفلاسفة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت لبنان ط3 سنة 2006 ص348

[53]-ماركس: (1818-1883) هو كارل ماركس مؤسس الشيوعية وهي مذهب اقتصادي سياسي،وهو فيلسوف ألماني ملحد وكان أسلافه لأبيه وأمه عدد كبير من الحاخاميين، يقوم مذهبه على المادية الجدلية والتاريخية، وتدور فكرتها حول إنكار وجود رب خالق مدبر للكون،والاعتقاد أن المادة هي كل الوجود وأن التطور هو نتاج لقانون جبري موجود في ذات المادة وهو صفة من صفاتها الذاتية .وتفسير حركتها تفسيرا ماديا بحتا ، وبناء على ذلك قام ماركس بتفسير التاريخ الإنساني تفسيرا ماديا وأخضعه لنظام المادية الجدلية . وقد جعل ماركس فلسفته ممارسة حياتية ففي الاقتصاد الاشتراكية العلمية، وهي المذهب الاقتصادي القائم على إلغاء الملكية الفردية وأن الدولة مالكة لكل شيء، وفي الجانب السياسي دعا إلى إقامة الدولة الشيوعية عن طريق الثورة الجارفة وفي المجتمع دعا إلى الحريات الشخصية شريطة أن لا تمس بالمبادئ الشيوعية ونظام حكمها وفي المجتمع،ودعا إلى أن تكون العلاقة الجنسية مشاعا، وفي الأخلاق نادى بهدم القيم والأخلاق التقليدية لتحل محلها البرامج الشيوعية التي تحقق قيام نظام إداري سياسي صارم. ينظر معجم الفلاسفة ص618

ومفهومهم للقيمة ومضمونها على جانب محدد هو" الدافع " لهذه القيمة كما يذكر الربيع ميمون حيث يقول :" ويظهر أن الفرويدية والسارترية والماركسية والدوركهايمية تعبر أحسن تعبير عن نسبية القيم في الفلسفات المعاصرة، وتمثل التيارات الفكرية التي تأثرت بها أو تقترب منها أحسن تمثيل "[54] و كما نجدها عند كانط أو نتشه أو برغسون أوماكس شيلر أو لويس لافيل سواء القائلين بالنسبية أو المطلقية، فإن تعريفاتهم جاءت تابعة لنظرياتهم .

ففرويد يعتبرها من إسقاطات الغريزة الجنسية، وماركس يردها إلى نتائج البنية الاقتصادية،ودوركهايم يراها من مقتضيات الوعي الجماعي، وسارتر يعدُّها من إبداع حرية الفرد المطلقة وهذا يعني أن لا وجود للقيم إلا من خلال المصدر الذي تنبثق منه. " والمراد به الإنسان في الفرويدية والسارترية، والمجتمع في الماركسية والدوركهايمية، فالفرد والمجتمع هما كل شيء بالنسبة إليها، ولولاهما ولولا مقتضياتهما لما كان لها أثر أو كان لها ذكر "[55] .

المبحث الثالث: مفهوم الحياة الإنسانية

إن اختلاف الرؤى الفلسفية لقضايا الوجود أمر مؤكد عند البشر، وهذا ينعكس بالضرورة على النظر إلى الحياة الإنسانية بكل مكوناتها وبجميع تفاصيلها ؛لأن ذلك نابع من تصور كل فلسفة أودين لطبيعة الإنسان، وحقيقة الحياة، ولا يخفى على كل دارس أهمية بيان مبحث القيم باعتباره نقطة ارتكاز لفهم حقيقة التنافر بين الأسس النظرية والفلسفية لكل من الرؤية الإسلامية التوحيدية، ومثيلاتها الغربية والتي تجسدت في العلمانية الشاملة .

فالمفاهيم التي تقررها عقيدة التوحيد في هذا الشأن قائمة على نص الوحي الإلهي، وهي في منطلقها من باب الإخبار والإعلام، بينما في الفلسفة الغربية تقوم معرفة هذه القضايا على العقل، مع استبعاد تام لأي مصدر آخر، وهنا يكمن التناقض الأساسي بين النظرتين لحقيقة الحياة

---

[54]–الربيع ميمون نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980 ص 145

[55]– المرجع نفسه ص35

الإنسانية، ولهذا الفارق في مصدرية القيم دلالة مهمة في فهم الأساس القيمي لكلا النظرتين، وانعكاساته على جميع مجالات الحياة الإنسانية .. فمن هو الإنسان؟ وما هي طبيعته؟ وما هي الحياة؟ وما حدودها؟ وما هي مجالاتها ؟ للإجابة عن هذا السؤال نؤكد أن "الحياة الإنسانية" لها بعدين يلخصهما هذين المفهومين "الإنسان" "والزمان" وهما المصطلحين اللذين سأتناولهما بالدراسة والبحث .

المطلب الأول : مفهوم الإنسان وطبيعته

مصطلح "الإنسان" من المصطلحات التي كثرت فيها النقاشات الفلسفية وتعددت حولها الآراء، وكل فريق يحاول أن يعطيه مفهوما على أساس البحث في أصله، وطبيعته ومكانته في هذا الوجود تبعا لفلسفة هذه الإيديولوجية أو تلك : "فقضية أصل الإنسان هي حجر الزاوية لكل أفكار العالم، فأي مناقشة تدور حول كيف ينبغي أن يحيا الإنسان تأخذنا إلى الوراء حيث مسألة أصل الإنسان، وفي ذلك تتناقض الإجابات التي يقدمها كل من الدين والعلم [56]، كما هو الشأن في كثير من القضايا "[57] .

فمن الثابت في تراث الإنسانية وثقافة الشعوب أن الاهتمام بالإنسان شكّل مجالا هاما لدى الكثيرين. فنجد كلا من علماء الاجتماع والنفس والأخلاق والفلسفة والفكر عكفوا على دراسات وافية متخصصة في جوانب الإنسان المختلفة وقد سارت هذه الدراسات في طريقين :

الطريق الأول: طريق الفلاسفة الذي يعتبر الإنسان حيوان ناطق، أو أنه حيوان اجتماعي وعرّفه أصحاب المادية التطورية بأنه حيوان راق، ويعنون بذلك ما يقوله داروين[58] من أن الفرق بين

---

[56]–الحقيقة أن العلم الحقيقي لا ينبغي أن يتناقض مع الدين، وإن كان هناك تناقض فلقصور العقل أمام الحقيقة الدينية، بحيث لم تتوفر له آليات البحث أو أنها قضية غير خاضعة لبحث المخابر، وذلك ليس لتقصير من الباحث ولكن لقصوره عن بلوغ الحقيقة، أو قد يكون لسوء فهم للنص الديني .

[57]– علي عزت بيقوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب.ص47.

[58]–داروين :هو ولد تشارلز داروين في انجلترا 1809 وتوفي 1882 م فهو من علماء القرن التاسع عشر الميلادي . بدأ دراسة الطب ولم يكمل مسيرته، وانتقل إلى دراسة اللاهوت، وكان شغوفا بالرحلات العلمية الاستكشافية وراء البحار، وتعلق بالبحث في

الإنسان والحيوان فرق بالكم والدرجة فقط، وهو التعريف الذي تبنته فيما بعد العلمانية الشاملة حيث فككت الإنسان وألغت شطره الأكبر وقصرت تعريفه على الجانب المادي الغريزي وأهملت جانبه الروحي وملكاته العقلية .

وأما الطريق الثاني: وهو الطريق الديني الذي يعتبر الإنسان مخلوقا ذو مكانة خاصة وإن كان رجال الدين والفكر المسيحي نظروا إليه وعرّفوه متلبسا بالخطيئة –خطيئة آدم– الواردة في كتابهم المقدس[59].

وجاء الإسلام وبين أن الإنسان يتمتع بمركز خاص في الكون من حيث أصل خلقته و مكانته قدراته وملكاته واستعداداته ومن حيث مسؤوليته عن عمله وبعبارة واحدة "التسامي بالنوع الإنساني حتى يكون أهلا لشرف التكليف بعبادة الله تعالى، ويقوم هذا التسامي على قاعدتين :

1–وحدة أصل الإنسان : قال تعالى:{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ }[60]

2–وحدة الغاية التي خلق من أجلها قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }[61].

وجدير بالذكر هنا أن نبيّن أن الإسلام يوضح بجلاء أن الغاية من خلق الإنسان هي الخلافة في الأرض وفق مراد الله تعالى، ولا يمكن للإنسان أن يحقق هذا المراد إلا بالقيام بشطري الخلافة وهما :

عالم الأحياء، وبعد ربع قرن من البحث ظهرت له فكرة تطور الأحياء بعضها من بعض من ظاهر التشابه بينها في التكوين الجسمي، ومن ظواهر أخرى، وكتب في ذلك كتابه المشهور "أصل الأنواع ".وصدرت الطبعة الأولى له سنة 1859 وأحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في الغرب لاشتماله على أفكار جديدة تخالف المعتقدات القديمة، ثم كتب كتابا آخر سماه" أصل الإنسان "ونشره سنة 1874 م وخصصه للتطور الإنساني

[59]– لا يخفى على أي دارس أن الكتاب المقدس قد امتدت إليه يد التحريف، ولم يعد معبِّرا عن حقيقة الوحي الإلهي، بسب تناقضاته الصارخة مع العلم وحقائق التاريخ.

[60]–سورة العلق الآية : 2

[61]–سورة البقرة الآية :30

العبادة والعمارة، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم، فقال الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[62] وقال الله تعالى :" هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ }[63] وبهما معا تتحقق العبودية لله تعالى، حيث تحدد فيهما طبيعة الإنسان من حيث المأتى، والرسالة، والمصير .فيوضح عبد المجيد النجار هذا المعنى بقوله :"فالإنسان ينتمي إلى الوجود العالمي، إلا أنه كائن متميز عن سائر الكائنات الأخرى وذلك سواء من حيث خلقه، أو من حيث منزلته في الكون، أو من حيث مهمته الوجودية، ولذلك فإنه حري بأن يخص من بين الموجودات الكونية ببيان عقائدي في نطاق المنظومة الوجودية كما شرحتها العقيدة الإسلامية "[64].

1-مفهوم الإنسان في عقيدة التوحيد :

يعبّر القرآن الكريم عن هذا المخلوق بعدة ألفاظ، حيث ورد لفظ "الإنسان"، كما ورد لفظ" الإنس"، وكذلك لفظ "البشر" ولا شك أن الاستخدامات القرآنية المتنوعة للألفاظ لها دلالتها الخاصة، فقد تلتقي هذه الألفاظ في المعنى العام، ولكنها تتميز عن بعضها حسب السياق، مما يجعل لكل لفظة مدلولها، فالإنسان في القرآن الكريم غير البشر، وغير الإنس، وهذا التمييز بين الألفاظ يفيدنا في تحديد المعنى الذي يتناسب مع المطلوب من هذا البحث.

فلفظ "البشر" ورد في خمسة وثلاثين موضعا من القرآن الكريم منها خمسة وعشرون موضعا في بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم و الأنبياء عليهم السلام، والسياق يبيّن بأن البشرية فيهم هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق وفيها يلتقي بنو آدم جميعا على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة، وبهذه الدلالة ورد لفظ البشر اسم جنس فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية[65] .

---

[62]-سورة الذاريات الآية: 56

[63]- سورة هود الآية: 61

[64]- عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا ط2سنة 1993ص52

[65]- انظر عائشة عبد الرحمن: القرآن وقضايا الإنسان دار العلم للملايين بيروت ط2 1975 ص15

أما لفظ "الإنس" فيأتي دائما مع الجن على وجه التقابل يطّرد ذلك ولا يتخلّف في كل الآيات التي ورد فيها ذكر الإنس، وعددها ثمانية عشر آية "فدلالة الإنسية هنا هي المتعيّنة بمقتضى استعمال القرآن الكريم للفظ الإنس دائما في مقابل الجن بما تعني من توحش وخفاء "[66].

وأما لفظ "الإنسان" فقد ورد خمسة وستين مرة وهو يلتقي مع الإنس في ملحظ مشترك من الدلالة اللغوية الأصلية للمادة على نقيض التوحش والخفاء، كما يلتقي مع البشر في ظواهره وأعراضه المادية، إلا أن مدلول اللفظة يتجاوز هذين الدلالتين إلى معنى أشمل وأعمق يعبّر عن هذا المخلوق بطبيعته، ووظائفه، ورسالته في هذا الوجود، تقول عائشة عبد الرحمن :" وأما الإنسان فليس مناط إنسانيته فيما نستقرئ من آيات البيان المعجز، مجرد كونه منتميا إلى فصيلة الإنس كما قال تعالى:{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ }[67].{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }[68] كما أنه ليس مجرد بشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق .

وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلى الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض، واحتمال تبعات التكليف وأمانة الإنسان، لأنه المختص بالعلم والبيان والعقل والتمييز، مع ما يلابس ذلك كله من تعرض للابتلاء بالخير والشر، وفتنة الغرور بما يحس من قوته وطاقته، وما يزدهيه من الشعور بقدرته ومكانته في الدرجات العليا من درجات التّطور ومراتب الكائنات [69].

ولا شك أن التدبّر في المواضع التي ورد فيها ذكر لفظ "الإنسان" يؤكد ما ذكرنا فنطمئن للدلالة المميزة للإنسانية، ففي سورة العلق، أول ما نزل من القرآن الكريم تتجلى الملامح العامة للإنسان وقد تكرر ذكره فيها ثلاث مرات:

- تلفت السورة إلى مادة خلقه

---

[66]- عائشة عبد الرحمن :القرآن وقضايا الإنسان دار المعارف القاهرة ص19

[67]-سورة الرحمن الآية: 14

[68]-سورة الحجر الآية: 26

[69]- ينظر عائشة عبد الرحمن :القرآن وقضايا الإنسان دار المعارف القاهرة ص19

-وتشير إلى قدراته واختصاصه بالعلم .

- كما تحذر مما يمكن أن يتورط فيه من الطغيان بسبب تماديه في الغرور ونسيانه لمادة خلقه وضعفه ومكانته. قال الله تعالى : " {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ .الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى }.

فمن حيث خلقه وتكوينه فقد كان للإنسان وجود في العلم الإلهي قبل أن يصبح له وجود عيني، ووجوده في علم الله كان يتضمن تفاصيل كيانه، كما كان يتضمن المهمة الموكلة إليه في هذا الكون، وإلى هذا تشير الآية الكريمة :{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }[70] .

وبهذا الاعتبار ندرك أن الإنسان سبقت ماهيته في العلم الإلهي وجوده العيني في الكون، فليس ذلك الوجود العيني إلا تحقيقا لتلك الماهية التي سبقت في علم الله، وهذا خلافا للفلسفات التي تقول بأسبقية الوجود على الماهية، بحيث يترتب عن ذلك ما يجعل الإنسان في حلّ من كل مهمة مسبقة أو علاقة بالله تعالى، كما يجعله سيد نفسه في رسم منهج الحياة بما يوحي له عقله، وينتج عن هذا التصور أن ليس للإنسان رسالة في هذه الحياة .

أما الوجود العيني للإنسان فقد كانت نقطة البداية بخلق آدم بالفعل المباشر على سبيل الطفرة الفجائية. قوله تعالى:{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ }[71] فوجود الإنسان لم يكن على سبيل الانقلاب التطوري الذي تقول به نظرية داروين، بأن الإنسان انحدر من سلالات حيوانية دنيا حتى وصل إلى صورته الراهنة . ويعلق عبد المجيد النجار على آيات خلق الإنسان بقوله : " ففي هذه الآيات سمِّي الإنسان في معرض الإخبار عن خلقه باسمه الوظيفي (الخليفة) وهو ما يقتضي

---

[70]-سورة البقرة الآية: 30

[71]-سورة ص الآية: 71

الاكتمال، وفيها التعبير بالتسوية، والنفخ في مقام التلاحق الزمني، الذي يضمّه نفس المشهد ابتداء بإخبار الملائكة بالخلق، وانتهاء بسجودهم .." [72].

فآدم هو أبو البشرية، ولا مجال هنا للجدل حول نظرية التطور وخلق آدم، فآدم في النص القرآني هو "الإنسان الأول" الذي بدأ منه طور البشرية من تراب أو من طين لازب، فشهد ذلك على أن مادة الإنسان ترابية، وهو مالا نزاع فيه. والقرآن يشير إلى أنه تعالى {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً}[73].

كما يلفت إلى مرحلة زمنية، لم يكن الإنسان فيها شيئا مذكورا[74] .قال الله تعالى: " {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً }[75].

وكل هذا تم في الملأ الأعلى حيث جرى الحوار حول طبيعة تكوينه، وطبيعة وظيفته التي كانت مثار تساؤل الملائكة كما أشارت إلى ذلك قصة آدم في سورة البقرة، وما ترتب عنها من تمرد إبليس.

2-طبيعة الإنسان:

تتميّز نظرة الإسلام لهذا الكائن ببيان طبيعتة المركبة من بعديه الرئيسين : الجسم والروح، وما ينتج عن امتزاجهما من أحوال وسلوكات، فالجسم هو هذا الهيكل المحس: أعني المركب المؤلّف من التراب الذي لا يتم أمره إلا بغيره، وهو من عالم الشهادة، ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن هناك كثيرا من التجارب العلمية . وبعد تحليل مكونات جسد الإنسان . تؤكد أن المعادن التي يحتوي عليها جسده، هي نفسها الموجودة في التربة . أما الروح فهو ذلك الجوهر الذي ليس من شأن الإنسان معرفة كنهه وهو من عالم الغيب .

---

[72] -عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي ولعقل المعهد العالمي للفكر الإسلامي فرجينيا ط2 1993 ص 53

[73]-سورة نوح الآية: 14

[74] انظر :عائشة عبد الرحمن: القرآن وقضايا الإنسان دار المعارف القاهرة ص31

[75]- سورة الإنسان الآية: 1

فطبيعة الإنسان مزيج من هذين العنصرين اللذين قررت الحكمة الإلهية أن يتشكل منهما هذا المخلوق العجيب، الذي تفرّد بعناية خاصة من الله في خلقه. هذه العناية الخاصة يشير إليها عبد المجيد النجار بقوله :" ومع هذا الاحتفال القرآني بخلق الإنسان من بين سائر المخلوقات، فإن هذا الخلق جاء متميّزا بخصوصية هامة، تمثلت في العناية الإلهية المباشرة به، حيث جاء كثير من نصوص القرآن والحديث تصوّر الخلق الإلهي للإنسان بصورة تبدو فيها العناية المخصوصة من الله تعالى بهذا المخلوق في مباشرة خلقه، وفي تصويره وتكوينه، حيث جاء كل ذلك على معنى من الحدب والإيثار والقربى، لا نجد له نظيرا في سائر المخلوقات "[76] .

وقد أكد القرآن الكريم هذا التكريم، وهذا التكوين المزدوج في أكثر من آية قال الله تعالى :{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ }[77]

وقال تعالى :{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }[78]

وقال تعالى : {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ }[79]

فهذه الآيات تبيّن أن الإنسان خلق من عنصرين مختلفين تآلفا بقدرة الله تعالى التي لا يحدها شيء،فإنشاءه سبحانه للمخلوقات يكون بكلمة كن فيكون، ويتجلى من خلال النصوص أن الإنسان مركب من عنصرين هما:

---

[76]- عبد المجيد النجار : قيمة الإنسان دار الزيتونة للنشر الرباط1 1996ص 13

[77]-سورة الحجر الآية: 29/28

[78]- سورة ص الآية :72

[79]- سورة السجدة الآية: 9/8

أ–المكوّن الأول : هو العنصر المادي المكوّن من المادة الأرضية (الطين) والاختلاف في وصف المادة بأنها تراب أو غيره في خلق آدم لا يغيّر من الحقيقة شيئا، إنما هو كما ذكر الرازي وغيره من المفسرين، قد يكون إشارة إلى الأطوار التي مرت بها المادة في تحولاتها قبل نفخ الروح [80].

ب– أما المكون الثاني: فهو العنصر الروحي الذي ظل مثار جدل عبر الأزمنة، وذلك لعجز الإنسان عن إدراك حقيقتها وطريقة عملها، مما دفع أصحاب النظريات المادية[81] إلى إنكارها، فجاء الإسلام وحسم موضوع البحث فيها، وأنه لا طائل من ورائه، فهي سر من أسرار القدرة الإلهية التي لا يبلغها علم مهما بلغ، لأن شأن الروح ليس من مباحث العقل، قال الله تعالى :{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }[82] .

وقد حاول الإمام الألوسي أن يضرب مثلا يقرّب فيه معنى الروح بالنسبة للجسم، ويبيّن أن المعوّل عليه عند المحققين قولان فقال : " الأول : إن الإنسان عبارة عن جسم نوراني علوي حي متحرك مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس سار فيه سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم لا يقبل التحلل والتبدل والتفرق والتمزق مفيد للجسم المحسوس الحياة وتوابعها مادام صالحا لقبول الفيض لعدم حدوث ما يمنع السريان كالأخلاط الغليظة ومتى حدث ذلك حصل الموت

---

[80]– فخر الدين الرازي: مفاتح الغيب المطبعة البهية المصرية القاهرة ج5 ص654

[81]– نعني بالمادية "تلك الفلسفة التي كان رائدها ديمقريطس الأبديري الفيلسوف اليوناني (460 ق.م –361 ق.م) وتلميذه أبيقور (341ق.م –270 ق.م) الذي تتلمذ على أفكار ديموقريطس وخاصة المذهب الذري . والأبيقوريون يهاجمون الدين ويعتبرونه الشر الذي ما بعده شر وينكرون ظاهرة العناية الإلهية التي هي إحدى أدلة المثبتين لوجود الله تعالى . وتقوم فلسفة ديموقريطس على أن الوجود واحد وهو ينقسم إلى عدد غير متناه من الوحدات غير المتجانسة وغير المدركة بالحس، والواحد منها هو الجوهر الفرد، وهذه الوحدات قديمة أزلية، وعنه أخذ الماديون المعاصرون فكرة أزلية المادة، وأن وجو الكون ثمرة حركة مادة الكون الأولى، ثم تتحرك بوجود آلية الحوكة الذاتية للوحدات غير المتجانسة التي يتألف منها الوجود وهذا الذي يعرف بالمذهب الذري، وخلاصته : أن كل شيء يترابط بفعل حتمية ميكانيكية ذاتية في المادة والأجسام تتولد من انصهارات الذرات وتختفي بانفصالها، وهذا نفي لكون الخلق محدث من عدم، وأن له خالقا مدبرا، ومن المعاصرين الذين تأثروا بأفكاره وأثنوا عليه "لينين ". ينظر معجم الفلاسفة ص 611

[82]–سورة الإسراء الآية: 85

لانقطاع السريان، ....الثاني : أنه ليس بجسم ولا جسماني وهو الروح، ولا بداخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف " [83].

وأيا كان التعريف الذي حاول المفسرون إعطاءه للروح فإن تعريفهم ظل وصفا لبعض مظاهرها، وإن الوقوف على حقيقتها ليس متيسرا للبشر، الأكيد أن هذه الروح هي لب الإنسان وجوهره وأن الجسم على أهميته يعد الغلاف لهذا الجوهر النفيس الذي يعبّر عن حقيقة الإنسان ويمنحه المنزلة والكرامة .

صحيح أن القرآن الكريم يدعو إلى النظر في موضوع بداية الخلق، و يدفع الإنسان للبحث والاكتشاف في موضوع بداية الخلق عامة .قال الله تعالى :{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[84] لكنه فيما يخص قضية خلق الإنسان فجاء النص صريحا ببيان أصل الإنسان، وبدايته، وحَسَم الموضوع ابتداء قال الله تعالى : {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ}[85]. والسبب يرجع إلى رحمة الله بهذا المخلوق، حتى لا يظل يخبط خبط عشواء، ثم لا يصل إلى شيء . وها هو حال الفلسفة الغربية نموذجا لذلك التخبط، فعقل الإنسان غير مؤهل لحمل ثقل الكشف عن ما جرى في علم الغيب.

فالبحث في أصل المخلوقات مطلوب، أما البحث في أصل الإنسان فلا معنى له ؛ لأن جميع تفاصيله نص عليها القرآن ودقّق في سرد التفاصيل حتى لا يترك بابا للتأويل حيث أبان أن الإنسان تشكَّل في أربع مراحل متباينة، الواحدة تلوى الأخرى.

الأولى : وتتمثل في التسوية المادية لهيكل الإنسان من التربة وما تلاها من تشكل في مراحل: الطين و الصلصال، و الحمأ المسنون، وهي مراحل مرت بها المادة الترابية .

---

[83]- محمود الألوسي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني دار الفكر بيروت ط سنة1997 المجلد 9 ص 224

[84]- سورة العنكبوت الآية: 20

[85]- سورة السجدة الآية : 7

الثانية : نفخ الروح .

الثالثة : تعليمه الأسماء كلها، أو تعليمه حقائق الوجود المرتبط بوظيفته .

الرابعة : عرض قدراته على الملائكة، ومطالبتهم الاعتراف بمكانته المتميّزة بين المخلوقات .

وهنا نسجل ملاحظة هامة جدا، وهي أن هذه العمليات كلها تمت في عالم الغيب لا كما يزعم الماديون على أنها تمت على هذه الأرض . قال الله تعالى :{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً }[86].

فالدين يتحدث عن أصل الإنسان كفعل إلهي يطلق عليه اسم "الخلق" بما تحمله هذه اللفظة من مدلول، وهذه العملية الخاصة بالإنسان كانت متميّزة، لها طبيعتها وأطوارها الخاصة، ومن هذه العملية المتميزة تشكلت مكانة الإنسان، وتحددت طرق تنشئته، وتربيته، ورسمت منهج التعامل معه في شتى مجالات حياته، والغاية التي يتحرك نحوها في هذه الحياة.

لقد تبيّن لنا من خلال هذا العرض أن مكانة الإنسان تشكلت بهذا الامتزاج بين المادة والروح، وإن كان لنفخ الروح الأهمية الكبرى التي نقلت هذا المخلوق من مجرد "بشر" يتضمن تكوينه عنصر الغريزة والشهوة، إلى إنسان يكون فيه للروح وظيفة عالية ترتبط أساسا بالإرادة الإلهية وغير منفصلة عنها في أي لحظة من اللحظات، بحيث صار البشر المتوحش- بحكم طبيعته الغريزية – الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء -لو بقي على هذه الحال- إنسانا يأنس بعضه بعضا فيفكّر ويطوّر حياته ويشيّد حضارته ويبني علاقاته[87].

فالملائكة ظنت أن البشر بهذه الصورة في الوجود الأول لا يصلحون للاستخلاف، حيث تسيّرهم الدوافع والغرائز الحسية، فكان منطقيا أن يؤول اجتماعهم إلى الفساد وسفك الدماء، لتعارض المصالح وتضاربها، فاستغربت من هذه المكانة الممنوحة لهم ؛ لأن الحياة من هذا القبيل، لا يمكن أن

---

[86]-سورة الكهف الآية :51

[87]- ينظر ماجد عرسان: الكيلاني فلسفة التربية الإسلامية مؤسسة الريان بيروت لبنان ط سنة 1998 ص432

تكون حياة بدون وازع أو ضمير أخلاقي لذلك قالوا:{ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ }[88]

أما بعد الوجود الثاني ونفخ الروح أدركت الحكمة الإلهية، وبان لها أن المكانة التي حضي الإنسان بها، فعلا تؤهله لأن يأنس ببني جنسه، ويتجاوب مع المخلوقات الأخرى، بعد تعلّمه لحقائق الوجود، فيعرف الحق، ويعشق الخير، ويتذوق الجمال فكان اعترافهم :{قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }[89].

وبهذا أصبح الإنسان كائنا أخلاقيا روحانيا يمكنه تجاوز المطالب البيولوجية، وقادرا على إشباعها بالكيفية السليمة :"وأن يتحرر إلى حد ما من هذه الحاجات العضوية و المطالب البيولوجية، ومن علاقاته بجسمه ومن ضغط المجتمع ليعيش حسب مقتضيات روحه متميزا بقدراته العقلية دون سائر الكائناتعلى التطلع إلى المستقبل من أجل مثل أعلى وغاية نبيلة أنبل مما كان في ماضيه ولا يكون بذلك مجرد انعكاس لما يجري في جسمه ولا مجرد صدى لما يجري في مجتمعه "[90].

3-ضعف الطبيعة الإنسانية :

صحيح أن الأصل في الطبيعة الإنسانية أنها مفطورة على العافية وميالة إلى الخير والحق والجمال والصواب، ولكنها في ذات الوقت رخوة ومتدبدبة بين الاستقامة على الفضائل والقيم، وبين الانحراف إلى نظائرها من الشر والباطل، والقبح والخطأ. وإلى هذا الضعف يشير قول الله تعالى:{يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً }[91].

---

[88]-سورة البقرة الآية : 30

[89]- سورة البقرة الآية : 32

[90] - صلاح الدين بيومي أرسلان: القيم الإسلامية بين الذاتية والموضوعية دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة سنة 1980 ص35.

[91]-سورة النساء الآية: 28

وقد تجسدت هذه الطبيعة في تاريخ الإنسان على الأرض، حيث يسجل الواقع الاجتماعي وعلم النفس الإنساني شواهد وبراهين لحالة الطبيعة الإنسانية التي انقسمت إلى طبيعتين اثنتين :

أ-طبيعة شريرة متوحشة:

وهي الطبيعة الشريرة التي استسلمت لوساوس الشياطين، وغرقت في الشهوات وكانت لها القابلية للمرض، وما يترتب عنه من فساد في الأرض . وهذه الطبيعة بدأت مع الإنسان من عصر الكهوف وما زالت مستمرة مع الإنسان إلى الوقت المعاصر، وتحدث هذه الحالة كلما كان تغليب للعنصر المادي الترابي على العنصر الروحي. أي : أن الإنسان عندما يقرّر التركيز على إشباع الحاجات المادية، يتضخم لديه النزوع إلى الشر والفساد، ويتمثل في نزعة الإنسان للقتل، وشهوة السيطرة، وتدمير البيئة التي يعيش فيها، واستغلال أخيه الإنسان، ويصل إلى درجة إلحاق الضرر بنفسه . قال الله تعالى{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ }[92].ويمكن أن يتجلى هذا بصورة واضحة فيما تخلفه الحروب من هياكل بشرية، ونفايات متنوعة، لما أنتجه الإنسان بحكمته وعقله، ثم دمره بطيشه وأنانيته.

ب-طبيعة خيّرة:

وهي التي تمثل حالة العافية للنفس الإنسانية، وما يترتب عنها من إنجازات، وهي – كما تعامل معها القرآن الكريم – تعبّر عن وجودها من خلال التفكر، وعمليات العقل المختلفة التي يستفيد فيها الإنسان من جهوده، ويضع المناهج التي تعينه على التفاعل الاجتماعي وضبط الأفعال والمواقف والاختيارات التي توجهها إرادة الخير وإرادة الحق [93] وهذه النفس هي التي قال عنها الله تعالى :{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا }[94]

---

[92]- سورة البقرة الآية: 205

[93] – ينظر ماجد عرسان الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية ص 436

[94]-سورة الشمس الآية : 10/9

فنجد أن هذه الطبيعة استمرت في الحياة الإنسانية عبر تاريخها الطويل مما حفظ له حضارته، وتجسّدها فضائل الإنسان المستمرة، والتي تشكل أحد مزايا الإنسان عن الحيوان . ومن هنا كان الإنسان كائنا أخلاقيا، تنعكس هذه الطبيعة على سلوكه، فينتج عنها أخلاق الإيثار والرحمة والمشاعر النبيلة اتجاه كل موقف في الحياة، مما يدفع الإنسان المتشبع بهذه الأخلاقية إلى المواساة والمشاركة لإغاثة كل ذي حاجة، بغض النظر عن معتقده ووطنه، يكفي أنه إنسان [95].لذلك يأتي الفعل "آنس " ليدل على روح الألفة والمؤدية إلى المؤانسة والتعاون والدفء المشار إليه في مختلف السياقات لهذه اللفظة .

وبناء على ما سبق نجد أن النفس الإنسانية تتقلب بين حالتي المرض والعافية، لذلك فإن القرآن الكريم سجل بعض المضاعفات التي تصيب النفس الإنسانية، وتجعلها في حالة من التوحش، وممارسة السلوك العدواني، والتعلق بالمادة، وهذا يتزامن مع تعطيل آليات الفهم عند الإنسان، أو استخدامها استخداما سيئا مخالفا لطبيعة تكوين الإنسان. ومن هذه المضاعفات ما يلي:

1-ميل الإنسان للطغيان والعدوان والظلم .قال الله تعالى:{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى }[96]

2-ميل الإنسان إلى كفران الحقيقة والتنكر لها . قال الله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ }[97]

3-ميل الإنسان إلى البخل والاحتكار والشح والأنانية .قال الله تعالى:{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً }[98]

---

[95]- ينظر ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص 440/439

[96]-سورة العلق الآية :6

[97]- سورة الحج الآية :66

[98]- سورة الإسراء الآية: 100

4-ميل الإنسان للبطر عند النعمة والقنوط عند فقدانها. قال الله تعالى {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ .وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ }[99].

5-ميل الإنسان للاستعجال والتطرف ومحاولة تسريع حركة الأحداث وتوجيهها بما يخالف السنن الإلهية التي ترشد إلى دفع الشر، وجلب الخير .قال الله تعالى :{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً }[100].

6-ضعف الإنسان عن تحمل المسؤولية وقابلية الوقوع في الخيانة . قال تعالى{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }[101].

7-قابلية الإنسان للقنوط المفضي إلى اليأس، والفشل، والاستسلام، والمواقف السلبية في الحياة.قال الله تعالى :{إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً }[102].

8- استعداد الإنسان للجدل والخصومة ولو أدت إلى النتائج السلبية . قال الله تعالى {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً }[103]

وبسبب هذه المضاعفات والمكابدة التي يعيشها الإنسان في حياته، رسم الوحي الإلهي عبر الأزمان "منظومة قيم" تستند إلى خبرة كاملة بتكوين الإنسان، وطبيعته، من أجل توفير الظروف للأخلاط الجسدية والنفسية المكونة لهذه الطبيعة من أن تتوازن وتبرز نماذج سلوكية متناسقة ونافعة للحياة و

---

[99]-سورة هود الآية: 10/9

[100]-سورة الإسراء الآية: 11

[101]-سورة الأحزاب الآية: 72

[102]- سورة المعا رج الآية: 9

[103]-سورة الكهف الآية: 54

الأحياء[104]. قال الله تعالى :{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }[105]

4-**أقسام النفس الإنسانية في القرآن الكريم**: ومن هنا يقسم القرآن الكريم النفس الإنسانية إلى ثلاثة أقسام :

أ-**النفس الأمارة بالسوء** :قال الله تعالى :{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[106] يقول ابن القيم:" وأما النفس الأمارة بالسوء فهي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها "[107] فالشر كامن في النفس، وهي مهيأة للوقوع فيه إذا توفرت دواعيه، فإن لم تؤخذ النفس بالتربية نزعت إلى فعل الشر، إذا لم يوجد فيها وازع من دين، أو ضمير، فالنفس إذا أثيرت فيها الطبائع السيئة تمردت على القيم الصالحة، وهي في الواقع تمثل التعبير الصادق عن الجانب المادي، الذي لم يجد من العناية والرعاية والتوجيه ما يردع جموحه، ويكبح غلواءه، وهذا الجانب هو الذي يجعل من الإنسان مخلوقا متوحشا يصدق فيه قول الملائكة :" يفسد فيها ويسفك الدماء " لأنه يصبح يتصرف من وحي النشاط الغريزي الذي لم يستخدم وفق مقتضيات الجانب الروحي[108]، ويمكن أن يتجلى سلوك النفس الأمارة بالسوء فيما يلي :

1. في غريزة الجنس :

وقد أبرز القرآن نموذجا لهذه النفس من خلال قصة يوسف عليه السلام، بحيث أن هذه الغريزة تستبد بالنفس، وتسيطر عليها، فتتحرك هائجة في اندفاع عنيف، ويجسدها الموقف الحي الذي

---

[104]-ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص339

[105]- سورة التين الآية:6/5/4

[106]- سورة يوسف الآية : 53

[107]- ابن القيم الجوزية : الروح دار الكتاب العربي ط2 1986 ص339

[108]- ينظر محمد التومي : نحو بسيكولوجية إسلامية شركة الشهاب الجزائر ص25

وقفته امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام، وهو نفس التصرف الذي تقفه كل امرأة لا تملك الروادع الذاتية في كل زمان ومكان .قال تعالى :{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ }[109]

وتابعت تبرير موقفها والإصرار على خطئها والاعتراف به :{قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ }[110] .

ويشتد الأمر أكثر عندما يبلغ الانحراف ذروته، كما نجد ذلك في سلوك قوم لوط عليه السلام {قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ }[111] فالقوم خرجوا عن قانون الفطرة وتحدّوا نبي الله ووعيده لأجل الوصول إلى إشباع هذه الغريزة وبطريقة شاذة لا تليق بكرامة الإنسان .

2-غريزة التسلط: بحيث يتحرك الإنسان لإشباع هذه الغريزة وإشفاء غليلها في غضبوانفعال دون حساب النتائج، ويتضح ذلك من خلال موقف قابيل الذي امتلأ صدره حقدا وحسدا على أخيه هابيل وارتكب جريمة القتل :{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[112] كما يتبيّن هذا السلوك الإجرامي للنفس الأمارة في موقف فرعون الذي بلغ به الطغيان حدا من التجبر قرر معه إبادة ذكور جنس بشري، من أجل ما وقع في ظنه، أن خطرا يهدده ويهدد ملكه .قال تعالى:{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ }[113]

---

[109]- سورة يوسف الآية : 23

[110]- سورة يوسف الآية : 32

[111]- سورة هود الآية: 79

[112]- سورة المائدة الآية :30

[113]- سورة القرة الآية :49

وهكذا لما تغلبت النفس الأمارة بالسوء – بما تتخذه من مبررات لفعلها –أعمت البصيرة وجعلت الجانب المادي المتمثل في مجموعة الشهوات والنوازع هدفا رئيسا تسعى لتحقيقه دون مراعاة أحكام أو هيبة قوانين واحترام عادات، وهي –لا شك– عبارة عن تغلب الفجور على التقوى [114].

ب––**النفس اللوامة**: قال الله تعالى:{وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ }[115] يقول ابن القيم:" فاختلف فيها. فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال واحدة أخذوا اللفظة من التلوّم وهو التردد فهي كثيرة التقلب والتلون " [116]، والنفس اللوامة هي الممثل الحقيقي للجانب الروحي في الإنسان مقابل الأمارة الممثلة للجانب المادي فيه، فالنفس الإنسانية لها جانبان : جانب الخير، وجانب الشر. قال الله تعالى :{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا .فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }[117]

ومن هنا ندرك أن النفس اللوامة عند يقظة الضمير، وتفعيل جانب الخير فيها تتوجه باللوم والعتاب لصاحبها، وتحرص على أن تجعل حاملها في مأمن من الاستمرار في السقوط والانحدار في درك الشهوات . ويمكن أن نلمس دور النفس اللوامة بعد حصول اليقظة فيما يلي :

–فهي التي دفعت امرأة العزيز إلى الاعتراف بما فعلت قائلة كما حكا عنها القرآن الكريم :{ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ }[118].

– وهي التي جعلت قابيل بعد قتله أخاه أن يكون كما وصفه القرآن الكريم :{ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ }[119].

---

[114]– ينظر محمد التومي :نحو بسيكولوجية إسلامية مرجع سابق ص30

[115]– سورة القيامة الآية :2

[116]– المرجع نفسه ص337

[117]–سورة الشمس الآية :8/7

[118]– سورة يوسف الآية :51

[119]– سورة المائدة الآية :31

-وهي التي جعلت إخوة يوسف بعد ارتكابهم المؤامرة وتشبثهم بموقفهم زمنا طويلا، وهم يغالطون أنفسهم إلى أن يقولوا لأخيهم :{قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ }[120]

ج-**النفس المطمئنة** :إذا ما تعهد الإنسان النفس اللوامة بالتزكية دوما، وحرص كل الحرص على تربيتها وتقويتها وترقيتها في سلم التهذيب، وتأهيلها لكبح ما يمكن كبحه من الشهوات، تكون بذلك في وقاية من وساوس النفس الأمارة، إلى الحد الذي تصبح فيه الأمارة ذليلة لا سلطان لها على الذات . وإذا بلغت اللوامة في كدحها أقصى ما تقتضيه التزكية وبلغت مرحلة عالية من السمو الروحي تجعلها تستحق لقب النفس المطمئنة وتنال كرم الله بالرضوان، لأن صاحبها جاهد في الله حق جهاده، وقاوم الأهواء بصبر ومصابرة، فكانت نفسه بذلك راضية عما فعلت، سعيدة بما حققت، مطمئنة بما ينتظرها عند بارئها قال تعالى:{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ .ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً }[121].

وهذه المراتب متفاوتة بحسب تشبُّعها من القيم الإيمانية والقيم الإنسانية في شتى المجالات، لذلك تظل النفس الإنسانية في حاجة مستمرة للتربية والتهذيب حتى تحافظ على إنسانية الإنسان، فالحياة الإنسانية لا يمكن أن تستمر إذا غلبت النفس الأمارة بالسوء، لأن غلبة الطبائع السيئة في الإنسان يعني تدميره لذاته وحضارته.

فهذه الغرائز بالرغم من أنها تعد المقومات الأساسية بالنسبة لوجود الذات، فهي في نفس الوقت تعد مصدر بلائها وشقائها، إذ أن الغرائز بحكم كونها حاجات تتطلب الإشباع، فكثيرا ما يندفع صاحبها تحت ضغط الحاجة ليرويها، وغالبا ما تعرض صاحبها إلى الصدمات بسبب ما يواجهها من إحباط، فغريزة الجنس أصيلة في الإنسان، ولكنها تجعله مستهدفا لعدة انفعالات يكون بها ضعيفا،

---

[120]- سورة يوسف الآية 91

[121]- سورة الفجر الآية :28/27

من حيث شدة تعلقه بها، وسهولة انقياده لإشباعها إذا وجدت عوامل الحصول عليها قال تعالى :{ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً }[122].

فهو ضعيف لعدم مواجهته الأحداث والعوائق بالقوة التي تقتضيها المواجهة وبالنحو الذي يضمن له السلامة مهما كانت نوعية العوائق، ففشل الإنسان في التعامل مع الغرائز يجعلها تتضخم نتيجة المغذيات الداخلية والخارجية فيصل إلى ما يعرف بالتمركز حول الذات إذا كان الأمر يتعلق بغريزة التسلط، ويتمركز حول الأنثى إذا كان يتعلق بغريزة الجنس .

من كل ذلك نستخلص أن القرآن الكريم وهو ينبِّه إلى ما يعتري الإنسان من متناقضات بحكم مقوماته الفطرية، لم يكن يقصد إيجاد الأعذار والمسوغات والتبريرات، وإنما يقصد وضع الإنسان أمام ضرورة البحث عما يجعله في وقاية تحفظه من الهلع والجزع والطغيان ليحيا الحياة السعيدة النظيفة، وليستطيع أن يوجّه الحياة الإنسانية وحضارتها التوجيه السليم الذي يجعل من المكتسبات الحضارية أداة إسعاد وسلم واستقرار [123].

وتعتبر منظومة القيم القرآنية وسيلة الوقاية من سيطرة الغرائز من خلال توجيهها وتنظيمها في الإطار الفطري لها، وهي أسلوب علاجي فعّال يخالف منطق الفلسفات المادية التي ترمي إلى تجريد الإنسان من كل القيم، وتتجه إلى إبراز الجانب الحيواني فيه، معتبرة أن الأخلاق والقيم الدينية من مختلقات البشر. قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }[124]

المطلب الثاني : مفهوم الإنسانية :

---

[122]- سورة النساء الآية: 28

[123]- ينظر محمد التو مي: نحو بسيكولوجية إسلامية مرجع سابق ص33 /34

[124]- سورة الأنفال الآية: 24

مصطلح الإنسانية مصطلح رائج الاستخدام في ميدان العلوم الإنسانية عموما، وفي ميدان علم الاجتماع والسياسة، وفي ميدان الفلسفة، والثقافة، والإعلام. ومن هنا فهي لفظة مرنة ذات مدلولات واسعة. وترجع أهمية هذا المصطلح لكونه يرتبط بقضية وجودية لقيت اهتماما كبيرا في الخطاب المعاصر، ولها أبعادها المتعددة المتعلقة بالإنسان وحضارته، فما المقصود بالإنسانية ؟

يذهب عبد الرحمن بن زيد الزنيدي إلى أن أهم ما في الحديث عن مصطلح"الإنسانية"مسألتين هما[125] :

1-الإنسانية بصفتها "هوية: والهوية هي حقيقة الشيء، التي تميّزه عن غيره، ويتشكل بواسطتها وجوده الخاص ": أي نزعة ذاتية لدى الإنسان، وبالتالي لدى الناس في تحقيق وجودهم الإنساني.

2- الإنسانية بصفتها عناصر مشتركة بين بني البشر : أي بصفتها دعوة إلى العالمية، وهذه اللفظة حديثة الاستعمال وهي لفظة مؤنثة للإنسان، ويعزو بعض الكتاب أن بطرس البستاني هو أول من اشتق من مصدر إنسان مصدرا صناعيا ذكره في معجمه (محيط المحيط) قائلا :الإنسانية ما اختص به الإنسان من المحامد كالحنو والجودة وكرم الأخلاق [126].

أ-مفهوم الإنسانية في الثقافة الغربية:

ولئن كان هذا المصطلح متداولا في الفكر المعاصر، وبالذات في الثقافة الأوروبية كرد فعل لوضعيات تراجعت فيها قيمة الإنسان، حيث ضخمت الكنيسة جانب الروح على حساب الحاجات العضوية الضرورية للإنسان، وراحت تصوّر الدين على أنه ضد الإنسان. وقد وصف علي عزت بيقوفيتش هذه الوضعية بقوله: " انظر ماذا يفعل الحيوان وافعل عكسه، إنه يفترس فيجب أن تصوم، إنه يتسافد فيجب أن تتعفف، إنه يعيش في قطيع، فحاول أن تعيش منفردا، إنه يسعى إلى اللذة ويهرب

---

[125]- عبد الرحمن بن زيد الزنيدي : السلفية وقضايا العصر مركز الدراسات والإعلام دار اشبيليا ط1 سنة 1998ص561

[126]- ينظر عبد الله حلاق: إنسان وإنسانية وإنسانيون مجلة العربي جمادى الآخرة 1402هـ نقلا عن السلفية وقضايا العصر مركز الدراسات والإعلام دار اشبيليا ط1 سنة 1998 ص563

من الألم، فعليك أن تعرض نفسك للمصاعب، باختصار الحيوانات تعيش بأجسامها فعليك أن تعيش بروحك"[127].

وبهذا حاصرت الكنيسة كل ما من شأنه أن يحقق إنسانية الإنسان في الجوانب المادية والمعرفية، لكن رد الفعل على الكنيسة أتى بتطرف آخر أخطأت غايتها، فاتجهت أوروبا نحو العلمانية حيث عادت الدين، وألغت القيم من منظومتها، فحاول بعض المفكرين تسديدها مثل "أوجست كونت" في القرن التاسع عشر، وهو رائد الوضعية[128]فاستحدث دينا سماه "الإنسانية".غير أن اندفاع الثقافة الغربية في مجراها الذي اتجهت فيه إلى الهروب من الدين والجوانب الروحية والخلقية، ظل يتصاعد مما جعل مشكلات الإنسان، ومن ثم الحضارة تتعقد وتتزايد وتتضخم وأصبحت الحضارة المعاصرة تشكل خطرا على إنسانية الإنسان المخلوق الخيّر الطيّب الكريم،والحر.

لذلك نجد صيحات من الأوروبيين الذين لم تمسخ إنسانيتهم من مفكرين وفلاسفة وعلماء وساسة أو من أهل الأدب والفن أيقنوا أن هذه الحضارة التي صنعت بتوجيه من الفكر العلماني الإلحادي تسوق الإنسان إلى الهاوية وتهدد إنسانيته، وهي لا تختلف عن الفرعونية التي انتهكت من قبل إنسانية الإنسان، حيث سعى فرعون لتحقيق لذاته على حساب المعذبين من شعبه، فأبان الله تعالى عن انتهاكات فرعون لإنسانية الإنسان فقال: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى }[129].

فالآية تبين أن فرعون كان يعذّب بني إسرائيل ويمارس الاستبداد السياسي والتمييز العنصري والاستغلال الاقتصادي، فكان يستعملهم في الأشغال الشاقة التي تهدر معها إنسانيتهم، وتزول

---

[127]– علي عزت بيقوفيتش : الإسلام بين الشرق والغرب ترجمة محمد يوسف عدس مؤسسة باقاريا ط2 1997ص81

[128]–الوضعية :المذهب الوضعي أسسه الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت، ومذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيما تلك التي يتيحها العلم التجريبي .وينطوي المذهب على إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية ولا سيما بما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها .ينظرمعجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 487 والموسوعة المختصرة ص 430

[129]–سورة طه الآية: 47

الكرامة، وتفقد الحرية. فالعمل في أصله عقد رضا بين طرفين، لكن فرعون استعمله عقد استعباد فكان يستعملهم بالقوة ويكلفهم مالا طاقة لهم به، والتاريخ يسجل أن ما صنع الفراعنة في بناء الأهرامات لم يبلغوه إلا على جثث الملايين . ولم يكن هناك اعتبار لأي معنى إنساني في سبيل تحقيق مجد زائف، وهذا منطق الماديين والاستبداديين أو عبّاد الدنيا في كل زمان ومكان.

والخلاصة أن النزعة الإنسانية في الفلسفات الغربية انتهت بإحلال مركزية المنفعة [130]والسلعة محل الإنسان، وهذا ما ذهب إليه المسيري حيث يقول :"تم إزاحة الإنسان عن المركز لتحل محله مجموعة من المطلقات أو الثوابت المادية مثل : المنفعة المادية، التقدم، معدلات الإنتاج، قوانين الحركة، اللذة الجنسية، السوق الذي لا يكترث بالفرد ولا بالإنسان ولا بالخصوصيات ولا بالغائيات أو القيم الإنسانية، فهو يتجاوز الإنسان ولا يتجاوزه الإنسان، أي تراجع الجوهر الإنساني لصالح شيء غير إنساني"[131].

وإذا كانت المادية الجائرة التي بلغ أحد فلاسفتها في ماديته مبلغا عظيما حين صرح بقوله :"إذا أردت أن تظل علمي المنهج، فلا بد لك أن تصف سلوك الإنسان بعبارات لا تختلف عن تلك التي تستخدمها في وصفك لسلوك الثور الذي تنحره"[132]فقد ظهر في أوروبا نزعة إنسانية أخرىترد على هذا التطرف المادي تجلى ذلك في الفلسفة الشخصانية [133] .

---

[130]–المنفعة : مذهب أخلاقي اجتماعي لا ديني، حصر اهتمامه تحقي ملذات الحياة الدنيا و يجعل من نفع الفرد والمجتمع مقياسا للسلوك، وأن الخير الأسمى هو تحقيق أكبر سعادة لأكبر عدد من الناس . وفي مجال الاقتصاد يقرر مذهب المنفعة أن قيمة السلعة تتوقف على قدر منفعتها وليس على لعمل والتكلفة ومن أبرز شخصياته :جيرمي بنتام وجون ستيوارت مل، وهربرت سبنسر . الموسوعة الميسرة ص 808

[131]– عبد الوهاب المسيري :الحداثة وما بعد الحداثة دار الفكر المعاصر بيروت ط1 سنة 2003ص14

[132]–نقلا عن عبد الرحمن بن زيد الزنيدي : السلفية وقضايا العصر ص 573

[133]– الشخصانية personalism تيّار فلسفي مثالي انتشر في الفلسفتين الأمريكية والفرنسية في بداية القرن العشرين. ويعبر جوهره عن مذهب أخلاقي واجتماعي مبني على القول: إن للشخص الإنساني قيمة مطلقة، من حيث اتصافه بصفات تمكّنه من المشاركة العقلية والوجدانية في العلاقات الإنسانية، وتهدف إلى تحقيق وجوده كفرد. والشخصانية بهذا المعنى هي دراسة تأريخية واجتماعية للفرد وهو يتطور من شخصية إلى أخرى، مع الأخذ بعين الاعتبار ما يتحلى به الفرد من أصالة في التفكير، وإبداع في التخيل، ودقة في الشعور، وقوة في التعبير، أي جميع الصفات التي تميز أسلوبه الشخصي، رأيه وهويته التي تميزه من غيره.

بالإضافة إلى ذلك ظهرت فلسفة علم النفس الإنساني[134]، وهذان النموذجان للنزعة الإنسانية في هذا القرن حاولا صياغة رؤية تسترجع بها قيمة الإنسان التي تدهورت في ظل الفكر العلماني المادي، إلا أنها بفقدان المنهج الذي يرشدها إلى التصوّر السليم وقعت في تطرف آخر، وظلت في حلولها لمشكلة الإنسان بعيدة عن الاهتمام الشمولي والمتوازن في فهم طبيعة الإنسان وفي التعامل مع قضاياه.

ب– مفهوم الإنسانية في الثقافة المعاصرة :

ولا ريب أن مضمون هذا المصطلح عند المعاصرين من العقلاء يراد باستعماله محاولة إنقاذ الإنسان من الضغوط الفكرية والاجتماعية والمادية والحضارية عموما التي فقد الإنسان بسببها إنسانيته أو كاد، ومن هؤلاء العقلاء "ألبرت أشقيتسر" الذي يصف حال الحضارة المعاصرة ويحلل أسباب انهيارها فيقول :"نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة .هذا الوضع ليس نتيجة الحرب ؛إنما الحرب مظهر من مظاهره. ولقد تجمد الجو الروحي في وقائع فعلية ينعكس أثرها عليها انعكاسا له نتائج مدمرة من كل ناحية.....لقد انحرفنا عن مجرى الحضارة، لأننا لم نقم بالتفكير الجدي في معنى الحضارة "[135].

لذلك فإن هذا الفريق من الحكماء لا يدعو إلى إجراء تعديلات على الحضارة فحسب، بل يؤكد

على ضرورة قلب الحضارة، وضرورة ظهور فكرة أخرى لمفهوم التقدم الحضاري،التي تنقد الإنسانية من حالة الحروب الدائمة، والتي تعبّر بحق عن ماهية الإنسان بكونه كائنا معقد التركيب، إلا أنه يتميّز عن باقي الموجودات بأنه أرقى هذه الموجودات بما يملك من جوانب مادية وجوانب معنوية

---

[134]– فلسفة علم النفس الإنساني: كانت هذه الفلسفة رد فعل على الفلسفة الفرويدية التي تنظر إلى الإنسان بصفته مجرد كائن مادي تتحكم فيه الغريزة، ومنطلق هذه الفلسفة أن الإنسان قوة واعية، فالعقل والوعي والإدراك هو جوهر علم النفس الإنساني .ومن ثم فالطريق لاسترجاع مكانة الإنسان هو التحرر من التصورات البالية للإنسان.

[135]– ألبرت أشقيتسر : فلسفة الحضارة ترجمة عبد الرحمن بدوي ومراجعة زكي نجيب محمود المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر 1963 ص 11

تعطيه مكانة خاصة في الكون، وبما يملك من قوى روحية، وقدرة على الإبداع، وقدرة على اكتساب القيّم والأخلاق والسمو، تمكّنه من تأسيس حضارة نظيفة يقول "ألبرت أشقيتسر": "والمأساة حقا هي أن علينا أن ننتسب إلى الدولة الحديثة المفتقرة إلى الصحة والعطف،بينما تعتمل فينا إرادة تحويلها إلى دولة متحضرة .الأمر الذي يتطلب منا إيمانا مستحيلا بقوة الروح ...وهي لن تراجع نفسها إلا إذا اتخذت الغالبية من مواطنيها موقفا نقديا منها "[136].

كما يرى أبو حيان التوحيدي أن "الإنسانية أفق والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ودائر على مركزه إلا أنه مرموق بطبيعته، ملحوظ بأخلاق بهيمية، ومن وقع عصاه عن نفسه، وألقى حبله، وسيّب هواه في مرعاه، ولم يضبط نفسه عمّا تدعو إليه بطبعه، وكان ليّن العريكة لاتباع الشهوات الردية، فقد خرج عن أفقه وصار إلى أرذل من البهيمة لسوء إيثاره" [137].

غير أن ما فيه من طبائع حيوانية تشدّه عن هذا الأفق وتهبط به إلى الأخلاق البهيمية .وعليه فالإنسانية قيمة مثالية، توازن بين مكونات الإنسان، حيث يتجه الإنسان إلى التحقق بها ليكون إنسانا بالمعاني الروحية، دون إغفال الجوانب المادية .

ج–مفهوم الإنسانية في الثقافة الإسلامية :

تؤكد الثقافة الإسلامية أن الإنسانية هي هوية الجنس البشري كله، هذا انطلاقا من مفهومالإنسان بأنه ذلك : المخلوق، المكرم، المكلف، المسؤول، فأساسها أنها موجودة في كل إنسان بالقوة باعتبارها صفة فطرية.

و هنا يجدر بنا التأكيد على أن الإنسانية المقصودة في هذا البحث هي الإنسانية التي تعترف بالإنسان كله مادة وروحا، والتي تقررت بحكم الفطرة، وتأكدت في كل التعاليم الإلهية، حيث جاءت كل الأديان الإلهية لتسترجع إنسانية الإنسان التي سلبها الإنسان من أخيه الإنسان، باعتبارها هوية

---

[136]–ألبرت أشقيتسر : فلسفة الحضارة ص417

[137]– جلال الدين سعيد معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004 ص64.

كل البشر، وتدعّمت اليوم بما تقرر في ميثاق حقوق الإنسان كأرقى ميثاق بلغته الإنسانية من الناحية النظرية .وقد أشار علي عزت بيقوفيتش إلى معنى دقيق يوضح اللفظة، ويؤكد به المعنى الإنساني الذي أشرت إليه فيقول :"لنتذكر أن كلمة "إنسان " لها في عقولنا معنى مزدوج، فنقول :"نحن أناس" بمعنى أننا مذنبون ضعفاء .ونقول "لنكن أناسا " للتذكير بأننا كائنات أعلى وأن علينا التزامات أعلى ...فالمصطلحان "المذهب الإنساني " و"الإنسانية " كلاهما مشتق من كلمة إنسان، وينطويان على دلالة أخلاقية سامية.والمعنى المزدوج للأفكار المتعلقة باسم الإنسان هو نتيجة ازدواجية الطبيعة الإنسانية، جاء أحد جانبيها من الأرض وجاء الآخر من السماء. ولقد دأب الماديون على توجيه نظرنا إلى الجانب الخارجي للأشياء "[138].

لعل هذه العبارة كشفت لنا بشكل واضح أن الإنسانية بقدر ما تدل على ما يمكن أن ينحط إليه الإنسان من تصرفات لا تتفق مع مكانته، تدل كذلك على استعدادات كبيرة لدى الإنسان يمكن أن يرتقي بها إلى أفق، غير أن ضغط الحضارة المادية المهيمنة حضاريا وإعلاميا توجهه إلى الجانب الظاهري المادي المرتبط بالاستهلاك ومختلف الشهوات.

المطلب الثالث : مفهوم الحياة

جاء في المعجم الفلسفي :"الحياة في اللغة نقيض الموت، وهي النمو والبقاء والمنفعة ...وأما المعنى الأول فيقصد به الحياة الطبيعية، أو مدة الإنسان على الأرض ..وأما المعنى الثاني فيراد به السيرة الأبدية المناقضة لكل ما هو حيواني ."[139]

ويشير جلال الدين سعيد في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية إلى معنى إضافي فيقول:" الحياة هي مجموع ما يشاهد في الحيوان والنبات من مميزات تفرق بينهما وبين النبات مثل التغذية، والنمو، والتناسل، والتبادل مع المحيط، والتكيف معه ...ولكن مفهوم الحياة يشير أيضا إلى تلك القوة التي

---

[138]-علي عزت بيقوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ترجمة محمد يوسف عدس مؤسسة باقاريا ط2 سنة 1997ص 51/50

[139]-جميل صليبا : المعجم الفلسفي ج1ص502و504

هي العلة، أو المبدأ الذي يستمد منه الأحياء ما يميزهم عن الجماد"[140] فهي بهذا المعنى قوة خفية غريبة تنطوي على طاقة حيوية تمنح الكائن الحي صفة مغايرة لغيره من الموجودات.

وانطلاقا من هذا التحديد لمفهوم الحياة، وبخاصة ما يتعلق بالإنسان يمكن أن نعرف الحياة بأنها تمثل : ذلك البعد الزمني الذي تنبسط مساحته للإنسان ليمارس نشاطه ويتمتع بعمره وفكره وتحقيق طموحه ويتطلع إلى مستقبله .

ولاشك أن هناك ارتباطا بين الإنسان والزمن سواء كان الماضي و الحاضر و المستقبل، غير أن هناك اختلافا كبيرا بين المذاهب، والأديان في وضع مفهوم للحياة وأبعادها، يختلف هذا المفهوم حسب المرجعية .

1-مفهوم الحياة في العقيدة الإسلامية :

فمفهوم الحياة من أكثر المفاهيم التي جاء الإسلام لتصحيحها، وقد لقي الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الأذى الكثير بسبب ما جاء به من مضامين لمعنى الحياة ؛لأن المجتمع الجاهلي ترسخ لديه معنى محددا عبر الأجيال أن الحياة الإنسانية تبدأ بلحظة الميلاد وتنتهي بالوفاة. ولا يترتب عن سعيه في الحياة الدنيا أي شيء من المسؤولية .قال الله تعالى:{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }[141].

غير أن "الحياة" في نظر عقيدة التوحيد لا يعرف لها معنى إلا إذا كان تصوّرها كاملا وكليا وشاملا لرحلتي الحياة الدنيا والآخرة، فنجد البصمات الواضحة للدين في موضوع الزمن، فالإسلام جرد الزمن من التأثير في الوجود، وذلك بإثباته للمؤثر الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى الذي تفرد بالأزلية والأبدية، وأما ما عداه سبحانه في هذا الكون فهو مخلوق أي زماني حادث دخل الوجود بعد العدم.

---

[140]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004ص 178

[141]- سورة الجاثية الآية: 24

ومن هنا جاء التحديد الإسلامي للزمان بحيث قدم مفهوما شاملا وإيجابيا له، سواء كان الزمن ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا. وهذا خلافا للتصورات الجاهلية قديما، والأفكار العلمانية في الوقت المعاصر كالأفكار الوجودية التي ترى أن الزمن مؤثر حقيقي في مجريات الحياة، فتأتي كلمة "الدهر" مشحونة بإيحاءات الألم كما كانت في العصر الجاهلي.

فهم يقولون هذا إنكارا منهم للفاعل الحقيقي في الحياة، وزعما كاذبا منهم بأن مر الأيام والليالي هو المؤثر الحقيقي في هلاك الأنفس، إذ كانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر أو الزمان. لذلك جاء الحديث الشريف ينهاهم عن هذا ليتحقق لديهم معنى الفاعلية الحقيقية في الكون [142] فعن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله :"يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار "[143].وبناء على ما سبق يقسم الزمن في القرآن إلى:

1- الزمن **الماضي**:وهو الذي تم فيه الخلق الحكيم، وسنت قوانينه وفُصِّلت فيه جميع حيثيات التسخير للحياة الإنسانية، حيث يشير القرآن إلى هذه المراحل من عمر الزمن المخلوق سواء ما تعلق منها بحياة الإنسان كقوله تعالى :{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً }[144] أو ما تعلق بمختلف الموجودات في هذا الكون بجميع عناصره قال الله تعالى :" {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ }[145].

كما تربط العقيدة الإسلامية بين الزمن الماضي ومسؤولية الإنسان فيما اكتسبه من أعمال :" فكل ما تم فعله في الماضي بهذا المفهوم الذي يرتبط بالإيمان محفوظ لايضيع فلذلك تعلقت فكرة الزمن الماضي في القرآن الكريم بالعبرة التي هي رمز الشعور الماثل بحضور المغزى، والنفاد إلى أعماقه

---

[142]-عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية دار النهضة العربية ط4 سنة 1985 ص262

[143]- أخرجه البخاري :كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى :"يريدون أن يبدلوا كلام الله " الجزء السادس حديث رقم 7035

[144]- سورة الإنسان الآية: 1

[145]-سورة فصلت الآية: 10/9

وغاياته ولا يتعلق بالحسرة التي هي رمز الضياع ونقصان الشعور الحي بالوجود " [146] قال الله تعالى :{لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ }[147] فلم يعد الزمان في نظر الإسلام مرتبطا بالعبثية[148] أو اليأس أ و القلق كما كان سائدا في النظرة الجاهلية .

2-**الزمن الحاضر** : وهو الذي يستثمر في الأصل في غاية الخلق وممارسة الوظيفة الموكلة إليه .قال الله تعالى :{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[149] ويمتد فيه تاريخ الإنسانية على الأرض ويعتبر ميدان السعي في الحياة الإنسانية حيث تتجلى فيه خيارات الناس وتوجهاتهم وإنجازاتهم في كل مجالات الحياة فسعي الناس فيه شتى، وهو مرحلة ابتلاء للإرادة الإنسانية، إذ يعتبر الإسلام هذه الفترة على ظهر الأرض فترة اختبار بالخير والشر، على أساس اختيار حر لإثبات جدارة استحقاق الجزاء الإلهي . قال الله تعالى :{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }[150] .

3-**الزمن المستقبل** : وهو المجال الذي يتم فيه الحساب، وينال فيه الإنسان حصاد سعيه في الحياة الدنيا. قال الله تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[151] فالحياة الإنسانية بالاعتبار الزماني متصلة، بحيث يكون في

---

[146]- عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الإسلامية ص257

[147]سورة الحديد الآية: 23

[148]-العبثية : مدرسة أدبية فكرية تدّعي أن الإنسان ضائع لم يبق لسلوكه معنى في الحياة المعاصرة، ولم يبق لأفكاره مضمون وإنما هو يحتر أفكاره لأنه فقد القدرة على رؤية الأشياء بحجمها الطبيعي نتيجة للرغبة في سيطرة الآلة على الحياة لتكون في خدمة الإنسان، إذ انقلب الأمر وأصبح الإنسان في خدمة الآلة وأصبح الناس تروس في هذه الآلة الاجتماعية الكبيرة، فجاءت هذه المدرسة كمرآة تعكس معاناة الإنسان في النصف الثاني من القرن العشرين كي ينجح في التخلص من هذا الانفلات عن طريق تجسيده في أعمال مسرحية وشعرية وروائية .الموسوعة الميسر ص 894

[149]-سورة الذاريات الآية: 56

[150]- سورة الملك الآية: 2/1

[151]-سورة النحل الآية: 97

الحياة الدنيا (عالم الشهادة) فترة السعي، تعقبها حياة أخرى ذات مميزات أخرى (عالم الغيب) هي الآخرة. قال الله تعالى: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[152].

وبهذا يصبح للحياة الإنسانية معنى، فلا مجال للعبثية، والتشاؤم، والقلق من المستقبل والمجهول، فمن عظمة الوحي أنه له القدرة على تفسير معنى الحياة الإنسانية حيث تقررت الفاعلية والدافعية الحقيقية في الوجود. فلم تعد كلمة الدهر مشحونة بإيحاءات الألم والخوف " لذلك تجردت فكرة الزمان بعد ظهور الإسلام من معاني الألم والشقاء بانتسابها إلى السرمدية الخلّاقة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه بوضوح الغايات الوجودية للإنسان صار القلق من المجهول شوقا للمعلوم "[153] وموضوع المصير بعد الموت وما يتصل به من القلق الوجودي والعجز أمام قسوة الفناء تشترك فيه الجاهلية مع المجتمعات الإلحادية المعاصرة التي لا تؤمن بوجود عالم الغيب .

ومن خلال ما سبق ذكره يتبيّن ما يلي :

1-أثبت القرآن الكريم أن الحياة الإنسانية ذات مجالين متكاملين :

المجال الأول :وهو مجال الحياة الدنيا حيث تتجلى فيه حكمة الخلق وتظهر فيه الغاية من السعي والعمل والابتلاء، ويتضمن الالتزام بمجموع القيم التي تحكم السلوك وتقيّمه من حيث الخير والشر والحسن والقبح والإيجاب والسلب في أي مجال من مجالات الحياة خلقية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو حضارية أو معرفية فكل ما له صلة بحياة الإنسان الفردية أو الجماعية من علاقات ومعاملات يعد من سعي الدنيا الذي في حقيقته مجموعة من التكاليف التي تحقق للإنسان الاستخلاف في الأرض، ومن أجل ذلك كانت خلافة الإنسان في الأرض تعبيرا عن تحمله لمسؤولية بناء مجتمع إنساني مؤمن يشارك في عمران الأرض، ويسمو بروحه في الوقت نفسه على العالم المادي.

---

[152]-سورة طه الآية: 55

[153] – عفت الشرقاوي: في فلسفة الحضارة الإسلامية ص 261

فالحياة الإنسانية في الحياة الدنيا تحتاج إلى قيم تضبط سيرها، وتحدد أهدافها في كل مجالاتها فتلبي فيها حاجات الإنسان المتنوعة التي لا تخرج عن طبيعة الإنسان سواء ما تعلق منها بالجانب الروحي، أو العقلي، أو الوجداني، أو الجسدي، وما يتبعها من النظم المؤسسة للقيم التي من شأنها حماية الحياة الإنسانية وحراستها من تغوّل العقل والشهوة وتصميمها في بعدها الروحي والمادي على الكيفية التي سوى الله عليها هذا الإنسان. قال الله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }[154].

لذا فالحياة الإنسانية في الحياة الدنيا ترتقي وتنحدر حسب نوعية النظم التي تستوعب مكونات الإنسان،كالنظام التعليمي التربوي والنظام الاجتماعي والسياسي والغذائي والصحي والجمالي والمعرفي وغيرها من النشاطات التي تتحرك في فلك الشريعة الإلهية بمقتضى التكليف الرباني المقرر في قوله تعالى :" {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }[155].

المجال الثاني :وهو مجال الحياة الآخرة حيث تتجلى الرؤية الإسلامية لمغزى الحياة الإنسانية على الأرض، وهي أن الإنسان بعد رحلة الحياة الدنيا يحاسب على سعيه ولو كان مثل الدرة و وحبة الخرذل ثم يجازى على ما كسب .ومن ثم فالحياة الإنسانية لها غاية عظمى لا مجال فيها للعبثية في هذا الوجود. قال الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }[156]

والجواب عن سؤال إلى أين؟ هو الذي يعطي القيمة الحقيقية للإنسان ككائن، وللحياة الإنسانية كزمن، ذلك أن الإنسان مهما يكن من أمر إشباع حاجاته المادية فإنه لا يزال يتطلع إلى فهم غايات هذا الكون العظيم، ويسعى إلى معرفة مصيره فيه لتحقيق الطمأنينة، ومن هنا جاء القرآن الكريم ليعين الإنسان على فهم أعماق الوجود فقدم مفهوما للحياة يقوم على مبدأ الغاية التي تتحرك

---

[154]–سورة التين الآية: 4

[155]–سورة الأعراف الآية: 172

[156]– سورة المؤمنون الآية: 115

نحوها الكائنات والتي تتجاوز العالم المادي الواقع تحت الحواس . فبيّن أن الإنسان روح ومادة، وعالج مشكلة الزمن وقسمه إلى زمن يعقبه فناء، وهو الحياة الدنيا، وزمن سرمدي وهو الآخرة .

فهناك ترابط وثيق بين إنجازات الإنسان في الحياة الدنيا ومصيره في الآخرة، وإلى هذا المعنى يشير محمد سعيد رمضان البوطي : أما الجانب الثاني من الحقيقة فهو أن الحياة الإنسانية ينبغي فهمها فهما متكاملا جامعا بين تصور كلا جانبيها، وهو بتعريفه لنا بكلا الجانبين يكشف عن قداسة وحرمة بالغة لها، ويدفع الإنسان إلى بدل كل جهد لرعايتها ووقايتها من الأمراض والأخطار ويضع من الأحكام ما يضمن حمايتها من كل عدوان فهي رفيعة الشأن عند الله تعالى [157] قال الله تعالى :{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[158].

فالحياة الإنسانية تتحرك ضمن مجال محدد في الزمان والمكان، وفي هذا المجال يسعى الإنسان إلى أن يحقق أكبر قدر من السعادة ويجتهد بكل الوسائل من أجل ذلك، غير أن السعادة التي ينشدها لا يمكن أن تتحقق إلا إذا توفرت مجموعة من الشروط تتناسب مع طبيعة الإنسان ووظيفته المحددة من قبل الخالق، والتي تؤكد غائية الوجود وتنفي عنه العبثية، فللخالق حكمة بالغة من الخلق هي الابتلاء بالأمر والنهي وبمسؤولية الاختبار بين طاعة الله وعبادته وبين معصيته وكفران نعمته: أي أن الحياة الإنسانية السوية هي التي تقوم على القيم التي يحددها الخالق وهو ما يذهب إليه أصحاب الأديان الذين لا يتصورون قيام حياة إنسانية رشيدة بعيدا عن القيم .

2-أن الحياة الإنسانية تستمد وجودها وبقاءها وأسباب نموها وتقدمها في نظر الإسلام من القيم الإنسانية الخالدة النابعة من العقيدة الإسلامية، تلك العقيدة التي تحرر الإنسان من عبوديته لغير الله ومن نزعاته الفردية، وتحفظ له خصائصه الإنسانية وتمنعه من الانحراف في ممارستها .

---

[157]-ينظر محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، دار الفكر دمشق ط1 سنة 1982.ص 72/71/70.

[158]- سورة النحل الآية: 97

3-أن الحياة الإنسانية لا تقاس بالتقدم المادي والعلمي والصناعي الذي قد لا يعبّر عن أهداف إنسانية نبيلة وربما يستعمل لأهداف غير إنسانية كالظلم والبغي واستغلال الشعوب واستعمارها واستعبادها.

4-أن الحياة المادية ورقيها لا يعبّر بالضرورة عن وجود حياة إنسانية رشيدة، فقد يعيش الفرد في بيئة راقية ماديا، ولكنه هو نفسه غير متحضر إنسانيا لافتقاد الحياة لمنظومة القيم التي تعطي للحياة الإنسانية معنى معتبرا.

5-أن المجتمعات الإنسانية تطول مدة بقائها في حالة الازدهار ما دام هناك قيم تمسك أركان المجتمع فإذا زالت زال المجتمع وأخذت حضارته على حين غرة قال الله تعالى {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[159].

6-أنّ معاملة الإنسان على غير طبيعة تكوينه هو الذي يجعل الحياة الإنسانية في أزمات مختلفة تتنوع من عصر إلى عصر حسب التطرف الذي يكون في التعامل مع مكوّنات الإنسان. ويشير محمد قطب إلى هذا الأمر ويعتبره انحرافا أيا كان اتجاهه فيقول :" هناك شخص همّه هو جسده وملذاته وشهواته ..لا يكاد يفيق منها، ولا يكاد يذكر أن له طاقة روحية مودعة في كيانه ليحقق بها هدفا أسمى من نشاط الحيوان. هدفا يتمثل في الإنتاج المادي والفكري والروحي جميعا، يتمثل في إقامة الحياة البشرية على أسس نظيفة وعادلة، بريئة من الظلم والفساد، فهذا بلا شك شخص منحرف، يعمل بجانب واحد من كيانه ويعطل الجانب الآخر أو يكاد .

[159]-سورة يونس الآية: 24

وهناك شخص همّه نظافة روحه فيقلل من متاع جسده إلى أقصى حد، بل ينقلب على جسده يعذبه، ويهينه... ليظفر – في وهمه – برفعة الروح، وهذا أيضا شخص منحرف يعمل بجانب واحد من كيانه، ويعطل الآخر أو يكاد ..وفي كلتا الحالتين لا استواء[160].

ومن حكمة الله في الخلق ومن رحمته بالإنسان أنه لم يشأ أن يترك الإنسان من دون ضبط لغرائزه وتوجيه لرغباته وبغير إرشاد إلى جملة القيم المقدورة له والتي إذا التزم بها كانت له سياجا يحميه من السقوط في هوة الانحراف السلوكي الذي لا يقف ضرره عليه وحده، وإنما يمتد هذا الضرر ليعم الإنسانية، بل المنظومة البيئية والنظام الكوني، ذلك ما يمكن ملاحظته فيما يحدث في الكرة الأرضية من اختلال، بسبب النفايات الغازية الناتجة عن السّعار لدى الدول الكبرى في سباقها المحموم للتطور والهيمنة على الأسواق العالمية .

هذه المجموعة من القيّم هي تلك المبادئ والمعايير الأخلاقية التي تجعل من سعي الإنسان وسيلة إسعاد له ولغيره، وهي تؤثر في النفس الإنسانية تأثيرا بالغا من الناحية الإيجابية عند تطبيقها،فيكون أثر التطبيق الإحساس بالسرور والانشراح في النفس الإنسانية ويكون أثر عدم تطبيقها الإحساس بوخز الضمير والضيق في الصدر والكآبة في النفس. فالقيمة الحقيقية للإنسان لم تنشأ من الوجود الطيني والأصل المادي، وإنما نشأت لحظة نفخ الروح وامتزاجها بقبضة الطين،فغيّرت طبيعتها وتميّزت بالمعرفة والإدراك والإرادة والاختيار، ولم يعد فيها ما كان فيها من قبل من صفاقة وعتامة وانطماس لأن الإنسان وحدة متراكبة [161].

2–مفهوم الحياة في الفكر العلماني :

لما كان الفكر العلماني يستبعد الماورائيات، فبالضرورة لا يرى حياة غير الحياة الدنيا، لأن منطق الإلحاد والمادية لا يؤمن بأي شيء لا تدركه الحواس، ومن ثم يرفض وجود حياة بعد الموت، لأن

---

[160] –ينظر محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية دار الشروق القاهرة ط 1974 ص279

[161]– المرجع نفسهص332و279

المنطق الفيزيائي في نظرهم يحيل إمكانية عودة الجسم بعد التحلل في التراب، وهو نفس المنطق الذي كان الكفار قديما يستبعدون به الحياة بعد الموت: {وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }[162] فالرؤية العلمانية للحياة تنطلق من أن عالم الآخرة من عالم المجهول الذي لا يمكن الوقوف على شاطئه المعرفي، لأنه مما لا يدركه العقل البشري ولا تضبطه التجربة، ولا يصل إليه الحس الإدراكي للإنسان.

ومن هنا فالرؤية العلمانية في بعض المدارس الحداثية ترى أن لا سعادة للإنسان إلا من خلال منافع الذات واستبعاد فكرة الموت، وحصر ذلك بالعمر الدنيوي، وإذا أراد الإنسان السعادة فالأفضل له أن لا يفكر إلا بيومه لكي ينجو من كابوس هَمِّ المستقبل .

وخلاصة القول أن هناك تباينا واضحا بين الرؤية الإسلامية والرؤية العلمانية لمفهوم الإنسان ومفهوم الحياة وطبيعتها، ويرجع ذلك للخلفية العقدية والفلسفية لكليهما، حيث تؤكد الرؤية الإسلامية على أن الإيمان بالحياة الأخرى ضرورة، وعالم مُهم يتوقف عل الإيمان به معنى الحياة لأنه يشعر الإنسان بالمسؤولية على أعماله . في حين تجعل الرؤية العلمانية رفض الآخرة مبدأ لتحقيق أكبر قدر من الحرية وللظفر بمختلف المتع الدنيوية .

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الحياة الإنسانية في حالة مرضها لا مناص من البحث عن العلاج من خلال التعامل مع الطبيعة الإنسانية المادية والمعنوية،فالجانب المادي فيها تعالجه التقنية التي وسيلتها العقل وميدانها الكون للتأمل، ثم المخبر للاكتشاف، ونتيجتها الإنتاج والرفاهية.وقد أشار القرآن لذلك من خلال آيات التسخير "سخر لكم"[163].أما الجانب المعنوي فيعالج "بالتقوى" التي وسيلتها الوحي وميدانها النفس ونتيجتها الطمأنينة، **وفي ذلك** إشارة إلى مناهج التربية والتزكية التي ترتقي بالإنسان في سلم الكمالات من خلال منظومة قيمية متكاملة تراعي جميع جوانب الإنسان.

---

[162]- سورة الإسراء الآية :49

[163]- ذكرت هذه العبارة في القرآن الكريم سبع مرات بهذه الصيغة :ابراهيم : 32-33،النحل: 12،الحج:65، لقمان :20 الجاثية :12-13

ولعل الراغب الأصفهاني اختصر البحث حين بيّن أن أقرب طريق لبلوغ الإنسانية هو "العبادة " فقال :"فالإنسان يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خلق، فمن قام بالعبادة حق القيام، فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ من الإنسانية فصار حيوانا أو دون ذلك "[164].ولا شك أن في أعلى هرم هذه المنظومة "قيمة التوحيد".

المبحث الرابع :مفهوم عقيدة التوحيد

المطلب الأول: تعريف التوحيد

مصدر فعله الماضي وحّد، والواحد أول عدد الحساب، والمتقدم في علم أو بأس، و التوحيد الإيمان بالله وحده. والله الأوحد والمتوحد : ذو الوحدانية [165] فيدور معنى مادة (وحد) على الإفراد والانفراد. أما في سياق الاصطلاح العقدي، فالتوحيد : هو إفراد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وإثبات صفاته. أي اعتقاد أن الله واحد لا شريك له .

فالتوحيد هو الإقرار والاعتراف النابع عن يقين بأحدية الله تعالى ووحدانيته وتفرده سبحانه في كل ما هو مختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، والإقرار بانتفاء أضدادها عنه سبحانه وتعالى . ومن هنا فإن التوحيد يقتضي الحكم اليقيني بوحدانية الله تعالى والعلم اليقيني والإدراك الجازم لتلك الوحدانية، ونفي الشريك والشبيه والند والضد والمساوي والوسيط، وتجريد ذلك اليقين بالوحدانية عما يُتصوّر في الأفهام أو يُتخيَّل في الأوهام، أو يَرِدُ على الأذهان من خواطر منافية، ونسبة سائر صفات الكمال التي تقتضيها الإلهية وتستلزمها الأسماء والصفات ووصف الله بها ذاته العلية ونسبتها إليه دون تشبيه أو تعطيل أو تأويل أو تكييف أو تمثيل يخرجها عن سياقها، فالله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له في شيء من ذلك ولا نظير ولا مماثل ولا مداني .[166]

---

[164]–أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني :تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان د ط سنة 1983 ص80

[165]– الفيروز أبادي : القاموس المحيط دار الكتب العلمية بيروت ط1 2004 فصل الواو ص 349/348

[166] – ينظر طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ط1 2003 ص12.

المطلب الثاني: أنواع التوحيد : ينقسم التوحيد إلى أقسام ثلاثة هي :

1-توحيد الربوبية : وهو الإقرار الجازم بأن الله تعالى واحد في الخلق والملك والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر، فهو الفاعل المطلق في الكون بالتدبير والتقدير والتسيير ويعرف بتوحيد الأفعال، فتوحيد الربوبية هو" اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي رَبَّى جميع الخلق بالنّعم، ورَبَّى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة "[167]

فهو متفرد بالخلق ومنه قوله سبحانه :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ }[168].

أما تفرده بالملك فمنه قوله تعالى:{وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[169]

وأما تفرده بالتدبير ففي قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ }[170].

فالربوبية اسم جامع لأفعال الله ذات العلاقة والأثر بمخلوقاته إيجادا ورعاية وإفناء، فالربوبية توحيد الله بأفعاله، وتدخل تحت هذا المعنى مجموعة من الأسماء الحسنى منها : الخالق، الرازق، الرحمن، الرحيم، الملك، المهيمن العزيز، الجبار ، البارئ، المصوّر، الغفار، الغفور، القهار، الوهاب،الفتاح، العليم، القابض، الباسط الخافض، الرافع المعز، المذل .... [171] وهذه الأسماء بمضامينها المطلقة الدالة على الكمال المطلق توضح أن كل شيء موجود هو ملك لله تعالى، إذ أنه وحده جل شأنه القيوم

---

[167] -عبد العزيز محمد السلمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية .ط8 سنة 1979 ص32

[168]- سورة فاطر الآية: 3

[169] - سورة آل عمران الآية: 189

[170]- سورة يونس الآية: 3

[171] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ابتلاء الإرادة دار القلم دمشق ط1 1995 ص 168/167

الذي تقوم به الكائنات كلها، فلا يملك إنسان ولا أي مخلوق آخر التأثير في الأكوان واستلاب هذه الخاصية من الرب عز وجل، وأنّى للإنسان أن يكون مركز الكون وقيومه، وهو نفسه عَرَض لا يقوم إلا بالله تعالى[172] . قال الله تعال {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}[173] يقول عبد الرحمن حسن حبنكة :"إن ربوبية الله لنا لم تدع فينا ذرة من الذرات المادية والمعنوية ولا أصغر خارجة عن سلطانها ومددها وعطاءاتها وسائر وجوه تربيتها، في كل لحظة من لحظات وجودها"[174].

ويترتب على ذلك بالضرورة القول إن توحيد الربوبية يفيد إلغاء أية قوة فاعلة في الطبيعة إلى جانب الله تعالى، الذي أتقن خلقه للكون وصاغ إرادته فيه من خلال سنن مُحْكمة هي القوانين الثابتة في الطبيعة، ومن ثم فلا مكان للسّحر والشعوذة والأبراج والأرواح وأية خاطرة خفية عن تدخل تعسفي في عمليات الطبيعة من أي مصدر كان، لذلك يعني التوحيد نزع القداسة عن مجالات الطبيعة .

من خلال التوحيد إذن انفصلت الطبيعة عن الآلهة والأرواح وبفضله غدا الفكر الديني متحررا من الأساطير فنقض الخرافة والأسطورة من أن يكونا لهما تأثير على الحقائق العلمية باعتبارهما عَدُوَان للعلم والحضارة، فبفضل هذا التصوّر استطاعت علوم الطبيعة أن تتطور بمباركة عقيدة التوحيد التي تفسّر العالم وترفض أي ترابط بين المقدس والطبيعة، فالتوحيد يجمع كافة خيوط السببية ويعيدها إلى الله لا إلى القوة الخفية.

وجدير بالذكر بيان أثر فهم توحيد الربوبية بهذا البعد في فك لغز الطبيعة والقوانين التي تحكمها، ومن ثم رسم طريق البحث وإنتاج الحضارة، وهذا هو الطريق إلى تسخير الكون الذي يدخل في مقدور الإنسان وهو شطر استخلافه بالعمارة كما يوضح ذلك إسماعيل راجي الفاروقي فيقول :"وفي آناء ذلك تنتظم القوة السببية الفاعلة في حدث أو شيء لتغدو خيطا مستمرا تترابط أجزاؤه

---

[172]–طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران مرجع سابق ص47

[173]– سورة فاطر الآية:41

[174]– عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ابتلاء الإرادة مرجع سابق ص169

مع بعضها سببيا، ومن ثم تجريبيا .ولأن هذا الخيط يؤول إلى الله أخيرا، فإن الأمر يتطلب أن لا تتدخل أية قوة من الخارج في مجال تطبيق قوته السببية أو فاعليته .

ويفترض هذا بدوره مقدَّما أن تكون الترابطات بين الأجزاء سببية، وأن تخضع للتمحيص التجريبي قبل الإقرار بها . وكون قوانين الطبيعة أنساق الله التي لا تجارى .يعني :أن الله يمسك بخيوط الطبيعة من خلال الأسباب، ولا يكوّن نسق إلا سببية من مسبّب آخر له الصفات نفسها دوما، ودوام هذا بالضبط هو ما يجعل فحصها واكتشافها – ومن ثم العلم بها – أمرا ممكنا .

وليس العلم سوى البحث عن مثل هذه السببية المتكررة في الطبيعة، لأن الروابط السببية التي تكوّن الخيط السببي تتكرر في خيوط أخرى، وتأسيسها هو تأسيس قوانين الطبيعة، وذلك مطلب مسبق لإخضاع قوى الطبيعة السببية للسيطرة والتوجيه وشرط ضروري لتمتع الإنسان بالطبيعة " [175]. وهذا كله إنما يستند إلى منهج التربية العقلية الذي يوجّه العقل إلى استنباط أسرار الكون وتسخير عناصره والاستفادة منها في كل منحى من مناحي الحياة الإنسانية.قال الله تعالى:{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ }[176].

2-**توحيد الألوهية** :و هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى وحده يستحق العبادة، وأن جميع المخلوقات عبيد له سواء بالإكراه أو الاختيار، وقد جاء في تعريفه:" هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده"[177] فتوحيد الألوهية حصر كل ما يشتمل عليه مفهوم العبادة من ضروب التوجه والتوسل والتعبد والاستعانة والدعاء والتبتل في الله سبحانه، فلا أحد سواه يستحق ذلك .

---

[175] – إسماعيل راجي الفاروقي: أطلس الحضارة ص140

[176]– سورة لقمان الآية: 20

[177]–عبد العزيز محمد السلمان : الأسئلة والأجوبة على العقيدة الواسطية ط8 سنة 1979ص32.

ويطلق على هذا النوع من التوحيد توحيد العبادة، فالألوهية مأخوذة من الإله، والإله هو المعبود . ومن هنا كان معنى العبادة : هو الانقياد والتذلل والخضوع والامتثال. فالألوهية توحيد الله بأفعال عباده، فكل ما يدخل في معنى العبادة قولا أو فعلا أو عملا ينبغي أن تصرف لله تعالى وحده، لأن العبادة :اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة قال الله تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }[178].

وهذا النوع من التوحيد يعبر عن حقيقة الإسلام وجوهره، لذلك كان مفتتح دعوة الرسل، وأنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله وحده، وأنه يعبد بما شرع، لا بالأهواء والبدع، أو الخرافة والطقوس المبهمة .قال الله تعالى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ }[179] فكل الأنبياء كان شعارهم الأول متضمنا الدعوة لعبادة الله وحده، ومن أمثلة الخطاب القرآني ما ورد في قوله تعالى : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[180].

وهذا الخطاب تكرر مع عدد من الأنبياء، حتى إذا بلغ لوطا أضمر الخطاب دعوة هؤلاء القوم إلى إفراد الله بالعبادة، وكأن من بلغوا في الانحراف هذا المبلغ المتدني غير جديرين بأن يدعوا إلى التوحيد، أو يطالبوا بالعبادة، فهم أحط من أن يوجَّه لهم هذا الخطاب قبل أن يتطهروا مما هم فيه؛ لذلك كان الخطاب الذي وُجّه إليهم في شكل سؤال بصيغة الاستفهام الإنكاري الذي ينبِّه فيه إلى مدى قبح وبشاعة ما تردوا فيه، بحيث لم يعودوا صالحين لشيء قبل أن يتطهروا منه [181].ومنه قوله

---

[178]- سورة الأنعام الآية: 162

[179]- سورة النحل الآية: 36

[180]- سورة الأعراف الآية: 59

[181] -ينظر طه جابر العلواني: التوحيد والتزكية والعمران ص50

تعالى:{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ }[182] .

ثم عاد الخطاب لبيان دعوة شعيب التي كان مفتتحها الدعوة إلى التوحيد.قال الله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }[183].

فالتوحيد يؤكد أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة لكي يعبده ويقدس له، وهذا يعني أن وجود الإنسان على الأرض غايته إجمالا هي طاعة الله وتنفيذ أوامره، فالوظيفة الأساسية وهي العبادة مهما تنوعت صوّرها مادامت مشروعة ويقصد بالعمل وجه الله تعالى قال الله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[184].

كما تقرر عقيدة التوحيد أن جانبا من هذه الغاية يكمن في استخلاف الإنسان وتحميله أمانة التكليف، وهذا الائتمان الإلهي هو تنفيذ الجزء الأخلاقي من الإرادة الإلهية عن اختيار وقصد لا عن إكراه وإجبار .قال الله تعالى :{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ }[185] وهو هنا يختلف عن توحيد الربوبية حيث أن الإرادة الإلهية تتحقق بحكم القانون الطبيعي أو الإكراه، وهو ما يجعل تنفيذ الأمر عملا أخلاقيا ساميا كما يذكر إسماعيل راجي الفاروقي [186]، لأن الله لم يخلق الإنسان عبثا، ولن يتركه سدى، فقد أعطاه من المزايا ما يؤهله للقيام بذلك الواجب الأخلاقي العظيم الذي يُعَدُ الهدف النهائي للوجود البشري.

---

[182]- سورة الأعراف الآية: 81/80

[183]- سورة الأعراف الآية: 85

[184]- سورة الذاريات الآية: 56

[185]- سورة الملك الآية: 2

[186] - انظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص140

3-توحيد الأسماء والصفات :

وهو الاعتقاد بأن الله تعالى متصف بجميع صفات الكمال والجلال والجمال، ويتضمن تنزيه الله تعالى عن جميع صفات النقص، واتصافه بجميع صفات الكمال:" وهو مفتاحنا للتمييز بين المطلق والنسبي، من خلال الاعتقاد في تسامي الخالق سبحانه وتعالى وهيمنته على النسبيات المخلوقة (العالم)، فالجزء المنفي في عبارة التوحيد "لا إله" يرفض الاعتراف بوجود أي مصدر آخر للتسامي والهيمنة . في حين أن الجانب المثبت "إلا الله" تعني طاعة كل المخلوقات النسبية للمطلق، وهو الله "[187]. فهو متفرد بهذا عن جميع الكائنات ؛لأنه الخالق وما دونه مخلوق. جاء في الأسئلة و الأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية : "هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة"[188] قال الله تعالى :{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[189] وسميت هذه الأسماء بالحسنى لدلالتها على أحسن مسمّى، وأشرف مدلول .

والإيمان بالأسماء الحسنى يقتضي الإيمان بكل اسم سمى الله به نفسه، وبما دلّ عليه هذا الاسم من معنى، وبما تعلّق به من آثار، فيشمل توحيد الأسماء والصفات الإقرار بتفرد الله سبحانه في سائر الأسماء والصفات، وإثبات كل ما أثبته لنفسه، ونَفْيُ كل ما نفاه عن ذاته العلية، واليقين بأن ليس له ند ولا ضد، وتجنب الانغماس في التأويل، والتعطيل، والتشبيه، والتكييف، والتمثيل .يقول محمد خليل الهراس:"وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل في حقه من الأقيسة ما يقتضي المماثلة، أو المساواة بينه وبين غيره، كقياس التمثيل وقياس الشمول، وإنما يستعمل في ذلك قياس الأولى الذي مضمونه أن كل كمال وجودي غير مستلزم للعدم، ولا للنقص بوجه من الوجوه، فالخالق أولى أن يتصف به،

---

[187]- ينظر أحمد داود أوغلو: الفلسفة السياسية ترجمة ابراهيم البيومي غانم وتقديم محمد عمارة مكتبة الشروق الدولية ط1 2006 ص16

[188]- عبد العزيز محمد السلمان: الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية مرجع سابق ص32

[189]- سورة الأعراف الآية: 180

لأنه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به، لكان من الممكنات من هو أكمل منه وهو محال، وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق، فالخالق أولى بالتنزه عنه" [190] . و يقوم هذا التوحيد على ثلاثة أسس هي:

1-تنزيه الله على مشابهة الخلق، وعن أي نقص .

2-الإيمان بالأسماء والصفات دون زيادة أو نقصان أو تحريف أو تعطيل أو تمثيل، لأن هذه الأسماء تتلقى بالسمع لا بالآراءأو الأهواء.

3-قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات.

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا أن هناك علاقة تكامل بين هذه المفاهيم عن التوحيد حيث أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية الذي يعني أن الوجود كله لله من العرش إلى الفرش ومن الذرة إلى المجرة وهو قائم على نظام هائل من الإحكام والإتقان مما يدل على أن الله تعالى واحد في صفاته وأسمائه، وهذا يقتضي بالضرورة وجوب التصرف في ملك الله وفق إرادة الله، لأنه سبحانه له الكمال المطلق .يقول زكريا إبراهيم الشتول :" وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية، والأسماء والصفات أي : أن تقديم العبادة لله لا تحصل إلا بالإقرار أن الله هو رب العالمين، المتصف بصفات الكمال، المنزه عن كل نقص "[191]. فتوحيد الربوبية والأسماء والصفات يعد مقدمات منطقية لإلزام الإنسان بوجوب طاعة الله والتزام أمره .

والحق أن هذه المفاهيم عن التوحيد انعكست في عنوان المنهج الإسلامي وهو " لا إله إلا الله" والذي يمكن عن طريق ما يحتويه تفسير قضايا الكون في حدوده " وتعني الإيمان بأن الله هو وحده الخالق الذي أعطى كل شيء وجوده، وأنه السبب الأعلى في كل حدث والمآل الأخير لكل الموجودات، وأنه هو الأول والآخر .وإن القول بهذه الشهادة عن رضا وقناعة وفهم واع لمحتواها :"

---

[190]- محمد خليل الهراس : شرح العقيدة الواسطية راجعه عبد الرزاق عفيفي مكتبة الزهراء الجزائرط1990 ص59

[191]-زكريا إبراهيم الشتول: أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني دار الكتاب الثقافي الأردن دط.2005 ص168

يؤدي إلى إدراك أن جميع ما يحيط بنا من أشياء وأحداث، وكل ما يجري في الميادين الطبيعية والاجتماعية والنفسية هو من عمل الله وتنفيذ لغاية من غاياته .وعندما يتم هذا الإدراك يغدو طبيعة ثانية للإنسان لا تنفصل عنه طوال ساعات إدراكه ..فإنه يتبع المبادرة الإلهية لأنها من عند الله .

وملاحظة هذه المبادرة في الطبيعة هي ممارسة العلم الطبيعي، لأن المبادرة الإلهية في الطبيعة ليست سوى القوانين الثابتة التي وهبها الله لها. وملاحظة المبادرة الإلهية في نفس المرء أو في مجتمعه هي ممارسة العلوم الإنسانية والاجتماعية.."[192].

المطلب الثالث: علاقة منظومة القيم بالتوحيد

إذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد من خلال تشريع الآذان في أذن المولود، ويودّعها بالتوحيد من خلال تلقين الشهادتان للمحتضر، فإن وظيفته بين مهد الطفولة، وفراش الموت هي إقامة التوحيد، والدعوة إليه. ومن هنا كانت منظومة القيم الإسلامية تتمحور في كل جوانب الحياة الإنسانية حول التوحيد، باعتباره الركيزة الأساسية في العقيدة الإسلامية المرتبط بكل مفاهيم الحياة.

والتوحيد ليس مصطلحا قرآنيا فحسب، بل هو جوهر الإسلام كله، إذ أن التوحيد يلقي بظلاله على منهج التفكير، ويتفاعل مع القضايا الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها، لذلك فإن العقيدة الإسلامية التي جوهرها التوحيد تعتبر القاعدة الثابتة الحاكمة على حالتي الرشد، والغي في الحياة الإنسانية .

وتتضح أهمية التوحيد في موضوع القيم من خلال كون هذه الركيزة تعتبر سببا في وجود القيم وثمرة لها في نفس الوقت، ويتجلى هذا من خلال الارتباط بين التوحيد والقيم في الخطاب القرآني فكل ما يصدر عن المرء من عمل صالح يقصد به وجه الله ويرجى ثوابه يعد قيمة يدعو إليها التوحيد، فلا انفصام بين عمل الدنيا والآخرة ولا بين الدين والدولة، فهذا الأساس العقدي بهذا المفهوم جعل التوحيد هو الموجه لكل مجالات الحياة الإنسانية .

---

[192]– إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية مرجع سابق ص 139

فالمنطلق لكل مسلم هو الاعتقاد بوجوب توحيد الله تعالى في كل عمل سواء كان ضمن أعمال العبادة أو العمارة، وذلك تحقيقا لمعنى الاستخلاف، وإذا كان التوحيد هو الأساس والمنطلق للمنظومة القيمية للحياة الإسلامية والإنسانية، فإن العلمانية تطرح نفسها كذلك منظومة شاملة للحياة الإنسانية فما معنى العلمانية وما مضامينها ؟.

المبحث الخامس :مفهوم العلمانية الشاملة:

يعتبر مصطلح العلمانية أحد أهم المصطلحات في الخطاب التحليلي والسياسي والفلسفي وهو من أوسع وأصعب المصطلحات تداولا، فهو مصطلح واسع، لأنه لم يقف عند أصله الأول بيئة ومضمونا، حيث تطوّر واشتبك مع القيم والمعرفة والإيديولوجية والأخلاق وأسلوب الحياة، ثم دخل في صراع حاد مع الدين، حتى بلغ ذورته، فأصبح نقيضا للدين، ثم اكتسح مساحات ومجالات أكبر من الحياة حديثا، وصار يشكّل منظومة بكاملها، هذا من ناحية .ومن ناحية أخرى فهو مصطلح صعب ملتبس بسبب جذوره الأولى وتطوّره السريع واكتسابه لمعان ودلالات في المنظور الغربي وما يزال . يقول عبد الوهاب المسيري :" ومن المعروف أن التاريخ لم يتوقف قط في العالم الغربي (ولا في غيره من الأماكن) فقد حدثت تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية أدت إلى تحولات هائلة في رقعة الحياة العامة والخاصة والعلاقات الإنسانية كافة "[193] وكذلك وبسبب ترجمته إلى اللغة العربية وما حمل من دلالات بحيث يلاحظ لأول وهلة تباين المحتوى والدلالة في المفهوم .

ومن المناسب جدا أن يكون البحث عن أصول المصطلح أقرب طريق إلى الحقيقة، وللوقوف على مفهومه ودلالاته وأبعاده في البيئة التي نشأ فيها، وكذلك في الترجمة المستعملة له. وسأحاول رفع الغموض عن هذا المصطلح ودلالاته والبحث عن مدى تطابق المضامين بين الاستخدام الغربي والتداول العربي له، لذلك اخترت البحث في المصطلح في الثقافة الغربية ثم العربية .

[193]– عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة دار الشروق المجلد الأول ص55

المطلب الأول :مفهوم العلمانية في المنظور الغربي :

مما لاشك فيه أن العلمانية غربية المنشأ والهوية، ومن ثم فإن أفضل طريقة للتعرف على هذا المصطلح هو الرجوع إلى القواميس ودوائر المعارف الغربية متتبعين له لفظا ودلالة ورصد طريقة نطقه حتى نستجلي هذه الظاهرة :

في القاموس :

1-جاء في معجم أكسفورد الإنجليزي [194] :secularism: the belief that religion should be involved in the organization of society education .

والمعنى أن العلمانية: هي الاعتقاد بأن الدين لا يمكن أن يتدخل في تنظيم المجتمع والتربية وغيرها .

بالإضافة إلى معاني أخرى وردت في مشتقات كلمة سكيولارزم مثل :

-دنيوي أو مادي .

-ليس بديني أو ليس روحاني.

- ليس بمترهب أو ليس رهباني.

2- أما في قاموس الفكر الحديث فقد جاء secularism تعني رفض الدين" rejection of relegion" فتعني أن الدّين قد أفَل عن كل شُعَب الحياة .وهذه الحقيقة قد أضحت أوضح ما تكون في القرن العشرين من أي فترة مضت حين أصبحت في هذا العصر معبِّرة على الواقعية القائمة على القوانين العصرية بدلا من ممارسة الكهانة والطقوس الدينية .

3-وجاء في قاموس كامبريج secularكصفة تعني انعدام الصلة مع الدين، وهذا نصّها " not having any connection with religion"ويضرب مثالا ليوضح هذه الفكرة

[194]- معجم أكسفورد مادة secularism ط 2005 ص1155

فيقول: نحن نعيش في مجتمع أكثر فأكثر علمانية، يفقد فيه الدين أثره باستمرار على حياتنا اليومية، ولا سيما في ميدان التربية والسلطة، أما فعل secularizeفجاء في بيانه when something is secularised religious influence power or control is removed from it.ويعني عندما يخضع الشيء للعلمانية، يُجَرَد من أي تأثير قوة أو تحكم ديني مثال: إنه يقول أن المجتمع الغربي العلماني جَعَلَ العيش كمسيحي حقيقي أمرا صعبا.[195]

4-وجاء في دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية بأنها : "حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها" [196].

5-وتقول دائرة المعارف الأمريكية :" أن السكيولارزم نظام في السلوك مؤسس على مبادئ أخلاقية مستمدة من الطبيعة، ومستقلة عن الدين الموحى، بل وكل أشكال ما فوق الطبيعة وأنواعها وقواها " [197].

ويرجع عبد الوهاب المسيري ذلك إلى أن في اللغة الفرنسية توجد كلمة لائيكlaique وقد انتقلت الكلمة إلى الانجليزية في كلمة لاييس بمعنى خاصة بجمهور المؤمنين بوصفهم طبقة متميزة، ومنها كلمة laityوهم الكافة باستثناء رجال الدين وكلمة لايسيزم laisismبمعنى النظام العلماني أي : نظام سياسي متميز بإقصاء النفوذ الكهنوتي عن الدولة . واشتق كذلك فعل لاييسايز laicizeبمعنى ينزع عنه الصبغة الكهنوتية أو يعلمن خاصة المدارس، ولاييسيزيشن laicization أي نقل كثير من وظائف رجال الدين والكهنوت إلى خبراء يتم تدريبهم تدريبا زمنيا لا علاقة له بالعقائد الدينية التي

---

[195]-مادة " secular "،cambridge advanced learners dictionary 2003 .

[196]- نقلا عن يوسف القرضاوي: الإسلام والعلمانية وجها لوجه مؤسسة الرسالة ط4سنة2001ص 49

[197]- نقلا عن محمد الأمين التجاني: مفهوم العلمانية في الفكر الغربي : مركز التنوير المعرفي ط1 2007 ص30

تستند إلى الإيمان بما وراء الطبيعة بحيث تصبح مهمة رجال الدين مقصورة على الأعمال الدينية ومن أهم هذه الوظائف التي لا تدخل في اختصاصهم التعليم والقضاء والخدمات الاجتماعية [198]

ويلاحظ محمد الأمين التجاني أن الفعل الانجليزي المشتق عن الفرنسية يحمل بصمات التجربة الفرنسية في العلمنة المرتبطة بالثورة الفرنسية، خاصة التي أخذت شكلا حادا وقاطعا إذ أن مؤسسة الكنيسة كانت قوية في المجتمع الفرنسي القديم، وكان فيها تداخل شبه كامل بين طبقة النبلاء ورجال الدين خاصة ذوي المراتب الرفيعة، لذلك كان رد فعل الثوّار عنيفا ومنهجيا، ووصل الرفض لهذا الوضع إلى حد ذبح وشنق النبلاء وكثير من أعضاء طبقة الكهنوت لذلك كان شعار الثورة الفرنسية " اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس "[199]

أما من حيث استخدام مصطلح السكيولارزم secularism فقد جاء متأخرا عن هذا الاتجاه العام الذي اجتاح المجتمع الأوروبي بعد نهاية القرون الوسطى[200] حيث تمركزت الحياة الروحية والفكرية حول الكنيسة، فهذا المصطلح اختير حديثا ليعبر عن هذا الاتجاه ويعود إلى منتصف القرن التاسع عشر على يد جورج جاكوب هليوكي[201] الذي ابتكر هذا المصطلح، وكان القائد الفعلي لمجموعة من زملائه الذين أسهموا معه في تأسيس هذا المذهب، ومنهم توماس كوبر، وشالرس شاوش، ووليام كلتون، وتوماس بيترسون، فقد أعلن هؤلاء عن حركتهم عام 1849وقد تولى شرحها جاكوب، وفي عام 1850التقى جاكوب هوليوكو بكبير قادة الإلحاد برادلاف وبعد هذا اللقاء بعام تمت صياغة وابتكار هذا المصطلح السيكولارزم الذي قصد به بيان موقفه المعادي للإيمان

---

[198]-ينظر عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد1ص 58

[199]-ينظر المرجع السابق ص35

[200]- العصور الوسطى : تتراوح العصور الوسطى من نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربيةحوالي القرن الخامس حتى قيام الدول الملكية وبداية الكشوفات الجغرافية الأوروبية، وعودة النزعة الإنسانية، وحركة الإصلاح الديني البروتستانتي بداية من سنة 1517 .هذه الأحداث هي التي أدت إلى دخول أوروبافي مرحلة بداية الحداثةالتي تلتها مرحلة الثورة الصناعية.

[201]- جاكوب هليوكي : ولد في برمنجهام عام 1817 من أسرة تعمل بالحرف اليدوية، ونشأ نشأة دينية، ثم ابتعد عن الكنائس وتخلى عن الإيمان، وأبدى عداء مفرطا للمسيحية، وكان إلحاده ضربا من اللاأدرية، وتوفي سنة1906 م.

والمتجاهل له في آن واحد، وهذا خلافا لبرادلاف الذي كان موقفه الإلحادي معلن، ويرى أن السكيولارزم تكون حيوية عندما ترتبط بالإلحاد [202].

مما سبق تناوله من خلال القواميس ودوائر المعارف يتكون لدينا تصوّر عن مفهوم السكيولارزم في دلالتها اللفظية ومآلاتها الاصطلاحية المفاهيمية وهو أن هذه اللفظة تتضمن في أحشائها مفهوم الزمن أو الدهر الذي ينصرف إلى الزمن الآني nowأو الحاضر presentوكذلك مفهوم المكان أو الموقع الذي ينصرف إلى الكون الفيزيائي المادي أو ما يعرف في مفهومنا الإسلامي الدنيا التي تقابل الآخرة.

إن تلك الدلالة الزمكانية المتصلة بمفهوم السكيولارزم والتي تولدت ونضجت مع المحاولات المختلفة التي تقصي كل الماورائيات، وتحاول أن تقيم منظومة شاملة لكل جوانب الحياة "بمعنى أنها تلك الحركة الاجتماعية ذات المغزى والمقصد الأخلاقي الاجتماعي الذي يرمي إلى بسط نظرية theoryمتكاملة لفهم الحياة والكون والسلوك الإنساني من منظور وضعي صرف، غايته إقامة مجتمع عالمي يكون نظامه القيمي قابلا للاختراقpermeableسواء من الخارج أو من الداخل على مر الزمان وتبدل الظروف والأحوال "[203] وبهذا يمكن اعتبار السكيولارزم دعوة لرفع القداسة عن كل شيء بحيث يفقد الكون الفيزيائي قداسته وسحره، وأنه آيات من صنع الله، ليصبح مادة محضة لا أسرار فيها ولا غموض بما فيها الإنسان الذي تجري عليه عملية التطبيع مادام أنه جزء من الطبيعة، وأن العقل الإنساني وحده القادر على الإحاطة بهذا الكون ومعرفة أسراره وقوانينه وعلله، ومن ثم محاصرته إلى درجة التحكم فيه، وهي دعوة لأن يصبح الإنسان سيد الأشياء ومركز الكون هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن مصطلح secularization يتضمن العملية التطورية التي تقوم على مبدأ نزع القداسة عن القيم أو تحييدها. ولكي تتم هذه العملية التطورية " فإن ذلك يتطلب من

---

[202]- ينظر التجاني محمد الأمين :مفهوم العلمانية في الفكر الغربي ص37/36

[203]- المرجع نفسه ص185

الإنسان الذي سيقود العملية بعد أن اعتقد بالسكيولارزم، وهذا الوعي ليس متعلقا بأن يؤمن هذا الشخص بنسبية القيم فحسب، بل أن يؤمن كذلك بنسبية القيم التي يؤمن بها هو نفسه، وهذا هو محك اختبار نجاح العملية التطورية "[204]. وهي من شأنها أن تبرز القدرات التطورية للإنسان حتى يمكنه تحقيق التغيير المستمر، ومن ثم فهي تخضع للمراجعة الدائمة حتى لا تتحول إلى إيديولوجية للدولة والمجتمع .

المطلب الثاني :مفهوم العلمانية في الثقافة العربية :

من المؤكد عند المتتبعين لظاهرة العلمانية أن أول ما ظهر مصطلح العلمانية كان عند نصارى الشام[205] كمقابل للسكيولارزم اللفظة الغربية، غير أن استعمالها غير محدد المعنى عند كثير ممن يستعملونها،وهذا راجع لكون أصل الفكرة غربية المنبت، ولها مفهوم داخل البيئة العربية، فماذا تعني العلمانية في الثقافة العربية ؟

دخل مصطلح "العلمانية "إلى اللسان العربي المعاصر وهو مصطلح في جذره اللغوي منحوتعلى غير قياس . على يد نخبة عربية في ظروف خاصة، وهذا شأن بعض المثقفين الذين غالبا ما تستفزهم الظواهر الثقافية الحضارية ذات الطابع المعرفي الكوني وهم مزدوجي الثقافة "الأوروبية المسيحية" "والعربية الإسلامية "وبالأخص المشتغلين في مجال الترجمة وصناعة القواميس، وقد ظل هذا المصطلح المبتكر من أكثر المصطلحات غموضا على المستوى اللغوي والمفاهيمي على السواء .ويرجع محمد الأمين التجاني هذا الاضطراب إلى عاملين أساسين فيقول:

-فأما الأول -وهو الأهم- يتمترس خلف الزمرة العربية التي عربت ثم أشاعت المصطلح الإنجليزي secularism، ونعني أن النخبة المبتكرة هي التي تتحمل وزر هذا الاضطراب.

---

[204]- ينظر التجاني محمد الأمين :مفهوم العلمانية في الفكر الغربي ص186

[205]- خلافا لما ذكر الأستاذ البوطي عندما اعتبر أن لفظة العلمانية بالفتح من صياغة مثقفي شمال إفريقيا فقال :"وإنما ذلك من آثار الرطانة التي عرف بها كثير من مثقفي شمال إفريقيا " ينظر محمد سعيد رمضان البوطي المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة دار الفكر د ط سنة 2008 ص320

-وأما العالم الثاني :فيرجع إلى أصل المصطلح secularism نفسه أعني قبل أن يرجع إلى العربية .فطبيعة منشئه وظروف استنباته داخل رحم الحضارة الغربية، هو سبب لهذا الاضطراب، حيث أنه يعتبر في سياقه الغربي ثمرة خلفيات معرفية (ابستمولوجية) ووجودية(انطولوجية) وقيمية (اكسولوجية) تفاعلت جميعها في بيئة اجتماعية، وانفعالات نفسية، ودينية، وتراكمات تاريخية، وسياسية بالغة التعقيد والتباين عاشتها أوروبا خلال القرون الوسطى[206].

ولعل الرجوع إلى القواميس التي عربت اللغات الأوروبية ذات الأصول اللاتينية يكشف عن النخبة التي ابتدعت المصطلح وأشاعته في العالم العربي والإسلامي، وكذلك الظروف التي ساعدتها على ذلك، ومن ثم الوقوف على معرفة الشخص الذي أوجد المصطلح ومكانه وزمانه وبيئته الاجتماعية وعصره الفكري وهي جميعا عناصر أساسية تعين على معالجة الموضوع وتحقيق المسألة بطريقة علمية .

فتذهب الموسوعة الفلسفية العربية إلى أن أول من استخدم لفظة "علمانية" بالعربية هو إلياس بقطر واضع المعجم العربي الصادر سنة1828 حيث ترجم لفظة seculier الفرنسية إلى علماني، وهذا ما تتفق عليه معظم المصادر العربية، إلا أن هذا المصطلح ظل مهملا لمدة قرن من الزمان، ولم يلق الرواج والنشر الدعائي إلا في منتصف القرن العشرين، بعد أن حاولوا صياغة هذا المصطلح بشكل يمكن قبوله، وأشاعوا أن اللفظة في معناها، ومبناها ذات علاقة وثيقة بالعلم للتدليس على المسلمين .لأن معناها بالمفهوم الغربي سوف يجد ردا عنيفا بالإضافة إلى أن هذا المصطلح لا يكتب بالشكل قصدا .يقول محمد الأمين التجاني :" إن هدف المروجين وفق هذا الرسم الاصطلاحي لا تخطئه العين، بل إن هذا الاختيار لكلمة "علمانية" نحسب أنه لم يأت مصادفة، وإنما تم وفق خطة محسوبة وعناية مدبَّرة، فقد أريد للمصطلح أن يحمل دعايته الإعلامية في أحشائه، لذلك فقد أرادوا" للعلمانية" أن تكون منسوب "علم" بإضافة ألف ونون، وتركوا حرف"عين" بلا تشكيل لتكون هذه

---

[206] – ينظر محمد الأمين التجاني : مفهوم العلمانية في الفكر الغربي ص16/15.

الألف والنون للمبالغة والاستحسان من جهة،وأن يكون ترك تشكيل حرف العين من جهة أخرى لمزيد من التضليل والإيهام"[207] .

وقد ناقش سيد أحمد فرج هذا المصطلح وأثبت أن لا صلة للعلمانية بالعلم،ودلّل على ذلك أن ثلاثة من المفكرين[208] قدموا بحوثا في عدة مؤتمرات في هذا المصطلح، وناقشت لجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية هذه البحوث، وانتهت إلى أن ضبط الكلمة "العَلمانية " بفتح "العين" لدلالة الانتماء إلى العَالم، دون الانتماء إلى "العَلم "كما يسوق إجماعا للباحثين في اللغات الأجنبية الأوروبية،وكذا الشرقية على أن ما يقابل العلمانية في اللغات لا صلة له بالعلم (بكسر العين)البتة،ويخلص إلى التأكيد على أن الحجة تعضّدت بهذه الأبحاث الثلاثة لما فيها من مادة علمية تاريخية دينية ولغوية تؤصل لمادة :"العلمانية " وتؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن لا صلة للكلمة بالعلم،وإنما صيغت بهذه الطريقة بخبث ومكر يريد أصحاب هذه الصياغة بذلك منح الكلمة شرف العلم والتلبيس على الناس وإيهامهم زورا أن العلمانية لا تعارض الإسلام، لأن الإسلام يدعو إلى العلم ويحث عليه[209].

والحقيقة أن هذا المصطلح ترجمة غير دقيقة، بل خاطئة إذا كان منسوبا إلى العلم scienceفي اللغة الإنجليزية، فلا علاقة لغوية بين السكيولرزم وبين العلم بحيث يخطئ المترجم إلى درجة أنه يخلط بين المصطلحين، مما يؤكد أن اللفظة ترجمت بفتح "العين" وهي من العَالم كما يصرح عادل ضاهر وهو ينتصر لمصطلح العَلمانية ويدقّق في مفهومها فيقول :"إن ما يعنينا هو العَلَمانية (بفتح حرفي العين واللام)، وهذه لا تتضمن موقفا من عالم المعرفة بعامة، ولا موقفا من طبيعة المعرفة العلمية بخاصة،

---

[207]–محمد الأمين التجاني مرجع سابق ص21

[208]– المفكرون الثلاثة هم :1–عبد الصبور شاهين:خبير بمجمع اللغة العربية قدم بحثا بعنوان" العلمانية تاريخ الكلمة وصيغتها "في مؤتمر مجمع اللغة العربية الثاني والخمسون سنة 1986

2– سيد أحمد فرج : قدم بحثا بعنوان "علماني وعلمانية تأصيل معجمي" في الندوة المعجمية الدولية بتونس

3– عدنان الخطيب :عضو مجمع اللغة العربية قدم بحثا بعنوان "قصة دخول العلمانية في المعجم العربي "في مؤتمر مجمع اللغة العربية الثالث والخمسون بالقاهرة .

[209]–سيد أحمد فرج: جذور العلمانية دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة ط4 سنة 1990 ص7/6

إنها في المقام الأول وكما يتضح معنا من خلال دراستنا، معنية بدور الإنسان في العالم وبتأكيد استقلالية العقل الإنساني في سيرورة توظيف الإنسان للعقل في أي من المجالات التي يوظفه فيها .

والأهم من كل هذا أنها معنية بجعل دور الإنسان في العالم مشتملا على اكتشافه باستقلال عن الدين، الغايات التي يجدر به تحقيقها في هذا العالم والوسائل القمينة بتحقيقها .إن العلمانية بهذا المعنى هي، إذن، موقف إبستمولوجي إلى الحد الذي تكون ضمنه موقفا من طبيعة المعرفة العلمية (معرفة الغايات والوسائل)وعلاقتها بالمعرفة الدينية . غير أن العلمانية (بفتح العين واللام ليس بالضرورة علمانيا (بكسر العين)[210].

وخلاصة القول في هذه المسألة أن لفظ علماني إذا فهم في اللغة الأم (اللاتينية)" saeculum" التي تعبر عن معنى ذي دلالة مزدوجة تتعلق بالزمان والمكان . فالزمان يشير إلى الآن و إلى صيغة للحاضر والمستقبل، أما المكان فيشير إلى العالم أو إلى المعنى الدنيوي له فيبهرنا ويبعث الدهشة في نفوسنا فيصرفنا ويلهينا عن الوعي بمصيرنا النهائي، ولعل أول من تفطن لهذه الظاهرة العلمانية بمضمونها الدهري جمال الدين الأفغاني في الرد على الدهريين، أو كما سماهم النيتشيريين الذين رأى فيهم طلائع الفكر العلماني اللاديني في البلاد الإسلامية فقال :"النيتشرية" جرثومة الفساد وأرومة الاداد[211] وخراب البلاد وبها هلاك العباد..."[212]، وكان هذا قبل أن تحدث التحولات الكبيرة التي عرفتها الظاهرة العلمانية وانتقالها من مجرد الفصل بين الدين والسياسة وبعض مجالاتالحياة، إلى منظومة مهيمنة على جميع مجالات الحياة، بل حتى المشاعر والأحلام كما يذكر المسيري:" فقد ازدادت الدولة العلمانية قوة وتغولت وأصبحت الدولة التنين التي تنبأ بها "هوبز"[213]وأحكمت

---

[210] –عادل ضاهر : الأسس الفلسفية للعلمانية دار الساقي بيروت ط2 1998 ص38

[211]–الاداد: جمع ألاد، وهو الداهية والويل الفظيع، والمنكر الشديد .

[212]– محمد عبده : الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين دار الشهاب باتنة الجزائر ص120

[213]–توماس هوبز :(1588-1679) وهو فيلسوف انجليزي ومن أوائل الماديين المحدثين وأحد كبارهم ألف كتاب مبادئ القانون الطبيعي والسياسي، ونشره سنة 1640،ويعتبر ناقلا لأفكار الماديين اليونان ديموقريطس وأبيقور الذين هم جذور الإلحاد الفلسفي الغربي المعاصر، كان هوبز يحمل عداء شديدا للدين والكنيسة ورجال الدين، وليس في مذهبه هو جديد عن أفكار الماديين اليونان

بمؤسساتها الأمنية قبضتها على الفرد من الخارج .كما أحكمت مؤسساتها التربوية قبضتها عليه من الداخل "[214] .

المطلب الثالث :أنواع العلمانية

مما لا شك فيه أن المطلع على تاريخ مصطلح العلمانية بين المنشأ وما صار إليه يكتشف أن مدلوله ومضمونه أخذ يكتسب معاني جديدة مع كل مرحلة، ولعل هذا ما دفع بعض المفكرين إلى التمييز بين نوعين من العلمانية وعلى رأسهم عبد الوهاب المسيري الذي شرح هذا المصطلح وتابع تحولاته مع كل الفلاسفة المنظرين للفكر العلماني وخلص إلى أن هناك اشكالية في استخدام المصطلح سواء في الخطاب التحليلي الغربي أم العربي ولحل هذه الإشكالية يتصوّر طرفين للعلمانية حيث يقول:" في أقصى أطرافه "ما نسميه " العلمانية الجزئية " وفي الطرف الآخر ما نسميه " العلمانية الشاملة " وتتمازج المدلولات فيما بينها فهما –كما أسلفنا –طرفان في متصل واحد أو دائرتان تحتوي الواحدة الأخرى "[215] .وبناء على ذلك تقسم العلمانية إلى:

1-**العلمانية الجزئية** : يعرفها عبد الوهاب المسيري بقوله :" العلمانية الجزئية : رؤية جزئية للواقع (براجماتية –إجرائية)، ومن ثم لا تتسم بالشمول .وتذهب هذه الرؤية إلى وجوب فصل الدين عن عالم السياسة، وربما الاقتصاد وهو ما يعبّر عنه بفصل الدين عن الدولة. ومثل هذه الرؤية تلزم الصمت بشأن المجالات الأخرى من الحياة "[216] .

وهذا النوع من العلمانية هو النتيجة المباشرة لانهزام الكنيسة أمام العلم وهو المضمون وهذه الصيغة هي الصيغة الشائعة بين معظم الناس في الشرق والغرب، بل وبين كثير من المفكرين العلمانيين .وهي

ما إلا ما قام به من إحياء لهذه المادية والدعوة إليها، فيعد بسبب ذلك أول الماديين المحدثين. ينظر معجم الفلاسفة جورج طرابيشي دار الطليعة بيروت لبنان ط3 سنة 2006 ص348 و عبد الرحمن حسن حبنكة كواشف زيوف ص 428 .

[214]– عبد الوهاب المسيري دراسات معرفية في الحداثة الغربية :مكتبة الشروق الدولية ط1 سنة 2006 ص56

[215]– عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة دار الشروق المجلد الأول ط1 2002ص220/219

[216]– عبد الوهاب المسيري : المرجع نفسه ص220

صيغة تملك استعدادا للتصالح والتعايش مع القيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة، بل والقيم الدينية ما لم تتدخل في عالم السياسة، ويمكن تسميتها "العلمانية الأخلاقية أو الإنسانية" كما يشير المسيري[217] فلا تنكر العلمانية الجزئية "الدين" ولكنها تعزله عن مجالات الحياة وعن مجال السياسة بالذات، "بحيث يتولى قيادة الدولة: الحكم وأجهزته ومؤسساته وخدماته رجال زمنيون لا يستمدون خططهم وأساليبهم في الحكم والإدارة والتشريع من الدين، وإنما يستمدون ذلك من خبرتهم البشرية في الإدارة والقانون وأساليب العيش، وتكون الروح العامة التي توجه الدولة والمجتمع في جميع مؤسساته الثقافية والسياسية والتشريعية وغيرها روحا غير دينية "[218].

وهذا المضمون لمصطلح العلمانية ارتبط بالظروف التي أحاطت بنشأة هذا المصطلح في أوروبا بسبب الصراع الذي نشأ بين الكنيسة من جهة وبين القوى الجديدة في مجال العلم والفن والاجتماع والسياسة وحتى رجال الإصلاح الديني أنفسهم كما حدث مع "مارثن لوثر" و"كلفن".

كما أن العلمانية الجزئية لا تنكر بالضرورة وجود مطلقات، وكليات أخلاقية، وإنسانية وربما دينية، أو وجود ما ورائيات وميتافيزيقا، وهي لا تسقط في الواحدية الطبيعية المادية، بل تترك للإنسان حيّزه الإنساني يتحرك فيه .

2-العلمانية الشاملة[219] :

أما العلمانية الشاملة فيعرفها عبد الوهاب المسيري بقوله :"رؤية شاملة للعالم ذات بعد معرفي (كلي ونهائي) تحاول بكل صرامة تحديد علاقة الدين بالمطلقات والماورائيات(الميتافيزيقية)بكل مجالات

---

[217]-عبد الوهاب المسيري العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص471

[218] -محمد مهدي شمس الدين :العلمانية المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ط 1996 ص 127

[219]-العلمانية الشاملة : يعبر عنها رفيق عبد السلام ب "العلمانية الكاملة " . ينظر رفيق عبد السلام :في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات الدار العربية للعلوم ناشرون دون ط ودون سنة ص 51، ويصفها راشد الغنوشي ب "العلمانية المتطرفة" مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني ص 83 . ويراها محمد عمارة "علمانية ثورية "ينظر محمد عمارة :العلمانية ونهضتنا الحديثة دار الشروق ط2 سنة 1986 ص 13 أما القرضاوي فيراها "علمانية متطرفة" في كتابه التطرف العلماني في مواجهة الإسلام ص 111

الحياة .وهي رؤية عقلانية مادية[220]، تدور في إطار المرجعية الواحدية المادية[221] التي ترى مركز الكون كامن فيه"[222] .

ومن هنا فمضمون العلمانية الشاملة تَجَاوز المفهوم القديم في عملية العلمنة،بحيث أصبحت تشمل جميع المجالات وكل المستويات، فهي لا تفصل الدين عن الدولة فقط أو عن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وإنما تفصل القيم الأخلاقية والإنسانية جميعها عن الدولة وعن جوانب الحياة العامة بل والخاصة كافة، وهي في واقع الأمر تفصل سائر القيم عن الطبيعة والإنسان، فالعالم مكتف بذاته وهو مرجعية ذاته، فهي لا تؤمن بالمطلقات، وتنكر أية نقطة مرجعية متجاوزة لهذه الدنيا، إلا أنها تستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية كامنة في المادة (الطبيعة أو الإنسان أو التاريخ).

والمدقّق فيما وصلت إليه العلمانية من مضامين يكتشف أن "العلمانية الشاملة" مرت بمراحل تاريخية مركبة، ومعقدة منها الواضح، ومنها غير الواضح، بحيث تعمّق المفهوم المادي فيها مع كل مضمون فلسفي عالج الواقع الأوروبي، وأعطاه رؤية جديدة تداخلت فيه الجوانب المعرفية والوجودية والقيمية بمضامينها الجديدة المكتسبة من فلسفات مختلفة، يقول المسيري :"وهذا المطلق يمكن أن يتخذ عدة أسماء، ويتبدى من خلال عدة أشكال (اليد الخفية وآليات السوق عند آدم سميت – وسائل الإنتاج عند ماركس – الجنس عند فرويد – الروح المطلقة عند هيجل – قانون البقاء عند داروين – إرادة القوة عند نيتشه– التقدم اللانهائي في الحضارة العلمانية – عبء الرجل الأبيض في

---

[220]–العقلانية المادية : مذهب فكري يزعم انه يمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي، ويؤمن بأن العالم يحوي داخله ما يكفي لتفسيره، وأن العقل مستقل بذاته، قادر على التفاعل مع الطبيعة والوصول إلى القوانين الكامنة في المادة وأنه يمكنه انطلاقا منها تطوير منظومات معرفية وأخلاقية ودلالية وجمالية تهديه في حياته(.العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد2 ص462) وينظر الموسوعة الميسرة ص 796

[221]– الواحدية المادية :هي الرؤية القائلة بأن مركز الكون كامن فيه، فهي توحد الإنسان بالكون مع استبعاد الإله تماما وهذه الرؤية تشكل الإطار المعرفي لكل الإيديولوجيات العلمانية الشاملة الحديثة وهي تستبعد أي عنصر من عناصر التجاوز فلا مجال في منظومتها المعرفية والأخلاقية للإله والقيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة والغائيات المتجاوزة للمادة .

[222]– عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص220

التشكيل الاستعماري الغربي – روح التاريخ عند الهيجليين) .وكل هذه المفاهيم لا تعدو أن تكون تنويعا سطحيا على مفهوم الطبيعة /المادة"[223] .

ومن المفكرين من يطلق لفظ العلمنة على العلمانية الشاملة ويرى بأنها : برنامج فلسفي شامل وهي تتمايز كليا عن العلمانية الجزئية .يقول سيد محمد نقيب العطاس :"إن الدولة الإسلامية التي تسمى نفسها "علمانية" ليست بالضرورة معادية للحقيقة الدينية، أو التربية الدينية، كما أنه ليس معنى ذلك أنها تجرد الطبيعة من معناها الروحي، أو تنكر القيّم والفضائل الدينية في الشؤون السياسية والإنسانية . ولكن العملية الفلسفية العلمية التي أسميها " العلمنة" تعني حتما تجريد عالم الطبيعة من المعنى الروحي، وإبعاد السياسة من الدين وعزل الدين عن كل شؤون حياة الإنسان ومناحيها، كما تعني إبعاد القيم المقدسة من تفكير الإنسان وسلوكه "[224] .

وبهذا يظهر أن العلمانية الشاملة لا تقتصر على الجوانب السياسية والاجتماعية للحياة فحسب، ولكنها تشمل أيضا بالضرورة الجوانب الثقافية، فتعني وجوب تغييب الدين عن الحياة بكل تفاصيلها بحيث يتحرر بمقتضاه المجتمع والثقافة من الخضوع لوصاية الدين والأنساق الميتافيزيقية المغلقة، فالعلمنة عمل تطوري تحرري يقوم على ثلاثة عناصر أساسية هي :

1-عدم الانبهار بالطبيعة [225]: ويقصد بها تجريد الطبيعة من المعاني. وهذا يعني بالطبع نبد الأرواح والآلهة والقوى السحرية من عالم الطبيعة، وبالتالي فصل الطبيعة عن الله وتميز الإنسان عنها، بحيث لا يرى الإنسان بعد ذلك أي أثر للخلق الإلهي. وبذلك ينفتح المجال أمام الإنسان للتصرف في الطبيعة بحرية واستخدامها لصناعة التغيير وفق حاجاته وغاياته .

---

[223]-عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص473/472

[224]- سيد محمد نقيب العطاس : مرجع سابق ص 20

[225] – أول من استخدم هذا المصطلح فردريك سشيلر، ونقلها عنه ماكس فيبر .وقد استخدم ماكس فيبر مصطلحا آخر في هذا السياق هو مصطلح العقلنة .انظر سيد محمد نقيب العطاس مرجع سابق ص 43

2-تحرير السياسة من الدين : أو تجريد السياسة من القداسة فإنهم يعنون به إلغاء أي أساس مقدس لشرعية النفوذ والسلطان السياسيين إذ أن هذا الإلغاء هو الشرط للتغيير السياسي وبالتالي للتغيير الاجتماعي، وهذا من شأنه أن يفتح الطريق لانبثاق العملية التاريخية نفسها.

3-نزع القداسة عن القيم :ويعنون به تجريد القيم من القداسة بحيث ينظر إلى كل الإنتاج الثقافي وإلى كل منظومات القيم على أنها أمور مؤقتة ونسبية، وذلك بالطبع يشمل الدين والرؤى الكلية للوجود التي لها تعلق بالقضايا الكلية والأسئلة النهائية عن الوجود والحياة وبهذا يصبح التاريخ والمستقبل مفتوحا على التغيير المستمر ويصبح الإنسان حرا في إحداث هذا التغيير .

وخلاصة القول في هذا السياق أن يدرك العلماني أنّ أفكاره ومعتقداته نسبية، وأن القواعد الخلقية التي تحكم حياته متغيّرة عبر العصور والأجيال ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج بحيث يتخلى عن كل سند ديني أو غيبي ويجعل الإنسان يعتمد على نفسه[226] .فتنطلق العلمانية الشاملة من رؤية شاملة للكون، وترى أن عالم المادة والحواس هو البداية والنهاية .

ويمكن بيان الفرق بين الجزئية والشاملة فيما أشار إليه رفيق عبد السلام حيث يقول :"رغم أن نظريات العلمنة تتأسس على مقولة رئيسية هي :فصل الدين عن مؤسسات الحكم الزمني، إلا أن هذا في حقيقة الأمر ليس إلا عنصرا من بين عناصر كثيرة تنادي بها المنظومات العلمانية، فعملية الفصل بين الديني والسياسي تعد جزءا من ظاهرة أعم وأشمل تتمثل في إبعاد الدين عن الحياة العامة ومختلف المؤسسات الاجتماعية "[227] وبهذا تمت عملية تهميش كلية أو جزئية للدين لحساب السياسة، باعتبارها نشاطا عقليا يستهدف بسط سلطة الإنسان على الكون واكتشاف طاقاته وتوظيفها في تحقيق متاع الإنسان ورفاهه متحررا من كل سلطة علوية.

---

[226]- انظر رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية ص44/43

[227]- المرجع نفسه ص 25

وإذا كان التمايز بين الديني والسياسي نشأ مع العلمانيات منذ زمن مبكر، فإن ما يميّز العلمانية الحديثة هو استنادها إلى تصوّر جديد للدّين والسياسة والأخلاق، مبني على الأسس الدهرية الدنيوية ومستبعدا تماما فكرة التعالي والتجاوز، وعلى أساس هذه النظرية أعيد بناء مفهوم الديني والعلماني وبموجبها أعيد رسم حدود الدّين ومجال فعله، مثلما رسم حدود العلماني ومواقع اشتغاله، وبناء على هذه النظرية تم حصر الدّين ضمن دائرة الحقل الخاص الذي يشار إليه بالمقدس والروحاني، بينما وسعت دائرة العلماني إلى أقصى حد ممكن وصنف ضمن دائرة العقلاني والإجرائي والعملي والبراجماتي[228].

من خلال ما سبق يتبين أن العلمانية كلمة يطبعها شيء من الغموض والاضطراب وذلك بسبب تعدد زوايا النظر، وتباين الحقل الدلالي اللغوي بين المجتمعات الغربية،كما أن استخدام المصطلح اليوم أصبح حاملا لمضامين فلسفية وليس من السهل الاطمئنان إلى تعريف محدد ومحايد باعتبارها لا تنفك عن المنظومات الإيديولوجية[229]، غير أن المؤكد أنها تلتقي في قضية جوهرية وهي إيمانها بالمادة ورفضها للدين، ومن ثم فنحن نتعامل مع هذا المصطلح بالصيغة الغالبة عليه في الاستعمال.

وبعد هذا العرض لأهم مصطلحات البحث وخاصة مصطلح القيم، الذي يعد مرتكز المجتمع المسلم وأساس حضارته،فسوف نتطرق لمنظومة القيم الإسلامية في الفصل الأول، ونحاول الإلمام بأهم القيم التي تنبع من عقيدة التوحيد وتغطي المجالات الأساسية من الحياة الإسلامية، ونتناول الدرس فيها من حيث أهميتها،ومصادرها،وخصائصها،ومجالاتها .

الفصـــل الأول

منظومة قيم عقيدة التوحيد

وأتناول فيه ما يلي :

---

[228]- رفيق عبد السلام: في العلمانية والدين والديمقراطية ص 26/25

[229]- المرجع نفسه ص19

المبحث الأول: أهمية القيم

المبحث الثاني :مصادر القيم

المبحث الثالث: خصائص القيم

المبحث الرابع :تصنيفالقيم

المبحث الأول : أهمية القيم :

المطلب الأول :أهمية القيم في الحياة الإنسانية

تعتبر القيم عنصرا رئيسا في تشكيل ثقافة أي مجتمع، وتعد المثل العليا التي يتطلع إليها جميع الأفراد ليحققوا اعتبارهم الشخصي و الاجتماعي، حيث تلعب دورا مهما في إدراك الأفراد لما يدور حولهم وتصورهم للعالم المحيط بهم، لذلك نجد أن مع كل تغيير في التركيب البنائي للمجتمع لا بد أن تتغيّر القيّم لتواكب التركيب البنائي الجديد،وحينئذ ينشأ الصرّاع القيمي بين القيم الجديدة أو المستهدفة والقيم السائدة بالفعل في المجتمع. وهذا لما تملكه القيّم من قداسة في نفس كل فرد من أفراد المجتمع، لأن" القيم تعتبر مرتكزات أساسية تقوم عليها عملية التفاعل الاجتماعي" [230] ذلك أن الإنسان مخلوق مقوّم، فهو دائما وأبدا وفي كل زمان ومكان يقوّم الأشياء :أي يصدر أحكاما قيمية عليها، فهذا له قيمة وذاك ليس له قيمة، وهذا طيب وذاك خبيث، وهذا أحسن من ذاك .

وعملية التقويم لا تتضح فحسب في مجال التعبير اللفظي بالاستحسان والاستهجان، بل تتعداه لتشمل جمع قضايا الحياة، والحكم على السلوك، والأفعال، والمواقف، وإن كان هذا التقويم يختلف من مجتمع إلى آخر "فالقيم من المفاهيم الجوهرية في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهي تمس العلاقات الإنسانية بكافة صوّرها. ذلك لأنها ضرورة اجتماعية، ولأنها معايير وأهداف لابد أن نجدها في كل مجتمع منظم سواء أكان متأخرا، أم متقدما . " [231]

وإذا اعتبرنا الثقافة في أحد مفاهيمها هي الرؤية الشاملة للحياة، فهي تتألف من ناحية من مجموعة القيم المستمرةوالمستمدة من مرجعية المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى تتألف من أحكام وأفكار عامة. غير أننا نجد أن القيم بالغة التأثير في توجيه السلوك وفي رسم صورة مثلى لحياة الإنسان، فحركة المجتمع نحو الرقي أو الانحطاط تتناسب طردا مع نوعية الفاعلية القائمة بين الذات الإنسانية والواقع وما به من القيم والموضوعات، وبهذا تمس القيم العلاقات الاجتماعية بكافة صوّرها ؛ لأنها ضرورة اجتماعية تتغلغل في شخصية الأفراد في شكل اتجاهاتودوافع وتطلعات، تظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تكشف ارتباط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وهي

230–إسماعيل عبد الفتاح :القيم السياسية في الإسلام الدار الثقافية للنشر ط1 سنة 2001 ص7

231– فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية دار النهضة العربية ط سنة 1980 ص16

تعبّر عن نفسها في صورة قوانين، ولوائح وبرامج التنظيم الاجتماعي، وفي المرغوبات والممنوعات التي يتربى عليها الضمير الجمعي.

إذن تعد القيّم بوصلة تضبط توجه المجتمع وترسم وحدته، فبقدر وحدة القيم في المجتمع يكون تماسكه، وبقدر التفاوت والتباين في القيم يكون تفكك المجتمع وتكثر الصراعات وتكبر الهوة بين أفراده، وبخاصة في المواقف الهامة في الحياة.

فيشير ماجد عرسان الكيلاني إلى هذه الأهمية و يربط مستقبل أي مجتمع على نوعية القيم التي يختارها فيقول : "يعتمد مستقبل أي مجتمع على القيم التي يختارها أكثر من اعتماده على تقدم التكنولوجيا، ويشير تحليل الثقافات والتشكيل الاجتماعي للشخصية الإنسانية إلى أن القيم تؤثر في أدق وظائف الثقافة ابتداء من استعمالات التكنولوجيا حتى متطلبات الأداء الوظيفي والمشاركة الاجتماعية"[232] ويمكن إرجاع هذه الأهمية إلى الأسباب التالية:

-السبب الأول :

أن القيم الأخلاقية هي الموازين التي يزن بها الإنسان في الحياة ليفرق بين الحق و الباطل، وليميز بها الطيب من الخبيث، وليعرف الخير من الشر، فكما أن الله تعالى خلق الكون بالميزان، فهو في غاية الدقة والعناية والرعاية قال تعالى: {وَالسَّمَاءرَفَعَهَاوَوَضَعَالْمِيزَانَ.أَلَّاتَطْغَوْافِيالْمِيزَانِ.وَأَقِيمُواالْوَزْنَبِالْقِسْطِوَلَاتُخْسِرُواالْمِيزَانَ }[233] فقد أمر الناس أن يزنوا الأمور بميزانه لا بميزان يضعونه لأنفسهم، لأنهم لا يحيطون بكل خير، وبكل شر في الحياة، حتى يستطيعوا رسم طريق النجاة والفلاح في الحياة قال الله تعالى

[232]-ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع د ط سنة 1998ص338.

[233]- سورة الرحمن الآية: 7/8/9.

: {لَقَدْأَرْسَلْنَارُسُلَنَابِالْبَيِّنَاتِوَأَنزَلْنَامَعَهُمُالْكِتَابَوَالْمِيزَانَلِيَقُومَالنَّاسُبِالْقِسْطِوَأَنزَلْنَاالْحَدِيدَفِيهِبَأْسٌشَدِيدٌوَمَنَافِعُلِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَاللَّهُمَنيَنصُرُهُوَرُسُلَهُبِالْغَيْبِإِنَّاللَّهَقَوِيٌّعَزِيزٌ}[234].

السبب الثاني :هو مكانة القيم في أي اجتماع إنساني ينشد الاستقرار، فالمجتمع الإنساني له مجموعة من الحاجات والرغبات الجسدية والنفسية لا يمكن أن تتحقق إلا بوجود قيم أخرىتقابلها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الترابط بين إشباع الحاجات والقيم المقابلة لها، ومنه قوله تعالى : "{رَّبَّنَاإِنِّيأَسْكَنتُمِنذُرِّيَّتِيبِوَادٍغَيْرِذِيزَرْعٍعِندَبَيْتِكَالْمُحَرَّمِرَبَّنَالِيُقِيمُواالصَّلاَةَفَاجْعَلْأَفْئِدَةًّمِّنَالنَّاسِتَهْوِيإِلَيْهِمْوَارْزُقْهُم مِّنَالثَّمَرَاتِلَعَلَّهُمْيَشْكُرُونَ}[235] فإشباع الحاجات الجسدية من الثمرات، والحاجات النفسية من الأمن تساعد على تجسيد قيّم الشكر التي أمروا للالتزام بها، والدعوة إليها .

وإذا كانت الحاجات الإنسانية تتسم بنوع من الثبات والوحدة عند بني الإنسان فإن القيم التي تعتبر وسائل أو غايات للحاجات تختلف اختلافا كبيرا يتوزع بين الدرجتين صفر وثلاثمائة وستين وهذا الاختلاف ناتج من اختلاف المعتقدات والأفكار المتعلقة بهذه الحاجات وما تفرزه من أعراف وعادات وتقاليد لإشباع الحاجات وتنظيمها على نسق معين فالذي تبيحه هذه الثقافة ربما تمنعه تلك وهذا سواء كانت القيم معيارية[236]أو نسبية[237] .

السبب الثالث:الذي يعطي للقيم هذه الأهمية هي كونها أهم عنصر للهوية والشعور بالانتماء إلى منظومة معيّنة، وهو شعور عميق في النفس الإنسانية، يمنحها التوازن النفسي، والانسجام مع الذات،

---

[234]- سورة الحديد الآية: 25

[235]- سورة إبراهيم الآية :37

[236]–القيم المعيارية : هي القيم التي لها معيار تقاس به صوابية وسائل إشباع الحاجات، وفي ضوء هذا المعيار تقرر الوسائل الصحيحة من الخاطئة والحلال من الحرام والمشروعة من المخالفة، والأديان السماوية تندرج تحت هذا النوع المعياري من القيم . ينظرماجد عرسان الكيلاني :فلسفة التربية الإسلامية ص339.

[237]– القيم النسبية : هي القيم التي ليس لها معيار عقدي مسبق وإنما تستند في صوابيتها ومشروعيتها على نسبة رغبات الأفراد والجماعات والعمل الحاسم في ذلك هو ما تجمع عليه الأكثرية في المجتمع، غير أن هذا النوع من القيم متذبذب الصوابية والبقاء بتذبذب رغبات الأفراد والجماعات.ينظر ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص 340

والتفاعل مع المجتمع تفاعلا إيجابيا، فلا يمكن أن نجد شخصا لا يصنف نفسه في هوية معينة سواء كان ملتزما بقيمها أم لا، لأن هذا الشعور يجعله لا يشعر بالاغتراب والوحدة .

السبب الرابع: كما ترجع أهمية القيم إلى تأثير ظاهرة العولمة التي اجتاحت العالم وكادت أن تعصف بالقيم الإنسانية المتنوعة، وتجعلها قيمة واحدة يختلط فيها الإيجابي بالسلبي ودون تمييز بين الشعوب والثقافات،ومن هنا وجب الحفاظ على الخصوصيات القيمية لكل مجتمع، وعدم الذوبان في الأنماط الجديدة التي يريد أن يفرضها منطق العولمة، وهو من أخطر التحديات التي تواجهها البشرية . يقول ماجد عرسان الكيلاني :" والواقع أن التحدي الكبير الذي تواجهه المجتمعات البشرية على المستويين الإقليمي والعالمي ليس هو خطر الحروب، والأسلحة الذرية والنووية كما يشاع، وإنما هو خطر الزلازل الجارية في ميدان القيم"[238] لأن القيم التي تصدرها العولمة منها الإيجابية التي يجب تحديدها، وتطويرها، وإشاعتها، ومنها السلبية التي يجب كشفها وتجفيفها لتفادي أخطارها على لمجتمع الإنساني. فمثلا نجد بعض المؤتمرات ومن خلال توصياتها تهدف إلى القضاء على النظام الأسري بصورته الطبيعية، وتشجع على إشباع الغريزة بإقرار نماذج شاذة، فهذا من شأنه أن يقضي على النسل البشري إذا هيمنت هذه القيم على السلوك البشري .

السبب الخامس: ويتمثل هذا السبب في كون كثير من مجالات العلوم أضحت تتحدث عن أخلاقيات العلم، وأخلاقيات الطب، وأخلاقيات التجارة، وأخلاقيات الأنترنت، وغيرها من المجالات، و ترى أن الحاجة ملحة لوضع ضوابط أخلاقية، وتدعو إلى إحياء التراث القيمي، من أجل تفادي مختلف الكوارث التي يمكن أن تنتج عن هذا السّعار في عالم البحث والتقنية . ومن هنا أخذ علماء الاجتماع والتربية، وعلماء النفس يركزون على بيان أهمية القيم الإنسانية بغض النظر عن مصدر هذه القيم الروحية والأخلاقية . إلا أن الحقيقة أصبحت واضحة في أن اتجاه الإنسانية نحو

---

[238]– ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص341

أخلاقة الحياة يعني عودتها إلى "الدين" كمصدر للقيم. فقد كتب ماسلو[239] يقول : "من المؤكد أن هناك حيّزا في التربية لتعليم القيم الروحية والأخلاقية، ولربما كان هذا الحيز أساسيا جدا وجوهريا . ولا داعي للقول بأن هذا التعليم يتناقض مع الفصل بين الكنيسة و الدولة وذلك لسبب أساسي وبسيط، وهو أن القيم الأخلاقية والروحية لا علاقة لها بالكنيسة، بل لعله من الأفضل أن نقول إن القيم محور عام في جميع أماكن العبادة، وعند الأديان كلها بما فيها الأديان الموّحدة . والحقيقة المسلّم بها هي أن القيم يجب أن تكوّن الغايات النهائية والعليا للتربية، كما أنها هي الغايات النهائية للعلاج النفسي، ولرعاية الطفل، وللزواج، وللأسرة، وللعمل وربما للمؤسسات الاجتماعية الأخرى .وقد يكون في هذا شيء من المبالغة ومع ذلك يجب قبوله والتسليم به.ونحن نرفض أن تكون أهداف التربية خاضعة لعقوبة السقوط في الخطر الكبير الذي يعرّف التربية أنها مجرد التدريب التكنولوجي دون علاقة بالحياة الفاضلة، والأخلاق وما له علاقة بذلك.إن أي فلسفة تربوية تسمح بأن تصبح الحقائق محايدة أخلاقيا، ومنفصلة كليا عن القيم تبيح من الناحية النظرية للطبيب النازي أن يقوم بتجاربه في مخيمات الاعتقال على بني البشر"[240].

السبب السادس : أن القيمالمسيطرة في المجتمع هي معيار رقيهفمن خلال سلم القيم تظهر القيم المركزية من القيم الهامشية، فترميز القيم وترقيمها بحسب أهميتها يكشف اتجاه المجتمع، فإذا كانت القيم الروحية مسيطرة كان الاهتمام بها واضحا ،كما في العهد الأول للإسلام، حيث كانت قيمة الحرص على رضوان الله تعالى متربّعة على سائر القيم، كما كانت قيمة الأخوة الإسلامية متوهّجة في القلوب والسلوك، وما تملية من إيثار وتعاون .ونستطيع التعرّف على القيم المسيطرة من خلال

---

[239]–ماسلو: هو عالم نفس امريكي (1908 – 1970) ولد في بروكلين من أبوين يهوديين مهاجرين من روسيا، وصاحب نظرية "التسلسل الهرمي للاحتياجات الإنسانية"، حاصل على الدكتوراه في الفلسفة (1934) من أبرز مؤلفاته: – أبعد ما تستطيعه الطبيعة البشرية – نحو سيكولوجية كينونة – الدافعية والشخصية .وخلاصة نظريته أن الحاجات الإنسانية في حاجة إلى اشباع، وهي متدرجة في أهميتها، و كلما أشبعت مجموعة من الحاجات تطالب النفس الإنسانية بحاجات أخرى، بشكل متصاعد، وتمثل هذه الحاجات الدافعية للسلوك الإنساني.

[240]– abraham maslw.religions, values andpeak-experience.(new York :penguin books ,1978)pp.57-58نقلا عن ماجد عرسان الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية ص342.

حديث الناس وسلوكهم، فإذا كانت المجالس تعج بذكر العقار، والبناء، والأسهم، والأرباح، والخسائر، على حين لا يذكر الله –إلا قليلا –عرفنا أن القيم المسيطرة هي القيم المادية.

وإذا رأينا المرء يحرص حرصا شديدا على الوفاء بالوعود المتعلقة بالمصالح المادية، إلا أنه لا يبالي كثيرا بالحرص على الواجبات الدينية في أوقاتها، علمنا أن قيمة العمل للدنيا هي المسيطرة، أما قيمة العمل للآخرة فهي هامشية .

وهذا المعيار مهم جدا، لأنه يكشف عن الخلل الموجود في مجتمعاتنا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يعين على قياس درجة التزام المجتمع بقيم الإسلام، ومن ثم تتضح الأولوية في تحديد العلاج، ووضع الخطط الواقعية للنجاح . فالبعد عن الزنا قيمة كبرى في الإسلام ترتبط بكلية حفظ النسل، لكن حتى تأخذ هذه القيمة مكانها الصحيح على صعيد الممارسة ينبغي أن يكون أمر الزواج ميسرا، من اعتدال في المهور، والنفقات ووجود المساكن ..الخ..

ومن شأن هذا التحليل أن يقودنا إلى مسألة مهمة وهي شمولية الإسلام في تشريعاته، وأن واقعيته في علاج المشكلات لا من خلال التلاعب بسلم القيم، بقدر ما هو تربية للمجتمع على المثالية الواقعية، وتوفير الظروف الملائمة لتطبيق أي قيمة من القيم، فترابط العلل والمشكلات يقتضي حتما ترابط الأدوية والحلول[241].

المطلب الثاني : :أهمية القيم في الحياة الفردية والجماعية

إذا كانت القيم تعتبر جزءا هاما في الإطار المرجعي للسلوك الإنساني في كل مجالاتها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وفنيا، فإنها كذلك تلعب دورا هاما في حياة الفرد والمجتمع :

أ – أما على المستوى الفردي: فنجد أن الفرد في حاجة ماسة في تعامله مع الأشخاص والمواقف والأشياء وحتى مع ذاته إلى نسق، أو نظام للمعايير والقيم، ويكون هذا بمثابة موجهات

[241]– ينظر عبد الكريم بكار : مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي دار القلم دمشق ط2 سنة 2001 ص301/300

لسلوكهوطاقات ودوافع لنشاطه، وسببا من أسباب انسجامه مع ذاته، ووسيلة لتحقيق طمأنينته وراحته . وبديهي إذا غابت هذه القيم، أو تضاربت، فإن الإنسان يغترب عن ذاته، وعن مجتمعه، ويحيا حالة من النفاق، والتناقض و القلق، بل ويفقد توازنه ودوافعه للعمل والإنتاج.

ب – أما على المستوى الجماعي: فإن أي تنظيم اجتماعي في حاجة إلى نسق من القيم يشابه تلك الأنساق القيمية الموجودة لدى الأفراد، فيضمّنه أهدافه، ومثله العليا التي عليها تقوم حياته ونشاطاته وعلاقاته، فإذا تضاربت القيم في المجتمع، أو لم تتضح بالشكل الكافي، فإنه سرعان ما يحدث الصراع القيمي الاجتماعي الذي يدفع بالتنظيم الاجتماعي إلى التفكك والانهيار[242].

وبناء عليه فإن وضوح المشروع القيمي للمجتمع وضبط مرجعيته هي الكفيلة بصيانة الأمن الداخلي، والسلم الاجتماعي من الاضطرابات والفتن، فمنظومة القيم الموحدة في المجتمع صمام أمان، وسر ازدهار، وإن لم يتطوّر المجتمع بخطوات سريعة، فإنه يحافظ على كيانه، وتفاعله الاجتماعي، أما إذا تضاربت المنظومات، فهذا من شأنه أن يعرض المجتمع من حين لآخر لاختلالات، تنتهي بحدوث الفتن الداخلية التي لا تبقي ولا تذركلما توفرت ظروف حدوثها.

إذن فأهمية القيم تنبع من جوهر القيم ذاتها، فالقيمة دائما وأبدا بحث متواصل عن المثل في الواقع حيث تمارس الذات فاعليتها، وتحاول باستمرار إعادة تشكيل هذا الواقع وفقا للمثل التي نعبّر عنها "بالقيم"، فهي دائما تتطلع إلى غد أفضل، فتشكّل باعثا على السلوك الخلاق، وهذه النظرة نحو المستقبل فبها تتشكل الثقافة، وعن طريقها يبدو طريق النمو والتقدم، ومن خلالها تتأكد الروابط، والعلاقات الاجتماعية، فأهميتها لا تقف عند مستوى الفكر الفلسفي، بل تتعداه، لأنها تتغلغل في حياة الناس أفرادا، وجماعات، وترتبط عندهم بمعنى الحياة ذاتها . فالتمكين للقيم يعد حياة للأمم، ولعل هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى

---

[242]–انظر إسماعيل عبد الفتاح: القيم السياسية في الإسلام الدار الثقافية للنشر ط1 سنة 2001 ص11

: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاسْتَجِيبُواْلِلّهِوَلِلرَّسُولِإِذَادَعَاكُملِمَايُحْيِيكُمْوَاعْلَمُواْأَنَّاللّهَيَحُولُبَيْنَالْمَرْءِوَقَلْبِهِوَأَنَّهُإِلَيْهِتُحْشَرُونَ }[243].

فمعنى الحياة الحقيقية في نظر القرآن لا يتحقق إلا مع وجود القيم، يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية : " إن رسول الله إنما يدعوهم إلى ما يحييهم ..إنها دعوة إلى الحياة بكل صوّر الحياة وبكل معاني الحياة ..إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة، والحتميات القاهرة ...ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر الإنسان، وتكريمه بصدورها عن الله وحده...ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور ؛ يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة ..." [244].

المبحث الثاني :مصادر القيم

المطلب الأول : مرجعية القيم الإنسانية

يتضح من خلال بيان مفهوم القيم والتأكيد على أهميتها أن القيم ثمرة تفاعل الفرد مع بيئته بجميع مكوناتها، ومما لا شك فيه أن أهمية الشيء تنبع من مصدرها، وتنال المكانة الرفيعة تبعا لشرف المصدر الذي تستمد منه، ولعل الباحث يكتشف أن تنوع أنماط السلوك عائد إلى اختلاف الثقافات التي يتحرك في مناخها الأفراد، فكل أمة تستمد أخلاقها من قيمها،وتنبع القيم من عقيدتها.

ولا يفوتني هنا وأنا بصدد مناقشة العلاقة بين القيم والثقافة المجتمعية أن أؤكد أن طبيعة البناء الثقافي ــوبالتالي النسق القيمي أو منظومة القيمــ هي نتاج مرجعية المجتمع، والمجتمع يتحرك في إطارها، فإذا كان ذلك الإطار فقيرا أو ناقصا، بحيث يركز على أبعاد محددة من الكيان الإنساني، فإن ذلك النقص ينعكس على النفس الإنسانية، والعكس صحيح تماما، أي أنه بقدر ما يكون الإطار الثقافي

---

[243]– سورة الأنفال الآية: 24

[244]– سيد قطب : في ظلال القرآن دار الشروق ط10 سنة 1982 المجلد الثالث ص1494

متكاملا بفضل مضمونه الغني من القيم التي تمس جوانب الكيان الإنساني بأكملها ينعكس ذلك على الإنسان كمالا، وتوازنا، وتماسكا يشد من أزر الإنسان في قيامه برسالته الحضارية، وهي وظيفة الاستخلاف في هذه الأرض.[245]

ففي عقيدة التوحيد نجد أن الشهادتين مفهومة على هذا النحو، فتبدوان بالدرجة الأولى بيانا لمنزلة الإنسان، وتحريره من سلسلة الأشباح، وتحرير للعقل من سلطة الخرافات والأوهام، وهي تعني أيضا استقلالا إنسانيا فريدا بإزاء كل ما هو مخلوق، أي أنها تحرير للإنسان من سلطة الإنسان [246].

في حين نجد أن كثيرا من الفلسفات ترجع السلوك لإنساني إلى دافع معيّن يحرك الإنسان في تصرفاته وانفعالاته، مع جهل بحقيقة الإنسان ذاته، فمثلا عند فرويد هي إسقاط للبيدو وأثر دال عليه.ومن هنا يظهر أن المرجعية في القيم تعمل على تحرير الإنسان، وتقييده في نفس الوقت من الخارج من خلال القوانين والتشريعات، و من الداخل من خلال العادة والضمير .

ففي نمط المرجعية البشرية يتبين أن هذه المرجعية تابعة في قصورها لقصور مصدرها، وهو العقل، وهي عاجزة عن الوفاء بحاجيات الإنسان مهما بذل من جهد في تصميمها، وذلك لكونها نابعة من جهل مقيم بالإنسان، وطبيعته المادية المعقدة، وأشواقه الروحية العميقة، التي لا تخضع للتجربة والقياس، فعلى الرغم من تطوّر العلوم في شتى المجالات مازال العقل الإنساني يواجه تحديات مختلفة في التعامل مع الجسم البشري، ناهيك عما يواجهه في التعامل مع النفس الإنسانية، بل إنه كلما حقق قفزات تبدت له مشكلات.

أما المرجعية الربانية النابعة من الوحي الصحيح، فمن بديهيات الأشياء أنها تكون كاملة لكمال الله تعالى، وأنها تحقق الإشباع لكل حاجات الإنسان وأشواقه إذا ما ربط وجوده بها؛ لأنها صادرة

---

[245]– ينظر عبد المجيد مسعود: القيم التربوية والمجتمع المعاصر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر ط1سنة 1999 ص56/55

[246]– فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي المعاصر المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط2 سنة 1981 ص 191

عن خالق الإنسان الذي يعلم من خلق، قال الله تعالى:{أَلَايَعْلَمُمَنْخَلَقَوَهُوَاللَّطِيفُالْخَبِيرُ }[247] وقال تعالى :{وَلَقَدْخَلَقْنَاالْإِنسَانَوَنَعْلَمُمَاتُوَسْوِسُبِهِنَفْسُهُوَنَحْنُأَقْرَبُإِلَيْهِمِنْحَبْلِالْوَرِيدِ }[248].

فالمرجعية النابعة من عقيدة التوحيد تنمي قدرة الإنسان الإبداعية، وتطلق كل طاقاته من عقالها ؛لأنها تربط حركته بوظيفته في الحياة، وتفتح له آفاقا تتجاوز محيط عالم الشهادة، و توضح منزلته في الآخرة، وبالتالي يستفرغ كل جهوده الممكنة، وفي إطار من الضبط والتنظيم تجعله في منجى ومنأى من إهدار أي جزء من تلك الطاقة في غير صالحه وصالح الإنسانية .

و من خلال ما سبق يتجلى أن أهم ما يميز فلسفة الأخلاق منذ القديم، اشتمالها على اتجاهين رئيسين لمصدر القيم، التي تحكم الحياة الإنسانية:

الاتجاه الأول: وهو الذي تمثله الفلسفة المادية والفلسفات الوضعية المختلفة، والتي تجسَّد منظورها للكون، والحياة، والإنسان، فيما أصبح يعرف اليوم ب"العلمانية الشاملة " ذات الجذور الفلسفية القديمة، والتي تقوم على مبدإ جدارة الإنسان في وضع منهج حياته، وصياغة منظومة قيّمه بنفسه والتي تستند إلى أحكام العقل، والحس، والتجربة الإنسانية، يقول محمد الأمين التجاني :" فنظرية القيّم (اكسولوجيا) بصفة عامة هي حصاد لمبحث الوجود(الإبستمولوجيا) لذلك كان منطقيا أن ينبع النسق القيمي الأخلاقي انبثاقا طبيعيا من داخل أحشاء الإبستمولوجيا، ذلك أن العلمانية استبعدت كل المصادر الماورائية، وحصرت نفسها في دائرة العقل، والحس، والتجربة الإنسانية "[249].

والحقيقة أن هذا الاتجاه لا يستند فيما يقرره إلى أحكام العقل، أو ما يكتشفه العلم ؛ لأن العقل في جوهره طاقة إدراكية يتجه إلى إنتاج ما هو إنساني، وموافق للفطرة في أحكامه، والواقع يرصد خلاف ذلك، فالعقل بما أنتجه من بحوث يرى أن لحم الخنزير مضر، والتدخين مهلك، ومع

---

[247]– سورة الملك الآية : 14

[248]– سورة ق الآية: 16

[249] محمد الأمين التجاني : مفهوم العلمانية في الفكر الغربي مركز التنوير المعرفي ط1 سنة 2007 ص170

ذلك لا نجد له منعا في هذا الاتجاه، فيخالف أحكام العقل، وهذا يدفعنا إلى البحث في المصدر الحقيقي للقيم في هذا الاتجاه، فنجدها تنحصر في أحكام الرغبة، والمنفعة، والغريزة، والمصلحة المادية البحتة، وبتعبير القرآن اتباع "الهوى"، و"الشهوة"، لأن منطلقها هو الشبهة، وغالبا ما تكون الشهوة مغلفة بحكم يزعم أنه من منطق العقل، وما ينتجه العلم، والحقيقة أنها مجرد شبهة يدّعي أصحابها أنها من أحكام العقل والعلم، وهي على خلاف ذلك، وإن كان معلنا لدى أنصار هذا الاتجاه أن مصدر المعرفة والقيم هو العقل، فضلا عن كونها فلسفة تطوف حول الفرد، ورغباته المادية البحتة هدفاوغاية.

إن المتأمل في النظريات الفلسفية عند القدامى كالسفسطائيين، وأبيقور، أو النظريات الحديثة عند هوبز، وداروين، وجيمس مل[250]، وفيورباخ [251]، ونتشه [252]، وكارل ماركس، وسارتر، وغيرهم من أصحاب المذاهب النفعية من الوضعيين، يجد أنهم حصروا القيم في دائرة اللذة والمنفعة الدنيوية للإنسان، وقطعوها عن كل غاية ما ورائية، بل استبعدت عن الفعل الإنساني المقاصد، والنيات، وجعلوا معيار الصواب والخطأ في المفعول الآني، والنتيجة اللحظية في الغريزة الإنسانية . فكان بذلك

---

[250]– جيمس مل : فيلسوف اسكتلندي عاش بين (1773– 1836 م) له نظرية في علم الاجتماع تشبه نظرية الآليين في الطبيعة الذين يقولون أن الطبيعة مؤلفة من ذرات تأتلف فتكوّن الأجسام، ويقول هو إن الفكر مؤلف من عناصر بسيطة "نقط شعورية "هي الإحساسات والانفعالات الأولية تأتلف تبعا لقانون الترابط بالتقارب فتكون سائر الظواهر الفكرية وقد تجلى هذا في كتابه"تحليل ظواهر الفكر الإنساني" الذي صدر سنة (1829م). ويعرف جيمس في الأوساط الفلسفية بأنه المدافع عن البراجماتية، ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 333 والموسوعة الفلسفية المختصرة ص178.

[251]– فيورباخ : فيلسوف وعالم اجتماع ألماني عاش بين (1804–1872م) لم تخرج فلسفته إجمالا عن إطار المادية الميثافيزيقية له عدة مؤلفات منها أطروحة مدخلية إلى إصلاح الفلسفة 1841م ومبادئ فلسفة المستقبل 1851م، ماهية الدي، ونظرية نشأة الكون 1857م عارض فيورباخ المذهب اللاهوتي القديم بمبدأ جديد هو المبدأ الانتربولوجي، وجعل الإنسان هو المبدأ الأساسي في فلسفته فالقانون الأعلى للعالم الإنساني ليس القانون الإلهي.

[252]– نتشه فريدريك فلهم (1844–1900م) فيلسوف ألماني، كان من المقرر أن يصير قسا، لكنه لما قرأ كتاب شوبنهاور "العالم كإرادة وتمثل" تأثر بفلسفة شوبنهاور وفلسفته الإلحادية التشاؤمية من أشهر مؤلفاته كتاب "هكذا تكلم زرادشت" الذي كان عنوانه الفرعي كتاب للجميع ولا لأحد فزرادشت بالنسبة له هو الإنسان القوي الذي يحطم ألواح القيم القديمة، لذلك كان مطمحه أن يكون هذا الكتاب بديلا عن الانجيل وبشارة في الوقت نفسه بالأزمنة الحديثة، فالثقافة الحديثة بحاجة لأن تؤسس على اعتقاد بقيم لا تكون قيم انحطاط نظير تلك التي تلهم المسيحية باعتبارها هي السبب فيما أسماه " أخلاق العبيد "وله كتاب "إرادة القوة" الذي وضّح فيه فلسفته وهو لم ينشر إلا بعد وفاته، ينظر جورج طرابيشي معجم الفلاسفة ص 677

الإشباع الفوري للغريزة شعارا لا يتنازلون عنه انطلاقا من خلفيتهم الإبستمولوجية التي تؤمن بنسبية المعرفة، بل بنسبية القيم وماديتها، " فكانت غايتهم هي إنشاء، وتكوين مجتمع إنساني حديث مفتوح يكون سياجه القيمي قابل للاختراق على مر الزمان وتجدد الظروف والأحوال "[253].وسنتناول في الفصول التالية أصحاب هذه الفلسفات، ونظرياتهم، وكيف كانت خلفية فكرية للعلمانية الشاملة .

–الاتجاه الثاني: وهو ما يمثله الاتجاه الديني عموما، غير أننا في هذه الدراسة وانسجاما مع مباحثها، سأتحدث عن مصادر القيم من خلال عقيدة التوحيد في الإسلام.

فمما لاشك فيه أن عقيدة التوحيد مستمدة من نصوص القرآن الكريم و السنة النبوية، فالله تعالى هو واضع القيم، ويكشف سيد قطب عن ذلك الارتباط العضوي بين العقيدة والقيم فيقول:"والحقيقة الأخرى : هي أن هناك تلازما وثيقا بين طبيعة التصور الاعتقادي وطبيعة النظام الاجتماعي ..تلازما لا ينفصل ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة، بل إن هناك ما هو أكثر من التلازم ..هناك الانبثاق الذاتي ..فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل للوجود، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته وغاية وجوده الإنساني " [254]ويبرر سيد قطب سبب هذا الترابط بأن " كل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو نظام مصطنع .لا يعيش، وإن عاش فترة شقي به " الإنسان " ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما.. فهي ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية "[255]. ومن هنا كان المصدر الأعلى للقيم هو "الدين" المنزل من عند الله، فأصول القيم كلها منصوص عليها، وهي تمثل الحد الأعلى للقيمة " وربط القيمة الإنسانية بهذا المصدر يكسبها سموا من ناحية، ويمنحها قوة ورسوخا من ناحية أخرى، وهي بهذا ترسم للمؤمن الطريق، وتضع له المعالم حتى لا يضل ولا يطغى "[256] فبيّن سبحانه وتعالى ذلك من أول سورة {اقْرَأْبِاسْمِرَبِّكَالَّذِيخَلَقَ }[257]

253–محمد الأمين التجاني : مفهوم العلمانية في الفكر الغربي مركز التنوير المعرفي ط1 سنة 2007 ص 170

254–سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته دار الشروق ط15 سنة 2002 ص 24

255– المرجع نفسه

256– جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية دار الكتاب المصري ط1 سنة 1984 ص 13/12

وكذلك في أواخر الآيات نزولا { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[258] وعلى مدى قرابة ربع قرن من الاتصال بين السماء والأرض تكوّن رصيد ضخم من القيم الإسلامية ذو المصدر الرباني في شتى مجالات الحياة، اعتنقتها أمة العرب فخرجت من الظلمات إلى النور، وشكّلت خير أمة أخرجت للناس . قال الله تعالى : { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ }[259].

المطلب الثاني : مصدر قيم عقيدة التوحيد

وبالنظر إلى مفهوم التوحيد نجد أن هناك ارتباطا واضحا بين موضوع" الإيمان" و"القيم" التي تحكم الحياة الإنسانية، فإذا كان الإيمان من أهم مضامينه الاعتقاد بصفات الكمال الإلهي، فإن الله تعالى من خلال تشريعاته رسم لعباده طريق القيّم التي تمكّن الإنسان من السعي إلى الكمال الإنساني المقدور، وهذا لكون منظومة القيم الإسلامية منسجمة ومتكاملة " وواضح أن سر التجانس الذي عرفته الحياة في ظل القيم الإسلامية يكمن في وحدة وثبات المصدر الذي كان يستقي منه أفراد المجتمع الإسلامي "[260].

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن القيم الإسلامية تتمحور حول الكليات الخمس، والوصايا العشر، وما يتفرع عنها. ذلك أن المصلحة هي الغاية من وضع الشريعة، وهي متحققة لا محالة إذا

---

[257]– سورة العلق الآية: 1

[258]– سورة المائدة الآية: 3

[259]– سورة آل عمران الآية: 110

[260]– عبد المجيد مسعود : القيم الإسلامية والتربوية في المجتمع المعاصر مصدر سابق ص 80

حافظنا على الكليات الخمس، فالمصلحة تعادل القيمة من حيث المعنى، ومن حيث الواقع العملي لكل منهما، وهي الأساس الوحيد الذي يصلح لبناء نظرية متكاملة في فلسفة الحضارة[261] .

وإذا كانت الحضارة تقوم في الأساس على دعائم خلقية، فإن هذه القيم صالحة لمنظومة خلقية ترتكز على مبدأ المحافظة على الدين، والنفس، و العقل، والعرض، والمال. ففي عقيدة التوحيد أن الإنسان مطلق الإنسان محكوم عليه بالخسار قال الله تعالى :{وَالْعَصْرِ.إِنَّالْإِنسَانَلَفِيخُسْرٍ }[262] وأنه لا يخرج من هذا الحكم إلا بفضل إيمانه بالله تعالى، وتحليه بالقيم "عملوا الصالحات" التي تنعكس على علاقته بربه، وبنفسه، وبأخيه الإنسان، وبظواهر الكون من حوله، وبغيره من الأحياء .

ولما كان الإنسان كائنا اجتماعيا، إضافة إلى شعوره الأصيل بكيانه الفردي – وهو بطبيعته يريد المحافظة على وجوده وبقائه وسعادته – فإن من أوضح مقوّمات ذلك المحافظة على نفسه وعقله ونسله وماله.

فالعقل هو الأداة الفعالة التي يمارس بها أمانة الاستخلافعن طريق عملية التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض وكشف أسرار الخلق للتمكن من تسخير الكون من أجل انجاز عمله الحضاري. قال الله تعالى : {هُوَالَّذِيجَعَلَلَكُمُالْأَرْضَذَلُولاًفَامْشُوافِيمَنَاكِبِهَاوَكُلُوامِنرِّزْقِهِوَإِلَيْهِالنُّشُورُ }[263].

كما أن عنصر المال ضروري لاستمرار العمل الحضاري باعتباره شريان الحياة، لذلك سماه القرآن بالزينة والخير فاستخدامه بالأسلوب المعقول كسبا وإنفاقا ينعش الحياة ويحافظ عليها قال الله تعالى :{وَإِنَّهُلِحُبِّالْخَيْرِلَشَدِيدٌ }[264].

وأما النسل فالمحافظة عليه ضرورة لاستمرار "النوع على أكمل وجوه البقاء"[265]باعتباره الطريق الآمن لتنظيم العلاقة الغريزية، وتحقيق أهدافها في الحياة الإنسانية بجميع أبعادها .

261– ينظر فهمي محمد علوان : القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1989 ص91

262– سورة العصر الآية: 2/1

263– سورة الملك الآية: 15

264– سورة العاديات الآية: 8

والعناصر الضرورية السالف ذكرها لا تكتمل إلا بعنصر ضروري آخر هو الدين، بل إن الحياة الإنسانية، أو الوجود الإنساني لا يقوم إلا به .

وبالعودة إلى مضامين التكاليف الشرعية ومقتضياتها، نجد أن هذه المقاصد مرتبطة بحياة الإنسان الفردية والجماعية، وأن صيانتها لا يكون إلا بإقامة أركانها، وتثبيت قواعدها، وذلك عن طريق مراعاتها من جانب الوجود، أي رعاية الشروط التي تحمي كيانها، وتجعلها في حالة من الكمال والتوازن من جهة، وبدرء الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، أي الحيلولة دون كل ما من شأنه أن يعرضها للضعف، أو النقصان، أو التلف من جهة أخرى .

وإذا تأكد لدينا هذا عرفنا تبعا له أن حفظ المقاصد لا يكون إلا بتشبع الأفراد بنظام من القيم يتصف بالكمال، ومن خصائص الكمال أن يكون متطابقا مع الفطرة ومنسجما معها، وليس ذلك النظام إلا منظومة القيم الإسلامية، فالوحي كلام الله، والفطرة خلق الله فلا شك أنهما لا يتناقضان ولا يختلفان. قال الله تعالى : {فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَلِخَلْقِاللَّهِذَلِكَالدِّينُالْقَيِّمُوَلَكِنَّأَكْثَرَالنَّاسِلَايَعْلَمُونَ }[266].

وهذا النظام القيمي هو الذي يتشكّل منه النظام الاجتماعي الذي يقوم على أساس من الإيمان بالله، والإقرار بالعبودية الخالصة له، إذ أن هناك ارتباطا بين طبيعة النظام الاجتماعي والتصوّر العقدي، بل أكثر من ذلك فإن منهج الحياة كله بما في ذلك مشاعر الأفراد منبثق من التصور العقدي، وواضح من التلازم الموجود في الآيات القرآنية بين أركان العقيدة وما يُطالب به الإنسان سلوكيا واجتماعيا كما نجد ذلك في سورة الماعون. قال الله تعالى:{أَرَأَيْتَالَّذِييُكَذِّبُبِالدِّينِ. فَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَ .وَلَايَحُضُّعَلَىطَعَامِالْمِسْكِينِ.}[267] ويعلق محمد التومي على هذه الآيات بقوله : "

---

[265] –عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه الزهراء للنشر والتوزيع الجزائر ط1 سنة 1990 ص 201

[266]–سورة الروم الآية: 30

[267]– سورة الماعون الآية: 2/1

ولم تكتف السورة بوصف المكذب بالدين من حيث أخلاقه الاجتماعية المنحرفة، بل حاولت أن يكون ختامها حربا على التّدين الذي لا روح فيه، ذلك التّدين الذي يقتصر على مجرد الحركات الظاهرة دون أن يصل إلى الحقيقة الشاملة التي يحرص القرآن على إثباتها وهي أن الدين في حقيقته منهاج حياة، وأسلوب معاملة، وبرنامج متكامل لتحقيق السعادة، والطمأنينة للبشر في تجمعهم واجتماعهم "[268].

ولا يفوتنا هنا _ونحن نعالج مصادر القيم ومدى ارتباطها بالكليات الخمس_ الإشارة إلى ارتباطها أيضا بدائرتي الحاجيات والتحسينيات، حيث أننا نجد أن القيم الإسلامية تستوعب سلوك الإنسان في جميع جوانبه الدقيقة لتعينه على الارتقاء والتدرج في مستويات الكمال والذوق الرفيع [269]، فعلى قدر تشبّع الشخصية بالشحنات التي تهبها القيم يتفاوت الأفراد المسلمون في المسارعة إلى الخيرات والارتقاء في الكمالات.

ونخلص في ظل المعطيات السالفة الذكر إلى أن القيم لها مصدر علوي سماوي تتمحور حول الكليات الخمس وما يتعلق بها من ضروريات وحاجيات وتحسينيات، وأنها تتحرك في إطار العقيدة الإسلامية، أي في إطار التصوّر والرؤية الكلية للكون، والحياة، والإنسان، فتعطي للإنسان قوة الضبط والدفع وبدونها يظل الإنسان غير ملتزم بالتكاليف، ومتثاقلا إلى الأرض، ومقيدا بأغلال الماديات .

المبحث الثالث: خصائص قيم عقيدة التوحيد

تتميّز قيم عقيدة التوحيد عن غيرها من قيم المنظومات الأخرى، وذلك لتميز تصورات عقيدة التوحيد، ومن هنا كانت لها خصائص متفردة . يقول سيد قطب :" للتصور الإسلامي خصائصه

---

[268]– محمد التومي : المجتمع الإنساني في القرآن الكريم المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط 2 سنة 1990 ص45

[269] – ينظر عبد المجيد مسعود: القيم الإسلامية والتربوية في المجتمع المعاصر ص76

المميزة التي تفرده من سائر التصورات، وتجعل له شخصيته المستقلة، وطبيعته الخاصة، التي لا تتلبس بتصور آخر ولا تستمد من تصور آخر "[270].فما هي أهم خصائص قيم عقيدة التوحيد:

المطلب الأول : الربانية

من خصائص قيم عقيدة التوحيد أنها ربانية، لأنها صادرة من الله تعالى، ووظيفة الإنسان فيها التلقي عن طريق الرسل، ثم الاستجابة والتكيف مع الخطاب الإلهي والعمل على تطبيقه في الواقع حسب قدرة الاستيعاب والطاقة . قال تعالى: {فَاتَّقُوااللَّهَمَااسْتَطَعْتُمْوَاسْمَعُواوَأَطِيعُواوَأَنفِقُواخَيْرًالِّأَنفُسِكُمْوَمَنيُوقَشُحَّنَفْسِهِفَأُوْلَئِكَهُمُالْمُفْلِحُونَ }[271] ومن هنا فالقيم الإسلامية ليست من إنتاج فكر بشري، أو بيئة معينة ولا فترة زمنية خاصة ولا عوامل أرضية على وجه العموم، إنما هي قيم خالصة من الله تعالى في مصدرها ومنهجها وغايتها .

1-فهي ربانية في المصدر: لأنها" لا يمكن أن تنفصل عن الشّرع، فهي بالشّرع تقوم وتعطي أكلها، وبغيره لا يقوم لها كيان، ولا ينتشر لها إشعاع في دنيا الإنسان " [272] ومعنى هذا أن قيّم عقيدة التوحيد مستمدة من شريعة الله ولا تناقضها، وحتى الرسل عليهم السلام لم يشاركوا في إنشاء هذه القيم، وإنما قاموا بشرح وبيان وتجلية ما تلقوه من الله تعالى لهداية الناس، وشرح صدورهم إلى أقوم سبيل، فهي خارجة عن اختصاص الرسل والأمر في النهاية مرده إلى الله وحده قال الله تعالى :" {وَلَوْتَقَوَّلَعَلَيْنَابَعْضَالْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَامِنْهُبِالْيَمِينِ }[273].

2-وهي ربانية في المنهج : لأن الشرع الحنيف رسم منهجها للوصول إلى غاياته المنشودة الدنيوية أو الأخروية، وهو صراط الله المستقيم . فإضافة المنهج إلى الله يعني أنه هو واضعه ومحدد معالمه، أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو القائد في هذا المنهج والمبيّن للناس ما اشتبه عليهم من أمره قال الله

---

[270]- سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص41

[271]- سورة التغابن الآية: 16

[272]-عبد المجيد مسعود : القيم التربوية الإسلامية ص91

[273]- سورة الحاقة الآية: 45/44

تعالى: {وَكَذَلِكَأَوْحَيْنَاإِلَيْكَرُوحاًمِّنْأَمْرِنَامَاكُنتَتَدْرِيمَاالْكِتَابُوَلَاالْإِيمَانُوَلَكِنجَعَلْنَاهُنُوراًنَّهْدِيبِهِمَنْنَّشَاءمِنْعِبَادِنَاوَإِنَّكَلَتَهْدِيإِلَىصِرَاطٍمُّسْتَقِيمٍ.صِرَاطِاللَّهِالَّذِيلَهُمَافِيالسَّمَاوَاتِوَمَافِيالْأَرْضِأَلَا إِلَىاللَّهِتَصِيرُالْأُمُورُ }[274].

3- وهي ربانية في الغاية :لأنها تستهدف تحقيق حسن الصلة بالله تعالى والحصول على مرضاته، ومن ثم فهي غاية الإنسان ومنتهى أمله وسعيه من كدحه في هذه الحياة. قال الله تعالى :{يَاأَيُّهَاالْإِنسَانُإِنَّكَكَادِحٌإِلَىرَبِّكَكَدْحاًفَمُلَاقِيهِ }[275]وقال تعالى :{وَأَنَّإِلَىرَبِّكَالْمُنتَهَى }[276]ولا شك أن لقيّم عقيدة التوحيد أهدافا أخرى تتعلق بسعي الإنسان في كل مجال مشروع سواء كانت أهدافا اجتماعية أو اقتصادية أو إنسانية أو سياسية فإننا نجدها كلها خادمة" للهدف الكبير وهو مرضاة الله وحسن مثوبته .فهذا هو هدف الأهداف، أو غاية الغايات "[277].

وبناء على هذا فإنه لا يخلو عمل من قيمة من القيم التي تستمد من عقيدة التوحيد والتي تمنح هذه القيمة التميز عن غيرها، وذلك لتميُّز التصوّر المنبثقة عنه :"فهو تصوّر اعتقادي موحى به من الله سبحانه، ومحصور في هذا المصدر لا يستمد من غيره ...وذلك تمييزا من التصورات الفلسفية التي ينشئها الفكر البشري حول الحقيقة الإلهية، أو الحقيقة الكونية، أو الحقيقة الإنسانية والارتباطات القائمة بين هذه الحقائق "[278] لذلك فإن قيم عقيدة التوحيد تملك قدسية في مصدرها ونفاسة غايتها، فهي تتسم بأنها قيم مطلقة، لأنها مبرأة من النقص والهوى، ومتكيّفة مع العقيدة ومستقيمة على منهاجها .قال تعالى :"{ وَمَايَنطِقُعَنِالْهَوَىإِنْهُوَإِلَّاوَحْيٌيُوحَى }[279].

وبهذا تكون العقيدة هي القالب الذي تقاس عليه جميع القيم في صحتها وبطلانها، وكمالها ونقصانها. فإلى العقيدة يوكل تقييم القيم، ومحاكمتها، والحكم عليها . قال الله تعالى

---

[274]- سورة الشورى الآية: 53/52

[275]- سورة الانشقاق الآية: 6

[276]- سورة النجم الآية: 42

[277]- يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام شركة الشهاب الجزائر ص7

[278]- سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص45

[279]- سورة النجم الآية: 4/3

: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْليِالأَمْرِمِنكُمْفَإِنتَنَازَعْتُمْفِيشَيْءٍفَرُدُّوهُإِلَىاللّهِوَالرَّسُولإِنكُنتُمْتُؤْمِنُونَبِاللّهِوَالْيَوْمِالآخِرِذَلِكَخَيْرٌوَأَحْسَنُتَأْوِيلاً }[280].

وتأسيسا على هذا فالقيم عبارة عن حكم يصدره الإنسان المسلم على شيء ما، مهتديا بمعايير شرعية تحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من منطلق القرآن والسنة، فهي وحدها الكفيلة لتكون ميزانا أساسا لمنهج حياته، لأن تصور المسلم يقوم على أن السيادة للشرع، فالعقيدة منبع القيم والشريعة محددة للقيم في إطار الأحكام الشرعية الخمسة، وهي ثابتة بثباتها.

فالهرم القيمي يوضع على هذا الأساس، ويتم تقسيم القيم إلى قيم رئيسة مركزية لها السيادة، وقيم تابعة لها، وتعمل في ظلها، وهنا تجدر الإشارة إلى مسألة مهمة وهي أن القيم لها ارتباط وثيق بالكليات الخمس في مضامينها ومقاصدها، وبناء عليه يقسّمها البعض إلى قيم ملزمة (الضروريات) وقيم تفضيلية (الحاجيات) وقيم مثالية (التحسينيات).

وكون القيم ربانية لا يعني إلغاء العقل، بل هي التي تحدد دوره ومجاله، فالقيم المرتبطة بالشخصية الإنسانية لا مجال للعقل فيها، وذلك لكون هذه الشخصية ليست من مباحث العقل لعجزه عن الإحاطة بحقيقتها، وطبيعتها، وكيفية عملها، ومن ثم فالتصور الإسلامي يدع مجالا واسعا للعقل خارج هذا الإطار، لأن ميدانه هو المجال الكوني الذي يمكّنه من الخلافة لا المجال الإنساني لجهله المطبق بالإنسان، وقد أصاب ديل كارنجي شطر الحقيقة لما كتب كتابه :"الإنسان ذلك المجهول" .

وخلاصة القول أن التحقق بالقيم الربانية ونضجها في النفس الإنسانية، هو الذي يمنحها الارتقاء في سلم الكمال، ويعطيها قوة المقاومة للشهوات، لأن الشهوات تحول بين الإنسان وبين بناء حياة إنسانية صحيحة، فطغيان الغريزة على النفس الإنسانية يؤدي إلى تقلّص مساحة القيم، بل يجرّدها من الصفة الإنسانية، وينزل بها إلى المرتبة الحيوانية. قال

---

[280]– سورة النساء الآية: 59

تعالى: {أَمْتَحْسَبُأَنَّأَكْثَرَهُمْيَسْمَعُونَأَوْيَعْقِلُونَإِنْهُمْإِلَّاكَالْأَنْعَامِبَلْهُمْأَضَلُّسَبِيلاً }[281] وقال تعالى: "لَقَدْخَلَقْنَاالْإِنسَانَفِيأَحْسَنِتَقْوِيمٍ، ثُمَّرَدَدْنَاهُأَسْفَلَسَافِلِينَ }[282] ويشير يوسف القرضاوي إلى أن الإنسان ينزل إلى هذه المرتبة البهيمية لأمرين:

1- أن الأنعام تؤدي مهمتها المنوطة بها في الوجود.

2-أن هذه الأنعام لم توت ما أوتي الإنسان من المواهب الفكرية والروحية ..وإنما أوتي هذا كله الإنسان . فإذا أهمل هذه النعم، ولم يقم بشكرها، ونسي رسالته، وعاش لبطنه وفرجه وشهوته، كما تعيش الدواب كان –بلا ريب–أضل منها سبيلا .[283]

والحق أن إنسانية الإنسان وتحققه بالربانية لا يمكن أن يحصل إلا إذا تشبّعت روحه بالقيم والمثل العليا، التي شرعت العبادات لترسيخها في النفس وتدريب الإنسان على الاستقامة عليها

– ففي الصلاة نلحظ البعد التربوي الروحي و ما يترتب عنه من قيم كوحدة الصفوف، ووجوب طاعة القيادة الراشدة والمساواة والخروج من الأنانية والتمسك بروح الجماعة والانضباط واحترام الوقت وغيرها من القيم التي ترسخها الآيات المسموعة والممارسة اليومية : {اتْلُمَاأُوحِيَإِلَيْكَمِنَالْكِتَابِوَأَقِمِالصَّلَاةَإِنَّالصَّلَاةَتَنْهَىعَنِالْفَحْشَاءِوَالْمُنكَرِوَلَذِكْرُاللَّهِأَكْبَرُوَاللَّهُيَعْلَمُمَاتَصْنَعُونَ }[284].

– وفي الزكاة تتجلى الوظيفة الاجتماعية للمال وما يترتب عن ذلك من مختلف القيم كالتراحم والتعاون والتكافل وغيرها. قال تعالى: {خُذْمِنْأَمْوَالِهِمْصَدَقَةًتُطَهِّرُهُمْوَتُزَكِّيهِمبِهَاوَصَلِّعَلَيْهِمْإِنَّصَلَاتَكَسَكَنٌلَّهُمْوَاللَّهُسَمِيعٌعَلِيمٌ }[285].

---

[281]– سورة الفرقان الآية: 44

[282]– سورة التين الآية: 5/4

[283]– ينظر يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص20

[284]–سورة العنكبوت الآية: 45

[285]–سورة التوبة الآية: 103

-وفي الصوم تتأكد قيم التقوى بسعة مدلولاتها. قال تعالى {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُتِبَعَلَيْكُمُالصِّيَامُكَمَاكُتِبَعَلَىالَّذِينَمِنقَبْلِكُمْلَعَلَّكُمْتَتَّقُونَ }[286].

- وفي الحج تظهر القيم الإنسانية في أجمل صورها. كالتعارف والتعاون والمساواة وغيرها .قال تعالى: {الْحَجُّأَشْهُرٌمَّعْلُومَاتٌفَمَنفَرَضَفِيهِنَّالْحَجَّفَلاَرَفَثَوَلاَفُسُوقَوَلاَجِدَالَفِيالْحَجِّوَمَاتَفْعَلُواْمِنْخَيْرٍيَعْلَمْهُاللّهُوَتَزَوَّدُواْفَإِنَّخَيْرَالزَّادِالتَّقْوَىوَاتَّقُونِيَاأُوْلِيالأَلْبَابِ }[287].

وكل ذلك تظلله الربانية كما تشير الآيات القرآنية، فبقدر ما يتجمع من رصيد القيم الربانية في النفس الإنسانية يصنع الأفراد الربانيون الذين يشكلون المجتمعات المتحضرة والحياة الإنسانية الرشيدة فعلا وواقعا. قال تعالى: {مَاكَانَلِبَشَرٍأَنيُؤْتِيَهُاللّهُالْكِتَابَوَالْحُكْمَوَالنُّبُوَّةَثُمَّيَقُولَلِلنَّاسِكُونُواْعِبَادًالِّيمِندُونِاللّهِوَلَكِنكُونُواْرَبَّانِيِّينَبِمَاكُنتُمْتُعَلِّمُونَالْكِتَابَوَبِمَاكُنتُمْتَدْرُسُونَ }[288].

المطلب الثاني : الثبات

لما كانت الشريعة الإسلامية شريعة خاتمة وخالدة كان من الضروري أن يكون من خصائص القيم الثبات والاستمرارية، لأنها من مضامين الشريعة الخالدة، ونعني بالثبات "الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى، والمرونة فيما ينبغي أن يتغيّر ويتطوّر"[289] وهذا خلافا للجمود الذي عرفته المسيحية وخلافا للمرونة المطلقة التي تعرفها الشرائع الوضعية المعاصرة حتى الدساتير التي هي أم القوانين تتغير بجرة قلم من جهة نافذة أو غالبة. أما الشريعة الإسلامية من بين جوانبها الثابتة "القيم " التي تعد خاصية هامة وآية من آيات خلود هذه الأمة، وأهم ركيزة تحفظ هويتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

---

[286]-سورة البقرة الآية: 183

[287]-سورة البقرة الآية: 197

[288]- سورة آل عمران الآية: 79

[289]-يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص 195

فقيم عقيدة التوحيد تتميز بالثبات لتعلقها بفطرة الإنسان الثابتة التي تعد جوهر الإنسانية، فالإنسان يولد على الفطرة، والنفس الإنسانية فيها تَوْقٌ فطري لتمثل القيم العليا، وفيها نزوع فطري للتشبث بها . فهي صدى لما رُكِب في الفطرة من قيم نبيلة وهذا ما نلاحظه من معاني الرحمة والحب والتعاون وتأنيب الضمير وحالة الندم حتى عند من لا يؤمنون .قال تعالى: {فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَلِخَلْقِاللَّهِذَلِكَالدِّينُالْقَيِّمُوَلَكِنَّأَكْثَرَالنَّاسِلَايَعْلَمُونَ }[290].

فجوهر الإنسان واحد وإن تطورت معارفه وتضاعفت مكانته، فهو يأكل ويشرب، ويقوى ويضعف، وينهار أمام الدوافع والغرائز، وتعتريه والوساوس، ويغفل ويصحو وهكذا ...بل إن الثّبات قانون عام في الكون والحياة كما أن فيهما التطوّر، وهكذا تبدو سمة الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت سمة عميقة في الصنعة الإلهية كلها.

لقد حسم الإسلام موضوع الثباتفيالقيم الإسلامية وبيّن أنه يشمل العقائد الأساسية، والأركان العملية، والمحرمات اليقينية، وأمهات الفضائل الخلقية، والشرائع القطعية في شتى مجالات الحياة ونظمها. فليس من حق أحد أن يلغي أو يعطّل شيئا منها، فهي كليات الدين وقواعده، فعليها قامت مصالح الخلق، وبها يصلح الاجتماع الإنساني. لذلك نجد أن كثيرا من النصوص القرآنية تهتم ببيان المبدأ والهدف أكثر من اهتمامهابيان الوسيلة والأسلوب ليترك الفرصة للاجتهاد واختيار ما يناسب الزمن والبيئة والحال وهذا ما يفسّر به سيد قطب العلاقة بين الثابت والمتغيّر فيقول : "وقد تتسع المساحة التي تتجلى فيها مدلولات هذه المقوّمات والقيم كلما اتسعت جوانب الحياة الواقعية، وكلما اتسع مجال العلم الإنساني، وكلما تعددت المفاهيم التي تتجلى فيها هذه المقوّمات والقيّم، ولكن أصلها ثابت وتتحرك في إطار تلك المدلولات والمفاهيم "[291] .

---

[290] سورة الروم الآية: 30

[291]–سيد قطب :خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص78

ومن هنا ففكرة التطور لكل الأوضاع ولكل القيم، ولأصل التصور الذي ترجع إليه القيم فكرة تناقض الأصل الواضح في بناء الكون وفي بناء الفطرة .يقول سيد قطب :" إن الثبات في مقوّمات التصوّر الإسلامي وقيمه –فضلا على أنه امتداد للنظام الكوني – هو الذي يضمن للحياة الإسلامية خاصية الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت . فيضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزيّة التناسق مع النظام الكوني العام، ويقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح بها الأهواء "[292] وإلى ذلك يشير قول الله تعالى: {وَلَوِاتَّبَعَالْحَقُّأَهْوَاءَهُمْلَفَسَدَتِالسَّمَاوَاتُوَالْأَرْضُوَمَنفِيهِنَّبَلْأَتَيْنَاهُمبِذِكْرِهِمْفَهُمْعَنذِكْرِهِممُّعْرِضُونَ }[293].

فالقيم الإسلامية ثابتة لأنها تجيء من مصدر ثابت العلم والإرادة، فالله تعالى خلق الإنسان وما يحيط به، ووضع تقديراته وموازينه التي لا يلحقها خطأ ولا نقص، ولا يتلبس بها شهوة أو هوى، ومن ثم فهو ثبات مأمون يلبي حاجات الفطرة في حركة راشدة واعية مدركة للغاية الثابتة التي يتجه إليها. وترجع أهمية خاصية الثبات في القيم إلى العناصر التالية :

1-ضبط الحركة البشرية والتطورات الحيوية في الحياة الإنسانية، فلا تمضي شاردة على غير هد ى كما وقع في الحياة الأوروبية لما أفلتت من عروة العقيدة، فانتهت إلى تلك النهاية البائسة ذات البريق الخادع [294].

2-وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان في كل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات، وفي كل ما يجدّ في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات، فيزنها بالميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب، ومن ثم يظل في الدائرة المأمونة .

3-وجود مقوّم للفكر الإنساني منضبط بذاته، فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات، وإذا لم يكن هذا المقوّم الضابط ثابتا، فلا يمكن أن يضبط به شيء إطلاقا إذا دار مع الفكر البشري كيفما دار، ودار

---

[292]- ينظر سيد قطب :خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 80/79

[293] سورة المؤمنون الآية: 71

[294]- ينظر سيد قطب : المرجع نفسه ص79

مع الواقع البشري كيفما دار، وكيف تصبح عملية الضبط ممكنة وهي لا ترجع إلى ضابط ثابت .فوجود القيم الثابتة ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية والحياة البشرية، والاجتماع الإنساني .

فقيم عقيدة التوحيد توصف بالثبات بمعنى وجوب الخضوع لقاعدة سلوكية محورية واحدة، وليس معنى الثبات الجمود، بحيث لا يمكن تجاوزها بأي حال من الأحوال، كما يريد أن يفهمها عبد الله الفيفي في قوله :" إن تكرار كلمة الثوابت –كما في توطئة موسوعة القيم –مؤشر في ذاته إلى تلك النظرة الجمودية إلى الحياة الاجتماعية والفكرية " [295] فالثوابت في القيم تعبّر عن الإطار الذي يحفظ الهوية وليس الجمود.وفي الحقيقة لا توجد قاعدة بهذه الصورة إلا إذا كانت صورية خالصة وبعيدة عن التجربة البشرية، فلا بد عندئذ من وجود الاستثناء للقاعدة .

هذا الاستثناء لا يخرج القاعدة عن طابع الثبات، فليس معنى تخلف الجزئي عن الكلي أن يكون ذلك سببا في جعل القاعدة جزئية أو أن يقضي عليها، وقد يكون في تخلف الجزئي حكمة يقتضيها الكلي، وهي تحقيق مصلحة معينة لا يمكن أن تتحقق إلا مع هذا الاستثناء، فلو أدت في بعض الجزئيات إلى عكس المصلحة التي قصدها الشارع حجز الدليل العام عنها واستتبت وفاقا لمقاصد الشرع[296].

واستشهد علماء الأصول لهذه المسألة ووافقهم الشاطبي [297] في تحديد الاستثناء وفق المصلحة بمثال الكذب، كفعل فيه مفسدة محرمة، إلا أنهم رأوا أن الكذب قد يباح من أجل تحقيق منفعة، أو دفع مضرة، وبهذا أباحوا الكذب على الزوجة من أجل إصلاحها، وحسن عشرتها، كما يباح الكذب من أجل الإصلاح بين المتخاصمين، أو حماية مظلوم يخشى إزهاق روحه، ومن هذا القبيل من الاستثناء

---

[295]–عبد الله الفيفي :نقد القيم مقاربات تخطيطية لمنهج علمي جديد مؤسسة الانتشار العربي ط1 سنة2006 ص48

[296]– ينظرالشاطبي : الموافقات في أصول الفقه المكتبة التجارية الكبرى مصر ج1 ص40

[297]– ينظر الشاطبي : المرجع نفسه ج1 ص41

ما أشار إليه الشاطبي في قوله :" ومنه الاطلاع على العورات في التداوي على خلاف الدليل العام، لأن إتباع العام في هذا يوجب مفسدة، وضررا لا يتفق مع مقاصد الشريعة في مثله" [298].

وترجع أخلاقية الكذب في هذه الحالة إلى أنه تضمّن مصلحة تربو على المفسدة، فالحفاظ على الرابطة الزوجية والعلاقات الاجتماعية، وحفظ النفس أرجح مصلحة في هذه المواقف من الصدق. ومن هنا نجد أن الكذب وهو فعل غير أخلاقي في الظروف العادية قد أصبح واجبا بتغيّر تلك الظروف التي تحيط به، وبخاصة أنه قد ارتبطت هذه الظروف بالمضرة الناجمة عن ذلك الفعل والنتائج الجديدة للفعل الأخلاقي تفضي إلى مصلحة ضرورية وأصبح الصدق في هذه الحالة خلاف الأولى .

فانتهاك قاعدة خلقية لا يكون مسوغا إلا إذا كان ذلك الوسيلة الوحيدة المتاحة لدفع ضرر أكيد، أو تحقيق منفعة أعظم . ومن هنا تكون المصلحة الراجحة هي المعيار لحسم النزاع بين الثبات والاستثناء، وبذلك نجد أن الأصوليين قد تجنبوا الصورية والتّزمت عندما جعلوا القاعدة الكلية تقبل الاستثناء.

ويتبين لنا من خلال هذا العرض أن الحفاظ على إنسانية الإنسان لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل القيم الثابتة، أما العيش بمنطق النسبية المتغيّر باستمرار فإنه يقتل الإنسان، ويحوله إلى آلة لتضاعف الإنتاج ويقضي على مقومات الإنسانية وعلى إحساس الإنسان بالجمال والمثل والمعاني السامية، من أجل تحقيق الربح لعدد قليل من المرابين، وتجار الشهوات، ومنتجي الأفلام السينمائية وبيوت والأزياء[299].

المطلب الثالث : الشمول

---

[298]- الشاطبي : المرجع نفسه ج1ص40

[299]- سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 81

وتعني أن قيم عقيدة التوحيد شاملة لجميع مناحي الحياة، ومتضمنة لجميع العلاقات، وتؤكد على سلامة كل المعاملات، وهي شاملة لأنها تلبي جميع حاجيات الإنسان النفسية، والعقلية والجسدية، وغيرها. قال تعالى: {مَّافَرَّطْنَافِيالكِتَابِمِنشَيْءٍثُمَّإِلَىرَبِّهِمْيُحْشَرُونَ }[300].

فالقيم جاءت مستوعبة للزمان كله، وللمكان كله، وللأحوال كلها، وللمستويات، والزوايا والأطراف جميعها، فهي لا تحتاج إلى إضافة من مصدر آخر، بل لا تقبل إضافة من مصدر آخر لأن مصدرها أوسع، وأشمل، وأدق، وأعمق . يقول سيد سابق :" والشريعة جاءت وافية بحاجات هذه الأمة من حيث النظام العبادي، والنظام الفردي، والنظام الخلقي، والنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي، والنظام الجهادي، والنظام السياسي"[301].

فالقيم الإسلامية رسمت المنهج المتكامل للسلوك الرفيع في حياة الإنسان وجاءت شاملة في تعاليمها سواء في علاقته مع ربه أو مع نفسه أو مع غيره، واتسع الأمر إلى علاقته مع المخلوقات الأخرى حيوانات كانت وجمادات .

فهي شاملة لأنها تفسّر كل القضايا التي شغلت الفكر الإنساني ولا تزال تشغله، وحسمت الجواب في قضايا الغيب فأجابت عن الأسئلة الخالدة في حياة الإنسان فكانت واضحة في الكشف عن أصل الإنسان ومصيره وعلاقاته بمكونات عالم الغيب هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالإيمان بالغيب قضية لا تتجزأ لا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار أو شك في أي جزء منها[302] .

أما القيم التعبدية فجاءت شاملة فاستوعبت الكيان الإنساني كله، ويتجلى هذا في كون العبادة في مفهوم الإسلام لا تقتصر على الشعائر الكبرى من صلاة وزكاة وصوم وحج، بل إنها تشمل كل حركة وعمل يصلح النفس أو ينفع الغير .

300– سورة الأنعام الآية: 38

301– سيد سابق : خصائص الشريعة الإسلامية ومميزاتها الفتح للإعلام العربي ط1 سنة 1988ص 6/5

302– يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص104/103/102

ونجد هذا الشمول في جانب الأخلاق سواء كانت فردية أو جماعية، روحية أو جسمية، عقلية أو عاطفية .فلم تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية إلا ونبّهت عليه وأرشدت إليه .

والمسألة لا تختلف في جانب القيم التشريعية وما يترتب عنها من قيم في تنظيم المجتمع، ففيها قيّم تحكم علاقة الفرد وأحوال الأسرة وعلاقاته المختلفة المدنية، والتجارية، والقضائية، والمالية والدستورية، وغيرها .

كما يبرز جانب مهم في هذا الشمول، وهو أن قيم عقيدة التوحيد جاءت لتطبيقها والالتزام بها جميعا، فلا يجوز تجزئتها، أو الانتقاء منها، كما لا يجوز أخذ جانب العقيدة، وإغفال جانب العبادة والأخلاق والشريعة . فقد أنكر الله تعالى هذا المسلك على بني إسرائيلفقال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَبِبَعْضِالْكِتَابِوَتَكْفُرُونَبِبَعْضٍفَمَاجَزَاءمَنيَفْعَلُذَلِكَمِنكُمْإِلاَّخِزْيٌفِيالْحَيَاةِالدُّنْيَاوَيَوْمَالْقِيَامَةِيُرَدُّونَإِلَىأَشَدِّالْعَذَابِوَمَااللّهُبِغَافِلٍعَمَّاتَعْمَلُونَ }[303].

ثم حذر رسوله الكريم وبالتالي كل حاكم من بعده أن يدع " بعض ما أنزل الله" تأثرا بأهواء الآخرين وفتنتهم . قال الله تعالى : {وَأَنِاحْكُمبَيْنَهُمبِمَاأَنزَلَاللّهُوَلاَتَتَّبِعْأَهْوَاءهُمْوَاحْذَرْهُمْأَنيَفْتِنُوكَعَنبَعْضِمَاأَنزَلَاللّهُإِلَيْكَفَإِنتَوَلَّوْاْفَاعْلَمْأَنَّمَايُرِيدُاللّهُأَنيُصِيبَهُمببَعْضِذُنُوبِهِمْوَإِنَّكَثِيراًمِّنَالنَّاسِلَفَاسِقُونَ }[304].

المطلب الرابع : الوسطية

الوسط اسم لما بين طرفي الشيء، وأوسط الشيء أفضله وأعدله، ومن هنا كانت الوسطية تعني: التوازن بين الأمور المتقابلة، والتوسط بين الأطراف المتباعدة، لذا تعتبر قيم عقيدة التوحيد وسط بين تطرفات مختلفة .

303–سورة البقرة الآية: 85

304– سورة المائدة الآية: 49

ولما كانت القيم الإسلامية تمثل الاستقامة كانت وسطا بين الطرق الجائرة، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطريق بالصراط المستقيم الذي يسأل المسلم ربه الهداية إليه في كل يوم سبعة عشر مرة في قوله تعالى:{اهدِنَاالصِّرَاطَالمستَقِيمَ }[305] .فالوسط إذن يعني العدل، والاعتدال . وبعبارة أخرى: يعني التعادل والتوازن، بلا جنوح إلى الغلو، ولا إلى التقصير. ومن هنا كان الاعتدال خاصية لهذه الأمة كما وصفها الله تعالى :{وَكَذَلِكَجَعَلْنَاكُمْأُمَّةًوَسَطاًلِّتَكُونُواْشُهَدَاءعَلَىالنَّاسِوَيَكُونَالرَّسُولُعَلَيْكُمْشَهِيداً }[306] وبهذا يتبيّن أن الوسطية خاصية من أبرز خصائص القيم في كل جانب من جوانبها :

-فهي وسط في القيم الإيمانية بين جميع الملل المتجاذبة، وسط بين الخرافيين الذين ينسبون كل شيء إلى الغيب من غير برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، ولا صراخ المعجزة .بينما القيم الإيمانية قائمة على الدليل القطعي والبرهان اليقيني قال الله تعالى :{ قُلْهَاتُواْبُرْهَانَكُمْإِنكُنتُمْصَادِقِينَ }[307].

فهي وسط بين من ينكرون الإله، وبين من يعددون الآلهة، ووسط بين من وصفوا الخالق بالمخلوق، ومن وصفوا المخلوق بالخالق . أما قيم التوحيد فتقوم على الوحدانية التي فيها الكمال والتنزيه، فالله منزه عن صفات النقص، ومنزه في صفات الكمال . قال الله تعالى: { لَيْسَكَمِثْلِهِشَيْءٌوَهُوَالسَّمِيعُالبَصِيرُ }[308].

-وهي وسط في النظر إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة واعتبروا الحياة الدنيا هي كل شيء وبين من رفضوا هذه الحياة واعتزلوا عن أهلها وعمرانها . بينما نجد قيم عقيدة التوحيد تجمع بين الحسنيين، وتجعل الدنيا مزرعة الآخرة قال

[305]- سورة الفاتحة الآية: 6

[306]- سورة البقرة الآية: 143

[307] سورة البقرة الآية: 111

[308] سورة الشورى الآية: 11

تعالى: {وَابْتَغِفِيمَاآتَاكَاللَّهُالدَّارَالْآخِرَةَوَلَاتَنسَنَصِيبَكَمِنَالدُّنْيَاوَأَحْسِنكَمَاأَحْسَنَاللَّهُإِلَيْكَوَلَاتَبْغِالْفَسَادَفِيالْأَرْضِإِنَّاللَّهَلَايُحِبُّالْمُفْسِدِينَ }[309].

-وهي وسط في القيم التعبدية بين الملل والنحل التي ألغت الجانب الرباني الشعائري وبين الأديان التي طلبت من أتباعها التفرغ والانقطاع عن الحياة كالرهبانية المسيحية. أما في الإسلام فهناك مزج في حياة المسلم بين العبادة والحركة والسعي وأبرز دليل على ذلك الآيات الآمرة بصلاة الجمعة .قال تعالى: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوااإِذَانُودِيلِلصَّلَاةِمِنيَوْمِالْجُمُعَةِفَاسْعَوْاإِلَىذِكْرِاللَّهِوَذَرُواالْبَيْعَذَلِكُمْخَيْرٌلَّكُمْإِنكُنتُمْتَعْلَمُونَ .قُضِيَتِالصَّلَاةُفَانتَشِرُوافِيالْأَرْضِوَابْتَغُوامِنفَضْلِاللَّهِوَاذْكُرُوااللَّهَكَثِيراًلَّعَلَّكُمْتُفْلِحُونَ }[310].

- كما تتجلى الوسطية في القيم الخلقية بين من تخيّلوا الإنسان ملاكا فنسبوا له من المثاليات ما يفوق ما فُطِر عليه من القدرات، وبين الواقعيين الذين استسلموا لغرائز الإنسان، وضربوا عرض الحائط بكل قيمة خلقية، وهنا جاء الإسلام بالرؤية الوسطية، فنظر إلى الإنسان على أنه مخلوق مركب فيه العقل، والشهوة، والروح . فاعترف بهذا الكيان كله في توازن، فلكل حاجته، ولكل مطلبه، كما فيها توازن بين الفردية والجماعية وبين الإفراط والتفريط[311] .قال الله تعالى: {وَلَاتَجْعَلْيَدَكَمَغْلُولَةً إِلَىعُنُقِكَوَلَاتَبْسُطْهَاكُلَّالْبَسْطِفَتَقْعُدَمَلُوماًمَّحْسُوراً }[312] وقال الله تعالى : {وَالَّذِينَإِذَاأَنفَقُوالَمْيُسْرِفُواوَلَمْيَقْتُرُواوَكَانَبَيْنَذَلِكَقَوَاماً }[313].

- وفي مجال التشريع وما يترتب عنه من نظم تبرز وسطية القيم بين تطرف وتميّع في معالجة قضايا الحياة، وسط في التحليل والتحريم .فمثلا قيم عقيدة التوحيد وسط في شؤون الأسرة بين الذين حرموا الطلاق ولو استحالت الحياة إلى جحيم لا يطاق كالكاثوليك، وبين الذين أباحوه بغير قيد ولا شرط .فجاءت القيم الإسلامية لتؤكد على قدسية الحياة الزوجية، فهي ميثاق غليظ لا ينبغي التفريط فيه

309- سورة القصص الآية: 77

310- سورة الجمعة الآية: 10/9

311 ينظر يوسف القرضاوي : الخصائص العام للإسلام ص124

312-سورة الإسراء الآية: 29

313 سورة الفرقان الآية: 67

لأوهى الأسباب، ولكنه في ذات الوقت يعد وسيلة العلاج الأخيرة بعد استنفاد جميع الوسائل الأخرى. قال تعالى :[314]{الطَّلاَقُمَرَّتَانِفَإِمْسَاكٌبِمَعْرُوفٍأَوْتَسْرِيحٌبِإِحْسَانٍ}[315].

وخلاصة القول أن قيم عقيدة التوحيد في جميع المجالات أخذت أعدل ما فيها وبطريقة متوازنة مراعية في ذلك الطبيعة الإنسانية والسنن الإلهية. ومن ثم فقد جاءت معبرة عن الفطرة السليمة، وهي أكمل صورة يمكن أن يبلغها السلوك الإنساني في الحياة.

المطلب الخامس :الواقعية:

وهذه الخاصية تعني إمكانية فهم هذه القيم وتصوّرها، ثم تطبيقها في عالم الواقع، وهي قيم متناسبة مع طاقة الإنسان العقلية، والنفسية، والجسمية . قال الله تعالى :{لاَيُكَلِّفُاللّهُنَفْساًإِلاَّوُسْعَهَالَهَامَاكَسَبَتْوَعَلَيْهَامَااكْتَسَبَتْ}[316].

فالإسلام عندما دعا للالتزام بهذه القيم على أي مستوى كانت، فلأنها داخلة في مقدور الإنسان راعت الطبيعة البشرية في ضعفها وحاجاتها، فمثلا قيمة العدل قيمة راسخة، ولكن تحقيقه في الواقع يتطلب مدافعة الظلم بقدر الاستطاعة، وبقدر توفر الحجة في المسائل القضائية، وحسن صياغتها أمام القاضي، والتجرد للحق ومنع تدخل الهوى . لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي بين الناس على حسب الحجة التي يسوقها المتخاصمون. فعن عروة بن الزبير أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أمها أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال :"إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها، أو فليتركها "[317].

---

[314]– ينظر يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص131

[315] سورة البقرة الآية: 229

[316] سورة البقرة الآية: 286

[317] – أخرجه البخاري كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه . الجزء الثاني حديث رقم 2326.

والحب قيمة من القيم الإسلامية العالية، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العدل بين زوجاته كان يقول :"اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا املك"[318] ويعني الميل العاطفي [319].

فواقعية القيم تعني الاعتراف بالواقع كما هو، ثم العمل على ترقية الإنسان في سلم الكمال البشري في حدود الطاقة . لذلك يحرص الإسلام على تقرير المثل الأعلى الذي يتطلع إليه أصحاب القيّم، ولا يغفل القضايا الواقعية التي تتعامل مع الحقائق الموضوعية، ذات الوجود الحقيقي المستيقن . فهي قيم لها حد أعلى، وحد أدنى، وكل يسعى للتحقق بهذه القيم حسب الطاقة والهمّة، فهي قيم "واقعية مثالية أو "مثالية واقعية"، لأنها تهدف إلى أرفع مستوى، وأكمل نموذج تملك البشرية أن تصعد إليه، وهذه الصورة المثالية الواقعية توجد في نفس بشرية كاملة، هي مرجع القياس وتتمثل في شخص واحد هي :" نفس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم أكمل نفس خلقها الله على النموذج الرباني الذي ارتضاه الله للإنسان، وطلب من الناس تحقيقه كل وما يستطيع "[320] . وهنا يجدر بنا أن نطرح سؤالا وهو: إذا كانت الصورة المثالية صعبة التحقق أو نادرة التحقق، فما الفائدة من وجود المثل العليا ؟ .

صحيح أنه لا يوجد إلا صورة كاملة مثالية للقيم، ولكن هذه الصورة المثالية للقيم ضرورية ويجب أن نعرفها حتى نعود إليها، فإذا كان الأصل في الحياة هو الحق، والخير، والجمال كمثل عليا، ومن ثم يتسنى حينئذ أن نعرف درجة الانحراف عن هذا المِعْلَم هذا من جهة، ومن جهة أخرى تعتبر القيمة

---

[318]– أخرجه أصحاب السنن الأربعالكل من طريق : حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبد اللّه بن يزيد عن عائشة قالت: كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقسم فيعدل، ويقول: "اللّهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " وأخرج الحديث : إسحاق بن راهويه، والبزار في "مسانيدهم" وابن حبان في "صحيحه" والحاكم في "المستدرك"، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

[319]– ينظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري كتاب: النكاح، باب العدل بين النساء مكتبة الصفا المجلد التاسع ص 255.

[320] –محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية دار الشروق ط10سنة 1993 ص379

مثلا أعلى تتشوف النفس الإنسانية إلى بلوغه، فمن الواقعية أن تكون هذه القيّم درجات يترقى فيها الإنسان بمنهج تربوي متدرج، قصد بلوغ المثل الأعلى، فنحن في حاجة إلى هذه المثل أيضا، لأننا عندما نعالج الواقع ينبغي أن نعرف تقدير درجة انحرافه عن الصورة المثالية، وبهذا يظل الإنسان في مجاهدة دائمة يتحقق بفضلها جزءا من وظيفته في الحياة[321].

فوجود المثال المرغوب فيه في كل مجال ضرورة، باعتباره المشجع على الصعود أولا، ثم العودة بعد كل انتكاس ثانيا، فحاجتنا إلى الصورة المثالية ضرورة وحتمية، وبخاصة عندما يصل المرض إلى تعطيل دورة الحياة سواء في عالم الأجسام، أو عالم النفوس، لأنه بناء على النموذج الأعلى تتحدد طريقة العلاج والإصلاح.

لأجل ذلك جعل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة، والمثال الحي في أعلى صورة يتطلع إليها طلاب الكمال، حيث أنه امتزج في شخصه الصورة المثالية والنموذج التطبيقي ليدل على إمكانية الالتزام بهذه القيم في واقع الحياة، ويمكن ملاحظة هذه الواقعية في مختلف مجالات الحياة البشرية:

-ففي القيم الإيمانية نجد الحقائق التي يتقبلها العقل وتستريح لها النفس وتستجيب لها الفطرة، فهي تدعو إلى الإيمان بإله واحد وهو أعلى درجات العقيدة، وتقدم على ذلك البرهان قال الله تعالى :" {لَوْكَانَفِيهِمَاآلِهَةٌإِلَّااللَّهُلَفَسَدَتَافَسُبْحَانَاللَّهِرَبِّالْعَرْشِعَمَّايَصِفُونَ }[322].

فهذا البرهان موافق لمنطق العقل، مؤيد بالفطرة، ودلت علية الآيات الكونية في النفس، والآفاق وأرشدت إليه الآيات التنزيلية في كل الديانات وما جاء معها من المعجزات . بالإضافة إلى الآثار الواقعية التي تنتجها هذه العقيدة في حياة الإنسان . يقول سيد قطب: " ومن ثم يتسنى للإنسان المؤمن بهذه العقيدة المدرك لحقيقة التصور الإسلامي وللمنهج الإسلامي المنبثق منه أن ينشئ من

321-ينظر محمد قطب : دراسات في النفس الإنسانية ص378

322 سورة الأنبياء الآية: 22

الآثار الواقعية في هذه الأرض وأن يحقق من الإبداع المادي فيها ما ينشئه من الصلاح الأخلاقي وكفاء ما يحققه من الرفعة والتطهر" [323].

-وفي القيم التعبدية تتجلى الواقعية في كون الشريعة فرضت من التكاليف ما يتوافق مع طاقة الإنسان في الحالة العادية وتراعي الضعف الإنساني. فتراعي ظروفه في الحالات الاستثنائية. قال الله تعالى {يُرِيدُاللّهُبِكُمُالْيُسْرَوَلاَيُرِيدُبِكُمُالْعُسْرَ }[324] ومن جهة أخرى نوّعها حتى لا يقع في الملل،وجعلها مرتبطة بواقع الحياة ونشاطاتها، وربط ثمارها بالحياة الواقعية .

- أما بالنسبة للقيم الخلقية فقد راعت الطاقة المتوسطةللإنسان، فكان مجال الفضيلة واسعا، فكل فرد يمكن أن يتمثّلها بحسب طاقته، فالإحسان إلى الوالدين يبدأ من عدم قول "أف"، ولا تنتهي درجات هذا الإحسان، فلكل فرد الفرصة ليتفنن في الإحسان إلى والديه.

-وفي مجال القيم التشريعية في أي جانب من جوانب الحياة نجد هذه الواقعية حيث أن الإسلام يدعو إلى الزواج ولا يمنع الطلاق، لأن الواقع أثبت أن من الزواج ما لا يصحبه التوفيق[325] ": {وَعَاشِرُوهُنَّبِالْمَعْرُوفِفَإِنكَرِهْتُمُوهُنَّفَعَسَىأَنتَكْرَهُواْشَيْئاًوَيَجْعَلَاللّهُفِيهِخَيْراًكَثِيراً }[326] ومن دلائل الواقعية في القيم التشريعية عموما:

1-التيسير ورفع الحرج.

2- مراعاة سنة التدرج.

3- النزول عن المثل الأعلى إلى الحد الأدنى للضرورة.

323-سيد قطب :خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص 187

324 - سورة البقرة الآية: 185

325-ينظر يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص159

326 سورة النساء الآية: 19

وعلى العموم فالواقعية لها مدلول يتعلق بطبيعة المنهج الذي يقدمه للحياة البشرية وطبيعة هذا المنهج وما يحمله من قيم تتعلق بمجالات الحياة الإنسانية وهي تؤدي دور الخلافة في الأرض .فهي قيم واقعية تعين الإنسان على الحركة الإيجابية في الحياة وتحقق له المصالح والمنافع مراعية طاقاته الواقعية ونظام حياة هذا الكائن البشري، فهو يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق ويتزوج ويحب ويكره ويرجو ويخاف ويزاول كل خصائص الإنسان الواقعي كما خلقه الله[327]، فالقيم التي يطالب بها قيم واقعية في مقدور الإنسان الالتزام بها، لأن الإسلام دين للواقع والحركة والحياة والعمل والإنتاج، دين تطابق قيمه الواقعية فطرته الإنسانية .

ومما سبق يتبين أن القيم في عقيدة التوحيد شاملة لجميع مناحي الحياة ومن خلال هذه الخصائص نكتشف أن لكل مجال من مجالات الحياة قيم تبرز كمرتكزات أساسية، وأخرى تابعة لها .والتي تشكّل في مجموعها "منظومة قيمية" يمكناستثمارها في بناء حضارة إنسانية راشدة .

المبحث الرابع: تصنيف القيم

المطلب الأول : مستويات القيم في المنظومة الإسلامية

يختلف الباحثون في تقسيم القيم اختلافا كبيرا، فمنهم من يقسّمها تقسيما يراعي فيه مختلف الأبعاد[328]، ومنهم من يقسّمها تقسيما فلسفيا عاما[329]، ومنهم من يركز على بعض الجوانب التي يعتبرها أساسية .وقد حاولت تقسيمها تقسيما يتوافق مع فلسفة الإسلام في ترتيب سلم القيم، فمنها القيم السيادية، ومنها القيم الثانوية، ومنها القيم المدمرة .

صحيح أن جميع هذه القيم اهتم ببيانها الإسلام، غير أن بعضها يعد من المرتكزات، والآخر يعتبر مدعما، ومقويا للصورة المثالية، وبعضها الآخر يصنّف على أنه من القيّم السّلبية التي تكرّس التخلف

327– ينظر سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص183

328–يركز أصحاب هذا التقسيم على بيان ارتباط القيم بالواقع وتفاصيله .

329– يركز التقسيم الفلسفي على القيم الثلاثة : الحق، والخير، والجمال .

والهبوط . ومن ثم ينفِّر الإسلام منها إما بالنهي الصريح، أوما يفهم من السياق. ويمكن بيان هذه التراتبية في القيم من خلال بعض النماذج القرآنية :

النموذج الأول: في قوله تعالى: {أَجَعَلْتُمْسِقَايَةَالْحَاجِّوَعِمَارَةَالْمَسْجِدِالْحَرَامِكَمَنْآمَنَبِاللَّهِوَالْيَوْمِالآخِرِوَجَاهَدَفِيسَبِيلِاللَّهِلاَيَسْتَوُونَعِندَاللَّهِوَاللَّهُلاَيَهْدِيالْقَوْمَالظَّالِمِينَ }[330] فلا شك أن عمارة المسجد وخدمة البيت الحرام عمل جليل، إلا أن هذا العمل لا معنى له مع فقدان الإيمان.

النموذج الثاني: قوله تعالى: {لَّيْسَالْبِرَّأَنتُوَلُّواْوُجُوهَكُمْقِبَلَالْمَشْرِقِوَالْمَغْرِبِوَلَكِنَّالْبِرَّمَنْآمَنَبِاللَّهِوَالْيَوْمِالآخِرِوَالْمَلآئِكَةِوَالْكِتَابِوَالنَّبِيِّينَوَآتَىالْمَالَعَلَىحُبِّهِذَوِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينَوَابْنَالسَّبِيلِوَالسَّآئِلِينَوَفِيالرِّقَابِوَأَقَامَالصَّلاَةَوَآتَىالزَّكَاةَوَالْمُوفُونَبِعَهْدِهِمْإِذَا عَاهَدُواْوَالصَّابِرِينَفِيالْبَأْسَاءِوَالضَّرَّاءِوَحِينَالْبَأْسِأُوْلَئِكَالَّذِينَصَدَقُواوَأُوْلَئِكَهُمُالْمُتَّقُونَ}[331] ففي الآيات ترتيب لمنظومة القيم الأساسية التي تشكل القواعد والأصول حسب وزنهافي التشريع، وتأثيرها في التكوين وعلاقتها بالحياة عامة .

ونموذج ثالث في قوله تعالى : {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواإِذَانُودِيلِلصَّلاَةِمِنيَوْمِالْجُمُعَةِفَاسْعَوْاإِلَىذِكْرِاللَّهِوَذَرُواالْبَيْعَذَلِكُمْخَيْرٌلَّكُمْإِنكُنتُمْتَعْلَمُونَ }[332] فالعمل قيمة لا تنكر مكانته في الإسلام غير أن هذا السلوك تتغيّر مرتبته عند حضور وقت الفرائض، ولا سيما هذه العبادة التي لها الأثر العظيم في توحيد فكر الأمة، وتحقيق الاجتماع .

330- سورة التوبة الآية: 19

331- سورة البقرة الآية: 177

332- سورة الجمعة الآية :9

وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم نجد نفس المنطق في الترتيب، ومنه ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان "[333].

ومنه أيضا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ "[334] .

ففي الحديث الأول : ترتيب للقيم الإيجابية المأمور بها، وفي الحديث الثاني :ترتيب للقيم السلبية حسب خطورتها، و علاقتها بالكليات، فقدم ما كان ضرره على الدين، ثم النفس، ثم المال، ثم العرض . وبهذا نلحظ أن النصوص الشرعية تتحدث عن القيم في سياقات مختلفة، وترتّبها حسب الأهمية في سياقها .

وخلاصة القول أن المقصود بقيم منظومة التوحيد هي : القيم التي يمكن أن نستخرجها من الأوامر والنواهي الإلهية، أو من السياقات القرآنية المرتبطة بالتمكين للخير والفضيلة، أو مقاومة الشر والرذيلة، " فقد جاء استعمال القرآن الكريم لكلمة "الخير" في مجالات متعددة ومختلفة معبّرا عنها بألفاظ مثل : البر،التقوى،الحكمة،العفو، العدل،الإصلاح،الصبر، الزمن، الإيمان،القوة،الأمانة،الإنفاق، الرضى، وكلها قيم أخلاقية تبدو أحيانا في المجال العقدي، وأحيانا في المجال الاجتماعي، أو مجالات أخرى"[335] ويمكن بيان ذلك كالتالي :

333– أخرجه البخاري :كتاب الإيمان، باب : أمور الإيمان، الجزء الأول حديث رقم 9

334–أخرجه البخاري كتاب الوصايا، باب قوله تعالى ":إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .." الجزء الثالث حديث رقم 2615.

335–أحمد الزباخ : المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية ص92

1-قيم السيادة : ونعني بها القيم التي تشكّل الضمانات لبقاء الأمة داخل الدائرة الإسلامية، ولبقاء أفرادها على خط الإسلام الصحيح المستقيم .وهي قيّم قليلة في عددها، ولكنها تعبّر عن الهوية الفكرية والعقدية والثقافية والشعورية لهذه الأمة، وهي بالتالي تشكل الثوابت في:

- الأركان الإيمانية.
- الفرائض الركنية .
- المسائل القطعية.
- القيم الخلقية.

ويلاحظ الباحثون في موضوع القيم أن القرآن الكريم في حديثه عن أركان الإيمان وقواعد الإسلام، وعن ترتيب الأعمال في مختلف النصوص، أنه رتبها ترتيبا يناسب الحجم والتأثير والأهمية، فقد جاء الإسلام بمنظومة متكاملة من المبادئ والقيم تشكل في مجموعها منهج حياة ملائم لطبيعة الإنسان، ومنسجم مع فطرته، وملبيا لمتطلبات الحياة الإنسانية الكريمة، وهي منظومة محكمة النسيج مترابطة الحلقات، فمن جهة هي ثابتة ثبات القرآن، ومن جهة أخرى، فهي تتجاوب مع المتغيرات، وتتفاعل مع التحولات، وتحتفظ في ذات الوقت بجوهرها لتوجه الواقع نحو الأفضل، وترشد مساره نحو الغاية المثلى. ويمكن أن نلاحظ العمل بهذه القاعدة في واقع الحياة، فالإنسان يحتفظ دائما بقاعدة صناعة السيارة، ولكنه يطوّر في أشكالها، وبعض التوابع باستمرار، فيظهر لنا التطور في الأشكال، مع بقاء الجوهر وبالتالي يمكن أن يجتمع التطور والثبات في آن واحد.

2- القيم الثانوية: وهي لا تقل أهمية عن هذه القيم، بل إن القيم السيادية لا يتجلى جمالها في الحياة دون هذه القيم التي هي في الأصل نابعة من القيم الأصلية، ومتفرعة عنها، ومدعمة لها، فهي تمثل البناء ولواحقه بالنسبة للأساس والأعمدة والسقف . لذلك نجد في كل قيمة حد أدنى وحد أعلى، مما يؤكد أن بلوغ الحد الأعلى يفرض إلحاق التوابع بهذه القيمة، فمثلا بر الوالدين قيمة عظيمة في الإسلام لكن لا يكفي فيه عدم قول" أف" المنصوص عليه كحد أدنى، بل إن الإحسان الحق يتخطى هذه المرحلة ليظهر في مشاعر وبدل وسلوك وآداب تجعل من لفظة" إحسانا "بصيغة

المبالغة شاملة لكل قيمة تسهم في بلوغ سقف الإحسان مهما كانت تبدو هذه القيمة بسيطة في نظر الناس ما دامت تترك الأثر الطيب في نفس الوالدين .

3-أما القيم المدمرة: فهي تلك القيم ذات الأثر السلبي في الحياة الإنسانية الفردية والجماعية والمجتمعية، وتفشيها في أوساط المجتمعات يحرمها من الاستقرار، وبناء حياة إنسانية يتحقق معها التعارف، والتآلف والتعاون والتماسك، ويعبّر عنها بالرذائل. ويدخل في ذلك كل ما من شأنه أن يصرف الإنسان عن وظيفته في الحياة، أو يكون سببا في تمزق العلاقات الاجتماعية، أو معولا لدمار الحضارة. فباستقراء النصوص نجد أن هذه الرذائل أيضا ليست في مستوى واحد من السوء، فمنها ما يعود أثرة على الفرد، ومنها ما يكون ضرره على المجتمع،ومنها ما يعود بالخسارة على الحضارة الإنسانية. ومن أمثلة ذلك:الظلم والكذب والغش والخيانة وشهادة الزور...وغيرها من الرذائل .

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن عملية التصنيف للقيم، وبيان أنواعها لا يعني إطلاقا فصلا بين عناصر التصور القيمي في كليته، باعتبار أن القيم منظومة متشابكة متكاملة متفاعلة، إلا أن اعتبار البحث والدراسة يستدعي هذا التقسيم أو ذلك التصنيف دون أن يمس ذلك جوهر التكامل والتفاعل والنظرة الكلية للقيم .

ولما كان موضوع هذه الدراسة يتعلق بمنظومة القيم التي لها علاقة بمجالات الحياة الإنسانية فإنا اخترنا تقسيمها بما يخدم موضوعنا ويسهل المقارنة بين قيم عقيدة التوحيد وقيم الفلسفة الوضعية التي تمثلها العلمانية الشاملة، وسوف أركز على أمهات القيم.

المطلب الثاني :أنواع القيم في منظومة عقيدة التوحيد

الفرع الأول : القيم الإيمانية

ويقصد بالقيم الإيمانية تلك القيم الغيبيةالتي تقدّم تصورا عن الله، الكون، الحياة، الإنسان، والعلاقة التي تربط بين هذه الأطراف. وتمثّل العقيدة المتكاملة التي يتحرك بها المسلم في مجال الحياة عابدا لربه

ومجاهدا في سبيله وساعيا في الخيرات بإذنه، وهذه العقيدة إيمان وثيق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدروهو ما يعرف ب "الإيمان بالغيب".

فالتوحيد قيمة من القيم الإيمانية المحورية في العقيدة الإسلامية وهو "مبدأ غيبي" في نفس الوقت، وهو قضية جوهرية جاءت العقيدة لتأكيدها وتوضيح مضمونها باستمرار، فمن المفاهيم الأساسية في الإسلام أنه يقسم العالم إلى قسمين:

أ-عالم غيب .

ب- وعالم الشهادة .

وقد ورد الجمع بينهما عشر مرات في القرآن الكريم منها قول الله تعالى: {وَهُوَالَّذِيخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضَبِالْحَقِّوَيَوْمَيَقُولُكُنفَيَكُونُقَوْلُهُالْحَقُّوَلَهُالْمُلْكُيَوْمَيُنفَخُفِيالصُّورِعَالِمُالْغَيْبِوَالشَّهَادَةِوَهُوَالْحَكِيمُالْخَبِيرُ }[336] .

ولأهمية الغيب في المنظومة الإسلامية ذكر أكثر من خمسين مرة، وأكد الوحي الإلهي الحديث عنه في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة . قال الله تعالى: {الَّذِينَيُؤْمِنُونَبِالْغَيْبِوَيُقِيمُونَالصَّلاةَوَمِمَّارَزَقْنَاهُمْيُنفِقُونَ }[337] فكثيرا ما يقترن ذكر الغيب بالدعوة إلى الإيمان به، أو الثناء على المؤمنين به.فما المقصود بالغيب؟

الغيب لغة:

جاء في مقاييس اللغة : الغين والياء والباء أصل صحيح يدلّ على تستّر الشيء عن العيون، ثم يقاس من ذلك الغيب :ما غاب، مما لا يعلمه إلا الله [338].

فمدار اللفظة على كل ما غاب عن الإنسان أي : خفي .ومنه غابت الشمس : غربت واستترت عن الأعين.وغاب فلانا غيبة :ذكر من ورائه عيوبه التي يسترها ويسوؤه ذكرها .

---

[336] سورة الأنعام الآية: 73

[337] – سورة البقرة الآية: 3

[338]-ابن فارس :مقاييس اللغة المجلد الرابع باب الغين والياء وما يثلثها ص 403

فالغيب ما خفي أو ما استتر عن الحس أو العقل.فالغائب عن الحس في أصله موجود، ولكنه لا يرى .أما الغائب عن العقل قد يكون مستحيلا وقد يكون ممكن الوجود .

أما في الاصطلاح: فيعرفه حسن حبنكة الميداني بقوله: "هو كل أمر غائب عن مجال إدراكنا الحسي حسب العادة "[339].

فعندما يطلق عالم الغيب يقصد به ما غاب عن الإنسان باعتباره محدود الطاقة الإدراكية، فجميع حواسه لها سقف مهما علا فهو لا يتجاوز حدودا معينة، لكن "عالم الغيب" ليس غيبا عن الله تعالى وحده، فهو داخل في علم الله تعالى، لأن الله هو الذي خلق الزمان والمكان . ما يرى وما لا ير ى. فلا يعزب عن الله تعالى شيء في الأرض ولا في السماء، فهو علاّم الغيوب .قال الله تعالى : {وَمَامِنْغَائِبَةٍفِيالسَّمَاءوَالْأَرْضِإِلَّافِيكِتَابٍمُّبِينٍ }[340]

وقد اصطلح علماء العقيدة على تسمية "عالم الغيب" بالسمعيات وأرادوا بها كل الأمور التي لا تخضع لمقاييس الحس والعقل، ولا يمكن التحقق من وجودها بوسائل المعرفة البشرية المجردة، فهي تتعلق بعالم ما وراء المادة، فعقيدة التوحيد تؤكّد أن هذا العالم الماورائي (الغيب) لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الوحي الإلهي المؤيد بالمعجزات[341].

فالعقل الإنساني يمكنه البحث في مجال المادة" الطبيعية " أما ما وراء الطبيعة فمهما كان خيال الإنسان واسعا لا يمكنه تأليف صوّر خارجة عن العالم المشاهد، وتصويره للأشياء يبقى دائما مستمدا من عالم الشهادة، أما ما كان خارجا عن عالم الشهادة فيقف عاجزا عن تقديم صورة يقينية تطمئن إليها النفس، وكل محاولة فهي ضرب من الدجل أو الضلال والتيه " فالعميان مثلا الذين يولدون وهم فاقدو البصر، مهما أوتوا من الذكاء لا يستطيعوا أن يتصوروا في مخيلتهم شيئا عن

339–عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : العقيدة الإسلامية وأسسها دار القلم دمشق ط 8 سنة 1997 ص 27

340 سورة النمل الآية: 75

341 –محمد سيد أحمد المسير : عالم الغيب في العقيدة الإسلامية نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ط1 سنة 2007

الألوان مهما حاولنا أن نقرّب لهم ذلك بالتشبيه والتمثيل، حيث لم يسبق لهم أن اتصلوا بإدراك حقيقة أي لون من الألوان عن طريق البصر "[342].

فالطاقة الإدراكية للإنسان عندما تزن الأشياء لا تتجاوز تجربة الإنسان مع العالم المحسوس، فبمقدار ما تنقل الحواس من حقائق للقوة الإدراكية تستطيع أن تتخيل وتدرك وتحلل وتركب وتستنتج القواعد العامة وتقيس الأشباه والنظائر على بعضها، ولكنها لا تستطيع شيئا غير ذلك ولا أكبر من ذلك، والحديث عن عالم الغيب من هذا القبيل، إلا أنه يمكن التفصيل في المقصود من عالم الغيب الذي لا يمكن إدراكه مهما أوتي الإنسان من قوة .

أقسام الغيب: صحيح أن الغيب وجود وراء المحسوس، غير أنه من حيث موضوعه يمكن أن يقسم إلى قسمين:

أولا: غيب ممكن الإدراك : فهو نسبي، ومؤقت، وهو الغيب المتشيء، وهذا يدخل في مجال القوانين العلمية، والسنن الكونية، ومن هذا القبيل ما أشار إليه قوله تعالى :{سَنُرِيهِمْآيَاتِنَافِيالْآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّأَوَلَمْيَكْفِبِرَبِّكَأَنَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍشَهِيدٌ }[343] أو ما نصّ عليه من القضايا التاريخية . قال الله تعالى :{تِلْكَمِنْأَنبَاءِالْغَيْبِنُوحِيهَاإِلَيْكَمَاكُنتَتَعْلَمُهَاأَنتَوَلَاقَوْمُكَمِنقَبْلِهَذَافَاصْبِرْإِنَّالْعَاقِبَةَلِلْمُتَّقِينَ }[344] وهذا الغيب غيب بالنسبة لنا بسبب قصور في المعرفة الإنسانية، أو لسبب آخر قد يتكشّف مع الزمن، بحيث أن التفكير البشري إذا سار في الاتجاه الصحيح يمكنه:

أ-فتح بوابة التقدم المعرفي من خلال الوقوف على أسرار هذا الكون المادي، ومعرفة قوانينه الدقيقة وفهم علاقاته، وضبط سننه التي من شأنها أن تسهّل عملية التسخير .

---

[342]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : العقيدة الإسلامية وأسسها دار القلم دمشق ط 8 سنة 1997 ص15

[343]- سورة فصلت الآية :53

[344]- سورة هود الآية: 49

ب–أن السعي لمعرفة هذا الجزء من الغيب يعني الإيمان بالتطوّر والتغيير والسعي الدائم للارتقاء، وأن الأوضاع المشهودة يمكن استبدالها بما هو أحسن منها، وبذلك يقدم الإيمان بالغيب بيئة للبحث المستمر، واكتشاف المعجزات، والآيات، والشواهد الإيمانية المبثوثة في كل ذرة من ذرات الكون . قال الله تعالى : {سَنُرِيهِمْآيَاتِنَافِيالْآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّأَوَلَمْيَكْفِبِرَبِّكَأَنَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍشَهِيدٌ}[345]

وهذا كله يساير فلسفة الإسلام في الدعوة إلى النظر، والتدبر التي تفضي في نهاية الأمر إلى اكتشاف شيء جديد لم يكن مدركا للناس رغم وجوده كحقيقة في واقع الحياة .فهناك كثير من الأمور كانت غيبا ثم استطاع البحث العلمي بعد تمكنه من استخدام بعض القوانين الكونية والتقنيات العلمية أن يحوّلها من الغيب إلى قضايا مشاهدة، ومثل ذلك التوَّصل إلى معرفة الأسباب الكونية التي تحدد مثلا ساعة نزول الأمطار أو تكشف عن الأجنة في بطون الأمهات بالأشعة أو المناظير أو أجهزة التصوير أو غيرها، فإن ذلك يخرجها من كونها غيوبا إلى كونها أمورا مادية مشهودة .فمثل هذه المسائل بيّن القرآن الكريم أنها ستكون موضع بحث الإنسان وأنه سيوفق في كشفها في مستقبل الأيام، وأنها ستكون من البراهين القطعية على صدق الرسالة المحمدية.

وهذه المكتشفات يمكن الانتفاع بها في تثبيت الإيمان، والاستفادة من هذه القوانين في تطبيقاتها العملية المتنوعة. وجدير بالذكر هنا أن نبيّن أن اكتشافات الإنسان في هذا الممكن من الغيب قليلة جدا على الرغم من المجهود البشري الضخم . قال تعالى:{وَمَاأُوتِيتُممِّنالْعِلْمِإِلاَّقَلِيلاً }[346] .

ج– الإيمان بالغيب هو الذي يساعد الإنسان على فهم حدوده ودوره المرسوم له في الكون وموقعه في منظومة الخلق، فيدرك حقيقة العبودية، وشرفها فيقبل عليها طائعا مختارا [347] وبهذا يحفظ جهوده،

---

[345]–سورة فصلت الآية: 53

[346]– سورة الإسراء الآية: 85

[347]– ينظر طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران ص29/28

فلا يخوض في الغيب المطلق، أما ما دونه فهو مجال للبحث، والتجربة، والمحاولة المستمرة لترقية الحياة وتحقيق معنى الاستخلاف.

ثانيا: غيب استأثر الله بعلمه: وهذا هوالغيب المطلق الذي لا يمكن أن يصل إليه الإنسان بحواسه النسبية لمحدوديتها، وهو الذي يعد المبدأ في عقيدة التوحيد، وما يمثلها من أركان الإيمان إجمالا وتفصيلا، وهي من الأمور التي لا تستطيع حواس المخلوقات ولا مداركهم إدراكها، لأنها غير مهيأة خِلْقَة لاستيعابها، وقد تفرد الله بعلمها، واستأثر بها لنفسه، فلم يُطْلع عليها أحدا من خلقه، وإلى هذا أشار القرآن بقوله تعالى: {عَالِمُالْغَيْبِفَلَايُظْهِرُعَلَىغَيْبِهِأَحَداً }[348]. وقال تعالى: {قُللَّايَعْلَمُمَنفِيالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِالْغَيْبَإِلَّااللَّهُوَمَايَشْعُرُونَأَيَّانَيُبْعَثُونَ }[349] . وهنا ملاحظة جديرة بالذكر وهي أن هناك علاقة بين الغيب النسبي (المتشيئ) والغيب المطلق، بحيث يستدل على الغيب المطلق بالغيب المتشيئ[350].

ونخلص إلى نتيجة وهي : أن القضايا التي يطلق عليها مسمى أركان الإيمان هي المعنية بالحديث هنا، فعقيدة التوحيد تعتبر مبدأ غيبيا، لأن جميع أركانها لا يمكن إدراكها عن طريق الاجتهاد من أي كان، فالجميع حيالها سواء في الإدراك، ومهما كانت قدرة الإمكانات، والملكات النفسية للإنسان تظل عاجزة عن الكشف عن ذلك.

وباسقراء القيم الإيمانية يتبيّن لنا أن هناك قيما جوهرية في منظومة الغيب ذاتها، فالتوحيد مبدأ غيبي جوهري وقيمة من القيم العظيمة في الحياة، يُرد إليها تفسير كل القيّم، وهذا المبدأ من شأنه أن يجيب عن التساؤلات المحيّرة للإنسان عبر تاريخه فوق هذه الأرضف:" أول هذه المبادئ الذي هو الأساس لما عداه من المبادئ هو مبدأ التوحيد، لأنه هو المبدأ الفطري القرآني الذي ينبثق منه مفهوم نظام

---

348 –سورة الجن الآية: 26

349 سورة النمل الآية: 65

350–ينظر ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص 242

SYSTEM الوجود "[351]ويمكن أن يتجلى ذلك في ثلاث قضايا رئيسة تتمحور حولها التساؤلات وهي: أصل الوجود وأبعاده، و حقيقة الحياة وأبعادها، ووظيفة الإنسان فيها، ومصير الكون والإنسان وما وراء الحياة والوجود، ويمكن تفصيل هذه القضايا فيما يأتي:

1-أن التوحيد مبدأ غيبي من حيث كونه يقدِّم تفسيرا واضحا ودقيقا للوجود، وكل مكوناته ومن أوجده ويبيّن صفات الموجِد وغايته من الخلق ومصير هذا الخلق ووظيفة عناصر الكون منفردة ومجتمعة، وبهذا يجيب التوحيد عن التساؤلات ويضع القيّم التصوّرية للرؤية الكلية للكون والحياة والإنسان من خلال تفسيرهالشامل للوجود ف"لابد من تفسير يقرّب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها، وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق : حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية (وهذه تشمل على حقيقة الكون .وحقيقة الحياة .وحقيقة الإنسان) وما بينها جميعا من تعامل وارتباط"[352] .

2- أن التوحيد مبدأ غيبي، لأنه وحده يعرّف بحقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني فمن هذه المعرفة يتبيّن دور الإنسان في الكون وحدود اختصاصه كذلك، وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعا، ومن ثم يتحدد منهج حياته ونوع النظام الذي يحقق هذا المنهج، فنوع منظومة القيم التي تحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل للوجود ومنبثقة عنه .يقول سيد قطب :"والحقيقة الأخرى هي أن هناك تلازما وثيقا بين طبيعة التصور الاعتقادي وطبيعة النظام الاجتماعي .. تلازما لا ينفصل ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة ..بل إن هناك ما هو أكثر من التلازم.. هناك الانبثاق الذاتي ..فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود، ولمركز الإنسان فيه ووظيفته، وغاية وجوده الإنساني، وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير هو نظام مصطنع لا يعيش .وإذا عاش فترة شقي به الإنسان ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما...فهي ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية "[353] .

---

[351]- عبد الحميد أحمد أبو سليمان :الرؤية الكونية الحضارية القرآنية دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ص115

[352]-سيد قطب :خصائص التصور الإسلامي ومقوماته دار الشروق ص 5

[353] -المرجع نفسه ص: 24

3-أن التوحيد هو المبدأ الغيبي الذي يضع الإجابة السوية للبعد الروحي والمادي للإنسان، ويرشد إلى أهم القيّم التي تعينه على أداء وظيفته في الحياة الدنيا باعتبارها موضع امتحان وتكليف. فالتوحيد يبيّن أن الحياة هبّة مباشرة من الرب الخالق خارجة عن إطار الكون المادي.قال الله تعالى :" {وَيَسْأَلُونَكَعَنِالرُّوحِقُلِالرُّوحُمِنْأَمْرِرَبِّيوَمَاأُوتِيتُممِّنالْعِلْمِإِلاَّقَلِيلاً }[354] وأن الكون مسخر للإنسان ليؤدي وظيفة الاستخلاف، وأن الله لم يخلق الإنسان عبثا ولا باطلا كما لم يخلق الكون لعبا ولهوا، ولا مجال لتصوّر العبث واللهو واللعب في شيء من ذلك :" فالكون أثر خلق تدل صفاته وخصائصه على عظيم صفات خالقه" [355].

ومن خلال هذا التصور الكلي يمكن أن نحدد القيّم التصورية الناتجة عن الإيمان بالغيب، وسأحاول في هذه الدراسة التركيز على أمهات القيّم والمفاهيم والمنطلقات التي تنظم التصوّر والفكر من أجل بناء منهجية متميّزة يكون فيها الانسجام تاما بين جميع معطيات الوجود ونوجزها فيما يأتي:

1-قيم تتعلق بموضوع الألوهية:

أ- أن المفهوم الواضح للغيب يمنحنا قيمة هامة وهي معرفة الوجود بأبعاده و يحدد حدود العقل في فهم معنى الحياة وعلاقتها بما وراء الحياة، والوجود الإنساني وعلاقته بما وراء الوجود والعلاقات والغايات الإنسانية بما وراء عالم المادة، فهي"ذات أفق واسع بعكس العقائد الأخرى المحددة ضمن نطاق المادة أو ضمن نطاق الروح إذ شملت المادة والروح وأقرت بوجودهما، ولكنها تقرر أن الكون المادي منبثق عن قوة غير مادية لا تتغير ولا تتبدل ولا تتطور، وليس لها بداية أو نهاية وهذه القوة هي قوة الله" [356].

ب-أن التوحيد هو المبدأ الأساس في الرؤية الإسلامية الكونية، لأنه يهدف إلى الإجابة عن الأسئلة الخالدة في حياة الإنسان من أين ؟إلى أين؟ لماذا ؟ ومن ثم يحدد مفهوم الوجود وما وراء الوجود

---

[354]-سورة الإسراء الآية: 85

[355]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة : دار القلم دمشق ص 13

[356]-محمد المبارك : نحو إنسانية سعيدة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع دون ط ودون تاريخ ص121

وأبعاد الحياة الإنسانية، لذلك نجد أن التوحيد في تعريفاته المختلفة يتمركز على إفراد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته. ومن خلال هذا التوحيد تمخضت نتائج مهمّة منها :

1-أنه يستحيل أن يتمثّل المطلق " الله" بالمخلوقات النسبية " الكائنات ".

2-أن هناك مفهوما كونيا للإسلام يمكن صياغته كالتالي الله، الإنسان، الطبيعة، ويستحيل أن يكون تداخل بين هذه المستويات، ومن هنا فالله خالق والإنسان مخلوق مكلف من الله بتحمل الأمانة وله القدرة والسيادة النسبية على الطبيعة، والطبيعة مخلوق أيضا مسخّر محدود بالزمان والمكان.

3- أن التوحيد هو الذي يحدد القيم التصورية عن معنى الحياة والوجود وغاية الحياة والوجود وعلاقة ذلك بما وراء الحياة وما وراء الوجود وما وراء المادة .

4- أن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله قال الله تعالى :{يَاأَهْلَالْكِتَابِلاَتَغْلُواْفِيدِينِكُمْوَلاَتَقُولُواْعَلَىاللّهِإِلاَّالْحَقَّإِنَّمَاالْمَسِيحُعِيسَىابْنُمَرْيَمَرَسُولُاللّهِوَكَلِمَتُهُأَلْقَاهَاإِلَىمَرْيَمَوَرُوحٌمِّنْهُفَآمِنُواْبِاللّهِوَرُسُلِهِوَلاَتَقُولُواْثَلاَثَةٌانتَهُواْخَيْرًالَّكُمْإِنَّمَااللّهُإِلَهٌوَاحِدٌسُبْحَانَهُأَنيَكُونَلَهُوَلَدٌلَّهُمَافِيالسَّمَاوَاتِوَمَافِيالأَرْضِوَكَفَىبِاللّهِوَكِيلاً }[357] وأن الله تعالى منزه عن مشابهة مخلوقاته، ومتصف بجميع صفات الكمال، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الحق العدل الأول الآخر. قال الله تعالى:{ لَيْسَكَمِثْلِهِشَيْءٌوَهُوَالسَّمِيعُالبَصِيرُ }[358]. وقال الله تعالى:{إِنَّاللّهَبِالنَّاسِلَرَؤُوفٌرَّحِيمٌ }[359].

وهذا يعني أن هناك ثنائية في الوجود ذات طرفين "الله" تعالى المنزه عن مشابهة الخلق، و"ما سوى الله "من عناصر الكون وهو المعبر عنه ب "عالم الخلق " وهو عالم الزمان والمكان لكل ما احتواه من موجودات وحوادث، وهذان الطرفان منفصلان انفصالا تاما كونيا ووجوديا، فلا يمكن أن يتحد

---

[357] – سورة النساء الآية: 171

[358]– سورة الشورى الآية: 11

[359]– سورة البقرة الآية: 143

الخالق أو يحل أو يتجسّد في المخلوق، كما لا يمكن للمخلوق أن يتسامى ويتحول ليصبح الخالق بأي شكل أو معنى، فلا صلة بين الخالق والمخلوق إلا بقوة العقل، وهي قوة فطرية تؤهل المخلوق لإدراك إرادة الخالق وحيا أو تعقلافهما :" طرفان متباعدان في الحقيقة الذاتية حيث يتصف الله تعالى بالكمال المطلق ولا يستطيع العقل البشري أن يعلم عن كنه حقيقته شيئا،وقصارى ما يدرك صفات الكمال .في حين يتصف العالم بصفات النقص والدون إزاءه وهو ذو طبيعة معقولة في إمكان العقل إدراكها وتحصيل حقيقتها "[360] .

5. أن الله تعالى وحده خالق كل شيء بالحق والميزان. قال الله تعالى :{مَاخَلَقْنَاالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَوَمَابَيْنَهُمَاإِلَّا بِالْحَقِّوَأَجَلٍمُّسَمًّىوَالَّذِينَكَفَرُواعَمَّاأُنذِرُوامُعْرِضُونَ }[361] وقال تعالى:" {وَالسَّمَاءرَفَعَهَاوَوَضَعَالْمِيزَانَ }[362] وأن وحدة الخالق وقدرته وتفرده وكماله وبديع الخليقة التكاملية يفسر إبداع نظامها ويحتم غائيته وأخلاقيته، فالكون الموزون يدفع إلى الاعتقاد أن الخالق أحكم صنعه وفق ميزان النواميس الثابتة التي تحكمه من الذرة إلى المجرة حتى تُعِين معرفتها على تسخير الكون، وبهذا يتبيّن أن الكون غائي ولا عبثية فيه. قال الله تعالى: {وَمَاخَلَقْنَاالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَوَمَابَيْنَهُمَالَاعِبِينَ }[363].

6–وأن الله تعالى هو رازق العباد ومقدر أقواتهم . قال الله تعالى :"{يَاأَيُّهَاالنَّاسُاذْكُرُوانِعْمَتَاللَّهِعَلَيْكُمْهَلْمِنْخَالِقٍغَيْرُاللَّهِيَرْزُقُكُممِّنَالسَّمَاءِوَالْأَرْضِلَاإِلَهَإِلَّاهُوَفَأَنَّىتُؤْفَكُونَ }[364].

7–أن الله تعالى هو مقدر آجالهم وهو الذي يحييهم بعد مماتهم قال الله تعالى :{ذَلِكَبِأَنَّاللَّهَهُوَالْحَقُّوَأَنَّهُيُحْيِيالْمَوْتَىوَأَنَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ }[365] .

---

[360]–عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي والعقل ص41

[361]–سورة الأحقاف الآية : 3

[362]– سورة الرحمن الآية :7

[363]– سورة الدخان الآية: 38

[364]– سورة فاطر الآية: 3

8–وأن عقيدة التوحيد تنفي التعدد أيا كان نوعه . قال الله تعالى :{مَااتَّخَذَاللَّهُمِنوَلَدٍوَمَاكَانَمَعَهُمِنْإِلَهٍإِذاًلَّذَهَبَكُلُّإِلَهٍبِمَاخَلَقَوَلَعَلَابَعْضُهُمْعَلَىبَعْضٍسُبْحَانَاللَّهِعَمَّايَصِفُونَ}[366]فا نتظام حركة الكون دليل على أن الإرادة المدبرة لشؤونه واحدة، فمنذ ملايين السنين والكون منتظم ولم يطرأ على حركته أي خلل، ولو كان هناك أكثر من إله أو أكثر من إرادة، لتصادمت الإرادات، ولفسد الكون بسبب تعدد الإرادات التي تسيّره .قال الله تعالى: {لَوْكَانَفِيهِمَاآلِهَةٌإِلَّااللَّهُلَفَسَدَتَافَسُبْحَانَاللَّهِرَبِّالْعَرْشِعَمَّايَصِفُونَ }[367].

2- القيم المتعلقة بأركان الإيمان وعلاقتها بالحياة الإنسانية :يمكن تلخيص القيم المتعلقة بأركان الإيمان فيما يأتي :

–أن مفهوم الوجود وعلاقاته الكلية، ومنطق العلاقات هي فيما وراء طاقة العقل الإنساني، والمنطق الإنساني، والإدراك الإنساني، لأنه من عالم الغيب، أما العقل الإنساني والإدراك الإنساني فمؤهل لإقامة الحياة على هذه الأرض، وأداء واجبات الخلافة في الإصلاح و الإعمار، والعقل هو أداة الإنسان وميزته الكبرى لحمل المسؤولية المهمة الملقاة على عاتقه في هذه الحياة . قال الله تعالى :"{وَإِذْقَالَرَبُّكَلِلْمَلَائِكَةِإِنِّيجَاعِلٌفِيالْأَرْضِخَلِيفَةًقَالُوااَتَجْعَلُفِيهَامَنيُفْسِدُفِيهَاوَيَسْفِكُالدِّمَاءوَنَحْنُنُسَبِّحُبِحَمْدِكَوَنُقَدِّسُلَكَقَالَإِنِّيأَعْلَمُمَالاَتَعْلَمُونَ }[368] وبهذا يتجلى لنا أن مؤهل الإنسان للخلافة هو "العلم"، والعقل أداة العلم، ووسيلته فيما يتعلق بعالم الشهادة .

–أن الوحي هو المصدر الإلهي الذي يمد الإنسان بالمعرفة، والمعرفة الإنسانية في حاجة إلى فهم الوجود، بما يتضمن من شؤون الغيب وعلاقاته وغاياته الكلية، وعلاقة الإنسان بهذه الكليات والغايات . والعقل هو أداة الإنسان للعلم والمعرفة وأداء واجبه في هذه الأرض (عالم الشهادة)

---

[365]– سورة الحج الآية: 6

[366]– سورة المؤمنون الآية: 91

[367]– سورة الأنبياء الآية: 22

[368]– سورة البقرة الآية: 30

وذلك تحقيقا لمهمة الخلافة، وغايتها في فهم وضبط العلاقات المختلفة : العبودية مع الخالق، والتسخير مع الكون، والعدل والإحسان مع الإنسان، والابتلاء مع الحياة، والمسؤولية والجزاء مع الآخرة .

– أن العقل والوحي بهذا المفهوم يتكاملان لتحديد موقع الإنسان في عالم الشهادة وتمكين وجوده وسعيه من تحقيق الغاية منهما في عالم الشهادة، فالوحي يمد الإنسان بالمعرفة الكلية والغايات الربانية من الخلق، حيث لا يملك الإنسان منها شيئا باعتبارها خارج إدراكه، والعقل هو وسيلة الإنسان في العلم بعالم الشهادة وما ينطوي عليه الكون من شؤون الفطرة وسنن وطبائع وأشياء مسخرة يقوم الإنسان على أمرها بالإصلاح والإعمار على ما يقتضيه التوجيه الإلهي والغاية الإلهية الخيرة .

–أنه لا مجال في مبدأ التوحيد للتعارض بين الوحي والعقل والكون، فقيّم الوحي تختص بعالم الغيب، وكليات الوجود، وغاياته في الكون والحياة وهي التي توضح أمر الله، وتكشف أن السعي على غير مراد الله ضلال واستكبار، وأن الإذعان لما جاء به الوحي من الحق هو الذي يميّز بين العلم الخيّر والعلم الفاسد،، وهذا هو المعيار الذي ميّز بين علم الملائكة، ومنطقهم الراشد، وعلم إبليس، ومنطقه الفاسد حيث قالوا:{قَالُواْسُبْحَانَكَلاَعِلْمَلَنَاإِلاَّمَاعَلَّمْتَنَاإِنَّكَأَنتَالْعَلِيمُالْحَكِيمُ}[369] أما إبليس فقال مستكبرا:"{قَالَمَامَنَعَكَأَلاَّتَسْجُدَإِذْأَمَرْتُكَقَالَأَنَاْخَيْرٌمِّنْهُخَلَقْتَنِيمِننَّارٍوَخَلَقْتَهُمِنطِينٍ }[370]، كما قال : {وَإِذْقُلْنَالِلْمَلآئِكَةِاسْجُدُواْلآدَمَفَسَجَدُواْإِلاَّإِبْلِيسَقَالَأَأَسْجُدُلِمَنْخَلَقْتَطِيناً }[371] لكن الله تعالى كشف بعلمه الكلي وقدرته الشاملة أن العقل الإنساني عقل راشد، وصحيح إذا وجّه سعيه نحو عالم الشهادة لأداء وظيفته، وتحمُّل الأمانة على ما سدد الله به رؤيته من علم الغيب، وهداه إليه من

---

[369] سورة البقرة الآية: 32

[370]–سورة الأعراف الآية: 12

[371] سور ة الإسراء الآية: 61

قيّم، وسنن تعينه في تسخير الكون، وتحقيق الاجتماع الإنساني. قال تعالى: {إِنِّيأَعْلَمُمَالاتَعْلَمُونَ}[372]

– في قيم التوحيد يتكامل الغيب والشهادة ويتكامل الوحي والعقل والكون، ويتكامل الإيمان والعمل، ويتكامل التوكل والسعي، وتتكاملعقيدة القضاء والقدر والثقة بالكليات الربانية والأوامر الإلهية. مع التأكيد على جدية السعي في فهم علم السنن وفهم الفطرة وطلب الأسباب والحرص عليها، فصلاح الخلافة لا يكفي فيه حسن النية والقصد، فذلك شأن تكفل به الإيمان بالله والتوجه إليه، وإنما ينصرف فيما وراء ذلك من السعي الموضوعي في طلب الأسباب وحسن الأداء والعمل .

– أن الله سبحانه وضع للكون ميزانا هو سننه المبنية على قواعد صارمة فبقدر التوافق مع تلك الموازين يكون التوفيق، واكتشافها في مقدور الإنسان. قال تعالى: {وَالسَّمَاءرَفَعَهَاوَوَضَعَالْمِيزَانَ}[373]. كما وضع للإنسان ميزانا هو منهاجه الذي ينظم به حياته، من غير ظلم، ولا عدوان مادام طائعا لله ومنسجما مع تعاليم المنهج .قال الله تعالى :{لَقَدْأَرْسَلْنَارُسُلَنَابِالْبَيِّنَاتِوَأَنزَلْنَامَعَهُمُالْكِتَابَوَالْمِيزَانَلِيَقُومَالنَّاسُبِالْقِسْطِوَأَنزَلْنَاالْحَدِيدَفِيهِبَأْسٌشَدِيدٌوَمَنَافِعُلِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَاللَّهُمَنيَنصُرُهُوَرُسُلَهُبِالْغَيْبِإِنَّاللَّهَقَوِيٌّعَزِيزٌ }[374]وقال تعالى {اللَّهُالَّذِيأَنزَلَالْكِتَابَبِالْحَقِّوَالْمِيزَانَوَمَايُدْرِيكَلَعَلَّالسَّاعَةَقَرِيبٌ }[375].

–أن الفساد وجميع القيم السلبية تلحق بالحياة الإنسانية في حالة مخالفة التوجيهات الإلهية التي جاءت بها الرسالات السماوية قال الله تعالى :"{وَلَوِاتَّبَعَالْحَقُّأَهْوَاءهُمْلَفَسَدَتِالسَّمَاوَاتُوَالْأَرْضُوَمَنفِيهِنَّبَلْأَتَيْنَاهُمبِذِكْرِهِمْفَهُمْعَنذِكْرِهِممُّعْرِضُونَ }[376].

372– سورة البقرة الآية: 30

373– سورة الرحمن الآية: 7

374– سورة الحديد الآية: 25

375–سورة الشورى الآية:17

376– سورة المؤمنون الآية: 71

–عالم الغيب هو عالم يختص به علم الله وحده ويوحي بما يشاء من أمره إلى من يشاء من عباده ويرسلهم بالرسالات إلى الأمم هداية لهم وتبصيرا لمعنى وجودهم، وغاية هذا الوجود وعلاقاته وآماله.قال الله تعالى :{الَّذِيخَلَقَالْمَوْتَوَالْحَيَاةَلِيَبْلُوَكُمْأَيُّكُمْأَحْسَنُعَمَلاًوَهُوَالْعَزِيزُالْغَفُورُ}[377].

–أن الوجود له غاية خيرة أخلاقية ولم يخلق عبثا. قال تعالى:{أَفَحَسِبْتُمْأَنَّمَاخَلَقْنَاكُمْعَبَثاًوَأَنَّكُمْإِلَيْنَالَاتُرْجَعُونَ}[378] لذلك كانت علاقة الإنسان بعالم الغيب وفق مفهوم الإسلام علاقة خيّرة بناءة تهدف إلى إقامة الخير والعدل في الحياة الإنسانية، وإعمار الأرض، وصيانة الكائنات والأرض من الفساد . قال الله تعالى :{إِنَّاللّهَيَأْمُرُبِالْعَدْلِوَالإِحْسَانِوَإِيتَاءِذِيالْقُرْبَىوَيَنْهَىعَنِالْفَحْشَاءِوَالْمُنكَرِوَالْبَغْيِيَعِظُكُمْلَعَلَّكُمْتَذَكَّرُونَ }[379] .وأن مبدأ التوحيد للخالق يعطي معنى للحياة، والكون، والإنسان، وأن الإنسان مخلوق له مكانة خاصة .ويترتب عن ذلك تحديد دوره في الاستخلاف، وتكريمه بالقدرة على التصرف والاختيار، والقدرة في اتخاذ القرار، وما يستتبع ذلك من المسؤولية العبادية الإعمارية لتحقيق قيم الحياة التي تحقق ذات الإنسان، وتستجيب لحاجاته، وتتجاوب مع فطرته، وتسمو به إلى تحقيق معنى الإنسانية.

ومن هنا فعقيدة التوحيد تؤكد هذه الرؤية لموضوع الخلق، بأنها لا تستقيم إلا إذا كان هناك حتمية غائية وأخلاقية للخلق، ويترتب عن هذا الاعتقاد ترشيد سعي الإنسان وخياره وتوجيهه إلى مناهج التسخير الكونية الصحيحة لتحقيق غايات فطرته السامية الروحانية في استجابته لحاجاته الحياتية المادية الإعمارية بعيدا عن التفكير الخرافي المادي العدمي [380].

– لما كان الإنسان لم يخلق عبثا، فإن الله أوجده ووهبه العقل والعلم وكرمه بمركز الخلافة في الأرض وأعلى منزلته بقدرة العلم وحرية الإرادة، مميزا له على سائر الكائنات، فإن اهتدى بإرادته الحرة، فهو

---

[377] سورة الملك الآية: 2

[378]– سورة المؤمنون الآية: 115

[379]– سورة النحل الآية: 90

[380]ينظر عبد الحميد أحمد أبو سليمان : الرؤية الكونية الحضارية القرآنية دار السلام للطباعة والنشر ط12009 ص 119

الأكمل والأفضل وصار أحسن الخلائق تقويما وتكريما، وإن ضل وفسد كان بفساده وضلاله واختياره في أسفل سافلين قال تعالى: {لَقَدْخَلَقْنَاالْإِنسَانَفِيأَحْسَنِتَقْوِيمٍ }[381].

–أن مسؤولية الإنسان في هذه الحياة الدنيا هي القيام بمسؤولية الخلافة والإعمار و التفاعل مع الكائنات ورعايتها، وذلك بطلب الأسباب والسعي لأداء الأمانة وإرضاء الحق سبحانه وتعالى إيمانا به وبالغاية التي خلق الله الإنسان لأدائها. {إِنَّاعَرَضْنَاالْأَمَانَةَعَلَىالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِوَالْجِبَالِفَأَبَيْنَأَنيَحْمِلْنَهَاوَأَشْفَقْنَمِنْهَاوَحَمَلَهَاالْإِنسَانُإِنَّهُكَانَظَلُوماً جَهُولاً }[382] .

ولما كان الخلق كله خلق لغاية وهي تحقيق إرادة الخالق، فلا بد أنه قادر على تحقيقها، ففي الإنسان قوة تعينه على تغيير نفسه، وتغيير مجتمعه، وتغيير الطبيعة من حوله؛لأن قابلية النفس،والمجتمع، والطبيعة للتطويع ممكنة حتى يستطيع تحقيق إرادة الله كما فهمها، فالتكليف لا معنى له إلا إذا كان مضمون الخطاب مفهوما، وكان المكلف قادرا على تنفيذه، فإرادة الله متحققة في الطبيعة بالضرورة والإجبار، وفي الإنسان بالابتلاء والاختيار، فتنفيذ إرادة الله لا تطبق إلا في إطار وحدة الحياة التي ترفض الفصل بين الجوانب المادية والروحية .

–أن الدار الآخرة هي دار تكشف محصلة سعي الإنسان في الحياة الدنيا ويترتب عن ذلك الحساب الثواب أو العقاب على ما قدمت يد الإنسان من خير أو شر. قال تعالى {فَمَنيَعْمَلْمِثْقَالَذَرَّةٍخَيْرًايَرَهُوَمَنيَعْمَلْمِثْقَالَذَرَّةٍشَرًّايَرَهُ. وَمَنيَعْمَلْمِثْقَالَذَرَّةٍشَرًّايَرَهُ}[383]كما ترفض الفصل بين الدنيا والآخرة فعقيدة التوحيد تؤمن بوحدة الحياة وترابطها بحيث تتجلى أهمية المهمة الاستخلافية الأخلاقية الإعمارية الخيرة، فيأخذها مأخذ الجد فتتحقق ذاته، وسعادته الدنيوية

---

[381] سورة التين الآية: 4

[382]– سورة الأحزاب الآية: 72

[383] سورة الزلزلة الآية: 8/7

وتطمئن نفسه الخيرة على المصير فيما وراء الحياة الدنيا حين تنكشف للإنسان حقائق الحياة الآخرة في صورتها الكاملة [384]. قال الله تعالى {يَعْلَمُونَظَاهِراًمِّنَالْحَيَاةِالدُّنْيَاوَهُمْعَنِالْآخِرَةِهُمْغَافِلُونَ }[385]

الفرع الثاني: القيم التعبدية

أ- تعريفها لغة :

جاء في القاموس المحيط المعبّد كالمعظم : المذلل من الطريق وغيره .

العبد الإنسان كان حرا أم رقيقا.

والعبدية والعبودية والعبودة والعبادة: الطاعة، وتعبّد :تنسّك [386].

فمصطلح العبادة في الإسلام يشمل معاني كثيرة، لكنها لا تخرج عن حالة شخص أدرك أنه مدين تماما لله تعالى، فهو مستسلم، خاضع، ممتثل لإرادة الله تعالى، وبالتالي فإنه يتذلل لله عبادة وزلفى .

ب-تعريفها اصطلاحا:

يعرفها الإمام ابن تيمية رحمه لله بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالصلاة والزكاة والصوم والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والذكر والدعاء والقرآن وأمثال ذلك من العبادة .وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته.

384-عبد الحميد أحمد أبو سليمان: الرؤية الكونية الحضارية القرآنية دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط1 2009 ص120

385- سورة الروم الآية: 7

386-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط دار الكتب العلمية بيروت ط1سنة 2004 ص321/320

ولنفس هذا التعريف ذهب عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني بألفاظ مختلفة فقال " والعبادة في مفهوم الدين الرباني الحق :سلوك إرادي أو ظاهر ذو دوافع باطنة يقصد به أداء ما يحب الله عز وجل من مربوبيه وما يرضيه منهم ويقربهم إليه "[387].

فالعبادة تعبر عن كل الأفعال التي يأتيها الإنسان بوعي ورغبة خدمة لله تعالى وحده حسب ما أمر به، وبعبادة الله على هذا النحو يكون الإنسان قد حقق الغاية من خلقه ووجوده .مصداقا لقوله تعالى :" و{وَمَاخَلَقْتُالْجِنَّوَالْإِنسَإِلَّالِيَعْبُدُونِ }[388] إلا أن فرقا اصطلاحيا قد ظهر بين كلمة العبودية والعبادة نشير إليه باختصار:

-أما العبودية :فتطلق ويراد بها الوصف الثابت المستكن في الفطرة الإنسانية، والمعبر عن منتهى الخضوع والضعف تحت سلطان ذي قوة قاهرة بغض النظر عن ظهور آثار ذلك أو عدم ظهورها على صعيد الاعتراف والسلوك لقوله تعالى : {إِنكُلُّمَنفِيالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِإِلَّاآتِيالرَّحْمَنِعَبْداً }[389].

ومن الواضح الجلي أن التزام الإنسان بعبادة الله تعالى يعد بالنسبة له أمرا عاديا على أساس أنه استجابة لميل طبيعي متأصل فيه يدعوه إلى فعل ذلك، وهو جانب هام من الدين الذي فطر عليه الإنسان، فهو يكتسي مفهوم الحالة الطبيعية الوجودية أو الفطرة الربانية في النفس الإنسانية والتي تعتبر النموذج الذي خلقت جميع الكائنات على مثاله، وهو ما يصطلح عليه "بالعبودية " ويفسرها محمد سعيد رمضان البوطي بقوله:" فالعبودية إذًا طابع شامل للفطرة الإنسانية أيا كان صاحبها مؤمنا كان أم كافرا، برا أو فاجرا .إذ هي الحقيقة التي تستقيم عليها فطرة الإنسان مادام

---

[387]-عبد الرحمن حسن حبنكة : ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة دار القلم دمشق ط1 سنة 1995 ص202

[388]- سورة الذاريات الآية: 56

[389] سورة مريم الآية: 93

إنسانا"[390] قال الله تعالى :{أَفَغَيْرَدِينِاللّهِيَبْغُونَوَلَهُأَسْلَمَمَنفِيالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِطَوْعاًوَكَرْهاًوَإِلَيْهِيُرْجَعُونَ}[391].

-وأما العبادة :فيراد بها التعبير عن ذلك الوصف المستكن في الفطرة بالطاعة السلوكية في تكاليف لا يراد من تنفيذها إلا الطاعة لذاتها بدون النظر إلى أي مصلحة أو فائدة تستتبعها[392].

فالخضوع بهذا المعنى هو الإذعان عن وعي وإرادة، وليس في ذلك الخضوع فقدان للحرية، لأن الحرية الحقة هي أن يتصرف الإنسان وفقا لدواعي طبيعته الحقيقية التي عبر عنها عهد الفطرة .قال تعالى: {وَإِذْأَخَذَرَبُّكَمِنبَنِيآدَمَمِنظُهُورِهِمْذُرِّيَّتَهُمْوَأَشْهَدَهُمْعَلَىأَنفُسِهِمْأَلَسْتُبِرَبِّكُمْقَالُواْبَلَىشَهِدْنَاأَنتَقُولُواْيَوْمَالْقِيَامَةِإِنَّاكُنَّاعَنْهَذَاغَافِلِينَ}[393]

فعندما أجابت النفس الإنسانية عن سؤال "ألست بربكم " بقولها "بلى" اعترفت بحقيقة الربوبية، وتكون بذلك قد عقدت ميثاقا مع الله تعالى تعهدت بموجبه تنفيذ أمره من خلال الالتزام بالدين المرادف للفطرة، وبهذا تكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين. والحركة خلاف هذا القانون يعد نقضا للميثاق والقانون المعترف به.

وفي هذه الحالة يلتقي الاستسلام الفطري مع الإسلام الطوعي، فالعبادة على الرغم من كونها ثمرة لطابع العبودية، إلا أنها من أخص سمات المؤمنين الذين وضعوا عبوديتهم موضع التنفيذ، وعبروا عنها ببيعة صادقة على السمع والطاعة .قال الله تعالى :{فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالاَتَبْدِيلَلِخَلْقِاللَّهِذَلِكَالدِّينُالْقَيِّمُوَلَكِنَّأَكْثَرَالنَّاسِلاَيَعْ

390- محمد سعيد رمضان البوطي :على طريق العودة إلى الإسلام مكتبة رحاب الجزائر ط8 ص 71

391- سورة آل عمران الآية: 83

392- ينظر المرجع السابق ص 71

393 سورة الأعراف الآية: 172

لَمُونَ }[394] يقول محمد سعيد رمضان البوطي "وليس الدين الحق في جوهره وخلاصة أمره إلا دعوة للناس أن يكونوا عبيدا لله عز وجل بالسلوك والاختيار، كما قد خلقوا عبيدا له بالقهر والاضطرار"[395].

ونؤكد مرة أخرى أن الاستسلام لله تعالى هو من معاني التحقق بالربوبية ولا يكون استسلاما حقيقيا إلا إذا كان عن وعي وإرادة، وهو فعل مستمر يعيشه الإنسان طيلة حياته ويستغرق جميع سلوكه الخلقي، وهو ليس تسليما مقتصرا على الخضوع الباطني فحسب، بل يتجلى في الخارج من خلال حركة الجسم في شتى مجالات الحياة إتباعا لأمر الله في شريعته، لأجل ذلك جاءت الكلمة الدقيقة والمناسبة المعبرة عن هذا الاستسلام في قوله تعالى :{وَمَنيُسْلِمْوَجْهَهُإِلَىاللَّهِوَهُوَمُحْسِنٌفَقَدِاسْتَمْسَكَبِالْعُرْوَةِالْوُثْقَىوَإِلَىاللَّهِعَاقِبَةُالْأُمُورِ }[396] ولا شك أن الدين الذي يعبر من خلاله الإنسان عن استسلامه، المقصود هنا هو الإسلام الذي يقتضي استسلاما كاملا لله وحده و هو أحسنها وأقومها[397].

ومن هنا استنتج علماء الإسلام أن للعبادة في الإسلام مدلولان:

1 –المدلول الخاص للعبادة : ويتمثل هذا المدلول في المظهر الشعائريوالممارسات التي ترمز إلى أشكال الحب والطاعة التي يتوجه بها الإنسان إلى الخالق في ضوء التوجيهات الإسلامية المتعلقة بذلك كالصلاة والزكاة والصوم والحج والتي تهدف إلى إبراز أهم القيم التي تثمرها العبادة في الإسلام، فالمظهر الشعائري ثمرته تحقيق التوازن النفسي والاستقامة في السلوك و العلاقات .

ففي الإسلام لكل عبادة مجموعة من القيم تثمرها عند الالتزام بها، ففاعلية العبادة تكون في الحالة التي لا تتجرد الممارسات فيها من الروح والأثر، وهذا ما تؤكد عليه عشرات المواقف التي

394–سورة الروم الآية: 30

395– المرجع نفسه ص: 72

396 – سورة لقمان الآية: 22

397– ينظر محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية دار النفائس ط1 2000 ص87

تتحدث عن حوار الرسل مع أقوامهم، واستغراب أولئك القوم من الرسول الربط بين أداء الصلاة، وبين التلاعب بشؤون المال والمكيال، والأسعار، والأجور وغير ذلك من ممارسات الحياة الاجتماعية، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى عن قوم شعيب {وَإِلَىٰمَدْيَنَأَخَاهُمْشُعَيْبًاقَالَيَاقَوْمِاعْبُدُواْاللَّهَمَالَكُممِّنْإِلَٰهٍغَيْرُهُۥوَلَاتَنقُصُواْالْمِكْيَالَوَالْمِيزَانَإِنِّيأَرَاكُمبِخَيْرٍوَإِنِّيأَخَافُعَلَيْكُمْعَذَابَيَوْمٍمُّحِيطٍ وَيَاقَوْمِأَوْفُواْالْمِكْيَالَوَالْمِيزَانَبِالْقِسْطِوَلَاتَبْخَسُواْالنَّاسَأَشْيَاءَهُمْوَلَاتَعْثَوْاْفِيالْأَرْضِمُفْسِدِينَ بَقِيَّتُاللَّهِخَيْرٌلَّكُمْإِنكُنتُممُّؤْمِنِينَوَمَاأَنَاْعَلَيْكُمبِحَفِيظٍ قَالُواْيَاشُعَيْبُأَصَلَاتُكَتَأْمُرُكَأَننَّتْرُكَمَايَعْبُدُآبَاؤُنَاأَوْأَننَّفْعَلَفِيأَمْوَالِنَامَانَشَاءإِنَّكَلَأَنتَالْحَلِيمُالرَّشِيدُ }[398] فالعبادات في حقيقة أمرها هي الروح التي تفعّل القيّم في الحياة، وتتركها حية في الضمائر، من خلال التوجيه والإرشاد .[399] وتتجلى آثار العبادة على مستويين:

أ-تجليات فردية :هناك علاقة وطيدة بين الممارسة الفعلية للعبادات في الإسلام وبين بناء شخصية الفرد، فمن خلال أداء هذه العبادات يتحقق الاستقرار النفسي ويحصل التهذيب الأخلاقي لذلك نلاحظ الربط بين هذه الشعائر وآثارها حيث تشير النصوص إلى ما يلي:

- ففي الصلاة :جاء قول الله تعالى : {اتْلُمَاأُوحِيَإِلَيْكَمِنَالْكِتَابِوَأَقِمِالصَّلَاةَإِنَّالصَّلَاةَتَنْهَىعَنِالْفَحْشَاءِوَالْمُنكَرِوَلَذِكْرُاللَّهِأَكْبَرُوَاللَّهُيَعْلَمُمَاتَصْنَعُونَ }[400].

-وفي الزكاة: جاء قول الله تعالى : {خُذْمِنْأَمْوَالِهِمْصَدَقَةًتُطَهِّرُهُمْوَتُزَكِّيهِمبِهَاوَصَلِّعَلَيْهِمْإِنَّصَلَاتَكَسَكَنٌلَّهُمْوَاللَّهُسَمِيعٌعَلِيمٌ }[401]

---

[398] سورة هود الآية: 84/85/86/87

[399]- ينظر : ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص85/86/87

[400]- سورة العنكبوت الآية: 45

[401]- سورة التوبة الآية: 103

-وفي الصوم: جاء قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُتِبَعَلَيْكُمُالصِّيَامُكَمَاكُتِبَعَلَىالَّذِينَمِنقَبْلِكُمْلَعَلَّكُمْتَتَّقُونَ }[402].

-وفي الحج جاء قول الله تعالى: {الْحَجُّأَشْهُرٌمَّعْلُومَاتٌفَمَنفَرَضَفِيهِنَّالْحَجَّفَلاَرَفَثَوَلاَفُسُوقَوَلاَجِدَالَفِيالْحَجِّوَمَاتَفْعَلُواْمِنْخَيْرٍيَعْلَمْهُاللّهُوَتَزَوَّدُواْفَإِنَّخَيْرَالزَّادِالتَّقْوَىوَاتَّقُونِيَاأُوْلِيالأَلْبَابِ }[403].

-في الذكر جاء قوله تعالى: {الَّذِينَآمَنُواْوَتَطْمَئِنُّقُلُوبُهُمبِذِكْرِاللّهِأَلاَبِذِكْرِاللّهِتَطْمَئِنُّالْقُلُوبُ}[404].

فالهدف التربوي التطهيري لا يغيب عن هذه العبادات التي جاءت لتعين الإنسان على تزكية نفسه،ومقاومة الشهوات المحرمة ووساوس الشياطين، يقول محمد المبارك :"إن العبادة بمعناها الخاص عنصر ضروري في الحياة، وتبقى الحياة بدونه بتراء ناقصة، ذلك أننا نمارس فعاليتنا الغريزية بشتى الطرق من طعام وشراب وحركة وعمل وزواج، ونمارس فعاليتنا العقلية، والعملية، وننميها بالتعلم، وتوسيع آفاق التفكير، وفعاليتنا الاجتماعية، أو ليس في الإنسان فعالية كامنة يمكن أن ينميها ويربيها، ويذكي جذوتها، وهي الفعالية الروحية، وأن التجارب في جميع العصور والأمم أثبتت جذوتها، وأنها من نوع أرقى من الفعاليات الأخرى، ولذلك فإن الجهد العقلي، والعمل الفني، والنضال السياسي،والنشاط الاقتصادي لا تغني مطلقا عن النشاط الروحي الذي يتجلى في عبادة الله، ولا يحل واحد منها محل هذه العبادة التي لها مكانها المستقل في حياة الإنسان وفي نفسه، بل هو أرفعها جميعا وأسماها، وهي التي تغذي الفعاليات الأخرى وتمدها بما يصلحها"[405].

---

[402]- سورة البقرة الآية: 183

[403] سورة البقرة الآية: 197.

[404] -سورة الرعد الآية: 28

[405]-محمد المبارك : نحو إنسانية سعيدة دار الفكر دون ط ودون تاريخ ص201/200

ب-تجليات اجتماعية: لا شك وأن للعبادات آثار بارزة في الجانب الاجتماعي، حيث نجد أن الهدف من هذه العبادات هو تحقيق هذا الأثر فضلاعلى الآثار الفردية، فعلامة صحة الأداء الفردي للعبادة هو أن تتجلى مظاهرها في الحياة الاجتماعية، إذا أصبح أداء العبادة عملا ميكانيكيا خاويا من الروح، فلن يكون له أي أثر في الحياة الاجتماعية، فكثيرا ما يصحب الحديث عن العبادة التنبيه إلى أثرها الاجتماعي، فالقرآن أثبت أن له غرضا اجتماعيا مقصودا ومنهجا معتبرا للاجتماع تدفع إليه مضامين العبادات، وهو ما يؤكد أن الدين الإسلامي هو دين الحياة بكل ما تقتضيه الكلمة من دلالات، ويتجلى هذا في كثير من النصوص منها قوله تعالى :{فَوَيْلٌلِّلْمُصَلِّينَالَّذِينَهُمْعَنصَلَاتِهِمْسَاهُونَ }[406].

إن هذا الوعيد يثبت أن الصلاة تهدف إلى تحقيق الانسجام بين الظاهر والباطن، وأن منع المعونة عمن يرتبط بهم من البشرية والتساكن، والتجاور، والاجتماع ما هو إلا مظهر يدل على أن الصلاة لم تؤد حق التأدية، وهو ما يفيد أن الله تعالى لا يريد من الناس عبادة لذاتها، وإنما هي وسيلة لغاية . قال الله تعالى :"واستعينوا بالصبر والصلاة "، ولذلك لم يكن القصد من العبادة أشكالها الظاهرة، بل أسرارها الباطنة فضلا عن صورتها . قال تعالى :{لَيْسَالْبِرَّأَنتُوَلُّواْوُجُوهَكُمْقِبَلَالْمَشْرِقِوَالْمَغْرِبِوَلَكِنَّالْبِرَّمَنْآمَنَبِاللّهِوَالْيَوْمِالآخِرِوَالْمَلآئِكَةِوَالْكِتَابِوَالنَّبِيِّينَوَآتَىالْمَالَ عَلَىحُبِّهِذَوِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينَوَابْنَالسَّبِيلِوَالسَّآئِلِينَوَفِيالرِّقَابِوَأَقَامَالصَّلاةَوَآتَىالزَّكَاةَوَالْمُوفُونَبِعَهْدِهِمْإِذَاعَاهَدُواْوَالصَّابِرِينَفِيالْبَأْسَاءِوالضَّرَّاءِوَحِينَالْبَأْسِأُولَئِكَالَّذِينَصَدَقُواوَأُولَئِكَهُمُالْمُتَّقُونَ }[407] فهي وسيلة لا بد منها لتهيئة النفوس من أجل أداء أدوارها في الحياة، وبخاصة في الجانب الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي كما نصت الآيات .

وهذا ما يؤكد على أن المظهر الاجتماعي للعبادة هو محك الصدق في المظهر الشعائري :" لذلك اعتبر الإسلام الفصل بين المظهر الديني الشعائري للعبادة، والمظهر الاجتماعي تكذيبا بالدين

406- سورة الماعون الآية: 5/4

407- سورة البقرة الآية: 177

نفسه"[408] قال الله تعالى :{أَرَأَيْتَالَّذِييُكَذِّبُبِالدِّينِفَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَوَلَايَحُضُّعَلَىطَعَامِالْمِسْكِينِ }[409] والدع هو القهر، والتسلط، والدفع العنيف بقوة وجفوة[410]، واليتيم لا يقتصر معناه على الصغير الذي فقد أباه، وإنما هو الصغير والكبير الذي فقد النصرة، والإنصاف، ويدخل في ذلك جماهير الشعب " المستضعفة" فمن قهرهم وتسلط عليهم أو سكت على قهرهم فهو مكذب بالدين، لذلك تابعت السورة التنديد" بالمصلين " الذين يمارسون المظهر الشعائري للعبادة، ويسهون عن المظهر الاجتماعي المشار إليه باسم "الماعون" وهو كل ما يعين الناس على شؤون حياتهم . ولعل الضابط في كل ذلك هو النية التي يقصد من ورائها هذا العمل، فجاءت العبادة في الإسلام متنوعة تنوعا مفيدا، من حيث أوقاتها، وتوزعها، ومن حيث كونها فردية أحيانا وجماعية تارة أخرى.

2- المدلول العام للعبادة :

ليست العبادة في الإسلام عزلة عن المجتمع وهروبا من الحياة، فهذا المعنى لم يعرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بل إن الإسلام جاء بمفهوم جديد للعبادة لم يعرفه الناس من قبل حيث كانوا يرون أن العبادة علاقة شخصية بين الإنسان وخالقه ولا علاقة لها بالحياة، فقد صحّح الإسلام هذا المفهوم واعتبر أن العبادة مفهوم شامل يسع جميع أفعال الخير والبر التي تجلب النفع وتدفع الضرر عن البشر . فجاء في القرآن الكريم أن الأعمال الصالحة ليست مقتصرة على العبادات المخصوصة وحدها، بل إنها أوسع من ذلك بكثير .فقال تعالى : { ذَلِكَبِأَنَّهُمْلَايُصِيبُهُمْظَمَأٌوَلَانَصَبٌوَلَامَخْمَصَةٌفِيسَبِيلِاللَّهِوَلَايَطَؤُونَمَوْطِئًايَغِيظُالْكُفَّارَوَلَايَنَالُونَمِنْعَدُوٍّنَّيْلًاإِلَّاكُتِبَلَهُ مبِهِعَمَلٌصَالِحٌإِنَّاللَّهَلَايُضِيعُأَجْرَالْمُحْسِنِينَ

وَلَايُنفِقُونَنَفَقَةًصَغِيرَةًوَلَاكَبِيرَةًوَلَايَقْطَعُونَوَادِيًاإِلَّاكُتِبَلَهُمْلِيَجْزِيَهُمُاللَّهُأَحْسَنَمَاكَانُوايَعْمَلُونَ }[411] يقول محمد المبارك :"وبذلك جعل الإسلام أعمال الحياة كلها إذا كانت في موضعها وكانت نافعة مشروعة

---

[408]-ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص93

[409] -سورة الماعون الآية: 3/2/1

[410]- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي :تفسير النسفي دار الكتاب العربي بيروت ط1982 ج4ص379

[411]- سورة التوبة الآية: 121/120

ولاسيما إذا كان نفعها لفئة كبيرة من الناس عبادة من العبادات وبذلك جعل للعبادة معنى عاما إلى جانب العبادة الخاصة التي هي الخميرة المطهرة للأعمال والمصححة للنيات والمهذبة للنفس"[412].

ونضيف هنا أن كل عمل يؤديه الإنسان عن وعي وطواعية في سبيل الله ووفق ما شرعه له يعد عبادة .وأن الإنسان المسلم كل شأن في حياته وكل عمل يؤديه هو في الحقيقة مندرج في صميم عبادته لله تعالى، صحيح أنه تتغير المحاريب، ولكن لا تتبدل المقاصد، إذ أن الإسلام منهج متكامل للحياة كلها .ولذلك فإن هذا الإنسان عندما ينجح بواسطة عبادته تلك في أن يضبط غرائزه ويخضعها لشرع الله يكون بذلك قد حقق الغاية من خلقه ووجوده، وبالتالي يكون قد بلغ حالة الأمن النفسي نتيجة انصياعه بتعاليم الإسلام طائعا مختارا، لأنه وفّ بمقتضيات عهده مع الله تعالى وعندها ينطبق عليها وصف القرآن الكريم .قال الله تعالى: {يَاأَيَّتُهَاالنَّفْسُالْمُطْمَئِنَّةُارْجِعِيإِلَىرَبِّكِرَاضِيَةًمَّرْضِيَّةً }[413].

لذا نجد أن هذا المفهوم يتفق تماما مع وظيفة العمارة في الأرض التي هي الجانب الثاني لعملية الاستخلاف قال تعالى:{ هُوَأَنشَأَكُممِّنَالأَرْضِوَاسْتَعْمَرَكُمْفِيهَافَاسْتَغْفِرُوهُثُمَّتُوبُواْإِلَيْهِإِنَّرَبِّيقَرِيبٌمُّجِيبٌ }[414].

فالاستخلاف في الأرض لا يكون إلا من خلال بناء العلاقات الإنسانية بطريقة سليمة، وحسن تسخير الطاقات الإنسانية في تنمية الخير ومشاريعه . فقد جاء في الحديث:" إفراغك في دلو أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة، وتبسّمك في وجه أخيك صدقة..."[415]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ويعين الرجل في دابته فيحمل عليها

412-محمد المبارك: نحو إنسانية سعيدة دار الفكر ص200

413-سورة الفجر الآية: 28/27

414- سورة هود الآية: 61

415-أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب من هدى زقاقا أو طريقا حديث رقم : 891

أو يرفع عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة وتميط الأذى عن الطريق صدقة "[416]،

وقولهصلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر " "أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قَالَ:"أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ .قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا"."[417] وهذا الحديث يكشف أن الله مكّن الإنسان من استخدام مظاهر الكون في تطبيقات عملية نافعة في مجالات حياته المختلفة، وهي الوجه العملي في ميدان الكون بعد الوجه العملي في ميدان النفس، باعتبار أن سلامة التوجه في الأول، يؤثر مباشرة على سلامة التوجه في الجانب الثاني.

والعبادة بهذا المعنى هي تطبيق المظهرالاجتماعي، و الكوني للعبادة، وسبب من أسباب تحقيق الشق الأول، بعد معرفة القوانين التي تسير هذه المكونات الصامتة، التي لا تستجيب إلا لمن يملك مفاتيحها ويكتشف قوانينها[418]، فقد بيَّن القرآن الكريم أن الله تعالى مدح العلماء الذين يتأملون في الكون، ويكتشفون أسرار الخلق في عالم النبات، والحيوان، والجماد، وعالم الإنسان .قال تعالى: {أَلَمْتَرَأَنَّاللَّهَأَنزَلَمِنَالسَّمَاءِمَاءًفَأَخْرَجْنَابِهِثَمَرَاتٍمُّخْتَلِفاًأَلْوَانُهَاوَمِنَالْجِبَالِجُدَدٌبِيضٌوَحُمْرٌمُّخْتَلِفٌأَلْوَانُهَاوَغَرَابِيبُسُودٌ.وَمِنَالنَّاسِوَالدَّوَابِّوَالْأَنْعَامِمُخْتَلِفٌأَلْوَانُهُكَذَلِكَإِنَّمَايَخْشَىاللَّهَمِنْعِبَادِهِالْعُلَمَاءُإِنَّاللَّهَعَزِيزٌغَفُورٌ }[419].

416–أخرجه البخاري : كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه الجزء الثالث حديث رقم 2829

417– أخرجه مسلم : كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف المجلد الثاني حديث رقم 2345

418– ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص124

419– سورة فاطر الآية: 28/27

وخلاصة القول أن الله تعالى جعل العبادة بمفهومها الخاص خضوع لله في أحكامه التشريعية المفصلة لكيفيات العبادة، وأركانها، وأوقاتها، ومقاديرها . وجعل العبادة بالمفهوم العام خضوع لله في سننه الاجتماعية، والكونية " فهي تشمل كل حركة، وكل عمل ترتقي به الحياة، ويسعد به الناس"[420].

وبناء على هذه المقدمات يمكن سوق بعض النصوص التي تبين القيم التعبدية المصاحبة للمناسك أو النشاط الإنساني في كل أحواله، وهنا نلاحظ أن كل أبواب الفقه التي دوّن فيها الفقهاء ما استنبطوه من أحكام شرعية تدخل في عموم مفهوم العبادة سواء كانت من الأوامر التي يجب القيام بها أومن الأعمال التي يستحب إتيانها أو من النواهي التي ينبغي تركها وسواء كانت هذه الأعمال ظاهرة أو باطنة ،فردية أو جماعية.

ج –القيم الناتجة عن العبادات:

مما لا شك فيه أن الغرض من العبادات في الإسلام هو تغذية الإنسان بمختلف القيم التي تمكنه من أداء رسالته الشاملة في الحياة، ذلك أن العبادات في الإسلام تعد عناوين للفكرة الإسلامية التي تشمل الكيان البشري كله في آن واحد :جسمه وعقله وروحه، وتعطي كلا منها نصيبه وتوازن بين شتى مناحي الشخصية الإنسانية فنجد أن :"–نصيب الجسد في الصلاة هو الحركة التي يقوم بها من قيام وركوع وسجود وتحرك وسكون، ونصيب العقل هو التفكير فيما يتلوه المصلي من الأدعية والآيات. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت " ونصيب الروح هو الخشوع والتقوى والتطلع إلى الله والاتصال بنوره الشفيف وكل ذلك في آن واحد"[421].

وكما أن العبادات شاملة للكيان كله، فقد جاءت أغراضها متشعبة يضيق بها الحصر، لأنها تقابل أغراض الدنيا جميعا بأغراض الدين. ويتمحور غرض العبادة حول حقيقتين هامتين كما يشير إلى

---

[420]–يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص105

[421]–محمد قطب : في النفس والمجتمع دار الشروق ط2 سنة 1995 ص138

ذلك عباس محمود العقاد فيقول:"إحدى الحقيقتين التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هي: وجوده الروحي الذي ينبغي أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية، وغير شهواته الحيوانية .

– والحقيقة الأخرى التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هي الوجود الخالد الباقي إلى جانب الوجود الزائل المحدود في حياته الفردية، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقي إذا أريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية، ووراء معيشة قومه، بل معيشة أبناء نوعه "[422] .

ويظهر من هذا أن للعبادة مقصدا أصليا ومقاصد تابعة، فالمقصد الأصلي فيها هو التوجه إلى الله الواحد المعبود وإفراده بالقصد إليه في كل حال، ويتبع ذلك قصد التعبّد لنيل الدرجات في الآخرة، ومن المقاصد التابعة أيضا ما تحققه من قيّم في حياة الإنسان من إصلاح النفس وتربية الضمير واستقامة الخُلق . فعبادات المسلم في جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين وتثمر كثيرا من القيم ذات الأبعاد المختلفة في حياته الفردية والاجتماعية .

د – **أهداف العبادات** :

ولما كانت العبادات المفروضة تستهدف صناعة الإنسان الصالح في نفسه النافع لغيره وبالرجوع إلى النصوص التي أشارت إلى أهداف العبادات وآثارها على الفرد والمجتمع، وعلى الرغم من تميز العبادات عن بعضها في بعض الآثار فإننا سنجمل ذكر القيم المشتركة بين هذه العبادات فيما يلي:

1–الأهداف الفردية:

أ– قيم روحية: وتتمثل القيم الروحية في مجموع قيّم التزكية والتهذيب وتصحيح التوجه ومنها :

[422]–عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا د ط ودت ص110

1-قيمة الإخلاص: لعل المتأمل لأركان كل عبادة من هذه العبادات يلاحظ أول ركن وهو النية التي تعني التجرد لله تعالى والإخلاص له في العبادة . قال الله تعالى: {وَمَاأُمِرُوااإِلَّالِيَعْبُدُواااللَّهَمُخْلِصِينَلَهُالدِّينَحُنَفَاءوَيُقِيمُواالصَّلَاةَوَيُؤْتُواالزَّكَاةَوَذَلِكَدِينُالْقَيِّمَةِ }[423] وهذا يعني وجوب الاجتهاد في تطهير العمل مما يناقضه من الشرك، والرياء، وغيرها من الآفات التي تفسد حقيقة التوجه إلى الله تعالى وحده . ومن هنا كانت العبادات أهم وسيلة لتحقيق الحياة الروحية الصحيحة، ذلك أن جوهر هذه العبادات هو الدعاء فما من عبادة تخلو من الدعاء الذي يعد لبها وغايتها، لأن فيه تتجسد قمة الافتقار إلى الله تعالى وما ينتج عن ذلك من مختلف القيم الروحية.

2- تهدف العبادات إلى توثيق الصلة بالله وتحقيق السمو الروحي بفعل التزكية التي تنتجها العبادة الصحيحة، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تطهر النفس من الشح والبخل، والصوم يحقق التقوى، والحج يبعد عن الرفث والفسوق والجدال كما نصت الآيات .

ب- قيم خلقية : فمن خلال ممارسة العباداتتتدرب النفس على القيم الخلقية كقيمة الصبر و العدل، والمساواة، والرحمة وكل القيّم ذات العلاقة بالمعنى الإنساني وقيم الطاعة التي تفرض على المسلم الانضباط في إطار المنهج .

ج-قيم اجتماعية للعبادات: كقيمة الروح الجماعية، وما يتبعها من قيم المساواة، والأخوة والتعاون والتعارف والتكافل وكل القيم التي تنمي الاعتزاز بالانتماء للجماعة المسلمة والولاء لها والمساهمة في النهوض بالواجبات الجماعية وتقاسم المسلم لمختلف الأعباء مع إخوانه المؤمنين.قالتعالى: {وَاعْتَصِمُواْبِحَبْلِاللّهِجَمِيعاًوَلاَتَفَرَّقُواْوَاذْكُرُواْنِعْمَتَاللّهِعَلَيْكُمْإِذْكُنتُمْأَعْدَاءفَأَلَّفَبَيْنَقُلُوبِكُمْفَأَصْبَحْتُمبِنِعْمَتِهِإِخْوَاناًوَكُنتُمْعَلَىشَفَاحُفْرَةٍمِّنَالنَّارِفَأَنقَذَكُممِّنْهَاكَذَلِكَيُبَيِّنُاللّهُلَكُمْآيَاتِهِلَعَلَّكُمْتَهْتَدُونَ }[424].

---

[423]- سورة البينة الآية: 5

[424]- سورة آل عمران الآية: 103

د- قيم حضارية :وتتمثل في طائفة من القيمالمعبّرة عن الوعي بالدور المنوط بالإنسان لعمارة الأرض وتحقيق إنجازات لنفع الإنسانية سواء كانت علمية أو عمرانية أو معرفية أو ثقافية، يكفي أنها تكون إضافة إيجابية للحياة الإنسانية وتساهم في ترقيتها : كقيمة العلم و العمل وقيمة الوقت والمحافظة عليه.

وعلى العموم فإن جميع القيم التي تنتج عن الممارسة الصحيحة للعبادة تلتقي في قيمتين أساسيتين هما:

1-النظام :ومعناه ترشيد الفعل الإنساني في الجهد، والزمن، والقصد.

2-الانضباط:وهو احترام الضوابط المتعلقة بكل مهمة ابتداء، والانضباط بشكل العمل كيفية وشروطا سواء مع النفس أو مع الغير.

1-فالصلاة مثلا من بدايتها إلى نهايتها تثمر قيما متنوعة نشير إلى أهمها:

الحرية، والطهارة، والنظافة، والتزكية، الذكر، الدعاء، تلاوة القرآن، الرحمة، الأخوة المساواة،النظام، الانضباط، العلم، العمل، وجوب طاعة القيادة الراشدة، واحترام الوقت وغيرها.

2-الزكاة : أما الزكاة فتأديتها يثمر قيمة : العمل، بيان أهمية المال، الرحمة، التفاعل الاجتماعي بكل صوره.

3-الصوم :فيثمر قيم المراقبة، الصبر، التكافل، التراحم، والانضباط.

4-الحج : فتجتمع فيه كل القيم الموزعة في باقي العبادات كالتوحيد، البدل، التضحية، الصبر، التعارف، الرحمة، الخشوع، الاستسلام لله في كل صغيرة وكبيرة.

وبهذا تمثل العبادات في الإسلام المصنع الذي ينشئ النفوس الصالحة التي بها تسعد الحياة، وتبنى المنجزات، وترتقي الحضارات، وقد لخص عماد الدين خليل المعنى الحقيقي للعبادة فقال :"إن العبادة

ذاتها، كعلائق مجردة بين الفرد وخالقه، إنما تعني —في الإسلام–ذلك المولد الحيوي الدائم الذي يبعث في كيان الإنسان المسلم الطاقة المتجددة التي تدفعه إلى مزيد من النشاط الحضاري،وتلزمه بالعمل بكل أمانة وتجرد، فالشعور بالمسؤولية، ويقظة الضمير، والإحساس الحاد بالزمن، إنما هي أهداف أساسية لهذه الصلات اليومية بين الإنسان والله، أهداف تضفي على الحضارات (الدينية) طابعا خاصا من الحيوية والتجدد والاستمرار"[425] .

الفرع الثالث : القيم الخلقية

يهتم الإنسان بما أودع الله فيه من العقل لمعرفة الحقيقة، ولكنه بما أودع فيه من الشعور يهتم بممارسة الخير، فإذا كان للعلم أهمية في رقي الإنسان في الجانب المادي، فإن الأخلاق بالنسبة له هي أكثر أهمية لأنها تتصل بالناحية الروحية، ولا ينتظر من كل إنسان أن يكون عالما أو محيطا بنظريات العلم، ولكن ينتظر منه أن يدرك معنى الواجب وأن يكون له هدف خلقي من أعماله وتصرفاته، لأنه يحتاج إلى المبدأ الخلقي لبناء تصرفاته ومواقفه وتبريرها، إذ يتعين على كل إنسان أن يتخذ له قيما خلقية يسير عليها ويقيس بها تصرفاته وأفعاله ويحاكم بها تصرفات الآخرين وأفعالهم، وهذه القيم تكون منسجمة مع المجتمع الذي يحيا فيه، فلا يستطيع أن ينفرد بمذهب أخلاقي، ذلك أن الإنسان يحكم على ما يحيط به لا من خلال ضميره فقط، بل من خلال ضمير المجتمع قال صلى الله عليه وسلم :" اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن".[426]

ومهما تكن قيمة الفردية أو الجماعية في قضية القيم، فإن ما نريد أن نؤكده هنا هو أن الحاسة الخلقية حاسة متأصلة في الإنسان، ولا أدل على ذلك من ميل الإنسان إلى الخير وتأنيب الضمير

---

[425]– عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 63

[426]– رواه الترمذي : كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس وقال : حديث حسن ينظر تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي حديث رقم 1987.

الذي يقلق راحته حين يشعر أنه أخطأ، كما أن الحاسة الخلقية هي التي تدفع إلى نصرة الضعيف ومعاقبة الظالم . فما معنى الأخلاق وما أنواعها ؟

أ–تعريف الأخلاق :الأخلاق في اللغة :مفرد خلق، ويعني الفطرة والخلقة، وحسن الخلق والدين والعادة والمروءة والسجية والطبع[427].

رجل له خلق حسن وخليقة وهي ما خلق عليه من طبع وفطرة . فالطبيعة والخلقة والسليقة بمعنى واحد قال الله تعالى: {إِنْهَذَاإِلَّاخُلُقُالْأَوَّلِينَ }[428] أي دينهم، عن ابن عباس وغيره. وقال الفراء:"عادة الأولين"[429].

ويقول الغزالي: "الخُلق والخَلق عبارتان مستعملتان معا، يقال : فلان حسن الخُلق والخَلق _أي حسن الظاهر والباطن _فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلق الصورة الباطنة.وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة"[430].

ب–الأخلاق اصطلاحا:

جاء في التعريفات للشريف الجرجاني:" أن الخلق عبارة عن هيأة للنفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية.فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا"[431].

427–ابن منظور: لسان العرب دار المعارف د ط ، ود ت مادة "خلق" المجلد الثاني ص1244/1245

428– سورة الشعراء الآية: 137

429–القرطبي:الجامع لأحكام القرآن دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط5 سنة1996 المجلد السابع ص85.

430–أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت د ط سنة 2003 ص48

431– المصدر نفسه.

وعلى هذا فإن الأخلاق اصطلاحا هي: عبارة عن الصفة السلوكية التي يسلكها الإنسان سواء كانت محمودة أو مذمومة. وهي إما طبع وسجية وإما عادة وتدريب وتربية. والقيمة الأخلاقية عند ذلك هي التي تتصل بشعور الإنسان بالمسؤولية والجزاء والالتزام [432].

ويعرفها عادل العوا بقوله هي: "عبارة عن المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره، على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه"[433].

وجاء في المعجم الفلسفي بيان ذلك : "الفضيلة خلاف الرذيلة" والفضيلة في علم الأخلاق:"الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الأخلاقي أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها"[434].

ويعرفها مقداد يالجن بأنها : السلوك المعبر عن الخير فيقول :"والسلوك الأخلاقي في نظر الإسلام هو كل سلوك خيّر يقوم به الإنسان بإرادة خيّرة، ولغاية خيّرة، والإنسان الأخلاقي هو الخيّر في حياته الظاهرة والباطنة لنفسه وغيره على حد سواء"[435] .

ومن هذا التعريف وغيره نجد أن الفعل الذي يصدر من الإنسان من منطلق فطرته أو ما تعوّد عليه حتى أصبح هيأة راسخة أو قواعد وضوابط لسلوكه تسمى القيم الأخلاقية، هذه القيم يعرف حسنها وقبحها في الإسلام بالنص، باعتبار أن القرآن الكريم منهجا يستهدف تثبيتها في المجتمعات البشرية، فهي منبثقة من الأصول الإيمانية وهي من ثمراتها، ذلك أن الإسلام يثبت هذه العقيدة –عقيدة

---

[432]–علي خليل مصطفى أبو العينين : مكتبة إبراهيم حلبي المدينة المنورة ط1 سنة 1988 ص209

[433]–عادل العوا : القيم الأخلاقية جامعة دمشق سنة 1960 ص38

[434]– جميل صليبا المعجم الفلسفي : ج2 ص148

[435]– مقداد يالجن : دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية دار الشروق ط1 سنة 1983ص12

الإيمان بالله واليوم الآخر – في قلب المؤمن فكأنه بذلك يلقي في روعه حارسا من الرقابة الخلقية يدفعه إلى العمل ويحثه إلى الائتمار بأوامر الله جل وعلا، :"وهذا الحارس الداخلي وهذا الوازع النفسي هو الذي يشد عضد قانون الإسلام الخلقي ويجعله نافذا بين الناس في حقيقة الأمر"[436].

و لا شك أن مفهوم الأخلاق الإسلامية هو أوسع مفهوما مما جاءت به الأديان والفلسفات حتى الآن. حيث أن الأخلاق الإسلامية يدخل في إطارها جميع العلاقات الإنسانية حتى علاقة الإنسان بغيره من الكائنات الحية الأخرى. فالقيم تتسع اتساعا كبيرا ورغم هذا الاتساع فإنها تأتي متكاملة مع بعضها تكاملا واضحا وقويا، بل أكثر من ذلك فإن الأخلاق في الإسلام لا يمكننا القول أنها تمثل قسما كبيرا مستقلا من أقسام الشريعة فحسب، بل أنها في جملتها تعد أحد أصول الدين الإسلامي الحنيف" فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين "[437] .

فالقيم الخلقية تعد أهم وأخطر أركان دين الله تعالى، فهي حاضرة في مختلف الشرائع وعلى مر العصور، فكل مجالات الإسلام لا يخلو الحديث فيها عن الأخلاق قاعدة للعمل أو غاية له .يقول مقداد يالجن :"ذلك أن روح الأخلاق سارية في جميع جوانب الإسلام حتى أن الإسلام جاء ليكمل البناء الأخلاقي الذي بدأ به الأنبياء السابقون، ولأنها أساس البناء الاجتماعي بل أساس الحياة الإنسانية، إذ لا وجود لهذه الحياة بدون مراعاة القوانين الأخلاقية، ثم إن الأخلاق من أهم العناصر التي تكون سبيل السعادة للحياة الإنسانية ..."[438]

ويؤكد هذا المعنى محمد الطاهر بن عاشور بقوله:" لا يكاد ينتظم أمر الاجتماع كمال انتظامه، ولا ترى الأمة عقدها مأمونا من انفصامه ؛مالم تكن مكارم الأخلاق غالبة على جمهورها ؛وسائدة في معظم تصاريفها وأمورها، لأن مكارم الأخلاق هو تزكية النفس الإنسانية أعني ارتياض العقل على

436–أبو الأعلى المودودي : نظام الحياة في الإسلام دار الشهاب باتنة الجزائر د ط سنة 1988 ص16

437–أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين دار الفكر بيروت لبنان الجزء 3 د ط سنة 2003 ص44

438–مقداد يالجن : التربية الأخلاقية الإسلامية ص651

إدراك الفضائل وتمييزها عن الرذائل المتلبسة بها، وارتياضه أيضا على إرادة التحلي بتلك الفضائل وعدم التفريط في شيء منها لاعتقاده أن بلوغ أوج الكمال لا يحصل إلا بذلك التحلي، وارتياضه على العزم على تسيير آلات العمل الإنسانية(الجوارح) على مقتضيات ذلك الإدراك وتلك الإرادة وذلك العزم "[439].وبهذا يتبين لنا أن النظام الأخلاقي في الإسلام يتميز بطابعين هما:

1-طابع إلهي : بمعنى أنه مراد الله من المكلفين، فهي أخلاق تستوعب كل مجالات الحياة وبعضها متداخلة بحيث يمكن أن نجد الخلق الواحد يطالب به المكلف في عدة مناحي في الحياة، فالعدل مطلوب مع الزوجات ومع الأولاد ومع المحكومين ومع غير المسلمين وفي المواقف المختلفة .

2-وطابع إنساني : أي أن للإنسان مجهود في تحديد هذا النظام من الناحية العملية، و مجال الأخلاق فيه له حد أدنى وحد أعلى لا يمكن أن يحصل إلا بمجاهدة كبيرة ويمثل خلق الرسول صلى الله عليه وسلم سقفه الأعلى قال الله تعالى : "وإنك لعلى خلق عظيم " والناس بين ذلك منازل شتى كل حسب جهاده واجتهاده .

ج-تصنيف القيم الأخلاقية:

تباينت ألفاظ العلماء في التعبير عن مصطلح القيم الأخلاقية وتصنيفها، فنجد أن الكتب القديمة التي عالجت الجانب المصطلحي للقيمة في ثقافتنا الإسلامية تناولتها بشكل عام، فعبرت عنها بالأخلاق، والفضائل، والآداب العامة دون تحديد مصطلح القيمة الخلقية.

فابن مسكويه [440] يعبر عنها بالفضائل، ويرى أن أمهات الفضائل مبدؤها الحكمة، والعفة، والشجاعة، والسخاء، والعدالة، ويندرج تحت كل فضيلة من هذه الفضائل — قيمة-لائحة من الفضائل والقيم :

---

[439]-محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام الشركة التونسية للتوزيع ط 2سنة 1985 ص124/123

[440]- هو أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه : ولد بالري سنة 325هـ على الأرجح وتوفي بإصبهان سنة 421هـ بعد أن بلغ السادسة والتسعين من العمر.

- فتحت الحكمة نجد عدة قيم: الذكاء، والذكر، والتعقل، وسرعة الفهم وقوته، وصفاء الذهن، وسهولة التعلم .
- وتحت العفة نجد قيم وفضائل: الحياء والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدماثة والانتظام وحسن الهدي والمسالمة والوقار والورع.
- ونجد الفضائل والقيم التي تحت الشجاعة: كبر النفس، النجدة، عظم الهمة، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة ...
- وأما تحت فضائل السخاء فنجد : الكرم، الإيثار، النبل، والمواساة، والسماحة، والمسامحة.
- ويدرج تحت فضيلة العدالة: الصداقة، الألفة، صلة الرحم، المكافأة، حسن الشركة، حسن القضاء، التودد، العبادة، ترك الحقد، مكافأة الشر بالخير، استعمال اللطف، ركوب المروءة في جميع الأحوال ..[441]

وإلى مثل هذا ذهب الغزالي في بيان أمهات الأخلاق فيقول: " فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل " [442] ثم يشرح وظيفة كل واحدة من هذه الأخلاق فيقول: "ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية .ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها .ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع...فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل .والباقي فروعها." [443]

ويذهب ماجد عرسان الكيلاني إلى تصنيف القيم بناء على الآيات العشرون الأولى من سورة البقرة :

---

[441]-ينظر ابن مسكويه : تهديب الأخلاق وتطهير الأعراق : منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ط2 ص40/41/42/43/44

[442]-أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين دار الفكر بيروت لبنان ط2003 ص49

[443] -المصدر نفسه

-فالآيات الخمس الأولى تمثل قيم التقوى فيقول: "رسمت الآيات الخمس الأولى الإطار العاملقيم التقوى وحددت الأبعاد الرئيسة لهذه القيم بما يلي :

-بعد ديني محوره الإيمان بالغيب ووحدة الرسالة والإيمان بالآخرة وإقامة الصلاة.

-بعد اجتماعي محوره التوازن الاقتصادي .

-بعد معرفي محوره الوعي بالهدى الموصل إلى الفلاح أي الظفر بالغايات المنشودة .

ويندرج تحت هذه الأبعاد الثلاث تفصيلات كثيرة تتوزع في سور القرآن الكريم والسنة النبوية، وتتناول كافة مظاهر السلوك الفردي والاجتماعي.[444] ويؤكد على أن المحور الرئيسي لقيم التقوى هو العدل الاجتماعي والاقتصادي، كما يقسم سلم قيم التقوى إلى ثلاث مستويات :

-مستوى قيم الإسلام .

-مستوى قيم الإيمان.

-مستوى قيم الإحسان .

ويستدل على هذا التقسيم بآيتين من القرآن الكريم، تشير الآية الأولى إلى المستوى الأعلى في قوله تعالى :" {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللّهَحَقَّتُقَاتِهِوَلاَتَمُوتُنَّإِلاَّوَأَنتُممُّسْلِمُونَ }[445] وتشير الآية الثانية إلى المستوى الأدنى في قوله تعالى :{فَاتَّقُواااللَّهَمَااسْتَطَعْتُمْوَاسْمَعُواوَأَطِيعُواوَأَنفِقُواخَيْرًالِّأَنفُسِكُمْوَمَنيُوقَشُحَّنَفْسِهِفَأُوْلَئِكَهُمُالْمُفْلِحُونَ }[446] فالآيتان تقرران حدين اثنين للتقوى، وفي ذلك مراعاة للفروق الفردية في القدرات، والاستعدادات،

---

[444]-ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص 350/349

[445]- سورة آل عمران الآية: 102

[446]- سورة التغابن الآية: 16

وتسهيلا لاستمرار الترقي في درجات التزكية ومراعاة مبدأ التدرج في التربية لا كما يتوهم البعض بأن الآية الأولى ناسخة للثانية [447] .

فالمستوى الأول: والمتمثل في قيم الإسلام هو المستوى الذي يهدف إلى بقاء النوع الإنساني داخل مجتمع المسلمين أي : شيوع الأمن فيه واختفاء الجريمة، وإلى تحقيق هذا الهدف يشير الحديث الشريف :" المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده."[448] لذلك سارع القرآن الكريم لتصحيح مفهوم الأعراب الذين ظنوا أن الاستسلام الظاهري هو الإيمان، فبين لهم أن الإيمان درجة أعلى من الإسلام . قال الله تعالى :"{قَالَتِالْأَعْرَابُآمَنَّاقُللَّمْتُؤْمِنُواوَلَكِنقُولُوٓاأَسْلَمْنَاوَلَمَّايَدْخُلِالْإِيمَانُفِيقُلُوبِكُمْوَإِنتُطِيعُوااللَّهَوَرَسُولَهُلَايَلِتْكُممِّنْأَعْمَالِكُمْشَيْئًاإِنَّاللَّهَغَفُورٌرَّحِيمٌ }[449].

أما المستوى الثاني :وهو قيم الإيمان والتي تقوم على أساس من الروابط الفكرية، والوعي بعلاقات الإنسان المختلفة، وهذا يمنح أمة المؤمنين ثقافة مميزة، من ثمراتها بقاء النوع البشري في الإطار الإنساني الواسع، فقد جاء في الحديث :"إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقي وفاجر شقي . أنتم بنو آدم وآدم من تراب ..." [450] .

وفي المستوى الثالث : تتجلى قيم الإحسان، وفي هذا المستوى ترتقي القيم لتبلغ الحد الأعلى في سلم القيم، وبذلك يتحقق الهدف الثاني لفلسفة التربية الإسلامية، وهو رقي النوع الإنساني، وهنا يمارس إنسان التربية الإسلامية العمل الصالح من أجل صلاحه، وجماله، ورقيه لا على أساس النفع الذي

---

[447]– ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص 353

[448]–أخرجه البخاري :كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي الجزء الخامس حديث رقم 2119

[449]– سورة الحجرات الآية: 14

[450]– أخرجه أبو داود : كتاب الأدب – باب في التفاخر بالأحساب 5116 .

يجلبه، أو الجاه الذي يحققه، وإنما استجابة لأمر الله تعالى الذي لا يخلو من جلب النفع ودفع الضرر[451].

ويمكن ملاحظة هذا المعنى في قصة ذي القرنين الذي جسد في زمانه دور القوة العظمى في الأرض، ورفض أن يأخذ امتيازات تجارية، ومبالغ مالية مقابل حمايته للشعب المستضعف أمام هجمات يأجوج ومأجوج ، وهو نموذج يمثل لسيادة قيم عقيدة التوحيد في الحياة الإنسانية {قَالَمَامَكَّنِّيفِيهِرَبِّيخَيْرٌفَأَعِينُونِيبِقُوَّةٍأَجْعَلْبَيْنَكُمْوَبَيْنَهُمْرَدْماً }[452]، كما نجد مجتمع صدر الإسلام (الخلافة الراشدة) النموذج الواقعي الذي جسد مستويات التقوى كما سبق ذكرها.

ولعل عما الدين خليل أصاب كبد الحقيقة، وهو يلخص رأي أبي الأعلى المودودي حين ميّز بين مرتبتي التقوى، والإحسان، وأثر كل واحدة في بناء الحضارة فقال :"فالمتحلُّون بالتقوى- وإن كانوا رجالا يوثق بهم ويعتمد عليهم – لكن قوة الإسلام وحيويته الجوهرية، إنما تتجمع وترتكز على المحسنين وحدهم .ولا ينهض بالمهمة التي يريدها الإسلام في هذا العالم إلا هذه الطبقة من المحسنين وحدها ..."[453] وقدّم تبرير هذا التمايز، بأن تصور التقوى الأساسي قائم على خشية الله وخوفه، وهو الذي يحث المرء على اتقاء سخطه، بينما دافع الإحسان أقوى، لأن تصوره الأساسي هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغاء مرضاته.

أما عبد الله دراز فقسم الأخلاق العملية[454] إلى أخلاق فردية، وأسرية، واجتماعية، ودينية، وأخلاق الدولة ولكل واحدة منها ساق مجموعة من الأمثلة والنصوص ثم قال :"وربما كان من

451- ينظر ماجد عرسان الكيلاني: فلسفة التربية الإسلامية ص356/355

452- سورة الكهف الآية: 95

453- عماد الدين خليل :تهافت العلمانية ص100 نقلا عن أبي الأعلى المودودي الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية ص 68/46بتصرف

454 - يرى محمد عبد الله دراز أن الجانب النظري لا يشبع إلا حاجة عقلية، ولا يعد سوى جانب ثانوي من المشكلة الأخلاقية، فمن الممكن أن يكون الفرد فاضلا دون أن يستطيع أن يعرف الفضيلة، فحاجتنا إذن أن نرى الفضيلة أعظم من حاجتنا إلى تعريفها. ينظر دستور الأخلاق ص 687

المناسب أن نضيف إلى النص بعض الملاحظات المفسرة أو المقارنة...سوف نكتفي بعرض مجرد وبسيط لهذه المقتبسات النصية إلا في حالة الضرورة مع العناية بتصنيفها منهجيا"[455].

ومهما يكن من تصنيف للقيم الخلقية فإن العلماء يجمعون أن هذه الأخلاق منها ما يتعلق بتربية الفرد وتكوين شخصيته التي تجعله متزنا ومنضبطا وعضوا ملتزما صالحا في نفسه نافعا لغيره،ومنها ما جاء لبناء شخصيته الاجتماعية وذلك باعتباره عضوا في جماعة يتطلب منه ذلك التحلي بالروح الجماعية في تصرفاته ومواقفه ومنسجما مع محيطه ليساهم في بناء مجتمع قوي الأركان سليم العلاقات . يقول محمد الطاهر بن عاشور: " فمباحث هذا الفن تبحث عن حقائق من حسن السلوك والسيرة في معاملة أفراد المسلمين بعضهم بعضا من قريب وبعيد . ومعاملتهم من لا غنى لهم عن مخالطتهم من أهل الأديان الأخرى من الأمم الممتزجة بهم أو المجاورة أو المعاصرة"[456].سواء كانت فردية أو ربانية أو إنسانية.

1-فالقيم الأخلاقية الفردية:وهي مجموع الصفات التي يتحلى بها الفرد سواء كانت من الصفات التي فطر عليها أو اكتسبها عن طريق التربية والتدريب، فالشعور الخلقي شعور فطري يحمل الإنسان على حب بعض الصفات وكره أخرى وإن كان هذا الشعور متفاوتا بين أفراد البشر.وهنا يمكن الإشارة إلى أن هناك من الأخلاق الفردية ما هو إنساني ومنها ما هو رباني.

2-القيم الأخلاقية الربانية: فيتحلى بها الفرد بعد تجربة إيمانية عميقة تهذب أخلاقه وتنمي علاقته بالله تعالى وبرسوله وتجعله متطلعا إلى الدار الآخرة، وتعد هذه الأخلاق هي الأساس الذي تبنى عليه الشخصية المسلمة والتي تكون باقي مجالات القيم تابعة لها، وذلك لكونها تستهدف التغيير الحقيقي

455- محمد عبد الله دراز :دستور الأخلاق في الإسلام تقريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالةط6سنة1985ص688

456- محمد الطاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعي ص123

للفرد وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بتغيير ما بالأنفس قال تعالى : {إِنَّاللَّهَلَايُغَيِّرُمَابِقَوْمٍحَتَّىيُغَيِّرُواْمَابِأَنْفُسِهِمْوَإِذَاأَرَادَاللَّهُبِقَوْمٍسُوءاًفَلَامَرَدَّلَهُوَمَالَهُممِّندُونِهِمِنوَالٍ }[457].

وكثير من الباحثين يغفلون عن هذا بسبب ما يتوهمون من أن هذه الأخلاق هي جزء من شطحات الصوفية، وبالتالي يتركون الحديث عنها كأساس حقيقي لكل عملية بناء للفرد الصالح ذو الأخلاق الحقيقية. وقد عبر عنها خليل أبو العينين بأنها قيم روحية وقيم وجدانية[458] وعبر عنها عبد الله دراز بأنها أخلاق دينية [459] ومنها حب الله ورسوله وحب الصالحين ومجالستهم والوفاء بعهد الله والثقة في الله والاعتماد عليه والدعاء الدائم وذكر الله وتسبيحه والتقرب إليه وتقوى الله وخشيته والصلاة والسلام على رسول الله وتلاوة القرآن والعمل به والاستقامة وضبط الخوف من الموت وضبط الخوف من الفقر وضبط الغضب وضبط الحب وضبط انفعالات الحزن والفرح والتوبة والرضا والإيمان بالقضاء والقدر والعزة وقوة النفس . وغيرها من الأخلاق التي أشار إليها علماء السلوك والتصوف، وجميع هذه الأخلاق من ثمرات العقيدة السليمة والعبادة الصحيحة.

3- القيم الأخلاقية الإنسانية :وأما ما يتعلق بالقيم الخلقية الإنسانية فتتمثل في تلك الصفات والسجايا التي تعدها الإنسانية من الصفات الخلقية الجديرة بالثناء والمدح في كل دور من أدوارها كالصدق والأمانة والعدل مثلا ولم يأت على الإنسانية حين من الدهر استحسنت فيه الكذب والظلم والغدر والخيانة .

الفرع الرابع : القيم الاجتماعية:

هي تلك القيم التي تساعد على وعي وإدراك وضبط وجود الإنسان الاجتماعي،بحيث يكون أكثر فعالية في الحياة الاجتماعية، وهي تحدد حاجة الإنسان لبناء علاقات مع غيره من الأفراد حتى

457-سورة الرعد الآية: 11

458- ينظر علي خليل مصطفى أبو العينين :القيم الإسلامية والتربية مكتبة ابراهيم حلبي ص210 وص296

459- ينظر محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص 261

يتمكن من الاطلاع بواجباته المختلفة في الحياة والقيام بدوره الاجتماعي [460]. يقول خليل أبو العينين :"فالأساس الأول لبناء المجتمع هو الأخلاق الفاضلة وقد عمل الإسلام على تربيتها بالعبادات أولا، ثم يمنع ظهور الشرور وكتمها ثانيا، ثم يتكون رأي عام فاضل ثالثا...وإنه لا ائتلاف بين الجماعات في أمة إلا على بنيان من الفضائل"[461]

ومما لا شك فيه أن النظرية التي ينهض عليها بناء نظام الإسلام الاجتماعي، إنما هي أن أفراد البشر كلهم من سلالة واحدة، تكاثروا وازدادوا عددا حتى شكلوا هذا التنوع البشري المتمثل في الشعوب والقبائل، لذلك حرص الإسلام على بقاء هذه الوشائج على الرغم من التباعد والاختلاف في الألوان والألسنة والطباع، بحيث لا يزدري أحدهم أحدا من بني جنسه ولا يستنكف من معاملته والتعامل معه، لذلك كانت العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان قائمة على مبدأ العدل والإحسان، والإطار العام الذي يحدد هذه العلاقة هو قوله تعالى {إِنَّاللَّهَيَأْمُرُبِالْعَدْلِوَالإِحْسَانِوَإِيتَاءِذِيالْقُرْبَىوَيَنْهَىعَنِالْفَحْشَاءِوَالْمُنكَرِوَالْبَغْيِيَعِظُكُمْلَعَلَّكُمْتَذَكَّرُونَ}[462].

وهذه العلاقة هي التطبيق العملي لـ"المظهر الاجتماعي" لعلاقة العبودية –أي علاقة الإنسان بالله–، وهنا يتجلى الترابط الوثيق بين عقيدة التوحيد والقيم الاجتماعية "هذا المنهج الذي يستوحي نظامه الاجتماعي بشكله ومضمونه من العقيدة الإسلامية، فالإسلام دين يعمل على تنظيم حياة الناس وتوجيهها وجهة اجتماعية محددة، يبرزها المنهج القرآني بمبادئه وقيّمه، تلك التي تعمل على إخضاع المجتمع بكل منظوماته إليها "[463].

فالمجتمع في نظر الإسلام لا يتحكم في علاقاته ولا يحدّ بالحدود النسلية، والعرقية، واللونية ولا بالحدود الجغرافية، فيمكن أن يتجاوز هذه الاعتبارات جميعها حتى تقوم على أساسه مؤاخاة بشرية

460– ينظر علي خليل مصطفى أبو العينين : القيم الإسلامية والتربية ص251

461–محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع دار الفكر العربي القاهرة ص25/24

462– سورة النحل الآية: 90

463– أحمد الزباخ : المنهج القرآني في تربية القيم الأخلاقية والاجتماعية ص 111

عالمية، ناهيك عن علاقات القرابة والقريبة. ومهما يكن من اختلاف بين بني الإنسان، فإن الإسلام لا يمنع من لا ينضوون تحت لوائه من أن يشملهم بعواطف الإنسانية العامة، ولا يقطع عنهم حقوقهم الفطرية، فهو يؤكد على كثير من القيم التي تجعل استمرار العلاقة مع المسلم وغير المسلم قائمة. بل إن الإسلام بمجرد جعله هؤلاء موضع دعوة، فهو يرغب في ترقية هذه العلاقة وتمتينها لتكون قائمة على العقيدة لا مجرد الإنسانية.

فإذا أدركنا دعائم النظام الاجتماعي في الإسلام القائم على التصور العقدي بقي أن نتطرق للقيم التي يقوم عليها هذا النظام وعلى أساسها يكون استمراره. "ولقد فصلت النصوص ما فصلت من حقوق وواجبات بين الآحاد بعضهم مع بعض، وبين الأسرة التي تعد اللبنة الأولى في البناء، ثم في المجتمعات الصغرى والكبرى، حتى تضمنت التنظيم الاجتماعي للأسرة الإنسانية كلها"[464] في مثل قوله تعالى: {يَاأَيُّهَاالنَّاسُإِنَّاخَلَقْنَاكُممِّنذَكَرٍوَأُنثَىوَجَعَلْنَاكُمْشُعُوباًوَقَبَائِلَلِتَعَارَفُواإِنَّأَكْرَمَكُمْعِندَاللَّهِأَتْقَاكُمْإِنَّاللَّهَعَلِيمٌ خَبِيرٌ }[465].

ومما تجدر الإشارة إليه أن القيم الأخلاقية تشترك مع باقي القيم الأخرى (اجتماعية، إنسانية، جمالية، معرفية، سياسية) وتتقاطع معها، مما يؤكد أن القيم في المنهج القرآني لا تخرج عن العقيدة كيفما كانت هذه القيم، مما يثمر التوجه الإصلاحي للقيم، بحيث توظف لترشيد أي خلل يطرأ على أي مجال. ومن هنا يتبيّن أن القيّم كلها أساسها قيمة التوحيد، لأن العقيدة بجميع أركانها تهدف إلى إيقاظ الوعي الاجتماعي والإنساني من خلال إرساء مبدأ التعاون على البر والخير والإحسان، سواء تعلق الأمر بالفرد، أو الجماعة، أو الأمم والشعوب يقول محمد أبو زهرة:"وإن المجتمع الذي ينظمه الإسلام يحكم بقواعد عامة، وهذه القواعد تبدو في الأسرة، وفي الجماعات، وفي الدولة، وفي العلاقات الإنسانية بين الناس، مهما تختلف ألوانهم، وأجناسهم، وأديانهم، وهذه القواعد تتلخص في

---

464 –محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ص19

465– سورة الحجرات الآية: 13

المحافظة على الكرامة الإنسانية، والعدالة بكل صورها،والتعاون العام، والمودة، والرحمة بالإنسانية، والمصلحة، ودفع الفساد في الأرض"[466] . ومن بين أمهات القيم في الجانب الاجتماعي ما يأتي:

1-القيم الأسرية:

وهي القيم التي تنظم مجتمع الأسرة من حيث العلاقة بين الزوجين وعلاقة الآباء بالأبناء، وفصّلت القول في الروابط العائلية من الأقارب، والأرحام، وتعرضت للواجبات الأدبية، والحقوق المادية، وجعلت أساس الحقوق والواجبات في الأسرة المودة، والرحمة، والتواصل [467].قال الله تعالى {وَالَّذِينَيَصِلُونَمَاأَمَرَاللَّهُبِهِأَنيُوصَلَوَيَخْشَوْنَرَبَّهُمْوَيَخَافُونَسُوءَالحِسَابِ }[468].

فالمودة هي الرابطة التي تحكم الأسرة ولا رابطة أقوى منها، فالنظم والقوانين مهما تكن موثقة محكمة لا تحكم الأسرة، فالقيم وحدها تفعل ذلك، لأجل هذا قال الله تعالى :{وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُواإِلَيْهَاوَجَعَلَبَيْنَكُممَّوَدَّةًوَرَحْمَةًإِنَّفِيذَلِكَلَآيَاتٍلِّقَوْمٍيَتَفَكَّرُونَ }[469] فإذا عدمت المودة ولم يكن سبيل إلى إعادتها، كان الواجب إنهاء هذه العلاقة، لأن الهدف منها لن يتحقق.

إن الإسلام لا يقيم وزنا لأي علاقة لا تقوم على القيم، ومن ثم فإن الأسرة في الإسلام كلمة تختلف عن الأسرة في القوانين الأخرى، من حيث سعة هذه العلاقة، وما يترتب عنها من تبعات وتكاليف، فهي تشمل الزوجين والأولاد الذين هم ثمرة الزواج، وفروعهم من الحفدة، كما تشمل الأصول من الآباء والأمهات ويدخل في هذا الأجداد والجدات، وتشمل أيضا فروع الأبوين، وهم الإخوة والأخوات، وأولادهم. وتشمل أيضا فروع الأجداد والجدات من الأعمام والعمات، والأخوال والخالات وفروعهما، وهذه العلاقات الرحمية منهم الأدنون وغير الأدنين، يترتب عليها حقوق

466- محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ص 25

467- ينظر المرجع نفسه ص 17

468- سورة الرعد الآية: 21

469- سورة الروم الآية: 21

وواجبات تتفاوت مراتب هذه الحقوق بحسب درجة القرب، و تقوم هذه العلاقات على مجموعة من القيم هي سر بقائها ودوامها، وهي سبيل تماسك الأسرة والمجتمع.يقول محمد أبو زهرة :" وقد نظمت النصوص مجتمع الأسرة من حيث العلاقة بين الزوجين، وعلاقة الآباء بأولادهم، وربطت بين الأقارب، وفصلت الحقوق والواجبات لكل واحد ..وتعرضت للواجبات الأدبية والمادية، فنظمت التوارث وتصدى لبيانه بالتفصيل القرآن، ونظمت العلاقة بين الفقير والغني في الأسرة، فأوجبت على الغني النفقة على الفقير"[470].

أ–العلاقة بين الأبناء والآباء:

تحكم العلاقة بين الآباء والأبناء مجموعة من القيم التي تجنب ظاهرة العقوق، وتنمي العلاقة الرحمية وتجعل المجتمع يتفادى بعض الظواهر السلبية، فمن القيم التي تندرج تحت العناية بالوالدين قيمة الإحسان أو البر. قال الله تعالى: {وَقَضَىرَبُّكَأَلاَّتَعْبُدُوٓاْإِلاَّإِيَّاهُوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًإِمَّايَبْلُغَنَّعِندَكَالْكِبَرَأَحَدُهُمَاأَوْكِلاَهُمَافَلاَتَقُلْلَّهُمَاأُفٍّوَلاَتَنْهَرْهُمَاوَقُلْلَّهُمَاقَوْلاًكَرِيماً }[471] والإحسان هو مصطلح قرآني شامل لكل معاني الخدمة والرعاية، حيث أن الإسلام يدعو لممارسة هذه القيمة في الحياة لاعتبارات منها :

–أن الآباء (مرحلة الشيخوخة بالخصوص) وصلوا سنا فقدوا فيه القدرة والقوة وصاروا إلى حالة من الضعفوالوهن الجسمي، فأبسط إيذاء ينزل عليهم كالصاعقة، فالنفس عند الشيخ الكبير تصل إلى أقصى ما تقتضيه الحساسية من دقة وشفافية في عواطفه وانفعالاته .قال الله تعالى : {وَاللّهُخَلَقَكُمْثُمَّيَتَوَفَّاكُمْوَمِنكُممَّنيُرَدُّإِلَىأَرْذَلِالْعُمُرِلِكَيْلاَيَعْلَمَبَعْدَعِلْمٍشَيْئاًإِنَّاللّهَعَلِيمٌقَدِيرٌ}[472] ويعلق

---

[470]– محمد أبو زهرة :تنظيم الإسلام للمجتمع ص17

[471]–سورة الإسراء الآية: 23

[472]– سورة النحل الآية: 70

سيد قطب على هذه الآية فيقول:" وصورة الشيخوخة حين يرد الإنسان إلى أرذل العمر، فينسى ما كان قد تعلم، ويرتد إلى مثل الطفولة من العجز، والنسيان،والسذاجة "[473]

-أن الآباء في هذه السن عرضة للإهمال والنسيان،ومن ثم جاء الخطاب منبّها ومذكرا بواجب هام لا ينبغي أن ينسى في أمة تقوم على الإيمان والقيم، وهذا نلاحظه من خلال الصيغة المستعملة في الآية الكريمة فالمصدر "الإحسان "من جهة جاء على صيغة المبالغة التي توحي بضرورة التفنن في أساليب الإحسان، ومن جهة أخرى جاء متعدّيا بالباء لأن" أحسن به "أبلغ من "أحسن إليه" وهو أليق بالوالدين، لأن من تحسن به هو من يتصل به برك وحسن معاملتك، أما من تحسن إليه وهو الذي تسدي إليه برك ولو على بعد أو بالواسطة .وهذه الصيغة لم ترد في القرآن الكريم إلا في مقامين :

- أحدهما: التعبير بالفعل حكاية عن يوسف عليه السلام وهو قوله لأبيه وإخوته : {وَرَفَعَأَبَوَيْهِعَلَىالْعَرْشِوَخَرُّواْلَهُسُجَّداًوَقَالَيَاأَبَتِهَـذَاتَأْوِيلُرُؤْيَايَمِنقَبْلُقَدْجَعَلَهَارَبِّيحَقّاًوَقَدْأَحْسَنَبِيإِذْأَخْرَجَنِيمِنَالسِّجْنِوَجَاءبِكُممِّنَالْبَدْوِمِنبَعْدِأَننَّزَغَالشَّيْطَانُبَيْنِيوَبَيْنَإِخْوَتِيإِنَّرَبِّيلَطِيفٌلِّمَايَشَاءُإِنَّهُهُوَالْعَلِيمُالْحَكِيمُ }[474]

-وثانيها : التعبير بالمصدر المفيد للتأكيد والمبالغة في مقام الإحسان إلى الوالدين في أربع سور (البقرة، النساء، الأنعام، الإسراء) ولم يرد في التنزيل إلا قوله تعالى :" وبالوالدين إحسانا "ولو كان غير مكرر لكفى في الدلالة على عظم عناية القرآن بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة والتعدية .

كما نجد أن النص ينهى عن التأفف الذي يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت فكيف بالعقوق الذي يعد من أكبر الكبائر كما نص الحديث الشريف كما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ "قلنا بلى يا رسول الله قال

---

[473]- سيد قطب : في ظلال القرآن المجلد 4 ص2182

[474]- سورة يوسف الآية: 100

:" الإشراك بالله وعقوق الوالدين " وكان متكئا فجلس فقال : "ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور ".[475] فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت.

وفي مقابل هذا تحكم علاقة الآباء بالأبناء قيم أخرى منها:

1-الرحمة: كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : تقبّلون الصّبيان ؟ فما نقبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم :" أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة "[476] .

2-العدل بين الأبناء : كما في صحيح البخاري عن عامر قال : سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه وهو على المنبر يقول : أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله قال :" أعطيت سائر ولدك مثل هذا قال لا قال :" فاتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم " قال : فرجع فرد عطيته[477].

3-حسن التربية والعناية: بحيث تنصب جهود الوالدين علىتنشئة الولد تنشئة صالحة ومتوازنةيتلقى من خلالها الرعاية التامة في جميع جوانب الشخصية باعتبار أن الأولاد أمانة في عنق الإنسان يسأل يوم القيامة عن دوره في تربيتهم قال الله تعالى :" {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواقُوا أَنفُسَكُمْوَأَهْلِيكُمْنَاراًوَقُودُهَاالنَّاسُوَالْحِجَارَةُعَلَيْهَامَلَائِكَةٌغِلَاظٌشِدَادٌلَايَعْصُونَاللَّهَمَاأَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَمَايُؤْمَرُونَ }[478] ويتجلى هذا الدور في النموذج الذي ساقه القرآن الكريم من خلال موعظة لقمان لابنه قال الله تعالى:" {وَإِذْقَالَلُقْمَانُلِابْنِهِوَهُوَيَعِظُهُيَابُنَيَّلَاتُشْرِكْبِاللَّهِإِنَّالشِّرْكَلَظُلْمٌعَظِيمٌ}[479].

---

[475]- أخرجه البخاري :كتاب الأدب باب عقوق الوالدين من الكبائر الجزء الخامس حديث رقم 5131

[476]- أخرجه البخاري :كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته الجزء الخامس حديث رقم 5652

[477] - صحيح البخاري : كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الإشهاد في الهبة، الجزء الثاني حديث رقم 2448

[478]- سورة التحريم الآية: 6

[479]-سورة لقمان الآية: 13

فوصية لقمان تضمنت مجموعة من القيم التربوية التي ينبغي على الآباء اتخاذها نبراسا في منهج التربية السليمة، منها تصحيح العقيدة، توثيق الصلة بالله تعالى، طاعة الوالدين، أداء الواجبات،الصبر، التواضع، والقصد في الحركة والسعي .

ب–العلاقة مع الزوجة :

لم توجد شريعة حثت على الزواج كما حث الإسلام عليه، ذلك لأن الزواج عماد الأسرة، والأسرة الثابتة القوية عماد المجتمع، فأساس العلاقة بين الرجل والمرأة في الإسلام هو العلاقة المنظمة في إطار الزواج الذي يحقق الراحة النفسية، ويعين الإنسان على السير في مدارج الكمال الإنساني، والبعد عن السلوك الحيواني، وذلك لما في هذا الزواج من تبعات جليلة تعلو فيه الإنسانية بمقدار كبر تبعاته، من إنجاب الأولاد وتربيتهم والجهاد لتوفير متطلبات العيش الكريم لهم، وكل العلاقات ما عدا الزواج حرام تستوجب أشد العقاب، ويعد ذلك من الرذائل القبيحة، بل هي في نظره من الأسباب التي تهدد بالفناء والانقراض . قال الله تعالى {وَالَّذِينَهُمْلِفُرُوجِهِمْحَافِظُونَ .إِلَّاعَلَىأَزْوَاجِهِمْأَوْمَامَلَكَتْأَيْمَانُهُمْفَإِنَّهُمْغَيْرُمَلُومِينَ }[480] يقول محمد أبو زهرة :" هذا وإن حفظ النوع الإنساني على الوجه الأكمل لا يكون إلا بالزواج، فإن العلاقة بين الرجل والمرأة بغير الزواج لا تنتج نسلا، وإذا أنتجت نسلا، لا تنتجه قويا صالحا للإلف الاجتماعي الذي يجعل من الأسرة لبنة في بناء المجتمع" [481].

ومن هنا فالزواج في الإسلام عقد يفيد حل العشرة بين الرجل والمرأة وينقلها من التحريم إلى الحل الشرعي، ويحدد بمقتضى هذا العقد ما لكليهما من حقوق وواجبات تقوم على أساس من المساواة، والعدل والتكافؤ والتقابل، حيث ينتهي ذلك إلى ذروة كماله في الاتحاد والسكن والمودة، والرحمة بالأفراد، والأمن للجماعة، وقد أولى الإسلام عناية متميزة لمنظومة القيم الأسرية عندما أقامها على رباط مقدس سماه القرآن الكريم "ميثاقا غليظا" قال الله تعالى

---

[480]– سورة المؤمنون الآية: 6/5

[481]–محمد أبو زهرة :تنظيم الإسلام للمجتمع ص64

:{وَكَيْفَتَأْخُذُونَهُوَقَدْأَفْضَىبَعْضُكُمْإِلَىبَعْضٍوَأَخَذْنَمِنكُممِّيثَاقاًغَلِيظاً }[482]. ومن أهم القيم التي تحكم الحياة الزوجية نذكر ما يلي:

1- الصلاح وحسن الخلق :

ويمكن أن نلاحظ هذا من خلال وضع الإسلام للضوابط في اختيار الزوج الشريك :

فقال صلى الله عليه وسلم فيما يخص الزوجة :" الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة" [483] .

وقوله :"تنكح المرأة لأربع...فاظفر بذات الدين تربت يداك"[484] .

وفيما يخص الزوج جاء قوله صلى الله عليه وسلم :" إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير " [485].

2- المودة والرحمة :وتتضمن جميع ما يتصل بالمشاعر الصادقة والعواطف الإنسانية النبيلة .قال الله تعالى: {وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُواإِلَيْهَاوَجَعَلَبَيْنَكُممَّوَدَّةًوَرَحْمَةًإِنَّفِيذَلِكَلَآيَاتٍلِّقَوْمٍيَتَفَكَّرُونَ }[486]

3-المعاشرة بالمعروف : ويندرج تحتها كل الأساليب الراقية في المعاملة من لياقة ولباقة والتي تجعل الطرف الآخر يشعر بالأمن والسكينة. قال الله تعالى :{يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْلاَيَحِلُّلَكُمْأَنتَرِثُواْالنِّسَاءكَرْهاًوَلاَتَعْضُلُوهُنَّلِتَذْهَبُواْبِبَعْضِمَاآتَيْتُمُوهُنَّإِلاَّأَنيَأْتِينَبِفَاحِشَةٍمُّبَيِّنَةٍوَعَاشِرُوهُنَّبِالْمَعْرُوفِفَإِنكَرِهْتُمُوهُنَّفَعَسَىأَنتَكْرَهُواْشَيْئاًوَيَجْعَلَاللّهُفِيهِخَيْراًكَثِيراً }[487].

---

[482]- سورة النساء الآية: 21

[483]- أخرجه مسلم :كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة المجلد الثاني حديث رقم 3660

[484]- أخرجه مسلم :كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين المجلد الثاني حديث رقم 3652

[485]-أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النكاح ، باب " ما جاء فيمن ترضون دينه فزوجوه"حديث رقم 1091

[486] سورة الروم الآية: 21

[487]- سورة النساء الآية: 19

4-الوفاء: وهذه القيمة تؤكد واجب المرأة في تحمل المسؤولية في حفظ شرف الزوج ومصالحه المختلفة من الأموال والأولاد. قال الله تعالى : {الرِّجَالُقَوَّامُونَعَلَىالنِّسَاءِبِمَافَضَّلَاللَّهُبَعْضَهُمْعَلَىبَعْضٍوَبِمَاأَنفَقُواْمِنْأَمْوَالِهِمْفَالصَّالِحَاتُقَانِتَاتٌحَافِظَاتٌلِّلْغَيْبِبِمَاحَفِظَ اللَّهُوَاللاَّتِيتَخَافُونَنُشُوزَهُنَّفَعِظُوهُنَّوَاهْجُرُوهُنَّفِيالْمَضَاجِعِوَاضْرِبُوهُنَّفَإِنْأَطَعْنَكُمْفَلاَتَبْغُواْعَلَيْهِنَّسَبِيلاًإِنَّاللّهَكَانَعَلِيّاًكَبِيراً }[488].

5-الإحسان: ولا يسقط عن الزوج واجب الإحسان في المعاملة سواء اتصلت بينه وبين حليلته آصرة الزواج أو انتهت هذه الآصرة إلى الفراق بغير رجعة. قال الله تعالى: {الطَّلاَقُمَرَّتَانِفَإِمْسَاكٌبِمَعْرُوفٍأَوْتَسْرِيحٌبِإِحْسَانٍوَلاَيَحِلُّلَكُمْأَنتَأْخُذُواْمِمَّاآتَيْتُمُوهُنَّشَيْئاًإِلاَّأَنيَخَافَاأَلاَّيُقِيمَاحُدُودَاللّهِفَإِنْخِفْتُمْأَلاَّيُقِيمَاحُدُودَاللّهِفَلاَجُنَاحَعَلَيْهِمَافِيمَاافْتَدَتْبِهِتِلْكَحُدُودُاللّهِفَلاَتَعْتَدُوهَاوَمَنيَتَعَدَّحُدُودَاللّهِفَأُوْلَئِكَهُمُالظَّالِمُونَ }[489].

بل لا يسقط هذا الواجب حتى في حالة الطلاق بعد زواج لم تنعقد فيه الصلة بين الزوجين .قال الله تعالى:

{يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواإِذَانَكَحْتُمُالْمُؤْمِنَاتِثُمَّطَلَّقْتُمُوهُنَّمِنقَبْلِأَنتَمَسُّوهُنَّفَمَالَكُمْعَلَيْهِنَّمِنْعِدَّةٍتَعْتَدُّونَهَافَمَتِّعُوهُنَّوَسَرِّحُوهُنَّسَرَاحاًجَمِيلاً }[490].

6-الإنفاق : قال الله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّمِنْحَيْثُسَكَنتُممِّنوُجْدِكُمْوَلاَتُضَارُّوهُنَّلِتُضَيِّقُواعَلَيْهِنَّوَإِنكُنَّأُوْلاَتِحَمْلٍفَأَنفِقُواعَلَيْهِنَّحَتَّيَضَعْنَحَمْلَهُنَّفَإِنْأَرْضَعْنَلَكُمْفَآتُوهُنَّأُجُورَهُنَّوَأْتَمِرُوابَيْنَكُمبِمَعْرُوفٍوَإِنتَعَاسَرْتُمْفَسَتُرْضِعُلَهُأُخْرَى }[491]يقول محمد أبو زهرة :" والأصل في نفقة الزوجية أن يعد لها المسكن الشرعي الذي يليق بها، ويقدم لها ما تحتاج إليه

---

[488]-سورة النساء الآية: 34

[489]- سورة البقرة الآية: 229

[490]- سورة الأحزاب الآية: 49

[491]- سورة الطلاق الآية: 6

من طعام، وشراب، وكسوة على حسب قدرته من يسار، وإعسار" [492] . قال تعالى :{لِيُنفِقْذُوسَعَةٍمِّنسَعَتِهِوَمَنقُدِرَعَلَيْهِرِزْقُهُفَلْيُنفِقْمِمَّاآتَاهُاللَّهُلَايُكَلِّفُاللَّهُنَفْساًإِلَّامَاآتَاهَاسَيَجْعَلُاللَّهُبَعْدَعُسْرٍيُسْراً }[493].

7-العدل : فيفرض الإسلام على الزوج في حالة التعدد في الزواج أن يعدل بين زوجاته .لقوله تعالى: {وَإِنْخِفْتُمْأَلَّاتُقْسِطُواْفِياْلْيَتَامَىفَانكِحُواْمَاطَابَلَكُممِّنَالنِّسَاءمَثْنَىوَثُلَاثَوَرُبَاعَفَإِنْخِفْتُمْأَلَّاتَعْدِلُواْفَوَاحِدَةًأَوْمَا مَلَكَتْأَيْمَانُكُمْذَلِكَأَدْنَىأَلَّاتَعُولُواْ }[494] .

8-الشورى: لما كانت القرارات الحكيمة لا تنتج إلا بالنظر إليها من زوايا مختلفة فإن الإسلام يربي المسلم على قيمة الشورى داخل الأسرة ليكون فيما بعد ممارسا لها في مؤسسات المجتمع، ومن ثم فإن تحقيق مصلحة أفراد الأسرة لا يتخذ بقرار انفرادي، بل بعد تقليب الأمور ودراستها واحترام وجهة نظر الطرفين قال تعالى:{ فَإِنْأَرَادَافِصَالاًعَنتَرَاضٍمِّنْهُمَاوَتَشَاوُرٍفَلَاجُنَاحَعَلَيْهِمَا }[495].

وعلى العموم فإن :" الأسرة هي الأمة الصغيرة، ومنها تعلم النوع الإنساني أفضل أخلاقه الاجتماعية وأنفعها...فمن الأسرة تعلّم النوع الإنساني الرحمة والكرم وليس في أخلاقه جميعا ما هو أجمل منهما وأنفع له في مجتمعاته"[496] ويمكن إرجاع كل ذلك إلى النظرة التي جاء الإسلام بها في معاملة المرأة والتي تقوم أساسا على احترام كيانها الإنساني وضمان حقوقها كاملة.

ج- العلاقة مع ذوي القربى والأرحام:

تقوم العلاقة مع ذوي القربى والأرحام على أساس التكافل الاجتماعي وصلة الرحم، حيث أننا نجد أن الشريعة شملتهم بمجموعة من الأحكام تحقق قيمة التكافل، فالميراث والوصية والهبة والهدية

---

[492]- محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ص 84

[493]- سورة الطلاق الآية: 7

[494]-سورة النساء الآية: 3

[495]- سورة البقرة الآية: 233

[496]-عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص165

وغيرها من الأحكام التي تؤدي مهمة أساسية في حل أزمات القرابة، لذلك سلك الإسلام سبيل التكافل الاجتماعي بين الأسرة القائم على النفقات في مختلف الظروف والمناسبات سواء كان على سبيل الواجب أو على سبيل الإحسان .

فمما يتفق عليه الفقهاء أن النفقة تجب لذوي القربى في حالة العجز، وإن اختلفوا في عدد من تجب عليهم، فمنهم من يوجبها للوالدين والأبناء، ومنهم من يوسع القائمة ويضم الأعمام والعمات والأخوات والخالات، ومنهم من يوسع الدائرة أكثر، فكل من يرث تجب نفقته، سواء كانت القرابة قريبة أم بعيدة ، وذلك بتوفر شروط كما يذكر الفقهاء[497] .

وقد ورد لفظ ذوي القربى أحد عشر مرة في القرآن الكريم في سياقات مختلفة، وجاء ت الدعوة للإحسان إليهم وتقديم العون لهم، ليس من باب التفضل فقط، بل من باب الواجب فهذه حقوقهم المفروضة على المجتمع .

فالنصوص القرآنية تؤكد ابتداء بأن العدل والإحسان إلى ذوي القربى من الفرائض الإلهية على الأفراد قال الله تعالى :{إِنَّاللّهَيَأْمُرُبِالْعَدْلِوَالإِحْسَانِوَإِيتَاءذِيالْقُرْبَىوَيَنْهَىعَنِالْفَحْشَاءوَالْمُنكَرِوَالْبَغْيِيَعِظُكُمْلَعَلَّكُمْتَذَكَّرُونَ }[498]

وقال تعالى: {وَآتِذَاالْقُرْبَىحَقَّهُوَالْمِسْكِينَوَابْنَالسَّبِيلِوَلاَتُبَذِّرْتَبْذِيراً }[499].

وهذه المكانة التي يستحقها أولي القرابة نجدها في سورة البقرة حيث جاء النص يبين أن الإحسان إليهم يعد ميثاقا أخذه الله على بني إسرائيل، فرتب فئة ذوي القربى معطوفة على الوالدين مما يدل على أن القيام بالواجب نحو هذه الفئة لا يقل أهمية عما ينبغي بذله اتجاه الوالدين .قال الله تعالى: {وَإِذْأَخَذْنَامِيثَاقَبَنِيإِسْرَائِيلَلاَتَعْبُدُونَإِلاَّاللّهَوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًوَذِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينِوَقُولُواْلِلنَّاسِحُسْناًوَأَقِيمُ

---

[497]- ينظر محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ص 141

[498]- سورة النحل الآية: 90

[499]- سورة الإسراء الآية: 26

وٱلصَّلَاةَوَآتُواٱلزَّكَاةَثُمَّتَوَلَّيْتُمْإِلَّاقَلِيلاًمِّنكُمْوَأَنتُممُّعْرِضُونَ }[500] بالإضافة إلى ذلك ما جاء في قوله تعالى :{كل آمَنَبِاللَّهِوَالْيَوْمِالآخِرِوَالْمَلآئِكَةِوَالْكِتَابِوَالنَّبِيِّينَوَآتَىالْمَالَعَلَىحُبِّهِذَوِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينَوَابْنَالسَّبِيلِوَالسَّآئِلِينَوَفِيالرِّقَابِ }[501].

يلاحظ في الآية أن ذوي القربى لم يفصل بينهم وبين الآباء في وجوب الإنفاق من المال الذي هو أحب شيء للإنسان .فهو من أبواب الخير المرغب فيها قال تعالى: {فَآتِذَاالْقُرْبَىحَقَّهُوَالْمِسْكِينَوَابْنَالسَّبِيلِذَلِكَخَيْرٌلِّلَّذِينَيُرِيدُونَوَجْهَاللَّهِوَأُوْلَئِكَهُمُالْمُفْلِحُونَ }[502].

كما أن السياق في سورة الشورى يكشف أن من أبواب الأجر العظيم الإحسان إلى ذوي القربى. قال الله تعالى :{ قُللاَّأَسْأَلُكُمْعَلَيْهِأَجْراًإِلَّاالْمَوَدَّةَفِيالْقُرْبَىوَمَنيَقْتَرِفْحَسَنَةً نَّزِدْلَهُفِيهَاحُسْناًإِنَّاللَّهَغَفُورٌشَكُورٌ }[503].

ويتأكد هذا الحق المادي في الميراث حتى ولو لم يكونوا من المستحقين له بالفرض، أوالتعصيب، فهم ينالون نصيبا من باب التكريم، فضلا عن الإحسان الأدبي معهم . قال الله تعالى: {وَإِذَاحَضَرَالْقِسْمَةَأُوْلُواْالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينُفَارْزُقُوهُمِّنْهُوَقُولُواْلَهُمْقَوْلاًمَّعْرُوفاً }[504] كما ينالون هذا الحق في غنائم الحرب قال الله تعالى: {وَاعْلَمُوٓاأَنَّمَاغَنِمْتُممِّنشَيْءٍفَأَنَّلِلَّهِخُمُسَهُوَلِلرَّسُولِوَلِذِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينِوَابْنِالسَّبِيلِإِنكُنتُمْآمَنتُمْبِاللَّهِوَمَاأَنزَلْنَاعَلَىعَبْدِنَايَوْمَالْفُرْقَانِيَوْمَالْتَقَىالْجَمْعَانِوَاللَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ }[505].

---

[500]–سورة البقرة الآية: 83

[501]–سورة البقرة الآية: 177

[502]–سورة الروم الآية: 38

[503]– سورة الشورى الآية: 23

[504]– سورة النساء الآية :8

[505]– سورة الأنفال الآية :41

وقال

تعالى: {مَّاأَفَاءاللَّهُعَلَىرَسُولِهِمِنْأَهْلِالْقُرَىفَلِلَّهِوَلِلرَّسُولِوَلِذِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينِوَابْنِالسَّبِيلِكَيْلَايَكُونَدُولَةًبَيْنَالْأَغْنِيَاءِمِنكُمْوَمَاآتَاكُمُالرَّسُولُفَخُذُوهُوَمَانَهَاكُمْعَنْهُفَانتَهُواوَاتَّقُوااللَّهَإِنَّاللَّهَشَدِيدُالْعِقَابِ }[506].

وتحذر الآيات من منع التفضّل عليهم حتى لو أساءوا الأدب، فيطلب من أهل السّعة إعطاءهم الحقوق والعفو عنهم. قال الله تعالى: {وَلَايَأْتَلِأُوْلُواالْفَضْلِمِنكُمْوَالسَّعَةِأَنيُؤْتُوا أُوْلِيالْقُرْبَىوَالْمَسَاكِينَوَالْمُهَاجِرِينَفِيسَبِيلِاللَّهِوَلْيَعْفُواوَلْيَصْفَحُوااَلَاتُحِبُّونَأَنيَغْفِرَاللَّهُلَكُمْوَاللَّهُغَفُورٌرَّحِيمٌ }[507].

وخلاصة القول فإن الإسلام يؤكد على هاتين القيمتين(الإحسان، الإنفاق) اللتان تعدان من الركائز الأساسية للحفاظ على التواصل الاجتماعي في الدائرة الأسرية، ويعتبر أن قطع الأرحام من أعظم الفساد، لأنذلك يدلل على فقدان الرحمة في القلوب، مما يؤدي إلى انقطاع العلاقات، وانتشار الأحقاد بين الأقارب، وتمزق المجتمع. لذلك استحق قاطع الرحم اللعنة من الله تعالى .قال الله تعالى :" {فَهَلْعَسَيْتُمْإِنتَوَلَّيْتُمْأَنتُفْسِدُوافِيالْأَرْضِوَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ.أُوْلَئِكَالَّذِينَلَعَنَهُمُاللَّهُفَأَصَمَّهُمْوَأَعْمَىأَبْصَارَهُمْ }[508] لذا جاء في الأحاديث الترغيب في صلة الأرحام، وبيان فضل الإحسان إليهم . فعن عائشة رضي الله عنها ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" الرحم شَجنة من الله، من وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله "[509] .

2- قيم المجتمع الصغير :وتشمل هذه الدائرة مجموعة من العلاقات الاجتماعية المتمثلة في :

أ-علاقة الجوار: أكد الإسلام على مجموعة من القيم ترتكز عليها العلاقة مع الجيران وأشار إلى وجوب الإحسان إليهم بشتى أنواع البر والمعاملة المادية والأدبية ومن أمثلتها:

---

[506]-سورة الحشر الآية :7

[507]-سورة النور الآية: 22

[508]-سورة محمد الآية :23/22

[509]- أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب فضل صلة الرحم حديث رقم 55

قوله

تعالى: {وَاعْبُدُواْاللّهَوَلاَتُشْرِكُواْبِهِشَيْئاًوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًوَبِذِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينِوَالْجَارِذِيالْقُرْبَىوَالْجَارِالْجُنُبِوَالصَّاحِبِبِالْجَنبِوَابْنِالسَّبِيلِوَمَامَلَكَتْأَيْمَانُكُمْإِنَّاللّهَلاَيُحِبُّمَنكَانَمُخْتَالاًفَخُوراً }[510] فالآية تنص على حق الجار سواء كان من ذوي القربى أو من غيرهم، وإن الإحسان إليه يكون بأنواع شتى من الحقوق الأدبية والمادية، أدناها منع الأذى عنه وأعلاها مشاركته في السراء والضراء والتعاون التام في تحقيق المصالح المختلفة والانتفاع بالثروة، والجار الذي يتمتع بهذه الحقوق هو الجار بوصفه جارا بغض النظر عن كونه مسلما أو غير مسلم، إلا أن المسلم له حق الجوار وحق الإسلام.

وجاءت أحاديث كثيرة تبيّن هذه المكانة وتؤكد على هذه الحقوق منها :عن سعيد ابن شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"والله لا يؤمن. والله لا يؤمن. والله لا يؤمن .قيل ومن يا رسول الله قال: "من لا يأمن جاره بوائقه " [511] وعن ابن عمر قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم :" ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه"[512] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤد جاره..."[513].

ب-العلاقة مع الضعفاء من اليتامى والفقراء والمساكين وابن السبيل وذوي الحاجات في المجتمع المسلم: فقدكان الإسلام حكيما حين أزال الفوارق بين الأغنياء والفقراء من خلال شرائعه المختلفة، فعمل على محو نظام الطبقات من النفوسفي العبادات، ففي الصلاة يقف الغني بجوار الفقير يجمعهما الخضوع لله الواحد الديان، وفي الحج تمّحي كل الفوارق الاجتماعية بين الأجناس والألوان، ويصبح أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله.فينظر الإسلام إلى المجتمع على أنه كيان واحد متواصل متراحم يتعاون فيما بينه على الخير،فيأخذ بيد الضعيف وتتضافر جهود الأفراد فيه على ما ينفعهم.

---

[510]-سورة النساء الآية: 36

[511]- أخرجه البخاري : كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه. الجزء الخامس حديث رقم 5640

[512]- أخرجه البخاري :كتاب الأدب، باب الوصاية بالجار الجزء الخامس حديث رقم 5668

[513]- أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤد جاره، الجزء الخامس حديث رقم 5672

ففي المجتمعات الصغيرة تحكمها قيّم التعاون ونجدة الفئات المحرومة والعاجزة . لقوله تعالى:{ وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِوَاتَّقُواْاللّهَإِنَّاللّهَشَدِيدُالْعِقَابِ}[514].

وتتجلى هذه القيّم في صور كثيرة داخل المجتمع المسلم الذي وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبنيان، فعن أبي بردة عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم :" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"[515] ثم شبك بين أصابعه. فالإسلام ندب الأمة كي تتواصى بالمعروف وتتناهى عن المنكر من أجل أن تعيش في مجتمع تسوده روح التضامن والتعاون على البر والتقوى، ومن هنا تقرر كفالة الضعفاء وأصبح فرضا محتوما على القادرين. ولزيادة البيان نستعرض بعض الموضوعات الاجتماعية البارزة التي تناولها القرآن الكريم والسنة المطهرة:

1-العناية بالفقراء والمساكين والمحتاجين :

حفل القرآن الكريم بالتوجيهات التي تبين اهتمام الإسلام بفئة الفقراء والمحتاجين، ففرض الإحسان إليهم وشدد في ذلك وجعله ميثاقا على بني إسرائيل ومن بعدهم قال تعالى: {وَإِذْأَخَذْنَامِيثَاقَبَنِيإِسْرَائِيلَلاَتَعْبُدُونَإِلاَّاللّهَوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًوَذِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينِ... }[516].

وقد استخدم القرآن الكريم أساليب شتى للتأكيد على هذه القيم ومنهاقصة صاحب الجنة في سورة القلم

{إِنَّابَلَوْنَاهُمْكَمَابَلَوْنَاأَصْحَابَالْجَنَّةِإِذْأَقْسَمُواليَصْرِمُنَّهَامُصْبِحِينَوَلَايَسْتَثْنُونَفَطَافَعَلَيْهَاطَائِفٌمِّنرَّبِّكَوَهُمْنَائِمُونَ }[517] حيث أبانت قصة أصحاب الجنة أن جنّتهم قد تعرضت للتّلف بسبب تعمّدهم حرمان المساكين من ثمراتها.

---

[514]-سورة المائدة الآية :2

[515]-أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا الجزء الخامس حديث رقم 5670

[516]-سورة البقرة الآية :83

[517]-سورة القلم الآية :19/18/17

أما في سورة المدثر فوردت في مقام الإجابة عن السؤال التعجبي الذي يطرحه المسلمون على المجرمين في الآخرة يكشف أن عدم الإطعام من الأسباب التي قضت بدخولهم سقر. قال الله تعالى:{مَاسَلَكَكُمْفِيسَقَرَقَالُوالَمْنَكُمِنَالْمُصَلِّينَوَلَمْنَكُنُطْعِمُالْمِسْكِينَ }[518]. فالتخلي عن هذا الواجب يلحق الوعيد بالعقوبة في الدنيا والآخرة، ذلك أن الإيمان الحق يفرض الشعور بمعاناة المسلمين ويدفع لتلمس حاجاتهم .كما أبانت سورة الفجر أن المسلم لا يكتفي بالعطاء بل ينبغي عليه المحاضة على الإطعام ذلك أن عدم المحاضة على الإطعام من المواقف التي تجلب الضرر قال تعالى :{كَلَّابَلْلَاتُكْرِمُونَالْيَتِيمَوَلَاتَحَاضُّونَعَلَىطَعَامِالْمِسْكِينِ }[519] وأوصت سورة الضحى بالبر بالفقراء والرأفة بالضعفاء قال تعالى :{وَأَمَّاالسَّائِلَفَلَاتَنْهَرْ }[520]وهذا الشعور باللحمة الإيمانية يؤكد عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فبالإضافة إلى ما يفرض على الدولة من رعاية هذه الطبقات لا يعفى المسلم من القيام بمختلف الأدوار في تفريج كرب إخوانه ومشاركتهم ما يكابدونه من مختلف الأوضاع، فعن عامر قال سمعت النعمان بن بشيريقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [521]

2- كفالة اليتامى:

أولى الإسلام عناية خاصة بشؤون اليتامى، وأكد على القيم التي ينبغي أن يراعيها أولو القربى أو المجتمع في التعامل مع اليتامى باعتبارهم فئة ضعيفة، لأن طريقة التعامل معهم لها أثرها الواضح على شخصياتهم لذلك جعله الله عهدا على بني إسرائيل قال تعالى

---

[518]-سورة المدثر الآية :44/43/42

[519]-سورة الفجر الآية : 18/17

[520]-سورة الضحى الآية: 10

[521]- صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم،الجزء الخامس حديث رقم 5665

: {وَاعْبُدُواْاللّهَوَلاَتُشْرِكُواْبِهِشَيْئاًوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًوَبِذِيالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينِوَالْجَارِذِيالْقُرْبَىوَالْجَارِالْجُنُبِوَالصَّاحِبِبِالْجَنبِوَابْنِالسَّبِيلِوَمَامَلَكَتْأَيْمَانُكُمْإِنَّاللّهَلاَيُحِبُّمَنكَانَمُخْتَالاًفَخُوراً }[522].

كما بيّن القرآن الكريم أن الرعاية شاملة و لا تقتصر على مجرد تلبية بعض الحاجيات،بل تتعداه إلى مواقف متنوعة وأدوار هامة هي واجب في عنق المجتمع، كما ينص على ذلك قوله تعالى: {كَلَّابَلَّاتُكْرِمُونَالْيَتِيمَ }[523]. يقول محمد التومي معلقا على الآية الكريمة ": فقد أفادت الآية أن عدم المبادرة بإكرام الأيتام يستوجب تهديدا ردعيا شديدا، ويدل هذا على أنه يعد من الآفات الاجتماعية الخطيرة، واختيار كلمة " الإكرام " تبين أن الموقف الاجتماعي المطلوب هو العناية بهذا الصنف ماديا ومعنويا، بحيث لا يقتصر دور الرعاية على توفير المأكل والمشرب والملبس والمأوى فحسب، بل يتعداه إلى التربية والإعداد الذي يرفع من قيمة اليتيم ويؤهله لأن يكون إنسانا ذا شخصية وكرامة"[524] وتتمثل هذه القيم فيما يلي :

أ-الرفق والشفقة على اليتيم :وذلك في معرض تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بنعم الله عليه حيث كان يتيما فآواه، وأنقذه من المذلة، و الفاقة، ومن خلال الرسول أوصى الأمة بعدم إلحاق الأذى باليتيم كما نصت عليه سورة الضحى قال تعالى {فَأَمَّاالْيَتِيمَفَلَاتَقْهَرْ }[525]، كما أشارت سورة الماعون إلى أن الذي لا تأخذه الشفقة، والرحمة باليتيم هو بمثابة من يكذب الدين {فَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَ }[526]فدفع اليتيم وزجره سلوك مرفوض في المجتمع المسلم ويعد من المؤشرات الدالة على ضعف الإيمان .

---

[522]-سورة النساء الآية :36

[523]- سورة الفجر الآية:17

[524]- محمد التومي المجتمع الإنساني في القرآن الكريم الدار التونسية للنشر تونس ط2سنة 1990ص 116

[525]- سورة الضحى الآية :9

[526]- سورة الماعون الآية :2

وتبرز أهمية العناية باليتيم في سورة البلد، فالعناية بشؤونه باب عظيم يوصل إلى تجاوز العقبة وتحصيل الدرجة الرفيعة يوم القيامة. قال تعالى:{يَتِيماًذَامَقْرَبَةٍ }[527]، وفي ذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:" أنا وكافل اليتيم هكذا " وقال بأصبعيه السبابة والوسطى[528]. فاليتيم في جميع الأحوال لا يستحق إلا الإكرام والقول الحسن .قال تعالى :{وَإِذَاحَضَرَالْقِسْمَةَأُوْلُواْالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينُفَارْزُقُوهُمِّنْهُوَقُولُواْلَهُم قَوْلاًمَّعْرُوفاً }[529].

ب-وجوب رعاية مال اليتيم وعدم الاعتداء عليه :ومن القيم التي تحكم العلاقة مع اليتيم الإحسان في معاملته في الجوانب المالية فضلا عن الجوانب الأدبية، وفي ذلك يأمر الإسلام بالمحافظة على أموال اليتيم وعدم قربانها إلا بالتي هي أحسن . قال تعالى:{وَلاَتَقْرَبُواْمَالَالْيَتِيمِإِلاَّ بِالَّتِيهِيَأَحْسَنُحَتَّىيَبْلُغَأَشُدَّهُوَأَوْفُواْبِالْعَهْدِإِنَّالْعَهْدَكَانَمَسْؤُولاً }[530].

فالإسلام يعتبر أن من يأكل أموال اليتامى ظلما، إنما يأكل في بطنه نارا، إشارة إلى فظاعة هذا الجرم. قال تعالى:{إِنَّالَّذِينَيَأْكُلُونَأَمْوَالَالْيَتَامَىظُلْماًإِنَّمَايَأْكُلُونَفِيبُطُونِهِمْنَاراًوَسَيَصْلَوْنَسَعِيراً }[531]ومن هنا أمر الأوصياء أن يردوا المال إلى اليتيم إذا لمسوا فيه القدرة على تنميتها وحفظها وحسن التصرف فيها، ولا شك أن ذلك يكون بعد اختبار مما يدل أن رعايته تكون أيضا أدبية بحسن تربيته حتى يشتد عوده .قال تعالى :{وَابْتَلُواْالْيَتَامَىحَتَّىإِذَابَلَغُواْالنِّكَاحَفَإِنْآنَسْتُممِّنْهُمْرُشْداًفَادْفَعُواْإِلَيْهِمْأَمْوَالَهُمْوَلاَتَأْكُلُوهَاإِسْرَافاًوَبِدَاراًأَنيَكْبَرُواْوَمَنكَانَغَنِيّاًفَلْيَسْتَعْفِفْوَمَنكَانَفَقِيراًفَلْيَأْكُلْبِالْمَعْرُوفِفَإِذَادَفَعْتُمْإِلَيْهِمْأَمْوَالَهُمْفَأَشْهِدُواْعَلَيْهِمْوَكَفَىبِاللّهِحَسِيباً }[532].

---

[527]- سورة البلد الآية :15

[528] - أخرجه البخاري :كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيما، الجزء الخامس حديث رقم 5659

[529]- سورة النساء الآية : 8

[530]- سورة الإسراء الآية 34

[531]- سورة النساء الآية : 10

[532]-سورة النساء الآية :6

ولا شك أن رعاية اليتيم قائمة في الأصل على عاتق ذوي الأرحام والأقرباء حتى تظل الوشائج الأسرية قائمة ومتينة، ويمكن للمجتمع بمؤسساته الاجتماعية المختلفة أن يقوم بهذا الدور لرعاية اليتامى وعدم تركهم فريسة للضياع والانحراف. وأما الدولة فتفرض لهم من بيت المال نصيبا من الفيئ والغنائم . قال الله تعالى : {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[533] وقال أيضا : {مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[534].

3-رعاية العجزة و الضعفاء من أبناء المجتمع :والمقصود بالعجزة والضعفاء أفراد المجتمع الذين لا كفيل لهم، كرعاية الشيوخ والعجزة والأرامل. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل"[535]

واللقيط لقوله صلى الله عليه وسلم :" ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا "[536] وأصحاب العاهات المختلفة، والمزمنة، والمنحرفين فتتناولهم الآية الكريمة في قوله تعالى : {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ }[537] فكل هذه الفئات لا يجوز في المجتمع المسلم أن يلحقهم الضياع وسط إخوانهم المؤمنين . وهنا تتجلى قيّما هامة، وجوهرية في المجتمع المسلم، من أبرزها في هذا المقام "قيمة الرحمة" التي من معانيها أن تتضافر

---

[533]-سورة الأنفال الآية :41

[534]-سورة الحشر الآية :7

[535]- أخرجه البخاري : كتاب الأدب، باب الساعي على الأرملة الجزء الخامس، حديث رقم 5660

[536]- أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب إجلال الكبير، رقم الحديث 358

[537]-سورة المائدة الآية :32

جهود المجتمع والدولة في تحقيق الخير، والتكافل مع الضعفاء، حتى يشعروا بروح العطف والرفق، وأنهم محل العناية، والاهتمام البالغ في نظر الدولة والمجتمع.، وهذا العمل من فروض الكفاية التي إذا تخلى عنها المجتمع أثم جميعا . قال صلى الله عليه وسلم:" ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[538]فالتعميم في نص الحديث يبين أن رحمة المجتمع ينبغي أن تشمل هذه الفئات كل حسب الحاجة. فإما أن يُؤهَلوا حتى يمكن أن يحققوا ذواتهم، ويعتمدوا على أنفسهم، وذلك بتعليمهم الصنائع، وفتح المعاهد، والدراسات التي تهتم بشأنهم . وإما أن تهيئ لهم سبل العيش الكريم، وإما بتربيتهم وإعادة تأهيلهم للاندماج في المجتمع، أو بعلاجهم إن كانوا من المرضى. لأن معنى الرحمة المنصوص عليهاتشمل كل سعي من شأنه أن يخفف عنهم آلام المعاناة، ويشعرهم بالاعتبار. يقول عبد الله ناصح علوان:"فهؤلاء وأمثالهم هم الذين شملهم نظام التكافل في شريعة الإسلام، وهم الذين أن يلقوا من الدولة وأبناء المجتمع كل عطف وعون ورعاية وتأييد"[539] .

4-رعاية المنكوبين والمكروبين : من قيم الإسلام الفريدة المسارعة بتفريج كربة المكروبين ، والسعي لحل الأزمات التي تحل بالناس سواء كانت مادية أو معنوية، ومراعاة الظروف التي تحل بهم، فتؤثر على استقرارهم وفي ذلك نجد قوله تعالى :"{وَإِنكَانَذُوعُسْرَةٍفَنَظِرَةٌإِلَىمَيْسَرَةٍوَأَنتَصَدَّقُواْخَيْرٌلَّكُمْإِنكُنتُمْتَعْلَمُونَ }[540] فالسعي لقضاء الحاجات في حالة الضيق من الأعمال المبرورة في الإسلام قال تعالى :{الَّذِينَيُنفِقُونَفِيالسَّرَّاءِوَالضَّرَّاءِوَالْكَاظِمِينَالْغَيْظَوَالْعَافِينَعَنِالنَّاسِوَاللّهُيُحِبُّالْمُحْسِنِينَ }[541] وجاء في ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم :" المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة

538.- سبق تخريجه

539- عبد الله ناصح علوان : التكافل الاجتماعي في الإسلام دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط6سنة 2001 ص 71

540-سورة البقرة الآية :280

541- سورة آل عمران الآية :134

أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة "[542].

5- القيم في نظام الجماعة المسلمة : ينص الإسلام على أن العلاقة بين المؤمنين تقوم على مجموعة من القيم منها:

أ-قيمة الأخوة :بيّن القرآن الكريم والسنة النبوية أن العلاقة بين المؤمنين تحمكها قيمة الأخوة، وهي من القيم التي لم تعرف لها البشرية مثيلا، وقد عبّر الطاهر بن عاشور عن الأساس الذي تقوم عليه هذه العلاقة في تفردها فقال :"إن إيجاد الجامعة الإسلامية لما كان حادثا جديدا في تاريخ الجامعة البشرية، ولم يكن مألوفا للعرب ولا لغيرهم، وكان مرتكزا على أمر نفساني محض يخفى وجوده ولا يمكن شهوده، كان بحاجة إلى تأييد يقرره في النفوس في بداية أمره وعلى مر العصور "[543] قال الله تعالى :{إِنَّمَاالْمُؤْمِنُونَإِخْوَةٌفَأَصْلِحُوابَيْنَأَخَوَيْكُمْوَاتَّقُوااللَّهَلَعَلَّكُمْتُرْحَمُونَ }[544] .

وقد جعل الإسلام الأخوة عقدا نافذا وعملا يرتبط بحقوق وواجبات، فهي وشيجة قامت مقام الدم والنسب عبر عنها القرآن "بالأخوة " واختير لها وصف الأخوة دون غيره، لأنها جامعةٌ تماثل في الاعتقاد والتفكير والعمل، فشابهت تماثل الأخوين فإن الأخوة يلزمها التماثل[545] قال تعالى: {هُوَالَّذِيَأَيَّدَكَبِنَصْرِهِوَبِالْمُؤْمِنِينَ.وَأَلَّفَبَيْنَقُلُوبِهِمْلَوْأَنفَقْتَمَافِيالأَرْضِجَمِيعاًمَّاأَلَّفْتَبَيْنَقُلُوبِهِمْوَلَكِنَّاللّهَأَلَّفَبَيْنَهُمْإِنَّهُعَزِيزٌحَكِيمٌ }[546] فالنص على الألفة يبين درجة القرب والتوافق، وهذا ما عبر عنه الطاهر بن عاشور تعبيرا موفقا فقال :"إن نسبة الأخوة تجمع أواصر كثيرة : ففيها آصرة الانتساب، والقرب، وآصرة المحبة، آصرة الألفة آصرة الصحبة، وآصرة التماثل في الطباع، وآصرة الارتياح وترك التكلف، ولذلك كانت آنس للنفس من نسبة البنوة و الأبوة اللتين هما أقوى منها، إذ تمتاز عليهما بما في

---

[542]- أخرجه البخاري :كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه الجزء الثاني حديث رقم 2310 .

[543] محمد الطاهر بن عاشور :أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص 115

[544]-سورة الحجرات الآية : 10

[545]- ينظر المرجع نفسه ص 119

[546]-سورة الأنفال الآية 63/62

الأخوة من التجرد عن كلفة التوقير والطاعة...ويظهر هذا التمايز بينهن بأنك ترى المرء في مقام استمداد البر والطاعة يقول لمن يستمد منه يا ولدي، وهو في مقام استمداد العطف، وفي السماحة يقول يا أخي "[547].

وهكذا قام المجتمع الجديد في المدينة المنورة على الأخوة بين المؤمنين حتى أثنى الله تعالى على المستوى الكريم، والصورة الوضيئة التي تبرز الملامح المميزة للرعيل الأول الذي بلغ درجة الإيثار مع الحاجة . فقال سبحانه : {وَالَّذِينَتَبَوَّؤُواالدَّارَوَالْإِيمَانَمِنقَبْلِهِمْيُحِبُّونَمَنْهَاجَرَإِلَيْهِمْوَلَايَجِدُونَفِيصُدُورِهِمْحَاجَةًمِّمَّاأُوتُواوَيُؤْثِرُونَعَلَىأَنفُسِهِمْوَلَوْكَانَبِهِمْخَصَاصَةٌوَمَنيُوقَشُحَّنَفْسِهِفَأُوْلَئِكَهُمُالْمُفْلِحُونَ }[548].

وهذه القيمة العالية من الإيثار والسخاء قابلها المهاجرون بقيمة التعفف وتوجهوا إلى العمل الشريف في كل الميادين [549]. وقد تشرفت هذه الأخوة بجعل الرسول نفسه من جملة أفرادها، ففي الحديث :" لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبي بكر "[550] وكما هو جلي فإن الأخوة رباط بين القلوب لا ينفصم، لأنها فوق المطامع والمنافع، لذلك راهن الإسلام عليها في تحقيق انجازاته عبر التاريخ، واستطاع أن يجمع مختلف الشعوب :" بهذه القاعدة تسنىَّ للمسلمين التعارف والتواصل والاتحاد على اختلاف الأمم الداخلة في الإسلام، فلم يحفظ التاريخ لدين ولا دولة ولا دعوة استطاع واحد منها أن يضم إليه مختلف الأمم ويجعلهم أمة واحدة لا يرى بعضهم فارقا بينهم مثل ما للإسلام من ذلك"[551] فالإخاء الكامل امّحت فيه كلمة "أنا" –كما تشهد عليه قصص الرعيل الأول– فالفرد

---

[547]–محمد الطاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص121

[548]– سورة الحشر الآية :9

[549]–ينظر محمد عبد الله الخطيب : خصائص المجتمع المسلم دار الصديقية الجزائر ص 164 /165

[550]– أخرجه البخاري : كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم :"لو كنت متخذا خليلا " الجزء الثالث حديث رقم 3454

[551]–محمد الطاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص 120

كان يحي بروح الجماعة ومصلحتها، وآمالها فلا يرى لنفسه وجودا بغيرها فبلغوا درجة :{ وَيُؤْثِرُونَعَلَىٰأَنفُسِهِمْوَلَوْكَانَبِهِمْخَصَاصَةٌ }[552].

2-قيمة الولاء والنصرة: والنصرة أو كما عبّر عنه القرآن الكريم " الولاء" فقد :" أصبحت رابطة وثيقة بين المسلمين أينما كانوا من الأقطار، وأبطلت بها عصبيات ثلاث كانت من أسباب الجمع والتفريق بين العرب، وغيرهم هي :النسب والحلف والوطن "[553] .

وقيمة الولاء تقتضي مودتهم والإخلاص في محبتهم وتقديم الدعم لهم في مواجهة عدوهم . قال تعالى :{ يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْلاَتَتَّخِذُواْالْكَافِرِينَأَوْلِيَاءمِندُونِالْمُؤْمِنِينَأَتُرِيدُونَأَنتَجْعَلُواْلِلّهِعَلَيْكُمْسُلْطَانًامُّبِيناً }[554]وهذا يعني التفاعل مع المؤمنين إزاء الأحداث المختلفة، وموافقتهم في قضاياهم العادلة، والتعاون معهم في التمكين للخير، ومحاربة الشر. قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَوَالْمُؤْمِنَاتُبَعْضُهُمْأَوْلِيَاءبَعْضٍيَأْمُرُونَبِالْمَعْرُوفِوَيَنْهَوْنَعَنِالْمُنكَرِوَيُقِيمُونَالصَّلاَةَوَيُؤْتُونَالزَّكَاةَوَيُ طِيعُونَاللّهَوَرَسُولَهُأُوْلَئِكَسَيَرْحَمُهُمُاللّهُإِنَّاللّهَعَزِيزٌحَكِيمٌ }[555].وقال تعالى: {وَالَّذِينَكَفَرُواْبَعْضُهُمْأَوْلِيَاءبَعْضٍإِلاَّتَفْعَلُوهُتَكُنفِتْنَةٌفِيالأَرْضِوَفَسَادٌكَبِيرٌ }[556].

ولأهمية هذه القيم في قوة الأمة واستمرارهاوتأكيده على الفضائل التي ترسّخ هذه العلاقة وتنميها، نهى عن الرذائل التي تهدم هذه العلاقة وتدمّرها، فهذه القيم بمثابة صمام الأمان الذي يحفظ لحمة الأمة وقوة المجتمع .ومنها قوله تعالى:

{إِنَّمَاالْمُؤْمِنُونَإِخْوَةٌفَأَصْلِحُوابَيْنَأَخَوَيْكُمْوَاتَّقُواااللَّهَلَعَلَّكُمْتُرْحَمُونَ.يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواالَايَسْخَرْقَومٌمِّنقَوْمٍعَسَىأَنيَكُونُ واخَيْرًامِّنْهُمْوَلَانِسَاءمِّننِّسَاءعَسَىأَنيَكُنَّخَيْرًامِّنْهُنَّوَلَاتَلْمِزُواأَنفُسَكُمْوَلَاتَنَابَزُوابِالْأَلْقَابِبِئْسَالِاسْمُالْفُسُوقُبَعْدَالْإِيمَانِ

---

[552]سورة الحشر الآية :9

[553]-محمد الطاهر بن عاشور : المرجع نفسه.

[554]- سورة النساء الآية :144

[555]- سورة التوبة الآية :71

[556]- سورة الأنفال الآية :73

وَمَنلَّمْيَتُبْفَأُوْلَئِكَهُمُالظَّالِمُونَ.يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوااجْتَنِبُواكَثِيراًمِّنَالظَّنِّإِنَّبَعْضَالظَّنِّإِثْمٌوَلَاتَجَسَّسُواوَلَايَغْتَبَّبَّعْضُكُمبَعْضاًأَيُحِبُّأَحَدُكُمْأَنيَأْكُلَلَحْمَأَخِيهِمَيْتاًفَكَرِهْتُمُوهُوَاتَّقُواااللَّهَإِنَّااللَّهَتَوَّابٌرَّحِيمٌ}[557].

6- قيّم إنسانية : وهذه الدائرة من العلاقات تحكمها قيّم لا تخرج عن القاعدة العامة التي يقوم عليها التصور الإسلامي، حيث لا يسع المتأمل في القرآن والسنة إلا أن يلحظ النزعة الإنسانية البارزة، ذلك أن المجتمع الذي ينظّمه الإسلام يحكم بقواعد عامة تبدو هذه القواعد على مختلف المستويات ومنها العلاقات الإنسانية، حيث تضمنت التنظيم الاجتماعي للأسرة الإنسانية، وتتجلى هذه القواعد في مجموع القيّم التي تنشئ جسور التواصل والتعارف بين بني الإنسان . فهي قائمة على مبدأ التوحيد الذي لا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان، بل يضمّها جميعا في وحدة إنسانية شاملة، انطلاقا من المبادئ التي يعلنها الإسلام التي توضح الأصل الواحد لأبناء البشرية، وقد مثل لذلك مصطفي السباعي فقال :"ومهما تفرق الناس بعد ذلك إلى أمم وقبائل وبلدان وأجناس، فإنما هو كتفرق البيت الواحد والإخوة من أب واحد وأم واحدة وماكان كذلك فسبيل هذا الاختلاف في أجناسهم وبلدانهم أن يؤدي إلى تعاونهم وتعارفهم وتلاقيهم على الخير، ومن ثم انبثق المبدأ الإنساني"[558]. قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَاالنَّاسُإِنَّاخَلَقْنَاكُممِّنذَكَرٍوَأُنثَىوَجَعَلْنَاكُمْشُعُوباًوَقَبَائِلَلِتَعَارَفُواإِنَّأَكْرَمَكُمْعِندَاللَّهِأَتْقَاكُمْإِنَّاللَّهَعَلِيمٌ خَبِيرٌ }[559] .

فأساس العلاقات الدولية التعارف، ومع التعارف يكون التعاون على الخير، فعلى الرغم من اختلاف أمة الإنسانية يجب أن تتلاقى في ناحية التعاون العام. قال الله تعالى: {كَانَالنَّاسُأُمَّةًوَاحِدَةًفَبَعَثَاللّهُ النَّبِيِّينَمُبَشِّرِينَوَمُنذِرِينَوَأَنزَلَمَعَهُمُالْكِتَابَبِالْحَقِّلِيَحْكُمَبَيْنَالنَّاسِفِيمَااخْتَلَفُواْفِيهِوَمَااخْتَلَفَفِيهِإِلاَّالَّذِينَأُوتُوهُمِنبَعْدِمَا

---

[557]- سورة الحجرات الآية :12/11/10

[558]-مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ط سنة 1980 ص 87/86

[559]- سورة الحجرات الآية :13

جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[560] ومن هنا ينشأ التعاون الذي هو أساس الاجتماع الإنساني للمحافظة على الكرامة الإنسانية، والعدالة بكل صورها والمودة بين الشعوب والرحمة بالإنسانية ودفع الفساد في الأرض[561].

لذلك ذكّرت النصوص بالنشأة الأولى للإنسانية حتى توقظ في قلوبهم الشعور بهذه الوشيجة من القربى

والرحمة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }[562] وإن كان الإسلام ميّز في هذه العلاقة وفصّل في طريقة المعاملة بحسب الظروف والملابسات التي تحيط بما ينبغي أن يتخذ من موقف في كل قضية مراعاة للعدالة. ولما كانت الحياة لا تخلو من السلم والحرب، فإن عقيدة التوحيد نشأ عنها من القيم ما يضبط علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في كلا الحالين .ومن هذه القّيم ما يأتي:

أ-القيم الإنسانية في حالة السّلم :

نقلت عقيدة التوحيد العلاقة بين بني الإنسان من أجواء الحقد والكراهية والتفرقة والعصبية إلى أجواء الحب والتسامح والتعاون والمساواة أمام الله، وتأسيسا على ذلك تقوم العلاقة بين المسلمين وغيرهم أساسا على قيم الوفاء بالعهود والمودة والبر والعدل والتعاون على ما فيه خير للإنسانية، فالقيم الإسلامية تبرز أهميتها في كونها وفّرت الظروف الملائمة لقيام حضارة إنسانية رشيدة عندما أقّرت قيّم السلام، والوفاء بالعهود، والتعارف، والتعاون. يقول مقداد يالجن :"إن أهمية التربية الأخلاقية في بناء الحضارة تظهر في خدمتين جليلتين تقوم بهما هذه التربية إزاء الحضارة :أولى تلك الخدمتين حفظها من الانهيار، وثانيتهما دفع عجلة التقدم نحو غاية خيرة " [563].

---

[560]-سورة البقرة الآية :213

[561]-ينظر محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ص 46

[562]- سورة النساء الآية :1

[563]- مقداد يالجن : دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية ص78

ثم يفسر الخدمة الأولى بقوله:"أما فيما يتعلق بحفظ الحضارة فإنه يرجع أساسا إلى أن هذه التربية تزيل أولا روح الشر من النفوس، لأن الشر عامل الهدم في كل المجالات والميادين، وأهم هذه الشرور الظلم، والعدوان، والتسلط على الناس"[564]

ويوضح الخدمة الثانية بقوله :" وأما فيما يتعلق بدور التربية الأخلاقية في تقدم الحضارة والمدنية، فإن هذه التربية عندما تكوّن روح الخير لدى الأفراد، فإن هذه الروح تدفعهم إلى السعي لإقامة مشروعات مختلفة، وابتكارات، واختراعات جديدة لترقية الإنسانية، ولجلب أكبر قدر ممكن من النفع، لأكبر قدر ممكن من الناس"[565] .

ولا شك أن القيّم الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام تسير في هذا السياق ولها جانب نظري من خلال النصوص، ولها جانب تطبيقي جسدته السيرة النبوية وممارسة الخلفاء من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الممارسات الصحيحة في تاريخ الإسلام الموافقة للهدي الإلهي، فمن القيم التي يدعو إليها الإسلام في هذا المجال ما يلي:

1-الوفاء

بالعهود: {وَأَوْفُواْبِعَهْدِاللّهِإِذَاعَاهَدتُّمْوَلاَتَنقُضُواْالأَيْمَانَبَعْدَتَوْكِيدِهَاوَقَدْجَعَلْتُمُاللّهَعَلَيْكُمْكَفِيلاًإِنَّاللّهَيَعْلَمُمَاتَفْعَلُونَ }[566]وهذه القيمة تجسدت بجلاء في وثيقة المدينة المنورة لتنظيم مكوّنات المجتمع، وتجسدت في عهد الحديبية مع قريش على الرغم من ظلمها في فرض شروط المعاهدة .

2-التعايش السّلمي : فالسلام قيمة ينشدها الإسلام مع جميع البشر، فهناك" ثمة ما يربطه مع الديانات الأخرى، بل حتى مع اللادينيين والملحدين الذين يأمل في إصلاحهم بوصفهم أعضاء في مجتمع بشري شامل "[567]قال

564- المرجع نفسه ص78

565-المرجع السابق ص 80

566- سورة النحل الآية :91

567- إسماعيل راجي الفاروقي: أطلس الحضارة ص 282

تعالى: {إِلاَّالَّذِينَيَصِلُونَإِلَىقَوْمٍبَيْنَكُمْوَبَيْنَهُممِّيثَاقٌأَوْجَآؤُوكُمْحَصِرَتْصُدُورُهُمْأَنيُقَاتِلُوكُمْأَوْيُقَاتِلُواْقَوْمَهُمْوَلَوْشَاءاللّهُلَسَلَّطَهُمْعَلَيْكُمْفَلَقَاتَلُوكُمْفَإِنِاعْتَزَلُوكُمْفَلَمْيُقَاتِلُوكُمْوَأَلْقَوْاْإِلَيْكُمُالسَّلَمَفَمَاجَعَلَاللّهُلَكُمْعَلَيْهِمْسَبِيلاً }[568] . وقال تعالى: {سَتَجِدُونَآخَرِينَيُرِيدُونَأَنيَأْمَنُوكُمْوَيَأْمَنُواقَوْمَهُمْكُلَّمَارُدُّوَاْإِلَىالْفِتْنَةِأُرْكِسُواْفِيهَافَإِنلَّمْيَعْتَزِلُوكُمْوَيُلْقُواْإِلَيْكُمُالسَّلَمَوَيَكُفُّوَاْأَيْدِيَهُمْفَخُذُوهُمْوَاقْتُلُوهُمْحَيْثُثَقِفْتُمُوهُمْوَأُوْلَئِكُمْجَعَلْنَالَكُمْعَلَيْهِمْسُلْطَانامُّبِيناً }[569].

3- الحوار :يطلب الإسلام من أتباعه الحوار مع المخالفين، بل يشترط مجادلتهم بالتي هي أحسن أي: في حدود الأدب والحجة والبرهان، فالإسلام يعترف بوجود الآخر أيا كان مذهبه في الحياة، كما يقرّ بالاختلاف في مناهج الحياة. وهذا الاعتراف يكرّس حقيقة وهي أن هناك مشتركا إنسانيا ينبغي مراعاته .فيشير اسماعيل راجي الفاروقي إلى أن "نظرية الوحي الإسلامية هذه تجمع البشر حول مبادئ مشتركة في الدين والأخلاق، فتخرج بهم عن مجالات الخلاف "[570] ويجعل لأهل الكتاب معاملة خاصة باعتبار أنهم من أهل الديانات السماوية، فهناك مشترك يمكن أن يكون قاعدة للحوار والتعايش، وذلك فيما يخص القضايا الفكرية والعقدية، وفي حالة مجادلتهم ينبغي أن تحكم هذه المناقشات قيمة "الإحسان" فلا يجوز السّب والاستهزاء بمعتقداتهم على الرغم من تأكيد القرآن على بطلانها في صورتها المحرفة، وإنما يركّز على جوانب التوافق الأصلية وهي أنها ديانات سماوية "ولا يرى الإسلام نفسه قادما من "فراغ"، بل قادما لتوكيد الحقيقة نفسها التي عرضها جميع السابقين من أنبياء اليهودية والمسيحية "[571]. قال الله تعالى: {وَلَاتُجَادِلُواأَهْلَالْكِتَابِإِلَّابِالَّتِيهِيَأَحْسَنُإِلَّاالَّذِينَظَلَمُوامِنْهُمْوَقُولُوآمَنَّابِالَّذِيأُنزِلَإِلَيْنَاوَأُنزِلَإِلَيْكُمْوَإِلَهُنَاوَإِلَهُكُمْوَاحِدٌوَنَحْنُلَهُمُسْلِمُونَ }[572] وهذا الاعتراف بالديانتين يفرض على المسلمين مخاطبة اليهود والنصارى بهذا

568- سورة النساء الآية :9

569- سورة النساء الآية :91

570-المرجع السابق ص281

571-اسماعيل راجي الفاروقي :أطلس الحضارة ص 279

572- سورة العنكبوت الآية :46

الأسلوب المتسامح، فقد أعطاهما أقصى ما يمكن من الاهتمام والاحترام. قال تعالى: {قُلْيَاأَهْلَالْكِتَابِتَعَالَوْاْإِلَىكَلَمَةٍسَوَاءٍبَيْنَنَاوَبَيْنَكُمْأَلاَّنَعْبُدَإِلاَّاللّهَوَلاَنُشْرِكَبِهِشَيْئاًوَلاَيَتَّخِذَبَعْضُنَابَعْضاًأَرْبَاباًمِّندُو نِاللّهِفَإِنتَوَلَّوْاْفَقُولُواْاشْهَدُواْبِأَنَّامُسْلِمُونَ }[573] .

هذا الفهم الصحيح لعلاقة الإسلام بأهل الكتاب جعل اليهود يعاملون تلقائيا بوصفهم مواطنين شرعيين في الدولة الإسلامية. يقول إسماعيل راجي الفاروقي :" وللمرة الأولى في التاريخ منذ السبي البابلي عام (586ق م)استطاع اليهودي، بوصفه مواطنا في الدولة الإسلامية، أن ينظم حياته حسب تعاليم التوراة، ويفعل ذلك بشكل مشروع تدعمه القوانين العامة في الدولة التي يقيم فيها .وللمرة الأولى تضع دولة غير يهودية سلطتها في خدمة محكمة الأحبار .وللمرة الأولى تتحمل الدولة مسؤولية الحفاظ على اليهودية وتعلن نفسها مستعدة للدفاع عن يهودية اليهود ضد أعداء اليهودية سواء كانوا من اليهود أو من غيرهم:"[574] وإن قيمة التسامح التي يؤكد عليها الإسلام نابعة من مبادئه الكلية منها :

أ- أن الأديان السماوية لها مصدر واحد، وتستقي من معين واحد قال تعالى: {شَرَعَلَكُممِّنَالدِّينِمَاوَصَّىبِهِنُوحاًوَالَّذِيأَوْحَيْنَاإِلَيْكَوَمَاوَصَّيْنَابِهِإِبْرَاهِيمَوَمُوسَوَعِيسَىأَنْأَقِيمُواالدِّينَوَلَاتَتَفَرَّقُوافِيهِ كَبُرَعَلَىالْمُشْرِكِينَمَاتَدْعُوهُمْإِلَيْهِاللَّهُيَجْتَبِيإِلَيْهِمَنيَشَاءُوَيَهْدِيإِلَيْهِمَنيُنِيبُ }[575].

ب . أن الأنبياء كلهم إخوة لا تفاضل بينهم في الرسالة، وأن على المسلمين أن يؤمنوا بهم جميعا قال تعالى: {قُولُوٓاْآمَنَّابِاللّهِوَمَاأُنزِلَإِلَيْنَاوَمَاأُنزِلَإِلَىإِبْرَاهِيمَوَإِسْمَاعِيلَوَإِسْحَاقَوَيَعْقُوبَوَالأَسْبَاطِوَمَاأُوتِيَمُوسَىوَعِيسَىوَمَاأُو تِيَالنَّبِيُّونَمِنرَّبِّهِمْلاَنُفَرِّقُبَيْنَأَحَدٍمِّنْهُمْوَنَحْنُلَهُمُسْلِمُونَ }[576].

---

[573]- سورة آل عمران الآية :64

[574]-المرجع السابق ص284

[575]- سورة الشورى الآية :13

[576]-سورة البقرة الآية :136

ج- أن العقيدة لا يجوز الإكراه فيها، بل لا بد من القناعة والرضا قال تعالى : {لاَإِكْرَاهَفِيالدِّينِقَدتَّبَيَّنَالرُّشْدُمِنَالْغَيِّفَمَنْيَكْفُرْبِالطَّاغُوتِوَيُؤْمِنبِاللّهِفَقَدِاسْتَمْسَكَبِالْعُرْوَةِالْوُثْقَىلاَانفِصَامَلَهَاوَاللّهُ سَمِيعٌعَلِيمٌ }[577].

د- أن أماكن العبادة للديانات محترمة، ويجب الدفاع عنها وحمايتها كحماية مساجد المسلمين قال تعالى

: {الَّذِينَأُخْرِجُوامِندِيَارِهِمْبِغَيْرِحَقٍّإِلَّاأَنيَقُولُواربُّنَااللَّهُوَلَوْلَادَفْعُاللَّهِالنَّاسَبَعْضَهُمببَعْضٍلَّهُدِّمَتْصَوَامِعُوَبِيَعٌوَصَلَوَاتٌوَمَسَاجِدُيُذْكَرُفِيهَااسْمُاللَّهِكَثِيراًوَلَيَنصُرَنَّاللَّهُمَنيَنصُرُهُإِنَّاللَّهَلَقَوِيٌّعَزِيزٌ }[578]

هـ – أن الاختلاف بين الناس في الأديان لا ينبغي أن يدفعهم لقتال بعضهم بعضا، بل يجب التعاون على فعل الخير، ومحاربة الشر. قال الله تعالى : {وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوَىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِوَاتَّقُواْاللّهَإِنَّاللّهَشَدِيدُالْعِقَابِ }[579] أما الفصل بينهم فيما يختلفون فيه فحكمه إلى الله يوم القيامة بدليل اعتراف القرآن بوجود هذه الديانات .

و-أن التفاضل بين الناس في الحياة الدنيا، يكون بمقدار ما يقدم كل إنسان من خير وبر وعمل صالح. قال الله تعالى :{إِنَّأَكْرَمَكُمْعِندَاللَّهِأَتْقَاكُمْإِنَّاللَّهَعَلِيمٌخَبِيرٌ }[580].

ي-أن الاختلاف بين الأديان لا ينبغي أن يحول دون البر والصلة . قال الله تعالى : {الْيَوْمَأُحِلَّلَكُمُالطَّيِّبَاتُوَطَعَامُالَّذِينَأُوتُواْالْكِتَابَحِلٌّلَّكُمْوَطَعَامُكُمْحِلٌّلَّهُمْوَالْمُحْصَنَاتُمِنَالْمُؤْمِنَاتِوَالْمُحْصَنَاتُمِنَالَّذِينَ أُوتُواْالْكِتَابَمِنقَبْلِكُمْإِذَاآتَيْتُمُوهُنَّأُجُورَهُنَّمُحْصِنِينَغَيْرَمُسَافِحِينَوَلاَمُتَّخِذِيأَخْدَانٍوَمَنيَكْفُرْبِالإِيمَانِفَقَدْحَبِطَعَمَلُهُوَهُ وَفِيالآخِرَةِمِنَالْخَاسِرِينَ }[581].وقال تعالى

---

[577]- سورة البقرة الآية : 256

[578]- سورة الحج الآية:40

[579]- سورة المائدة الآية :2

[580]-سورة الحجرات الآية :13

[581]- سورة المائدة الآية :5

{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[582].

ب- القيم الإنسانية في حالة الحرب:تقوم العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس من المودةحيث تقرر عقيدة التوحيد مجموعة أساسية من القيم في معاملة الآخر في حالة الخلاف والحرب منها:

1-العدل مع الخصوم في جميع الحالات وعدم غمطهم حقوقهم. قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[583].

2-رد العدوان بالمثل ومن غير إفراط. قال تعالى: {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[584].

3-التعامل الأخلاقي مع أسرى الحرب. قال الله تعالى :{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}[585].

4-عدم خيانة العهود. قال الله تعالى: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}[586].

5-قبول الحماية والأمان لمن طلبه .قال تعالى :{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}[587].

---

[582]-سورة الممتحنة الآية : 8

[583]- سورة المائدة الآية :8

[584] - سورة البقرة الآية :194

[585]- سورة الإنسان الآية :8

[586]- سورة الأنفال الآية :58

[587]- سورة التوبة الآية :6

الفرع الخامس: القيم الاقتصادية والمالية :

1-مفهوم الاقتصاد والمال:

أ-الاقتصاد :اسم علم والذي يُبحث فيه عن وسائل توفير المال الدائر في الأمة بأحسن ما يستطاع لئلا تكون الأمة أو بعضها في خصاصة عيش[588] .

ب**-أما المال** : فهو كل ما به غنى صاحبه في تحصيل ما ينفع لإقامة شؤون الحياة[589] .

وأما القيم الاقتصادية والمالية: فهي مجموع المعايير التي دعا إليها الإسلام للتعامل مع الثروة من حيث طرقكسب المال، وتملكه، وتنميته، والحفاظ عليه، والحقوق المتعلقة به .

فالإسلام له رؤيته الخاصة لموضوع المال تنبع هذه الرؤيا من عقيدة التوحيد، وبالضبط من قضية ابتلاء الله تعالى للإنسان بنعمة المال. فالمال قيمة مهمة في الحياة، فهو شريانها، لأن به قوام مصالح الأمة وطمأنينة عيشها، كما به قوام مصالح الأفراد وطمأنينتهم.

ومن ثم وضع الإسلام من الأحكام الشرعية والتوجيهات الأخلاقية ما يعين الإنسان في هذا الابتلاء، ويوضح له الطرق المرضية في التعامل مع المال، وليمكنه من التوفيق بين النزعة الفردية في التملك والوظيفة الاجتماعية للمال من خلال التأكيد على الحقوق المختلفة فيه .

2-علاقة الاقتصاد والمال بالقيم :

من المتفق عليه بين الفلاسفة والمفكرين أن الفكر لا ينبع من فراغ،ولا شك أن الفكر الاقتصادي في الإسلام يستند إلى الوحي الكريم، حيث يرتكز التحليل الاقتصادي على القواعد والضوابط التي حددتها الشريعة في هذا الباب،فالمنظومة الإسلامية متكاملة ومتناسقة فلا تنازع في أنه لا اقتصاد من دون قيم وأخلاق، وهذا نلحظه من خلال الربط الصريح بين الحديث عن الشؤون الاقتصادية والقيم

---

[588]-محمد الطاهر بن عاشور :أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص 198

[589]- المرجع نفسه

الإيمانية والأخلاقية منذ الوهلة الأولى لنزول الوحي، فكانت الإشارة في سورة العلق إلى أن الطغيان بسبب الغنى يرجع إلى نسيان الآخرة، وهو نفس ما تكرر في سورة البيّنة،حيث تأتي الإشارة إلى القيم الإسلامية، وعلى رأسها القيم العقدية كقوله تعالى:{أَرَأَيْتَالَّذِييُكَذِّبُبِالدِّينِ. فَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَ }[590] وفيها إشارة عظيمة إلى قضية إعادة توزيع الثروة بين أفراد المجتمع، وضرورة إعطاء اليتيم والمحتاج ما يعينه على نوائب الدهر، وعدم المساس بأمواله. وأن التلاعب بها أو الاعتداء عليها يلحقه الوعيد الإلهي. كما تشير قصة قارون الذي كان يملك المال الوفير، غير أنه استخدمه استخداما ذمه الشرع عليه، كما وضع التوجيهات العامة للتعامل مع الثروة قلت أم كثرت . فالمال الذي طغى قارون بسببه جعله محاطا بضوابط تبيّن الطرق المشروعة للحصول عليه وقواعد حفظه وكيفية إنفاقه باعتبار أن الاقتصاد تفريع عن قيمة التوحيد.

ومن هنا فالاقتصاد في الإسلام "اقتصاد قيمي" فهو نظام جاءت صورته الكلية متضمنة الأسس الهادية، والقواعد الحاكمة، والتوجيهات الأساسية الضابطة، كما نصّ الشرع على بعض الفروع ذات الأهمية الخاصة، أما الصورة التفصيلية التي تشمل الفروع والجزئيات والتطبيقات المتنوعة، فلم يتطرق إليها القرآن ليترك مجالا للعقل المسلم كي يجتهد في الصوّر المختلفة ضمن الضوابط المنصوص عليها، ليجعل من الإسلام دينا واقعيا لكون هذه الصوّر غير متناهية من الوجهة التطبيقية بسبب تطور الحياة الإنسانية وتنوع أشكال المعاملة، ومن هنا كانت الأحكام المتعلقة بالاقتصاد منها الثابت ومنها المتغير:

فأما الثابت : فيتعلق بالمسائل المحكمة التي لا مجال فيها للاجتهاد "فهي تمثل الوحدة الفكرية والشعورية للأمة، وتجعل منها أمة واحدة في الاتجاه والغاية والفكرة والممارسة .وتمثل الجانب التصوري لموضوع الثروة، فالملكية الفردية، والميراث، وتفاضل الناس في الأرزاق، وفرض الزكاة لمستحقيها، وإيجاب الإنفاق في سبيل الله، وتحريم التبذير والتقتير والترف، وحظر الربا والاحتكار واستغلال النفوذ، والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل،...والضرب على أيدي السفهاء والمبذرين .كل أولئك

590– سورة الماعون الآية :1/2

أمور محكمة ثابتة بثبات الحياة الإنسانية، وهي الركائز التي تمسكها أن تميد أو تتأرجح [591]. فما دام في الإنسان عناصر ثابتة منذ خلق الله الإنسان فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون من المصلحة الثبات في بعض الجوانب التشريعية والتوجيهية .

وأما **جوانب التّغيّر**: فهي خاضعة لتطور عالم الوسائل والأساليب والآليات، وهي مجال للاجتهاد والنظر من قبل أهل الاختصاص والفتوى، لأن الله تعالى لم يشأ أن يضيّق على عباده فيها، هي التي تدع الباب مفتوحا أمام تجارب البشر ومحاولتهم للانطلاق والتّقدم في حراسة العقيدة .وفي ضوء التعاليم الثابتة الأخرى، ومنها ما يتعلق باستغلال الأرض الزراعية وما يفرضه أولو الأمر من ضرائب، ومتى يجوز للدولة التدخل في الشؤون الاقتصادية "كل هذه الأمور وأمثالها لم يحدد فيه الإسلام رأيا صريحا قاطعا، يبيّن كل جزئية، ويجيب عن كل سؤال ويقطع على الناس سبيل التجديد والاجتهاد" [592]

ومن هنا نجد أن الإسلام يضبط السلوك الاقتصادي وموضوع الكسب بالقيم الحارسة للمبادئ حتى لا يضل الإنسان ويخرج بحبه للمال عن السلوك السوي المتفق مع تعاليم الشريعة وتوجيهاتها، فحب المال غريزة وليست غاية.

3- مبادئ الاقتصادي في الإسلام وقيّمه :

قبل الخوض في بيان هذه القيم يجدر بنا الوقوف على المبادئ التي ينطلق منها الإسلام في نظرته للمال وطريقة التعامل مع هذه القيم حتى يجنّب المجتمع حالة الصراع الطبقي التي لا تخفى مآسيها على كل قارئ للتاريخ القديم والمعاصر:

أ- مبادئ الإسلام في الاقتصاد :ترتكز فلسفة الإسلام في موضوع المال على المبادئ التالية:

---

[591]- ينظر يوسف القرضاوي : دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي مكتبة وهبة القاهرةط1 سنة 1995 ص 19

[592]- المرجع نفسه ص 20

1-أن المال مال الله: تقوم نظرة الإسلام إلى المال على هذا المبدأ باعتبار أن "المال الذي في أيدينا هو ملكنا على التجوز لا على الحقيقة "[593]. قال الله تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِالَّذِينَلَايَجِدُونَنِكَاحاًحَتَّىيُغْنِيَهُمُاللَّهُمِنفَضْلِهِوَالَّذِينَيَبْتَغُونَالْكِتَابَمِمَّامَلَكَتْأَيْمَانُكُمْفَكَاتِبُوهُمْإِنْعَلِمْتُمْفِيهِمْخَيْراًوَآتُوهُممِّنمَّالِاللَّهِالَّذِيآتَاكُمْوَلَاتُكْرِهُوافَتَيَاتِكُمْعَلَىالْبِغَاءإِنْأَرَدْنَتَحَصُّناًلِّتَبْتَغُواعَرَضَالْحَيَاةِالدُّنْيَاوَمَنيُكْرِههُّنَّفَإِنَّاللَّهَمِنبَعْدِإِكْرَاهِهِنَّغَفُورٌرَّحِيمٌ }[594].

فمايكسبه الإنسان من شتى الأموال(عقارات، أو منقولات، أو حيوانات، أو معادن) هي في الحقيقة جزء من ملك الله، لأن الله هو الخالق وهذا يقتضي أن الخالق هو المالك. قال الله تعالى: {وَلِلّهِمُلْكُالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَمَابَيْنَهُمَايَخْلُقُمَايَشَاءُوَاللّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ }[595] وقال تعالى :{لِلّهِمُلْكُالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَمَافِيهِنَّوَهُوَعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ }[596] وقال تعالى : { وَلَمْيَكُنلَّهُشَرِيكٌفِيالْمُلْكِ }[597] فالآيات تدل بوضوح أن كل صغير وكبير في هذا الكون هو ملك لله تعالى.

2- أن الناس مستخلفين في هذا المال وكلاء فيه أمناء عليه : أي أن الله تعالى سلط الإنسان على هذا الكون، وهيأ له أسباب استثماره واستغلاله، وابتلاه لينظر ماذا يعمل فيه .قال الله تعالى: {أَلَمْتَرَوْاأَنَّاللَّهَسَخَّرَلَكُممَّافِيالسَّمَاوَاتِوَمَافِيالْأَرْضِوَأَسْبَغَعَلَيْكُمْنِعَمَهُظَاهِرَةًوَبَاطِنَةًوَمِنَالنَّاسِمَنيُجَادِلُفِياللَّهِبِغَيْرِعِلْمٍوَلَاهُدًىوَلَاكِتَابٍمُّنِيرٍ }[598] ليبلغ بذلك القدرة على ممارسة مهمة الخلافة في الأرض التي تقوم على الابتلاء بالخير والشر والغنى والفقر. قال الله تعالى: {وَهُوَالَّذِيجَعَلَكُمْخَلاَئِفَالأَرْضِوَرَفَعَبَعْضَكُمْفَوْقَبَعْضٍدَرَجَاتٍلِّيَبْلُوَكُمْفِيمَاآتَاكُمْإِنَّرَبَّكَسَرِيعُالْعِقَابِوَإِنَّهُلَغَفُورٌرَّحِيمٌ }[599] وليس محاسبة أصحاب الأموال على تصرفاتهم في مالهم في الآخرة فحسب .حيث يُسأل

---

[593]-محمد الغزالي : الإسلام والأوضاع الاقتصادية مكتبة رحاب الجزائر ط7 ص145

[594]- سورة النور الآية :33

[595]- سورة المائدة الآية :17

[596]- سورة المائدة الآية : 120

[597]- سورة الإسراء الآية :111

[598]- سورة لقمان الآية :20

[599]- سورة الأنعام الآية: 165

صاحب المال عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، ولكن المفهوم من مبادئ الإسلام، ومن تصرفات خلفائه الراشدين غير هذا.فتصرفات السفهاء في أموالهم وضع لها الحجر على حرياتهم الشخصية.وهذا مبدأ تستطيع الدول أن تتوسع فيه [600].

ومن هنا فالمال كله لله وأن البشر لا يملكون منه إلا حق الانتفاع .قال الله تعالى :{آمِنُوابِاللَّهِوَرَسُولِهِوَأَنفِقُوامِمَّاجَعَلَكُممُّسْتَخْلَفِينَفِيهِفَالَّذِينَآمَنُوامِنكُمْوَأَنفَقُوالَهُمْأَجْرٌكَبِيرٌ }[601]وإضافة المال للبشر لا تفيد أن البشر ملكوا المال، وإنما تفيد أنهم ملكوا حق الانتفاع به .

3- أن الله هو الذي يبيّن طريقة التّعامل مع المال بحيث لم يترك للناس الخيار المطلق في الإنفاق، بل حدد لمن يعطى وحددت السنة كم يعطى في باب الواجبات وتركت التطوع مجال للتنافس وقوة الإيمان. قال الله تعالى: {إِنَّمَاالصَّدَقَاتُلِلْفُقَرَاءِوَالْمَسَاكِينِوَالْعَامِلِينَعَلَيْهَاوَالْمُؤَلَّفَةِقُلُوبُهُمْوَفِيالرِّقَابِوَالْغَارِمِينَوَفِيسَبِيلِاللَّهِوَابْنِالسَّبِيلِفَرِيضَةًمِّنَاللَّهِوَاللَّهُعَلِيمٌحَكِيمٌ }[602].

4-أن للفرد حق الانتفاع بالمال:فالإسلام يبيح للفرد الاستمتاع بالثروة التي بين يديه ويحثه للتوسعة على الأهل والمشاركة في فعل الخير من غير إسراف. قال تعالى:{وَلاَتُسْرِفُوْاْإِنَّهُلاَيُحِبُّالْمُسْرِفِينَ}[603]ولا تبذير. قال تعالى:{وَلاَتُبَذِّرْتَبْذِيراً}[604] ومن غير بخل ولا تقتير. قال تعالى :{وَلاَيَحْسَبَنَّالَّذِينَيَبْخَلُونَبِمَاآتَاهُمُاللَّهُمِنفَضْلِهِهُوَخَيْراًلَّهُمْبَلْهُوَشَرٌّلَّهُمْسَيُطَوَّقُونَمَابَخِلُواْبِهِيَوْمَالْقِيَامَةِوَلِلَّهِمِيرَاثُالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَاللَّهُبِمَاتَعْمَلُونَخَبِيرٌ }[605] وإنما يدعوه إلى الاعتدال في جميع الأحوال

---

[600]- ينظر محمد الغزالي : الإسلام والأوضاع الاقتصاديةص145

[601]-سورة الحديد الآية :7

[602]- سورة التوبة الآية :60

[603]- سورة الأعراف الآية: 31

[604]- سورة الإسراء الآية :26

[605]-سورة آل عمران الآية :180

:{وَالَّذِينَإِذَاأَنفَقُوالَمْيُسْرِفُواوَلَمْيَقْتُرُواوَكَانَبَيْنَذَلِكَقَوَاماً }[606] ويجعل هذا المسلك هو منهج عباد الرحمن الذين أحسنوا التعامل مع المال،فنالوا درجة القرب من الله تعالى .

5-أن للمال وظيفة اجتماعية بالتكافل والتعاون، ووظيفة حضارية بنصرة الحق وتمويل المشاريع الخيرية قال تعالى:{الَّذِينَيُنفِقُونَفِيالسَّرَّاءوَالضَّرَّاءوَالْكَاظِمِينَالْغَيْظَوَالْعَافِينَعَنِالنَّاسِوَاللَّهُيُحِبُّالْمُحْسِنِينَ }[607]

6-أن المال قوام الحياة :قال الله تعالى :"{وَلاَتُؤْتُواْالسُّفَهَاءأَمْوَالَكُمُالَّتِيجَعَلَاللَّهُلَكُمْقِيَاماًوَارْزُقُوهُمْفِيهَاوَاكْسُوهُمْوَقُولُواْلَهُمْقَوْلاًمَّعْرُوفاً }[608] .

7-أن امتلاك الثروة وإدارتها في المجتمع عبادة جليلة لذلك مجد كل حرفة وعمل شريف زراعة وصناعة وضرب الأمثلة بالمرسلين باعتبارهم القدوة الحسنة في ذلك قال الله تعالى :{ وَآخَرُونَيَضْرِبُونَفِيالْأَرْضِيَبْتَغُونَمِنفَضْلِاللَّهِوَآخَرُونَيُقَاتِلُونَفِيسَبِيلِاللَّهِفَاقْرَؤُواماتَيَسَّرَمِنْهُوَأَقِيمُواالصَّلَاةَوَآتُواالزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوااللَّهَقَرْضاًحَسَناًوَمَاتُقَدِّمُوالِأَنفُسِكُممِّنْخَيْرٍتَجِدُوهُعِندَاللَّهِهُوَخَيْراًوَأَعْظَمَأَجْراًوَاسْتَغْفِرُواللَّهَإِنَّاللَّهَغَفُورٌرَّحِيمٌ }[609]. فقد أدرج الله تعالى الجهود المبذولة للضرب في الأرض في الزراعة والتجارة وسائر الأعمال التي لا تصلح حياة الناس إلا بها مع الفرائض العبادية والجهاد في سبيل الله .

8-وجوب المحافظة على المال وذلك عن طريق مجموعة من التشريعات منها الحجر على السفهاء وتحريم الترف والتبذير وحرمة السرقة والأمر بكتابة الدية ووضع الحدود قال الله تعالى:{وَالسَّارِقُوَالسَّارِقَةُفَاقْطَعُواْأَيْدِيَهُمَاجَزَاءِبِمَاكَسَبَانَكَالاًمِّنَاللّهِوَاللّهُعَزِيزٌحَكِيمٌ }[610]

9-أن الفرد له الحق في امتلاك الثروة لكن ليس له الحق في اكتنازها قال الله تعالى :{...وَالَّذِينَيَكْنِزُونَالذَّهَبَوَالْفِضَّةَوَلاَيُنفِقُونَهَافِيسَبِيلِاللّهِفَبَشِّرْهُمبِعَذَابٍأَلِيمٍ }[611]، بل يجب استثمار المال

606-سورة الفرقان الآية : 67

607- سورة آل عمران الآية :134

608- سورة النساء الآية :5

609 - سورة المزمل الآية : 20

610 - سورة المائدة الآية :38

وتحريكه، فأقام الإسلام نظامه الاقتصادي على إقرار الملكية الفردية لما فيها من إشباع الدافع الغريزي في نفس الإنسان ولما تثمره من الشعور بالسيادة والتحفيز على العمل، ولكنه وضع للملكية أسبابا لاكتسابها وقيودا لتنميتها وحقوقا دورية وغير دورية فيها وهو بهذا يراعي الجوانب الفطرية والمحفزة ويقي الفرد من شرور الملكية الفردية التي تدفع إلى الطغيان والترف، فجعل لها وظيفة اجتماعية من جهة وقضى على أضرارها بتحويلها إلى ملكيات صغيرة عن طريق الميراث، كما يفوض الدولة التدخل في بعض الحالات:

-مراقبة الشؤون الاقتصادية.

-حماية المصالح العامة.

-تحقيق الضمان الاجتماعي.

-مسؤولية الدولة في حماية المال العام .

10-أن للعاجزين والمحرومين الحق في ثروات المجتمع المسئول عن حفظ الضرورات.

11-أن يوفر لكل فرد عمل يكتسب منه رزقه وتشجيعه على إنتاج ما يفيض عنه للمساهمة في بناء المجتمع.

12-يقوم النظام الاقتصادي على أخلاق أساسية في المعاملة منها : التقوى، الصدق، الأمانة المسامحة، الاعتدال في الربح، العفة ... وغيرها من القيم الإسلامية الأساسية في مجال المعاملات، فمنها ما جاء الحديث عنها صريحا في سياق بعض المعاملات، ومنها ما جاء في سياق القواعد الأخلاقية العامة، ذلك أن المنظومة الأخلاقية في الإسلام تتسم بالشمولية، والتكامل . ويمكن توضيح ذلك كالتالي :

أ-فالتقوى، والإخلاص، والمشروعية قيم منصوص عليها في مواطن متنوعة :

611- سورة التوبة الآية : 34

فالتقوى كما في قوله تعالى في آية كتابة الدين : {وَإِنكُنتُمْعَلَىسَفَرٍوَلَمْتَجِدُواْكَاتِباًفَرِهَانٌمَّقْبُوضَةٌفَإِنْأَمِنَبَعْضُكُمبَعْضاًفَلْيُؤَدِّالَّذِياؤْتُمِنَأَمَانَتَهُوَلْيَتَّقِاللّهَرَبَّهُوَلاَتَكْتُمُواْالشَّهَادَةَوَمَنيَكْتُمْهَافَإِنَّهُآثِمٌقَلْبُهُوَاللّهُبِمَاتَعْمَلُونَعَلِيمٌ }[612].

والإخلاص في قوله تعالى {قُلْإِنَّصَلاَتِيوَنُسُكِيوَمَحْيَايَوَمَمَاتِيلِلّهِرَبِّالْعَالَمِينَ }[613] .

والمشروعية في قوله تعالى :{ثُمَّجَعَلْنَاكَعَلَىشَرِيعَةٍمِّنَالأَمْرِفَاتَّبِعْهَاوَلاَتَتَّبِعْأَهْوَاءالَّذِينَلاَيَعْلَمُونَ}[614] وهذا من شأنه أن يضبط العلاقة مع الله تعالى، فيدفع المسلم إلى مراعاة كل هذه الاعتبارات الإيمانية والسلوكية فتنمي رقابة الله في المعاملة الاقتصادية.

ب-قيم الإسلام في باب الاقتصاد والمال :تحكم الحياة الاقتصادية والمالية مجموعة من القيم التي تعد ضوابط أخلاقية أساسية في النشاط الاقتصادي فقيّم الوفاء، والعدل، والصدق، والأمانة، قيم مركزية تؤدي إلى حفظ الحقوق، وتفرض الموضوعية في المعاملة الاقتصادية، وقد نصّ عليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة :

- فقد جاء في حفظ الأمانة قوله تعالى: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواأَوْفُواْبِالْعُقُودِأُحِلَّتْلَكُمبَهِيمَةُالأَنْعَامِإِلاَّمَايُتْلَىعَلَيْكُمْغَيْرَمُحِلِّيالصَّيْدِوَأَنتُمْحُرُمٌإِنَّاللّهَيَحْكُمُمَايُرِيدُ }[615].

- وجاء في وجوب إقامة العدل قوله تعالى: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْإِذَاتَدَايَنتُمبِدَيْنٍإِلَىأَجَلٍمُّسَمًّىفَاكْتُبُوهُوَلْيَكْتُببَّيْنَكُمْكَاتِبٌبِالْعَدْلِ.. }[616] .

- وفي ضرورة الصدق جاء قوله تعالى :{يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللّهَوَكُونُواْمَعَالصَّادِقِينَ }[617].

---

[612]- سورة البقرة الآية :283

[613]- سورة الأنعام الآية :162

[614]- سورة الجاثية الآية :18

[615]- سورة المائدة الآية :1

[616]- سورة البقرة الآية :282

ثم نبه على وجوب حفظ الأمانات أيا كان نوعها فقال تعالى: {إِنَّاللّهَيَأْمُرُكُمْأَنتُؤدُّواْالأَمَانَاتِإِلَىأَهْلِهَاوَإِذَاحَكَمْتُمبَيْنَالنَّاسِأَنتَحْكُمُواْبِالْعَدْلِإِنَّاللّهَنِعِمَّايَعِظُكُمبِهِإِنَّاللّهَ كَانَسَمِيعاًبَصِيراً }[618] ومن ضمن الأمانات المعاملات المالية، والاقتصادية، حيث لا تخلو من واحدة من هذه القيم التي تكون حارسا لضمير الإنسان .

-وأما السماحة والتعاون: فهي قيم يقتضيها التيسير في المعاملات، فيكون إنظار المعسر، والعفو عن أخطاء العامل أمرا مطلوبا على كل حال، وقد نص عليها القرآن في غير موضع ورغب في ذلك فقال تعالى: {وَإِنكَانَذُوعُسْرَةٍفَنَظِرَةٌإِلَىمَيْسَرَةٍوَأَنتَصَدَّقُواْخَيْرٌلَّكُمْإِنكُنتُمْتَعْلَمُونَ }[619] وقوله تعالى: {وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوَىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِوَاتَّقُواْاللّهَإِنَّاللّهَشَدِيدُالْعِقَابِ}[620].

الفرع السادس : القيم السياسية

1-تعريف السياسة في اللغة : مصدر من ساس يسوس بمعنى دبر وأمر ونهى، يقال سست الرعية إذا أمرتها ونهيتها [621].وساس الدابة إذا قام عليها وراضها، وفلان مجرّب قد ساس وسيس عليه إذا أدب وأُدب ...وسُوّس فلان أمر الناس :صيّر ملكا [622]. والسوس: الرئاسة، وساسهم إذا رأسهم وساس الأمر سياسة إذا قام به .

وفي الحديث :" كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم " أي تتولى أمرهم، كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية. والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه[623]، ذلك أن الأصل في الملك أن يدبّر شؤون الناس ويصلحها. فمدار كلمة السياسة في اللغة حول ولاية شؤون الرعية بإصلاحها وتدبير أمورها.

---

[617]- سورة التوبة الآية :119

[618]- سورة النساء الآية :58

[619]- سورة البقرة الآية: 280

[620]- سورة المائدة الآية : 2

[621]-الفيروز آبادي : القاموس المحيط ص 575

[622] المرجع نفسه

[623]- لسان العرب مادة :"سوس" المجلد الثالث ص 2149.

وجاء في المعجم الفلسفي:"السياسة مصدر ساس، وهي تنظيم أمور الدولة وتدبير شؤونها، وقد تكون شرعية أو تكون مدنية، فإذا كانت شرعية كانت أحكامها مستمدة من الدين.وإذا كانت مدنية كانت قسما من الحكمة العملية، وهي الحكمة السياسية أو علم السياسية" [624]

ويضيف موضحا علم السياسة فيقول "وموضوع علم السياسة عند قدماء الفلاسفة هو البحث في أنواع الدول والحكومات وعلاقتها بعضها ببعض"[625].

كما يفرق بين السياسة النظرية والسياسة العملية بقوله::" أن الأولى تعنى بدراسة الظواهر السياسية المتعلقة بأحوال الدول والحكومات ...على حين أن الثانية تعنى بأساليب ممارسة الحكم في الدولة لرعاية مصالح الناس وتدبير شؤونهم وأحوالهم"[626]

ويطلق لفظ سياسي على نوعين من الرجال: أحدهما : رجل الدولةhomme d Etat)(وهو الذي يقيم الحكم على سنن العدل، والاستقامة. والثاني: رجل الحكم الماهر في الانتفاع بالظروف المحيطة به لتحقيق مآربه السياسية "[627]

ويُفهم من هذا أن هناك من الأفراد من يمارسون السياسة وفق منهج الحق، وضمن ضوابطوقيم، ويلتزمون بأخلاق العدل، والاستقامة، ومنهم من لا تحكمه أي ضوابط في ممارسته، وإنما ينتهج السلوك الذي يحقق له مآربه بغض النظر عن نوعية هذا السلوك ومشروعيته .

2-تعريف النظام السياسي اصطلاحا: يطلق على النظام السياسي في الإسلام ثلاث مصطلحات، ومعناها واحد وهي: الخلافة،والإمارة،والإمامة الكبرى، وإن كان لفظ الخلافة هو الأكثر استعمالا

624-جميل صليبا : المعجم الفلسفي مجلد2 ص 679

625-المرجع نفسه

626- جميل صليبا : المعجم الفلسفي مجلد 2ص 680

627- المرجع نفسه

للتعبير عن الظاهرة السياسية. ومن بين أشهر التعاريف ما ذكرة الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية حيث قال: "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"[628].

وكما هو واضح من هذه التعاريف أنها بينت المرجعية التي يؤسس عليها النظام السياسي في الإسلام وهو منهاج النبوة، وكذا وظيفة الحاكم في الأمة وهي: "وظيفتان الأولى :إقامته الدين الإسلامي وتنفيذ أحكامه.والثانية : القيام بسياسة الدولة التي رسمها الإسلام" [629]. ومن هنا يشمل النظام السياسي في الإسلام الحديث عن مبادئ نظام الحكم، وقواعده، ومفهوم الدولة، وواجباتها وسياستها الداخلية والخارجية .

3-علاقة القيم السياسية بالتوحيد :

تؤكد عقيدة التوحيد باستمرار أن البشر مخلوقون، وأن الكون مخلوق، كما يشعرهم في الوقت ذاته أن الله تعالى هو المالك الحقيقي للكون، وما فيه ومن فيه، وأنهم مستخلفون في الأرض ليعبدوا الله ويعمّروا الأرض، ولا يمكن للاجتماع الإنساني أن يحقق هذه الغاية من الخلق إلا إذا التزم في ممارساته الحدود التي حدها الله تعالى للمستخلفين المكلفين بإقامة العدل فيها قال الله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[630] بحيث أن حفظ ضروريات الناس وحاجياتهم وتحسينياتهم يتطلب تحقيق العدل والحرية لهم، وهنا يتجلى بوضوح انعكاس عقيدة التوحيد بظلالها على الممارسة السياسية التي لا يتوقع أن تكون هذه الممارسة عادلة وشورية ومحققة للمقاصد إلا إذا كانت محكومة بالقيم الإسلامية العليا، وعلى رأسها قيمة التوحيد.

وليس معنى هذا أن يصبح النظام السياسي جزء من العقيدة، بل المقصود أن تتجلى مقتضيات التوحيد على السلوك السياسي، بحيث يلتزم الحكام والمحكومون بالقيم والمقاصد الإسلامية العليا

---

[628]-أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية مكتبة دار ابن قتيبة الكويت ط1 سنة 1989 ص3

[629]-عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية مؤسسة الرسالة بيروت دون ط ودون سنة ص121

[630]- سورة الأعراف الآية :54

الحاكمة المرتبطة بالنظام السياسي كالعدل والشورى والخضوع لأحكام الشريعة. يقول طه جابر العلواني :" وهذا الذي يحققه التوحيد في قلوب المؤمنين أو ما يسمى بالجماعة السياسية وفي عقولهم وممارساتهم اليومية يتحول إلى رشد جماعي يزكي الأداء الجماعي السياسي ويكرس العلاقات الخيرة بين الجماعة السياسية ...وهذه هي الدعائم الكبرى التي تقوم على أساس منها أو من بدائل متقاربة أية جماعة سياسية متماسكة [631]" وتتجلى قيم عقيد التوحيد في مبادئ نظام الحكم وقواعده .

أ–مبادئ النظام السياسي :

يقوم نظام الحكم على مجموعة المبادئ التي تعد من أهم القيم المرجعية في السياسة الشرعية وهي تمثل الخلفية الفكرية التي توضح فلسفة الإسلام في الحكم والمنطلقات التي تتأسس عليها منظومة الحكم في جانبها التصوري، وتتمثل فيما يأتي :

1–السيادة للشرع : عرف الخالدي السيادة للشرع بقوله :"سلطة عليا مطلقة، لها وحدها حق إصدار الحكم على الأشياء والأفعال "[632] وهذا التعريف يتضمن تحديد مصدر الأحكام الشرعية المتعلقة بالحياة الإنسانية وهو الشرع، ومن ثم فإن نصوص القرآن والسنة تبيّن أن الحاكم هو الله سبحانه وتعالى، وهذا ما ذهب إليه علماء الأصول كالآمدي والأسنوي والشوكاني وابن القيم وغيرهم، فلا مرجعية للمسلمين في معرفة الأحكام إلا الشرع المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وهذه السيادة يعبّر عنها بعض المفكرين الإسلاميين اليوم "بالحاكمية" وتعني أن تكون الشريعة الإسلامية هي المرجع الذي يتحاكم الناس إليه والمصدر الذي يستمدون منه القوانين، وعند أي اختلاف يرد الأمر إلى الله ورسوله، وهذا موضع إجماع عند المسلمين قاطبة .

631–طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمرانص85

632–محمود الخالدي : قواعد نظام الحكم في الإسلام مؤسسة الإسراء الجزائر ط1 سنة 1991 ص24

ويقوم منطلق هذه الرؤية أن الله تعالى هو خالق الإنسان والكون والحياة، ومن ثم فهذه الرؤية الكلية تعني أن الله تعالى هو صاحب السيادة المطلقة في الكون والحياة، لأن الخالق المالك هو الذي من شأنه أن يدبر أمر الإنسان في الكون وفق إرادته المطلقة قال الله تعالى {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[633] وهذا يقتضي أن الإسلام عقيدة، وما كانت العقيدة أن تكون مبدأ إلا لكونها تعبر عن نظام دقيق شامل ينظم كل شأن من شؤون النفس البشرية" وإذا كان الإسلام في حقيقته عقيدة ونظامافإن طبيعته تقتضيه أن يكون حكما، ذلك أن قيام العقيدة يقتضي قيام النظام الذي أعد لخدمتها، ولا يمكن أن يقوم النظام الإسلامي إلا في ظل حكم إسلامي يماشي النظام الإسلامي ويؤازره، إذ أن كل حكم غير إسلامي لا بد أن يؤدي إلى تعطيل النظام الإسلامي ...، وإذا كان قيام النظام الإسلامي يقتضي قيام حكم إسلامي فمعنى ذلك أن الحكم الإسلامي من مقتضيات الإسلام ومن طبيعته"[634] .

فالمنطق يقول أن الصانع أدرى بصنعته من غيره، فهو العالم بخباياها وما يصلحها قال الله تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }[635] وقد أبان هذا الارتباط أبو الأعلى المودودي في حديثه عن الحاكمية حيث أنه وبناء على هذا التصور يقول القرآن أن الحاكم الحقيقي للإنسان هو نفسه حاكم الكون، والفرق الوحيد هو أن حاكمية الله في نظام الكون قائمة بقوته تعالى حتى في الجزء اللاإرادي في حياة الإنسان، أما الجزء الإرادي فيدعوه عن طريق الوحي للتسليم بحاكمية الله تعالى على سبيل الابتلاء[636]. وقد دل على أن السيادة للشرع ما يأتي :

633- سورة الأعراف الآية :54

634-عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية ص79

635-سورة الملك الآية :14

636- ينظر أبو الأعلى المودودي : الخلافة والملك تعريب أحمد إدريس شركة الشهاب الجزائر 1988 ص13

-النصوص التي توجب طاعة الله ورسوله مطلقا. وجاء في ذلك نصوص كثيرة منها قوله تعالى : {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْلِيالأَمْرِمِنكُمْفَإِنتَنَازَعْتُمْفِيشَيْءٍفَرُدُّوهُإِلَىاللّهِوَالرَّسُولِإِنكُنتُمْتُؤْمِنُونَبِاللّهِوَالْيَوْمِالآخِرِذَلِكَخَيْرٌوَأَحْسَنُتَأْوِيلاً }[637].

- وجوب الاحتكام إلى الشرع مطلقا وتحريم ترك القانون الإلهي واتباع غيره من القوانين واعتبارها أهواء، فقد أفادت النصوص هذا الوجوب قال الله تعالى : {ثُمَّجَعَلْنَاكَعَلَىشَرِيعَةٍمِّنَالْأَمْرِفَاتَّبِعْهَاوَلَاتَتَّبِعْأَهْوَاءالَّذِينَلَايَعْلَمُونَ }[638] {فَلاَوَرَبِّكَلاَيُؤْمِنُونَحَتَّىيُحَكِّمُوكَفِيمَاشَجَرَبَيْنَهُمْثُمَّلاَيَجِدُواْفِيأَنفُسِهِمْحَرَجاًمِّمَّاقَضَيْتَوَيُسَلِّمُواْتَسْلِيماً }[639]فالآية تنفي الإيمان بقسم مغلظ عن كل إنسان يرفض الاحتكام إلى الشرع {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْلِيالأَمْرِمِنكُمْفَإِنتَنَازَعْتُمْفِيشَيْءٍفَرُدُّوهُإِلَىاللّهِوَالرَّسُولِإِنكُنتُمْتُؤْمِنُونَبِاللّهِوَالْيَوْمِالآخِرِذَلِكَخَيْرٌوَأَحْسَنُتَأْوِيلاً }[640].يقول سيد قطب :" إن "الحاكمية" لله وحده في حياة البشر ما جل منها وما دق، وما كبر منها وما صغر "[641].

-أن كثيرا من الأحكام الشرعية كالحدود والقصاص لا يمكن تنفيذها إلا بوجود حاكم شرعي ولا جدال في أن تحريم الأفعال واعتبارها جرائم تترتب عنها عقوبات هو من أخص ما تقوم به الدولة، ولو لم يكن الإسلام له السيادة في ذلك لتحوّل الأمر إلى فوضى وهو يناقض طبيعة الإسلام باعتباره دين نظام. يقول عبد القادر عودة:"وأكثر ما جاء به الإسلام لا يدخل تنفيذه في اختصاص الأفراد،

---

[637]- سورة النساء الآية :59

[638]- سورة الجاثية الآية :18

[639]- سورة النساء الآية :65

[640]- سورة النساء الآية :59

[641]-سيد قطب : في ظلال القرآن دار الشروق المجلد 2 ص 690

وإنما هو من اختصاص الحكومات وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته "[642].

2–السلطة للأمة: أي أن الأمة هي مصدر السلطة، فالسلطة عقد يتم بين الأمة والحاكم عن طريق الاختيار والشورى، ويتم ذلك بطريقين :

–الطريق الأول: يتم فيه اختيار أهل الحل والعقد من قبل الأمة .

–الطريق الثاني يتم فيه اختيار الحاكم من قبل أهل الحل والعقد .

ومن هنا يتعهد الحاكم بموجب هذا العقد بخدمة الأمة في سياسة وإدارة أمورها وفق أحكام الشريعة فيما فيه نص، واختيار أقوى الآراء فيما ليس فيه نص .

ب–قواعد النظام السياسي: وهي القواعد العامة التي تبنى عليها سياسة الدولة المسلمة في ممارسة الحكم وتعامل بها الداخل والخارج وتتمثل في:

1–الطاعة :أي الاستجابة لأمر الحاكم الذي توفرت فيه شروط القيادة الصالحة، والطاعة للحاكم غير مستقلة عن طاعته لله ورسوله، فالطاعة في المعروف ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .قال الله تعالى

: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْلِيالأَمْرِمِنكُمْفَإِنتَنَازَعْتُمْفِيشَيْءٍفَرُدُّوهُإِلَىاللّهِوَالرَّسُولِإِنكُنتُمْتُؤْمِنُونَبِاللّهِوَالْيَوْمِالآخِرِذَلِكَخَيْرٌوَأَحْسَنُتَأْوِيلاً }[643].

2–العدل :وهو الإنصاف بحيث يكون كل الناس سواسية أمام أحكام الشريعة الإسلامية بغض النظر عن اللون والجنس والعرق والقبيلة والدين، فهو شامل لكل المواطنين داخل الدولة المسلمة. قال الله تعالى

---

[642]– عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية ص 80

[643]– سورة النساء الآية :59

: {يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَلِلّهِشُهَدَاءبِالْقِسْطِوَلاَيَجْرِمَنَّكُمْشَنَآنُقَوْمٍعَلَىأَلاَّتَعْدِلُواْاعْدِلُواْهُوَأَقْرَبُلِلتَّقْوَىوَاتَّقُواْاللّهَإِنَّاللّهَخَبِيرٌبِمَاتَعْمَلُونَ }[644].

3-الشورى :إن الجانب التنفيذي للحكومة في الدولة الإسلامية يقوم على أساس الشورى بين الحاكم والمحكوم، وتتخذ العملية شكل المؤسسة في مجلس الشورى وأعضاؤه هم المؤهلون لتقديم الشورى" لكن طريقة تعيين الأعضاء لم تكن محددة يوما، وذلك لكي يكون أمام الدولة الإسلامية مجال البحث عن أفضل شكل يناسب وضعها ورسالتها ومزاجها" [645].

ج-أهم القيم السياسية:

بالنظر إلى المبادئ والقواعد التي يقوم عليها النظام السياسي في الإسلام، فإن هناك مجموعة من القيّم تتمخض عن هذا النظام، وهي تدخل إما في صفات من يتولى إقامة هذا الحكم أو طريقة ممارسته له إذ لا حكم إسلامي من غير توفر هذه القيم التي تعد وسيلة وغاية الحكم في ذات الوقت إضافة إلى المبادئ والقواعد التي سبق الإشارة إليها ومنها :

1-الحرية: إذ لا يعقل أن يكون الحاكم فاقدا للحرية، لأنه في هذه الحالة لا تنفذ إرادته ولا تتم طاعته. فهو متحرر من كل سلطان إلا سلطان الحق قال تعالى :"{يَادَاوُودُإِنَّاجَعَلْنَاكَخَلِيفَةًفِيالْأَرْضِفَاحْكُمبَيْنَالنَّاسِبِالْحَقِّوَلَاتَتَّبِعِالْهَوَىفَيُضِلَّكَعَنسَبِيلِاللَّهِإِنَّالَّذِينَيَضِلُّونَعَنسَبِيلِاللَّهِلَهُمْعَذَابٌشَدِيدٌبِمَانَسُوايَوْمَالْحِسَابِ }[646].

2-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: {الَّذِينَإِنمَّكَّنَّاهُمْفِيالْأَرْضِأَقَامُواالصَّلَاةَوَآتَوُاالزَّكَاةَوَأَمَرُوابِالْمَعْرُوفِوَنَهَوْاعَنِالْمُنكَرِوَلِلَّهِعَاقِبَةُالْأُمُورِ }[647].

3-الأمانة والوفاء بالعهد قال تعالى: {قَالَتْإِحْدَاهُمَايَاأَبَتِاسْتَأْجِرْهُإِنَّخَيْرَمَنِاسْتَأْجَرْتَالْقَوِيُّالْأَمِينُ }[648].

---

[644]- سورة المائدة الآية :8

[645]- ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 242

[646]-سورة ص الآية :26

[647]- سورة الحج الآية :41

4-العلم:قال تعالى:{قَالَاجْعَلْنِيعَلَىخَزَآئِنِالأَرْضِإِنِّيحَفِيظٌعَلِيمٌ }[649].

5-القوة :قال تعالى:{قَالَعِفْرِيتٌمِّنَالْجِنِّأَنَاآتِيكَبِهِقَبْلَأَنتَقُومَمِنمَّقَامِكَوَإِنِّيعَلَيْهِلَقَوِيٌّأَمِينٌ }[650].

6- إقامة الشعائر: قال تعالى:{الَّذِينَإِنمَّكَّنَّاهُمْفِيالْأَرْضِأَقَامُواالصَّلَاةَوَآتَوُاالزَّكَاةَوَأَمَرُوابِالْمَعْرُوفِوَنَهَوْاعَنِالْمُنكَرِوَلِلَّهِعَاقِبَةُالْأُمُورِ }[651].

وإذا أردنا أن نجمل خلاصة مفيدة للنظام السياسي في الإسلام نستأنس بما نقله محمد عمارة عن الشيخ محمود شلتوت (1893-1963) وهو يمثل صياغة جامعة ركز فيها نظام الحكم في الإسلام في تسعة عناصر أساسية هي :

1-السيادة للهوحده، لأنه الخالق المالك.وهي في كل شعب للشعب نفسه بعد الله الذي استخلفه في أرضه.

2-الحكم لله وهو حقه، وحق الشعب يباشره نيابة عن الله .

3-الحاكم وكيل للأمة، وليس له عليها سيادة، بل هي سيدته وهو خادمها الأمين .

4- الشورى أساس الحكم وكل حكم لا يقوم على الشورى لا يكون شرعيا.

5-التضامن الجماعي :الأفراد جميعا يتضامنون في المسؤولية عن صوالحهم وصوالح الدين والدولة .

6-الرقابة الشعبية : حق للأمة أن تراقب حكامها، وتحاسبهم، وترسم لهم خطوط تدبير مصالحها وتشرف على التنفيذ وتعدله حسب مصلحتها .

---

[648]- سورة القصص الآية :26

[649]- سورة يوسف الآية :55

[650]- سورة النمل الآية :39

[651]- سورة الحج الآية :41

7-عزل الخليفة : للأمة إذا جار وظلم وظهر غشمه ولم يرعوِ لناصح أو زاجر، فإن رفض العزل عزلته بالقوة، ولو أدى ذلك لنصب الحرب وشهر السلاح في وجهه إذا رأت الأمة أن في ذلك مصالحها.

8-أهل الحل والعقد هم أهل العلم والرأي والخبرة في كل نواحي النشاط الحيوي بالأمة، وهم لسانها المعبر عن رضاها وسخطها، ومن حقهم ترشيح أصلحهم للخلافة وتقديمه للأمة لترى رأيها فيه عن رضا واختيار دون ضغط أو قهر، ومن حق كل مسلم أن يكون له رأي في اختيار الخليفة وأن يمكّن من إعلان رأيه بحرية تامة دون أن يضار بسبب رأيه ولو خالف الأغلبية، وعليه مع هذا أن يَلْزم الجماعة .

9-هدف الحكم :سعادة المحكومين وتحقيق السلام في الداخل والعزة في الخارج ونشر السلام "[652]

وبعد هذا البيان لا يشك عاقل أن النّظام السّياسي في الإسلام ذو طبيعة مميّزة عن غيره من النّظم ،ففيه النّشاط الإنساني لممارسة العمران، لا ينفصل بأي حال من الأحوال عن جانبه الإلهي، فكل جهود الإنسان تدور في إطار التوجيهات الربانية .

الفرع السابع :القيم المعرفية

1- مفهوم المعرفة :

أ-في القاموس: جاء في القاموس المحيط :عَرَفَهُ، يعرفه، معرفة ..عَلِمَه [653]. وجاء في المعجم الفلسفي: "عرف الشيء أدركه بالحواس أو بغيرها، والمعرفة إدراك الأشياء وتصوّرها، ولها عند القدماء عدة معان منها: إدراك الشيء بإحدى الحواس، ومنها العلم مطلقا... ومنها إدراك الجزئي عن دليل [654].

---

[652]- محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة نهضة مصر القاهرة ط2 سنة 2005 ص156/155

[653]- الفيروز آبادي: القاموس المحيط دار الكتاب الحديث القاهرة ط12004 ص751

[654] جميل صليبا : المعجم الفلسفي مجلد2 ص 393/392

وجاء في معجم النفائس الكبير :المعرفة بكسر الراء : إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم، ولذلك يسمى الحق بالعالم دون العارف، وفي الكليات : " والعلم يقال لإدراك الكلي أو المركب، والمعرفة تقال لإدراك الجزئي أو البسيط، ولذلك يقال عرفت الله دون علمته"[655].

ب- مفهوم المعرفة في القرآن :

يطلق القرآنعلى المعرفة اسم " القراءة "لأن المعرفة الإنسانية هي قراءة الإنسان حقائق الوجود أي : شهودها والتعرف عليها سواء كان تعرفا مباشرا، أو عن طريق وسائل متنوعة تصل إليها البشرية عند تراكم المعارف والعلوم في مختلف الفنون .يقول طه جابر العلواني:" والقراءة المأمور بها قراءة باسم الله تعالى ثم بمعيته تسير حتى توصل إلى علم يمكن أن يدوّن بالأقلام، فتنقل إلى السطور وتشاع بين البشر "[656].ويقسم ماجد عرسان الكيلاني مستويات المعرفة[657] إلى:

1-قراءة كتاب الخلق: ويشمل على المستويات التالية : قراءة النشأة والحياة والمصير.

2-قراءة كتاب الكون :ويشمل قراءة آيات الآفاق(الظواهر الطبيعية) والأنفس (الاجتماع الإنساني)

3-قراءة ما يسطره القلم: ويشمل قراءة المعاني والحروف .

ومما لاشك فيه أن جميع هذه المستويات مطلوبة من أدناها إلى أعلاها، وإن كانت المعرفة المعتبرة هي قراءة كتاب الخلق والكون والاجتماع الإنساني.

3- المعرفة وعلاقتها بالتوحيد : تجلتعلاقة المعرفة بعقيدة التوحيد في أول آية نزلت من القرآن الكريم قال تعالى :{اقْرَأْبِاسْمِرَبِّكَالَّذِيخَلَقَ}[658] والوحي هنا لا يكتفي بطلب القراءة أو المعرفة، وإنما

---

655. مجموعة من المختصين :إشراف أحمد أبو حاقة معجم النفائس الكبير دار النفائس المجلد الثاني ص 1245

656-طه جابر العلواني : نحو منهجية معرفية قرآنية دار الفكر دمشق ط1 سنة 2009 ص153

657- ينظر ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص230/229

658- سورة العلق الآية :1

يأمر بطلبها باسم الرب سبحانه، ويتبع ذلك بذكر البراهين التي تجعل هذا الطلب مقبولا ومستندا إلى شواهد يقينية، فالتوحيد من أهم المحركات المؤثرة في استفزاز القوى المنتجة للمعرفة والمحددة لمضمونها وغايتها، لذلك جاء القرآن ليدرب الإنسان على طريقة إنشاء الأسئلة (كيف، ماذا) وتحديد ما يمكن التساؤل عنه وما لا يمكن أو لا يحسن التساؤل عنه. ومن هنا " فالتوحيد يمثل حجر الزاوية في تكوين، وبناء الرؤية الكلية عن الكون والحياة والإنسان، وهو يوضح حدود وأبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة. وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان"[659] بحيث استطاعت عقيدة التوحيد أن تحسم بالدليل القطعي الجدل القائم حول حقيقة العالم وعلاقته بالخالق .فعمدت المعرفة في عقيدة التوحيد إلى تحرير الإنسان من السحر والأساطير والعقائد الخرافية، ومن التقاليد القومية المناقضة لأحكام الإسلام وعقائده " وبعبارة أخرى إنه إنسان متحرر من الرؤيتين الخرافية والعلمانية للوجود"[660] .

ذلك أن سعادة الإنسان رهينة بهذا التحرير، فهي التي تعيد للإنسان اعتباره، فيصبح يتصرف في الحياة عن وعي . وتحرير العقل والروح ذو أثر مباشر في الكيان المادي والروحي للإنسان، فهو سر التوافق والطمأنينة في الداخل إزاء نفسه وفي الخارج إزاء الطبيعة.

4- أدوات المعرفة و مصادرها:

المعرفة من حيث أصلها هي هبة من الله تعالى للإنسان، وتمثل الحقائق التي يعبّر عنها القرآن الكريم "كلمات الله" لأن الله سبحانه وتعالى هو بديع الحقائق، أما دور الإنسان فيقف عند قراءة الحقائق والسعي لاكتشافها والعمل على شهودها والانتفاع بها دينيا ودنيويا[661] بالاعتماد على المنطلقات التالية:

---

[659]- طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران ص65

[660]- سيد محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 70

[661]-ماجد عرسان الكيلاني :فلسفة التربية الإسلامية ص239

-أن الله تعالى هو مصدر المعرفة والعلم. قال الله تعالى: {قَالَإِنَّمَاالْعِلْمُعِندَاللَّهِوَأُبَلِّغُكُممَّاأُرْسِلْتُبِهِوَلَكِنِّيأَرَاكُمْقَوْماًتَجْهَلُونَ}[662].

-أن الله تعالى علمه شامل لكل مغيب ومشهود. قال الله تعالى: {عَالِمُالْغَيْبِوَالشَّهَادَةِالْكَبِيرُالْمُتَعَالِ}[663].

-علم الله شامل ودقيق يتصل بالوجود كله من الذرة إلى المجرة ومن العرش إلى الفرش. قال الله تعالى: {يَعْلَمُمَايَلِجُفِيالْأَرْضِوَمَايَخْرُجُمِنْهَاوَمَايَنزِلُمِنَالسَّمَاءِوَمَايَعْرُجُفِيهَاوَهُوَالرَّحِيمُالْغَفُورُ}[664] وقال تعالى: {وَعِندَهُمَفَاتِحُالْغَيْبِلاَيَعْلَمُهَاإِلاَّهُوَوَيَعْلَمُمَافِيالْبَرِّوَالْبَحْرِوَمَاتَسْقُطُمِنوَرَقَةٍإِلاَّيَعْلَمُهَاوَلاَحَبَّةٍفِيظُلُمَاتِالأَرْضِوَلاَرَطْبٍ وَلاَيَابِسٍإِلاَّفِيكِتَابٍمُّبِينٍ}[665].

- أن العلم الإلهي غير محدود ولا نهاية له. قال تعالى: {وَلَوْأَنَّمَافِيالْأَرْضِمِنشَجَرَةٍأَقْلاَمٌوَالْبَحْرُيَمُدُّهُمِنبَعْدِهِسَبْعَةُأَبْحُرٍمَّانَفِدَتْكَلِمَاتُاللَّهِإِنَّاللَّهَعَزِيزٌحَكِيمٌ}[666].

وقال تعالى: {قُللَّوْكَانَالْبَحْرُمِدَاداًلِّكَلِمَاتِرَبِّيلَنَفِدَالْبَحْرُقَبْلَأَنتَنفَدَكَلِمَاتُرَبِّيوَلَوْجِئْنَابِمِثْلِهِمَدَداً}[667].

- أن المعرفة الإنسانية بجميع أشكالها وصوّرها مستمدة من المعرفة الإلهية، منها ما يمنحه بالاصطفاء والاختيار كما قال تعالى :{اللَّهُيَصْطَفِيمِنَالْمَلاَئِكَةِرُسُلاًوَمِنَالنَّاسِإِنَّاللَّهَسَمِيعٌبَصِيرٌ}[668] ومنها ما يمنحه بقدر الاجتهاد سواء في أمور الدين قال تعالى :{يُؤْتِيالْحِكْمَةَمَنيَشَاءُوَمَنيُؤْتَالْحِكْمَةَفَقَدْأُوتِيَخَيْراًكَثِيراًوَمَايَذَّكَّرُإِلاَّأُوْلُواْالأَلْبَابِ}[669]سواء تعلق الأمر بأمور

662- سورة الأحقاف الآية :23

663- سورة الرعد الآية :9

664- سورة سبأ الآية :2

665- سورة الأنعام الآية: 59

666- سورة لقمان الآية :27

667- سورة الكهف الآية :109

668- سورة الحج الآية :75

669- سورة البقرة الآية :269

الدنيا ومن غير تمييز بين عباده قال تعالى:{كُلاًّنُّمِدُّهَؤُلاءِوَهَؤُلاءِمِنْعَطَاءِرَبِّكَوَمَاكَانَعَطَاءُرَبِّكَمَحْظُوراً }[670] لأن الله يفتح لهم أبوابها من غير حدود. قال الله تعالى :{فَلَمَّانَسُواْمَاذُكِّرُواْبِهِفَتَحْنَاعَلَيْهِمْأَبْوَابَكُلِّشَيْءٍحَتَّىإِذَافَرِحُواْبِمَاأُوتُواْأَخَذْنَاهُمبَغْتَةًفَإِذَاهُممُّبْلِسُونَ }[671] .

-أن الإنسان يولد وهو لا يعلم شيئا : {عَلَّمَالْإِنسَانَمَالَمْيَعْلَمْ }[672] ويمكن أن يتحقق الإنسان بالمعرفة إذا أحسن استخدام مواهبه المتمثلة في السمع والأبصار والأفئدة قال تعالى:{وَاللّهُأَخْرَجَكُممِّنبُطُونِأُمَّهَاتِكُمْلاَتَعْلَمُونَشَيْئاًوَجَعَلَلَكُمُالْسَّمْعَوَالأَبْصَارَوَالأَفْئِدَةَلَعَلَّكُمْتَشْكُرُونَ }[673].

5- أدوات المعرفة : زوّد الله تعالى الإنسان بوسائل وأدوات المعرفة المتمثلة في:

أ- **العقل** : وهو الطاقة الإدراكية في الإنسان والذي ركب فيه بعض المعارف الأولية البدهية القابلة للتطور استنادا إلى الخبرة المتراكمة وحجم المعلومات المختزنة في التاريخ الإنساني ف:" من اللحظة الأولى تقع الحواس على الكائنات المادية الخارجية إذ تتعرض تلك الكائنات لها فتنتقل صورها إلىالمراكز المعدة لاستقبالها في الدماغ ليؤدي العقل فيها دوره، وبتوالي الأيام تتعدد التجارب ويكثر ما ينقل من الآثار والصوّر، ويعمل العقل عمله فتحصل المعرفة بالتدرج في وعي الإنسان"[674]قال تعالى :{عَلَّمَالْإِنسَانَمَالَمْيَعْلَمْ }[675]وقال {وَالَّذِيقَدَّرَفَهَدَى }[676]وقال {وَهَدَيْنَاهُالنَّجْدَيْنِ }[677]البلد10.

ولما كانت وسيلة العقل معرضة للجموح والشطحات والأخطاء في إصدار الأحكام باعتباره محدود الطاقة الإدراكية، فإن الإسلام لا يقدِّر إلا العقل الذي يسترشد بالوحي في تقرير الأحكام،ومن هنا

---

[670]-سورة الإسراء الآية:20

[671]- سورة الأنعام الآية :44

[672]- سورة العلق الآية :5

[673]- سورة النحل الآية :78

[674]-سعيد اسماعيل علي : أصول التربية الإسلامية دار السلام للطباعة والتوزيع والنشر والترجمة ط1 سنة 2005 ص97

[675]-سورة العلق الآية:5

[676]- سورة الأعلى الآية :3

[677]- سورة البلد الآية : 10

كان الإسلام متوازنا في بيان مكانة العقل.فمن جهة فهو يعتبره مناط التكليف، ويثق في أحكامه العادلة المنسجمة مع ما يدعو إليه الوحي، ومن جهة أخرى يبيّن ميدان حركته ويوضح حدود عمله، حتى يحفظه من الزلل.فلا مغالاة في تقدير قيمة العقل ولا اعتداء على حرمته وإقصاء دوره في المعرفة.

ب-**الحواس**: وتشمل السمع والبصر والشم واللمس والذوق، وتعد مصدرا للمعلومات المستقاة من عالم الشهادة، فهي آلات للاتصال بالمدركات، ولها أثر في عملية المعرفة .قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[678].

ومهمة العقل تترابط وتتفاعل مع مهمة الحواس في اكتشاف المعرفة، وبيانها، واستخدامها، وليس في إيجادها، فهي موجودة فعلا قبل اكتشافها، فالعقل والحواس كاشفة للمعرفة وليست موجدة لها لأن المعرفة (الحقائق) موجدها هو الله تعالى، فكل ما تلتقطه الحواس يتفاعل معه المكون العقلي بناء على القواعد الفطرية والمكتسبة، بحيث يحوّل العقل المدركات بالحواس إلى مفاهيم مجردة، ومن هنا تتكون المعرفة بعلاقة معقّدة مترابطة بين المعلومة، والحس، والعقل[679] .فبقدر نضج الحواس وإتقان مهاراتها وبخاصة السمع والبصر- المنصوص عليهما لأفضليتهما –وبقدر نضج القدرات العقلية وحسن استعمالها يكون الرسوخ في العلم الذي يعني القدرة على الدراسة الوافية والعميقة للموضوع قال الله تعالى: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ }[680].

6-مصادر المعرفة :

مما سبق يتبين لنا أن العلم الذي أطلع الله عليه الإنسان، أو كلفه باكتشافه يتمثل في مصدرين كما يشير طه جابر العلواني :" أما التوحيد فيحصر مصادر المعرفة بمصدرين اثنين لا ثالث لهما هما :

---

[678]- سورة النحل الآية :78

[679]- ينظرسعيد اسماعيل علي :أصول التربية الإسلامية ص100

[680]- سورة آل عمران الآية: 7

الوحي والوجود، والعقل بينهما وسيلة وأداة معرفة واستنباط وحدس وإدراك، بل وتوليد لأبعاد أخرى في الوقت ذاته"[681] .

المصدر الأول : الوحي

يُعتبر الوحي المصدر الإلهي للمعرفة الإنسانية وينحصر مصدر معرفتها بالسمع والنقل ولا بد من تلقيها بطريق صحيح، والوحي هو الذي يفسّر قضايا الوجود (عالم الغيب)وكل ما يتعلق به من علاقات فيحدد المفاهيم المتعلقة بالأصل والغاية والمصير، ويرشد إلى السّبل والوسائل المنسجمة مع هذه المفاهيم ويوضح الطرق الكفيلة بإنجاز مهمة التكليف في إطارها الصحيح "فالقرآن الكريم قد حوى فعلا أصول المعارف كلها، عندما وضع الإنسان أمام الرسم البياني الشامل للوجود الكوني بأسره، إلى درجة أن اكتشاف أي حقيقة علمية لا تكتسب قيمتها العلمية الصحيحة إلا إذا تمت ضمن تصوّر سليم لذلك الرسم البياني "[682].

المصدر الثاني : الكون[683]:ويمثل (عالم الشهادة) ويتعلق بمجهود الإنسان في عالم الشهادة ويمكن القول أن مصدر المعرفة هنا بشري. قال الله تعالى: " {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }[684] لأنه يخضع للبحث ويرجع إلى كل من أجهزة الحواس والعقل. فأنواع المعرفة في هذا المجال كلها ممكنة ومتاحة، ولدى الإنسان الاستعدادات والآلات القادرة على الوصول إليها بالتعلم، ومراكمة ذلك بالأقلام " فهو ذلك العلم الذي يتم اكتسابه بواسطة التجربة والملاحظة، وهو علم استدلالي

681– طه جابر العلواني : التوحيد والتزكية والعمران ص66

682–محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص133

683– الكون هنا مصدر بمعنى اسم المفعول، فهو بمعنى المكوَّن، والمقصود به ما عدا الإنسان من المظاهر الكونية التي نراها من حولنا، و غالبا ما تطلق الفلسفة الغربية على هذه المظاهر لفظ الطبيعة(الوجود المادي البحث) وهي على وزن فعيلة أي منفعلة فلها فاعل أوجدها وهو الله سبحانه وتعالى، وفي الرؤية الإسلامية هي مخلوق يخضع لمنطق العبودية كغيره من المخلوقات، والفرق أن الكون خاضع بالإجبار أما الإنسان فبالاختيار .

684– سورة فصلت الآية :53

واستنباطي يختص بموضوعات ذات قيمة علمية نفعية "[685] وإمكانية المعرفة في هذا المجال متأتية من كون الخليقة كونا منظما خاضعا لأنساق هي قوانين الطبيعة، وهي تحكم جميع الموجودات "وحيث يمكن ملاحظة هذه القوانين ودراستها واكتشافها بسبب ديمومتها وثباتها، وحيث يكون التنبؤ بالأحداث ممكنا. ويتطلب نظام الكون ألا يكون في فجوات سببية، فكل شيء نتيجة لأسباب وسبب لنتائج أخرى، فالأسباب المتشابهة تؤدي إلى نتائج متشابهة...مما يجعل العالم شبكة من العلاقات السببية المترابطة المعتمدة على بعضها، والتي تكرر نفسها فتغدو قابلة للاكتشاف. واكتشاف هذه الأنساق وتثبيت قيمتها ومدى انطباقها وتأثيرها في أحداث الطبيعة، هو العلم" [686].ويكون من خلال مستويين:

1-عالم **الآفاق** :

وترتكز هذه المعرفة على عمل العقل والحواس من خلال العلماء الطبيعيين، ويعبّرعنها بالاكتشاف والاختراع لتسخير الكون بعد معرفة القوانين قال تعالى : {قُلْسِيرُوافِيالْأَرْضِفَانظُرُواكَيْفَبَدَأَالْخَلْقَثُمَّاللَّهُيُنشِئُالنَّشْأَةَالْآخِرَةَإِنَّاللَّهَعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ } [687].

فالآية هنا ترشد بصريح العبارة للبحث عن القوانين والنواميس التي تحكم الأشياء في هذا الكون، وهي القوانين الثابتة منذ الخلق الأول لها لم تتغيّر ولن تتغيّر قال تعالى: {سُنَّةَاللَّهِفِيالَّذِينَخَلَوْامِنقَبْلُوَلَنتَجِدَلِسُنَّةِاللَّهِتَبْدِيلاً } [688] سواء كان هذا على مستوى الأرض، أو ما تعلق بعالم الفضاء الذي يمكن استثماره بعد معرفة قوانينه، وهذا ما وضحه قوله تعالى:

{قُلِانظُرُواْمَاذَافِيالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَمَاتُغْنِيالآيَاتُوَالنُّذُرُعَنقَوْمٍلاَّيُؤْمِنُونَ } [689].

---

[685]- سيد محمد نقيب العطاس :مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص102

[686]- إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص456/455

[687]- سورة العنكبوت الآية :20

[688]- سورة الأحزاب الآية :62

[689]- سورة يونس الآية :101

{أَوَلَمْيَرَالَّذِينَكَفَرُوٓاأَنَّالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَكَانَتَارَتْقًافَفَتَقْنَاهُمَاوَجَعَلْنَامِنَالْمَاءكُلَّشَيْءٍحَيٍّأَفَلَايُؤْمِنُونَ }[690].

فهذه النماذج من الآيات سيقت مساق الاستدلال بها على الخالق جل وعلا، ولا يمكن الوقوف على عظمة هذا الخلق إلا بالدراسة، والبحث. وكما هو ملاحظ فإن هذه المظاهر تؤدي في حياة الإنسان عللا غائية جلية، والمعلوم أن العلة الغائية لا تصدر إلا عن القصد، والتدبير، والربط والتقدير [691] . فالكون صفحة نقشت عليها براهين وجود المكوّن ودلائل وحدانيته سبحانه في هذه الموجودات يتناسب مع كل المستويات العقلية للبشر هذا من جهة . ومن جهة أخرى ينبهنا القرآن الكريم إلى ضرورة طلب المعرفة للاستفادة من هذه المظاهر، فقد سخرت لخدمة الإنسان، وتحقيق مصالحه ورعاية أسباب حياته ورفاهيته[692].فدراستها يحقق الانتفاع والاستغلال كما يحقق البرهنة والاستدلال.

2- عالم الأنفس:

وتعني قراءة سفر الاجتماع الإنساني ويقوم بهذه المعرفة علماء الاجتماع والنفس، بحيث يرصدون التجارب و الخبرات الإنسانية المتراكمة بإيجابياتها وسلبياتها والتي من شأنها أن تكون مصدرا يستلهم منه الإنسان الصواب من خلال تثمين التجارب الناجحة المتمثلة في المنجزات الحضارية،ويعمل على إقصاء التجارب الفاشلة، وعن طريق رصد حركة المجتمعات الحضارية والنفسية والفكرية عبر العصور والأطوار يمكن استخراج مظاهر فعل الله وسننه التي تنظم حركة المجتمع الإنساني . وهذه القراءة يقوم بها العقل والحواس، لذلك جاءت كثير من الآيات تدعو إلى السير في الأرض والنظر في الآثار لأخذ العبرة واستخلاص أسباب الدمار. قال الله تعالى

690-سورة الأنبياء الآية :30

691-ينظر محمد سعيد رمضان البوطي :منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص83/82

692- ينظر محمد سعيد رمضان البوطي :منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص81

: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [693]

{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [694].

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [695] وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [696].

وخلاصة القول فإن المعرفة الإنسانية لا تثمر نفعا للإنسانية إلا إذا كانت بالقراءتين، قراءة الكتاب المسطور (الوحي) الذي يهبها الهداية والرشد .قال الله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [697]، ثم قراءة الكتاب المنظور (الكون) الذي يهبها التّطور والرفاهية .قال الله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [698]، وهاتين القراءتين أو المعرفتين كلا منهما يقدّم توضيحا للقراءة الأخرى وبرهانا عليها، مما يحقق توازنا في الحياة الإنسانية تسعد به البشرية، وبفقدان إحدى المعرفتين ينتج الطغيان أوالتخلف .

7-أهداف المعرفة :

693-سورة آل عمران الآية :137

694- سورة الصافات الآية :138/137

695- سورة يوسف الآية :109

696- سورة الحج الآية :46

697- سورة البقرة الآية :38

698- سورة البقرة الآية 31

لا شك أن الهدفالأساس للقراءةهو بناء العقل العلمي الذي يستند إلى المعرفة في تحليل الظواهر وتفسيرها. وتوفير إطار مرجعي له وتقديم نماذج يستطيع الإنسان أن يولّد منها بالاجتهاد والإبداع . ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم واضحة في بيان غاية طلب المعرفة سواء كانت تتعلق بمعرفة الشريعة أو الطبيعة، و تتلخص غاية المعرفة في القرآن الكريم فيما يأتي :

أ–معرفة الله وخشيته وشكره:

فأسمى قيمة يتحقق بها الإنسان أن يعرف عظمة الله من خلال البحث المتواصل. قال الله تعالى: {اللَّهُالَّذِيخَلَقَسَبْعَسَمَاوَاتٍوَمِنَالْأَرْضِمِثْلَهُنَّيَتَنَزَّلُالْأَمْرُبَيْنَهُنَّلِتَعْلَمُوااَنَّاللَّهَعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌوَأَنَّاللَّهَقَدْأَحَاطَبِكُلِّشَيْءٍعِلْماً}[699] فالتحقق بمعرفة الله وقدرته والوقوف على أسرار الخلق يولد في الإنسان شعور الخوف والخشية. قال الله تعالى:{ إِنَّمَايَخْشَىاللَّهَمِنْعِبَادِهِالْعُلَمَاءإِنَّاللَّهَعَزِيزٌغَفُورٌ }[700] وعند ذلك يتحقق هدف إنساني ثمرته استمرار بقاء النوع الإنساني بسبب التمتع بنعم الله، فشهود النعمة والرحمة يدفع إلى الشكر قال تعالى: {وَسَخَّرَلَكُمُاللَّيْلَوَالنَّهَارَوَالشَّمْسَوَالْقَمَرَوَالنُّجُومُسَخَّرَاتٌبِأَمْرِهِإِنَّفِيذَلِكَلَآيَاتٍلِّقَوْمٍيَعْقِلُونَ.وَمَاذَرَأَلَكُمْفِيالْأَرْضِمُخْتَلِفاًأَلْوَانُهُإِنَّفِيذَلِكَلَآيَةًلِّقَوْمٍيَذَّكَّرُونَ.وَهُوَالَّذِيسَخَّرَالْبَحْرَلِتَأْكُلُوامِنْهُلَحْماًطَرِيّاًوَتَسْتَخْرِجُوامِنْهُحِلْيَةًتَلْبَسُونَهَاوَتَرَىالْفُلْكَمَوَاخِرَفِيهِوَلِتَبْتَغُوامِنفَضْلِهِوَلَعَلَّكُمْتَشْكُرُونَ}[701] يقول محمد الغزالي :"إن أساس الثقافة الإنسانية معرفة الكون والحياة، بيد أن هذه المعرفة وسيلة إلى معرفة أعظم هي معرفة خالق الكون والحياة، ورب كل شيء ومليكه ..رب العالمين"[702] ومعرفة الله هي معرفة أفعاله، وصفاته، ومظاهر تدبيره، وتصريفه في الخلق، وهذه المعرفة هي السبيل الفعّال لتحقيق الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وهي عبادة الله تعالى .قال تعالى: {وَمَاخَلَقْتُالْجِنَّوَالْإِنسَإِلَّالِيَعْبُدُونِ }[703].

---

[699]– سورة الطلاق الآية 12

[700]– سورة فاطر الآية : 28

[701]– سورة النحل الآية: 14/13/12

[702]– محمد الغزالي : حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة دار المعرفة الجزائر دون ط ودون سنة ص147

[703]– سورة الذاريات الآية :56

ب- تحقيق العمارة: انطلاقا من قوله تعالى :{وَعَلَّمَآدَمَالأَسْمَاءَكُلَّهَاثُمَّعَرَضَهُمْعَلَىالْمَلاَئِكَةِفَقَالَأَنبِئُونِيبِأَسْمَاءهَؤُلاءِإِنكُنتُمْصَادِقِينَ }[704] ويظهر أن العلم بالأشياء من شأنه أن يجعل جهود الإنسان تتجه إلى معرفة خصائصها مفردة، ومجتمعة مما يؤدي إلى حسن الاستفادة منها، فيتحقق الازدهار والانتفاع بخيرات الأرض والسماء .

ج-إصلاح المجتمع الإنساني:

تهدف المعرفة في الإسلام إلى بناء الإنسان الصالح حيث يكتشف طالب المعرفة عظيم صنع الله في خلقه من خلال آيات الكون الدالة على آيات الكتاب، فيستيقن بما تخبر به الآيات، مما يفضي إلى الإقبال على الله بعبادته، وطاعته وفق المنهج الصحيح، فيتحقق رقي الإنسان، وتحضره بقدر صعوده في مدارج الإحسان قال تعالى {الَّذِينَيَذْكُرُونَاللّهَقِيَاماًوَقُعُوداًوَعَلَىجُنُوبِهِمْوَيَتَفَكَّرُونَفِيخَلْقِالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِرَبَّنَامَاخَلَقْتَهَذَابَاطِلاًسُبْحَانَكَفَقِنَا عَذَابَالنَّارِ }[705] يقول سيد محمد نقيب العطاس :" إن طلب المعرفة في الإسلام غايته غرس معاني الصلاح، والعدل في الإنسان بوصفه إنسانا"[706] .فهدف المعرفة الارتقاء بالإنسان إلى المستوى الذي يليق بمكانته في الوجود، "وأن الإنسان عندما يكتمل عقلا، وخلقا يتجاوب مع كل شيء في الوجود تجاوبا صحيحا وصادقا .وسبيل ذلك العلم والدين جميعا . فهما سلم الارتقاء بالإنسان"[707].

8-أهم القيّم المعرفية:

تعد هذه القيم المعرفية نتائج للتفاعل الإيجابي بين الإنسان ومحيطه باستخدام المعارف المختلفة، وهي ثمرة الانتفاع من مصدري المعرفة(الوحي والكون) ويمكن تقسيمها إلى ما يأتي :

---

[704]- سورة البقرة الآية :31

[705]- سورة آل عمران الآية: 191

[706]- سيد محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 106

[707]-محمد الغزالي : المرجع السابق

أ-قيم التأصيل:وتتعلق بطريقة بناء الفكر العلمي والابتعاد عن الفكر الخرافي، وتشمل جميع القيم التي تسعى لتحقيق الموضوعية خلال البحث عن الحقيقة، وهذه القيم تعد أسسا للبحث العلمي المنهجي ونذكر منها :

1-الملاحظة: وردت في ذلك عدة صيغ في القرآن منها:

-ألم تر : وهي صيغة تدعو لملاحظة الظواهر المختلفة التي تتضمن معلومات من خلالها يمكن استخلاص قواعد للحياة، سواء ما تعلق بالظواهر الكونية ومنها قوله تعالى: {أَلَمْتَرَإِلَىرَبِّكَكَيْفَمَدَّالظِّلَّوَلَوْشَاءلَجَعَلَهُسَاكِناًثُمَّجَعَلْنَاالشَّمْسَعَلَيْهِدَلِيلاً }[708] وقوله: {أَلَمْتَرَوْاكَيْفَخَلَقَاللَّهُسَبْعَسَمَاوَاتٍطِبَاقاً }[709]، أو رصد الظواهر السلوكية في الاجتماع الإنساني .كما في قوله تعالى: {أَلَمْتَرَإِلَىالَّذِينَأُوْتُوانَصِيباًمِّنَالْكِتَابِيُدْعَوْنَإِلَىكِتَابِاللّهِلِيَحْكُمَبَيْنَهُمْثُمَّيَتَوَلَّىفَرِيقٌمِّنْهُمْوَهُممُّعْرِضُونَ }[710]. أو قوله تعالى : {أَلَمْتَرَإِلَىالَّذِينَنُهُواعَنِالنَّجْوَىثُمَّيَعُودُونَلِمَانُهُواعَنْهُوَيَتَنَاجَوْنَبِالإِثْمِوَالْعُدْوَانِوَمَعْصِيَتِالرَّسُولِوَإِذَاجَاؤُوكَحَيَّوْكَبِمَالَمْيُحَيِّكَبِهِاللَّهُوَيَقُولُونَفِيأَنفُسِهِمْلَوْلَايُعَذِّبُنَااللَّهُبِمَانَقُولُحَسْبُهُمْجَهَنَّمُيَصْلَوْنَهَافَبِئْسَالْمَصِيرُ }[711].أو الظواهر الاجتماعية، منها قول الله تعالى : {أَلَمْتَرَكَيْفَضَرَبَاللّهُمَثَلاًكَلِمَةًطَيِّبَةً كَشَجَرَةٍطَيِّبَةٍأَصْلُهَاثَابِتٌوَفَرْعُهَافِيالسَّمَاءِ}[712] .وقوله سبحانه : {أَلَمْتَرَإِلَىالْمَلإِمِنبَنِيإِسْرَائِيلَمِنبَعْدِمُوسَىإِذْقَالُواْلِنَبِيٍّلَّهُمُابْعَثْلَنَامَلِكاًنُّقَاتِلْفِيسَبِيلِاللّهِقَالَهَلْعَسَيْتُمْإِنكُتِبَعَلَيْكُمُالْقِ

---

[708]- سورة الفرقان الآية :45

[709]- سورة نوح الآية :15

[710]- سورة آل عمران الآية : 23

[711]- سورة المجادلة الآية :8

[712]- سورة إبراهيم الآية :24

تَالُأَلاَّتُقَاتِلُواْقَالُواْوَمَالَنَاأَلاَّنُقَاتِلَفِيسَبِيلِاللّهِوَقَدْأُخْرِجْنَامِندِيَارِنَاوَأَبْنَآئِنَافَلَمَّاكُتِبَعَلَيْهِمُالْقِتَالُتَوَلَّوْاْإِلاَّقَلِيلاًمِّنْهُمْوَاللّهُعَلِيمُبِالظَّالِمِينَ }[713].

ومنها الدعوة إلى النظر . قال الله تعالى :{أَفَلَايَنظُرُونَإِلَىالْإِبِلِكَيْفَخُلِقَتْ }[714].

-ومنها الدعوة إلى السير في الأرض وتتبع آثار السابقين والوقوف عليها واكتشاف أسباب الازدهار والانكسار .قال الله تعالى :{قُلْسِيرُوافِيالْأَرْضِفَانظُرُواكَيْفَكَانَعَاقِبَةُالَّذِينَمِنقَبْلُكَانَأَكْثَرُهُممُّشْرِكِينَ }[715].

2-الانتقاء : وهي عملية فرز وترجيح يقوم بها الباحث عن الأصوب والأصلح . قال الله تعالى:{الَّذِينَيَسْتَمِعُونَالْقَوْلَفَيَتَّبِعُونَأَحْسَنَهُأُوْلَئِكَالَّذِينَهَدَاهُمُاللَّهُوَأُوْلَئِكَهُمْأُوْلُواالْأَلْبَابِ}[716].

3-التجربة:وهي ممارسة الجانب النظري في تطبيقات عملية للتأكد من صدق النظرية. قال الله تعالى:{وَإِذْقَالَإِبْرَاهِيمُرَبِّأَرِنِيكَيْفَتُحْيِيالْمَوْتَىقَالَأَوَلَمْتُؤْمِنقَالَبَلَىوَلَكِنلِّيَطْمَئِنَّقَلْبِيقَالَفَخُذْأَرْبَعَةًمِّنَالطَّيْرِفَصُرْهُنَّإِلَيْكَثُمَّاجْعَلْعَلَىكُلِّجَبَلٍمِّنْهُنَّجُزْءًاثُمَّادْعُهُنَّيَأْتِينَكَسَعْيًاوَاعْلَمْأَنَّاللّهَعَزِيزٌحَكِيمٌ }[717]. وقال تعالى :{ رَبِّأَرِنِيأَنظُرْإِلَيْكَقَالَلَنتَرَانِيوَلَكِنِانظُرْإِلَىالْجَبَلفَإِنِاسْتَقَرَّمَكَانَهُفَسَوْفَتَرَانِيفَلَمَّاتَجَلَّىرَبُّهُلِلْجَبَلِجَعَلَهُدَكّاًوَخَرَّموسَىصَعِقاً فَلَمَّاأَفَاقَقَالَسُبْحَانَكَتُبْتُإِلَيْكَوَأَنَاْأَوَّلُالْمُؤْمِنِينَ }[718].

---

[713]- سورة البقرة الآية :246

[714]- سورة الغاشية الآية :17

[715]- سورة الروم الآية : 42

[716]- سورة الزمر الآية : 18

[717]- سورة البقرة الآية :260

[718]- سورة الأعراف الآية : 143

تعالى: {مَااتَّخَذَاللَّهُمِنوَلَدٍوَمَاكَانمَعَهُمِنْإِلَهٍإِذاًلَّذَهَبَكُلُّإِلَهٍبِمَاخَلَقَوَلَعَلَابَعْضُهُمْعَلَىبَعْضٍسُبْحَانَاللَّهِعَمَّايَصِفُونَ}[719].

5-التخطيط : وهو رسم منهج العمل محل الدرس لحل المشكلات المختلفة، ومنها قصة يوسف عليه السلام . قال تعالى: {قَالَتَزْرَعُونَسَبْعَسِنِينَدَأَبًافَمَاحَصَدتُّمْفَذَرُوهُفِيسُنبُلِهِإِلَّاقَلِيلاًمِّمَّاتَأْكُلُونَ }[720].

وبهذا تكتمل الجوانب المعرفية المتعلقة بجانب التصور، والبحث، والتجربة، وصياغة منظومة حياتيه تجيب عن التساؤلات، وتستثمر الخيرات. فتجمع المعرفة في الإسلام بين الجانب النظري والتطبيقي لأجل إسعاد الإنسان ورفاهيته في ظل الإيمان وتحقيق غاية الوجود الإنساني.

ب-القيم الا عمارية :

وهي القيم التي توضح أن المعرفة ليست مجرد تنظير، بل إنها حركة مستمرة لاستنباط أحكام الدين وقوانين الحياة، وربطها بواقع الحياة لتحقيق العمارة في الحياة الإنسانية ومنها :الدعوة إلى العمل المبني على المعرفة، والجدية في العمل، والإخلاص فيه، والاستفادة من خبرات الآخرين، والسعي المستمر في البحث عن الأمثل وتوجيه الإنسان إلى الأخذ بالأسباب الموصلة إلى النتائج الطيبة بعد الدراسة المعمقة. وهي عمليات مستمرة ودائمة وتستند إلى العمليات العقلية المختلفة: التدبر، والتذكر، التعقل، التفكر، التعلم، التفقه، وكل ما يتعلق بعالم الأسباب، والسنن مع التأكيد على الغاية من العمران. ومنها قوله تعالى: {وَمَاالْحَيَاةُالدُّنْيَاإِلاَّلَعِبٌوَلَهْوٌوَلَلدَّارُالآخِرَةُخَيْرٌلِّلَّذِينَيَتَّقُونَأَفَلاَتَعْقِلُونَ}[721].

وقال تعالى: {أَوَلاَيَرَوْنَأَنَّهُمْيُفْتَنُونَفِيكُلِّعَامٍمَّرَّةً أَوْمَرَّتَيْنِثُمَّلاَيَتُوبُونَوَلاَهُمْيَذَّكَّرُونَ}[722].

---

[719]- سورة المؤمنون الآية :91

[720]- سورة يوسف الآية : 47

[721]- سورة الأنعام الآية : 32

[722]- سورة التوبة الآية : 126

ومنها قصة ذو القرنين الذي أحسن توظيف المعرفة للاستفادة من الجهود البشرية واستثمار الإمكانات المتاحة لدفع التحديات قال تعالى: {قَالَمَامَكَّنِّيفِيهِرَبِّيخَيْرٌفَأَعِينُونِيبِقُوَّةٍأَجْعَلْبَيْنَكُمْوَبَيْنَهُمْرَدْماً}[723].

وقصة داوود عليه السلام التي تشير إلى أهمية كسب اليد والتفنن في صناعة القوة قال تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُصَنْعَةَلَبُوسٍلَّكُمْلِتُحْصِنَكُممِّنبَأْسِكُمْفَهَلْأَنتُمْشَاكِرُونَ}[724].

وفي قصة سليمان عليه السلام: {يَعْمَلُونَلَهُمَايَشَاءُمِنمَّحَارِيبَوَتَمَاثِيلَوَجِفَانٍكَالْجَوَابِوَقُدُورٍرَّاسِيَاتٍاعْمَلُوآلَدَاوُودَشُكْراًوَقَلِيلٌمِّنْعِبَادِيَالشَّكُورُ}[725].

والإشارات القرآنية في هذه النصوص دعوة صريحة إلى وجوب أخذ الزينة والتجمل في اللباس، وفي غيره من متعلقات الحياة وجوانبها المختلفة، وهو ما يقتضي إنشاء مصانع النسيج كما في قوله تعالى: {يَابَنِيآدَمَخُذُواْزِينَتَكُمْعِندَكُلِّمَسْجِدٍوَكُلُواْوَاشْرَبُواْوَلاَتُسْرِفُواْإِنَّهُلاَيُحِبُّالْمُسْرِفِينَ}[726] وهذه الدعوة كانت موجهة لبني آدم على مر الزمن ومنذ الوهلة الأولى: {يَابَنِيآدَمَقَدْأَنزَلْنَاعَلَيْكُمْلِبَاساًيُوَارِيسَوْءَاتِكُمْوَرِيشاًوَلِبَاسُالتَّقْوَىذَلِكَخَيْرٌذَلِكَمِنْآيَاتِاللّهِلَعَلَّهُمْيَذَّكَّرُونَ}[727] ويندرج هنا كل ما من شأنه أن يتعلق بعالم "التقنية" في مستواه البسيط، وفي مستواه الأعلى المعقد، ما دام مباحا، ولا يلحق الضرر والفساد بالكون، والإنسان، أو يخالف قضية من قضايا العقيدة أو القيم.

ج–القيم الإصلاحية:

723– سورة الكهف الآية :95

724– سورة الأنبياء الآية: 80

725– سورة سبأ الآية : 13

726–سورة الأعراف الآية :31

727– سورة الأعراف الآية : 26

وهي القيم التي تهدف إلى تغيير الواقع سواء من خلال التجديد في الحياة أو من خلال الكشف عن سنن الله في الاجتماع الإنساني، بحيث تمدح الذين يوظفون أجهزة الوعي أو تذم كل سلوك من شأنه أن يعرقل الإنجاز الإنساني في الحياة، و يستخدم فيها القرآن الكريم جميع الأساليب الفنية لبلوغ هذا المقصد من قصص وأمثال وتوجيهات ودراسة أسباب النهوض وعوامل السقوط عند الأمم السابقة، قصد دفع الإنسان إلى قراءة الظواهر المختلفة واستخلاص أسباب الهداية .وعلى العموم تتعلق هذه القيم بكل معرفة من شأنها أن تحقق قيمة التقوى والقوة في الحياة الإنسانية في أي مجال من مجالات الحياة .

{وَاتَّقُواْيَوْماًتُرْجَعُونَفِيهِإِلَىاللّهِثُمَّتُوَفَّىكُلُّنَفْسٍمَّاكَسَبَتْوَهُمْلاَيُظْلَمُونَ}[728].

{وَلَوْأَنَّأَهْلَالْقُرَىآمَنُواْوَاتَّقَواْلَفَتَحْنَاعَلَيْهِمبَرَكَاتٍمِّنَالسَّمَاءِوَالأَرْضِوَلَكِنكَذَّبُواْفَأَخَذْنَاهُمبِمَاكَانُواْيَكْسِبُونَ}[729].

{يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللّهَوَذَرُواْمَابَقِيَمِنَالرِّبَاإِنكُنتُممُّؤْمِنِينَ }[730].

لقد تبين مما سبق ذكره أن المعرفة بجميع مستوياتها –سواء تعلقت بالتقوى أو التقنية– هي التي تمكّن الإنسان من الرقي، أما الذين لا يحسنون قراءة أي مستوى من مستويات المعرفة " فهؤلاء يبقون خارج الاجتماع الإنساني، فيعيشون مرحلة البدائية وهم إلى الاجتماع الحيواني أقرب من الاجتماع الإنساني "[731]. وهذا من شأنه أن يجعل المجتمعات الفاقدة للمعرفة كليا أو جزئيا والمعطلة لتوجيهات الدين والعقل والحواس مأسورة لجميع مظاهر الفساد والتسلط، وبذلك تفقد جمالية الحياة في كل مجالاتها.

الفرع الثامن : القيم الجمالية :

---

[728]–سورة البقرة الآية :281

[729]– سورة الأعراف الآية :96

[730]– سورة البقرة الآية :278

[731]–ماجد عرسان الكيلاني : فلسفة التربية الإسلامية ص232

1-مفهوم الجمال :

وردت في القرآن الكريم مجموعة من المصطلحات الدالة على الجمال منها لفظ الجمال، الحسن، الآية، الزينة .وكلها مصطلحات تعبّر في النهاية عن تفاعل الإنسان مع مواضع الحسن في الحياة .

جاء في القاموس المحيط: الجمال : الحسن في الخُلق والخَلق.. وتجمّل تزيّن ..وجامله أحسن عشرته، وجمالك أن لا تفعل كذا، إغراء، أي إلزم الأجمل ولا تفعل ذلك، وأجمل في الطلب: اتّأد واعتدل فلم يُفرط[732].

وذكر جميل صليبا أن "الجمال صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سرورا ورضا"[733] والجمال أحد المفاهيم الثلاثة التي تنسب إليها القيم: الحق،والخير،والجمال. بحيث أن الفطرة رُكب فيها عاطفة تنفعل النفس بها عند رؤية الأشياء، فتحكم عليها من حيث الحسنوالقبح و تسمى:" بعاطفة الجمال " فإذا كانت متوازنة في الأشكال منسجمة في الحركات متناسقة في الأجزاء مما تقبله النفس وتميل إليه طبعا اعتبرت جميلة وإلا حكم عليها بالقبح.

أما علم الجمال بالفرنسية (esthetique) فهو "علم يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ونظرياته في الذوق الفني وفي أحكام القيّم المتعلقة بالآثار الفنية"[734].

ويقسم علم الجمال إلى قسمين :

1-القسم النظري العام: وهو الذي يبحث في الصفات المشتركة بين الأشياء الجميلة التي تولد الشعور بالجمال فيحلل هذا الشعور تحليلا نفسيا، ويفسر طبيعة الجمال تفسيرا فلسفيا، ويحدد

---

[732]- الفيروز آبادي : القاموس المحيط ص 993

[733]- جميل صليبا المعجم الفلسفي المجلد 1 ص307

[734]- جميل صليبا :المعجم الفلسفي مجلد 1 ص408

الشروط التي يتميز بها الجميل من القبيح .فهو إذن علم معياري لأنه يحدد القوانين التي تحكم على الأشياء [735].

2-القسم العملي الخاص: وهو الذي يبحث في مختلف صوّر الفن وينقد نماذجه المفردة ويطلق عليه " النقد الفني "وهو لا يقوم على الذوق وحده، بل يقوم على العقل أيضا، لأنه لا يكتفي بما يولده في النفس من إحساس، بل يحاول قياسه بالنسبة إلى الصوّر الغائية التي يتمثلها العقل [736].

فيلاحظ أن استعمال لفظ "الجمال" جاء للتعبير عن ظاهرة الحسن في أي مجال كان ماديا، أو معنويا. ذلك أن الإنسان ركب فيه العاطفة والأحاسيس المختلفة التي تجعله يتفاعل مع ما حوله من الأحداث والظواهر، فيحكم عليها من حيث جمالها وقبحها سواء كانت أفعالا، أو ظواهر، أو مظاهر،أو مواقف .ولعل أهم كتاب اهتم بموضوع الجمال هو القرآن الكريم، ومن هنا نلاحظ أن هناك ارتباطا واضحا بين عقيدة التوحيد والظواهر الجمالية في الحياة الإنسانية على أي مستوى كانت. وشمولية الجمال للحياة الإنسانية يشير إليه الألوسي في تفسير لفظ الجمال :"جمال " زينة في أعين الناس وعظمة، ووجاهة عندهم، والمشهور إطلاقه على الحسن الكثير، ويكون في الصورة بحسن التركيب وتناسق الأعضاء وتناسبها، وفي الأخلاق باشتمالها على الصفات المحمودة، وفي الأفعال بكونها ملائمة للمصلحة، من ذرء المضرة وجلب المنفعة"[737]. ومنه فالجمال له أهميته في الحياة الإنسانية.

2-أهمية الجمال في الحياة الإنسانية وعلاقته بالتوحيد :

حرص الإسلام على تربية الذوق الإنساني الرفيع من خلال مجموع التشريعات والتوجيهات التي نص عليها الكتاب والسنة، ويفهم هذا من سياقات القرآن في عرض الحقائق سواء من ناحية الأسلوب

---

[735]- ينظر المرجع نفسه ص 409/408

[736]- ينظر المرجع نفسه ص 409

[737]- محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني دار الفكر للطباعة والنشر المجلد الثامن ص146

أو اللغة أو الألفاظ المستخدمة، ومن خلال الحرص على تنبيه الإنسان إلى ملاحظة مظاهر الجمال في كثير من قضايا الحياة المحيطة بالإنسان حتى يستمتع بالجمال ويكون عونا له على البقاء والرقي وتكوين شخصية ذوقية تتفاعل مع كل مظهر للجمال في هذا الكون سواء كان مسموعا أو مرئيا، أو مذوقا، أو مشموما، أو ملموسا، أو مدركا بالخيال، لذلك كثرت الأمثال في القرآن الكريم وما يتبعها مما يتعلق بفن المحسنات البديعية ومن تشبيهات، وكذا ما نجده في فواصل الآيات، وما ينتج عنها من موسيقى، بل إن القرآن الكريم يحتفي باللمسة الجمالية في أي عالم من العوالم كانت، فالظاهرة الجمالية في القرآن الكريم لها علاقة وطيدة بقضية التوحيد من حيث :

-كونها تلفت النظر إلى فعل الله في الكون والوقوف على عظمة الخالق ومن ثم ترسم الطريقة المثلى للتعامل مع الكون بما فيه من مكونات، وتحدد العلاقة مع خالق الجمال.

-ولكونها قضية فطرية زرع الله حب الجمال والميل إلى كل شيء جميل في الحياة. قال تعالى: {زُيِّنَلِلنَّاسِحُبُّالشَّهَوَاتِمِنَالنِّسَاءِوَالْبَنِينَوَالْقَنَاطِيرِالْمُقَنطَرَةِمِنَالذَّهَبِوَالْفِضَّةِوَالْخَيْلِالْمُسَوَّمَةِوَالأَنْعَامِوَالْحَرْثِذَلِكَمَتَاعُ لْحَيَاةِالدُّنْيَاوَاللّهُعِندَهُحُسْنُالْمَآبِ }[738].

-ولكون الميل إلى الجمال فطري فقد جعله الله موضع ابتلاء، بحيث جعل له ضوابط سلوكية لا يتعداها الإنسان وهو يستمتع بالجمال قال تعالى: {قُللِّلْمُؤْمِنِينَيَغُضُّوامِنْأَبْصَارِهِمْوَيَحْفَظُوافُرُوجَهُمْذَلِكَأَزْكَىلَهُمْإِنَّاللَّهَخَبِيرٌبِمَايَصْنَعُونَ }[739].

-ولكون الجمال مرغوب عند الإنسان، فهو ميال إلى محاكاة الصنعة الإلهية لتطوير الحياة، وتحقيق جزء من معنى الاستخلاف عن طريق الإبداع المتواصل في الحياة الإنسانية . قال تعالى: {أَوَلَمْيَرَوْا إِلَىالطَّيْرِفَوْقَهُمْصَافَّاتٍوَيَقْبِضْنَمَايُمْسِكُهُنَّإِلَّاالرَّحْمَنُإِنَّهُبِكُلِّشَيْءٍبَصِيرٌ }[740].

738- سورة آل عمران الآية :14

739- سورة النور الآية :30

740- سورة الملك الآية :19

فالعقيدة الإسلامية لها أبلغ الأثر في غرس روح الجمال في نفوس المؤمنين تجلى ذلك في مظاهر الحضارة الإسلامية حيث نقلت الإنسان العربي الجلف في أخلاقه وأحاسيسه وغيره من الأجناس إلى شخصية مرهفة الحس تتفاعل مع كل حالة إنسانية تستدعي الرحمة والشفقة، وتتفاعل مع الكون فتبدع وهي تستمد التوفيق من الله قال تعالى:{وَاتَّقُواْاللّهَوَيُعَلِّمُكُمُاللّهُوَاللّهُبِكُلِّشَيْءٍعَلِيمٌ}[741] فحررت الإنسان من الخرافة، والخمول، والضعف، والفرقة، والعصبية ونقلته إلى التقدم، والعلم، والإبداع، والقوة، والأخوة .

ومن ثم فإن عقيدة التوحيد أساس الحضارة في جانبها الجمالي حيث طبعها الدين الإسلامي بطابعه الخاص المميّز، فليس ثمة أسمى من عقيدة التوحيد التي تصل عقل الإنسان وقلبه وفعله الحضاري المبدع برب السماء تبتغي مرضاته في خطوات البناء والإعمار [742].

وهنا لا يخفى على أي باحث ملاحظة اللمسة القرآنية التوحيدية في الإنتاج الأدبي والمستوى الراقي الذي بلغه لفظا ومعنى ومقصدا وغاية، حيث فجّر طاقات إبداعية أدبية جديدة بمضامين جديدة، وبمنظور إيماني عميق منسجما مع النظرة الجديدة للقضايا الكبرى في الحياة مستلهمة الصوّر والحكم وتركيب الجمل من جماليات القرآن.

كما برز تأثير عقيدة التوحيد في كل الفنون المادية، حيث كان اعتماد الأنساق اللامتناهية في الزخرفة التي توحي بالسمو لا يقتصر وجودها على صفحات القرآن الكريم المزخرفة بأمثلة رائعة من الخط الموشّى أو على المسجد باعتباره محور الحياة الإسلامية، بل إنها تتجلى في بناء مدرسة أو نزل أو دار أو سكنى، لأن نتائج هذا الجهد تبيّن الحاجة للتذكير بما يقوم عليه الفكر الإسلامي من مبدأ التوحيد. ويشير إلى هذا إسماعيل راجي الفاروقي بقوله :" فالوظيفة الأولى هي أن تصاميم الجمال

---

[741]– سورة البقرة الآية : 282

[742]–ينظر الصديق بن محمد بن قاسم بوعلام :جماليات الإحسان مدخل إلى الرؤية الجمالية الإسلامية دار الكتب العلمية بيروت ط1 سنة 2011 ص68

الموجود في الفنون الإسلامية تشكل مواءمة بين الجهود الجمالية للشعوب الإسلامية في كل مكان لإبداع منتجات تبعث في الناظر حدسا بالرفعة الإلهية "[743].

3-أهم القيم الجمالية :

تتجلى القيم الجمالية في عقيدة التوحيد في مظاهر مادية ومعنوية سواء كانت هذه المظاهر مستوحاة من واقع الحياة أو مصوغة من واقع الخيال، ولها ما يقابلها في واقع الحياة، أو مأخوذة من مشاهد القيامة . والإسلام يحث على الزينة والجمال ويرشد الإنسان إلى الإحسان في إنشائهما واستعمالهما والتعامل معهما والاستفادة منهما والاستمتاع بهما، فجوهر دعوة القرآن للجمال أن تكون الزينة والجمال بالله ولله أي باتباع شرع الله وفي حدود أحكامه وابتغاء مرضاته. ويمكن ملاحظة مظاهر الجمال التي يدعو الإسلام إليها من خلال المجالاتالمختلفة :

- جمال الكلمة :قال تعالى: {وَقُلْلِّعِبَادِييَقُولُواْالَّتِيهِيَأَحْسَنُإِنَّالشَّيْطَانَيَنزَغُبَيْنَهُمْإِنَّالشَّيْطَانَكَانَلِلإِنْسَانِعَدُوّاًمُّبِيناً }[744].

-جمال الخُلق :قال تعالى: {وَلَاتَسْتَوِيالْحَسَنَةُوَلَاالسَّيِّئَةُادْفَعْبِالَّتِيهِيَأَحْسَنُفَإِذَاالَّذِيبَيْنَكَوَبَيْنَهُعَدَاوَةٌكَأَنَّهُوَلِيٌّحَمِيمٌ }[745].

-جمال المخلوقات :قال تعالى: {وَلَكُمْفِيهَاجَمَالٌحِينَتُرِيحُونَوَحِينَتَسْرَحُونَ. }[746]

-جمال الإنسان:قال تعالى: {لَقَدْخَلَقْنَاالْإِنسَانَفِيأَحْسَنِتَقْوِيمٍ }[747].

---

[743]-اسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 539

[744]- سورة الإسراء الآية :53

[745]- سورة فصلت الآية : 34

[746]- سورة النحل الآية :6

[747]- سورة التين الآية :4

-جمال الظاهر:قال تعالى:{يَابَنِيآدَمَقَدْأَنزَلْنَاعَلَيْكُمْلِبَاساًيُوَارِيسَوْءَاتِكُمْوَرِيشاًوَلِبَاسُالتَّقْوَىذَلِكَخَيْرٌذَلِكَمِنْآيَاتِاللّهِلَعَلَّهُمْيَذَّكَّرُونَ}[748]{يَابَنِيآدَمخُذُواْزِينَتَكُمْعِندَكُلِّمَسْجِدٍوَكُلُواْوَاشْرَبُواْوَلاَتُسْرِفُواْإِنَّهُلاَيُحِبُّالْمُسْرِفِينَ}[749].

-الجمال النفسي :قال تعالى:{يَاأَيَّتُهَاالنَّفْسُالْمُطْمَئِنَّةُارْجِعِيإِلَىرَبِّكِرَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً}[750].وقال تعالى :{الَّذِينَآمَنُواْوَلَمْيَلْبِسُوٓاْإِيمَانَهُمبِظُلْمٍأُوْلَئِكَلَهُمُالأَمْنُوَهُممُّهْتَدُونَ}[751]

-الجمال الفكري (البرهان والحجة): وقد ساق القرآن براهين مصاغة صياغة منطقية تبهر العقول سواء في إثبات الحقائق، أو الاستدلال على فساد منطق المخالفين منها قوله تعالى :{قُلْهَلْمِنشُرَكَآئِكُممَّنيَهْدِيإِلَىالْحَقِّقُلِاللّهُيَهْدِيلِلْحَقِّأَفَمَنيَهْدِيإِلَىالْحَقِّأَحَقُّأَنيُتَّبَعَأَمَّنلاَّيَهِدِّيإِلاَّأَنيُهْدَىفَمَالَكُمْكَيْفَتَحْكُمُونَ}[752].

س-جمال الفعل الإنساني في العمران (تشييد البناء، وتنظيم الزراعة، ومختلف الفنون):قال تعالى: {وَاضْرِبْلَهُممَّثَلاًرَّجُلَيْنِجَعَلْنَالِأَحَدِهِمَاجَنَّتَيْنِمِنْأَعْنَابٍوَحَفَفْنَاهُمَابِنَخْلٍوَجَعَلْنَابَيْنَهُمَازَرْعاً}[753].وقال عن أقوام في معرض الامتنان وبيان الفضل :{وَتَنْحِتُونَمِنَالْجِبَالِبُيُوتاًفَارِهِينَ}[754].

-جمال المراكب :قال تعالى:{وَالْخَيْلَوَالْبِغَالَوَالْحَمِيرَلِتَرْكَبُوهَاوَزِينَةً وَيَخْلُقُمَالاَتَعْلَمُونَ}[755].

-جمال الكون وتناسق عناصره :قال تعالى:{أَوَلَمْيَرَوْاْإِلَىمَاخَلَقَاللّهُمِنشَيْءٍيَتَفَيَّأُظِلاَلُهُعَنِالْيَمِينِوَالْشَّمَآئِلِسُجَّداًلِلّهِوَهُمْدَاخِرُونَ}[756]

---

[748]- سورة الأعراف الآية :26

[749]- سورة الأعراف الآية :31

[750]- سورة الفجر الآية : 28/27

[751]-سورة النعام الآية : 82

[752]- سورة يونس الآية : 35

[753]- سورة الكهف الآية : 32

[754]- سورة الشعراء الآية : 149

[755]-سورة النحل الآية :8

[756]- سورة النحل الآية :48

وقال تعالى

: {وَهُوَالَّذِيأَنزَلَمِنَالسَّمَاءِمَاءًفَأَخْرَجْنَابِهِنَبَاتَكُلِّشَيْءٍفَأَخْرَجْنَامِنْهُخَضِرًانُّخْرِجُمِنْهُحَبًّامُّتَرَاكِبًاوَمِنَالنَّخْلِمِنطَلْعِهَاقِنْوَانٌدَانِيَةٌوَجَنَّاتٍمِّنْأَعْنَابٍوَالزَّيْتُونَوَالرُّمَّانَمُشْتَبِهًاوَغَيْرَمُتَشَابِهٍانظُرُوا۟إِلَىثَمَرِهِإِذَاأَثْمَرَوَيَنْعِهِإِنَّفِيذَٰلِكُمْلَآيَاتٍلِّقَوْمٍيُؤْمِنُونَ }[757].

- جمال الكلمات القرآنية :قال تعالى: {الٓرۚكِتَابٌأُحْكِمَتْآيَاتُهُثُمَّفُصِّلَتْمِنلَّدُنْحَكِيمٍخَبِيرٍ}[758] {كِتَابٌفُصِّلَتْآيَاتُهُقُرْآنًاعَرَبِيًّالِّقَوْمٍيَعْلَمُونَ }[759].

- جمال العبادات:لا شك وأن العبادة في الإسلام تبرز جماليتها في نوعية الأفراد الذين تظهر عليهم آثار التعبد الذين هم ثمرة للعبادة الصحيحة قال تعالى : {وَعِبَادُالرَّحْمَٰنِالَّذِينَيَمْشُونَعَلَىالْأَرْضِهَوْنًاوَإِذَاخَاطَبَهُمُالْجَاهِلُونَقَالُوا۟سَلَٰمًا }[760]قال تعالى: {فَإِلَٰهُكُمْإِلَٰهٌوَاحِدٌفَلَهُأَسْلِمُوا۟وَبَشِّرِالْمُخْبِتِينَ.الَّذِينَإِذَاذُكِرَاللَّهُوَجِلَتْقُلُوبُهُمْوَالصَّابِرِينَعَلَىمَاأَصَابَهُمْوَالْمُقِيمِيالصَّلَوٰةِوَمِمَّارَزَقْنَٰهُمْيُنفِقُونَ }[761].

- جمالية النظام والتنظيم :قال تعالى:{إِنَّاللَّهَيُحِبُّالَّذِينَيُقَٰتِلُونَفِيسَبِيلِهِصَفًّاكَأَنَّهُمبُنْيَانٌمَّرْصُوصٌ }[762] قال تعالى: {وَحُشِرَلِسُلَيْمَٰنَجُنُودُهُمِنَالْجِنِّوَالْإِنسِوَالطَّيْرِفَهُمْيُوزَعُونَ }[763].

-جمال العلاقات الأسرية :قال تعالى: {الْخَبِيثَٰتُلِلْخَبِيثِينَوَالْخَبِيثُونَلِلْخَبِيثَٰتِوَالطَّيِّبَٰتُلِلطَّيِّبِينَوَالطَّيِّبُونَلِلطَّيِّبَٰتِأُو۟لَٰٓئِكَمُبَرَّءُونَمِمَّايَقُولُونَلَهُممَّغْفِرَةٌوَرِزْقٌكَرِيمٌ }[764].

---

[757]- سورة الأنعام الآية :99

[758]- سورة هود الآية :1

[759]- سورة فصلت الآية : 3

[760]- سورة الفرقان الآية :63

[761]- سورة الحج الآية : 35/34

[762]-سورة الصف الآية :4

[763]- سورة النمل الآية :17

-جمالية البيئة: فالمسلم يمارس عبادته في مكان طاهر بثوب طاهر ببدن طاهر وغايته تحقيق الطهارة الروحية:قال تعالى:{إِنَّاللَّهَيُحِبُّالتَّوَّابِينَوَيُحِبُّالْمُتَطَهِّرِينَ }[765].

-الجمالية الأدبية : ومنها قوله تعالى:{خلق الإنسان . علّمه البيان }[766]

-جمال العمارة :فالبناء المادي السليم هو ما قام على أسس قوية وأرضية صلبة .قال تعالى{أَفَمَنْأَسَّسَبُنْيَانَهُعَلَىتَقْوَىمِنَاللَّهِوَرِضْوَانٍخَيْرٌأَمْمَنْأَسَّسَبُنْيَانَهُعَلَىشَفَاجُرُفٍهَارٍفَانْهَارَبِهِفِينَارِجَهَنَّمَوَاللَّهُلَايَهْدِيالْقَوْمَالظَّالِمِينَ }[767].

- جمال العلاقات الإنسانية : وهي العلاقات التي تخلو من أساليب الاحتقار والظلمقال تعالى:{يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوالَايَسْخَرْقَومٌمِّنقَوْمٍعَسَىأَنيَكُونُواخَيْرًامِّنْهُمْوَلَانِسَاءٌمِّننِّسَاءٍعَسَىأَنيَكُنَّخَيْرًامِّنْهُنَّوَلَاتَلْمِزُوااأَنفُسَكُمْوَلَاتَنَابَزُوابِالْأَلْقَابِبِئْسَالِاسْمُالْفُسُوقُبَعْدَالْإِيمَانِوَمَنلَّمْيَتُبْفَأُوْلَئِكَهُمُالظَّالِمُونَ }[768].

هذه نماذج للجمال كما يتصوره الإسلام، وهو في فلسفته لا يرفض أي لمسة جمالية،مادامت لا

تخالف مبادئ الإسلام، لأن الأصل هو الإباحة.بل إن الإسلام يهدف من خلال عرض جميع الصور أن يربي هذا الذوق في حياة المسلم ليمارس حياته بناء على هذه الفلسفة في بناء مسكنه ومسجده، في اختيار لباسه وانسجامه، وفي تهيئة طريقه وبيئته،وفي مصنعه وصناعاته، وفي جميع قضايا العمران والعلاقات، يريد الإسلام أن يرتقي بالمسلم إلى أعلى مراتب الإتقان الممكنة لبني الإنسان.

ومن خلال هذا العرض لقيم عقيدة التوحيد، نلاحظ استيعابها لجميع قضايا الإنسان، ولجميع مجالات الحياة الإنسانية، ولذا تعرض عقيدة التوحيد نفسها كأفضل نموذج يوجه الحياة الإنسانية للاستمتاع بالحياة الدنيا بكل مقوماتها، ثم الفوز بنعيم الجنة، وتحقيق رضوان الله

---

[764]-سورة النور الآية : 26

[765]- سورة البقرة الآية :222

[766]-سورة الرحمن الآية :4

[767]- سورة التوبة الآية :109

[768]- سورة الحجرات الآية :11

تعالى: {قُلْمَنْحَرَّمَزِينَةَاللَّهِالَّتِيأَخْرَجَلِعِبَادِهِوَالْطَّيِّبَاتِمِنَالرِّزْقِقُلْهِيلِلَّذِينَآمَنُواْفِيالْحَيَاةِالدُّنْيَاخَالِصَةًيَوْمَالْقِيَامَةِكَذَلِكَنُفَصِّلُالآيَاتِلِقَوْمٍيَعْلَمُونَ }[769].

فإذا كانت منظومة عقيدة التوحيد تتميز بهذا الشمول، والعمق، والواقعية في تنظيم الحياة الإنسانية، فإننا نجد في هذه المرحلة التاريخية من الحياة الإنسانية أن هناك طرحا آخر تتبناه العلمانية الشاملة، فتعرض من خلاله نفسها بديلا شاملا للحياة الإنسانية، بعيدا عن الرؤيا المستوحاة من الأديان؛ فهل تملك العلمانية الشاملة رؤيا فعلية عن حقائق الحياة الإنسانية؟ وهل العلمانية الشاملة تمثل فعلا منظومة قيمية تراعي فيها فطرة الإنسان، وتسعد بها الإنسانية ؟ وما مصادر هذه الرؤيا؟ وما الأسس التي يقوم عليها الفكر العلماني ؟ وهل يمكن أن تلتقي الرؤية العلمانية مع الرؤيا الإسلامية للحياة ؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في الفصل القادم .

769– سورة الأعراف الآية :32

الفصل الثاني : العلمانية الشاملة، نشأتها وآثارها

وأتناول فيه ما يلي

المبحث الأول : الجذور التاريخية والفلسفية للعلمانية الشاملة

المطلب الأول : الجذور التاريخيةللعلمانية الشاملة

المطلب الثاني : الجذور الفلسفية للعلمانية الشاملة

المبحث الثاني : ظروف نشأة العلمانية الشاملة

المطلب الأول : التحولات العلمانية من الجزئية إلى الشاملة

المطلب الثاني : مراحلالانتقال من الجزئية إلى الشاملة

المبحث الثالث : مظاهر وآثار العلمانية في المجتمعات الغربية

المطلب الأول : الأثر الفكري

المطلب الثاني : الأثر المعرفي

المطلب الثالث : الأثر الاجتماعي

المطلب الرابع : الأثر الاقتصادي

المطلب الخامس : الأثر السياسي

المبحث الأول :الجذور التاريخية والفلسفية للعلمانية الشاملة

قبل البحث في المفهوم الحديث للعلمانية وبُناها وأسسها، يحسن بنا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها، وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت ؟ لأن العلمانية الشاملة ترعرعت في ظل الحضارة الغربية الحديثة، وليست وليدة أحداث القرن العشرين التي تلت القرون المظلمة في أوروبا، وليست حديثة كما يتوهم الكثير، بل إنها ضاربة الجذور في أعماق العقل الأوروبي، حيث يرجع تاريخها إلى آلاف السنين كما يشير إلى ذلك أبو الحسن الندوي :"فهي سليلة الحضارة اليونانية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والحضارة الرومية، قد خَلَفتهما في تراثها السياسي والعقلي والمدني، وورثت عنهما كل ما خَلَّفتا من ممتلكات ونظام سياسي وفلسفة اجتماعية وتراث عقلي، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما "[770] .

المطلب الأول :الجذور التاريخية للعلمانية الشاملة:

مما لاشك فيه أن هناك علاقة وطيدة بين العلمانية التي ظهرت في أوروبا في القرن العشرين والحضارة اليونانية بفلسفتها، ذلك أن مصطلح العلمانية استعمل عند اليونان والرومان وقد أشار إلى هذا الاستخدام للمصطلح في كلا الحضارتين رفيق عبد السلام فقال :" إن كلمة علماني استخدمت ضمن اللغة الرومانية (سيكلوم) بمعنى الزمني، والدنيوي، والمتغير وما شابه ذلك إلى جانب كلمة (موندوس) للإشارة إلى معنى العالم أو الدنيا .

أما في السياق اليوناني فقد استخدمت بمعنى الزمن أو الدهر أو الحقبة من الزمن ولم يخرج الاستعمال المسيحي لكلمة علماني عن هذا الخط العام، فقد استوعبت المسيحية هذه المعاني اليونانية والرومانية وسكبتها ضمن وعائها الديني الروحاني "[771] .

ولا يخفى أن روح هذين الحضارتين ظل يسري في روح الحضارة الغربية المعاصرة، حيث يقول أبو الحسن الندوي: "وظلت الشعوب الأوروبية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها، حتى برزت بها في القرن التاسع عشر في ثوب براق يوهمك ـبطلاوته وزهو ألوانهـ أنه جديد النسج ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان"[772] ولبيان هذا التأثير يحسن بنا الوقوف على روح وخصائص كلٍّ من الحضارة الإغريقية والرومانية:

1-الحضارة اليونانية وخصائصها:

لا يستطيع أحد أن ينكر بصمات الحضارة اليونانية في التاريخ الإنساني، ويرجع ذلك لكون "اليونان أمة موهوبة، من أنجب أمم العالم وأذكاها وأكثرها استعدادا للعلم والأدب، ومن أخصبها أذهانا وعقولا، وقد مثلت في العالم دورا خالدا بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعبقريين تزهو بآثارهم مكتبات العالم"[773] .

ومن الواضح أن حضارة بمثل هذا الإنتاج والأثر تفرض علينا أن لا نقف عند الظواهر والمظاهر بل توجب البحث والنظر في طبيعتها والخصائص التي تميزها عن سائر المدنيات الأخرى، ومن أهم المميزات التي تجلت بوضوح نظريا وعمليا في مدنية اليونان ما لخصها الندوي فيما يأتي:

"الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس ويمكن ملاحظة ذلك من خلال :

أ-قلة الدين و الخشوع .

ب-شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام بمنافعها ولذائذها.

ج- النزعة الوطنية.

فتعد المدنية اليونانية مركز الحضارة الغربية .ويمكن أن تحصر هذه المظاهر المشتتة في كلمة مفردة وهي المادية "[774] المعاصرة، والمعروف عن الحضارة اليونانية أنها تعتد كثيرا بالمحسوسات، لذلك كانت عنايتهم كبيرة ببناء الجسم الجميل

---

770 -أبو الحسن علي الحسني الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين مكتبة رحاب الجزائر ط 10 سنة1987 ص156

[1]- رفيق عبد السلام: في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص19

772 -أبو الحسن علي الحسيني الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 157.

773 -المرجع نفسه

774 -أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص158/157

والقوي، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقصحيث"كان التثقيف الذهني الذي يحتوي على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حدا خاصا حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب ارتقاء الجسم "[775] .

كما تتجلى نزعتهم المادية بشكل أوضح في كونهم جعلوا كل ما يتصل باليونان من فن وثقافة وفلسفة وشعر يخدم هذا الاتجاه حتى الدين أعطوه الصبغة المادية فجسدوا الإله وعددوه، فلم يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في مجسم، فنحتوا التماثيل وبنوا لها معابد وهياكل، فللرزق إله وللرحمة إله وللقهر إله، وأكثر من ذلك صوروا المعاني المجردة، فللحب إله وللجمال إله، وهو ما جعلهم يميلون إلى اللهو والطرب في حياتهم فضعف الدين وقل الخشوع، لأن اليونان كانوا يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء، وقد أبان الندوي عن حالهم فيما نقل عن "أبوليس" المؤلف الرومي قوله :" لا ريب أن التاريخ اليوناني يصدق ذلك ويؤيده، فلا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده في كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفي قلبه الخشية والخشوع، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم، وكانوا يكتفون في تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية " [776] .

ومعنى هذا أن لليونان فلسفة إلهية خاصة يستبعد معها تحقق معنى العبادة(الخشية والخشوع) لأن اليوناني لا يقصد الله في حياته العملية إلا تقليدا ويعيش كأنه لا إله ولا رب، ومن هنا أثر شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة في قيمتها والولوع بالتماثيل والصور العارية والغناء والموسيقى وجميع ما يسمى بالفنون الجميلة، فأصبح الأدباء والمؤلفون يشيدون بالحرية الشخصية التي لا تعرف قيدا ولا تقف عند حد .

وانتقل هذا التأثير إلى الأخلاق والمجتمع " فانتشرت الفوضى في الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام، وأصبح شعار الرجل الجمهوري (وهو كناية عن الحر المتنوّر) الجري وراء الشهوات العاجلة وانتهاب المسرات والتهام الحياة انتهام الجائع النهم"[777].

أما فيما يخص النزعة القومية فإن اليونان استقر أمرهم على جعل حب الوطن فضيلة تتقدم جميع الأخلاق، فكان النظام الأخلاقي لأرسطو طاليس مبنيا على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني، ولم يكتف بحب الوطن فحسب، بل ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم، وراجت هذه الفكرة الوطنية في الأوساط اليونانية وتغلغلت في الأحشاء [778].

ولا شك أن الغرب سلّم بغلبة المادية في المدنية اليونانية وتأثر بها وانعكست في شتى مجالات حياته .فجاء الفلاسفة في الغرب ونسجوا منهج حياتهم على هذا المنوال فكرا قائما على المادية الخالصة وإن تعددت منطلقاته حسب ما ذهب إليه كل صاحب نظرية . ويؤكد محمد نقيب العطاس هذا التأثير الذي يرجعه إلى سوء تطبيق للفلسفة الإغريقية فيقول :"وهكذا فقد كان تغريب المسيحية مؤشرا على بداية علمنتها. وقد كانت العلمنة نتيجة سوء تطبيق للفلسفة الإغريقية على الفكر الديني الميثافيزيقي، الأمر الذي أدى منطقيا في القرن السابع عشر الميلادي إلى قيام الثورة العلمية التي قادها ديكارت الذي فتح أبواب الشك على مصاريعها، كما أدى فيما بعد (خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي حتى وقتنا الحاضر إلى تفشي الإلحاد واللاأدرية، والنفعية، والمادية، والجدلية، ونظرية النشوء والارتقاء، والتاريخانية "[779].

2-الحضارة الرومية وخصائصها:

إن المتتبع لتاريخ العلاقة بين المدنية الرومية والمسيحية يدرك أن المسيحية الغربية "قد وقعت منذ تاريخها المبكر تحت التأثيرات الرومانية مع ما صاحبها من صبغ المفاهيم والرموز الدينية المسيحية صبغة لاتينية رومانية أصبحت بمقتضاها

---

[775] -المرجع نفسه ص 158

[776] -المرجع نفسه ص159

[777] - أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص160/159

[778] ينظر المرجع نفسه ص 161

[779] -محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ترجمة محمد الطاهر الميساوي دار النفائس ط1 سنة 2000 ص49/48

تلك الرموز والمفاهيم الدينية مفعمة بالفلسفة الأرسطية ورؤيتها الكلية للوجود وعناصر أخرى من الثقافة الغربية .وقد أدى هذا الخلط تدريجيا إلى نزع القداسة عن الطبيعة وتجريدها من مغزاها الروحي " [780].

فالمدنية الرومية تعد امتدادا للمدنية الإغريقية حيث خلف الروم اليونان وتفوقوا عليهم في القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية، إلا أنهم كانوا قاصرين علميا بالمقارنة مع اليونان كما يشير أبو الحسن الندوي: " لكن لم يلحقوا بهم بعد في العلم والفلسفة والآداب والشعر واللباقة والمدنية التي كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضا الذين كانوا لا يزالون في دورهم العسكري "[781].

فكان تأثير الفلسفة اليونانية قويا في المدنية الرومية فالمغلوب مولع بتقليد الغالب ـ كما ذكر ابن خلدون ـ " فخضعوا لهم علميا وتطفّلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم...وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التي غلب أهلها في السياسة، ولم يزالوا مأخوذين بسحرهم في كل قسم من أقسام العلم...ولم يكن هذا الخضوع خاصا في عالم التأليف والأدب فحسب، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية في الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع وفي العواطف والنزعات وفي كل ناحية من نواحي الحياة العامة، وأصبح الروم يقلّدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون"[782] .

وهكذا انتقلت منظومة اليونان إلى الروم بكل محتوياتها الفلسفية والثقافية وحتى النفسية وتشكلت شخصية روما وكادت أن تكون نسخة طبق الأصل للإغريق، ذلك أنه لم يكن الروم بطبيعتهم الأوروبية يختلفون كثيرا عن اليونان في الخصائص الفطرية . يقول أبو الحسن الندوي :" بل هناك شبه عظيم بين الأمتين، إيمان بالمحسوس وغلو في تقدير الحياة وشك في دين وضعف يقين، واضطراب في العقيدة، واستخفاف بالنظام الديني وطقوسه، واعتزاز بالقومية وتعصب لها، وحب مفرط للوطن. زد إلى ذلك كله اعتدادا بالقوة واحتراما لها يبلغ العبادة والتقديس"[783] .

وبلغ استخفافهم بالدين حدا عجيبا حتى قال الراهب أوغستين[784] :" إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل "[785] . كما أن اعتدادهم بالقوة نمآ فيهم الروح الاستعمارية وتقديس المادة، وظلت تصاحبهم حتى اليوم، كما يشير إلى ذلك الندوي فيقول :" والظاهرة التي يمتاز بها الروم من بين أمم الأرض المعاصرة بل بعدها،

---

[780] -محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص55

[781] - أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص161/162

[782] - أبو الحسن الندوي : المرجع نفسه ص162

[783] -أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص162

[784])كاتبوفيلسوف يعد أحد أهم الشخصيات 430–354-الراهب أوغستين :(القديس أوغسطين):) (
تعتبره الكنيستان الكاثوليكيةوالأنغليكانيةقديسا وأحد آباء الكنيسةالبارزين ..المؤثرة في المسيحية الغربية يعتبره العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيونأحد المنابع .وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني وتعتبره بعض الكنائس الأورثوذكسيةمثل .اللاهوتيةلتعاليم الإصلاح البروتستانتيحول النعمةوالخلاص .الكنيسة القبطية الأرثوذكسيةقديسا
تلقّى تعليمه في .ولد في شمال أفريقيامن أمه الأمازيغية القديسة مونيكا، وأبيه الوثني باتريس روماوتعمّدفي ميلانو. ورغم نشأته المسيحية، فإنه ترك الكنيسةليتبع الديانة المانويةخاذلا أمه.كان تعليمه في موضوعي الفلسفةوعلم البيان،(علم الإقناع والخطابة. بعد أن عمل في التدريس في إلى رومالظنّه أنها موطن خيرة علماء البيان. إلا أنه سرعان ما خاب ظنه 383تاغستوقرطاجانتقل عام .384من مدارس روما، تم تعيينه أستاذا هناك واستلم منصبه في أواخر عام
في ميلانوبدأت حياة أوغسطينوس بالتحول. من خلال بحثه عن معنى الحياة، وبعد عودته إلى تاغست تمت تسميته كاهنافي إقليم هيبو (عنابةفي 391(سوق أهراس الجزائرية) قام بتأسيس دير.و في عام تم تعيينه أسقفا مساعدافي هيبو 396الجزائر)، وقد تم حفظ أكثر من 350 موعظة تنسب إليه . في عام رغم تركه الدير إلا أنه تابع حياته الزاهدة في بيت الأسقفية. وبحكم الأنظمة الرهبانية 430حتى وفاته عام .التي حددها في ديره أهلته أن يكون شفيع الكهنة

[785] - أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص163

والتي أصبحت دينا تدين به وشعارا تعرف به هي روح الاستعمار والنظر المادي البحت إلى الحياة، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الرومبين وخلفتهم فيه"[786].

فلم يكن للدّين تأثير في أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها، لذلك صاحب هذا الوضع انحطاط تام في الأخلاق فكان تدينهم محاكاة لأساطير الإغريق وخرافاتهم، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل في حياتهم أو أن تفرض عليهم شرائع أخلاقية. وانتهى بهم الأمر إلى تغييب كل القيم من مشهد الحياة، إلا ما كان منها خادما لماديتهم ومضخما لها. وقد أوجز الندوي هذه الحالة نقلا عن كتاب صراع الدّين والعلم فقال : " لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدّين إلى أسفل الدركات ...وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتمتع، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف، ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة...وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوّخوا العالم أنّه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة فهو القوة "[787] .ولا تجد مثالا لهذا العكوف على اللذة واللهو في أشد ساعات الحرج وفي آخر ساعات العمر إلا في يونان وروما في العهد القديم، وأما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط، وهذا نفسه منطق العلمانية اليوم، في المجتمعات الغربية.

3- تاريخ المسيحية وأخطاؤها :

عرفت أوروبا المسيحية منذ القرن الأول الميلادي، وكانت إذ ذاك المسيحية محتفظة بصفائها ونقائها، لأنها كانت قريبة العهد بمبعث المسيح عليه السلام، لكن هذه المسيحية ما إن انتقلت شمالا نحو أوروبا حتى أفسدها الفكر الإغريقي والتنظيم الروماني حيث "انفردت المسيحية من دون أديان العالم الكبرى جميعا بأن حوّلت مركز ظهورها من القدس إلى روما علامة على بداية تغريبها وعلى خضوعها التدريجي المستمر لحشد من العناصر الثقافية الغربية، تلك العناصر التي أدت في المراحل اللاحقة من تاريخ المسيحية إلى نشوء العلمنة وتسارع مسارها واشتداد زخمها"[788].وخلال القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح كانت المسيحية في محنة من جهتين :

الأولى: الأفكار التي روّجها "بولس"[789] في حياته وبثّها في الرسائل المعروفة باسمه في أواخر العهد الجديد "الأناجيل" ويسمّيها المسيحيون ب "رسائل الرسل". ولبولس منها أربعة عشر رسالة، ومسيحية بولس تقوم على التثليث وتأليه المسيح، الأمر الذي لم يقل به المسيح عليه السلام قط، وقد أنكر كثير من المسيحيين هذه العقيدة طوال القرون الثلاثة الأولى، وتصدى "آريوس" لأباطيل بولس وأذاع بين الناس أن المسيح ليس بإله، ولكنه مخلوق لله الواحد الأحد، وكثر أتباع آريوس حتى عرفوا ب"الآرسيون"، وتابع كثير من الكنائس رأي آريوس إلا كنيسة الإسكندرية فقد تبنّت عقيدة بولس وحكمت على أريوس بالحرمان، ولكنه بقي على رأيه ولم يذعن لقرار كنيسة الإسكندرية.

---

[786] - أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص164

[787] - أبو الحسن الندوي : المرجع نفسه ص165 نقلا عن كتاب صراع الدين والعلم .

[788] - محمد نقيب العطاس : المرجع السابق ص46

[789] -بولس : كان يهوديا طرطوسيا من الفريسيين (طائفة يهودية) وكان اسمه شاؤول وهو لم ير عيسى عليه السلام ولا سمعه، مع أنه قد أدرك زمانه، وكان في أول عهده من أشد أعداء النصارى، ثم أعلن دخوله النصرانية بعد رفع عيسى عليه السلام، وأحاط دخوله فيها بادعاءات ومشاهدات روحية خلاصتها أن عيسى عليه السلام "الرب" قد اختاره ليعلم الدين ويكرّز بالمسيحية أي يعظ بها ويدعو إليها.ويروي الإصحاح الثاني والعشرين من أعمال الرسل عن بولس (شاؤول أنه قال :"....13 أتى إلي ووقف وقال لي : أيها الأخ شاؤل أبصر .ففي تلك الساعة نظرت إليه 14فقال إله آبائنا انتخبك لتَعلَم مشيئته وتبصر البارّ وتسمع صوتا من فمه 15لأنك ستكون شاهدا لجميع الناس بما رأيت وسمعت 16 والآن لماذا تتوانى .قم واعتمد واغسل خطاياك داعيا باسم الرب) ومنذ ذلك الحين نشط بالدعوة إلى المسيحية معلنا أن عيسى هو ابن الله .حتى صار المعلم الأول، وصار أحد الرسل السبعين الذين نزل عليهم روح القدس في اعتقاد النصارى .وأصبحت رسائله هي الرسائل التعليمية حتى صار معلما ل"مرقس " أحد كتاب الأناجيل الأربعة كما كان معلما ل"لوقا" التلميذ الحبيب والرفيق الملازم. وقيل قتل في اضطهادات نيرون سنة 66أو67م بتصرف كواشف زيوف ص 27/26.

على العموم عرفت المسيحية مرحلة أخرى بعد ظهور شخصية "بولس الرسول" المعروف بهذا الاسم في المصادر المسيحية واستطاع هذا الرجل أن يحرّف في جوهر الديانة المسيحية دون أن يستطيع أحد معارضته، لأنه زعم أنه يتلقى التعاليم من المسيح تلقيا إلهاميا روحيا وصدقوه في ذلك، وأدخل في المسيحية ما أدخل وحرّف فيها ما حرّف وكاد دين الله ما كاد[790].

- **الثانية:** اضطهاد أعداء المسيحيين: حيث مرت على المسيحيين أدوار من الاضطهاد الديني الذي كان يشتد ويخف من حين لآخر، وذلك منذ رفع المسيح عليه السلام وبلغ الاضطهاد الروماني لهم في العهود التالية [791].ومنها:

1-في عهد الإمبراطور الروماني "نيرون"[792] الذي حكم من سنة (54 إلى سنة 68 م) ولفق لهم تهمة حرق مدينة روما وأنزل بهم ألوانا من العذاب أخذت في بعض المراحل طابع العنف الجماعي.

2-في عهد الإمبراطور "تراجان "الذي حكم من سنة (98 إلى 117 م) فمنع الاجتماعات السرية، وحكم بالإعدام على من تثبت عليه التهمة بأنه مسيحي .

3-في عهد الإمبراطور "ديكيوس" الذي حكم من سنة (249إلى سنة 251م) حيث أمر بالاضطهاد العام للمسيحيين.

4- في عهد الإمبراطور "دقلديانوس" الذي حكم من سنة (274 إلى 305)فقد أمر بهدم كنائسهم وإحراق كتبهم وسجن أساقفتهم ورعاتهم.

استمر وضعهم على هذه الحال حتى أوائل القرن الرابع الميلادي أ ي سنة 306 م وفي القرن الرابع الميلادي حدث تحوُّل هام في علاقة الروم بالمسيحية مع وصول الإمبراطور الروماني" قسطنطين الأول الأكبر "إلى الحكم على أشلاء النصارى الذين بذلوا دماءهم لإيصاله إلى الحكم ليظفروا بعطفه على النصرانية متى صار إمبراطورا فحكم من سنة (306 إلى 337م) يقول أبو الحسن الندوي : " ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى الملك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التي أريقت في الذب عنه والنصر له، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه، ووطأ لهم أكتافه وقلّدهم مفاتيح ملكه "[793].

غير أن هذه المساومة كانت باهظة الثمن، حيث قبلوا بعد ذلك بتحريف دينهم مقابل الغلبة، ظنا منهم أنهم إذا ملكوا استطاعوا إصلاح ما لحق بالنصرانية .يقول أبو الحسن الندوي :" ولكن انتصر النصارى في ساحة القتال وانهزموا في معركة الأديان، ربحوا ملكا عظيما وخسروا دينا جليلا، لأن الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ومسخه أهله، وكان أكثر مسخا له وتحريفا هو "قسطنطين الكبير" حامي ديار النصرانية ورافع لوائها"[794] فقد ترومت المسيحية ولم تتمسح روما." وبدا له بعد ست سنوات من الحكم أن يعتنق المسيحية سنة (313م) دون أن يبتعد كثيرا عن وثنية روما التي كانت دين أسلافه، وهي عقيدة وثنية قائمة على التثليث، وكان هذا ثمرة تأييد النصارى له. فأصدر مرسوما بذلك، ولبست الوثنية الرومانية منذ ذلك الحين ثوب المسيحية "[795].

على الرغم من أن المسيحية الغربية المنتصرة مناقضة للمسيحية في مهدها الأول كما يقول جرين برنتن في كتابه "أفكار ورجال" :"إن المسيحية الظافرة في مجمع نيقية هي العقيدة الرسمية في أعظم إمبراطورية في العالم مخالفة كل المخالفة لمسيحية المسيحيين في الجليل"[796].

---

790 - ينظر : الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة مكتبة وهبة القاهرةط1 سنة 1987 ص8/7 . وكواشف زيوف ص28/27/26.

791 -عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني :كواشف زيوف ص31/30 بتصرف.

792 - كلاوديوس : هو قيصر نيرون (37-68م) تولى الإمبراطورية من (54-68م) تُلقى عليه تبعة حريق روما الكبير سنة (64) لكنه اتهم المسيحيين بهذا الحريق، ثم أعاد بناء روما على نمط فخم جميل .

793 أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص166

794 - أبو الحسن الندوي :المرجع نفسه ص 166

795 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : كواشف زيوف ص31.

796 -المرجع نفسه ص35

ولما شعر المسيحيون بأنهم ملكوا حريتهم الدينية، بدأت تطفو على السطح خلافاتهم الدينية بين الطوائف والمذاهب .رأى قسطنطين ضرورة التدخل في شؤون الكنيسة ليعتمد مذهب إحدى الطوائف المتصارعة، والتي يكفر بعضها بعضا، فدعا إلى مجمع كنسي عالمي وهو ما يعرف باسم "مجمع مسكوني " في " نيقية"[797]، حيث دار النقاش فيه حول شخص المسيح عيسى عليه السلام وانقسمت الطوائف إلى ثلاثة آراء :

أ-القائلين بأن عيسى عليه السلام رسول من عند الله كسائر الرسل، وهو ابن الإنسان وزعيم هذه الطائفة "أريوس" .

ب-وطائفة تقول أن المسيح هو الآب بمنزلة شعلة من نار انفصلت عن شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية، وزعيم هذه الطائفة "سابليوس ".

ج- طائفة تقول إن المسيح إله، وهو الملتزمون بأقوال "بولس أو شاؤول".

إلى غير ذلك من المذاهب التي ولدها الغلو في عيسى عليه السلام، فصار لله ابن، وأصبح هذا الابن إلها أو نصف إله، وبذلك يكون الغرب قد ارتكب أكبر الكبائر حين ألّه الإنسان وأنّس الإله. (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا).

وانتصر الإمبراطور "قسطنطين" لعقيدة "بولس " والقائلين بألوهية المسيح وبفكرة التثليث، على الرغم من أن نسبة 84.47 ، ومعنى هذا أن القرار %أما نسبة القائلين بألوهية المسيح لم تتجاوز 15.53 % الرافضين لألوهية المسيح قد بلغت مشوب دعت إليه الرهبة من السلطان كما يشير إلى ذلك عبد العظيم المطعني [798]، لأنقولهم صادف هواه والتقى مع توجّهه الوثني[799]. "فأمر قسطنطين بأن تكون هذه العقيدة هي الدين العام، ومن ثم ولدت " الكاثوليكية " دينا رسميا للدولة الرومانية، وترجمة هذه اللفظة "الدين العام""[800] .

وكانت النتائج المتمخضة عن مجمع نيقية تتمثل في[801] :

1-القول بألوهية المسيح عليه السلام وكونه ابنا لله ..؟!

2-القول بألوهية الروح القدس. ؟!

3-القول بالثالوث المقدس :الآب –الابن-الروح القدس. ؟!

4-القول بالخطيئة الموروثة وأن بني آدم مؤاخذون بعصيان أبيهم آدم حيث أكل من الشجرة المحرمة، شجرة المعرفة.؟!

5-القول بعقيدة الخلاص عن طريق القرابين ووساطة الكهان بين العبد وربه.؟!

6- الجزم بصلب المسيح وأن الصّلب كان فيه فداء وخلاص لبني آدم من الخطيئة الموروثة ؟!

7- القول بأن للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية أو طبيعتين إحداهما ناسوتية (نسبة إلى الناس) باعتبار الجسد .وأخرى لاهوتية (نسبة إلى الألوهية) باعتبار الروح أو الحقيقة؟!

---

797 - نيقية : مدينة قديمة بآسيا الصغرى أسست في القرن الرابع قبل الميلاد .كانت مركزا تجاريا مزدهرا في ظل الحكم الروماني، وهي الآن في تركيا بغير هذا الاسم .ينظر (كواشف زيوف) ص32.

798 -ينظر عبد العظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة ص 3

799 - وربما كان للقائلين بالتثليث من أتباع "بولس = شاؤول "صاحب التحريف الأول في النصرانية، تأثيرا على الإمبراطور فقد يكون بعضهم قد صار من المقربين إليه ومن حاشيته ومستشاريه، فزين له اعتماد مذهب أهل التثليث ينظر (كواشف زيوف) ص33.

800 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : كواشف زيوف ص 33

801 - عبد العظيم المطعني : الإسلام والإيديولوجيات المعاصرة ص4

ولم ترحب الدوائر المسيحية بقرار مجمع "نيقية" ووقعت معارضة عنيفة بين الموحدين وكثير من الكنائس، وبالرغم من ذلك فالقرار لاقى الذيوع والانتشار بمساندة من القوة.

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الوثنية والشّرك دخلت إلى النصرانية بتأثير من المنافقين الذين تقلّدوا مناصب خطيرة وعالية في الدولة بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحتفلون بالدّين ولم يخلصوا له يوما، وكذلك كان قسطنطين الذي لم تكن عقائده تساوي شيئا، ورأى من مصلحته أن يوحّد ويؤلف بين التيار "النصراني" و"الوثني " فلم ينكر عليه النصارى، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء، كما يقول "درابر" الأمريكي في كتاب "تاريخ الصراع بين العلم والدّين [802].وبهذا تكون الكنيسة اختلطت مبادئها بالحضارة الرومانية، ولم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومة الشّرك. ف "فقدت النصرانية روحها وجمالها، ولم تستطع أن تغيّر من سيرة الروم المنحطة، وأن تبعث فيهم حياة جديدة، حياة دينية نقية طاهرة ... بل إنها ابتدعت "رهبانية" لعلها كانت شرا على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومية الوثنية، وقد جنّ جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني، وتخطى حدود القياس "[803].

والظاهرأن المسيحية أخفقت في احتواء هذه العناصر، مما فتح المجال أمام التطورات العلمانية التي بذرتها القوى الغربية في صلبها، لتأخذ مداها على نحو مطّرد وبقوّة في مجالات الفلسفة وعلم الكلام والعلوم الطبيعية حتى ظهر أثرها الشامل في الحياة الغربية وبخاصة بعد اعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول الأكبر للمسيحية، حيث تجلّت التأثيرات المادية الرومانية وظهرت بصماتها في الكنيسة بعد ذلك، فقد بدأ استعمال مصطلح العلمانية في الثقافة الكنسية وذلك في سياق التمييز بين العاملين في الكنيسة من حيث رتبهم، يقول رفيق عبد السلام: " استعمل نعت علماني ومنذ وقت مبكر داخل الكنيسة، للدلالة على طبقة رجال الدين الذين يقومون على خدمة الشؤون الدنيوية لعامة المتدينين (وخدمة المسيح)، ولكن دون أن تنطبع الضرورة بالقيم والمسلكيات الدنيوية، وذلك تمييزا لها عن طبقة الرهبان القساوسة المتفرغين لشؤون العبادة والتبتل الروحي بصورة كاملة وبمعزل عن الشؤون الدنيوية "[804].

ولم تكتف تلك المجامع بما فعلت، بل أخذت تضيف كل ما من شأنه أن يعلي من شأن الكنيسة ويقوّي من سيطرتها على مقاليد الأمور، فأضافت عقيدة أن البابا معصوم، وأنه وحده له حق تفسير التعاليم في مجمع "لاتيران " عام 1215م وصدر قرار كنسي خطير يقضي بأن الكنيسة لها ثلاثة حقوق هي :

1-حق الحرمان : ويعني أن الكنيسة تملك حق الحرمان من الرحمة لكل من يخرج عن تعاليم الكنيسة أو يرى غير ما ترى الكنيسة من عقائد وتفسيرات، وقد مارست الكنيسة هذا الحق على شكلين:

- في شكل فردي : حيث كانت تصدر أحكاما عقابية رادعة على الأفراد المهرطقين الخارجين عن سلطانها إما بالإعدام أو اللعنة والطرد من ملكوت السموات، مثل ما حدث مع "قاليليو" و "نيوتن ".

- وفي شكل جماعي : حيث كانت الكنيسة تعاقب الجماعات، بل والشعوب بما تراه من عقوبات، كما حدث للشعب الإنجليزي حين اختلف الملك يوحنا مع البابا، فأصدر البابا قرارا بحرمان شعب انجلترا كله، فعطلت الكنائس وعقود الزواج والصلاة على الموتى، وكان كل الموتى يحملون إلى القبور بغير صلاة.

وفي هذا الإطار أنشأت الكنيسة محاكم التفتيش التي كان يحاكم فيها كل من تحوم حوله الشبهات، ويؤخذ بالظنّة فيعدم أو يحرق بلا رحمة ولا شفقة.

2-حق الغفران :

وبمقتضاه منحت الكنيسة نفسها حق غفران الذنوب والخطايا بعد الاعتراف أمام القسيس، وجعلته مقدمة لمنح المعترف البراءة والتطهير، مقابل مقدار من المال يبذل للكنيسة من راغبي الغفران وكانت تعطي لهم صكا يسمى صك الغفران

---

[802] - ينظر أبو الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 166/167

[803] -أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 167

[804] -رفيق عبد السلام :في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص20

كمستند مادي على الكنيسة يتيح لحامله دخول الجنة.أما الفقراء فكي يحصلوا على هذا الصك يقومون بخدمة الكنيسة بدلا من بذل المال الذي عجزوا عنه، وهكذا أخذت الكنيسة تحكم قبضتها على الناس وتسيطر على مصائرهم الدنيوية والأخروية .

3-حق التحلية :

وفيه منحت الكنيسة نفسها حق الخروج عن النصوص المقدسة وتعاليم الرسل إذا رأت في ذلك مصلحة لها. فاستمرأ أولئك القديسون ما أحيط بهم من مظاهر التقديس فاسترهبوا الناس وأوهموهم أن بأيديهم مفاتيح كل شيء، فمنحوا لأنفسهم حق اللّعنة وحق الغفران وحجروا على الناس أن يستعملوا نعمة العقل التي منّ الله بها عليهم، حتى صار الدّين من أهم العوائق أمام العقل والمنطق، فحال بين العقل وبين التعبير عن ذاته أي حُرِم الإنسان من السعادة. وظلت الكنيسة تدعم هيمنتها من خلال قرارات وطقوس تجلت من خلالها مظاهر الفساد داخل الكنيسة وتتمثل في:

أ-الطغيان الديني :

ويتمثل الطغيان الديني في الرهبانية التي لم تكن من السلوكات والشعائر المألوفة في المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى وإنما هي بدعة عرفت خلال القرن الرابع الميلادي، وإنما برزت الرهبنة كرد فعل لحياة الروم بعد تنصرهم في أوائل القرن الرابع الميلادي بعد أن صار المجتمع المسيحي يتكون من عنصرين هما:

1-العنصر المسيحي الأصيل وكانت المسيحية حتى آنذاك لها صلة وثيقة برسالة السيد المسيح عليه السلام إذ لم تكن الانحرافات قد تفشت فيها على النحو الذي حدث فيما بعد .

2-العنصر الروماني الدخيل وكان للروم فلسفة في الحياة ذات اتجاه مادي بحت، وحين امتزاجها بالمسيحي كان هنا واحد من احتمالين :

-إما أن يحمل المسيحيون الروم على حياة الطهارة والعفاف والإيمان بالآخرة، وإما يجرف الروم المسيحيين إلى حياة اللذة الفانية، وعدم الاكتراث بما عند الله.

لكن وللأسف غلبت النزعة الرومية القائمة على فلسفة "أبيقور" (280 ق م) صاحب مذهب اللذة .حيث ينقل أبو الحسن الندوي عن "ليكي " في كتابه تاريخ أخلاق أوروبا فيقول: "إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والمسابقة في زخارف اللباس والحلي والزينة في حدتها وشدتها، كانت الدنيا تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزّهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور "[805]. وإزاء هذا نحا فريق من المسيحيين إلى الرهبانية، وكأنهم أرادوا تذكير المسيحيين بالعفة والطهارة والتنزه عن الدنايا التي بشّر بها المسيح عليه السلام، وكانت في بدايتها معتدلة، ثم غالوا فيها مغالاة كبيرة، وروى المؤرخون منها العجائب.

ولم تكن الرهبانية في حقيقتها إلا مصادمة للفطرةحيث أن من معتقدات الكنيسة كراهية الزواج وتفضيل حياة العزوبية والسبب أن الكنيسة تنظر للمرأة نظرة ازدراء لأنها كانت السبب في خروج آدم من الجنة، وتتأكد حياة العزوبية لرجال الإكليروس حتى يتفرغوا للعبادة، لأن من يتزوّج وينجب يمنح ولاءه لزوجه وأولاده من دون الله، وكمال التعبد لا يكون إلا للعزوبة، وهذا المبدأ مأخوذ من كلام بولس الذي يقول فيه :" أقول لغير المتزوجين والأرامل أنه خير لهم أن يبقوا مثلي "[806].

وكان من نتيجة قمع الفطرة أن" تسرّب الضعف والانحراف في المراكز الدينية حتى صارت تزاحم المراكز الدنيوية، وربما تسبقها في فساد الأخلاق والدعارة والفجور. لذلك أوقفت الحكومة المآدب التي كانت ترمي إلى عقد الألفة والأخوة بين

---

[805]-أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص172/171

[806]-عبد العظيم المطعني : الإسلام والإيديولوجيات المعاصرة ص 12

المسيحيين، وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التي وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعا، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات"[807] .

وقد عجزت الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة في البهيمية والشّهوات، لأنها حاولت أن تفرض منطقا تأباه الفطرة الإنسانية، فإن المنهج القادر على مواجهة المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحي الديني الخلقي الحكيم الذي يوافق الفطرة الإنسانية ولا يعمل على كبتها، بل ينظمها ويوجهها توجيها نافعا .

كما تجلت مظاهر الطغيان الديني، وشملت كل المجالات ومن أمثلتها ما يأتي :

-هيمنة رجال الدين على أحكام الدين واعتماد قرارات المجامع الكنسية في الأحكام الدينية المختلفة، ثم منحت هذه السلطة إلى البابا، ومنح رجال الدين العصمة لأنفسهم فيما يقررون من أحكام، فكانوا بذلك أربابا من دون الله يحللون ويحرمون بحسب ما يتفق مع أهوائهم .

- ابتدعوا عبادة عيسى، وعبادة الصليب، وعبادة التماثيل والعشاء الرباني[808] وأشكالا من الطقوس ما أنزل الله بها من سلطان.

-كان الصوم عبادة وفق نظام الشهر القمري فغيّره رجال الكنيسة إلى صوم ثابت في شهر شتائي موافق لحساب الأشهر الشمسية، ومن صوم عن الطعام والشراب إلى صوم عن بعض الأنواع، وزادوا في عدد أيام الصيام .

-كان الطلاق وتعدد الزوجات شريعة من عهد سيدنا إبراهيم من الأحكام الموروثة عن بني إسرائيل، ثم ظهر بحكم كنسي بابوي تحريم تعدد الزوجات ومنع الطلاق إلا في أحوال ضيقة جدا وهي الخيانة الزوجية.

-منحوا أنفسهم حق الغفران للمذنبين وذوي الخطايا فرتبوا بناء على ذلك مراسم الاعتراف والغفران، ووضعوا رسوما مالية يدفعها المعترف للكنيسة، فكانت جلسة الاعتراف أمام الكاهن هي الطريق الوحيد للتوبة ونيل رضوان الله، ولا يمكن للإنسان أن يدعو ربه إلا من خلال هذه الواسطة التي احتكرها رجال الدين لأنفسهم، حتى ينال الغفران، وجرّ ذلك إلى ابتزاز أموال الناس، وجرأ الجماهير على ارتكاب الخطايا مادام الغفران مضمونا مقابل أجر معلوم.

- ولما قام الناس للمطالبة بحقوقهم التي سلبها الأباطرة والإقطاعيون والملوك، وقفت الكنيسة إلى جانب الظالمين المستبدين، وأصدروا الفتاوى الدينية في حق من تمرد وطالب بالحقوق بأنه قد مَرَقَ من الدّين واستحق غضب الله، فمنحوا أنفسهم حق الحرمان من الدّين، ومنحوا رجل الكنيسة حق التحلّة من أحكام الدّين .

وهذا الطغيان كان في أوساط الكنيسة وفي كل نظامها الهرمي . ولم يكن دفاعهم عن المسيحية دفاعا عن دين حقيقي، وإنما كان دفاعا عن آراء من وضع رجال الكنيسة، فالدين أصبح مزيجا من بعض النصوص المقدسة ومما تناقلته الألسن وذكره بعض الشرّاح والمفسرون، ومن معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية صبغوها بصبغة دينية وعضوا عليها بالنواجذ وكفّروا كلّ من لم يَدِنْ بها، ربما كانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر، وعدّوها من التعاليم والأصول التي لا يجوز مخالفتها، ونبذ كل من يعارضها.

والحقيقة أن هذه الهيمنة جرّت إلى احتكار المعرفة واضطهاد مخالفيهم من العلماء الباحثين في علوم الطبيعة . يقول أبو الحسن الندوي :"ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين في أوروبا ومن أكبر جناياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذي كانوا يمثلون أنهم دسوا في كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية في التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه في ذلك العصر ...ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني، وإذا كان ذلك في عصر من

---

[807] - أبو الحسن الندوي :المرجع السابق ص172

[808] -العشاء الرباني :وهو بدعة أخذتها الكنيسة عن مسيحية بولس حيث يتناول المسيحيون عشاء يتكون من خبز وخمر وكان عند المسيحيين الأوائل عادة رمزية : الخبز فيها خير والخمر خمر، لكن المسيحية فيما بعد ادعت أن الخبز في العشاء الرباني يتحول إلى جسد المسيح ولحمه وأن الخمر يتحول إلى دم المسيح، وأن من يتناول العشاء الرباني فقد أكل لحم المسيح ودمه فعلا، وأن ذات المسيح اختلطت بذوات آكليه وفي هذا نجاة من العذاب وبركة. وهذا التحول تفسره الكنيسة بأنه من أسرار الإيمان التي لا مجال للعقل فيها !.

العصور غاية ما وصل إليه علم البشر، فإنه لا يُؤمَن عليه التّحول والتّعارض ؛ فإن العلم الإنساني متدرج مُتَرَقٍ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصرا على كثيب مهيل"[809].

ففي عهد سيادة "الدين" كمصدر للمعرفة –سواء في عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية، أو في عهد الإصلاح الديني للوثر – نُظر إلى "الكتاب المقدس " وهو الإنجيل على أنه فوق العقل ...ومعنى أن للعقل أن يبحث ويرى-إن جاز له أن يبحث ويرى - ولكن للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل ويحكم "[810].وكان ذلك سببا في الصراع المشؤوم بين الدين والعلم والعقل الذي انتهى بهزيمة الدين الذي لم يكن لمضامينه سندا علميا، ولا سندا دينيا صحيحا، وسقط رجال الكنيسة، وانهارت معهم مكانة كل مقدس، وأشأم من ذلك أن أصبحت أوروبا عدوة للدين معلمنة أي : لا دينية.

ب-الطغيان السياسي:

أما في المجال السياسي فقد استغل رجال الدين سلطتهم الدينية لأنفسهم ونفوذهم وجاههم، وبقيت أوروبا تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط. وبلغ الأمر بهم أن أصبح لهم نفوذ واسع في البلاط الإمبراطوري وفي مختلف أجهزة الحكم، حتى صار البابوات يتوّجون الملوك والأباطرة، ويملون إرادتهم في تولية من يريدون من أنصارهم ومؤيديهم، وكان باستطاعة البابا أن يخلع تيجانهم إذا نازعوه ورفضوا أوامره " وكان البابوات يتمتعون في العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة"[811].

وبحكم رهبانيتهم أصيبت المدنية في صميمها حيث قلّ النمو الديمغرافي بسبب التزهيد في الزواج "فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوروبية في ألف سنة، ولم يتضاعف سكان انجلترا في خمسمائة سنة، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبية التي كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها"[812].بالإضافة إلى الفقر وانتشار الأمراض والأوبئة التي فتكت بالأفراد والغلات في طول القارة وعرضها.

ونظرا لتعصب الكنيسة لآرائها سواء ما تعلق بأمور الدين أو الحياة، أقاموا محاكم التفتيش ـ سيئة السمعة في تاريخ المسيحية ـ واشتدوا على مخالفيهم في الدين كله أو في بعض المسائل أو في بعض المفاهيم التي يصدرونها، لأن رجال الدين يزعمون أن الكنيسة بما تملكه من نصوص مقدسة ومباركة من المسيح ـ هي وحدها ـ دون سواها مصدر المعرفة الصحيح، وكل خارج عليها إنما هو "مهرطق" محروم من الملكوت السماوي، فاضطهدوا مخالفيهم بشكل عنيف، وبخاصة علماء الطبيعة .

ويسجل الندوي موقف العلماء ورد فعل الكنيسة بقوله :"وكان ذلك في عصر انفجر فيه بركان العقلية في أوروبا، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التي اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها في صرامة وصراحة ...وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم، فقامت قيامة الكنيسة، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور في أوروبا وكفّروهم واستحلوا دماءهم في سبيل الدين المسيحي، وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب ـ كما يقول البابا ـ أولئك الملحدين والزنادقة "[813] .

وفعلا نفّذت الكنيسة ما توعدت به فأحصت على الناس الأنفاس واجتهدت أن لا تبقي عرقا نابضا يقول بما يخالف عقيدة الكنيسة. وأول نظرية هزت كيان الكنيسة هي نظرية "كوبرنيق"[814]، فعاقبت عددا كبيرا من العلماء معظمهم قتل حرقا،

---

[809] -أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص174 /175

[810] - محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي دار الفكر ط7 سنة 1991 ص321/322

[811] - أبو الحسن الندوي :المرجع السابق ص 173

[812] -أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص174.

[813] -المرجع السابق ص 175.

[814] - كوبرنيق أو كوبر نيكوس:عاش بين (1473-1543) :هو قسيس وفلكي بولندي واضع نظرية دوران الأرض حول الشمس،وهي النظرية التي بني على أساسها علم الفلك الحديث، في حين أن الكنيسة أخذت بنظرية "بطليموس " التي تجعل الأرض مركز الكون، وأن جميع الأجرام تدور حولها .وشرح نظريته في كتابه "حركات الأجرام السماوية "، وقد أهدى بحثه إلى البابا "بول الثالث "، وألقي عليه القبض وقدم

منهم العالم الطبيعي " جردانو برونو"[815] كما حاكمت العالم الطبيعي "قاليليو "[816].ولم تقف الكنيسة مكتوفة الأيدي أمام هذه التطورات الخطيرة، بل قاومتها على محورين :

1-ظهرت ولأول مرة القوائم البابوية التي ذكرت فيها أسماء الكتب المحرم قراءتها واقتناؤها، وكان من يعثر له على كتاب منها يقدم لمحاكم التفتيش بلا رحمة .

2-متابعة العلماء والمبالغة في اضطهادهم وتعذيبهم بكل ألوان التعذيب .

وبهذا السلوك الذي قامت به الكنيسة جمّعت رصيدا من العداء كان له أثره البليغ في العقلية الأوروبية فيما بعد.

ج- الفساد المالي:

من أهم التعاليم التي كانت تدعو إليها الكنيسة الزهد والتقشف والبعد عن الدنيا وإلى تعذيب الجسم والرضا بأقل العيش تحت مسمى "الرهبنة" المبتدعة، لأن القضايا المادية تحول دون الحياة الروحية وتحبط أعمالهم، حتى صار الرهبان مضرب الأمثال عند الدهماء، والحكومة لا تملك من الأمر شيئا. وعمل بهذا قليل من رهبانهم، وتظاهر به كثيرون، حيث كانوا يجمعون الأموال باسم الفقراء والمساكين ثم يكنزونها، ولما صار لرجال الكنيسة سلطان قوي على الشعب المسيحي من القاعدة إلى القمة (اجتماعي وسياسي) أخذوا يجمعون الأموال الطائلة باسم المسيحية والتبشير بها وباسم المشروعات التي يريدون إنشاءها من كنائس وأديرة وغير ذلك .

حتى صار جمع المال والاستكثار من الثروات غاية لديهم، فأمست الكنيسة تملك أوسع الأراضي وأكثر القصور، وأكثر الأرقاء الذين يعملون في زراعة أراضيهم، وبلغت ممتلكات الكنيسة في انجلترا ثلث أراضيها كما ذكر "وِيكْلِف " أحد دعاة الإصلاح الكنسي[817].

وانطلق رجال الكنيسة ينافسون كبار الأغنياء وملاك الأراضي والأرقاء، وفرضت الكنيسة الضرائب على رعاياها، وفتحت رسوم الاعتراف وصكوك الغفران أبوابا واسعة تبتز بها الكنيسة أموالا طائلة، ومن ثم اشتدت الاحتجاجات السرية ثم العلنية، لكن سلطة الكنيسة لم تلتفت لذلك لقوتها، ولم تفكر في تعديل سلوكها.

وعاش رجال الكنيسة حالة من التنافس في البذخ والانغماس في الشهوات بعدأن ضعف في نفوسهم تأثير التعاليم المسيحية، فارتكبوا من الموبقات ونافسوا فيها العصاة وأرباب الفجور، فيصف الراهب "جروم" في كتابه "الصراع بين العلم والدين" حياة رجال الدين وفسادهم فيقول: "إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء والمترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال ... حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع. وقد تباع بالمزاد العلني، ويؤجّرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ...ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيرا " [818] ولم يكتفوا بهذا، بل تجاوز الأمر أن أصبحوا يشاركون الناس في أملاكهم الخاصة من خلال :

لمحاكم التفتيش ـ وهو في سن الشيخوخة ـ وقبل إصدار الحكم عاجلته المنية وفوتت على الكنيسة فرصة الانتقام والتأديب والتشفي .

[815] - جردانو برونو : نادى بنظرية "كوبرنيق" فسجن ستة سنوات، فلما أصر على رأيه قتل سنة (1600م) دون أن تراق له قطرة من دمه أي : أحرقته حيا.

[816] - "قاليليو " عالم إيطالي عاش بين (1564 -1642) اشتغل بعلوم الفلك والطبيعة، وله عدة كشوف علمية، وهو أول من اخترع المرقب " التيليسكوب" سنة (1609) أيد نظرية كوبرنيق ويقول بدوران الأرض حول الشمس.ألقي القبض عليه وقدّم للمحاكمة وفي يوم المحاكمة خشي الرجل على نفسه وهو شيخ مسن فأعلن ارتداده ـ ظاهريا ـ عن رأيه .وتوفي سنة (1642م).

[817] ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : كواشف زيوف ص52

[818] - أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص172/ 173

-الوصية عند الموت : وهذه الوصية تحتّم على كل إنسان أن يكتب وصيته في حضرة قسيس حتى تضمن الكنيسة نصيبها في مال كل من يموت، وكل من يجرؤ على تحرير الوصية من غير هذا الطريق يطرد من حضيرة الدين، لأن الوصية غير قانونية من وجهة نظر الكنيسة.

-العشور: حيث كبلت الكنيسة أتباعها بمورد مالي مرهق، وهو تقديم عشور الأموال، ولما شعرت بتذمر الناس من هذه الإجراءات التعسفية جعلت للقساوسة حق إصدار اللعنات على كل من يتأخر في دفع عشور أمواله، أو يقدم بيانات غير حقيقية عن إيراداته وممتلكاته.

فقد فرضت الكنيسة ورجال الدين النصراني على الناس أموالا يقدمونها للكنيسة إلزاما ليأخذها الرهبان -الذين يدّعون الزهد والنسك – خالصة لأنفسهم ليعيشوا بها في بذخ لا يحلم به المترفون، وفرضت عليهم أيضا العمل مسخرين في فلاحة الأراضي التي تملكها الكنيسة يوما في كل أسبوع سخرة بغير أجر . وبسبب هذا الوضع وغيره نتج ما يأتي :

1-فقدان الثقة في الكنيسة في كونها مصدرا للمعرفة وسلطة للتوجيه، وزيادة الفجوة بين الكنيسة والخاصة والعامة، وبذلك ارتفعت أصوات في كل مكان تندد بالطغيان الكنسي .

2-نمو البحث العلمي المضاد للتفكير الكنسي الديني القائم على الخرافة والابتزاز والانبهار بنتائجه القريبة من الفهم والإدراك، وبذلك سقط المقدس وتأسس الفكر اللاديني الذي نتج عنه اتجاهان، كل منهما يدعي أنه المصدر الوحيد للمعرفة وهما :"الاتجاه العقلي" و"الاتجاه الحسي".

4-الثورات الإصلاحية:

ظلت الكنيسة تتمتع بالسلطان الكامل والسيادة العليا في أوروبا وبخاصة بعد أن هادنت عدوّها اللدود المتمثل في الملوك والرؤساء، ووافقت على مبدأ فصل الدّين عن السّياسة، وبذلك ضمنت بقاء سلطانها الروحي واحتكارها للمعرفة، باعتبارها المصدر الوحيد لها. ولما تفاقم خطر الكنيسة واستفحل داؤها ظهرت حركة عرفت بحركة الإصلاح الديني، وهي في الحقيقة أول تمرد عنيف على فكر الكنيسة ومعتقداتها وتصوراتها الهزيلة. ونتيجة لكل ما سبق حاول "مارتن لوثر "[819] ومن بعده "كالفن"[820] رسم خطوات لإصلاح الكنيسة تتمثل فيما يأتي :

---

[819] -مارتن لوثر : زعيم الإصلاح البروتستانتي عاش ما بين (1483-1546) نال شهادة في العلوم من جامعة "إيرفورت" سنة 1505)وبدأ يدرس القانون، ثم تحول عنه ودخل ديرا للرهبان الأغسطينيين ورُسِّم قسيسا سنة (1507) ثم عيِّن راعيا لكنيسة "فيتنبرج" بألمانيا، ولما زار إيطاليا سنة (1510) ساءه الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنسية العليا، واحتجاجا على مفاسد رجال الكنيسة علق على أبواب كنيسة القلعة خمسا وتسعين قضية أثارت غضب السلطات الكنسية، فأصدر البابا قرارا بحرمانه من غفران الكنيسة، فلما تلقاه لوثر أحرقه علانية .غير أن محاولة لوثر للإصلاح لم تصل إلى إصلاح تحريفات جوهرية في الدين كالتثليث وعقيدة الفداء.

[820] -جون كالفن : (5/1564 / 27م1509/7/10) مصلح ديني ولاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفينيالمنتشر في سويسراوفرنساوهو من القلائل من الفلاسفة الذين استطاعوا أن يطبقوا ما انتجه من الفلسفة. في الرابعة عشرة من عمره أرسله أبوه والذي كان يعمل محاميا إلى جامعة باريسلدراسة القانون)كان قد تخرج ليعمل دكتورا في القانون في مدينة أورليونالواقعة في 1532والعلوم الإنسانية، وفي عام (الشطر الشمالي لفرنسا. كان أول اعماله المنشورة كتاب دي كلامنتياللفيلسوف الروماني لوسيوس أنايوس كان من أشد أتباع المذهب اللوثري (نسبة إلى .سنيكاوالملقب بسنيكا الأصغر مصحوبا بتعليقاته الشخصية مارتن لوثر، أجبرته الظروف على مغادرة باريسوالإقامة في ستراسبورغثم بالبسويسرا قبل أن يستقر منذ أراد أن يجعل من مدينة جنيف مدينة مثالية، فعمل على تطبيق النظام بطريقة .م في جنيف1541سنة .م ويتعرض فيه للمعتقدات المسيحية1536صارمة. من أهم أعماله "تأسيس الديانة المسيحية

1-إبطال الأحكام التي صدرت من البابوات ولم يكن لها أصل في الكتاب المقدس .

2-محاربة صكوك الغفران، وحق الغفران الذي منحه البابوات لأنفسهم .

-إبطال مقولة العشاء الرباني واستحالة الخبز فيه إلى لحم المسيح ودمه.
-نادت بضرورة تزويج الكهنة والقضاء على حياة العزوبية .
-إنكار عبادة الصور والتماثيل وبطلان السجود لها .
-إنكار استئثار البابوات بتفسير وفهم الكتاب المقدس.

ويكفي في هذه الحركة الإصلاحية أنها نزعت ثوب القداسة عن الكنيسة وهزت مكانتها في النفوس وفتحت الباب للنقد، وبذلك بدأت تفقد سيطرتها على الخاصة والعامة حتى صوّر "ولز" هذا الانحدار الذي وصلت إليه الكنيسة بعد حركة الإصلاح فقال :" كادت الكنيسة تفقد سيطرتها على ضمائر الأمراء وذوي اليسار والاقتدار من الناس .كذلك بدأت تفقد إيمان عامة الناس بها، وثقتهم فيها وكان من نتائج انحطاط سلطانها الروحي على الطبقة الأولى أن بدأوا ينكرون عليها تدخلها في شؤونهم، وقيودها الخلقية عليهم،ومدّعياتها بالسيادة العليا فوقهم وادعائها الحق في فرض الضرائب...."[821].

غير أن هذه الحركة لم تبلغ غرضها لأنها لم تتطرق لجوهر الإصلاح وبقيت جهودهم تنصب على توجيه النقد للكنيسة لا إلى مضامين الكتاب المقدس المحرف الذي كان يحتوي على الفساد الكبير المناقض للحقائق. فلم تتطرق إلى القضايا المهمة كعقيدة التثليث، ومسألة تحريف الإنجيل، وقضية الخطيئة الموروثة...وغيرها من القضايا المعادية للعلم .

وبعد أن صبر الغربيون حينا من الدهر على هذه المسيحية المنحرفة الخرافية، بدأوا شيئا فشيئا يتجرأون على أباطيلها ويثورون عليها، فحاولوا أن يصلحوها عن طريق ما عرف في التاريخ الأوروبي بحركات الإصلاح الديني ولكنهم تبيّنوا ـ بعد أمة ـ أن الحركات الإصلاحية ليست بأحسن مما جاءت تصلحه أي المسيحية "المؤغرقة" و"المرومنة" .

وظهر للعقلاء من الغربيين أن المسيحية غير قابلة للإصلاح لأنها تفتقد المرجعية الأصلية وأن ما يسمى إنجيلا ليس إلا ما خطته أيدي البشر . أما الإنجيل الذي أوحاه الله لم يعد له أثر، ولم يجد الغربيون مناصا من أن يتخلصوا من هذه الديانة المعادية للعقل المناقضة للمنطق المضطهدة لحرية الفكر المخالفة لحقائق العلم، ونتج عن ذلك فقدان الدين المسيحي لأهميته فقدانا كاملا، وسمي التخلص من المسيحية بأنه تنوير كما يشير إلى ذلك الفيلسوف الألماني "هيرمان".

، وكان ظهور [823]وجاءت الثورة الفرنسية[822] التي هزت كيان الكنيسة بقوة وانتهت إلى ما سمي في الغرب بحركة "التنوير" هذا الاتجاه رد فعل مباشر لفقدان الثقة في الكنيسة باعتبارها مصدرا وحيدا للمعرفة، وقد سميت الفترة التي ظهر فيها الاتجاه العقلي في تاريخ الفلسفة الأوروبية ب"عصر التنوير " ويغلب على الفكر العقلي في تلك الفترة المضّادة للدّين ومناوأته بعد الفشل الذّريع الذي منيت به الكنيسة أمام التغيرات المفاجئة التي ظهرت في ساحة الفكر آنذاك .ويصف الندوي هذه الفترة

---

[821] - عبد العظيم المطعني :الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة ص 71.نقلها عن" ولز"في كتابه معالم تاريخ الإنسانيةج3ص989 وما بعدها.

[822] - الثورة الفرنسية : كانت الثورة الفرنسية عام 1789م أعلنت غضبتها على الطغيان الكنسي (الديني والروحي والسياسي والمالي والاجتماعي) وعلى أساليبه القمعية والاضطهاد والتنكيل، ولم يكن المستهدف من قيام الثورة القضاء على الكنيسة وحدها، بل كان ملوك الإقطاع والاستبداد السياسي من الأهداف التي قامت الثورة من أجلها. وإن الشعار الذي كان ينادي به الثوار لأبلغ وأوجز إعلام بأهداف الثورة "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس ".

[823] - التنوير أو الاستنارة: كلمة مأخوذة من الفعل استنارا لمشتق من كلمة نور وهي ترجمة لعدة كلمات ( ) بمعنى نور والنور في المعنى الإنساني هو عكس الظلام. ومن ثم lightفي اللغات الأوروبية منها (فإن" الاستنارة " بمعنى الفكر الشبيه بالنور الذي يبدد الجهل الشبيه بالظلام .ويشار إلى عصر الاستنارة (بعصر العقل) مقابل (عصر اللاعقل) للإشارة إلى تلك الحقبة في التاريخ الفكري الأوروبي في القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر.

بقوله: "هنالك ثار المجددون المتنورون ...وأصبحوا حربا لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم، ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم، من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب، وعادوا الدّين المسيحي أولا، والدّين المطلق ثانيا "[824].

فحققت الثورة أهدافها، ودخلت أوروبا في "عصر النهضة" بعد "عصر الكنيسة" ـ الذي سقط للأبد ـ وانكمش سدنتها داخل جدرانها، وحدث ذلك التحول الخطير في حياة أوروبا في كل مجال من مجالات الحياة، وأسفرت الثورة [825]على النتائج التالية :

1-ميلاد دولة جمهورية لادينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب بدلا من باسم الله.

2-دعت إلى حرية التّدين بدلا من ضرورة التّدين .

3-دعت إلى الحرية الشخصية في العمل والسلوك بدلا من التحلي بمكارم الأخلاق .

4-أصدرت دستورا وضعيا ليكون أساسا للحكم بدلا من التوجيهات الدينية .

والحقيقة أن الثورة أزاحت دينا وضعيا وأحلت محله دينا وضعيا آخر، وأن الحضارة التي قامت في أوروبا بعد الثورة إنما هي حضارة مادية نفعية ولم تخط أوروبا خطوة واحدة إلى الأمام في سلم الرقي الحقيقي .فكانت لا دينية قبل الثورة، وظلت لا دينية بعد الثورة إلى الآن .

المطلب الثاني : الجذور الفلسفية للعلمانية الشاملة:

انصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر، نفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم، وكان ذلك تدريجيا، كان ذلك ببطء، ولكن بقوة وعزيمة . فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية بتجريد الكون من كل معنى روحي، ويعللون الظواهر بطريق ميكانيكي بحت، وسموا ذلك نظرا علميا مجردا، ورفضوا الإيمان بكل مالا يقع تحت الحس والاختبار، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة ومن ثم أصبح الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة من الفرضيات التي لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم [826] .

وعادت أوروبا إلى طبيعتها الوثنية وأصبحت الحياة في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة عن اليونان وروما القديمتين، فدين أوروبا اليوم هو "المادة" لمن عرف النفسية الأوروبية واتصل بالأوروبيين عن كثب لا عن كتب، بل وعن كتب أيضا .ويمكن بيان أهم النظريات الفلسفية التي ساهمت في هذا التحول فيما يأتي :

1-**النظريات الفلسفية**:

لقد ساير هذا الإصلاح الديني في أوروبا تطور علمي هام، حيث راح العلم التجريبي يحقق إنجازات كبيرة ويفتح آفاقا واسعة شملت جميع مناحي الحياة في علم النفس في علم الاجتماع في الاقتصاد في السياسة في العلوم التجريبية ومعظم هذه الفلسفات تتفق على مضادة الكنيسة وإعلان أخطائها في كثير من القضايا. ودعمت هذه النظريات الفلسفية البحوث العلمية التجريبية التي كانت بمثابة البرهان القطعي لفساد ما تقول به الكنيسة، مما دفع إلى تبني هذه النظريات الفلسفية على أنها

---

[824] - أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص176

[825] - في غالب الأحيان أن سبب الثورة هو الكبت والاستبداد، و لما تحين الفرصة للمضطهدين، فإن رد الفعل يكون عفويا وعنيفا، ولذلك يتصف الثوار بعدم الاتزان، وعدم ضبط الرؤية، فكانت ثورة باطشة، فعالجت خطأ وباطلا بخطإ وباطل . ولم يكن عند الثائرين ومن بعدهم العلماء من الصبر والأناة ومن العقل ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته، ولكن أخذتهم الحمية فكرهوا الدين ـ كل الدين ـ وأهله وليس الدين المسيحي وحده، وقد يعذرون في ذلك لِما انطبع في أذهانهم من خلال تاريخ الكنيسة الذي يذكرهم بتلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم، وتلك النفوس البريئة التي كانت ضحية القسوة .

[826] ينظر الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 178

الحق العلمي، أما ما تقول به الكنيسة فهو مجرد خرافة . وبدأت القداسة تُنزع من الكنيسة ورجالها وتكثر الفضائح والمخالفات المختلفة التي هوت بسلطان الكنيسة من العقل الأوروبي، ومن ثم نزعت القداسة عن الدين تبعا لذلك، وتحولت القداسة لأشياء أخرى مادية محسوسة مؤيدة بالعلم .وظن الغربيون أنهم قد استغنوا بالعلم عن الدين فأعلنوها علمانية صريحة .وظهر في أوروبا اتجاهان كبيران كان على إثرهما تلك التحولات الكبيرة في أوروبا وكانت بمثابة الأسس والمرتكزات التي قامت عليها العلمانية الشاملة وهما :

1-**الاتجاه العقلي**:

وهو الاتجاه القائل بسيادة العقل، وكان سبب ظهور هذا الاتجاه رد فعل مباشر لفقدان الثقة في الكنيسة باعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة "وفي عهد سيادة الدين ـ سواء في عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية أو في عهد الإصلاح الديني للوثر ـ نُظِر إلى الكتاب المقدس وهو الإنجيل على أنه فوق العقل ...على معنى أن للعقل أن يبحث ويرى ـ إن جاز له أن يبحث ويرى ـ ولكن للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل ويحكم "[827]. وسميت الفترة التي ظهر فيها الاتجاه العقلي في تاريخ الفلسفة الأوروبية ب" عصر التنوير "[828] وتحديده الزمني هو النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويطلق على الفلسفة العقلية أيضا " النظرية المثالية " والمحور الذي تقوم عليه هذه الفلسفة هو : أن العقل وحده هو مصدر المعرفة اليقينية الصحيحة، وأن له الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون وأخلاق ودين، وكان طابعه المشترك في الفكر الألماني والإنجليزي والفرنسي والأمريكي حيث "تجمع كتب التاريخ على أن كلا من الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية هما نتاج عصر الاستنارة وأن عصرنا الحديث هو ابن عصر الاستنارة "[829] .

ويذهب عبد الوهاب المسيري إلى أن فكر حركة الإستنارة هو الأساس الفلسفي الذي انطلقت منه العلمانية الشاملة، كما يعود (1620م) أي المنهج Novum orgunum فكر عصر العقل بجذوره إلى كتابات فرانسيس بيكون وخصوصا في كتابه الجديد، وإلى كتابات توماس هوبز (1588-1679) بماديتها الصارمة، وإلى عقلانية ديكارت[830]، وإلى حلولية سبينوزا(1632-1677) الواحدية المادية، وإلى امبريقية جون لوك (1632-1704)، وإلى رؤية نيوتن (1642-1726) .

و في فرنسا يضم الجيل الأول من المستنيرين جون جاك روسو (1712-1778) وفرانسوا فولتير (1694-1778) ومونتسكيو[831] (1689-1755) أما الجيل الثاني فيضم دنيس ديدرو[832] (1733-1784) الذي نشر أول جزء من موسوعته عام 1751.وجوليان دي لاميتري[833] (1709- 1751م) وبول هنري هولباخ [834](1723-1789)

---

[827] - محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص322/121

[828] - عصر التنوير :كما يسمى "عصر التنوير" يسمى أيضا "العصر الإنساني" وكذا يسمى ب "عصر الإيمان الفلسفي" بإله ليس له وحي، وليس بخالق للعالم وهو العقل ـ فالتنوير :لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل محله فيه.

- والإنسانية : التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضا للقرب "من الله" كهدف للإنسان من سلوكه .

- والإله الذي ليس له وحي ولا خلق يتفق مع تحكيم العقل وحده، وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها. ينظر محمد البهي مرجع سابق ص323.

[829] -عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة دار الشروق المجلد الأول ط1 سنة 2002 ص290

[830] -ديكارت : فيلسوف فرنسي عاش بين (1596-1650م) ينظر يوسف كرم ص 63/62 اشتهر بنظرية الشك إذ يرى أنه مادام هناك اختلاف بين الفلاسفة فهذا يدعو إلى الشك، وحاول أن يجمع في منطقه بين الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات باستخدام قواعد المنهج الأربعة المعروفة لديه وهي :1-أن لا أسلم شيئا إلا أن أعلم أنه حق.2-أن أقسم كل مشكلة تصادفني ما وسعني التقسيم 3- أن أسير بأفكاري بنظام 4- أن أقوم في كل مسألة بإحصاءات شاملة .ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 64/63

[831] - مونتسكيو: هو كاتب أخلاقي ومفكر وفيلسوف فرنسي عاش بين (1689- 1755 م) بمدينة بوردو، اشتهر باهتمامة بالسياسة والأخلاق و حرر كتاب روح القوانين 1748م الذي لقي نجاحا هائلا وفحواه

وفي ألمانيا ضمت قائمة المستنيرين كلا من كريستيان وولف (1679-1754) ولسنج (1729-1781) وكانت (1724-1804) ويوحنان هاردر (1744-1803)

أما في انجلترا فمن أهم مفكري الاستنارة :جوزيف بريستلي (1733-1804)و جريمي بنتام (1748-1832) وآدم سميث (1723-1790) وإدوارد جيبون (1737-1794) ووليام جودوين (1756-1816) .

ومن أهم مفكري الاستنارة في الولايات المتحدة الإمريكية: توماس بين (1737-1809) وتوماس جيفرسون (1743-1826) وبنجامين فرانكلين (1706-1790).[835] وقد أشار محمد البهي إلى أن هؤلاء الرواد وضعوا الطابع الفكري الذي يقوم على :

1-نمو شعور العقل وإحساسه بنفسه وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده، بعد أن يزيل كل عبودية ورثها من قبل، وهي عبودية الكنيسة وتعاليمها حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير .

2-الشجاعة والجرأة في إخضاع كل حدث وفي أي مجال لامتحان العقل .

3-الإيمان بتعاون جميع المصالح والمنافع، وبالأخوة الإنسانية على أساس من هذه الثقافة العقلية وحدها. ومعنى ذلك كله وجوب سيادة العقل كمصدر للمعرفة على غيره.[836]

وقد أفرط رواد هذا الاتجاه في تمجيد سلطان العقل، ورأوا فيه مصدرا وحيدا كافيا لحل ألغاز الحياة وأسرار الكون، وبخاصة "فولتير" الذي كان عدوا للكنيسة، ونقدها نقدا مرا، وأضاف لذلك الأسلوب الساخر اللاذع الذي تطاول فيه على الذات الإلهية، فتراه يعلّق على المعلومات المغلوطة في الكتاب المقدس بقوله " من الواضح أن الله لم يكن قويا في الجغرافيا"[837] .

وعلى كل فإن هذا الاتجاه لم يقف موقفا محمودا أمام قضايا الإيمان والدّين، وقد يكون لمعاداة العقل للدّين المسيحي أسبابه المعقولة. لأن الدّين الذي كانت تقدّمه الكنيسة ليس له من خصائص الدّين في شيء، فهو في الواقع مزيج صنعه البشر من عناصر غير متجانسة، والعقيدة لا تُؤَلَفُ، بل تُتَلَقى، لذلك كان العقل قاسيا عند محاكمتها.

2-**الاتجاه الوضعي**:

البرهان على ان القوانين التي تنظم أمر المجتمعات ليست اعتسافية أو غير قابلة للتغيير، فليست هي من اختراع النزوة لكن ليس هناك من مبدأميثافيزيقي يثبتها إلى الأبد. ينظر معجم الفلاسفة ص 653

832 -ديدرو : ديني ديدرو فرنسي أصله ألماني عاش بين (1713-1784م) وهو فيلسوف ومفكر من مفكري حركة التنوير قرن بين الأدب والفلسفة مر في ماديته وإلحاده بعدة مراحل ناظر رجال الدين من منطلق عقلاني، كان ماديا ثم اعتنق مذهب وحده الوجود ثم انتقل إلى المذهب الربوبي، وتأثر بالنزعة الإلحادية عند هولباخ وعنده أن التجربة والملاحظة هما وسائل المعرفة . ينظر معجم الفلاسفة ص 295

833 لامتري :هو جوليان أوفرا ي دي لامتري طبيب وفيلسوف فرنسي عاش بين(1709-1751) نشر كتاب التاريخ الطبيعي للنفس الذي ضمنه المعالم الكبرى لمذهبه المادي ثم أصدر كتاب آخر "الإنسان الآلة"و"أصل النفس الإنسانية "و"تأملات فلسفية في أصل الحيوان ".ينظر معجم الفلاسفة ص 571

834 -هولباخ :هو بول هنري ديتريش كاتب وفيلسوف فرنسي من أصل ألماني عاش بين (1723- 1789 م) من أبرز فلاسفة المادية الملحدة في القرن الثامن عشر،وأشد فلاسفة حركة التنوير إنكارا للدين وهجوما عليه، ويعد كتابه "نظام الطبيعة أو قوانين العالم الفزيائي والعالم الأخلاقي " مرجعا لتاريخ المادية الملحدة، هاجم الكنيسة والدولة والإقطاع وسلط أسلحته كلها على الدين .ينظر معجم الفلاسفة ص 716

835 -ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة المجلد الأول ص 289/ 290

836 -ينظر محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص322/323

837 - نقلا عن عبد العظيم المطعني : الإسلام والإيديولوجيات المعاصرة ص78

وهو الاتجاه القائل بسيادة الحس، وجاء بعد عصر التنوير العقلي الذي دام نصف قرن، وتنوّع موقفه من الدّين ـ المسيحية الكاثوليكية ـ فمنهم من اعتدل في الخصومة ك "ديكارت"، ومنهم من بالغ ك "فولتير"، غير أن هذا الاتجاه استطاع أن ينتزع القيادة والتوجيه من الدّين .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بدأ عصر آخر، وإن كان موضوع الصراع لم يختلف ـ الدين، والعقل، والطبيعة ـ لكن تميّز القرن التاسع عشر بفلسفة معينة، حيث مال اتجاه التفكير إلى سيادة (الطبيعة) على الدين والعقل معا، فأصبح الواقع مصدرا للمعرفة اليقينية مقابل الدين والعقل .

ويضم الاتجاه الحسي نظريات عديدة يجمعها إنكار وجود حقائق أو قيّم لم تستمد من التجربة، فقيمة أي شيء تكمن في مردوده المادي الماثل في عالم الخبرة الحسية. وأصحاب هذه النظريات يقولون لا الدّين ولا العقل يمكن عن طريقهما الوصول إلى المعرفة اليقّينية، وإنما المصدر الوحيد للمعرفة هو الملاحظة والتجربة التي موضوعها "المادة" وخواصها المختلفة، وأدواتها الحواس الخمس، فما يدرك بالحواس هو الموجود ومالا يدرك بالحواس غير موجود، وإنما هو خداع ووهم من الأوهام .ويطلق على هذا الاتجاه أيضا "الوضعية" والوضعية نظرية فلسفية في دائرة المعرفة، قامت في جو معين، وعلى أساس خاص .

- فأما جوّها المعيّن فهو سيطرة الرغبة عند بعض العلماء في معارضة الكنيسة، وبالتالي معارضة معرفتها الدينية والميتافيزيقية بوجه خاص التي كانت تستغلها في خصومة المعارضين فترة من الزمن.

- وأما الأساس الخاص الذي قامت عليه الفلسفة الوضعية فهو تقدير "الطبيعة" وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة. والطبيعة أو الحقيقة أو الواقع أو الحس كلها تدل على معنى واحد في نظر الوضعيين، فعقل الإنسان وليد الطبيعة يستمد وجوده من تفاعله مع الوجود المحيط به " إنه مقيّد مجبر، وصانع القيد والجبر هو حياته المادية ...ليس هناك عقل سابق على الوجود المادي كما أنه ليست هناك معرفة سابقة للإنسان عن طريق الوحي ...عقل الإنسان ومعرفته يوجدان تبعا لوجود الإنسان المادي "[838].

وتقدر هذه الفلسفة الطبيعة باعتبارها هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، ومن ثم لا يملى عليه من خارج الطبيعة أي :لا يملى عليه مما وراءها (منطق المؤلهين) كما لا يملى عليه من ذاته الخاصة (منطق العقليين) .وكل ما يأتي من ما وراء الطبيعة خداع وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة [839].

وينسب هذا المذهب إلى الفيلسوف الفرنسي "أوجست كونت" الذي يعد في مقدمة بناة المذهب الوضعي في القرن التاسع عشر، ولهذا المذهب جذور عند "هيوم" ولكنه لم يستقر إلا على يد "أوجست كونت" وكان يعرف قبله بالمذهب التجريبي، أما في عهده فعرف بمذهب "الوضعية " أو "الواقعية"، والفلسفة الوضعية هي الفلسفة التي ينبغي أن تحل محل نظام "اللاهوت " في العصر الوسيط الكاثوليكي الذي كان مضلِلا، ولنظرته الفلسفية غاية وهي الرغبة في الإصلاح الشامل للجماعة الإنسانية، وإليها تنسب النزعات المادية التي جاءت فيما بعد، كالمادية الجدلية أو الشيوعية، ويقوم مذهب أوجست كونت على أساس النظر في تاريخ المعرفة، فالمعرفة ليست إلا النظام المنظم للعلم الواقعي، ونظام العلم الواقعي يقوم على أن المعرفة الإنسانية التي تستند إلى علاقات الظواهر بعضها ببعض، وأنه ليس هناك في دائرة المعرفة مطلق يُجعل أساسا لمجهول، والمبدأ الوحيد الذي له اعتبار عام :هو أن كل شيء نسبي، ومن ثم فلا حاجة للحديث عن الأصول والعلل الأولى للوجود، ولا عن أهدافها الأخيرة وهي معرفة الميتافيزيقا والدين [840]، وقد استخلص من النظر في هذا التاريخ أن المعرفة الإنسانية مرت بثلاث مراحل رئيسة : أو ما يعرف بقانون الدورة الثلاثية وهي : الدين، ثم العقل، ثم الحس[841].

---

[838] -محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 344

[839] ينظر المرجع نفسه ص344/343

[840] - المرجع نفسه ص 346

[841] -جعل كونت نموذج نظريته تاريخ المعرفة الذي يقوم على أن تاريخ المعرفة يسير وفق الدورة الثلاثية التي لا تتخلف، فقارن ما حدث في تاريخ اليونان، حيث كانت معرفة الإنسان قبل تفلسف الإغريق :ذات طابع ديني، ثم أصبحت في عهد سقراط وأفلاطون من فلاسفة اليونان :عقلية، ثم مالت بعد ذلك على عهد أرسطو :إلى التجربة والواقع . قارنه بما حدث في أوروبا فاعتبر الدين في القرون الوسطى مصدرا

النظريات الفلسفية الأخرى:3-

بالإضافة إلى النظريات الأساسية للتحول في أوروبا عرفت أيضا خلال هذه الفترةنظريات فلسفية كثيرة، لكن هناك مجموعة من النظريات كان لها الأثر الكبير في صياغة الرؤية العلمانية ونقلها من مرحلة إلى أخرى، حيث أنّه كلما تدعّم هذان الاتجاهان بنظرية جديدة إلا تجذرت العلمانية في الفكر الأوروبي واتجهت إلى الرؤية العلمانية الشاملة، وكما يعبّر عنها بالانتقال من مرحلة عزل الدّين عن الكنيسة وشؤون المجتمع وسياسته ومؤسساته .والسعي لتصفية اللاهوت المسيحي الكاثوليكي وتنقيته مما هو غير عقلاني من مثل أسرار التثليث والطبيعة الإلهية للمسيح عليه السلام، إلى مرحلة العلمانية الثورية التي استهدفت هدم الدّين وتخليص المجتمع من تأثيراتها، ثم السعي إلى مجتمع يزول منه الدّين تماما وتمحّي منه مؤسساته، فالهدف هنا ليس مجرد عزل الدين عن المجتمع، بل السعي في المدى الطويل إلى تخليص الفرد من الدّين وتحريره من مؤسساته.

وسنستعرض أهم النظريات ونبيّن الأفكار التي أمدت بها العلمانية الشاملة، وعلى الرغم من كونها نظريات جزئية، إلا أننا نلحظ أن المنظومة القيمية للعلمانية الشاملة هي تركيبة من مجموعة من النظريات التابعة للاتجاهين السابقين (العقلاني والحسي) والتي عمّقت الرؤية العلمانية .

وسأحاول بيان مضمون هذه النظريات ووجه الصلة بينها وبين العلمانية الشاملة، وأهم الإضافات التي دعمت بها هذه النظريات والآراء الفلسفية الفكر العلماني، لاسيما وأنها شملت مختلف جوانب الحياة الإنسانية، وتتقاطع فيما بينها في بعض الرؤى من جهة، وتلتقي مع الفكر اليوناني والروماني في فلسفته المادية من جهة أخرى . وقد وصف هذا التشابه أبو الحسن الندوي فقال :"ولا تجد مثالا لهذا التّجلد والعكوف على اللذة واللهو في أشد ساعات الحرج وفي آخر ساعات العمر إلا في يونان وروما في العهد القديم " [842]. بل هي امتداد له حيث أعيد صياغة الفلسفة اليونانية بما يتوافق مع معطيات الواقع الجديد في أوروبا. وسأتناولها فيما يأتي:

أ-**نظرية التطور** :

ظهرت نظرية التطوّر[843] في أوروبا مع بداية القرن الثامن عشر، واشتهرت على يدي داروين والسبب في ذلك أن الفلاسفة قبله كانوا يتحدثون عن التطوّر العام، بينما داروين تحاشى القول بالتطوّر العام، واقتصر على أحد شقيه وهو تطوّر الكائنات العضوية [844] فأتى بالجديد في نظرية خلق الأنواع، حيث أثارت آراؤه في الخلق التدريجي التطوّري ضجة كبيرة وبخاصة لدى رجال الدين الذين رأوا أن هذه النظرية تمثّل خطرا على الإيمان وتكذّب ما ذكرته الكتب المقدسة من خلق الإنسان الأول .

وخلاصة نظرية داروين أن الكائنات الحية تسير في تطوّرها مترقية من أدنى الأحياء إلى الأعلى، وأن الإنسان قد كان قمة تطوّرها، فيفترض داروين أن أصل الكائنات العضوية وأنواع الأحياء جميعا وهي النبات والحيوان والإنسان لم يخلق كل منها خلقا مستقلا، بل كان لها أصل واحد هو الخلية البسيطة البروتوبلازم ثم ظهر الحيوان الدودي ثم الشوكيات ثم

للمعرفة، ثم جعل للعقل اعتبارا بدل من الدين في عصر التنوير في القرن الثامن عشر، ثم قوي الميل إلى اعتبار المعرفة الحسية أو الوضعية وحدها ـ دون العقل والدين معاـ في القرن التاسع عشر . ينظر محمد البهي المرجع نفسه ص 248/247

[842]-أبو الحسن الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 187

[843]-فكرة التطور :تجدر الإشارة هنا إلى أن داروين ليس وحده الذي قال بالتطور، فقد ذهب قبله إلى هذه الفكرة كثيرون فمنهم من عمم فكرة التطور حتى شملت نوعي الكون وهما : المادة غير العضوية، والمادة العضوية بأنواعها الثلاثة : النبات، والحيوان، والإنسان، وممن ذهب هذا المذهب -التطور العام – هربرت سبنسر (1820-1903م) وهو من معاصري داوين، ومن قبل سبنسر، هاملتون (1788-1856 م) وعمانويل كانت (1724- 1804 م).ينظر عبد العظيم المطعني: الإسلام والإيديولوجيات المعاصرة ص133 و قصة الإيمان لنديم الجسر ص 163/155.

[844]- يُرجِعُ عباس محمود العقاد سبب ذلك إلى أن داروين صرف عن القول بالتطور العام خشية الوقوع فيما وقع فيه سبنسر والقائلون به ؛ لأنهم صدموا بعدم معرفة الأصول الأولى المؤثرة في تطور الكون، فلم يجرؤ على تفسيرها، ولم يجرؤ على إنكارها " الإنسان في القرآن الكريم" . دار الهلال ص 72.

النشويات، واستمر هذا التدرج حتى ظهرت الفقاريات واللافقاريات ثم البرمائيات ثم تدرج سلم التطور من البرمائيات إلى الزواحف، ومنها نشأت الطيور وذوات الثدي، ومن ذوات الثدي نشأت القردة، ومن القردة نشأت البشريات أو الإنسان [845].

ويفسر داروين نظريته فيرى أن الأنواع وجدت على الطبيعة متأثرة بالظروف الخارجية المحيطة بها وذلك النشوء والارتقاء تخضع فيه الأحياء لأربع نواميس هي :

1-تنازع البقاء :ومعناه أن الأحياء في تنازع دائم مع الطبيعة ومع بعضها، وفي هذا التنازع يتم الفوز للفرد الذي تؤهله صفاته للغلبة والبقاء، وهذه الصفات مختلفة بالنسبة للحيوانات والنباتات، فيكتب البقاء للصالحين للحياة وحقَّ الفناء على غير الصالحين .

2- التباينات بين الأفراد :وأما التباينات بين الأفراد فمعناه أن الأجسام الحية ميالة للتباين ببعض صفاتها عن الأصل الذي نشأت منه لذلك لا يتم التشابه كل التشابه بين الآباء والأبناء ولا بين الأصول والفروع، ولما كان هذا التباين جزئيا فإنه يخفى على المحققين، ولكن بمرور الدهور الطويلة يظهر التباين، ويتكون النوع الجديد.

3- التباينات بالإرث: أما ناموس الوراثة فهو المتمم لناموس التباينات، لأن التباينات التي سبق ذكرها تنتقل بالوراثة من الأصول إلى الفروع، وتكون في أول الأمر جزئية وعرضية ثم تصبح بعد مرور الأزمنة الطويل جوهرية وتظهر في الأنواع .

4-الانتخاب الطبيعي : وهذا الناموس يرتكز عليه المذهب في النتيجة، وخلاصته أن ناموس الوراثة كما ينقل التباينات ينقل أيضا جميع الصفات التي يحملها الأصل إلى الفرع، مادية كانت أو معنوية أصلية أو مكتسبة، فأما الصفات الضارة فتتلاشى أو تفني صاحبها، وأما الصفات النافعة فهي التي تجعل صاحبها ممتازا أو فائزا في معركة تنازع البقاء وتتوارث الفروع هذه الصفات النافعة جيلا بعد جيل، وبمرور الأجيال يبلغ الامتياز حدا يجعل من الفرد الممتاز نوعا جديدا، وهذا هو ناموس الانتخاب الطبيعي الذي يراه داروين سببا لتكون الأنواع الحية الموجودة على سطح الأرض. [846] ومن هنا فالنظرية ترى أن الطبيعة وهبت الأنواع القوية عوامل البقاء والنمو والتكيّف مع البيئة لتصارع الكوارث وتتدرج في سلم الرقي، مما يؤدي إلى تحسن نوعي مستمر ينتج عنه أنواع راقية جديدة كالقردة، وأنواع أرقى تتجلى في الإنسان، بينما نجد أن الطبيعة قد سلبت تلك القدرة من الأنواع الضعيفة فتعثرت وسقطت وزالت، وأن الطبيعة داخل هذه العملية التطورية تعطي وتحرم بدون خطة مرسومة، بل خبط عشواء، وخط التطور ذاته متعرج مضطرب لا يسير على قاعدة مطردة منطقية .وهذه النظرية استمدها داروين من قانون الانتقاء الطبيعي لمالتوس[847] .

---

[845] - ينظر عبد العظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة ص 132

[846] -ينظر نديم الجسر : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن بتصرف، دار الهدى الجزائر، ص156/157/158 .

[847]) ولد مالتوس من أسرة إنجليزيةميسورة الحال، 1766/1834-مالتوس : توماس روبرت مالتوس(تلقى .كان والده ملاك أراضٍ مثقف وصديق شخصي للفيلسوفجون هيومومن معارف جان جاك روسو حيث تخصص في 1784، كامبريدجعام (Jesus Collge) مالتوس تعليمه في البيت حتى دخوله الرياضياتلكنه درس أيضا العديد من المواضيع وقد حصل على الجوائز التقديرية في الإنجليزية، اللاتينية، مشهور بنظرياته المؤثرة .وحصل على لقب الماستر وهوباحث سكانيواقتصادي سياسيإنجليزي .واليونانية في العصر الحديث . .حول التكاثر السكاني

يبرز فضل مالتوس في كونه وضع نظرية متكاملة في السكان، وقد فرضها على علم الاقتصاد، عندما أشار إلى وجود عامل يجب دراسته إلى جانب الإنتاج، والتوزيع، والتبادل، ذلك لأن العلاقة وطيدة بين تطور عدد السكان، وتطور كمية الإنتاج، ويكون مالتوس بذلك قد أدخل من خلال ذلك عنصري الزمنوالحركة في دراسة الفعاليات الاقتصاديةفي وقت كان لدخول عامل السكانفي صميم السياسة إذ يعتبر أن عدد .الاقتصاديةأن تشكل علم خاص يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الاقتصاد، وهو علم السكان السكانيزيد وفق متوالية هندسية . بينما يزيد الإنتاج الزراعيوفق متوالية حسابية، كما سيؤدي حتماً إلى ومن ثم كان أخطر ما في نظريته أن الرجل الذي لا يستطيع الحصول على غذائه، .نقص الغذاء والسكن

ويمكن القول أن نظرية داروين تدور حول عدة أفكار وافتراضات نجملها فيما يلي:

1-تفترض النظرية تطور الحياة في الكائنات العضوية من الحالة البسيطة إلىحالة من الدقة والتعقيد

2-تتدرج هذه الكائنات من الأحط إلى الأرقى .

3-أن الأنواع التي تملك القدرة على التكيف هي الأصلح للبقاء .

4-أن الفروق الفردية داخل النوع الواحد تنتج أنواعا جديدة مع مرور الأحقاب الطويلة.

5- أن الطبيعة تعطي وتحرم بدون خطة مرسومة وخط التطور ذاته متعرج لا غاية له ولا هدف، لأن الطبيعة التي أوجدته غير عاقلة ولا واعية .

6-أن هذه المخلوقات متسلسلة وراثيا ينتج بعضها عن بعض بطريقة التعاقب خلال عملية التطور البطيئة الطويلة، وأن مراحل التطور تعقب بعضها بطريقة حتمية، فالعوامل الخارجية هي التي تحدد نوعية المرحلة .

يلاحظ أنه قبل ظهور النظرية كان الناس يدعون إلى حرية الاعتقاد والتخلص من سلطة الكنيسة، ولكنهم بعدها أعلنوا "الإلحاد" الذي انتشر بطريقة عجيبة وسريعة، وكان تأثير النظرية عميقا في الأفكار الأوروبية، على الرغم من أن النظرية كانت محصورة في علم الأحياء إذ حاولت تفسير نشأة الحياة وتطورها، فلم تكن نظرية فلسفية ولا اقتصادية ولا سياسية ولا اجتماعية ولا نفسية، ولكنها في فترة وجيزة انعكست وأصبحت كل ذلك، وطرحت نفسها لا كمناقض للمسيحية، بل كبديل لها، وكانت النتيجة المنطقية لانتصار الداروينية أن عمت موجة الإلحاد في المجتمعات الغربية، وانتقلت منها إلى بقاع العالم الأخرى، وسيطرت الأفكار المادية على عقول الطبقة المثقفة وأوحت بمادية الإنسان وخضوعه لقوانين المادة [848]. من المعروف أن هذه النظرية كانت محصورة في علم الحياة (البيولوجيا) فكيف تحولت وأصبحت نظرية فلسفية موجهة ومؤثرة في كل الفلسفات في الغرب ؟.

يتضح من خلال عرض النظرية وجه الصّلة بينها وبين الفكر العلماني وتطوره من خلال آثارها على العقل والثقافة في أوروبا بعد ذيوعها . حيث انساق فريق من العلماء وراء النظرية وتعصب لها، ولم يكن سبب اعتمادها قوة أدلتها ومتانة الأسس التي تقوم عليها – فهي مجرد نظرية، بل إنها فرضية فقط، وإنما لأمور أخرى أهمها الهروب من الدين واللجوء إليها بصفتها بديلا عن الدين المرفوض وتخليصا لهم من أراء الكنيسة المخرّفة، ومن ثم تلقاها الجميع بالقبول فقد كان العصر مهيئا لظهور هذه النظرية . يقول أبو الحسن الندوي :" ولكن الجمهور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول – رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - ... وكأن الأذهان كانت متهيئة لمثل هذه النظرية، وكأنّ الناس وجدوا فيها منافسا للدين ورجاله"[849] إذ نجد أن "لامارك" الفرنسي سبق داروين في وضع نظريته التطورية (1809 م) في كتاب "فلسفة علم الحيوان" وكان لجد داروين نفسه توجّهات في هذا المجال .

ولعل المتأمل في بعض عبارات داروين يكتشف اتجاهها المادي البحت وثورتها على قضية الإيمان[850] فقد قال داروين :"الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق "وأضاف "إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت"[851].

يعتبر عنصرا زائدا في "وليمة الطبيعة " وهي تأمره بمغادرة الزمن، وطبعا ترتب عن هذه النظرية حدوث كوارث إنسانية من إبادة، وتعقيم قسري وإجهاض .

[848] - مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة دار الندوة العلمية للطباعة مجلد2 ط4 سنة 1420هـ ص 927

[849] -أبو الحسن الندوي :ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 193

[850] - يرى نديم الجسر في كتابه "قصة الإيمان" أن داروين "مؤمن بوجود الله" وأنه "لا يتردد أبدا في الاعتراف بأن الله هو الخالق لأصل الأنواع "، وأن أشياعه الملحدين هم الذين ذهبوا إلى تلك التفاسير لنشأة الحياة عن طريق التولد الذاتي لا بخلق الله . ينظر نديم الجسر : قصة الإيمان ص 159/158

وبهذا سيطرت الأفكار المادية المكبوتة في النفسية الأوروبية بسبب طغيان الكنيسة، ولم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان، لأن داروين جعل بين الإنسان والقرد نسبا، بل زعم أن الجد الحقيقي للإنسان هو خلية صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين، وبذلك أهملت العلوم التجريبية فكرة الغائية بحجة أنها لا تهم الباحث ولا تقع في دائرة علمه، وكان من نتيجة ذلك أن اعتمدت النظريات الفلسفية في منطلقاتها على نظرية داروين في تفسيراتها للإنسان والحياة والسلوك :

- ففكرة التطور أوحت لهم بحيوانية الإنسان .

- وتفسير عملية التطور أوحت بماديته .

فكان من آثار النظرية أنها :

1-حاربت النظرية الإيمان بالله، ودعمت الاتجاه الإلحادي والنظرة المادية للوجود حيث اعتبر داروين أن افتراض خالق للكائنات، بمثابة إقحام عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت .

2-قالت النظرية بعبثية الوجود وخلوه من الحكمة والغاية لانتفاء العناية في وجوده وحركته، ويدخل في ذلك الوجود الإنساني وافتقاده لأي حكمة أو وظيفة، إلا ما يمكن أن يوجده لنفسه بعد وجوده كما تقول الوجودية [852] .

3- جردت الإنسان من إنسانيته، بتحويله إلى مجرد فصيل من الحيوان، وذلك بنزع ميزته الإنسانية التي كان يرتفع بها عن المخلوقات المحيطة به ويسودها من خلالها، وإلغاء كل قيمة أخلاقية لديه، وبالتالي إدخاله في إطار منظومة مادية وشهوات حيوانية .

ولاشك أن شيوع هذه المقولات انعكست على الدين والأفكار والتقاليد وتجلى ذلك بوضوح في أشهر النظريات الفلسفية. وهذا ما يؤكده عبد الرحمن بن زيد الزنيدي. فيقول :"وعلى أساس النظرة التطورية للإنسان، قامت فلسفات وعلوم إنسانية، كالفلسفة الماركسية، والوجودية الملحدة، وعلم الاجتماع لدى دوركايم، وعلم النفس لدى فرويد وأتباعه ".[853] حيث:

*استمد ماركس من نظرية داروين مادية الإنسان .

*واستمد فرويد من نظرية داروين حيوانية الإنسان.

*واستمد دور كايم من نظرية داروين مادية الإنسان وحيوانية الإنسان وجمع بينهما بنظرية العقل الجمعي .

*واستفاد برتراند راسل[854] من نظرية داروين تفسيره لتطور الأخلاق.

---

[851] - نقلا عن مانع بن حماد الجهني : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العلمية للطباعة مجلد2 ط4 سنة 1420هـ ص 927، وينظر محمد قطب :الإنسان بين المادية والإسلام ص 21

[852] -الوجودية : اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان ويبالغ في التأكيد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية واختيار ولا يحتاج إلى موجّه وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع، وتعد جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت والمعاناة والألم ومن أشهر زعمائها جون بول سارتر وكارل جاسبرز وبسكال بليز ينظر الموسوعة الميسرة ص 817.

[853] - عبد الرحمن بن زيد الزنيدي : السلفية وقضايا العصر مركز الدراسات والإعلام دار شبيليا ط1 سنة 1998 ص397.

[854] -برتراند راسل :راسل برتراند آرثر وليم : فيلسوف ورياضي انجليزي ملحد عاش بين (1873-1970 م) درس الفلسفة وتأثر يومئذ بهيجل، يعتبر أشهر الفلاسفة بين الحربين العالميتين، ويعد رائدا للحداثيين والتقدميين الملاحدة في أوروبا والغرب، كان شديد الغلو في إلحاده، ويظهر ذلك في أعماله الفلسفية والأدبية، تدور أفكاره على الإلحاد أولا والمذهب الوضعي، وفلسفة الشك،ويرى أن لا فائدة من النظريات الأخلاقية، وهاجم الدين بشتائم مليئة بالحقد والكراهية، وقال بنسبية آداب السلوك وهي أساس

وانتقلت نظرية التطور البيولوجية لتكوّن فكرة فلسفية داعية إلى التطوّر المطلق في كل شيء، تطور لا غاية له ولا حدود، حتى ساد الاعتقاد بأن كل عقيدة أو نظام أو سلوك هو أفضل وأكمل من غيره ما دام تاليا له في الوجود الزمني .

ويتبيّن من خلال هذا أن نظرية دارون أحدثت انقلابا تاريخيا حين أكدت حيوانية الإنسان فنفت عنه تلك النفخة الإلهية التي رفعته عن مستوى الحيوان، وكان من ورائها فلسفة مادية بحتة، لا تتيح مجالا لأي شيء خارج عن الأرض وعن المادة المحسوسة [855]. لذلك ذهب المسيري إلى تعريف الداروينية بقوله :"وهي فلسفة واحدية مادية كمونية تنكر أية مرجعية غير مادية مفارقة، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفية والأخلاقية، وترد العالم بأسره إلى مبدإ مادي واحد كامن في المادة، وتدور في الصورة المجازية العضوية والآلية للكون، والآلية الكبرى للحركة هي الصراع والتقدم اللانهائي وهو صفة من صفات الوجود الإنساني، أما الغاية الكبرى فهي البقاء المادي "[856] .وهذه النظرة المادية من خلالها تبلورت الرؤية العلمانية الشاملة، ومنها استمدت ركائزها القيمية.

وسنحاول الوقوف على أهم هذه النظريات والمذاهب والآراء الفلسفية التي تأثرت بالداروينية، أو سارت في اتجاهها، وبيان علاقتها بالعلمانية الشاملة . فالنظريات الغربية السابقة لداروين أو التي جاءت بعده خاضت في جوانب كثيرة من الحياة الإنسانية، وأصبح لها منظرون ولها رواد اشتهروا بتجميع أفكار من سبقهم في هذا المجال من البحث، لذلك نجد أن النظرية تنسب إليهم، وسنبيّن ذلك فيما يأتي :

ب- **نظرية التحليل النفسي**:

وكان على رأسها فرويد[857] وترتكز نظريته في التحليل النفسي على ثلاثة أسس: الجنس، الطفولة والكبت. وتعد "نظرية الكبت"[858] دعامة نظرية التحليل النفسي لدى فرويد وتلاميذه، وهي أهم قسم فيه إذ تكشف كتاباته أن الدافع الكبير للسلوك الإنساني هو الدافع الجنسي[859] ويفسّر حركات الطفل منذ الصغر بأنها نوع من السرور الجنسي الفمي، حين يمص اصبعه،

حداثي من أهم مؤلفاته المنهج العلمي في الفلسفة، والسلطة تحليل اجتماعي جديد (1938) و تاريخ الفلسفة الغربية(1946) ينظر معجم الفلاسفة ص317

[855] - ينظر محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام دار الشروق ط5 سنة 1978 ص 16

[856] -عبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ دار الشروقط1 سنة 1997 ص 253 والعلمانية الجزئية والشاملة ص 62

[857] - فرويد:هو سيجموند فرويد عاش بين (1856-1939) من أبوين يهوديين نمساوي، هو مؤسس مدرسة التحليل النفسي، له عدة مؤلفات من أهمها :تفسير الأحلام،ثلاث رسائل في نظرية الجنس، مدخل إلى التحليل النفسي، الذات والغرائز،القلق.

[858] - الكبت :ويقصد به الكبت الجنسي بالذات، ويعتبر أن ما يراه الإنسان من أحلام ما هو في الحقيقة إلا رغبات حبيسة مخزنة في اللاشعور، وهي لا تستطيع أن تخرج لأن في باب اللاشعور حارس متيقظ وهو سعيد عندما يحتال على ذلك الحارس " وهو لا يقوم بهذا الاحتيال واعيا في أغلب الأحيان، بل يقوم اللاشعور بمئات من الأنواع المغالطة والتحايل " وبما أن الضمير نشأ لحماية الذات من عسف ذوي السلطان في الخارج (الأب، أو المجتمع أو الدين أو التقاليد) فمهمته الكبت والقمع للشهوات، لأن الكبت نشأ من فكرة التحريم كما في عقدة أوديب حسب زعم فرويد . ينظر محمد قطب :الإنسان بين المادية والإسلام ص30

[859] - إن الإسلام لا يقدس ولا يستقذر الطاقة الجنسية ولكن يقدر لها قدرها، ومنهجه في ذلك يقوم في عمومه على :

1-الاعتراف بهذه الطاقة الحيوية الفطرية .

2-الحث على الزواج باعتباره القناة النظيفة والوحيدة لتصريف هذه الطاقة.

3-حماية المسلم من الكبت ومن آثاره وذلك : ربط المسلم بالعقيدة وبيان ثواب العفة والصبر على المعصية، والعقوبة الدنيوية والأخروية المترتبة عن انتهاك حدود الله، وتوجيه الإرادة لكل أمر سام يصرف همة النفس وطاقاتها إلى فعل الخير، والتخفيف من مثيرات الجنس فيه بالرياضة والصيام، وتنقية جو المجتمع من المثيرات المختلفة .

وَوَظَّف حتى الأساطير للاستدلال على نظريته، فكانت أسطورة عقدة "أوديب"[860] محورا لاستنتاجاته، وهو يؤكد باستمرار على واحدية الدافع الجنسي كمحرك أساس في الحياة الإنسانية ووسّع من تأثيره حتى إنه يشمل حياة الإنسان من الطفولة إلى الموت ويطلق عليه لفظة "الليبيدو"[861] .

صحيح أن هذه النظرية ليس فيها دعوة صريحة للانحلال كما يتبادر إلى الذهن، لكن المتأمل يلحظ أن إيماءات تحليلية تتخلل المفاهيم الفرويدية تدعو إلى ذلك، ولا سيما أن هناك ربطا غير بريء بين سلوك الإنسان وغريزة الجنس، وهو ما جعل الإعلام الصهيوني يستفيد من هذه النظرية ويحوّلها إلى واقع علماني، يجعل الغريزة محورا في كل نشاطات الإنسان، ويستخدم المرأة في كل المجالات مؤكدا أن الطاقة المسببة لأعراض الهستريا التحولية هي طاقة جنسية[862].

ومن ثم يرى أنه للتخلص من الكبت لا بد من الإباحية الجنسية وممارسة الرغبات بكل حرية، لذا لا ينبغي أن تقف أمامها قيود وأن لا تخضع لأية ضغوط من أية جهة كانت.وهذا ما أشار إليه عبد الرحمن حسن حبنكة وهو يوضّح الأسس التي قامت عليها مدرسة التحليل النفسي فيقول: " لكن التحليل النفسي الذي بدأه فرويد وأسس له مدرسة بحثٍ ساعده فيها عدد من تلاميذه اليهود وغيرهم، قد أقامه على أساسين فاسدين :

الأساس الأول: الإلحاد بالله، وإنكار الغيبيات واعتبار الإنسان ظاهرة مادية فقط بما فيه من فكر ونفس وحياة .

الأساس الثاني : الإباحية الجنسية، وحث الإنسان على ممارسة رغباته الجنسية بحرية تامة، ولا تقف أمامها قيود دينية، أو أخلاقية أو عادات وتقاليد اجتماعية، أو أية ضغوط من أية جهة كانت.

وضمن المحافظة على هذين الأساسين انطلق "فرويد" في دراساته ومعالجاته الطبية، وكتابة أفكاره وآرائه في علم النفس ووضعه في قوالب نظريات علمية[863] "[864].

لا شك أن نظرية فرويد قد أثرت بشكل كبير في الحياة الأوروبية، ويتجلى ذلك في موجة الإلحاد والانهيار الأخلاقي الذي لحق أوروبا بعد هيمنة هذه النظرية على أفكار الناس، ومنذ ذلك الحين وهي تنخر جسم المجتمع الإنساني إلى اليوم .

ج-**نظريات العقد الاجتماعي** :

---

860 -عقدة أوديب :اخترع فرويد قصة خرافية مفترضة زعم أنها حدثت في تاريخ البشرية، وأنها كانت السبب في ظهور الدين والأخلاق والتقاليد وأنها ما تزال تؤثر في الحياة البشرية من مخزونات ما وراء الشعور في النفس .وخلاصة القصة أن الأولاد شعروا بالرغبة الجنسية نحو أمهم، لكن أباهم كان حائلا بينهم وبين تحقيق رغبتهم فاجتمعوا عليه وقتلوه ليستمتعوا بأمهم، ثم أحس الأولاد بالندم على قتل أبيهم فقدسوا ذكراه، وتحول هذا التقديس إلى عبادة، ثم نزعت نفس كل واحد منهم للاستئثار بالأم، لكنهم وجدوا أن ذلك لن يتم مالم يتقاتلوا، فاتفقوا على أن لا يقربها أحد، فكان ذلك أول تحريم في البشرية،وأن الدين في حياة البشرية نشأ من ذلك الحدث الخطير .ينظر كواشف زيوف ص 294 و محمد قطب الإنسان بين المادية والإسلام.ص31.

861 - الليبيدو : وهي الطاقة الشهوانية التي لا تكف عن الإلحاح، وهو مفهوم يطلق في التحليل النفسي على القدر المتغير كميا من الطاقة الجنسية الذي لا يمكن قياسه والذي يوجّه عادة إلى شيء خارجي .ينظر كواشف زيوف ص 295 وينظر محمد قطب الإنسان بين المادية والإسلام ص 30

862 -ينظر الموسوعة الميسرة ص 827، وكواشف زيوف ص289

863 - يرى محمد قطب أن آراء فرويد الأساسية كلها استجابة لا شعورية لما يعتمل في نفسه كيهودي من حقد على العالم كله ورغبة في الانتقام، وهي استجابة تحايل لها عقله الباطن بطريق التبرير، وهذا من شأنه أن يوضح أن آراءه لم تكن حقائق علمية بقدر ما كانت ملابسات شخصية .ذلك أن أول ما يعاب على هذه الآراء وينفي علميتها تحقيره للإنسان وذلك بتصويره على أنه مجموعة من الغرائز لا يرتفع عن واقع الأرض المادي، ولا يكاد يخرج من حمأة الغريزة ويسعى طول حياته لتحقيق لذائذه مدفوعا إليها بدفعة الليبيدو، وهو ما يخالف صراحة الطبيعة الإنسانية ذات التطلعات السامية، كما يشهد على ذلك الواقع . ينظر محمد قطب الإنسان بين المادية والإسلام ص 30

864 - ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة : كواشف زيوف ص 292

وهي مجموعة من النظريات التي تحاول أن تفسر واجب الولاء نحو القوانين ونحو السلطة المدنية، وذلك بالرجوع إلى عقد، أو عهد، أو وعد بالطاعة يقدمه الفرد في مقابل المنافع التي يكتسبها من المجتمع المدني الذي يقوم بناء على ذلك التعاقد[865]. ولهذه النظرية صيّغ متنوعة. ومن القائلين بنظرية العقد الاجتماعي من القدامى أفلاطون في كتابه "الجمهورية" وهوبز في كتابه "لواياثان" ولوك في كتابه "رسالة ثانية في الحكومة المدنية "وروسو في كتابه "العقد الاجتماعي "ودور كايم في كتابه" تقسيم العمل في المجتمع " غير أن هذه النظريات تختلف فيما بينها، ولا سيما في تحديد أطراف العقد و شروطه، ومن أشهر الرواد الذين كان لنظرياتهم علاقة بالفكر العلماني :

1-**هوبز**[866] :

تظهر نزعة هوبز المادية ظهورا جليا في نظريته السياسية، وهي من أهم جوانب فلسفته والتي برزت في كتابه "التنين"، أو "اللوياثان "الذي عرض فيه بصورة لاذعة آراءه في الإنسان، والمواطن . وقد نشر هذا الكتاب عام1651 م . فذهب إلى أن الدول تتألف من ذرات اجتمع بعضها إلى بعض، فكان من اجتماعها "الدولة"، كما تتراكم الذرات المادية، وتتلاحق فتكوّن الأجسام، فكما أن العالم الطبيعي يعتمد في تكوينة على حركة المادة وما يتبع ذلك من تجاذبات، كذلك المجتمع يحكمه نفس القانون . فلم يقم إلا على أساس من الحركة، والمقاومة بين الأفرادذ، وهي الصورة التي كانت عليها الإنسانية في حالتها الطبيعية الأولى في عراك متصل عنيف لا يذوقون للسّلم طعما، فلم يجدوا بدا من التعاهد و التعاقد.

هذا التعاقد بين الأفراد هو أساس الاجتماع، والقاعدة التي تقوم عليها الدولة حيث اتفق الجميع على أن يتنازل كل إنسان عن جزء من حريته لصالح المجموع، غير أن هذا العقد لا يمكن تنفيذه إلا إذا خضع الجميع لفرد واحد منهم تتمثل في شخصه الدولة كلها .

ويلخّص يوسف كرم ذلك فيقول :"وتكون إرادته هي القانون النافذ، وليس الصواب والخطأ والخير والشر والفضيلة والرذيلة، إلا ما تريده هذه القوة الحاكمة، ويستحيل أن يسود النّظام في جماعة، وأن يطّرد لها تقدم ورقي إلا إذا وَقَرَ في نفوس الجميع أنهم يفيدون خيرا باحترامهم لرئيسهم الأعلى وخضوعهم له "[867] .

ويتضح من خلال الإلمام بأهم أفكار "هوبز" أنه "كان يصطنع نظرية العقد الاجتماعي لإثبات ضرورة قيام الحاكم المطلق المستند إلى رضى الشعب لا إلى الحق الإلهي"[868] .

ويرى أن السيادة مستمدة من تعاقد بين الناس على اختيار حاكم يتولى أمورهم، لأنهم يخشون بعضهم بعضا لغلبة الشر والعدوان على طباع البشر، كما يرى أن الإنسان كان في الحالة البدائية ذئبا على أخيه الإنسان مطبوعا على الشر، فكان لابد من صياغة العقد الاجتماعي الذي يكون فيه الحاكم مجرد منفذ للعقد، ولا يحق للناس بعد أن يولّوه أمرهم أن يخرجوا عليه طالما أن صاحب السلطان ينجح في حمايتهم، لأن العقد يلزمهم ولا يلزمه فهو ليس طرفا فيه[869].

ومن هنا فالدولة عند هوبز هي "التنين" لأنها تبتلع في جوفها كل الأفراد الذين تنمحي شخصياتهم وإرادتهم أمام شخصيتها وإرادتها، فهي كل شيء . فلا دين إلا ما ترضاه الحكومة، ولا حقيقة إلا ما ينادي به السلطان، وينبغي أن تسحق كل عقيدة دينية تتعارض مع ما تراه الدولة حقا أو خيرا .وهذا التصوّر للدولة هو نتيجة مباشرة لنظريته المادية، إذ يصوّر الدولة آلة

---

865 - ينظر فؤاد كامل وآخرون :الموسوعة الفلسفية المختصرة مراجعة زكي نجيب محمود دار القلم بيروت دون ط ودون تاريخ ص 280

866 -هوبز :هو فيلسوف انجليزي عاش بين (1588-1679م)ألف كتاب القانون الطبيعي والسياسي ونشره 1640 م ويعتبر ناقلا لأفكار ديمقريطس وأبيقور الذين يعتبرون جذور الإلحاد الفلسفي الغربي المعاصر، لذلك يعتبر هوبز من أوائل الماديين وأحد كبارهم، كان يملك عداء شديدا للكنيسة ورجال الدين، ليس في أفكاره جديد على أفكار الماديين اليونان إلا ما قام به من إحياء لهذه المادية .ينظر كواشف زيوف ص429/428

867 - زكي نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1936 ص 91

868 - فؤاد كامل وآخرون: الموسوعة الفلسفية المختصرة ص503/502

869 -المرجع نفسه ص317

عظيمة هي كل شيء، وهذا التصوّر يقابل رأيه في الكون بأن يسير سيرا آليا، وكل ما يقع فيه مسيَّر بقوة مادية [870].

2-**جون جاك روسو**:

ظهر روسو في الفترة التي كان الصراع فيها محتدما بين الكنيسة وخصومها، فقد ذهب إلى النقيض من قول هوبز، فادّعى أن الإنسان في بدائيته كان ملائكيا، وخيّرا وأن تلك الفترة كانت المرحلة الذهبية في حياة البشر، ولكن الإنسان انحرف عن هذه الحالة بسبب عاملين هما :

أ-انقياده للأطماع والأنانية التي أعقبت المرحلة البدائية .

ب-بسبب "الدين" الذي يرى روسو أنه كان له دور خطير في نقل الإنسان من الصّفاء الطبيعي إلى حالة من الفوضوية، اقتضت وجود عقد اجتماعي لتنظيم حياة الناس ومحاولة العودة بهم إلى الحالة الطبيعية، بل إنه يعتبر الدين "وباء فتاكا" لذلك يجب التخلص منه، "ذهب روسو في العقد الاجتماعي إلى أن الحكومة لا يسوّغها إلا إذا ظلت السيادة في يد الشعب، فكل قانون لابد وأن يجيزه التصويت المباشر لجميع المواطنين "[871] .

فالعقد الاجتماعي يحرص على تحقيق المصالح الدنيوية المادية للإنسان، ومن ثم فالشعب هو مصدر السلطات والسيادة له، وبذلك صارت ديباجة المراسيم والأحكام تتم "باسم الشعب " أي حكم الشعب بواسطة الشعب من أجل الشعب، وصارت هذه الشعارات سندا قويا للعلمانية كي تتخلّص من سلطة الكنيسة، وشكلت بذلك عازلا سميكا بين الخالق والخلق .وكان لنظرية روسو صدى كبيرا في نفوس المتمردين، وبفضل روسو عرفت أوروبا هويتها الجديدة "الوطنية " و "القومية " التي حلت محل الدين [872] .

3-**دور كايم**[873]:

تقوم نظرية "دور كايم " على أنه عزا إلى العقل المشترك للمجتمع (العقل الجمعي) أصل الدين والأخلاق، وكذلك بعض التصورات الأساسية، فهو الموجه لكل فرد في المجتمع، وهو المكوّن لأفكار الأفراد ومذاهبهم وعاداتهم ومفاهيمهم، وذلك عن طريق إلزام المجتمع للفرد بما يحيطه به من قوة ضاغطة. يقول يوسف كرم :" أخذ دوركايم على نفسه أن يؤلّف علما اجتماعيا واقعيا ...إذ أن المذهب الواقعي لا يعترف بوسيلة أخرى لدراسة الإنسان .والمقصود بالظواهر الاجتماعية أنحاء الفكر والعاطفة والعمل الصادر عن الناس بما أنهم أعضاء مجتمع، مثل الأخلاق، والأديان، والأنظمة، والسياسة، والقوانين المدنية، والتقاليد القومية، والبدع الفنية، والنظريات العلمية، وما إلى ذلك من مظاهر الحياة الإنسانية. هذه المظاهر الاجتماعية بالذات يجدها كل فرد قائمة في بيئته، ويتأثر بها تأثرا قويا بوساطة فعل التربية، وضغط المجتمع "[874] .

---

[870] - زكي نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ص 91/92

[871] - فؤاد كامل وآخرون :الموسوعة الفلسفية المختصرة ص 227

[872] -ينظر عبد العظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة ص161/162

[873] - هو إميل دور كايم عاش بين (1858-1917) تخصص في علم الاجتماع، ويعد واضع علم الاجتماع المعاصر تأثر اتجاهه بفلسفة أوجست كونت، فكان تابعا له أولا ثم صار ناقدا له أهم كتبه تقسيم العمل الجماعي سنة 1893 وقواعد المنهج الاجتماعي سنة 1895 والانتحار سنة 1898 والصور الأولية للحياة الدينية 1912 وكان أصدر مجلة السنة الاجتماعية 1896 وظل يصدرها إلى سنة 1913 بمعاونة ليفي برول وموس وهربرت وفوكوني وغيرهم وهم أركان علم الاجتماع في فرنسا .ينظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص 432

[874] -يوسف كرم :تاريخ الفلسفة الحديثة دار المعارف القاهرة ط 5 ص432/433

ويرى دور كايم أن عناصر التفكير وأسس المعرفة العقلية نفسها ما هي إلا صورا ولّدتها حياة الجماعة، وإلى هذا يشير يوسف كرم فيقول :" فيذهب في مسألة المعرفة إلى أن المعاني والمبادئ العقلية نتاج الفكر الجمعي ...فالمعاني والمبادئ تعلو على الفكر الشخصي كما يعلو المجتمع على الفرد "[875].

كما يفسر الأخلاق على النحو ذاته، حيث يعتبر الفعل خلقيا متى كان مطابقا لقانون ونظام تفرضه حتما كل جماعة. فالأخلاق مختلفة باختلاف الزمان والمكان وسائر الظروف، ذلك أنها :" تابعة لأحوال المجتمعات التي تخترعها وتفرضها على الأفراد، فإن لكل مجتمع أخلاقه هي مظهر أحواله، ولا محل لتسويغ الأخلاق بتركيب فلسفة أخلاقية "[876].

أما الدين فقديم كالاجتماع كان صورته الأولى وتطورا معا، بدأ الدين بأن تصوّر الناس قوة لا شخصية متفرقة في الأشياء تمنحها ما لها من قوة، ثم تشخصت هذه القوة في الطوطم[877] أولا وفي الإله الواحد أخيرا. فكانت لنا فكرة "الله" كموجود شخصي مقدّس. فإن هذه الفكرة ليست مستفادة مما نشعر به من قوة باطنه، ولا مكتسبة بالاستدلال، ولكنها فكرة اجتماعية[878]

ومن خلال عرض هذه الأفكار يظهر أن دوركايم ألّه المجتمع، وجعله مصدرا لكل شيء، للمعرفة، والأخلاق، والدين، حيث نجده يصرّ على تفسير أية ظاهرة اجتماعية تفسيرا ماديا وذلك لتأكيد مذهبه في إنكار وجود الله، فهو لا يعترف بأي قوة غيبية أو موجودات وراء العالم المادي، كما أنه وبمقتضى سلطان "العقل الجمعي"المتغير لا يمكن تصوّر ثبات شيء من القيم. فلا الدين، ولا الأخلاق، ولا سائر القيم لها ثبات على اعتبار أن ظاهرتي الدين والأخلاق في المجتمعات الإنسانية وليدتا أسباب اجتماعية فقط [879].

د-مذهب المنفعة (البراجماتية):

الفلسفة البراجماتية اسم يطلق على عدد من الفلسفات المختلفة التي تشترك في مبدأ عام وهو أن صحة الفكرة تعتمد على ما تؤديه هذه الفكرة من نفع، أيا كان نوع هذا النفع، وقد ظهر هذا المصطلح في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر، وكان أول من أطلق اسم "البراجماتية " الفيلسوف الأمريكي " تشارلز ساندرز بيرس " (1839-1914) الذي استعملها على أنها اسم لقاعدة منطقية تقصد إلى تحديد معنى الكلمات التي صاغها.

فالبراجماتية في نظر "بيرس" هي النظرية القائلة بأن الفكرة – وهي الفحوى العقلي للكلمة أو لأي تعبير آخر – إنما تنحصر فيما نتصوّره لها من أثر على مسلك الحياة، إذ بديهي أن ما ليس ينتج عن التجربة يستحيل أن يكون ذا أثر على مسلك الحياة [880] . ويجدر بنا أن نوضح هنا أن بيرس استخدم المصطلح لتوضيح معنى الكلمات، ولم يتخذها على أنها موقف فلسفي كامل، لكن سرعان ما استعار فلاسفة آخرون كلمة البراجماتية وأعطوها معاني جديدة، حيث طوّرها الفيلسوف الأمريكي " وليم جيمس "[881] (1842-1910)الذي كان لكتاباته الدور الكبير في الفلسفة المعاصرة .

---

[875] - يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة :ص 433

[876] -يوسف كرم : المرجع نفسه ص 434

[877] ـ الطوطم: عبارة عن رمز تتخذه العشيرة شعارا لوحدتها وقوتها وتعتقد أنه جدها الأعلى ومنه تناسلت، فتقدس العشيرة هذا الطوطم، ولا تسمح للنساء والغرباء بلمسه، وتحمله معها في الحروب للنصر، وقد يكون الطوطم نباتا، أو جمادا، أو حيوانا .ينظر محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي عقيدة التوحيد في القرآن الكريم دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والإعلام الرياض ط1 سنة 1985م ص52

[878] - ينظر يوسف كرم : قصة الفلسفة الحديثة ص 434

[879] -ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : كواشف زيوف ص 335/336

[880] - ينظر فؤاد كامل وآخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ص 409/410

[881] -وليم جيمس : فيلسوف وعالم نفس أمريكي وأحظى كتّابها بالتقدير والإعجاب عاش بين (1842-1910 م) كان مهتما بعلم النفس ثم تميز فكره بالدفاع عن البراجماتية باعتبارها نظرية عن الصدق، وهو يعترف أن بيرس هو مصدر نزعته البراجماتية وإن كان يختلف عنه في تفسيرها، من أهم مؤلفاته: أصول علم النفس، وإرادة الاعتقاد، صنوف الخبرة الدينية ينظر جورج طرابيشي معجم الفلاسفة ص

ثم جاء الفيلسوف جون ديوي[882] (1859-1925) ليطوّر هذه الفلسفة، ويحاول أن يضع منطقا للتفكير البراجماتي، وتابعه غيره ممن أدخلوا الروح البراجماتية في كثير من المجالات الفكرية، ثم انتقلت هذه الفلسفة إلى انجلترا على يد الفيلسوف "تشيلر" (1864-1938) الذي طوّرها إلى ما أطلق عليه "المذهب الإنساني" [883].

ولعل الجانب المشترك بين هؤلاء جميعا هو أولا وقبل كل شيء "نظرية الصدق"التي غدت منذ ذلك الحين جوهر البراجماتية فقال جيمس :" إن الأفكار تصبح صادقة بمقدار ما تساعدنا في الوصول إلى علاقات مرضية مع أجزاء خبرتنا الأخرى "[884].ومعنى هذا أن الصادق ماله نتائج طيبة عملية في حياتنا الفعلية الفورية .

إن أهم ما يميز المنهج البراجماتي ويعد جوهر هذه الفلسفة هو ارتباط صحة الفكرة بنتائجها عمليا في حل المشكلات، فنجد وليم جيمس يرى أن كل ما يحقق الأغراض والرغبات الإنسانية هو الحق، وإلى ذلك ذهب تشيلر[885]. وهذا ما جعل يوسف كرم ينبه على فلسفة فرديناند تشيلر صاحب المذهب الإنساني البراجماتي الذي يرى أن المعرفة هي الشرط الأول للعمل المنتج، وأنها أمر إنساني تابع لأغراضنا الحيوية، فنرتب العلاقات بين الأشياء تبعا للغاية التي نتوخاها، ونؤلف تصديقاتنا في مجاميع نسميها المنطق والهندسة والحساب وما إلى ذلك من العلوم، فهذه العلوم مشبعة بالإنسانية، لأنها من صنعنا ومرتبة لأغراضنا [886] .

هـ-الوجودية :

الوجودية اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجّه، وتعد الوجودية جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت، والمعاناة والألم، ويرجع رجال الفكر الغربي أن "كيركجارد "هو مؤسس المدرسة الوجودية ثم تبعه "جاك ماريتان " وكانت في البداية ترى أن حالة القلق التي يعاني منها الإنسان لا يمكن أن تزول إلا بالإيمان بالله تعالى، لكن انقلب اتجاهها وأصبحت وجودية إلحادية على يدي مارتن "هيدجر "[887] ثم تابعه "جون بول سارتر" الذي روّج لها حتى أصبحت مقترنة باسمه .

---

266 ويوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 416 وفؤاد كامل وآخرون الموسوعة الفلسفية المختصرة ص 179/178

[882] -جون ديوي :فيلسوف أمريكي عاش بين (1859-1952) يعتبر صاحب ما يعرف ب" الأداتية " التي برهن فيها على أن طبيعة العقل ووظيفته الأداتية هما المبدأ الأساس للفكر الفلسفي، ثم راح يطور الفكرة ويطبقها في مجالات أخرى في المنطق والتربية ويدعمها بمجموعة من المؤلفات والأبحاث ومن مؤلفاته : دراسة الأخلاق، قانون الإيمان التربوي، المدرسة والمجتمع، الديمقراطية والتربية، جورج طرابيشي معجم الفلاسفة ص 313، و يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة ص425

[883] - ينظر محمد مهران رشوان: مدخل إلى الفلسفة المعاصرة دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ط2 1984 ص 41

[884] - تشيلر : فردينانند تشيلر عاش بين (1864-1937) صاحب المذهب الإنساني عرضه في كتابه :"دراسات في المذهب الإنساني"1907م هذا المذهب هو البراجماتزم يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 431

[885] - محمد مهران رشوان: مدخل إلى الفلسفة المعاصرة دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ط2 1984 ص 43

[886] -يوسف كرم :تاريخ الفلسفة الحديثة ص 430

[887] -هيدجر :مارتن هايدجر فيلسوف ألماني عاش بين (1889-1976 م) تدور فلسفته حول سؤال :ما الوجود ؟ لذا يعتبر هايدجر مفكر الوجود وفيلسوف وجودي عدمي ملحد، كان عضوا في الحزب النازي وكان شديد التعصب لوطنه وقوميته، ويرى أن الفلسفة لا يمكن أن تفهم إلا باللغة الألمانية وأن شعبه هو الوحيد القادر على تجديد الفكر الغربي من مؤلفاته "الوجود والزمان" الذي حاول فيه أن يحدد علاقة الوجود بالإنسان انطلاقا من الإنسان، ولفلسفته الوجودية تأثير واضح على فلسفة سارتر ينظر معجم الفلاسفة ص694

وخلاصة ما ذهب إليه سارتر من أفكار فلسفية ما يلي :

أ-إنكار الألوهية لأن الإنسان في اعتقاده هو الذي يخلق ماهيته، ومن ثم فلا مسؤولية أمام أحد، وقد بيّن هذه الأفكار في كتابه " الكينونة والعدم ".

ب-يرى أن الإنسان هو الذي يضع مقاييس الحق والخير والجمال. فهو الذي يخلق الحق والخير في نفسه، وذلك بحب أفكاره، وأن ليس لأحد أن يوجّه له النصح .

و-الماركسية :

رائد الماركسية هو كارل ماركس الذي كان بحثه في علم الاقتصاد، لكن لم يقتصر بحثه على الدراسات الأكاديمية في علم الاقتصاد، وإنما وضع مذهبا كاملا يتناول تصوّرا كاملا للحياة من زاوية معينة، فقد أسس مذهبه على فلسفة التفسير المادي للتاريخ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله، كما يجعل هذا النشاط ماديا بصفة أساسية، ومنبعثا عن الكيان الحيواني في الإنسان .

وبهذا فالقوى المادية والاقتصادية هي العنصر الفعّال في تاريخ البشرية في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس، فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة، ليس شعور الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل وجودهم هو الذي يحدد مشاعرهم .

وأما القيم فهي مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي، ومن ثم ليس لها وجود أصيل في الحياة الإنسانية، فضلا عن كونها غير ثابتة، فهي متطوّرة حسب الطور الذي تمر به البشرية، فتأخذ أوضاعا محددة تبعا لحتمية التّطور الذي تمر به البشرية .

ي-المذاهب العقلانية :

تقوم المذاهب العقلانية على الإيمان بالعقل وقدرته، وأنه يمكن أن يصل إلى تحصيل الحقائق من العالم بدون مقدمات تجريبية، ولا تستمد المعرفة عندهم من الخبرة الحسية، وأهم فلاسفة هذا المذهب ديكارت، سبينوزا[888]، ليبنز[889]، وكان دالمبير[890] و فولتير[891]فهم من أبرز المفكرين الذين ذهبوا إلى إعلاء قيمة العقل كنقيض للخرافة والإيمان الكنسي حسب قولهم [892].

-المذاهب المادية الإلحادية:

---

888 -سبينوزا : هو بار وخ سبينوزا (1632-1677م) بأمستردام ولد لأسرة يهودية، وكان أبوة زعيما للجالية اليهودية آمن بمذهب وحدة الوجود بمفهومه الغربي الإلحادي، وقال بأن الجوهر هو الله وهو الطبيعة الخالقة عرض مذهبه في ثلاث كتب : إصلاح العقل، والأخلاق، والرسالة اللاهوتية السياسية. ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص106 وما بعدها .

889 -ليبنز:هو غوتفريد فلهام أعظم فيلسوف ألماني قبل كانط عالم بالرياضيات ولاهوتي وكيميائي وهندسي ومؤرخ ودبلوماسي عاش بين (1646-1716م) فهو قد بيّن المذهب العقلي تبيينا منطقيا ومضى معه إلى نتائجه المحتومة : ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 123 وجرج طرابيشي معجم الفلاسفة ص 578

890 -دالمبير : هو جان لو رون فيلسوف فرنسي من فلاسفة عصر الأنوار عاش بين (1717-1783م) كانت له بصمات في الهندسة والرياضيات إلا أن العمل الرئيس الذي ارتبط به اسمه هو كتاب الديناميكا 1743 م.ينظر جورج طرابيشي مجم الفلاسفة ص 279

891 -فولتير هو :فرانسوا ماري أرويه دي فولتير فرنسي عاش بين (1694-1778م) وهو واحد من رواد الحداثة العلمانية،ومؤلفاته مصدر لأفكارهم، ويزعم أن دينه الإنسانية وأنه يؤمن بإله غير الذي جاءت به الأديان، لذلك حاربها وأنكر النبوة والوحي سجن في الباستيل ثم نفي لمدة ثلاثين عاما، وعند عودته خرجت باريس لاستقباله قبل وفاته بعدة شهور له عدة مؤلفات منها رسالة في الميثافيزيقا، وأخرى عن مبادئ فلسفة نيوتن ينظر جورج طرابيشي معجم الفلاسفة ص 471

892 - ينظر الموسوعة الميسرة ص 110

يراد بالإلحاد في هذا العصر إنكار وجود رب خالق للكون، يدبر أمره ويتصرف في شؤونه، ويسير بإرادته وقدرته، ولم يكن الإلحاد في التاريخ البشري ظاهرة بارزة يتبناها أي تجمع بشري، إنما كان ظاهرة فردية شاذة ونادرة، وفي أسوأ الأحوال قد تجتمع عليه فئات قليلة شاذة من أهل الفساد لتبرير انحرافهم، فهي حالة طارئة أو نزغة من نزغات الشياطين .

غير أن ظاهرة الإلحاد المعاصر أخذت صورة مذاهب فلسفية تتبناها الدول والمنظمات، إلا أن لهذه المذاهب الفلسفية الإلحادية المعاصرة جذور في التاريخ الإنساني، أعيد إحياء هذه الفلسفات في ظل ظروف مرت بها أوروبا خلال القرون المظلمة، فكانت رد فعل في مرحلة الصراع بين الكنيسة والعلم، ومن أهم أعلام الفلسفة المادية الإلحادية كما يذهب إلى ذلك عبد الرحمن حسن حبنكة[893] ما يلي :

-ديموقريطس فيلسوف إغريقي (470-361ق م)

-أبيقور فيلسوف إغريقي 341-270 ق م)

-توماس هوبز فيلسوف وهو أول الماديين المحدثين (1588-1679 م)

- دافيد هيوم[894] فيلسوف اسكتلندي (1711- 1776 م)

-شوبنهور [895]فيلسوف ألماني (1788-1860 م)

-كارل ماركس يهودي ألماني مؤسس الشيوعية (1818-1883 م)

-بخنر فيلسوف ألماني (1824-1899 م)

-نتشه فيلسوف ألماني (1844 1900 م)

-سبنسر فيلسوف انجليزي (1820-1903 م)

-برتراند راسل فيلسوف انجليزي (1873-1970 م)

وخلاصة الفلسفة المادية كما يلخصها عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني[896] تتمثل في النقاط التالية :

- يرى الفلاسفة الماديون أن الكون كله محصور في الكون المادي الخاضع للإدراك الحسي ولو عن طريق الوسائل المكبرة للموجودات المادية الصغيرة، أو عن طريق ما يستنتج فكريا أنه من أصل مادي

---

[893]-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : كواشف زيوف ص419

[894]-دافيد هيوم :هو فيلسوف ومؤرخ واقتصادي اسكتلندي ملحد عاش بين (1711- 1776م) آراؤه الفلسفية قائمة على معاداة الدين وإنكاره لأسس الأخلاق انتهج منهج الشك، وأدخل المنهج التجريبي إلى العلوم الأخلاقية ولكي يهدم أصول الأخلاق ذكر أن السلوك الأخلاقي عمل آلي محض، وأن الدافع الأساسي له هو اللذة والألم، أصيب بانهيار عصبي عام 1729 لإفراطه في الدرس كتب عمله الرئيسي رسالة في الطبيعة البشرية وأصدر كتاب التاريخ الطبيعي للدين 1761 م الذي جعل الكنيسة تضع كتاباته في لائحة الكتب الممنوعة ينظر معجم الفلاسفة ص 726

[895]-شوبنهور :هو أرثر شوبنهور فيلسوف ألماني ملحد تشاؤمي عاش بين (1788-1860م) تقوم آراؤه الفلسفية على إنكاره لوجود الله تعالى وعلل الوجود بأنه إرادة عمياء، ويرى أن العامل الجنسي هو المحور المركزي لكل عمل وسلوك، وبسبب تشاؤمه قرر أن العالم شر، وتعتبر فلسفته الأساس الاعتقادي لفلسفة نيتشه من أهم مؤلفاته "العالم كإرادة وكتصور" ينظر معجم الفلاسفة ص 405

[896]-ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : كواشف زيوف ص 487 إلى490 .

- تزعم المادية أن المادة الأولى للكون مادة عديمة الحياة والإدراك عديمة الفكر عديمة الإحساس، ولكنها بالتّطور الذاتي ارتقت واكتسبت صفاتها حتى وصل الكون إلى ما هو عليه الآن .ويدخل في ذلك عالم الإنسان، فالإحساس بالحياة إلى درجة الوعي بالذات، ووعي ما يجري حولها من الكون حتى مستوى الفكر العالي، إنما كان نتيجة تطوّر المادة تطوّرا ذاتيا ارتقائيا، ولهذا فالفكر يعتبر انعكاسا لحركة المادة، والمعرفة صورة تنعكس عليه من المادة .

- كما ترى المادية أن المادة الأولى للكون أزلية فهي إذن أبدية، فلا توجد علة للكون، والطبيعة بنظامها التام خرجت من العماء الصرف أي من العدم الكلي.

- تزعم المادية أن الحياة ظهرت في الكون المادي نتيجة المصادفة، دون خطة من مدبر حكيم، فالحياة مجرد ثمرة تفاعلات المادة الناتجة عن حركتها الذاتية المستمرة .

- يرى الماديون أن الإنسان ذو طبيعة مادية، ولا وجود لشيء اسمه الروح على اعتبار أن هذه الروح مباينة في طبيعتها للمادة .

- ترفض المادية فكرة الإله، وترى أنها من اختراع الخيال الإنساني، ليتخذ منه سلاحا لمواجهة مخاوفه من الطبيعة ومن المجهول .

4- النظريات العلمية والثورة الصناعية :

عرفت أوروبا نهضة كبيرة في علوم الطبيعة والصناعات خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، وانتهزت فيها الشعوب الأوروبية كل دقيقة وثانية وسارت سيرا حثيثا في كل ميدان من ميادين الحياة، وقطعت في أعوام مسافة قرون، ونبغ في هذه المدة رجال ومبتكرون في كل علم وعبقرية، أمثال "كوبرنيك" و"برونو" و"غاليليو" و"كبلر" و"نيوتن" و "ماجلن".

وقد عبّر أبو الحسن الندوي عن هذه الفترة بقوله :" قد استيقظت فيه أوروبا من هجعتها الطويلة، وهبّت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل، وتعدو إلى غايتها عدوا، بل تطير إليه بكل جناح، تسخر قوى الطبيعة، وتفضح أسرار، الكون وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة، وتفتح فتوحا جديدة في كل علم وفن، وفي كل نواحي الحياة" [897] .

ف "ماكس فيبر" مثلا يبرز أهمية الوسائل وسطوتها، فعالم الوسائل والإجراءات له وزنه في الحياة، وهو عنصر مهم كثيرا ما تغفله الكتابات ويتماشى مع الطبيعة الأوروبية المادية،وقد أشار إلى ذلك رفيق عبد السلام وهو يلخص الفكرة الفيبرية بقوله: "على أن القراءة الفيبرية تلفت الانتباه إلى بعد آخر بالغ الحيوية والأهمية ...وهو أهمية عالم الوسائل والأدوات، وقدرتها الفائقة على توجيه الأفكار ومسالك الحياة على نحو يفوق سلطة الثقافة في كثير من الأحيان.

فالعالم الحديث في نظر "فيبر" هو من طبيعة علمانية دهرية، ليس لأن جماعة من الفلاسفة أو طائفة من المفكرين قد تبنوا العلمانية نهجوا منهج المروق من الدين، بل لأن عالم الوسائل الحديثة هي في جوهرها بالغة العلمنة، كما أن نمط الحياة الحديث قد خلق أجواء طاردة للدّين والعقائد عامة "[898] .

حقيقة أن ما حدث في أوروبا من هذه الإنجازات العلمية بعيدا عن الكنيسة وادّعاءاتها كان له ما بعده، وبخاصة أن الكنيسة كانت ضد هذه النهضة العلمية، بل كفّرت كل من يقول بما يخالف معتقداتها، وسلّطت العقوبات المتنوعة على رجال العلم، وبدأت العلوم تنفصل عن كل ما هو دين في أوروبا، وأمام هذه الإنجازات الكبيرة لم يعد هناك شك في مسؤولية الكنيسة عن تخلف الأوروبيين، فكفرت أوروبا بالكنيسة التي كرّست التخلف وقتلت العلماء، وأصبح الكثير ينادي بفصل الدّين عن الدّولة في البداية، ثم انتقلت إلى مرحلة فصل الدين عن الحياة باعتبار أن ما تدعو إليه الكنيسة يعرقل الحياة .

---

[897] -أبو الحسن علي الحسيني الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص 153 /154

[898] -رفيق عبد السلام : مرجع سابق ص 74

فالثورة الصناعية مصطلح يشير إلى ما حدث في أوروبا خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين، وتعد نقطة تحول عظيمة في تاريخ البشرية ليس على المستوى المادي فقط، بل على المستوى المعرفي، والفكري والاجتماعي والسياسي والعمراني والطبي، ثم تتابعت الكشوف وخطوات التقدم في مجالات عديدة لم يسبق لها مثيل في الحياة البشرية، فكان لكل خطوة بصماتها الخاصة .

كل هذه التطورات تركت تأثيراتها البارزة في حياة الإنسان الغربي ونظرته للحياة والدين، والقيم، والاقتصاد، والفن، والتقاليد ..وغيرها .

وبهذا تشكَّل الفكر الغربي الجديد الذي أصبح يربط بين القيّم والإنتاج المادي و يتعلق بالحياة الصناعية من ناحية الإنتاج، والتسابق في الكسب، وترويج السلع بالدعاية، وبزيادة ساعات العمل، وخلاصتها التنافس على المادة ولا يرى أي قيمة في الحياة غيرها. وفي ظل أجواء الثورة الصناعية أحرزت الحضارة الغربية القوة الكبيرة في مجال المادة، ولكن صَاحَبَها فقر شديد في مجال القيم، فاختصرت القيم في القيم المادية وفَقَدَ الإنسان إنسانيته في أجواء تطوير الإنتاج وزيادته، وفي ظل منطق المنافسة فُقِدَت القيّم في المصادر والوسائل والأهداف [899].

المبحث الثاني :ظروف نشأة العلمانية الشاملة

المطلب الأول : التحولات العلمانية في الحياة الغربية من الجزئية إلى الشاملة

خلال المراحل السابقة تشكَّل مفهوم العلمانية التي كانت نبتة غربية مرت بتحولات هامة عبر تاريخها، وذلك بناء على محتوى المصطلح واستخداماته في كل مرحلة كما يشير إلى ذلك رفيق عبد السلام [900] حيث يلخص هذه التحولات في مراحل أربع :

1-انتقال استخدام المصطلح من السياق اليوناني الروماني إلى الكنيسة ولا سيما مع جلوس الإمبراطور قسطنطين على سرير الأباطرة سنة 305م و تنصر الروم. حيث عرفت حياة الكنيسة حياة مادية ووثنية بعد أن ألّف قسطنطين بين الحزبين المتنافسين النصراني (الديني) والوثني (المادي) .

2-استخدام المصطلح عند رجال الكنيسة ومتكلّميها حيث استخدم نعت علماني منذ وقت مبكر في الكنيسة للدلالة على طبقة رجال الدين الذين يقومون على خدمة الشؤون الدنيوية لعامة المتدينين وذلك تمييزا لها عن طبقة الرهبان والقساوسة المتفرغين لشؤون العبادة والتبتل الروحي بصورة كاملة وبمعزل عن الشؤون الدنيوية [901] .

3-كما استخدام المصطلح للإحالة على العالم الخارجي أي خارج الفضاء الكنسي وما يطبعه من روح دنيوية مادية أي خارج حدود الكنيسة . يقول رفيق عبد السلام : " ومن ثم اتسعت دلالة الكلمة لتشمل كل المؤسسات الدنيوية المعنية بالمسائل المدنية الزمنية وشؤون عامة الناس، تمييزا لها عن المؤسسات والهياكل الدينية الموصوفة بالروحية والقدسية " [902]وكان ذلك منذ القرن الحادي عشر وخلال القرن السادس عشر.

---

899 - ينظر مانع بن محمد بن علي المانع : القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة :دار الفضيلة الرياض السعودية ص 263 /264

900-رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص 21/20/19

901 - ينظر المرجع نفسه ص20

902-ينظر رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص21

4- تعميم استخدام المصطلح اجتماعيا وسياسيا في سلطة الدولة القومية منذ القرن الثامن عشر، حيث انفصلت الكنيسة والسياسة، فقد استخدم المصطلح مع وجود اختلاف في دلالته باختلاف ملابسات التجربة الحية لكل مجتمع من المجتمعات، فنجد عند ما عرف بالمفكرين الأحرار خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر استخدام المصطلح مع محاولة النأي به عن شبهة الإلحاد وضرورة التمييز بين معنى اللاديني والمعادي للدين كما نجده عند هوليوك[903].

وكذلك استخدم مصطلح لائكي في اللغة الفرنسية في البداية لتوصيف عمليات نقل الملكيات العقارية ومجال التعليم من الكنائس إلى سلطة الدولة القومية، قبل أن ينتقل لاحقا إلى كثير من الحقول المعرفية .

وبعد ذلك تمّ تعميم استخدام المصطلح وعلمنة كل شيء في الحياة و التي يعبَّر عنها ب "العلمانية الشاملة" تمييزا لها عن العلمانية الجزئية التي كانت في المراحل الأولى حيث اتسعت حركة العلمنة واستقر استعمال المصطلح على معنى اجتماعي وسياسي.

فالعلمانية عند كبار منظريها ليست مجرد علاج لأوضاع مخصوصة، بل إنها تعبير باطني عن صوت التاريخ ومآلات الوعي الإنساني الذي يتحرك بالضرورة طوعا وكرها نحو رؤية دهرية علمانية، تنحو نحو التخلص نهائيا وإلى غير رجعة من التصورات والمسالك الدينية الموصوفة بالسخرية والخرافية، وقد تأثرت نظريات العلمنة بدرجات متفاوتة بالتوجهات والنزعات الإلحادية الجذرية للقرنين التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كما يشير رفيق عبد السلام [904].

ومن هنا عملت الدول العلمانية على ضبط العلاقة مع الكنيسة على صيغ وأشكال مختلفة لهذه العلاقة من دولة لأخرى، و:**"**يمكن القول على سبيل الإجمال أن خيّار العلمانية كان في صورته الغالبة مستجيبا لمطلب تحرير الدولة القومية من سيطرة الكنائس التي كانت تقاسمها النفوذ تارة وتنازعها أخرى على مر قرون مديدة، قد تراوحت هذه العلاقة بين ثلاثة وجوه مختلفة**"**[905]:

أولا : خيار مصادمة الدين والاستيلاء عليه بقوة الدولة كما كان حال التجربة اليعقوبية الفرنسية والشيوعية عامة ...إذ لا تكتفي الدولة هنا بإضعاف الدين وردّه إلى حدود الكنائس ودور العبادة، بل تعمل على تطهير مناهج التعليم والثقافة العامة من أي حضور ديني وإحلال الروح الدهرية محلها، فضلا عن المراهنة على تخليص المؤسسات الاجتماعية والسياسية من أي أثر من آثار الدين.

فالدولة هنا لا تكتفي بتحرير الدولة أو الفضاء السياسي عامة من سيطرة الكنيسة بقدر ما تعمل على إحلال دين علماني محل الديانات القائمة. أي: فرض رؤية دهرية وغرس قيم علمانية محل التصورات الدينية بقوة الدولة وأجهزتها الإيديولوجية العنيفة.

ثانيا: خيار الانفصال الوظيفي بين الدولة والكنيسة مع الالتزام بحيادية الدولة إزاء الشأن الديني كما هو الحال في السويد وبعض البلاد الاسكندينافية الأخرى وسويسرا، غير أن قضية الحياد لا يمكن التسليم بها في الدولة الحديثة التي لها قدرات هائلة في هندسة النظام الاجتماعي فهي التي تملك الأداة القانونية وتحتكر أدوات القوة وتحدد أنظمة التعليم وأدوات صياغة الرأي العام وهي التي ترسم الحدود الفاصلة بين المشروع وغير المشروع . وهنا تصدق المقولة التي يرددها منظرو الدول الحديثة "الكنيسة في الدولة، والدولة فوق الكنيسة".

ثالثا : خيار الربط الوظيفي بين الكنيسة والدولة كما هو الحال في بريطانيا وإيطالياوإيرلندا واليونان وإلى حد ما أمريكا التي فصّلت دستورا، ولكنها ربطت واقعيا ربطا وثيقا بين الجانبين، حيث تتيح الدولة للدين ممارسة بعض الأدوار في المجتمع المدني، مقابل أن توفر الكنيسة للدولة نوعا من الإسناد والشرعنة، ومثال ذلك في بريطانيا حيث يتيح النظام الملكي نوعا من

---

[903] - ينظر المرجع نفسه ص20

[904] - ينظر رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص 22

[905] - رفيق عبد السلام: المرجع نفسه ص43

الامتياز الخاص للكنيسة الأنجليكانية التي لا تتردد في إسناد الملكية. ويكاد الأمر يكون مشابها في أمريكا التي لا تنفصل عن الخزان الرمزي المسيحي البروتستنتي[906].

من الصحيح أن فهم العلاقة بين الكنيسة والدولة في الغرب الحديث ليس بالأمر اليسير، لكن المؤكد أن الدولة الحديثة في الغرب توظف الدين، ومن ثم فالعلاقة معه لا تخرج عن المنطق العام للعلمانية وهي النفعية، وفي ذات الوقت فالعلاقة بين المجتمع والدولة جد معقدة إذ يمكن للمؤسسة الدينية أن تكون في حالة تراجع في حين ترتفع معدلات التدين، وهذا خلافا للرصد الحسابي والجداول الإحصائية التي يروجها أنصار العلمانية في الغرب، فالمتابعة الدقيقة تبين أن الدين سواء في أشكاله الخفية، أو المعلنة مازال يتمتع بحضور قوي خلافا لقراءات العلمانيين وتوقعاتهم، وهي لا تريد التصادم مع بعض الفئات المتدينة في المجتمع، لأن لها مصلحة مع هذه الفئات.

وبهذا أصبح كلا من "التدين" و"العلمنة" بنية خفية في المجتمع الغربي، ويفسّر رفيق عبد السلام هذه البنية الغربية فيقول :"لا ريب أن الفضاء الغربي بشقيه الأوروبي والأطلسي قد خضع لمسار علمنة واسع النطاق لامس مجمل البناء الاجتماعي والسياسي، كما طبع مجال المنظورات والقيم، ولكن ذلك لا يفضي ضرورة إلى القول باختفاء الحضور الديني ...فكما أن حركة العلمنة بنية خفية وليست بالضرورة مخططات واضحة وواعية على نحو ما يذكر المفكر المصري عبد الوهاب المسيري، وكذلك الأمر بالنسبة للمجال الديني الذي قد يأخذ تعبيرات مؤسسية واضحة المعالم كما يأخذ تعبيرات نفسية ورمزية خفية " [907].

وخلاصة هذه المسألة أن وضع الكنيسة مع الدولة هو دور التابع الذي يرضى بالبقاء والوجود والتوظيف، أما الدولة فهي التي تقرر السياسات وتنفذها بمنطقها المادي النفعي .فبتتبع تاريخ هذا المصطلح نجد أن لفظ علمانى (لاديني) كان محتقرا ويحمل معاني سلبية بالمقارنة مع الديني، ثم تدرّج في الصعود حتى صار ليس أقل مكانة منه، ثم تفوّق عليه وصار معنى جليلا رفيعا، بالمقارنة مع الديني الذي فقد بالتوازي شحنته الإيجابية شيئا فشيئا، ومنذ القرن الثامن عشر الذي شهدته حركة العلمنة شاع المصطلح على نطاق واسع واكتسب مساحات جديدة من مجالات الحياة ومن ملابسات التجربة الحية لكل مجتمع من المجتمعات الأوروبية.

لا شك أن تاريخ أوروبا يكشف ظاهرة الصراع الدائم الذي بدأ يتجلى في التنازع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية في القرن الحادي عشر، وانتصرت فيه البابوية باعتبارها كانت تمثل الاتجاه الذي قاوم الفكر المادي الروماني، وظل هذا التنافس قائما، أحيانا يأخذ طابع الهدنة وأحيانا يأخذ طابع الصدام، لكنه ابتداء من القرن السادس عشر أخذ الصراع منحى آخر بين رجال الدين رجال العلم وكانت نهايته انتصار رجال العلم على رجال الدين، وأسلمت أوروبا قيادها للنظرياتالفلسفية الجديدة والاكتشافات العلمية التي أسست لدين جديد اسمه "العلمانية" التي بدأت بمجالات محددة حيث تقلص دور الدين في المجتمع الأوروبي ثم شملت جميع مناحي الحياة .

وهنا مسألة يحسن بنا التنويه بها وهي أن الكنيسة كان عندها هوس بإدارة حرب دائمة ضد من أسمتهم هراطقة الداخل، وضد وثنيي وكفرة الخارج الذين يهددون أتباع الصليب والكنيسة من اليهود والوثنيين، والمسلمين من جهة .ومع الإمبراطورية ورجال العلم من جهة أخرى، ووقعت حروب وويلات دامت سنين طويلة في هذا الصراع المحموم في أوروبا في مرحلة الإصلاح الكنسي وفي مرحلة الانتقال من سلطة الكنيسة إلى الدولة المدنية الحديثة في أوروبا .

ويفسر راشد الغنوشي خلفية هذا الصراع بقوله :"فتراوحت علاقة الدولة بالدين من خلال ما يسميه الغربيون بالعصور الوسطى بين الصراع بين الأباطرة، وآباء الكنيسة، وبين التعاون وتبادل المصالح .وكان الصراع حول من يمتلك المقدس من أجل أن يدعّم شرعية تسلطه على الناس والثروات باسم نزعة حلولية ثيوقراطية يدّعيها على حد سواء البابا والإمبراطور (ملك الشمس) و (ظل الله في الأرض) تراوحت تلك العلاقة بين العداء، والحرب، والتنافس على امتلاك المقدس وبين

---

906 - ينظر رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات بتصرف ص43/44/45/46

907 - رفيق عبد السلام :المرجع السابق ص48

التعاون على إخضاع الجماهير، أو تعبئتها في حال الحرب والغزو –كما حصل خلال الحروب الصليبية – وهذا الوضع استمر حتى انتصار الدولة العلمانية الحديثة "[908]

ولعل الدارس لتاريخ أوروبا يلاحظ حالة من الاضطرابات السياسية والحروب الدينية المفزعة، حيث بدأ هذا النزاع منذ ظهور الحركة البروتستانتية في الشمال الأوروبي، ومحاولة امتدادها نحو الوسط، كان ذلك على امتداد مائة وثلاثين سنة متتالية (1559-1689).

ففي فرنسا مثلا امتدت حروبها الدينية زهاء ست وثلاثين سنة تقريبا (1562-1598) ثم تجددت في القرن السابع عشر، وخلفت وراءها ركاما هائلا من القتل، والتدمير، والانتقام المتبادل بين الطائفتين الكاثوليكية، والبروتستانتية .

أما في ألمانيا فقد امتدت حربها الدينية هي الأخرى مابين (1618-1648) في إطار ما عرف بحرب الثلاثين سنة والتي استحالت في نهاية المطاف إلى حرب قارية أوروبية شاملة .

وعرفت أغلب ممالك أوروبا أجواء مشابهة وحروبا مرعبة، لم تكن جميعها لأسباب دينية محضة إلا أن العامل الديني لم يكن غائبا عنها تماما، كما في حروب بريطانيا وثوراتها الداخلية فيما عرف بالثورة الطهورية (1660- 1688 م) [909].

وقد حاولت الكنيسة إلغاء حالة الانقسام التي شقت الكنيسة بقوة الإكراه والعنف، ولكنها فقدت قدرتها على التوحيد الاجتماعي والنظم السياسي تبعا لذلك، ومن أتون هذه الصراعات تبلورت فكرة التسامح الديني أي فكرة التعايش على الرغم من التعدد والتنوع في الطوائف، وقد اقتضى ذلك جهدا كبيرا في إعادة تأويل مصادر التفكير المسيحي، وبالذات فكرة الشر التي ترمز للشر الشيطاني المتعارف عليه في الميراث الكلامي المسيحي والذي راهنت الكنيسة البابوية على استئصاله إلا أنه ما دام هذا الشر يعد حالة مكينة في العالم فإنه لا يمكن استئصاله ومحوه بقوة السيف.

أما على المستوى الدولة الزمنية، فقد تم استدعاء فكرة القانون الطبيعي أساسا للهوية الاجتماعية أي اعتبار قوانين الطبيعة ثم مبادئ العقل الكوني أساسا للنظام الاجتماعي والتشريعي بدل الأسس والتشريعات المسيحية .

ويتبين عند التحقيق التاريخي أن الحركة الإصلاحية الكالفينية في سويسرا واللوثرية في ألمانيا كان لها الدور الكبير في إضعاف السلطة البابوية في شمال ووسط أوروبا وتزايد سلطة الملوك الأمراء الدنيويين الذين لم يكتفوا بفرض سلطتهم المطلقة في المجال الزمني السياسي على حساب الكنيسة البابوية فحسب، بل أصبحوا قوة متحكمة في وجهة الحركة الإصلاحية، التي وفرت فيما بعد الشروط التاريخية والمسوغات الدينية والكلامية التي ساعدت على تعظيم سلطة الدولة الزمنية التي عملت على افتكاك الكثير من الوظائف السياسية والاجتماعية التي كانت تستأثر بها الكنيسة.

ومن الملاحظ في هذا الصدد أنه كلما اشتدت التناقضات الدينية وتعمقت الصراعات الطائفية أضحى الملوك والأمراء بمثابة المركز الناظم للوحدة القومية [910]، وإعادة بناء الانسجام الأهلي وبتدعيم من الكنيسة البروتستانتية التي منحت الحكام الزمنيين "العلمانيين" شرعية مطلقة في إدارة الشأن الدنيوي، وضرورة[911] طاعة الحاكم والخضوع للسلطة الزمنية مهما كانت أخطاؤها وانحرافاتها باعتبارها ضامنة للسلم المدني وصاحبة السيادة الشرعية على أجساد المؤمنين .

وعلى إثر هذه الظروف فُتح الأفق التاريخي أمام العلاج العلماني، ومن رحم الحروب الدينية تشكلت مقولة الفصل بين الكنيسة والدولة. وأصبح هناك مملكة الرب الروحية ومملكة الإنسان الزمنية، مع رجحان كفة المملكة الزمنية . فالعلمانية في حقيقة الأمر لم تكن في أحد أبعادها خيارا إيديولوجيا بقدر ما كانت حلا إجرائيا براجماتيا للسيطرة على مشكلة الصراعات

---

908 -راشد الغنوشي :مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني المركز المغاربي للبحوث والترجمة ط1 سنة 1999ص 53

909 - ينظر رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص26/27

910 - القومية : هي الفكرة التي تستند إلى وحدة اللغة والثقافة العامة لبناء الدولة .

911 - فإن مبدأ الضرورة السياسية –أي ضرورة فرض السلم المدني ومنع العدوان – يقتضي جعل الأولوية للطاعة، والانضباط المطلقين على المطالب الأخلاقية المثالية، وهنا قامت السلطة الزمنية بصهر الموروثات المسيحية ضمن وعاء المشاعر القومية بما يخدم شرعيتها وسلطانها الفعلي في الأرض .

الدينية، لأنه من غير الممكن تحقيق الاجتماع السياسي على أساس "وحدة الدين" في ظل التناقض بين الأفكار الدينية، فاقتضى ذلك إعادة بناء التفكير الديني بما يحفظ الكيان السياسي للدول، وبهذا تكون الحركة الإصلاحية دون وعي [912]منها قد زرعت بذور العلمنة السياسية في عموم القارة الأوروبية، وغدت الحاجة العملية إلى اعتماد الحل السياسي العلماني[913].

المطلب الثاني : مراحل الانتقال من الجزئية إلى الشاملة

ولعل المتابع لنشأة العلمانية في أوروبا ومدلولاتها وتطوراتها يلاحظ تفاوتا في المفاهيم المتعلقة بها سواء على مستوى التنظير أو التطبيق،لكن هذا التفاوت لا ينفي تحديد مرحلتين حاسمتين مرت بهما العلمانية [914]:

المرحلة الأولى : وهي التي كانت العلمانية فيها تعني : عزل الدين والكنيسة وشؤون المجتمع وسياسته ومؤسساته لحساب بناء الدول الزمنية وفي سبيل دعمها والسعي لتصفية اللاهوت المسيحي وتنقيته مما هو غير عقلاني، من أمثال أسرار عقيدة التثليث، والطبيعة الإلهية للمسيح عليه السلام، والعمل على رفع الوصاية الدينية للكنيسة عن التعليم وغيره من المجالات .

وقد عَرَفت أوروبا العلمانية هذا المعنى في المرحلة الأولى عند فلاسفة ومفكرين من أمثال هوبز (1588-1679 م) وجون لوك (1632 -1716م) وليبينز (1646-1716م) وروسو (1712-1778م)و(ليسنج(1729-1871م) وغيرهم من فلاسفة هذا العصر .

المرحلة الثانية :وهي مرحلة العلمانية الثورية التي استهدفت هدم الدين والتخلص من آثاره في جميع شؤون المجتمع والحياة العامة، والسعي إلى مجتمع يزول منه الدين تماما، فالهدف هنا ليس مجرد عزل الدين عن المجتمع والفصل بينه وبين "الدولة"[915] أي : السعي في المدى الطويل إلى تخليص الفرد من الدين ومؤسساته، وكان من رواد هذه المرحلة "فيورباخ" و"لينين" و"ماركس" وغيرهم من العقلانيين والوضعيين .

ولعل هذا ما جعل عبد الوهاب المسيري يتجه إلى التأكيد على أن السبب في ظهور العلمانية هو أعمق من الصراع بين الكنيسة والعلم وغيرها من الأسباب الظاهرة التي أدت في البداية إلى ما يسمى بالعلمانية الجزئية، وهي الدائرة الصغيرة، التي تعتبر مجرد إجراءات وتجليات لدائرة أشمل من المفاهيم الكامنة.

ولا يمكن فهم ما يجري في الدائرة الصغرى الظاهرة إلا بالرجوع إلى الإطار الذي ينتظمها باعتبار أن الدائرة الشاملة تمثل البنية الكامنة والمرجعية النهائية للعلمانية فيقول :"وفي حالة العلمانية يشكِّل الفصل بين الدين والدولة من جهة، وبين الدولة وسلوك الناس في بعض مجالات الحياة العامة من جهة أخرى الدائرة الصغيرة الجزئية الإجرائية، وهي دائرة لا يمكن فهم ما يجري فيها إن نظرنا إليها معزولة عما حولها، إذ يلزم دائما أن نعود إلى الدائرة الشاملة الأكبر التي تشمل الأمور النهائية والمنظومات المعرفية والأخلاقية الكلية التي تمت عملية الفصل في إطارها، أي: أنها (الدائرة الشاملة) تحوي النموذج الإدراكي الأساسي"[916] ومن ثم فالعلمانية الجزئية لا تمثل إلا مرحلة بسيطة في مشروع مادي شامل، يفصل الحياة عن كل القيم الإنسانية، والأخلاقية، والدينية.

وخلاصة القول أن حركة الإصلاح مع النهضة قادت "إلى عملية تهميش كلية، أو جزئية للدين لحساب السياسة، باعتبارها نشاطا عقليا يستهدف بسط سلطة الإنسان على الكون، واكتشاف

---

912 -إن الحركة الإصلاحية لم تكن تقصد تحفيز حركة العلمنة أو التنكب عن الدين، ولكن التداعيات السياسية والاجتماعية فرضت واقعا لم تكن هي واعية بمآلاتها .

913 - ينظر رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص34/33/23

914 - يجدر بنا هنا تسجيل ملاحظة مهمة وهي: أن التعميم في قراءة التجارب السياسية الغربية بصيغة الجمع دون تمييز مخالف للموضوعية، لأن هذه التجارب تختلف من بلد إلى بلد، حسب اختلاف الأوضاع التاريخية، والمشكلات الداخلية .

915 - إن مفهوم الدولة في تلك المرحلة كان قاصرا على الشؤون الدنيوية، ثم تغوّلت الدولة، فأصبحت تهيمن على كل شيء التعليم، والسياسة، والاقتصاد، وحتى الدين نفسه.

916 -عبد الوهاب المسيري : العلماني الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص 16

. طاقاته، وتوظيفها في تحقيق متاع الإنسان ورفاهه، متحررا من كل سلطة علوية"[917]

فإذا كان الواقع الإنساني يتكون من بنيتين أو (مستويين) البنية الظاهرة المتمثلة في شتى مظاهر العلمانية في الممارسة الواقعية، فإن هناك بنية خفية (الكامنة) هي الموجّه والمحرّك للبنية الظاهرة "وعادة ما تكون البنية الظاهرة تبديا للكامنة ."[918]

لذلك يمكن القول أن الانتقال من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة لم يحدث طفرة، بل مرّ بتحولات بطيئة وخفية، وعميقة، وتم هذا التّحول بدرجات متفاوتة، فكان غير منتظم في سرعته، وذلك حسب قوة النظريات المطروحة التي يعتمد عليها في توسيع معنى المصطلح في جوانب الحياة الغربية .لكن مع ظهور نظرية داروين حدث انقلاب تام، وتَسارع هذا المفهوم للدخول إلى الحياة الأوروبية بصورة غير مسبوقة .فلم تكن للأوروبيين جرأة على تخطي كثير من القيّم قبل هذه النظرية، ثم اختلف الأمر تماما بعدها، مما يؤكد أن هذه النظرية كانت تمثّل الوقود الفعّال لحركة العلمنة .

كما تجدر الإشارة هنا إلى أنه كلما ظهرت نظرية، أو حدث اكتشاف علمي اتسعت دائرة العلمنة حتى بلغت أوجها، إذ أن كل معطى جديد في الحياة الأوروبية يستفز اللاشعور الأوروبي، لينتج مظاهر جديدة للتعلمن، فأصبحت شاملة لكل مجالات الحياة، حيث يزيد جنوحها نحو المادية، كلما وجدت دعما فلسفيا أو علميا[919]، وبخاصة إذا تعلق الأمر بهدم الأسس القيمية التي قامت عليها الكنيسة . فما هي الآثار التي تركها الفكر العلماني في الحياة الغربية ؟

المبحث الثالث: آثار العلمانية في الحياة الغربية :

قد يكون من الصعب تقديم صورة دقيقة عن الآثار الكبيرة التي نتجت عن انتشار الفكر العلماني في الغرب، وخاصة أن كثيرا من الآثار من المفترض تأييدها ببعض الإحصاءات، لكننا نحاول قدر الإمكان ملامسة الواقع الغربي من خلال من عايشوا هذه الظاهرة العلمانية وما نتج عنها في مختلف جوانب الحياة :

المطلب الأول :الأثر الفكري

استطاعت العلمانية أن تفرغ عقل وقلب الفرد الغربي من فكرة الدّين، لأنها أشعرته بعدم أهميته، بل بعدم الحاجة إليه، فأصبح ينظر إليه بسلبية كبيرة، فلما انتقلت العلمانية إلى مرحلة معاداة الدّين كما في بعض البلدان التي تبنت الإلحاد ووقفت ضد الدين، وحاربت كل التّصورات والتفسيرات التي يقدّمها عن الوجود واعتبرتها خرافة وأساطير، ساءت حالة الفرد الأوروبي، وأصبح يعيش حالة فظيعة من الخواء الروحي والاضطراب الفكري.

وقد حاولت الحضارة الغربية أن تملأ ذلك بمختلف المنتجات المادية، إلا أنها لم توفّق في ذلك، لأن النفس الإنسانية لها غذاؤها الروحي من جنسها لا من خارجها، فانعكس ذلك الشعور ليتحوّل إلى حالات من القلق والاضطراب كانت نهايته حالات غير قليلة من الانتحار والجنون والمخدرات.

و ما فتئت تزداد يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة، لأن الغرب تناسى أو تغافل عن نصف تكوينه، وركز اهتمامه على ذلك الجانب الأرضي، فانتهى به الأمر إلى حياة الضنك . يقول علي جريشة :"هذه لمحة عن الفرد في أوروبا، يؤكّدها النظرة

---

[917] - راشد الغنوشي :مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني ص 54

[918] -عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص16

[919] -في الحقيقة أن النهج الذي سلكته العلمانية هو نهج الفلسفة، وليس نهج العلم، لأن نهج العلم التجريبي قصر مجاله على الطبيعة على الخصوص، ولم يتصد لما يتعلق بالإنسان والمجتمع، أما الفلسفة ففرضت نظرتها، ووظفت النتائج العلمية بطرق تحتوي على مغالطات فكرية، والعلم لم يقل بها على النحو الذي استخدمته الفلسفة . فالفلسفة الغربية في مجموعها هي محاولة لتفسير العالم والحياة والمجتمع عن طريق العقل، مع التجاوز التام عن منهج الدين، وإنكار العالم الآخر، وما يتصل بما وراء الطبيعة، أو ما وراء المادة .

الفاحصة لمن أتيح له أن يجوس خلال هؤلاء ..وتؤكدها النظرة الحزينة التي تجدها في عيني المرأة إذا اقتربت من الخمسين، لأنها عادة تعيش بلا رجل، ولا ابن ولا بنت، حتى لو أنجبت، فإذا وصلت إلى سن أكبر من ذلك فأفضل أماكنها "مأوى " العجزة وملاجئهم "[920] .

ولا شك أن حالة التعاسة هذه هي نتيجة إفساد التصورات في كل القضايا الجوهرية في الحياة والتي جاءت الأديان لتصحيحها وتوضيحها وهي ما يتعلق بالله والكون والحياة ووظيفة الإنسان ومصيره، ولا يخفى على أحد أن النظريات الغربية ـ لكل من داروين، و فرويد، وماركس و هوبز ـ مسخت الفكر الأوروبي وربطته بالعالم المادي، فلم يعد يعرف غير المادة والغريزة.

والمتأمل في تاريخ الحياة الغربية في بداية ظهور العلمانية يلمح أنها كانت ثائرة واتجهت إلى إفساد التصورات و المفاهيم الأساسية في الحياة، فألغت بعضها وأعطت مضامين جديدة لبعضها الآخر، فلم يعد للخالق معنى إذ حل مكانه الطبيعة المادة، وأصبحت نظرية الخلق متخلفة جدا، والحديث عن الآخرة خرافة، ولا عبرة للقيم التي تقف في وجه الملذات، وتغيّر مفهوم الطبيعة، ومصدر المعرفة، ودخل الفرد في الغرب حالة من الاغتراب، وقطع صلته تماما مع وحي السماء . وتوجه نحو المادة واللذة، ولم يعد تعنى له الحياة أي شيء، إذ انحصرت فلسفة الحياة عنده في إرواء غرائزه، وإشباع حاجاته البيولوجية .

المطلب الثاني :الأثر المعرفي

لم تكن آثار العلمانية في ميدان المعرفة أقل وضوح من غيرها من المجالات، بل إننا نستطيع أن نقول أن القاعدة المعرفية للعلمانية هي التي أثرت في المجالات الأخرى، فقد انتقل مفهوم المعرفة من ذلك المفهوم الشامل الواسع للدنيا والأخرة، لينحصر في عالم الدنيا فقط (البعد الاقتصادي المادي) ولم يعد الخطاب التحليلي الغربي يركز على الأسئلة المرجعية النهائية، فأصبحإما يتجاهلها نهائيا، أو أنه يقدم إجابات مادية عليها.

ومن ثم أصبحت المرجعية المادية الكامنة هي الإطار المعرفي النهائي للحضارة الغربية الحديثة، وهذه الرؤية "تحوّل العالم إلى مجرد مادة محض، نافعة نسبية، لا قداسة لها، توظف وتسخّر، والهدف من وجود الإنسان في الأرض هو زيادة معرفة قوانين الحركة والطبيعة البشرية والهيمنة عليها من خلال قانون التقدم الذي لا ينتهي، ومن خلال تراكم المعرفة وسد كل الثغرات ...، إلى أن يخضع كل شيء (الإنسان والطبيعة) لحكم العقل وقانون الأرقام (وهو قانون يستمد مشروعيته من المعارف العلمية المادية)..فيصبح الواقع أشبه ما يكون بالسوق والمصنع "[921].

ولا شك أن هذا يعني استبعاد كل الاعتبارات غير المادية، وكل معرفة خارجة عن الحساب والضبط مثل الغيبيات والمطلقات والخصوصيات، والسبب يرجع إلى أن كل ما بداخله أسرار لا يمكن قياسه أو التحكم فيه أو غزوه أو توظيفه أو حوسلته . و بهذا يتجلى لنا أن المعرفة في الرؤية العلمانية أصبح لها مصدر وحيد وواحد هو العقل وما يستوحيه من الطبيعة المادة، وبذلك تم إلغاء كل معرفة خارج هذا الإطار.

وفي جانب الفنون والآداب ظهرت حركة فكرية وفنية، وازدهرت ازدهارا كبيرا بتشجيع من الحكومات، إلا أنها كانت وجهتها تكريس الفكر العلماني المادي الالحادي، تجلى هذا في كتابات كثيرة وفي منتجات إعلامية في عالم السينما والأفلام، حيث كان أكثرها مسخّر للسخرية من كل تفكير غير مادي، وكان توظيف خبيث لكل هذه الفنون للنيل من قضايا الغيب وكل القيم التي كانت سائدة قبل ذلك في أوروبا .

المطلب الثالث : الأثر الاجتماعي

نتيجة التفكير الفردي الذي كرسته العلمانية، تعرضت الحياة الاجتماعية والأسرية في الغرب إلى هزّات عنيفة، كان من نتائجهاتغيّر مفهوم العلاقات بين أفراد المجتمع في دائرته الضيقة والواسعة . فعلى مستوى الأسرة فقد فقدت الدفء

---

[920] - علي جريشة : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص80

[921] عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص 183

والعواطف وعمت الفواحش حتى بين المحارم، وانحدرت الأخلاق بين أفراد الأسرة انحدارا شديدا، وإن أكثر الحيوانات تعف عن ذلك كما يشير علي جريشة[922].

أما إذا رجعنا إلى أثرها على المجتمع فقد يكون الأمر أشد مرارة بسبب التفكك الذي عرفته الحياة الجديدة في ظل العلمانية من شيوع الأمراض الجنسية الخطيرة نتيجة شيوع الزنا واللواط، والغريب أن بعض الاحصائيات تشير إلى أن رجال الدّين كثير منهم زناة وشواذ، ومن نتائج ذلك أيضا نجد أن مجلس اللوردات البريطاني وافق على إباحة الشذوذ الجنسي سنة 1965، وتبعه في السنوات الأخيرة الموافقة على الزواج المثلي بمباركة من المؤسسات الدينية .[923]

المطلب الرابع :الأثر الاقتصادي

تشكلت الروح المادية للإنسان في الغرب جراء النظريات المادية وإحياء النظريات القديمة، وتدّعمت – زورا برؤية علمية – حتى هيمنت على الذهنية الغربية، وظهر ما يعرف عند المسيري "الإنسان الاقتصادي الطبيعي المادي" [924] الذي لا يفهم إلا منفعته ولذته، ويسعى لتحقيقها بأي طريق، باعتبار أن القيم أصبحت من الخرافة والأساطير.

وتبعا لهذه الرؤية الجديدة تأسس المنهج الاقتصادي القائم على منطق أن لا أخلاق في الاقتصاد، فتعددت الأساليب المعبّرة عن هذا التوجه، وأصبح كل شيء قابل للبيع والشراء مادام يحقق المصلحة، وتم استبدال منطق الاستهلاك بكل القيم.وخضعت لهذا المنطق مجالات واسعة من نشاطات الحياة، فتأثر قطاع اللذة (سينما، مجلات إباحية، شركات سياحية، صناعة الأزياء ...إلخ) وأصبح نموذج جديد للفرد الغربي عبّر عنه المسيري بقوله " الفرد الملتف حول ذاته، الباحث عن مصلحته ولذته فحسب "[925].

وبمعنى أدق تحرّر الاقتصاد من أية أعباء أخلاقية، أو دينية، أو إنسانية . فهو نشاط يحوي داخله معياريته وغايته وكل ما يكفي لتفسيره، وانحصرت أهدافه في الإنتاج والربح فقط، ومن ثم يتم الحكم على الاقتصاد من خلال تحقيقه لهذه الأهداف .

في حين كان المجتمع الغربي يمارس نشاطه الاقتصادي ضمن توجيهات القيم الأخلاقية، والدينية، والإنسانية، وتسوده معاني الصدق، والحلال والحرام، والتراحم بين الناس، إلا أنه فَقَدَ هذه المعاني مع موجة الفلسفة المادية التي جردت الإنسان من كل معنى لا يجني من ورائه مردودا ماديا.

وكان لظهور الآلة أثر كبير في تسريع انهيار تلك القيم، وحلت محلّها قيّم جديدة فرضها الانقلاب الصناعي وسائل الاتصال وشتى أنواع المخترعات: "وهو انقلاب خلق أوروبا خلقا جديدا، وبعث فيها القوة والحيوية"[926]. ووظفت كل نتائج العلم وألوان المعرفة لتأكيد التصور المادي للحياة.

المطلب الخامس : الأثر السياسي

لا يخفى على أحد الإنجازات التي حققتها العلمانية في الجانب السياسي كانتصار مبدأ الديمقراطية وسيادة الشعوب، وزيادة قوة الرأي العام، والعمل المؤسساتي، وكثرة الاهتمام بالمعدمين والضعفاء وإقرار حقوق الإنسان، لكن الذي لا يمكن أن يغفره التاريخ للعلمانية هو ذلك الأثر السياسي الخطير وهو "الفصل بين الدين والدولة" كخطوة أولى، ثم لحقها الفصل بين

---

[922] - على جريشة الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص82

[923] -يشير على جريشة إلى مجموعة من الإحصائيات يؤكد بها تدهور الحياة الغربية منها :حالات الإجهاض :مليون حال إجهاض في كل من أمريكا وأوروبا ومليونين في أمريكا اللاتينية، أما اسبانيا والبرتغال فلوحدهما ميلون حالة بسبب تحريم الدين الكاثوليكي لحبوب منع الحمل ولكثرة السياحة، وست من الأزواج يخونون %مائة ألف حالة ولادة من سفاح، منها مائة ألف حالة دون سن الرابعة عشر، و80 زوجاتهم، أما تجارة البغاء فرائجة ومنتشرة رغم رواج الزنا واللواط والإباحية أمر تعجب له. ينظر علي جريشة مرجع سابق ص 83

[924] - ينظر عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص460/461

[925] - عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد 2 ص36

[926] -توفيق الطويل :الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية مكتبة التراث الإسلامي القاهرة دون تودون ط ص 55

الدّين ومختلف المؤسسات الأخرى، وما نتج عن ذلك من إقصاء تام للقيم التي تضبط السلوك الإنساني في الحياة السياسية، إذ نشطت حركة الاستعمار في العالم . فعلى الرغم من تحمّس العلمانية لإنهاء الرق في أوروبا ظلت تمارسه على شعوب بأكملها، ويعد القرن التاسع عشر قرن النزاع الاستعماري خارج الدول العلمانية .

هذه بعض الآثار البارزة في الحياة الغربية، وقد اكتفيت ببيان هذه المجالات الحيوية فقط، ولو أنني استطردت لظهر أن الحياة الأوروبية جميعها مسخت في ظل العلمانية، ولم يسلم منها أي مجال على تفاوت في ذلك، إلا أن البصمة العلمانية ظاهرة بقوة في كل ما يتعلق بالجوانب المادية : في المأكل، والمشرب، والعلاقات، والمرأة ...وغيرها .وفي الوقت نفسه ما من شيء قابل للتعلمن، إلا طبقت عليه مبادئ العلمانية، وربما بلغ الحد إلى عالم الأحلام عند الأطفال كما تصوغها وتسوِّقها أفلام الكرتون .

وهنا يمكن الجزم أن الحضارة الغربية العلمانية خلال القرن العشرين كشفت عن " وجهها الكالح وافتقارها إلى الحياء، وانعدام القيم الأخلاقية من حياتها "[927] على الرغم من بصماتها التي لا تنكر في ميدان البحث في عالم الكون والطبيعة.

من خلال هذا العرض للعلمانية الشاملة وظروف نشأتها، وأهم الآثار التي تركتها في الحياة الغربية، فكرا، وممارسة، وسلوكا، يتبين لنا أن العلمانية الشاملة نبتة غربية سُقيت وتطورت في الغرب، لكن أصبح لها اليوم امتداد في العالم كله غربيّه وشرقيّه، كما لها امتداد في البلاد الإسلامية، إذ أننا نجد من يمثّلها من المفكرين، والأدباء، والمؤسسات، والأحزاب، وحتى أعدادا من الشعوب، سواء كان ذلك بوعي منها، أو عن غير وعي .

فما هي ظروف وملابسات انتقالها إلى بلاد المسلمين ؟ وهل هناك مسوغات للعلمانية حتى تكون منظومة لحياة المسلمين ؟.وهل تَقْبَل منظومة عقيدة التوحيد أن يشاركها الفكر العلماني في صياغة الحياة الإسلامية ؟ وهل استطاعت العلمانية أن يكون لها مكان في الحياة الإسلامية ؟ وما مظاهرها وآثارها في حياة المسلمين ؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في الفصل القادم .

---

927 - توفيق الطويل : الحضارة الإسلامية والحضارة الغربيةص 65

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر — كلية : أصول الدين

للعلوم الإسلامية — قسم : العقيدة ومقارنة الأديان

–قسنطينة — — شعبة : العقيدة

الرقم التسلسلي :..... — رقم التسجيل :.....

منظومة قيم الحياة الإنسانية بين عقيدة التوحيد وبُنَى العلمانية الشاملة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة دكتوراهالعلوم في العقيدة الإسلامية

الجزء الثاني

إعداد الطالب : — إشراف:

عبد الحليم لالوسي د/عمار طسطاس

لجنة المناقشة

اسم ولقب الأستاذ	الدرجة	الجامعة	الصفة
أد / السعيد عليوان	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
د/عمار طسطاس	أستاذ محاضر_أ_	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا
أد/ عفيف منصور	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	مناقشا
د/ الشريف طاوطاو	أستاذ محاضر _أ_	جامعة خنشلة	مناقشا
د/عبد العزيز بوالشعير	أستاذ محاضر _أ_	جامعة سطيف _2_	مناقشا
د/حجيبة شيدخ	أستاذ محاضر_أ_	جامعة الحاج لخضر	مناقشا

السنة الجامعية : 1435هـ- 1436هـ / 2014م-2015م

الفصـل الرابع

موازنة بين منظومة قيم عقيدة التوحيد وبُنَى العلمانية الشاملة

وأتناول فيه

المبحث الأول: منهج القرآن في الجدل

المبحث الثاني: مناقشة مرتكزات العلمانية الشاملة

المبحث الثالث: موقف الأمة ومفكروها ومؤسساتها العلمية من العلمانيةالشاملة .

المبحث الأول :منهج القرآن في الجدل

يقوم المنهج القرآني على رصد الشّبهات عند الأقوام السابقة، وبيان نقاط الضعف فيها، ومن ثم كشف عن الحجج المتنوعة لمناقشتها، فلم يكتف بتفنيد ما كان شاهدا من الانحرافات الفكرية عند المشركين في الجزيرة العربية، بل دحض ما كان على عهد الرسل السابقين، لأن الشبهات التي تلبِّس على الناس تكاد تكون هي نفسها من حيث أسسها الفكرية، ومن هنا ناقش الرسل تلك الشبهات، وهدموا أسسها الفكرية التي كانت تحول دون الاستجابة لدعوتهم التي جاءت لتنتشل الإنسان من الظلم والفساد الذي انحط بكرامة الإنسانية، حتى لا يبقى بين الناس والحقيقة ما يمنع من قبول الحق، واستخدموا لأجل ذلك كل البراهين التي تقيم الحجة على المخالفين .

ولا شك أن المستقرئ لتاريخ الإنسانية من خلال ما عرضه القرآن الكريم يكتشف أن الشبهات ذاتها تتكرر، غير أنها أحيانا تظهر في ثوب جديد. لذلك سنحاول الاستمداد من المنطق القرآني لتكييف مضامينها والاستعانة بالبراهين والحجج القرآنية لإبطال تلك الشبهات المعاصرة، ولا سيما التي يثيرها الفكر المادي الإلحادي المعاصر، الذي عاد اليوم في صورة أقوى، وتستر بثوب العلم وشتى أنواع المعرفةمستندا إلى ما تحقق للحضارة الغربية من مكتسبات هائلة في عالم المعرفة، إذ كان لهذه

المكتسبات وقع كبير في النفس الإنسانية، فاتخذه برهانا على أحقية الفكر العلماني في صياغة الحياة البشرية، بحجة أنه ما دام هذا الفكر يلبي حاجات الإنسان المادية، فهو بالضرورة فكر سليم.

ومن هذا المنطلق كان واجبا إجراء هذه الموازنة بين منظومة قيم عقيدة التوحيد، ومنظومة العلمانية الشاملة، باعتبار أن كلا المنظومتين تعرض منهجا متكاملا، تحاول من خلاله صياغة منظومة قيمية كفيلة بإسعاد الإنسان، وتحقيق النفع للإنسانية، ولا شك أن الفكر المادي لا يمكن أن يقف في وجه أمواجه العاتية إلا البرهان القرآني، الذي كشف حقيقتهوأظهر الزيف في أسسه عند السابقين.

أما في هذا العصر فقد أوهم الكثيرين أن منهج العلمانية هو الأنسب للبشرية ويمثّل مرحلة النضج الإنساني، بل أكثر من ذلك زعم أنه يمثل نهاية التاريخ، وأنه البديل الأفضل للبشرية، مما دفعه لأن يصدّر أنماطه في كل جانب في عصر العولمة الذي أصبح الإعلام والاقتصاد وسيلتيه العظميين، وهما في هذه المرحلة بالفعل يملكهما النموذج العلماني، فأين تكمن نقاط القوة في الفكر العلماني ؟ وهل العلمانية الشاملة بما تطرحه من خيارات يمكن أن تضع منهجا لحياة إنسانية راشدة ؟ أم أن حتف الإنسانية نفسيا، واجتماعيا، سياسيا، واقتصاديا يكون في منهجها المعروض كما يتنبأ لها فلاسفة الحضارة في الغرب نفسه ؟ وبخاصة إذا استصحبنا الدلائل القائمة في المجتمعات التي تغوّل فيها الفكر الماديالإلحادي، ناهيك عما يقرره القرآن من سنن إلهية تكاد تأتي على الحضارة الإنسانية من قواعدها بأجمعها .

وهنا لا يخفى أن سعادة الإنسانية رهينة بنوعية المناهج التي تتبناها لتنظيم حياتها على جميع المستويات، ومن ثم فإن الكشف عن حقيقة الفكر المادي العلماني يصبح من الضرورة بمكان، خاصة وأن العلمانية تلبّس على الإنسانية بالضغط على مواطن الضعف البشري وهي غرائزها، وتتستر لبلوغ أهدافها بستار العلم .

وهنا نجد أنفسنا – بالنظر إلى الانحرافات الكثيرة في الفكر العلماني – في حاجة إلى اللجوء إلى المنهج القرآني الذي تتبع الانحرافات البشرية عبر التاريخ الإنساني، وبيّن خلفية كل انحراف في

التفكير أو السلوك وناقش أصحابه، ووضح بالحجة المنطقية بطلان مسالكهم، وكشف عن دوافعم الحقيقية التي جعلتهم يستميتون في الدفاع عن أفكارهم، وسلوكهم، ويتواصوا على إبقائها . فما مصدر انحرافات الإنسانية ؟

المطلب الأول: مصدر الانحرافات في الحياة الإنسانية

يرجع العلماء مصدر انحرافات البشر عن منهج الاستقامة الذي تقرر في الفطرة البشرية، والذي جاءت الرسالات السماوية لتؤكده إما إلى الشبهات أوالشهوات، وكل الانحرافات التي تظهر في الحياة الإنسانية تتفرع عن هذين المصدرين فما المقصود بهذين المفهومين:

أ- الشبهات : الشبهة هي كل ما يلبس على الإنسان الحقيقة، بحيث يظهر له أنها الحقيقة وهي ليست كذلك، لأنها بنيت على مغالطة، وتحتاج لبيان بطلانها ذكاء أدهى ومنطقا أقوى، وقد تعددت الشبهات التي أثارتها الإنسانية عبر تاريخها في كثير من المجالات، وهي عادة تتعلق بخلل في منهج التفكير، حيث يستند الإنسان إلى مقدمات خاطئة ويؤسس عليها أحكامه، غير أن أخطرها غالبا ما يتمحور فيما له علاقة بموضوع الغيب (الألوهية، الإنسان، المعرفة، الآخرة، الوحي) لما للانحراف فيه من انعكاسات خطيرة على الحياة الإنسانية، إذ يثق الإنسان بقدراته العقلية اللامحدودة، فيحاول أن يجد الإجابة لكل تساؤلاته بالاستناد إلى أحكام العقل، حتى لو كانت هذه القضية المبحوث فيها فوق طاقته، فيصدر فيها حكما ويعتبره في حكم اليقين، وعلى الرغم من أن هذه الشبهات المثارة لا تقوم على أساس منطقي أو علمي، ولكنها تجد لها مكانا في نفوس الناس، وذلك للطريقة المحبوكة التي تصاغ بها والمغالطة المنهجية التي تبنى عليها إلى درجة أن أصحابها يستطيعون التلبيس على الناس فينتصرون لها، فإبليس لما رفض السجود استند إلى شبهة وهي أنه تصوّر أنّ مادة خلقه أسمى من مادة خلق آدم، واستطاع أن يكيد لآدم أيضا بشبهة مرتبطة بشهوة .

وهذه الشبهة يكون مفعولها قويا ولا سيما إذا صادف ذلك ظروفا مواتية تؤكد الشبهة وتدعّمها، بل إن هناك مخابر متخصصة في صناعة الشبهات، صارتترصد لها ميزانيات وخبراء لصياغتها، وهذا الأمر

ليس جديدا في حياة البشر، فقد حكى القرآن عن بعض النماذجوكيف يتلاعب أصحاب الشبهات بالألفاظ للإقناع بما يطرحون من مغالطات فقال تعالى : {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[928]وسأسوق نماذج من القرآن لهذه المغالطات والشبهات ومثيلاتها في واقع اليوم كثيرة :

1- ففرعون عندما أراد أن يوهم الناس بربوبيته، وألوهيته المزعومة، ساق هذا السؤال لسيدنا موسى بأسلوب استفهامي يتضمن السخرية، قال تعالى :{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى }[929].

2- و الأسلوب نفسه استخدمه الكفار للطعن في الرسالة حيث بنوا تصورهم للرسالة على فكرة خاطئة، فكانت سببا في عدم اعترافهم بدعوة الرسول لأنها لا توافق منطقهم، فنقل عنهم القرآن الكريم شبهتهم فقال تعالى:{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً }[930].

3- والمنطق ذاته بنوا عليه إنكارهم لليوم الآخر فقال تعالى:{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }[931]. فاستبعدوا البعث بناء على حكم العقل فيما يجري حولهم، رغم أن الأمر كان يستدعي النظرة الكلية لقضية الإحياء والإماتة وعدم قصرها على ما تراه العقول القاصرة، فكانت هذه الشبهة سببا في كفرهم ظنا منهم أنّ حجتهم قوية ومؤيدة بالمنطق.

وكما هو ملاحظ فإن الكافرين قديما حاولوا صياغة الشبهة بطريقة تنطلي على ذوي التفكير البسيط وتوهم السامع أن الحجة قوية، لأن شواهدها قائمة بين أيديهم، فلا يستطيع الرسول أن يثبت لهم وجود الله عيانا، لأن الله تعالى تعرّف لخلقه بآثاره، كما لا يمكن أن يحضر المَلَك ليكون مع الرسول

---

[928]-آل عمران الآية : 78

[929]- سورة طه الآية :49

[930]-سورة الفرقان الآية :7

[931]-سورة الإسراء الآية :49

نذيرا لأن الأمر سيتلبّس عليهم لو تجسّد الملك، والأمر نفسه أنهم لم يروا أحدا مات وعاد كما يزعمون، بل إنهم يتحججون برؤيتهم اندثار الجسم الإنساني وتحوُّله وانحلاله، فوجد هذا القول هوى في نفوس الناس فقبلوا به، لأنه يعفيهم من كل مسؤوليات الالتزام .ولكون الشبهة لها بعد خطير في الحياة الإنسانية، لكونها تطعن صميم العقيدة (الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر). فقد فنّد القرآن الكريم كل الشبهات التي يسوّقها المخالفونوعرض مختلف الأدلة والحجج (العقلية، والكونية،والفطرية، والتاريخية) لدفع الشبهات عنها والإقناع بالرؤية السليمة التي يطرحها الدين لعلّه يحرّك فيهم ما رَكَز في فطرهم من قضايا منطقية وقواعد أخلاقية، فيستخدمونها للوصول إلى الحقيقة.

ب–الشهوات :وهي الميل إلى اللذات الحسية ومحاولة إروائها خارج الأطر الشرعية، واتباع الهوى في إشباع الغريزة، وعدم الاكتراث بما نهى الله عنه، وهذا باب من أبواب الانحراف في الحياة الإنسانية، تجلى في صوّر كثيرة في التاريخ البشري، سواء ما تعلق بشهوة الجنس أو الأكل أو الملك أو المال أو القوة وغيرها من الشهوات التي ينغمس فيها البشر مخالفين في ذلك تعاليم الشرائع الإلهية التي جاءت لتضع الضوابط لهذه الغرائز، فيستمتع الناس بها باعتبارها جزءا مما فطروا عليه،وفي ذات الوقت هي وسيلة للمحافظة على مصالح الإنسان مادامت تمارس باعتدال وتنضبط بضوابط التعاليم الأخلاقية. فقد اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعل فيها – أي في النفس – بواعث ودوافع تؤز الإنسان أزا إلى ما فيه قوامه ومصلحته، فهذه الشهوات لا يمكن وسمها بالسوء مطلقا ولا بالحسن مطلقا. ولكنها يمكن أن تتحوّل إلى انحراف، إذا مورست من غير حدود، وبلا قيود، أو خرجت عن حد الاعتدال. وقد ضرب القرآن الكريم نماذج من عبّاد الشهوات الذين غرقهم الحياة الدنيا، وانحصرت اهتماماتهم في متعها ومنها:

1-شهوة الملك والمناصب السياسية، ومثالها فرعون الذي بلغ به الحد إلى ادعاء الألوهية :{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }[932].

2-انحراف الشذوذ كما في قوم لوط عليه السلام الذين سلكوا سبيلا منحرفا في الشهوة خرج عن الفطرة، وتفردوا به دون العالمين من بني جنسهم ومن أجناس أخرى. قال تعالى:{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ }[933].

3- عبادة المال كقارون في عهد موسى عليه السلام، فشهوة المال أعمت بصيرته وجعلته يدّعي أن عبقريته هي سبب هذا الغنى، ونسي أن المال نعمة يسوقها الله ابتلاء واستدراجا . قال تعالى :{ قَالَإِنَّمَاأُوتِيتُهُعَلَىعِلْمٍعِندِيأَوَلَمْيَعْلَمْأَنَّاللَّهَقَدْأَهْلَكَمِنقَبْلِهِمِنَالْقُرُونِمَنْهُوَأَشَدُّمِنْهُقُوَّةًوَأَكْثَرُجَمْعاًوَلَايُسْأَلُعَنذُنُوبِهِمُالْ مُجْرِمُونَ}[934].

والحقيقة أن كل عصر له أصنام من الشهوات يسجد لها، تتغير مسمياتها ولكن مفعولها واحد، وهي أنها تلهي عن الله تعالى، وتدفع لاختراق الضوابط الأخلاقية التي بها تحفظ الحياة الإنسانية من الفوضى والفساد. قال تعالى :{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[935] وقد ثبت بالدليل التاريخي والشرعي أن الفسادوالدمار الذي يلحق الأمم في الغالب يكون بسبب انتكاسة فطرتهم، وغلبة الشهوات عليهم، واستعمالهم للنّعمة في غير موضعها، ومصادمتهم لسنن الاجتماع. وعند ذلك تبرز عبادة الشهوات وتتحكم الغرائز في الأفراد والجماعات، ويحدث الخلل الاجتماعي الذي يعجز المصلحون عن إيقافه، فيلحق الدمار بالأمم.

---

[932]- سورة القصص الآية :38

[933]- سورة العنكبوت الآية : 28

[934]- سورة القصص الآية:78

[935]-سورة الروم الآية :41

قال تعالى:{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً }[936].

المطلب الثاني :طريقة القرآن في مناقشة الانحرافات

جاءت رسالة الإسلام إلى الإنسانية وهي تتخبط في شتى الظلمات،ظلمات الفكر والتّصور وظلمة العمل والسلوك، وظلمة المشاعر والعواطف، ففاجأ العرب برؤى جديدة تختلف اختلافا جذريا عن رؤيتهم ومعاييرهم في كثير من قضايا الحياة، وبالتالي كان من المنطقي أن تصطدم المفاهيم والرؤى، غير أنالقرآن سلك منهجا هادئا قائما على الحجة والبرهان خلافا لما كانت تقوم به الجاهلية في صدّها عن سبيل الله وردّها من استخدام الأساليب العنيفة على مستوى اللغة والممارسة . فمنهج القرآن في مقارعة ما يستند إليه المخالفون ارتكز على الحجة في الجدل والحوار سواء مع المشركين أو أهل الكتابأو في إبطال دعاوى الملل المختلفة، ويتجلى من خلال ما يأتي:

1-عرض القضية عرضا موضوعيا: من عظمة القرآنالكريم أنه عندما يعترض على الكفار والمخالفين لدعوة الإسلام يبرز بشكل واضح مواطن الاختلاف، وعلة الحكم على فساد مسلكهم فيالاعتقاد أو السلوك،وقد يجد لهم مبررا في هذا الاختيار الخاطئ الذي يسعى لتوضيحه وتصحيحه . فقد قال عن بلقيس :{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ }[937]فأعذرها عما اختارت من منهج الكفر لكونها تأثرتبالبيئة التي عاشت فيها وكانت سببا في انحرافها، لأن بعض الناس لا ينقصهم إلا أن يوضَّح لهم الحق، "فبلقيس" كانت تملك من رجاحة العقل ما جعلها تعود وتُسلم مع سليمان لله رب العالمين .

في حين يكشف القرآن الكريم أيضا أن بعض الانحرافات يكون سببها مرض في شخصية بعض الأفراد كفرعون الذي استبد بقومه وأكرههم على الكفر حتى تأصّل فيهم الانحراف فلم يعد في

---

[936]-سورة الإسراء الآية :16

[937]- سورة النمل الآية :43

مقدورهم أن يستجيبوا لدعوة موسى عليه السلام، مع كونهم يعرفون الحقيقة الناصعة، ولكن عنادهم وكبرياءهم منعهم من اتخاذ قرار الإيمان رغم الآيات البينات التي ساقها الله لهم. قال تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[938].

كما يعرض القرآن بموضوعية شأن المنافقين وتدبدبهم، وأنهم ذوو نفوس مريضة، ومن ثم لا يبقون على حال واحدة،فيجعلون قضية الإيمان مسألة خاضعة للمساومة وتترجح بالمصالح . قال تعالى :{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }[939].

وكذلك يخاطب أهل الكتاب ويبيّن سبب انحرافهم، وهو أنهم يزعمون العلم فيما لا علم لهم به، قال تعالى :{هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }[940] وبيّن أنهم يبنون أحكامهم على مغالطات واضحة لا تتفق مع الحقيقة في أي جانب من جوانبها. قال تعالى:{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }[941] فالحقيقة التاريخية تؤكد أن إبراهيم عليه السلام كان أسبق من اليهود، فكيف ينسب إليهم ؟

ولا يغفل القرآن سبب ضلال المشركين الذين كانوا جامدين وأسارى لميراث الآباء ويكشف عن خبيئة أنفسهم وأن موقفهم من الإيمان ناشئ عن دافع غير معلن وهو الخوف على مصالحهم، فتكريس هذا الوضع يبقي مصالحهم ويحفظ مكانتهم . قال تعالى :{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ }[942].

---

[938]-سورة النمل الآية :14

[939]- سورة البقرة الآية :10

[940]- سورة آل عمران الآية :66

[941]- سورة آل عمران الآية :67

[942]- سورة الزخرف الآية :23

لقد تميّز القرآن الكريم في هداية الإنسان إلى الحقيقة، وبأسلوبه البديع حيث أنه كشف عن مشكلاتهم الفكرية والسلوكية برفق -رغم كونها قضية حساسة تستدعى الحزم – ثم يرفع عنهم بذلك الحرج، ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول :{قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ }[943] وقال تعالى : {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ}[944]. وفي هذا الأسلوب تهيئة للنفوس لقبول الحق والتخلي عن منطق الرفض الذي لا يترك أي فرصة لسماع الأفكار المعروضة.

2-تحديد دوافع الانحراف لدى المخالفين : فقد عمل القرآن على تشخيص الأسباب التيتجعل أصحاب الشبهات والشهوات متواصّين للدفاع عن باطلهم، لأن النجاح في تشخيص الداء هو الخطوة الأولى لبداية العلاج واختيار الحجج المناسبة لإبطالها، ويمكن إجمال أسباب الانحراف فيما يأتي :

أ-الجهل :فغالبا ما يمارس الإنسان تصرفاته الحمقاء بدافع من الجهل، أي أن القوم لا يدركون عواقب تصرفاتهم، فهذا الرسول يبين لقومه أن ما يقومون به من سلوك في حياتهم الاجتماعية سلوك خاطئ ولا يليق بكرامتهم كبشر، منحهم الله عقولا للتمييز، لأنهم لا يستندون في ممارستهم إلى دليل مقنع أنهم يمارسون أفعالهم عن وعي أو هداية من علمفقال تعالى :{قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ }[945] كما نجد نصوصا أخرى تصف ما يقوم به قوم النبي لوط بأنه سلوك شاذ نابع من الجهل، لأنهم لا يقدرون النتائج السلبية التي تنجم عن السلوك الشاذ في جانب العلاقة الجنسية. قال تعالى :{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }[946].

---

[943]- سورة سبأ الآية:25

[944]- سورة يونس الآية:41

[945]- سورة الأحقاف الآية:23

[946]- سورة النمل الآية: 55

ومن هنا يتبيّن أن أصحاب الشبهات والشهوات لا يملكون حكما مؤسسا علميا يحاجّون به دعوة الرسول وما يستندون إليه من حجج هي مجرد ظنون، ومع ذلك يصرون على أعمالهم، ويلحقون الأذى بمن يقف في وجه ممارستهم . قال تعالى:{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ }[947].

ب- التقليد :وإذا كان الجهل سببا للوقوع في الشبهات والشهوات. فإن التقليد أيضا يوقع فيها، وذلك لكون المقلدين استسلموا لمنطق آبائهم لا لكون هذا المسلك في الحياة سليم، ولكنه تم تعطيل العقل وتنازل الأبناء عن وظيفة التفكير لآبائهم وصار الجيل الجديد يتصوّر أن آباءهم أحكم منهم بحكم التجربة، فيعتقدون بذلك أنهم بالضرورة أقدر في تدبير أمور الحياة، وإن كان العمر لا يمكن أن يحدد الأقدر، لأن أكثر الناس لا تعتبر بما يجري حولها، ولو مرت عليهم السنون الطويلة. ولذلك نجد أن القرآن الكريم يذم وبشدة منطق التقديس لميراث الآباء وغلق باب الاجتهاد حتى لا تصاب الحياة بالركود من جهة، وتسنح الفرصة للتخلص من الأفكار التي لم تعد مواكبة لحركة الحياة التي لا تعرف التوقف. فليس بالضرورة أن يكون منهج الآباء صالحا في كل جوانب الحياة. قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }[948] .

ج-الأهواء : لما كان الرسول حامل رسالة الله القائمة على العلم والمؤيدة من الله بالمعجزة والبرهان فإن عدم الاستجابة لها يعد من اتباع الهوى، لأنه في هذه الحالة يكون منهجم المخالف لتعاليم الرسالة مناقضا للعلم والحقيقة، ومن ثم فهو ضلال، وهذا ما أكدته مجموعة من النصوص منها. قوله تعالى : {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم

---

[947]- سورة الأنعام الآية: 148

[948]- سورة البقرة الآية: 170

بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ }[949].وقال تعالى :{فإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[950].

د-العناد والطغيان : وعادة ما يكون هذا السلوك من الملأ الذين يكابرون ويرون أنه من غير المعقول أن يقودهم هذا الرسول، لأن معايير القيادة لديهم غالبا ما تبنى على القيم المادية والمكانة الاجتماعية التي فرضها مجتمعهم. قال تعالى :{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }[951] ومن ثم كان الخوف من فقد تلك المكانة المزعومة سببا في رفض الرسالة قال تعالى : {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ }[952].فالرفض للرسالة لم يكن بسبب عدم ظهور الحق ولكن مرض النفس وعقدة الكبر والجنوح إلى الظلم كان سببا وراء الرفض قال تعالى :{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[953].

هـ-البيئة :ومن بين أسباب الانحراف عن الحق فساد البيئة، فما يتداوله المجتمع من أفكار وما يسوده من تصورات يكون حائلا بين الفرد والحقيقة، ومن ثم يكون الفرد ضحية لفساد النظام الاجتماعي، وهذا ما جعل القرآن يبرر موقف بلقيس، فرغم رجاحة عقلها إلا انها كانت أسيرة لبيئتها، وما إن بزغت أنوار الحق أمام ناظريها حتى سارعت بالاستجابة وقبول الحق.لذلك كشف القرآن الكريم عن نماذج في التاريخ الإنساني كان يحجبها عن الحقيقة هذه الأسباب فما كان من الرسل إلا تحريك عقولهم وإزالة الغشاوة عن الأبصار فتهيأت نفوسهم لقبول الحق .

---

[949]- سورة البقرة الآية :145

[950]- سورة القصص الآية :50

[951]- سورة الزخرف الآية :31

[952]- سورة يونس الآية :78

[953]- سورة النمل الآية :14

3- مناقشتهم بمختلف الحجج: استخدم القرآن الكريم عدة أساليب لكشف الشبهات التي كان يتذرع بها المشركون لتأييد باطلهم، والبقاء على انحرافهم، وراعى في ذلك مستوياتهم العقلية،ووظف منطقهم واستدل بما يعرفون من وقائع التاريخ حتى تقام عليهم الحجة، فإن استمروا عليها، فذلك لعنادهم وجريا وراء شهواتهم،وليس لكون الحق غير ظاهر بالحجج البيّنة الواضحة،بل إن القرآن يؤكد أن بعض المخالفين يعرفون الحقيقة معرفة تامة، لكن نفوسهم المريضة منعتهم من قبول الحق كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[954] ولأجل تعدد الشبهات والأمراض تنوعت الحجج والبراهين القرآنية ومنها ما يلي :

أ-التذكير بالفطرة وقوانينها:" {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }[955].فقد تقرر في فطرة الناس أن الله هو الخالق ومن ثم المالك الذي يحق له وحده أن يضبط سلوك من يعيش في ملكه سبحانه .

ب-بيان الحجج العقلية : وذلك بتحريك العقول عن طريق الأسئلة المختلفة التي تتطلب مواجهة الحقيقة عند الإجابة منها :{قُلْمَنرَّبُّالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِقُلِاللّهُقُلْأَفَاتَّخَذْتُمّمِّندُونِهِأَوْلِيَاءلاَيَمْلِكُونَلِأَنفُسِهِمْنَفْعاًوَلاَضَرّاًقُلْهَلْيَسْتَوِيالأَعْمَىوَالْبَصِيرُأَمْهَلْتَسْتَوِيالظُّلُمَاتُوَالنُّورُأَمْجَعَلُواْلِلّهِشُرَكَاءخَلَقُواْكَخَلْقِهِفَتَشَابَهَالْخَلْقُعَلَيْهِمْقُلِاللّهُخَالِقُكُلِّشَيْءٍوَهُوَالْوَاحِدُالْقَهَّارُ }[956]

ج- الاستدلال بالعالم المادي على بطلان منطقهم في التفكير سواء ما تعلق بقضايا العقيدة أو الشريعة أو السلوك. وخاصة فيما يتعلق بإثبات اليوم الأخر باعتبار أن معادلة اليوم الأخر في مركب الحياة هي المعادلة التي ترجح نوعية السلوك الذي يختاره الإنسان في الحياة

---

[954]- سورة البقرة الآية :146

[955]-سورة إبراهيم الآية :10

[956]. سورة الرعد الآية : 16

{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ }[957].

د- الاستشهاد بالوقائع التاريخية التي مافتئ القرآن يسوقها كقصة البقرة، وقصة عزير وغيرها.

4-التبرؤ من بقائهم على غيّهم وضلالهم، وتفويض أمرهم إلى الله :لما كانت دعوة الإسلام تؤكد الإرادة الإلهية في إعطاء الإنسان حرية الاختيار، ومن ثم يكفي في دعوة الرسول بسط البراهين التي تدفع كل ما يحجب الحقيقة فإذا أقيمت الحجة برئت ذمة الرسول لأن وظيفته البلاغ والتبيين وعند ذلك يتبرأ من اختيارهم السيء في الحياة وفي هذا المعنى جاءت الأيات الكريمة التالية . قال تعالى:{وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ}[958].

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }[959].

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }[960].

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[961].

ومما يلفت الانتباه أن عظمة دعوة الإسلام تتجلى في كونها تقوم على الإقناع ولا تقوم على الإخضاع، لأن فاعلية الإنسان في الحياة لا تتأتى إلا مع موقف الاختيار الحر، فالإكراه لا يولّد إلا النفاق، لأنه المكره سيضطر لإظهار خلاف ما يبطن ليتخلص من الضغط والإكراه. بيد أن منهج الإسلام بأساليبه المختلفة يسعى لبناء أفراد صالحين صادقين لا صناعة منافقين. لذلك فهو يعرض

---

[957] سورة ق الآية : 11/10/9

[958]-سورة يونس الآية:41

[959]-سورة ق الآية :45

[960]-سورة الغاشية الآية: 22/21

[961]-سورة القصص الآية :56

الحجج ويصوغها صياغة محكمة ترفع اللبس وفق أدلة منطقية، وتستند إلى الحقائق العلمية الموضوعية، التي يتوافق عليها أصحاب العقول والفطر السليمة. وذلك {...لِئَلاَّيَكُونَلِلنَّاسِعَلَىاللّهِحُجَّةٌبَعْدَالرُّسُلِوَكَانَاللّهُعَزِيزاًحَكِيماً }[962]

المبحث الثاني : مناقشة بُنى (أسس) العلمانية الغربية:

المطلب الأول : الجوانب السلبية في الحضارة المادية

تعتبر الحضارة استجابة لروح الإنسان الباحث عن الحقيقة، الذي يتساءل باستمرار عن الوجود والعالم والإنسان وجميع احتياجاته المتنوعة والمعقدة، ولاشك أن الإنسان مادام على قيد الحياة فإن قائمة التساؤلات عنده تزداد مع كل إجابة، ومن ثم فإن كمال حياة الإنسان هو حصيلة ثمرة روح الإنسان السائلة المعقدة، و من المؤكد أن الحضارة تسير نحو التقدم مادام في نفس الإنسان التساؤلات الملحة التي تستفز الطاقة الإنسانية الكامنة و تحركها بروح متفائلة لبلوغ الحقيقة، وإذا عجزت الحضارة عن تلبية هذا الطموح الإنساني انحدرت وانحطت واتجهت نحو التخلف والفناء .

وإذا كانت الحضارة الغربية أجابت عن كثير من التساؤلات المتعلقة بعالم الحاجات المادية، فإن عجزها واضح في وضع الإجابات عن التساؤلات الوجودية أي أنها تحيا بشطر واحد فقط من الحياة، وهذا ما يدعونا لمناقشة الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية والتي تأسست على الفكر العلماني المادي الإلحادي، والسعي لفهمها واختبار كل الركائز التي بنيت عليها، وذلك حتى نكتشف حقيقة الحضارة الغربية العلمانية، التي يبدو أنها تعيش حالة من التناقض على الرغم مما بلغته من

[962]. سورة الأنعام الآية :165

مستوى علمي وتكنولوجي، مما يؤكد أن هناك خللا في منظومة الغرب العلمانية .يقول إسماعيل راجي الفاروقي :" اخترع الغرب علما جديدا ecology علم التوازن الطبيعي، ولكنه وضع مقصدا آثما لهذا العلم البريء، هو : كيف يساعد الإنسان في استغلاله لقوى الطبيعة . فالإنسان الغربي مقمح على الاستغلال حتى بالعلم الذي وضعه هو لحمايته من الاستغلال . وهذا هو قمة التناقض "[963] . وهذا ما يثير فضولنا للبحث عن هذا الخلل الذي تحياه الحضارة الغربية المتسترة بالعلم والتكنولوجيا.

ولعل الاعتراف بأهمية تقدم العلوم في إسعاد الإنسان أمر لا يختلف عليه اثنان، وهو مالا ينكر على ما بدله الغرب في الآونة الأخيرة في تطوير بعض العلوم . لكن غياب "الروح" عن الحركة العلمية أوقع الغرب في أخطاء مسخت الحياة الإنسانية. فظهر الفساد في البر والبحر، وهو انعكاس لعدم التوازن في الإنسان ذاته :" فنحن نعيب الغرب على تنمية الجشع في الإنسان إلى درجة التبذير . وللجشع والتبذير نتائج غير نهب الطبيعة واختلال التوازن، تلك هي اختلال التوازن في الإنسان بين طبيعته المادية وطبيعته الروحية، أليس مسخا أن تحدث الغربي عن القيم فيسألك عن الثمن ؟ وتحدثه عن الآخرة فلا يفقه لها معنى سوى ميزان الأرباح والخسائر "[964].ومع ذلك يجدر بنا طرح هذا التساؤل وهو هل للحضارة الغربية العلمانية جوانب إيجابية ؟

المطلب الثاني : الجوانب الإيجابية في الحضارة الغربية :

لا نستطيع ونحن بصدد مناقشة الأسس الفلسفية للفكر الغربي، إلا أن نعترف أن الحضارة الغربية حققت انجازات هائلة في الجوانب المادية والتنظيمية من الحياة الإنسانية، بل إنه من العدل الإقرار بذلك، والاعتراف بالجوانب الإيجابية التي تتميز بها مسيرة الحضارة الغربية . فيشهد لذلك الواقع بمعطياته التي لا تخفى، كما يشهد لذلك المنصفون من المفكرين . "أن حقوق الإنسان في الفكر

---

[963]_ اسماعيل راجي الفاروقي : نحن والغرب ص 12 .

[964]– اسماعيل راجي الفاروقي : نحن والغربالزيتونة للإعلام والنشر باتنة 1989 ص 12

الوضعي أو في الشرعة الدولية تتميز بالتنظيم والتقنين الدقيق والمفصّل، ومراعاة مقتضيات الحياة الإنسانية "[965]. وأحببت أن أنقل هنا شهادة اسماعيل راجي الفاروقي التي لها وزنها في هذا المقام، باعتباره عاش بين ظهرانيهم، وحاول أن يكون منصفا في الحكم على الحضارة الغربية، حيث يقول :" أدى مذهب الشك إلى نتائج طيبة وأخرى وخيمة :

أما الطيبة فثلاث :**الأولى** : احترام الذات الإنسانية وحمايتها من كل معتد .فالحق يجب أن يقال :وهو أن نظام الشك، حقق للإنسان حقوقا جليلة، وإن كان تعريفهم للإنسان بالمواطن أي بفرد القوم، لا الإنسان عامة .يتمتع الفرد في البلاد الليبرالية بحرية كبيرة وتحترم الحكومة ذاته أشد الاحترام.

الثانية : أن تأليه الرغبات واحترام الذات شد في أواصر القربى بين المواطن والمواطن وحث وعيهما بضرورة إشباع رغباتهما على التعاون المنتج الفعال ...

الثالثة: تأليه الرغبات واحترام الذات جعل من المجتمع الغربي مجتمع نمور لا يعتدي النمر على النمر بل على فريسته .فكلاهما موجه إلى الفريسة بطبيعة تأليه رغباتهما .فالفريسة الأولى هي الطبيعة ...وقد فجرت هذه النظرة ينابيع المعرفة الطبيعية، فنشأت العلوم وترعرعت ثم تفننوا في استغلال الطبيعة –وهو ما يعرف بالتقنية – وقد سبقوا المسلمين سبقا مفحما "[966]

وكما هو ملاحظ فإن النتائج التي اعتبرها طيبة لمذهب الشك، على الرغم من أهميتها إلا أنها كلها تتعلق بالتقدير المادي للحياة ومحورها المنفعة وإشباع الرغبات، فلم تخرج عن الفلسفة المادية التي يطوف حولها الفكر العلماني .

أما النتائج الخبيثة "فهي أيضا ثلاث تقابل الطيبة بل تعارضها :

---

[965]–محمد الكتاني: منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 210

[966]–اسماعيل راجي الفاروقي :نحن والغرب ص9/8

أولا : غلا الغرب في رعاية الذات الإنسانية وحمايتها بأن ألهها وجعلها وحدها الحقيقة، فأصبح إشباع رغباتها هو معيار الخير والشر .

صحيح أن هذا من جهة : هو تأليه الإنسان ورفع من شأنه .إلا أنه من جهة أخرى :هو مسخ للإنسان بإقصائه عن الله وعن ملكوت القيم والأخلاق .فالقيم والأخلاق أيضا فطرة وطبيعة في الإنسان ...فَبِنَفْي هذا الملكوت تصور الغرب نفسه : بأنه شبكة من الرغبات المتناقضة، المتصارعة، المتنافسة الطاغية حينا والمطغى عليها حينا آخر ...

ثانيا :غلا الغرب هنا أيضا في تأكيد أواصر القربى بين الجماعة، سواء أكانت جماعة القوم أم جماعة الطبقة، فولى الولاء كله للجماعة واعتبرها قوما أو عنصرا لا يعلو على مصلحته شيء، ...ثم غلا الغرب أيضا في إقصاء علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى عن ملكوت الله والقيم والأخلاق، وغلا في حصره الحقيقة في رغبة الجماعة فكانت الحروب المستمرة نتيجة هذا الغلو...كل هذا دون أي مبدإ أو معيار يعلو على رغبة الجماعة فتقاس به...وأصبح الشذوذ عن الجماعة شرا وإن أصاب الفرد وأخطأت الجماعة..

ثالثا : غلا الغرب في استغلاله للطبيعة . فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على كافة أنواعها وتقدم التقنية في خدمة الإنسان، فإن تأليه الرغبات ومنع العنف ضد الزملاء النمور أدى إلى اغتصاب الإنسان للطبيعة، أي إلى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقي،...فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب، مما أدى بدوره إلى قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول "[967].

ومن هنا فالحضارة الغربية لا تخلو من القيم الحضارية المعتبرة التي تمدها مؤقتا بالقوة والوجود.

---

[967]– اسماعيل راجي الفاروقي: نحن والغرب ص 12/11/10

و إنصافا منا لهذه الحضارة يحسن بنا الإشارة بإيجاز لهذه الجوانب البارزة في الحضارة الغربية، فمن هذه القيم:

1- الالتزام بالبحث العلمي التجريبي.

2-النظام والتنظيم.

3-استغلال الوقت.

4-حسن استثمار الموارد الطبيعية .

5-وحسن استغلال للطاقات البشرية.

6-الدقة في المواعيد.

7-الجودة في العمل.

8-الإرادة القوية على النهوض.

9- حب الاطلاع والاستكشاف العلمي.

10-العدل في الحكم.

11-محاسبة الحكام.

12-قيمة التضامن والتكافل فيما بينهم.

13-المساواة فيما بينهم.

14-قيم الحرية والتسامح فيما بينهم.

15- قيمة الاهتمام بالعمل المؤسساتي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

16-قيمة الانتصار للمظلوم فيما بينهم.

وغيرها هذه القيم كثير التي تعد من طبيعة شخصيتهم، أو من القيم التي اكتسبوها عند احتكاكهم بالحضارة الإسلامية .غير أنها فاقدة لغاية نبيلة، فهي توظف فقط لتلبية حاجاتهم المادية فلا يتجاوز أفقهم هذا العالم المادي .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض خصائص النصارى وما يتميّزون به من صفات حضارية كما في صحيح مسلم عن موسى بن عُليّ عن أبيه قال: كان المستورد القرشي عند عمر بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس" فقال له عمرو أبصر ما تقول ؟قال : أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لئن قلت ذلك إن فيهم خصالا أربع : إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة،وأوشكهم كرة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة :وأمنعهم من ظلم الملوك" [968] .

هذه الخصال الحضارية المشار إليها نلمسها في هذا الزمان بوضوح في سياسات الدول، وتفوقهم التكنولوجي وقدرتهم على تجاوز الأزمات والحرية السياسية التي يتمتعون بها . ونحن اقتداء بالنبي لا ينبغي أن نغمط الناس أشياءهم وأن نعترف بمزايا الغرب التي أهلتهم لفرض منطقهم على الأمم في هذه المرحلة التاريخية.

غير أن الإيجابيات التي تسجل لهذه الحضارة، لا ينبغي أن تجعلنا نغفل عن المؤاخذات الكثيرة التي توجّه لجوهر هذه الحضارة، فلا نكاد نفرح بمنجزاتها إلا وتظهر السلبيات التي تغطي على تلك الإيجابيات، وتبعث الريبة في النفس، وتفرض علينا البحث في حقيقتها، و في سلامة الأسس التي بنيت عليها. حيث تختفي هذه الميزات بمجرد الخروج من حدود تلك الدول عند تعاملهم مع غيرهم، بالإضافة إلى الخلل الكبير الذي يسجل على الخلفية الفكرية والفلسفية التي بنيت عليها هذه الحضارة.

---

[968]-أخرجه مسلم :كتاب الفتن وأشراط الساعة باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس المجلد الرابع حديث رقم 7313

يقول مصطفى السباعي :" وقامت للشيوعية الحديثة أول دولة في العالم، واستطاعت أن تحسن معيشة أبنائها عما كانوا عليه من قبل، ولكنها لم تستطع بفلسفتها المادية أن تنقذ أبناءها من كل أنواع القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية، وزادت على ذلك مخاوف أخرى بما فرضته على شعوبها من خوف على مصائرهم إن هم انتقدوا الحكم أو أساليبه، وإن الخوف الذي يملأ جوانب أعضاء الحزب الشيوعي أنفسهم ليفوق الخوف الذي يملأ نفس المواطن الشيوعي العادي .إن على عضو الحزب إما أن يكون متحمسا لآراء القيادة الشيوعية العليا، مندفعا إلى تأييدها اندفاعا أعمى وإما أن يلقى مصيره المحتوم "[969] .

ولعل ذلك يعود إلى أن التطرف الذي آل إليه التفكير الغربي الشيوعي والرأسمالي في وضع فلسفة الحياة، مسّ بوضوح جوهر الحياة الإنسانية، وأن كثيرا من الإيجابيات لم تتجاوز الجوانب الشكلية والمظهرية للحياة الإنسانية، فهي تفتقد إلى العمق والتوازن، حيث وفرت للإنسان "الوسيلة" وجردته من "الغاية" . فصار يعيش حالة من القلق المستمر، وهذا ما جعل عبد الكريم بكار يعلّق على الحضارة الغربية الشكلية بقوله :" الحضارة الغربية تفردت بإنتاج أكبر قدر من الأشياء مع إهمال لإنسانية الإنسان، فصار أكثر الناس عبيدا للأشياء ! فبعد أن يعاني الإنسان الأمرين في سبيل امتلاكها يعاني مرة أخرى من خوف افتقادها، حيث حلت منه محل الجزء من الكل .و إذا كانت أهمية الإنسان مما يملك فما ذا بقي له إذا خسره؟! وقد كان يُظَنُّ أن المزيد من الإنتاج والسيطرة سيجعل الناس أحرارا، فاكتشفوا أنهم أصبحوا تروسا في آلة بيروقراطية، وأطراف استخدام في عملية (الإنتاج الوافر والاستهلاك العظيم) ! "[970].

إن سعي الغرب للإنتاج كان من أجل تحرير الإنسان وجلب الراحة له، وكانت النتيجة على العكس من ذلك، فمن الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسرة

---

[969]- مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص 13

[970]- عبد الكريم بكار : من أجل انطلاقة حضارية شاملة دار القلم دمشق ط2 2001 ص103

للإنسان، فنسبة الأمراض النفسية في البلاد التي يرتفع فيها مستوى المعيشة أكثر مما في غيرها من البلاد المتأخرة، والإحصائيات الأمريكية في هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنوذلك أن فلسفة هذه الحضارة لم تكن جوهرية ولم تكن متوازنة في تكوين شخصية الإنسان، ولا تملك القدرة على التأليف والتوفيق بين الجوهر والمظهر ؛لأنها لا تملك المنهج الذي يقدر على ذلك . وهذا الانفصال جلب النهاية المأساوية للإنسان الغربي كما يشير إليها مصطفى السباعي فيقول: "وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي أفقدت الإنسان اطمئنانه واستقراره، ومثله الإنسانية الرفيعة، حين جعلت الرفاه المادي هو المثل الأعلى الذي تستحث الخطى نحوه، فإن لم يصل إليه طالبه عاش شقيا، وإن وصل إليه عاش ملولا لا ينتهي من مله إلا بالانتحار "[971] .

هذا التطرف يشبه إلى حد بعيد الفكر الجاهلي الذي كان يسيء في ممارسته من حيث كان يريد الإحسان؛ لأنه يفتقد إلى قاعدة فكرية صلبة وتصوّر سليم يتأسس عليه تفكيره، ومن ثم جاء القرآن الكريم منذ البداية يندد بأخلاق الجاهلية، ويكشف عن السبب الذي جعل أهل الجاهلية يمارسون الطغيان قال تعالى:{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى .أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }[972] ففساد التصور يؤدي إلى فساد السلوك، وغياب فلسفة واضحة عن معادلة الحياة وسقوط معنى الآخرة من الاعتبار جعلت هذا الشخص يسيئ فهم الابتلاء بالثروة فقاده هذا التصور إلى الطغيان.

وهكذا يكون تحكيم العقل، وما ينتج عنه من أهواء بعيدا عن هداية السماء ويتحول أداة للتدمير بدلا من أن يكون عونا على الخير والفضيلة. فمثلا نجد ظاهرة الوأد عند الجاهليين كانت بدافع حَسَن وهو حفظ العرض، والتهور كان بدافع حسن وهو النخوة، والإسراف كان بدافع حسن وهو الكرم، لكن النتائج كانت إزهاقا للأرواح وتبذيرا للأموال، كما تشير إلى ذلك موزة أحمد راشد العبّار، حيث ترى أن بعض ما يحسب على العرب من الرذائل والأخلاق والعادات السيئة لم يكن إلا مبالغة أو سوء تقدير لمعنى الخير في رأيهم .فالإسراف في المال ليس إلا مبالغة وغلوا في الكرم،

---

[971]-مصطفى السباعي المرجع نفسه ص 14

[972]- سورة العلق الآية : 6 /7/ 8

ووأد البنات ليس إلا ذهابا إلى أقصى الحدود في الغيرة على العرض، والتهور ليس إلا إفراطا في الشجاعة وهكذا...فما كان على الإسلام إلا أن أخذ النفوس وأوقفها عند حدود الاعتدال والتوسط[973]. ومن هنا فالحضارة الغربية قدمت أشياء جميلة للحياة، غير أن جنوحها وغرورها أفقدها التوازن ف" على نفسها جنت براقش "[974] .

ومع أننا لا ننكر الانجازات الهائلة التي حققها الغرب في تفجير طاقات بشرية هائلة كانت كامنة غير مستعملة وسيّرها لإسعاده، لكن نعيب عليه العدوان على الشعوب والكيل بمكيالين، ووضع القواعد والقوانين واختراقها، وما نتج عن ذلك من تدمير للطبيعة ولإنسانية الإنسان، وهذه كلها قائمة على التناقض في منظومته .ولا شك أن التناقض قائم على خطإ المبادئ الأساسية لنظرية العلاقات الإنسانية، ومن ثم " فلا يغرنا أن تطبيق المبادئ الخاطئة أنجز إنجازات كبرى، من مفاخرها المساواة، وإخضاع السلطان السياسي لحكمة المحكومين، وانتقال السلطة من يد إلى يد دون عنف مادي ظاهر...لأننا نعرف أن ما أقيم على الفساد فهو فاسد، وإن طال أجله .ومصير الحضارة الغربية المبنية على أساس الشك أصبح ظاهرا .الحضارة الغربية متصدعة، مقبلة على انهيار تام، كما يقول عظماء مفكريها مثل (طوينبي) (ماكنيل) و(فان لفين) لا لضعف في قوتها بل لفساد في أساسها "[975].

وهنا يحق لنا أن نسأل . أين الخلل في الفكر العلماني الذي أنشأ هذه الحضارة، وأين الفساد في بنى العلمانية وأسسها ؟ هذا ما سأحاول بيانه من خلال مناقشة مرتكزات وبُنى العلمانية الشاملة .

المطلب الثالث : موازنة بين منظومة قيم عقيدة التوحيد و بُنَى (أسس) العلمانية الشاملة

---

[973]- ينظر موزة أحمد راشد العبار: القيم الأخلاقية بين الفكرين الإسلامي والغربي الدار العالمية للنشر والتوزيع ط1 سنة 2009 ص 119/118

[974]- يضرب هذا المثل لبيان أن سوء تقدير الإنسان يوقعه في الهلاك، ولهذا المثل قصة طريفة عند العرب .

[975]- اسماعيل راجي الفاروقي : نحن والغرب ص13/12

تعريف البُنى لغة :البنى هي ما يبنى عليه من الأسس .

أ-تعريف الأساس في اللغة: الأس والأسس والأساس : كل مبتدأ شيء، والأس والأساس : أصل البناء .والأسيس : أصل كل شيء، وأس البناء مبتدؤه .يقال أسس بنيانه : جعل أسا وهو قاعدته التي يبنى عليها .

تعريف الأساس في الاصطلاح : يختلف مضمون هذا المصطلح من فن لآخر، وإن كان لا يخرج عن معناه اللغوي . وللأساس عند الفلاسفة معنيان:

1-الأساس مصدر وجود الشيء وعلته نقول : إن عالم المعقولات أساس عالم المحسوسات، ويطلق الأساس بهذا المعنى على مبدأ يدعم إحدى النظريات، أو على مقدمة تجعل التصديق بإحدى القضايا واجبا .

2-الأساس أعم القضايا وأبسط المعاني التي تستنبط منها المعارف، أو التعاليم، أو الأحكام.فأساس الاستقراء مبدؤه الذي يؤيد الانتقال من الجزئي إلى الكلي، وأساس الرياضيات هو البديهيات والمسلمات والتعريفات[976].

ويرى جميل صليبا "أن كل أمر يؤصل للبحث أو المناظرة في إحدى المسائل يجب أن يعد أساسا لها "[977].

وبناء على هذا تعتبر العلمانية زبدة الاجتهادات الغربية خلال الحقب التاريخية المختلفة، وقد خلصت إلى بناء الفكر العلماني الجديد " الدين الجديد" للغرب عموما، حيث استقر مفهومها على مجموعة من الثوابت نعتبرها "الأسس" الجوهرية والجذور الفلسفية التي ارتكز عليها الفكر العلماني، ومن خلاله استطاعت الحضارة الغربيةأن تحدث تحولات في مختلف المجالات الحياتية: الفكرية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية والسياسة والإعلامية وغيرها. وهي انعكاس للرؤية العلمانيةللحياة

---

[976]-ينظر جميل صليبا : المعجم الفلسفي المجلد 1 ص 63، ومعجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص23

[977]- المرجع نفسه المجلد 1 ص 64

الإنسانية. ولهذا سنحاول من خلال هذا الفصل الكشف عن هذه الأسس واستخلاصها من مختلف الرؤى والنظريات الفلسفية التي تتبنى الفكر العلماني.

ولما كانت المدارس والمذاهب والنظريات في الغرب العلماني لا تكاد تحصى من كثرتها،فإن التنقيب عن هذه البُنَى ليس بالأمر اليسير، لأن المنظومة العلمانية لا تمثل مدرسة بعينها،بل هي مزيج من الفلسفات تآلفت خلال حقب تاريخية متتالية، فشكّلت هذا التّصور العلماني للحياة الإنسانية على الرغم من تناقض بعضها أحيانا، لذلك فهدفنا من هذا المبحث هو التأكيد على أن العلمانية تمثل منهجا فلسفيا قائما تتمحورحوله كل الرؤية العلمانية . وهذه الثوابت تعد- فيما أرى – بمثابة المنطلقات والجذور لكل المنتج الفلسفي العلماني،فكل ما نراه من مظاهر في الحياة الغربية العلمانية، ما هو إلا صدى وانعكاس لهذه الأسس وموجّه لخدمتها في نفس الوقت . وهي ما يمكن أن نصطلح عليه ب"بُنَى العلمانية الشاملة"

وقد تبيّن لي –بعد الاطلاع المتواضع على بعض ما كتب حول الفلسفة الغربية – أن هناك ثمانية بنى (أسس) رئيسة للعلمانية تندرج تحتها كل أفكار المذهب العلماني، منها ما يتعلق بعلمنة الرؤية أي النظرة إلى القضايا الوجودية :(الله، الكون، الإنسان،والحياة) ومنها ما يتعلق بعلمنة (الحياة في كل مجالاتها: النفسية و الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية ...إلخ)

كما ظهر لي من خلال محاولة فرز المدارس المعتبرة في الفكر الغربي أن هناك تداخلا بين مضامين ومفاهيم هذه الأسس في أراء الفلاسفة والمفكرين ورواد هذه المدارس والمذاهب، وقد اكتشفت أنهم يتفقون أحيانا في أصل الفكرة اتفاقا كليا، وفي بعض الأحيان يختلفون في القليل أو الكثير من جزئياتها، لكن هذا الاختلاف لا يخرج الفكرة عن جوهرها، مما جعلها ثابتا مهما في الفكر الغربي، ومن ثم في الحياة الإنسانية التي تريد العلمانية أن تهيمن من خلاله على كل الفكر الإنساني، ولتفرض منطقها وأسلوب تفكيرها على العالمين مستغلة في ذلك الترسانة الإعلامية والتقدم التكنولوجي في عالم العولمة، حيث اختصرت المسافات وألغيت الحدود، وأصبح العالم قرية صغيرة. لذا كان من الضرورة بمكان الوقوف على هذه الأسس بعرضها كما هي ومن خلال أقوال أبرز الفلاسفة الذين

أسسوا للفكر العلماني، ومحاولة فهم مضامين تلك الأسس، وتحديد الأبعاد الفلسفية لها ثم مناقشتها، لأن ما تسوقه العلمانية الشاملة، يحتاج إلى فحص دقيق، رغم ما حققته النظرة العلمانية للحياة الظاهرة من إنجازات آنية.

ولعلنا ونحن نبحث في مسألة العلمانية نرى أن هناك رؤية أخرى للحياة الإنسانية نعتقد – نحن المسلمين – أنها نظرة أعمق، وأقوم، وأوفق في التعبير عن طموح الإنسان وخدمة مصالحه العاجلة والآجلة، وتتمثل هذه الرؤية في منظومة عقيدة التوحيد المستمدة من الوحي الإلهي. والتي سأحاول من خلالها مناقشة هذه الأسس حسب المنهج العلمي الذي تزعم العلمانية أنها تتبنى العمل به، وتتخذه وسيلة ومنهجا للحكم على قضايا الحياة . ومن ثم نقف على مدى صدقها أو كذبها، ومدى قدرة منظومة القيم العلمانية على فك لغز الحياة، وإعطاء الحجج والبراهين الكفيلة بإقناع العقل، وطمأنة النفس، وتوضيح الرؤيةفي قضايا الوجود الإنساني، وهل هي فعلا متجذرة في النفس الإنسانية، أم أنها "كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار"؟ فلا عمق لها، لا من الناحية الفطرية، ولا من الناحية العلمية، ولا من الناحية الواقعية ؟.

ولذلك فقد اخترت لإجراء هذه الموازنة منهجية تقوم على عرض الأساس بمضمونه العلماني، استنادا إلى بعض أقوال رواد الفلسفة الغربية القديمة أو الحديثة، وذلك لكون ما تقول به العلمانية من أفكار في الغالب له جذور في الفلسفة الغربية القديمة . بل إنه نسخة مطوّرة للفكر اليوناني والروماني. ثم أناقش مضمون هذا الأساس بمختلف الحجج، مستعينا في ذلك بمنهجية القرآن في الحجاج، وبما توفر من ردود في مؤلفات الفكر الإسلامي أو الفكر الغربي الناقد لظاهرة العلمانية وموازنا هذا الفكر العلماني بالرؤية الإسلامية، من خلال منظومة القيم الإسلامية، ثم أخلص إلى الحكم لها أو عليها[978].

[978]-يحسن بنا هنا الإشارة إلى أن الحركات الإسلامية المعاصرة حرمت نفسها من كثير من مزايا الفكر الغربي لتطرفها في الحكم عليه جملة وتفصيلا كالذين عنونوا لكتبهم بأن الغرب يعيش في جاهلية بالمطلق، ولم يفصلوا الجوانب المرفوضة من هذه الحضارة عن

1- الأساس الأول : إنكار الغيب

ويتمثل هذا الأساس في إنكار كل ما وراء الطبيعة من الروح والوحي، ومن ثم اعتبار الدّين وما يدعو إليه كله خرافة، فعلى الرغم من أن الدراسات والأبحاث تؤكد أنه لم يظهر أي مجتمع عبر التاريخ بلا دين أو نظام ديني -ذلك أن النزعة الدينية نزعة فطرية في الإنسان - فإن العلمانية الشاملة بفكرها المادي الإلحادي تنكر قضية "الوحي" وتستبعد الإرادة الإلهية المتحكمة والمسيرة لهذا الكون، وتؤكد القول أنه لا يوجد في العالم سوى" المادة "ولا تهتم بما هو خارج عن الطبيعة أي أنه لا تكترث "بالغيب" أو الحقائق "غير المادية".

لذلك كان أول ما توجّهت العلمانية الشاملة لاستبعاده هو الدين وما ينتج عن التفكير الديني واعتبرته مجرد ظاهرة تاريخية، فلا يعترف الفكر العلماني بأي قيم خارج المنظومة المادية، ومن ثم لا ينبغي طرح أسئلة كونية وجودية من أين ؟إلى أين ؟ ولماذا ؟.

وفي هذا المجال يشيرعبد الوهاب المسيري إلى قضية المطلق العلماني الشامل[979]، و يوضح أن "النماذج الفكرية العلمانية قد تنكر أية نقطة مرجعية تتجاوز هذه الدنيا، إلا أنها تستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية[980]كامنة في المادة (الطبيعة أو الإنسان أو التاريخ) ولذا فهي –أي المادة –

الجوانب التي تعتبر من الحكمة الإنسانية، لأن كثيرا من الجوانب فيها إما أنها سليمة، أو أنها تحتاج إلى ضبط وتوجيه فقط.ومن ثم يمكن الاستفادة من هذه الحكمة ولا سيما في المعارف التي ليس لها بعد فلسفي .

[979]-المطلق :إن أي نموذج فلسفي لا بد أن يكون له مطلقه، يمكن تعريف المطلق: بأنه المركز الذي يتجاوز كل الأشياء ولا يتجاوزه شيئ، وبأنه يؤدي وجوده إلى تماسك كل أجزاء النسق .فهو مصدر الوحدة والتناسق، وهو الركيزة النهائية للنسق والمبدأ الواحد والمرجعية النهائية والميثافيزيقا المسبقة .ينظر عبد الوهاب المسيري العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ج1 ص237

[980]-المرجعية : وهي الفكرة الجوهرية التي تشكّل أساس كل الأفكار في خطاب ما، والركيزة النهائية الثابتة التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها ويمكن الحديث هنا عن مرجعيتين :

أ. مرجعية نهائية متجاوزة ترتكزعلى نقطة خارج عالم الطبيعة والمادة والحواس، وهي في النظم التوحيدية الإله الواحد المنزه عن الطبيعة والتاريخ، الذي يحركهما ولا يحل فيهما .

ب . أما في النظم الإنسانية فهي الجوهر الإنساني الذي يرتكز على نقطة داخل العالم، ومن ثم فالعالم يحوي داخله ما يكفي لتفسيره دون اللجوء إلى أي شيء خارج النظام الطبيعي، وفي إطار المرجعية المادية فإن الإنسان كائن طبيعي، وبذلك تسقط

مرجعية نهائية مادية، مركز مطلق أو مركز يشكل مصدر التماسك في الكون والمجتمع ويزوده بالهدف والغاية، ويشكل أساس وحدته...وقد يأخذ أشكالا كثيرة، لكنه في النهاية هو الطبيعة"[981]. ويمكن تلخيص الفكر العلماني المادي الإلحادي في نظرته للدين عموما و للغيب خصوصافيما يلي:

1-أن الكون كله منحصر في الوجود المادي الخاضع للإدراك الحسي ولو عن طريق الوسائل المكبرة، أو عن طريق ما يتوصل إليه بالاستنتاج العقلي .

2-أن المادة الأولى للكون عديمة الحياة، عديمة الإدراك، عديمة الفكر، عديمة الإحساس، وأنها بالتطور الذاتي ارتقت صفاتها حتى وصل الكون إلى ما هو عليه .

3-أن المادة الأولى للكون أزلية فهي إذن أبدية.وقد وجدت الحياة نتيجة المصادفة، وبفعل تفاعل كيمياوي بين عناصر المادة الناتجة عن حركتها الذاتية المستمرة، فهي أثر تركيب خاص معقّد للمادة.

4-أنه لا وجود للروح على اعتبار أن الروح مباينة في طبيعتها للمادة، فما لا تدركه الحواس غير موجود، وما يعرف في الحياة من مشاعر ولذة وألم وإرادة، ما هي إلا ثمرة لتفاعلات المادة فالمادة حينما تكون في تركيب معيّن ترتقي معها معطيات الحياة .

5-أن فكرة الرب اخترعها الإنسان بتخيّله وهي فكر لا يكترث لها الغرب كثيرا :" إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه"[982] .

6-أن الدين خرافة وهو من صنع المجتمع أحيانا ومن صنع الفرد أحيانا .

المرجعية الإنسانية، وتصبح الطبيعة والمادة هي المرجعية الوحيدة النهائية .ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ج2 ص453 .

[981]-عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والشاملة ج1 ص237/ 238 .

[982]-ينظر أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص182 نقلا عن slam at the cross roads p .50

وبهذا تكون "العلمانية الشاملة" قد أقصت كل فكرة دينية حول الكون، والإنسان، والحياة،والمعرفة.والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو كيف بلغت أوروبا هذه الدرجة من معاداتها للدين ؟

لاشك وأن المتأمل في تاريخ أوروبا يرى أن بُغْض الدين لم يأت طفرة، بل مهدت له نظريات هامة خلاصتها أن تستبعد كل فكرة لها علاقة بالدين، مستغلة في ذلك جميع المفاسد التي ارتكبتها الكنيسة، وما ورثته أوروبا من العصور الوسطى [983].

فجاءت الثورات في أوروبا وعلى رأسها الثورة الفرنسية التي قامت تحمل روح الثورة على الدين والسخط على الكنيسة، فهتف الشعب خلف قوّاد الثورة بشعارها : الحرية،والمساواة، والإخاء لتسقط الرجعية،والرجعية عندهم تعني الدين،وهي شعارات يقصد بها تحطيم القيود الأخلاقية،وكسر الحواجز التي أقامتها الطبقية، حيث اعتبر الدين مرادفا للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد. فالفكاك منه فكاك من غل الاستعباد. وتوالت الثورات في أوروبا تحمل شعار "حقوق الإنسان " الذي كان يعني في البداية انهيار النظام الإقطاعي وانهيار الكنيسة،لكنه انتهى باعتبار الدين والأخلاق ماضيا مندثرا بغيضا عدوا للعلم، والحضارة، وحقوق الإنسان.

ويلاحظ من خلال العبارات التي يستخدمها دعاة الفكر المادي الإلحادي أن الدين ليس إلا ظاهرة اجتماعية طارئة على الحياة الإنسانية من جهة . ومؤقتة من جهة أخرى، اخترعها الأفراد والمجتمعات لتلبية حاجات نفسية و اجتماعية .

ثم ظهرت نظريات ساعدت على انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد في أوروبا كنظرية "تشارلز داروين" التي أودعها كتابه "أصل الأنواع" وهي نظرية تفترض أن الكائنات العضوية على اختلاف أنواعها ترجع إلى أصل واحد مشترك، وأنها تدرجت من الأحط إلى الأرقى تحت قانون "الانتقاء

---

[983]– العصور الوسطى: وتدعى بالعصور المظلمة، وهو مصطلح يطلق على فترة الركود الديني والعقلي والظلم الاجتماعي والنظام الاقطاعي الفاحش الذي ساد العالم الأوروبي مند سقوط الأمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476م وانتهى بمنتصف القرن الخامس عشر حيث بدأ عصر العلم والاصلاح في أروبا.

الطبيعي وبقاء الأنسب "، وقد أدى هذا إلى تحسن نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ثم إلى نوع أرقى وهو الإنسان مع ملاحظة أن هناك حلقة مفقودة في هذا التسلسل، وبهذا فُهِم منها أنها تنفي "نظرية الخلق" التي يقول بها" الدين ".

كما كان لنظرية فرويد أثر كبير في انهيار العقيدة الدينية، حيث أرجعت كل السلوك الإنساني إلى دافع واحد هو" الغريزة " وليس غيرها، بل إنه يراه حالة مرضية عند الإنسان، وأن الدين نفسه ليس كسبا خالدا، وأن على الإنسان المتحضر أن يجتازه، وينقل عن فرويد قوله "إننا إذا حاولنا أن نحدد للدين مكانه في تاريخ تطور الإنسانية لم يَبْد أنه كسب خالد بقدر ما يبدو أنه نظير للمرض النفسي الذي لا بد أن يجتازه الإنسان المتحضر، وهو يتطور من سن الطفولة إلى سن النضج "[984]. أما نظرية كارل ماركس وصديقه "فردريك انجلز" [985] ومن خلال كتاب "رأس المال " الذي قامت على مبادئه الثورة الشيوعية بزعامة "لينين"[986] (1917م) فقد انتهى بهما الأمر إلى أن الدين "أفيون الشعوب " وأن الدين "مخدر" وبهذا انتهى العالم الغربي بشقيه الرأسمالي والشيوعي إلى عزل الدين عن الحياة، بل إلى العداء التام للدين، وبذلك أصبحت العلمانية هي الدين الجديد للغرب[987]

وبهذا تكون العلمانية قد نفت قضية الخلق بتبني نظرية داروين، ونفت قضية الوحي بتبني نظرية ماركس ونفت كل القيم الدينية بتبني نظرية فرويد، إذ تؤكد كل هذه النظريات أن لا علاقة بين السّماء والأرض .

984- نقلا عن عبد العظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة ص147

985- انجلز فريدريك :فيلسوف ألماني مادي ملحد عاش بين (1820-1895) شارك كارل ماركس في صياغة الماركسية وقد تكفل بالإنفاق على ماركس في حياته وعلى أسرته بعد وفاته، كل كتابات انجز تدور حول تأصيل الماركسية وإذاعة مبادئها، وظل مهتما بجعل الشيوعية نظاما سياسيا شاملا، لذلك احتك بالطبقة العاملة، وكرس كل جهده في الجانب التطبيقي منها من أهم مؤلفاته "عناصر نقد للاقتصاد السياسي (1844) وكتاب "الرأسمال " ينظر معجم الفلاسفة ص 99

986- لينين : هو فلاديمير إيلتش سياسي ومنظر ثوري روسي عاش بين (1870-1924) مؤسس البلشفية وفيلسوفها الأبرز .

987- مناع القطان : ينظر معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية ص 40/39

لذا تقوم النظرة العلمانية في أساسها الأول على الإلحاد أو إنكار الغيبيات، ومن ثم فهي تنكر وجود خالق للكون، كما ترفض فكرة الوحي وجميع الأديان، وتنطلق في رفضها من إنكار وجود الله تعالى، حيث أن العلمانية –الاتجاه الماركسي الإلحادي – بمضمونها المعروف عزلت الدين وتصوراته، ومبادئه، ومناهجه، وأخلاقه وقيمه عن الحياة في جميع ميادينها، وحصرت التصور في الدنيا وحدها، فلا مكان لعالم آخر خارج الملموس والمحسوس. ولعل هؤلاء الذين أشار إليهم القرآن الكريم:"{إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }[988] .

والإلحاد في آيات الله قد يكون إما : بإنكار الآيات المادية وجحود الخالق المدبر للكون . وإما : بإنكار آيات الوحي .فالاتجاه الأول : تمثل في الماركسية ومن سار في فلكها، أما الاتجاه الثاني : فيمثله الاتجاه المادي العلماني سواء من ينكر آيات الله جملة وتفصيلا، أومن ينكر الوحي الإلهي، مع الاعتراف بقضية الخلق، لكنه ينظر إلى الألوهية على الخصوص وللدين على العموم على طريقته.

وأيا كان الأمر، فالعلمانية الشاملة تعتبر الحديث عن الغيب خرافة،فهيلاتؤمن إلا بالمادة، فلا موقع للأفكار الدينية في منظومتها .وخلاصتها ما أشار إليه نبيل محمد توفيق السمالوطي في قوله :"هذا هو موجز النظرية الماركسية المادية الملحدة في مجال الدين والبناء الاجتماعي، وهي نظرية تلغي أهمية الدين وتحوله إلى نظام تابع للنظام الاقتصادي، وتفسر الدين كمخدر للشعوب ولا ينبع عن نزعة فطرية أو حاجة أساسية في الإنسان "[989] .

---

[988]– سورة فصلتالآية: 40.

[989]– نبيل محمد توفيق السمالوطي : الدين والبناء الاجتماعي دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة جدة السعودية ط1 سنة 1981 ص117

وسأحاول أن أقف على جوهر هذه الشبهة وأفندها بالأدلة العقلية والعلمية واتباع خطوات المنهج العلمي الذي حاول الماديون التقوّي به لتبرير إلحادهم سواء في إنكار وجود الله تعالى، أوفي إنكار الغيب ورفض الوحي أو (الدين).

مما لا يخفى على كل دارس للتاريخ أن الدين رافق مسيرة البشرية منذ يومها الأول عندما بدأت رحلة الإنسان على الأرض، وإذا كان من وظيفة الدين في الحياة الإنسانية أن يمكّن الإنسان من اكتساب التصورات السليمة عن الكون والحياة والإنسان، ومن ثم الممارسة السليمة والهادفة في الحياة. فإن العلمانية ترفض الدين الذي يقول بهذه التصورات،و تختلف اختلافا جذريا عن تصور الإسلام لهذه القضايا،فلا لقاء إذن بين منهج يقوم في بناء تصوراته على الدين ومنهج يقوم على عزل الدين .

وقد حاول أنو الجندي أن يوجز مسيرة التخلص من الدين ومعاداته في الحضارة الغربية العلمانية فقال :" لقد بدأت الحضارة الغربية على أسس الأخلاق المسيحية،ومنجزات العلم التجريبي الإسلامي،ولكن حركة التنوير التي قادتها التلموذية من خلال محافل الماسونية، استطاعت أن تدفعها دفعا إلى مجال الوثنية الإغريقية،وغلبة المادية، والقضاء على كل ما يتصل بالأديان والأخلاق،وبذلك استطاعت الإيديولوجية التلموذية أن تستوعب الفكر الغربي كله وأن تحتويه وأن توجّهه وجهتها الخالصة يقول:" جود":"إن العلوم التجريبية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة،ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش"[990].

وبهذا تجاوزت العلمانية بتياراتها المختلفة جميع الأديان ووضعتها موضع المتهم، فسلكت طريق رفض الدين واعتباره خرافة ومخدرا وأفيون الشعوب، وأنه يمثل الرجعية، وهو مرحلة في تاريخ البشرية. ومضامينه تتناقض مع التصور العلماني، ولا يمكن للعلمانية أن تحيا جنبا إلى جنب مع الدين.ومع وجود هذه التصورات الغيبية.يقول أنور الجندي:"إن أخطر ما تعارضه العلمانية:هو الدين وإن ما

---

[990]-أنور الجندي :سقوط العلمانية ص135

وصلت إليه من إقرار نظرة علمية فلسفية تختلف عن منهج العلوم التجريبية،ويتميز بالتحرر من العقائد الغيبية،والعواطف تحت اسم العلمانية، إنما هو في تقدير أصحابه بديل عن الدين، وإن هذا المنهج يستهدف تفسير الحياة والمجتمع تفسيرا حسيا زمانيا دنيويا ليحرر البشرية من الأديان التي تتسم بأشياء ثلاثة خطيرة: الغيبيات –الأساطير – الغائية والدار الآخرة"[991]. وهذا يعنى أن العلمانية تركز أهدافها بالأساس في :

1-التحرر من قيود الأديان التي تضعها للمعرفة البشرية والتي لا يمكن تخطِّيها.

2- رفض اعتبار الدين أساسا لحياة الجماعات البشرية .

ولا شك أن هذا القرار الذي اتخذته العلمانية وما تستهدفه من ورائه يرجع إلى مجموعة من الفروض تتكئ عليها لتبرير منهجها هذا، ويلخص أنور الجندي شبهات العلمانية في ثلاثة فروض هي :

الفرض الأول : أن الكون مستقل في ذاته، تفسره القوى والقوانين التي تشكل منها وتسوده، فلا يحتاج إلى أية قوة خارجية يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه، وهذا يعني "إنكار وجود خالق للكون "وهو ما يعرف بأساس "بالإلحاد".

الفرض الثاني : أن الطبيعة والمجتمع في "حركة وتطور" لا ينقطعان، والنشاط البشري في تطور دوما إلى الأمام لا يعرف الغائية والاستقرار. وهو ما يعرف بأساس "التطور".

الفرض الثالث : هو أن الأديان مهما اختلفت، فهي في نظرتها إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان واحدة، وأنها تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال إلى عالم أخروي أفضل .ولذلك فإن السلوك يجب أن يتجه بكليته إلى العالم الآخر، وهو ما يعرف بأساس "المادية " .هذا في اختصار هو موقف العلمانية من الدين"[992] .

---

[991]- أنور الجندي :سقوط العلمانية ص95

[992]- ينظر أنور الجندي :سقوط العلمانية ص 96/95

فقد زعمت العلمانية . وبالذات الاتجاه الماركسي . أن "الدين" أساطير، وأوهام، وخرافات، ومخدر، وأفيون الشعوب، و مصدرا للاستبداد،وخداعا للضعفاء، وتعليقهم بالجنة في الآخرة، وأن عقلية الدين عقلية غيبية. وقد لخص مصطفى محمود نظرة الفلسفة الماركسية للدين فقال :" وأكثر من ذلك يرى أن" الدين" عقبة في سبيل التطور، وأنه أفيون مخدر، وقوة رجعية معطِلَة تؤدي بالطبقات الكادحة إلى الرضا، والقناعة، والنوم على حرمانها في انتظار جنات وهمية في الآخرة، وأن الدين هو الحليف الطبيعي للإقطاع والرأسمالية،وأنه يعطي الأغنياء سندا شرعيا إلهيا،على حين يقيد الفقراء بقدرية لا فكاك منها "[993].

فقد اتخذت الشيوعية هذا الموقف من الدين بداية للحملة عليه، وعلى رجال الدين، وتجسّد ذلك في هدم الكنائس، واعتقال الرهبان، ومطاردة القساوسة، وإلغاء التعليم الديني في المدارس واستبداله بتدريس الإلحاد، وجعل الحزب الشيوعي من الإلحاد شرطا أساسيا للعضوية فيه لأن الدين خرافة ووهم. فهل صحيح أن الدين يتصف بهذه الصفات ؟

من البديهي أن نذكر أن إنكار شيء موجود في الحياة الإنسانية ينبغي تدعيمه بالحجج العلمية، ولا يكفي رفضه بمنطق القوة،أو أن يكون هذا الرفض مغرضا وله دوافع أخرى بعيدة كل البعد عن العلمية. لذلك فإنكار الدين فرية مردودة وذلك لما يلي :

1. لا شكأن ما ذهبت إليه العلمانية من أن الدين أوهام أو خرافات تكذبه الفطرة الإنسانية الميالة إلى التّدين، لأن الدين قوة من قوى النفس وخاصية من خواصها، وعنصر في تكوينها، لذلك تعتبر "فكرة التدين" من الغرائز البشرية التي فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى .واستمرار وجود ظاهرة الدين في البشرية كلها يؤيده ما قاله "بلوتارك "في القرن الأول الميلادي :"من الممكن أن تجد مدنا

[993]– مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي ص 7

بلا أسوار، وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب وبلا مسارح .ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا تمارس العبادة "[994] .

هذا التقرير يؤكد الحقيقة القرآنية أن الإنسان مفطور على التدين، لأن الدين جزء من تركيبة الإنسان أيا كان مذهبه في الحياة، فجهاز العبودية لصيق به سواء وظّفه في الاتجاه الصحيح أم لم يوظفه :" {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[995] وبهذا فالأساس الذي قامت عليه العلمانية مناقض لطبيعة الإنسان وفطرته وتاريخه ومن ثم فهو فاقد للعلمية .

2-كما يعتبر هذا التيار المادي الملحد ظاهر الفساد في حكمه على الدين، لأنه مخالف لشهادة التاريخ، ولكونه يتعارض مع الحقائق الأساسية للأديان السماوية التي تشترك في الإقرار بقضايا الغيب،وأن الله بعث رسلا يشهد التاريخ بوجود هذه النماذج البشرية التي أوذيت، في سبيل الله حتى تبلغ رسالته للناس. والقرآن يؤكد على أن الآثار الباقية إلى يوم الناس هذا إنما أراد الله تعالى أن يجعلها عبرة للباقين،فبدراسة الحقب التاريخية يكتشف الإنسان تاريخ تلك الأقوام وما بلغته من فساد بسبب تخلّيها عن تعاليم الدين المرسل، وتمردها على أنبياء الله فلحقها العقاب قال تعالى:{فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[996].

3- القول بأن الدين "أفيون الشعوب" قد يصلح إلصاق هذه التهمة بدين الكنيسة أما التعميم ففيه كثير من قول الزور. ذلك أن الدين الكنسي في مرحلة من مراحله كان متحالفا مع الإقطاع وخدر الشعوب الأوروبية على الخصوص، حيث استغلت العاطفة الدينية لإسكات الشعوب، فلحق بها ظلم كثير "باسم الدين" الذي حملت لواءه الكنيسة، ومن ثم حملت العلمانية هذه الصورة،

---

[994]-أنور الجندي :سقوط العلمانية ص 102

[995]-سورة الروم الآية :30

[996]- سورة العنكبوت الآية :40

وحاكمت بها كل دين، لكن الحقيقة أن الدين الإلهي بطبيعته يمثل ثورة دائمة، وجهادا مستمرا ضد العابثين بكرامة الإنسان، فكل الرسل جاؤوا لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولحقهم وأتباعهم الكثير من الأذى والقتل، لأنهم وقفوا في وجه الملأ الظالمين. قال الله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }[997] فكيف يتهم الدين بممالأة الظالمين والسير في ركابهم، وما جاءت الرسالات إلا لرد عدوانهم، وتحرير الإنسان من قبضتهم ؟قال تعالى:"{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ }[998] . فإذا كان الدين يحذر أتباعه من مجرد الركون إلى الظالمين، فهل يقبل أن يكونوا مساعدين لهم على الظلم .؟

إن تعاليم الدين وهي تسعى لتربية المسلم، قامت بتكوين شخصيته على اليقظة الدائمة والوعي التام ليكون فطنا لأداء الواجبات والمطالبة بالحقوق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ومن هنا فالدين ليس "أفيونا" كما تزعم العلمانية، وإنما ثورة، ووعي، ويقظة مستمرة بكل خاطر يؤثر على حياة الإنسان الآجلة والعاجلة، ويشير مصطفى محمود إلى حالة اليقظة التي يصبغ بها الإسلام شخصية المسلم، ويرد الاتهام على قائليه من الشيوعيين الملاحدة، ويؤكد أنهم هم المخدرون بالأفيون. فيقول :" وهل الدين إلا ذروة اليقظة والانتباه .وماذا يكون حال المسلمين الذين يقول لهم ربهم : "وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ .. }[999] ماذا يكون حال مثل هؤلاء المسلمين إلا الخوف الدائم، واليقظة الدائمة، والانتباه الدائم لكل خاطر يخطر على القلب..فهذا هو الله يحاسبهم على مواطن النيات كما يحاسبهم على شواهد الأعمال .

فأين لهم النوم . وأين هم من سكرة الأفيون . إنما المساطيل حقا وأهل الغفلة هم الذين يعيشون في خدر الأوهام الباطلة، هم أهل المذاهب المادية من شيوعيين وغيرهم .ممن تصوروا أن لا شيء وراء

---

[997]-سورة آل عمران الآية :146

[998]- سورة هود الآية :113

[999]- سورة البقرة الآية :284

هذه الحياة ولا شيء بعدها ...هؤلاء هم الذين يعيشون في خدر الأفيون...وتلك هي طمأنينة الغفلة وراحة الأفيون وسكينة آكلي المخدرات" [1000].

وقد يصدق القول على تجربة أوروبا مع الدين، ومن ثم يصبح القول غير علمي، ولا أمين وذلك لأن "كارل ماركس" لم يكن علميا حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفّق منها مذهبا طبقه اعتسافا على التاريخ كله، وتعمد إسقاط مراحل كاملة من التحول التاريخي، لأنها ناقضت مذهبه ..فهل كان علميا في استقرائه، وخاصة فيما يتعلق بالتجربة الإسلامية ودور الدين في نهضة الشعوب التي آمنت به.

لقد قال ماركس إن كل انقلاب حضاري يأتي نتيجة انقلاب مُنَاظِر في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فأين هذا الكلام من التحول الإسلامي .فلقد كان الإسلام انقلابا حضاريا هائلا، ومع ذلك لم يكن نتيجة انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج في قريش .وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة، ومن ثم فهو يهدم كل الفكر الماركسي من أساسه، فلا الدين أفيون للشعوب، ولا نظريته فيها رائحة العلمية .بل إن نظريته الإلحادية هي التي خدرت الفطرة الإنسانية في شعوب الاتحاد السوفياتي، وصرفتها عن ممارسة عبوديتها لله تعالى.

ومن جهة أخرى فإذا كان "ماركس" يعتبر الدين أفيون حيث كان "رجال الدين" يتواطئون مع الإقطاع لإخضاع الشعوب، فإن الأمر على العكس تماما في الإسلام ، لأن "عالم الدين" مكلّف شرعا أن لا يكتم الحق، وأن يجهر بحرب الباطل، ولا يشتري بآيات الله ثمنا قليلا، ويعتبر ذلك من أعظم الجهاد "كلمة حق عند سلطان جائر ".كما يعد ذلك من المسؤولية الملقاة على كاهل كل عالم، بالإضافة إلى كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة على كل مسلم يمارسها على قدر استطاعته، ناهيك عن مئات الآيات التي تتحدث عن الظلم، والفساد، والإجرام، وتوجب على

[1000]– مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي ص 26/25

المسلم عدم التعايش مع هذه الظواهر السلبية في الحياة الإنسانية، وتحذره من الركون إلى الظالمين، فكيف يكون" الدين "مخدرا للشعوب وهذه هي طبيعته؟

إن الإسلام باعتباره منهجا للإصلاح والتغيير يقتضي أن لا يتعايش مع الفساد، لأن الإصلاح معناه أن يرد كل شيء إلى نصابه،ونصاب الشيء أن يكون متوافقا مع طبيعته المنسجمة مع مراد الله تعالى، ومن ثم فليس صادقا القول بأنه الدين أفيون الشعوب،بل إن الشعوب لم تعرف فكرة الثورة على الفساد، واتجهت إلى الحرية إلا يوم عرفت الإسلام، فهذا العبد "بلال بن رباح" – العبد، الحبشي، الأسود – عندما تشرّبت نفسه معاني الإيمان انطلق يتحدى الكفر وأهله ليعلن يقظة الضمير الإنساني في رفض كل أنواع استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، ورفضه لمنطق الطبقية الذي فرضته الجاهلية،وهو نموذج للإنسان الذي يؤكد عداء الدين للخنوع والخضوع لأي بشر مهما كانت منزلته،لأن فلسفة الدين قائمة على أن الخضوع لا يكون إلا لله الواحد القهار،فإذا عجز عن مقاومة الظلم والفساد، وجبت الهجرة إلى مكان آخر تتوفر فيه الحرية وينجو من حالة الذل التي يريد أن يفرضها بعض الطواغيت على الشعوب، فإن لم يفعل ورضي بالمهانة عدّ ظالما لنفسه. قال تعالى :{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً }[1001]

4- القولبأن الدينمصدر للاستبداد :وهذه الفرية مثلها مثل غيرها كانت مجسّدة في التجربة الغربية حين أعطت الكنيسة لنفسها حق محاكمة كل من يخالف تعاليمها الباطلة، ووقفت في وجه العلماء والمفكرين وطبقت على اجتهاداتهم منطقها الاستبدادي الذي يرفضه الدين الصحيح،لأن الله تعالى تعبّد البشر بالطواعية والاختيار ولم يتعبّدهم بالإكراه والإجبار هذا منطق كل الأديان، أما إذا خصّصنا الإسلام فإننا نجده يمنح الحرية للإنسان في مختلف الجوانب، ويجعلها حقا من أهم الحقوق، لأن التكليف يفقد معناه مع غياب الحرية في اتخاذ القرار سواء كان :

[1001]–سورة النساء الآية :97

أ-في اختيار العقيدة قال تعالى :{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[1002].

ب- أو في التعبير عن الرأي قال تعالى:{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }[1003].

ج- أو في حرية الفكر قال تعالى :{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }[1004].

فالدين يفرض على أصحابه استصحاب "النية"أي الإخلاص في كل عمل، وهذا لا ينبع إلا عن إرادة وقصد وحرية كشرط أساسي في قبول العمل، وهذا الشرط لا يفرض من الخارج، بل هو إرادة ذاتية، ولو فرض من الخارج لم يعد له معنى، وهذا ما يؤكد استحالة أن يكون الدين استبداديا، لأنه لا يريد تكوين منافقين يتظاهرون بالتدين والطاعة، وهم لا يؤمنون في الحقيقة. ومن هنا فطبيعة الدين ترفض الاستبداد، وما قامت به الكنيسة من قتل العلماء وإهانتهم، وبلغ الأمر إلى حرقهم، يخالفه منطق الدين تماما الذي يرفع هذه الفئة من العلماء ويمنحها درجة عالية لا يبلغها أحد ممن أوتوا حظوظا أخرى في الحياة قال تعالى {شَهِدَاللّهُأَنَّهُلاَإِلَـهَإِلاَّهُوَوَالْمَلاَئِكَةُوَأُوْلُواْالْعِلْمِقَآئِمَاًبِالْقِسْطِلاَإِلَـهَإِلاَّهُوَالْعَزِيزُالْحَكِيمُ }[1005] وقال تعالى:{ يَرْفَعِاللَّهُالَّذِينَآمَنُوامِنكُمْوَالَّذِينَأُوتُواالْعِلْمَدَرَجَاتٍوَاللَّهُبِمَاتَعْمَلُونَخَبِيرٌ }[1006].

5-القول بأن الدينخداع للضعفاء وتعليقهم بالجنة في الآخرة: من الأركان الأساسية في التصور الذي جاء الدين لإقراره أن الحياة الإنسانية بكل مجرياتها تتحرك نحو غاية، وهذه الغاية يحددها من خلق

[1002]-سورة البقرة الآية :256

[1003]-سورة الزمر الآية :18

[1004]-سورة سبأ الآية : 46

1- سورة آل عمران الآية : 18

[1006]. سورة المجادلة الآية : 11

الكون ورسم له هذه الغاية، فقد تقرر في العقول أن صانع الصّنعة هو الأدرى بالغاية منها ولا يمكن لغيره أن يحدد تلك الغاية. ومن ثم فالدين جاء ليقرر حقائق يعجز العقل المحدود عن بلوغها ليكشف عن الحكمة من الحياة، ومسؤولية الإنسان فيها. ولما كانت المسؤولية تقتضي الجزاء بالضرورة، فإن الدين لم يكن في يوم من الأيام وسيلة لخداع الناس والتلبيس عليهم، ووعدهم بحياة أخرى منطلقا من الفراغ، لأن منطق السعي في الحياة يستتبعه بالضرورة الجزاء، ومن ثم جاء ليهدي الناس لمعنى الحياة الحقيقية، فبيّن أن الحياة الإنسانية تنقسم إلى مرحلتين متصلتين في آثارهما، المرحلة الأولى: يمارس الناس فيها سعيهم بعد اختيار منهج حياتهم، وهي مرحلة عمل لا حساب فيها، أما المرحلة الثانية: فهي التي يتجسد فيها العدل الإلهي، وهي الآخرة، ولا يمكن للمرحلة الأولى أن يكون لها معنى بدون المرحلة الثانية التي ينصف فيها المظلومون بل قل إنها مرحلة واحدة بشطرين.

فإنكار الدين وأهميته يكذبه الواقع الإلحادي . فلما واجه ستالين مشكلة في حربه مع الألمان وقلبت الموازين، لم يجد لها حلا إلا في الدين الذي حاربه، وذلك حينما رأى الفلاح الروسي يعطي ظهره للعدو، وهو في تساؤل لماذا يحارب ؟ ولماذا يموت ؟ مادام لا يوجد آخرة، ولا بعث بعد الموت ..ولا امتياز لشهيد على خائن، وإنما الكل ذاهب إلى التراب ."وأمام هذا التخاذل الخطير رأى ستالين نفسه مضطرا ليعيد الحماس إلى هذا الفلاح، أن يعود فيعترف بالوجود الضروري للكنيسة، وأن يفتح أبواب الكنائس للصلاة، وأن يرفع الاضطهاد عن رجال الدين، وأكثر من هذا يشجع الشعور الوطني والقومي ..فعل هذا مضطرا برغم تناقضه مع جوهر تفكيره كشيوعي ماركسي "[1007].

إن كل الدلائل تؤكد أن" الدين" جاء ليبصر الإنسان بمصيره المحتوم بعد الموت، والذي ينبغي على الإنسان العاقل أن يحسب له حسابه، لأنه يحدد مصيره الأبدي، ويكون من الغباء أن يراهن الشيوعي على فكرة لا يملك دليلا واحدا لنفيها . إن الإسلام وهو يشرح عقائده ركز بشكل كبير على قضية الإيمان بالله واليوم الآخر، باعتبار هذه التصورات ترجح بقوة ميزان السلوك الإنساني،

[1007]– مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي ص 8

وساق الأدلة المتنوعة لإثباتها، والشيوعيون الذين ينكرون الجنة، والآخرة ويعتبرونها وَهْمًا، هم ذاتهم استنجدوا بالكنيسة لعلمهم بمدى فاعلية هذه العقيدة في تحريك السلوك وتفعيله وتوجيهه. ولا شك أن هذا الشعور الإنساني له جذور في النفس ودلائل في الكون والحياة تؤكدهفي عالم النبات، وفي تاريخ الإنسانية، وفي دورات الأحياء في زوالها وعودتها.

وزيادة على ذلك فإن كل الأنبياء كان أتباعهم من الضعفاء، ومن ثم فالرسالات جاءت لتحرير الإنسان، وإعادة الاعتبار لكرامته، والوقوف في وجه من استضعفوه قال تعالى :{وَنُرِيدُأَنَنَّمُنَّعَلَىالَّذِينَاسْتُضْعِفُوافِيالْأَرْضِوَنَجْعَلَهُمْأَئِمَّةًوَنَجْعَلَهُمُالْوَارِثِينَ }[1008] فهؤلاء الظلمة هل يذهب ظلمهم سدى ؟كلا إن الإنسان يضع القوانين في الحياة ليشعر أن لكل مسؤولية جزاء، فإذا كان الإنسان يحكم بهذا المنطق في عالم الاجتماع، فَلِمَ لا يحكم بنفس المنطق في عالم الحياة. فالظالمون والمظلومون كل سينال جزاء ما اقترف. وهل فعلا يعقل أن يستوي الصالحون والطالحون فينتقلون إلى التراب،وليس بعد ذلك جزاء ولا حساب. إن العقل يجزم بفساد هذا المنطق الذي لا يقبله الإنسان على نفسه في مؤسسته، ومصنعه، وفي نظام حكمه وفي جميع شؤونه،وهو ما يستفهم عليه القرآن تأكيدا على بطلانه. قال تعالى:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ }[1009] {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[1010].فلا ينال المجتهدون والكسالى نفس الجزاء، وهذا ما يجعل منطق إنكار الآخرة منطقا غير عقلاني وغير علمي.

6- القول بأن عقلية الدين "عقلية غيبية" :يبدو أن منظري العلمانية لم يكن لهم اطلاع واف على جميع الأديان، وأن الغرب أصدر حكما جزافا على الأديان جميعا، على الرغم من ادعائه العلمية والموضوعية، وهذا الحكم قد يكون بسبب أن الغرب حَبَس موقفه من الدين على التجربة الأوروبية مع الكنيسة، أو أن الغرب دُفع إلى هذا الموقف من الأديان دفعا من قبل "الخبثاء" كما يسميهم أنور

[1008] . سورة القصص الآية : 5

[1009] - سورة القلم الآية : 35

[1010] - سورة ص الآية :28

الجندي، ليمنعوا الغرب من الوقوف على التجربة الإسلامية :"وإن كان لتفسيرات الدين أثرها في أزمته وتحوله، غير أنه عجز أن يلتمس مفاهيم الدين الحق .ووقف من الإسلام موقف العداء الشديد والخصومة المتعصبة قبل أن يقف على الحقائق، فقد كانت هناك قوى كبيرة تصده عن أن يفهم التجربة الإسلامية، وظل قاصرا في حدود التفسيرات الدينية التي عارضت انطلاقته في مجال العلم والتجريب . فلما اشتدت أزمته الروحية، وتفاقمت، وجَهَهُ نَاصِحُوه "الخبثاء" إلى الفلسفات الشرقية الغنوصية التي هي من نفس نبع الوثنية الهلينية الإغريقية" [1011] .

أما العلمانية المادية الغربية فقد لا تجحد الدين، ولكنها لها رأي فيه من وجهتين وتشترك فيهما أحدهما مع الماركسية من حيث نشأة الدين إذ يعتبره ماركس أنه : عبارة عن زفرة المضطهدين وعزاء لمشكلة الحرمان الاجتماعي الذي تلجأ إليه الطبقات المسحوقة تعويضا عما يحيق بها من ضيم في عالم "لا قلب له" على حد تعبيره.

فهي ترى أن الدين ليس وحيا من الله تعالى، حيث تعددت نظريات نشأة الدين،ومن أشهرها ما ذكرها رفيق عبد السلام الذي يرى أن نظرة العلمانية الغربية للدين أيا كانت،فهي لم تستطع التخلص من الموروث المسيحي، فجاءت منطبعة على نحو ما بالموروث المسيحي ممزوجة بنزعة وضعية إلحادية حيث أننا نجد أن:

نظرية دور كايم ترى على أن الدين وضع اجتماعي، يتوافق المجتمع على وضعه،لذا يعرف الدين بأنه :" نسق من العقائد والمسلكيات ذو صلة بموجودات مقدسة تتموضع في مواقع بعيدة ومحرمة وهي عقائد ومسلكيات تنتظم في جماعة أخلاقية موحدة تضم منتسبيها إليها تسمى الكنيسة"[1012].

غير أن فرويد يفسر الظاهرة على أنها ضرب من التعالي (التسامي)النفسي باتجاه موجودات خيالية أسطورية .لكن نظرية أوجست كونت تفترض أن الدين تطور في حياة البشرية.

[1011]– أنور الجندي : سقوط العلمانية ص 136

[1012]– رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص100

وهنا نسجّل ملاحظة جديرة بالذكر أشار إليها رفيق عبد السلام وهي: أن جميع تعريفات "الدين" عند الفلاسفة الغربيين لم تخرج عن التجربة الغربية مع المسيحية، على الرغم من اصطدامهم معها، وهو ما يؤكد "الروح العنصرية والقومية " التي يفكر بها الغربي حتى لو ادّعى العلمية في بحثه حيث يقول :" ومن المفارقات العجيبة أن أغلبية فلاسفة واجتماعيي الغرب الحديث ورغم مناهضة كثير منهم للمسيحية عامة وللكنيسة خاصة، لا يترددون في التأكيد على فرادة الفكر المسيحي، أو التاريخ المسيحي الروماني إذا ما تعلق الأمر بمقارنات مع ديانات، أو حضارات مغايرة للحضارة الغربية المسيحية "[1013] كما أنها إن اضطرت للاعتراف بوجود الدين، فهي لا ترى أن له وظيفة في الحياة، فهو مجرد علاقة شخصية بين الإنسان وربه.

فلا شك أن الحضارة الغربية مرت خلال قرون بتجربة قاسية مع الكنيسة، مما جعلها تكرر المحاولات للتخلص منها، وكانت العلمانية النتاج الأخير للمحاولات الخطيرة الدائبة منذ عصر التنوير، حيث استهدفت عن طريق فلسفتها المادية ونظرياتها المتعددة الفكرة الدينية بكل مقوماتها،فعارضت الدين وأنكرت الألوهية ورفضت الشرائع والقيم وأحلت محله دينا جديدا يقوم على الإلحاد والمادة والفوضى الأخلاقية،وفي ظروف معينة نجحت التجربة العلمانية في تحويل المجتمع الأوروبي إلى مجتمع لا صلة له بالدين، مما أغرى العلمانية إلى مسابقة الزمن في حمل المسلمين عليها غير ناظرين إلى مدى الفوارق بين العقائد والأديان بين الشرق والغرب، غير أن هذا لا يبرر خطأ نظرتها للدين من حيث النشأة والوظيفة.فهل صحيح أن الدين منهج يجب التحرر منه،وأنه لا يصلح أساسا لحياة إنسانية ؟

أول ما نشير إليه في هذا الصدد أن ما ذهبت إليه العلمانية قد يصدق على دين الكنيسة، أما أن تعمم الحكم على كل الأديان فهذا الذي ينبغي مناقشته، فلو كان العلمانيون علميين حقا لوجب عليهم أن يقارنوا ويقايسوا بين مفهوم الدين الذي أساء إليهم، وبين مفهوم الإسلام الذي يتميز بطابعه الخاص، والذي يملك رؤيا ونظام مجتمع .فهذا التعميم في الحكم جعل العلمانية تتجه إلى تفسيرات زائفة، غير مطابقة للواقع، ولم تعتمد فيه على دراسة أصيلة لدين الله الحق، فجاء الحكم

[1013]- المرجع نفسه ص100

غير موضوعي على الأديان ومن بينها الإسلام، ولا يستند إلى سلطان من عقل ولا نقل ولا واقع، ولا الأعراف العلمية. ويمكن التعقيب عليه بما يلي :

لقد أخطأت العلمانية في وصف الدين عموما والدين الإسلامي خصوصا، حيث أصدر العلمانيون حكما عاما على جميع الأديان، وجعلوها في سلة واحدة وهذا حكم غير علمي . هنا ننقل ردا لمحمد التومي[1014] وهو يفنّد هذه الفرية، ويرجع خطأ الحكم الذي أصدره العلمانيون في رفض الدين لأسباب منها:

أولا : لا يلزم من انحصار مهمة الدين في الحضارة الغربية في المجال الروحي أن يكون الدين الإسلامي كذلك، إذ أن القاعدة العلمية تقضي بأن يكون لكل نموذج من الأديان مفهومه، ومضمونه، ونظرته المستقلة، وإلا لما كان للّقب الذي ينسب إليه أية قيمة، فهذا إسلام وتلك مسيحية .

ثانيا : ليس من المنطق في شيئ أن يحكم على دين من خلال دين آخر وخاصة إذا كان الإسلام في تعاليمه لا يطمئن ولا يثق في دين الكنيسة، بل يعتبره قد خرج عن أصله بما أحدث فيه القائمون عليه من تغيير وتحريف قال تعالى :{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }[1015]قال تعالى:{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ }[1016] والتحريف كما يشير المفسرون لم يقتصر على العقيدة، بل تجاوزها إلى الأحكام والمعاملات.

ثالثا :إن انحصار مهمة الدينفي الجانب الروحي كما تشير إليه المصادر الغربية حسب العلمانيين تأباه المعاني الأصيلة لكلمة الدين في اللغة العربية، وقد بيّن "دراز " أصالته في العربية، وتتبع كافة مشتقاتها واستعرض جلّ استعمالاتها، فوجد أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين،

[1014]- ينظر محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 25/24/23

[1015]- سورة آل عمران الآية :71

[1016]-سورة البقرة الآية :79

يعظم أحدهما الأخر، ويخضع له، فإذا وصف الطرف الأول كانت "خضوعا وانقيادا". وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت "أمرا وسلطانا وحكما وإلزاما". وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين، كانت هي "الدستور المنظم لتلك العلاقة"[1017] .

رابعا: إن الأمانة تقضي بأن لا يفسّر أي دين إلا بما تفسره به منابعه الأصلية، والإسلام دين من خصائصه الشمول، فهو يستوعب كل النشاط الإنساني.وقد كشف عن خطته الاجتماعية في وقت مبكر من الدعوة الإسلامية:"لقد كان الخطأ الكبير الذي وقعت فيه العلمانية وهي تنعى الدين وتشهر به، أنها اعتمدت على تفسيرات زائفة، ولم تعتمد على أصول أصيلة لدين الله الحق،وأنها نظرت من خلال مرحلة محدودة لها ظروفها وطبيعتها. وعجزت أن تنظر نظرة كلية لتحيط بالقضية من مختلف أبعادها "[1018].

خامسا :أن حصر مهمة الدين في "التهذيب النفسي "مغالطة، لأن ذلك يستلزم بالضرورة أن يكون له تأثير خارجي يتمثل في شكل سلوك وعمل، وإلا كان وجوده وعدمه سواء، إذ أن تزكية النفس هي المحرك للأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث النبوي " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[1019] "ويشير محمد التومي إلى قاعدة هامة وهي "أن التهذيب النفسي يقتضي تهذيب الأعمال، وهذا يعني الخروج بالأثر النفسي من دائرة الذات إلى دائرة الوسط الاجتماعي،وإلا لما كان للتهذيب النفسي أي معنى"[1020].

6– إن فكرة كون الدين لا يتجاوز حدود القلب باتت تصوّرا خياليا مبنيا على غير واقع، فالدراسات الإنسانية كشفت أن الدين كله أنساق ونظم تترابط وتتفاعل في الحركة الاجتماعية

[1017]– ينظر عبد الله دراز : الدين ص 32/31

[1018]– أنور الجندي : سقوط العلمانية ص97

[1019]–أخرجه البخاري : كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه الجزء الأول حديث رقم 52.

[1020]– محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 24

وللفكرة الدينية تأثير مباشر في توجيه نظم المجتمع، لأن الدين بمثابة المعايير التي يتحاكم إليها الناس سواء كان هذا الدين وضعيا أم سماويا. وإن كان قد حدث فصل بين الديني والزمني في أوروبا، فهذا من فعل الكنيسة وسوء تمثيلها للدين،ومن ثم لا ينبغي تعميم الحكم.

وخلاصة القول أن الفلسفة الغربية العلمانية في مجموعها هي محاولة لتفسير العالم والحياة والمجتمع عن طريق العقل مع التجاوز التام لمنهج الدين وإنكار العالم الآخر، وكل ما يتصل بما وراء الطبيعة أو ما وراء المادة، وقد أشرنا —سابقا– أن الفكر العلماني الغربي بشقيه قد تجاوز النظرة الدينية على إثر خلافات واسعة، مرت هذه الخلافات بمراحل متعددة انتقلت فيها الفلسفة الغربية بين عديد من النزعات العقلية والتجريبية والوضعية، وقد كانت في أول أمرها تجمع بين وثنية اليونان وعقائد الرومان، ثم تأرجحت بين قيم المسيحية وقيم المادية، ودخلت مرحلة صراع بين قيم الروح والضمير والأخلاق من ناحية، وبين المادية والإلحاد والإباحية من ناحية أخرى، وكان وقع النظريات عنيفا على التفكير الأوروبي ولا سيما نظرية التطور التي اتخذت منطلقا من التطور البيولوجي إلى نظرية عامة في التطور الاجتماعي .

فليست العلمانية الغربية الشاملة إلا نتيجة من نتائج الصراع الهائل بين المادة والروح، والعقل والقلب، والدين والمادية، وبعد عهود من تصادم الأفعال الذي انتهى الصراع فيه بالغلبة لجانب المادية بسبب الانحراف الذي وصل مداه في الزهادة والرهبانية واعتزال الدنيا وإنكار متاعها، فكان رد الفعل أقوى شدة —كما يعبر عنه فيزيائيا — فقام الفكر المادي العلماني على أساس واضح من معارضة الدين والأخلاق ونقد المسيحية واتهم الدين بتلك التهم غير المؤسسة. لذلك أنكرت هذه الفلسفة الغيب والروح وهاجمت مختلف مفاهيمه، فأعلنت أنها مع كل ما يلبي الغرائز وضد كل ما يتصل بالقيم. فأعلنت أن الجنس هو أبرز دوافع الإنسان.وأن الإنسان أصله حيوان، وأن الدين ليس فطرة وأنه ليس هناك أخلاق مثلى دائمة،وأن الحق للقوة،وأن الزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الإنسان،وأن القواعد الأخلاقية لا وجود لها،وأن الجريمة ظاهرة سوية، وهذه خلاصة أهم النظريات التي أعلت من شأن المادة، وحركت الفكر الغربي لبلوغ حالة هذه الظاهرة "العلمانية الشاملة".

بالإضافة إلى ما سبق مناقشته، يبقى بيان أن كل الادعاءات والتهم السالفة الذكر مردها إلى الخلل الذي أصاب المنظومة التصورية الغربية عن الوجود بضغط من النظريات الإلحادية التي صادفت ظروفا مواتية .ولعل أخطر تلك القضايا هو "إنكار وجود خالق للكون " .

ففي مجال النظر إلى القضايا الوجودية تنكر العلمانية أي وجود "للماورائيات" أو ما يسمى في التصور الإسلامي ب "الغيب" ولعل أهم قضية في هذا المجال التي تستحق أن تناقش هي "إنكار وجود الله تعالى"، حيث يقوم التصور العلماني في تفسيره للوجود على إنكار وجود أية قوة خارجة عن الكون المادي أي: أنها تنكر وجود الله، والفلسفة الإلحادية وخاصة الشيوعية كان لها تاريخ مثير مع الدين كما يشير إلى ذلك مصطفى محمود فيقول :"تاريخ الشيوعية مع الدين تاريخ مثير يستحق التحليل والتأمل، فالمذهب الماركسي في أصل منهجه يرفض الدين والغيبيات ولا يؤمن بإرادة أو مشيئة خارجة عن الكون المادي،ويرى أن الكون المادي يفسر نفسه بنفسه بدون حاجة إلى افتراض قوة إلهية سابقة عن الوجود"[1021] وتستند هذه النظرة إلى شبهتين رئيسيتين تتمثلان في:

أ- الشبهة الأولى : ادعاء أزلية المادة ولا حاجة للخالق.

ب-الشبهة الثانية : القول بالصدفة.

وسأحاول عرض الشبهة متتبعا من قال بها من الماديين القدامى[1022] والدهريين والماديين المحدثين[1023]، ثم أفندها بما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وما جاد به العلم من حقائق عن هذه القضية باعتباره جاء ليؤكد الحقيقة القرآنية،وفي ذلك يقول وحيد الدين خان :"فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين،ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه .بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام :"بالحقيقة الأخيرة" قبل أربعة

[1021]-مصطفى محمود : أكذوبة اليسار الإسلامي دار المعارف ط2 ص 7

[1022]-من الماديين القدامى :ديموقريطس وأبيقور .

[1023]-من الماديين المحدثين :توماس هوبز وبخنر ودافيد هيوم وشوبنهور وكارل ماركس وسبنسر ونيتشه وبرتراند رسل ..وغيرهم.

عشر قرنا من الزمان :"{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }[1024].

لا شك وأن " وجود الله تعالى " من أعظم الحقائق في الحياة، لكن الماديين يصرون على إنكارها بحيث بُنيت دول كاملة على هذه الفلسفة، وهم يتبجحون أن ما حققوه من إنجازات كان من وحي إنكار الماورائيات، ومن هنا أصبح تتبع هذه الشبهة واجبا حتى ينهدم بناء الإلحاد من خلال هدم الخلفية الفلسفية له .

أ-مناقشة الشبهة الأولى :القول بأزلية المادة

يذهب الماديون إلى القول بأن الكون قائم بنفسه وهو موجود منذ الأزل، وأنه نشأ من عناصر مادية على اختلاف فيما بينهم في هذه العناصر :(الماء، والنار، والهواء، والتراب) كما يقول به الفلاسفة اليونان [1025] وانتقلت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم وأزليته وإنكار العلة الفاعلة واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجة لإله إلى العصر الحديث، حيث دعمت التجارب العلمية فيه النزعة المادية، وينقل يوسف كرم عن دولباك [1026]الذي اصطنع المادية المطلقة وذهب إلى أن المادة متحركة بذاتها، وأن كل شيء يفسر بالمادة والحركة، وأنهما أزليتان أبديتان خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما فليس العالم متروكا للصدفة، ولا مدبرا بإله[1027].

[1024]- سورة فصلت الآية: 53

[1025]- ينظر يوسف كرم :الفلسفة اليونانية ص30، و ويل ديورانت قصة الفلسفة ص 24/8/7.

[1026]- دولباك : فيلسوف ألماني (1723-1789) عاش في باريس اصطنع المادية المطلقة، وكان له تأثير كبير .ذهب إلى أن المادة متحركة بذاتها، وان كل سيء يفسر بالمادة والحركة، وانهما أزليتان أبديتان خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما . ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 192

[1027]-يوسف كرم :تاريخ الفلسفة الحديثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط سنة 1936 ص191/ 192

وإذا كانت النزعة الإلحادية ظاهرة فردية شاذة في التاريخ الإنساني، فإنها أصبحت ظاهرة وبائية في كتل وتجمعات إنسانية ثقيلة وخطيرة في العصر الحديث. ويرد عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ذلك إلى خطط اليهود الذين جعلوا الإلحاد مذهبا تدين به كثير من الدول والمنظمات، وعملوا بكل ما أوتوا من خبث ومكر ودهاء وقوة ومال لتحقيق هدفهم في إقامة دولتهم، مستندا في ذلك إلى البروتوكول الرابع :"يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول "الجوييم" الأمميين،وأن نضع مكانها عمليات حسابية، ورغبات مادية " ويضيف ما جاء في البروتوكول التاسع قولهم:" ولقد خدعنا الجيل لناشئ من الجوييم الأميين،وجعلناه فاسدا متعفنا بما علّمناه من مبادئ ونظرات معروف لنا زيفها التام "[1028] فإذا كان ما لقن للأجيال زيفا، فكيف يمكن إبطاله ومواجهته، خاصة ونحن نواجه حضارة زائفة، لكنها تلبس عباءة العلم، وتضغط على الناس بما تملك من قوة مادية وإعلامية ؟ وهل صحيح أن الكون وجد آليا ؟

يمكن تحليل فكرة وجود الكون إلى أربعة احتمالات كما يراها عالم الطبيعة البيولوجية "فرانك ألن"[1029] وهو يرد على من ينكرون الخالق. فيقول :" كثيرا ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود. فكيف نفسّر وجوده ونشأته ؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة عن هذا السؤال : فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال،وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده،وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم،وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية،وإما أن يكون له خالق "[1030].

[1028]– ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني :كواشف زيوف ص 412/411

[1029]– فرانك ألن :هو عالم الطبيعة البيولوجية ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة ما نيتوبا بكندا من سنة 1904 إلى سنة 1944أخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفزيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام نورى الذهبي للجمعية الملكية بكندا ينظر " الله يتجلى في عصر العلم " ص11

[1030]– نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان راجعه وعلق عليه محمد جمال الدين الفندي دار القلم بيروت ص11

ولما كانت هذه الاحتمالات متناقضة فمما لا شك فيه أن واحدا منها هو الصحيح، ومن ثم لا بد من بيانه.فيبدأ "فرانك ألن " بمناقشة هذه الاحتمالات وإقصاء الباطلة منها بالدليل فيشير إلى ما يلي :

-أما الاحتمال الأول:فلا يقيم مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس؛ فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل في الحقيقة.وقد عاد إلى هذا الرأي سير جيمس جينز الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي ....وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال لظهور بطلانه.

-أما الرأي الثاني : الذي يرى أن هذا العالم بما فيه من مادة، وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو رأي لا يقل عن سابقه في انعدام الدليل، ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة .

والرأي الثالث : الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية .

ويرجح بين هذين الاحتمالين في تفسير صفة الأزلية فيبيّن : أننا إما أن ننسبها إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق . وقانون الديناميكا الحرارية يعيننا في ترجيح كفة حدوث العالم، وأن أصل الكون أو أساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث، وقد ثبت أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة في الانخفاض حتى تصير في الأجسام تحت درجة الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ." ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون الكون من صنع يديه"[1031] .

[1031]- نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان راجعه وعلق عليه محمد جمال الدين الفندي دار القلم بيروت ص12

إن ما يطرحه الفلاسفة المحدثون من فكرة الإلحاد في ظل العلمانية، هو إحياء للمذاهب الإلحادية القديمة. فحضارة الغرب لم تتنصّل من موروثها الثقافي المستمد من الحضارة اليونانية، وهي فكرة تدل على تهافت يفتقد إلى الدليل العلمي، بل يدل على تناقض صارخ مع الفطرة والعقل والأديان كلها، وهي نظرة قاصرة لا تتفق تماما مع الحقائق العلمية التي يزعم الملحدون من العلمانيين أن المنهج العلمي هو سبيلهم لإثبات هذه الحقيقة، وسأختار من الأدلة القرآنية والعلمية ما أبطل به هذه الفكرة كما يأتي :

1-دليل الفطرة :

إذا كان وجود الله تعالى في نظر الإسلام فطرة فطر الله الناس عليها، وهو جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، وأن هذا الشعور ملأ نفس الإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه الأرض،وهو لا يفتأ يشعر بأن هناك قوة تسيطر على حياته، فإن هذه الفطرة قد تحتجب بسبب المؤثرات البيئية المختلفة وتنحرف أحيانا أو تزيغ عن معرفة هذه القوة، فتتوجه إلى الاعتقاد في قوى الطبيعة المختلفة، التي يعجز عن مواجهتها، وبالتالي يمنح هذه القوى ما كان ينبغي أن يتوجه به إلى الخالق سبحانه وتعالى القوة العليا. وعندئذ يدخل الإنسان في فترة من الغفلة عن معرفة الله رب العالمين،وقد أشار القرآن الكريم إلى أن هذه الحالة التي يمكن أن تعتري الإنسان فتصرفه عن الفطرة التي أقر بها الإنسان على نفسه وتشكل عنصرا أصيلا في كيانه. قال الله تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }[1032] لذلك كان منهج القرآن التذكير الدائم والتنبيه المستمر بالنظر إلى مصدر النعم التي تقع بين يديه ليبحث عن واهبها. قال تعالى {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ }[1033] ويوجه الإنسان

[1032]-سورة الأعراف الآية :172

[1033]- سورة عبس الآية :24

للنظر في مادة خلقه لما فيها من عمليات هائلة تحدث في مراحل تشكل الجنين وقد أصبح اليوم بين يدي الإنسان دلائل القدرة بالصور المكبرة التي تتابع تطور الجنين وما يحيط به من مختلف العمليات المعقدة التي يستحيل أن تحدث من غير خطة وعناية قال تعالى: {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ }[1034] كما يلفت نظره إلى مظاهر الإبداع في الكون حتى يتساءل،ويبحث عن مدبر هذه المظاهر على غرار ما جاء في قوله تعالى : {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[1035].

ومن رحمة الله بالإنسان أن لا يتركه فريسة للمفسدين والضالين،فأرسل الرسل وأنزل الكتب تذكر الإنسان بالعهد الذي قطعه على نفسه يوم كان نسمة في صلب آدم. قال تعالى{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }[1036].

وقد تستيقظ الفطرة في حالات من الشدة حيث لا يجد الإنسان ملجأ يلجأ إليه فينطلق نداء الإيمان من بين جنبات نفسه يصرخ بالحقيقة الكبرى أن لا إله إلا الله قال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ }[1037] وهذا ما كشفت عنه قصة موسى وفرعون، فبعد تاريخ طويل من العناد والكبر وتحت مطارق الشدة تنطلق الفطرة لتعبّر عن نفسها قال تعالى:{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[1038].

وإذا كان هذا هو خطاب القرآن عن الفطرة، والذي يؤكد أن وجود الله جزء لا يتجزأ من تكوين الإنسان يمكن طمسه فيختفي في فترة بسبب الضغوط الفكرية والنفسية والبيئية التي يتعرض لها الإنسان، ولكن لا يمكن فصله واجتثاثه، فإن كان الماديون لا يقرّون إلا بما ينطق به العلم التجريبي

[1034]- سورة الطارق الآية 5

[1035]- سورة النمل الآية :61

[1036]- سورة النساء الآية :165

[1037]- سورة لقمان الآية : 32

[1038]- سورة يونس الآية :90

فقد نطق العلم الحديث ليؤكد هذه الحقيقة .فيما نشرت مجلة العلم والحياة[1039] الشهيرة مقالا بعنوان pour quoi dieu ne disparaitra jamais: والتي توصلت إلى نتيجة هامة جدا مفادها :أن المشكل ليس في: "هل الله موجود أم لا ؟ !وإنما في تحليل الحجج الموجودة في دماغ الإنسان بخصوص وجود الله، حيث أن الدماغ الإنساني مبرمج مسبقا للإيمان بالله حسب آخر الأبحاث في علم الأعصاب التي بينت وجود خلايا خاصة بالإيمان بالله،وإن كل شيئ في الدماغ يحث على الإيمان، وبينت أيضا أن الإيمان هو الدواء المعجزة ضد الأرق والقلق..ومما ورد في المقال:

."Notre cerveau est programmé pour croire"

فإذا كان الدماغ مبرمجا على الإيمان فمن برمج هذا النظام ؟ الجواب لا يملكه في الحقيقة إلا القرآن الكريم الذي احتوت آياته على هذه الحقيقة "وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا" ليؤكد بعدها أن الإنسان خلق على هذا الإيمان ولا تبديل لخلق الله :{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1040].

ولما كان الإيمان بالله مسألة فطرية وبديهية، فإنه لم يكن إثبات وجود الله هدفا من أهداف القرآن الكريم من سوق الأدلة المختلفة، وهذا لا يمنع من توظيفها لهذا الغرض، ذلك أن القرآن يعتبر أن هذه المسألة تندرج ضمن الضرورات الفكرية، لذلك جاءت النصوص تذكر بهذه الحقيقة ولا تستدل عليها. قال تعالى :{أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }[1041] وقال تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ }[1042].

[1039]- science et vie (العلم والحياة) عدد 1055 أوت 2005 مقال .(Nicolas Revoy)

[1040]-سورة الروم الآية :30

[1041]- سورة إبراهيم الآية :10

[1042]- سورة الروم الآية :20

والقرآن الكريم يؤكد على قضية "الخلق "باستمرار وهذا اللفظ له دلالته الوحيدة في كل السياقات،ويتناولها على أنها دليل على الخالق،لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة،ولا يمكن أن يوجد نفسه، ولم يثبت أن أحدا ادعى أنه خلق الكائنات أو خلق نفسه[1043]،ومن ثم يقرر أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، فالممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة، واتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود، الذي يستغني عن غيره، وهو الله تعالى : {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }[1044].

2-دليل الاختراع والحدوث:

يذهب القرآن في الرد على المنكرين لوجود الله إلى تقرير حقيقة مهمة وهي أن الكون والإنسان والحياة لم يكن شيء منها موجودا ثم كانت، فالعالم كله حادث وليس أزليا كما تذهب إليه العلمانية الملحدة. ومن ثم يؤكد القرآن أن الكون مخلوق، أي أنه وجد من العدم على غير نظير سابق :{قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }[1045].وقال تعالى:{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }[1046] فالآيات تؤكد أن الخلق تم بإرادة الله تعالى الذي يفعل ما يشاء، لأنه سبحانه فعّال لما يريد، ومشيئته تتم بأمر "كن" قال تعالى:{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }[1047].

[1043]-عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام دار المعارف ط2 سنة 1989ص 51

[1044]- سورة الطور الآية:35

[1045]- سورة الأحقاف الآية:4

[1046]- سورة الرعد الآية:16

[1047]- سورة النحل الآية:40

وقد استخدم الرسل عليهم السلام طريقة الاستدلال بالصنعة على الصانع، والأثر على المؤثر كما في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون. قال تعالى:{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ.قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ.قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ.قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }[1048] وهذه حجة قوية في إثبات الخالق، ولكن فرعون لما قامت عليه الحجة، وعجز عن مواجهتها، لجأ إلى منطق القوة والتهديد والوعيد.

فلفظ "الخلق "الذي يستخدمه القرآن في كثير من المواضع يدل على "الربوبية"ويفيد أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علّة، ولا يمكن أن يكون هو علة من صياغة نفسه، لذلك ركز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من العدم، لأنه لم يثبت أن أحدا ادعى أنه أوجد هذه المخلوقات، ومن ثم كان تساؤل القرآن تقريريا لهذه الحقيقة، وأنه لا أحد يدّعي أنه فعل ذلك. سواء في عالم الأكوان كما قال تعالى :{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ } [1049]، أو كان في عالم الإنسان قال تعالى:{أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } [1050].

يقول ابن تيمية معلقا على هذه الآيات "إذا كان كل من القسمين : وهو كونهم خلقوا من غير خالق،وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة، فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث، وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم بأنه لا بد له من محدث،وأن محدِثه ليس هو إيّاه علما ضروريا ثبت بالضرورة أن له محدثا غيره، وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق،فهو كذلك .و الخلق

[1048]- سورة الشعراء من الآية: 29/23

[1049]- سورة الطور الآية :36/35

[1050]- سورة الواقعة الآية :59/58

يتضمن الحدوث والتقدير ففيه معنى الإبداع والتقدير ...فلا توجد الحوادث إلا بفاعل غني عن غيره،وكل محدث مفتقر إلى غيره فلا توجد الحوادث إلا بفاعل قديم غير محدث"[1051].

استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بقدم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بدون مرجح، ومنها ما ذكره ابن تيمية لبيان ذلك فقال:"ومثل أن يقال الموجود : إما حي بنفسه،وإما حي بغيره،وإما ليس بحي.ومعلوم أن الحي بغيره موجود .فإن الإنسان يكون في بطن أمه قبل نفخ الروح فيه ليس بحي،ثم يصير حيا بعد ذلك .فثبت وجود الحي بغيره الذي جعله حيا.وذلك الذي جعله حيا إما أن يكون حيا بنفسه، وإما بغيره .والحي بغيره يحتاج إلى حي، فلا بد أن ينتهي الأمر إلى حي بنفسه قطعا للتسلسل[1052]الممتنع، فثبت أن في الوجود ما هو حي بنفسه،لا يكون إلا واجبا قديما بنفسه"[1053].

فلا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئا {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً }[1054] وعناصر الكون الذي نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة ..إننا جازمون بأن وجودنا محدث لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا إلى ذلك، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطورا ذاتيا.إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها.قيل :إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد قط إنه ليس لها فاعل، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟ إننا لم نكن شيئا فكنا.فمن كوّننا ؟؟ { قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }[1055]"[1056].

[1051]–أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية :درء تعارض العقل والنقل تحقيق محمد رشاد سالم ط2 سنة 1991 المجلد الثالث ص114/113

[1052]–التسلسل: الذي يسمى التسلسل في العلل والمعلولات والمؤثر والأثر والفاعل والمفعول والخالق والمخلوق هو ممتنع باتفاق العقلاء.

[1053]–المرجع نفسه 117

[1054]– سورة الإنسان الآية :1

[1055]- سورة الأنعام الآية : 91

وبهذا يتبين لنا أن الزعم بعدم وجود إله لهذا العالم وأن الكون أزلي قول باطل بالعقل وبالعلم فضلا عن الدين الذي أعطى لقضية الخلق أهمية كبيرة، لأنها القضية التي ينبني عليها باقي الأصول والفروع. ومن هنا فالعلمانية في تصوّرها لأعظم حقيقة في الوجود تكون قد جانبت الصواب وهي تقود البشرية بإلحادها إلى مصير سيء حيث غيّبت الإنسان عن نفسه وجعلته غريبا عن ذاته.ومن تم لا تصلح أن تكون مصدرا لتفسير الوجود، لأن كل تفسير لا يستند إلى هذه الحقيقة سوف يجانب الصواب وينحرف عن وضع تصوّر سليم ينسجم مع طبيعة الإنسان وطبيعة الوظيفة المنوطة به فوق الأرض.

ب–مناقشة الشبهة الثانية : القول بالصدفة

يرى دعاة العلمانية أن الكون وجد صدفة، وأن حركته آلية كامنة فيه، ولا عجب أن نجد كثيرا من الماديين المحدثين يتجهون لهذا التفسير مادام هدفهم هو البحث عن أي مبرر لإنكار الخالق، ومن هؤلاء "أرنست هكل" الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة، وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو "المونيرا" التي تركبت اتفاقا من الأزوت والهيدروجين والأكسجين "ومنها تكونت الحياة [1057].والسؤال المطروح من أين جاءت هذه العناصر المذكورة ذاتها؟ !

ولعلنا نجد من هو أكثر مكابرة منه وهو " هكسلي "الذي وصلت به الثقة في الصدفة أن زعم أنه" لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد (شكسبير)، فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين"[1058] .

[1056]– محمد الغزالي : عقيدة المسلم الشهاب للطباعة والنشر ص 16ط سنة 1985 ص16

[1057] يوسف كرم :تاريخ الفلسفة اليونانية ص400

[1058]– وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص84

ويلخص الفيلسوف " برتراند رسل "هذه النظرة المادية المتطرفة حين يرجع تاريخ البشرية كلها إلى القول بالصدفة. فيقول:"ليس وراء نشأة الإنسان غاية، أو تدبير، إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه، وعواطفه،وعقائده ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة "[1059].

ولا شك أن هذه النظرية ظاهرة البطلان ذلك أن النظام والتوازن الموجود في الكون، والإنسان والطبيعة، والنبات، والحيوان لا يمكن بأي حال أن تكون نِسبُه المحكمة، ومسافاته الدقيقة وتناسقه البديع وتكامله الرائع وتصاميمه المتقنة مجرد صدفة وخارج عن الخبرة والحكمة .

ينقل حسين عباس الأنصاري عن الفلكي الشهير "لابالاس" في نفي حدوث العالم بالمصادفة قوله:" أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية، وكثافتها، وثبتت أقدار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، لكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات، بأدق حساب .إن هذا النظام المستمر إلى ماشاء الله لا يعروه خلل،هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، بحيث لا يمكن أن يحمل على المصادفات إلا باحتمال واحد في أربعة تريوليونات"[1060] .

ولا شك أن هذه الأبعاد والمسافات للكواكب، وما ينتج عن ذلك من دقة في النظام الكوني يمدنا بفكرة هامة وهي أن هذا التوافق والانسجام بين مختلف عناصر الكون (بعد الأرض عن الشمس، نسبة الأكسجين، قوة الجاذبية، أنواع الغازات ونسبها ...) يستحيل أن يحدث بضربة حظ، وأن عقولنا تحكم باستحالة وجودها جزافا، وعندئذ تصبح كلمة "الصدفة" ليست إلاّ معيارا لجهلنا. يقول "ألن "إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم ... ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال

[1059]–ينظر نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص 57

[1060]– حسين عباس الأنصاري: العلم في رحاب الله الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته المطبعة العالمية ط 2001 ص 54

من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول أنها تحدث بالمصادفة، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد) .وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يكون بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة"[1061].

ويؤكد "ايرفنج وليام نوبلوتشي"[1062] الذي اهتدى من خلال دراساته التي أثبتت أن المصادفة وحدها لا يمكن أن تفسر وجود هذا الكون :" أما بالنسبة إلى نفسي بوصفي أحد المشتغلين بالعلوم فإنني لا أستطيع أن أنفي قوانين المصادفة لأنني ألمس نتائجها في كثير من أمور حياتنا اليومية، ولا أستطيع كذلك أن أرفض النظريات المادية رفضا باتا، لأن نجاح المشتغلين بالعلوم يتوقف على مدى وصولهم إلى تفسيرات طبيعية للظواهر العويصة التي يدرسونها .

ولكني أؤمن بوجود الله .إنني اعتقدت بوجوده سبحانه لأنني لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الالكترونات والبروتونات الأولى أو الأحماض الآمنية الأولى أو البروتوبلازم الأول أو البدرة الأولى أو العقل الأول .

إنني أعتقد في وجود الله، لأن وجوده القدسي هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها [1063].

[1061]– نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص15

[1062]–أستاذ العلوم الطبيعية حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة إيروا أخصائي في الحياة البرية في الولايات المتحدة الأمريكية – أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشيجان منذ سنة 1945–أخصائي في وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري . ينظر الله يتجلى في عصر العلم .ص57

[1063]–نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص 59/58/57

ويسوق محمد الغزالي مثلا لتقريب المعنى فيقول : "إن إحالة الأمور على المصادفات ضرب من الدجل العلمي يرفضه أولوا الألباب .لنفرض أن الآلة الكاتبة في أحد الدواوين وجدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم عمر، ماذا يعني هذا ...؟

أحد أمرين : أقربهما إلى البداهة وهو أن خبيرا بالكتابة طبع الاسم على الورقة .

والأمر الثاني : أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جزافا .

إن الفرض الأخير من الناحية العلمية ما يأتي :

الابتداء بكتابة العين. أو سقوط حروفها وحده على الورقة دون وعي يجوز بنسبة 1إلى 28 –وهو عدد حروف الهجاء العربية –.

وسقوط حرفي العين والميم معا يجوز بنسبة 1إلى 28X28.

ونزول الحروف الثلاثة بعوامل الصدفة المحضة يجوز بنسبة 1 إلى 28x28x28 أي بنسبة 1 إلى 21952 .

وليس أغبى فكرا ممن يترك الفرض الوحيد المعقول، ويؤثر عليه فرضا آخر لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنتين وعشرين ألف مرة "[1064].

وإذا كانت الصدفة مع تشكيل اسم بثلاثة حروف يعطينا هذا العدد الضخم، فكيف ببناء جارحة كالعين التي تحتوي على ملايير الخلايا ؟

يسوق "فرانك ألن " مجموعة من المعطيات حول الجزيء البروتيني فيقول :" :"إن البروتينات[1065] من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون، الإيدروجين،

[1064]–محمد الغزالي : عقيدة المسلم ص 18

والنتروجين، والأكسجين، والكبريت . ويبلغ عدد الذرات في الجزء البروتيني الواحد 40000 ذرة،. ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة 92 عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا،فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوّن جزيئا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيئ، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد "[1066].

ثم يحيل تحليل هذه المعطيات ل "تشارلز يوجين جاي"ليطلعنا عن الظروف الزمنية والمادية لتكوين جزيء بروتيني فيقول: "وقد قام العالم الرياضي السويسري "تشارلز يوجين جاي" بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزء بروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى 10^{160} أي بنسبة 1 إلى رقم عشرة مضروب في نفسه 160 مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات،وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيئ واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .ويتطلب تكوين هذا الجزيئ على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 234 مرة من السنين (1^{243}.سنة) "[1067].

[1065]–إن البروتينات تتكون من سلاسل من الأحماض الأمنية، إذا تآلفت بطرقة أخرى غير التي تتآلف بها تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموما، وقد حسب العالم الإنجليزي (j. b. leathes) الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (10^{48}) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا . ينظر الله يتجلى في عصر العلم ص 16

[1066]– ينظر نخبة باحثين أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص15

[1067]– المرجع نفسه ص 16/15

فكم يحتاج خلق الإنسان؟ إذا كانت هذه الأرقام من أجل إنتاج خلية واحدة .ومن العجيب أن ينسب المادي الكون إلى المصادفة ولا ينسبه إلى الله .أليست الصدفة التي يقول بها الملحدون نوع من التضليل باسم العلم ؟ !

إن فروع العلم كافة تثبت أن هنالك نظاما معجزا يسود هذا الكون، أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، والتي يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها وقد بلغت من الدقة ما يمكّن من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرهما من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين.

فمن الذي سن هذه القوانين وأودعها كل ذرة من ذرات الوجود، بل كل ما هو دون الذرة عند نشأتها الأولى ؟ ومن الذي خلق كل ذلك النظام والتوافق والانسجام ؟ من الذي صمّم فأبدع وقدّر فأحسن التقدير ؟[1068] يجيب العلماني : إنها الصدفة . ويجيب المسلم {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }[1069]. أما العقلاء من علماء الغرب فيقول أحدهم :"إن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق . والقول بأنها حدثت اتفاقا إنما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات"[1070].

ويضيف مونتسكيو: " من قال أن قدرا أعمى أوجد جميع الموجودات التي نبصرها في العالم في أكمل مظاهر النظام يكون قد قال محالا عظيما، فأي محال أعظم من قدر أعمى أحدث موجودات مدركة ؟إذن يوجد عقل أولي، والقوانين هي الصلات بين هذا العقل ومختلف الموجودات، وصلات هذه الموجودات المختلفة فيما بينها .ولله صلة بالكون خالقا وحافظا .والقوانين التي خلق بمقتضاها هي

[1068]– ينظر مجموعة باحثين أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم دار القلم بيروت ص 9

[1069]– سورة النمل الآية :88

[1070]– وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى تعريب ظفر الإسلام خان مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين مكتبة الرسالة بيروت ط1 سنة 1974ص 75

القوانين التي يحفظ بموجبها،والله يعمل وفق هذه القواعد لأنه يعلمها، وهو يعلمها لأنه صنعها،وهو صنعها لعلاقتها بحكمته وقدرته "[1071].

وخلاصة القول أن النظام الدقيق الذي يحتويه الكون يستحيل أن يحدث عن طريق الصدفة، فلو أخذنا مثلا كوكب الأرض وما فيه من توازن مدهش لتبين لنا أن القائلين بالصدفة يرددون كلاما لا يقبل عند الراسخين في العلم،وننقل هنا بعض مميزات كوكب الأرض التي جعلته مؤهلا من جميع النواحي ليكون مهيأ للحياة دون غيره من الكواكب :

– "ولو أن حجم الأرض كان أقل أو أكثر مما هي عليه الآن،لاستحالت الحياة فوقها،فلو أنها كانت في حجم القمر مثلا ؛بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا، لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية،ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها، كما هي الحال في القمر الذي لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائي لضعف قوة الجاذبية فيه .وانخفاض الجاذبية في الأرض إلى مستوى جاذبية القمر، سيترتب عليه اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها،واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وعلى العكس من ذلك، إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت جاذبيتها الحالية و عندئذ ينكمش غلافها الجوي الذي هو على بعد خمسمائة ميل إلى ما دون ذلك .وسيترتب عن هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوي وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر في الحياة .

–ولو أن الأرض تضاعف حجمها، فصارت مثل حجم الشمس مثلا لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة مرة، ولاقترب غلافها الهوائي حتى يصير منها على أربعة أميال بدلا من

[1071]– مونتسكيو : كتاب روح الشرائع ترجمة عادل زعيتر . ط الأنسكو القاهرة 1953 ج1 ص11 /12.

خمسمائة ميل، ولارتفع الضغط الجوي إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة، وذلك يؤدي إلى استحالة نشأة الأجسام الحية " [1072].

وهذه الدقة في توزع نسب الكميات والمسافات والأوزان كلها مرتبطة ببعضها لأداء وظيفة إبقاء الحياة بتوازن دقيق في كل الذرات المشكلة للكون في الأرض، أو في كل ما له علاقة بها .وإن هذا التوازن للكميات المحتاج إليها عجيب جدا، وإن القول بأن المادة الجامدة نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة مثير للدهشة !!.

إن ما تقول به العلمانية حقا هو الخرافة والأسطورة والاستبداد بالفكر الإنساني تحت غطاء العلم. ولا شيء مما قالت به في هذا الشأن يوافق عليه مخبر العلم.

2 – الأساس الثاني : المادية

يعد هذا المفهوم من أهم المفاهيم ذات الأبعاد الأساسية المكونة للعلمنة في الحضارة الغربية فمصطلح "الطبيعة المادة " مصطلح يستخدم كثيرا في الخطاب الفلسفي الغربي وهو مصطلح مهذب يحل محل كلمة "المادة". والطبيعة في تصور الفلسفة المادية هي "نظام يتحرك بلا هدف أو غاية، نظام واحدي مغلق مكتف بذاته، بحيث توجد مقوّمات حياته وحركته داخله، ويحوي داخله ما يلزم لفهمه،لا يشير إلى أي هدف أو غرض خارجه وهو نظام ضروري كلي شامل"[1073].

ولعل تقديس الطبيعة راجع إلى كون الفكر المادي الغربي المعاصر[1074] يرى أسبقية الطبيعة على الإنسان، ومن ثم يختزله إلى قوانينها ويخضعه إلى حتمياتها، بحيث يصبح جزءا لا يتجزأ منها أي: أن

[1072]– ينظر وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص 69/68/67

[1073]– ينظر حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري : العلمانية والحداثة والعولمة تحرير سوزان حرفي دار الفكر دمشق سنة 2008ص 24/23

[1074]– تقديس الطبيعة :عرفت هذه الفكرة تطورا تاريخيا في العالم الغربي، فلم تكن الطبيعة في العهد الأولمبي قبل ظهور المسيحية منفصلة عن الآلهة، ولكن بسبب انحطاط وتفسخ التدين في أوساط اليونانيين بدأ الطرد التدريجي للآلهة من الطبيعة، بحيث آل الأمر إلى اختزال الطبيعة من حيث حقيقتها ومنشؤها إلى مجرد علاقات سببية بين قوى وظواهر مادية، ونظرا لهيمنة العقلانية وتأثر

الحيز الإنساني يبتلعه الحيز المادي، بل إن الفكر المادي لا يرى أي قوة غير مادية، وهذه النزعة جردت الطبيعة من مغزاها الروحي. ومن ثم اعتبار الوجود خال من كل معنى خارج المادة، وإلى هذا يشير محمد نقيب العطاس بقوله: "إن هذا التجريد للطبيعة من مغزاها الروحي والحط من قيمتها بحيث لا تتجاوز كونهاشيئا من الأشياءخاليا من أي معنى علوي قدسي، قد كان في الحقيقة العامل الأساسي الذي انطلقت منه عملية العلمنة في المسيحية الغربية والعالم الغربي "[1075].

والطبيعة بهذا المعنى تعد المطلق العلماني الأساسي الكامن، وهو وحده المطلق النهائي وما عداه متغيّر، لذلك فكل تفسير للوجود لا بد أن يستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية كامنة في المادة هذا المركز يشكل مصدر التماسك في الكون والمجتمع ويزوده بالهدف والغاية، ويشكل أساس وحدته" فحينما نقول العودة إلى الطبيعة فنحن نقصد أن العودة ستكون لقوانين الطبيعة أي قوانين المادة "[1076] .

فمن الطبيعة وحدها يستمد الإنسان المعرفة والقيم الأخلاقية والجمالية، وقد برز هذا عند فلاسفة المذهب المادي،فكان "هوبز" يشير إلى الدولة التنين وإلى الأخلاقيات الذئبية للإنسان باعتبارها تعبيرا عن الطبيعة المادة، كما تحدث "لوك" عن عقل الإنسان الصفحة البيضاء التي لا تختلف عن الطبيعة المادة في أي شيء، وفسّر بنتام المنظومة الأخلاقية وجعلها تدور حول المنفعة واللذة بشكل آلي،وظهرت اليد الخفية[1077] عند آدم سميت [1078]، ووسائل الإنتاج عند ماركس،والجنس عند فرويد،

المسيحية بالفكر الإغريقي الروماني تكونت نزعة طبائعية جردت الطبيعة من مغزاها الروحي، ومن قيمتها الرمزية بوصفها آية للخلق الإلهي فيما بعد . ينظر محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 60/59 .

[1075]–محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 55

[1076]– عبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص 232

[1077]– تقول نظرية اليد الخفية: انه لو سُمح لكل مستهلك بحرية اختيار السلعة التي يرغب بشرائها، وسُمح لكل مُنتِج أن يبيع ما يشاء وأن يُصنّع السلعة التي يشاء وبالطريقة التي يرغب، فسينتهي المطاف بسلع ذات نوعية وسعر مناسبة ومفيدة لكل أفراد المجتمع وبالتالي للمجتمع ككل. والسبب يعود إلى أن الجشع سيكون عامل دفع لتصرف نافع. وبالتالي، فعمليات تحسين فعالية وكفاءة الإنتاج ستكون هدف المُصنعيين لزيادة الربحية عن طريق تقليص التكاليف. وخفض الأسعار ستكون دافع للقضاء على المنافسة. وسيستثمر المستثمرون في الصناعات المطلوبة من أجل الربح، كما سيسحبون استثماراتهم من الصناعات الأقل فعالية في إنتاج أي

وإرادة القوة عند نيتشه، وقانون البقاء عند داروين، وهكذا أصبح كل شيء يفسَّر تفسيرا ماديا في نهاية الأمر[1079].

فالأساس الذي قامت عليه الفلسفة الوضعية هو تقدير "الطبيعة" وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة، والطبيعة، أو الحقيقة، أو الواقع، أو الحس، كلها تدل على معنى واحد عند الوضعيين، وهي لاتعد كمصدر "مستقل" للمعرفة، بل كمصدر "فريد" للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة، باعتبارها هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، ومن ثم لا يملى على الإنسان أي شيء من وراء الطبيعة، كما لا يملى عليه من ذاته الخاصة " إذ ما يأتي من ماوراء الطبيعة خداع للحقيقة وليس حقيقة، وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا، وبناء عليه يكون الدين وهو وحي أي ما بعد الطبيعة خداعا "[1080]

وبهذا تعتبر العلمانية الشاملة "الطبيعة" كيانا يتسّم ببعض الصّفات الأساسية التي تشكّل في مجموعها أساس الفلسفة المادية، لخصها عبد الوهاب المسيري في النقاط التالية[1081] :

1-الإيمان بوحدة الطبيعة، فالطبيعة شاملة لا انقطاع فيها ولا فراغات، فهي الكل المتصل وما عداها مجرد جزء ناقص منها،فهي لا تتحمل وجود مسافات أو ثغرات أو ثنائيات.

ربحية. وكذلك، سيشجع هذا الوضع الطلاب على دراسة التخصصات المطلوبة أي التي ستجلب لهم مداخيل أعلى. وكل هذه التفاعلات تحصل بشكل عفوي وطبيعي.

[1078]-آدم سميت :(1723-1790) يعتبر آدم سميت مؤسس علم الاقتصاد السياسي له كتابان هامان :" نظرية العواطف الأخلاقية" 1759و" بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها "1776 يؤكد في نظريته أن قانون المنفعة هو الكفيل بتنظيم الحياة الاجتماعية، ويكفي الناس شر تدخل الحكومة، فلو تركت التدخل فإن قانون تقسيم العمل يفعل فعله، فحسب رأيه فإن الإنسان حر كل الحرية في اتباع الطريق الذي تدله عليه حريته. وأن مصلحة المجتمع تتحقق تبغا لتحقق منفعة الفرد، لأن العائد العام هو مجموع عوائد الأفراد وتنسب عبارة اليد الخفية إلية لأنه هو الذي ابتكرها، واستخدمها في كتاب ثروة الأمم ثلاث مرات، إلا أن هذا المصطلح توسع مفهومه استعماله فيما بعد.

[1079]_ ينظرعبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص 235/234

[1080] -محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 343

[1081]-المرجع نفسه ص233 و العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ص 459

2-الإيمان بقانونية الطبيعة (لكل ظاهرة سبب،وكل سبب يؤدي إلى نفس النتيجة في كل زمان ومكان) أي أن الطبيعة بأسرها متسّقة مع نفسها، خاضعة لقوانين واحدة ثابتة منتظمة صارمة مطردة حتمية آلية، قوانين رياضية عامة واضحة .

3-أن الطبيعة لا تكترث بالخصوصية ولا بالتفرد أو الظاهرة الإنسانية ولا بالإنسان الفرد واتجاهاته ورغباته، وذلك أن الإنسان ليست له مكانة خاصة في الكون،فهو لا يختلف في تركيبه عن بقية الكائنات.والإنسان الفرد (أو الجزء) يذوب في الكل الطبيعي/المادي)ذوبان الذرات فيها.

4-الإيمان بأن الطبيعة تتحرك تلقائيا بقوة دفع كامنة فيها، وبأن الحركة أمر مادي. ومن ثم لا توجد غائية في العالم المادي (حتى لو كانت غائية إنسانية تسحب خصوصيات النشاط البشري على الطبيعة المادية).

5-الإيمان بأنه لا توجد غيبيات ولا يوجد تجاوز للنظام الطبيعي من أي نوع، فالطبيعة تحوي داخلها كل القوانين التي تتحكم فيها وكل ما نحتاج إليه لتفسيرها ؛ فهي علة ذاتها، توجد في ذاتها، مكتفية بذاتها وتدرك بذاتها وهي واجبة الوجود.

ولهذا فالفكر العلماني ينظر بشمولية للكون ويجعل كل عناصره مادية منصهرة في القانون العام للطبيعة، ومفهوم الطبيعة مفهوم محوري في الخطاب الفلسفي الغربي الذي يحدد السّمات الأساسية للطبيعة.

1-يحل الإله في المؤمن ويصبح من الممكن معرفة الإله من خلال حالة شعورية أو تجربة جمالية يخوضها الإنسان، أي أن الإله يصبح أمرا خاصا بالقلب والضمير الشخصي بدلا من أن يكون التدين إيمانا بالغيب تستند إليه منظومة أخلاقية، ومع تزايد معدلات العلمنة يتصالح الدين مع الواقع إلى أن يصبح الدين واقعيا يستمد معياريته من الواقع.

2-أما الشكل الثاني :وهو أن يتجلى الخالق كقوة في الطبيعة أو في التاريخ ثم يصبح الخالق نفسه هو الطبيعة وقوانينها والتاريخ وقوانينه، الأمر الذي يعني هيمنة المرجعية المادية النهائية، أي أن سنن الإله

هي سنن الطبيعة والتاريخ، ومن ثم تظهر اتجاهات دينية ترى إمكان الوصول إلى فكرة الإله من خلال دراسة الطبيعة وقوانينها دون حاجة إلى وحي .

3- كما يمكن ربط الدين بالقومية بحيث يتداخل القومي والديني، والنسبي والمطلق حتى تهيمن المرجعية المادية، ويصبح الانتماء الديني والانتماء القومي شيئا واحدا.فمثلا المجتمع النازي حوّل الشعب الألماني إلى مطلق ومرجعية نهائية مادية واستمد من هذا المطلق منظومة أخلاقية مادية تقول أن ألمانيا فوق الجميع ومن ثم وجدوا المسوغ لتطهير ألمانيا من العناصر البشرية غير المرغوب فيها، إذ أن المنظومة العلمانية الشاملة ترفض أية مرجعية نهائية متجاوزة وبالتالي لا يمكن الحكم على هذه العمليات من منظور أية قيم مطلقة .فالدين القومي يعطي الشرعية لهذا الفعل.

ف"المادية بهذا المعنى أصبحت مذهبا فلسفيا يقرّ بأنه لا وجود لأي جوهر غير المادة (فجميع الظواهر النفسية والأخلاقية ...إلخ) إنما يفسّرها الوجود المادي .قال ماركس في هذا السياق " ليس وعي البشر هو الذي يحدد كينونتهم، بل كينونتهم التاريخية وظروفهم المادية هي التي تحدد وعيهم "[1082].ومن ثم كان تقسيمه للمادية إلى:

1. المادية الجدلية :التي ترى :"أن العالم كل يتكون من مادة في حركة ذات تطور متصاعد ومتزايد التعقيد، مما يؤدي في النهاية إلى قيام حياة روحية مستقلة عن الظواهر المادية، ولكنها طبعا ناتجة عنها .

2. أما المادية التاريخية : فهي حالة خاصة من المادية الجدلية، ومفادها أن الوقائع الاقتصادية هي أساس كل الظواهر التاريخية والاجتماعية، وهي المحدد لها، فالانتقال من نمط إنتاج تاريخي إلى نمط آخر يفسر بتغير الظروف الاقتصادية وبالتدقيق بعلاقات الإنتاج (وهي علاقات بين الأفراد داخل النمط الواحد"[1083].

[1082]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004 ص 405

[1083] - جلال الدين سعيد المرجع نفسه.

❖ **مناقشة أساس المادية عموما :**

ليس صعبا أن نرد على هذه الفرية لأن ليس فيها ذرة من علم، وحقيقتها أنها فكرة مفلسة صيغت لتحقيق أغراض سياسية وأهمها الانقلاب على الأوضاع والنظم الموجودة في الصراع الإيديولوجي . والضعف في هذا الأساس ناتج من نواح عديدة:

لا يماري أحد في أهمية العامل الاقتصادي في الحياة الإنسانية، لكن الخلل الواضح في هذه الرؤية العلمانية أن تجعله العامل الأساس والوحيد في تحديد السلوك الإنساني، ويظهر فساد ذلك فيما يلي:

1-أن فكرة العامل الاقتصادي الذي جعل منه ماركس السبب الوحيد الذي تتداعى من ورائه كل التغيرات التاريخية فيما يسمى التغير المادي للتاريخ، فهي فكرة سقطت علميا، والرأي السائد الآن في ميدان الظواهر الاجتماعية أنه لا يوجد سبب واحد مستقل وفاعل، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر في بعضها تأثيرات متقابلة، فالعامل الجوهري اليوم يمكن أن يصبح غدا عاملا ثانويا،والعامل الاقتصادي بهذا لا يصلح أن يكون سببا وحيدا .

2- إن افتراض النقاء والطهارة في طبقة البروليتاريا (العمال) كأنهم جنس آخر لا ينتمي لسكان الأرض،ومن ثم تزكيتهم لتولي حكم مطلق لتحقيق العدالة الاجتماعية كلام غير علمي، لأننا بشر وسنبقى بشرا.وأن ثورة التكنولوجيا قلبت الموازين وأنتجت طبقة جديدة من العمال مرفهين ويجلسون على كراسي فخمة وخلفهم نقابات عمالية قوية وقوانين للتأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض .

3- أن نظرية الماركسيين والماديين عموما تقول بحتمية القوانين، وهي دعوى زائفة وغير علمية فلا حتمية في الإنسانيات، فلا حتمية إلا في حركة الأفلاك والكواكب والمادة الصرفة، وحتى المادة الصرفة ظهرت قوانين جديدة تخرج حركة الالكترونات فيها من إسار الحتمية إلى مجال الاحتمال بسبب عوامل خفية لم يتوصل الإنسان لضبطها.

4- القول بأن الفكر الماركسي شمولي قادر للإجابة عن كل سؤال دعوى فارغة، وزعم فضفاض وغير علمي، وهو زعم مؤسس على الغرور أكثر منه على النظر العلمي، كيف بها تجيب عن عالم الغيب الذي لا تملك حوله أي معلومة . هذا الفراغ الموجود في الفضاء كان الناس يعتقدون بعدم وجود أي شيء فيه، ثم تبيّن أن هذا الفراغ تملؤه مجموعة من الطاقات عن طريقها تنقل الصورة والصوت اليوم، وما كان يصدر حوله من أحكام في الحقيقة لم يكن يعبّر إلا عن جهل الإنسان بالقوانين التي تعينه في الكشف عن الحقيقة . هذا في مجال قريب منا فكيف يجرؤ هؤلاء على هذا الحكم وعقولهم قاصرة عن إدراك ما هو قريب جدا منهم وهي أنفسهم :{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }[1084].

5-ثم من أين جاءوا بأن المادة أسبق من الفكر في مبدإ الكون، ومن كان منهم حاضرا في لحظة نشأة الكون حتى يدّعي أن شهادته علمية، فما قالوا ذلك إلا رجما بالغيب .وهم يصرخون دائما أنهم لا يؤمنون بأي غيب، وإذا قالوا إن المادة قديمة، وأنها جاءت بلا خالق وقعوا في التناقض، لأنهم بهذا يسقطون قانون السببية الذي يقوم عليه العلم كله وهذا قمة التناقض . قال تعالى :{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً }[1085].

وقد ثبت لدينا بأن الشيوعية مادية، مثل مادية الغرب، بل إنها تجاوزت المادية إلى الإلحاد . فالمحرك الوحيد للغرب لا يخرج عن نطاق المادة، ولأجل المادة، وخاصة بعد التحولات العميقة التي عرفها الفكر الماركسي، والفكر الغربي، وما يجب التأكيد عليه أنه لا صلة للفكرين بالأسس العلمية في تفسيرهما لقضايا الوجود الإنساني كما يروّج له، لأن تفسير الوجود لا علاقة له بالمخبر، وقد أشار أنور الجندي إلى هذه التحولات في الفكر الغربي بقوله :"كانت الماركسية هي المرحلة النهائية للفكر الغربي (الإلحادي الإباحي) التي رسم لها أن تكون قمة السيطرة والتحول من العقائد الدينية

[1084]- سورة الإسراء الآية : 85

[1085]- سورة الكهف الآية :51

والأخلاقية إلى التصور المادي الحاسم الذي يضع البشرية كلها إزاء التحول الخطير،وكان الفكر الغربي بعد انسلاخه من المسيحية وتحوله إلى الفكر المادي قد مرّ بمرحلتين:الأولى الفكر الليبرالي الرأسمالي الديمقراطي الذي عرفه الغرب، والذي تنكَّر لكل مقومات عقيدة الألوهية والنبوة والغيب والوحي. ثم انطلق من خلال الاقتصاد الحر إلى جهة مطلقة، حيث اعتمد مذهب دارون للتطور المطلق والتنكر لمفهوم (الثبات) وحمل معه مفهوم (الاستعلاء)على الشعوب المستضعفة والسيطرة عليها واستنزاف ثرواتها باسم العنصر الأبيض والتمييز العرقي واستقطاب العناصر المثقفة للولاء الغربي وقيادة المجتمعات، حيث سيطر الاستعمار على معظم أقطار آسيا وإفريقيا وأصبحت أوروبا هي صاحبة السيادة والقيادة العالمية"[1086].

***مناقشة مادية الإنسان خصوصا وكونه أحادي البعد :**

تقوم الفلسفة الغربية في مفهومها للإنسان على أساس أنه كائن مادي بحت، وهذا يعد من أفدح الأخطاء في منطلقاتها باعتبار أنه يترتب على المفهوم كثيرا من القضايا الجوهرية في حياة الإنسان وهذا ما يشير إليه أنور الجندي حيث يوضّح أن:"هناك خطأ أساسي في مجال المذاهب والنظريات من حيث أنها تصاغ في أسلوب علمي براق : هو محاولة إخضاعها للمنهج العلمي الذي خضعت له المادة .ولكن هل يمكن أن تخضع الدراسات الاجتماعية للأسلوب العلمي الذي خضع له العلم التجريبي، إن هناك اختلاف واضح بين المفاهيم الإنسانية والعلوم التجريبية .

هذا الاختلاف مرده إلى أن هذه المفاهيم ترتبط بالإنسان في مشاعره وعواطفه وهي حالات يصعب إخضاعها للقوانين التي أخضعت لها الظواهر الطبيعية، فالتجربة في مجال العلوم الطبيعية والرياضية تصدق، لأنها تقوم على أسس ثابتة، أما المفاهيم الإنسانية فإنها تتعرض لظروف مختلفة تتصل بأعماق النفس وتستحيل على مقاييس التجريب، كذلك من العسير تحرير المفاهيم الإنسانية من

[1086]– أنور الجندي : سقوط الايديولوجيات وكيف يملأ الإسلام الفراغ، دعوة الحق رابطة العالم الإسلامي السنة الثانية عشر العدد 139 رجب 1414 ص37

الأهواء والميول والمصالح : كل هذا جعل المفاهيم الإنسانية متعذرة على الخضوع لما تخضع له العلوم الطبيعية "[1087] .

وإذا كان الفكر الغربي قائما على التصور المادي للوجود الإنساني فإن هذا التصور انعكس على كل سلوكات الغرب ومواقفه من قضايا الحياة،وقادها إلى منطق حياة الغاب القائم على الصراع والقوة، وبذلك فقدت الحياة النزعة التراحمية، بين بني الإنسان واستبدلت بمنطق غريبهيمن على الحياة الإنسانيةكما يشير إلى ذلك عدنان النحوي فيقول :"لقد دفع التصور العلماني الدول والشعوب إلى التنافس المدمر على المصالح المادية،وإلى الصراع المستمر على الغنائم.وأحسن أنواع الصراع كان يسمى "الحرب الباردة "،وأرسى قاعدة التعامل بين الدول والشعوب على أساس المصالح المادية وحدها "[1088].

ولا شك أن المبدأ الميكافيلي في السياسة سائد في الساحة الدولية، مما كرس التنافس المقيت في اللهث وراء المادة بشتى أصنافها ولو تم ذلك على جثث الأبرياء وتدمير إنجازات حضارية وقهر شعوب واستباحة محرمات.ولا يغرنا هنا نوع الشعار البراق التي ترفعه تلك الدول التي تدّعي أنها تتحرك هنا وهناك لأغراض ظاهرها إنساني وباطنها مادي صرف، كما تفعل فرنسا في مالي وأمريكا في العراق.

وهنا تبدو لنا عظمة الإسلام وبركة عقيدة التوحيد التي ترسي قواعد أخلاقية في التعامل بين الشعوب،حيث أنها تراعي المصالح المادية، ولكنها لا تخلو من البعد الأخلاقي والإنساني. ولقد كشفت سورة الحجرات عن القاعدة العظيمة للتعامل بين الشعوب. فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

[1087]– أنور الجندي: مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام دار الكتب الجزائر سنة 1987 ص 15/14

[1088]– عدنان رضا النحوي : المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية دار النحوي للنشر والتوزيع ط1 سنة 1997 ص 157

خَبِيرٌ }[1089] والفرق واضح بين منطق العلمانية القائم على التنافس المادي، وتعظيمه، وبين القاعدة الربانية المشرقة بالحق، والخير، والموازنة العادلة بين المصالح والقيم في قضية العلاقات الإنسانية .

3. الأساس الثالث :نسبية القيم

عرف المجتمع الغربي تغيّرات كبيرة في ظل هيمنة التفكير العلماني مست كل جوانب الكيان الاجتماعي، وحدث انقلاب جذري في المفاهيم التي كانت سائدة في علاقات أفراد المجتمع وبالخصوص في مجال الأسرة من حيث تكوينها وعلاقة أفرادها والأخلاقيات التي تنظمها، فعرفت الأسرة الغربية حرية تامة، ولم يعد يضبطها ضابط أخلاقي، وتغيّرت المفاهيم المتعلقة بالزواج والأسرة :" فقد قلّ الزواج إن لم يكن قد ندر وفترات الاختبار التي تسبقه والتي تمتد سنين ..وهي فترات الزواج " الحقيقي" وإن كان في حقيقته زنا وفحش،وغالبا ما تنتهي فترات الاختبار بالاكتفاء بها للانتقال إلى اختبار آخر أو للعدول عن هذه الفكرة السخيفة "فكرة الزواج " إلى فكرة المعاشرة الحرة الاختيارية بينهما دون "أعباء " الزواج، وحتى إذا اختاروا الزواج فهم ينفرون من الأطفال ... وبرغم التشجيع المستمر والميزات المادية التي تعطيها الأنظمة للأسر حتى تقوم على الإنجاب فإن أكثرهم لا يزالون معرضين "[1090] .

من خلال هذا الوصف لحال الأسرة في الغرب يتبين التأثير الواضح لنظرية فرويد القائمة على أن الحياة الإنسانية تحركها الغريزة، وليس للعلاقة بين الرجل والمرأة أي أهداف نبيلة أخرى، وقد تجلى ذلك واضحا في الحياة الأسرية الغربية، فداخل الأسرة زالت تلك القيم، فلا تجد دفء العواطف الأسرية، ومجرد أن يصل الولد أو البنت سن البلوغ، فإنه يقوم بالانفصال عن الأسرة، وإن تلكأ طالبت الأسرة بذلك،وأشد ما شاع داخل الأسرة الغربية غياب الحدود في العلاقات الجنسية حيث سقطت كل الحواجز، فانتشر زنا المحارم وأصبح المهم إرواء الغريزة، فانحدرت هذه العلاقة انحدارا تعف عنه الحيوانات،حتى بلغ الحد أن أصبحت الإحصائيات تتحدث عن تورط رجال الدين في كل

[1089]- سورة الحجرات الآية :13

[1090]- علي جريشة : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص82/81

أنواع الفواحش[1091]. وما شيوع الأمراض الجنسية في المجتمعات الغربية إلا دليلا على الحال المزرية التي آلت إليها ، عندما اختارت النظريات المناقضة للفطرة في الاجتماع الإنساني سواء في بناء الأسرة أو في العلاقات الاجتماعية العامة، ونتج عنه ظواهر لا أخلاقية امتهنت فيها الكرامة الإنسانية، فحالات الإجهاض والولادة من السفاح وظاهرة البغاءتعد بالملايين[1092].

فإذا كان هذا هو حال الأسرة، فلا شك أن العلاقات بين أفراد المجتمع تكون أفظع ؛ لأن التفكير المادي وقف حاجزا كي لا تنمو العلاقات الاجتماعية نموا طبيعيا، حيث انعدمت العلاقات بين الآباء والأبناء، وبين الجيران، فكان من جراء هذا التمزق الاجتماعي أن كثيرا من المسنين يموتون ولا يعرف ذلك إلا بتصاعد رائحة جثثهم بعد أيام من وفاتهم، ولولا التأمينات التي تضمنها الدول لرأينا حالات إنسانية يندى لها الجبين .

وفي مجال النظرية الأخلاقية للعلمانية يحسم الفكر التنويري القضية حيث يرى أن الإنسان خيّر بطبيعته وهو يطمح إلى الخير والجمال والحق بشكل تلقائي طبيعي،وهو يبحث عن مصلحته بطريقة مستنيرة،أما الأفكار الدينية المختلفة مثل فكرة السقوط والخطيئة الأولى التي تفترض وجود الشر. فهي لا تستند إلى أساس طبيعي مادي محسوس.فالإنسان لا يضمر الشر، لأن الشر ليس من طبيعته، وما نرتكبه من آثام وما نقابله من شرور في المجتمع الإنساني إن هو إلا من مؤثرات خارجة عن النفس الإنسانية مثل البيئة الاجتماعية أو الجغرافية أو المادية أو العناصر الوراثية "ولكن من الواضح

[1091]– تشير الاحصائيات أن 80% رجال الدين زناة، وأن 40 % منهم شذاذ، فكيف تكون النسبة بين أفراد المجتمع وبخاصة أن مجلس اللوردات وافق على إباحة الشذوذ الجنسي في بريطانيا عام 1965. .ينظر علي جريشة :الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص 83

[1092]– يعود سبب انتشار البغاء –إضافة إلى التفكير الغريزي الذي سيطر على المجتمع الغربي –إلى أنه بمعاييرهم المادية أقل تكلفة من الصداقة والمخادنة والزواج، فضلا عن كون الإنسان الغربي في طلب المتعة يريد التنويع، ولسهولة الحصول على البغي، حتى أصبح البغاء غير مقتصر على حاملي رخصة البغاء، بل على سيدة البيت المحترمة و بعلم زوجها لتحسين حال الأسرة .ينظر علي جريشة :الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص 83

تماما أن الإنسان الجواني يتأثر تماما بهذه العناصر المادية الطبيعية/المادية البرانية، فهي التي تصوغه وتشكله، ولا يصوغها هو ولا يشكّلها"[1093] .

وبناء على هذه الرؤية ظهرت الفلسفة النفعية للتعبير عن النزعة الطبيعية الحسية المادية، وقد أعطت هذه الفلسفة الأسبقية للعناصر الفزيائية على حساب المفاهيم الأخلاقية وغيرها. فالأخلاق لا علاقة لها بالفضيلة والاحتياجات الروحية أو المعنى، ومن ثم حررت كثير من المجتمعات العلمانية الأخلاق من الدين وأخضعت مفهومها للمسألة الاجتماعية النسبية، فهي لا تتمتع بأي مطلقية أو ثبات، ويجب أن تخضع للتقويم باستمرار حسب ما يتطلبه منطق الحداثة، وخصوصا إذا تم تغيير القيم بمعدلات متسارعة والتي غالبا ما تكون خاضعة لعلماء النفس،والاجتماع، والهندسة الاجتماعية والوراثية، وشركات الإعلان التلفزيونية، ومجلات أخبار النجوم وفضائحهم، وصناعة الإباحية واللذة[1094].

وتذهب "العلمانية الشاملة" ومن خلال مذهب المنفعة إلىأن القيم المعترف بها هي التي تحقق منفعة ومن ضمنها "الدين" ذاته كقيمة اجتماعية، لكن قيمته نابعة مما ينتجه من فوائد، ومنافعللناس،ولذا "فإن اعتبار شروط وجود الدين وأصوله ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين،لأن قيمته فيما ينتجه"[1095]فيقول الفيلسوف "لوروا :" تقاس قيمة الديانة بما تتضمنه من قواعد سلوكية لا بما تتضمنه من حقائق "[1096] فإذا كان الدين "نافعا" في بعض الأحوال ولا يمكن استبداله بغيره من الوسائل المادية المجربة، فهو قيمة إيجابية، وخاصة أن فاعليته تظهر بإيحائه المؤثر في الغالب أكثر من الأسباب المادية،لذلك نجد أن العلمانية وعلى الرغم من رفضها للدين توظفه في محطات مختلفة؛لأنها لا تجد بديلا عنه في حل معضلة ما. وبهذا لم يسلم الدين من التفسير النفعي، لأن للدين أثرا فاعلا

[1093]–عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص315

[1094]–المرجع نفسه ص 316/315

[1095]–إميل بوترو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص448 ترجمة د أحمد فؤاد الأهواني، نقلا عن القيم بين الإسلام والغرب مرجع سابق ص 138

[1096] نقلا عن جميل صليبا : المعجم الفلسفي 204/1

في بناء القيم وتوجيهها في المجتمع، كما أنه يتفوق على أي مصدر آخر للحث على النشاط والمثابرة .

جاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية:"والنسبية الأخلاقية (re lativisme moral) هي مذهب من يقرر أن فكرة الخير والشر تتغير بتغيّر الزمان والمكان، من غير أن يكون هذا التغيّر مصحوبا بتقدم معيّن"[1097].

❖ مناقشة نسبية القيم

مما لا يخفى على أحد أن القيم من جملة العناصر المكونة لشخصية الإنسان، وأنها لا تنفك عنه بغض النظر عن القيم التي يؤمن بها الفرد، وأي نوع من أنواع القيم، سواء كانت روحية أو مادية أو نفسية واجتماعية، أو ذاتية وموضوعية، وعلى العموم فهذه القيم يمكن تقسيمها إلى قيم ثابتة، وقيم متغيّرة .

فالقيم الثابتة : هي التي لا تخضع للأزمان ولا للبيئات ولا تتغير بتغير الأماكن والعصور، فهي قيم ترتبط بالإنسان من حيث هو إنسان مشكّل من روح ومادة، ومن جسم ونفس، وهذه هي القيم المرتبطة بالمعتقدات والأديان والأخلاق، والتي تقوم على أساس إنساني خالص قوامه الحب والإخاء والرحمة، بحيث تتلاقى عليها النفس الإنسانية .فهي قيم ثابتة تعد المثل الأعلى لكل سلوك إنساني، وحيثما اتصف بها فرد اعتبر سلوكه أخلاقيا بغض النظر عن انتمائه .

أما القيم المتغيرة: فإنها تختلف باختلاف الزمان والمكان وتخضع لاختلاف الظروف الاجتماعية والبيئية .وهذه القيم تفرزها كل ثقافة أو حضارة بحسب دواعي التطور العقلي أو العلمي أو الاقتصادي.

[1097]– جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004 ص 465

وإذا كانت العلمانية الشاملة تعتبر كل القيم قضية نسبية متطورة بتطور الأوضاع الاجتماعية والبيئية، فإن نظرة الإسلام تختلف عنها تماما وترى أن القيم الثابتة أصيلة في الإنسان، حيث أنها بلغت حد الضرورة، فنفس الإنسان تنطوي على تصوّر مبدئي عن القيمة، بحيث يعد تحقيقه ربحا وتضييعه خسارة تعقب الندم والشعور بالقلق . : "على أساس أن الإنسان لا يمكن أن يكف عن التعلق بالمثال ونشدان الكمال في عالم الواقع، وأنه لا يمكن أن يستغني عن خالقه سبحانه الذي هو مصدر الكمال . أو بتعبير فلسفي لا يمكن للإنسان المحدود أن يستغني في وجوده عن الوجود اللانهائي الذي هو الحق المطلق، وأن هذا التعلق الفطري لدى الإنسان بما فوق وجوده هو ما يجعله يستشعر أنه مسؤول عن كل أفعاله، وأمام محكمة ضميره على الأقل"[1098] .

وهذا المفهوم العلمي للقيم يتفق مع مفهوم الإسلام الذي أقر القيم النفسية، والاجتماعية، والمادية، في تكامل بديع يستهدف تغطية حاجات الإنسان، ويرتفع به عن المطامع والأهواء، ومن ثم كان شديد الوضوح في التركيز على القيم الإنسانية ومن أصدق منطلقاته وهي "الفطرة".

وعليه فإن القائلين بنسبية القيم يقعون في مغالطة واضحة عندما يصدرون حكما عاما على القيم ولا يصنفونها على الطريقة التي أشرنا إليها، وهي وجود قيم ثابتة أصيلة ومرجعية، وقيم أخرى متغيرة تتحرك في إطار القيم الثابتة، حتى لا يقع الإنسان في التناقض بين الأصيل والمتغير، ويمكننا عند ذلك من بيان النقد الذي يمكن توجيهه للقائلين بالنسبية المطلقة للقيم فنقول :

صحيح أن معظم المذاهب تتفق في استخدام مصطلحات لبعض القيم، ولا شك أن الانحراف في حياة البشر ينبع من عدم القدرة على ضبط مضامين هذه المصطلحات، ومن هنا يختلف الإسلام اختلافا جذريا عنها من حيث : مصدرها، ومضمونها، والباعث عليها، ومجالاتها، وبيان ذلك كالتالي:

[1098]–محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص13

فمن حيث **المصدر**: وقف المفكرون الأخلاقيون وعامة الفلاسفة بغض النظر عن التيار الذي ينتمون إليه من القيم الأخلاقية موقفين رئيسين :

-أحدهما يعتبر القيم الأخلاقية قيّما موضوعية، لها وجودها الثابت في الحياة الإنسانية. والموقف الأخر يعتبرها قيّما ذاتية ناشئة عن المشاعر والرغبات، أو عن المصالح والظروف الاجتماعية.

-أما من حيث المضمون فتكاد تشترك كل المذاهب والفلسفات والأديان في ترديد كثير من المصطلحات، إلاأنها تتباين عند التطرق للتفاصيل والعودة إلى المرجعيات. ومن هنا يتميز مضمون القيم في العلمانية بكونها قيما إجرائية نفعية وقيما نسبية، فيتخلق الفرد بالصدق إذا كان في الصدق منفعة، وإذا لم يحقق منفعة لم يعد قيمة تستحق الاعتبار.

بينما في التصور الإسلامي فالصدق قيمة وخلق شامل يستوعب كل مواقف الإنسان وعلاقاته، فيكون مع النفس ومع الله ومع كل الناس.ومن حيث المجالات التي تغطيها القيم نجد أنها قيم تستوعب كل الإنسان ظاهرا وباطنا في الحياة الفردية والجماعية، وقد أشار محمد الكتاني إلى هذا التباين بين المنظومتين فقال : " لكن الاختلاف بين الفريقين أعمق مما يدّعيه دعاة التقدم والمحافظة حول أزمة القيم .ولا بد من إرجاعه إلى مصدر آخر، وعدم اختزاله في مسألة الموقف من التطور رفضا وقبولا . فجوهر الاختلاف ينطلق من المنظور إلى القيم وعلاقتها بالإنسان، كائنا ما كان، في عصر مضى أو عصر آت .أي حول المعنى الذي ينطوي عليه دور الإنسان في هذا الكون وطبيعة كينونته التواقة باستمرار للبحث عن مستقر لها في هذا الوجود عبر جدلية الحياة والموت، والبقاء والفناء فهل هذه الجدلية مجرد عبث تقوده الصدفة، ولا ينطوي على غاية، ولا يستهدف مثلا أعلى"[1099].

وأما من حيث **الغاية** : فإن القيم التي تروّج لها كل منظومة تختلف في الأهداف والغايات المرجوة منها . ففي المنظومة العلمانية كل ما تؤمن به من قيم تنحصر غاياته في هذا العالم المادي النفعي

[1099]-محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 20/19

العاجل . بينما تهدف القيم الإسلامية إلى الاستقامة على منهج الله تعالى والسعي الدائم لنيل مرضاته، حيث تتجاوز غاية القيم العالم المادي إلى عالم الآخرة الرحب الفسيح وتنظر إليه على أنه خير وأبقى .قال تعالى:{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى }[1100] تقول موزة أحمد راشد العبار :" أن الإسلام استحدث الباعث الأخلاقي حيث كان العرب يحركهم لفعل الخير اتقاء الذم، أو طلب الثناء، وحسن الذكر . فحاتم الطائي يقول :"أخاف مذمات الحديث من بعدي " أما الإسلام فجعل فعل الخير "تديّنا "هدفه ابتغاء وجه الله"[1101] . قال تعالى {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }[1102] ولا شك أن الجاهلية الغربية أسوأ من الجاهلية العربية في هذا الباب، فهي لا تؤمن حتى بهذه الغاية الصغيرة عند العرب، بل لا هدف لحياتهم، إنهم يعتبرون الحياة مادة،ويؤمنون بالمادة، ويتحركون بالمادة، ويعيشون للمادة، لا فرق بينهم وبين ذلك الحيوان الذي ينطلق لإرواء غرائزه، بل هم أقل منه درجة. قال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ }[1103].

وبناء على هذا نجد أن الوضعية المنطقية[1104] من المذاهب الفلسفية المعاصرة التي ترفض الأحكام الأخلاقية وتدّعي أن القيم التي تشير إليها الألفاظ المعبرة عنها، لا تدل على معان يمكن إدراكها

[1100]- سورة الضحى الآية :4

[1101]-موزة أحمد راشد العبار : القيم الأخلاقية بين الفكرين الإسلامي والغربي في عصر العولمة :الدار العالمية للنشر والتوزيع ط1 سنة 2009 ص118

[1102]- سورة الإنسان الآية : 9

[1103]-سورة محمد الآية : 12

[1104]-المذهب الوضعي : مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيما التي يتيحها العلم النجريبي .وينطوي المذهب على إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيما فيما يتعلق بما وراء المادة .تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يدي الفيلسوف "كونت" ومعظم من جاء بعده طبق منهجه في المعرفة ومن شخصيات المذهب :أوغست كونت (1798-1857م) وهو الفيلسوف الفرنسي المؤسس للمذهب، عمل أمينا للسر (سكرتيرا) للفيلسوف الاشتراكي سان سيمون بدأ بإلقاء محاضراته سنة 1826ثم أصيب بمرض عقلي وحاول الانتحار وقد نشر كتابه بعد

بالتجربة المباشرة، أو بالحواس. فهي مفاهيم غامضة لا تقبل التحليل، وهذا الاتجاه يرى أنه لا وجود لقيم ثابتة وقيم عليا مرجعية في حياة الإنسان، وهو موقف يتناقض تماما مع الرؤية الإسلامية لمصدرية القيم .

وقد وضّح محمد الكتاني الفرق بين الرؤيتين ونتائج القول بنسبية القيم وحصرها في القيم المادية فقال :"إن الفرق بين هؤلاء وأولئك هو الفرق بين من يؤمن بضرورة وجود قيم عليا أو مرجعية ثابتة ينبغي أن توجّه السلوك الإنساني، وبين من لا يقول بهذه الضرورة مطلقا، أو يقول بنسبية القيم، وأن من حق الإنسان أن يضعها لنفسه بمحض حريته، كما يفعل في وضع القانون .إنه نفس الفرق بين من يفكر بعمق وينفذ بنور بصيرته إلى معنى الوجود، ويعتبر نفسه مسؤولا عن مصيره، وأن الحياة هبة إلهية لها مغزاها ورسالتها.وأن وجوده فيها ينطوي على اختبار حقيقي لإيمانه بهذه الحقيقة، في كنف الوجود المطلق الذي يحيط به وبين من يكف عن التفكير في كل هذه المسائل الميثافيزيقية أو الدينية ويفضّل أن يقبل الحياة كما هي،وعلى نحو ما تعرض عليه ألوانها البراقة ومفاتنها المغرية أو تعتصره في دوامة آلامها وكوارثها إلى أن تفضي به إلى نهايتها العبثية "[1105].

فلا شك أن الفارق واضح بين من يعتقد أن الوجود الإنساني ينطوي على غاية، وأن وراء عالم الشهادة إرادة عليا توجهه نحو تلك الغاية، وفق منهج يضبط علاقة الإنسان بما حوله ومن حوله، وبين ذلك الذي يرى أن الوجود كله مادة محضة تتحرك بآلية مادية تتعاقب فيها الأطوار والأدوار في دائرة مغلقة عديمة المعنى والغاية. ويمكن بيان إفلاس الرؤية العلمانية المتطرفة للقيم بما يلي :

ذلك تحت عنوان: محاضرات في الفلسفة الوضعية بسط فيه نظريته في العلوم والمعرفة .وقد اعتنق أفكار الوضعية كل من ريتشارد كونجريف (فيلسوف انجليزي)و إير (فيلسوف إنجليزي)برتراند راسل (فيلسوف انجليزي) و زكي نجيب محمود (مفكر عربي مصري).

[1105]–محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 20

1-إن التعميم في جعل كل القيم نسبية بهذا الشمول يدحضه الشعور الفطري الدائم الذي يتطلع إلى المثل الأعلى، والذي لا يمكن إخفاؤه أو تجاوزه. ذلك أن هناك قيما لا يمكن للإنسان أن يتجاوزها مهما بلغت درجة علمنته، مما يدل أن هناك قيما أصيلة ثابتة في الحياة الإنسانية، فمثلا لو رأينا شخصا قويا يمزق طفلا بريئا لاهتز لهذا المظهر كل البشر –إلا من شذ، والشاذ لا يقاس عليه – مهما كان جافا من الإنسانية .

وهذا يعني أنه لو كانت القيم مجرد رغبات ذاتية، لما أمكن الاتفاق حولها، ولما جاز اعتبارها معايير لتقييم المواقف الإنسانية، ولما استطعنا إنشاء مؤسسات اجتماعية وحضارية، لأن هذه الحالة تمنع من تحديد نقاط التقاء بين البشر وهو مخالف للواقع .ومن هنا يؤكد محمد الكتاني أن هذه القيم :" لا بد أن تكتسي صفة الضرورة والشمول وبالتالي ترجع إلى أصول فوق طبيعة العقل الإنساني، أصول ميثافيزيقية أو دينية . مصدرها إما الوحي الإلهي أو العقل المثالي المعياري، لأن القيم في نظر العديد من الفلاسفة لا يمكن استنباطها من الوقائع السلوكية للإنسان, أي من الطبيعة البشرية المكونة من المشاعر والدوافع المتناقضة، بين ما هو مادي وما هو روحي، فهذه الوقائع تعكس دائما تأرجحا بين الخير والشر،وتعد مجرد تجربة ذاتية أي خاصة لا تكتسي صفة الموضوعية. بينما مصدر القيم يجب أن يكون عاما وشاملا للحياة الإنسانية " [1106]

ويمكن تفسير هذه الضرورة الكلية للقيمة الأخلاقية بأن الأخلاق لا بد أن تكون لها جذور أصيلة حتى تستقيم ويصلح بها الاجتماع الإنساني،ومن ثم وجود قاعدة ثابتة أساسها إثبات الحق المطلق الذي لا يتسنى إلا مع وجود عقيدة إيمانية غيبية، ولا يتصور ذلك إلا من منظور ديني أو ميثافيزيقي. وقد عبّر القرآن عن هذا التجذر في قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء }[1107].

[1106]– محمد الكتاني :منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 16

[1107]– سورة إبراهيم الآية :24

2-أن سعي المجتمعات لتربية الأجيال على قيم معينة كالحرية، والعدل، والمساواة، هو إقرار بأن هذه القيم جديرة بالاستمرار من جهة، وهناك إمكانية لتقبلها من قبل الجميع من جهة أخرى، مما يدل أن مصدرها يعبّر عن حقيقة فطرية جُبِل عليها الناس جميعا. لذلك تحتاج هذه القيم للتوكيد والترسيخ، بينما هناك قيما يمكن أن تستغني عنها الأجيال دون أن يلحقها سوء، لأن الطور الحضاري أوجد من القيم ما يعوضها،وهذا يعطي حجة قوية للنظرية الإسلامية القائلة بوجود قيم ثابتة أصيلة، وقيم متغيرة في الحياة الإنسانية وهي التي تتكيف مع الوسائل ولا تلمس جوهر الإنسان. وإذا كان لا معنى للمصطلحات التي تعبر عن القيم، فلماذا يستخدم الفكر العلماني نفس المصطلحات ويشحنها بمضامينه ؟.

3-لا شك أن الإصرار على القول بنسبية القيم في رأي العلمانيين يستند إلى فكرة محورية لديهم وهي:أن التطور في الحياة الإنسانية يفرض هذه النسبية، وأن القول بخلاف ذلك يعرقل الحياة .

والحق أن هذه الحجة واهية، لأن كثيرا من الأمم تطورت دون أن تستغني عن قيّمها، صحيح أن التحول الحضاري والتطور التكنولوجي في الحياة الإنسانية، قد أوجد نسقا جديدا مختلفا عما ألفته الحياة الإنسانية من قبل من تقاليد وقيم، وأن هذه سنّة التطور التي هي أقوى سنن الحياة، فكلما حدث تطور في الحياة صحبه تغيّر في القيم، وهذه حقيقة لا بد من الإقرار بها، لكن لا يسلم لها أن هذا التطور بالضرورة يكون مطلقا، فإن ظهور قيم جديدة في مجتمع التواصل والمعرفة لا يعني وجوب إلغاء القيم الأصيلة والقول بنسبية كل شيء . بل العكس تماما هو الصحيح والذي يؤكد أن القيم المطلقة تظل الإطار و المرجعية الحقيقية العليا للحفاظ على إنسانية الإنسان . ومن ثم لا يمكن بحال من الأحوال القول بالنسبية المطلقة . وها هي التجربة الغربية تؤكد أن المعاني الإنسانية والأخلاقية سحقها عالم الآلة، وانعكاساته خطيرة على الحياة الأوروبية، حيث أصبحت شعوبها تفتقد للدفء والتراحم وتخشى الدول من انقراضها بسبب قلة المواليد وتزايد عدد الشيخوخة دون بديل من الأجيال .

4- إن أزمة القيم والمعاناة النفسية والأخلاقية التي يعيشها العالم والتي انحطت به إلى درك الحيوانية تؤكد بشكل لا ريب فيه أن هيمنة الفكر العلماني من جهة وغياب القيم الدينية من جهة أخرى أنتجت هذه الحالة، ونلاحظ أنه كلما توفر قسط من القيم الأصيلة ارتفعت نسبة الشعور الإنساني بالمتعة في الحياة،وكلما تغوّل التفكير المادي والقول بنسبية القيم اندثرت المعاني الإنسانية وأصبح التعايش صعبا بين الأمم والشعوب، وغالبا ما تنشأ في ظل هذه الأوضاع الأزمات الحضارية والتوترات بين الشعوب، تفضي إلى اقتتال من أجل أطماع أو مصالح ضيقة .

5-أن وجود نسقين أو منظومتين أخلاقيتين إحداهما تحصر وجوده في تكوينه المادي البيولوجي، الذي لا يختلف فيه عن سائر الحيوانات، والثانية تسمو به إلى وظيفة تميزه عن غيره من المخلوقات، هذا السمو لا يمكن أن يرتقي إليه إلا إذا آمن بقيم تسمو به إلى وظيفة الاستخلاف. فإذا كانت الأولى تستمد مرجعيتها من المجتمع وضروراته أو من الفرد ورغباته، فإن الثانية تجعل مرجعيته القيمية هي القصد الإلهي من خلقه، والقصد الإلهي لم يتغيّر، ومن ثم فالقيم الحاكمة لهذا القصد لا تتغير والقول بالنسبية في هذا المجال هو ضرب من الضلال {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }[1108].

6- أن المنظومات الفلسفية التي تحدثت عن المرجعية المطلقة للحياة الإنسانية عبر التاريخ حاولت صياغة قيم مطلقة، لكنها فشلت ويرجع مكمن الضعف في كونها ظلت تعتبر أن المرجع الأسمى لفهم المنظومة الكونية هو "العقل" فقط، كما عند الفلاسفة المثاليين، أو هو" المادة "فقط كما عند الفلاسفة الماديين، وغفل أولئك أن ثبات كل من العقل والمادة، إنما هو أمر نسبي في حد ذاته، لأن كلا منهما رهين بإرادة خارجية تتحكم فيهما، وتعد هذه الإرادة مصدر وجودهما أصلا، ومرجعا أول لكل مظاهر الوجود والحياة .

[1108]-سورة يونس الآية :35

والدليل على ذلك هو أن العقل نفسه يفتقر إلى مرجع، فقد ظل العقل ذاته يجدد ويطور فيما أنتجه عبر العصور، ولو كان ذا طبيعة ثابتة لما وقع في الحيرة، ولما نقض اليوم ما بناه بالأمس، ولأمكنه من وصف الصورة المثلى من البداية . وكذلك المادة نفسها مفتقرة إلى مبدع، فلا يمكن الزعم أنها أوجدت نفسها بقوة فيها سابقة عن وجودها .

7-إذا كان نظام الكون مستمرا بفضل قوانين ثابتة -وقد ثبت ذلك بالدليل القطعي - فإن حياة الإنسان جزء من الطبيعة، ولا بد لها حينئذ من أن تكون لها قوانين ثابتة تنتظم بها العلاقات بين أبناء النوع الإنساني، سواء على مستوى الأسرة، أوالمجتمع، أوالوطن، أوالدولة، أوالمجتمعات البشرية، وإلا وقع الخلل المفضي إلى تدمير الحياة نفسها، أو الانحدار بها إلى الحيوانية حين يسيطر قانون الغاب الذي يملك مرجعية القوة والغريزة فقط. لذا فالحياة الإنسانية تتطلب أن تحكمها قوانين تتسم بالثبات، لأن الكيان الإنساني ثابت منذ وجد على هذه البسيطة، والإقرار بوجود قانون أسمى ثابت، أي مطلق ودائم الفعالية يسري في الكون بشتى مظاهره المادية والروحية لا مفر منه، لوضع منظومة فكرية أو تشريعية قائمة على روح هذا القانون الأسمى، وبغير هذا الثبات لا يمكن ضبط حركة الحياة .ومن ثم فالقول بنسبية كل شيء يخالف القانون الطبيعي الذي تؤمن العلمانية بثباته، ولولا ذلك الثبات في قوانينه لما استطاع الإنسان أن يصمم القوانين التي مكنته من التحكم في كثير من المظاهر الكونية، وكذلك الأمر في الحياة الإنسانية فلا بد من وجود القيم الثابتة .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا أين المرجع الثابت الذي يعتبر حقا في ذاته؟ أي حقيقة مطلقة ثابتة تهيمن على كل شيء، وإليها ترجع كل قيمة ؟

إذا كان العلم الطبيعي التجريبي لا اختصاص له في الإجابة عن هذا التساؤل، لأنه يتعامل مع المادة، وكانت مختلف الفلسفات القديمة والحديثة قد عجزت في الحسم حتى في تحديد المنهج الملائم لبلوغ الحقيقة —وإن كانت بعض مذاهبها قد أقرت بوجود واجب الوجود- فإنه لا مندوحة من الإقرار بوجود مصدر أول للقيم المطلقة، إنه المرجع الحق، الدال على وجود الحق الذي لا ريب فيه،

وهو رب العالمين الذي سمّى نفسه "حقا" بالمعنى الأعمق لمفهوم الحق أي الأول بغير ابتداء، والآخر بغير انتهاء، والثابت الذي لا يعتريه الزوال .

وإذا ثبت وجود هذا الحق المطلق الذي يعد مصدر القانون الأسمى والقيم المطلقة الذي يرجع إليه كل مظهر من مظاهر الكون المادية والروحية : {فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }[1109] ثبت لدينا عند ذلك أن ما تدّعيه العلمانية الشاملة من أن العقل بقدرته المحدودة يستطيع أن يضع هذه المرجعية من القيم، وأنه يمكن أن يحدد طبيعة الحق وحده، بل قد يتوهم أنه غير مفتقر في معرفة الحق إلى مصدر غير مصدره، أو أنه مادة فاعلة بذاتها تلقائيا، كما تقول بذلك الفلسفات المادية القديمة والحديثة، وبأنه من حقه أن يشرع للإنسان ما تصلح به حياته، فهذا يعتبر وهما لسبب بسيط يمكن شرحه كالتالي :

إننا إذا تأملنا طبيعة العقل وجدنا أنه يفتقر إلى الجسم الذي يوجد قبله، وأن الجسم نفسه يفتقر إلى الحياة بكل آلياتها المعقدة، وأن هذه الآليات تتوقف نفسها على الروح السارية فيها، فنحن إذ نلاحظ أن القدرة العقلية تغيب مع انفصال الروح عن الجسد، وتتوقف تلك الآلات على الرغم من استقلالها في نظر البيولوجي، وتتعطل كل الطاقات والآلات، وتخبو فاعليتها.ومن هنا فالعقل ليس طاقة مستقلة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن العقل لا يقدر على دفع العوارض التي تصيبه من جنون وإغماء ونسيان. بل إنه يصبح فريسة لتلك العوامل نفسها، وهذا يدل على أن العقل محكوم بعوامل سابقة عن وجوده (الجسم)، ومفتقر لآلات تمده بالمعطيات لإصدار الأحكام (الحواس)، ومفتقر في صحوته وإدراكاته ونظامه إلى قوة خارجية (الروح)، وعاجز عن دفع العوارض، وبذلك فهو محتاج في هدايته إلى مبدعه الأول، على خلاف مايقول به العلمانيون من أن للعقل قوة ذاتية .[1110]

[1109]- سورة يونس الآية :32

[1110]-ينظر محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 20/19

وإذا تتبعنا لفظة "الحق"[1111] في القرآن الكريم نكتشف حقيقة عظيمة، وهي أن القرآن بنى دعوته الإلهية ونظامه التشريعي وعقيدته الكلية وأخلاقه وقيمه على مبدأ الإقرار بوجود "الحق الأول " باعتباره أساسا للوجود كله. ومن ثم كانت توجيهاته في التكليف والمسؤولية وفي الجزاء وفي الحكم بين الناس قائمة على مبدأ الإيمان بالحق سبحانه وتعالى . بل إن مناقشة القرآن لأهل الزيغ والضلال كان ينطلق من ضرورة الإقرار بهذه المسلمة وجعلها منطلقا وقاعدة لكل حوار . وهذا ما جعل محمد الكتاني يستنتج أن هذه الكلمة هي" الناظم " لكل شيء في الإسلام فيقول :" فلفظ الحق يقرع أسماع المخاطبين بالقرآن في سياقات متعددة، ويتمثل لهم باعتباره قانون الكون الأسمى وعندما تبيّن لي أن تركيز القرآن على هذا اللفظ، بما له من معنى شمولي، وبهذا القدر من "الحضور "و"الجهارة"، استنتجت أن "الحق" هو الناظم لكل شيء في عقيدة الإسلام وشريعته، لاعتباره مبدأ مطلقا للكون وقيمة ثابتة من قيم الإسلام المرجعية "[1112] .

ولما كان الكون فيه الثوابت والمتغيرات، فكذلك القيم، وكذلك كل قضايا الحياة، فالثابت يحفظ هوية الشيء، والمتغير يتكيّف مع المتغيرات، ويعطي للحياة نكهتها بالتجديد والتطوير الذي يبدعه الإنسان. والقول بأن كل شيء نسبي افتراء على الحقيقة، وتناقض مع نواميس الحياة، ومعارضة للحق سبحانه؛ فلفظ "الحق" ورد بالمعنى الأسمى الدال على القائم بذاته بغير افتقار إلى غيره، والحق بهذا المعنى لا توصف به إلا "الذات الإلهية" لأنها وحدها الثابت المطلق بغير علة أو سبب، فهي مصدر القيم الثابتة وليس العقل ولا المادة فكل ما عدا "الحق" فهو نسبي .

ومن هنا يعد أخطر ما وصلت إليه العلمانية هو القول بنسبية القيم انطلاقا من مبدإ التطور المطلق،ومن بينها تطور الأخلاق تبعا لعامل الزمان أو عامل المكان، واختلاف الظروف، وهو منطق يهدف إلى التحرر من الضوابط الأخلاقية والمثل العليا جملة، وهذا الاتجاه في الفلسفة المادية ينفي

[1111]–ذكر القرآن هذه اللفظة مائة وأربعين مرة ابتداء من سورة البقرة وانتهاء بسورة العصر .

[1112]– محمد الكتاني :منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 27/26

بالتالي الالتزام الخلقي، والمسؤولية وما يتبعها من حساب وجزاء، ذلك أن الالتزام الخلقي يقتضي القدرة على التفرقة بين الخير والشر . ومن ثم تجاوز الرذيلة والتماس الفضيلة، وهو ما لا تريد العلمانية الإقرار به، في حين نجد أن القرآن الكريم يدعو إلى الالتزام الخلقي ويكشف أن الإرادة الإنسانية قادرة على تجاوز الشر، وأن في النفس الإنسانية قوة كامنة قادرة على ضبط الغرائز، فهي في أصلها ليست شريرة، والالتزام الخلقي متوقف على مدى استخدامها للقوى العليا التي أودعها الله في هذه النفس لتحدد للإنسان ما يجب عمله وما ينبغي تحاشيه {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }[1113].

وتفسير ذلك أن الإسلام يعتبر أن القيم ثابتة، لأنها مرتبطة بالإنسان نفسه الذي تشكّلت قواه على النحو الذي يجعله قادرا على تبيُّن طريقه في أي عصر وفي أي بيئة قال تعالى:{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }[1114]غير أنالإسلام يوضح من جهة أخرى أن التكليف في الحياة الدنيا يقتضي أن تقوم القيم على قاعدتي "الحرية" و"الاختيار" فلا أخلاق بغير حرية، كما لا تكليف بغير اختيار، ذلك أن الإرادة حركة نفسية صرفة، وأن العمل الخلقي يتصف بالطواعية، والانبعاث من أعماق النفس، فلا يؤاخذ المكره على أعماله في نظر الإسلام، لأنه فاقد للإرادة والاختيار .

ويحسن بنا هنا التنبيه إلى مسألة في غاية الأهمية وهي كيفية التوفيق بين القيم الإلهية المطلقة ومقتضيات الواقع ؟ والحق يقال أن الإسلام قد رسم منهجا واسعا مرِنا يَسِير التطبيق في مختلف الظروف والبيئات، وجعل إطار القيم الأخلاقية رحبا يحقق الحرية الشخصية، ويتقبل الجهود الفردية، وفي رحابة الإطار فرصة للقدرة على الحركة والتشكل، واختيار الأوضاع التي توفق بين القيم القرآنية الأساسية للأخلاق، وبين التجارب والأحداث التي يقدمها تطور المجتمع بما يحقق التقدم والحركة في جو من الحرية الفكرية، مع التعبير عنها بما يلائم العصر، وما تلك الضوابط إلا قواعد أقرها الإسلام لإقامة حواجز متينة تمنع الشر والظلم والفوضى، لأن النفس الإنسانية ميالة للتطرف

[1113]–سورة الشمس الآية :8/7

[1114]– سورة البلد الآية:10

بطبعها .لأجل ذلك وضعت الحدود:" وفي حدود هذه المرونة جعل الإسلام من القيم الأخلاقية قيّما ثابتة في كل عصر وبيئة، وربطها بالإنسان نفسه .أما محاولة القول بنسبية الأخلاق في مفهوم العلمانية والفلسفة المادية، فإنه مرتبط بإنكار البعث الذي يستهدف القضاء على فكرة "الإلزام" التي هي أساس تطبيق الأخلاق، ذلك أنه إذا انعدم الإلزام، انعدمت المسؤولية، وفقدان المسؤولية يؤدي إلى ضياع الحق نفسه، واستحالة إقامة أسس العدالة"[1115].

ويؤكد غير واحد من الباحثين أن ما يشهده الغرب من اضطراب أخلاقي واجتماعي وسياسي قد انعكست آثاره على العالم كله، وذلك يرجع أساسا إلى عدم الخضوع لمعايير "القانون الأخلاقي" النابع من الدين، والذي يعد الغاية القصوى له، وأصبحت" المصلحة" هي القانون الوحيد المهيمن الذي تعالج في ضوئه كافة الشؤون العامة . وعليه فالدولة العلمانية لا تملك مفهوما ثابتا يمكن أن تميّز به بين ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، حيث اضطربت لديها موازين الخير والشر والعدل والظلم، لأنها لا تملك الميزان الثابت من القيم الخلقية الذي يمكن الرجوع إليه لتقييم مدى صحة السلوك والمواقف، ومن ثم الاحتكام إلى قاعدة خلقية دائمة، ونتيجة لتعدد القوانين الأخلاقية ودوافعها، ولم تعد هناك حقيقة ملزمة في ذاتها، ولا توجد أي التزامات أخلاقية تضبط العلاقات الإنسانية.

وبهذا نلحظ أن "النسبية القيمية" التي تقول بها العلمانية تمثل خطرا يفتك بالإنسانية، لأنها ستتحول تصرفاتها إلى سلوكات وحشية تحكمها شريعة الغاب الذي يهيمن فيها "منطق القوة" لا "منطق الحق"، و"منطق الغريزة" لا "منطق الفضيلة" وينبه أنور الجندي إلى أن إلغاء القيمة الأخلاقية يعد أخطر معول لتدمير الإنسانية فيقول: "وليس أخطر من هذه الدعوة إلى نسبية الأخلاق، وتذبذب ميزان القيم بين عصر وعصر .ذلك لأن ثبات القيم الأخلاقية أساس أكيد للبشرية، وأن أي محاولة لتحطيمه .يستهدف تحطيم قاعدة البناء الإنساني كله"[1116].

[1115]– أنور الجندي : سقوط العلمانية ص91

[1116]–أنور الجندي : سقوط العلمانية ص 147

وفي ختام هذه المناقشة يحسن بنا التنويه بأن القول بالنسبية في الرؤية العلمانية ليس شراكله، بل إنه من الإنصاف الإشارة إلى أن هذه النظرة النسبية لها ثمرتها على مستوى آخر، وبالضبط في "ميدان العلوم "، وهذه ميزة لا يجوز إغفالها، أو التنكر لها، إذ أننا نجد أن القول بالنسبية في هذا المجال هو الذي يجعل الباحث عن الحقيقة غير مقيّد بحدود للمعرفة . ومن ثم يظل مصّرا على الوصول إلى أقصى ما يمكن، وبهذا السلوك انتقلت العلوم أشواطا، وبلغت مراحل متقدمة .لكن الإشادة بأهمية النسبية في هذا المجال لا ينبغي أن ينسينا تخطئة القول "بالنسبية المطلقة" الذي تبنته العلمانية .ذلك أن كل حركة منتظمة في عالم المادة، أو عالم الروح لابد له من ثابت يتحرك من حوله، حتى لا ينفرط عقده، ولا تؤول حركته إلى فوضى واضطراب.

ومن هنا نؤكد أن نقطة الخلاف الكبرى بين المنظومة الإسلامية والعلمانية في هذه المسألة هي محاولة العلمانية تطبيق قوانين العلم التجريبي على الإنسان، ولم تدرك العلمانية أن الطبيعة "مادة" وأن الإنسان "كائن"، والعلم المادي ذاته يعترف أن هناك قيّما ثابتة لا يطرأ عليها تغيير، ولا تتأثر بظروف الزمان والمكان، ولولا وجود ذلك لما استطاع الإنسان أن يضع قواعد ثابتة للعلوم،وأن هناك متحولات تتغير وتتبدل. فكيف تقر العلمانية بهذا في عالم المادة ولا تقر به في عالم الإنسان ومختلف العوالم ؟.

لأجل كل هذا تؤكد الرؤية الإسلامية أن الثبات ضرورة في كل العوالم المادية والمعنوية حتى تحفظ من التلاشي والاندثار. وقد أشار سيد قطب إلى أهمية فكرة الثبات في المنظومة الإسلامية والإنسانية فقال : "إن الثبات في مقومات التصور الإسلامي وقيمه –فضلا على أنه امتداد للنظام الكوني –هو الذي يضمن للحياة الإسلامية خاصية " الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت " فيضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكوني العام، ويقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء "[1117].

[1117]– سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص 87

وبتوفر عنصر الثبات في المجتمع يكون أفراده حكاما ومحكومين قد ضمنوا المبادئ الثابتة التي يحتكمون إليها على السواء .ومن ثم لا يمكن أن يتظالم الناس لأن الحدود بين جميع المكوّن البشري مضبوطة بالقواعد الثابتة، فيحيا المجتمع وكل أفراده مطمئنين على حقوقهم وقائمين بواجباتهم، فالثبات في القيم لا علاقة له إذن بالزمان والمكان.

ولتوضيح الصورة نضرب أمثلة من جوانب جوهرية في الحياة الإنسانية، نقارن من خلالها بين طبيعة القيم في المنظومة الغربية، وما يقابلها في المنظومة الإسلامية من حيث النسبية والمطلقية في أخلاقيتها، وأثر هذه المفاهيم وانعكاساتها على الحياة الإنسانية في مختلف المجالات الحيوية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والجمالية:

***في المجال الاجتماعي** : عرفت القيم الاجتماعية في التصور العلماني تحولات كبيرة بتأثير من فكرة النسبية التي أصبحت ثابتا في التفكير العلماني، ومن ثم ظهرت صور من المفاهيم والعلاقات مجردة عن القيم الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، ويمكن أن نلمس هذا بوضوح سواء على مستوى الأسرة، أو على مستوى العلاقات العامة :

1- الأسرة : ظلت الأسرة المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي يستظل بها الإنسان ويمارس علاقاته في ظروف مفعمة بالحب والرحمة ويكتسب من خلالها إنسانيته المركبة وهويته الاجتماعية بل ويمارس علاقاته ذات الطابع الاقتصادي والجنسي والمادي، ويعبر عنها ضمن قنوات اجتماعية وأشكال حضارية، فمن ثم تداخلت العناصر المادية البسيطة والعناصر العاطفية والإنسانية . غير أن هذه الصورة اهتزت بسبب عملية العلمنة الشاملة حيث تجاوزت كل هذه العناصر وأخذت تؤكد على المرجعية النهائية المادية، وتقبُّل القيم النابعة منها كقيّم وحيدة، وتحولت شكل الأسرة من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية، وبهذا بدأت الأسرة المتكاملة المبنية على التراحم تختفي، ومن ثم بدأت الروابط الأسرية تتفكك وتظهر النزعات الفردية، ويتحول أفراد الأسرة بالتدريج إلى أفراد مستقلين، ويغذي هذه النزعة فيهم التصور المادي، لأن كل شيء في الحياة أصبح يخضع للترشيد في إطار المرجعية النهائية المادية .

وبهذا اختفت كثيرا من القيم المرتبطة أساسا بالأسرة، بل إنه في كثير من البلدان الغربية اختفت مؤسسة الأسرة بالمفهوم التقليدي وأصبح كل ما كان يتعلق بهذه المفاهيم مرشَّدا بالمرجعية المادية ولنأخذ أمثلة [1118] على ذلك :

-اختفاء مؤسسة الزواج كشكل للتنظيم الاجتماعي يتم من خلاله ربط الجنس بالقيم الاجتماعية والإنسانية، فظهرت علاقات أكثر حيادا ومادية مثل علاقات الرفقة أو التعايش دون إبرام عقد زواج دائم .

-ظهور أشكال جديدة للأسرة لم تعرفها البشرية من قبل، حيث ظهرت الأسرة ذات الأب دون الأم أو العكس، ويمكن لأنثيين أو رجلين أن يتبنيا طفلا وُلد خارج إطار الزواج ويكوّنا أسرة كاملة، فالأمر لم يعد مستهجنا وتعطى له صفة لطيفة فهو "طفل الحب " .

-أن حفلات الزفاف أصبحت مرشدة في إطار المرجعية النهائية المادية، حيث وُضعت صيغ دقيقة على الإنسان إتباعها لتحقيق ذاته، وسعادته كآلات التصوير، وأنواع الموسيقى، وأنواع الأكل ...وتزداد التكاليف كلما زادت الصيغ تركيبا ونمطية، لأن كل مهمة من مهام العرس لها مصممون ومخرجون .كل هذا يتم بعيدا عن أي حسابات اجتماعية أو أخلاقية أو إنسانية (كالتراحم مع الفقراء في لحظة كونية) .

ولعل أهم وآخر محطة لخصت الرؤية الغربية للقيم الاجتماعية هي الورقة التي قدمت في المؤتمر الدولي للتنمية والسكان حيث قدم شواهد عن الاختلاف الكبير في القيم والثقافات والرؤى بين المنظومتين.– العلاقة مع ذوي القربى: تقوم العلاقة بين المسلم وذوي قرباه على علاقة العدل والإحسان قال تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً }[1119] بينما تقوم في الفكر

[1118]- ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ص 161/160/159

[1119]- سورة الإسراء الآية :23

العلماني على التصور المادي، حيث يرى كل من الوالد والولد أن الطرف الآخر أصبح عبئا عليه، ومن ثم تكون الاستقلالية في سن مبكرة تضيع فيها الحقوق لكلا الطرفين، و تنتهي العلاقة التراحمية إن كان لها وجود أصلا في سن محددة .

2–العلاقة مع المجتمع : تقوم العلاقة بين المسلم والمجتمع على قيم التعاون والتضامن والتراحم الشامل، ولعل هذه المصطلحات المنصوص عليها في الكتاب والسنة تهدينا إلى فهم حالة التفاعل التي تكون بين أعضاء المجتمع المسلم، حيث تؤدى كثيرمن الواجبات من طرف الأفراد مساندة لبعضهم البعض . بينما في التصور العلماني– ولكون الدولة هيمنت على كل النشاط الإنساني– فإنها بذلك جففت العلاقات الإنسانية إلى حد أن كل شيء في العلاقة مع الأخر يحسب بالمادة، فنتج عن ذلك معادلات تتلخص في أنه لا علاقة حيث لا منفعة مادية، فهذا التصور المادي يمنع كثيرا من الأفراد من إنشاء علاقات التراحم، وعليه تعلمنت العلاقات الاجتماعية، وأصبح كل شيء يقاس في إطار المرجعية النهائية المادية ولنضرب لذلك أمثلة :

–يمكننا الحديث هنا عن العلمنة الشاملة للهدايا فقد كانت الهدايا (شأنها شأن حفلات الزفاف) تمثل لحظة من لحظات التضامن الإنساني، أو تهدف لتغطية عمليات اجتماعية، حيث يتبادل الناس الهدايا لتأكيد التراحم، وإبراز العواطف الإنسانية النبيلة، فهي إحدى الطرق لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية، فكانت الهدية قيمة جوهرية وعنوان للمحبة، بينما حولتها العلمانية مجرد سلعة، فبعدما كانت قيمة مطلقة تعبّر عن شيء جواني، أصبحت شيئا برانيا تفتح أمام المدعووين ليشاهد الجميع الثمن، وهي دين في عنق المهدى إليه إلى حين تظهر مصلحة ليكون استردادها بطريقة أخرى[1120].

[1120]– ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص 162/161

-يمكن القول الشيء نفسه عن الدعوات للعشاء، فبعد أن كانت مناسبة للتراحم، أصبحت مسألة محكومة بمنافع محسوبة بدقة مرشدة في الإطار المادي، فأصبحت عشاء في إطار صفقات تجارية تهيأ له الظروف بدقة متناهية وبروتوكولات مدروسة، وتنظم على شكل تمثيلية على خشبة المسرح.

وحتى بعض أنواع الزواج لا يتم إلا وفق حسابات مادية خالصة بعيدا عن المشاعر الإنسانية .

وعلى العموم فإن الرؤية العلمانية للحياة الاجتماعية حولت كل المعاني الإنسانية، والاجتماعية إلى قضايا حيادية مرشَّدة في إطار المرجعية النهائية المادية، حيث تختفي المعاني الأخلاقية، وتسيطر القيم النسبية .

في المجال الاقتصادي :

تنوعت النظم التي تحكم معظم الاقتصاد العالمي بين الرؤية الرأسمالية والرؤية الاشتراكية، ومهما يكن من تفاصيل فيما يخص الرؤيتين، فما يهمنا هو الوقوف على الرؤية المادية التي يقوم عليها الاقتصاد في منظومة العلمانية الشاملة ومقارنتها بالرؤية الإسلامية، فلكل منظومة رؤيتها ومنطلقاتها وأهدافها.

ولعل أقرب مثال جسد الرؤية العلمانية هي وثيقة المؤتمر العالمي للتنمية التي تكشف لنا عن غياب القيم في الجانب الاقتصادي، حيث أن هذه الوثيقة تعيد بعث النظرية "المالتوسية "[1121]في ما يتعلق بعلاقة الموارد بالسكان والتي أثبت الفكر الاقتصادي والاجتماعي سقوطها .وخاصة إذا علمنا أن الإنتاج العالمي زاد بسبع مرات، "فمن 3ثريليون دولار وصل الإنتاج إلى 22 تريليون دولار بينما لم يتضاعف عدد سكان العالم إلا مرة واحدة فمن 2.5 بليون نسمة بلغ الآن 5 بلايين ".

[1121]- تقوم نظرية مالتوس على أن نجاح التنمية وتحقيق الرخاء مرتبط بوقف النمو السكاني للبشرية، فتخطط لتثبت سكان العالم عند 7.25 مليار نسمة في سنة 2015 .والحقيقة أن هذه النظرية ظل يرددها كل المدافعين عن النظم الوطنية التي أخفقت في تحقيق تنمية حقيقية في بلدانها، فبدلا من الاعتراف بالعجز عن النهوض بما فوضها به السكان نراها تعلق مشكلة هذا العجز على مشجب السكان . ينظر محمد عمارة صراع القيم بين الغرب والإسلام نهظة مصر للطباعة والنشر والتوزيع سنة 2003ص 9

إذن الخلل ليس في ازدياد عدد السكان بقدر ما هو في غياب القيم، ذلك أن الفرد في الدول المتقدمة يستهلك أضعاف أضعاف ما يحتاج، وهذا المنطق الاستهلاكي الجشع عبر عنه عبد الوهاب المسيري وهو يصف المتتالية العلمانية وهي تتدرج في مجالات النشاط الإنساني فيقول :" ولنبدأ بالمجال الاقتصادي. سنلاحظ أن الهدف النهائي من الوجود في الكون في مرحلة التحديث (الصلبة) هو الإنتاج والزيادة المطردة للإنتاج.والإنسان في هذه المرحلة منتج أكثر من كونه مستهلك،واجبه الإنتاج ومكافأته الاستهلاك في حدود المعقول، وما يحرك الجميع هو مبدأ المنفعة المادية، فالمستهلك يبحث عن السلعة الضرورية التي تنفعه،والمنتج أيضا يبحث عما ينفع المستهلك لينتجه فيحقق أرباحا متزايدة...أما في مرحلة ما بعد الحداثة أي بعد عام 1965م، فالهدف النهائي من الوجود في الكون هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وما يحرك المستهلك هو اللذة؛ إذ لو حركته المنفعة لكانت الكارثة، لأنه لن يستهلك إلا ما يحتاج إليه،ومن ثم لن تتحرك آلات المصانع التي تنتج آلاف السلع غير الضرورية، ولن تزيد أرباح المنتجين ولن يتراكم رأس المال .بل إن الاستهلاك بالنسبة إلى المستهلك واجب وحق . ولذا ...انتقل النظام من المنفعة إلى اللذة، وأصبح الاستهلاك لا الإنتاج هو هدف المجتمع، ...ولم يعد هدف المجتمع إشباع الحاجات وإنما تخليقها ..ولم يعد التنافس الأساسي بين المنتجين... وإنما بين المستهلكين"[1122].

وفي هذه الظروف اغترب الإنسان عن نفسه وفقد كل قيمه، ومن ثم لو بحثنا الخلل في عدالة التوزيع بين الشمال والجنوب وبين الأغنياء والفقراء وبين مظاهر الإسراف ومظاهر التقتير، لوجدنا مفارقات عجيبة. فمن الخلل بين ما تطعم الكلاب من اللحم المفروم، وما يأكل الفقراء من الخبز الملتقط من القمامة، وبين ما ينفق على التسلح وما ينفق على الزراعة والصناعات المدنية، إلى الخلل بين القبور التي يسكنها ملايين الأحياء إلى القصور التي يمتلكها قلة من الأفراد، وقس على ذلك في عالم المواصلات، حيث يفتقد كثير من سكان العالم إلى المواصلات العامة ويمتلك أفراد بسهولة سيارات فاخرة، ويفتقر الغالبية إلى المياه النقية، ويحصل الآخرون على أفخر المشروبات،

[1122]– عبد الوهاب المسيري : العلمانية والحداثة والعولمة ص 233/232

وتقل وسائل المعرفة إلى حد الجفاف في بلدان، في حين يتمتع آخرون بكل وسائل العلم والمعرفة والثقافة، ناهيك عن الأرقام الفلكية التي تخصص للتسلح، وما يقابلها من أرقام زهيدة تخصص للصحة والعلم في دول أخرى، ضف إلى ذلك التلاعب بالأسعار في الأسواق الدولية، وما يرمى في المحيطات من الأطنان، وما يسوق للفقراء من السلع الفاسدة وهكذا ...

ومن خلال هذه السلوكات التي تمارسها الدول العلمانية الكبرى يتبدى بوضوح نموذج العلمنة بشكل متبلور في المجال الاقتصادي، ولعله أول مجال تمت علمنته في الغرب إذ تم تحرير الاقتصاد من أعباء القيم الأخلاقية ومن أي مرجعية أو غائية إنسانية أو دينية، فالاقتصاد يحتوي بداخله على معياريته وغائيته وكل ما يكفي لتفسيره، وكلها تدور حول الإنتاج والاستهلاك والربح، ومدى تحقق الأهداف الاقتصادية، بناء على المرجعية المادية المنفصلة عن القيم الأخلاقية سواء كانت إنسانية أم دينية، فالحركة الاقتصادية تحركها اليد الخفية التي لا تؤمن إلا بقانون العرض والطلب،وآليات السوق غير الإنسانية ولعل أخطر ما يصحب هذه العلمنة أن يصعد السعار الاستهلاكي ويصبح غرضا تحت ضغط قطاع الإعلانات التجارية لضمان استمرارية آلية الإنتاج والاستهلاك[1123].

هذا من جهة،ومن جهة أخرى فإن علمنة الاقتصاد فصلت البعد الاقتصادي عن الأبعاد الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية،فالقانون الطبيعي المادي يعبّر عن نفسه من خلال حركة البيع والشراء وحرية الإنتاج والاستهلاك وعدم تدخل الدولة، فقوانين العرض والطلب قوانين حتمية طبيعية، وعلى الجميع الانصياع لها، هذا ما تدعو إليه الرأسمالية .أما الفكر الاشتراكي فينادي بتدخل الدولة في الاقتصاد في كل شيء يتعلق بالتخطيط والضبط، والقانون الطبيعي المادي في هذا الفكر هو الذي يحدد وجود الإنسان وعلاقات الإنتاج وأدوات الإنتاج المحيطة به .

وكلا النظامين يجعل من الملكية وسيلة للهيمنة على أفراد المجتمع وتوظيفهم وتحويلهم إلى مصدر للربح، ولتحقيق ذلك قد تختلف الأساليب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، ففي النظام الرأسمالي

[1123] ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص 140/139

تستخدم الإعلانات لإقناع الجماهير، وفي النظام الاشتراكي تستخدم الأجهزة الأمنية لتطويع الجماهير، ولكن الهدف واحد من هذه الآليات المختلفة وهو سيادة القانون الطبيعي المادي على الإنسان [1124].

إن هذا الخلل في توزيع الثروة وفي غياب أخلاق التراحم والنجدة والمشاعر الإنسانية النبيلة وما سبق ذكره من الفظائع يدفعنا للتذكير بالقيم الإسلامية في مجال الاقتصاد حتى يتبين الفرق الواضح بين المنظومتين منظومة تقوم على الشراهة المادية والأنانية المفرطة، وقمع حرية الإنسان، ومنظومة تقوم على تصور صحيح للحياة وتعامل تحكمه الضوابط الأخلاقية في المعاملة الاقتصادية إنتاجا وتسويقا واستهلاكا وملكية .

وبالرجوع إلى عقيدة التوحيد نجد أن الإسلام يتجه ابتداء إلى تصحيح التصور في قضية الموارد وأن الله سبحانه وتعالى تكفل بالرزق لكل المخلوقات .قال تعالى:{وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[1125] وأن الأرض بما فيها من موارد متنوعة كفيلة بتغطية حاجات الإنسان{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[1126] بشرط السعي لتحصيل الرزق واحترام السنن الإلهية المنظمة له قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }[1127].

ومن هنا فمشكلة الموارد من الناحية النظرية في التصور الإسلامي غير مطروحة، إذا كان هناك رشد إنساني، وقيم تحكم العلاقات الإنسانية في هذا المجال، فيقدم العون للمسلم وغير المسلم ويعتبره الإسلام من أنواع البر التي نتقرب بها إلى الله تعالى: { وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى

[1124]- ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص141 و العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص 310/309

[1125]- سورة العنكبوت الآية :60

[1126]-سورة الأعراف الآية :10

[1127]- سورة الملك الآية : 15

الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[1128]. وقال تعالى :{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[1129].

ومما لا يخفى أن الملكية في الرؤية الإسلاميةتقوم على أسس كثيرة، وتستهدف تأسيس نظام اقتصادي لا يقوم على الظلم والاستغلال، بل يقوم على البر والإحسان، والزهد الحقيقي[1130] في متاع الدنيا، والتخفيف قدر المستطاع من ملذاتها، وأن الإنسان يبتغي بتفاعله الإيجابي مع حاجات الإنسان رضا الله تعالى :{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً .إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً }[1131] فالدافع للقيم في الجانب الاقتصادي هو نفس الدافع عند المسلم في حركته في الحياة، هو تحقيق أقصى درجات العبودية التي يستجلب بها رضا الله تعالى .

ولذلك نجد أن الإسلام استخدم كل الأساليب للتنفير من الاقتصاد الربوي كعنصر محوري في العملية الاقتصادية القديمة والمعاصرة، فكان هذا التحريم من أشد أنواع التحريم .قال الله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }[1132] كما جاء قوله صلى الله عليه " لعن الله آكل الربا، ومؤكله، وشاهديه، وكاتبه "[1133] وقال هم سواء . ذلك أن الربا من القضايا التي حرمت في كل الأديان، واستمرار تحريمها دليل على خطورتها على النظام الاقتصادي،وإفساد الحياة الإنسانية، وإهدار لكرامة الأفراد والشعوب، فاليوم كل دولة تستقرض يدفع فاتورة هذا القرض كل فرد في المجتمع من حيث يدري أو لا يدري .

[1128]– سورة المائدة الآية :2

[1129]– سورة الممتحنة الآية : 8

[1130]– الزهد :الزهد الحقيقي أن تملك الدنيا ولا تملكك، وتحصّل متاعها لتخدمك لا لتخدمها أي : أنه لا يصبح اكتساب متاعها هدفا في حد ذاته، بل وسيلة لغاية أعظم، وهي تحقيق درجات عظيمة عند الله بسبب توظيف ما تملك في سبيل الله، و لإعلاء كلمة الله ومن ثم يكون للمال وظيفة اجتماعية، فلا يكنز ولا يخشى صاحبه من الفقر .

[1131]– سورة الإنسان الآية :10/9

[1132]–سورة البقرة الآية :278

[1133]– أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، المجلد الرابع حديث رقم 4109

وإذا كان المسلمون قد أسسوا نظاما اقتصاديا خاليا من الربا في واقعهم البشري، فهم مكلفون في كل وقت بممارسة نفس القواعد العامة ومع كل واقع جديد مع مراعاة تفصيلات الواقع الجديد، الذي يتحرك في إطار المنهج الأخلاقي والقيمي للأمة المسلمة، ذلك أن الربا صورة من صور أكل أموال الناس بالباطل، فالتحريم من حيث الأساس هو قضية أخلاقية قيمية وهو تحريم الاستغلال والعدوان في جميع صوره وأشكاله .

بينما نجد أن النظام الرأسمالي والشيوعي يمثلان صورتين مفزعتين لأكل أموال الناس بالباطل حيث تنعدم القيم والأخلاق فيهما، فلا يرون في سبيل الوصول إلى الفائدة أي اعتبار أخلاقي،أو إنساني خارج عن هذه الغاية، ويمكن أن نلمح هذا بوضوح لدى الدول الاستعمارية التي نهبت الثروات ثم كرست التخلف،ثم فرضت القروض وأنهكت هذه الدول بالديون، وأكلت أموال الدول المستعمرة بالباطل،وفرضت على تلك الشعوب أنظمتها الاقتصادية القائمة على نفس الأسس الظالمة، من نهب، وعدوان على الثروات، وأكل أموال الناس بالباطل المحرم في كل الشرائع الإلهية. حتى أصبح العالم الإسلامي كله، وقطاع واسع من الدول الغنية تسمى "بالعالم الثالث المتخلف" بل حتى الإنسان الغربي يعيش ضنكا وعنتا كبيرا، ويرجع كل ذلك بالأساس إلى فلسفة العلمانية الشاملة التي لا يحكم سلوكها أي قيمة من قيم الرحمة، والتعاون، والتيسير على المعسر .

وبعد أن يعمّ التخلف وتكثر البطالة يعود العالم العلماني –المستعمر في صورة مستثمر– في صراع محموم من أجل أكل أموال الشعوب بالباطل، بل إنه قد يشعل حروبا، ويدعّم معارضات لتحطيم البلدان، ولا يتدخل لإيقاف الحرب مع قدرته على ذلك حتى ينهك البلد، فيعود بعدها ليهيمن على إعادة البناء وتوفير فرص الاستثمار لمؤسساته المختلفة لما يسمى إعادة إعمار، عن طريق الشركات الكبرى، ولا سيما أنه في غالب الأحيان يساعد معارضة موالية له ضمن صفقات مدروسة بإحكام. وبهذا فالفكر العلماني لا يهمه كثيرا كم تدفع الأمم من فلذات أكبادها، ومن ثرواتها، وكم تلوث البيئة، وكم ينتج من حالات إنسانية، إنما الذي يهتم له كثيرا هو كيف يصل النظام الاقتصادي

العلماني إلى أهدافه وتحقيق أرباحه بعيدا عن كل قيمة، ففي هذه الفلسفة كل شيء مبرر، وأحيانا مبرر بسبب أخلاقي في الظاهر، لكن الحقيقة غير ذلك .

وإذا رجعنا إلى القيم الإسلامية نجد أن القرآن الكريم يحرّم كل صوّر أكل أموال الناس بالباطل،ويدخل في ذلك حبس المال عن توظيفه بما يعود على الإنسانية بالنفع، حتى لو كان الغطاء دينيا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }[1134] في حين أن النظام الاقتصادي العلماني لا يقع المال الحرام فيه من باب واحد فقط، ولكن من أبواب متعددة تجمعها جملة :" أكل أموال الناس بالباطل " وكنز الأموال، وعدم إنفاقها في سبيل الله ووجوه الخير الكثيرة،وخدمة الأمة، والتيسير على المعسرين، وإغاثة الطبقات الهشة في المجتمع، بل تنفق في الحرام، لأن المؤسسات المالية العلمانية لا تعرف قيمة الحلال والحرام .

إن النظام الاقتصادي من المنظور العلماني أصبحتتقوده علوم وتقنياتلا تعرف الرحمة ولا المشاعر، ونظم إدارية متطورة وترسانة إعلامية تحميه وتحمي رجاله المتحكمين، وتروّج له، ويبتكر أساليب النهب والخداع والاحتيال باستخدام وسائل الإعلام، والتقنية التي تبدو في الظاهر أنها نشاط اقتصادي عادي، غير أن النبيه لا يخفى عليه أساليب الخداع والاحتيال في الممارسة الاقتصادية والتي لا تختلف عن لعبة الميسر حيث يحقق الربح السريع بأيسر الطرق ودون بدل أي مجهود.

فنجد الشركات الكبرى التي يتحكم فيها الفكر العلماني تبيع للناس السلع وتشترط عليهم شروطا، وتربط صلاحية السلعة بتقنيات أخرى يصبح الجهاز لا معنى له إلا بالرضوخ لذلك الاحتيال، و الأمر نفسه يطرح في القروض المالية، فلا تكتفي بمجرد الفائدة، بل تفرض شروطا أخرى، تصل أحيانا إلى استعادة القرض وأضعافه عن طريق إعادة الجدولة، الذي لا تستطيع الدول المستقرضة الفكاك منه، ويتعدى الأمر إلى حد رهن سيادة الدول ورهن قرارها السياسي، كل ذلك يتم تحت

[1134]- سورة التوبة الآية :34

أعين خبراء في الاقتصاد وبحماية أنظمة سياسية وقوى عسكرية مدمرة. فمثلا الجهود العلمية الغربية تملك تقنية صناعة الأدوية الفعالة لكثير من الأمراض، ولخوائها من القيم ترفض تسويقها بالمعايير المطلوبة حتى يظل الإنسان تابعا لمخابرها، بل إن كثيرا من البحوث تؤكد أن كثيرا من الأدوية تسوق بإضافة مواد مدمنة حتى يظل المريض تابعا للشركات الصيدلانية، وبهذا تكون قد وضعت صحة المريض في كفة ومصلحتها في كفة، ثم رجحت مصلحتها الاقتصادية على القيم الأخلاقية والإنسانية، وعلى غرار هذا تتصرف العلمانية بأنانية وبعيدا عن كل قيمة أخلاقية لأن أساسها الفكري قائم على قاعدة "الغاية تبرر الوسيلة " فكثير من السلع المغشوشة وغير المقبولة تقنيا في بلدانها تصدر إلى غيرها، وهي على يقين من خطورة تلك السلع.

إن نسبية القيم في المفهوم العلماني مفهوم خطير يجعل كل فعل إنساني متدبدب في وضع الموازين إذ يتم الترجيح بين القضايا بناء على الأمزجة والأهواء، وهذا ما يجعل الإنسانية تتجرع المرارة إذا سلمت زمام أمرها للفكر العلماني الذي يلغي القيم ويتلاعب بمضامينها، ويجففها من كل غاية، وفضيلة .

بينما القيم الإسلامية دائما مشدودة إلى قواعد ثابتة ومشحونة بمضامين إنسانية وأخلاقية، وتستهدف غاية تجعلها لا تخرج عن نفع الإنسانية في ممارستها، سواء مع المسلم وغير المسلم، فالحرام حرام على الجميع قال تعالى :{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ .الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ}[1135] فالتطفيف حرام ممارسته مع كل الناس، فالقيمة الأخلاقية حاضرة باستمرار فقد جاء المعنى العظيم في التعليق على نصوص الربا ببيان الرحمة الشاملة، وحضور الاعتبار الإنساني في الممارسة . يقول الله تعالى :{وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }[1136] فقد تعدى الأمر مجرد الإنظار إلى الإعفاء والتصدق .

[1135]–سورة المطففين الآية : 2/1

[1136]– سورة البقرة الآية :280

***- وفي المجال السياسي :**

تقوم القيم السياسية في التفكير العلماني على مجموعة من القيم أهمها قاعدة ميكافيلي:"الغاية تبرر الوسيلة"في محاولة لفصل الدين والقيم والغايات والمطلقات عن عالم السياسة، وتظهر العلمنة الشاملة في عالم السياسة في المقاييس التي تستخدم في الحكم على الظواهر السياسية "ومن ثمّ لا تنفصل القيمة عن الدولة فحسب، وإنما عن المجتمع بأسره ويصبح أساس حركة المجتمع وإدارته ليس العقيدة الدينية أو أي تطلع إنساني (قد يشير إلى كل من الطبيعة وما وراءها) وإنما إلى الروابط المادية والتعاقد (المادي) الذي يجسد فكرة القانون الطبيعي وحقوق الإنسان الطبيعية (المرجعية النهائية المادية)[1137].

فأول ما يمكن ملاحظته أن الدولة العلمانية دولة مطلقة مكتفية بذاتها، تخضع كل شيء لغاياتها التي تحددها لنفسها،وعادة ما تبدأبتأكيد اللون المحلي و"الخصوصيات القومية"وتتجه نحو تسخير العلم والعولمة حتى يصل إلى القانون العام الذي يحكم كل البشر في كل زمان ومكان، ومن أبرز ما يتجلى في الرؤية السياسية تزايد الحديث عن الواقعية، والتكيف والحكم على الأمور بمقياس العائد الاقتصادي والسياسي، ومن ثم يتوارى الحديث عن الكرامة باعتبارها حديثا غير علمي، ومن الأفكار البائدة وبهذا تفقد السياسة أخلاقيتها باعتبار انحصار غايتها في العوائد المادية والمصالح المدروسة. وتتأكد فكرة الصراع كأساس للعلاقات بين الأفراد والدول،فأمريكا في سبيل الوصول إلى النفط العراقي لا يهم كم قتلت، كما لا يهم كم سممت من الجو والبيئة،وكم انتهكت من الأعراض، ذلك أن الكرامة الإنسانية لا تعني لها شيئا في سبيل غايتها، لأن فلسفتها قائمة على مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة".

لقد بلغ الفكر العلماني في تجريد السياسة من كل قيمة عندما استطاع "ميكافيلي" أن يعطي الشرعية للوسائل الخسيسة.وحقيقة أن كتاب الأمير الذي ألفه ميكافيلي وأعطى فيه الشرعية للوسائل

[1137]- عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد الثاني ص 141

الخسيسة التي يستخدمها الحاكم من كذب وغش وخديعة وقتل وسفك دماء هو الذي أسس لهذا النهج . ولأجل الغاية التي يرسمها الساسة حدث في العالم فظائع يشيب لها الولدان تحت عناوين مختلفة ذهب ضحيتها الملايين من البشر سواء تعلق ذلك بالسياسة الداخلية أو الخارجية للدولة العلمانية .

" ففي السياسة الداخلية –وتحت مبدإ الغاية تبرر الوسيلة – اضطهدت شعوب كثيرة وعرف القرن التاسع عشر والعشرون أبشع أنواع الديكتاتوريات في فاشية "موسيليني" ونازية "هتلر" وما وقع في الثورة الشيوعية كفيل بأن يرينا إلى أي مدى انحدرت السياسة العلمانية في تبرير الوسيلة بالغاية .وحتى في القرن العشرين وتحت أنظار العالم يباد شعب البوسنة ولا يتحرك الساسة العلمانيون لأن القضية تتعلق بالتطهير العرقي والديني، على الرغم من تبني هذه الدولة لحقوق الإنسان كقيمة عالمية مما يؤكد نسبية القيم لديهم، ولا يمكن بحال الاعتماد على الفكر العلماني المنحاز في إرساء قيم عالمية تنفع الإنسانية، لأن قضية الربح والخسارة هي التي تحكم مواقفهم وليس الانتصار للقيم والحق.

أما في السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر، فقد شهد القرن العشرون أبشع حالات قانون الغاب في حربين عالميتين، استخدمت فيهما كل الوسائل الدنيئة، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير هائل، وقتل للمدنيين غير المحاربين إلى أن بلغت القمة إلى إفناء الحياة بقنبلتي "هيروشيما" و"نكازاكي" وما زالت آثارهما إلى اليوم . ولا يخفى على دارسي التاريخ، ما فعلته فرنسا بتجاربها النووية في الصحراء الجزائرية، إضافة إلى ذلك سياسة الكيل بمكيالين في العلاقات الدولية، وقد جعلت هيئة الأمم غطاء لكل سياسة عدوانية تتخذها الدول الكبرى لبلوغ الغايات، بغض النظر عن الوسائل المستعملة. وفي ذلك يقول محمد قطب :"أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب ..نريد انقلابا هنا ..ونريد تغييرا هناك !

وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال !

وكل الوسائل حلال !

الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال !

المهم أن تنفذ الغاية ..والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة في الأوحال !"[1138]

ومما تنادي به العلمانية في عالم السياسة أيضا هو فصل الدين عن السياسة، ومبررهم في ذلك هو: كي يتحرر الدين من السياسة وملابساتها ولكي يسمح له بالانطلاق في مجاله الحيوي، ولا شك أن هذا القول يوقعها في تناقض سافر صريح إذ هي تعترف بوضوح أن السياسة أداة قذرة ولا أخلاقية ولا يمكنها أن تمارس إلا منحرفة عن القيم الخلقية تقتضيها ظروفها وملابساتها، وبمنطقها ومادامت هذه طبيعتها فمن الخطإ إنزال الدين إلى درك السياسة التي لا تتورع عن استخدام الأساليب الدنيئة للوصول إلى أهدافها من منطلق مبدإ ميكافيلي " الغاية تبرر الوسيلة".

وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد فإن هذا الزيف في عالم السياسة يلاحظ من خلال كل الشعارات التي تسوّق لها العلمانية :كالديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية وغيرها من الشعارات التي كثيرا ما نصطدم في الواقع بعكسها تماما، ونكتشف أن هذه الشعارات لا ترتبط بالإنسان كإنسان، ولكن بالإنسان الأوروبي فقط، وبمنطق عنصري موغل في العنصرية .

ولا شك أن العلمانية في ممارستها للسياسة تفضح نفسها بنفسها عندما تعتبر الدين طهارة والسياسة نجاسة، وهل في الدنيا عاقل يقبل بالخوض في النجاسة إلا إذا كان ملوثا ممسوخا فاسد الفكر والاعتقاد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالاعتقاد أن الدين أبعد ما يكون عن السياسة وأنهما ضدان لا يجتمعان مغالطة كبيرة تقوم على جهل حقيقي بطبيعة الدين والسياسة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أهمية الدين ودوره العظيم في الحياة بما في ذلك العلمانية التي تزعم أنها ترفض الدين .

صحيح أنه قد يكون الدين المقصود هو الذي كانت للعلمانية تجربة قاسية معه، وهو دين الكنيسة. ولكن ليس من العلمية في شيء التعميم في الحكم، فالدين الصحيح يستحيل أن ينفصل

[1138]– محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 470

عن السياسة، لأن من أهم وظائفه هو ترشيد الإنسان في ممارساته عموما، ومنها السلوك السياسي ذو الأثر الأكبر في حياة الإنسان. ومحاولة تطبيق بعض العقائد ذات الطابع الخاص على الإسلام منطق مفضوح، وبهذا التعميم جانبت العلمانية الصواب ودلست على البشرية، ذلك أن الدين – في حقيقته –منهاج شامل للحياة في شتى مجالاتها، وأن السياسة ليست سوى وسيلة واحدة من مجموع طرائق يعتمدها هذا المنهج لتحقيق أهدافه الحيوية الشاملة، وبهذه السياسة تتحدد علاقة الحاكم بالمحكوم في الداخل، وبالشعوب الأخرى في الخارج .

ونقيصة أخرى في العلمانية في هذا الجانب السياسي أن الشعارات التي ترفعها لا تعدو أن تكون منافية للقيم الإنسانية، إذ ترفض الجوهر المشترك في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، والقائم على المساواة، ومن هذه الزاوية يتضح الخطأ الفاحش الذي وقعت فيه العلمانية إذ حاولت إقامة صروحها على أشلاء الإنسان، ومطامحه، وقيمه، ومصالحه العامة والخاصة، حيث تدوس على القيم الأخلاقية في سبيل ما تعتقد أنه غاية إنسانية نبيلة .ولكونها تخشى من الفضيحة تلجأ إلى التستر وراء ستائر الزيف والمكر والخداع، فتدمر بلدانا تحت مسمى نشر الديمقراطية، وأحيانا كثيرة من وراء لافتات براقة عليها كلمات التحرر، والتقدمية، والإنسانية، والرغبة في القضاء على القيم والتقاليد ذات الطابع الرجعي، أو مكافحة الإرهاب [1139].وهذا ينقلنا بالضرورة إلى النقيصة التالية التي لا تسلم منها الممارسة السياسية القائمة على نسبية القيم .

وهي أن العلمانية تحدث ازدواجا خطيرا في نخبها السياسية، حيث نجد أولئك الذين يبلغون المناصب العالية يغرقون في أدنى وأحط المستويات اللاأخلاقية، لأنهم لا يملكون الدوافع الذاتية لتمثيل تلك المناصب العالية. لأنهم لا يؤمنون بالقيم، بل يزداد لديهم الشره والتهافت على الملذات وتحقيق أكبر قدر من النفعية والحسية، ولا يخفى ما في ازدواجية كهذه من مخاطر على مصير الأمم وتصرفات الأفراد. ومن ثم شيوع المنكرات،لأن النخب السياسية قدمت نماذج أخلاقية سيئة لهذه الشعوب.

[1139]–ينظر عماد الدين خليل : تهافت العلمانيةص 59/58

ثم لا يفوتنا أن نؤكد على أن من مساوئ تجريد السياسة من القيم الغفلة عن طبيعة الإنسان الذي ترسم لأجله السياسات عندما تعتقد العلمانية بالتطور المطلق، ومعناه أن العلمانية تعتقد أن الإنسان كائن متطور لا حدود لتطوره، ومن ثم ترسم مناهجها على هذا الأساس الخاطئ، لأنها لا ترتكز على الخطوط الثابتة في كيان الإنسان، فكلما انهارت القيم تصاغ القوانين، وتبرز المناهج التي ترسخ هذا الانهيار وتؤكده، ومن ثم تجرد الحياة من كل القيم حتى يصبح الإنسان يعيش غربة عن ذاته وفي ذلك دمار ذاتي للإنسان .

وخلاصة ما يمكن تأكيده أن السياسة ليست في حد ذاتها وسيلة لا أخلاقية، وإنما المذاهب الوضعية هي التي تحمل في تركيبتها جرثومة التعفن والفساد .وتزداد المشكلة تفاقما عندما يتسلّم المذاهب طواغيت لا اعتبار لديهم لأية قيمة خلقية متعارف عليها .وكلما ألغيت قيمة حقيقية استعيض عنها بقيمة من تصور فرد من الأفراد، وما هي في الحقيقة إلا رد فعل نفسي أو فكري في واقع معيّن محدود الزمان والمكان، ومن ثم تحاول العلمانية أن تؤلف بين القيم التي أفرزها الواقع وتركب منهجا لا انسجام بين عناصره، فتكون النتيجة واقعا قيميا متناقضا ومحزنا.

في مقابل هذا نجد أن النظام السياسي في الإسلام يقوم على القيم الخلقية السامية التي يلتزم بها الحاكم والمحكوم، بل إن الحاكم يشترط فيه لينال المنصب السياسي أن يكون ملتزما أخلاقيا، حتى لا ينحرف بالسياسة عن التزامها الخلقي .ذلك أن الذين يدركون حقيقة الإسلام يلمحون ذلك التكامل والتداخل والتوازن بين القيم الخلقية والممارسة السياسية . وعلى الرغم من تقسيم الفقهاء مجالات الإسلام إلى قطاعات أربع تشمل العقائد والعبادات وآداب السلوك والتشريعات لغرض التوضيح والتنسيق، إلا أن هذه القطاعات جميعا متداخلة فيما بينها تداخلا عضويا كل منها مؤثر في الآخر متأثر به، لا تنفصل إحداها عن الأخريات .

فلو أخذنا مثلا العبادات كعلائق مجردة بين الفرد وخالقه، فإنها في الإسلام تعتبر ذلك المولّد الحيوي الدائم الذي يغذي كيان المسلم بالطاقة المتجددة والتي تدفعه إلى مزيد من النشاط الحضاري، وتلزمه بالعمل بكل القيم الأخلاقية من تجرد، وأمانة، ويقظة ضمير، وشعور بالمسؤولية،وإحساس حاد

بالزمن، وهو ما يجعلها تضفي على الحضارية طابعا خاصا، تمارس فيه أنشطة الحضارة بتوجيه من القيم الأخلاقية المستمدة من العقيدة والعبادة،حيث تتداخل التصورات والممارسات، فيصبغ كل حركات الأفراد بالطابع الإلهي الرباني، الذي يرتقي بالعمل الدنيوي أيا كان، سياسة أو اقتصادا أو اجتماعا جمالا إلى مرتبة القربى والعمل الأخلاقي المرضي عنه .

وبهذا يمكن أن نؤكد أن القيم المطلقة التي تحكم الحياة الإنسانية من وجهة نظر الرؤية الإسلامية، هي الرؤية التي تجعل ممارسة الإنسان أخلاقية، لأنها تقوم على القيم المطلقة المستمدة من الوحي الإلهي، وبذلك يتوفر لديها مجموعة من المبادئ الأخلاقية بمواصفات غاية في التناسق هي :

-التكامل : حيث تضم جميع جوانب الوجود الإنساني .

-التداخل : فهي لا تسمح بالفصل بين هذه الجوانب .

-التوازن : إذ ترفض إعلاء قيم ونشاطات على قيم ونشاطات أخرى.

و هذا التصور للقيم يجعلها تقف سدا منيعا أمام الانحراف عن الطريق المستقيم، وفي الوقت ذاته توفر للإنسان المسلم طاقاته وتحفظ عليه أعوامه المعدودة من الضياع، فتجعل منه عنصرا إيجابيا يمارس نشاطاته لخير الحياة كافة فقد وصف الله المؤمنين بأنهم{ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }[1140] ووصف الأمة الإسلامية بأنها { خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }[1141] لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، والإيمان بالله هو القيمة الأخلاقية العظمى ومرجع كل قيمة في نظر الإسلام.

وبهذا يتبيّن لنا أن العلمانية فاقدة للضمانات القيمية الأساسية التي تشيَّد على أساسها الحضارات وتقوم على أركانها الدول، لأنها تقول بنسبية القيم وبعدم تكامل قيم الوجود الإنساني، وعدم تداخل جوانبها، وعدم التوازن في نشاطات الإنسان .وهذا يقودنا إلى توقّع عن انهيار وشيك لحضارة

[1140]- سورة المؤمنون الآية :61

[1141]-سورة آل عمران الآية :110

العلمانية، فلقد رأينا –في مدى هذا التاريخ – مبدأ من أهم مبادئ التاريخ يخبرنا أن دولا عظيمة تنهار، وحضارات عريقة تسقط، وكيانات قومية تتفتت، وإمبراطوريات دينية تتمزق، لأن القيم التي حكمت هذه الدول وتلك الحضارات تنقصها صفة من تلك الصفات الأنفة الذكر(التكامل، التداخل، التوازن) وهي في العلمانية مفقودة جميعها . وستظل البشرية تتطلع إلى منهج الإسلام الذي يؤكد على القيم، كملاذ آمن إذا ما أرادت –يوما –أن تستعيد توازنها الأصيل الذي هو حجر الزاوية لسعادة الإنسان[1142] .

– القيم الجمالية:

يختلف التصور الإسلامي مع التصور العلماني في رؤية الجمال اختلافا كبيرا يشمل المنطلقات والغايات، مع الاشتراك في تقدير قيمة الجمال في كليهما. ففي التصور الإسلامي يرجع الجمال كله إلى الله سبحانه وتعالى،ومن ذلك ما نصّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال:"...إن الله جميل يحب الجمال"[1143] فكل تصوّر للجمال لا ينفك عن القاعدة الإيمانية، فمنها يستمد تصوّر الجمال وعن طريق توجيهاتها يوظف الجمال ويتحدد التعامل مع مظاهره الشاملة المختلفة في الكون والحياة، بينما تنطلق الرؤية العلمانية في تصوّر الجمال فيما يحققه من متعة ولذة، ومن ثم توظف كل مظاهر الجمال في هذا الاتجاه .

ولتقريب هذه الفكرة نسوق هذا المثل لنوضح الاختلاف الكبير بين الرؤيتين، فعاطفة "الحب " كقيمة جمالية تمثل أسمى العواطف الإنسانية، تنطلق في الرؤية الإسلامية من مبدإ التوحيد، حيث يقف المؤمن في تصوّر هذه العاطفة موقفا تمليه العقيدة. فهو أول ما يحب أن يحب الله تعالى، ثم يوجه هذه العاطفة لحب كل ما يحبه الله تعالى، وإن خالف هواه، فإن كان له ميل لحب جمال المرأة –باعتباره فطرة إنسانية – فهذه الغريزة تنظمها عقيدة التوحيد، وتوجه مسارها ضمن قنوات نظيفة، فلا يجوز النظر إلى هذا الجمال إلا في إطار القنوات المرسومة.قال تعالى:

[1142]–ينظر عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 66/65

[1143]- أخرجه مسلم : كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه حديث رقم 265

{قُللِّلْمُؤْمِنِينَيَغُضُّوامِنْأَبْصَارِهِمْوَيَحْفَظُوافُرُوجَهُمْذَلِكَأَزْكَىلَهُمْإِنَّاللَّهَخَبِيرٌبِمَايَصْنَعُونَ }[1144]كما لا يجوز التطلع للاستمتاع بالمرأة إلا ضمن علاقة منظمة قائمة على عقد شرعي، ولتحقيق أهداف واضحة من وراء هذه العلاقة، وبهذه الضوابط يتحمل الإنسان ما يترتب عنها من تبعات متنوعة. قال تعالى :{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[1145].

بينما نجد العلمانية تنطلق في التعامل مع هذه العاطفة الإنسانية النبيلة تعاملا يستمد رؤيته من المنطق المادي النفعي الذي يقوم على تحقيق أقصى ما يمكن من اللذة ودون تحمّل أي تبعات، أو تحقيق أي أهداف غير مادية.ومن ثم حوّلت العلمانية أسمى معاني الجمال، وهو الحب إلى أرخص المعاني وأرذلها وأحطها، ولخصت علاقة الرجل بالمرأة في تلك الشهوة العابرة [1146]، وفي جسد المرأة العاري،ومات في التفكير العلماني حب الأسرة،وحب الطهارة، ومات جوهر الجمال مع موجة البحث عن إرواء الغرائز بلا حدود ولا قيود. فقامت العلمانية تتاجر بجسد المرأة التي تدّعي أنها تحترمها وتصون حقوقها، وهي تعاملها أسوأ من الجاهليات السابقة،والفوضى الأخلاقية في الغرب شاهدة على هذا المنحى. ويشير عبد الوهاب المسيري إلى مسألة في غاية الأهمية يعبر عنها ب:

[1144]- سورة النور الآية :30

[1145]- سورة الروم الآية: 21

[1146]-تتجلى العلمنة الشاملة للجنس في كونه ينفصل عن كل قيمة، وعن أية تركيبة إنسانية أو عناصر اجتماعية، فيتحرر من الحب والألفة ويتحرر من الاحساس بالذنب، بل يتحرر من فكرة الزواج والانجاب، ويصبح هدفا في ذاته، فهو باختصار نشاط مادي جسدي مستقل عن أي مرجعية، المهم أنه يعبّر عن رغبة الإنسان في إشباع رغباته الجنسية في أي وقت ومع أي شخص . وبسبب هذا الحياد عن المرجعية القيمية تصبح مرجعيته مادية، ومن ثم يعتبر البغاء والشذوذ مجرد نشاط اقتصادي، فإذا كان الجنس هو مرجعية ذاته،منعزلا عن النشط الإنساني والاجتماعي، فكل ما يحقق اللذة فهو أمر منطقي طبيعي، ومن هنا ظهر قطاع اللذة وتضخم في المجتمع الغربي حتى أصبح صناعة، وعلى أساسه تصنف مواقع السياحة وترصع بالنجوم على قدر توفير اللذة .ينظر عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والشاملة ص 166إلى 170.

"العلمنة الشاملة للجسد "[1147] حيث يقول "تنزع عنه القداسة ويصبح مادة استعمالية نسبية محايدة منفصلة عن القيمة،مادة توظف إما لتحقيق الدخل، أو زيادة السلطان والقوة، أو المتعة خارج أي إطار اجتماعي أو إنساني كلي "[1148].

وهنا نلاحظ الفارق بين نظرة الإسلام للجمال ونظرة العلمانية، فالجمال في الإسلام ممتد في الكون كلهوفي الحياة كلها النفسيةوالخلقية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والحضارية. بل إنه يتجاوز ذلك ليعبّر عن جمال الآخرة، فيشيد بصاحب القلب السليم، والخلق القويم، والعلاقة الطيبة واللقمة الحلال، الممارسة السياسية الأمينة، و ويفرض كل سلوك إنساني ينبغي أن ينتقي أحسنه عند التصرف مع الخلق، بغض النظر عن آثاره المادية التي تأتي تبعا للقيمة الجمالية التي تنبع من التوحيد . بينما لا ترى العلمانية الجمال إلا فيما يحقق نفعها المادي الصرف، فتأخذ العلمنة الشاملة للجسد شكل محاولة ترشيده، بحيث تعاد صياغته بما يتماشى مع معايير رشيدة مادية تتناقض مع بعض الوظائف الإنسانية والكونية [1149] .

وفي مجال القيم الجمالية من زاوية الرؤية العلمانية يمكن تعميم النظرة المادية على عالم الأدب والفنون وغيرها من المجالات التي تعنى بالقيم الجمالية، حيث تفصل القيم الجمالية عن القيم الإنسانية

[1147]–عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد 2 ص 163

[1148]–عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد 2 ص 163

[1149]– تصر العلمانية على فرض رائحة نمطية للجسد باستخدام العطور ومزيلات العرق حتى يتحرك بكفاءة في رقعة الحياة العامة –طبعا لنشر هذه الثقافة بُعد اقتصادي كبير – لتحقيق الربح بمنتجات المصانع من العطور الفاخرة، كما تصرُّ على تحديد مقاييس جمالية، فيطلب من المرأة أن تبقى جميلة جدا رغم تقدمها في السن، ونحيفة رغم الحمل والولادة، وكل هذا بهدف أن تكون أكثر لياقة لممارسة بعض الوظائف العامة (سكرتيرة أو مضيفة طائرة أو نجمة سينمائية مثلا) وهذا أيضا لا يخلو من منفعة اقتصادية لصالونات الزينة والأزياء وعيادات التجميل الجراحية بوصفها تعبيرا عن الاتجاه نفسه نحو التنميط والترشيد. ينظر عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والشاملة ص 164/ 165

والأخلاقية، فيصبح الأدب يتناول الموضوعات التي تختفي فيها المرجعية النهائية، مثل انسحاب الإله من الكون، وضياع الإنسان،ويتجه الأدب إلى التجريد باعتبار أن حرية الأديب مطلقة مثلما ذاته مطلقة. فينتقل الأدب من كونه فنا يعبّر عن القيم الأخلاقية والإنسانية بلغة راقية إلى كونه نسقا إبداعيا مستقلا (مرجعية ذاته) له آلياته المستقلة وأهدافه الأدبية .ومن هنا يكثر الحديث عن الأدب للأدب والفن للفن، فكأن الأدب نشاط لا علاقة له بالقيم الأخلاقية والإنسانية[1150] .

إن هذه الرؤية العلمانية المتطرفة اختارت هذا الاتجاه لتدمير القيم. والحملة على تحطيمها والانفتاح على الحرية المطلقة وتغليب منطق اللذات والشهوات.كان رد فعل على الآثار التي أحدثها مفهوم القيم الروحية المسرفة في الزهادة والرهبنة والدعوة إلى تحريم اللذات الحسية، وقمع الغرائز والإشادة بالعزلة عن الحياة وتعذيب الأجساد وقمع الآراء العلمية والسياسية، فكان نتيجته ما نرى من فلسفة تحتقر كل القيم الأخلاقية والدينية، وتؤكد على نسبيتها وتطورها، وهو موقف غير متزن على الرغم من أخطاء الكنيسة في تقدير الجمال.

أما موقف الإسلام فمختلف تماما عما ذهبت إليه الكنيسة في إسرافها وتزمتها ورفضها لكل شيء جميل في الحياة . حيث أن الإسلام اعترف بالنوازع البشرية ودعا إلى تحقيق مختلف مطالب الجسد المادية، في حدود الضوابط التي أقامها، والنظم التي وضعها حفاظا على الكيان الإنساني، ونظام الحياة الأخلاقي .ومن هنا فإن المسلم غير مطالب باجترار مثل هذه المفاهيم والتعويل على هذه القيم في صياغة نظام حياته[1151].فالجمال المطلق هو جمال الله، وتبعا لهذا المسار في التفكير الإسلامي، فإن كل جمال يستمتع به الإنسان، أو فن يمارسه الفنان، لا بد أن يكون متوافقا مع ما يرضي الله، في أي قضية من قضايا الحياة. ولعل هذا ما كان يستمده الفنان المسلم وهو يريد التعبير

[1150]- ينظرعبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية العلمانية والشاملة المجلد2 ص 148

[1151]- ينظر المرجع نفسه

عن انفعالاته الجمالية خطا أو زخرفة أو شعرا فكان :" التوحيد هو العامل المشترك الأوحد بين جميع الفنانين المؤمنين بنظرة الإسلام للعالم والكون، مهما كانوا متباعدين جغرافيا أو عرقيا"[1152].

4 . الأساس الرابع :العبثية

جاء في التعريفات للجرجاني :" العبث : ارتكاب أمر غير معلوم الفائدة، وقيل ما ليس فيه غرض صحيح لفاعله" [1153].

ويعرّف عبد الوهاب المسيري الغائية بقوله :" الغائية كلمة منسوبة إلى كلمة "الغاية" (باليونانية :تايلوس).والغاية هي : الإيمان بأن للعالم معنى وهدف، وغاية تتجاوز الحركة المادية المباشرة ..على عكس "العدمية" التي ترى أن العالم إن هو إلا حركة لا معنى لها ولا غاية "[1154].

وكلا الموقفين من وجود غاية للوجود، أو عدمها يعبر عن منظومة فكرية تستند إحداهما إلى القيم الدينية، التي ترى أن العالم مخلوق لغاية، ومن ثم فإن لوجوده معنى، وبذلك تصبح لحياة كل إنسان معنى، وعلى أساس هذا التصور يكون الإنسان كيانا مسؤولا، يجب عليه أن يمارس حياته بناء على الغاية المرسومة من وجود الكون، ومن وجوده ضمن منظومة الكون .

بينما تستند الفكرة القائلة بعدم وجود غاية، ولا معنى، ولا هدف للعالم إلى تصور أن العالم وُجد صدفة، وتمت عملية وجوده وفق حركة مادية آلية . هذا المفهوم متداول لدى الوجوديين المعاصرين للإشارة إلى استحالة تقديم تبرير ذي معنى لوجود الإنسان، ولوجود الأشياء عموما .

وقد ظهرت هذه التجربة في شكل قلق وضيق angoisse عند "هايدجر"، و في الشعور المرير بانعدام وجود أية غاية للعيش والوجود عند "سارتر "، وفي غموض وضعنا الإنساني عند

[1152]– إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 151

[1153]– الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ط1 سنة 1306هـ ص63

[1154]– عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد 2 ص 457

كامو[1155].وفي الشعور والفشل والإحباط المحتوم عند "ياسبيرز"[1156]k.jaspers ""[1157] تجلى هذا الفكر العبثي عند كثير من الفلاسفة، وقد نقل جلال الدين سعيد في كتابه معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية بعضا من مقولاتهم منها:

– يقول :"بيرندلو": "الحياة حافلة بعدد لا محدود من الأمور العبثية التي يا للوقاحة لا تحتاج حتى أن تظهر بمظهر الحقيقة إذ هي الحقيقة عينها".

– ويضيف "طوماس هوبز": "العبث من مميزات المخلوقات البشرية دون غيرها ".

–أما "باسكال فيقول :"لا أعرف من وضعني في العالم، ولا ما هو العالم، ولا من أكون، إنني في جهل مدقع بجميع الأشياء، ولا أعرف ما هو جسمي، وما هي حواسي، وما هي نفسي، وذلك الجزء الذي يفكر فيما أقول، ويتأمل في كل شيء وفي ذاته أيضا، والذي يجهل ذاته جهله ببقية الأشياء "

–ويتجلى العبث أكثر عند "ألبير كامو" الذي يقول :"إني أريد الحصول على تفسير لكل شيء وإلا فلا ؛ ويبقى العقل عاجزا أمام صيحة القلب هذه (...)إن العبث ينشأ عن هذه المواجهة بين نداء الإنسان من جهة، والصمت اللامعقول للعالم من جهة ثانية "[1158].

[1155]–كامو: روائي وفيلسوف فرنسي (1913–1960)انتمى إلى الحزب الشيوعي عام 1935 لكنه تركه بعد سنة، نشر وراية " الغريب " وفي العالم التالي أسطورة" سوزيف "تعرف إلى سارتر وتعاون معه لكن لم تستمر علاقتهما، كانت علاقته بالوجودية متوترة على الرغم من اشتهاره بالانتماء إليها، كان غامضا في استخدام مفهوما " الوجود" و"الماهية" وأيهما أسبق، وقد عارض الإلحاد الفلسفي، لذلك كان من أشهر أقواله "إنني لا أومن باللة، لكنني لست ملحدا " .ينظر معجم الفلاسفة ص 512 .

[1156]–ياسبرز : هو ياسبرز كاري فيلسوف ألماني عاش بين عام (1883–1969) يرتبط اسمه بفلسفة الوجود من بواكير مؤلفاته علم النفس المرضي العام الذي كان يعد الخطوة الفاصلة بين علم النفس والفلسفة ثم جاء مؤلفه الثاني الذي يعتبره هو نفسه "شهادة مبكرة على ما يسمى فيما بعد إضاءة الوجود" ثم توالت كتاباته حول الوجود منها" العقل والوجود 1935" و"المنطق الفلسفي" 1948م وهي عبارة عن تقص يطرح فيها جملة من التساؤلات الوجودية .ينظر معجم الفلاسفة ص 739

[1157]–جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 280

[1158]– المرجع نفسه ص 281

كما ينقل ويل ديورانت عن الفيلسوف الأمريكي "سنتيانا"[1159] قوله "وليعيش الإنسان عليه أن يتذكر الحياة أكثر من الموت، وأن يقبل الأشياء الواقعية القريبة كما يقبل الآمال المثالية البعيدة .والفلسفة التي تبتعد بالإنسان لا تقل اعوجاجا عن أوهام الخرافات والأساطير السماوية التي تشرد فيها عين الإنسان بحثا عن العالم الآخر "[1160] .

وينقل يوسف كرم عن "دولباك" أنه لا غائية في الطبيعة :ليست العين مصنوعة للرؤية، ولا القدم للمشي ولكن القدم والرؤية نتيجتان لاجتماع المادة، ولا نفس في الإنسان، ولكن الفكر وظيفة الدماغ، والفرق بين العقول نتيجة الفرق بين الأدمغة "[1161].

بناء على هذه الأقوال لبعض فلاسفة العلمانية يظهر لنا جليا أن الجميع لا يرى أية غاية من الوجود، وكما هو معلوم فإن إنكار الغاية يؤدي إلى العبثية، وهي بهذا المعنى تعني أنه لا وظيفة للإنسان في الحياة، وبالتالي فالكون موجود عبثا، وأن لا مسؤولية للإنسان عما يفعل، ومن ثم لا وجود للآخرة.

ولا شك أن غياب هذين الركيزتين الأخلاقيتين من الحياة الإنسانية يمثل انحرافا كبيرا على الرغم من دلائله الكثيرة في الكون والحياة، بل إنه من البديهيات التي لا تستغني عنها حياة الإنسان في شتى حركاته وهو يصنع الحضارة، فإن لم تكن له غاية فلم هذا السعي والحركة بغض النظر عن ماهية هذه الغاية، فأي مجهود يقوم به له غاية بل إن رفض الغاية في حد ذاته له غاية وهي استبعاد وجود خالق ولا آخرة ليستطيع القائلون بها التحرر والتنصل من كل مسؤولية ليسهل عليهم تبرير كل انهزام أمام

[1159]–سنتيانا : فيلسوف اسباني ناطق بالإنجليزية عاش بين (1863–1952) ببطن بالولايات المتحدة الأمريكية اشتهر بأسلوبه الساخر من أخلاق العالم ويتجلى ذلك بوضوح في في مجلدات التحليل السيكولوجي "الطبائع والآراء في الولايات المتحدة الأمريكية "1920، و"تقاليد اللياقة في مأزق"1931 تنقل بين باريس وروما ولندن وبرلين، التقي وتأثر بالعديد من الفلاسفة، ولعل أهم المؤلفات التي تعبر عن تطورات فكره "ممالك الوجود"(1929–1930م) وأما أكثر مؤلفاته إثارة للدهشة فهو "آخر الطهرانيين " التي أصدرها في السادسة والسبعين وعرفت رواجا عند نشرها. ينظر معجم الفلاسفة ص 352

[1160]–ويل ديورانت : قصة الفلسفة منشورات دار المعارف بيروت ترجمة الدكتور محمد المشعشع ط6 سنة 1988 ص 614

[1161]– ينظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص 193

الشهوات والملذات، كما يشير إلى ذلك مصطفى السباعيحيث يقول :" جاءت فلسفة ماركس و إنجلز في القرن الثامن عشر وهما يهوديان ألمانيان، فزادت الأمور سوءا إذ باعدت بين الإنسان والاستقرار النفسي والروحي بعدا شاسعا فانتزعت منه عقيدة الإيمان بالله واليوم الأخر وأفقدته الثقة بالقيم الأخلاقية التي ظلت منذ عرف تاريخ الإنسان حتى الآن المعتصم الذي تلوذ به الجماعات لضمان أمنها الاجتماعي "[1162].

و يظهرمن خلالدراسةالفكر المادي العلماني أنه يرفض وبشكل قاطع أن تكون لهذا الكون غاية يتحرك نحوها خارج عالم المادة." والعقل المستنير لا يستمد معياريته إلا من دراسة الطبيعة والمادة والحركة، ولذا بدلا من الغائية التقليدية التي ترى بأن التاريخ يسير بتوجيه إلهي، طرحت فكرة جديدة تماما على الفكر البشري وهي أن التاريخ يتحرك إما دون غاية فهو حركة دون هدف تماما مثل الطبيعة المادة أو أن غائيته مثل معياريته مستمدة من الطبيعة المادة " [1163] .

ومعنى هذا أن التفسير الأول: ينسف فكرة التاريخ تماما فيلغي الفكرة الدينية حول خلق الإنسان ووظيفته وغايته، أما المفهوم الثاني: فيؤكد الطبيعة المادية للتاريخ فهي مرجعيته النهائية، وهدفه النهائي هو تحقق قوانين الطبيعة في التاريخ، ومن ثم تصبح الغاية هي تحقيق التقدم الذي يعني تزايد تطبيق القوانين الطبيعية إلى أن تسود هذه القوانين تماما، ويصبح المجتمع الإنساني في بساطة عالم الطبيعة.

ولعل المتأمل يلحظ ذلك في سيطرة فكرة تقسيم التاريخ إلى مراحل تهدف إلى تكريس مفهوم راسخ في الحياة الإنسانية وهو أن الحياة ليس لها هدف خارج الوجود المادي، ففي هذه الأرض وما يتصل بها من عالم المادة جرت وتجري أحداث الحياة، ولا صلة لها بعالم آخر كما يشير إلى ذلك عبد الوهاب المسيري :" ومن هنا ظهرت فكرة المراحل التاريخية التي سيطرت على الفكر الغربي،

[1162]–مصطفى السباعي :من روائع حضارتنا ص 13

[1163]– عبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص 262

وهي تشكل في جوهرها ابتعادا عن الغائيات التقليدية، وتحقيقا للغائيات الحديثة : -المرحلة اللاهوتية - والمرحلة الميثافيزيقية - المرحلة الوضعية .وهي مرحلة سيادة العقل والعلم ولكنها في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير مرحلة سيطرة القانون الطبيعي، وهذا هو قمة التقدم وهذه هي غايته "[1164].

وبالتمعن في نظرية التطور التي هيمنت على الفكر الغربي العلماني يمكن القول أنها أساس الفكر العبثي الذي ينفي أي غاية، ويتجلى ذلك في كثير من النظريات التاريخية الاجتماعية التي تعد تطبيقات لمبدأ التطور "فهربرت سبنسر درس التاريخ باعتباره تطورا من المجتمع العسكري إلى المجتمع الصناعي، ورآه دوركايم تطورا من التضامن الميكانيكي إلى التضامن العضوي، ورآه ماركس تطورا من الشيوعية البدائية إلى الشيوعية المركبة، أما التطور في نظر أوجست كونت فهو تطور من مجتمع يستند إلى السحر والدين إلى مجتمع يستند إلى الميثافيزيقا وصولا إلى المجتمع الحديث الذي يستند إلى العلم (المرحلة اللاهوتية – المرحلة الميثافيزيقية – المرحلة الوضعية) ويلاحظ أن الحلقة الأخيرة في سلم التطور هي دائما اللحظة التي تسيطر فيها القيم العلمية (المنفصلة عن القيمة) والغائية الإنسانية "[1165].

وبناء على هذا لا ترى العلمانية في جميع ما ذهب إليه منظروها أي غاية للإنسان خارج العالم الطبيعي المادي وخارج الحياة الدنيا. فالعالم كالساعة يدور كالآلة الأمر الذي يعني اختفاء الغرض والغاية، لأن المادة منفصلة عن القيم والغائيات الإنسانية "وأن كل الحوادث من أي نوع لا تخرج عن كونها حركة للمادة لا غرض لها وأن علاقة الأسباب بالنتائج علاقة رياضية مباشرة يستطيع الإنسان من خلال عقله التوصل إليها " [1166]

❖ مناقشة أساس العبثية:

[1164] عبد الوهاب المسيري :الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص262

[1165]-المرجع نفسه ص 258

[1166]-عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة المجلد 2 ص 130

نظرا لكون القرآن الكريم الرسالة الإلهية الخاتمة التي تتسم بالثبات، وهذا يعني أنها رسالة مقاصد وقيم ومفاهيم، فإن من القضايا التي ركزت عليها النصوص القرآنية التأكيد على المقاصد من الأفعال، وتصحيح التصورات وضبط المفاهيم التي تلتبس على الإنسان في بعض المراحل التاريخية .ولما كان الفكر المادي يؤكد على التصور العبثي العدمي اللاغائي في الحياة، فإن القرآن اهتم كثيرا بعرض هذه الشبهة، واستطرد كثيرا في عرضها، ثم في بيان بطلانها، ونوّع الأدلة على إثباتها .فقال تعالى :{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }[1167] .{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }[1168]. وقال تعالى: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ }[1169]. وقال أيضا :{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}[1170].

ففكرة الغائية يسندها في نظام الكون دلائل كثيرة، بل إن القول بالغائية يرقى إلى حكم الضرورة الأخلاقية، إذ لا يعقل أن يغيّب القصد في منظومة كونية كل عناصرها مترابطة في وظائفها. بل إن ترويج الفكر العلماني للعبثية والتشكيك في عدم وجود غاية في الكون هو في حد ذاته عبث، لكون إسقاط الغاية تسقط معها المعيارية التي هي الأساس للتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل والقبيح والحسن.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجده يؤكد بوضوح أن فكرة اللاغاية في التفكير البشري ليست جديدة، وإنما سايرت الإنسان في كثير من الحقب، لذلك كانت من أهم الموضوعات التي جاء الرسل لمناقشة الأقوام في شأنها، ذلك أن الإيمان بوجود غاية يعني وجود وظيفة للإنسان في الحياة، وينتج عنها وجوب تحمل مسؤولية ما يصدر عن الإنسان من تصرفات، ومن ثم ضرورة الإيمان بالآخرة كناظم مهم للحياة الإنسانية فكيف ناقش القرآن هذه الفكرة وما هي ردوده على الرافضين لوجود الغاية.

[1167]- سورة الجاثية الآية :24

[1168]-سورة الإسراء الآية :49

[1169]- سورة السجدة الآية :10

[1170]- سورة سبأ الآية :7

اهتم الخطاب القرآني بموضوع الغاية من الخلق، ومن ثم أورد من الحجج ما يكفي لدفع الشبه التي يثيرها المشككون من أصحاب الفكر العبثي، وينطلق من التأكيد على مجموعة من المسائل تعد بمثابة القواعد المنطقية في ذلك. وإذا أردنا أن نحلل هذه الفكرة فلسفيا نقول :

1-إنه إذا كان الإنسان ملزما بتغيير نفسه ومجتمعه ومحيطه، لكي يتماشى مع النسق العام للحياة، وكان قادرا على فعل ذلك، وإذا كان يرسم لكل فعل هدفا، وكان قادرا على تجسيد غاية فعله، فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة، أن يكون الإنسان مسؤولا . ومن هنا فالإلزام الأخلاقي والالتزام الأخلاقي كلاهما يغدو مستحيلا من دون مسؤولية، فالحساب أو تحقق المسؤولية شرط لازم لتحققهما، وذلك بحكم الطبيعة المعيارية التي يقوم عليها الفكر الإنساني، وليس المهم أن يجري الحساب في الزمان والمكان أو في نهاية أحدهما أو كليهما، ولكن المهم أنه لا بد أن يجري الحساب، وعند ذلك يكون منطقيا جدا أن طاعة الله والقيام بما أمر وتحقيق نسقه يعنى بلوغ الفلاح والسعادة واليسر، وأن معصية الله تستجلب العناء والعقاب والشقاء لذلك كان لا بد من وجود غاية أخلاقية للوجود الإنساني، والقول بالعبث هو ذاته عبث[1171].

فالإنسان بما يملك من مؤهلات متنوعة أُعد ليكون كائنا مسؤولا، ف" يؤكد التوحيد أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة لكي يعبده ويقدس له، وهذا يعني أن وجود الإنسان على الأرض غايته في مجملها طاعة الله وتنفيذ أوامره، ويؤكد التوحيد كذلك أن هذه الغاية تكمن في كون الإنسان خليفة الله في الأرض، ويشير القرآن أن الله قد حمّل الإنسان أمانته ...وهذا الائتمان الإلهي، هو تنفيذ الجزء الأخلاقي من الإرادة الإلهية "[1172].

2-أن طبيعة الكون غائية، أي : أنها ذات غاية، تخدم غاية لخالقها، وتقوم بذلك عن قصد، فلم يخلق العالم عبثا، ولا لعبا، وهو ليس عمل صدفة عارضة، فقد خلق العالم في أكمل صورة.

[1171]-إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 134

[1172]- المرجع نفسه ص 140

وكل ما هو موجود، موجود بقدر يناسبه، ويؤدي غاية كونية معينة .والتكامل والتناسق بين مفردات الكون دليل على ذلك.

والعالم في الحقيقة "كون " أي خليقة منتظمة " لا فوضى " وفيه تتحقق إرادة الخالق دوما، كما تطبق أنساقه ضرورة،لأن هذه الأنساق موجودة في المنطوي من طبيعة الأشياء ذاتها، وليس من مخلوق غير الإنسان يعمل أو يوجد بطريقة غير التي قدرها الله له .

وبما أن كل شيء خلق لغاية فإن تحقيق تلك الغاية يجب أن يكون ممكنا في الزمان والمكان.وبغير ذلك لا مفر من التشكيك، كما ستغدو الخليقة نفسها، ومسارا المكان والزمان لا فائدة منهما ولا معنى ولا مغزى. وبغير هذا الإمكان ينهار" التكليف" و"الإلزام الأخلاقي" وتتحطم غائية الله أو قدرته، وتحقيق المطلق أو السبب الإلهي للخلق .قال تعالى:{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }[1173].وقال تعالى:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }[1174] وقال تعالى :{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ }[1175].

ولما كان الإنسان المخلوق الذي تتحقق فيه إرادة الله بالطوع لا بالضرورة في وظائفه الروحية مثل الفهم و العمل الأخلاقي، إذ تقع خارج حدود الطبيعة المقررة، لكونها تعتمد على صاحبها وتنبع من قراره .فإن تحقيق إرادة الله في الجوانب الروحية له قيمة نوعية مختلفة عند تحققها بالضرورة عند المخلوقات الأخرى. والتحقق الضروري ينطبق على قيم العناصر المادية، أو القيم النفعية وحسب، غير أنها لا تأخذ صفتها المتميزة أي كونها خلقية.[1176] أما القيمة الروحية فتأخذ قيمتها من ارتباطها

[1173]–سورة آل عمران الآية: 191

[1174]-سورة المؤمنون الآية :115

[1175]- سورة يونس الآية :4

[1176]–أي فعل تقوم به الطبيعة هو بطبيعة الحال لا يتصل بالأخلاق، ولا يستحق ثوابا ولا عقابا مثل ذلك :التنفس والهضم، أو فعل إحسان، أو ظلم يجري تحت الإكراه .وخلاف ذلك تماما فعل يتم بحرية مع احتمال أن يقوم به فاعله، أو لا يقوم، أو أن يقوم بفعل آخر إلى جانبه .فما دامت الإرادة حرة في الفعل كانت المسؤولية .

بالحرية، وإمكان الخروج عليها، فإن التزام الإنسان بها، وانضباطه بتعاليمها، هو ما يوفّر المهابة التي نسبغها على الأشياء الأخلاقية .

3-أن الجاهلية في كل عصورها كانت تنظر لقضية البعث بأنه أمر عجيب قال تعالى:{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ }[1177] وحجتهم في ذلك استحالة إعادة تركيب جسم الإنسان المعقد بعد تفككه، وتحلله، بناء على حكم عقلي يبدو في الظاهر منطقيا، لكن عند التحليل لا يلبث وأن يتهاوى ؛ لأنه لا يستند إلى حجة عقلية قوية، وهو حكم مبني على رؤية سطحية للوجود الإنساني ذاته قال تعالى:{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ. وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ }[1178].فكيف شرح القرآن مسألة الغاية الإنسانية من الخلق وأفحم أصحابها؟ تقوم الرؤية القرآنية في ذلك على كثير الحجج والأدلة منها:

1- بيان منزلة الإنسان ووظيفته: فالعقيدة الإسلامية توضح أن سعي الإنسان في الحياة لا يمكن أن يذهب هدرا، لأن العناية الإلهية التي واكبت مراحل تطور الإنسان ابتداء من النطفة، وزودته بتلك الأجهزة الرهيبة، وهيأت له المحيط الملائم في بطن أمة وبعد خروجه إلى الدنيايستحيل أن يكون ذلك عبثا قال الله تعالى : {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى .فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى }[1179] ويلخص إسماعيل راجي الفاروقي التصور الإسلامي لهذه الغاية الأخلاقية فيقول :" يؤكد التوحيد أن

[1177]- سورة الرعد الآية :5

[1178] سورة السجدة الآية: 12/11/10

[1179]- سورة القيامة الآية :39/38

الله برحمته وقصده لم يخلق الإنسان لعبا أو عبثا .فقد منحه الحواس، والعقل، والفهم، وجعله كاملا، بل قد نفخ في الإنسان من روحه ليؤهله للقيام بذلك الواجب العظيم .

هذا الواجب العظيم هو السبب في خلق الإنسان. فهو الهدف النهائي للوجود البشري وهو الذي يحدد ماهية الإنسان، ويبيّن معنى حياته ووجوده على الأرض، وبفضل ذلك يتسنّم الإنسان وظيفة كونية ذات أهمية هائلة، ولن يكون الكون على ما هو عليه من دون ذلك الجزء الأسمى من الإرادة الإلهية، التي هي غاية جهد البشري الأخلاقي .ولا يوجد مخلوق آخر في الكون يمكن أن يقوم مقام الإنسان في هذا الواجب...لأن تكليف الإنسان شامل وكوني ولا ينتهي إلا يوم القيامة"[1180].

2- التنبيه إلى عظمة الكون (نظام الكون البديع المتناسق):{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ }[1181] {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[1182]{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ }[1183].فالله تعالى يؤكد أن إنكار الميعاد ليست قضية مبنية على دليل وإنما التبس عليهم الأمر إذ حكّموا عقولهم القاصرة، ولم يستحضروا عظمة الله الذي يقول للشيء "كن فيكون ".

3- أن العقل يحيل استواء الفعل الإنساني الخير والشر قال تعالى:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}[1184] فإذا كان العقل الإنساني بفطرته لا ينظر إلى الناس عند ممارستهم لفعل الخير والشر بنفس النظرة، وتبعا لهذا المنطق يستحيل أن يكون مصير المسلمين والمجرمين سواء، وما دام هذا في الغالب لا يتم في الحياة الدنيا، كان لا بد من وجود محاكمة في الآخرة، يستوفي فيها كل طرف ما يستحق من الجزاء .

[1180]- إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 140 /141

[1181]-سورة ص الآية: 27

[1182]- سورة الحج الآية :6

[1183]-سورة ق الآية :15

[1184]- سورة القلم الآية :35

4- الآخرة ضرورة لإقامة العدل الذي لم يتحقق في الدنيا: قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ }[1185] ({وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }[1186]

5- أن الإنسان لا يقدم في حياته على إنجاز أي عمل دون أن يحدد له غاية، فإذا كان الإنسان بمحدوديته يفعل ذلك ويستغرب من أي عامل ينجز شيئا بغير غرض ويسفه عقله، فكيف ينزّه نفسه عن العبث، وينسب ذلك إلى خالق الكون ومدبر أمره وفق هذا النظام الذي هو في غاية الدقة والإحكام، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون عبثا ودليل ذلك هذا النظام العجيب المنسق في وظائف عناصره:"{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ }[1187] ومن هنا فالفكر العلماني الذي يقول بالعبثية واللاغائية من الحياة بني على أساس هش، فما من صنعة متقنة إلا ويصنعها صاحبها لحكمة، ولا يجوز عقلا أن نحكم على جهاز متناسق في وظائف أجهزته بالعبثية، فإذا أردنا اختبار دور كل قطعة نقوم بخلع بعضها، فسوف نلاحظ تعطل الجهاز عن العمل، ومن ثم يتبيّن لنا أن كل قطعة لها حكمتها فإذا كان هذا فيما يصنع البشر فلم لا ينظر إلى الأمر فيما خلق رب البشر ؟ !. {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ }[1188].

6- فإذا كان عالم الخلق من الذرة إلى المجرة ليس باطلا، فالإنسان جزء من عالم الخَلْق، ومن ثم لم يخلق باطلا، فإذا تساءلنا ببراءة عن كل عضو من أعضاء الإنسان هل وجوده كعدمه أم أن وجوده ضرورة، وفي محله بالذات، فهل يصدق أحد عند ذلك أن وجود الإنسان كله عبثا ؟ فإذا كان لكل جزء غاية أيعقل أن يكون الكل بأجهزته العديدة والمعقدة عبثا ؟ ! أليس الإنسان في حقيقته عبارة

[1185]-سورة الحج الآية: 7/6

[1186]-سورة النجم الآية :31

[1187]- سورة الأنبياء الآية : 16

[1188]-سورة ص الآية :27

عن مصانع معقدة ومتنقلة ؟ فكل جهاز فيه يعمل بكفاءة ولسنين طويلة منسجما مع غيره من المصانع والأجهزة، ليكون عملها في النهاية عبثا ؟ وهل يستساغ في عالم الإنسان أن تفتح المصانع ويجتهد العمال وتصرف الطاقات ليكون جهدهم في النهاية عبث من غير غاية أو قصد ؟ فلماذا يصر الفكر العلماني على اعتبار الحياة الإنسانية عبث ؟ لا شك أن الفكرة صيغت بحنكة، وفي ظل ظروف مناسبة، وإلا فلا أحد مهما كان مستواه أن يستسيغ هذه الفكرة .فهذا التنسيق العجيب بين مكونات الكون يشير إلى قصد في التدبير، وكل ما يحيط بالإنسان يصرخ بذلك فهل يعقل أن هذا التنظيم جاء عبثا من دون قصد وغاية ؟ لذلك كانت الإشارة في الآية غاية في الدقة ولمحت أن كل جزء من الإنسان مهما كان تركيبه دقيقا فإنه يعاد تركيبه بعد الفناء قال تعالى : {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ .بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ }[1189].{قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ }[1190].

7– أن الحياة الإنسانية وما فيها من أحداث يجزم العقل البشري كله أنه لا يستساغ أن تمر كثير من جرائمها بلا عقاب، فنجد في حياتنا أن الدول تشكل الأجهزة الأمنية المختلفة للتصدي للمجرمين، ومحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم في حق غيرهم، وقد تطول التحريات في بعض الجرائم سنين طويلة، ولا تسقط بالتقادم، أفلا يكون من العقل أن نفس المنطق ينبغي أن يحكم الحياة ذاتها لتطبيق العدالة في حق أناس ماتوا ولم يدفعوا ثمن جرائمهم، أليس من العدل ملاحقتهم في الآخرة، بل إن في الحياة الدنيا جرائم رغم التحريات لا يمكن ضبط فاعلها الحقيقي لكونها جريمة معقدة أليس من العدل أن تبلى السرائر ويكشف عن المجرمين الحقيقيين، عندما تقصف طائرة حيا مدنيا يموت على إثر هذا القصف مئات المدنيين من يحاسب على تلك الجريمة الطيار فقط أم مجرمون يديرون الجريمة خلف الستار ؟من يحاسبهم، لا شك وأن الحياة لم تخلق عبثا، ولا بد من محاسبة في المحكمة العادلة . قال الله تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ

[1189]–سورة القيامة الآية :4/3

[1190]–سورة عبس الآية: 19/18/17.

نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }[1191]{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[1192]{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }[1193].

8- إن حياة الإنسان في التصور الإسلامي خالدة، وليس بين الدنيا -كمكان للسعي -انفصال عن الآخرة -كمقر للحساب – و هذا الذي نعيشه في الدنيا جزء من معنى الحياة لا يكتمل معناها إلا بالجزء المتبقي في الآخرة . فالحياة تسير وفق خطة محكمة تبدأ بالابتلاء وتنتهي بالجزاء، إذ لا قيمة للحياة إذا كان الموت النهاية التامة. وهل يعقل أن لا يكون لهذا النظام الضخم الدقيق كله رسالة وغاية وهدف ؟ يقول أنور الجندي :" هل يمكن أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملا ينتهي بموت الإنسان، الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل جميعا إذا لم يكن رسالة لها التزاماتها ومسؤوليتها، ثم لها جزاؤها من بعد .ليست الحياة عبثا، وكفاح الإنسان فيها مضيّعا .إن حياة الإنسان القصيرة في الدنيا "المؤقتة" ليست إلا امتحانا لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته.

هذا المفهوم الأصيل الذي جاء به الدين الحق،هو الذي يحمي الإنسان من فكرة العدم والغربة المدمرة لوجوده وإرادته"[1194] ومن هنا جاءت الآيات التي تتحدث أن خليقة الله كاملة، ولا تكتمل في هذا الباب إلا بالتأكيد على التزام الإنسان الأخلاقي ومسؤوليته ومنها قوله تعالى {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ }[1195] لأن الله سبحانه وتعالى يقول:{وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً }[1196].

وبهذا يتبيّن لنا أن فكرة العبثية وفقدان الغاية في حياة الإنسان من أخطر الأفكار التي زلزلت الكيان الإنساني، وهذا بسبب الغلو الذي سار فيه الفكر العلماني في تصوره للإنسان والحياة، فالفلسفة

[1191]-سورة ص الآية :28

[1192]-سورة القيامة الآية :36

[1193]-سورة المؤمنون الآية : 115

[1194]-أنور الجندي : سقوط العلمانية ص 122/121

[1195]-سورة الغاشية الآية: 26/25

[1196]-سورة النساء الآية: 85

المثالية كانت مغالية حين جعلته في مقام السيادة، ثم جاءت الفلسفة المادية التي كانت أشد غلوا حين وضعت الإنسان في مقام الأحجار، وجاءت الداروينية فجعلت الإنسان من أصل الحشرات وتلتها الفرويدية التي جعلت دافعه الأول والأخير غريزة الحيوانات فقط، كل هذه الأفكار قتلت فكرة الغاية في الإنسان وجعلته مخلوقا تافها يطوف حول الملذات التي أصبحت تمثل سقف تطلعه، فأنكر بذلك جزءا هاما من تطلعاته، وظل محصورا في حياة غاية في الترف والرخاء، لكنها تملأ القلب بالشكوك والغربة والتمزق.

أما رسالة الإسلام فأبت إلا أن تضع الإنسان موضعا كريما مستخلفا في الأرض، وله وظيفة يتحمل فيها مسؤولية، ويؤدي دوره في بناء الحياة واستكشاف أسرارها، وله نظام أخلاقي يلتزم به، وله غاية يتطلع إليها، تتجاوز هذه الحياة الدنيا ولا تلغيها، ومن ثم لا يلغي شيئا من كيانه، ليس زاهدا ولا مترفا، ولكنه مخلصا وجهه لله متطلعا لرضوانه، وهذه رؤية الإسلام للحياة المتكاملة التي لا عبث فيها، ذلك أن الإسلام لا يريد أن يناقض العقل الذي يرى من المستحيل أن لا تكون غاية في الحياة، لأن كل حركة يمارسها الإنسان في الواقع دافعه فيها تحقيق غاية، فكيف لا يكون للكون غاية ؟ ولا يريد أن يناقض الفطرة التي تصرخ من أعماقها لتعبر عن أشواق الإنسان إلى ذلك العالم المنتظر الذي تتحقق فيه السعادة التي يظل ينشدها ويحلم بها ويتطلع إلى تحقيقها في الحياة الدنيا ويشبع غريزته منها وهي حب الخلود فهل يعقل أن الشعور وهذه الغريزة ناتجة من فراغ، كلا ؟ ! ولكن أفكار العلمانية تأبى إلا أن تقمع هذا التطلع، لأنها تمثل الضلال لابتعادها عن التصور الصحيح للحياة، قال تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }[1197].

وخلاصة القول أن إنكار الغاية في حياة الإنسان، والتي تقود بالضرورة إلى العبث فكرة علمانية ناتجة عن الجنوح وفقدان التوازن في الرؤية الوجودية للعلمانية، لأنها تجاهلت طبيعة التكوين الإنساني حين فككته ومزقت كيانه، فكان من المنطقي أن تؤول الأمور إلى هذا الحال من التصورات الخاطئة

[1197]- سورة الأنعام الآية :125

المنحرفة. وقد لخص عماد الدين خليل ذلك بقوله:" إن هذا التكوين القائم ابتداء على التوازن الأصيل بين الروح والمادة قد يصاب أحيانا بانحرافات خطيرة عن خصائصه الأصيلة هذه نتيجة تعاملها مع مبادئ ونظريات لم تدرك أبعاد النفس الإنسانية على حقيقتها.ولقد كانت المبادئ الوضعية تتسم دوما بذلك الاختلال وعدم التوازن، الذي يتمثل أحيانا بطغيان القيم المادية على القيم الروحية،ويتمثل أحيانا بطغيان القيم الروحية على القيم المادية،ويتمثل أحيانا ثالثة بالفصل القسري بين هذه القيم، واصطناع الحواجز المزيفة بين عوالم المادة والروح، كما هو الحال في التجارب العلمانية "[1198].

والحقيقة أن المجتمعات الإنسانية تتجه- غالبا - إلى هذا المنحى عندما تصاب الحياة بالشلل المادي أو الروحي، وفي غياب التوجيه الصحيح والموقف المتوازن، فيكون رد الفعل الذي يتسم بالعنف والتطرف،وتكون النتيجة الانتقال من انحراف إلى انحراف جديد. فيهرب المتمردون على المادة إلى أجواء الروح المثالية التي لا رصيد لها في الواقع،ويهرب المتمردون على الفناء الذاتي باسم الروح إلى العوالم المادية، التي ترفض كل اهتمامات الإنسان البعيدةومطامحه الروحية،وأشواقه الذاتية،وحسه الغيبي العميق.وهكذا فالتمرد على الانحراف لا يأتي إلا بانحراف جديد، وهذا كله يصبح أداة للهدم وينعكس على كيان الإنسان، فيمزقه ويجعله يعيش حالات مرضية على المستوى الداخلي (القلق، الاكتئاب، الاضطرابات النفسية ...) وتتحول الحالات المرضية إلى انحرافات في نشاطه الخارجي (مخدرات، قتل، سرقة، انتحار ..)، وليس بمستطاع مذهب ولا نظام غير الدين أن يكسر الطوق ويعيد للإنسان توازنه الأصيل القائم على التداخل العضوي الحيوي المعقد بين قوى الروح والمادة التي هي أشبه بنسيج محبوك لا ترى لحمته من سداه في كيان الإنسان، لأن الدين هو المنهج القائم على الموضوعية المطلقة والنظرة الشاملة بما أنه صادر عن الحق سبحانه. أما غيره من المناهج الوضعية وعلى رأسها العلمانية فنظرياتها تأتي متأثرة بالواقع، فلا يكون إلا رد فعل للواقع أو انعكاسا سلبيا له،وفي كل الحالات لن يستطيع تخطيط غير موضوعي أن ينقد الإنسان من العبثية التي يعيش

[1198]-عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 51

فيها[1199].فالله الذي خلق الإنسان بقدر وفي أحسن الصوّر قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ . فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ }[1200] أرسل إليه الهداية كي لا يذهب عمره سدى، قال تعالى : {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى }[1201].

ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم اهتم بقضية القدرة الإلهية على البعث، وبيّن مختلف الأدلة المادية والعقلية، وأرشد إلى التأمل في مختلف مظاهر الكون وفي أحداث التاريخ، وأخذ يرد على المنكرين بتذكيرهم بمظاهر القدرة الإلهية السائدة في الكون،وأنه ليس من العدالة أن يترك الإنسان سدى قال تعالى:{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[1202] ومن بين الأدلة التي أوضحها القرآن ما جاء في سورة "يس "ردا على من تساءل عن إحياء العظام وهي رميم .قال تعالى:{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }[1203] فجاء الرد :{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ .أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[1204] وقد تضمنت هذه الآية مجموعة من الأصول النظرية من الأدلة منها :

1-أن وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه من عدم . وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء أسهل وشيء أصعب . ولكن الأسلوب جاء مراعيا و مناسبا لمنطق التفكير الإنسانيالذي تقرر لديه أن إعادة الشيء أسهل من فعله للمرة الأولى فالخبرة المتراكمة تسهل الأمر عليه .

[1199]- ينظر عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 52/15

[1200]- سورة الانفطار الآية: 8/7/6

[1201]-سورة الأعلى الآية:3/2

[1202]- سورة القيامة الآية : 36

[1203] - سورة يسن الآية :78

[1204]- سورة يسن الآية: 82/81/80/79

2-ظهور الشيء من نقيضه، كظهور النار من الشجر الأخضر، ممكن وواقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل مرة أخرى، وهذا استنادا إلى المبدإ الأكبر وهو أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق في إمكان البعث .

3-أن خلق الإنسان وإحياءه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن، فالإنسان بالنسبة لهذا العالم ذرة تافهة .

4-أن فعل الخلق مهما عَظُم لا يحتاج من جانب الله المبدع إلى مادة ولا إلى زمان خلافا لفعل البشر، وإنما يكون ذلك رهين إرادة الله بإيجاد الشيء إذ يقول له:"كن فيكون".

ولا شك أن القرآن عندما يسوق هذا النموذج وغيره من النصوص، إنما ليؤكد إمكان البعث الذي يكون متلازما بالضرورة بحكمة البعث،ومن ثم فلا مجال للعبثية، لأن الله سبحانه هو الحق ولا يخلق شيئا إلا بالحق. قال تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[1205].

ومما يجدر التنبيه إليه أن الإسلام وهو يؤكد على غاية الوجود فإنما ليبرز أنه لا قيمة للحياة إذا كان الموت هو نهاية كل شيء. فهل يعقل أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملا ينتهي بموت الإنسان؟ الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل إذا لم تكن رسالة لها التزاماتها ومسؤولياتها ثم لها جزاؤها من بعد. ليست الحياة عبثا، وكفاح الإنسان لن يكون فيها مضيّعا، إن حياة الإنسان القصيرة في الدنيا لها بقية محترمة يسميها الإسلام يوم القيامة، ولا انفصال بين حياة الالتزام وحياة الجزاء، ومن ثم فالحياة الدنيا هي ليست إلا امتحانا لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته .

5 . الأساس الخامس : الإنسانية

[1205]- سورة الحج الآية :6

يطلق على هذا المبدإ (الذاتية) وقد يطلق عليه أيضا (الفردانية) كما يطلق عليه (النزعة الإنسانية)[1206] وجميع هذه العبارات تشير إلى معنى واحد، وهو التأكيد على مركزية، ومرجعية الذات الإنسانية وفاعليتها وحريتها وعقلانيتها.

ولعل أحسن تعريف ننقله للنزعة الإنسانية هو ما جاء على لسان أحد أكبر فلاسفة الحداثة وهو "هايدجر" حيث قال :"هي ذلك التأويل الفلسفي الذي يفسّر ويقيم كلية الوجود انطلاقا من الإنسان، وفي اتجاه الإنسان "[1207].

كما ساق عبد الرزاق الدوّاي تعريفا للنزعة الإنسانية قال فيه :" النزعة الإنسانية هي كل نظرية أو فلسفة تتخذ من الإنسان محورا لتفكيرها وغايتها وقيمتها العليا"[1208].

وحتى تكون صورة النزعة الإنسانية أكثر وضوحا وعمقا، نشير إلى ما ذهب إليه عبد الرحمن بدوي الذي يرى أن لفظ "النزعة الإنسانية " قد صار من الألفاظ الكثيرة التداول اليوم،وفي استعماله يلاحظ له معنيان : أحدهما تاريخي، والآخر مذهبي. فهو عند "بيجر" وأتباع مدرسته الذين يكونون النزعة الجديدة يرمي من ورائه إلى إيجاد نزعة إنسانية جديدة تضارع النزعة الإنسانية التي ظهرت في أوروبا في القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر، وذلك بإحياء التراث اليوناني من جديد،

[1206]– لم تظهر النزعة الإنسانية في الثقافة الغربية إلا في القرن التاسع عشر حسب ما تذكره القواميس والموسوعات، حيث استعملها أحد علماء التربية الألمان وكان يقصد في البداية الدلالة على نظام تعليمي وتربوي جديد يقترحه، ويهدف منه إلى تكوين الناشئة عن طريق الثقافة والآداب القديمة، وبالأخص الآداب اللاتينية والإغريقية، وذلك لغاية تلقينها مثلا أعلى في السلوك وفي العراقة، وكل ما من شأنه أن يعلي من قيمة الإنسان. صدر الدين القُبانجي الأسس الفلسفية للحداثة ص40

[1207]– صدر الدين القُبانجي الأسس الفلسفية للحداثة ص40 نقلا عن عبد الرزاق الدوّاي من كتاب" موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر " ص43

[1208]–المرجع نفسه ص 191.

ومعاناة تجربة حية عن طريقه وهو ما يتم بتمثله ونقله من الماضي إلى التطبيق على الحاضر ؛ وهو كذلك أيضا عند "سيتا"[1209] إلا أنه يميل خصوصا إلى استلهام النزعة الإنسانية الحديثة في إيطاليا .

أما المعنى المذهبي فيتردد كثيرا على لسان الوجوديين[1210] وهو عندهم يختلف ظاهرا عنه عند أصحاب المعنى التاريخي، لأنه لا يعتمد على تجربة روحية تاريخية، بل على مذهب قائم برأسه في فهم الوجود على أساس أن مركز المنظور فيه هو "الإنسان" وأن الوجود الحق والوحيد هو الوجود الإنساني حتى صارت شارته هي : من الإنسان وإلى الإنسان وبالإنسان ؛ أو هو كل شيء للإنسان، ولا شيء ضد الإنسان، ولا شيء خارج الإنسان "[1211].

لا شك أن هذا النص وضعنا أمام صورة واضحة وهي أن النزعة الإنسانية في العلمانية الغربية لها مصدران : الأول يتمثل في التراث اليوناني، والثاني يتمثل في الفكر الوجودي، ومن ثم إذا أردنا الحكم على النزعة الإنسانية يمكن الرجوع إلى هذين المرجعين والبحث في رؤيتهما الفلسفية للإنسان ذاته . وبالضرورة نجد أنفسنا أمام تساؤل غاية في الأهمية والذي يلخّص لنا مضمون النزعة الإنسانية وهو: ما هي الدلالات التي يوحي بها القول بالنزعة الإنسانية ؟

والجواب عن هذا التساؤل يدفعنا لقراءة النصوص السابقة التي تعطينا صورة واضحة لما يعنيه أساس "الذاتية أو النزعة الإنسانية "اعتمادا على ما يقوله العلمانيون أنفسهم . فالإنسان يعتبر المرجع النهائي لكل أشكال المعرفة، والمواقف والقرارات : فالدين والأخلاق، والدولة، والتاريخ، والحياة، والفن والأدب، والحق، والقانون وحتى الطبيعة والكون كلها يجب أن تمر عبر الإنسان وحريته، ووعيه، وجهده، ويمكن تلخيص دلالات النزعة الإنسانية فيما يلي :

-لا سلطة فوق الذات .

[1209]-جوزيه سيتا : التربية في النزعة الإنسانية بإيطاليا فينتسيا سنة 1928

[1210]-راجع خصوصا :جان بول سارتر :"الوجودية نزعة إنسانية، باريس سنة 1946

[1211]-عبد الرحمن بدوي : الإنسان والوجودية في الفكر العربي دار القلم بيروت ص 16/15

-لا سعادة إلا من خلال الذات.

-لا قيمة أخلاقية إلا من خلال تحقيق الذات.

-لا حقيقة إلا من خلال معرفة الذات .

وهكذا يتحوّل الإنسان من وجهة نظر الذاتية إلى المقدس الأوحد في الوجود، فلا شيء يعلو رأيه وحريته، وسلطته، وقراره، فهو صانع القرار، بل هو صانع الحقيقة، وهذا ما دعا نيتشه إلى مصطلح "موت الإله"، حيث نصّب الإنسان نفسه في محل الإله بلا منازع. وأضحى هو سيد الموقف، والحقيقة تأخذ شرعيتها من الإنسان نفسه، وهذا يعني أن الإنسان مستغني عن أي تدخل خارجي أي لا اعتراف بالدين أو بغيره من الماورائيات.

وقد انعكست هذه الرؤيا في مجال المعرفة، والأخلاق، والدين، والفلسفة، والتاريخ، والطبيعة والقانون، والمجتمع، وهذا ما جعل نيتشه يصرح بأن :"جميع الظواهر عبارة عن تأويلات، ولا توجد هناك على الإطلاق أية ظاهرة في حد ذاتها "[1212] .

فالإنسان وحده وبتأويله الخاص، هو الذي يحدد مضمون الفكرة، فليست الحقيقة هي الفكرة المطابقة للواقع كما كان سائدا في المفهوم الفلسفي التقليدي للحقيقة، إنما الحقيقة والفكرة الصحيحة هي الفكرة التي تمر عبر محك الإنسان، وهو الذي يحدد صدقها من كذبها، فليس ثمة إلا ما يظهر لنا وعبر حواسنا، وليس ثمة إلا ما نفسره نحن، بحسب قدرتنا الإدراكية، أما الواقع الوجودي فليس لنا معه أية صلة، وبعبارة أخرى ليس هناك وجود، إنما تفسيراتنا وقراءاتنا للوجود، أو ما يظهر على عدسات ذواتنا لا غير[1213]، ويتجلى هذا المفهوم بوضوح عند "شوبنهاور " وهو يفسر العلاقة العضوية المشروطة بين الذات والموضوع فيقول :" كل هذا العالم لا يكون موضوعا إلا

[1212]- نقلا عن عبد الرزاق الدوّاي :موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر دار الطليعة للطباعة والنشر ط 2000 ص35

[1213]- ينظر صدر الدين القُبانجي : الأسس الفلسفية للحداثة : رسالة جامعية ص 50

بالنسبة إلى ذات، ولا إدراكا إلا بالنسبة إلى مدرك، أي بالاختصار لابد أن يكون تمثلا، فكل شيء ينتمي، أو يمكن أن ينتمي إلى العالم يرتبط حتما بهذا الشرط، شرط التوقف على الذات، ولا يوجد إلا من أجل الذات، فالعالم تمثُّل"[1214].

وفي نفس السياق يتحدث "برجسون "الذي ينفي الحقيقة عن أي ظاهرة إلا من خلال ما يحدده الإنسان، ويجد له تفسيرا مناسبا له، وإلا فلا معنى له، فالحقائق المقبولة قيمتها لا في وجودها في الواقع، ولكن قيمتها في تفسيرها، والاستفادة منها فيقول:"الحقيقة اختراع جيد لشيء سبق وجوده ...ونحن نخترع الحقائق لنستفيد من الوجود كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم قوى الطبيعة ..فمثلا دوران الأرض لا يستند على تجربة بمعنى الكلمة، ولكنه فرض مفيد في تفسير الظواهر، وهو أكثر فائدة من فرض دوران الشمس، فالحقائق المقبولة هي على كل حال بطاقات لا تدل على شيء في الواقع، وإنما تنحصر قيمتها في إنتاجها "[1215] بل إن "وليم جيمس" يطبق نفس المنطق على الفكرة الدينية،إذ يجعل المقياس في تقييم الأفكار الدينية ليس هو الحجة والبرهان،وإنما هو المكاسب التي يمكن أن تحرز من وراء الاعتقاد بها، والانعكاسات التي تتأثر بها حياته من حيث ما تولده من طمأنينة في النفس أو أمل في المستقبل السعيد فيقول :" وفي ميدان التجربة الدينية يكون الاعتقاد حقا، إذا نجح روحيا، أعني إذا حقق للنفس الطمأنينة والسلوك،وأعاننا على تجارب الحياة وسما بنا فوق أنفسنا "[1216]، وبهذا المفهوم يمكن أن يكون للفكرة الدينية وضدها نفس الحظ من القبول ما دام كلاهما يحقق للإنسان فوائد على الأرض، وهذه هي نظرية (الهرمنيوطقيا) أو تعدد القراءات للواقع .

[1214]–فؤاد زكريا :آفاق الفلسفة دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان ط1 سنة 1988ص 203/202 نقلا عن " العالم إرادة وتمثلا "لشوبنهاور .

[1215]–يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص 418 /419

[1216]– عبد الرحمن بدوي : مدخل جديد إلى الفلسفة ص 144 نقلا عن الأسس الفلسفية للحداثة ص50

وهذا المنطق في فهم الحقيقة يطبق في مجال القيم والأخلاق، ففي ضوء "مبدأ الذاتية "يصبح الإنسان هو صانع القيم الأخلاقية وواضعها وهو من يعطيها القيمة والاعتبار، فهو الذي يؤسس القيم بناء على ما تحقق له من منافع، ومن ثم تمّ عزل الدين عن وضع القيم، فهي مسؤولية الإنسان وليست مسؤولية الله[1217].

وبهذا يظهر جليا أن العلمنة الشاملة للإنسان من أهم عناصر العلمنة ونقطة البدء الحقيقية في العلمانية الشاملة، فتعني تأكيد مركزيته المطلقة في الكون، وأنه مقياس كل شيء و مرجعية ذاته ومتمركز حولها. لكن الإنسان في نفس الوقت مجرد جزء من النظام الطبيعي المادي الذي لا يمكن تجاوزه،ولذا تنطبق عليه قوانين الطبيعة، وتسري عليه قوانين الواحدية المادية.

إنالنظرة العلمانية الشاملة التي تسلطت على أفكار فلاسفة الغرب الماديين قادتهم إلى اعتبار الإنسان مادة مجردة من الروح وآفاقها، وسلكته في سلك الحيوان. وأبطلت تميّزه واختصاصه، وألغت تفرده بين عناصر الكون، ونظمته في نظام الحيوانية الهابطة، فهو في نظرهم مخلوق ذو طبيعة واحدة تتحدد بحدود الجسد والغرائز. جسمه هو مصدر طاقته وغرائزه هي الموجه له وتصرفاته الغريزية هي عالمه الأوحد . وفي ذلك إلغاء صريح لإنسانية الإنسان، وجحد للحقيقة الروحية والرغبات والأشواق والآفاق والسلوكات المنبثقة عنها، وهي ليست ذات طبيعة مادية. ومن ثم تمت مصادرة كاملة لكل القيم العليا في الإنسان : قيم الحق، والعدل، والجمال، والحرية، والإخاء، والحب، وتحويلها إلى مجرد وسائل أو حيّل يحتال بها الإنسان لتحقيق مراداته الغرائزية .وبناء على هذه النظرة أقامت أوروبا بعلمانيتها الشاملة سياستها واقتصادها وحياتها الاجتماعية والنفسية بمعزل عن القيم الروحية وبمعزل عن الأخلاق وبمعزل عن الدين كله جملة وتفصيلا[1218].

[1217]– ينظر صدر الدين القُبانجي : الأسس الفلسفية للحداثة : رسالة جامعية ص 53

[1218]– ينظر سعيد بن ناصرالغامدي :الانحراف العقدي في أدب الحداثة ص1959

ومن أجل ذلك أيضا جاءت نظرية ماركس التي تفسر تاريخ الإنسان بأنه تاريخ البحث عن الطعام واللهاث خلف الظواهر الاقتصادية، وحصر إنسانية الإنسان في التأليه الأعمى للمادة . فكان البحث عن الطعام والشراب هو منبع كل عقيدة وتصوّر، وأساس كل سلوك وقيمة وخلق. على أنه لا يجب أن ننسى أن الإطار الفلسفي لهذه النظرية مأخوذ من نظرية داروين، كما لا يصح أن نغفل أن هناك مصدرا مهما لنظرية التفسير المادي الماركسي[1219] يتمثل في التراث اليهودي التلمودي والنفسية اليهودية المشهورة بعبادتها للمال وحقدها على البشرية وقيمها وتراثها ومقدساتها.

ولا شك أن الفكر العلماني بلغ هذا الحد من المادية بعد عقود من الترويض مستخدما في ذلك عملية"الترشيد في الإطار المادي "[1220]أي :" إعادة صياغة الواقع المادي والإنساني في إطار نموذج الطبيعة المادة، أو المبدأ الواحد الكامن في المادة بالشكل الذي يحدّد التقدم المادي وحسب، مع استبعاد كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية ... حتى يتحوّل الواقع إلى مادة استعمالية، ويتحول الإنسان إلى كائن وظيفي أحادي البعد ومن ثم يمكن "حوسلة "[1221] كل من الواقع المادي والإنساني بكفاءة عالية "[1222]. ويشير المسيري إلى أن الإنسان بهذا المفهوم يتفرع عنه أنماط إنسانية في واقع الحركة الإنسانية، قد تختلف عن بعضها في الدوافع والأهداف لكنها واحدة في بنيتها وفي أحاديتها .

وهذا يعني تشييء الإنسان والتعامل معه على أنه ظاهرة طبيعية وليس ظاهرة تاريخية حضارية متميزة، بحيث يفصل عن أي فضاء غير فضاء الطبيعة وماديتها ويحصر في وظائفه البيولوجية(الهضم

[1219]– ماركس من حيث الانتماء الديني يعتبر يهوديا .

[1220]– من معاني الترشيد في إطار العلمانية الشاملة أ–أنه يسوّغ، ويعني يفسّر المرء سلوكه بأسباب معقولة، أو مقبولة ولكنها غير صحيحة ب– يوظف الوسائل بأكثر الطرق كفاءة لخدمة أهداف معينة ج– أنه يستعيض عن التفسير الغيبي لشيء ما بتفسير طبيعي مطابق للمبادئ العقلية ولقوانين الطبيعة المادة د– يجعل الشيء مطابقا للمبادئ العقلية والمادية. عبد الوهاب المسيري الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ دار الشروق ط3 سنة 2001 ص246.والعلمانية الجزئية والشاملة ج2 ص463.

[1221]– حوسلة : الحوسلة منحوتة من عبارة "التحويل إلى وسيلة " والعلمنة الشاملة والترشيد المادي يرميان إلى تحويل الطبيعة والإنسان إلى وسيلة أي حوسلتهما . ينظر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ج2 ص 463

[1222] –عبد الوهاب المسيري : العلماني الجزئية والشاملة ج2ص 263

—التناسل —اللذة الجنسية) ودوافعه الغريزية المادية (الرغبة في البقاء المادي —القوة —الرغبة في الثروة) ومن ثم فهو يعيش حسب قوانين الطبيعة المادة، ويسري عليه ما يسري عليها من قوانين ملتحما عضويا بها، ويتحرك مع حركة المادة. وبهذا يختفي الحيز الإنسانيفي شخصيته وتزول الثنائيات والثوابت والمطلقات والكليات، وتصبح مرجعيته ذاته أي: الطبيعية المادية، فليس له القدرة على التجاوز، فمعياريته مستمدة من الطبيعة المادة، وقيّمه متحررة تماما من أوهام الإنسان عن نفسه وعن مركزيته، فهو لا يعدو أن يكون شيئا من الأشياء الطبيعية (أحادي البعد) متجرد من الإنساني والتاريخي[1223] .

وبتعبير آخر أنه لا يوجد قانون للطبيعةوحركة المادة وأخر للإنسان وحركة التاريخ، ولا توجد قوانين للجسد والدوافع الغريزية، وأخرى للنفس والتطلعات المثالية. فالإنسان في حقيقتهما هو إلا كائن طبيعي مادي،والمرجعية النهائية لهذا الكائن مرجعية مادية كامنة في المادة، فهو نتاج البيئة، والعوامل الوراثية والقوى التاريخية [1224] .ومن ثم يصنف الإنسان في الرؤية العلمانية على هذا الأساس فنجد :

أ-**الإنسان الاقتصادي** : وهو الإنسان الذي يتحدث عنه "ماركس " بالتحديد والذي تتلخّص كل دوافعه في الحصول على الأكل والشراب "وهو إنسان متحرر تماما من القيمة، أحادي البعد دوافعه الأساسية اقتصادية بسيطة، ما يحركه هو القوانين الاقتصادية وحتمياتها، إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها، بل ينتمي إلى عالم الاقتصاد العام وهو لا يعرف الخصوصية ولا الكرامة ولا الأهداف العامة التي تتجاوز الحركة الاقتصادية، وهو يجيد نشاطا واحدا هو البيع والشراء ومراكمة الأموال وإنفاقها"[1225].

ويتبدى نموذج العلمنة بشكل واضح في المجال الاقتصادي —ولعله أول مجال تمت علمنته في الغرب في نهاية العصور الوسطى، وقبل فصل الدين عن الدولة — إذ تحرر النشاط الاقتصادي من أية أعباء

[1223]-ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة مجلد 2 ص461/ 460

[1224]-ينظر المرجع نفسه ص 121/120

[1225]-عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة مجلد 2 ص461

أخلاقية،ومن أية مرجعية أو غائية إنسانية أو دينية بحيث يتضمن داخله كل ما يكفي لتفسيره من المعايير والغايات. فهو مرجعية ذاته، وتطغى عند ذلك جيوب اقتصادية مستقلة الهدف ومقتصرة على الإنتاج والربح وحسب .ويتحوّل الإنسان من كونه غاية ومرجعية تتحرك داخل حيزها الإنساني ليصبح مجرد آلة يتحرك داخل حيز الاقتصاد.

ب–الإنسان الجسماني :وهو الإنسان الذي يتحدث عنه "فرويد" ويجعل كل حركة وانفعال سببه الغريزة "الذي يشبه الإنسان الاقتصادي تماما في بنيته، فهو أيضا أحادي البعد، خاضع للحتميات الغريزية، متجرد من القيمة، لا يتجاوز قوانين الحركة "[1226].

ج–الإنسان السوبرمان (الإنسان الأعلى)**والسبمان** (الإنسان الأدنى):وهذا التقسيم مهم أيضا لاعتبارات أهمها تكريس تفوّق الرجل الأبيض وبيان أحقيته في السيطرة، فهو يجسّد نظرية "نتشه" و"داروين "حيث يكون البقاء للأقوى والأصلح جراء عملية الانتقاء .

أ- **فالسوبرمان** :هو الإنسان الأعلى الإمبريالي الذي يجسد الطبيعة /المادة. ويولِّد معياريته من ذاته لا يؤمن بأية قيمة خارج عنها، لا يؤمن إلا بفلسفة القوة كقيمة واحدة مطلقة، وهو إنسان امبريالي يرى من حقه أن يوظف الآخرين لحسابه ولتحقيق مصالحه باعتباره الأقوى المنتصر "[1227].

ب–**السبمان** :وهو الذي يذعن للطبيعة /المادة وقد عبّر هذا الإنسان المتكيّف عن نفسه في عدة أشكال:الإنسان البراجماتي–الإنسان المدجّن –الإنسان المرشد –الإنسان المتشيئ .

ومن أهم ثمار عمليات الترشيد والتطبيع والحوسلة والتشيئ والتنميط هو ظهور الإنسان ذي البعد الواحد. ويرجع عبد الوهاب المسيري هذه العبارة إلى كتابات هربرت ماركوز[1228] في كتابه "الإنسان

[1226]–المرجع نفسه

[1227]– المرجع نفسه

[1228]–ماركوز :هو هربرت مرقس أو ماركوز فيلسوف يهودي معاصر ألماني المولد أمريكي النشأة عاش بين سنة (1898 إلى 1979م) استخدم طريقة نقد الفكر الحديث في علاقته بالمجتمع الحديث، فكان من أشد نقاده،له كتاب في فلسفة النقد وكتاب الحب والحضارة، كما أصدر كتابا تحت عنوان "الإنسان ذو النظرة الواحدة "أو" ذو البعد الواحد" دعا فيه إلى قيام جمهورية القلة

البسيط غير المركب"، والإنسان ذو البعد الواحد نتاج المجتمع الحديث الذي تتلخص حاجاته في تحقيق معدلات متزايدة من الرفاهية والاستهلاك القائمة على التقدم العلمي والصناعي والمادي، حيث تظهر فيه المؤسسات الضخمة التي تغزو الفرد وتحتويه وترشده وتشيئه وتوظفه لتحقيق الأهداف التي حددتها [1229].

وبهذا تكون العلمانية الشاملة قد حررت الإنسان من المعايير المطلقة للمجتمع التقليدي، وتمت تنقيته من كل المبادئ باستثناء مبدأ السعادة و"إمتاع الذات"، وتم تفريغه من كل المقاصد والقيم إلا مقصد "البقاء" وحفظ النفس، وأصبحت المقدرة الأساسية عنده هي القدرة على التكيف مع القوى الاجتماعية المهيمنة وأداء الوظيفة الموكلة إليه، بحيث أصبحت أحلامه تتركز على السلع، ويرى ذاته باعتباره منتجا ومستهلكا وحسب.أي: أنه يرى تحقّق ذاته يكمن في حصوله على السّلع التي تشبع رغباته داخل مجال السّلع، حتى يصبح أحادي البعد تماما (متسلعاومتشيئا،مرتبطا تماما بسوق السلع حدوده لا تتجاوز عالم السوق والسلع [1230].

ومما يجدر التذكير به هنا أن الأساس الإنساني يعد ركيزة هامة في التفكير العلماني، وله امتدادات في الفلسفة الغربية، فلم يتوقف عند رواده مثل "نيتشه" و"هايدجر" بل أصبح منهجا في التفكير الغربي عموما، وشملت تأثيراته وانعكست على كل مناحي الحياة .

❖ مناقشة النزعة الإنسانية :

لا يستطيع أحد أن ينكر ما حققه مبدأ "النزعة الإنسانية " من عطاءات كبرى للحياة الإنسانية،بل إنه من الإنصاف القول أن ما شهدته البشرية منذ القرن السادس عشر وما بعده كان بفعل إلهامات هذا المبدإ، ما جعله يؤمن بالإرادة الإنسانية فانطلق الإنسان يبذل الجهود لاكتشاف الكونوما فيه

واستند في تأليف فلسفته إلى نظريتين هما: نظرية فرويد، ونظرية ماركس .ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني كواشف زيوف ص397/396/395

[1229]-ينظر عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد1 ص 145.

[1230]- ينظر المرجع نفسه.

من أسرار في كل العوالم، تقوده الثقة الكبيرة بخطواته العلمية، ومتحررا من القيود والأغلال التي فرضها واقع الحياة الأوروبية في عهود الظلام .

فالتنويه ببعض الجوانب الإيجابية للنزعة الإنسانية —بغض النظر عن جذورها الفلسفية – من العدل الذي يجب أن يقال، إذ حررت الإرادة الإنسانية ومن المكابرة إنكار ذلك، ولاسيما أن هذه النزعة ظهرت في ظروف كان الإنسان مسحوق الحقوق في أوروبا. فيكفي أنها نبهت أن هذا الكائن له اعتبار في الحياة الإنسانية بغض النظرعن التصورات الأخرى التي حاولت أن ترد له الاعتبار بها .

كما يلفت نظرنا أن الاهتمام بالإنسان لم ينطلق من فراغ. وإنما بالرجوع إلى التراث اليوناني فهو الذي حدد خط سير هذه النزعة باعتباره مرجعية لها.ولا يشك أحد في صحة بعض المنطلقات في هذا الأساس وقدرة تفاعلها مع الوجدان الإنساني مما ساعد على السرعة الهائلة التي صاحبت حركة الإنسان وهو يتحكم في قوانين الطبيعة .

لكن هذا التنويه ببعض إيجابيات الاهتمام بالإنسان وتدليل كل شيء أمامه، لا يعني أبدا التسليم بصحة التصورات التي يقوم عليها هذا الأساس،فالخلل واضح في بنائه الفكري وفي آثاره في الحياة الإنسانية في مختلف جوانبها، حيث خابت الآمال التي علقت على هذا المبدإ، حتى بدأنا نشهد تيارا فلسفيا منذ مطلع القرن التاسع عشر يدعو للتغرب عن الذات وتحطيم هذا الصنم الموهوم، وسيطرتعلى الساحة العلمية والفلسفية مقولة جديدة هي الإعلان عن "موت الإنسان"، بدلا من "أصالة الإنسان " ثم هيمنت مقولة "موت الإله". ويمكن رصد الخلل في هذا الأساس فيما يلي :

أول ما يمكن ملاحظته أن الفلسفة الغربية عموما تتسم بالتطرف في الانتقال من فكرة إلى أخرى، وافتقادها للتوازن في تبني الأفكار. فكان الإنسان مسحوق الحقوق تماما في مرحلة، ثم أعطيت له من الحقوق مالا يستحقها في مرحلة أخرى. فالانتقاد الذي يمكن أن يوجّه ابتداء لهذا الأساس هو الإفراط في تقدير الإنسان.فقد ظلت النظريات الفلسفية تتلاعب بمضامين الإنسانية وتغيرها مع كل أفكار جديدة.

أما منظومة التوحيد فتتميز بوصفها رؤيةلتفسير العالم، بحيث تعطي نظرة شاملة على الواقع والحقيقة والزمان والمكان والتاريخ البشري، والإنسان بوصفه صاحب الفعل الأخلاقي، وهدف الفعل الأخلاقي، كان من الواجب أن تكون طبيعة الكائن الإنساني معلومة البنية والهدف، وعلى أساسها تتحدد كل العلاقات، ويتجسد النسق الإنساني، وتتحقق أهدافه بمراعاة ما يحيط به من معطيات.

ففهم هذه الطبيعة هو الذي يحدد مكانة الإنسان، وهل فعلا لا سلطة فوق الذات، ولا سعادة إلا من خلال الذات، ولا قيمة أخلاقية إلا من خلال تحقيق الذات،ولا حقيقة إلا من خلال معرفة الذات؟ فالإنسان في نظر عقيدة التوحيد مخلوق مميّز جدير بالتكريم والرّفعةوذو مكانة خاصة في هذا الوجود ذلك أنه "المخلوق الوحيد في الكرة الأرضية الذي سمَا بعقله وروحه إلى ما يشبه المعجزات ويكفي أن يكون هو الذي حطم الذرة وعرف أسرارها وبدأ يطلق طاقتها "[1231]

فالإنسان يظل محتفظا بهذه المنزلة من التكريم مادام منسجما مع وظيفته الأخلاقية المحددة من قبل الخالق. وهنا يبدأ الاختلاف بين الرؤية الإسلامية والرؤية العلمانية لإنسانية الإنسان. فإنسانية الإنسان في الرؤية العلمانية مستمدة من ذاته، وهذا أدى إلى الرفع من قيمة الإنسان إلى حد تأليهه، كما نجد ذلك في المذهب الطبيعي المستمد من مذهب الإغريق في الإنسانية " لذلك لم يكن الإغريقي يشعر بالامتعاض عند تصوير آلهته في حالة خداع أو تآمر على بعضهم، أو تعاطي العهر أو الفحش أو السرقة أو الاعتداء أو الغيرة أو الانتقام، أو غير ذلك من الأفعال الوحشية .وإذ كانت هذه الأفعال تُعد من جنس مادة الحياة البشرية، فقد كان ينظر إليها على أنها طبيعية،مثل الفضائل وصفات الكمال. وكلاهما كما هو حال الطبيعة، يُعد من الصفات الإلهية التي تستحق التأمل في شكلها الجمالي، كما تستحق العبادة والمحاكاة من جانب الإنسان،لأن الآلهة هي صورة الإنسان الإلهية ." [1232]

[1231]–محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام ص 25

[1232]– إسماعيل راجي الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية ص141/ 142

ولا يخفى أن المسيحية في طور التكوين عارضت الرؤية الإغريقية الرومية إذ وقفت على النقيض الأقصى منها فنزلت بقدر الإنسان من خلال الخطيئة الأصلية وأعلنته مخلوقا هابطا أو كتلة خاطئة أي النزول بالإنسان إلى مستوى من الخطيئة المطلقة الشاملة الفطرية الحتمية التي لا يقوى على انتشال نفسه منها أي بشر بجهده الخاص. فجاءت فكرة الخلاص التي انتشل فيها الإله هذا الإنسان من الخطيئة التي تستحق أن يصلب الإله لأجلها.

وهنا لا يفوتنا تسجيل ملاحظة مهمة، وهي أن الفكر الغربي ظل يتقلب بين أنواع من التطرف في غياب التوجيه الصحيح، وهو ما آل إليه التفكير العلماني الذي جاء ليعدل الميزان، غير أنه تطرف وانحرف – في غياب المعيار السليم – فرفع الإنسانية إلى ذلك التقديس، كرد فعل على النظرة الكنسية التي انحطت بالإنسان وقهرته . فلما جاءت العلمانية لترد له الاعتبار، اعتلت به إلى منصة الإله أو شبه إله، ولذلك ظل الاضطراب متواصلا في تحديد مفهوم الإنسانية بين المدارس الفلسفية المختلفة. وهذا الإفراط يرجع بالأساس إلى :

1-الخلل في تصور طبيعة الإنسان وأنه مخلوق ثنائي التركيب روح ومادة .

2- فساد في مصدر هذه التصورات الفلسفة الإغريقية .

3 – بناء التصورات حول الإنسان في لحظة رد فعل لم تكن متوازنة .

بينما في الإسلام تستمد قيمة الإنسان من مدى انسجامه مع الأمانة التي حمّله الله إياها، يقول إسماعيل راجي الفاروقي :" يؤكد الإسلام أن التكليف هو أساس إنسانية الإنسان ومعناها ومحتواها . وقبول الإنسان بتحمل هذا العبء يرفعه فوق مستوى بقية المخلوقات، بل فوق مستوى الملائكة، فليس غير الإنسان قادر على تحمّل المسؤولية، فهي تمثل مغزاه الكوني . وثمة بون شاسع بين إنسانية الإسلام هذه، وبين غيرها من الإنسانيات "[1233] .

[1233]- إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 141

فمنظومة التوحيد وحدها هي التي حددت مفهوما سليما لإنسانية الإنسان، ومن ثم نتج عن المفهوم السليم حسن التعامل مع كيانه كما ينبه على ذلك إسماعيل راجي الفاروقي حيث يقول : "فهي تحترم الإنسان بوصفه إنسانا، ومخلوقا دون تأليه أو تحقير، وهي وحدها تحدد قيمة الإنسان بما يزينه من فضائل ...وهي وحدها تحدد الفضائل والمثل العليا في الحياة البشرية، في إطار محتويات الحياة الطبيعية نفسها بدلا من أن تنكرها، وبهذا تغدو إنسانية التوحيد أخلاقية إضافة إلى صفتها في توكيد الحياة "[1234].

6 . الأساس السادس : النفعية

ظهر الاتجاه النفعي في الفلسفة الغربية المعاصرة في القرن الثامن عشر الميلادي، وهو امتداد للحضارة الغربية في عمومها، ولكنه بلغ أوجّه ودخل في كل المجالات وهيمن على التفكير العلمي في القرن العشرين على يد "وليم جيمس" و "جون ديوي" وإن كان منشؤه معزوا إلى "جيرمي بنتهام" ثم "بيرس" وخلفه "تشيلر"[1235] حيث سيطر التصور العلماني على الحياة الغربية، و" هو مذهب فلسفي يقرر أن الفعل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة،أي :الفكرة التي تحققها التجربة، فكل ما يتحقق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية" [1236].

ويعد مذهب المنفعة مرحلة من مراحل الاتجاه التجريبي الحسي، فهو يعتمد على الواقع المادي ويركن إلى التجربة في تفسير القضايا وتقرير صدقها، فهولا يؤمن بشيء إلا إذا نتج عن فعله منفعة وفائدة يؤكدها الواقع العملي يقول بيرس :" إنه لكي تتضح دلالة الفكرة فإننا نحتاج إلى تحديد السلوك

[1234]- المرجع نفسه ص 143/142

[1235]-تشيلر فرديناند : فيلسوف ألماني عاش بين (1864-1937) صاحب المذهب الإنساني عرضه في كتابه "دراسات في المذهب الإنساني " (1907)هذا المذهب هو البراجماتزم وجاء اسمه من ان المعرفة هي الشرط الأول للعمل المنتج وأنها أمر إنساني تابع لأغراضنا الحيوية ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 430

2-جميل صليبا : المعجم الفلسفي 203/1

الملائم للواقع، وللحصول على الوضوح التام في أفكارنا عن موضوع، فإننا لا نحتاج إلا إلى الاهتمام بالآثار العملية التي يتضمنها أي موضوع نتصوره"[1237].

وبناء على هذا فإن كل فكرة لا تنتهي إلى نتيجة عملية ملموسة من خلال التجربة على أرض الواقع تكون باطلة، فالنجاح العملي هو معيار أو محك صدق الأفكار، أما الحق لذاته والباطل لذاته بصرف النظر عما يترتب عنهما من وجوه النفع والضرر فحديث خرافة، وبهذا يكون المذهب النفعي الذي يعد أساسا للفكرة العلمانية قد أقصى كل المبادئ والغايات والمثل العليا وحصر الحقيقة في النتائج العملية المادية الآنية أي القيمة الفورية للفكر .

ومن هنا فاللذة والسعادة والمنفعة هي الغاية القصوى المرغوب فيها عامة للفعل الإنساني التي تسعى إليها القيم في المجتمع الغربي. فكما أن قيمة العمل تقاس بعد ظهور نتيجته، فكذلك القيم تنشأ تجريبيا وتتطور بواسطة الإنسان،وليس مقياسها العقل أو الدين أو الوحي .

وبهذا فالمنفعة مبدأ جميع الأفكار سواء كان ذلك في مجال المعرفة أو في مجال القيم، فمبدأ الأخلاق هو إذن المنفعة، والمنفعة علاقة بين الذات والموضوع في رأي "بنتام " الذي وضع حسابا لمعرفة اللذات سمي بحساب اللذات،فكلما كانت اللذة أشد وأخصب وأصفى ومدتها أطول وعدد المشتركين فيها أكبر والحصول عليها أوكد وأقربكان تفضيلها على غيرها أنفع [1238].ويسعى مذهب المنفعة إذن إلى التوفيق بين المنفعة الفردية، والمنفعة العامة، وإلى تحقيق السعادة التي هي اللذة الخالية من الألم والتي لا تنفصل عن المنفعة. ومن أبرز رواد هذا المذهب القدامى والمحدثين :

[1237]–تشارلز بيرس : أبحاث مجمعة، العدد الخامس ص420 ووليم جيمس :إرادة الاعتقاد، السفر الثاني النقل والدين ص 16 ترجمة محمد حب الله نقلا عن سامية عبد الرحمن القيم الأخلاقية ص 112

[1238]– ينظر جلال الدين سعيد معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 473

-أبيقور الذي يقول :"إننا نتنازل أحيانا عن لذات كثيرة نظرا لما تخلفه من إزعاج، كما أننا نفضل عليها آلاما شديدة إذا كانت هذه الآلام تسمح بعد مكابدتها طويلا بالفوز بلذة أعظم، وعلى هذا الأساس فإن كل لذة في ذاتها خير،إلا أنه لا ينبغي أن نبحث عن كل اللذات ..."

-أما غييو فيشيد بأستاذه أبيقور ولكنه يدعو لهندسة الفكر البشري بما يتوافق مع المنفعة :"إن أبيقور هو المؤسس الحقيقي للأخلاق النفعية ... و يجوز أن نعتبر مذهبه محاولة ... من أجل تنظيم الفكر البشري وفقا للمنفعة ...".

-أما سبينوزا فيرى أن الفرق بين الرجل الفاضل والعاجز يتمثل في السعي للحصول على المنفعة المادية التي تحفظ كيانه فيقول :"كلما سعى المرء للبحث عما ينفعه، أي إلى حفظ كيانه، وكلما كان قادرا على ذلك كان إنسانا فاضلا ؛ وعلى العكس فإنه بقدر إغفاله المحافظة على ما ينفعه أي على كيانه كان عاجزا".

- لكن ستيوارت ميل فيجعل معيار الأعمال من حيث الحسن والقبح بناء على ما تحققه من منافع: "يقرر المذهب الذي يؤسس الأخلاق على المنفعة أو على مبدأ السعادة الشاملة أن الأعمال تكون طيبة بقدر ما تساعد على الزيادة في السعادة وقبيحة بقدر ما تسهم في إنتاج عكس ذلك".

-في حين أن برودون يرى أن العدل قيمة مادام يحقق منفعة فيقول :" إننا نسمي مذهبا نفعيا المذهب الذي يرد مفهوم العدل إلى مفهوم المنفعة، والذي يجعل بالتالي من الفائدة مبدأ الحق والأخلاق " [1239]

هذه مجموعة من أقوال رواد الفلسفة في الغرب توضح مبدأ المنفعة الذي يقوم عليه الفكر العلماني في تصوره للحياة، والذي يتطلب الرد عليه، باعتباره أساسا دمر العلاقات الإنسانية، وكان من وراء أكبر مآسيها .

[1239]- جلال الدين سعيد معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 474

❖ **مناقشة أساس النفعية**

إذا كانت العلمانية بمنطقها البراجماتي ركزت على الجوانب الغريزية للإنسان، واجتهدت في البحث عن طرق توفير الحاجيات وإشباعها، مما دفع الإنسان لاستفزاز قدراته، فاستطاع أن يوفر ما يحتاج إلى حد التخمة، فإن هذا الجنوح إلى الجانب المادي في الكيان الإنساني جعل التفكير العلماني يُفقد الحياة خصيصة التوازن التي تجعل منه كائنا مكرما .وبهذا تكون العلمانية قد انحرفت بمنطقها النفعي وأدخلت الإنسان في أزمة أخلاقية، إذ حولته إلى مخلوق شرس، يشعل الحروب ويدمر الحضارة لأجل إشباع الغرائز . فالحضارة الغربية ربطت تفكير الإنسان بالمنافع إلى درجة أنها صنعت منه طفلا رضيعا يطالب باستمرار برضاعته الزجاجية .

بينما نجد أن منظومة التوحيد تتجه بالإنسان اتجاها أخلاقيا، يلبي الحاجات الإنسانية، ويحقق مصلحته الحقيقية، ولكن برؤيا متميزة، إذ لا يمكن تحديد الحاجات إلا بعد معرفة طبيعة الإنسان ومهمته في الأرض، هل لمجرد المتعة وتوفير اللذة وتحقيق المنافع المادية، أم أن المنفعة، واللذة وسائر المتع، هي وسائل لتحقيق غايات أنبل .

لذلك ينطلق التصور الإسلامي في تأكيد قضية مهمة، وهي أن الله خلق الجنس البشري ليثبت الناس أخلاقيتهم من خلال أعمالهم، وأن نتائج سعيهم في الدنيا يحاسبون عليها في الآخرة بالثواب، أو العقاب.ومن ثم يضيف التوحيد أن الله أنشأ الإنسان في الأرض ليعمرها أي: ليسير في أرجائها، ويأكل من ثمراتها، ويتمتع بخيرها وجمالها، فتزدهر الأرض ويكون هو من المفلحين، وفي هذا إبراز لأهمية الوجود الإنساني في الزمان والمكان في هذا العالم، فكل شيء مسخر له ليؤدي فعله الأخلاقي، وبذلك يحقق الجزء الأعلى من إرادة الله، من غير أن يحرم نفسه من تلبية حاجاته وإشباع غرائزه المسؤول عنها،

{قُلْمَنْحَرَّمَزِينَةَاللَّهِالَّتِيأَخْرَجَلِعِبَادِهِوَالْطَّيِّبَاتِمِنَالرِّزْقِقُلْهِيلِلَّذِينَآمَنُواْفِيالْحَيَاةِالدُّنْيَاخَالِصَةًيَوْمَالْقِيَامَةِكَذَلِكَنُفَصِّلُ لآيَاتِلِقَوْمٍيَعْلَمُونَ}[1240].

لا شك أن هذه الرؤية تدفع الإنسان إلى أن يطوِّر قدراته إلى أقصى درجة ممكنه فيستكشف العوالم المحيطة به، حتى يتمكن من الإفادة من جميع خيرات الطبيعة التي بفضلها يحقق البقاء، ويتخذها وسيلة للارتقاء، ومن ثم فهو يخلق العناصر التي تصنع منها الحضارة، و القوى الاجتماعية الضرورية لنموها وتطورها، ويرتقي في سلم الكمال كإنجاز أخلاقي تكون فيه كلمة الله هي العليا .وهنا تكون " الحاجة إلى مبدإ خارق يعلو على جميع الميول والرغبات في الطبيعة، وفي إطاره يمكن فهم جميع تناقضاتها واختلافاتها، هي مسألة يجب إدراكها"[1241] والحاجة إلى أهمية هذا المبدإ تكمن في كونه يوفر الحماية حتى لا يؤخذ الإنسان بجمال الطبيعة وزينتها، فتقوده إلى المأساة أو السطحية في تصور الحياة، ومن ثم تصرفه عن تنظيم سعيه وتحقيق التناسق بين جميع القيم .

والتوحيد بهذا يكون مناقضا للرهبنة والاعتزال والزهد وإنكار العالم المادي،وفي ذات الوقت فإن القبول يؤكد التوحيد أن سعي الإنسان يقوم على أساس ينبغي أن يفحص باستمرار حتى لا ينتقل إلى النقيض بالمبالغة في تحصيل القيم المادية على حساب عناصر أخرى كما حدث وما زال يحدث في الرؤية العلمانية للمنفعة، إذن أين تكمن منفعة الإنسان ومصلحته ؟.

إذا كانت العلمانية ترى أن مصلحة الإنسان في تحقيق كل رغباته، فإن الحضارة الغربية (محضن العلمانية) أخذت تولي اهتماما ب"المذهب الطبيعي"[1242] الذي حملها إلى التطرف في قبول الطبيعة

[1240] سورة الأعراف الآية : 32

[1241]– إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 144

[1242]– المذهب الطبيعي : المذهب الطبيعي في الفلسفة هو تفسير تطور المجتمع بقوانين الطبيعة مثل الأحوال المناخية والبيئية والجغرافية والاختلافات البيولوجية "وظائف الأعضاء "والاختلافات الجنسية بين الشعوب، ويقوم هذا المذهب على مركزية الإنسان في الكون وقام بدور كبير في القرنين السابع عشر والثامن عشر ضد النزعة الروحية، ويتفرع عنه المذهب الطبيعي الأخلاقي الذي من بين مبادئه أن مفهوم الخير يتحدد عن طريق من المفهوم الطبيعي مثل اللذة والتطور البيولوجي، ومن فروعه أيضا المذهب الطبيعي في دراسة الإنسان وهو مذهب مادي سبق الماركسية وأعد لها الأجواء ويعتبر الإنسان النتاج الأعلى للطبيعة ويؤكد وحدة الإنسان

دون أخلاق، أو منفعة دون قيم، حيث كان صراع الإنسان الغربي موجها إلى الكنيسة وجميع ما تمثله.

في حين أن التّصور الإسلامي للإنسان ووظيفته جعلت الضمانة الوحيدة لتحقيق مصلحة الإنسان هو إنتاج الحضارة المتوازنة التي تلبي الحاجات والغرائز، دون إغفال العناصر الأخرى للشخصية الإنسانية.والواقعأن الرؤية التي يقدمها التوحيد لا يتنافى محتواها مع الحياة والعالم والزمان والتاريخ والعقل، ومثل هذا التصوّر "المتوازن" لا يقدمه سوى التوحيد من بين المذاهب الفكرية المعروفة. ف "نتائج الإيمان بالله تكاد جميعا تعود إلى الصلابة في مواجهة إغراء المتع المادية في الحياة وزينتها وهي التي تصورها الآية الكريمة في قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءَ الْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ }[1243] .

فالآية جعلت مصدر الشهوات ثلاثة: المرأة، والولد، والمال بشتى أصنافه. والمفهوم من إغراء المتع المادية هو الوقوع تحت تأثيرها والتبعية لها وبعبارة أخرى إخضاع التفكير والاعتقاد والسلوك لها، أما الاستمتاع بها دون التبعية لها، فذلك أمر طبيعي لا يفوّت على الإنسان حريته في التفكير والاعتقاد والسلوك والارتقاء. قال تعالى:{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[1244] وهنا يفرّق الإسلام إذن بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا في الحدود التي لا تجعل العقل الإنساني الذي يعتبر –مصدر الإرادة– يخضع لسيطرة مصادر الشهوات من : النساء والبنين والأموال في صوّرها المتنوعة، ومن الإغراق فيها وعدم الإفاقة من إغرائها وفتنها[1245].

والطبيعة، ومضاد لمفهوم أن الإنسان جسد وروح .ينظر سعيد بن ناصر الغامدي :الانحراف العقدي في أدب الحداثة، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة المجلد الأول ط1 سنة 2003ص110

[1243]–سورة آل عمران الآية: 14

[1244]– سورة الأعراف الآية : 32

[1245]– محمد البهي : طبقية المجتمع الأوروبي ص 56/55

وبهذا يكون الإسلام دينا ملائما للطبيعة البشرية، لأنه لا يوصي بالحرمان من متع الحياة، ولا بالعزلة عنها، ولا يوصي بالرهبنة التي تجعل المادة أمرا غير مقبول، بل يطلب من المؤمنين عدم تحريم الطيبات، ومتع الحياة المادية، لأن تحريمها يكون خروجا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وإنما يأمر بعدم الإسراف فيها وجعلها غاية نهائية لوجود الإنسان قال تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }[1246].

وبهذا يؤكد أن روحية الإسلام وأخلقيته ضرورة حتمية لاستقامة التفكير، والاعتقاد، والسلوك، لأن الأخذ بهذه الروحية يوفر للعقل الإنساني ظروف الصحة والسلامة، وهي الظروف التي تجعله يمارس سيادته، وحريته دون أن يحرم من متع بدنه، ودون أن يلزم بتكاليف لا قبل له بها .

وتقوم الروحية في الإسلام على الإيمان بالله أولا، ثم القيام بأداء العبادات الكبرى في الإسلام، التي يسهم كل منها بقسط في تحرير الذات الإنسانية وتدريبها على سلوك الطريق المستقيم حيث يسير العقل في أمان نحو غايته الكبرى التي حددها خالق الإنسان قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }[1247].

-ففي الصلاة يواجه الإنسان فيها ربه يناشده فيها أن يحول بينه وبين الإغراء بمتع الحياة الدنيا وأن يعينه للصمود في وجه كل ما من شأنه أن يصرفه عن الغايات النبيلة قال الله تعالى :{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[1248].

-والصوم تجربة في سني حياة الإنسان يخرج منها المسلم بمعنى التفوق والقدرة على تجاوز الحاجة إلى هذه المتع في الوقت المحدد، وجعلها عديمة الأثر، إذا تعارضت تلبيتها مع تحقيق أهداف روحية وإنسانية أهم وأبعد عمقا في حياة الإنسان.

[1246]- سورة الأعراف الآية : 31

[1247]-سورة الانشقاق الآية :6

[1248]-سورة الفاتحة الآية :5

-وأداء الزكاة ما هو إلا انتصار على الأنانية، وبذل المال لتحقيق التضامن في المجتمع الإسلامي .

-والحج ليس إلا توجها جماعيا للمسلمين لا يفرق بينهم مظهر مادي من مظاهر التفرقة في أعراض الحياة الدنيا، بحيث صَفَت نفوسهم وأمكن لذواتهم أن تكون على قوة وإرادة تحول دون أن تقع تحت إغراء متع الحياة الدنيا، وفيه من البذل ما يسترخص المتع في سبيل تحقيق الغاية العظمى وهي إرضاء الله تعالى .

فالمتع المادية في الإسلام ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسائل لتحقيق البقاء، واستشعار نعم الله على الإنسان، وتقوية الجسم كي يقوى على أداء الطاعة والواجب المنوط به، بل إن المتع المادية في الإسلام لها غاية أخلاقية، بينما هي في التصور العلماني المادي هدف في ذاته يعيش العلماني ليأكل ويستمتع ولا غاية له بعد ذلك.

7- الأساس السابع : التطور.

تعتبر "نظرية التطور" نظرية قديمة ترجع جذورها التاريخية إلى الفلسفة اليونانية (أمبادوقليدس، وأرسطو ...) غير أنها لم تصبح "نظرية علمية" إلا في العصور الأخيرة عندما شرع العالم الطبيعي "لا مارك" (1809) في تعليل نشوء الأنواع الحية وتحولها المستمر بتأثير من البيئة والوراثة ...وذلك على خلاف الفرضية العلمية التي قدّمها داروين في كتابه عن أصل الأنواع (1859م) والتي تفسر تطور الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، بحيث يكون البقاء دوما للأفضل "[1249] وفي هذا المجال ننقل بعض الأقوال للاتجاه الذي يقول بالتطور بالمعنى العلماني :

-يقول برغسون:" يظهر لنا تطور الحياة منذ بدايتها حتى الإنسان على صورة تيار من الوعي يندمج في المادة باحثا فيها عن مسالك تحتية، محاولا التسرب يمينا ويسارا، مندفعا إلى الأمام اندفاعا قويا أو

[1249]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص112/111

ضعيفا ومنكسرا في غالب الأحيان على الصخر إلا أن هذا التيار ينجح في اتجاه ما على الأقلفي الاختراقوفي البروز إلى النور من جديد هذا الاتجاه هو خط التطورالذي يقود إلى ظهور الإنسان ".

– أما "فاندل" فيقول :" ما عسى أن يكون التطور في الأزمنة المقبلة ...فالإنسان ليس سوى مرحلة انتقالية من مراحل حركة التطور وصعود الفكر ".

–وأما جان رستان : "لنتخلى عن الفكرة الخلابة القائلة بلا نهاية التطور، فالإنسان سيبقى أعظم نجاح يكلّل الحياة ".

–ويضيف أرون غراسي :"لم يعد التطور مشكوكا فيه في نظر الطبيعيين المعاصرين، إلا أنهم لا يتفقون في تفسير التحولات التي يشهدها العالم الحي "[1250].

فالنظرة التي تقدمها نظرية النشوء والتطور أن جميع الأنواع تنحدر من نوع بدائي واحد، وأنها ارتقت إلى ما هي عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة، وفي ذلك يقول داروين موضحا نظريته في الباب التاسع من كتابه أصل الأنواع : " ومن الأمور الحتمية عندي أنه إذا أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيوانا مثل الزراف"[1251].

وبهذا تكون فكرة التطور من أهم الأسس التي يقوم عليها الفكر العلماني، إذ ارتفعت هذه النظرية إلى مستوى الحقيقة– بل والحقيقة الحتمية –في الثقافة الغربية المعاصرة. فبالعودة إلى الجذور التي انطلقت منها العلمانية نجد فكرة التطور تتصدر كل الأفكار. ومن ثم كانت أساسا هاما في الفكر العلماني في بداية عصر النهضة الأوروبية، وقد جاءت هذه الفكرة لتنسف مبدأ الثبات الذي رسخته الكنيسة زمنا طويلا. لذلك أصبحت العلمانية الشاملة ترتكز على هذا الأساس في شرحها لكل القضايا.

[1250]– جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 114/113

[1251]– وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ص 129 نقلا عن origion ofspecies ;p.169

فقد كانت الداروينية واحدة من الأحداث الكبرى في الثقافة الغربية الحديثة إذ غيّرت في الفكر والفلسفة، والدراسات الاجتماعية، والحياة العامة، تغييرا كبيرا وخطيرا. ولهذا لا تذكر الخطوط الكبرى للفكر العلماني إلا وتبرز الداروينية في المقدمة، حيث بدأ التطور عضويا عند داروين ثم أصبح التطور قانونا كونيا عاما لا يخرج عنه شيئ، ففي إطار تفسير التحولات الجارية أنكر فكرة الخلق، والقول بالعناية الإلهية، ومن ثم كانت مرتكزا للفكر العلماني المادي الذي تدعم بهذه النظرية لمحاربة الإيمان بالله والتوجه إلى الإلحاد والنظرة المادية للوجود .وما يتبع ذلك من اتصاف الوجود بالعبثية والخلو من الحكمة والغاية، وتجريد الإنسان من إنسانيته بتحويله إلى مجرد حيوان تاريخه يبدأ من الأميبيا .

وعلى أساس النظرة التطورية للإنسان قامت فلسفات وعلوم إنسانية كالفلسفة الماركسية، والوجودية الملحدة، وعلم الاجتماع لدى دور كايم، وعلم النفس لدى فرويد وأتباعه، وكل هذه النظريات جاءت لتعلن هروبها من الدين وتعاليمه. ولما تمكنت هذه النظرية من العقل الأوروبي عُمّمت على الوجود كله، فكل ما في الوجود من الأشياء المادية والعضوية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية هو نتاج لتطور متواصل لا يقف عند حد، ومن ثم ليس هناك حقيقة نهائية، فكل شيئ نسبي، وإنما هناك مراتب في ترقي الوجود [1252].

❖ –مناقشة فكرة التطور :

تعتبر كلمة "التطور "من أهم الكلمات التي شغلت الأذهان في الفكر الحديث، وهي بحق تعبّر عن ظاهرة طبيعية، غير أن مضمون هذا التطور ومجالاته هي موضع جدال كبير بين المنظومة الإسلامية و المنظومة العلمانية، والتي تحتاج إلى مدارسة علمية لمعرفة نطاق عمل فكرة التطور، ومن ثم هل التطور مطلق أم مقيد؟ وما هو المجال الذي تسير فيه عملية التطور؟وما هو القانون الذي يحكمها؟.

[1252] – ينظر عبد الرحمن بن زيد الزنيدي : السلفية وقضايا العصر مركز الدراسات والإعلام دار اشبيليا ط1 سنة 1998 ص 397/396

وإذ نقوم بمناقشة هذه الفكرة نؤكد على مسألة مهمة وهي : أن هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطور عشوائيا، وفي غير نظام أو قانون يحكمها، ذلك أن المفهوم العلمي الصحيح يفرض أن تكون هناك عناصر ثابتة تحفظ هوية الشيء (الجوهر) وعناصر يجري عليها قانون التطور (الأعراض). وأن هناك تناسقا يجري بين الثبات والتطور، هذا المفهوم العلمي يتوافق مع طبيعة الحياة، حيث أن هناك ثبات في كليات الكون[1253] ومظاهره العامة مع وجود تغيرات مستمرة في كثير من الظواهر، كما أنه ينسجم مع نظرية الإسلام في التطور والثبات، فالفكر الإسلامي يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد الكلية، مع إمكانية تطور الجزئيات والتفاصيل والفرعيات التي لا يؤثر تطورها على جوهر الأشياء.

فيؤكد أنور الجندي أن الفكر الإسلامي يستمد هذا المفهوم من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات فيقول :" ويستمد الفكر الإسلامي مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعا وعنده أن هناك عنصرين : أحدهما يمثل الثبات والاستقرار، والآخر يمثل التحوّل والانتقال، وأنه لا سبيل لإلغاء أحدهما، ولا سبيل إلى القول بالتّطور المطلق وإنكار عنصر الثبات ولا بد من الارتباط بين العنصرين وإقامة التوازن بينهما، وأنه من المستحيل عقلا ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل ولا أن يستعلي أحدهما أو يسيطر فالثبات والاستقرار هو الجمود، والتطور المستمر هو الفناء "[1254].

أما في الفكر العلماني فقد نشأت فكرة التطورفي مجال الفكر والثقافة نتيجة للخطوات التي اتخذها خلفاء "داروين" الذين نقلوا فكرة التطور من مجال الدراسات البيولوجية إلى مجال الدراسات الاجتماعية، حين تدخلت قوى ذات أهداف معينة، فركزت على فكرة التطور وأعطتها بعدا خطيرا

[1253]– لم تتطور العلوم إلا بعد قبول الرأي القائل إن الأحداث الطبيعية تتبع دائما القوانين الثابتة نفسها، وهذا بالضبط ما قدمه الإسلام لتطوير العلم الطبيعي بين أتباعه، فإصرار الإسلام على انتظام الكون بأمر الله وفر الجو الضروري لنمو الروح العلمية .لكن الاعتقاد المعاكس القائل بأن الطبيعة لا ثبات لها، بل هي مجال فعل آلهة تعسفية تجسدت فيه، أو قوى سحرية تسيطر عليه، هو اعتقاد لا يمكن أن يؤدي إلى علم .

[1254]– ينظر أنو الجندي : مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام (سلسلة البحوث الإسلامية) ص 42

دفعها إلى مجال العقائد الثابتة، مع إفرادها بالسلطان على كل القيم الأخلاقية والاجتماعية، وكان ذلك جريا مع الاتجاه المادي الخالص الذي يحاول تفسير قضايا الوجود تفسيرا ماديا،ويعمل على إنتاج كل ما هو مخالف للكنيسة التي أساءت عرض الدين المسيحي. فما موقف الإسلام من فكرة التطور التي كانت وما زالت تمثل أساسا هاما في التفكير العلماني الرافض للدين والقائل بالتطور اللانهائي وفي كل المجالات؟

أخذت العلمانية بمذهب داروين في التصور للنمو والتطور، وتجسدت في الحداثة والعصرنة والتقدم وتعتبر ابنة " الفكرة العلمانية"، التي تدّعي لنفسها البحث الدائم عن الجديد، ومن ثم تقطع الماضي عن الحاضر، وبالتالي تلغي الدين واللغة والتراث، ولها الرغبة الدائمة في النمو والتطور من خلال النظرة المادية المعزولة عن الدار الآخرة، ولكنها تناقض نفسها فتأخذ من الماضي وَثَنِيَتَه وكفره وإلحاده وأساطيره."[1255].بينما"النمو والتطور في نظر الإسلام يحافظ على الجذور والساق كيف لا ؟وهي جذور الإيمان والتوحيد. والعلمانية والحداثة تقطع الجذور والساق، وتهدم وتدمر ! إنها تجتث الجذور (الفطرة) وتقطع الساق والأغصان، ثم تتوهم أنها ستأتي بشيء جديد"[1256].

كما اعتنق "أوغست كونت" مذهب التطور عندما نادى بضرورة قيام دين جديد هو الدين الوضعي الذي يقوم على أساس عبادة الإنسانية كفكرة تحل محل الله –سبحانه وتعالى –في الأديان السماوية، وخلاصة المذهب أن الفكرة التي استحوذت على" كونت "فكرة التقدم الإنساني حيث وضع قانونا للتقدم الإنساني وهو قانون الحالات الثلاث، الذي يتقدم العقل البشري بمقتضاه من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الميثافيزيقية ثم إلى المرحلة الوضعية الأخيرة ." وقد قسم كونت المرحلة اللاهوتية إلى ثلاث مراحل: المرحلة الوثنية –والمرحلة التعددية –والمرحلة التوحيدية وهي المرحلة الأخيرة التي بدأت بظهور النصرانية والإسلام.

[1255]–عدنان رضا النحوي : المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية ص69.

[1256]– المرجع نفسه ص 70/69

والمرحلة الوضعية بدأت بالثورة الفرنسية، وهي المرحلة التي تفسر الظواهر عن طريق الاستقراء القائم على الملاحظة. ويطبّق كونت هذا القانون في التّطور على جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل الحضارة والسياسة والفن والأخلاق"[1257].

وقد وجه طائفة من المفكرين نقدا لفكرة التطور التي جاء بها "كونت" والمتمثلة في قانون الحالات الثلاث بما يلي:

1-يعتبر"كونت" أن الإنسانية كل لا يتجزأ، وأنها خاضعة لقانون واحد، بينما نجد أن هناك مجتمعات لا تسير في تطورها، وتقدمها على نمط واحد في فهم وإدراك الظواهر.

2-يختلف الطريق الذي سلكه العقل الإنساني عن ذلك الذي حدده كونت، ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعي للأمور يسير مع الفهم الديني، أو الميثافيزيقي.

3-لا يستمد قانون المراحل الثلاث حقائقه من التاريخ، وإنما هو فكرة فلسفية اختار لها كونت مجتمعات معينة، حاول تطبيقها عليها دون استقراء لتاريخ المجتمعات الإنسانية كلها وهو أمر غير ميسور البتة فتعميم الحكم مغالطة مفضوحة.

4- يفسر هذا القانون الحضارة بأنها "التقدم"، بينما نجد الحضارة عبارة عن مستوى عام للحياة المادية والروحية للمجتمع دون النظر إلى تقدمها وتأخرها.

ويتضح مما سبق أن المذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد، يركز المعرفة اليقينية في الظواهر التجريبية، وينكر وجود معرفة مطلقة، ويقول إن التقدم بدأ في العلوم الطبيعية لكي يصل إلى المرحلة الوضعية التي هي قمة التخلي عن كل العقائد الدينية، وبهذا يكون المذهب الوضعي في دعوته للتطور في الحقيقة هو دعوة لرفض الفكرة الدينية من المجتمع الإنساني .

[1257]- مانع بن حماد الجهني الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: المجلد الثاني ص 812

أما فيما يخص القول بتطور الإنسان من الناحية البيولوجية فهذا محض افتراء. ويكفي أن يكون أول من أبطل نظرية داروين تلامذته."إننا نقول إن الإنسان تطور، وهذا صحيح، ولكنه يصدق فقط بالنسبة لتاريخه البشري الخارجي .الإنسان كذلك مخلوق، وقد انصب في وعيه ليس فقط أنه مختلف عن الحيوان، ولكن أيضا أن معنى حياته لا يتحقق إلا بإنكار الحيوان الذي بداخله،فإذا كان الإنسان ابن الطبيعة فكيف تسنى له أن يبدأ في معارضة الطبيعة ؟.

8-**الأساس الثامن: العقلانية**

ذكر الجرجاني في تعريفاته أن: العقل مأخوذ من عقال البعير، يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل.ثم أشار إلى عدة معان تطلق على العقل منها :

-العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد.

-العقل ما يعقل به حقائق الأشياء .

-وقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل.

-وعرِّف العقل ب "الملكة": هو علم بالضرورات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات"[1258].

وجاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: "يطلق لفظ العقل على معان كثيرة منها :

-أن العقل "جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها "[1259].

يلاحظ من خلال هذه التعريفات أن العقل طاقة إدراكية،لها القدرة على فهم واستيعاب ما يجري حول الإنسان باستخدام المعارف القبلية،والقواعد الكلية لتنظيم المعارف .

[1258]-الجرجاني : التعريفات ص 65

[1259]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 390

وجاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية:"والعقلانية: هي الإقرار بأولية العقل وبأن المعرفة تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية لا عن التجارب الحسية، لأن هذه الأخيرة لا تفيد علما كليا .

-والمذهب العقلي مقابل للمذهب التجريبي الذي يزعم أن كل ما في العقل فقد تولد من الحس والتجربة .

-وتعبر النزعة العقلانية عن الإيمان بالعقل وبقدرته على إدراك الحقيقة والواقع باعتبار أن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء "[1260]

والعقلانية: من "العقل" وأضيف لها "الألف والنون" للمبالغة و"الياء للنسبة والتاء" للتأنيث، وهي وصف منسوب إلى العقل، ودلالة النسبة هي ارتكاز الوصف، ويخص الجانب المعرفي، فهو يمثل المبادئ الكلية المنظمة للمعرفة، ولذلك نجد أن هناك تعريفات متنوعة للعقل يختلف من حقل لآخر، إلا أنه عند أصحاب المذهب العقلي يعتبرونه : "عبارة عن مجموعة من المبادئ البديهية القبلية المنظمة للمعرفة، المتميزة بضروريتها "صدقها" وكليتها وعموميتها واستقلالها عن كل تجربة"[1261].

ويقوم هذا الأساس في الفكر العلماني على "تقديس العقل"، حيث اتسم "عصر التنوير" بالإسراف في سلطان العقل واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة، وأنه كفيل بحل كل ألغاز الحياة وأسرار الكون، وهذا الاتجاه العقلي لم يكن موقفه محمودا اتجاه قضايا الدين عموما، وخاصة أن الكنيسة فشلت فشلا ذريعا في عرض قضايا الدين على الصورة التي أنزله الله عليها .

ففي البداية لم تكن النزعة الإلحادية منتشرة بين عامة الناس، وإن كانوا قد فقدوا الثقة في الكنيسة باعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة. ويرجع ظهور العقلانية إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي،حيث غلب على التفكير في هذه الفترة وجود خصومة فكرية بين الدين والعقل واتجه

[1260]--جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 291/290

[1261] -ينظر القيم بين الإسلام والغرب ص 119 نقلا عن توفيق الطويل أسس الفلسفة ص 351/350

التفكير فيه إلى إخضاع الدين للعقل، وقد كان هذا رد فعل قوي على الكنيسة التي اضطهدت العلماء واعتبرت كل كشف علمي كفر وزندقة وإن كان صحيحا .

والحق أن معاداة العقل للدين المسيحي كان له الأسباب المعقولة، وخاصة بعد ظهور الفكر العلمي الذي حقق قفزات نوعية في الحياة الغربية، حيث وجد العقلانيون سندهم الذي يؤكد اتجاههم . ومن ثم كان المحور الذي تدور حوله الفلسفة العقلية هو أن العقل وحده هو مصدر المعرفة اليقينية، وأن له الحق الكامل في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، سياسية كانت أم أخلاقية أم دينية، وكان لهذا الاتجاه رواد وأنصار، من أبرزهم الفيلسوف الفرنسي "فولتير ""ولا ميتري"،والفيلسوف الألماني "سيديستون وولف"و"ليسنج"، والفيلسوف الانجليزي "جون لوك" وغيرهم[1262] . وقد تميّز عصر التنوير بمميزات منها:

1-نمو الشعور بقيمة العقل وقدرته الكبيرة على تحديد مستقبل الإنسانية بعد أن يتحرر من الكنيسة وتعاليمها .

2-رد كل الأحداث وإخضاعها لحكم العقل، بما في ذلك تكوين الدولة، والجماعة والاقتصاد والسياسة والتربية وحتى الدين نفسه يخضع لأسس عقلية .

3-محاولة إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله، لأن العقلانية من حقها الإشراف والتوجيه لكل مناحي الحياة بلا استثناء .

4- تمجيد العلم التجريبي باعتباره النتاج العظيم للإله الجديد " العقل البشري، ومن ثم فالمقياس الحقيقي الذي تقاس به الحضارة ومدى تقدمها هو العلم التجريبي[1263].

وبهذا تتجلى الرؤية العلمانية وهي أن العالم يتبع قوانين مطردة ثابتة، وأن العقل الإنساني أداة كافية يمكن للإنسان أن يدرك من خلالها الواقع الذي يحيط به، فسيادة المعرفة الإنسانية ضمن إطار

[1262] -محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 322

[1263] - ينظر محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 323/322

التصور العقلي،والذي أصبح بدوره أساسا لعلمنة المعرفة،و أصبح الإنسان محور الفلسفة الغربية الحديثة، وكل النظريات التي نحت إلى علمنة المعرفة كان لها تأثيرات جوهرية في تشكيل التصور الاجتماعي والسياسي الغربي،ويشير أحمد داود أوغلوا إلى هذا الترابط بين الجانب المعرفي في العقلانية الغربية والجوانب الأخرى فيقول: "إلا أن هنالك ارتباطا مستمرا بين هذه الفلسفاتمن منظور تأثيرها على النظريات الاجتماعية والسياسية.فنظرية كوبرنيكس في الكون كتفسير كوني جديد قد دفعت الرب والإنسان وجوديا من مركز الفلسفة إلى موقع هامشي فيها"[1264].

وانتقلت السيادة للعقل كمصدر للمعرفة على غيره، وغيره الذي ينازعه "السيادة " في ذلك الوقت هو "الدين "، فعصر "التنوير" ويسمى أيضا العصر "الإنساني"[1265] لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله فيه ." ويسمى أيضا بعصر الإيمان الفلسفي بإله[1266] ليس له وحي وليس بخالق للعالم، إذ كل مسميات هذه الأسماء من خواصه، كما يذكر محمد البهي[1267] .

ويعتبر محمد قطب أن العقلانية مذهب قديم يمثله أشد ما يمثله سقراط وأرسطو ومعناها " التفسير العقلاني لكل شيئ في الوجود .أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه "[1268].

ففي الحضارة الإغريقية اقتحم العقل ميدانا ليس من شأنه وهو غير مؤهل لاقتحامه بطبيعته،ولا قدرة له على الخوض فيه، فيما يتعلق بقضية البحث في الذات الإلهية، فليس في قدرته أن يلم بها فضلا

[1264] –فتحي حسن ملكاوي : نحو نظام معرفي إسلامي أعمال حلقة دراسية عمان 1998 ص121

[1265] –الإنسانية : التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضا عن القربى من الله كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة .محمد البهي ص 324/323

[1266] –الإله الذي ليس له وحي ولا خَلق يتفق مع تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها . محمد البهي المرجع السابق ص 324

[1267] – محمد البهي : المرجع نفسه ص323

[1268]– محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ص 500

عن أن يحيط بكنهها.وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة لقضية الألوهية والكون المادي وما بينهما من علاقة .

ولقد ظلت الاتجاهات الفلسفية الإغريقية مسيطرة على الفكر الأوروبي قرونا طويلة، حتى جاءت الكنيسة ففرضت منطقها، ولم يعد العقل هو المرجع في قضايا الوجود، إنما صار هو الوحي –كما تقدّمه الكنيسة – وانحصرت مهمة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسية تلك، ولمحاولة تقديمه في ثوب "معقول"خاضت الكنيسة في قضية الألوهية وتخبطت تخبطا من نوع جديد، حين ألهّت المسيح مرة، وجعلته ابن الله مرة. وبسبب هذه الألغاز حُجِر على العقل الأوروبي أن يعمل وأن يفكر .كما يشير إلى ذلك محمد قطب[1269].

ويؤكد هيمنة هذه العقلنة في مرحلة سيادة النص أو الدين محمد البهي فيقول :"كان الدين أو النص سائدا طوال القرون الوسطى في توجيه الإنسان، سواء في سلوكه أو تنظيم جماعته أو في فهمه للطبيعة .وكان يقصد بالدين " المسيحية "وكان يراد من المسيحية " الكثلكة " وكانت الكثلكة تعبر عن" البابوية " !

والبابوية نظام كنسي ركز "السلطة العليا" باسم الله في يد البابا وقصر حق تفسير الكتاب المقدس "على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى، وسَوَّى في الاعتبار بين نص الكتاب ومفاهيم الكنيسة الكاثوليكية ...وجعل عقيدة "التثليث " عقيدة أصيلة في المسيحية، كما جعل الاعتراف "بالخطأ "و"صكوك الغفران" من رسوم العبادة وغير ذلك مما يتصل بالكاثوليكية كمذهب وكنظام لاهوتي"[1270].

وقد استمر اعتبار الوحي كمصدر للمعرفة وسخرت الكنيسة العقل- عقل رجال الدين الذين زعموا لأنفسهم حق صياغة العقائد وفرضها على الناس بالقوة – لإخراج هذا المزيج المتنافر المتناقض في

[1269]- المرجع نفسه 507/506

[1270]-محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص 320

صورة فلسفية تبدو للناس مستساغة. ولما كان رجال الدين ذاتهم لا يثقون في سلامة بنيان هذه العقائد وصحتها المطلقة لم يسمحوا بمناقشتها، ومن حاول مناقشتها اعتبر "مهرطقا" مارقا، وقد تزهق روحه، أو يهدر دمه لئلا تجر المناقشة إلى القول بأنها عقائد غير معقولة على الرغم من كل الصناعة العقلية التي وضعت فيها، وكان الحجر على العقل في ذلك يتم باسم "الدين".

وبحركة "مارثن لوثر" و"كالفن" الإصلاحية فُتح باب النقاش والجدل الفكري،حيث تعرضت المسيحية –إن صح التعبير – لمراجعات في كثير من القضايا التي أثارها لوثر بحيث أقر أن الإنجيل وحده المصدر للحقيقة المسيحية دون تفسيراته وشرحه، وأوضح رأيه في عقيدة التثليث وقضية صكوك الغفران، كما حارب سلطة البابا، وطالب بحرية البحث في الكتاب المقدس، وفي عهد سيادة الدين كمصدر للمعرفة –سواء في عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية أو في عهد الإصلاح الديني للوثر – نُظر إلى الكتاب المقدس وهو الإنجيل على أنه فوق العقل ...على معنى أن للعقل أن يبحث ويرى إن جاز له أن يبحث ويرى – ولكن للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل ويحكم .

حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر لاحت بوادر ما عرف ب " عصر التنوير " في تاريخ الفلسفة الأوروبية، والذي تميّز بطابع فكري مشترك في دوائر الفكر الثلاث : الإنجليزي والألماني والفرنسي:

-فمن فلاسفته في ألمانيا "وولف" "ولسنج".

-وفي انجلترا :جون لوك.

-وفي فرنسا فولتير، وبايل، ولامتري .

هؤلاء الفلاسفة كوّنوا الطابع الفكري لهذه المرحلة حيث بدأ ينمو الشعور بقدرة العقل على صياغة الحياة الإنسانية. فللعقل – في نظر أصحاب عصر التنوير– الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة،وما فيها من سياسة وقانون ودين.

والحقيقة التاريخية تؤكد أن فكرة سيادة العقل تعرضت لنقد لاذع من أنصار الدين من أرباب الفكر منهم "بلانش "الذي اعتبر أن فلسفة التنوير أخطأت عندما اعتبرت العقل وحده يمكن أن يوجد الحقيقة وينظم الجماعة ... وأخطأت كذلك عندما أرادت أن تقيم صورة العلاقة المشتركة بين الأفراد على ما بينهم من ميل ومحبة إنسانية، دون ما يربطهم من قبل من رباط اللغة والدين والتقاليد ..." ويبرر "بلانش" اتجاهه هذا برد كل شيئ إلى الوحي باعتباره مصدر الحقيقة فيقول:" ولهذا يمكن أن يعتبر "الوحي " وحده أساسا "للجماعة " ونظامها، كما يعتبر أساسا للمعرفة و"الحقيقة "معا"[1271].وفي المقابل دخل في هذا الصراع من أجل "سيادة العقل" الفيلسوف الألماني "فيشته" الذي أقام فلسفته على أساس من استخدام الإنسان لمبدأ النقيض[1272]، ثم تبعه في فلسفته هذه "هيجل"،ثم تبعهما "كارل ماركس" الذي استخدم المبدأ في فلسفته المادية. ومنطق (مبدأ النقيض) على النحو الذي استخدمه فيشته في تصور الإنسان لنفسه، وأكد في هذه الفلسفة على مجموعة من المبادئ :

-أن العقل مستقل تماما عن غيره وموجود من أجل نفسه، ووجوده هو وجوده هو، لا وجود غيره.

- أن ماهية العقل تتضح من العقل نفسه، وليس مما هو خارج عنه مغاير له.

وبهذا وصل فيشته إلى نتائج مفادها :

1-استقلال العقل في الوجود عن الجسم أو أي كائن وإلى سيادته على نفسه، وعلى غيره وهو العالم الخارجي عنه.

[1271]-محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص224

[1272]- مبدأ النقيض : يتلخص مبدأ النقيض في العمل للوصول إلى النتائج من الوجهة الفلسفية، قرر فيشته أن تصور الإنسان لنفسه وحده هو بداية الطريق، وأشبه بالمقدمات التي تستلزم نتائجها ... على النحو الذي حدد به نتائج فلسفته . ينظرمحمد البهي : المرجع السابق ص 327

2-ثم إلى حرية الإنسان في العمل حرية تامة، لا يشوبها شبه تحديد من غير الإنسان نفسه .

3-وأخيرا إلى تبعية عالم الأشياء في تصوره إلى العقل .

ومهما يكن من اتفاق أو اختلاف في بعض الجزئيات عن هؤلاء الفلاسفة،فإن المؤكد أن العقل نال مكانة الأولوية والسيادة المطلقة عند "فيشته" ونال السيادة على الطبيعة عند "هيجل "الذي يراه قانونا عاما للوجود تخضع له كائنات الطبيعة [1273]. ويمكن ان نلخص أهم المبادئ التي ترتكز عليها العقلانية فيما يلي:

1-أن العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كل شيء في الوجود .

2-يمكن الوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقلي .

3-عدم الإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات .

4-العقائد الدينية ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي .

وبعد هذا العرض لأساس العقلانية نحاول أن نوازن بينها وبين ما تذهب إليه الرؤية الإسلامية في تصور العقل وطاقاته ومدى قدرته على انتاج المعرفة .

❖ مناقشة أساس العقلانية :

لا شك أن الإشادة بدور العقل وأهميته تشترك فيه كثير من المذاهب والديانات،إلا أن الخلاف بينها يتركز في تحديد مجال عمل العقل، وعليه فإن العقلانية[1274] بالمفهوم الذي تدعو إليهالعلمانية يتفق

[1273]- ينظر محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص 328/ 329 /341

[1274]- رفع الفلاسفة العقل فوق الوحي، وأعطوه موقع الأفضلية عند الحكم، ولا شك أنهم مخطئون في ذلك . فالعقول مختلفة في أحكامها ومحدودة بل متناقضة . بينما يختلف التعريف الإسلامي للعقلانية عن التعريف الفلسفي، فيؤكد بأن العقلانية : هي رفع التناقض الذاتي .وهو تعريف له قيمة إضافية في إدامة ميراث السلف الصالح . ينظر إسماعيل الفاروقي أطلس الحضارة ص 152

مع منظومة الإسلام في بعض النقاط، لكنه يختلف معها في كثير من النقاط يمكن توضيح ذلك فيما يأتي :

على الرغم من اتفاق الجميع على أهمية العقل وقدراته إلا أن العقل مهما أثري عليه فهو مجرد أداة، يستمد قدراته من غيره، وبغير ذلك فلا يستطيع أن يقدم أي معارف للإنسان، لذلك من النقد الذي يوجّه لمن يجعلون السيادة للعقل ما يأتي :

1-إذا كان العقل قاصرا فكيف يعقل أن يتخذ طريقا وحيدا للحقيقة، وهناك في الوجود حقائق ليس من اختصاصه،لأن العقل لا يعمل إلا إذا زوّد بمعطيات من الخارج يطبق عليها القواعد التي ركبت فيه ليصل إلى نتائج يبرهن عليها بما يملك من قواعد، فإذا كانت القضايا من الغيب، فكيف يعلّلها، ويبرهن عليها وهو لا يملك معطياتها ؟ !

2-يؤكد الإسلام أن العقل يلتقط المعلومات ويقوم بتحليلها ثم إصدار أحكامه عليها،ويكون إدراكه للصواب على قدر توفر المعلومات والمعطيات، ومن ثم فالعقل ليس طاقة مستقلة كما يزعم العقلانيون قال تعالى :{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1275].

3-أن هذه الطاقة العقلية يمكن توظيفها بطرق إيجابية كما يمكن توظيفها بطرق سلبية، ومن ثم فليس كل ما يصدر عن العقل يقود إلى الحقيقة.أحيانا يمكن أن يقود العقل إلى كوارث بسبب أنه لم يتفطن لها أو لم يقدر حدوثها فتفاجئه بمعطيات تلحق أضرارا خطيرة بالإنسانية .

4-إذا كان العقل هو الذي يؤسس للمعرفة، فنحن نتساءل أي عقل ؟ هل العقل الأوروبي، أم العقل العربي، وهل هو العقل الفلسفي، أم العقل التجريبي أليس تلك عقول أيضا؟ !ومن هنا يستحيل أن يكون العقل مصدرا للمعرفة بإطلاق باعتبار التباين الكبير فيما يصدر عن العقول. وباعتبار تعدد زوايا كل قضية وليس باستطاعة أي عقل الإلمام بها في نفس الوقت.

[1275]- سورة النحل الآية :78

5- إذا كان الوجود الإنساني غير مُدْرك كله للإنسان، ومن ثم كيف يعقل أن يحلل العقل ما لا يملك معطياته ؟ أليس في هذا مغالطة كبيرة !وإذا افترضنا أن العقل له قدرة على التحليل والبرهنة والقياس، ألا يمكن أن يجري هذه العمليات أيضا للبرهنة على العقائد الدينية؟ فلماذا ترفضها العقلانية إن كانت صادقة في احتكامها للعقل؟ وهل صحيح أنها فعلا تلتزم بأحكام العقل على كل قضايا الوجود ؟. إن الواقع يشهد بخلاف ذلك .

أما من وجهة النظر الإسلامية فإن العقل له مكانته في منظومة عقيدة التوحيد، لكنه ليس عقلا بالمفهوم العلماني الذي يكون مرجعية لكل شيء، فالعقلانية –في نظر الإسلام . تمثل إحدى مكوّنات جوهر الحضارة الإسلامية بوصفها مبدأ منهجيا، فالعقل "أداة " تساهم في البناء المنهجي للمعرفة. ومن ثم فوظيفته تنظيم المعرفة، واستثمار المعطيات المحصّلة عن طريق الحواس وبناؤها منهجيا للوصول إلى الحقيقة، فإن العقلانية الإسلامية من هذا المنظور تقوم على ثلاثة أسس أو قوانين :

-الأول : رفض جميع مالا يتطابق مع الواقع.

-الثاني :إنكار التناقضات المطلقة .

-الثالث: الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة[1276].

ولا شك أن بناء الفكر على هذه الركائز يحقق العلمية في حياة المسلم، وقد أشار إسماعيل راجي الفاروقي إلى أهمية هذه الركائز في ترشيد المسلم،وهو يبحث عن الحقيقة، ففسر الركائز الثلاث فقال:

"فالقانون الأول: يحمي المسلم من الظن، أي من تكوين أي ادعاء بالمعرفة لا يسنده دليل أو إثبات، والقرآن الكريم صريح في وصف المعرفة غير المؤكدة، أنها مثال على " الظن" أو المعرفة المضللة التي يحظرها الله مهما كان هدفها ضئيلا.لذا يوصف المسلم بأنه شخص لا يدّعي بغير الحق .

[1276]- ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 136

والقانون الثاني: يحمي المسلم من التناقض البسيط من جهة، ومن التناقض الظاهر من جهة أخرى[1277]. أما القانون الثالث : أي الانفتاح عن الأدلة الجديدة أو المناقضة فإنه يحمي المسلم من الحرفية والتعصب والنزعة المحافظة المؤدية إلى الركود، كما يميل به إلى التواضع الفكري فيحمله إلى إلحاق عبارة " والله أعلم" بما يثبت أو ينكر من قول، والمسلم على قناعة بأن الحقيقة أكبر من أن يستطيع السيطرة عليها تماما "[1278].

ذلك أن الإيمان يساعد العقل على أن يكون نموه وتطوره خاليا من العقبات التي تجمّده وتعطّله أو تقوده لتبعية الغرائز التي تعد مصادر الشهوات والأنانية، وبهذه المساعدة تفسح له الطريق السليم للنمو والتطور. فيباشر العقل وظيفته في استقامة بعيدا عن ضغط الهوى والشهوة، وتحكُّم الغرائز، أو ما يسمى بالنفس " الأمارة بالسوء" .

لذلك يشيد الإسلام بحرية العقل في البحث عن الحقيقة مادام مسيطرا على الغرائز. لأن الحرية مصدر الإرادة في الإنسان، وبالإرادة وحدها يستطيع الإنسان أن يتجاوز العقبات في حياته . قال تعالى :{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1279] " فانتظار الشكر من الإنسان في هذه الآية على خلق السمع، والبصر، والفؤاد فيه، لا باعتبار أنها أجهزة طبيعية تؤدي دورها الطبيعي العادي للإنسان كما تؤدي ذات الدور للحيوان .ولكن باعتبار أنها مصادر علم وتوجيه، وهداية له...والإنسان في نظر الإسلام إذن

[1277]– العقلانية : لا تعني تقدم العقل على الوحي، بل رفض أي تناقض أساس بينهما، وتنظر العقلانية في الفرضيات المتناقضة وتعيد النظر فيها مرارا وتكرارا بحثا عن وجه ربما يكون قد تخطاه النظر والذي لو تم أخذه بعين الاعتبار لكشف عن العلاقة المتناقضة، وكذلك فإن العقلانية تقود مفسر الوحي –لا الوحي نفسه– إلى تفسير آخر خشية أن يكون قد فاته معنى غير ظاهر أو غير جلي، بحيث لو أعيد النظر فيه زال ما بدا له من غموض .ويؤدي مثل هذا إلى اللجوء إلى العقل أو الإدراك للتنسيق لا في هيئة الوحي نفسه، بل في مستوى التفسير والفهم البشري، ليجعل فهم الوحي عند المسلم متفقا مع ما تجمع من أدلة كشف عنها العقل ...فالعقل الذكي يهتدي بالوحي إذ يصر على وحدة مصدرين للحقيقة : الوحي والعقل ..ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 138/136

[1278]–– ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 138/136

[1279]– سورة النحل الآية: 78

ليس بالإدراك –الحسي والعقلي – وحده .إنما هو إنسان بإدراكه الذي وسيلته الرئيسية السمع والبصر، ثم بإيمانه كذلك الذي طريقه القلب أو الفؤاد ...وهي مسؤولية كون الإنسان إنسانا في : توجيهه، وفي سلوكه، وفي مواقفه وحلوله لمشاكل الحياة "[1280] قال تعالى {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً }[1281].

والفرق بين النظرتين –أي الإسلامية والعلمانية – ليس في الثقة في العقل وفي عدمها، بل في الاعتدال والمبالغة فيها، وليس في إبعاده عن وظيفته وهي التوجيه والهداية، وإنما في تمكينه من هذه الوظيفة . تلك – أي النظرة االعلمانية – نظرة تثق تمام الثقة في قدرة العقل الإنساني، وكذلك فإن الإسلام يثق بالعقل الإنساني كما يحتفظ له بدوره في حياة الإنسان، ولكنه فحسب لا يبالغ في هذه الثقة.فحرية العقل وقدرته في البحث تكون ضمن إطار العبودية لله وحده وتوجيهات الوحي، ذلك أن العقل أعجز من الكشف عن كثير من القضايا المتعلقة بالوجود الإنساني ووضع ميزان للخير والشر في علاقاته المختلفة حيث تنطلق الأهواء الفردية والجماعية بعيدا عن أي موجه أو ضابط أخلاقي[1282] .

لاريب أن العلمانية أرادت بمنطقها هذا أن تضع مغالطة مكشوفة إذ جعلت أمام الإنسانية خيارا إما أن تؤمن بالله أو أن تكون حرة، أي بين العقل والعلم والحرية والتقدم من جهة وبين الإيمان بالله والوحي من جهة أخرى، وهو خيار تعسفي وزائف وإفراز لتجربة غربية محدودة ومتصادمة مع الفطرة ومتناقضة فيما بين عقول مفكريها .

بينما تشهد تجربة الحضارة الإسلامية بما تأسست عليه من رؤية شمولية أنه لا تنوير حقيقيا يمكن أن تزدهر فيه كل أبعاد الشخصية الإنسانية المادية والروحية والعقلية،وتتعايش الحضارات والديانات

[1280]– محمد البهي : طبقية المجتمع الأوروبي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر دار الفكر بيروت ط1 سنة 1970 ص45

[1281]– سورة الإسراء الآية :36

[1282]– ينظر راشد الغنوشي : مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني ص 17/16

والأعراق وتعطي كل امكاناتها الحضارية في غير ما ينتجه العقل في إطار نور الوحي وهدايته، ذلك أن الإسلام يؤكد أن العقل البشري عطاء إلهي، رغم قدراته الهائلة، مصاب بعجز عن الإحاطة بكل أبعاد الإنسان، وغاية الوجود والمعايير الضابطة للاندفاعات والشهوات، الأمر الذي يجعل حرية العقل بدون الوحي كمركبة تسير بلا مصباح [1283] قال تعالى {وَمَنلَّمْيَجْعَلِاللَّهُلَهُنُوراًفَمَالَهُمِنُّورٍ}[1284].

لا شك وأن الإسلام بهذه الرؤية لا يلغي كسب العلمانية الغربية فيما أنجزت من تحرير للعقل وإبداعات علمية وتقنية وحريات ديمقراطية، بل يرحب بها ويهب لها الرؤية التكاملية والفكرة الموجهةبما لا يجعل منها وسائل للتسلط والتدمير. إنما هي مجرد وسائل ينبغي أن تسخَّر لتحقيق رضوان الله وخدمة العائلة البشرية والمحافظة على الكون وإعداد الإنسانية لنيل سعادة الدنيا والآخرة .

وبعد فقد ظهر لنا أن العلمانية الغربية أطلقت العنان للعقل، فكانت بهذا حريته لعنة على البشرية في كثير من جوانب حياتها، بدلا من أن تكون رحمة بها، ومن هنا فالأسس التي بنيت عليها العلمانية في الغرب أو في العالم العربي متهافتة وقاصرة لانفصالها عن الموجِّه والمرشد، ولا تعدو أن تكون في كثير من أسسها إلا أوهاما أو شبهات أُلبست ثوب العلم، واستطاعت أن تجد لها مكانا في هذه المرحلة التاريخية، بما توفر لها من ترسانة إعلامية تروّج لأفكارها، ولكونها تضغط على العقول بتلبية مطالب الغريزة، وباستغلال حالة الفراغ الروحي للشعوب .

فإذا كان قد تبيّن لنا أن الأسس التي بنيت عليها العلمانية هشّة، ولا تصمد أمام الحجة الفطرية ولا العقلية ولا العلمية ولا التاريخية ولا الدينية، وأنها في نفس الوقت تحمل أفكارا خطيرة إلى هذا الحد. فما موقف الإسلام من العلمانية ؟

[1283]- ينظر راشد الغنوشي : مرجع سابق ص 27

[1284]-سورة النور الآية :40

المبحث الثالث:موقف الفكر الإسلامي من العلمانية

المطلب الأول :موقف الفكر الإسلامي من الدخيل:

يؤمن الفكر الإسلامي بمبدإ التفاعل بين الحضارات وهو موقف وسط بين غُلوي "التبعية والتقليد" و"العزلة والانفتاح" وهو الموقف العادل الذي حكم ويحكم اللقاء بين الحضارات عبر كل مراحل التاريخ إلى يومنا هذا.

فالمسلمون في فترة الفتوحات تفاعلوا تفاعلا إيجابيا في كل لقاء حضاري مع مختلف الحضارات، فاستطاعوا أن ينتقوا من تلك الحضارات المزايا التي لا تتعارض مع قيم الإسلام،وتمازجت مع القيم الحضارية فشكلت نموذجا حضاريا تآلفت فيه الخبرة الإنسانية، وهناك نماذج من هذه اللقاءات توضِّح موقف المسلمين من الحضارات الكبرى، وما كان ينبغي أن يؤخذ وما كان يجب أن يترك في معادلة حكيمة يبرزها محمد عمارة فيقول :" -فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة الإسكندرية – في القرن الهجري الأول – ترجموا علوم الصّنعة – تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة – ولم يترجموا ديانات مصر الوثنية والنّصرانية –ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية أي أنهم أخذوا ما يدعم ذاتيتهم الثقافية الإسلامية المتميزة، لا ما يمسخها وينسخها ويشوّه خصوصيتها ..

وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني منذ عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب: (40ق هـ-23هـ، 584م-644م) فلقد أخذوا نظم الدواوين دون أن يأخذوا القانون الروماني، لأن عندهم الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها.

-وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية ..فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية .

-وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية ..إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها ..

– ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي ..فأخذوا العلوم الطبيعية والتجريبية دون أن يأخذوا وثنية الإغريق ..."[1285]

والحضارة الغربية عند التقائها بالحضارة الإسلامية إبّان نهضتها أخذت العلوم التجريبية والمنهج التجريبي والخبرات الإسلامية دون منظومة القيم الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين. لكنها لما استعمرت البلاد الإسلامية فرضت عليها منطقا آخر :" فلما جاء الاستعمار الغربي، ودمّر هذه النهضة، قلب الآية، فحرم بلادنا من العلوم التي تحتاجها، وفرض علينا مناهجه في القيم والعلوم الإنسانية والآداب والفنون . بل أصبحنا ندرس ديننا على أيدي المستشرقين وبمناهجهم المادية والوضعية العلمانية !..فدخلنا بذلك عصر التقليد للنموذج الغربي، وذبلت به ملكات الإبداع في محيطنا الإسلامي "[1286].

لذلك واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر مشكلة في غاية التعقيد والخطورة، استدعت من المسلمين أن يقفوا منها موقفا حكيما، ذلك أنه على طبيعة الموقف الذي يتخذه المسلمون اتجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كأمة لها شخصيتها وكيانها، وهي مشكلة الحضارة الغربية الفتيّة، التي تعد من أقوى الحضارات التي عرفها التاريخ، حيث برزت بهذه الإنجازات الضخمة في مرحلة نزل المستوى الحضاري للمسلمين إلى الحضيض. ومنثم مثلت فتنة عظيمة واضطرب الموقف منها. فكان هناك ثلاثة مواقف للعالم الإسلامي أمام هذه المشكلة الطريفة، وتتمثل في :

1_ موقف الرفض المطلق من الحضارة الغربية، والفكر الوافد وهو موقف معارض ثائر معتزل حائد لا يقتبس ولا يقبل منها شيئا، هذا الموقف الرافض ينتج عنه التخلف إذ لا يستفيد هذا الفريق من الخبرة الإنسانية، وهو ليس بموقف طبيعي ولا شرعي.

[1285]– محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ط2 سنة 2005 ص 267

[1286]– المرجع نفسه ص 268

وهذا الموقف يمثّل موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى .والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات، وأصحاب هذا الموقف يحلمون "بالمستحيل " ..! فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديما، فما بالنا في عصر ثورة الاتصال؟ !..

وهذا الخيار ضار – على فرض تحققه- لأن الانغلاق الثقافي يؤدي بأصحابه إلى الذبول والضمور والاضمحلال، وهو يشبه ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب، حيث يتغذى الجسم على ذاته فيستهلك هذه الذات[1287].

ومع ذلك فقد كان لهذا الموقف صداه في الساحة الإسلامية،من منطلق حماية الذات من هذا الخلل المناقض للقيم الإسلامية،وبخاصة في بعض المجالات التي يبدو أن تأثيرها يمس بجوهر القيم الأخلاقية كقضية المرأة وتحررها . وما زال هذا الموقف ساري المفعول ولكن بحدة أقل مما كان عليه، والحق يقال أن هذا الموقف أصيل، لأن في مصادر الأمة وميراثها ما يغني عن الارتماء في أحضان الآخر، والتفكير في تفعيل ما لدينا من القيم أجدى للأمة من الانفتاح غير المنضبط.

2_موقف الاستسلام والتقليد:ويصف محمد عمارة أصحاب هذا الموقف بأن صفحتهم بيضاء خالية من الخصوصية والذاتية الحضارية، تنطبع عليها كل ألوان الوافدوالمستورد[1288] وهو الموقف الذي يدعو إلى قبول الحضارة الغربية بكل حذافيرها، بعقائدها ونظمها وفلسفتها المادية ومناهجها الفكرية. وتبنِّي مفاهيم الحضارة الدخيلة، والتقليد والتبعية لما هو وافد ومستورد من الأفكار والنظريات العلمانية.

و الحقيقة أن محاكاة الحضارة الغربية لم يكن حلا للبلاد الإسلامية، فلم يزد كل من تركيا ومصر إلا ضعفا، وما يزال العالم الإسلامي مع تجربة الأجنبي الدخيل مريضا ممزقا متدهورا في صورته العامة،

[1287]-ينظر محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص 269

[1288]- محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص269

وظلت الهوة الحضارية بينه وبين بلاد العالم المتقدمة تزداد عمقا واتساعا لغير مصلحته.وسر فشل منطق التقليد الدخيل ليس أمرا يصعب فهمه أو تبيين أسبابه الموضوعية، فالأمم ككائن إنساني حي هي أشد تعقيدا من الأفراد في تكوينها وفي صعوبة دفعها وتحريكها للبناء والتغلب على مكامن الداء .فلكل أمة تكوينها (في قيمها وعقائدها ومفاهيمها ودوافعها ونفسيتها وتاريخها) شأنها في ذلك شأن مكوناتها من بني الإنسان، فإذا لم يتم التعامل معها بفهم تلك الجوانب، ومن خلال تلك المكونات والدوافع، فإن من الصعب تحريكها أو تحريك مكامن القوة والكفاح والبناء فيها.

فما يحرك كائنا إنسانيا قد لا يحرك كائنا إنسانيا آخر، وكذلك الحال بالنسبة للأمم، فما يحرك أمة من البشر قد لا يحرك أمة أخرى،ولكل أمة دوافعها وأولوياتها التي تتحرك على أساس منها،ومن الخطإ تجاهل دوافعها وأولوياتها والاندفاع نحو التقليد الأعمى،دون إدراك واع لخصوصيتها ولما بين الأمم من مميزات وفروقات، ومن ثم فالأمة الإسلامية لن يكون مستقبلها خيرا من حاضرها ولو على مدى قرون المحاكاة .

ولنضرب نموذجا نوضح به هذا الأمر: ففي باب الاقتصاد تم تبني المؤسسة البنكية الغربية تقليدا ومحاكاة، حيث أننا نجد المؤسسة البنكية في الغرب أنشئت لتلبي حاجات غربية في بيئتها، ولكن ذات المؤسسة عندما تم نقلها إلى البلاد الإسلامية كانت آثارها سلبية لاختلاف المنطلقات والقيم في المجال الاقتصادي، فوقع المسلم في حالة من التناقض بين طموحه للغنى والإعمار من جهة، وبين التعامل الربوي المحرم من جهة أخرى، وما يترتب عنه في الدنيا والآخرة، والحق أنه لا مجال في بنية هذا الضمير المسلم لتقبل الازدواجية، والتعارض .

ولهذا كان خيار قبول الدخيل المستورد حلا غير مناسب لتخلف الأمة، لأن الحل الحقيقي هو الذي يقدم تفسيرا عميقا وفهما جذريا لمشكلة التخلف، وهو أن تدرك القيادات السياسية والفكرية التي تتبنى هذا الخيار العلماني سواء التيار الماركسي أو القومي أو الليبرالي أن التقليد والمحاكاة لا يجلب لنا إلا مزيدا من ضياع الوقت والمعاناة لنا ولأمتنا،وأن الحل الحقيقي لا بد أن ينبع من واقع الأمة،

حيث تتفاعل فيه المكونات النفسية والبشرية والقيمية لتقوم بأداء الدور الحضاري الذي ينهي المحاولات الفاشلة ويرسم قسمات الحل الأصيل [1289].

3_ موقف الإفادة من الغرب: وهناك اتجاه ذهب إلى الإفادة من الغرب في مجالات محددة وبخاصة فيما يتعلق بالعلم التجريبي ؛لأن العلم محايد لا شرقي ولا غربي، وإنما هو تراكم للجهود الإنسانية عبر قرون من البحث من جميع بني الإنسان على اختلاف جنسياتهم. و إذا كانت الحكمة ضالة المؤمن يظل السؤال المطروح هو: أين هي مجالات الحكمة في التجربة الغربية ؟

حتى لا نخطئ في الإجابة لا بد من التفكير العميق، والدراسة المتأنية لانتقاء ما يجب أخذه من هذه الحضارة التي هيمن عليها التفكير المادي الإلحاديالمستوحى من الحضارة اليونانية والرومانية،ولا يغرنا موقف القبول بالحضارة الغربية بحلوها ومرها وبخيرها وشرها، الذي ذهب إليه "طه حسين "وأمثاله الذين كرسوا مفاهيم العلمانية في البلاد الإسلامية ومكّنوا للفكر العلماني، ورسخت أقدامه في عالم الحكم والسياسة وعالم الاقتصاد والإعلام والاجتماع، وامتدت يد العلمانية إلى كل مجال، وظلت تفرض منطقها إلى اليوم في كثير من بلاد المسلمين .على الرغم من أن تلك النظريات المطروحة في مجال النفس والأخلاق والاجتماع هي مجرد وجهات نظر وفروض لأفراد مطروحة في أفق البحث، وليست علوما بالمعنى المفهوم لكلمة "علم". فقد نجحت في تسويقه وإخراجه إخراجا له طابع علمي براق لتخدع به المسلمين المنبهرين بالتقدم العلمي، بعد أن خدعت به كثيرا من الأمم وتحقق لها ذلك بالفعل.

لكن الحقيقة أن هذه النظريات المتعلقة بفلسفة الحياة من العلوم الإنسانية، قد تستفيد منها أمم أخرى لم تجد لها منهج حياة، أو نظام مجتمع كأوروبا، التي كان دينها مقصورا على العبادة فقط،

[1289]- ينظر عبد الحميد أحمد أبو سليمان : أزمة العقل المسلم سلسلة إسلامية المعرفة دار القارئ العربي ط1سنة 1991ص36/35/34

ومن ثم وجدت نفسها في حاجة أن تضع لها نظاما اجتماعيا وسياسيا وقانونيا، حاولت أن تستمده من الحضارات السابقة، وهي تستهدف بيئاتها أولا .وتحاول هذه النظريات سواء ما اتصل بالنفس أو بالمجتمع أو بالأخلاق أن تقرر بأن الإنسان حيوان مادي لا تهمه إلا الغريزة أو لقمة العيش، وأنه مجبر ولا إرادة له،وأن الأسرة ليست فطرة، وأن الإنسان نبت في الأرض، وأن الدين غريب عنه ولم ينزل من السماء[1290] .

وهذا الموقف الثالث : هو الذي كان ينبغي أن يتعامل به مع الوافد فهو "الموقف العدل "من الثقافات العالمية عموما، والغربية خصوصا، وهو موقف "التفاعل " من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق "أو تفريط يؤدي إلى "التبعية " و"التقليد" و"الذوبان"، ومن شأن هذا "التفاعل" أن يميّز بين الخصوصية الثقافية للأمة الإسلامية والمتمثلة في منظومة القيم الإسلامية (منطلقات، ومفاهيم، وممارسات) والتي هي معايير القبول والرفض لما لدى الأخر .

ومن ثم يمكن التمييز بين "البصمة" الثقافية للأمة التي يجب أن تظل مرعيّة وحيّة ،فاعلّة ومتميّزة، مع إمكانية "مصافحة" كل الثقافات الأخرى والانفتاح على سائر الحضارات، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء كان في مجال العلوم الطبيعية الدقيقة والمحايدة، أو في تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها العمران المادي أو كان من المشترك الإنساني في ميادين الخبرات والتجارب الإنسانية النافعة التي ترقى بها الثقافة واللغة ولا تتناقض مع الأحكام الشرعية، فذلك مشترك إنساني مثله مثل الماء والهواء.

أما المسلمون فليسوا في حاجة إلى هذا الفكر العلماني وهذه النظريات والمناهج، لأن الإسلام كَفَاهم ذلك الأمر، حين يقدم لهم المنهج الرباني الجامع الذي يرسم وسائل التعامل مع الحياة والمجتمع والعلاقات الإنسانية على اختلافها، وذلك حتى يحميهم من هوى النفس ورغبات الذات، وتقلبات الحياة، فأغناهم عن أن يشرعوا لأنفسهم وحرّرهم من عبودية الإنسان، ووثنية الأصنام؛

[1290]-ينظر أنور الجندي : مجلة إقرأ عدد 426 عالمية الإسلام دار المعارف ص 137/136

لأن "الخصوصية الثقافية" هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي يبدع ويجدد.. بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال "[1291]. فما هو الموقف الشرعي من هذا الفكر ؟

المطلب الثاني : موقف علماء الأمة ومفكريها من العلمانية الشاملة :

دار في العالم الإسلامي جدل كبير حول موقف الإسلام من العلمانية، وهل يمكن أن يكون لها مكان في أوطاننا الإسلامية ؟ صحيح أن هذا السؤال كان لا ينبغي أن يطرح، ولكن انخداع كثير من المسلمين ووقوعهم في مغالطات . وذلك بسبب تلبُّس مفاهيمها بالعلم وما أحرزه الغرب من تطوّر كبير في شتى المجالات.. جعل من الواجب بيان حكم اتخاذ العلمانية بمضامينها منهجا للحياة.

فإذا اعتبرنا العلمانية مذهبا من مذاهب الحضارة الغربية الحديثة، لها تصوراتها ومنطلقاتها ومفاهيمها المستوحاة من الموروث الحضاري الغربي، وأنها نشأت في الغرب كرد فعل على استبداد الكنيسة، واحتكار اللاهوت للدنيا والدولة والاجتماع والمعارف والعلوم .فإنها إضافة إلى ذلك عملت على عزل السماء عن الأرض، وتحرير العمران الإنساني من الضوابط الدينية، وإطلاق الحرية للإنسان في سياسة المجتمع، وحررت القانون من القيم الإيمانية –وإذا كان هذا هو حال القضية في النموذج الحضاري الغربي – فإن العلمانية تتناقض مع الإسلام في المنطلقات والمفاهيم والممارسات، ومن ثم فهي مرفوضة من الناحية المبدئية .

والرفض المبدئي للعلمانية في المنظور الإسلامي يقوم على اعتبارات غاية في الأهمية وتتمثل في :

1_ أن التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية يتعدى حدود الخلق للمخلوقات إلى حيث يكون الله سبحانه وتعالى هو المدبر لكل عوالم وأمم وعمران المخلوقات .لذلك نجد أن القرآن الكريم سفه تصور الوثنية الجاهلية وهو ذاته التصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية، فهو في التصورين مجرد خالق، بينما التدبير للدنيا والعمران موكول في الأرسطية للإنسان وفي الجاهلية للشركاء والأصنام

[1291]– محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص 268

والطواغيت أيا كانت قال الله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }[1292]

فجعل الخلق لله والتدبير لغير الله تصور جاهلي مرفوض.قال تعالى:{وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }[1293] فهذه القسمة الشبيهة بالمفهوم العلماني لشعار " الدين لله، والوطن للجميع "يسفهها القرآن الكريم ويرفضها التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية .

وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام تصوره لنطاق عمل الذات الإلهية بأنه سبحانه خالق كل شيء، ومدبر كل أمر حتى ما هو مقدور للإنسان يدبره الإنسان بإرادة إلهية، وتكليف شرعي كخليفة لله تعالى، يلتزم شريعته التي تمثّل بنود عقد وعهد الاستخلاف، وكعبد لسيد الوجود . فلله سبحانه في التصور الإسلامي "الخلق "والتدبير جميعا. قال الله تعالى :{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[1294]وقال تعالى:{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى .قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }[1295] .

[1292]- سورة الزمر الآية :38

[1293]- سورة الأنعام الآية :136

[1294] سورة الأعراف الآية :54

[1295]-سورة طه الآية :50/49

ومن هنا يستحيل أن يتوافق في قلب المسلم تصوّر كون الله مدبّركل شيء، مع تصوّر يعزل السماء عن الأرض، ويحرر العمران الإنساني من ضوابط وحدود تدبير الله[1296].

2_ والمبرر الثاني لرفض العلمانية هو تصورهامكانة الإنسان : حيث تميّز ميراثنا الحضاري عن الميراث الحضاري الغربي في تصوّر نطاق عمل الذات الإلهية، ومن ثم في مكانة الإنسان في هذا الوجود ووظيفته ورؤيته لمختلف العلاقات الوجودية حيث يظهر التناقض صارخا مع العلمانية .

3_ أما في مجال التشريع فقد تميّزت فلسفة التشريع في النسق القانوني الإسلامي في المبادئ والقواعد والمقاصد، وهذا الجانب وضع إلهي، و تتضمن جانب الفقه الذي يعد من إبداع الفقهاء المسلمين المحكوم بمبادئ الشريعة وقواعدها وحدودها ومقاصدها .كما تميزت فلسفة الشريعة بكونها ربطت المنفعة بالأخلاق، وربطت المصلحة بالمقاصد الشرعية، وربطت سعادة الدنيا بالنجاة يوم القيامة، ومن ثم أغلقت الطريق أمام القانون الوضعي العلماني .مانعة إمكانية تعايشه مع النسق التشريعي الذي يحكم سلطات الأمة في التقنين بسيادة حاكمية الوضع الإلهي.

فالمصلحة التي يتغيّاها القانون الإلهي (القانون الإسلامي) هي المصلحة الشرعية المعتبرة لا مطلق المصلحةّ ، والمنفعة التي يريد الفقه الإسلامي جلبها ليست اللذة والشهوة أو مطلق المنفعة بالمعايير الدنيوية الخالصة للدنيا كما تذهب إليه الفلسفة الغربية العلمانية وغيرها من القضايا التي يظهر التناقض جليا لا يحتاج إلى بحث كثير.

وبناء على هذه المعطيات أصدر العلماء المسلمون رأيهم في العلمانية سواء الشاملة أو الجزئية لأنهما في النهاية طعن في علم الله تعالى الشامل للزمان والمكان. وقد اخترت بعضالنماذج من المفكرين والعلماء الذين كان لهم موقف صريح من العلمانية :

[1296]- ينظر محمد عمارة : الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية دار الشروق ط1 سنة 2003 ص33إلى 41.

أ- محمد صلاح الصاوي :أوضح محمد صلاح الصاوي موقفه من العلمانية وهو يرد على ما ذهب إليه علي عبد الرازق من زعمه أن أمور الدنيا قد تركها الله ورسوله لاجتهادات الناس، وأن الشريعة روحية محضة . فيقول :وواضح من كلامه أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط .أما ما بين الإنسان من المعاملات الدنيوية وتدبير الشؤون العامة فلا شأن للشريعة به وليس من مقاصدها. فهل في استطاعة الشيخ علي أن يشطر الدين الإسلامي شطرين ويلغي منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عرض الحائط" ؟

ويتساءل :"هل يرى الشيخ علي أن تدبير أمور الدنيا وسياسة الناس أهون عند الله من مشْيَة يقول الله فيها :{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً }[1297] وأهون عند الله من شيء من المال يقول الله في شأنه :{وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }[1298] وأهون عند الله من صاع شعير أو رطل ملح يقول الله في شأنهما: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ }[1299].

وما يقول الشيخ في مثل قوله تعالى:{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً }[1300] وقوله تعالى:{وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ }[1301] وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً }[1302].

[1297]- سورة الإسراء الآية :37

[1298]- سورة النساء الآية :5

[1299]- سورة الشعراء الآية :181

[1300]-سورة النساء الآية: 105

[1301]-سورة المائدة الآية :49

[1302]-محمد صلاح الصاوي : بين الإسلام والعلمانية الآفاق الدولية للإعلام ط1سنة 1413 هـ ص40

ب–ويرى مصطفى صبري :" أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه، ولقد كان في كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون في البلاد الإسلامية كيدا للدين ومحاولة للخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أذى وأشد كيدا"[1303] .

ج–ولم يكن رأي محمد نقيب العطاس أقل مما ذهب إليه هؤلاء المفكرون حيث يقول :"إن العلمنة ليست فقط رؤية غير إسلامية للوجود، بل إنها تقف موقفا مناهضا للإسلام نفسه، ولذلك فالإسلام يرفض العلمنة ومآلاتها النهائية ما ظهر منها وما بطن .وذلك يستوجب على المسلمين رفضها وتطهير فكرهم وحياتهم من مظاهرها، إذ هي في الواقع سم يفتك بالعقيدة الحقة والإيمان الصحيح "[1304] .

ويبرر ما ذهب إليه استنادا إلى مضمون هذه اللفظة الذي يهدم رؤية الإسلام لحقيقة الحياة، وأن العلمانية تعد بأفكارها حجابا يستر عنا الحقيقة التي يساق إليها البشر وهي الآخرة فيقول :" إن أقرب كلمة تصلح أن تكون مقابلا لمصطلح العلمانية هي ما أشار إليه القرآن الكريم بعبارة "الحياة الدنيا " . فلفظ الدنيا المشتق من فعل "دنا " يعني كون الشيء قد جعل قريبا، وعلى ذلك فالعالم قد جعل قريبا من وعي الإنسان وخبرته الحسية والعقلية .ولأن ما جعل قريبا منا محيط بنا من كل جانب بحيث إنه يبهرنا ويبعث الدهشة في نفوسنا، فإنه من المحتم أن يصرفنا ويلهينا عن الوعي لمصيرنا النهائي الذي يتجاوز هذه الحياة، أي الآخرة "[1305]

د–أما طه عبد الرحمن وفي معرض حديثه ونقده لجهود الصحوة أو اليقظة، أو كما يسميه "الانبعاث الإسلامي الجديد" وقلة اهتمام الصحوة بالجانب الروحي في الممارسة الإسلامية وتسابقها إلى

[1303]– مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ج4 ص281

[1304]–محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 67

[1305]– محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 68

الاهتمام بالجانب المادي والسياسي والاقتصادي، وبهذا تكون قد أنزلت الفرع منزلة الأصل، فيرجع سبب تقديم هذا الجانب المادي إلى أمرين :

أحدهما :استعجال المسلم تدارك التقدم الحضاري .

والثاني :وقوعه في محاكاة الحداثة الغربية .

وعند تحليله للسبب الثاني قال :" لا يصح للمسلم أن يقلّد النمط الحداثي للغرب، لأن هذا النمط بني أساسا على نبذ الأخلاق نبذا كاملا، وعلى اعتبار دخولها في العلم أو في التقنية سببا من أسباب التقهقر وإضعاف الإنتاجية فيهما، ومتى خلا العلم أو التقنية من الأخلاق، اتخذ منحى ماديا لا يلبث أن ينقطع عن النفع "[1306].

هـ –ويؤكد القرضاوي على أن العلمانية لا يمكن أن يكون لها موقف محايد من الإسلام، لأن الإسلام يواجه العلمانية بشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية التي لا تتجزأ، ويرى الإنسان كيانا واحدا لا ينفصم، ولا يقبل الإسلام إلا أن يوجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه فيقول :"ولا يقبل الإسلام إلا أن يصحب الإنسان بتوجيهه وتشريعه في رحلة الحياة منذ أن يولد، وإلى أن يموت، بل قبل أن يولد، وبعد أن يموت"[1307] وهي لا تسلم له بهذا الشمول "ومن هنا يصطدم الإسلام بالعلمانية ولابد في أكثر من مجال أن يصطدم بها في كل شعبة من شعب تعاليمه الأربع الرئيسية العقائد، والعبادات، والأخلاق، والتشريع"[1308] وإن كان يرى أن بعضها أخف من بعض:

_ **فهناك ملحدون** :وبعض هؤلاء ملحدون ينكرون حقائق الإسلام بل يسخرون من تعاليمه وبخاصة عقائده من وحي ومعجزة ورسالة وغيرها، وهؤلاء بحاجة أن يؤمنوا بالله ورسالته .

[1306]– طه عبد الرحمن : سؤال الأخلاق ص 189/188

[1307]–يوسف القرضاوي :التطرف العلماني في مواجهة الإسلام نموذج تركيا وتونس ص 28

[1308]– يوسف القرضاوي : التطرف العلماني في مواجهة الإسلام نموذج تركيا وتونس ص29

_ **وهناك مقلدون** : وبعض هؤلاء ليسوا ملحدين من الأعماق، وإنما هم مقلدون للملحدين، لكونهم جهلة بالإسلام، وهؤلاء في حاجة إلى تعليم وتنوير بحقيقة الإسلام، وكشف الشبهات من قبل الراسخين في العلم الذين يصلحون لمحاورة العقلانيين المعاصرين، فهم مفتونون بالغرب المسيطر في كثير من مجالات الحياة .

_ **وهناك عملاء** : فبعض هؤلاء حاقدون على الإسلام : دينه وكتابه وتاريخه وأمته، ويحملون روحا صليبية غذّاها تعصب أعمى، وغل دفين، وسياسات ماكرة . فهم أذناب منهزمون يتقربون للغرب ليرضى عنهم، ويحققوا بعض المصالح الذاتية. وفي مثل هؤلاء قال تعالى:{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }[1309] وهؤلاء لا حيلة فيهم إلا أن يشفي الله صدورهم ويزيح الغشاوة عن أعينهم فيتبيّنوا فضل الإسلام.

و-أما محمد قطب فيرى أنه "إذا صحت دعوى العلمانيين في الغرب بالنسبة للدين الكنسي، أنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما في شؤون الآخر-وهي كما رأينا ليست صحيحة في الحقيقة – فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح على الإطلاق "[1310] . ويدلل على ذلك بأن الدين الحق لا يمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة، فالالتزام بالشريعة –في دين الله الحق – هو مقتضى العقيدة ذاتها، مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله .. بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى، وهو الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم إلى شريعة الله، ورفض التحاكم إلى شريعة سوى شريعة الله "[1311]. قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}[1312]

[1309]- سورة البقرة الآية :120

[1310]-محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 495

[1311]-محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 496

[1312]- سورة النساء الآية :65

ويؤكد محمد قطب أن إخلاص العبادة يقتضي الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى، ويقتضي توجيه الشعائر التعبدية له وحده، ويقتضي كذلك التصديق بكل ما جاء من عند الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، والاحتكام إلى شريعته وحدها دون الشرائع الجاهلية التي يصنعها البشر والمتمثلة في:

1-الاعتقاد بوجود آلهة مع الله .

2-توجيه الشعائر التعبدية لغير الله .

3-التحليل والتحريم من دون الله .

"وكلها مجتمعة شرك، وكل واحدة بمفردها شرك لا يستقيم معه إيمان ..والمعاصي تقع من البشر جميعا :" كل بني آدم خطاء " ولكنها لا تخرجهم من الإيمان باتفاق علماء الأمة ..إلا أن يجعلوها شرعا، فعندئذ يكفَّرون بها . بل يكفَّرون بالتشريع ولو لم يرتكبوا المعصية بأنفسهم ..فالذي يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر بقطع يد السارق، ولكني أرى العقوبة المناسبة للسارق هي: السجن – وهو ما تفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر وإن لم يسرق بنفسه ولم يُفَكِر بالسرقة "[1313] .

ثم يضيف بعد أن ساق مثالا آخر متعلقا بمرتكب فاحشة الزنا فقال: "وكذلك كل شَرْع من شَرْع الله ..من اعتقد بأفضلية غيره عليه، أو حتى مساواته معه، فعَدَلَ عنه إلى غيره، أو رضي بغيره ولم يجاهد بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، فقد خرج من دائرة الإيمان، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم:{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ .وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ .أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[1313]- محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 498

.إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[1314].

ويختم موقفه من العلمانية بقوله :"فإذا كان هذا أمر الله ورسوله فأنّى يقول قائل إن الإسلام يمكن أن يلتقي مع العلمانية التي تقول لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ؟ !أو تقول إن الاقتصاد لا علاقة له بالدين ..أو تفصل بين حكم الدين أو أي شيء في الحياة "[1315].

هؤلاء بعض من المفكرين والعلماء الذين شهدوا زمن العلمانية، ولمسوا آثارها في الحياة الغربية والإسلامية يصدرون أحكامهم المنبثقة من حقيقة العلمانية، ومدى خطورتها على الدين الإسلامي، ومناقضتها له في كل شيء .حتى فيما يتعلق بالعلوم الكونية، فإنه قد يتفق معها في وسائل البحث، لكن في أخلاقيات العلم وغاياته تعود لتتناقض معه، ومن هنا فلا موقع للعلمانية بين المسلمين تصورا وسلوكا وتطبيقا . فطريق التقدم الحقيقي موجود في غير النظريات العلمانية .

أما فيما يخص تصورها للحياة فالتناقض يكبر، فقد قسمت العلمانية الحياة إلى" دين" و"دنيا" و"دولة"، ونحن نتساءل من له الحق في تصنيف قضايا الحياة إلى قضايا دين، ودنيا، و دولة ؟ ومن هذا الذي يحدد نطاق حكم الله تعالى ؟ .

لا شك أن هذا التصنيف فيه مغالطة ناتجة من تصور قاصر لطبيعة الوجود، وهو متعذر لكون القضايا متشابكة جدا، بحيث لا يمكن الفصل بين الديني والدنيوي والسياسي، لأن ما من قضية إلا وللوحي فيها رأي أو حكم من الأحكام الخمسة :الوجوب والاستحباب أو المباح أو الكراهة أو الحرمة .ومن ثم فالعلمانية أيا كانت فهي مخالِفة مخالَفة تامة لرؤية الإسلام سواء لقضايا الوجود أو لقضايا تنظيم الحياة الإنسانية، وبهذا الاعتبار فهي مرفوضة رفضا تاما لأنه ليس من حقها أن تعزل

[1314]- سورة النور الآية:51/50/49/48/47

[1315]- محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 499

نظر الشرع في أي جزئية من الجزئيات فكل قضايا الحياة مرتبطة بالشرع، إما بنص صريح أو ظني أو اجتهاد يستصحب روح الشريعة ومقاصدها في إصدار الأحكام .

وأختم بما انتهى إليه محمد عمارة بعد إجرائه لمقارنة بين مضامين العلمانية والإسلام فيقول : " تلك هي مضامين "العلمانية ".. وهذه هي سمات مجتمعها ..وفي المقارنة -الموجزة – بينها وبين معالم "الإسلام السياسي والاجتماعي والحضاري "تظهر جلية حقيقة المقولة التي نزكيها والتي تقول :"إنه لا مكان "للعلمانية " مع الإسلام، ولا حاجة بالمسلمين إليها إذا كانوا حقا مسلمين يسترشدون بالإسلام ؟.."[1316] و لعله يقصد أن فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائقه، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين لأنهم حينذاك ألغوا ألوهية الله تعالى وإن كانوا معترفين بربوبيته.

المطلب الثالث : موقف مؤسسةالأزهر الشريف من العلمانية الشاملة:

من خلال المواقف السابقة يظهر التطابق جليا في موقف هؤلاء العلماء والمفكرين المعتبرين الذين لقوا قبولا في الأمة، وحتى لا يبقى النظر إلى الموقف من العلمانية على أنه قد يكون مجرد رأي لعالم، فإننا نختم مواقف العلماء والمفكرين المتطابقة، بموقف مماثل لمؤسسة عريقة في البلاد الإسلامية وهو موقف مؤسسة الأزهر الشريف، التي تؤكد المواقف السابقة، وتبيّن أنها قد تفطنت مبكرا لمضمون الفكر العلماني، وحددت بجلاء موقفها منه، رغم أن بعض العلماء من أبناء [1317]الأزهر الشريف

[1316]–محمد عمارة : العلمانية ونهضتنا الحديثة دار الشروق القاهرة ط2 سنة 1986 ص18

[1317]– منهم الدكتور محمود "أبو رية" في كتابه "أضواء على السنة المحمدية "،والدكتور "خالد محمد خالد" في كتابه "من هنا نبدأ "، والدكتور "منصور فهمي "في كتابه "حال المرأة في الإسلام"، والدكتور "نصر حامد أبو زيد" الذي توزعت إساءاته للعقل المسلم والشريعة في معظم كتبه. ينظر العلمانية والعولمة والأزهر ص 50/49 .ويشير يوسف القرضاوي في كتابه أعداء الحل الإسلامي ص 218 إلى عودة الكثير ممن زلت أقدامهم من هؤلاء بعد أن انكشفت لهم الحقيقة فيقول :" وبارك الله في رجال انكشفت لهم الحقيقة، فأعلنوها ولم يبالوا .مثل د "مصطفى محمود"، والأستاذ "اسماعيل مظهر"، والأستاذ "خالد محمد خالد" وغيرهم كثير، ممن

قد تأثروا ببريق العلمانية في بدايتها، ثم تراجع بعضهم عما ذهب إليه، إلا أن موقف الأزهر "كمؤسسة " كان موقفا حاسما، حيث صدرت فتوى الشيخ عطية صقر رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ردا على السؤال التالي :

س: يتحدث الناس كثيرا عن "العلمانية" فما هو أصلها، وما موقف الإسلام منها ؟.

ج:" مما هو مقرر أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا بد من تحديد المفاهيم حتى يكون الحكم عليها صحيحا، والعلمانية لفظ وجد في كتبنا العربية حديثا عند ترجمة ما يقابلها في اللغات الأجنبية عن طريق الإدارة العامة للتشريع والفتوى بمجلس الأمة المصري –آنداك –كما هو ثابت في الموسوعة العربية للدساتير العالمية التي أصدرها المجلس المذكور سنة 1966م [1318].

وبعيدا عن صحة النطق بهذه الكلمة الذي ذهب فيه الكتاب مذاهب شتى، وكان فرصة استغلت للدعوة إلى وجه نظر معينة، كما هو شأن المتشابه من النصوص الذي جاء في قوله تعالى {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ }[1319].

بعيدا عن ذلك، فإن نسبة العلمانية إلى العلم أو العالم ليست على قياس لغوي، وهي ترجمة للكلمة الإفرنجية "لاييك " أو " سيكولاريسم " وتعني "لا دينية " على أي وجه تكون، وفي أي ميدان

صدق فيهم قول الله تعالى :" فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب " الزمر 18/17.

[1318]– الشيخ عطية صقر –أحسن الكلام في الفتاوي والأحكام –المجلد الثاني العدد 90 الطبعة الثانية نشر دار الغد العربي – العباسية –القاهرة ص 454 /457.نقلا عن كمال الدين عبد الغني المرسي : العلمانية والعولمة والأزهر دار المعرفة الجامعية ط1 سنة 1999 ص 187/186

[1319]–سورة آل عمران الآية :7

تطبق، وعلى أي شيء تطلق . وهي نزعة أو اتجاه أو مذهب اعتنقه جماعة في أوروبا في مقابل ما كان سائدا في العصور المظلمة التي تسلَّط فيها رجال الدين على كل نشاط في أي ميدان، مما تسبب عنه ركود وتخلُّف حضاري في كل المجالات .

وكان معتنقو هذا المذهب في أول الأمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد وقفوا من الدين موقف عدم المبالاة به، وتركوا سلطانه يعيش في دائرة خاصة واكتفوا بفصله عن الدولة .ومن أشهر هؤلاء " توماس هوبز" الإنجليزي المتوفى سنة 1679م " جون لوك"المتوفى سنة 1716م " جان جاك روسو " المتوفى سنة 1778م.

وفي القرن التاسع عشر كانت المواجهة العنيفة بين العلمانية والدين، وذلك لتغلغل المادية في نفوس كثيرة ممن فتنوا بالعلم التجريبي إلى الحد الذي أنكروا فيه الأديان وما جاءت به من أفكار، واتهموها بتهم كثيرة كرد فعل للمعاناة التي عانوها من رجال الدين وسلطانهم في زمن التخلف الذي نسبوه إلى الدين، ذلك الدين الذي كان من وضع من تولوا أمره، والدين الحق المنزل من عند الله منه بريء [1320].

ومن أشهر المهاجمين كارل ماركس الألماني المتوفى سنة 1883 م، وفريدريك انجلز الألماني المتوفى 1895 م و فلاديمير أوليافوف لينين الروسي المتوفى 1924 م .هؤلاء لم يقبلوا أن تكون هناك سلطة ثانية أبدا حتى لو لم تتدخل في شؤون الدولة ...وقد تأثر بهذا المذهب كثير من الدول الغربية، وقلّدها في ذلك بعض الدول الشرقية، ووضعت دساتير على أساس الفصل بين السياسة والدين عن النشاط السياسي والاجتماعي.

إن العلمانية بهذا المفهوم أي عدم المبالاة بالدين يأباها الإسلام، الذي هو من وحي الله وليس من صنع البشر، فهو منزه عن كل العيوب والمآخذ التي وجدت في الأديان الأخرى التي لعبت فيها الأصابع وحرفتها عن حقيقتها، وذلك لأنه دين الإصلاح الشامل، الذي ينظم علاقة الإنسان بربه

[1320]-عطية صقر : المرجع السابق ص 453/452

وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه، ويوفر له السعادة في الدنيا والآخرة على السواء، فهو كما يقال، دين ودنيا أو دين ودولة أو عبادة وقيادة ...وقد جاءت الفتوى مبررة عدم الحاجة إلى العلمانية في البلاد الإسلامية لاختلاف طبيعة الإسلام كدين عن المسيحية ويتجلى الاختلاف في المظاهر التالية:

1-عقائد الإسلام ليست فيها خرافات ولا أباطيل، فهو يقدس العقل ويأمر بتحكيمه إلى حد كبير.

2-الإسلام ليس منغلقا على معلومات معينة يتلقاها بنصها من الوحى، بل هو كما يقال، دين منفتح على كل المعارف والعلوم ما دامت تقوم على حقائق وتستهدف الخير .

3-الإسلام يمقت الرهبنة التي تعطل مصالح الدنيا، ويجعل النشاط الذي يبذل لتحقيق هذه المصالح في منزلة عالية، لأنه جهاد في سبيل اللّه، والتاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيين والصديقين فهو دين يعمل للدنيا والآخرة معا.

4-الإسلام يقرر أن السلوك الاجتماعي مقياس لقبول العبادة، فمن لم تثمر عبادته، بمفهومها الخاص من العلاقة بين العبد وربه، استقامة في السلوك فهي عبادة مرفوضة لا يقبلها اللّه :{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ .الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ .وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ }[1321].

5- الإسلام ليس فيه كهنوت يتحكم فيه بعض من الناس في مصائر الناس بإدخالهم الجنة أو حرمانهم منها، بناء على اعتبارات خاصة، فمدار ذلك على العقيدة الخالصة والعمل الصالح، وليس المشتغلون بعلوم الدين إلا معلمين ومرشدين، والأمر متروك بعد ذلك لمن شاء أن يستفيد أو لا يستفيد بالتطبيق . وقد يكون المتعلم أقرب إلى اللّه من معلمه، بالتزام الطريق المستقيم الذي رسمه اللّه لهم جميعا، فما دامت العبادة للّه وحده فهو وحده الذي يقبل منها ما يشاء .

6-الإسلام ليس فيه سلطة مقدسة مستمدة من سلطة اللّه، وليس في البشر من هو معصوم من الخطإ، إلا من اصطفاه اللّه لرسالاته، والحكم من ذوي السلطان ليس لذواتهم، بل الحكم للدين أولا و آخرا، فكل شيء فيه اختلاف رأي يرد إلى اللّه وإلى الرسول، أي: الكتاب والسنة .

[1321]- سورة الماعون الآية : 7/6/5/4

7-مبادئ الشريعة تستهدف تحقيق المصلحة، فإذا لم يوجد نص واضح في أمر تعددت فيه وجهات النظر من أهل النظر وكان يحقق المصلحة العامة كان مشروعا، وبخاصة في أمور الدنيا، فالناسأعلم بشؤون دنياهم .

8- الإسلام دين تقدُّم وتطور وحضارة، ليس جامدا ولا متمسكا بالقديم على علاته، فهو ينهى عن التبعية المطلقة في الفكر أو السلوك الذي يظهر بطلانه، بل يقرر أن اللّه يبعث مجددين على رأس كل قرن، يوضحون للناس ما أُبْهِم، ويصححون لهم ما أخطأوا فيه ويوائمون بين الدين والحياة فيما تسمح به المواءمة، لأنه دين صالح لكل زمان ومكان، ومن مبادئ التربية المأثورة عن السلف :لا تحملوا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم . والمراد "بالأخلاق" هنا العادات التي تقبل التغيير، أما أصول الأخلاق فثابتة.

بهذا وبغيره نرى أن الإسلام يرفض العلمانية، وأن المسلمين ليسوا في حاجة إليها، وإنما هم في حاجة إلى فهم دينهم فهما صحيحا، وتطبيقه تطبيقا سليما كاملا كما فهمه الأولون وطبقوه، فكانوا أساتذة العالم في كل فنون الحضارة والمدنية الصحيحة، وضعف المسلمين وتأخرهم ناتجان عن الجهل بحقائق الدين، وبالتالي عن العمل بما جاء به من هدى، وبالجهل قلدوا غيرهم في مظاهر حضارتهم، وآمنوا بالمبادئ التي انطلقوا منها دون عرضها على مبادئ الإسلام، لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل .

ولئن رأينا بعض دول المسلمين الآن قد نقلوا معارف غيرهم ممن يدينون بالعلمانية، فليس ذلك دليلا على أنهم آمنوا بما آمنوا به، وإنما هو للاطلاع على ما عندهم حتى يعاملوهم على أساسه، وإذا كانوا قد قبسوا من مظاهر حضارتهم فذلك للاستفادة من نتائج علمهم وخبرتهم فيما يقوّى شوكة المسلمين ويدفع السوء عنهم، والتعاون في المصالح أمر تفرضه طبيعة الوجود، وهو مشاهد في كل العصور على الرغم من اختلاف العقائد والأديان . والمهم ألا يكون في ذلك مساس بالعقيدة أو

الأصول المقررة وأن يستهدف الخير والمصلحة ، هذا والأدلة على ما قلناه مما جاء به الإسلام كثيرة تركناها للاختصار، والمقصود هو إلقاء بعض الضوء على هذا المصطلح وموقف الدين منه[1322].

يبدو من خلال عرضنا أن الفكر العلماني سواء في أسسه الغربية أو فيما يعرضه العلمانيون العرب، لا يملك أي مستند عقلي أو ديني أو نفسي أو تاريخي أو واقعي، يثبت أن العلمانية هي الأصلح للبشرية، بل العكس تماما فإن التاريخ يشهد أن الإنسانية شهدت أسوأ مراحل حياتها، عندما هيمن الفكر المادي الإلحادي الذي يقيم الحياة على ساق واحدة، ويحاول الطيران بجناح واحد ويحاول أن يرى الحقيقة بعين واحدة، وفي ذات الوقت يؤكد التاريخ أن الحالة الغربية في محاولة ترسيخ العلمانية الشاملة بلغت درجة متدنية من الانحطاط الأخلاقي والإنساني لم تحصد البشرية في ظلها إلا التعاسة على الرغم من المستوى التكنولوجي الذي بلغته الحضارة الغربية .

بل إن هذه التكنولوجيا المسعورة بقدر ما يسّرت الحياة للإنسان كانت تكاليفها باهظة على نفسيته وصحته وعقله وعلاقاته وبيئته وغيرها. وينقل لنا محمد عمارة شهادة "جوتفرايد كونزلن"[1323] من خلال مؤتمر نظمه المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية –بعمان – في أفريل سنة 1997م عن " الدين والعلمانية" حيث قدم بحثا فيه كلام نفيس من مثل قوله :"لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي ..وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني .

ومن نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملا...وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم ..بل وزوال أهميته أيضا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام ..فسلطة الدولة وليست الحقيقة هي التي تصنع القانون وتمنح الحرية الدينية .

[1322]- عطية صقر :المرجع السابق ص 454إلى 458

[1323]–عالم اجتماع ألماني مرموق، وفي ذات الوقت قسيس انجليكاني : أي أنه خبير في الدين والدنيا في إطار الحضارة الغربية .

ويخلص إلى نتيجة مفادها أن" الحداثة العلمانية" غير واثقة من نفسها، فهي مفتقرة إلى اليقين، مع تفكك أنساقها العقلية والعلمية وتحققت فيها نبوءة نيتشه (1844-1900م) عن " إفراز التطور الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه " ..وبعبارة " ماكس فيبر "(1864-1920) "لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم وعلماء لا قلوب لهم " ! وبذلك فقد الناس النجم الذي كانوا به يهتدون وهذه شهادة تحتاج إلى تأمل المخلصين [1324] .

وها هو العلم ذاته الذي تفخر به العلمانية يكشف عن إفلاسها في كل خياراتها ونظرياتها المتعلقة بالجانب الإنساني، وقد اختصر عبد الوهاب المسيري أزمة العلمانية الشاملة في كون إنجازاتها قلبت لديها المفاهيم فتحولت الوسائل غايات، حتى أصبح التقدم العلمي غاية في حد ذاته لا تحده حدود أو قيود، لأن التقدم المنجز كان من خلال التخلي عن كل القيم المطلقة فقال :" ...ولكن ما نعرفه أن هذا العلم كان المارد الذي خرج من القمقم وبدأ يخضع العالم لمنطقه وحركيته وتراكمه، دون أي اكتراث بالإنسان.وتحول الإنسان من كونه غاية في حد ذاته إلى كونه وسيلة توظف وتستخدم.

لقد ظهر عدد من المفاهيم المختلفة التي تحررت تماما من القيمة، فهناك العلمانية الشاملة المتحررة من القيمة، والديمقراطية المتحررة من القيمة، والحرية المتحررة من القيمة، وأخيرا هناك العلم المتحرر من القيمة . لكن التحرر من القيمة يعني في واقع الأمر التحرر من الإنسانية. المسألة ليست مسألة علم مأزوم، بل مسألة حضارة جعلت من الحياد هدفا، ومن التخلي عن القيم سبيلا لتحقيق التقدم "[1325] .

[1324]- ينظر محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص 414/413

[1325]- عبد الوهاب المسيري : العلمانية والحداثة والعولمة ص 54.

صحيح يمكن الحديث والاعتراف بدور الفكر العلماني في تحريك طاقة الإنسان الخلاقة في ميدان العلوم الكونية، ولكنه ظل عاجزا أمام الآثار الناجمة عن الغلو في توجيه العلم، لأنه لا يملك فلسفة توجيهه وترشيده، حيث ظن أنه يمكن ضبط كل العناصر معمليا.

ولكن تبيّن فيما بعد أنه غير قادر على التحكم في منجزاته العلمية المخبرية الذي يزعم امتلاكه لقوانينها، وعلى سبيل المثال النفايات النووية التي أكد أنه لا يمكن تسربها قبل مئتين وخمسين ألف سنة لكنها تسربت بعد عامين من دفنها في صحراء "نيفادا "، فإذا كان الأمر مع هذه القضايا على هذا النحو، فهو أعقد مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية والنفسية [1326].

وهذا ما يمكن ملاحظته من أن العلم تجاوز حدوده مرة أخرى حين زعم- بما لا يملك إليه سبيلا - قدرته على صياغة الحياة الإنسانية في ميادين وضع الرؤى الفلسفية للوجود والإنسان والأسرة، والعلاقات الإنسانية والمالية والسياسية وغيرها من القضايا التي خاض فيها الفلاسفة العلمانيون، وهم لا يملكون آليات البحث في هذه المجالات، فبلغ الفساد الذي نتج عن نظرياتهم مبلغا عظيما يكاد يفني البشرية.

و لا شك أن هذا لم يأت من تقصيرهم فقد بذلوا كل ما في وسعهم لنصرة مذاهبهم، ولكنه آت من قصورهم، فالعقل البشري له حدود لا يمكن أن يتخطاها مهما بلغ من الاجتهاد والذكاء، ليظل الوحي وحده القادر على اختراق مجالها والكشف عن حقيقتها، ومن ثم يختصر الجهد البشري ويوجّه طاقاته لخدمة وظيفة الاستخلاف المنوطة ببني الإنسان حتى لا تنقطع الصلة بين الأرض والسماء . فالفرصة مازالت سانحة لدراسة التجربة الغربية ومتتاليتها، وذلك من أجل صياغة منظومة تنفعنا وتنفع بقية البشر وتنفع الإنسان الغربي ذاته.

ونخلص في نهاية الفصل إلى أن العلمانية الشاملة لا تملك أي حجة أمام الحجج القرآنية في أي مجال من المجالات، ولا شك أن التناقض واضح جدا بين المنظومتين في الأسس والمنطلقات وفي

[1326]- ينظر المرجع نفسه ص 55/54.

المفاهيم والممارسات، وفي الوسائل والغايات، بل إن منظومة القيم الغربية متناقضة مع ذاتها فهي خليط غير منسجم من النظريات، حاولت العلمانية أن تظهرها منظومة متماسكة، لكنها لم تفلح في ذلك، وظهر عوارها لتناقضها مع الفطرة، واصطدامها مع كثير من الحقائق العلمية الثابتة، ومخالفتها لمنطق العقل، ومعاداتها للدين.

ولعل النتائج المرة التي يتجرعها العالم فيما يعرفه من انتهاكات في جميع مجالات الحياة، يعد دليلا كافيا على عجز هذه المنظومة، التي رشحت نفسها لتقديم بديل إنساني، ومن ثم فهي مرفوضة قطعا في تصورنا الإسلامي .لأنها فضّلت الفصل بين أركان الحضارة الثلاث : (العلم، والإيمان، والعمل) مخالفة ما تعلمته من الحضارة الإسلامية كما ظهرت صورتها الرائعة، فأزاحت ركن الإيمان من المعادلة، وتنكرت له، فأصابها التشوه والمرض الحضاري بسبب اتجاهها العلماني، على الرغم من كونها تتلمذت على الدرس الذي تلقته من الحضارة الإسلامية في الجمع بين العلم، والإيمان، والعمل، وفي ذلك يقول يحي هاشم حسن فرغل :"ومن عجب أن الحضارة الغربية المعاصرة، لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بالتمرد على التراث اليوناني، والأخذ بالمنهج التجريبي كصورة من صوّر الربط بين العلم والعمل : درسا تلقته من الحضارة الإسلامية .

ولكن هذا العجب يلحقه الأسى، إذ أن هذه الحضارة الغربية لم تكمل الدائرة في أركانها الثلاثة، فاستبعدت عنصر "الإيمان ":تسليما لله، وقامت على" العلمانية"[1327].

وعلى الرغم من الخلاف الواضح بين التصور العلماني للقضايا والتصور الإسلامي لها .يصادفنا سؤال وجيه وهو: هل يمكن أن يتعايش الجميع في مجتمع إنساني يتبادل فيه الناس المنافع والمصالح، وينضجون التجربة الإنسانية، ويعملون على إيجاد عالم متوازن يلتقي فيه الجميع على صيانة كرامة الإنسان، ودعم وجوده على الأرض، في أجواء تظللها الأخوة الإنسانية ؟ وهل هناك منظومة

[1327]– يحي هاشم حسن فرغل: الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة دون ط سنة 1998 ص368

مرجعية، ومشتركات إنسانية جامعة ؟ وما هي آليات هذه الرؤية ؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه من خلال الفصل القادم في بيان "قيم المشترك الإنساني".

الفصـل الرابع

موازنة بين منظومة قيم عقيدة التوحيد وبُنَى العلمانية الشاملة

وأتناول فيه

المبحث الأول: منهج القرآن في الجدل

المبحث الثاني: مناقشة مرتكزات العلمانية الشاملة

المبحث الثالث: موقف الأمة ومفكروها ومؤسساتها العلمية من العلمانيةالشاملة .

المبحث الأول :منهج القرآن في الجدل

يقوم المنهج القرآني على رصد الشّبهات عند الأقوام السابقة، وبيان نقاط الضعف فيها، ومن ثم كشف عن الحجج المتنوعة لمناقشتها، فلم يكتف بتفنيد ما كان شاهدا من الانحرافات الفكرية عند المشركين في الجزيرة العربية، بل دحض ما كان على عهد الرسل السابقين، لأن الشبهات التي تلبِّس على الناس تكاد تكون هي نفسها من حيث أسسها الفكرية، ومن هنا ناقش الرسل تلك الشبهات، وهدموا أسسها الفكرية التي كانت تحول دون الاستجابة لدعوتهم التي جاءت لتنتشل

الإنسان من الظلم والفساد الذي انحط بكرامة الإنسانية، حتى لا يبقى بين الناس والحقيقة ما يمنع من قبول الحق، واستخدموا لأجل ذلك كل البراهين التي تقيم الحجة على المخالفين .

ولا شك أن المستقرئ لتاريخ الإنسانية من خلال ما عرضه القرآن الكريم يكتشف أن الشبهات ذاتها تتكرر، غير أنها أحيانا تظهر في ثوب جديد. لذلك سنحاول الاستمداد من المنطق القرآني لتكييف مضامينها والاستعانة بالبراهين والحجج القرآنية لإبطال تلك الشبهات المعاصرة، ولا سيما التي يثيرها الفكر المادي الإلحادي المعاصر، الذي عاد اليوم في صورة أقوى، وتستر بثوب العلم وشتى أنواع المعرفةمستندا إلى ما تحقق للحضارة الغربية من مكتسبات هائلة في عالم المعرفة، إذ كان لهذه المكتسبات وقع كبير في النفس الإنسانية، فاتخذه برهانا على أحقية الفكر العلماني في صياغة الحياة البشرية، بحجة أنه ما دام هذا الفكر يلبي حاجات الإنسان المادية، فهو بالضرورة فكر سليم.

ومن هذا المنطلق كان واجبا إجراء هذه الموازنة بين منظومة قيم عقيدة التوحيد، ومنظومة العلمانية الشاملة، باعتبار أن كلا المنظومتين تعرض منهجا متكاملا، تحاول من خلاله صياغة منظومة قيمية كفيلة بإسعاد الإنسان، وتحقيق النفع للإنسانية، ولا شك أن الفكر المادي لا يمكن أن يقف في وجه أمواجه العاتية إلا البرهان القرآني، الذي كشف حقيقتهوأظهر الزيف في أسسه عند السابقين.

أما في هذا العصر فقد أوهم الكثيرين أن منهج العلمانية هو الأنسب للبشرية ويمثّل مرحلة النضج الإنساني، بل أكثر من ذلك زعم أنه يمثل نهاية التاريخ، وأنه البديل الأفضل للبشرية، مما دفعه لأن يصدّر أنماطه في كل جانب في عصر العولمة الذي أصبح الإعلام والاقتصاد وسيلتيه العظميين، وهما في هذه المرحلة بالفعل يملكهما النموذج العلماني، فأين تكمن نقاط القوة في الفكر العلماني ؟ وهل العلمانية الشاملة بما تطرحه من خيارات يمكن أن تضع منهجا لحياة إنسانية راشدة ؟ أم أن حتف الإنسانية نفسيا، واجتماعيا، سياسيا، واقتصاديا يكون في منهجها المعروض كما يتنبأ لها فلاسفة الحضارة في الغرب نفسه ؟ وبخاصة إذا استصحبنا الدلائل القائمة في المجتمعات التي تغوّل فيها الفكر الماديالإلحادي، ناهيك عما يقرره القرآن من سنن إلهية تكاد تأتي على الحضارة الإنسانية من قواعدها بأجمعها .

وهنا لا يخفى أن سعادة الإنسانية رهينة بنوعية المناهج التي تتبناها لتنظيم حياتها على جميع المستويات، ومن ثم فإن الكشف عن حقيقة الفكر المادي العلماني يصبح من الضرورة بمكان، خاصة وأن العلمانية تلبّس على الإنسانية بالضغط على مواطن الضعف البشري وهي غرائزها، وتتستر لبلوغ أهدافها بستار العلم .

وهنا نجد أنفسنا – بالنظر إلى الانحرافات الكثيرة في الفكر العلماني – في حاجة إلى اللجوء إلى المنهج القرآني الذي تتبع الانحرافات البشرية عبر التاريخ الإنساني، وبيّن خلفية كل انحراف في التفكير أو السلوك وناقش أصحابه، ووضح بالحجة المنطقية بطلان مسالكهم، وكشف عن دوافعم الحقيقية التي جعلتهم يستميتون في الدفاع عن أفكارهم، وسلوكهم، ويتواصوا على إبقائها . فما مصدر انحرافات الإنسانية ؟

المطلب الأول: مصدر الانحرافات في الحياة الإنسانية

يرجع العلماء مصدر انحرافات البشر عن منهج الاستقامة الذي تقرر في الفطرة البشرية، والذي جاءت الرسالات السماوية لتؤكده إما إلى الشبهات أوالشهوات، وكل الانحرافات التي تظهر في الحياة الإنسانية تتفرع عن هذين المصدرين فما المقصود بهذين المفهومين:

أ– الشبهات : الشبهة هي كل ما يلبس على الإنسان الحقيقة، بحيث يظهر له أنها الحقيقة وهي ليست كذلك، لأنها بنيت على مغالطة، وتحتاج لبيان بطلانها ذكاء أدهى ومنطقا أقوى، وقد تعددت الشبهات التي أثارتها الإنسانية عبر تاريخها في كثير من المجالات، وهي عادة تتعلق بخلل في منهج التفكير، حيث يستند الإنسان إلى مقدمات خاطئة ويؤسس عليها أحكامه، غير أن أخطرها غالبا ما يتمحور فيما له علاقة بموضوع الغيب (الألوهية، الإنسان، المعرفة، الآخرة، الوحي) لما للانحراف فيه من انعكاسات خطيرة على الحياة الإنسانية، إذ يثق الإنسان بقدراته العقلية اللامحدودة، فيحاول أن يجد الإجابة لكل تساؤلاته بالاستناد إلى أحكام العقل، حتى لو كانت هذه القضية المبحوث فيها فوق طاقته، فيصدر فيها حكما ويعتبره في حكم اليقين، وعلى الرغم من

أن هذه الشبهات المثارة لا تقوم على أساس منطقي أو علمي، ولكنها تجد لها مكانا في نفوس الناس، وذلك للطريقة المحبوكة التي تصاغ بها والمغالطة المنهجية التي تبنى عليها إلى درجة أن أصحابها يستطيعون التلبيس على الناس فينتصرون لها، فإبليس لما رفض السجود استند إلى شبهة وهي أنه تصوّر أنّ مادة خلقه أسمى من مادة خلق آدم، واستطاع أن يكيد لآدم أيضا بشبهة مرتبطة بشهوة .

وهذه الشبهة يكون مفعولها قويا ولا سيما إذا صادف ذلك ظروفا مواتية تؤكد الشبهة وتدعّمها، بل إن هناك مخابر متخصصة في صناعة الشبهات، صارتترصد لها ميزانيات وخبراء لصياغتها، وهذا الأمر ليس جديدا في حياة البشر، فقد حكى القرآن عن بعض النماذجوكيف يتلاعب أصحاب الشبهات بالألفاظ للإقناع بما يطرحون من مغالطات فقال تعالى : {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ }[1328] وسأسوق نماذج من القرآن لهذه المغالطات والشبهات ومثيلاتها في واقع اليوم كثيرة :

1- ففرعون عندما أراد أن يوهم الناس بربوبيته، وألوهيته المزعومة، ساق هذا السؤال لسيدنا موسى بأسلوب استفهامي يتضمن السخرية، قال تعالى :{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى }[1329].

2- و الأسلوب نفسه استخدمه الكفار للطعن في الرسالة حيث بنوا تصورهم للرسالة على فكرة خاطئة، فكانت سببا في عدم اعترافهم بدعوة الرسول لأنها لا توافق منطقهم، فنقل عنهم القرآن الكريم شبهتهم فقال تعالى:{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً }[1330].

[1328]-آل عمران الآية : 78

[1329]- سورة طه الآية :49

[1330]-سورة الفرقان الآية :7

3- والمنطق ذاته بنوا عليه إنكارهم لليوم الآخر فقال تعالى:{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }[1331]. فاستبعدوا البعث بناء على حكم العقل فيما يجري حولهم، رغم أن الأمر كان يستدعي النظرة الكلية لقضية الإحياء والإماتة وعدم قصرها على ما تراه العقول القاصرة، فكانت هذه الشبهة سببا في كفرهم ظنا منهم أنّ حجتهم قوية ومؤيدة بالمنطق.

وكما هو ملاحظ فإن الكافرين قديما حاولوا صياغة الشبهة بطريقة تنطلي على ذوي التفكير البسيط وتوهم السامع أن الحجة قوية، لأن شواهدها قائمة بين أيديهم، فلا يستطيع الرسول أن يثبت لهم وجود الله عيانا، لأن الله تعالى تعرّف لخلقه بآثاره، كما لا يمكن أن يحضر المَلَك ليكون مع الرسول نذيرا لأن الأمر سيتلبّس عليهم لو تجسّد الملك، والأمر نفسه أنهم لم يروا أحدا مات وعاد كما يزعمون، بل إنهم يتحججون برؤيتهم اندثار الجسم الإنساني وتحوُّله وانحلاله، فوجد هذا القول هوى في نفوس الناس فقبلوا به، لأنه يعفيهم من كل مسؤوليات الالتزام .ولكون الشبهة لها بعد خطير في الحياة الإنسانية، لكونها تطعن صميم العقيدة (الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر). فقد فنّد القرآن الكريم كل الشبهات التي يسوّقها المخالفونوعرض مختلف الأدلة والحجج (العقلية، والكونية،والفطرية، والتاريخية) لدفع الشبهات عنها والإقناع بالرؤية السليمة التي يطرحها الدين لعلّه يحرّك فيهم ما رَكَز في فطرهم من قضايا منطقية وقواعد أخلاقية، فيستخدمونها للوصول إلى الحقيقة.

ب–الشهوات :وهي الميل إلى اللذات الحسية ومحاولة إروائها خارج الأطر الشرعية، واتباع الهوى في إشباع الغريزة، وعدم الاكتراث بما نهى الله عنه، وهذا باب من أبواب الانحراف في الحياة الإنسانية، تجلى في صوّر كثيرة في التاريخ البشري، سواء ما تعلق بشهوة الجنس أو الأكل أو الملك أو المال أو القوة وغيرها من الشهوات التي ينغمس فيها البشر مخالفين في ذلك تعاليم الشرائع الإلهية التي جاءت لتضع الضوابط لهذه الغرائز، فيستمتع الناس بها باعتبارها جزءا مما فطروا عليه،وفي ذات الوقت هي وسيلة للمحافظة على مصالح الإنسان مادامت تمارس باعتدال وتنضبط بضوابط التعاليم الأخلاقية. فقد اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعل فيها – أي في النفس – بواعث ودوافع تؤز الإنسان أزا

[1331]–سورة الإسراء الآية :49

إلى ما فيه قوامه ومصلحته، فهذه الشهوات لا يمكن وسمها بالسوء مطلقا ولا بالحسن مطلقا. ولكنها يمكن أن تتحوّل إلى انحراف، إذا مورست من غير حدود، وبلا قيود، أو خرجت عن حد الاعتدال. وقد ضرب القرآن الكريم نماذج من عبّاد الشهوات الذين غرقهم الحياة الدنيا، وانحصرت اهتماماتهم في متعها ومنها:

1-شهوة الملك والمناصب السياسية، ومثالها فرعون الذي بلغ به الحد إلى ادعاء الألوهية :{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ }[1332].

2-انحراف الشذوذ كما في قوم لوط عليه السلام الذين سلكوا سبيلا منحرفا في الشهوة خرج عن الفطرة، وتفردوا به دون العالمين من بني جنسهم ومن أجناس أخرى. قال تعالى:{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ }[1333].

3- عبادة المال كقارون في عهد موسى عليه السلام، فشهوة المال أعمت بصيرته وجعلته يدّعي أن عبقريته هي سبب هذا الغنى، ونسي أن المال نعمة يسوقها الله ابتلاء واستدراجا . قال تعالى :{ قَالَإِنَّمَاأُوتِيتُهُعَلَىعِلْمٍعِندِيأَوَلَمْيَعْلَمْأَنَّاللَّهَقَدْأَهْلَكَمِنقَبْلِهِمِنَالْقُرُونِمَنْهُوَأَشَدُّمِنْهُقُوَّةًوَأَكْثَرُجَمْعاًوَلَايُسْأَلُعَنذُنُوبِهِمُالْ مُجْرِمُونَ}[1334].

والحقيقة أن كل عصر له أصنام من الشهوات يسجد لها، تتغير مسمياتها ولكن مفعولها واحد، وهي أنها تلهي عن الله تعالى، وتدفع لاختراق الضوابط الأخلاقية التي بها تحفظ الحياة الإنسانية من الفوضى والفساد. قال تعالى :{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[1335] وقد ثبت بالدليل التاريخي والشرعي أن الفسادوالدمار الذي

[1332]- سورة القصص الآية :38

[1333]- سورة العنكبوت الآية : 28

[1334]- سورة القصص الآية:78

[1335]-سورة الروم الآية :41

يلحق الأمم في الغالب يكون بسبب انتكاسة فطرتهم، وغلبة الشهوات عليهم، واستعمالهم للنّعمة في غير موضعها، ومصادمتهم لسنن الاجتماع. وعند ذلك تبرز عبادة الشهوات وتتحكم الغرائز في الأفراد والجماعات، ويحدث الخلل الاجتماعي الذي يعجز المصلحون عن إيقافه، فيلحق الدمار بالأمم. قال تعالى:{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً }[1336].

المطلب الثاني :طريقة القرآن في مناقشة الانحرافات

جاءت رسالة الإسلام إلى الإنسانية وهي تتخبط في شتى الظلمات،ظلمات الفكر والتّصور وظلمة العمل والسلوك، وظلمة المشاعر والعواطف، ففاجأ العرب برؤى جديدة تختلف اختلافا جذريا عن رؤيتهم ومعاييرهم في كثير من قضايا الحياة، وبالتالي كان من المنطقي أن تصطدم المفاهيم والرؤى، غير أنالقرآن سلك منهجا هادئا قائما على الحجة والبرهان خلافا لما كانت تقوم به الجاهلية في صدّها عن سبيل الله وردّها من استخدام الأساليب العنيفة على مستوى اللغة والممارسة . فمنهج القرآن في مقارعة ما يستند إليه المخالفون ارتكز على الحجة في الجدل والحوار سواء مع المشركين أو أهل الكتابأو في إبطال دعاوى الملل المختلفة، ويتجلى من خلال ما يأتي:

1-عرض القضية عرضا موضوعيا: من عظمة القرآنالكريم أنه عندما يعترض على الكفار والمخالفين لدعوة الإسلام يبرز بشكل واضح مواطن الاختلاف، وعلة الحكم على فساد مسلكهم فيالاعتقاد أو السلوك،وقد يجد لهم مبررا في هذا الاختيار الخاطئ الذي يسعى لتوضيحه وتصحيحه . فقد قال عن بلقيس :{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ }[1337]فأعذرها عما اختارت من منهج الكفر لكونها تأثرتبالبيئة التي عاشت فيها وكانت سببا في انحرافها، لأن بعض الناس لا ينقصهم إلا أن يوضَّح لهم الحق، "فبلقيس" كانت تملك من رجاحة العقل ما جعلها تعود وتُسلم مع سليمان لله رب العالمين .

[1336]-سورة الإسراء الآية :16

[1337]- سورة النمل الآية :43

في حين يكشف القرآن الكريم أيضا أن بعض الانحرافات يكون سببها مرض في شخصية بعض الأفراد كفرعون الذي استبد بقومه وأكرههم على الكفر حتى تأصّل فيهم الانحراف فلم يعد في مقدورهم أن يستجيبوا لدعوة موسى عليه السلام، مع كونهم يعرفون الحقيقة الناصعة، ولكن عنادهم وكبرياءهم منعهم من اتخاذ قرار الإيمان رغم الآيات البينات التي ساقها الله لهم. قال تعالى:{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[1338].

كما يعرض القرآن بموضوعية شأن المنافقين وتدبدبهم، وأنهم ذوو نفوس مريضة، ومن ثم لا يبقون على حال واحدة،فيجعلون قضية الإيمان مسألة خاضعة للمساومة وتترجح بالمصالح . قال تعالى :{فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }[1339].

وكذلك يخاطب أهل الكتاب ويبيّن سبب انحرافهم، وهو أنهم يزعمون العلم فيما لا علم لهم به، قال تعالى :{هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ }[1340] وبيّن أنهم يبنون أحكامهم على مغالطات واضحة لا تتفق مع الحقيقة في أي جانب من جوانبها. قال تعالى:{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }[1341] فالحقيقة التاريخية تؤكد أن إبراهيم عليه السلام كان أسبق من اليهود، فكيف ينسب إليهم ؟

ولا يغفل القرآن سبب ضلال المشركين الذين كانوا جامدين وأسارى لميراث الآباء ويكشف عن خبيئة أنفسهم وأن موقفهم من الإيمان ناشئ عن دافع غير معلن وهو الخوف على مصالحهم،

[1338]-سورة النمل الآية :14

[1339]- سورة البقرة الآية :10

[1340]- سورة آل عمران الآية :66

[1341]- سورة آل عمران الآية :67

فتكريس هذا الوضع يبقي مصالحهم ويحفظ مكانتهم . قال تعالى :{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ }[1342].

لقد تميّز القرآن الكريم في هداية الإنسان إلى الحقيقة، وبأسلوبه البديع حيث أنه كشف عن مشكلاتهم الفكرية والسلوكية برفق –رغم كونها قضية حساسة تستدعى الحزم – ثم يرفع عنهم بذلك الحرج، ويأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول :{قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ }[1343] وقال تعالى : {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ}[1344]. وفي هذا الأسلوب تهيئة للنفوس لقبول الحق والتخلي عن منطق الرفض الذي لا يترك أي فرصة لسماع الأفكار المعروضة.

2–تحديد دوافع الانحراف لدى المخالفين : فقد عمل القرآن على تشخيص الأسباب التيتجعل أصحاب الشبهات والشهوات متواصّين للدفاع عن باطلهم، لأن النجاح في تشخيص الداء هو الخطوة الأولى لبداية العلاج واختيار الحجج المناسبة لإبطالها، ويمكن إجمال أسباب الانحراف فيما يأتي :

أ–الجهل :فغالبا ما يمارس الإنسان تصرفاته الحمقاء بدافع من الجهل، أي أن القوم لا يدركون عواقب تصرفاتهم، فهذا الرسول يبين لقومه أن ما يقومون به من سلوك في حياتهم الاجتماعية سلوك خاطئ ولا يليق بكرامتهم كبشر، منحهم الله عقولا للتمييز، لأنهم لا يستندون في ممارستهم إلى دليل مقنع أنهم يمارسون أفعالهم عن وعي أو هداية من علمفقال تعالى :{قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ }[1345] كما نجد نصوصا أخرى تصف ما يقوم به قوم النبي لوط بأنه سلوك شاذ نابع من الجهل، لأنهم لا يقدرون النتائج السلبية التي تنجم عن

[1342]– سورة الزخرف الآية :23

[1343]– سورة سبأ الآية:25

[1344]– سورة يونس الآية:41

[1345]– سورة الأحقاف الآية:23

السلوك الشاذ في جانب العلاقة الجنسية. قال تعالى :{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ }[1346].

ومن هنا يتبيّن أن أصحاب الشبهات والشهوات لا يملكون حكما مؤسسا علميا يحاجّون به دعوة الرسول وما يستندون إليه من حجج هي مجرد ظنون، ومع ذلك يصرون على أعمالهم، ويلحقون الأذى بمن يقف في وجه ممارستهم . قال تعالى:{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ }[1347].

ب- التقليد :وإذا كان الجهل سببا للوقوع في الشبهات والشهوات. فإن التقليد أيضا يوقع فيها، وذلك لكون المقلدين استسلموا لمنطق آبائهم لا لكون هذا المسلك في الحياة سليم، ولكنه تم تعطيل العقل وتنازل الأبناء عن وظيفة التفكير لآبائهم وصار الجيل الجديد يتصوّر أن آباءهم أحكم منهم بحكم التجربة، فيعتقدون بذلك أنهم بالضرورة أقدر في تدبير أمور الحياة، وإن كان العمر لا يمكن أن يحدد الأقدر، لأن أكثر الناس لا تعتبر بما يجري حولها، ولو مرت عليهم السنون الطويلة. ولذلك نجد أن القرآن الكريم يذم وبشدة منطق التقديس لميراث الآباء وغلق باب الاجتهاد حتى لا تصاب الحياة بالركود من جهة، وتسنح الفرصة للتخلص من الأفكار التي لم تعد مواكبة لحركة الحياة التي لا تعرف التوقف. فليس بالضرورة أن يكون منهج الآباء صالحا في كل جوانب الحياة. قال تعالى:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ }[1348] .

[1346]- سورة النمل الآية: 55

[1347]- سورة الأنعام الآية: 148

[1348]- سورة البقرة الآية: 170

ج–الأهواء : لما كان الرسول حامل رسالة الله القائمة على العلم والمؤيدة من الله بالمعجزة والبرهان فإن عدم الاستجابة لها يعد من اتباع الهوى، لأنه في هذه الحالة يكون منهجم المخالف لتعاليم الرسالة مناقضا للعلم والحقيقة، ومن ثم فهو ضلال، وهذا ما أكدته مجموعة من النصوص منها. قوله تعالى : {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ }[1349].وقال تعالى :{فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[1350].

د–العناد والطغيان : وعادة ما يكون هذا السلوك من الملأ الذين يكابرون ويرون أنه من غير المعقول أن يقودهم هذا الرسول، لأن معايير القيادة لديهم غالبا ما تبنى على القيم المادية والمكانة الاجتماعية التي فرضها مجتمعهم. قال تعالى :{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }[1351] ومن ثم كان الخوف من فقد تلك المكانة المزعومة سببا في رفض الرسالة قال تعالى : {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ }[1352].فالرفض للرسالة لم يكن بسبب عدم ظهور الحق ولكن مرض النفس وعقدة الكبر والجنوح إلى الظلم كان سببا وراء الرفض قال تعالى :{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ }[1353].

هـ–البيئة :ومن بين أسباب الانحراف عن الحق فساد البيئة، فما يتداوله المجتمع من أفكار وما يسوده من تصورات يكون حائلا بين الفرد والحقيقة، ومن ثم يكون الفرد ضحية لفساد النظام الاجتماعي،

[1349]– سورة البقرة الآية :145

[1350]– سورة القصص الآية :50

[1351]– سورة الزخرف الآية :31

[1352]– سورة يونس الآية :78

[1353]– سورة النمل الآية :14

وهذا ما جعل القرآن يبرر موقف بلقيس، فرغم رجاحة عقلها إلا انها كانت أسيرة لبيئتها، وما إن بزغت أنوار الحق أمام ناظريها حتى سارعت بالاستجابة وقبول الحق.لذلك كشف القرآن الكريم عن نماذج في التاريخ الإنساني كان يحجبها عن الحقيقة هذه الأسباب فما كان من الرسل إلا تحريك عقولهم وإزالة الغشاوة عن الأبصار فتهيأت نفوسهم لقبول الحق .

3- مناقشتهم بمختلف الحجج: استخدم القرآن الكريم عدة أساليب لكشف الشبهات التي كان يتذرع بها المشركون لتأييد باطلهم، والبقاء على انحرافهم، وراعى في ذلك مستوياتهم العقلية،ووظف منطقهم واستدل بما يعرفون من وقائع التاريخ حتى تقام عليهم الحجة، فإن استمروا عليها، فذلك لعنادهم وجريا وراء شهواتهم،وليس لكون الحق غير ظاهر بالحجج البيّنة الواضحة،بل إن القرآن يؤكد أن بعض المخالفين يعرفون الحقيقة معرفة تامة، لكن نفوسهم المريضة منعتهم من قبول الحق كما في قوله تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[1354] ولأجل تعدد الشبهات والأمراض تنوعت الحجج والبراهين القرآنية ومنها ما يلي :

أ-التذكير بالفطرة وقوانينها:" {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }[1355].فقد تقرر في فطرة الناس أن الله هو الخالق ومن ثم المالك الذي يحق له وحده أن يضبط سلوك من يعيش في ملكه سبحانه .

ب-بيان الحجج العقلية : وذلك بتحريك العقول عن طريق الأسئلة المختلفة التي تتطلب مواجهة الحقيقة عند الإجابة منها :{قُلْمَنرَّبُّالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِقُلِاللّهُقُلْأَفَاتَّخَذْتُمّمِّندُونِهِأَوْلِيَاءلاَيَمْلِكُونَلِأَنفُسِهِمْنَفْعاًوَلاَضَرّاًقُلْهَلْيَسْتَوِيالأَعْمَىوَالْبَصِ

[1354]- سورة البقرة الآية :146

[1355]-سورة إبراهيم الآية :10

يرأَمْهَلْتَسْتَوِيالظُّلُمَاتُوَالنُّورُأَمْجَعَلُواْلِلّهِشُرَكَاءخَلَقُواْكَخَلْقِهِفَتَشَابَهَاالْخَلْقُعَلَيْهِمْقُلِاللّهُخَالِقُكُلِّشَيْءٍوَهُوَالْوَاحِدُالْقَهَّارُ }[1356]

ج- الاستدلال بالعالم المادي على بطلان منطقهم في التفكير سواء ما تعلق بقضايا العقيدة أو الشريعة أو السلوك. وخاصة فيما يتعلق بإثبات اليوم الأخر باعتبار أن معادلة اليوم الأخر في مركب الحياة هي المعادلة التي ترجح نوعية السلوك الذي يختاره الإنسان في الحياة {وَنَزَّلْنَامِنَالسَّمَاءِمَاءًمُّبَارَكًافَأَنبَتْنَابِهِجَنَّاتٍوَحَبَّالْحَصِيدِوَالنَّخْلَبَاسِقَاتٍلَّهَاطَلْعٌنَّضِيدٌرِزْقًاّلِّلْعِبَادِوَأَحْيَيْنَابِهِبَلْدَةً مَّيْتًاكَذَلِكَالْخُرُوجُ }[1357].

د- الاستشهاد بالوقائع التاريخية التي مافتئ القرآن يسوقها كقصة البقرة، وقصة عزير وغيرها.

4-التبرؤ من بقائهم على غيّهم وضلالهم، وتفويض أمرهم إلى الله :لما كانت دعوة الإسلام تؤكد الإرادة الإلهية في إعطاء الإنسان حرية الاختيار، ومن ثم يكفي في دعوة الرسول بسط البراهين التي تدفع كل ما يحجب الحقيقة فإذا أقيمت الحجة برئت ذمة الرسول لأن وظيفته البلاغ والتبيين وعند ذلك يتبرأ من اختيارهم السيء في الحياة وفي هذا المعنى جاءت الأيات الكريمة التالية . قال تعالى:{وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ}[1358].

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }[1359].

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }[1360].

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[1361].

[1356] . سورة الرعد الآية : 16

[1357] سورة ق الآية : 11/10/9

[1358]-سورة يونس الآية:41

[1359]-سورة ق الآية :45

[1360]-سورة الغاشية الآية: 22/21

ومما يلفت الانتباه أن عظمة دعوة الإسلام تتجلى في كونها تقوم على الإقناع ولا تقوم على الإخضاع، لأن فاعلية الإنسان في الحياة لا تتأتى إلا مع موقف الاختيار الحر، فالإكراه لا يولّد إلا النفاق، لأنه المكره سيضطر لإظهار خلاف ما يبطن ليتخلص من الضغط والإكراه. بيد أن منهج الإسلام بأساليبه المختلفة يسعى لبناء أفراد صالحين صادقين لا صناعة منافقين. لذلك فهو يعرض الحجج ويصوغها صياغة محكمة ترفع اللبس وفق أدلة منطقية، وتستند إلى الحقائق العلمية الموضوعية، التي يتوافق عليها أصحاب العقول والفطر السليمة. وذلك {...لِئَلاَّيَكُونَلِلنَّاسِعَلَىاللّهِحُجَّةٌبَعْدَالرُّسُلِوَكَانَاللّهُعَزِيزاًحَكِيماً }[1362]

المبحث الثاني : مناقشة بُنى (أسس) العلمانية الغربية:

المطلب الأول : الجوانب السلبية في الحضارة المادية

تعتبر الحضارة استجابة لروح الإنسان الباحث عن الحقيقة، الذي يتساءل باستمرار عن الوجود والعالم والإنسان وجميع احتياجاته المتنوعة والمعقدة، ولاشك أن الإنسان مادام على قيد الحياة فإن قائمة التساؤلات عنده تزداد مع كل إجابة، ومن ثم فإن كمال حياة الإنسان هو حصيلة ثمرة روح الإنسان السائلة المعقدة، و من المؤكد أن الحضارة تسير نحو التقدم مادام في نفس الإنسان التساؤلات الملحة التي تستفز الطاقة الإنسانية الكامنة و تحركها بروح متفائلة لبلوغ الحقيقة، وإذا عجزت الحضارة عن تلبية هذا الطموح الإنساني انحدرت وانحطت واتجهت نحو التخلف والفناء .

[1361]-سورة القصص الآية :56

[1362]. سورة الأنعام الآية :165

وإذا كانت الحضارة الغربية أجابت عن كثير من التساؤلات المتعلقة بعالم الحاجات المادية، فإن عجزها واضح في وضع الإجابات عن التساؤلات الوجودية أي أنها تحيا بشطر واحد فقط من الحياة، وهذا ما يدعونا لمناقشة الأسس التي تقوم عليها الحضارة الغربية والتي تأسست على الفكر العلماني المادي الإلحادي، والسعي لفهمها واختبار كل الركائز التي بنيت عليها، وذلك حتى نكتشف حقيقة الحضارة الغربية العلمانية، التي يبدو أنها تعيش حالة من التناقض على الرغم مما بلغته من مستوى علمي وتكنولوجي، مما يؤكد أن هناك خللا في منظومة الغرب العلمانية .يقول إسماعيل راجي الفاروقي :" اخترع الغرب علما جديدا ecology علم التوازن الطبيعي، ولكنه وضع مقصدا آثما لهذا العلم البريء، هو : كيف يساعد الإنسان في استغلاله لقوى الطبيعة . فالإنسان الغربي مقمح على الاستغلال حتى بالعلم الذي وضعه هو لحمايته من الاستغلال . وهذا هو قمة التناقض "[1363] . وهذا ما يثير فضولنا للبحث عن هذا الخلل الذي تحياه الحضارة الغربية المتسترة بالعلم والتكنولوجيا.

ولعل الاعتراف بأهمية تقدم العلوم في إسعاد الإنسان أمر لا يختلف عليه اثنان، وهو مالا ينكر على ما بدله الغرب في الآونة الأخيرة في تطوير بعض العلوم . لكن غياب "الروح" عن الحركة العلمية أوقع الغرب في أخطاء مسخت الحياة الإنسانية. فظهر الفساد في البر والبحر، وهو انعكاس لعدم التوازن في الإنسان ذاته :" فنحن نعيب الغرب على تنمية الجشع في الإنسان إلى درجة التبذير . وللجشع والتبذير نتائج غير نهب الطبيعة واختلال التوازن، تلك هي اختلال التوازن في الإنسان بين طبيعته المادية وطبيعته الروحية، أليس مسخا أن تحدث الغربي عن القيم فيسألك عن الثمن ؟ وتحدثه عن الآخرة فلا يفقه لها معنى سوى ميزان الأرباح والخسائر "[1364].ومع ذلك يجدر بنا طرح هذا التساؤل وهو هل للحضارة الغربية العلمانية جوانب إيجابية ؟

[1363]_ اسماعيل راجي الفاروقي : نحن والغرب ص 12 .

[1364]– اسماعيل راجي الفاروقي : نحن والغربالزيتونة للإعلام والنشر باتنة 1989 ص 12

المطلب الثاني : الجوانب الإيجابية في الحضارة الغربية :

لا نستطيع ونحن بصدد مناقشة الأسس الفلسفية للفكر الغربي، إلا أن نعترف أن الحضارة الغربية حققت انجازات هائلة في الجوانب المادية والتنظيمية من الحياة الإنسانية، بل إنه من العدل الإقرار بذلك، والاعتراف بالجوانب الإيجابية التي تتميز بها مسيرة الحضارة الغربية . فيشهد لذلك الواقع بمعطياته التي لا تخفى، كما يشهد لذلك المنصفون من المفكرين . "أن حقوق الإنسان في الفكر الوضعي أو في الشرعة الدولية تتميز بالتنظيم والتقنين الدقيق والمفصّل، ومراعاة مقتضيات الحياة الإنسانية "[1365]. وأحببت أن أنقل هنا شهادة اسماعيل راجي الفاروقي التي لها وزنها في هذا المقام، باعتباره عاش بين ظهرانيهم، وحاول أن يكون منصفا في الحكم على الحضارة الغربية، حيث يقول :" أدى مذهب الشك إلى نتائج طيبة وأخرى وخيمة :

أما الطيبة فثلاث :**الأولى** : احترام الذات الإنسانية وحمايتها من كل معتد .فالحق يجب أن يقال :وهو أن نظام الشك، حقق للإنسان حقوقا جليلة، وإن كان تعريفهم للإنسان بالمواطن أي بفرد القوم، لا الإنسان عامة .يتمتع الفرد في البلاد الليبرالية بحرية كبيرة وتحترم الحكومة ذاته أشد الاحترام.

الثانية : أن تأليه الرغبات واحترام الذات شد في أواصر القربى بين المواطن والمواطن وحث وعيهما بضرورة إشباع رغباتهما على التعاون المنتج الفعال ...

الثالثة: تأليه الرغبات واحترام الذات جعل من المجتمع الغربي مجتمع نمور لا يعتدي النمر على النمر بل على فريسته .فكلاهما موجه إلى الفريسة بطبيعة تأليه رغباتهما .فالفريسة الأولى هي الطبيعة

[1365]–محمد الكتاني: منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 210

...وقد فجرت هذه النظرة ينابيع المعرفة الطبيعية، فنشأت العلوم وترعرعت ثم تفننوا في استغلال الطبيعة –وهو ما يعرف بالتقنية – وقد سبقوا المسلمين سبقا مفحما "[1366]

وكما هو ملاحظ فإن النتائج التي اعتبرها طيبة لمذهب الشك، على الرغم من أهميتها إلا أنها كلها تتعلق بالتقدير المادي للحياة ومحورها المنفعة وإشباع الرغبات، فلم تخرج عن الفلسفة المادية التي يطوف حولها الفكر العلماني .

أما النتائج الخبيثة "فهي أيضا ثلاث تقابل الطيبة بل تعارضها :

أولا : غلا الغرب في رعاية الذات الإنسانية وحمايتها بأن ألهها وجعلها وحدها الحقيقة، فأصبح إشباع رغباتها هو معيار الخير والشر .

صحيح أن هذا من جهة : هو تأليه الإنسان ورفع من شأنه .إلا أنه من جهة أخرى :هو مسخ للإنسان بإقصائه عن الله وعن ملكوت القيم والأخلاق .فالقيم والأخلاق أيضا فطرة وطبيعة في الإنسان ...فَبِنَفْي هذا الملكوت تصور الغرب نفسه : بأنه شبكة من الرغبات المتناقضة، المتصارعة، المتنافسة الطاغية حينا والمطغى عليها حينا آخر ...

ثانيا :غلا الغرب هنا أيضا في تأكيد أواصر القربى بين الجماعة، سواء أكانت جماعة القوم أم جماعة الطبقة، فولى الولاء كله للجماعة واعتبرها قوما أو عنصرا لا يعلو على مصلحته شيء، ...ثم غلا الغرب أيضا في إقصاء علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى عن ملكوت الله والقيم والأخلاق، وغلا في حصره الحقيقة في رغبة الجماعة فكانت الحروب المستمرة نتيجة هذا الغلو...كل هذا دون أي مبدإ أو معيار يعلو على رغبة الجماعة فتقاس به...وأصبح الشذوذ عن الجماعة شرا وإن أصاب الفرد وأخطأت الجماعة..

[1366]–اسماعيل راجي الفاروقي :نحن والغرب ص9/8

ثالثا : غلا الغرب في استغلاله للطبيعة . فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على كافة أنواعها وتقدم التقنية في خدمة الإنسان، فإن تأليه الرغبات ومنع العنف ضد الزملاء النمور أدى إلى اغتصاب الإنسان للطبيعة، أي إلى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقي،...فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب، مما أدى بدوره إلى قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول "[1367].

ومن هنا فالحضارة الغربية لا تخلو من القيم الحضارية المعتبرة التي تمدها مؤقتا بالقوة والوجود.

و إنصافا منا لهذه الحضارة يحسن بنا الإشارة بإيجاز لهذه الجوانب البارزة في الحضارة الغربية، فمن هذه القيم:

1- الالتزام بالبحث العلمي التجريبي.

2-النظام والتنظيم.

3-استغلال الوقت.

4-حسن استثمار الموارد الطبيعية .

5-وحسن استغلال للطاقات البشرية.

6-الدقة في المواعيد.

7-الجودة في العمل.

8-الإرادة القوية على النهوض.

9- حب الاطلاع والاستكشاف العلمي.

[1367]- اسماعيل راجي الفاروقي: نحن والغرب ص 12/11/10

10-العدل في الحكم.

11-محاسبة الحكام.

12-قيمة التضامن والتكافل فيما بينهم.

13-المساواة فيما بينهم.

14-قيم الحرية والتسامح فيما بينهم.

15- قيمة الاهتمام بالعمل المؤسساتي.

16-قيمة الانتصار للمظلوم فيما بينهم.

وغيرها هذه القيم كثير التي تعد من طبيعة شخصيتهم، أو من القيم التي اكتسبوها عند احتكاكهم بالحضارة الإسلامية .غير أنها فاقدة لغاية نبيلة، فهي توظف فقط لتلبية حاجاتهم المادية فلا يتجاوز أفقهم هذا العالم المادي .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض خصائص النصارى وما يتميّزون به من صفات حضارية كما في صحيح مسلم عن موسى بن عُليّ عن أبيه قال: كان المستورد القرشي عند عمر بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تقوم الساعة والروم أكثر الناس" فقال له عمرو أبصر ما تقول ؟قال : أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لئن قلت ذلك إن فيهم خصالا أربع : إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة،وأوشكهم كرة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة :وأمنعهم من ظلم الملوك" [1368] .

هذه الخصال الحضارية المشار إليها نلمسها في هذا الزمان بوضوح في سياسات الدول، وتفوقهم التكنولوجي وقدرتهم على تجاوز الأزمات والحرية السياسية التي يتمتعون بها . ونحن اقتداء بالنبي لا

[1368]-أخرجه مسلم :كتاب الفتن وأشراط الساعة باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس المجلد الرابع حديث رقم 7313

ينبغي أن نغمط الناس أشياءهم وأن نعترف بمزايا الغرب التي أهلتهم لفرض منطقهم على الأمم في هذه المرحلة التاريخية.

غير أن الإيجابيات التي تسجل لهذه الحضارة، لا ينبغي أن تجعلنا نغفل عن المؤاخذات الكثيرة التي توجّه لجوهر هذه الحضارة، فلا نكاد نفرح بمنجزاتها إلا وتظهر السلبيات التي تغطي على تلك الإيجابيات، وتبعث الريبة في النفس، وتفرض علينا البحث في حقيقتها، و في سلامة الأسس التي بنيت عليها. حيث تختفي هذه الميزات بمجرد الخروج من حدود تلك الدول عند تعاملهم مع غيرهم، بالإضافة إلى الخلل الكبير الذي يسجل على الخلفية الفكرية والفلسفية التي بنيت عليها هذه الحضارة.

يقول مصطفى السباعي :" وقامت للشيوعية الحديثة أول دولة في العالم، واستطاعت أن تحسن معيشة أبنائها عما كانوا عليه من قبل، ولكنها لم تستطع بفلسفتها المادية أن تنقذ أبناءها من كل أنواع القلق والمخاوف النفسية والاجتماعية، وزادت على ذلك مخاوف أخرى بما فرضته على شعوبها من خوف على مصائرهم إن هم انتقدوا الحكم أو أساليبه، وإن الخوف الذي يملأ جوانب أعضاء الحزب الشيوعي أنفسهم ليفوق الخوف الذي يملأ نفس المواطن الشيوعي العادي .إن على عضو الحزب إما أن يكون متحمسا لآراء القيادة الشيوعية العليا، مندفعا إلى تأييدها اندفاعا أعمى وإما أن يلقى مصيره المحتوم "[1369] .

ولعل ذلك يعود إلى أن التطرف الذي آل إليه التفكير الغربي الشيوعي والرأسمالي في وضع فلسفة الحياة، مسّ بوضوح جوهر الحياة الإنسانية، وأن كثيرا من الإيجابيات لم تتجاوز الجوانب الشكلية والمظهرية للحياة الإنسانية، فهي تفتقد إلى العمق والتوازن، حيث وفرت للإنسان "الوسيلة" وجردته من "الغاية" . فصار يعيش حالة من القلق المستمر، وهذا ما جعل عبد الكريم بكار يعلّق على الحضارة الغربية الشكلية بقوله :" الحضارة الغربية تفردت بإنتاج أكبر قدر من الأشياء مع إهمال

[1369]– مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص 13

لإنسانية الإنسان، فصار أكثر الناس عبيدا للأشياء ! فبعد أن يعاني الإنسان الأمرين في سبيل امتلاكها يعاني مرة أخرى من خوف افتقادها، حيث حلت منه محل الجزء من الكل .و إذا كانت أهمية الإنسان مما يملك فما ذا بقي له إذا خسره؟! وقد كان يُظَنُّ أن المزيد من الإنتاج والسيطرة سيجعل الناس أحرارا، فاكتشفوا أنهم أصبحوا تروسا في آلة بيروقراطية، وأطراف استخدام في عملية (الإنتاج الوافر والاستهلاك العظيم) ! "[1370].

إن سعي الغرب للإنتاج كان من أجل تحرير الإنسان وجلب الراحة له، وكانت النتيجة على العكس من ذلك، فمن الملاحظ أن مظاهر القلق والاضطراب تتزايد كلما أصبحت وسائل الرفاهية ميسرة للإنسان، فنسبة الأمراض النفسية في البلاد التي يرتفع فيها مستوى المعيشة أكثر مما في غيرها من البلاد المتأخرة، والإحصائيات الأمريكية في هذا الشأن واضحة الدلالة على هذا المعنوذلك أن فلسفة هذه الحضارة لم تكن جوهرية ولم تكن متوازنة في تكوين شخصية الإنسان، ولا تملك القدرة على التأليف والتوفيق بين الجوهر والمظهر ؛لأنها لا تملك المنهج الذي يقدر على ذلك . وهذا الانفصال جلب النهاية المأساوية للإنسان الغربي كما يشير إليها مصطفى السباعي فيقول: "وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي أفقدت الإنسان اطمئنانه واستقراره، ومثله الإنسانية الرفيعة، حين جعلت الرفاه المادي هو المثل الأعلى الذي تستحث الخطى نحوه، فإن لم يصل إليه طالبه عاش شقيا، وإن وصل إليه عاش ملولا لا ينتهي من مله إلا بالانتحار "[1371] .

هذا التطرف يشبه إلى حد بعيد الفكر الجاهلي الذي كان يسيء في ممارسته من حيث كان يريد الإحسان؛ لأنه يفتقد إلى قاعدة فكرية صلبة وتصوّر سليم يتأسس عليه تفكيره، ومن ثم جاء القرآن الكريم منذ البداية يندد بأخلاق الجاهلية، ويكشف عن السبب الذي جعل أهل الجاهلية يمارسون الطغيان قال تعالى:{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى .أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى }[1372]

[1370]– عبد الكريم بكار : من أجل انطلاقة حضارية شاملة دار القلم دمشق ط2 2001 ص103

[1371]–مصطفى السباعي المرجع نفسه ص 14

[1372]– سورة العلق الآية : 6 /7 /8

ففساد التصور يؤدي إلى فساد السلوك، وغياب فلسفة واضحة عن معادلة الحياة وسقوط معنى الآخرة من الاعتبار جعلت هذا الشخص يسيئ فهم الابتلاء بالثروة فقاده هذا التصور إلى الطغيان.

وهكذا يكون تحكيم العقل، وما ينتج عنه من أهواء بعيدا عن هداية السماء ويتحول أداة للتدمير بدلا من أن يكون عونا على الخير والفضيلة. فمثلا نجد ظاهرة الوأد عند الجاهليين كانت بدافع حَسَن وهو حفظ العرض، والتهور كان بدافع حسن وهو النخوة، والإسراف كان بدافع حسن وهو الكرم، لكن النتائج كانت إزهاقا للأرواح وتبذيرا للأموال، كما تشير إلى ذلك موزة أحمد راشد العبّار، حيث ترى أن بعض ما يحسب على العرب من الرذائل والأخلاق والعادات السيئة لم يكن إلا مبالغة أو سوء تقدير لمعنى الخير في رأيهم .فالإسراف في المال ليس إلا مبالغة وغلوا في الكرم، ووأد البنات ليس إلا ذهابا إلى أقصى الحدود في الغيرة على العرض، والتهور ليس إلا إفراطا في الشجاعة وهكذا...فما كان على الإسلام إلا أن أخذ النفوس وأوقفها عند حدود الاعتدال والتوسط[1373]. ومن هنا فالحضارة الغربية قدمت أشياء جميلة للحياة، غير أن جنوحها وغرورها أفقدها التوازن ف " على نفسها جنت براقش "[1374].

ومع أننا لا ننكر الانجازات الهائلة التي حققها الغرب في تفجير طاقات بشرية هائلة كانت كامنة غير مستعملة وسيّرها لإسعاده، لكن نعيب عليه العدوان على الشعوب والكيل بمكيالين، ووضع القواعد والقوانين واختراقها، وما نتج عن ذلك من تدمير للطبيعة ولإنسانية الإنسان، وهذه كلها قائمة على التناقض في منظومته .ولا شك أن التناقض قائم على خطإ المبادئ الأساسية لنظرية العلاقات الإنسانية، ومن ثم " فلا يغرنا أن تطبيق المبادئ الخاطئة أنجز إنجازات كبرى، من مفاخرها المساواة، وإخضاع السلطان السياسي لحكمة المحكومين، وانتقال السلطة من يد إلى يد دون عنف

[1373]– ينظر موزة أحمد راشد العبار: القيم الأخلاقية بين الفكرين الإسلامي والغربي الدار العالمية للنشر والتوزيع ط1 سنة 2009 ص 119/118

[1374]– يضرب هذا المثل لبيان أن سوء تقدير الإنسان يوقعه في الهلاك، ولهذا المثل قصة طريفة عند العرب .

مادي ظاهر...لأننا نعرف أن ما أقيم على الفساد فهو فاسد، وإن طال أجله .ومصير الحضارة الغربية المبنية على أساس الشك أصبح ظاهرا .الحضارة الغربية متصدعة، مقبلة على انهيار تام، كما يقول عظماء مفكريها مثل (طوينبي) (ماكنيل) و(فان لفين) لا لضعف في قوتها بل لفساد في أساسها "[1375].

وهنا يحق لنا أن نسأل . أين الخلل في الفكر العلماني الذي أنشأ هذه الحضارة، وأين الفساد في بنى العلمانية وأسسها ؟ هذا ما سأحاول بيانه من خلال مناقشة مرتكزات وبُنى العلمانية الشاملة .

المطلب الثالث : موازنة بين منظومة قيم عقيدة التوحيد و بُنَى (أسس) العلمانية الشاملة

تعريف البُنى لغة :البنى هي ما يبنى عليه من الأسس .

أ-تعريف الأساس في اللغة: الأس والأسس والأساس : كل مبتدأ شيء، والأس والأساس : أصل البناء .والأسيس : أصل كل شيء، وأس البناء مبتدؤه .يقال أسس بنيانه : جعل أسا وهو قاعدته التي يبنى عليها .

تعريف الأساس في الاصطلاح : يختلف مضمون هذا المصطلح من فن لآخر، وإن كان لا يخرج عن معناه اللغوي . وللأساس عند الفلاسفة معنيان:

1-الأساس مصدر وجود الشيء وعلته نقول : إن عالم المعقولات أساس عالم المحسوسات، ويطلق الأساس بهذا المعنى على مبدأ يدعم إحدى النظريات، أو على مقدمة تجعل التصديق بإحدى القضايا واجبا .

[1375]- اسماعيل راجي الفاروقي : نحن والغرب ص13/12

2-الأساس أعم القضايا وأبسط المعاني التي تستنبط منها المعارف، أو التعاليم، أو الأحكام.فأساس الاستقراء مبدؤه الذي يؤيد الانتقال من الجزئي إلى الكلي، وأساس الرياضيات هو البديهيات والمسلمات والتعريفات[1376].

ويرى جميل صليبا "أن كل أمر يؤصل للبحث أو المناظرة في إحدى المسائل يجب أن يعد أساسا لها"[1377].

وبناء على هذا تعتبر العلمانية زبدة الاجتهادات الغربية خلال الحقب التاريخية المختلفة، وقد خلصت إلى بناء الفكر العلماني الجديد " الدين الجديد" للغرب عموما، حيث استقر مفهومها على مجموعة من الثوابت نعتبرها "الأسس" الجوهرية والجذور الفلسفية التي ارتكز عليها الفكر العلماني، ومن خلاله استطاعت الحضارة الغربيةأن تحدث تحولات في مختلف المجالات الحياتية: الفكرية والاقتصادية والنفسية والاجتماعية والسياسة والإعلامية وغيرها. وهي انعكاس للرؤية العلمانيةللحياة الإنسانية. ولهذا سنحاول من خلال هذا الفصل الكشف عن هذه الأسس واستخلاصها من مختلف الرؤى والنظريات الفلسفية التي تتبنى الفكر العلماني.

ولما كانت المدارس والمذاهب والنظريات في الغرب العلماني لا تكاد تحصى من كثرتها،فإن التنقيب عن هذه البُنَى ليس بالأمر اليسير، لأن المنظومة العلمانية لا تمثل مدرسة بعينها،بل هي مزيج من الفلسفات تآلفت خلال حقب تاريخية متتالية، فشكّلت هذا التّصور العلماني للحياة الإنسانية على الرغم من تناقض بعضها أحيانا، لذلك فهدفنا من هذا المبحث هو التأكيد على أن العلمانية تمثل منهجا فلسفيا قائما تتمحورحوله كل الرؤية العلمانية . وهذه الثوابت تعد- فيما أرى - بمثابة المنطلقات والجذور لكل المنتج الفلسفي العلماني،فكل ما نراه من مظاهر في الحياة الغربية العلمانية، ما هو إلا صدى وانعكاس لهذه الأسس وموجّه لخدمتها في نفس الوقت . وهي ما يمكن أن نصطلح عليه ب"بُنَى العلمانية الشاملة"

[1376]-ينظر جميل صليبا : المعجم الفلسفي المجلد 1 ص 63، ومعجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص23

[1377]- المرجع نفسه المجلد 1 ص 64

وقد تبيّن لي –بعد الاطلاع المتواضع على بعض ما كتب حول الفلسفة الغربية – أن هناك ثمانية بنى (أسس) رئيسة للعلمانية تندرج تحتها كل أفكار المذهب العلماني، منها ما يتعلق بعلمنة الرؤية أي النظرة إلى القضايا الوجودية :(الله، الكون، الإنسان،والحياة) ومنها ما يتعلق بعلمنة (الحياة في كل مجالاتها: النفسية و الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية ...إلخ)

كما ظهر لي من خلال محاولة فرز المدارس المعتبرة في الفكر الغربي أن هناك تداخلا بين مضامين ومفاهيم هذه الأسس في أراء الفلاسفة والمفكرين ورواد هذه المدارس والمذاهب، وقد اكتشفت أنهم يتفقون أحيانا في أصل الفكرة اتفاقا كليا، وفي بعض الأحيان يختلفون في القليل أو الكثير من جزئياتها، لكن هذا الاختلاف لا يخرج الفكرة عن جوهرها، مما جعلها ثابتا مهما في الفكر الغربي، ومن ثم في الحياة الإنسانية التي تريد العلمانية أن تهيمن من خلاله على كل الفكر الإنساني، ولتفرض منطقها وأسلوب تفكيرها على العالمين مستغلة في ذلك الترسانة الإعلامية والتقدم التكنولوجي في عالم العولمة، حيث اختصرت المسافات وألغيت الحدود، وأصبح العالم قرية صغيرة. لذا كان من الضرورة بمكان الوقوف على هذه الأسس بعرضها كما هي ومن خلال أقوال أبرز الفلاسفة الذين أسسوا للفكر العلماني، ومحاولة فهم مضامين تلك الأسس، وتحديد الأبعاد الفلسفية لها ثم مناقشتها، لأن ما تسوقه العلمانية الشاملة، يحتاج إلى فحص دقيق، رغم ما حققته النظرة العلمانية للحياة الظاهرة من إنجازات آنية.

ولعلنا ونحن نبحث في مسألة العلمانية نرى أن هناك رؤية أخرى للحياة الإنسانية نعتقد – نحن المسلمين – أنها نظرة أعمق، وأقوم، وأوفق في التعبير عن طموح الإنسان وخدمة مصالحه العاجلة والآجلة، وتتمثل هذه الرؤية في منظومة عقيدة التوحيد المستمدة من الوحي الإلهي. والتي سأحاول من خلالها مناقشة هذه الأسس حسب المنهج العلمي الذي تزعم العلمانية أنها تتبنى العمل به، وتتخذه وسيلة ومنهجا للحكم على قضايا الحياة . ومن ثم نقف على مدى صدقها أو كذبها، ومدى قدرة منظومة القيم العلمانية على فك لغز الحياة، وإعطاء الحجج والبراهين الكفيلة بإقناع العقل، وطمأنة النفس، وتوضيح الرؤيةفي قضايا الوجود الإنساني، وهل هي فعلا متجذرة في

النفس الإنسانية، أم أنها "كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار"؟ فلا عمق لها، لا من الناحية الفطرية، ولا من الناحية العلمية، ولا من الناحية الواقعية ؟.

ولذلك فقد اخترت لإجراء هذه الموازنة منهجية تقوم على عرض الأساس بمضمونه العلماني، استنادا إلى بعض أقوال رواد الفلسفة الغربية القديمة أو الحديثة، وذلك لكون ما تقول به العلمانية من أفكار في الغالب له جذور في الفلسفة الغربية القديمة . بل إنه نسخة مطوّرة للفكر اليوناني والروماني. ثم أناقش مضمون هذا الأساس بمختلف الحجج، مستعينا في ذلك بمنهجية القرآن في الحجاج، وبما توفر من ردود في مؤلفات الفكر الإسلامي أو الفكر الغربي الناقد لظاهرة العلمانية وموازنا هذا الفكر العلماني بالرؤية الإسلامية، من خلال منظومة القيم الإسلامية، ثم أخلص إلى الحكم لها أو عليها[1378].

1- الأساس الأول : إنكار الغيب

ويتمثل هذا الأساس في إنكار كل ما وراء الطبيعة من الروح والوحي، ومن ثم اعتبار الدّين وما يدعو إليه كله خرافة، فعلى الرغم من أن الدراسات والأبحاث تؤكد أنه لم يظهر أي مجتمع عبر التاريخ بلا دين أو نظام ديني -ذلك أن النزعة الدينية نزعة فطرية في الإنسان - فإن العلمانية الشاملة بفكرها المادي الإلحادي تنكر قضية "الوحي" وتستبعد الإرادة الإلهية المتحكمة والمسيرة لهذا الكون، وتؤكد القول أنه لا يوجد في العالم سوى" المادة "ولا تهتم بما هو خارج عن الطبيعة أي أنه لا تكترث "بالغيب" أو الحقائق "غير المادية".

[1378]-يحسن بنا هنا الإشارة إلى أن الحركات الإسلامية المعاصرة حرمت نفسها من كثير من مزايا الفكر الغربي لتطرفها في الحكم عليه جملة وتفصيلا كالذين عنونوا لكتبهم بأن الغرب يعيش في جاهلية بالمطلق، ولم يفصلوا الجوانب المرفوضة من هذه الحضارة عن الجوانب التي تعتبر من الحكمة الإنسانية، لأن كثيرا من الجوانب فيها إما أنها سليمة، أو أنها تحتاج إلى ضبط وتوجيه فقط.ومن ثم يمكن الاستفادة من هذه الحكمة ولا سيما في المعارف التي ليس لها بعد فلسفي .

لذلك كان أول ما توجّهت العلمانية الشاملة لاستبعاده هو الدين وما ينتج عن التفكير الديني واعتبرته مجرد ظاهرة تاريخية، فلا يعترف الفكر العلماني بأي قيم خارج المنظومة المادية، ومن ثم لا ينبغي طرح أسئلة كونية وجودية من أين ؟إلى أين ؟ ولماذا ؟.

وفي هذا المجال يشيرعبد الوهاب المسيري إلى قضية المطلق العلماني الشامل[1379]، و يوضح أن "النماذج الفكرية العلمانية قد تنكر أية نقطة مرجعية تتجاوز هذه الدنيا، إلا أنها تستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية[1380]كامنة في المادة (الطبيعة أو الإنسان أو التاريخ) ولذا فهي –أي المادة – مرجعية نهائية مادية، مركز مطلق أو مركز يشكل مصدر التماسك في الكون والمجتمع ويزوده بالهدف والغاية، ويشكل أساس وحدته...وقد يأخذ أشكالا كثيرة، لكنه في النهاية هو الطبيعة"[1381]. ويمكن تلخيص الفكر العلماني المادي الإلحادي في نظرته للدين عموما و للغيب خصوصافيما يلي:

1-أن الكون كله منحصر في الوجود المادي الخاضع للإدراك الحسي ولو عن طريق الوسائل المكبرة، أو عن طريق ما يتوصل إليه بالاستنتاج العقلي .

2-أن المادة الأولى للكون عديمة الحياة، عديمة الإدراك، عديمة الفكر، عديمة الإحساس، وأنها بالتطور الذاتي ارتقت صفاتها حتى وصل الكون إلى ما هو عليه .

[1379]-المطلق :إن أي نموذج فلسفي لا بد أن يكون له مطلقه، يمكن تعريف المطلق: بأنه المركز الذي يتجاوز كل الأشياء ولا يتجاوزه شيئ، وبأنه يؤدي وجوده إلى تماسك كل أجزاء النسق .فهو مصدر الوحدة والتناسق، وهو الركيزة النهائية للنسق والمبدأ الواحد والمرجعية النهائية والميثافيزيقا المسبقة .ينظر عبد الوهاب المسيري العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ج1 ص237

[1380]-المرجعية : وهي الفكرة الجوهرية التي تشكّل أساس كل الأفكار في خطاب ما، والركيزة النهائية الثابتة التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها ويمكن الحديث هنا عن مرجعيتين :

أ. مرجعية نهائية متجاوزة ترتكزعلى نقطة خارج عالم الطبيعة والمادة والحواس، وهي في النظم التوحيدية الإله الواحد المنزه عن الطبيعة والتاريخ، الذي يحركهما ولا يحل فيهما .

ب . أما في النظم الإنسانية فهي الجوهر الإنساني الذي يرتكز على نقطة داخل العالم، ومن ثم فالعالم يحوي داخله ما يكفي لتفسيره دون اللجوء إلى أي شيء خارج النظام الطبيعي، وفي إطار المرجعية المادية فإن الإنسان كائن طبيعي، وبذلك تسقط المرجعية الإنسانية، وتصبح الطبيعة والمادة هي المرجعية الوحيدة النهائية .ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ج2 ص453 .

[1381]-عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والشاملة ج1 ص237/ 238 .

3-أن المادة الأولى للكون أزلية فهي إذن أبدية.وقد وجدت الحياة نتيجة المصادفة، وبفعل تفاعل كيمياوي بين عناصر المادة الناتجة عن حركتها الذاتية المستمرة، فهي أثر تركيب خاص معقّد للمادة.

4-أنه لا وجود للروح على اعتبار أن الروح مباينة في طبيعتها للمادة، فما لا تدركه الحواس غير موجود، وما يعرف في الحياة من مشاعر ولذة وألم وإرادة، ما هي إلا ثمرة لتفاعلات المادة فالمادة حينما تكون في تركيب معيّن ترتقي معها معطيات الحياة .

5-أن فكرة الرب اخترعها الإنسان بتخيّله وهي فكر لا يكترث لها الغرب كثيرا :" إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه"[1382] .

6-أن الدين خرافة وهو من صنع المجتمع أحيانا ومن صنع الفرد أحيانا .

وبهذا تكون "العلمانية الشاملة" قد أقصت كل فكرة دينية حول الكون، والإنسان، والحياة،والمعرفة.والسؤال الذي يطرح في هذا المقام هو كيف بلغت أوروبا هذه الدرجة من معاداتها للدين ؟

لاشك وأن المتأمل في تاريخ أوروبا يرى أن بُغْض الدين لم يأت طفرة، بل مهدت له نظريات هامة خلاصتها أن تستبعد كل فكرة لها علاقة بالدين، مستغلة في ذلك جميع المفاسد التي ارتكبتها الكنيسة، وما ورثته أوروبا من العصور الوسطى [1383].

فجاءت الثورات في أوروبا وعلى رأسها الثورة الفرنسية التي قامت تحمل روح الثورة على الدين والسخط على الكنيسة، فهتف الشعب خلف قوّاد الثورة بشعارها : الحرية،والمساواة، والإخاء

[1382]-ينظر أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص182 نقلا عن slam at the cross roads p .50

[1383]- العصور الوسطى: وتدعى بالعصور المظلمة، وهو مصطلح يطلق على فترة الركود الديني والعقلي والظلم الاجتماعي والنظام الاقطاعي الفاحش الذي ساد العالم الأوروبي مند سقوط الأمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476م وانتهى بمنتصف القرن الخامس عشر حيث بدأ عصر العلم والاصلاح في أروبا.

لتسقط الرجعية،والرجعية عندهم تعني الدين،وهي شعارات يقصد بها تحطيم القيود الأخلاقية،وكسر الحواجز التي أقامتها الطبقية، حيث اعتبر الدين مرادفا للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد. فالفكاك منه فكاك من غل الاستعباد. وتوالت الثورات في أوروبا تحمل شعار "حقوق الإنسان " الذي كان يعني في البداية انهيار النظام الإقطاعي وانهيار الكنيسة،لكنه انتهى باعتبار الدين والأخلاق ماضيا مندثرا بغيضا عدوا للعلم، والحضارة، وحقوق الإنسان.

ويلاحظ من خلال العبارات التي يستخدمها دعاة الفكر المادي الإلحادي أن الدين ليس إلا ظاهرة اجتماعية طارئة على الحياة الإنسانية من جهة . ومؤقتة من جهة أخرى، اخترعها الأفراد والمجتمعات لتلبية حاجات نفسية و اجتماعية .

ثم ظهرت نظريات ساعدت على انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد في أوروبا كنظرية "تشارلز داروين" التي أودعها كتابه "أصل الأنواع" وهي نظرية تفترض أن الكائنات العضوية على اختلاف أنواعها ترجع إلى أصل واحد مشترك، وأنها تدرجت من الأحط إلى الأرقى تحت قانون "الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب "، وقد أدى هذا إلى تحسن نوعي مستمر نتج عنه أنواع جديدة راقية كالقردة ثم إلى نوع أرقى وهو الإنسان مع ملاحظة أن هناك حلقة مفقودة في هذا التسلسل، وبهذا فُهِم منها أنها تنفي "نظرية الخلق" التي يقول بها" الدين ".

كما كان لنظرية فرويد أثر كبير في انهيار العقيدة الدينية، حيث أرجعت كل السلوك الإنساني إلى دافع واحد هو" الغريزة " وليس غيرها، بل إنه يراه حالة مرضية عند الإنسان، وأن الدين نفسه ليس كسبا خالدا، وأن على الإنسان المتحضر أن يجتازه، وينقل عن فرويد قوله "إننا إذا حاولنا أن نحدد للدين مكانه في تاريخ تطور الإنسانية لم يَبْد أنه كسب خالد بقدر ما يبدو أنه نظير للمرض النفسي الذي لا بد أن يجتازه الإنسان المتحضر، وهو يتطور من سن الطفولة إلى سن النضج "[1384]. أما

[1384]- نقلا عن عبد العظيم المطعني : الإسلام في مواجهة الإيديولوجيات المعاصرة ص147

نظرية كارل ماركس وصديقه "فردريك انجلز" [1385] ومن خلال كتاب "رأس المال " الذي قامت على مبادئه الثورة الشيوعية بزعامة "لينين"[1386] (1917م) فقد انتهى بهما الأمر إلى أن الدين "أفيون الشعوب " وأن الدين "مخدر" وبهذا انتهى العالم الغربي بشقيه الرأسمالي والشيوعي إلى عزل الدين عن الحياة، بل إلى العداء التام للدين، وبذلك أصبحت العلمانية هي الدين الجديد للغرب[1387]

وبهذا تكون العلمانية قد نفت قضية الخلق بتبني نظرية داروين، ونفت قضية الوحي بتبني نظرية ماركس ونفت كل القيم الدينية بتبني نظرية فرويد، إذ تؤكد كل هذه النظريات أن لا علاقة بين السّماء والأرض .

لذا تقوم النظرة العلمانية في أساسها الأول على الإلحاد أو إنكار الغيبيات، ومن ثم فهي تنكر وجود خالق للكون، كما ترفض فكرة الوحي وجميع الأديان، وتنطلق في رفضها من إنكار وجود الله تعالى، حيث أن العلمانية –الاتجاه الماركسي الإلحادي – بمضمونها المعروف عزلت الدين وتصوراته، ومبادئه، ومناهجه، وأخلاقه وقيمه عن الحياة في جميع ميادينها، وحصرت التصور في الدنيا وحدها، فلا مكان لعالم آخر خارج الملموس والمحسوس. ولعل هؤلاء الذين أشار إليهم القرآن الكريم:"{إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }[1388] .

والإلحاد في آيات الله قد يكون إما : بإنكار الآيات المادية وجحود الخالق المدبر للكون . وإما : بإنكار آيات الوحي .فالاتجاه الأول : تمثل في الماركسية ومن سار في فلكها، أما الاتجاه

[1385]– انجلز فريدريك :فيلسوف ألماني مادي ملحد عاش بين (1820–1895) شارك كارل ماركس في صياغة الماركسية وقد تكفل بالإنفاق على ماركس في حياته وعلى أسرته بعد وفاته، كل كتابات انجز تدور حول تأصيل الماركسية وإذاعة مبادئها، وظل مهتما بجعل الشيوعية نظاما سياسيا شاملا، لذلك احتك بالطبقة العاملة، وكرس كل جهده في الجانب التطبيقي منها من أهم مؤلفاته "عناصر نقد للاقتصاد السياسي (1844) وكتاب "الرأسمال " ينظر معجم الفلاسفة ص 99

[1386]– لينين : هو فلاديمير إيلتش سياسي ومنظر ثوري روسي عاش بين (1870–1924) مؤسس البلشفية وفيلسوفها الأبرز .

[1387]– مناع القطان : ينظر معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية ص 40/39

[1388]– سورة فصلتالآية: 40.

الثاني : فيمثله الاتجاه المادي العلماني سواء من ينكر آيات الله جملة وتفصيلا، أومن ينكر الوحي الإلهي، مع الاعتراف بقضية الخلق، لكنه ينظر إلى الألوهية على الخصوص وللدين على العموم على طريقته.

وأيا كان الأمر، فالعلمانية الشاملة تعتبر الحديث عن الغيب خرافة،فهيلاتؤمن إلا بالمادة، فلا موقع للأفكار الدينية في منظومتها .وخلاصتها ما أشار إليه نبيل محمد توفيق السمالوطي في قوله :"هذا هو موجز النظرية الماركسية المادية الملحدة في مجال الدين والبناء الاجتماعي، وهي نظرية تلغي أهمية الدين وتحوله إلى نظام تابع للنظام الاقتصادي، وتفسر الدين كمخدر للشعوب ولا ينبع عن نزعة فطرية أو حاجة أساسية في الإنسان "[1389] .

وسأحاول أن أقف على جوهر هذه الشبهة وأفندها بالأدلة العقلية والعلمية واتباع خطوات المنهج العلمي الذي حاول الماديون التقوّي به لتبرير إلحادهم سواء في إنكار وجود الله تعالى، أوفي إنكار الغيب ورفض الوحي أو (الدين).

مما لا يخفى على كل دارس للتاريخ أن الدين رافق مسيرة البشرية منذ يومها الأول عندما بدأت رحلة الإنسان على الأرض، وإذا كان من وظيفة الدين في الحياة الإنسانية أن يمكّن الإنسان من اكتساب التصورات السليمة عن الكون والحياة والإنسان، ومن ثم الممارسة السليمة والهادفة في الحياة. فإن العلمانية ترفض الدين الذي يقول بهذه التصورات،و تختلف اختلافا جذريا عن تصور الإسلام لهذه القضايا،فلا لقاء إذن بين منهج يقوم في بناء تصوراته على الدين ومنهج يقوم على عزل الدين .

وقد حاول أنو الجندي أن يوجز مسيرة التخلص من الدين ومعاداته في الحضارة الغربية العلمانية فقال :" لقد بدأت الحضارة الغربية على أسس الأخلاق المسيحية،ومنجزات العلم التجريبي

[1389]– نبيل محمد توفيق السمالوطي : الدين والبناء الاجتماعي دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة جدة السعودية ط1 سنة 1981 ص117

الإسلامي،ولكن حركة التنوير التي قادتها التلموذية من خلال محافل الماسونية، استطاعت أن تدفعها دفعا إلى مجال الوثنية الإغريقية،وغلبة المادية، والقضاء على كل ما يتصل بالأديان والأخلاق،وبذلك استطاعت الإيديولوجية التلموذية أن تستوعب الفكر الغربي كله وأن تحتويه وأن توجِّهه وجهتها الخالصة يقول:" جود":"إن العلوم التجريبية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة،ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش"[1390].

وبهذا تجاوزت العلمانية بتياراتها المختلفة جميع الأديان ووضعتها موضع المتهم، فسلكت طريق رفض الدين واعتباره خرافة ومخدرا وأفيون الشعوب، وأنه يمثل الرجعية، وهو مرحلة في تاريخ البشرية. ومضامينه تتناقض مع التصور العلماني، ولا يمكن للعلمانية أن تحيا جنبا إلى جنب مع الدين.ومع وجود هذه التصورات الغيبية.يقول أنور الجندي:"إن أخطر ما تعارضه العلمانية:هو الدين وإن ما وصلت إليه من إقرار نظرة علمية فلسفية تختلف عن منهج العلوم التجريبية،ويتميز بالتحرر من العقائد الغيبية،والعواطف تحت اسم العلمانية، إنما هو في تقدير أصحابه بديل عن الدين، وإن هذا المنهج يستهدف تفسير الحياة والمجتمع تفسيرا حسيا زمانيا دنيويا ليحرر البشرية من الأديان التي تتسم بأشياء ثلاثة خطيرة: الغيبيات –الأساطير – الغائية والدار الآخرة"[1391]. وهذا يعنى أن العلمانية تركز أهدافها بالأساس في :

1-التحرر من قيود الأديان التي تضعها للمعرفة البشرية والتي لا يمكن تخطِّيها.

2- رفض اعتبار الدين أساسا لحياة الجماعات البشرية .

ولا شك أن هذا القرار الذي اتخذته العلمانية وما تستهدفه من ورائه يرجع إلى مجموعة من الفروض تتكئ عليها لتبرير منهجها هذا، ويلخص أنور الجندي شبهات العلمانية في ثلاثة فروض هي :

[1390]-أنور الجندي :سقوط العلمانية ص135

[1391]- أنور الجندي :سقوط العلمانية ص95

الفرض الأول : أن الكون مستقل في ذاته، تفسره القوى والقوانين التي تشكل منها وتسوده، فلا يحتاج إلى أية قوة خارجية يستعين بها في تفسير ما يحدث فيه، وهذا يعني "إنكار وجود خالق للكون "وهو ما يعرف بأساس "بالإلحاد".

الفرض الثاني : أن الطبيعة والمجتمع في "حركة وتطور" لا ينقطعان، والنشاط البشري في تطور دوما إلى الأمام لا يعرف الغائية والاستقرار. وهو ما يعرف بأساس "التطور ".

الفرض الثالث : هو أن الأديان مهما اختلفت، فهي في نظرتها إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان واحدة، وأنها تعتبر العالم الذي نعيش فيه محطة انتقال إلى عالم أخروي أفضل .ولذلك فإن السلوك يجب أن يتجه بكليته إلى العالم الآخر، وهو ما يعرف بأساس "المادية " .هذا في اختصار هو موقف العلمانية من الدين"[1392] .

فقد زعمت العلمانية . وبالذات الاتجاه الماركسي . أن "الدين" أساطير، وأوهام، وخرافات، ومخدر، وأفيون الشعوب، و مصدرا للاستبداد،وخداعا للضعفاء، وتعليقهم بالجنة في الآخرة، وأن عقلية الدين عقلية غيبية. وقد لخص مصطفى محمود نظرة الفلسفة الماركسية للدين فقال :" وأكثر من ذلك يرى أن" الدين" عقبة في سبيل التطور، وأنه أفيون مخدر، وقوة رجعية معطِلَة تؤدي بالطبقات الكادحة إلى الرضا، والقناعة، والنوم على حرمانها في انتظار جنات وهمية في الآخرة، وأن الدين هو الحليف الطبيعي للإقطاع والرأسمالية،وأنه يعطي الأغنياء سندا شرعيا إلهيا،على حين يقيد الفقراء بقدرية لا فكاك منها "[1393].

فقد اتخذت الشيوعية هذا الموقف من الدين بداية للحملة عليه، وعلى رجال الدين، وتجسّد ذلك في هدم الكنائس، واعتقال الرهبان، ومطاردة القساوسة، وإلغاء التعليم الديني في المدارس واستبداله

[1392]- ينظر أنور الجندي :سقوط العلمانية ص 96/95

[1393]- مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي ص 7

بتدريس الإلحاد، وجعل الحزب الشيوعي من الإلحاد شرطا أساسيا للعضوية فيه لأن الدين خرافة ووهم. فهل صحيح أن الدين يتصف بهذه الصفات ؟

من البديهي أن نذكر أن إنكار شيء موجود في الحياة الإنسانية ينبغي تدعيمه بالحجج العلمية، ولا يكفي رفضه بمنطق القوة،أو أن يكون هذا الرفض مغرضا وله دوافع أخرى بعيدة كل البعد عن العلمية. لذلك فإنكار الدين فرية مردودة وذلك لما يلي :

1. لا شكأن ما ذهبت إليه العلمانية من أن الدين أوهام أو خرافات تكذبه الفطرة الإنسانية الميالة إلى التّدين، لأن الدين قوة من قوى النفس وخاصية من خواصها، وعنصر في تكوينها، لذلك تعتبر "فكرة التدين" من الغرائز البشرية التي فطر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى .واستمرار وجود ظاهرة الدين في البشرية كلها يؤيده ما قاله "بلوتارك "في القرن الأول الميلادي :"من الممكن أن تجد مدنا بلا أسوار، وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب وبلا مسارح .ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا تمارس العبادة "[1394] .

هذا التقرير يؤكد الحقيقة القرآنية أن الإنسان مفطور على التدين، لأن الدين جزء من تركيبة الإنسان أيا كان مذهبه في الحياة، فجهاز العبودية لصيق به سواء وظّفه في الاتجاه الصحيح أم لم يوظفه :" {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1395] وبهذا فالأساس الذي قامت عليه العلمانية مناقض لطبيعة الإنسان وفطرته وتاريخه ومن ثم فهو فاقد للعلمية .

2-كما يعتبر هذا التيار المادي الملحد ظاهر الفساد في حكمه على الدين، لأنه مخالف لشهادة التاريخ، ولكونه يتعارض مع الحقائق الأساسية للأديان السماوية التي تشترك في الإقرار بقضايا الغيب،وأن الله بعث رسلا يشهد التاريخ بوجود هذه النماذج البشرية التي أوذيت، في سبيل الله حتى

[1394]-أنور الجندي :سقوط العلمانية ص 102

[1395]-سورة الروم الآية :30

تبلغ رسالته للناس. والقرآن يؤكد على أن الآثار الباقية إلى يوم الناس هذا إنما أراد الله تعالى أن يجعلها عبرة للباقين،فبدراسة الحقب التاريخية يكتشف الإنسان تاريخ تلك الأقوام وما بلغته من فساد بسبب تخلّيها عن تعاليم الدين المرسل، وتمردها على أنبياء الله فلحقها العقاب قال تعالى:{فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[1396].

3- القول بأن الدين "أفيون الشعوب" قد يصلح إلصاق هذه التهمة بدين الكنيسة أما التعميم ففيه كثير من قول الزور. ذلك أن الدين الكنسي في مرحلة من مراحله كان متحالفا مع الإقطاع وخدر الشعوب الأوروبية على الخصوص، حيث استغلت العاطفة الدينية لإسكات الشعوب، فلحق بها ظلم كثير "باسم الدين" الذي حملت لواءه الكنيسة، ومن ثم حملت العلمانية هذه الصورة، وحاكمت بها كل دين، لكن الحقيقة أن الدين الإلهي بطبيعته يمثل ثورة دائمة، وجهادا مستمرا ضد العابثين بكرامة الإنسان، فكل الرسل جاؤوا لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ولحقهم وأتباعهم الكثير من الأذى والقتل، لأنهم وقفوا في وجه الملأ الظالمين. قال الله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }[1397] فكيف يتهم الدين بمالأة الظالمين والسير في ركابهم، وما جاءت الرسالات إلا لرد عدوانهم، وتحرير الإنسان من قبضتهم ؟قال تعالى:"{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ }[1398] . فإذا كان الدين يحذر أتباعه من مجرد الركون إلى الظالمين، فهل يقبل أن يكونوا مساعدين لهم على الظلم .؟

إن تعاليم الدين وهي تسعى لتربية المسلم، قامت بتكوين شخصيته على اليقظة الدائمة والوعي التام ليكون فطنا لأداء الواجبات والمطالبة بالحقوق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ومن هنا فالدين

[1396]- سورة العنكبوت الآية :40

[1397]-سورة آل عمران الآية :146

[1398]- سورة هود الآية :113

ليس "أفيونا" كما تزعم العلمانية، وإنما ثورة، ووعي، ويقظة مستمرة بكل خاطر يؤثر على حياة الإنسان الآجلة والعاجلة، ويشير مصطفى محمود إلى حالة اليقظة التي يصبغ بها الإسلام شخصية المسلم، ويرد الاتهام على قائليه من الشيوعيين الملاحدة، ويؤكد أنهم هم المخدرون بالأفيون. فيقول :" وهل الدين إلا ذروة اليقظة والانتباه .وماذا يكون حال المسلمين الذين يقول لهم ربهم : "وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ .. }[1399] ماذا يكون حال مثل هؤلاء المسلمين إلا الخوف الدائم، واليقظة الدائمة، والانتباه الدائم لكل خاطر يخطر على القلب..فهذا هو الله يحاسبهم على مواطن النيات كما يحاسبهم على شواهد الأعمال .

فأين لهم النوم . وأين هم من سكرة الأفيون . إنما المساطيل حقا وأهل الغفلة هم الذين يعيشون في خدر الأوهام الباطلة، هم أهل المذاهب المادية من شيوعيين وغيرهم .ممن تصوروا أن لا شيء وراء هذه الحياة ولا شيء بعدها ...هؤلاء هم الذين يعيشون في خدر الأفيون...وتلك هي طمأنينة الغفلة وراحة الأفيون وسكينة آكلي المخدرات" [1400].

وقد يصدق القول على تجربة أوروبا مع الدين، ومن ثم يصبح القول غير علمي، ولا أمين وذلك لأن "كارل ماركس" لم يكن علميا حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفّق منها مذهبا طبقه اعتسافا على التاريخ كله، وتعمد إسقاط مراحل كاملة من التحول التاريخي، لأنها ناقضت مذهبه ..فهل كان علميا في استقرائه، وخاصة فيما يتعلق بالتجربة الإسلامية ودور الدين في نهضة الشعوب التي آمنت به.

لقد قال ماركس إن كل انقلاب حضاري يأتي نتيجة انقلاب مُنَاظِر في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فأين هذا الكلام من التحول الإسلامي .فلقد كان الإسلام انقلابا حضاريا هائلا، ومع ذلك لم يكن نتيجة انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج في قريش .وإنما جاء كظاهرة

[1399]- سورة البقرة الآية :284

[1400]- مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي ص 26/25

فوقية مستقلة عن البيئة، ومن ثم فهو يهدم كل الفكر الماركسي من أساسه، فلا الدين أفيون للشعوب، ولا نظريته فيها رائحة العلمية .بل إن نظريته الإلحادية هي التي خدرت الفطرة الإنسانية في شعوب الاتحاد السوفياتي، وصرفتها عن ممارسة عبوديتها لله تعالى.

ومن جهة أخرى فإذا كان "ماركس" يعتبر الدين أفيون حيث كان "رجال الدين" يتواطئون مع الإقطاع لإخضاع الشعوب، فإن الأمر على العكس تماما في الإسلام ، لأن "عالم الدين" مكلّف شرعا أن لا يكتم الحق، وأن يجهر بحرب الباطل، ولا يشتري بآيات الله ثمنا قليلا، ويعتبر ذلك من أعظم الجهاد "كلمة حق عند سلطان جائر ".كما يعد ذلك من المسؤولية الملقاة على كاهل كل عالم، بالإضافة إلى كون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة على كل مسلم يمارسها على قدر استطاعته، ناهيك عن مئات الآيات التي تتحدث عن الظلم، والفساد، والإجرام، وتوجب على المسلم عدم التعايش مع هذه الظواهر السلبية في الحياة الإنسانية، وتحذره من الركون إلى الظالمين، فكيف يكون" الدين "مخدرا للشعوب وهذه هي طبيعته؟

إن الإسلام باعتباره منهجا للإصلاح والتغيير يقتضي أن لا يتعايش مع الفساد، لأن الإصلاح معناه أن يرد كل شيء إلى نصابه،ونصاب الشيء أن يكون متوافقا مع طبيعته المنسجمة مع مراد الله تعالى، ومن ثم فليس صادقا القول بأنه الدين أفيون الشعوب،بل إن الشعوب لم تعرف فكرة الثورة على الفساد، واتجهت إلى الحرية إلا يوم عرفت الإسلام، فهذا العبد "بلال بن رباح" – العبد، الحبشي، الأسود – عندما تشرّبت نفسه معاني الإيمان انطلق يتحدى الكفر وأهله ليعلن يقظة الضمير الإنساني في رفض كل أنواع استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، ورفضه لمنطق الطبقية الذي فرضته الجاهلية،وهو نموذج للإنسان الذي يؤكد عداء الدين للخنوع والخضوع لأي بشر مهما كانت منزلته،لأن فلسفة الدين قائمة على أن الخضوع لا يكون إلا لله الواحد القهار،فإذا عجز عن مقاومة الظلم والفساد، وجبت الهجرة إلى مكان آخر تتوفر فيه الحرية وينجو من حالة الذل التي يريد أن يفرضها بعض الطواغيت على الشعوب، فإن لم يفعل ورضي بالمهانة عدّ ظالما لنفسه. قال تعالى

:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً }[1401]

4- القولبأن الدينمصدر للاستبداد :وهذه الفرية مثلها مثل غيرها كانت مجسّدة في التجربة الغربية حين أعطت الكنيسة لنفسها حق محاكمة كل من يخالف تعاليمها الباطلة، ووقفت في وجه العلماء والمفكرين وطبقت على اجتهاداتهم منطقها الاستبدادي الذي يرفضه الدين الصحيح،لأن الله تعالى تعبّد البشر بالطواعية والاختيار ولم يتعبّدهم بالإكراه والإجبار هذا منطق كل الأديان، أما إذا خصّصنا الإسلام فإننا نجده يمنح الحرية للإنسان في مختلف الجوانب، ويجعلها حقا من أهم الحقوق، لأن التكليف يفقد معناه مع غياب الحرية في اتخاذ القرار سواء كان :

أ-في اختيار العقيدة قال تعالى :{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[1402].

ب- أو في التعبير عن الرأي قال تعالى:{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ }[1403].

ج- أو في حرية الفكر قال تعالى :{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }[1404].

فالدين يفرض على أصحابه استصحاب "النية"أي الإخلاص في كل عمل، وهذا لا ينبع إلا عن إرادة وقصد وحرية كشرط أساسي في قبول العمل، وهذا الشرط لا يفرض من الخارج، بل هو إرادة ذاتية، ولو فرض من الخارج لم يعد له معنى، وهذا ما يؤكد استحالة أن يكون الدين استبداديا، لأنه لا يريد تكوين منافقين يتظاهرون بالتدين والطاعة، وهم لا يؤمنون في الحقيقة. ومن هنا فطبيعة

[1401]-سورة النساء الآية :97

[1402]-سورة البقرة الآية :256

[1403]-سورة الزمر الآية :18

[1404]-سورة سبأ الآية : 46

الدين ترفض الاستبداد، وما قامت به الكنيسة من قتل العلماء وإهانتهم، وبلغ الأمر إلى حرقهم، يخالفه منطق الدين تماما الذي يرفع هذه الفئة من العلماء ويمنحها درجة عالية لا يبلغها أحد ممن أوتوا حظوظا أخرى في الحياة قال تعالى {شَهِدَاللَّهُأَنَّهُلاَإِلَهَإِلاَّهُوَوَالْمَلاَئِكَةُوَأُوْلُواْالْعِلْمِقَآئِمَاًبِالْقِسْطِلاَإِلَهَإِلاَّهُوَالْعَزِيزُالْحَكِيمُ }[1405] وقال تعالى:{ يَرْفَعِاللَّهُالَّذِينَآمَنُوامِنكُمْوَالَّذِينَأُوتُواالْعِلْمَدَرَجَاتٍوَاللَّهُبِمَاتَعْمَلُونَخَبِيرٌ }[1406].

5–القول بأن الدينخداع للضعفاء وتعليقهم بالجنة في الآخرة: من الأركان الأساسية في التصور الذي جاء الدين لإقراره أن الحياة الإنسانية بكل مجرياتها تتحرك نحو غاية، وهذه الغاية يحددها من خلق الكون ورسم له هذه الغاية، فقد تقرر في العقول أن صانع الصّنعة هو الأدرى بالغاية منها ولا يمكن لغيره أن يحدد تلك الغاية. ومن ثم فالدين جاء ليقرر حقائق يعجز العقل المحدود عن بلوغها ليكشف عن الحكمة من الحياة، ومسؤولية الإنسان فيها. ولما كانت المسؤولية تقتضي الجزاء بالضرورة، فإن الدين لم يكن في يوم من الأيام وسيلة لخداع الناس والتلبيس عليهم، ووعدهم بحياة أخرى منطلقا من الفراغ، لأن منطق السعي في الحياة يستتبعه بالضرورة الجزاء، ومن ثم جاء ليهدي الناس لمعنى الحياة الحقيقية، فبيّن أن الحياة الإنسانية تنقسم إلى مرحلتين متصلتين في آثارهما، المرحلة الأولى: يمارس الناس فيها سعيهم بعد اختيار منهج حياتهم، وهي مرحلة عمل لا حساب فيها، أما المرحلة الثانية: فهي التي يتجسد فيها العدل الإلهي، وهي الآخرة، ولا يمكن للمرحلة الأولى أن يكون لها معنى بدون المرحلة الثانية التي ينصف فيها المظلومون بل قل إنها مرحلة واحدة بشطرين.

فإنكار الدين وأهميته يكذبه الواقع الإلحادي . فلما واجه ستالين مشكلة في حربه مع الألمان وقلبت الموازين، لم يجد لها حلا إلا في الدين الذي حاربه، وذلك حينما رأى الفلاح الروسي يعطي ظهره للعدو، وهو في تساؤل لماذا يحارب ؟ ولماذا يموت ؟ مادام لا يوجد آخرة، ولا بعث بعد الموت ..ولا امتياز لشهيد على خائن، وإنما الكل ذاهب إلى التراب ."وأمام هذا التخاذل الخطير رأى

1- سورة آل عمران الآية : 18

[1406]. سورة المجادلة الآية : 11

ستالين نفسه مضطرا ليعيد الحماس إلى هذا الفلاح، أن يعود فيعترف بالوجود الضروري للكنيسة، وأن يفتح أبواب الكنائس للصلاة، وأن يرفع الاضطهاد عن رجال الدين، وأكثر من هذا يشجع الشعور الوطني والقومي ..فعل هذا مضطرا برغم تناقضه مع جوهر تفكيره كشيوعي ماركسي "[1407].

إن كل الدلائل تؤكد أن" الدين" جاء ليبصر الإنسان بمصيره المحتوم بعد الموت، والذي ينبغي على الإنسان العاقل أن يحسب له حسابه، لأنه يحدد مصيره الأبدي، ويكون من الغباء أن يراهن الشيوعي على فكرة لا يملك دليلا واحدا لنفيها . إن الإسلام وهو يشرح عقائده ركز بشكل كبير على قضية الإيمان بالله واليوم الآخر، باعتبار هذه التصورات ترجح بقوة ميزان السلوك الإنساني، وساق الأدلة المتنوعة لإثباتها، والشيوعيون الذين ينكرون الجنة، والآخرة ويعتبرونها وَهْمًا، هم ذاتهم استنجدوا بالكنيسة لعلمهم بمدى فاعلية هذه العقيدة في تحريك السلوك وتفعيله وتوجيهه. ولا شك أن هذا الشعور الإنساني له جذور في النفس ودلائل في الكون والحياة تؤكدهفي عالم النبات، وفي تاريخ الإنسانية، وفي دورات الأحياء في زوالها وعودتها.

وزيادة على ذلك فإن كل الأنبياء كان أتباعهم من الضعفاء، ومن ثم فالرسالات جاءت لتحرير الإنسان، وإعادة الاعتبار لكرامته، والوقوف في وجه من استضعفوه قال تعالى :{وَنُرِيدُأَنَنَّمُنَّعَلَىالَّذِينَاسْتُضْعِفُوافِيالْأَرْضِوَنَجْعَلَهُمْأَئِمَّةًوَنَجْعَلَهُمُالْوَارِثِينَ }[1408] فهؤلاء الظلمة هل يذهب ظلمهم سدى ؟كلا إن الإنسان يضع القوانين في الحياة ليشعر أن لكل مسؤولية جزاء، فإذا كان الإنسان يحكم بهذا المنطق في عالم الاجتماع، فَلِمَ لا يحكم بنفس المنطق في عالم الحياة. فالظالمون والمظلومون كل سينال جزاء ما اقترف. وهل فعلا يعقل أن يستوي الصالحون والطالحون فينتقلون إلى التراب،وليس بعد ذلك جزاء ولا حساب. إن العقل يجزم بفساد هذا المنطق الذي لا يقبله الإنسان على نفسه في مؤسسته، ومصنعه، وفي نظام حكمه وفي جميع شؤونه،وهو ما يستفهم عليه القرآن

[1407]– مصطفى محمود: أكذوبة اليسار الإسلامي ص 8

[1408] . سورة القصص الآية : 5

تأكيدا على بطلانه. قال تعالى:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ }[1409] {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[1410].فلا ينال المجتهدون والكسالى نفس الجزاء، وهذا ما يجعل منطق إنكار الآخرة منطقا غير عقلاني وغير علمي.

6- القول بأن عقلية الدين "عقلية غيبية" :يبدو أن منظري العلمانية لم يكن لهم اطلاع واف على جميع الأديان، وأن الغرب أصدر حكما جزافا على الأديان جميعا، على الرغم من ادعائه العلمية والموضوعية، وهذا الحكم قد يكون بسبب أن الغرب حَبَس موقفه من الدين على التجربة الأوروبية مع الكنيسة، أو أن الغرب دُفع إلى هذا الموقف من الأديان دفعا من قبل "الخبثاء" كما يسميهم أنور الجندي، ليمنعوا الغرب من الوقوف على التجربة الإسلامية :"وإن كان لتفسيرات الدين أثرها في أزمته وتحوله، غير أنه عجز أن يلتمس مفاهيم الدين الحق .ووقف من الإسلام موقف العداء الشديد والخصومة المتعصبة قبل أن يقف على الحقائق، فقد كانت هناك قوى كبيرة تصده عن أن يفهم التجربة الإسلامية، وظل قاصرا في حدود التفسيرات الدينية التي عارضت انطلاقته في مجال العلم والتجريب . فلما اشتدت أزمته الروحية، وتفاقمت، وجَهَهُ نَاصِحُوه "الخبثاء" إلى الفلسفات الشرقية الغنوصية التي هي من نفس نبع الوثنية الهلينية الإغريقية" [1411] .

أما العلمانية المادية الغربية فقد لا تجحد الدين، ولكنها لها رأي فيه من وجهتين وتشترك فيهما أحدهما مع الماركسية من حيث نشأة الدين إذ يعتبره ماركس أنه : عبارة عن زفرة المضطهدين وعزاء لمشكلة الحرمان الاجتماعي الذي تلجأ إليه الطبقات المسحوقة تعويضا عما يحيق بها من ضيم في عالم "لا قلب له" على حد تعبيره.

فهي ترى أن الدين ليس وحيا من الله تعالى، حيث تعددت نظريات نشأة الدين،ومن أشهرها ما ذكرها رفيق عبد السلام الذي يرى أن نظرة العلمانية الغربية للدين أيا كانت،فهي لم تستطع

[1409]- سورة القلم الآية : 35

[1410]- سورة ص الآية :28

[1411]- أنور الجندي : سقوط العلمانية ص 136

التخلص من الموروث المسيحي، فجاءت منطبعة على نحو ما بالموروث المسيحي ممزوجة بنزعة وضعية إلحادية حيث أننا نجد أن:

نظرية دور كايم ترى على أن الدين وضع اجتماعي، يتوافق المجتمع على وضعه،لذا يعرف الدين بأنه :" نسق من العقائد والمسلكيات ذو صلة بموجودات مقدسة تتموضع في مواقع بعيدة ومحرمة وهي عقائد ومسلكيات تنتظم في جماعة أخلاقية موحدة تضم منتسبيها إليها تسمى الكنيسة"[1412].

غير أن فرويد يفسر الظاهرة على أنها ضرب من التعالي (التسامي)النفسي باتجاه موجودات خيالية أسطورية .لكن نظرية أوجست كونت تفترض أن الدين تطور في حياة البشرية.

وهنا نسجّل ملاحظة جديرة بالذكر أشار إليها رفيق عبد السلام وهي: أن جميع تعريفات "الدين" عند الفلاسفة الغربيين لم تخرج عن التجربة الغربية مع المسيحية، على الرغم من اصطدامهم معها، وهو ما يؤكد "الروح العنصرية والقومية " التي يفكر بها الغربي حتى لو ادّعى العلمية في بحثه حيث يقول :" ومن المفارقات العجيبة أن أغلبية فلاسفة واجتماعيي الغرب الحديث ورغم مناهضة كثير منهم للمسيحية عامة وللكنيسة خاصة، لا يترددون في التأكيد على فرادة الفكر المسيحي، أو التاريخ المسيحي الروماني إذا ما تعلق الأمر بمقارنات مع ديانات، أو حضارات مغايرة للحضارة الغربية المسيحية "[1413]كما أنها إن اضطرت للاعتراف بوجود الدين، فهي لا ترى أن له وظيفة في الحياة، فهو مجرد علاقة شخصية بين الإنسان وربه.

فلا شك أن الحضارة الغربية مرت خلال قرون بتجربة قاسية مع الكنيسة، مما جعلها تكرر المحاولات للتخلص منها، وكانت العلمانية النتاج الأخير للمحاولات الخطيرة الدائبة منذ عصر التنوير، حيث استهدفت عن طريق فلسفتها المادية ونظرياتها المتعددة الفكرة الدينية بكل مقوماتها،فعارضت الدين وأنكرت الألوهية ورفضت الشرائع والقيم وأحلت محله دينا جديدا يقوم على الإلحاد والمادة والفوضى

[1412]– رفيق عبد السلام : في العلمانية والدين والديمقراطية المفاهيم والسياقات ص100

[1413]– المرجع نفسه ص100

الأخلاقية،وفي ظروف معينة نجحت التجربة العلمانية في تحويل المجتمع الأوروبي إلى مجتمع لا صلة له بالدين، مما أغرى العلمانية إلى مسابقة الزمن في حمل المسلمين عليها غير ناظرين إلى مدى الفوارق بين العقائد والأديان بين الشرق والغرب، غير أن هذا لا يبرر خطأ نظرتها للدين من حيث النشأة والوظيفة.فهل صحيح أن الدين منهج يجب التحرر منه،وأنه لا يصلح أساسا لحياة إنسانية ؟

أول ما نشير إليه في هذا الصدد أن ما ذهبت إليه العلمانية قد يصدق على دين الكنيسة، أما أن تعمم الحكم على كل الأديان فهذا الذي ينبغي مناقشته، فلو كان العلمانيون علميين حقا لوجب عليهم أن يقارنوا ويقايسوا بين مفهوم الدين الذي أساء إليهم، وبين مفهوم الإسلام الذي يتميز بطابعه الخاص، والذي يملك رؤيا ونظام مجتمع .فهذا التعميم في الحكم جعل العلمانية تتجه إلى تفسيرات زائفة، غير مطابقة للواقع، ولم تعتمد فيه على دراسة أصيلة لدين الله الحق، فجاء الحكم غير موضوعي على الأديان ومن بينها الإسلام، ولا يستند إلى سلطان من عقل ولا نقل ولا واقع، ولا الأعراف العلمية. ويمكن التعقيب عليه بما يلي :

لقد أخطأت العلمانية في وصف الدين عموما والدين الإسلامي خصوصا، حيث أصدر العلمانيون حكما عاما على جميع الأديان، وجعلوها في سلة واحدة وهذا حكم غير علمي . هنا ننقل ردا لمحمد التومي[1414] وهو يفنّد هذه الفرية، ويرجع خطأ الحكم الذي أصدره العلمانيون في رفض الدين لأسباب منها:

أولا : لا يلزم من انحصار مهمة الدين في الحضارة الغربية في المجال الروحي أن يكون الدين الإسلامي كذلك، إذ أن القاعدة العلمية تقضي بأن يكون لكل نموذج من الأديان مفهومه، ومضمونه، ونظرته المستقلة، وإلا لما كان للّقب الذي ينسب إليه أية قيمة، فهذا إسلام وتلك مسيحية .

ثانيا : ليس من المنطق في شيئ أن يحكم على دين من خلال دين آخر وخاصة إذا كان الإسلام في تعاليمه لا يطمئن ولا يثق في دين الكنيسة، بل يعتبره قد خرج عن أصله بما أحدث فيه القائمون

[1414]- ينظر محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 25/24/23

عليه من تغيير وتحريف قال تعالى :{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ }[1415]قال تعالى:{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ }[1416] والتحريف كما يشير المفسرون لم يقتصر على العقيدة، بل تجاوزها إلى الأحكام والمعاملات.

ثالثا :إن انحصار مهمة الدينفي الجانب الروحي كما تشير إليه المصادر الغربية حسب العلمانيين تأباه المعاني الأصيلة لكلمة الدين في اللغة العربية، وقد بيّن "دراز " أصالته في العربية، وتتبع كافة مشتقاتها واستعرض جلّ استعمالاتها، فوجد أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين، يعظم أحدهما الأخر، ويخضع له، فإذا وصف الطرف الأول كانت "خضوعا وانقيادا". وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت "أمرا وسلطانا وحكما وإلزاما". وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين، كانت هي "الدستور المنظم لتلك العلاقة"[1417] .

رابعا: إن الأمانة تقضي بأن لا يفسّر أي دين إلا بما تفسره به منابعه الأصلية، والإسلام دين من خصائصه الشمول، فهو يستوعب كل النشاط الإنساني.وقد كشف عن خطته الاجتماعية في وقت مبكر من الدعوة الإسلامية:"لقد كان الخطأ الكبير الذي وقعت فيه العلمانية وهي تنعى الدين وتشهر به، أنها اعتمدت على تفسيرات زائفة، ولم تعتمد على أصول أصيلة لدين الله الحق،وأنها نظرت من خلال مرحلة محدودة لها ظروفها وطبيعتها. وعجزت أن تنظر نظرة كلية لتحيط بالقضية من مختلف أبعادها "[1418].

خامسا :أن حصر مهمة الدين في "التهذيب النفسي "مغالطة، لأن ذلك يستلزم بالضرورة أن يكون له تأثير خارجي يتمثل في شكل سلوك وعمل، وإلا كان وجوده وعدمه سواء، إذ أن تزكية النفس

[1415]- سورة آل عمران الآية :71

[1416]-سورة البقرة الآية :79

[1417]- ينظر عبد الله دراز : الدين ص 32/31

[1418]- أنور الجندي : سقوط العلمانية ص97

هي المحرك للأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث النبوي " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[1419] "ويشير محمد التومي إلى قاعدة هامة وهي "أن التهذيب النفسي يقتضي تهذيب الأعمال، وهذا يعني الخروج بالأثر النفسي من دائرة الذات إلى دائرة الوسط الاجتماعي،وإلا لما كان للتهذيب النفسي أي معنى"[1420].

6- إن فكرة كون الدين لا يتجاوز حدود القلب باتت تصوّرا خياليا مبنيا على غير واقع، فالدراسات الإنسانية كشفت أن الدين كله أنساق ونظم تترابط وتتفاعل في الحركة الاجتماعية وللفكرة الدينية تأثير مباشر في توجيه نظم المجتمع، لأن الدين بمثابة المعايير التي يتحاكم إليها الناس سواء كان هذا الدين وضعيا أم سماويا. وإن كان قد حدث فصل بين الديني والزمني في أوروبا، فهذا من فعل الكنيسة وسوء تمثيلها للدين،ومن ثم لا ينبغي تعميم الحكم.

وخلاصة القول أن الفلسفة الغربية العلمانية في مجموعها هي محاولة لتفسير العالم والحياة والمجتمع عن طريق العقل مع التجاوز التام لمنهج الدين وإنكار العالم الآخر، وكل ما يتصل بما وراء الطبيعة أو ما وراء المادة، وقد أشرنا —سابقا- أن الفكر العلماني الغربي بشقيه قد تجاوز النظرة الدينية على إثر خلافات واسعة، مرت هذه الخلافات بمراحل متعددة انتقلت فيها الفلسفة الغربية بين عديد من النزعات العقلية والتجريبية والوضعية، وقد كانت في أول أمرها تجمع بين وثنية اليونان وعقائد الرومان، ثم تأرجحت بين قيم المسيحية وقيم المادية، ودخلت مرحلة صراع بين قيم الروح والضمير والأخلاق من ناحية، وبين المادية والإلحاد والإباحية من ناحية أخرى، وكان وقع النظريات عنيفا على التفكير الأوروبي ولا سيما نظرية التطور التي اتخذت منطلقا من التطور البيولوجي إلى نظرية عامة في التطور الاجتماعي .

[1419]-أخرجه البخاري : كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه الجزء الأول حديث رقم 52.

[1420]- محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 24

فليست العلمانية الغربية الشاملة إلا نتيجة من نتائج الصراع الهائل بين المادة والروح، والعقل والقلب، والدين والمادية، وبعد عهود من تصادم الأفعال الذي انتهى الصراع فيه بالغلبة لجانب المادية بسبب الانحراف الذي وصل مداه في الزهادة والرهبانية واعتزال الدنيا وإنكار متاعها، فكان رد الفعل أقوى شدة –كما يعبر عنه فيزيائيا – فقام الفكر المادي العلماني على أساس واضح من معارضة الدين والأخلاق ونقد المسيحية واتهم الدين بتلك التهم غير المؤسسة. لذلك أنكرت هذه الفلسفة الغيب والروح وهاجمت مختلف مفاهيمه، فأعلنت أنها مع كل ما يلبي الغرائز وضد كل ما يتصل بالقيم. فأعلنت أن الجنس هو أبرز دوافع الإنسان.وأن الإنسان أصله حيوان، وأن الدين ليس فطرة وأنه ليس هناك أخلاق مثلى دائمة،وأن الحق للقوة،وأن الزواج والأسرة ليست نزعات فطرية في الإنسان،وأن القواعد الأخلاقية لا وجود لها،وأن الجريمة ظاهرة سوية، وهذه خلاصة أهم النظريات التي أعلت من شأن المادة، وحركت الفكر الغربي لبلوغ حالة هذه الظاهرة "العلمانية الشاملة".

بالإضافة إلى ما سبق مناقشته، يبقى بيان أن كل الادعاءات والتهم السالفة الذكر مردها إلى الخلل الذي أصاب المنظومة التصورية الغربية عن الوجود بضغط من النظريات الإلحادية التي صادفت ظروفا مواتية .ولعل أخطر تلك القضايا هو "إنكار وجود خالق للكون " .

ففي مجال النظر إلى القضايا الوجودية تنكر العلمانية أي وجود "للماورائيات" أو ما يسمى في التصور الإسلامي ب "الغيب" ولعل أهم قضية في هذا المجال التي تستحق أن تناقش هي "إنكار وجود الله تعالى"، حيث يقوم التصور العلماني في تفسيره للوجود على إنكار وجود أية قوة خارجة عن الكون المادي أي: أنها تنكر وجود الله، والفلسفة الإلحادية وخاصة الشيوعية كان لها تاريخ مثير مع الدين كما يشير إلى ذلك مصطفى محمود فيقول :"تاريخ الشيوعية مع الدين تاريخ مثير يستحق التحليل والتأمل، فالمذهب الماركسي في أصل منهجه يرفض الدين والغيبيات ولا يؤمن بإرادة أو

مشيئة خارجة عن الكون المادي،ويرى أن الكون المادي يفسر نفسه بنفسه بدون حاجة إلى افتراض قوة إلهية سابقة عن الوجود"[1421] وتستند هذه النظرة إلى شبهتين رئيسيتين تتمثلان في:

أ- الشبهة الأولى : ادعاء أزلية المادة ولا حاجة للخالق.

ب-الشبهة الثانية : القول بالصدفة.

وسأحاول عرض الشبهة متتبعا من قال بها من الماديين القدامى[1422] والدهريين والماديين المحدثين[1423]، ثم أفندها بما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وما جاد به العلم من حقائق عن هذه القضية باعتباره جاء ليؤكد الحقيقة القرآنية،وفي ذلك يقول وحيد الدين خان :"فلقد كشفت أضواء العلم الحديث عن حقائق الدين،ولم تنجح من أية ناحية في الإساءة إليه .بل إن جميع ما وصل أو سيصل إليه العلم الحديث هو بمثابة تصديق لما أسماه الإسلام :"بالحقيقة الأخيرة" قبل أربعة عشر قرنا من الزمان :"{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }[1424].

لا شك وأن " وجود الله تعالى " من أعظم الحقائق في الحياة، لكن الماديين يصرون على إنكارها بحيث بُنيت دول كاملة على هذه الفلسفة، وهم يتبجحون أن ما حققوه من إنجازات كان من وحي إنكار الماورائيات، ومن هنا أصبح تتبع هذه الشبهة واجبا حتى ينهدم بناء الإلحاد من خلال هدم الخلفية الفلسفية له .

أ-مناقشة الشبهة الأولى :القول بأزلية المادة

[1421]-مصطفى محمود : أكذوبة اليسار الإسلامي دار المعارف ط2 ص 7

[1422]-من الماديين القدامى :ديموقريطس وأبيقور .

[1423]-من الماديين المحدثين :توماس هوبز وبخنر ودافيد هيوم وشوبنهور وكارل ماركس وسبنسر ونيتشه وبرتراند رسل ..وغيرهم.

[1424]- سورة فصلت الآية: 53

يذهب الماديون إلى القول بأن الكون قائم بنفسه وهو موجود منذ الأزل، وأنه نشأ من عناصر مادية على اختلاف فيما بينهم في هذه العناصر :(الماء، والنار، والهواء، والتراب) كما يقول به الفلاسفة اليونان [1425] وانتقلت هذه النزعة المادية التي تقول بقدم العالم وأزليته وإنكار العلة الفاعلة واكتفائه بنفسه على نحو آلي بدون حاجة لإله إلى العصر الحديث، حيث دعمت التجارب العلمية فيه النزعة المادية، وينقل يوسف كرم عن دولباك [1426]الذي اصطنع المادية المطلقة وذهب إلى أن المادة متحركة بذاتها، وأن كل شيء يفسر بالمادة والحركة، وأنهما أزليتان أبديتان خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما فليس العالم متروكا للصدفة، ولا مدبرا بإله[1427].

وإذا كانت النزعة الإلحادية ظاهرة فردية شاذة في التاريخ الإنساني، فإنها أصبحت ظاهرة وبائية في كتل وتجمعات إنسانية ثقيلة وخطيرة في العصر الحديث. ويرد عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ذلك إلى خطط اليهود الذين جعلوا الإلحاد مذهبا تدين به كثير من الدول والمنظمات، وعملوا بكل ما أوتوا من خبث ومكر ودهاء وقوة ومال لتحقيق هدفهم في إقامة دولتهم، مستندا في ذلك إلى البروتوكول الرابع :"يجب علينا أن ننزع فكرة الله ذاتها من عقول "الجوييم" الأمميين،وأن نضع مكانها عمليات حسابية، ورغبات مادية " ويضيف ما جاء في البروتوكول التاسع قولهم:" ولقد خدعنا الجيل لناشئ من الجوييم الأميين،وجعلناه فاسدا متعفنا بما علّمناه من مبادئ ونظرات معروف لنا زيفها التام "[1428] فإذا كان ما لقن للأجيال زيفا، فكيف يمكن إبطاله ومواجهته، خاصة ونحن نواجه

[1425]- ينظر يوسف كرم :الفلسفة اليونانية ص30، و ويل ديورانت قصة الفلسفة ص 24/8/7.

[1426]- دولباك : فيلسوف ألماني (1723-1789) عاش في باريس اصطنع المادية المطلقة، وكان له تأثير كبير .ذهب إلى أن المادة متحركة بذاتها، وان كل سيء يفسر بالمادة والحركة، وانهما أزليتان أبديتان خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما . ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 192

[1427]-يوسف كرم :تاريخ الفلسفة الحديثة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط سنة 1936 ص191/ 192

[1428]- ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني :كواشف زيوف ص 412/411

حضارة زائفة، لكنها تلبس عباءة العلم، وتضغط على الناس بما تملك من قوة مادية وإعلامية ؟ وهل صحيح أن الكون وجد آليا ؟

يمكن تحليل فكرة وجود الكون إلى أربعة احتمالات كما يراها عالم الطبيعة البيولوجية "فرانك ألن"[1429] وهو يرد على من ينكرون الخالق. فيقول :" كثيرا ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود. فكيف نفسّر وجوده ونشأته ؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة عن هذا السؤال : فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال،وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده،وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم،وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية،وإما أن يكون له خالق "[1430].

ولما كانت هذه الاحتمالات متناقضة فمما لا شك فيه أن واحدا منها هو الصحيح، ومن ثم لا بد من بيانه.فيبدأ "فرانك ألن " بمناقشة هذه الاحتمالات وإقصاء الباطلة منها بالدليل فيشير إلى ما يلي :

-أما الاحتمال الأول:فلا يقيم مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس؛ فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل في الحقيقة.وقد عاد إلى هذا الرأي سير جيمس جينز الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي ....وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال لظهور بطلانه.

[1429]- فرانك ألن :هو عالم الطبيعة البيولوجية ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة ما نيتوبا بكندا من سنة 1904 إلى سنة 1944أخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفزيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام نورى الذهبي للجمعية الملكية بكندا ينظر " الله يتجلى في عصر العلم " ص11

[1430]- نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان راجعه وعلق عليه محمد جمال الدين الفندي دار القلم بيروت ص11

-أما الرأي الثاني : الذي يرى أن هذا العالم بما فيه من مادة، وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم، فهو رأي لا يقل عن سابقه في انعدام الدليل، ولا يستحق هو أيضا أن يكون موضعا للنظر أو المناقشة .

والرأي الثالث : الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية .

ويرجح بين هذين الاحتمالين في تفسير صفة الأزلية فيبيّن : أننا إما أن ننسبها إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق . وقانون الديناميكا الحرارية يعيننا في ترجيح كفة حدوث العالم، وأن أصل الكون أو أساسه مرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث، وقد ثبت أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة في الانخفاض حتى تصير في الأجسام تحت درجة الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ." ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون الكون من صنع يديه"[1431] .

إن ما يطرحه الفلاسفة المحدثون من فكرة الإلحاد في ظل العلمانية، هو إحياء للمذاهب الإلحادية القديمة. فحضارة الغرب لم تتنصّل من موروثها الثقافي المستمد من الحضارة اليونانية، وهي فكرة تدل على تهافت يفتقد إلى الدليل العلمي، بل يدل على تناقض صارخ مع الفطرة والعقل والأديان كلها، وهي نظرة قاصرة لا تتفق تماما مع الحقائق العلمية التي يزعم الملحدون من العلمانيين أن المنهج العلمي هو سبيلهم لإثبات هذه الحقيقة، وسأختار من الأدلة القرآنية والعلمية ما أبطل به هذه الفكرة كما يأتي :

[1431]- نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان راجعه وعلق عليه محمد جمال الدين الفندي دار القلم بيروت ص12

1-دليل الفطرة :

إذا كان وجود الله تعالى في نظر الإسلام فطرة فطر الله الناس عليها، وهو جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، وأن هذا الشعور ملأ نفس الإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه الأرض،وهو لا يفتأ يشعر بأن هناك قوة تسيطر على حياته، فإن هذه الفطرة قد تحتجب بسبب المؤثرات البيئية المختلفة وتنحرف أحيانا أو تزيغ عن معرفة هذه القوة، فتتوجه إلى الاعتقاد في قوى الطبيعة المختلفة، التي يعجز عن مواجهتها، وبالتالي يمنح هذه القوى ما كان ينبغي أن يتوجه به إلى الخالق سبحانه وتعالى القوة العليا. وعندئذ يدخل الإنسان في فترة من الغفلة عن معرفة الله رب العالمين،وقد أشار القرآن الكريم إلى أن هذه الحالة التي يمكن أن تعتري الإنسان فتصرفه عن الفطرة التي أقر بها الإنسان على نفسه وتشكل عنصرا أصيلا في كيانه. قال الله تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }[1432] لذلك كان منهج القرآن التذكير الدائم والتنبيه المستمر بالنظر إلى مصدر النعم التي تقع بين يديه ليبحث عن واهبها. قال تعالى {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ }[1433] ويوجه الإنسان للنظر في مادة خلقه لما فيها من عمليات هائلة تحدث في مراحل تشكل الجنين وقد أصبح اليوم بين يدي الإنسان دلائل القدرة بالصور المكبرة التي تتابع تطور الجنين وما يحيط به من مختلف العمليات المعقدة التي يستحيل أن تحدث من غير خطة وعناية قال تعالى: {فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ }[1434]كما يلفت نظره إلى مظاهر الإبداع في الكون حتى يتساءل،ويبحث عن مدبر هذه المظاهر على غرار ما جاء في قوله تعالى : {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[1435].

[1432]-سورة الأعراف الآية :172

[1433]- سورة عبس الآية :24

[1434]- سورة الطارق الآية 5

[1435]- سورة النمل الآية :61

ومن رحمة الله بالإنسان أن لا يتركه فريسة للمفسدين والضالين،فأرسل الرسل وأنزل الكتب تذكر الإنسان بالعهد الذي قطعه على نفسه يوم كان نسمة في صلب آدم. قال تعالى{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً }[1436].

وقد تستيقظ الفطرة في حالات من الشدة حيث لا يجد الإنسان ملجأ يلجأ إليه فينطلق نداء الإيمان من بين جنبات نفسه يصرخ بالحقيقة الكبرى أن لا إله إلا الله قال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ }[1437] وهذا ما كشفت عنه قصة موسى وفرعون، فبعد تاريخ طويل من العناد والكبر وتحت مطارق الشدة تنطلق الفطرة لتعبّر عن نفسها قال تعالى:{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[1438].

وإذا كان هذا هو خطاب القرآن عن الفطرة، والذي يؤكد أن وجود الله جزء لا يتجزأ من تكوين الإنسان يمكن طمسه فيختفي في فترة بسبب الضغوط الفكرية والنفسية والبيئية التي يتعرض لها الإنسان، ولكن لا يمكن فصله واجتثاثه، فإن كان الماديون لا يقرّون إلا بما ينطق به العلم التجريبي فقد نطق العلم الحديث ليؤكد هذه الحقيقة .فيما نشرت مجلة العلم والحياة[1439] الشهيرة مقالا بعنوان :pour quoi dieu ne disparaitra jamais والتي توصلت إلى نتيجة هامة جدا مفادها :أن المشكل ليس في: "هل الله موجود أم لا ؟ !وإنما في تحليل الحجج الموجودة في دماغ الإنسان بخصوص وجود الله، حيث أن الدماغ الإنساني مبرمج مسبقا للإيمان بالله حسب آخر الأبحاث في علم الأعصاب التي بينت وجود خلايا خاصة بالإيمان بالله،وإن كل شيئ في الدماغ يحث على الإيمان، وبينت أيضا أن الإيمان هو الدواء المعجزة ضد الأرق والقلق..ومما ورد في المقال:

[1436]- سورة النساء الآية :165

[1437]- سورة لقمان الآية : 32

[1438]- سورة يونس الآية :90

[1439]- science et vie (العلم والحياة) عدد 1055 أوت 2005 مقال .(Nicolas Revoy)

."Notre cerveau est programmé pour croire"

فإذا كان الدماغ مبرمجا على الإيمان فمن برمج هذا النظام ؟ الجواب لا يملكه في الحقيقة إلا القرآن الكريم الذي احتوت آياته على هذه الحقيقة "وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا" ليؤكد بعدها أن الإنسان خلق على هذا الإيمان ولا تبديل لخلق الله :{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1440].

ولما كان الإيمان بالله مسألة فطرية وبديهية، فإنه لم يكن إثبات وجود الله هدفا من أهداف القرآن الكريم من سوق الأدلة المختلفة، وهذا لا يمنع من توظيفها لهذا الغرض، ذلك أن القرآن يعتبر أن هذه المسألة تندرج ضمن الضرورات الفكرية، لذلك جاءت النصوص تذكر بهذه الحقيقة ولا تستدل عليها. قال تعالى :{أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ }[1441] وقال تعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ }[1442].

والقرآن الكريم يؤكد على قضية "الخلق "باستمرار وهذا اللفظ له دلالته الوحيدة في كل السياقات،ويتناولها على أنها دليل على الخالق،لأن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علة،ولا يمكن أن يوجد نفسه، ولم يثبت أن أحدا ادعى أنه خلق الكائنات أو خلق نفسه[1443]،ومن ثم يقرر أن السموات والأرض كانتا معدومتين فأوجدهما الله، فالممكنات باعتبار ذاتها وحدها تكون معدومة،

[1440]–سورة الروم الآية :30

[1441]– سورة إبراهيم الآية :10

[1442]– سورة الروم الآية :20

[1443]–عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام دار المعارف ط2 سنة 1989ص 51

واتصافها بالوجود لا يكون إلا من واجب الوجود، الذي يستغني عن غيره، وهو الله تعالى : {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ }[1444].

2-دليل الاختراع والحدوث:

يذهب القرآن في الرد على المنكرين لوجود الله إلى تقرير حقيقة مهمة وهي أن الكون والإنسان والحياة لم يكن شيء منها موجودا ثم كانت، فالعالم كله حادث وليس أزليا كما تذهب إليه العلمانية الملحدة. ومن ثم يؤكد القرآن أن الكون مخلوق، أي أنه وجد من العدم على غير نظير سابق :{قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }[1445].وقال تعالى:{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ }[1446] فالآيات تؤكد أن الخلق تم بإرادة الله تعالى الذي يفعل ما يشاء، لأنه سبحانه فعّال لما يريد، ومشيئته تتم بأمر "كن" قال تعالى:{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ }[1447].

وقد استخدم الرسل عليهم السلام طريقة الاستدلال بالصنعة على الصانع، والأثر على المؤثر كما في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون. قال تعالى:{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ.قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ.قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ.قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ }[1448] وهذه حجة قوية في

[1444]- سورة الطور الآية:35

[1445]- سورة الأحقاف الآية:4

[1446]- سورة الرعد الآية:16

[1447]- سورة النحل الآية:40

[1448]- سورة الشعراء من الآية: 29/23

إثبات الخالق، ولكن فرعون لما قامت عليه الحجة، وعجز عن مواجهتها، لجأ إلى منطق القوة والتهديد والوعيد.

فلفظ "الخلق "الذي يستخدمه القرآن في كثير من المواضع يدل على "الربوبية"ويفيد أن الشيء لا يمكن أن يوجد بدون علّة، ولا يمكن أن يكون هو علة من صياغة نفسه، لذلك ركز الله رب العالمين على خلقه للأشياء وإيجادها من العدم، لأنه لم يثبت أن أحدا ادعى أنه أوجد هذه المخلوقات، ومن ثم كان تساؤل القرآن تقريريا لهذه الحقيقة، وأنه لا أحد يدّعي أنه فعل ذلك. سواء في عالم الأكوان كما قال تعالى :{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ } [1449]، أو كان في عالم الإنسان قال تعالى:{أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } [1450].

يقول ابن تيمية معلقا على هذه الآيات "إذا كان كل من القسمين : وهو كونهم خلقوا من غير خالق،وكونهم خلقوا أنفسهم معلوم الانتفاء بالضرورة، فإن الإنسان يعلم بالضرورة أنه لم يحدث من غير محدث، وأنه لم يحدث نفسه، فلما كان العلم بأنه لا بد له من محدث،وأن محدِثه ليس هو إيّاه علما ضروريا ثبت بالضرورة أن له محدثا غيره، وكل ما يقدر فيه أنه مخلوق،فهو كذلك .و الخلق يتضمن الحدوث والتقدير ففيه معنى الإبداع والتقدير ...فلا توجد الحوادث إلا بفاعل غني عن غيره،وكل محدث مفتقر إلى غيره فلا توجد الحوادث إلا بفاعل قديم غير محدث"[1451].

استدل العلماء بهذه الآيات في مناقشتهم للقائلين بقدم العالم من الدهريين ببطلان الترجيح بدون مرجح، ومنها ما ذكره ابن تيمية لبيان ذلك فقال:"ومثل أن يقال الموجود : إما حي بنفسه،وإما حي بغيره،وإما ليس بحي.ومعلوم أن الحي بغيره موجود .فإن الإنسان يكون في بطن أمه قبل نفخ الروح

[1449]– سورة الطور الآية :36/35

[1450]– سورة الواقعة الآية :59/58

[1451]–أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية :درء تعارض العقل والنقل تحقيق محمد رشاد سالم ط2 سنة 1991 المجلد الثالث ص114/113

فيه ليس بحي،ثم يصير حيا بعد ذلك .فثبت وجود الحي بغيره الذي جعله حيا.وذلك الذي جعله حيا إما أن يكون حيا بنفسه، وإما بغيره .والحي بغيره يحتاج إلى حي، فلا بد أن ينتهي الأمر إلى حي بنفسه قطعا للتسلسل[1452]الممتنع، فثبت أن في الوجود ما هو حي بنفسه،لا يكون إلا واجبا قديما بنفسه"[1453].

فلا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئا {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً }[1454] وعناصر الكون الذي نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة ..إننا جازمون بأن وجودنا محدث لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا إلى ذلك، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطورا ذاتيا.إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها.قيل :إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد قط إنه ليس لها فاعل، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه ؟ إننا لم نكن شيئا فكنا.فمن كوّننا ؟؟ { قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ }[1455]"[1456].

وبهذا يتبين لنا أن الزعم بعدم وجود إله لهذا العالم وأن الكون أزلي قول باطل بالعقل وبالعلم فضلا عن الدين الذي أعطى لقضية الخلق أهمية كبيرة، لأنها القضية التي ينبني عليها باقي الأصول والفروع. ومن هنا فالعلمانية في تصوّرها لأعظم حقيقة في الوجود تكون قد جانبت الصواب وهي تقود البشرية بإلحادها إلى مصير سيء حيث غيّبت الإنسان عن نفسه وجعلته غريبا عن ذاته.ومن تم لا تصلح أن تكون مصدرا لتفسير الوجود، لأن كل تفسير لا يستند إلى هذه الحقيقة سوف يجانب

[1452]–التسلسل: الذي يسمى التسلسل في العلل والمعلولات والمؤثر والأثر والفاعل والمفعول والخالق والمخلوق هو ممتنع باتفاق العقلاء.

[1453]–المرجع نفسه 117

[1454]– سورة الإنسان الآية :1

[1455]- سورة الأنعام الآية : 91

[1456]– محمد الغزالي : عقيدة المسلم الشهاب للطباعة والنشر ص 16ط سنة 1985 ص16

الصواب وينحرف عن وضع تصوّر سليم ينسجم مع طبيعة الإنسان وطبيعة الوظيفة المنوطة به فوق الأرض.

ب-مناقشة الشبهة الثانية : القول بالصدفة

يرى دعاة العلمانية أن الكون وجد صدفة، وأن حركته آلية كامنة فيه، ولا عجب أن نجد كثيرا من الماديين المحدثين يتجهون لهذا التفسير مادام هدفهم هو البحث عن أي مبرر لإنكار الخالق، ومن هؤلاء "أرنست هكل" الذي ذهب إلى أن المادة هي الموجد الضروري للحياة، وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد هو "المونيرا" التي تركبت اتفاقا من الأزوت والهيدروجين والأكسجين "ومنها تكونت الحياة [1457].والسؤال المطروح من أين جاءت هذه العناصر المذكورة ذاتها؟ !

ولعلنا نجد من هو أكثر مكابرة منه وهو " هكسلي "الذي وصلت به الثقة في الصدفة أن زعم أنه" لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد (شكسبير)، فكذلك كل الكون الآن نتيجة لعمليات عمياء تدور في المادة لبلايين السنين"[1458] .

ويلخص الفيلسوف " برتراند رسل "هذه النظرة المادية المتطرفة حين يرجع تاريخ البشرية كلها إلى القول بالصدفة. فيقول:"ليس وراء نشأة الإنسان غاية، أو تدبير، إن نشأته وحياته وآماله ومخاوفه، وعواطفه،وعقائده ليست إلا نتيجة اجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة "[1459].

[1457] يوسف كرم :تاريخ الفلسفة اليونانية ص400

[1458]- وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص84

[1459]-ينظر نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص 57

ولا شك أن هذه النظرية ظاهرة البطلان ذلك أن النظام والتوازن الموجود في الكون، والإنسان والطبيعة، والنبات، والحيوان لا يمكن بأي حال أن تكون نِسبُه المحكمة، ومسافاته الدقيقة وتناسقه البديع وتكامله الرائع وتصاميمه المتقنة مجرد صدفة وخارج عن الخبرة والحكمة .

ينقل حسين عباس الأنصاري عن الفلكي الشهير "لابالاس" في نفي حدوث العالم بالمصادفة قوله:" أما القدرة الفاطرة فقد عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية، وكثافتها، وثبتت أقدار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، لكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس، والتوابع حول السيارات، بأدق حساب .إن هذا النظام المستمر إلى ماشاء الله لا يعروه خلل،هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، بحيث لا يمكن أن يحمل على المصادفات إلا باحتمال واحد في أربعة تريوليونات"[1460] .

ولا شك أن هذه الأبعاد والمسافات للكواكب، وما ينتج عن ذلك من دقة في النظام الكوني يمدنا بفكرة هامة وهي أن هذا التوافق والانسجام بين مختلف عناصر الكون (بعد الأرض عن الشمس، نسبة الأكسجين، قوة الجاذبية، أنواع الغازات ونسبها ...) يستحيل أن يحدث بضربة حظ، وأن عقولنا تحكم باستحالة وجودها جزافا، وعندئذ تصبح كلمة "الصدفة" ليست إلاّ معيارا لجهلنا. يقول "ألن "إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم ... ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول أنها تحدث بالمصادفة، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد)

[1460]– حسين عباس الأنصاري: العلم في رحاب الله الأدلة العلمية على وجود الله ووحدانيته المطبعة العالمية ط 2001 ص 54

.وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يكون بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة"[1461].

ويؤكد "ايرفنج وليام نوبلوتشي"[1462] الذي اهتدى من خلال دراساته التي أثبتت أن المصادفة وحدها لا يمكن أن تفسر وجود هذا الكون :" أما بالنسبة إلى نفسي بوصفي أحد المشتغلين بالعلوم فإنني لا أستطيع أن أنفي قوانين المصادفة لأنني ألمس نتائجها في كثير من أمور حياتنا اليومية، ولا أستطيع كذلك أن أرفض النظريات المادية رفضا باتا، لأن نجاح المشتغلين بالعلوم يتوقف على مدى وصولهم إلى تفسيرات طبيعية للظواهر العويصة التي يدرسونها .

ولكني أؤمن بوجود الله .إنني اعتقدت بوجوده سبحانه لأنني لا أستطيع أن أتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الالكترونات والبروتونات الأولى أو الأحماض الآمنية الأولى أو البروتوبلازم الأول أو البدرة الأولى أو العقل الأول .

إنني أعتقد في وجود الله، لأن وجوده القدسي هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها [1463].

ويسوق محمد الغزالي مثلا لتقريب المعنى فيقول : "إن إحالة الأمور على المصادفات ضرب من الدجل العلمي يرفضه أولوا الألباب .لنفرض أن الآلة الكاتبة في أحد الدواوين وجدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم عمر، ماذا يعني هذا ...؟

[1461]– نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص15

[1462]–أستاذ العلوم الطبيعية حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة إيروا أخصائي في الحياة البرية في الولايات المتحدة الأمريكية – أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشيجان منذ سنة 1945–أخصائي في وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري . ينظر الله يتجلى في عصر العلم .ص57

[1463]–نخبة من العلماء أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص 59/58/57

أحد أمرين : أقربهما إلى البداهة وهو أن خبيرا بالكتابة طبع الاسم على الورقة .

والأمر الثاني : أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جزافا .

إن الفرض الأخير من الناحية العلمية ما يأتي :

الابتداء بكتابة العين. أو سقوط حروفها وحده على الورقة دون وعي يجوز بنسبة 1إلى 28 –وهو عدد حروف الهجاء العربية –.

وسقوط حرفي العين والميم معا يجوز بنسبة 1إلى 28X28.

ونزول الحروف الثلاثة بعوامل الصدفة المحضة يجوز بنسبة 1 إلى 28x28x28 أي بنسبة 1 إلى 21952 .

وليس أغبى فكرا ممن يترك الفرض الوحيد المعقول، ويؤثر عليه فرضا آخر لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنتين وعشرين ألف مرة "[1464].

وإذا كانت الصدفة مع تشكيل اسم بثلاثة حروف يعطينا هذا العدد الضخم، فكيف ببناء جارحة كالعين التي تحتوي على ملايير الخلايا ؟

يسوق "فرانك ألن " مجموعة من المعطيات حول الجزيء البروتيني فيقول :" :"إن البروتينات[1465] من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي : الكربون، الإيدروجين،

[1464]–محمد الغزالي : عقيدة المسلم ص 18

[1465]–إن البروتينات تتكون من سلاسل من الأحماض الأمنية، إذا تآلفت بطرقة أخرى غير التي تتآلف بها تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموما، وقد حسب العالم الإنجليزي (j. b. leathes) الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (10^{48}) وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا . ينظر الله يتجلى في عصر العلم ص 16

والنتروجين، والأكسجين، والكبريت . ويبلغ عدد الذرات في الجزء البروتيني الواحد 40000 ذرة،. ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة 92 عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا،فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكوّن جزيئا من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد "[1466].

ثم يحيل تحليل هذه المعطيات ل "تشارلز يوجين جاي"ليطلعنا عن الظروف الزمنية والمادية لتكوين جزيء بروتيني فيقول: "وقد قام العالم الرياضي السويسري "تشارلز يوجين جاي" بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزء بروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى 10[160] أي بنسبة 1 إلى رقم عشرة مضروب في نفسه 160 مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات،وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيئ واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات .ويتطلب تكوين هذا الجزيئ على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 234 مرة من السنين (1 [243].سنة) "[1467].

فكم يحتاج خلق الإنسان؟ إذا كانت هذه الأرقام من أجل إنتاج خلية واحدة .ومن العجيب أن ينسب المادي الكون إلى المصادفة ولا ينسبه إلى الله .أليست الصدفة التي يقول بها الملحدون نوع من التضليل باسم العلم ؟ !

إن فروع العلم كافة تثبت أن هنالك نظاما معجزا يسود هذا الكون، أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل، والتي يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها وقد بلغت من الدقة ما يمكّن من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرهما من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين.

[1466]- ينظر نخبة باحثين أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم ص15

[1467]- المرجع نفسه ص 16/15

فمن الذي سن هذه القوانين وأودعها كل ذرة من ذرات الوجود، بل كل ما هو دون الذرة عند نشأتها الأولى ؟ ومن الذي خلق كل ذلك النظام والتوافق والانسجام ؟ من الذي صمّم فأبدع وقدّر فأحسن التقدير ؟[1468] يجيب العلماني : إنها الصدفة . ويجيب المسلم {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }[1469]. أما العقلاء من علماء الغرب فيقول أحدهم :"إن العلم لا يملك أي تفسير للحقائق . والقول بأنها حدثت اتفاقا إنما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات"[1470].

ويضيف مونتسكيو: " من قال أن قدرا أعمى أوجد جميع الموجودات التي نبصرها في العالم في أكمل مظاهر النظام يكون قد قال محالا عظيما، فأي محال أعظم من قدر أعمى أحدث موجودات مدركة ؟إذن يوجد عقل أولي، والقوانين هي الصلات بين هذا العقل ومختلف الموجودات، وصلات هذه الموجودات المختلفة فيما بينها .ولله صلة بالكون خالقا وحافظا .والقوانين التي خلق بمقتضاها هي القوانين التي يحفظ بموجبها،والله يعمل وفق هذه القواعد لأنه يعلمها، وهو يعلمها لأنه صنعها،وهو صنعها لعلاقتها بحكمته وقدرته "[1471].

وخلاصة القول أن النظام الدقيق الذي يحتويه الكون يستحيل أن يحدث عن طريق الصدفة، فلو أخذنا مثلا كوكب الأرض وما فيه من توازن مدهش لتبين لنا أن القائلين بالصدفة يرددون كلاما لا يقبل عند الراسخين في العلم،وننقل هنا بعض مميزات كوكب الأرض التي جعلته مؤهلا من جميع النواحي ليكون مهيأ للحياة دون غيره من الكواكب :

[1468]– ينظر مجموعة باحثين أمريكيين :الله يتجلى في عصر العلم دار القلم بيروت ص 9

[1469]– سورة النمل الآية :88

[1470]– وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى تعريب ظفر الإسلام خان مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين مكتبة الرسالة بيروت ط1 سنة 1974ص 75

[1471]– مونتسكيو :كتاب روح الشرائع ترجمة عادل زعيتر . ط الأنسكو القاهرة 1953 ج1 ص11 /12.

– "ولو أن حجم الأرض كان أقل أو أكثر مما هي عليه الآن،لاستحالت الحياة فوقها،فلو أنها كانت في حجم القمر مثلا ؛بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا، لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية،ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها، كما هي الحال في القمر الذي لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائي لضعف قوة الجاذبية فيه .وانخفاض الجاذبية في الأرض إلى مستوى جاذبية القمر، سيترتب عليه اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها،واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وعلى العكس من ذلك، إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت جاذبيتها الحالية و عندئذ ينكمش غلافها الجوي الذي هو على بعد خمسمائة ميل إلى ما دون ذلك .وسيترتب عن هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوي وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر في الحياة .

–ولو أن الأرض تضاعف حجمها، فصارت مثل حجم الشمس مثلا لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة مرة، ولاقترب غلافها الهوائي حتى يصير منها على أربعة أميال بدلا من خمسمائة ميل، ولارتفع الضغط الجوي إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة، وذلك يؤدي إلى استحالة نشأة الأجسام الحية " [1472].

وهذه الدقة في توزع نسب الكميات والمسافات والأوزان كلها مرتبطة ببعضها لأداء وظيفة إبقاء الحياة بتوازن دقيق في كل الذرات المشكلة للكون في الأرض، أو في كل ما له علاقة بها .وإن هذا التوازن للكميات المحتاج إليها عجيب جدا، وإن القول بأن المادة الجامدة نظمت ذاتها على هذه الهيئة المناسبة المتوازنة مثير للدهشة !!.

إن ما تقول به العلمانية حقا هو الخرافة والأسطورة والاستبداد بالفكر الإنساني تحت غطاء العلم. ولا شيء مما قالت به في هذا الشأن يوافق عليه مخبر العلم.

[1472]– ينظر وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ص 69/68/67

2 – الأساس الثاني : المادية

يعد هذا المفهوم من أهم المفاهيم ذات الأبعاد الأساسية المكونة للعلمنة في الحضارة الغربية فمصطلح "الطبيعة المادة " مصطلح يستخدم كثيرا في الخطاب الفلسفي الغربي وهو مصطلح مهذب يحل محل كلمة "المادة". والطبيعة في تصور الفلسفة المادية هي "نظام يتحرك بلا هدف أو غاية، نظام واحدي مغلق مكتف بذاته، بحيث توجد مقوّمات حياته وحركته داخله، ويحوي داخله ما يلزم لفهمه،لا يشير إلى أي هدف أو غرض خارجه وهو نظام ضروري كلي شامل"[1473].

ولعل تقديس الطبيعة راجع إلى كون الفكر المادي الغربي المعاصر[1474] يرى أسبقية الطبيعة على الإنسان، ومن ثم يختزله إلى قوانينها ويخضعه إلى حتمياتها، بحيث يصبح جزءا لا يتجزأ منها أي: أن الحيز الإنساني يبتلعه الحيز المادي، بل إن الفكر المادي لا يرى أي قوة غير مادية، وهذه النزعة جردت الطبيعة من مغزاها الروحي. ومن ثم اعتبار الوجود خال من كل معنى خارج المادة، وإلى هذا يشير محمد نقيب العطاس بقوله: "إن هذا التجريد للطبيعة من مغزاها الروحي والحط من قيمتها بحيث لا تتجاوز كونهاشيئا من الأشياءخاليا من أي معنى علوي قدسي، قد كان في الحقيقة العامل الأساسي الذي انطلقت منه عملية العلمنة في المسيحية الغربية والعالم الغربي "[1475].

والطبيعة بهذا المعنى تعد المطلق العلماني الأساسي الكامن، وهو وحده المطلق النهائي وما عداه متغيّر، لذلك فكل تفسير للوجود لا بد أن يستند إلى ركيزة أساسية ومرجعية نهائية كامنة في المادة هذا المركز يشكل مصدر التماسك في الكون والمجتمع ويزوده بالهدف والغاية، ويشكل أساس

[1473]– ينظر حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري : العلمانية والحداثة والعولمة تحرير سوزان حرفي دار الفكر دمشق سنة 2008ص 24/23

[1474]– تقديس الطبيعة :عرفت هذه الفكرة تطورا تاريخيا في العالم الغربي، فلم تكن الطبيعة في العهد الأولمبي قبل ظهور المسيحية منفصلة عن الآلهة، ولكن بسبب انحطاط وتفسخ التدين في أوساط اليونانيين بدأ الطرد التدريجي للآلهة من الطبيعة، بحيث آل الأمر إلى اختزال الطبيعة من حيث حقيقتها ومنشؤها إلى مجرد علاقات سببية بين قوى وظواهر مادية، ونظرا لهيمنة العقلانية وتأثر المسيحية بالفكر الإغريقي الروماني تكونت نزعة طبائعية جردت الطبيعة من مغزاها الروحي، ومن قيمتها الرمزية بوصفها آية للخلق الإلهي فيما بعد . ينظر محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 60/59 .

[1475]–محمد نقيب العطاس: مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 55

وحدته" فحينما نقول العودة إلى الطبيعة فنحن نقصد أن العودة ستكون لقوانين الطبيعة أي قوانين المادة "[1476] .

فمن الطبيعة وحدها يستمد الإنسان المعرفة والقيم الأخلاقية والجمالية، وقد برز هذا عند فلاسفة المذهب المادي،فكان "هوبز" يشير إلى الدولة التنين وإلى الأخلاقيات الذئبية للإنسان باعتبارها تعبيرا عن الطبيعة المادة، كما تحدث "لوك" عن عقل الإنسان الصفحة البيضاء التي لا تختلف عن الطبيعة المادة في أي شيء، وفسّر بنتام المنظومة الأخلاقية وجعلها تدور حول المنفعة واللذة بشكل آلي،وظهرت اليد الخفية[1477] عند آدم سميت [1478]، ووسائل الإنتاج عند ماركس،والجنس عند فرويد، وإرادة القوة عند نيتشه، وقانون البقاء عند داروين، وهكذا أصبح كل شيء يفسَّر تفسيرا ماديا في نهاية الأمر[1479].

[1476]– عبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص 232

[1477]– تقول نظرية اليد الخفية: انه لو سُمح لكل مستهلك بحرية اختيار السلعة التي يرغب بشرائها، وسُمح لكل مُنتِج أن يبيع ما يشاء وأن يُصنّع السلعة التي يشاء وبالطريقة التي يرغب، فسينتهي المطاف بسلع ذات نوعية وسعر مناسبة ومفيدة لكل أفراد المجتمع وبالتالي للمجتمع ككل. والسبب يعود إلى أن الجشع سيكون عامل دفع لتصرف نافع. وبالتالي، فعمليات تحسين فعالية وكفاءة الإنتاج ستكون هدف المُصنعيين لزيادة الربحية عن طريق تقليص التكاليف. وخفض الأسعار ستكون دافع للقضاء على المنافسة. وسيستثمر المستثمرون في الصناعات المطلوبة من أجل الربح، كما سيسحبون استثماراتهم من الصناعات الأقل فعالية في إنتاج أي ربحية. وكذلك، سيشجع هذا الوضع الطلاب على دراسة التخصصات المطلوبة أي التي ستجلب لهم مداخيل أعلى. وكل هذه التفاعلات تحصل بشكل عفوي وطبيعي.

[1478]–آدم سميت :(1723–1790) يعتبر آدم سميت مؤسس علم الاقتصاد السياسي له كتابان هامان :" نظرية العواطف الأخلاقية" 1759و" بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها "1776 يؤكد في نظريته أن قانون المنفعة هو الكفيل بتنظيم الحياة الاجتماعية، ويكفي الناس شر تدخل الحكومة، فلو تركت التدخل فإن قانون تقسيم العمل يفعل فعله، فحسب رأيه فإن الإنسان حر كل الحرية في اتباع الطريق الذي تدله عليه حريته. وأن مصلحة المجتمع تتحقق تبغا لتحقق منفعة الفرد، لأن العائد العام هو مجموع عوائد الأفراد وتنسب عبارة اليد الخفية إلية لأنه هو الذي ابتكرها، واستخدمها في كتاب ثروة الأمم ثلاث مرات، إلا أن هذا المصطلح توسع مفهومه استعماله فيما بعد.

[1479]_ ينظرعبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص 235/234

فالأساس الذي قامت عليه الفلسفة الوضعية هو تقدير "الطبيعة" وتقييمها وحدها كمصدر للمعرفة، والطبيعة، أو الحقيقة، أو الواقع، أو الحس، كلها تدل على معنى واحد عند الوضعيين، وهي لاتعد كمصدر "مستقل" للمعرفة، بل كمصدر "فريد" للمعرفة اليقينية أو المعرفة الحقة، باعتبارها هي التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان، ومن ثم لا يملى على الإنسان أي شيء من وراء الطبيعة، كما لا يملى عليه من ذاته الخاصة " إذ ما يأتي من ماوراء الطبيعة خداع للحقيقة وليس حقيقة، وكذا ما يتصوره العقل من نفسه وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا، وبناء عليه يكون الدين وهو وحي أي ما بعد الطبيعة خداعا "[1480]

وبهذا تعتبر العلمانية الشاملة "الطبيعة" كيانا يتسّم ببعض الصّفات الأساسية التي تشكّل في مجموعها أساس الفلسفة المادية، لخصها عبد الوهاب المسيري في النقاط التالية[1481] :

1-الإيمان بوحدة الطبيعة، فالطبيعة شاملة لا انقطاع فيها ولا فراغات، فهي الكل المتصل وما عداها مجرد جزء ناقص منها،فهي لا تتحمل وجود مسافات أو ثغرات أو ثنائيات.

2-الإيمان بقانونية الطبيعة (لكل ظاهرة سبب،وكل سبب يؤدي إلى نفس النتيجة في كل زمان ومكان) أي أن الطبيعة بأسرها متسّقة مع نفسها، خاضعة لقوانين واحدة ثابتة منتظمة صارمة مطردة حتمية آلية، قوانين رياضية عامة واضحة .

3-أن الطبيعة لا تكترث بالخصوصية ولا بالتفرد أو الظاهرة الإنسانية ولا بالإنسان الفرد واتجاهاته ورغباته، وذلك أن الإنسان ليست له مكانة خاصة في الكون،فهو لا يختلف في تركيبه عن بقية الكائنات.والإنسان الفرد (أو الجزء) يذوب في الكل الطبيعي/المادي)ذوبان الذرات فيها.

[1480] -محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 343

[1481]-المرجع نفسه ص233 و العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ص 459

4-الإيمان بأن الطبيعة تتحرك تلقائيا بقوة دفع كامنة فيها، وبأن الحركة أمر مادي. ومن ثم لا توجد غائية في العالم المادي (حتى لو كانت غائية إنسانية تسحب خصوصيات النشاط البشري على الطبيعة المادية).

5-الإيمان بأنه لا توجد غيبيات ولا يوجد تجاوز للنظام الطبيعي من أي نوع، فالطبيعة تحوي داخلها كل القوانين التي تتحكم فيها وكل ما نحتاج إليه لتفسيرها ؛ فهي علة ذاتها، توجد في ذاتها، مكتفية بذاتها وتدرك بذاتها وهي واجبة الوجود.

ولهذا فالفكر العلماني ينظر بشمولية للكون ويجعل كل عناصره مادية منصهرة في القانون العام للطبيعة، ومفهوم الطبيعة مفهوم محوري في الخطاب الفلسفي الغربي الذي يحدد السّمات الأساسية للطبيعة.

1-يحل الإله في المؤمن ويصبح من الممكن معرفة الإله من خلال حالة شعورية أو تجربة جمالية يخوضها الإنسان، أي أن الإله يصبح أمرا خاصا بالقلب والضمير الشخصي بدلا من أن يكون التدين إيمانا بالغيب تستند إليه منظومة أخلاقية، ومع تزايد معدلات العلمنة يتصالح الدين مع الواقع إلى أن يصبح الدين واقعيا يستمد معياريته من الواقع.

2-أما الشكل الثاني :وهو أن يتجلى الخالق كقوة في الطبيعة أو في التاريخ ثم يصبح الخالق نفسه هو الطبيعة وقوانينها والتاريخ وقوانينه، الأمر الذي يعني هيمنة المرجعية المادية النهائية، أي أن سنن الإله هي سنن الطبيعة والتاريخ، ومن ثم تظهر اتجاهات دينية ترى إمكان الوصول إلى فكرة الإله من خلال دراسة الطبيعة وقوانينها دون حاجة إلى وحي .

3- كما يمكن ربط الدين بالقومية بحيث يتداخل القومي والديني، والنسبي والمطلق حتى تهيمن المرجعية المادية، ويصبح الانتماء الديني والانتماء القومي شيئا واحدا.فمثلا المجتمع النازي حوّل الشعب الألماني إلى مطلق ومرجعية نهائية مادية واستمد من هذا المطلق منظومة أخلاقية مادية تقول أن ألمانيا فوق الجميع ومن ثم وجدوا المسوغ لتطهير ألمانيا من العناصر البشرية غير المرغوب فيها، إذ

أن المنظومة العلمانية الشاملة ترفض أية مرجعية نهائية متجاوزة وبالتالي لا يمكن الحكم على هذه العمليات من منظور أية قيم مطلقة .فالدين القومي يعطي الشرعية لهذا الفعل.

ف"المادية بهذا المعنى أصبحت مذهبا فلسفيا يقرّ بأنه لا وجود لأي جوهر غير المادة (فجميع الظواهر النفسية والأخلاقية ...إلخ) إنما يفسّرها الوجود المادي .قال ماركس في هذا السياق " ليس وعي البشر هو الذي يحدد كينونتهم، بل كينونتهم التاريخية وظروفهم المادية هي التي تحدد وعيهم "[1482].ومن ثم كان تقسيمه للمادية إلى:

1. المادية الجدلية :التي ترى :"أن العالم كل يتكون من مادة في حركة ذات تطور متصاعد ومتزايد التعقيد، مما يؤدي في النهاية إلى قيام حياة روحية مستقلة عن الظواهر المادية، ولكنها طبعا ناتجة عنها .

2. أما المادية التاريخية : فهي حالة خاصة من المادية الجدلية، ومفادها أن الوقائع الاقتصادية هي أساس كل الظواهر التاريخية والاجتماعية، وهي المحدد لها، فالانتقال من نمط إنتاج تاريخي إلى نمط آخر يفسر بتغير الظروف الاقتصادية وبالتدقيق بعلاقات الإنتاج (وهي علاقات بين الأفراد داخل النمط الواحد"[1483].

❖ مناقشة أساس المادية عموما :

ليس صعبا أن نرد على هذه الفرية لأن ليس فيها ذرة من علم، وحقيقتها أنها فكرة مفلسة صيغت لتحقيق أغراض سياسية وأهمها الانقلاب على الأوضاع والنظم الموجودة في الصراع الإيديولوجي . والضعف في هذا الأساس ناتج من نواح عديدة:

[1482]– جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004 ص 405

[1483] – جلال الدين سعيد المرجع نفسه.

لا يماري أحد في أهمية العامل الاقتصادي في الحياة الإنسانية، لكن الخلل الواضح في هذه الرؤية العلمانية أن تجعله العامل الأساس والوحيد في تحديد السلوك الإنساني، ويظهر فساد ذلك فيما يلي:

1-أن فكرة العامل الاقتصادي الذي جعل منه ماركس السبب الوحيد الذي تتداعى من ورائه كل التغيرات التاريخية فيما يسمى التغير المادي للتاريخ، فهي فكرة سقطت علميا، والرأي السائد الآن في ميدان الظواهر الاجتماعية أنه لا يوجد سبب واحد مستقل وفاعل، وإنما هناك عوامل متعددة تؤثر في بعضها تأثيرات متقابلة، فالعامل الجوهري اليوم يمكن أن يصبح غدا عاملا ثانويا،والعامل الاقتصادي بهذا لا يصلح أن يكون سببا وحيدا .

2- إن افتراض النقاء والطهارة في طبقة البروليتاريا (العمال) كأنهم جنس آخر لا ينتمي لسكان الأرض،ومن ثم تزكيتهم لتولي حكم مطلق لتحقيق العدالة الاجتماعية كلام غير علمي، لأننا بشر وسنبقى بشرا.وأن ثورة التكنولوجيا قلبت الموازين وأنتجت طبقة جديدة من العمال مرفهين ويجلسون على كراسي فخمة وخلفهم نقابات عمالية قوية وقوانين للتأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض .

3- أن نظرية الماركسيين والماديين عموما تقول بحتمية القوانين، وهي دعوى زائفة وغير علمية فلا حتمية في الإنسانيات، فلا حتمية إلا في حركة الأفلاك والكواكب والمادة الصرفة، وحتى المادة الصرفة ظهرت قوانين جديدة تخرج حركة الالكترونات فيها من إسار الحتمية إلى مجال الاحتمال بسبب عوامل خفية لم يتوصل الإنسان لضبطها.

4- القول بأن الفكر الماركسي شمولي قادر للإجابة عن كل سؤال دعوى فارغة، وزعم فضفاض وغير علمي، وهو زعم مؤسس على الغرور أكثر منه على النظر العلمي، كيف بها تجيب عن عالم الغيب الذي لا تملك حوله أي معلومة . هذا الفراغ الموجود في الفضاء كان الناس يعتقدون بعدم وجود أي شيء فيه، ثم تبيّن أن هذا الفراغ تملؤه مجموعة من الطاقات عن طريقها تنقل الصورة والصوت اليوم، وما كان يصدر حوله من أحكام في الحقيقة لم يكن يعبّر إلا عن جهل الإنسان بالقوانين التي تعينه في الكشف عن الحقيقة . هذا في مجال قريب منا فكيف يجرؤ هؤلاء على هذا الحكم وعقولهم قاصرة

عن إدراك ما هو قريب جدا منهم وهي أنفسهم :{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }[1484].

5-ثم من أين جاءوا بأن المادة أسبق من الفكر في مبدإ الكون، ومن كان منهم حاضرا في لحظة نشأة الكون حتى يدّعي أن شهادته علمية، فما قالوا ذلك إلا رجما بالغيب .وهم يصرخون دائما أنهم لا يؤمنون بأي غيب، وإذا قالوا إن المادة قديمة، وأنها جاءت بلا خالق وقعوا في التناقض، لأنهم بهذا يسقطون قانون السببية الذي يقوم عليه العلم كله وهذا قمة التناقض . قال تعالى :{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً }[1485].

وقد ثبت لدينا بأن الشيوعية مادية، مثل مادية الغرب، بل إنها تجاوزت المادية إلى الإلحاد . فالمحرك الوحيد للغرب لا يخرج عن نطاق المادة، ولأجل المادة، وخاصة بعد التحولات العميقة التي عرفها الفكر الماركسي، والفكر الغربي، وما يجب التأكيد عليه أنه لا صلة للفكرين بالأسس العلمية في تفسيرهما لقضايا الوجود الإنساني كما يروّج له، لأن تفسير الوجود لا علاقة له بالمخبر، وقد أشار أنور الجندي إلى هذه التحولات في الفكر الغربي بقوله :"كانت الماركسية هي المرحلة النهائية للفكر الغربي (الإلحادي الإباحي) التي رسم لها أن تكون قمة السيطرة والتحول من العقائد الدينية والأخلاقية إلى التصور المادي الحاسم الذي يضع البشرية كلها إزاء التحول الخطير،وكان الفكر الغربي بعد انسلاخه من المسيحية وتحوله إلى الفكر المادي قد مرّ بمرحلتين:الأولى الفكر الليبرالي الرأسمالي الديمقراطي الذي عرفه الغرب، والذي تنكَّر لكل مقومات عقيدة الألوهية والنبوة والغيب والوحي. ثم انطلق من خلال الاقتصاد الحر إلى جهة مطلقة، حيث اعتمد مذهب دارون للتطور المطلق والتنكر لمفهوم (الثبات) وحمل معه مفهوم (الاستعلاء)على الشعوب المستضعفة والسيطرة عليها واستنزاف ثرواتها باسم العنصر الأبيض والتمييز العرقي واستقطاب العناصر المثقفة للولاء الغربي

[1484]- سورة الإسراء الآية : 85

[1485]- سورة الكهف الآية :51

وقيادة المجتمعات، حيث سيطر الاستعمار على معظم أقطار آسيا وإفريقيا وأصبحت أوروبا هي صاحبة السيادة والقيادة العالمية"[1486].

***مناقشة مادية الإنسان خصوصا وكونه أحادي البعد :**

تقوم الفلسفة الغربية في مفهومها للإنسان على أساس أنه كائن مادي بحت، وهذا يعد من أفدح الأخطاء في منطلقاتها باعتبار أنه يترتب على المفهوم كثيرا من القضايا الجوهرية في حياة الإنسان وهذا ما يشير إليه أنور الجندي حيث يوضّح أن:"هناك خطأ أساسي في مجال المذاهب والنظريات من حيث أنها تصاغ في أسلوب علمي براق : هو محاولة إخضاعها للمنهج العلمي الذي خضعت له المادة .ولكن هل يمكن أن تخضع الدراسات الاجتماعية للأسلوب العلمي الذي خضع له العلم التجريبي، إن هناك اختلاف واضح بين المفاهيم الإنسانية والعلوم التجريبية .

هذا الاختلاف مرده إلى أن هذه المفاهيم ترتبط بالإنسان في مشاعره وعواطفه وهي حالات يصعب إخضاعها للقوانين التي أخضعت لها الظواهر الطبيعية، فالتجربة في مجال العلوم الطبيعية والرياضية تصدق، لأنها تقوم على أسس ثابتة، أما المفاهيم الإنسانية فإنها تتعرض لظروف مختلفة تتصل بأعماق النفس وتستحيل على مقاييس التجريب، كذلك من العسير تحرير المفاهيم الإنسانية من الأهواء والميول والمصالح : كل هذا جعل المفاهيم الإنسانية متعذرة على الخضوع لما تخضع له العلوم الطبيعية "[1487] .

وإذا كان الفكر الغربي قائما على التصور المادي للوجود الإنساني فإن هذا التصور انعكس على كل سلوكات الغرب ومواقفه من قضايا الحياة،وقادها إلى منطق حياة الغاب القائم على الصراع والقوة، وبذلك فقدت الحياة النزعة التراحمية، بين بني الإنسان واستبدلت بمنطق غريبهيمن على الحياة

[1486]– أنور الجندي : سقوط الايديولوجيات وكيف يملأ الإسلام الفراغ، دعوة الحق رابطة العالم الإسلامي السنة الثانية عشر العدد 139 رجب 1414 ص37

[1487]– أنور الجندي: مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق في ضوء الإسلام دار الكتب الجزائر سنة 1987 ص 15/14

الإنسانية كما يشير إلى ذلك عدنان النحوي فيقول :"لقد دفع التصور العلماني الدول والشعوب إلى التنافس المدمر على المصالح المادية،وإلى الصراع المستمر على الغنائم.وأحسن أنواع الصراع كان يسمى "الحرب الباردة "،وأرسى قاعدة التعامل بين الدول والشعوب على أساس المصالح المادية وحدها "[1488].

ولا شك أن المبدأ الميكافيلي في السياسة سائد في الساحة الدولية، مما كرس التنافس المقيت في اللهث وراء المادة بشتى أصنافها ولو تم ذلك على جثث الأبرياء وتدمير إنجازات حضارية وقهر شعوب واستباحة محرمات.ولا يغرنا هنا نوع الشعار البراق التي ترفعه تلك الدول التي تدّعي أنها تتحرك هنا وهناك لأغراض ظاهرها إنساني وباطنها مادي صرف، كما تفعل فرنسا في مالي وأمريكا في العراق.

وهنا تبدو لنا عظمة الإسلام وبركة عقيدة التوحيد التي ترسي قواعد أخلاقية في التعامل بين الشعوب،حيث أنها تراعي المصالح المادية، ولكنها لا تخلو من البعد الأخلاقي والإنساني. ولقد كشفت سورة الحجرات عن القاعدة العظيمة للتعامل بين الشعوب. فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[1489]والفرق واضح بين منطق العلمانية القائم على التنافس المادي، وتعظيمه، وبين القاعدة الربانية المشرقة بالحق، والخير، والموازنة العادلة بين المصالح والقيم في قضية العلاقات الإنسانية .

3. الأساس الثالث :نسبية القيم

عرف المجتمع الغربي تغيّرات كبيرة في ظل هيمنة التفكير العلماني مست كل جوانب الكيان الاجتماعي، وحدث انقلاب جذري في المفاهيم التي كانت سائدة في علاقات أفراد المجتمع

[1488]– عدنان رضا النحوي : المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية دار النحوي للنشر والتوزيع ط1 سنة 1997 ص 157

[1489]– سورة الحجرات الآية :13

وبالخصوص في مجال الأسرة من حيث تكوينها وعلاقة أفرادها والأخلاقيات التي تنظمها، فعرفت الأسرة الغربية حرية تامة، ولم يعد يضبطها ضابط أخلاقي، وتغيّرت المفاهيم المتعلقة بالزواج والأسرة :" فقد قلّ الزواج إن لم يكن قد ندر وفترات الاختبار التي تسبقه والتي تمتد سنين ..وهي فترات الزواج " الحقيقي" وإن كان في حقيقته زنا وفحش،وغالبا ما تنتهي فترات الاختبار بالاكتفاء بها للانتقال إلى اختبار آخر أو للعدول عن هذه الفكرة السخيفة "فكرة الزواج " إلى فكرة المعاشرة الحرة الاختيارية بينهما دون "أعباء " الزواج، وحتى إذا اختاروا الزواج فهم ينفرون من الأطفال ... وبرغم التشجيع المستمر والميزات المادية التي تعطيها الأنظمة للأسر حتى تقوم على الإنجاب فإن أكثرهم لا يزالون معرضين "[1490] .

من خلال هذا الوصف لحال الأسرة في الغرب يتبين التأثير الواضح لنظرية فرويد القائمة على أن الحياة الإنسانية تحركها الغريزة، وليس للعلاقة بين الرجل والمرأة أي أهداف نبيلة أخرى، وقد تجلى ذلك واضحا في الحياة الأسرية الغربية، فداخل الأسرة زالت تلك القيم، فلا تجد دفء العواطف الأسرية، ومجرد أن يصل الولد أو البنت سن البلوغ، فإنه يقوم بالانفصال عن الأسرة، وإن تلكأ طالبت الأسرة بذلك،وأشد ما شاع داخل الأسرة الغربية غياب الحدود في العلاقات الجنسية حيث سقطت كل الحواجز، فانتشر زنا المحارم وأصبح المهم إرواء الغريزة، فانحدرت هذه العلاقة انحدارا تعف عنه الحيوانات،حتى بلغ الحد أن أصبحت الإحصائيات تتحدث عن تورط رجال الدين في كل أنواع الفواحش[1491]. وما شيوع الأمراض الجنسية في المجتمعات الغربية إلا دليلا على الحال المزرية التي آلت إليها ، عندما اختارت النظريات المناقضة للفطرة في الاجتماع الإنساني سواء في بناء الأسرة أو

[1490]– علي جريشة : الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص82/81

[1491]– تشير الاحصائيات أن 80% رجال الدين زناة، وأن 40 % منهم شذاذ، فكيف تكون النسبة بين أفراد المجتمع وبخاصة أن مجلس اللوردات وافق على إباحة الشذوذ الجنسي في بريطانيا عام 1965. .ينظر علي جريشة :الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص 83

في العلاقات الاجتماعية العامة، ونتج عنه ظواهر لا أخلاقية امتهنت فيها الكرامة الإنسانية، فحالات الإجهاض والولادة من السفاح وظاهرة البغاءتعد بالملايين[1492].

فإذا كان هذا هو حال الأسرة، فلا شك أن العلاقات بين أفراد المجتمع تكون أفظع ؛ لأن التفكير المادي وقف حاجزا كي لا تنمو العلاقات الاجتماعية نموا طبيعيا، حيث انعدمت العلاقات بين الآباء والأبناء، وبين الجيران، فكان من جراء هذا التمزق الاجتماعي أن كثيرا من المسنين يموتون ولا يعرف ذلك إلا بتصاعد رائحة جثثهم بعد أيام من وفاتهم، ولولا التأمينات التي تضمنها الدول لرأينا حالات إنسانية يندى لها الجبين .

وفي مجال النظرية الأخلاقية للعلمانية يحسم الفكر التنويري القضية حيث يرى أن الإنسان خيّر بطبيعته وهو يطمح إلى الخير والجمال والحق بشكل تلقائي طبيعي،وهو يبحث عن مصلحته بطريقة مستنيرة،أما الأفكار الدينية المختلفة مثل فكرة السقوط والخطيئة الأولى التي تفترض وجود الشر. فهي لا تستند إلى أساس طبيعي مادي محسوس.فالإنسان لا يضمر الشر، لأن الشر ليس من طبيعته، وما نرتكبه من آثام وما نقابله من شرور في المجتمع الإنساني إن هو إلا من مؤثرات خارجة عن النفس الإنسانية مثل البيئة الاجتماعية أو الجغرافية أو المادية أو العناصر الوراثية "ولكن من الواضح تماما أن الإنسان الجواني يتأثر تماما بهذه العناصر المادية الطبيعية/المادية البرانية، فهي التي تصوغه وتشكله، ولا يصوغها هو ولا يشكّلها"[1493] .

وبناء على هذه الرؤية ظهرت الفلسفة النفعية للتعبير عن النزعة الطبيعية الحسية المادية، وقد أعطت هذه الفلسفة الأسبقية للعناصر الفزيائية على حساب المفاهيم الأخلاقية وغيرها. فالأخلاق لا علاقة لها بالفضيلة والاحتياجات الروحية أو المعنى، ومن ثم حررت كثير من المجتمعات العلمانية الأخلاق

[1492]– يعود سبب انتشار البغاء –إضافة إلى التفكير الغريزي الذي سيطر على المجتمع الغربي –إلى أنه بمعاييرهم المادية أقل تكلفة من الصداقة والمخادنة والزواج، فضلا عن كون الإنسان الغربي في طلب المتعة يريد التنويع، ولسهولة الحصول على البغي، حتى أصبح البغاء غير مقتصر على حاملي رخصة البغاء، بل على سيدة البيت المحترمة و بعلم زوجها لتحسين حال الأسرة .ينظر علي جريشة :الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص 83

[1493]–عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص315

من الدين وأخضعت مفهومها للمسألة الاجتماعية النسبية، فهي لا تتمتع بأي مطلقية أو ثبات، ويجب أن تخضع للتقويم باستمرار حسب ما يتطلبه منطق الحداثة، وخصوصا إذا تم تغيير القيم بمعدلات متسارعة والتي غالبا ما تكون خاضعة لعلماء النفس،والاجتماع، والهندسة الاجتماعية والوراثية، وشركات الإعلان التلفزيونية، ومجلات أخبار النجوم وفضائحهم، وصناعة الإباحية واللذة[1494].

وتذهب "العلمانية الشاملة" ومن خلال مذهب المنفعة إلىأن القيم المعترف بها هي التي تحقق منفعة ومن ضمنها "الدين" ذاته كقيمة اجتماعية، لكن قيمته نابعة مما ينتجه من فوائد، ومنافعللناس،ولذا "فإن اعتبار شروط وجود الدين وأصوله ونشأته لا أهمية لها عند من يسأل عن قيمة الدين،لأن قيمته فيما ينتجه"[1495]فيقول الفيلسوف "لوروا :" تقاس قيمة الديانة بما تتضمنه من قواعد سلوكية لا بما تتضمنه من حقائق "[1496] فإذا كان الدين "نافعا" في بعض الأحوال ولا يمكن استبداله بغيره من الوسائل المادية المجربة، فهو قيمة إيجابية، وخاصة أن فاعليته تظهر بإيحائه المؤثر في الغالب أكثر من الأسباب المادية،لذلك نجد أن العلمانية وعلى الرغم من رفضها للدين توظفه في محطات مختلفة؛لأنها لا تجد بديلا عنه في حل معضلة ما. وبهذا لم يسلم الدين من التفسير النفعي، لأن للدين أثرا فاعلا في بناء القيم وتوجيهها في المجتمع، كما أنه يتفوق على أي مصدر آخر للحث على النشاط والمثابرة .

جاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية:"والنسبية الأخلاقية (re lativisme moral) هي مذهب من يقرر أن فكرة الخير والشر تتغير بتغيّر الزمان والمكان، من غير أن يكون هذا التغيّر مصحوبا بتقدم معيّن"[1497].

[1494]-المرجع نفسه ص 316/315

[1495]-إميل بوترو : العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ص448 ترجمة د أحمد فؤاد الأهواني، نقلا عن القيم بين الإسلام والغرب مرجع سابق ص 138

[1496] نقلا عن جميل صليبا : المعجم الفلسفي 204/1

[1497]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية دار الجنوب للنشر تونس ط سنة 2004 ص 465

❖ **مناقشة نسبية القيم**

مما لا يخفى على أحد أن القيم من جملة العناصر المكونة لشخصية الإنسان، وأنها لا تنفك عنه بغض النظر عن القيم التي يؤمن بها الفرد، وأي نوع من أنواع القيم، سواء كانت روحية أو مادية أو نفسية واجتماعية، أو ذاتية وموضوعية، وعلى العموم فهذه القيم يمكن تقسيمها إلى قيم ثابتة، وقيم متغيّرة .

فالقيم الثابتة : هي التي لا تخضع للأزمان ولا للبيئات ولا تتغير بتغير الأماكن والعصور، فهي قيم ترتبط بالإنسان من حيث هو إنسان مشكّل من روح ومادة، ومن جسم ونفس، وهذه هي القيم المرتبطة بالمعتقدات والأديان والأخلاق، والتي تقوم على أساس إنساني خالص قوامه الحب والإخاء والرحمة، بحيث تتلاقى عليها النفس الإنسانية .فهي قيم ثابتة تعد المثل الأعلى لكل سلوك إنساني، وحيثما اتصف بها فرد اعتبر سلوكه أخلاقيا بغض النظر عن انتمائه .

أما القيم المتغيرة: فإنها تختلف باختلاف الزمان والمكان وتخضع لاختلاف الظروف الاجتماعية والبيئية .وهذه القيم تفرزها كل ثقافة أو حضارة بحسب دواعي التطور العقلي أو العلمي أو الاقتصادي.

وإذا كانت العلمانية الشاملة تعتبر كل القيم قضية نسبية متطورة بتطور الأوضاع الاجتماعية والبيئية، فإن نظرة الإسلام تختلف عنها تماما وترى أن القيم الثابتة أصيلة في الإنسان، حيث أنها بلغت حد الضرورة، فنفس الإنسان تنطوي على تصوّر مبدئي عن القيمة، بحيث يعد تحقيقه ربحا وتضييعه خسارة تعقب الندم والشعور بالقلق . : "على أساس أن الإنسان لا يمكن أن يكف عن التعلق بالمثال ونشدان الكمال في عالم الواقع، وأنه لا يمكن أن يستغني عن خالقه سبحانه الذي هو مصدر الكمال . أو بتعبير فلسفي لا يمكن للإنسان المحدود أن يستغني في وجوده عن الوجود

اللانهائي الذي هو الحق المطلق، وأن هذا التعلق الفطري لدى الإنسان بما فوق وجوده هو ما يجعله يستشعر أنه مسؤول عن كل أفعاله، وأمام محكمة ضميره على الأقل"[1498] .

وهذا المفهوم العلمي للقيم يتفق مع مفهوم الإسلام الذي أقر القيم النفسية، والاجتماعية، والمادية، في تكامل بديع يستهدف تغطية حاجات الإنسان، ويرتفع به عن المطامع والأهواء، ومن ثم كان شديد الوضوح في التركيز على القيم الإنسانية ومن أصدق منطلقاته وهي "الفطرة".

وعليه فإن القائلين بنسبية القيم يقعون في مغالطة واضحة عندما يصدرون حكما عاما على القيم ولا يصنفونها على الطريقة التي أشرنا إليها، وهي وجود قيم ثابتة أصيلة ومرجعية، وقيم أخرى متغيرة تتحرك في إطار القيم الثابتة، حتى لا يقع الإنسان في التناقض بين الأصيل والمتغير، ويمكننا عند ذلك من بيان النقد الذي يمكن توجيهه للقائلين بالنسبية المطلقة للقيم فنقول :

صحيح أن معظم المذاهب تتفق في استخدام مصطلحات لبعض القيم، ولا شك أن الانحراف في حياة البشر ينبع من عدم القدرة على ضبط مضامين هذه المصطلحات، ومن هنا يختلف الإسلام اختلافا جذريا عنها من حيث : مصدرها، ومضمونها، والباعث عليها، ومجالاتها، وبيان ذلك كالتالي:

فمن حيث **المصدر**: وقف المفكرون الأخلاقيون وعامة الفلاسفة بغض النظر عن التيار الذي ينتمون إليه من القيم الأخلاقية موقفين رئيسين :

-أحدهما يعتبر القيم الأخلاقية قيّما موضوعية، لها وجودها الثابت في الحياة الإنسانية. والموقف الأخر يعتبرها قيّما ذاتية ناشئة عن المشاعر والرغبات، أو عن المصالح والظروف الاجتماعية.

-أما من حيث المضمون فتكاد تشترك كل المذاهب والفلسفات والأديان في ترديد كثير من المصطلحات، إلاأنها تتباين عند التطرق للتفاصيل والعودة إلى المرجعيات. ومن هنا يتميز مضمون

[1498]-محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص13

القيم في العلمانية بكونها قيما إجرائية نفعية وقيما نسبية، فيتخلق الفرد بالصدق إذا كان في الصدق منفعة، وإذا لم يحقق منفعة لم يعد قيمة تستحق الاعتبار.

بينما في التصور الإسلامي فالصدق قيمة وخلق شامل يستوعب كل مواقف الإنسان وعلاقاته، فيكون مع النفس ومع الله ومع كل الناس.ومن حيث المجالات التي تغطيها القيم نجد أنها قيم تستوعب كل الإنسان ظاهرا وباطنا في الحياة الفردية والجماعية، وقد أشار محمد الكتاني إلى هذا التباين بين المنظومتين فقال : " لكن الاختلاف بين الفريقين أعمق مما يدّعيه دعاة التقدم والمحافظة حول أزمة القيم .ولا بد من إرجاعه إلى مصدر آخر، وعدم اختزاله في مسألة الموقف من التطور رفضا وقبولا . فجوهر الاختلاف ينطلق من المنظور إلى القيم وعلاقتها بالإنسان، كائنا ما كان، في عصر مضى أو عصر آت .أي حول المعنى الذي ينطوي عليه دور الإنسان في هذا الكون وطبيعة كينونته التواقة باستمرار للبحث عن مستقر لها في هذا الوجود عبر جدلية الحياة والموت، والبقاء والفناء فهل هذه الجدلية مجرد عبث تقوده الصدفة، ولا ينطوي على غاية، ولا يستهدف مثلا أعلى "[1499].

وأما من حيث **الغاية** : فإن القيم التي تروّج لها كل منظومة تختلف في الأهداف والغايات المرجوة منها . ففي المنظومة العلمانية كل ما تؤمن به من قيم تنحصر غاياته في هذا العالم المادي النفعي العاجل . بينما تهدف القيم الإسلامية إلى الاستقامة على منهج الله تعالى والسعي الدائم لنيل مرضاته، حيث تتجاوز غاية القيم العالم المادي إلى عالم الآخرة الرحب الفسيح وتنظر إليه على أنه خير وأبقى .قال تعالى:{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى }[1500] تقول موزة أحمد راشد العبار :" أن الإسلام استحدث الباعث الأخلاقي حيث كان العرب يحركهم لفعل الخير اتقاء الذم، أو طلب الثناء، وحسن الذكر . فحاتم الطائي يقول :"أخاف مذمات الحديث من بعدي " أما الإسلام

[1499]–محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 20/19

[1500]– سورة الضحى الآية :4

فجعل فعل الخير "تديّنا "هدفه ابتغاء وجه الله"[1501] . قال تعالى {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً }[1502] ولا شك أن الجاهلية الغربية أسوأ من الجاهلية العربية في هذا الباب، فهي لا تؤمن حتى بهذه الغاية الصغيرة عند العرب، بل لا هدف لحياتهم، إنهم يعتبرون الحياة مادة،ويؤمنون بالمادة، ويتحركون بالمادة، ويعيشون للمادة، لا فرق بينهم وبين ذلك الحيوان الذي ينطلق لإرواء غرائزه، بل هم أقل منه درجة. قال تعالى:{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ }[1503].

وبناء على هذا نجد أن الوضعية المنطقية[1504] من المذاهب الفلسفية المعاصرة التي ترفض الأحكام الأخلاقية وتدّعي أن القيم التي تشير إليها الألفاظ المعبرة عنها، لا تدل على معان يمكن إدراكها بالتجربة المباشرة، أو بالحواس. فهي مفاهيم غامضة لا تقبل التحليل، وهذا الاتجاه يرى أنه لا وجود لقيم ثابتة وقيم عليا مرجعية في حياة الإنسان، وهو موقف يتناقض تماما مع الرؤية الإسلامية لمصدرية القيم .

[1501]–موزة أحمد راشد العبار : القيم الأخلاقية بين الفكرين الإسلامي والغربي في عصر العولمة :الدار العالمية للنشر والتوزيع ط1 سنة 2009 ص118

[1502]– سورة الإنسان الآية : 9

[1503]–سورة محمد الآية : 12

[1504]–المذهب الوضعي : مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيما التي يتيحها العلم النجريبي .وينطوي المذهب على إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيما فيما يتعلق بما وراء المادة .تأسس المذهب الوضعي في فرنسا على يدي الفيلسوف "كونت" ومعظم من جاء بعده طبق منهجه في المعرفة ومن شخصيات المذهب :أوغست كونت (1798-1857م) وهو الفيلسوف الفرنسي المؤسس للمذهب، عمل أمينا للسر (سكرتيرا) للفيلسوف الاشتراكي سان سيمون بدأ بإلقاء محاضراته سنة 1826ثم أصيب بمرض عقلي وحاول الانتحار وقد نشر كتابه بعد ذلك تحت عنوان: محاضرات في الفلسفة الوضعية بسط فيه نظريته في العلوم والمعرفة .وقد اعتنق أفكار الوضعية كل من ريتشارد كونجريف (فيلسوف انجليزي)و إير (فيلسوف إنجليزي)برتراند راسل (فيلسوف انجليزي) و زكي نجيب محمود (مفكر عربي مصري).

وقد وضّح محمد الكتاني الفرق بين الرؤيتين ونتائج القول بنسبية القيم وحصرها في القيم المادية فقال :"إن الفرق بين هؤلاء وأولئك هو الفرق بين من يؤمن بضرورة وجود قيم عليا أو مرجعية ثابتة ينبغي أن توجّه السلوك الإنساني، وبين من لا يقول بهذه الضرورة مطلقا، أو يقول بنسبية القيم، وأن من حق الإنسان أن يضعها لنفسه بمحض حريته، كما يفعل في وضع القانون .إنه نفس الفرق بين من يفكر بعمق وينفذ بنور بصيرته إلى معنى الوجود، ويعتبر نفسه مسؤولا عن مصيره، وأن الحياة هبة إلهية لها مغزاها ورسالتها.وأن وجوده فيها ينطوي على اختبار حقيقي لإيمانه بهذه الحقيقة، في كنف الوجود المطلق الذي يحيط به وبين من يكف عن التفكير في كل هذه المسائل الميثافيزيقية أو الدينية ويفضّل أن يقبل الحياة كما هي،وعلى نحو ما تعرض عليه ألوانها البراقة ومفاتنها المغرية أو تعتصره في دوامة آلامها وكوارثها إلى أن تفضي به إلى نهايتها العبثية "[1505].

فلا شك أن الفارق واضح بين من يعتقد أن الوجود الإنساني ينطوي على غاية، وأن وراء عالم الشهادة إرادة عليا توجهه نحو تلك الغاية، وفق منهج يضبط علاقة الإنسان بما حوله ومن حوله، وبين ذلك الذي يرى أن الوجود كله مادة محضة تتحرك بآلية مادية تتعاقب فيها الأطوار والأدوار في دائرة مغلقة عديمة المعنى والغاية. ويمكن بيان إفلاس الرؤية العلمانية المتطرفة للقيم بما يلي :

1-إن التعميم في جعل كل القيم نسبية بهذا الشمول يدحضه الشعور الفطري الدائم الذي يتطلع إلى المثل الأعلى، والذي لا يمكن إخفاؤه أو تجاوزه. ذلك أن هناك قيما لا يمكن للإنسان أن يتجاوزها مهما بلغت درجة علمنته، مما يدل أن هناك قيما أصيلة ثابتة في الحياة الإنسانية، فمثلا لو رأينا شخصا قويا يمزق طفلا بريئا لاهتز لهذا المظهر كل البشر –إلا من شذ، والشاذ لا يقاس عليه – مهما كان جافا من الإنسانية .

وهذا يعني أنه لو كانت القيم مجرد رغبات ذاتية، لما أمكن الاتفاق حولها، ولما جاز اعتبارها معايير لتقييم المواقف الإنسانية، ولما استطعنا إنشاء مؤسسات اجتماعية وحضارية، لأن هذه الحالة تمنع

[1505]–محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 20

من تحديد نقاط التقاء بين البشر وهو مخالف للواقع .ومن هنا يؤكد محمد الكتاني أن هذه القيم :" لا بد أن تكتسي صفة الضرورة والشمول وبالتالي ترجع إلى أصول فوق طبيعة العقل الإنساني، أصول ميثافيزيقية أو دينية . مصدرها إما الوحي الإلهي أو العقل المثالي المعياري، لأن القيم في نظر العديد من الفلاسفة لا يمكن استنباطها من الوقائع السلوكية للإنسان, أي من الطبيعة البشرية المكونة من المشاعر والدوافع المتناقضة، بين ما هو مادي وما هو روحي، فهذه الوقائع تعكس دائما تأرجحا بين الخير والشر،وتعد مجرد تجربة ذاتية أي خاصة لا تكتسي صفة الموضوعية. بينما مصدر القيم يجب أن يكون عاما وشاملا للحياة الإنسانية " [1506]

ويمكن تفسير هذه الضرورة الكلية للقيمة الأخلاقية بأن الأخلاق لا بد أن تكون لها جذور أصيلة حتى تستقيم ويصلح بها الاجتماع الإنساني،ومن ثم وجود قاعدة ثابتة أساسها إثبات الحق المطلق الذي لا يتسنى إلا مع وجود عقيدة إيمانية غيبية، ولا يتصور ذلك إلا من منظور ديني أو ميثافيزيقي. وقد عبّر القرآن عن هذا التجذر في قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء }[1507].

2-أن سعي المجتمعات لتربية الأجيال على قيم معينة كالحرية، والعدل، والمساواة، هو إقرار بأن هذه القيم جديرة بالاستمرار من جهة، وهناك إمكانية لتقبلها من قبل الجميع من جهة أخرى، مما يدل أن مصدرها يعبّر عن حقيقة فطرية جُبِل عليها الناس جميعا. لذلك تحتاج هذه القيم للتوكيد والترسيخ، بينما هناك قيما يمكن أن تستغني عنها الأجيال دون أن يلحقها سوء، لأن الطور الحضاري أوجد من القيم ما يعوضها،وهذا يعطي حجة قوية للنظرية الإسلامية القائلة بوجود قيم ثابتة أصيلة، وقيم متغيرة في الحياة الإنسانية وهي التي تتكيف مع الوسائل ولا تلمس جوهر الإنسان. وإذا كان لا معنى للمصطلحات التي تعبر عن القيم، فلماذا يستخدم الفكر العلماني نفس المصطلحات ويشحنها بمضامينه ؟.

[1506]- محمد الكتاني :منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 16

[1507]- سورة إبراهيم الآية :24

3-لا شك أن الإصرار على القول بنسبية القيم في رأي العلمانيين يستند إلى فكرة محورية لديهم وهي:أن التطور في الحياة الإنسانية يفرض هذه النسبية، وأن القول بخلاف ذلك يعرقل الحياة .

والحق أن هذه الحجة واهية، لأن كثيرا من الأمم تطورت دون أن تستغني عن قيّمها، صحيح أن التحول الحضاري والتطور التكنولوجي في الحياة الإنسانية، قد أوجد نسقا جديدا مختلفا عما ألفته الحياة الإنسانية من قبل من تقاليد وقيم، وأن هذه سنّة التطور التي هي أقوى سنن الحياة، فكلما حدث تطور في الحياة صحبه تغيّر في القيم، وهذه حقيقة لا بد من الإقرار بها، لكن لا يسلم لها أن هذا التطور بالضرورة يكون مطلقا، فإن ظهور قيم جديدة في مجتمع التواصل والمعرفة لا يعني وجوب إلغاء القيم الأصيلة والقول بنسبية كل شيء . بل العكس تماما هو الصحيح والذي يؤكد أن القيم المطلقة تظل الإطار و المرجعية الحقيقية العليا للحفاظ على إنسانية الإنسان . ومن ثم لا يمكن بحال من الأحوال القول بالنسبية المطلقة . وها هي التجربة الغربية تؤكد أن المعاني الإنسانية والأخلاقية سحقها عالم الآلة، وانعكاساته خطيرة على الحياة الأوروبية، حيث أصبحت شعوبها تفتقد للدفء والتراحم وتخشى الدول من انقراضها بسبب قلة المواليد وتزايد عدد الشيخوخة دون بديل من الأجيال .

4- إن أزمة القيم والمعاناة النفسية والأخلاقية التي يعيشها العالم والتي انحطت به إلى درك الحيوانية تؤكد بشكل لا ريب فيه أن هيمنة الفكر العلماني من جهة وغياب القيم الدينية من جهة أخرى أنتجت هذه الحالة، ونلاحظ أنه كلما توفر قسط من القيم الأصيلة ارتفعت نسبة الشعور الإنساني بالمتعة في الحياة،وكلما تغوّل التفكير المادي والقول بنسبية القيم اندثرت المعاني الإنسانية وأصبح التعايش صعبا بين الأمم والشعوب، وغالبا ما تنشأ في ظل هذه الأوضاع الأزمات الحضارية والتوترات بين الشعوب، تفضي إلى اقتتال من أجل أطماع أو مصالح ضيقة .

5-أن وجود نسقين أو منظومتين أخلاقيتين إحداهما تحصر وجوده في تكوينه المادي البيولوجي، الذي لا يختلف فيه عن سائر الحيوانات، والثانية تسمو به إلى وظيفة تميزه عن غيره من المخلوقات، هذا السمو لا يمكن أن يرتقي إليه إلا إذا آمن بقيم تسمو به إلى وظيفة الاستخلاف. فإذا كانت

الأولى تستمد مرجعيتها من المجتمع وضروراته أو من الفرد ورغباته، فإن الثانية تجعل مرجعيته القيمية هي القصد الإلهي من خلقه، والقصد الإلهي لم يتغيّر، ومن ثم فالقيم الحاكمة لهذا القصد لا تتغير والقول بالنسبية في هذا المجال هو ضرب من الضلال {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }[1508].

6- أن المنظومات الفلسفية التي تحدثت عن المرجعية المطلقة للحياة الإنسانية عبر التاريخ حاولت صياغة قيم مطلقة، لكنها فشلت ويرجع مكمن الضعف في كونها ظلت تعتبر أن المرجع الأسمى لفهم المنظومة الكونية هو "العقل" فقط، كما عند الفلاسفة المثاليين، أو هو" المادة "فقط كما عند الفلاسفة الماديين، وغفل أولئك أن ثبات كل من العقل والمادة، إنما هو أمر نسبي في حد ذاته، لأن كلا منهما رهين بإرادة خارجية تتحكم فيهما، وتعد هذه الإرادة مصدر وجودهما أصلا، ومرجعا أول لكل مظاهر الوجود والحياة .

والدليل على ذلك هو أن العقل نفسه يفتقر إلى مرجع، فقد ظل العقل ذاته يجدد ويطور فيما أنتجه عبر العصور، ولو كان ذا طبيعة ثابتة لما وقع في الحيرة، ولما نقض اليوم ما بناه بالأمس، ولأمكنه من وصف الصورة المثلى من البداية . وكذلك المادة نفسها مفتقرة إلى مبدع، فلا يمكن الزعم أنها أوجدت نفسها بقوة فيها سابقة عن وجودها .

7-إذا كان نظام الكون مستمرا بفضل قوانين ثابتة -وقد ثبت ذلك بالدليل القطعي - فإن حياة الإنسان جزء من الطبيعة، ولا بد لها حينئذ من أن تكون لها قوانين ثابتة تنتظم بها العلاقات بين أبناء النوع الإنساني، سواء على مستوى الأسرة، أوالمجتمع، أوالوطن، أوالدولة، أوالمجتمعات البشرية، وإلا وقع الخلل المفضي إلى تدمير الحياة نفسها، أو الانحدار بها إلى الحيوانية حين يسيطر قانون الغاب الذي يملك مرجعية القوة والغريزة فقط. لذا فالحياة الإنسانية تتطلب أن تحكمها قوانين تتسم

[1508]-سورة يونس الآية :35

بالثبات، لأن الكيان الإنساني ثابت منذ وجد على هذه البسيطة، والإقرار بوجود قانون أسمى ثابت، أي مطلق ودائم الفعالية يسري في الكون بشتى مظاهره المادية والروحية لا مفر منه، لوضع منظومة فكرية أو تشريعية قائمة على روح هذا القانون الأسمى، وبغير هذا الثبات لا يمكن ضبط حركة الحياة .ومن ثم فالقول بنسبية كل شيء يخالف القانون الطبيعي الذي تؤمن العلمانية بثباته، ولولا ذلك الثبات في قوانينه لما استطاع الإنسان أن يصمم القوانين التي مكنته من التحكم في كثير من المظاهر الكونية، وكذلك الأمر في الحياة الإنسانية فلا بد من وجود القيم الثابتة .

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا أين المرجع الثابت الذي يعتبر حقا في ذاته؟ أي حقيقة مطلقة ثابتة تهيمن على كل شيء، وإليها ترجع كل قيمة ؟

إذا كان العلم الطبيعي التجريبي لا اختصاص له في الإجابة عن هذا التساؤل، لأنه يتعامل مع المادة، وكانت مختلف الفلسفات القديمة والحديثة قد عجزت في الحسم حتى في تحديد المنهج الملائم لبلوغ الحقيقة —وإن كانت بعض مذاهبها قد أقرت بوجود واجب الوجود– فإنه لا مندوحة من الإقرار بوجود مصدر أول للقيم المطلقة، إنه المرجع الحق، الدال على وجود الحق الذي لا ريب فيه، وهو رب العالمين الذي سمّى نفسه "حقا" بالمعنى الأعمق لمفهوم الحق أي الأول بغير ابتداء، والآخر بغير انتهاء، والثابت الذي لا يعتريه الزوال .

وإذا ثبت وجود هذا الحق المطلق الذي يعد مصدر القانون الأسمى والقيم المطلقة الذي يرجع إليه كل مظهر من مظاهر الكون المادية والروحية : {فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ }[1509] ثبت لدينا عند ذلك أن ما تدّعيه العلمانية الشاملة من أن العقل بقدرته المحدودة يستطيع أن يضع هذه المرجعية من القيم، وأنه يمكن أن يحدد طبيعة الحق وحده، بل قد يتوهم أنه غير مفتقر في معرفة الحق إلى مصدر غير مصدره، أو أنه مادة فاعلة بذاتها تلقائيا، كما تقول بذلك

[1509]– سورة يونس الآية :32

الفلسفات المادية القديمة والحديثة، وبأنه من حقه أن يشرع للإنسان ما تصلح به حياته، فهذا يعتبر وهما لسبب بسيط يمكن شرحه كالتالي :

إننا إذا تأملنا طبيعة العقل وجدنا أنه يفتقر إلى الجسم الذي يوجد قبله، وأن الجسم نفسه يفتقر إلى الحياة بكل آلياتها المعقدة، وأن هذه الآليات تتوقف نفسها على الروح السارية فيها، فنحن إذ نلاحظ أن القدرة العقلية تغيب مع انفصال الروح عن الجسد، وتتوقف تلك الآلات على الرغم من استقلالها في نظر البيولوجي، وتتعطل كل الطاقات والآلات، وتخبو فاعليتها.ومن هنا فالعقل ليس طاقة مستقلة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن العقل لا يقدر على دفع العوارض التي تصيبه من جنون وإغماء ونسيان. بل إنه يصبح فريسة لتلك العوامل نفسها، وهذا يدل على أن العقل محكوم بعوامل سابقة عن وجوده (الجسم)، ومفتقر لآلات تمده بالمعطيات لإصدار الأحكام (الحواس)، ومفتقر في صحوته وإدراكاته ونظامه إلى قوة خارجية (الروح)، وعاجز عن دفع العوارض، وبذلك فهو محتاج في هدايته إلى مبدعه الأول، على خلاف مايقول به العلمانيون من أن للعقل قوة ذاتية .[1510]

وإذا تتبعنا لفظة "الحق"[1511] في القرآن الكريم نكتشف حقيقة عظيمة، وهي أن القرآن بنى دعوته الإلهية ونظامه التشريعي وعقيدته الكلية وأخلاقه وقيمه على مبدأ الإقرار بوجود "الحق الأول " باعتباره أساسا للوجود كله. ومن ثم كانت توجيهاته في التكليف والمسؤولية وفي الجزاء وفي الحكم بين الناس قائمة على مبدأ الإيمان بالحق سبحانه وتعالى . بل إن مناقشة القرآن لأهل الزيغ والضلال كان ينطلق من ضرورة الإقرار بهذه المسلمة وجعلها منطلقا وقاعدة لكل حوار . وهذا ما جعل محمد الكتاني يستنتج أن هذه الكلمة هي" الناظم " لكل شيء في الإسلام فيقول :" فلفظ الحق يقرع أسماع المخاطبين بالقرآن في سياقات متعددة، ويتمثل لهم باعتباره قانون الكون الأسمى وعندما تبيّن

[1510]–ينظر محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 20/19

[1511]–ذكر القرآن هذه اللفظة مائة وأربعين مرة ابتداء من سورة البقرة وانتهاء بسورة العصر .

لي أن تركيز القرآن على هذا اللفظ، بما له من معنى شمولي، وبهذا القدر من "الحضور "و"الجهارة"، استنتجت أن "الحق" هو الناظم لكل شيء في عقيدة الإسلام وشريعته، لاعتباره مبدأ مطلقا للكون وقيمة ثابتة من قيم الإسلام المرجعية "[1512] .

ولما كان الكون فيه الثوابت والمتغيرات، فكذلك القيم، وكذلك كل قضايا الحياة، فالثابت يحفظ هوية الشيء، والمتغير يتكيّف مع المتغيرات، ويعطي للحياة نكهتها بالتجديد والتطوير الذي يبدعه الإنسان. والقول بأن كل شيء نسبي افتراء على الحقيقة، وتناقض مع نواميس الحياة، ومعارضة للحق سبحانه؛ فلفظ "الحق" ورد بالمعنى الأسمى الدال على القائم بذاته بغير افتقار إلى غيره، والحق بهذا المعنى لا توصف به إلا "الذات الإلهية" لأنها وحدها الثابت المطلق بغير علة أو سبب، فهي مصدر القيم الثابتة وليس العقل ولا المادة فكل ما عدا "الحق" فهو نسبي .

ومن هنا يعد أخطر ما وصلت إليه العلمانية هو القول بنسبية القيم انطلاقا من مبدإ التطور المطلق،ومن بينها تطور الأخلاق تبعا لعامل الزمان أو عامل المكان، واختلاف الظروف، وهو منطق يهدف إلى التحرر من الضوابط الأخلاقية والمثل العليا جملة، وهذا الاتجاه في الفلسفة المادية ينفي بالتالي الالتزام الخلقي، والمسؤولية وما يتبعها من حساب وجزاء، ذلك أن الالتزام الخلقي يقتضي القدرة على التفرقة بين الخير والشر . ومن ثم تجاوز الرذيلة والتماس الفضيلة، وهو ما لا تريد العلمانية الإقرار به، في حين نجد أن القرآن الكريم يدعو إلى الالتزام الخلقي ويكشف أن الإرادة الإنسانية قادرة على تجاوز الشر، وأن في النفس الإنسانية قوة كامنة قادرة على ضبط الغرائز، فهي في أصلها ليست شريرة، والالتزام الخلقي متوقف على مدى استخدامها للقوى العليا التي أودعها الله في هذه النفس لتحدد للإنسان ما يجب عمله وما ينبغي تحاشيه {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }[1513].

[1512]– محمد الكتاني :منظومة القيم المرجعية في الإسلام ص 27/26

[1513]–سورة الشمس الآية :8/7

وتفسير ذلك أن الإسلام يعتبر أن القيم ثابتة، لأنها مرتبطة بالإنسان نفسه الذي تشكّلت قواه على النحو الذي يجعله قادرا على تبيُّن طريقه في أي عصر وفي أي بيئة قال تعالى:{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }[1514]غير أنالإسلام يوضح من جهة أخرى أن التكليف في الحياة الدنيا يقتضي أن تقوم القيم على قاعدتي "الحرية" و"الاختيار" فلا أخلاق بغير حرية، كما لا تكليف بغير اختيار، ذلك أن الإرادة حركة نفسية صرفة، وأن العمل الخلقي يتصف بالطواعية، والانبعاث من أعماق النفس، فلا يؤاخذ المكره على أعماله في نظر الإسلام، لأنه فاقد للإرادة والاختيار .

ويحسن بنا هنا التنبيه إلى مسألة في غاية الأهمية وهي كيفية التوفيق بين القيم الإلهية المطلقة ومقتضيات الواقع ؟ والحق يقال أن الإسلام قد رسم منهجا واسعا مرِنا يَسِير التطبيق في مختلف الظروف والبيئات، وجعل إطار القيم الأخلاقية رحبا يحقق الحرية الشخصية، ويتقبل الجهود الفردية، وفي رحابة الإطار فرصة للقدرة على الحركة والتشكل، واختيار الأوضاع التي توفق بين القيم القرآنية الأساسية للأخلاق، وبين التجارب والأحداث التي يقدمها تطور المجتمع بما يحقق التقدم والحركة في جو من الحرية الفكرية، مع التعبير عنها بما يلائم العصر، وما تلك الضوابط إلا قواعد أقرها الإسلام لإقامة حواجز متينة تمنع الشر والظلم والفوضى، لأن النفس الإنسانية ميالة للتطرف بطبعها .لأجل ذلك وضعت الحدود:" وفي حدود هذه المرونة جعل الإسلام من القيم الأخلاقية قيّما ثابتة في كل عصر وبيئة، وربطها بالإنسان نفسه .أما محاولة القول بنسبية الأخلاق في مفهوم العلمانية والفلسفة المادية، فإنه مرتبط بإنكار البعث الذي يستهدف القضاء على فكرة "الإلزام" التي هي أساس تطبيق الأخلاق، ذلك أنه إذا انعدم الإلزام، انعدمت المسؤولية، وفقدان المسؤولية يؤدي إلى ضياع الحق نفسه، واستحالة إقامة أسس العدالة"[1515].

ويؤكد غير واحد من الباحثين أن ما يشهده الغرب من اضطراب أخلاقي واجتماعي وسياسي قد انعكست آثاره على العالم كله، وذلك يرجع أساسا إلى عدم الخضوع لمعايير "القانون الأخلاقي"

[1514]– سورة البلد الآية:10

[1515]– أنور الجندي : سقوط العلمانية ص91

النابع من الدين، والذي يعد الغاية القصوى له، وأصبحت" المصلحة" هي القانون الوحيد المهيمن الذي تعالج في ضوئه كافة الشؤون العامة . وعليه فالدولة العلمانية لا تملك مفهوما ثابتا يمكن أن تميّز به بين ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، حيث اضطربت لديها موازين الخير والشر والعدل والظلم، لأنها لا تملك الميزان الثابت من القيم الخلقية الذي يمكن الرجوع إليه لتقييم مدى صحة السلوك والمواقف، ومن ثم الاحتكام إلى قاعدة خلقية دائمة، ونتيجة لتعدد القوانين الأخلاقية ودوافعها، ولم تعد هناك حقيقة ملزمة في ذاتها، ولا توجد أي التزامات أخلاقية تضبط العلاقات الإنسانية.

وبهذا نلحظ أن "النسبية القيمية" التي تقول بها العلمانية تمثل خطرا يفتك بالإنسانية، لأنها ستتحول تصرفاتها إلى سلوكات وحشية تحكمها شريعة الغاب الذي يهيمن فيها "منطق القوة" لا "منطق الحق"، و"منطق الغريزة" لا "منطق الفضيلة" وينبه أنور الجندي إلى أن إلغاء القيمة الأخلاقية يعد أخطر معول لتدمير الإنسانية فيقول: "وليس أخطر من هذه الدعوة إلى نسبية الأخلاق، وتذبذب ميزان القيم بين عصر وعصر .ذلك لأن ثبات القيم الأخلاقية أساس أكيد للبشرية، وأن أي محاولة لتحطيمه .يستهدف تحطيم قاعدة البناء الإنساني كله"[1516].

وفي ختام هذه المناقشة يحسن بنا التنويه بأن القول بالنسبية في الرؤية العلمانية ليس شراكله، بل إنه من الإنصاف الإشارة إلى أن هذه النظرة النسبية لها ثمرتها على مستوى آخر، وبالضبط في "ميدان العلوم "، وهذه ميزة لا يجوز إغفالها، أو التنكر لها، إذ أننا نجد أن القول بالنسبية في هذا المجال هو الذي يجعل الباحث عن الحقيقة غير مقيّد بحدود للمعرفة . ومن ثم يظل مصّرا على الوصول إلى أقصى ما يمكن، وبهذا السلوك انتقلت العلوم أشواطا، وبلغت مراحل متقدمة .لكن الإشادة بأهمية النسبية في هذا المجال لا ينبغي أن ينسينا تخطئة القول "بالنسبية المطلقة" الذي تبنته العلمانية .ذلك أن كل حركة منتظمة في عالم المادة، أو عالم الروح لابد له من ثابت يتحرك من حوله، حتى لا ينفرط عقده، ولا تؤول حركته إلى فوضى واضطراب.

[1516]-أنور الجندي : سقوط العلمانية ص 147

ومن هنا نؤكد أن نقطة الخلاف الكبرى بين المنظومة الإسلامية والعلمانية في هذه المسألة هي محاولة العلمانية تطبيق قوانين العلم التجريبي على الإنسان، ولم تدرك العلمانية أن الطبيعة "مادة" وأن الإنسان "كائن"، والعلم المادي ذاته يعترف أن هناك قيّما ثابتة لا يطرأ عليها تغيير، ولا تتأثر بظروف الزمان والمكان، ولولا وجود ذلك لما استطاع الإنسان أن يضع قواعد ثابتة للعلوم،وأن هناك متحولات تتغير وتتبدل. فكيف تقر العلمانية بهذا في عالم المادة ولا تقر به في عالم الإنسان ومختلف العوالم ؟.

لأجل كل هذا تؤكد الرؤية الإسلامية أن الثبات ضرورة في كل العوالم المادية والمعنوية حتى تحفظ من التلاشي والاندثار. وقد أشار سيد قطب إلى أهمية فكرة الثبات في المنظومة الإسلامية والإنسانية فقال : "إن الثبات في مقومات التصور الإسلامي وقيمه –فضلا على أنه امتداد للنظام الكوني –هو الذي يضمن للحياة الإسلامية خاصية " الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت " فيضمن للفكر الإسلامي وللحياة الإسلامية مزية التناسق مع النظام الكوني العام، ويقيه شر الفساد الذي يصيب الكون كله لو اتبع أهواء البشر بلا ضابط من قاعدة ثابتة لا تتأرجح مع الأهواء "[1517].

وبتوفر عنصر الثبات في المجتمع يكون أفراده حكاما ومحكومين قد ضمنوا المبادئ الثابتة التي يحتكمون إليها على السواء .ومن ثم لا يمكن أن يتظالم الناس لأن الحدود بين جميع المكوّن البشري مضبوطة بالقواعد الثابتة، فيحيا المجتمع وكل أفراده مطمئنين على حقوقهم وقائمين بواجباتهم، فالثبات في القيم لا علاقة له إذن بالزمان والمكان.

ولتوضيح الصورة نضرب أمثلة من جوانب جوهرية في الحياة الإنسانية، نقارن من خلالها بين طبيعة القيم في المنظومة الغربية، وما يقابلها في المنظومة الإسلامية من حيث النسبية والمطلقية في أخلاقيتها، وأثر هذه المفاهيم وانعكاساتها على الحياة الإنسانية في مختلف المجالات الحيوية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والجمالية:

[1517]– سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص 87

***في المجال الاجتماعي** : عرفت القيم الاجتماعية في التصور العلماني تحولات كبيرة بتأثير من فكرة النسبية التي أصبحت ثابتا في التفكير العلماني، ومن ثم ظهرت صور من المفاهيم والعلاقات مجردة عن القيم الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، ويمكن أن نلمس هذا بوضوح سواء على مستوى الأسرة، أو على مستوى العلاقات العامة :

1- الأسرة : ظلت الأسرة المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي يستظل بها الإنسان ويمارس علاقاته في ظروف مفعمة بالحب والرحمة ويكتسب من خلالها إنسانيته المركبة وهويته الاجتماعية بل ويمارس علاقاته ذات الطابع الاقتصادي والجنسي والمادي، ويعبر عنها ضمن قنوات اجتماعية وأشكال حضارية، فمن ثم تداخلت العناصر المادية البسيطة والعناصر العاطفية والإنسانية . غير أن هذه الصورة اهتزت بسبب عملية العلمنة الشاملة حيث تجاوزت كل هذه العناصر وأخذت تؤكد على المرجعية النهائية المادية، وتقبُّل القيم النابعة منها كقيّم وحيدة، وتحولت شكل الأسرة من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية، وبهذا بدأت الأسرة المتكاملة المبنية على التراحم تختفي، ومن ثم بدأت الروابط الأسرية تتفكك وتظهر النزعات الفردية، ويتحول أفراد الأسرة بالتدريج إلى أفراد مستقلين، ويغذي هذه النزعة فيهم التصور المادي، لأن كل شيء في الحياة أصبح يخضع للترشيد في إطار المرجعية النهائية المادية .

وبهذا اختفت كثيرا من القيم المرتبطة أساسا بالأسرة، بل إنه في كثير من البلدان الغربية اختفت مؤسسة الأسرة بالمفهوم التقليدي وأصبح كل ما كان يتعلق بهذه المفاهيم مرشَّدا بالمرجعية المادية ولنأخذ أمثلة [1518] على ذلك :

-اختفاء مؤسسة الزواج كشكل للتنظيم الاجتماعي يتم من خلاله ربط الجنس بالقيم الاجتماعية والإنسانية، فظهرت علاقات أكثر حيادا ومادية مثل علاقات الرفقة أو التعايش دون إبرام عقد زواج دائم .

[1518]- ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ص 161/160/159

-ظهور أشكال جديدة للأسرة لم تعرفها البشرية من قبل، حيث ظهرت الأسرة ذات الأب دون الأم أو العكس، ويمكن لأنثيين أو رجلين أن يتبنيا طفلا وُلد خارج إطار الزواج ويكوّنا أسرة كاملة، فالأمر لم يعد مستهجنا وتعطى له صفة لطيفة فهو "طفل الحب " .

-أن حفلات الزفاف أصبحت مرشدة في إطار المرجعية النهائية المادية، حيث وُضعت صيغ دقيقة على الإنسان إتباعها لتحقيق ذاته، وسعادته كآلات التصوير، وأنواع الموسيقى، وأنواع الأكل ...وتزداد التكاليف كلما زادت الصيغ تركيبا ونمطية، لأن كل مهمة من مهام العرس لها مصممون ومخرجون .كل هذا يتم بعيدا عن أي حسابات اجتماعية أو أخلاقية أو إنسانية (كالتراحم مع الفقراء في لحظة كونية) .

ولعل أهم وآخر محطة لخصت الرؤية الغربية للقيم الاجتماعية هي الورقة التي قدمت في المؤتمر الدولي للتنمية والسكان حيث قدم شواهد عن الاختلاف الكبير في القيم والثقافات والرؤى بين المنظومتين.– العلاقة مع ذوي القربى: تقوم العلاقة بين المسلم وذوي قرباه على علاقة العدل والإحسان قال تعالى {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً }[1519] بينما تقوم في الفكر العلماني على التصور المادي، حيث يرى كل من الوالد والولد أن الطرف الآخر أصبح عبئا عليه، ومن ثم تكون الاستقلالية في سن مبكرة تضيع فيها الحقوق لكلا الطرفين، و تنتهي العلاقة التراحمية إن كان لها وجود أصلا في سن محددة .

2–العلاقة مع المجتمع : تقوم العلاقة بين المسلم والمجتمع على قيم التعاون والتضامن والتراحم الشامل، ولعل هذه المصطلحات المنصوص عليها في الكتاب والسنة تهدينا إلى فهم حالة التفاعل التي تكون بين أعضاء المجتمع المسلم، حيث تؤدى كثيرمن الواجبات من طرف الأفراد مساندة لبعضهم البعض . بينما في التصور العلماني– ولكون الدولة هيمنت على كل النشاط الإنساني–

[1519]– سورة الإسراء الآية :23

فإنها بذلك جففت العلاقات الإنسانية إلى حد أن كل شيء في العلاقة مع الأخر يحسب بالمادة، فنتج عن ذلك معادلات تتلخص في أنه لا علاقة حيث لا منفعة مادية، فهذا التصور المادي يمنع كثيرا من الأفراد من إنشاء علاقات التراحم، وعليه تعلمنت العلاقات الاجتماعية، وأصبح كل شيء يقاس في إطار المرجعية النهائية المادية ولنضرب لذلك أمثلة :

-يمكننا الحديث هنا عن العلمنة الشاملة للهدايا فقد كانت الهدايا (شأنها شأن حفلات الزفاف) تمثل لحظة من لحظات التضامن الإنساني، أو تهدف لتغطية عمليات اجتماعية، حيث يتبادل الناس الهدايا لتأكيد التراحم، وإبراز العواطف الإنسانية النبيلة، فهي إحدى الطرق لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية، فكانت الهدية قيمة جوهرية وعنوان للمحبة، بينما حولتها العلمانية مجرد سلعة، فبعدما كانت قيمة مطلقة تعبّر عن شيء جواني، أصبحت شيئا برانيا تفتح أمام المدعووين ليشاهد الجميع الثمن، وهي دين في عنق المهدى إليه إلى حين تظهر مصلحة ليكون استردادها بطريقة أخرى[1520].

-يمكن القول الشيء نفسه عن الدعوات للعشاء، فبعد أن كانت مناسبة للتراحم، أصبحت مسألة محكومة بمنافع محسوبة بدقة مرشدة في الإطار المادي، فأصبحت عشاء في إطار صفقات تجارية تهيأ له الظروف بدقة متناهية وبروتوكولات مدروسة، وتنظم على شكل تمثيلية على خشبة المسرح.

وحتى بعض أنواع الزواج لا يتم إلا وفق حسابات مادية خالصة بعيدا عن المشاعر الإنسانية .

وعلى العموم فإن الرؤية العلمانية للحياة الاجتماعية حولت كل المعاني الإنسانية، والاجتماعية إلى قضايا حيادية مرشَّدة في إطار المرجعية النهائية المادية، حيث تختفي المعاني الأخلاقية، وتسيطر القيم النسبية .

في المجال الاقتصادي :

[1520]- ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص 162/161

تنوعت النظم التي تحكم معظم الاقتصاد العالمي بين الرؤية الرأسمالية والرؤية الاشتراكية، ومهما يكن من تفاصيل فيما يخص الرؤيتين، فما يهمنا هو الوقوف على الرؤية المادية التي يقوم عليها الاقتصاد في منظومة العلمانية الشاملة ومقارنتها بالرؤية الإسلامية، فلكل منظومة رؤيتها ومنطلقاتها وأهدافها.

ولعل أقرب مثال جسد الرؤية العلمانية هي وثيقة المؤتمر العالمي للتنمية التي تكشف لنا عن غياب القيم في الجانب الاقتصادي، حيث أن هذه الوثيقة تعيد بعث النظرية "المالتوسية "[1521]في ما يتعلق بعلاقة الموارد بالسكان والتي أثبت الفكر الاقتصادي والاجتماعي سقوطها .وخاصة إذا علمنا أن الإنتاج العالمي زاد بسبع مرات، "فمن 3تريليون دولار وصل الإنتاج إلى 22 تريليون دولار بينما لم يتضاعف عدد سكان العالم إلا مرة واحدة فمن 2.5 بليون نسمة بلغ الآن 5 بلايين ".

إذن الخلل ليس في ازدياد عدد السكان بقدر ما هو في غياب القيم، ذلك أن الفرد في الدول المتقدمة يستهلك أضعاف أضعاف ما يحتاج، وهذا المنطق الاستهلاكي الجشع عبر عنه عبد الوهاب المسيري وهو يصف المتتالية العلمانية وهي تتدرج في مجالات النشاط الإنساني فيقول :" ولنبدأ بالمجال الاقتصادي. سنلاحظ أن الهدف النهائي من الوجود في الكون في مرحلة التحديث (الصلبة) هو الإنتاج والزيادة المطردة للإنتاج.والإنسان في هذه المرحلة منتج أكثر من كونه مستهلك،واجبه الإنتاج ومكافأته الاستهلاك في حدود المعقول، وما يحرك الجميع هو مبدأ المنفعة المادية، فالمستهلك يبحث عن السلعة الضرورية التي تنفعه،والمنتج أيضا يبحث عما ينفع المستهلك لينتجه فيحقق أرباحا متزايدة...أما في مرحلة ما بعد الحداثة أي بعد عام 1965م، فالهدف النهائي من الوجود في الكون هو الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، وما يحرك المستهلك هو اللذة؛ إذ لو

[1521]– تقوم نظرية مالتوس على أن نجاح التنمية وتحقيق الرخاء مرتبط بوقف النمو السكاني للبشرية، فتخطط لتثبت سكان العالم عند 7.25 مليار نسمة في سنة 2015 .والحقيقة أن هذه النظرية ظل يرددها كل المدافعين عن النظم الوطنية التي أخفقت في تحقيق تنمية حقيقية في بلدانها، فبدلا من الاعتراف بالعجز عن النهوض بما فوضها به السكان نراها تعلق مشكلة هذا العجز على مشجب السكان . ينظر محمد عمارة صراع القيم بين الغرب والإسلام نهظة مصر للطباعة والنشر والتوزيع سنة 2003ص 9

حركته المنفعة لكانت الكارثة، لأنه لن يستهلك إلا ما يحتاج إليه،ومن ثم لن تتحرك آلات المصانع التي تنتج آلاف السلع غير الضرورية، ولن تزيد أرباح المنتجين ولن يتراكم رأس المال .بل إن الاستهلاك بالنسبة إلى المستهلك واجب وحق . ولذا ...انتقل النظام من المنفعة إلى اللذة، وأصبح الاستهلاك لا الإنتاج هو هدف المجتمع، ...ولم يعد هدف المجتمع إشباع الحاجات وإنما تخليقها ..ولم يعد التنافس الأساسي بين المنتجين... وإنما بين المستهلكين"[1522].

وفي هذه الظروف اغترب الإنسان عن نفسه وفقد كل قيمه، ومن ثم لو بحثنا الخلل في عدالة التوزيع بين الشمال والجنوب وبين الأغنياء والفقراء وبين مظاهر الإسراف ومظاهر التقتير، لوجدنا مفارقات عجيبة. فمن الخلل بين ما تطعم الكلاب من اللحم المفروم، وما يأكل الفقراء من الخبز الملتقط من القمامة، وبين ما ينفق على التسلح وما ينفق على الزراعة والصناعات المدنية، إلى الخلل بين القبور التي يسكنها ملايين الأحياء إلى القصور التي يمتلكها قلة من الأفراد، وقس على ذلك في عالم المواصلات، حيث يفتقد كثير من سكان العالم إلى المواصلات العامة ويمتلك أفراد بسهولة سيارات فاخرة، ويفتقر الغالبية إلى المياه النقية، ويحصل الآخرون على أفخر المشروبات، وتقل وسائل المعرفة إلى حد الجفاف في بلدان، في حين يتمتع آخرون بكل وسائل العلم والمعرفة والثقافة، ناهيك عن الأرقام الفلكية التي تخصص للتسلح، وما يقابلها من أرقام زهيدة تخصص للصحة والعلم في دول أخرى، ضف إلى ذلك التلاعب بالأسعار في الأسواق الدولية، وما يرمى في المحيطات من الأطنان، وما يسوق للفقراء من السلع الفاسدة وهكذا ...

ومن خلال هذه السلوكات التي تمارسها الدول العلمانية الكبرى يتبدى بوضوح نموذج العلمنة بشكل متبلور في المجال الاقتصادي، ولعله أول مجال تمت علمنته في الغرب إذ تم تحرير الاقتصاد من أعباء القيم الأخلاقية ومن أي مرجعية أو غائية إنسانية أو دينية، فالاقتصاد يحتوي بداخله على معياريته وغائيته وكل ما يكفي لتفسيره، وكلها تدور حول الإنتاج والاستهلاك والربح، ومدى تحقق الأهداف

[1522]– عبد الوهاب المسيري : العلمانية والحداثة والعولمة ص 233/232

الاقتصادية، بناء على المرجعية المادية المنفصلة عن القيم الأخلاقية سواء كانت إنسانية أم دينية، فالحركة الاقتصادية تحركها اليد الخفية التي لا تؤمن إلا بقانون العرض والطلب،وآليات السوق غير الإنسانية ولعل أخطر ما يصحب هذه العلمنة أن يصعد السعار الاستهلاكي ويصبح غرضا تحت ضغط قطاع الإعلانات التجارية لضمان استمرارية آلية الإنتاج والاستهلاك[1523].

هذا من جهة،ومن جهة أخرى فإن علمنة الاقتصاد فصلت البعد الاقتصادي عن الأبعاد الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية،فالقانون الطبيعي المادي يعبّر عن نفسه من خلال حركة البيع والشراء وحرية الإنتاج والاستهلاك وعدم تدخل الدولة، فقوانين العرض والطلب قوانين حتمية طبيعية، وعلى الجميع الانصياع لها، هذا ما تدعو إليه الرأسمالية .أما الفكر الاشتراكي فينادي بتدخل الدولة في الاقتصاد في كل شيء يتعلق بالتخطيط والضبط، والقانون الطبيعي المادي في هذا الفكر هو الذي يحدد وجود الإنسان وعلاقات الإنتاج وأدوات الإنتاج المحيطة به .

وكلا النظامين يجعل من الملكية وسيلة للهيمنة على أفراد المجتمع وتوظيفهم وتحويلهم إلى مصدر للربح، ولتحقيق ذلك قد تختلف الأساليب بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، ففي النظام الرأسمالي تستخدم الإعلانات لإقناع الجماهير، وفي النظام الاشتراكي تستخدم الأجهزة الأمنية لتطويع الجماهير، ولكن الهدف واحد من هذه الآليات المختلفة وهو سيادة القانون الطبيعي المادي على الإنسان [1524].

إن هذا الخلل في توزيع الثروة وفي غياب أخلاق التراحم والنجدة والمشاعر الإنسانية النبيلة وما سبق ذكره من الفظائع يدفعنا للتذكير بالقيم الإسلامية في مجال الاقتصاد حتى يتبين الفرق الواضح بين المنظومتين منظومة تقوم على الشراهة المادية والأنانية المفرطة، وقمع حرية الإنسان، ومنظومة تقوم

[1523] ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص 140/139

[1524]– ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الثاني ص141 و العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد الأول ص 310/309

على تصور صحيح للحياة وتعامل تحكمه الضوابط الأخلاقية في المعاملة الاقتصادية إنتاجا وتسويقا واستهلاكا وملكية .

وبالرجوع إلى عقيدة التوحيد نجد أن الإسلام يتجه ابتداء إلى تصحيح التصور في قضية الموارد وأن الله سبحانه وتعالى تكفل بالرزق لكل المخلوقات .قال تعالى:{وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[1525] وأن الأرض بما فيها من موارد متنوعة كفيلة بتغطية حاجات الإنسان{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ}[1526] بشرط السعي لتحصيل الرزق واحترام السنن الإلهية المنظمة له قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }[1527].

ومن هنا فمشكلة الموارد من الناحية النظرية في التصور الإسلامي غير مطروحة، إذا كان هناك رشد إنساني، وقيم تحكم العلاقات الإنسانية في هذا المجال، فيقدم العون للمسلم وغير المسلم ويعتبره الإسلام من أنواع البر التي نتقرب بها إلى الله تعالى: { وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[1528]. وقال تعالى :{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[1529].

ومما لا يخفى أن الملكية في الرؤية الإسلاميةتقوم على أسس كثيرة، وتستهدف تأسيس نظام اقتصادي لا يقوم على الظلم والاستغلال، بل يقوم على البر والإحسان، والزهد الحقيقي[1530] في

[1525]- سورة العنكبوت الآية :60

[1526]-سورة الأعراف الآية :10

[1527]- سورة الملك الآية : 15

[1528]- سورة المائدة الآية :2

[1529]- سورة الممتحنة الآية : 8

[1530]- الزهد :الزهد الحقيقي أن تملك الدنيا ولا تملكك، وتحصّل متاعها لتخدمك لا لتخدمها أي : أنه لا يصبح اكتساب متاعها هدفا في حد ذاته، بل وسيلة لغاية أعظم، وهي تحقيق درجات عظيمة عند الله بسبب توظيف ما تملك في سبيل الله، و لإعلاء كلمة الله ومن ثم يكون للمال وظيفة اجتماعية، فلا يكنز ولا يخشى صاحبه من الفقر .

متاع الدنيا، والتخفيف قدر المستطاع من ملذاتها، وأن الإنسان يبتغي بتفاعله الإيجابي مع حاجات الإنسان رضا الله تعالى :{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً .إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً }[1531] فالدافع للقيم في الجانب الاقتصادي هو نفس الدافع عند المسلم في حركته في الحياة، هو تحقيق أقصى درجات العبودية التي يستجلب بها رضا الله تعالى .

ولذلك نجد أن الإسلام استخدم كل الأساليب للتنفير من الاقتصاد الربوي كعنصر محوري في العملية الاقتصادية القديمة والمعاصرة، فكان هذا التحريم من أشد أنواع التحريم .قال الله تعالى{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }[1532] كما جاء قوله صلى الله عليه " لعن الله آكل الربا، ومؤكله، وشاهديه، وكاتبه "[1533] وقال هم سواء . ذلك أن الربا من القضايا التي حرمت في كل الأديان، واستمرار تحريمها دليل على خطورتها على النظام الاقتصادي،وإفساد الحياة الإنسانية، وإهدار لكرامة الأفراد والشعوب، فاليوم كل دولة تستقرض يدفع فاتورة هذا القرض كل فرد في المجتمع من حيث يدري أو لا يدري .

وإذا كان المسلمون قد أسسوا نظاما اقتصاديا خاليا من الربا في واقعهم البشري، فهم مكلفون في كل وقت بممارسة نفس القواعد العامة ومع كل واقع جديد مع مراعاة تفصيلات الواقع الجديد، الذي يتحرك في إطار المنهج الأخلاقي والقيمي للأمة المسلمة، ذلك أن الربا صورة من صور أكل أموال الناس بالباطل، فالتحريم من حيث الأساس هو قضية أخلاقية قيمية وهو تحريم الاستغلال والعدوان في جميع صوره وأشكاله .

بينما نجد أن النظام الرأسمالي والشيوعي يمثلان صورتين مفزعتين لأكل أموال الناس بالباطل حيث تنعدم القيم والأخلاق فيهما، فلا يرون في سبيل الوصول إلى الفائدة أي اعتبار أخلاقي،أو إنساني خارج عن هذه الغاية، ويمكن أن نلمح هذا بوضوح لدى الدول الاستعمارية التي نهبت الثروات ثم

[1531]- سورة الإنسان الآية :10/9

[1532]-سورة البقرة الآية :278

[1533]- أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، المجلد الرابع حديث رقم 4109

كرست التخلف،ثم فرضت القروض وأنهكت هذه الدول بالديون، وأكلت أموال الدول المستعمرة بالباطل،وفرضت على تلك الشعوب أنظمتها الاقتصادية القائمة على نفس الأسس الظالمة، من نهب، وعدوان على الثروات، وأكل أموال الناس بالباطل المحرم في كل الشرائع الإلهية. حتى أصبح العالم الإسلامي كله، وقطاع واسع من الدول الغنية تسمى "بالعالم الثالث المتخلف" بل حتى الإنسان الغربي يعيش ضنكا وعنتا كبيرا، ويرجع كل ذلك بالأساس إلى فلسفة العلمانية الشاملة التي لا يحكم سلوكها أي قيمة من قيم الرحمة، والتعاون، والتيسير على المعسر .

وبعد أن يعمّ التخلف وتكثر البطالة يعود العالم العلماني –المستعمر في صورة مستثمر– في صراع محموم من أجل أكل أموال الشعوب بالباطل، بل إنه قد يشعل حروبا، ويدعّم معارضات لتحطيم البلدان، ولا يتدخل لإيقاف الحرب مع قدرته على ذلك حتى ينهك البلد، فيعود بعدها ليهيمن على إعادة البناء وتوفير فرص الاستثمار لمؤسساته المختلفة لما يسمى إعادة إعمار، عن طريق الشركات الكبرى، ولا سيما أنه في غالب الأحيان يساعد معارضة موالية له ضمن صفقات مدروسة بإحكام. وبهذا فالفكر العلماني لا يهمه كثيرا كم تدفع الأمم من فلذات أكبادها، ومن ثرواتها، وكم تلوث البيئة، وكم ينتج من حالات إنسانية، إنما الذي يهتم له كثيرا هو كيف يصل النظام الاقتصادي العلماني إلى أهدافه وتحقيق أرباحه بعيدا عن كل قيمة، ففي هذه الفلسفة كل شيء مبرر، وأحيانا مبرر بسبب أخلاقي في الظاهر، لكن الحقيقة غير ذلك .

وإذا رجعنا إلى القيم الإسلامية نجد أن القرآن الكريم يحرّم كل صوّر أكل أموال الناس بالباطل،ويدخل في ذلك حبس المال عن توظيفه بما يعود على الإنسانية بالنفع، حتى لو كان الغطاء دينيا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }[1534] في حين أن النظام الاقتصادي العلماني لا يقع المال الحرام فيه من باب واحد فقط، ولكن من أبواب متعددة تجمعها جملة :" أكل أموال الناس بالباطل " وكنز الأموال، وعدم إنفاقها في سبيل الله

[1534]– سورة التوبة الآية :34

ووجوه الخير الكثيرة،وخدمة الأمة، والتيسير على المعسرين، وإغاثة الطبقات الهشة في المجتمع، بل تنفق في الحرام، لأن المؤسسات المالية العلمانية لا تعرف قيمة الحلال والحرام .

إن النظام الاقتصادي من المنظور العلماني أصبحتتقوده علوم وتقنياتلا تعرف الرحمة ولا المشاعر، ونظم إدارية متطورة وترسانة إعلامية تحميه وتحمي رجاله المتحكمين، وتروّج له، ويبتكر أساليب النهب والخداع والاحتيال باستخدام وسائل الإعلام، والتقنية التي تبدو في الظاهر أنها نشاط اقتصادي عادي، غير أن النبيه لا يخفى عليه أساليب الخداع والاحتيال في الممارسة الاقتصادية والتي لا تختلف عن لعبة الميسر حيث يحقق الربح السريع بأيسر الطرق ودون بدل أي مجهود.

فنجد الشركات الكبرى التي يتحكم فيها الفكر العلماني تبيع للناس السلع وتشترط عليهم شروطا، وتربط صلاحية السلعة بتقنيات أخرى يصبح الجهاز لا معنى له إلا بالرضوخ لذلك الاحتيال، و الأمر نفسه يطرح في القروض المالية، فلا تكتفي بمجرد الفائدة، بل تفرض شروطا أخرى، تصل أحيانا إلى استعادة القرض وأضعافه عن طريق إعادة الجدولة، الذي لا تستطيع الدول المستقرضة الفكاك منه، ويتعدى الأمر إلى حد رهن سيادة الدول ورهن قرارها السياسي، كل ذلك يتم تحت أعين خبراء في الاقتصاد وبحماية أنظمة سياسية وقوى عسكرية مدمرة. فمثلا الجهود العلمية الغربية تملك تقنية صناعة الأدوية الفعالة لكثير من الأمراض، ولخوائها من القيم ترفض تسويقها بالمعايير المطلوبة حتى يظل الإنسان تابعا لمخابرها، بل إن كثيرا من البحوث تؤكد أن كثيرا من الأدوية تسوق بإضافة مواد مدمنة حتى يظل المريض تابعا للشركات الصيدلانية، وبهذا تكون قد وضعت صحة المريض في كفة ومصلحتها في كفة، ثم رجحت مصلحتها الاقتصادية على القيم الأخلاقية والإنسانية، وعلى غرار هذا تتصرف العلمانية بأنانية وبعيدا عن كل قيمة أخلاقية لأن أساسها الفكري قائم على قاعدة "الغاية تبرر الوسيلة " فكثير من السلع المغشوشة وغير المقبولة تقنيا في بلدانها تصدر إلى غيرها، وهي على يقين من خطورة تلك السلع.

إن نسبية القيم في المفهوم العلماني مفهوم خطير يجعل كل فعل إنساني متدبدب في وضع الموازين إذ يتم الترجيح بين القضايا بناء على الأمزجة والأهواء، وهذا ما يجعل الإنسانية تتجرع المرارة إذا

سلمت زمام أمرها للفكر العلماني الذي يلغي القيم ويتلاعب بمضامينها، ويجففها من كل غاية، وفضيلة .

بينما القيم الإسلامية دائما مشدودة إلى قواعد ثابتة ومشحونة بمضامين إنسانية وأخلاقية، وتستهدف غاية تجعلها لا تخرج عن نفع الإنسانية في ممارستها، سواء مع المسلم وغير المسلم، فالحرام حرام على الجميع قال تعالى :{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ .الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ}[1535] فالتطفيف حرام ممارسته مع كل الناس، فالقيمة الأخلاقية حاضرة باستمرار فقد جاء المعنى العظيم في التعليق على نصوص الربا ببيان الرحمة الشاملة، وحضور الاعتبار الإنساني في الممارسة . يقول الله تعالى :{وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }[1536] فقد تعدى الأمر مجرد الإنظار إلى الإعفاء والتصدق .

***– وفي المجال السياسي :**

تقوم القيم السياسية في التفكير العلماني على مجموعة من القيم أهمها قاعدة ميكافيلي:"الغاية تبرر الوسيلة"في محاولة لفصل الدين والقيم والغايات والمطلقات عن عالم السياسة، وتظهر العلمنة الشاملة في عالم السياسة في المقاييس التي تستخدم في الحكم على الظواهر السياسية "ومن ثمّ لا تنفصل القيمة عن الدولة فحسب، وإنما عن المجتمع بأسره ويصبح أساس حركة المجتمع وإدارته ليس العقيدة الدينية أو أي تطلع إنساني (قد يشير إلى كل من الطبيعة وما وراءها) وإنما إلى الروابط المادية والتعاقد (المادي) الذي يجسد فكرة القانون الطبيعي وحقوق الإنسان الطبيعية (المرجعية النهائية المادية)[1537].

[1535]–سورة المطففين الآية : 2/1

[1536]– سورة البقرة الآية :280

[1537]– عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد الثاني ص 141

فأول ما يمكن ملاحظته أن الدولة العلمانية دولة مطلقة مكتفية بذاتها، تخضع كل شيء لغاياتها التي تحددها لنفسها،وعادة ما تبدأبتأكيد اللون المحلي و"الخصوصيات القومية"وتتجه نحو تسخير العلم والعولمة حتى يصل إلى القانون العام الذي يحكم كل البشر في كل زمان ومكان، ومن أبرز ما يتجلى في الرؤية السياسية تزايد الحديث عن الواقعية، والتكيف والحكم على الأمور بمقياس العائد الاقتصادي والسياسي، ومن ثم يتوارى الحديث عن الكرامة باعتبارها حديثا غير علمي، ومن الأفكار البائدة وبهذا تفقد السياسة أخلاقيتها باعتبار انحصار غايتها في العوائد المادية والمصالح المدروسة. وتتأكد فكرة الصراع كأساس للعلاقات بين الأفراد والدول،فأمريكا في سبيل الوصول إلى النفط العراقي لا يهم كم قتلت، كما لا يهم كم سممت من الجو والبيئة،وكم انتهكت من الأعراض، ذلك أن الكرامة الإنسانية لا تعني لها شيئا في سبيل غايتها، لأن فلسفتها قائمة على مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة".

لقد بلغ الفكر العلماني في تجريد السياسة من كل قيمة عندما استطاع "ميكافيلي" أن يعطي الشرعية للوسائل الخسيسة.وحقيقة أن كتاب الأمير الذي ألفه ميكافيلي وأعطى فيه الشرعية للوسائل الخسيسة التي يستخدمها الحاكم من كذب وغش وخديعة وقتل وسفك دماء هو الذي أسس لهذا النهج . ولأجل الغاية التي يرسمها الساسة حدث في العالم فظائع يشيب لها الولدان تحت عناوين مختلفة ذهب ضحيتها الملايين من البشر سواء تعلق ذلك بالسياسة الداخلية أو الخارجية للدولة العلمانية .

" ففي السياسة الداخلية —وتحت مبدإ الغاية تبرر الوسيلة – اضطهدت شعوب كثيرة وعرف القرن التاسع عشر والعشرون أبشع أنواع الديكتاتوريات في فاشية "موسيليني" ونازية "هتلر" وما وقع في الثورة الشيوعية كفيل بأن يرينا إلى أي مدى انحدرت السياسة العلمانية في تبرير الوسيلة بالغاية .وحتى في القرن العشرين وتحت أنظار العالم يباد شعب البوسنة ولا يتحرك الساسة العلمانيون لأن القضية تتعلق بالتطهير العرقي والديني، على الرغم من تبني هذه الدولة لحقوق الإنسان كقيمة عالمية

مما يؤكد نسبية القيم لديهم، ولا يمكن بحال الاعتماد على الفكر العلماني المنحاز في إرساء قيم عالمية تنفع الإنسانية، لأن قضية الربح والخسارة هي التي تحكم مواقفهم وليس الانتصار للقيم والحق.

أما في السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر، فقد شهد القرن العشرون أبشع حالات قانون الغاب في حربين عالميتين، استخدمت فيهما كل الوسائل الدنيئة، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير هائل، وقتل للمدنيين غير المحاربين إلى أن بلغت القمة إلى إفناء الحياة بقنبلتي "هيروشيما" و"نكازاكي" وما زالت آثارهما إلى اليوم . ولا يخفى على دارسي التاريخ، ما فعلته فرنسا بتجاربها النووية في الصحراء الجزائرية، إضافة إلى ذلك سياسة الكيل بمكيالين في العلاقات الدولية، وقد جعلت هيئة الأمم غطاء لكل سياسة عدوانية تتخذها الدول الكبرى لبلوغ الغايات، بغض النظر عن الوسائل المستعملة. وفي ذلك يقول محمد قطب :"أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب ..نريد انقلابا هنا ..ونريد تغييرا هناك !

وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال !

وكل الوسائل حلال !

الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال !

المهم أن تنفذ الغاية ..والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة في الأوحال !"[1538]

ومما تنادي به العلمانية في عالم السياسة أيضا هو فصل الدين عن السياسة، ومبررهم في ذلك هو: كي يتحرر الدين من السياسة وملابساتها ولكي يسمح له بالانطلاق في مجاله الحيوي، ولا شك أن هذا القول يوقعها في تناقض سافر صريح إذ هي تعترف بوضوح أن السياسة أداة قذرة ولا أخلاقية ولا يمكنها أن تمارس إلا منحرفة عن القيم الخلقية تقتضيها ظروفها وملابساتها، وبمنطقها ومادامت

[1538]- محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 470

هذه طبيعتها فمن الخطإ إنزال الدين إلى درك السياسة التي لا تتورع عن استخدام الأساليب الدنيئة للوصول إلى أهدافها من منطلق مبدإ ميكافيلي " الغاية تبرر الوسيلة".

وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد فإن هذا الزيف في عالم السياسة يلاحظ من خلال كل الشعارات التي تسوّق لها العلمانية :كالديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية وغيرها من الشعارات التي كثيرا ما نصطدم في الواقع بعكسها تماما، ونكتشف أن هذه الشعارات لا ترتبط بالإنسان كإنسان، ولكن بالإنسان الأوروبي فقط، وبمنطق عنصري موغل في العنصرية .

ولا شك أن العلمانية في ممارستها للسياسة تفضح نفسها بنفسها عندما تعتبر الدين طهارة والسياسة نجاسة، وهل في الدنيا عاقل يقبل بالخوض في النجاسة إلا إذا كان ملوثا ممسوخا فاسد الفكر والاعتقاد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالاعتقاد أن الدين أبعد ما يكون عن السياسة وأنهما ضدان لا يجتمعان مغالطة كبيرة تقوم على جهل حقيقي بطبيعة الدين والسياسة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أهمية الدين ودوره العظيم في الحياة بما في ذلك العلمانية التي تزعم أنها ترفض الدين .

صحيح أنه قد يكون الدين المقصود هو الذي كانت للعلمانية تجربة قاسية معه، وهو دين الكنيسة. ولكن ليس من العلمية في شيء التعميم في الحكم، فالدين الصحيح يستحيل أن ينفصل عن السياسة، لأن من أهم وظائفه هو ترشيد الإنسان في ممارساته عموما، ومنها السلوك السياسي ذو الأثر الأكبر في حياة الإنسان. ومحاولة تطبيق بعض العقائد ذات الطابع الخاص على الإسلام منطق مفضوح، وبهذا التعميم جانبت العلمانية الصواب ودلست على البشرية، ذلك أن الدين – في حقيقته –منهاج شامل للحياة في شتى مجالاتها، وأن السياسة ليست سوى وسيلة واحدة من مجموع طرائق يعتمدها هذا المنهج لتحقيق أهدافه الحيوية الشاملة، وبهذه السياسة تتحدد علاقة الحاكم بالمحكوم في الداخل، وبالشعوب الأخرى في الخارج .

ونقيصة أخرى في العلمانية في هذا الجانب السياسي أن الشعارات التي ترفعها لا تعدو أن تكون منافية للقيم الإنسانية، إذ ترفض الجوهر المشترك في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، والقائم على

المساواة، ومن هذه الزاوية يتضح الخطأ الفاحش الذي وقعت فيه العلمانية إذ حاولت إقامة صروحها على أشلاء الإنسان، ومطامحه، وقيمه، ومصالحه العامة والخاصة، حيث تدوس على القيم الأخلاقية في سبيل ما تعتقد أنه غاية إنسانية نبيلة .ولكونها تخشى من الفضيحة تلجأ إلى التستر وراء ستائر الزيف والمكر والخداع، فتدمر بلدانا تحت مسمى نشر الديمقراطية، وأحيانا كثيرة من وراء لافتات براقة عليها كلمات التحرر، والتقدمية، والإنسانية، والرغبة في القضاء على القيم والتقاليد ذات الطابع الرجعي، أو مكافحة الإرهاب [1539].وهذا ينقلنا بالضرورة إلى النقيصة التالية التي لا تسلم منها الممارسة السياسية القائمة على نسبية القيم .

وهي أن العلمانية تحدث ازدواجا خطيرا في نخبها السياسية، حيث نجد أولئك الذين يبلغون المناصب العالية يغرقون في أدنى وأحط المستويات اللاأخلاقية، لأنهم لا يملكون الدوافع الذاتية لتمثيل تلك المناصب العالية. لأنهم لا يؤمنون بالقيم، بل يزداد لديهم الشره والتهافت على الملذات وتحقيق أكبر قدر من النفعية والحسية، ولا يخفى ما في ازدواجية كهذه من مخاطر على مصير الأمم وتصرفات الأفراد. ومن ثم شيوع المنكرات،لأن النخب السياسية قدمت نماذج أخلاقية سيئة لهذه الشعوب.

ثم لا يفوتنا أن نؤكد على أن من مساوئ تجريد السياسة من القيم الغفلة عن طبيعة الإنسان الذي ترسم لأجله السياسات عندما تعتقد العلمانية بالتطور المطلق، ومعناه أن العلمانية تعتقد أن الإنسان كائن متطور لا حدود لتطوره، ومن ثم ترسم مناهجها على هذا الأساس الخاطئ، لأنها لا ترتكز على الخطوط الثابتة في كيان الإنسان، فكلما انهارت القيم تصاغ القوانين، وتبرز المناهج التي ترسخ هذا الانهيار وتؤكده، ومن ثم تجرد الحياة من كل القيم حتى يصبح الإنسان يعيش غربة عن ذاته وفي ذلك دمار ذاتي للإنسان .

وخلاصة ما يمكن تأكيده أن السياسة ليست في حد ذاتها وسيلة لا أخلاقية، وإنما المذاهب الوضعية هي التي تحمل في تركيبتها جرثومة التعفن والفساد .وتزداد المشكلة تفاقما عندما يتسلّم المذاهب

[1539]-ينظر عماد الدين خليل : تهافت العلمانيةص 59/58

طواغيت لا اعتبار لديهم لأية قيمة خلقية متعارف عليها .وكلما ألغيت قيمة حقيقية استعيض عنها بقيمة من تصور فرد من الأفراد، وما هي في الحقيقة إلا رد فعل نفسي أو فكري في واقع معيّن محدود الزمان والمكان، ومن ثم تحاول العلمانية أن تؤلف بين القيم التي أفرزها الواقع وتركب منهجا لا انسجام بين عناصره، فتكون النتيجة واقعا قيميا متناقضا ومحزنا.

في مقابل هذا نجد أن النظام السياسي في الإسلام يقوم على القيم الخلقية السامية التي يلتزم بها الحاكم والمحكوم، بل إن الحاكم يشترط فيه لينال المنصب السياسي أن يكون ملتزما أخلاقيا، حتى لا ينحرف بالسياسة عن التزامها الخلقي .ذلك أن الذين يدركون حقيقة الإسلام يلمحون ذلك التكامل والتداخل والتوازن بين القيم الخلقية والممارسة السياسية . وعلى الرغم من تقسيم الفقهاء مجالات الإسلام إلى قطاعات أربع تشمل العقائد والعبادات وآداب السلوك والتشريعات لغرض التوضيح والتنسيق، إلا أن هذه القطاعات جميعا متداخلة فيما بينها تداخلا عضويا كل منها مؤثر في الآخر متأثر به، لا تنفصل إحداها عن الأخريات .

فلو أخذنا مثلا العبادات كعلائق مجردة بين الفرد وخالقه، فإنها في الإسلام تعتبر ذلك المولّد الحيوي الدائم الذي يغذي كيان المسلم بالطاقة المتجددة والتي تدفعه إلى مزيد من النشاط الحضاري، وتلزمه بالعمل بكل القيم الأخلاقية من تجرد، وأمانة، ويقظة ضمير، وشعور بالمسؤولية،وإحساس حاد بالزمن، وهو ما يجعلها تضفي على الحضارية طابعا خاصا، تمارس فيه أنشطة الحضارة بتوجيه من القيم الأخلاقية المستمدة من العقيدة والعبادة،حيث تتداخل التصورات والممارسات، فيصبغ كل حركات الأفراد بالطابع الإلهي الرباني، الذي يرتقي بالعمل الدنيوي أيا كان، سياسة أو اقتصادا أو اجتماعا جمالا إلى مرتبة القربى والعمل الأخلاقي المرضي عنه .

وبهذا يمكن أن نؤكد أن القيم المطلقة التي تحكم الحياة الإنسانية من وجهة نظر الرؤية الإسلامية، هي الرؤية التي تجعل ممارسة الإنسان أخلاقية، لأنها تقوم على القيم المطلقة المستمدة من الوحي الإلهي، وبذلك يتوفر لديها مجموعة من المبادئ الأخلاقية بمواصفات غاية في التناسق هي :

-التكامل : حيث تضم جميع جوانب الوجود الإنساني .

-التداخل : فهي لا تسمح بالفصل بين هذه الجوانب .

-التوازن : إذ ترفض إعلاء قيم ونشاطات على قيم ونشاطات أخرى.

و هذا التصور للقيم يجعلها تقف سدا منيعا أمام الانحراف عن الطريق المستقيم، وفي الوقت ذاته توفر للإنسان المسلم طاقاته وتحفظ عليه أعوامه المعدودة من الضياع، فتجعل منه عنصرا إيجابيا يمارس نشاطاته لخير الحياة كافة فقد وصف الله المؤمنين بأنهم{ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }[1540] ووصف الأمة الإسلامية بأنها { خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }[1541] لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، والإيمان بالله هو القيمة الأخلاقية العظمى ومرجع كل قيمة في نظر الإسلام.

وبهذا يتبيّن لنا أن العلمانية فاقدة للضمانات القيمية الأساسية التي تشيَّد على أساسها الحضارات وتقوم على أركانها الدول، لأنها تقول بنسبية القيم وبعدم تكامل قيم الوجود الإنساني، وعدم تداخل جوانبها، وعدم التوازن في نشاطات الإنسان .وهذا يقودنا إلى توقّع عن انهيار وشيك لحضارة العلمانية، فلقد رأينا –في مدى هذا التاريخ – مبدأ من أهم مبادئ التاريخ يخبرنا أن دولا عظيمة تنهار، وحضارات عريقة تسقط، وكيانات قومية تتفتت، وإمبراطوريات دينية تتمزق، لأن القيم التي حكمت هذه الدول وتلك الحضارات تنقصها صفة من تلك الصفات الأنفة الذكر(التكامل، التداخل، التوازن) وهي في العلمانية مفقودة جميعها . وستظل البشرية تتطلع إلى منهج الإسلام الذي يؤكد على القيم، كملاذ آمن إذا ما أرادت –يوما –أن تستعيد توازنها الأصيل الذي هو حجر الزاوية لسعادة الإنسان[1542] .

[1540]- سورة المؤمنون الآية :61

[1541]-سورة آل عمران الآية :110

[1542]-ينظر عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 66/65

– القيم الجمالية:

يختلف التصور الإسلامي مع التصور العلماني في رؤية الجمال اختلافا كبيرا يشمل المنطلقات والغايات، مع الاشتراك في تقدير قيمة الجمال في كليهما. ففي التصور الإسلامي يرجع الجمال كله إلى الله سبحانه وتعالى،ومن ذلك ما نصّ عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال:"...إن الله جميل يحب الجمال"[1543] فكل تصوّر للجمال لا ينفك عن القاعدة الإيمانية، فمنها يستمد تصوّر الجمال وعن طريق توجيهاتها يوظف الجمال ويتحدد التعامل مع مظاهره الشاملة المختلفة في الكون والحياة، بينما تنطلق الرؤية العلمانية في تصوّر الجمال فيما يحققه من متعة ولذة، ومن ثم توظف كل مظاهر الجمال في هذا الاتجاه .

ولتقريب هذه الفكرة نسوق هذا المثل لنوضح الاختلاف الكبير بين الرؤيتين، فعاطفة "الحب " كقيمة جمالية تمثل أسمى العواطف الإنسانية، تنطلق في الرؤية الإسلامية من مبدإ التوحيد، حيث يقف المؤمن في تصوّر هذه العاطفة موقفا تمليه العقيدة. فهو أول ما يحب أن يحب الله تعالى، ثم يوجه هذه العاطفة لحب كل ما يحبه الله تعالى، وإن خالف هواه، فإن كان له ميل لحب جمال المرأة –باعتباره فطرة إنسانية – فهذه الغريزة تنظمها عقيدة التوحيد، وتوجه مسارها ضمن قنوات نظيفة، فلا يجوز النظر إلى هذا الجمال إلا في إطار القنوات المرسومة.قال تعالى: {قُللِّلْمُؤْمِنِينَيَغُضُّوامِنْأَبْصَارِهِمْوَيَحْفَظُوافُرُوجَهُمْذَلِكَأَزْكَىلَهُمْإِنَّاللَّهَخَبِيرٌبِمَايَصْنَعُونَ }[1544]كما لا يجوز التطلع للاستمتاع بالمرأة إلا ضمن علاقة منظمة قائمة على عقد شرعي، ولتحقيق أهداف واضحة من وراء هذه العلاقة، وبهذه الضوابط يتحمل الإنسان ما يترتب عنها من تبعات متنوعة. قال تعالى :{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[1545].

[1543]- أخرجه مسلم : كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه حديث رقم 265

[1544]- سورة النور الآية :30

[1545]– سورة الروم الآية: 21

بينما نجد العلمانية تنطلق في التعامل مع هذه العاطفة الإنسانية النبيلة تعاملا يستمد رؤيته من المنطق المادي النفعي الذي يقوم على تحقيق أقصى ما يمكن من اللذة ودون تحمّل أي تبعات، أو تحقيق أي أهداف غير مادية.ومن ثم حوّلت العلمانية أسمى معاني الجمال، وهو الحب إلى أرخص المعاني وأرذلها وأحطها، ولخصت علاقة الرجل بالمرأة في تلك الشهوة العابرة [1546]، وفي جسد المرأة العاري،ومات في التفكير العلماني حب الأسرة،وحب الطهارة، ومات جوهر الجمال مع موجة البحث عن إرواء الغرائز بلا حدود ولا قيود. فقامت العلمانية تتاجر بجسد المرأة التي تدّعي أنها تحترمها وتصون حقوقها، وهي تعاملها أسوأ من الجاهليات السابقة،والفوضى الأخلاقية في الغرب شاهدة على هذا المنحى. ويشير عبد الوهاب المسيري إلى مسألة في غاية الأهمية يعبر عنها ب: "العلمنة الشاملة للجسد "[1547] حيث يقول "تنزع عنه القداسة ويصبح مادة استعمالية نسبية محايدة منفصلة عن القيمة،مادة توظف إما لتحقيق الدخل، أو زيادة السلطان والقوة، أو المتعة خارج أي إطار اجتماعي أو إنساني كلي "[1548].

وهنا نلاحظ الفارق بين نظرة الإسلام للجمال ونظرة العلمانية، فالجمال في الإسلام ممتد في الكون كلهوفي الحياةكلها النفسيةوالخلقية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والحضارية. بل إنه يتجاوز

[1546]–تتجلى العلمنة الشاملة للجنس في كونه ينفصل عن كل قيمة، وعن أية تركيبة إنسانية أو عناصر اجتماعية، فيتحرر من الحب والألفة ويتحرر من الاحساس بالذنب، بل يتحرر من فكرة الزواج والانجاب، ويصبح هدفا في ذاته، فهو باختصار نشاط مادي جسدي مستقل عن أي مرجعية، المهم أنه يعبّر عن رغبة الإنسان في إشباع رغباته الجنسية في أي وقت ومع أي شخص . وبسبب هذا الحياد عن المرجعية القيمية تصبح مرجعيته مادية، ومن ثم يعتبر البغاء والشذوذ مجرد نشاط اقتصادي، فإذا كان الجنس هو مرجعية ذاته،منعزلا عن النشط الإنساني والاجتماعي، فكل ما يحقق اللذة فهو أمر منطقي طبيعي، ومن هنا ظهر قطاع اللذة وتضخم في المجتمع الغربي حتى أصبح صناعة، وعلى أساسه تصنف مواقع السياحة وترصع بالنجوم على قدر توفير اللذة .ينظر عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والشاملة ص 166إلى 170.

[1547]–عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد 2 ص 163

[1548]–عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد 2 ص 163

ذلك ليعبّر عن جمال الآخرة، فيشيد بصاحب القلب السليم، والخلق القويم، والعلاقة الطيبة واللقمة الحلال، الممارسة السياسية الأمينة، و ويفرض كل سلوك إنساني ينبغي أن ينتقي أحسنه عند التصرف مع الخلق، بغض النظر عن آثاره المادية التي تأتي تبعا للقيمة الجمالية التي تنبع من التوحيد . بينما لا ترى العلمانية الجمال إلا فيما يحقق نفعها المادي الصرف، فتأخذ العلمنة الشاملة للجسد شكل محاولة ترشيده، بحيث تعاد صياغته بما يتماشى مع معايير رشيدة مادية تتناقض مع بعض الوظائف الإنسانية والكونية [1549] .

وفي مجال القيم الجمالية من زاوية الرؤية العلمانية يمكن تعميم النظرة المادية على عالم الأدب والفنون وغيرها من المجالات التي تعنى بالقيم الجمالية، حيث تفصل القيم الجمالية عن القيم الإنسانية والأخلاقية، فيصبح الأدب يتناول الموضوعات التي تختفي فيها المرجعية النهائية، مثل انسحاب الإله من الكون، وضياع الإنسان،ويتجه الأدب إلى التجريد باعتبار أن حرية الأديب مطلقة مثلما ذاته مطلقة. فينتقل الأدب من كونه فنا يعبّر عن القيم الأخلاقية والإنسانية بلغة راقية إلى كونه نسقا إبداعيا مستقلا (مرجعية ذاته) له آلياته المستقلة وأهدافه الأدبية .ومن هنا يكثر الحديث عن الأدب للأدب والفن للفن، فكأن الأدب نشاط لا علاقة له بالقيم الأخلاقية والإنسانية[1550] .

[1549]– تصر العلمانية على فرض رائحة نمطية للجسد باستخدام العطور ومزيلات العرق حتى يتحرك بكفاءة في رقعة الحياة العامة –طبعا لنشر هذه الثقافة بُعد اقتصادي كبير – لتحقيق الربح بمنتجات المصانع من العطور الفاخرة، كما تصرُّ على تحديد مقاييس جمالية، فيطلب من المرأة أن تبقى جميلة جدا رغم تقدمها في السن، ونحيفة رغم الحمل والولادة، وكل هذا بهدف أن تكون أكثر لياقة لممارسة بعض الوظائف العامة (سكرتيرة أو مضيفة طائرة أو نجمة سينمائية مثلا) وهذا أيضا لا يخلو من منفعة اقتصادية لصالونات الزينة والأزياء وعيادات التجميل الجراحية بوصفها تعبيرا عن الاتجاه نفسه نحو التنميط والترشيد. ينظر عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والشاملة ص 164/ 165

[1550]– ينظرعبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية العلمانية والشاملة المجلد2 ص 148

إن هذه الرؤية العلمانية المتطرفة اختارت هذا الاتجاه لتدمير القيم. والحملة على تحطيمها والانفتاح على الحرية المطلقة وتغليب منطق اللذات والشهوات.كان رد فعل على الآثار التي أحدثها مفهوم القيم الروحية المسرفة في الزهادة والرهبنة والدعوة إلى تحريم اللذات الحسية، وقمع الغرائز والإشادة بالعزلة عن الحياة وتعذيب الأجساد وقمع الآراء العلمية والسياسية، فكان نتيجته ما نرى من فلسفة تحتقر كل القيم الأخلاقية والدينية، وتؤكد على نسبيتها وتطورها، وهو موقف غير متزن على الرغم من أخطاء الكنيسة في تقدير الجمال.

أما موقف الإسلام فمختلف تماما عما ذهبت إليه الكنيسة في إسرافها وتزمتها ورفضها لكل شيء جميل في الحياة . حيث أن الإسلام اعترف بالنوازع البشرية ودعا إلى تحقيق مختلف مطالب الجسد المادية، في حدود الضوابط التي أقامها، والنظم التي وضعها حفاظا على الكيان الإنساني، ونظام الحياة الأخلاقي .ومن هنا فإن المسلم غير مطالب باجترار مثل هذه المفاهيم والتعويل على هذه القيم في صياغة نظام حياته[1551].فالجمال المطلق هو جمال الله، وتبعا لهذا المسار في التفكير الإسلامي، فإن كل جمال يستمتع به الإنسان، أو فن يمارسه الفنان، لا بد أن يكون متوافقا مع ما يرضي الله، في أي قضية من قضايا الحياة. ولعل هذا ما كان يستمده الفنان المسلم وهو يريد التعبير عن انفعالاته الجمالية خطا أو زخرفة أو شعرا فكان :" التوحيد هو العامل المشترك الأوحد بين جميع الفنانين المؤمنين بنظرة الإسلام للعالم والكون، مهما كانوا متباعدين جغرافيا أو عرقيا"[1552].

4 . الأساس الرابع :العبثية

جاء في التعريفات للجرجاني :" العبث : ارتكاب أمر غير معلوم الفائدة، وقيل ما ليس فيه غرض صحيح لفاعله" [1553].

[1551]– ينظر المرجع نفسه

[1552]– إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 151

[1553]– الشريف علي بن محمد الجرجاني : التعريفات المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ط1 سنة 1306هـ ص63

ويعرّف عبد الوهاب المسيري الغائية بقوله :" الغائية كلمة منسوبة إلى كلمة "الغاية" (باليونانية :تايلوس).والغاية هي : الإيمان بأن للعالم معنى وهدف، وغاية تتجاوز الحركة المادية المباشرة ..على عكس "العدمية" التي ترى أن العالم إن هو إلا حركة لا معنى لها ولا غاية "[1554].

وكلا الموقفين من وجود غاية للوجود، أو عدمها يعبر عن منظومة فكرية تستند إحداهما إلى القيم الدينية، التي ترى أن العالم مخلوق لغاية، ومن ثم فإن لوجوده معنى، وبذلك تصبح لحياة كل إنسان معنى، وعلى أساس هذا التصور يكون الإنسان كيانا مسؤولا، يجب عليه أن يمارس حياته بناء على الغاية المرسومة من وجود الكون، ومن وجوده ضمن منظومة الكون .

بينما تستند الفكرة القائلة بعدم وجود غاية، ولا معنى، ولا هدف للعالم إلى تصور أن العالم وُجد صدفة، وتمت عملية وجوده وفق حركة مادية آلية . هذا المفهوم متداول لدى الوجوديين المعاصرين للإشارة إلى استحالة تقديم تبرير ذي معنى لوجود الإنسان، ولوجود الأشياء عموما .

وقد ظهرت هذه التجربة في شكل قلق وضيق angoisse عند "هايدجر"، و في الشعور المرير بانعدام وجود أية غاية للعيش والوجود عند "سارتر "، وفي غموض وضعنا الإنساني عند كامو[1555].وفي الشعور والفشل والإحباط المحتوم عند "ياسبيرز"[1556]k.jaspers ""[1557] تجلى هذا

[1554]– عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة المجلد 2 ص 457

[1555]–كامو: روائي وفيلسوف فرنسي (1913–1960)انتمى إلى الحزب الشيوعي عام 1935 لكنه تركه بعد سنة، نشر وراية " الغريب " وفي العالم التالي أسطورة" سوزيف "تعرف إلى سارتر وتعاون معه لكن لم تستمر علاقتهما، كانت علاقته بالوجودية متوترة على الرغم من اشتهاره بالانتماء إليها، كان غامضا في استخدام مفهوما " الوجود" و"الماهية" وأيهما أسبق، وقد عارض الإلحاد الفلسفي، لذلك كان من أشهر أقواله "إنني لا أومن باللة، لكنني لست ملحدا " .ينظر معجم الفلاسفة ص 512 .

[1556]–ياسبرز : هو ياسبرز كاري فيلسوف ألماني عاش بين عام (1883–1969) يرتبط اسمه بفلسفة الوجود من بواكير مؤلفاته علم النفس المرضي العام الذي كان يعد الخطوة الفاصلة بين علم النفس والفلسفة ثم جاء مؤلفه الثاني الذي يعتبره هو نفسه "شهادة مبكرة على ما يسمى فيما بعد إضاءة الوجود" ثم توالت كتاباته حول الوجود منها" العقل والوجود 1935" و"المنطق الفلسفي" 1948م وهي عبارة عن تقص يطرح فيها جملة من التساؤلات الوجودية .ينظر معجم الفلاسفة ص 739

[1557]–جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 280

الفكر العبثي عند كثير من الفلاسفة، وقد نقل جلال الدين سعيد في كتابه معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية بعضا من مقولاتهم منها:

– يقول :"بيرندلو": "الحياة حافلة بعدد لا محدود من الأمور العبثية التي يا للوقاحة لا تحتاج حتى أن تظهر بمظهر الحقيقة إذ هي الحقيقة عينها".

– ويضيف "طوماس هوبز": "العبث من مميزات المخلوقات البشرية دون غيرها ".

–أما "باسكال فيقول :"لا أعرف من وضعني في العالم، ولا ما هو العالم، ولا من أكون، إنني في جهل مدقع بجميع الأشياء، ولا أعرف ما هو جسمي، وما هي حواسي، وما هي نفسي، وذلك الجزء الذي يفكر فيما أقول، ويتأمل في كل شيء وفي ذاته أيضا، والذي يجهل ذاته جهله ببقية الأشياء "

–ويتجلى العبث أكثر عند "ألبير كامو" الذي يقول :"إني أريد الحصول على تفسير لكل شيء وإلا فلا ؛ ويبقى العقل عاجزا أمام صيحة القلب هذه (...)إن العبث ينشأ عن هذه المواجهة بين نداء الإنسان من جهة، والصمت اللامعقول للعالم من جهة ثانية "[1558].

كما ينقل ويل ديورانت عن الفيلسوف الأمريكي "سنتيانا"[1559] قوله "وليعيش الإنسان عليه أن يتذكر الحياة أكثر من الموت، وأن يقبل الأشياء الواقعية القريبة كما يقبل الآمال المثالية البعيدة

[1558]– المرجع نفسه ص 281

[1559]–سنتيانا : فيلسوف اسباني ناطق بالإنجليزية عاش بين (1863–1952) ببطن بالولايات المتحدة الأمريكية اشتهر بأسلوبه الساخر من أخلاق العالم ويتجلى ذلك بوضوح في في مجلدات التحليل السيكولوجي "الطبائع والآراء في الولايات المتحدة الأمريكية "1920، و"تقاليد اللياقة في مأزق"1931 تنقل بين باريس وروما ولندن وبرلين، التقي وتأثر بالعديد من الفلاسفة، ولعل أهم المؤلفات التي تعبر عن تطورات فكره "ممالك الوجود"(1929–1930م) وأما أكثر مؤلفاته إثارة للدهشة فهو "آخر الطهرانيين " التي أصدرها في السادسة والسبعين وعرفت رواجا عند نشرها. ينظر معجم الفلاسفة ص 352

.والفلسفة التي تبتعد بالإنسان لا تقل اعوجاجا عن أوهام الخرافات والأساطير السماوية التي تشرد فيها عين الإنسان بحثا عن العالم الآخر "[1560] .

وينقل يوسف كرم عن "دولباك" أنه لا غائية في الطبيعة :ليست العين مصنوعة للرؤية، ولا القدم للمشي ولكن القدم والرؤية نتيجتان لاجتماع المادة، ولا نفس في الإنسان، ولكن الفكر وظيفة الدماغ، والفرق بين العقول نتيجة الفرق بين الأدمغة "[1561].

بناء على هذه الأقوال لبعض فلاسفة العلمانية يظهر لنا جليا أن الجميع لا يرى أية غاية من الوجود، وكما هو معلوم فإن إنكار الغاية يؤدي إلى العبثية، وهي بهذا المعنى تعني أنه لا وظيفة للإنسان في الحياة، وبالتالي فالكون موجود عبثا، وأن لا مسؤولية للإنسان عما يفعل، ومن ثم لا وجود للآخرة.

ولا شك أن غياب هذين الركيزتين الأخلاقيتين من الحياة الإنسانية يمثل انحرافا كبيرا على الرغم من دلائله الكثيرة في الكون والحياة، بل إنه من البديهيات التي لا تستغني عنها حياة الإنسان في شتى حركاته وهو يصنع الحضارة، فإن لم تكن له غاية فلم هذا السعي والحركة بغض النظر عن ماهية هذه الغاية، فأي مجهود يقوم به له غاية بل إن رفض الغاية في حد ذاته له غاية وهي استبعاد وجود خالق ولا آخرة ليستطيع القائلون بها التحرر والتنصل من كل مسؤولية ليسهل عليهم تبرير كل انهزام أمام الشهوات والملذات، كما يشير إلى ذلك مصطفى السباعيحيث يقول :" جاءت فلسفة ماركس و إنجلز في القرن الثامن عشر وهما يهوديان ألمانيان، فزادت الأمور سوءا إذ باعدت بين الإنسان والاستقرار النفسي والروحي بعدا شاسعا فانتزعت منه عقيدة الإيمان بالله واليوم الأخر وأفقدته الثقة

[1560]–ويل ديورانت : قصة الفلسفة منشورات دار المعارف بيروت ترجمة الدكتور محمد المشعشع ط6 سنة 1988 ص 614

[1561]– ينظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص 193

بالقيم الأخلاقية التي ظلت منذ عرف تاريخ الإنسان حتى الآن المعتصم الذي تلوذ به الجماعات لضمان أمنها الاجتماعي "[1562].

و يظهرمن خلالدراسةالفكر المادي العلماني أنه يرفض وبشكل قاطع أن تكون لهذا الكون غاية يتحرك نحوها خارج عالم المادة." والعقل المستنير لا يستمد معياريته إلا من دراسة الطبيعة والمادة والحركة، ولذا بدلا من الغائية التقليدية التي ترى بأن التاريخ يسير بتوجيه إلهي، طرحت فكرة جديدة تماما على الفكر البشري وهي أن التاريخ يتحرك إما دون غاية فهو حركة دون هدف تماما مثل الطبيعة المادة أو أن غائيته مثل معياريته مستمدة من الطبيعة المادة " [1563] .

ومعنى هذا أن التفسير الأول: ينسف فكرة التاريخ تماما فيلغي الفكرة الدينية حول خلق الإنسان ووظيفته وغايته، أما المفهوم الثاني: فيؤكد الطبيعة المادية للتاريخ فهي مرجعيته النهائية، وهدفه النهائي هو تحقق قوانين الطبيعة في التاريخ، ومن ثم تصبح الغاية هي تحقيق التقدم الذي يعني تزايد تطبيق القوانين الطبيعية إلى أن تسود هذه القوانين تماما، ويصبح المجتمع الإنساني في بساطة عالم الطبيعة.

ولعل المتأمل يلحظ ذلك في سيطرة فكرة تقسيم التاريخ إلى مراحل تهدف إلى تكريس مفهوم راسخ في الحياة الإنسانية وهو أن الحياة ليس لها هدف خارج الوجود المادي، ففي هذه الأرض وما يتصل بها من عالم المادة جرت وتجري أحداث الحياة، ولا صلة لها بعالم آخر كما يشير إلى ذلك عبد الوهاب المسيري :" ومن هنا ظهرت فكرة المراحل التاريخية التي سيطرت على الفكر الغربي، وهي تشكل في جوهرها ابتعادا عن الغائيات التقليدية، وتحقيقا للغائيات الحديثة : -المرحلة اللاهوتية - والمرحلة الميثافيزيقية - المرحلة الوضعية .وهي مرحلة سيادة العقل والعلم ولكنها في نهاية

[1562]-مصطفى السباعي :من روائع حضارتنا ص 13

[1563]- عبد الوهاب المسيري : الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص 262

الأمر وفي التحليل الأخير مرحلة سيطرة القانون الطبيعي، وهذا هو قمة التقدم وهذه هي غايته "[1564].

وبالتمعن في نظرية التطور التي هيمنت على الفكر الغربي العلماني يمكن القول أنها أساس الفكر العبثي الذي ينفي أي غاية، ويتجلى ذلك في كثير من النظريات التاريخية الاجتماعية التي تعد تطبيقات لمبدأ التطور "فهربرت سبنسر درس التاريخ باعتباره تطورا من المجتمع العسكري إلى المجتمع الصناعي، ورآه دوركايم تطورا من التضامن الميكانيكي إلى التضامن العضوي، ورآه ماركس تطورا من الشيوعية البدائية إلى الشيوعية المركبة، أما التطور في نظر أوجست كونت فهو تطور من مجتمع يستند إلى السحر والدين إلى مجتمع يستند إلى الميثافيزيقا وصولا إلى المجتمع الحديث الذي يستند إلى العلم (المرحلة اللاهوتية – المرحلة الميثافيزيقية – المرحلة الوضعية) ويلاحظ أن الحلقة الأخيرة في سلم التطور هي دائما اللحظة التي تسيطر فيها القيم العلمية (المنفصلة عن القيمة) والغائية الإنسانية "[1565].

وبناء على هذا لا ترى العلمانية في جميع ما ذهب إليه منظروها أي غاية للإنسان خارج العالم الطبيعي المادي وخارج الحياة الدنيا. فالعالم كالساعة يدور كالآلة الأمر الذي يعني اختفاء الغرض والغاية، لأن المادة منفصلة عن القيم والغائيات الإنسانية "وأن كل الحوادث من أي نوع لا تخرج عن كونها حركة للمادة لا غرض لها وأن علاقة الأسباب بالنتائج علاقة رياضية مباشرة يستطيع الإنسان من خلال عقله التوصل إليها " [1566]

❖ مناقشة أساس العبثية:

نظرا لكون القرآن الكريم الرسالة الإلهية الخاتمة التي تتسم بالثبات، وهذا يعني أنها رسالة مقاصد وقيم ومفاهيم، فإن من القضايا التي ركزت عليها النصوص القرآنية التأكيد على المقاصد من الأفعال،

[1564] عبد الوهاب المسيري :الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ص262

[1565]–المرجع نفسه ص 258

[1566]–عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة المجلد 2 ص 130

وتصحيح التصورات وضبط المفاهيم التي تلتبس على الإنسان في بعض المراحل التاريخية .ولما كان الفكر المادي يؤكد على التصور العبثي العدمي اللاغائي في الحياة، فإن القرآن اهتم كثيرا بعرض هذه الشبهة، واستطرد كثيرا في عرضها، ثم في بيان بطلانها، ونوّع الأدلة على إثباتها .فقال تعالى :{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ }[1567] .{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً }[1568]. وقال تعالى: {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ }[1569]. وقال أيضا :{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}[1570].

ففكرة الغائية يسندها في نظام الكون دلائل كثيرة، بل إن القول بالغائية يرقى إلى حكم الضرورة الأخلاقية، إذ لا يعقل أن يغيّب القصد في منظومة كونية كل عناصرها مترابطة في وظائفها. بل إن ترويج الفكر العلماني للعبثية والتشكيك في عدم وجود غاية في الكون هو في حد ذاته عبث، لكون إسقاط الغاية تسقط معها المعيارية التي هي الأساس للتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل والقبيح والحسن.

وبالرجوع إلى القرآن الكريم نجده يؤكد بوضوح أن فكرة اللاغاية في التفكير البشري ليست جديدة، وإنما سايرت الإنسان في كثير من الحقب، لذلك كانت من أهم الموضوعات التي جاء الرسل لمناقشة الأقوام في شأنها، ذلك أن الإيمان بوجود غاية يعني وجود وظيفة للإنسان في الحياة، وينتج عنها وجوب تحمل مسؤولية ما يصدر عن الإنسان من تصرفات، ومن ثم ضرورة الإيمان بالآخرة كناظم مهم للحياة الإنسانية فكيف ناقش القرآن هذه الفكرة وما هي ردوده على الرافضين لوجود الغاية.

[1567]- سورة الجاثية الآية :24

[1568]-سورة الإسراء الآية :49

[1569]- سورة السجدة الآية :10

[1570]- سورة سبأ الآية :7

اهتم الخطاب القرآني بموضوع الغاية من الخلق، ومن ثم أورد من الحجج ما يكفي لدفع الشبه التي يثيرها المشككون من أصحاب الفكر العبثي، وينطلق من التأكيد على مجموعة من المسائل تعد بمثابة القواعد المنطقية في ذلك. وإذا أردنا أن نحلل هذه الفكرة فلسفيا نقول :

1-إنه إذا كان الإنسان ملزما بتغيير نفسه ومجتمعه ومحيطه، لكي يتماشى مع النسق العام للحياة، وكان قادرا على فعل ذلك، وإذا كان يرسم لكل فعل هدفا، وكان قادرا على تجسيد غاية فعله، فإنه ينتج عن ذلك بالضرورة، أن يكون الإنسان مسؤولا . ومن هنا فالإلزام الأخلاقي والالتزام الأخلاقي كلاهما يغدو مستحيلا من دون مسؤولية، فالحساب أو تحقق المسؤولية شرط لازم لتحققهما، وذلك بحكم الطبيعة المعيارية التي يقوم عليها الفكر الإنساني، وليس المهم أن يجري الحساب في الزمان والمكان أو في نهاية أحدهما أو كليهما، ولكن المهم أنه لا بد أن يجري الحساب، وعند ذلك يكون منطقيا جدا أن طاعة الله والقيام بما أمر وتحقيق نسقه يعنى بلوغ الفلاح والسعادة واليسر، وأن معصية الله تستجلب العناء والعقاب والشقاء لذلك كان لا بد من وجود غاية أخلاقية للوجود الإنساني، والقول بالعبث هو ذاته عبث[1571].

فالإنسان بما يملك من مؤهلات متنوعة أُعد ليكون كائنا مسؤولا، ف" يؤكد التوحيد أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة لكي يعبده ويقدس له، وهذا يعني أن وجود الإنسان على الأرض غايته في مجملها طاعة الله وتنفيذ أوامره، ويؤكد التوحيد كذلك أن هذه الغاية تكمن في كون الإنسان خليفة الله في الأرض، ويشير القرآن أن الله قد حمّل الإنسان أمانته ...وهذا الائتمان الإلهي، هو تنفيذ الجزء الأخلاقي من الإرادة الإلهية "[1572].

2-أن طبيعة الكون غائية، أي : أنها ذات غاية، تخدم غاية لخالقها، وتقوم بذلك عن قصد، فلم يخلق العالم عبثا، ولا لعبا، وهو ليس عمل صدفة عارضة، فقد خلق العالم في أكمل صورة.

[1571]-إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 134

[1572]- المرجع نفسه ص 140

وكل ما هو موجود، موجود بقدر يناسبه، ويؤدي غاية كونية معينة .والتكامل والتناسق بين مفردات الكون دليل على ذلك.

والعالم في الحقيقة "كون " أي خليقة منتظمة " لا فوضى " وفيه تتحقق إرادة الخالق دوما، كما تطبق أنساقه ضرورة،لأن هذه الأنساق موجودة في المنطوي من طبيعة الأشياء ذاتها، وليس من مخلوق غير الإنسان يعمل أو يوجد بطريقة غير التي قدرها الله له .

وبما أن كل شيء خلق لغاية فإن تحقيق تلك الغاية يجب أن يكون ممكنا في الزمان والمكان.وبغير ذلك لا مفر من التشكيك، كما ستغدو الخليقة نفسها، ومسارا المكان والزمان لا فائدة منهما ولا معنى ولا مغزى. وبغير هذا الإمكان ينهار" التكليف" و"الإلزام الأخلاقي" وتتحطم غائية الله أو قدرته، وتحقيق المطلق أو السبب الإلهي للخلق .قال تعالى:{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }[1573].وقال تعالى:{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }[1574] وقال تعالى :{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ }[1575].

ولما كان الإنسان المخلوق الذي تتحقق فيه إرادة الله بالطوع لا بالضرورة في وظائفه الروحية مثل الفهم و العمل الأخلاقي، إذ تقع خارج حدود الطبيعة المقررة، لكونها تعتمد على صاحبها وتنبع من قراره .فإن تحقيق إرادة الله في الجوانب الروحية له قيمة نوعية مختلفة عند تحققها بالضرورة عند المخلوقات الأخرى. والتحقق الضروري ينطبق على قيم العناصر المادية، أو القيم النفعية وحسب، غير أنها لا تأخذ صفتها المتميزة أي كونها خلقية.[1576] أما القيمة الروحية فتأخذ قيمتها من ارتباطها

[1573]–سورة آل عمران الآية: 191

[1574]-سورة المؤمنون الآية :115

[1575]- سورة يونس الآية :4

[1576]–أي فعل تقوم به الطبيعة هو بطبيعة الحال لا يتصل بالأخلاق، ولا يستحق ثوابا ولا عقابا مثل ذلك :التنفس والهضم، أو فعل إحسان، أو ظلم يجري تحت الإكراه .وخلاف ذلك تماما فعل يتم بحرية مع احتمال أن يقوم به فاعله، أو لا يقوم، أو أن يقوم بفعل آخر إلى جانبه .فما دامت الإرادة حرة في الفعل كانت المسؤولية .

بالحرية، وإمكان الخروج عليها، فإن التزام الإنسان بها، وانضباطه بتعاليمها، هو ما يوفّر المهابة التي نسبغها على الأشياء الأخلاقية .

3-أن الجاهلية في كل عصورها كانت تنظر لقضية البعث بأنه أمر عجيب قال تعالى:{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ }[1577] وحجتهم في ذلك استحالة إعادة تركيب جسم الإنسان المعقد بعد تفككه، وتحلله، بناء على حكم عقلي يبدو في الظاهر منطقيا، لكن عند التحليل لا يلبث وأن يتهاوى ؛ لأنه لا يستند إلى حجة عقلية قوية، وهو حكم مبني على رؤية سطحية للوجود الإنساني ذاته قال تعالى:{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ. وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ }[1578].فكيف شرح القرآن مسألة الغاية الإنسانية من الخلق وأفحم أصحابها؟ تقوم الرؤية القرآنية في ذلك على كثير الحجج والأدلة منها:

1- بيان منزلة الإنسان ووظيفته: فالعقيدة الإسلامية توضح أن سعي الإنسان في الحياة لا يمكن أن يذهب هدرا، لأن العناية الإلهية التي واكبت مراحل تطور الإنسان ابتداء من النطفة، وزودته بتلك الأجهزة الرهيبة، وهيأت له المحيط الملائم في بطن أمة وبعد خروجه إلى الدنيايستحيل أن يكون ذلك عبثا قال الله تعالى : {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى {ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى .فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى }[1579] ويلخص إسماعيل راجي الفاروقي التصور الإسلامي لهذه الغاية الأخلاقية فيقول :" يؤكد التوحيد أن

[1577]- سورة الرعد الآية :5

[1578] سورة السجدة الآية: 12/11/10

[1579]- سورة القيامة الآية :39/38

الله برحمته وقصده لم يخلق الإنسان لعبا أو عبثا .فقد منحه الحواس، والعقل، والفهم، وجعله كاملا، بل قد نفخ في الإنسان من روحه ليؤهله للقيام بذلك الواجب العظيم .

هذا الواجب العظيم هو السبب في خلق الإنسان. فهو الهدف النهائي للوجود البشري وهو الذي يحدد ماهية الإنسان، ويبيّن معنى حياته ووجوده على الأرض، وبفضل ذلك يتسنّم الإنسان وظيفة كونية ذات أهمية هائلة، ولن يكون الكون على ما هو عليه من دون ذلك الجزء الأسمى من الإرادة الإلهية، التي هي غاية جهد البشري الأخلاقي .ولا يوجد مخلوق آخر في الكون يمكن أن يقوم مقام الإنسان في هذا الواجب...لأن تكليف الإنسان شامل وكوني ولا ينتهي إلا يوم القيامة"[1580].

2- التنبيه إلى عظمة الكون (نظام الكون البديع المتناسق):{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ }[1581] {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[1582]{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ }[1583].فالله تعالى يؤكد أن إنكار الميعاد ليست قضية مبنية على دليل وإنما التبس عليهم الأمر إذ حكّموا عقولهم القاصرة، ولم يستحضروا عظمة الله الذي يقول للشيء "كن فيكون ".

3- أن العقل يحيل استواء الفعل الإنساني الخير والشر قال تعالى:{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ}[1584] فإذا كان العقل الإنساني بفطرته لا ينظر إلى الناس عند ممارستهم لفعل الخير والشر بنفس النظرة، وتبعا لهذا المنطق يستحيل أن يكون مصير المسلمين والمجرمين سواء، وما دام هذا في الغالب لا يتم في الحياة الدنيا، كان لا بد من وجود محاكمة في الآخرة، يستوفي فيها كل طرف ما يستحق من الجزاء .

[1580]- إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 140 /141

[1581]-سورة ص الآية: 27

[1582]- سورة الحج الآية :6

[1583]-سورة ق الآية :15

[1584]- سورة القلم الآية :35

4- الآخرة ضرورة لإقامة العدل الذي لم يتحقق في الدنيا: قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .وأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ }[1585] ({وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى }[1586]

5- أن الإنسان لا يقدم في حياته على إنجاز أي عمل دون أن يحدد له غاية، فإذا كان الإنسان بمحدوديته يفعل ذلك ويستغرب من أي عامل ينجز شيئا بغير غرض ويسفه عقله، فكيف ينزّه نفسه عن العبث، وينسب ذلك إلى خالق الكون ومدبر أمره وفق هذا النظام الذي هو في غاية الدقة والإحكام، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون عبثا ودليل ذلك هذا النظام العجيب المنسق في وظائف عناصره:"{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ }[1587] ومن هنا فالفكر العلماني الذي يقول بالعبثية واللاغائية من الحياة بني على أساس هش، فما من صنعة متقنة إلا ويصنعها صاحبها لحكمة، ولا يجوز عقلا أن نحكم على جهاز متناسق في وظائف أجهزته بالعبثية، فإذا أردنا اختبار دور كل قطعة نقوم بخلع بعضها، فسوف نلاحظ تعطل الجهاز عن العمل، ومن ثم يتبيّن لنا أن كل قطعة لها حكمتها فإذا كان هذا فيما يصنع البشر فلم لا ينظر إلى الأمر فيما خلق رب البشر ؟ !. {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ }[1588].

6- فإذا كان عالم الخلق من الذرة إلى المجرة ليس باطلا، فالإنسان جزء من عالم الخَلْق، ومن ثم لم يخلق باطلا، فإذا تساءلنا ببراءة عن كل عضو من أعضاء الإنسان هل وجوده كعدمه أم أن وجوده ضرورة، وفي محله بالذات، فهل يصدق أحد عند ذلك أن وجود الإنسان كله عبثا ؟ فإذا كان لكل جزء غاية أيعقل أن يكون الكل بأجهزته العديدة والمعقدة عبثا ؟ ! أليس الإنسان في حقيقته عبارة

[1585]-سورة الحج الآية: 7/6

[1586]-سورة النجم الآية :31

[1587]- سورة الأنبياء الآية : 16

[1588]-سورة ص الآية :27

عن مصانع معقدة ومتنقلة ؟ فكل جهاز فيه يعمل بكفاءة ولسنين طويلة منسجما مع غيره من المصانع والأجهزة، ليكون عملها في النهاية عبثا ؟ وهل يستساغ في عالم الإنسان أن تفتح المصانع ويجتهد العمال وتصرف الطاقات ليكون جهدهم في النهاية عبث من غير غاية أو قصد ؟ فلماذا يصر الفكر العلماني على اعتبار الحياة الإنسانية عبث ؟ لا شك أن الفكرة صيغت بحنكة، وفي ظل ظروف مناسبة، وإلا فلا أحد مهما كان مستواه أن يستسيغ هذه الفكرة .فهذا التنسيق العجيب بين مكونات الكون يشير إلى قصد في التدبير، وكل ما يحيط بالإنسان يصرخ بذلك فهل يعقل أن هذا التنظيم جاء عبثا من دون قصد وغاية ؟ لذلك كانت الإشارة في الآية غاية في الدقة ولمحت أن كل جزء من الإنسان مهما كان تركيبه دقيقا فإنه يعاد تركيبه بعد الفناء قال تعالى : {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ .بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ }[1589].{قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ }[1590].

7– أن الحياة الإنسانية وما فيها من أحداث يجزم العقل البشري كله أنه لا يستساغ أن تمر كثير من جرائمها بلا عقاب، فنجد في حياتنا أن الدول تشكل الأجهزة الأمنية المختلفة للتصدي للمجرمين، ومحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم في حق غيرهم، وقد تطول التحريات في بعض الجرائم سنين طويلة، ولا تسقط بالتقادم، أفلا يكون من العقل أن نفس المنطق ينبغي أن يحكم الحياة ذاتها لتطبيق العدالة في حق أناس ماتوا ولم يدفعوا ثمن جرائمهم، أليس من العدل ملاحقتهم في الآخرة، بل إن في الحياة الدنيا جرائم رغم التحريات لا يمكن ضبط فاعلها الحقيقي لكونها جريمة معقدة أليس من العدل أن تبلى السرائر ويكشف عن المجرمين الحقيقيين، عندما تقصف طائرة حيا مدنيا يموت على إثر هذا القصف مئات المدنيين من يحاسب على تلك الجريمة الطيار فقط أم مجرمون يديرون الجريمة خلف الستار ؟من يحاسبهم، لا شك وأن الحياة لم تخلق عبثا، ولا بد من محاسبة في المحكمة العادلة . قال الله تعالى {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ

[1589]–سورة القيامة الآية :4/3

[1590]–سورة عبس الآية: 19/18/17.

نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ }[1591]{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[1592]{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ }[1593].

8- إن حياة الإنسان في التصور الإسلامي خالدة، وليس بين الدنيا -كمكان للسعي -انفصال عن الآخرة -كمقر للحساب – و هذا الذي نعيشه في الدنيا جزء من معنى الحياة لا يكتمل معناها إلا بالجزء المتبقي في الآخرة . فالحياة تسير وفق خطة محكمة تبدأ بالابتلاء وتنتهي بالجزاء، إذ لا قيمة للحياة إذا كان الموت النهاية التامة. وهل يعقل أن لا يكون لهذا النظام الضخم الدقيق كله رسالة وغاية وهدف ؟ يقول أنور الجندي :" هل يمكن أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملا ينتهي بموت الإنسان، الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل جميعا إذا لم يكن رسالة لها التزاماتها ومسؤوليتها، ثم لها جزاؤها من بعد .ليست الحياة عبثا، وكفاح الإنسان فيها مضيّعا .إن حياة الإنسان القصيرة في الدنيا "المؤقتة" ليست إلا امتحانا لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته.

هذا المفهوم الأصيل الذي جاء به الدين الحق،هو الذي يحمي الإنسان من فكرة العدم والغربة المدمرة لوجوده وإرادته"[1594] ومن هنا جاءت الآيات التي تتحدث أن خليقة الله كاملة، ولا تكتمل في هذا الباب إلا بالتأكيد على التزام الإنسان الأخلاقي ومسؤوليته ومنها قوله تعالى {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ }[1595] لأن الله سبحانه وتعالى يقول:{وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً }[1596].

وبهذا يتبيّن لنا أن فكرة العبثية وفقدان الغاية في حياة الإنسان من أخطر الأفكار التي زلزلت الكيان الإنساني، وهذا بسبب الغلو الذي سار فيه الفكر العلماني في تصوره للإنسان والحياة، فالفلسفة

[1591]-سورة ص الآية :28

[1592]-سورة القيامة الآية :36

[1593]-سورة المؤمنون الآية : 115

[1594]-أنور الجندي : سقوط العلمانية ص 122/121

[1595]-سورة الغاشية الآية: 26/25

[1596]-سورة النساء الآية: 85

المثالية كانت مغالية حين جعلته في مقام السيادة، ثم جاءت الفلسفة المادية التي كانت أشد غلوا حين وضعت الإنسان في مقام الأحجار، وجاءت الداروينية فجعلت الإنسان من أصل الحشرات وتلتها الفرويدية التي جعلت دافعه الأول والأخير غريزة الحيوانات فقط، كل هذه الأفكار قتلت فكرة الغاية في الإنسان وجعلته مخلوقا تافها يطوف حول الملذات التي أصبحت تمثل سقف تطلعه، فأنكر بذلك جزءا هاما من تطلعاته، وظل محصورا في حياة غاية في الترف والرخاء، لكنها تملأ القلب بالشكوك والغربة والتمزق.

أما رسالة الإسلام فأبت إلا أن تضع الإنسان موضعا كريما مستخلفا في الأرض، وله وظيفة يتحمل فيها مسؤولية، ويؤدي دوره في بناء الحياة واستكشاف أسرارها، وله نظام أخلاقي يلتزم به، وله غاية يتطلع إليها، تتجاوز هذه الحياة الدنيا ولا تلغيها، ومن ثم لا يلغي شيئا من كيانه، ليس زاهدا ولا مترفا، ولكنه مخلصا وجهه لله متطلعا لرضوانه، وهذه رؤية الإسلام للحياة المتكاملة التي لا عبث فيها، ذلك أن الإسلام لا يريد أن يناقض العقل الذي يرى من المستحيل أن لا تكون غاية في الحياة، لأن كل حركة يمارسها الإنسان في الواقع دافعه فيها تحقيق غاية، فكيف لا يكون للكون غاية ؟ ولا يريد أن يناقض الفطرة التي تصرخ من أعماقها لتعبر عن أشواق الإنسان إلى ذلك العالم المنتظر الذي تتحقق فيه السعادة التي يظل ينشدها ويحلم بها ويتطلع إلى تحقيقها في الحياة الدنيا ويشبع غريزته منها وهي حب الخلود فهل يعقل أن الشعور وهذه الغريزة ناتجة من فراغ، كلا ؟ ! ولكن أفكار العلمانية تأبى إلا أن تقمع هذا التطلع، لأنها تمثل الضلال لابتعادها عن التصور الصحيح للحياة، قال تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ }[1597].

وخلاصة القول أن إنكار الغاية في حياة الإنسان، والتي تقود بالضرورة إلى العبث فكرة علمانية ناتجة عن الجنوح وفقدان التوازن في الرؤية الوجودية للعلمانية، لأنها تجاهلت طبيعة التكوين الإنساني حين فككته ومزقت كيانه، فكان من المنطقي أن تؤول الأمور إلى هذا الحال من التصورات الخاطئة

[1597]- سورة الأنعام الآية :125

المنحرفة. وقد لخص عماد الدين خليل ذلك بقوله:" إن هذا التكوين القائم ابتداء على التوازن الأصيل بين الروح والمادة قد يصاب أحيانا بانحرافات خطيرة عن خصائصه الأصيلة هذه نتيجة تعاملها مع مبادئ ونظريات لم تدرك أبعاد النفس الإنسانية على حقيقتها.ولقد كانت المبادئ الوضعية تتسم دوما بذلك الاختلال وعدم التوازن، الذي يتمثل أحيانا بطغيان القيم المادية على القيم الروحية،ويتمثل أحيانا بطغيان القيم الروحية على القيم المادية،ويتمثل أحيانا ثالثة بالفصل القسري بين هذه القيم، واصطناع الحواجز المزيفة بين عوالم المادة والروح، كما هو الحال في التجارب العلمانية "[1598].

والحقيقة أن المجتمعات الإنسانية تتجه- غالبا - إلى هذا المنحى عندما تصاب الحياة بالشلل المادي أو الروحي، وفي غياب التوجيه الصحيح والموقف المتوازن، فيكون رد الفعل الذي يتسم بالعنف والتطرف،وتكون النتيجة الانتقال من انحراف إلى انحراف جديد. فيهرب المتمردون على المادة إلى أجواء الروح المثالية التي لا رصيد لها في الواقع،ويهرب المتمردون على الفناء الذاتي باسم الروح إلى العوالم المادية، التي ترفض كل اهتمامات الإنسان البعيدةومطامحه الروحية،وأشواقه الذاتية،وحسه الغيبي العميق.وهكذا فالتمرد على الانحراف لا يأتي إلا بانحراف جديد، وهذا كله يصبح أداة للهدم وينعكس على كيان الإنسان، فيمزقه ويجعله يعيش حالات مرضية على المستوى الداخلي (القلق، الاكتئاب، الاضطرابات النفسية ...) وتتحول الحالات المرضية إلى انحرافات في نشاطه الخارجي (مخدرات، قتل، سرقة، انتحار ..)، وليس بمستطاع مذهب ولا نظام غير الدين أن يكسر الطوق ويعيد للإنسان توازنه الأصيل القائم على التداخل العضوي الحيوي المعقد بين قوى الروح والمادة التي هي أشبه بنسيج محبوك لا ترى لحمته من سداه في كيان الإنسان، لأن الدين هو المنهج القائم على الموضوعية المطلقة والنظرة الشاملة بما أنه صادر عن الحق سبحانه. أما غيره من المناهج الوضعية وعلى رأسها العلمانية فنظرياتها تأتي متأثرة بالواقع، فلا يكون إلا رد فعل للواقع أو انعكاسا سلبيا له،وفي كل الحالات لن يستطيع تخطيط غير موضوعي أن ينقد الإنسان من العبثية التي يعيش

[1598]-عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 51

فيها[1599].فالله الذي خلق الإنسان بقدر وفي أحسن الصوّر قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ . فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ }[1600] أرسل إليه الهداية كي لا يذهب عمره سدى، قال تعالى : {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى }[1601].

ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم اهتم بقضية القدرة الإلهية على البعث، وبيّن مختلف الأدلة المادية والعقلية، وأرشد إلى التأمل في مختلف مظاهر الكون وفي أحداث التاريخ، وأخذ يرد على المنكرين بتذكيرهم بمظاهر القدرة الإلهية السائدة في الكون،وأنه ليس من العدالة أن يترك الإنسان سدى قال تعالى:{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[1602] ومن بين الأدلة التي أوضحها القرآن ما جاء في سورة "يس "ردا على من تساءل عن إحياء العظام وهي رميم .قال تعالى:{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }[1603] فجاء الرد :{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ .أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[1604] وقد تضمنت هذه الآية مجموعة من الأصول النظرية من الأدلة منها :

1-أن وجود الشيء من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة، لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه من عدم . وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شيء أسهل وشيء أصعب . ولكن الأسلوب جاء مراعيا و مناسبا لمنطق التفكير الإنسانيالذي تقرر لديه أن إعادة الشيء أسهل من فعله للمرة الأولى فالخبرة المتراكمة تسهل الأمر عليه .

[1599]- ينظر عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 52/15

[1600]- سورة الانفطار الآية: 8/7/6

[1601]-سورة الأعلى الآية:3/2

[1602]- سورة القيامة الآية : 36

[1603] - سورة يسن الآية :78

[1604]- سورة يسن الآية: 82/81/80/79

2-ظهور الشيء من نقيضه، كظهور النار من الشجر الأخضر، ممكن وواقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل مرة أخرى، وهذا استنادا إلى المبدإ الأكبر وهو أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق في إمكان البعث .

3-أن خلق الإنسان وإحياءه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن، فالإنسان بالنسبة لهذا العالم ذرة تافهة .

4-أن فعل الخلق مهما عَظُم لا يحتاج من جانب الله المبدع إلى مادة ولا إلى زمان خلافا لفعل البشر، وإنما يكون ذلك رهين إرادة الله بإيجاد الشيء إذ يقول له:"كن فيكون".

ولا شك أن القرآن عندما يسوق هذا النموذج وغيره من النصوص، إنما ليؤكد إمكان البعث الذي يكون متلازما بالضرورة بحكمة البعث،ومن ثم فلا مجال للعبثية، لأن الله سبحانه هو الحق ولا يخلق شيئا إلا بالحق. قال تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[1605].

ومما يجدر التنبيه إليه أن الإسلام وهو يؤكد على غاية الوجود فإنما ليبرز أنه لا قيمة للحياة إذا كان الموت هو نهاية كل شيء. فهل يعقل أن يكون مشروع هذه الحياة الدنيا بكل هذه الصورة البارعة الدقيقة عملا ينتهي بموت الإنسان؟ الحق أنه لا قيمة للحياة في نظر الفطرة والعقل إذا لم تكن رسالة لها التزاماتها ومسؤولياتها ثم لها جزاؤها من بعد. ليست الحياة عبثا، وكفاح الإنسان لن يكون فيها مضيّعا، إن حياة الإنسان القصيرة في الدنيا لها بقية محترمة يسميها الإسلام يوم القيامة، ولا انفصال بين حياة الالتزام وحياة الجزاء، ومن ثم فالحياة الدنيا هي ليست إلا امتحانا لطاقته على احتمال تكاليف وجوده وأمانته وإنسانيته .

5 . الأساس الخامس : الإنسانية

[1605]- سورة الحج الآية :6

يطلق على هذا المبدإ (الذاتية) وقد يطلق عليه أيضا (الفردانية) كما يطلق عليه (النزعة الإنسانية)[1606] وجميع هذه العبارات تشير إلى معنى واحد، وهو التأكيد على مركزية، ومرجعية الذات الإنسانية وفاعليتها وحريتها وعقلانيتها.

ولعل أحسن تعريف ننقله للنزعة الإنسانية هو ما جاء على لسان أحد أكبر فلاسفة الحداثة وهو "هايدجر" حيث قال :"هي ذلك التأويل الفلسفي الذي يفسّر ويقيم كلية الوجود انطلاقا من الإنسان، وفي اتجاه الإنسان "[1607].

كما ساق عبد الرزاق الدوّاي تعريفا للنزعة الإنسانية قال فيه :" النزعة الإنسانية هي كل نظرية أو فلسفة تتخذ من الإنسان محورا لتفكيرها وغايتها وقيمتها العليا"[1608].

وحتى تكون صورة النزعة الإنسانية أكثر وضوحا وعمقا، نشير إلى ما ذهب إليه عبد الرحمن بدوي الذي يرى أن لفظ "النزعة الإنسانية " قد صار من الألفاظ الكثيرة التداول اليوم،وفي استعماله يلاحظ له معنيان : أحدهما تاريخي، والآخر مذهبي. فهو عند "بيجر" وأتباع مدرسته الذين يكونون النزعة الجديدة يرمي من ورائه إلى إيجاد نزعة إنسانية جديدة تضارع النزعة الإنسانية التي ظهرت في أوروبا في القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر، وذلك بإحياء التراث اليوناني من جديد،

[1606]– لم تظهر النزعة الإنسانية في الثقافة الغربية إلا في القرن التاسع عشر حسب ما تذكره القواميس والموسوعات، حيث استعملها أحد علماء التربية الألمان وكان يقصد في البداية الدلالة على نظام تعليمي وتربوي جديد يقترحه، ويهدف منه إلى تكوين الناشئة عن طريق الثقافة والآداب القديمة، وبالأخص الآداب اللاتينية والإغريقية، وذلك لغاية تلقينها مثلا أعلى في السلوك وفي العراقة، وكل ما من شأنه أن يعلي من قيمة الإنسان. صدر الدين القُبانجي الأسس الفلسفية للحداثة ص40

[1607]– صدر الدين القُبانجي الأسس الفلسفية للحداثة ص40 نقلا عن عبد الرزاق الدوّاي من كتاب" موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر " ص43

[1608]–المرجع نفسه ص 191.

ومعاناة تجربة حية عن طريقه وهو ما يتم بتمثله ونقله من الماضي إلى التطبيق على الحاضر ؛ وهو كذلك أيضا عند "سيتا"[1609] إلا أنه يميل خصوصا إلى استلهام النزعة الإنسانية الحديثة في إيطاليا .

أما المعنى المذهبي فيتردد كثيرا على لسان الوجوديين[1610] وهو عندهم يختلف ظاهرا عنه عند أصحاب المعنى التاريخي، لأنه لا يعتمد على تجربة روحية تاريخية، بل على مذهب قائم برأسه في فهم الوجود على أساس أن مركز المنظور فيه هو "الإنسان" وأن الوجود الحق والوحيد هو الوجود الإنساني حتى صارت شارته هي : من الإنسان وإلى الإنسان وبالإنسان ؛ أو هو كل شيء للإنسان، ولا شيء ضد الإنسان، ولا شيء خارج الإنسان "[1611].

لا شك أن هذا النص وضعنا أمام صورة واضحة وهي أن النزعة الإنسانية في العلمانية الغربية لها مصدران : الأول يتمثل في التراث اليوناني، والثاني يتمثل في الفكر الوجودي، ومن ثم إذا أردنا الحكم على النزعة الإنسانية يمكن الرجوع إلى هذين المرجعين والبحث في رؤيتهما الفلسفية للإنسان ذاته . وبالضرورة نجد أنفسنا أمام تساؤل غاية في الأهمية والذي يلخّص لنا مضمون النزعة الإنسانية وهو: ما هي الدلالات التي يوحي بها القول بالنزعة الإنسانية ؟

والجواب عن هذا التساؤل يدفعنا لقراءة النصوص السابقة التي تعطينا صورة واضحة لما يعنيه أساس "الذاتية أو النزعة الإنسانية "اعتمادا على ما يقوله العلمانيون أنفسهم . فالإنسان يعتبر المرجع النهائي لكل أشكال المعرفة، والمواقف والقرارات : فالدين والأخلاق، والدولة، والتاريخ، والحياة، والفن والأدب، والحق، والقانون وحتى الطبيعة والكون كلها يجب أن تمر عبر الإنسان وحريته، ووعيه، وجهده، ويمكن تلخيص دلالات النزعة الإنسانية فيما يلي :

-لا سلطة فوق الذات .

[1609]-جوزيه سيتا : التربية في النزعة الإنسانية بإيطاليا فينتسيا سنة 1928

[1610]-راجع خصوصا :جان بول سارتر :"الوجودية نزعة إنسانية، باريس سنة 1946

[1611]-عبد الرحمن بدوي : الإنسان والوجودية في الفكر العربي دار القلم بيروت ص 16/15

-لا سعادة إلا من خلال الذات.

-لا قيمة أخلاقية إلا من خلال تحقيق الذات.

-لا حقيقة إلا من خلال معرفة الذات .

وهكذا يتحوّل الإنسان من وجهة نظر الذاتية إلى المقدس الأوحد في الوجود، فلا شيء يعلو رأيه وحريته، وسلطته، وقراره، فهو صانع القرار، بل هو صانع الحقيقة، وهذا ما دعا نيتشه إلى مصطلح "موت الإله"، حيث نصّب الإنسان نفسه في محل الإله بلا منازع. وأضحى هو سيد الموقف، والحقيقة تأخذ شرعيتها من الإنسان نفسه، وهذا يعني أن الإنسان مستغني عن أي تدخل خارجي أي لا اعتراف بالدين أو بغيره من الماورائيات.

وقد انعكست هذه الرؤيا في مجال المعرفة، والأخلاق، والدين، والفلسفة، والتاريخ، والطبيعة والقانون، والمجتمع، وهذا ما جعل نيتشه يصرح بأن :"جميع الظواهر عبارة عن تأويلات، ولا توجد هناك على الإطلاق أية ظاهرة في حد ذاتها "[1612] .

فالإنسان وحده وبتأويله الخاص، هو الذي يحدد مضمون الفكرة، فليست الحقيقة هي الفكرة المطابقة للواقع كما كان سائدا في المفهوم الفلسفي التقليدي للحقيقة، إنما الحقيقة والفكرة الصحيحة هي الفكرة التي تمر عبر محك الإنسان، وهو الذي يحدد صدقها من كذبها، فليس ثمة إلا ما يظهر لنا وعبر حواسنا، وليس ثمة إلا ما نفسره نحن، بحسب قدرتنا الإدراكية، أما الواقع الوجودي فليس لنا معه أية صلة، وبعبارة أخرى ليس هناك وجود، إنما تفسيراتنا وقراءاتنا للوجود، أو ما يظهر على عدسات ذواتنا لا غير[1613]، ويتجلى هذا المفهوم بوضوح عند "شوبنهاور " وهو يفسر العلاقة العضوية المشروطة بين الذات والموضوع فيقول :" كل هذا العالم لا يكون موضوعا إلا

[1612]- نقلا عن عبد الرزاق الدوّاي :موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر دار الطليعة للطباعة والنشر ط 2000 ص35

[1613]- ينظر صدر الدين القُبانجي : الأسس الفلسفية للحداثة : رسالة جامعية ص 50

بالنسبة إلى ذات، ولا إدراكا إلا بالنسبة إلى مدرك، أي بالاختصار لابد أن يكون تمثلا، فكل شيء ينتمي، أو يمكن أن ينتمي إلى العالم يرتبط حتما بهذا الشرط، شرط التوقف على الذات، ولا يوجد إلا من أجل الذات، فالعالم تمثُّل"[1614].

وفي نفس السياق يتحدث "برجسون "الذي ينفي الحقيقة عن أي ظاهرة إلا من خلال ما يحدده الإنسان، ويجد له تفسيرا مناسبا له، وإلا فلا معنى له، فالحقائق المقبولة قيمتها لا في وجودها في الواقع، ولكن قيمتها في تفسيرها، والاستفادة منها فيقول:"الحقيقة اختراع جيد لشيء سبق وجوده ...ونحن نخترع الحقائق لنستفيد من الوجود كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم قوى الطبيعة ..فمثلا دوران الأرض لا يستند على تجربة بمعنى الكلمة، ولكنه فرض مفيد في تفسير الظواهر، وهو أكثر فائدة من فرض دوران الشمس، فالحقائق المقبولة هي على كل حال بطاقات لا تدل على شيء في الواقع، وإنما تنحصر قيمتها في إنتاجها "[1615] بل إن "وليم جيمس" يطبق نفس المنطق على الفكرة الدينية،إذ يجعل المقياس في تقييم الأفكار الدينية ليس هو الحجة والبرهان،وإنما هو المكاسب التي يمكن أن تحرز من وراء الاعتقاد بها، والانعكاسات التي تتأثر بها حياته من حيث ما تولده من طمأنينة في النفس أو أمل في المستقبل السعيد فيقول :" وفي ميدان التجربة الدينية يكون الاعتقاد حقا، إذا نجح روحيا، أعني إذا حقق للنفس الطمأنينة والسلوك،وأعاننا على تجارب الحياة وسما بنا فوق أنفسنا "[1616]، وبهذا المفهوم يمكن أن يكون للفكرة الدينية وضدها نفس الحظ من القبول ما دام كلاهما يحقق للإنسان فوائد على الأرض، وهذه هي نظرية (الهرمنيوطقيا) أو تعدد القراءات للواقع .

[1614]–فؤاد زكريا :آفاق الفلسفة دار التنوير للطباعة والنشر بيروت لبنان ط1 سنة 1988ص 203/202 نقلا عن " العالم إرادة وتمثلا "لشوبنهاور .

[1615]–يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص 418 /419

[1616]– عبد الرحمن بدوي : مدخل جديد إلى الفلسفة ص 144 نقلا عن الأسس الفلسفية للحداثة ص50

وهذا المنطق في فهم الحقيقة يطبق في مجال القيم والأخلاق، ففي ضوء "مبدأ الذاتية "يصبح الإنسان هو صانع القيم الأخلاقية وواضعها وهو من يعطيها القيمة والاعتبار، فهو الذي يؤسس القيم بناء على ما تحقق له من منافع، ومن ثم تمّ عزل الدين عن وضع القيم، فهي مسؤولية الإنسان وليست مسؤولية الله[1617].

وبهذا يظهر جليا أن العلمنة الشاملة للإنسان من أهم عناصر العلمنة ونقطة البدء الحقيقية في العلمانية الشاملة، فتعني تأكيد مركزيته المطلقة في الكون، وأنه مقياس كل شيء و مرجعية ذاته ومتمركز حولها. لكن الإنسان في نفس الوقت مجرد جزء من النظام الطبيعي المادي الذي لا يمكن تجاوزه،ولذا تنطبق عليه قوانين الطبيعة، وتسري عليه قوانين الواحدية المادية.

إنالنظرة العلمانية الشاملة التي تسلطت على أفكار فلاسفة الغرب الماديين قادتهم إلى اعتبار الإنسان مادة مجردة من الروح وآفاقها، وسلكته في سلك الحيوان. وأبطلت تميّزه واختصاصه، وألغت تفرده بين عناصر الكون، ونظمته في نظام الحيوانية الهابطة، فهو في نظرهم مخلوق ذو طبيعة واحدة تتحدد بحدود الجسد والغرائز. جسمه هو مصدر طاقته وغرائزه هي الموجه له وتصرفاته الغريزية هي عالمه الأوحد . وفي ذلك إلغاء صريح لإنسانية الإنسان، وجحد للحقيقة الروحية والرغبات والأشواق والآفاق والسلوكات المنبثقة عنها، وهي ليست ذات طبيعة مادية. ومن ثم تمت مصادرة كاملة لكل القيم العليا في الإنسان : قيم الحق، والعدل، والجمال، والحرية، والإخاء، والحب، وتحويلها إلى مجرد وسائل أو حيّل يحتال بها الإنسان لتحقيق مراداته الغرائزية .وبناء على هذه النظرة أقامت أوروبا بعلمانيتها الشاملة سياستها واقتصادها وحياتها الاجتماعية والنفسية بمعزل عن القيم الروحية وبمعزل عن الأخلاق وبمعزل عن الدين كله جملة وتفصيلا[1618].

[1617]– ينظر صدر الدين القُبانجي : الأسس الفلسفية للحداثة : رسالة جامعية ص 53

[1618]– ينظر سعيد بن ناصرالغامدي :الانحراف العقدي في أدب الحداثة ص1959

ومن أجل ذلك أيضا جاءت نظرية ماركس التي تفسر تاريخ الإنسان بأنه تاريخ البحث عن الطعام واللهاث خلف الظواهر الاقتصادية، وحصر إنسانية الإنسان في التأليه الأعمى للمادة . فكان البحث عن الطعام والشراب هو منبع كل عقيدة وتصوّر، وأساس كل سلوك وقيمة وخلق. على أنه لا يجب أن ننسى أن الإطار الفلسفي لهذه النظرية مأخوذ من نظرية داروين، كما لا يصح أن نغفل أن هناك مصدرا مهما لنظرية التفسير المادي الماركسي[1619] يتمثل في التراث اليهودي التلمودي والنفسية اليهودية المشهورة بعبادتها للمال وحقدها على البشرية وقيمها وتراثها ومقدساتها.

ولا شك أن الفكر العلماني بلغ هذا الحد من المادية بعد عقود من الترويض مستخدما في ذلك عملية"الترشيد في الإطار المادي "[1620]أي :" إعادة صياغة الواقع المادي والإنساني في إطار نموذج الطبيعة المادة، أو المبدأ الواحد الكامن في المادة بالشكل الذي يحدّد التقدم المادي وحسب، مع استبعاد كل الاعتبارات الدينية والأخلاقية والإنسانية ... حتى يتحوّل الواقع إلى مادة استعمالية، ويتحول الإنسان إلى كائن وظيفي أحادي البعد ومن ثم يمكن "حوسلة "[1621] كل من الواقع المادي والإنساني بكفاءة عالية "[1622]. ويشير المسيري إلى أن الإنسان بهذا المفهوم يتفرع عنه أنماط إنسانية في واقع الحركة الإنسانية، قد تختلف عن بعضها في الدوافع والأهداف لكنها واحدة في بنيتها وفي أحاديتها .

وهذا يعني تشييء الإنسان والتعامل معه على أنه ظاهرة طبيعية وليس ظاهرة تاريخية حضارية متميزة، بحيث يفصل عن أي فضاء غير فضاء الطبيعة وماديتها ويحصر في وظائفه البيولوجية(الهضم

[1619]– ماركس من حيث الانتماء الديني يعتبر يهوديا .

[1620]– من معاني الترشيد في إطار العلمانية الشاملة أ–أنه يسوّغ، ويعني يفسّر المرء سلوكه بأسباب معقولة، أو مقبولة ولكنها غير صحيحة ب– يوظف الوسائل بأكثر الطرق كفاءة لخدمة أهداف معينة ج– أنه يستعيض عن التفسير الغيبي لشيء ما بتفسير طبيعي مطابق للمبادئ العقلية ولقوانين الطبيعة المادة د– يجعل الشيء مطابقا للمبادئ العقلية والمادية. عبد الوهاب المسيري الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ دار الشروق ط3 سنة 2001 ص246.والعلمانية الجزئية والشاملة ج2 ص463.

[1621]– حوسلة : الحوسلة منحوتة من عبارة "التحويل إلى وسيلة " والعلمنة الشاملة والترشيد المادي يرميان إلى تحويل الطبيعة والإنسان إلى وسيلة أي حوسلتهما . ينظر العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ج2 ص 463

[1622] –عبد الوهاب المسيري : العلماني الجزئية والشاملة ج2ص 263

—التناسل —اللذة الجنسية) ودوافعه الغريزية المادية (الرغبة في البقاء المادي —القوة —الرغبة في الثروة) ومن ثم فهو يعيش حسب قوانين الطبيعة المادة، ويسري عليه ما يسري عليها من قوانين ملتحما عضويا بها، ويتحرك مع حركة المادة. وبهذا يختفي الحيز الإنسانيفي شخصيته وتزول الثنائيات والثوابت والمطلقات والكليات، وتصبح مرجعيته ذاته أي: الطبيعية المادية، فليس له القدرة على التجاوز، فمعياريته مستمدة من الطبيعة المادة، وقيّمه متحررة تماما من أوهام الإنسان عن نفسه وعن مركزيته، فهو لا يعدو أن يكون شيئا من الأشياء الطبيعية (أحادي البعد) متجرد من الإنساني والتاريخي[1623] .

وبتعبير آخر أنه لا يوجد قانون للطبيعةوحركة المادة وأخر للإنسان وحركة التاريخ، ولا توجد قوانين للجسد والدوافع الغريزية، وأخرى للنفس والتطلعات المثالية. فالإنسان في حقيقتهما هو إلا كائن طبيعي مادي،والمرجعية النهائية لهذا الكائن مرجعية مادية كامنة في المادة، فهو نتاج البيئة، والعوامل الوراثية والقوى التاريخية [1624] .ومن ثم يصنف الإنسان في الرؤية العلمانية على هذا الأساس فنجد :

أ-**الإنسان الاقتصادي** : وهو الإنسان الذي يتحدث عنه "ماركس " بالتحديد والذي تتلخّص كل دوافعه في الحصول على الأكل والشراب "وهو إنسان متحرر تماما من القيمة، أحادي البعد دوافعه الأساسية اقتصادية بسيطة، ما يحركه هو القوانين الاقتصادية وحتمياتها، إنسان لا ينتمي إلى حضارة بعينها، بل ينتمي إلى عالم الاقتصاد العام وهو لا يعرف الخصوصية ولا الكرامة ولا الأهداف العامة التي تتجاوز الحركة الاقتصادية، وهو يجيد نشاطا واحدا هو البيع والشراء ومراكمة الأموال وإنفاقها"[1625].

ويتبدى نموذج العلمنة بشكل واضح في المجال الاقتصادي —ولعله أول مجال تمت علمنته في الغرب في نهاية العصور الوسطى، وقبل فصل الدين عن الدولة — إذ تحرر النشاط الاقتصادي من أية أعباء

[1623]-ينظر عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة مجلد 2 ص461/ 460

[1624]-ينظر المرجع نفسه ص 121/120

[1625]-عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية والشاملة مجلد 2 ص461

أخلاقية،ومن أية مرجعية أو غائية إنسانية أو دينية بحيث يتضمن داخله كل ما يكفي لتفسيره من المعايير والغايات. فهو مرجعية ذاته، وتطغى عند ذلك جيوب اقتصادية مستقلة الهدف ومقتصرة على الإنتاج والربح وحسب .ويتحوّل الإنسان من كونه غاية ومرجعية تتحرك داخل حيزها الإنساني ليصبح مجرد آلة يتحرك داخل حيز الاقتصاد.

ب–الإنسان الجسماني :وهو الإنسان الذي يتحدث عنه "فرويد" ويجعل كل حركة وانفعال سببه الغريزة "الذي يشبه الإنسان الاقتصادي تماما في بنيته، فهو أيضا أحادي البعد، خاضع للحتميات الغريزية، متجرد من القيمة، لا يتجاوز قوانين الحركة "[1626].

ج–الإنسان السوبرمان (الإنسان الأعلى)**والسبمان** (الإنسان الأدنى):وهذا التقسيم مهم أيضا لاعتبارات أهمها تكريس تفوّق الرجل الأبيض وبيان أحقيته في السيطرة، فهو يجسّد نظرية "نتشه" و"داروين "حيث يكون البقاء للأقوى والأصلح جراء عملية الانتقاء .

أ- **فالسوبرمان** :هو الإنسان الأعلى الإمبريالي الذي يجسد الطبيعة /المادة. ويولِّد معياريته من ذاته لا يؤمن بأية قيمة خارج عنها، لا يؤمن إلا بفلسفة القوة كقيمة واحدة مطلقة، وهو إنسان امبريالي يرى من حقه أن يوظف الآخرين لحسابه ولتحقيق مصالحه باعتباره الأقوى المنتصر "[1627].

ب–**السبمان** :وهو الذي يذعن للطبيعة /المادة وقد عبّر هذا الإنسان المتكيّف عن نفسه في عدة أشكال:الإنسان البراجماتي–الإنسان المدجّن –الإنسان المرشد –الإنسان المتشيئ .

ومن أهم ثمار عمليات الترشيد والتطبيع والحوسلة والتشيئ والتنميط هو ظهور الإنسان ذي البعد الواحد. ويرجع عبد الوهاب المسيري هذه العبارة إلى كتابات هربرت ماركوز[1628] في كتابه "الإنسان

[1626]–المرجع نفسه

[1627]– المرجع نفسه

[1628]–ماركوز :هو هربرت مرقس أو ماركوز فيلسوف يهودي معاصر ألماني المولد أمريكي النشأة عاش بين سنة (1898 إلى 1979م) استخدم طريقة نقد الفكر الحديث في علاقته بالمجتمع الحديث، فكان من أشد نقاده،له كتاب في فلسفة النقد وكتاب الحب والحضارة، كما أصدر كتابا تحت عنوان "الإنسان ذو النظرة الواحدة "أو" ذو البعد الواحد" دعا فيه إلى قيام جمهورية القلة

البسيط غير المركب"، والإنسان ذو البعد الواحد نتاج المجتمع الحديث الذي تتلخص حاجاته في تحقيق معدلات متزايدة من الرفاهية والاستهلاك القائمة على التقدم العلمي والصناعي والمادي، حيث تظهر فيه المؤسسات الضخمة التي تغزو الفرد وتحتويه وترشده وتشيئه وتوظفه لتحقيق الأهداف التي حددتها [1629].

وبهذا تكون العلمانية الشاملة قد حررت الإنسان من المعايير المطلقة للمجتمع التقليدي، وتمت تنقيته من كل المبادئ باستثناء مبدأ السعادة و"إمتاع الذات"، وتم تفريغه من كل المقاصد والقيم إلا مقصد "البقاء" وحفظ النفس، وأصبحت المقدرة الأساسية عنده هي القدرة على التكيف مع القوى الاجتماعية المهيمنة وأداء الوظيفة الموكلة إليه، بحيث أصبحت أحلامه تتركز على السلع، ويرى ذاته باعتباره منتجا ومستهلكا وحسب.أي: أنه يرى تحقّق ذاته يكمن في حصوله على السّلع التي تشبع رغباته داخل مجال السّلع، حتى يصبح أحادي البعد تماما (متسلعاومتشيئا،مرتبطا تماما بسوق السلع حدوده لا تتجاوز عالم السوق والسلع [1630].

ومما يجدر التذكير به هنا أن الأساس الإنساني يعد ركيزة هامة في التفكير العلماني، وله امتدادات في الفلسفة الغربية، فلم يتوقف عند رواده مثل "نيتشه" و"هايدجر" بل أصبح منهجا في التفكير الغربي عموما، وشملت تأثيراته وانعكست على كل مناحي الحياة .

❖ مناقشة النزعة الإنسانية :

لا يستطيع أحد أن ينكر ما حققه مبدأ "النزعة الإنسانية " من عطاءات كبرى للحياة الإنسانية،بل إنه من الإنصاف القول أن ما شهدته البشرية منذ القرن السادس عشر وما بعده كان بفعل إلهامات هذا المبدإ، ما جعله يؤمن بالإرادة الإنسانية فانطلق الإنسان يبذل الجهود لاكتشاف الكونوما فيه

واستند في تأليف فلسفته إلى نظريتين هما: نظرية فرويد، ونظرية ماركس .ينظر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني كواشف زيوف ص397/396/395

[1629]-ينظر عبد الوهاب المسيري :العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة المجلد1 ص 145.

[1630]- ينظر المرجع نفسه.

من أسرار في كل العوالم، تقوده الثقة الكبيرة بخطواته العلمية، ومتحررا من القيود والأغلال التي فرضها واقع الحياة الأوروبية في عهود الظلام .

فالتنويه ببعض الجوانب الإيجابية للنزعة الإنسانية —بغض النظر عن جذورها الفلسفية – من العدل الذي يجب أن يقال، إذ حررت الإرادة الإنسانية ومن المكابرة إنكار ذلك، ولاسيما أن هذه النزعة ظهرت في ظروف كان الإنسان مسحوق الحقوق في أوروبا. فيكفي أنها نبهت أن هذا الكائن له اعتبار في الحياة الإنسانية بغض النظرعن التصورات الأخرى التي حاولت أن ترد له الاعتبار بها .

كما يلفت نظرنا أن الاهتمام بالإنسان لم ينطلق من فراغ. وإنما بالرجوع إلى التراث اليوناني فهو الذي حدد خط سير هذه النزعة باعتباره مرجعية لها.ولا يشك أحد في صحة بعض المنطلقات في هذا الأساس وقدرة تفاعلها مع الوجدان الإنساني مما ساعد على السرعة الهائلة التي صاحبت حركة الإنسان وهو يتحكم في قوانين الطبيعة .

لكن هذا التنويه ببعض إيجابيات الاهتمام بالإنسان وتدليل كل شيء أمامه، لا يعني أبدا التسليم بصحة التصورات التي يقوم عليها هذا الأساس،فالخلل واضح في بنائه الفكري وفي آثاره في الحياة الإنسانية في مختلف جوانبها، حيث خابت الآمال التي علقت على هذا المبدإ، حتى بدأنا نشهد تيارا فلسفيا منذ مطلع القرن التاسع عشر يدعو للتغرب عن الذات وتحطيم هذا الصنم الموهوم، وسيطرتعلى الساحة العلمية والفلسفية مقولة جديدة هي الإعلان عن "موت الإنسان"، بدلا من "أصالة الإنسان " ثم هيمنت مقولة "موت الإله". ويمكن رصد الخلل في هذا الأساس فيما يلي :

أول ما يمكن ملاحظته أن الفلسفة الغربية عموما تتسم بالتطرف في الانتقال من فكرة إلى أخرى، وافتقادها للتوازن في تبني الأفكار. فكان الإنسان مسحوق الحقوق تماما في مرحلة، ثم أعطيت له من الحقوق مالا يستحقها في مرحلة أخرى. فالانتقاد الذي يمكن أن يوجّه ابتداء لهذا الأساس هو الإفراط في تقدير الإنسان.فقد ظلت النظريات الفلسفية تتلاعب بمضامين الإنسانية وتغيرها مع كل أفكار جديدة.

أما منظومة التوحيد فتتميز بوصفها رؤيةلتفسير العالم، بحيث تعطي نظرة شاملة على الواقع والحقيقة والزمان والمكان والتاريخ البشري، والإنسان بوصفه صاحب الفعل الأخلاقي، وهدف الفعل الأخلاقي، كان من الواجب أن تكون طبيعة الكائن الإنساني معلومة البنية والهدف، وعلى أساسها تتحدد كل العلاقات، ويتجسد النسق الإنساني، وتتحقق أهدافه بمراعاة ما يحيط به من معطيات.

ففهم هذه الطبيعة هو الذي يحدد مكانة الإنسان، وهل فعلا لا سلطة فوق الذات، ولا سعادة إلا من خلال الذات، ولا قيمة أخلاقية إلا من خلال تحقيق الذات،ولا حقيقة إلا من خلال معرفة الذات؟ فالإنسان في نظر عقيدة التوحيد مخلوق مميّز جدير بالتكريم والرّفعةوذو مكانة خاصة في هذا الوجود ذلك أنه "المخلوق الوحيد في الكرة الأرضية الذي سمَا بعقله وروحه إلى ما يشبه المعجزات ويكفي أن يكون هو الذي حطم الذرة وعرف أسرارها وبدأ يطلق طاقتها "[1631]

فالإنسان يظل محتفظا بهذه المنزلة من التكريم مادام منسجما مع وظيفته الأخلاقية المحددة من قبل الخالق. وهنا يبدأ الاختلاف بين الرؤية الإسلامية والرؤية العلمانية لإنسانية الإنسان. فإنسانية الإنسان في الرؤية العلمانية مستمدة من ذاته، وهذا أدى إلى الرفع من قيمة الإنسان إلى حد تأليهه، كما نجد ذلك في المذهب الطبيعي المستمد من مذهب الإغريق في الإنسانية " لذلك لم يكن الإغريقي يشعر بالامتعاض عند تصوير آلهته في حالة خداع أو تآمر على بعضهم، أو تعاطي العهر أو الفحش أو السرقة أو الاعتداء أو الغيرة أو الانتقام، أو غير ذلك من الأفعال الوحشية .وإذ كانت هذه الأفعال تُعد من جنس مادة الحياة البشرية، فقد كان ينظر إليها على أنها طبيعية،مثل الفضائل وصفات الكمال. وكلاهما كما هو حال الطبيعة، يُعد من الصفات الإلهية التي تستحق التأمل في شكلها الجمالي، كما تستحق العبادة والمحاكاة من جانب الإنسان،لأن الآلهة هي صورة الإنسان الإلهية ." [1632]

[1631]–محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام ص 25

[1632]– إسماعيل راجي الفاروقي: أطلس الحضارة الإسلامية ص141/ 142

ولا يخفى أن المسيحية في طور التكوين عارضت الرؤية الإغريقية الرومية إذ وقفت على النقيض الأقصى منها فنزلت بقدر الإنسان من خلال الخطيئة الأصلية وأعلنته مخلوقا هابطا أو كتلة خاطئة أي النزول بالإنسان إلى مستوى من الخطيئة المطلقة الشاملة الفطرية الحتمية التي لا يقوى على انتشال نفسه منها أي بشر بجهده الخاص. فجاءت فكرة الخلاص التي انتشل فيها الإله هذا الإنسان من الخطيئة التي تستحق أن يصلب الإله لأجلها.

وهنا لا يفوتنا تسجيل ملاحظة مهمة، وهي أن الفكر الغربي ظل يتقلب بين أنواع من التطرف في غياب التوجيه الصحيح، وهو ما آل إليه التفكير العلماني الذي جاء ليعدل الميزان، غير أنه تطرف وانحرف – في غياب المعيار السليم – فرفع الإنسانية إلى ذلك التقديس، كرد فعل على النظرة الكنسية التي انحطت بالإنسان وقهرته . فلما جاءت العلمانية لترد له الاعتبار، اعتلت به إلى منصة الإله أو شبه إله، ولذلك ظل الاضطراب متواصلا في تحديد مفهوم الإنسانية بين المدارس الفلسفية المختلفة. وهذا الإفراط يرجع بالأساس إلى :

1-الخلل في تصور طبيعة الإنسان وأنه مخلوق ثنائي التركيب روح ومادة .

2- فساد في مصدر هذه التصورات الفلسفة الإغريقية .

3 – بناء التصورات حول الإنسان في لحظة رد فعل لم تكن متوازنة .

بينما في الإسلام تستمد قيمة الإنسان من مدى انسجامه مع الأمانة التي حمّله الله إياها، يقول إسماعيل راجي الفاروقي :" يؤكد الإسلام أن التكليف هو أساس إنسانية الإنسان ومعناها ومحتواها . وقبول الإنسان بتحمل هذا العبء يرفعه فوق مستوى بقية المخلوقات، بل فوق مستوى الملائكة، فليس غير الإنسان قادر على تحمّل المسؤولية، فهي تمثل مغزاه الكوني . وثمة بون شاسع بين إنسانية الإسلام هذه، وبين غيرها من الإنسانيات "[1633] .

[1633]- إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة الإسلامية ص 141

فمنظومة التوحيد وحدها هي التي حددت مفهوما سليما لإنسانية الإنسان، ومن ثم نتج عن المفهوم السليم حسن التعامل مع كيانه كما ينبه على ذلك إسماعيل راجي الفاروقي حيث يقول : "فهي تحترم الإنسان بوصفه إنسانا، ومخلوقا دون تأليه أو تحقير، وهي وحدها تحدد قيمة الإنسان بما يزينه من فضائل ...وهي وحدها تحدد الفضائل والمثل العليا في الحياة البشرية، في إطار محتويات الحياة الطبيعية نفسها بدلا من أن تنكرها، وبهذا تغدو إنسانية التوحيد أخلاقية إضافة إلى صفتها في توكيد الحياة "[1634].

6 . الأساس السادس : النفعية

ظهر الاتجاه النفعي في الفلسفة الغربية المعاصرة في القرن الثامن عشر الميلادي، وهو امتداد للحضارة الغربية في عمومها، ولكنه بلغ أوجّه ودخل في كل المجالات وهيمن على التفكير العلمي في القرن العشرين على يد "وليم جيمس" و "جون ديوي" وإن كان منشؤه معزوا إلى "جيرمي بنتهام" ثم "بيرس" وخلفه "تشيلر"[1635] حيث سيطر التصور العلماني على الحياة الغربية، و" هو مذهب فلسفي يقرر أن الفعل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل الناجح، فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة،أي :الفكرة التي تحققها التجربة، فكل ما يتحقق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية" [1636].

ويعد مذهب المنفعة مرحلة من مراحل الاتجاه التجريبي الحسي، فهو يعتمد على الواقع المادي ويركن إلى التجربة في تفسير القضايا وتقرير صدقها، فهولا يؤمن بشيء إلا إذا نتج عن فعله منفعة وفائدة يؤكدها الواقع العملي يقول بيرس :" إنه لكي تتضح دلالة الفكرة فإننا نحتاج إلى تحديد السلوك

[1634]- المرجع نفسه ص 143/142

[1635]-تشيلر فرديناند : فيلسوف ألماني عاش بين (1864-1937) صاحب المذهب الإنساني عرضه في كتابه "دراسات في المذهب الإنساني " (1907)هذا المذهب هو البراجماتزم وجاء اسمه من ان المعرفة هي الشرط الأول للعمل المنتج وأنها أمر إنساني تابع لأغراضنا الحيوية ينظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص 430

2-جميل صليبا : المعجم الفلسفي 203/1

الملائم للواقع، وللحصول على الوضوح التام في أفكارنا عن موضوع، فإننا لا نحتاج إلا إلى الاهتمام بالآثار العملية التي يتضمنها أي موضوع نتصوره"[1637].

وبناء على هذا فإن كل فكرة لا تنتهي إلى نتيجة عملية ملموسة من خلال التجربة على أرض الواقع تكون باطلة، فالنجاح العملي هو معيار أو محك صدق الأفكار، أما الحق لذاته والباطل لذاته بصرف النظر عما يترتب عنهما من وجوه النفع والضرر فحديث خرافة، وبهذا يكون المذهب النفعي الذي يعد أساسا للفكرة العلمانية قد أقصى كل المبادئ والغايات والمثل العليا وحصر الحقيقة في النتائج العملية المادية الآنية أي القيمة الفورية للفكر .

ومن هنا فاللذة والسعادة والمنفعة هي الغاية القصوى المرغوب فيها عامة للفعل الإنساني التي تسعى إليها القيم في المجتمع الغربي. فكما أن قيمة العمل تقاس بعد ظهور نتيجته، فكذلك القيم تنشأ تجريبيا وتتطور بواسطة الإنسان،وليس مقياسها العقل أو الدين أو الوحي .

وبهذا فالمنفعة مبدأ جميع الأفكار سواء كان ذلك في مجال المعرفة أو في مجال القيم، فمبدأ الأخلاق هو إذن المنفعة، والمنفعة علاقة بين الذات والموضوع في رأي "بنتام " الذي وضع حسابا لمعرفة اللذات سمي بحساب اللذات،فكلما كانت اللذة أشد وأخصب وأصفى ومدتها أطول وعدد المشتركين فيها أكبر والحصول عليها أوكد وأقربكان تفضيلها على غيرها أنفع [1638].ويسعى مذهب المنفعة إذن إلى التوفيق بين المنفعة الفردية، والمنفعة العامة، وإلى تحقيق السعادة التي هي اللذة الخالية من الألم والتي لا تنفصل عن المنفعة. ومن أبرز رواد هذا المذهب القدامى والمحدثين :

[1637]–تشارلز بيرس : أبحاث مجمعة، العدد الخامس ص420 ووليم جيمس :إرادة الاعتقاد، السفر الثاني النقل والدين ص 16 ترجمة محمد حب الله نقلا عن سامية عبد الرحمن القيم الأخلاقية ص 112

[1638]– ينظر جلال الدين سعيد معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 473

-أبيقور الذي يقول :"إننا نتنازل أحيانا عن لذات كثيرة نظرا لما تخلفه من إزعاج، كما أننا نفضل عليها آلاما شديدة إذا كانت هذه الآلام تسمح بعد مكابدتها طويلا بالفوز بلذة أعظم، وعلى هذا الأساس فإن كل لذة في ذاتها خير،إلا أنه لا ينبغي أن نبحث عن كل اللذات ..."

-أما غييو فيشيد بأستاذه أبيقور ولكنه يدعو لهندسة الفكر البشري بما يتوافق مع المنفعة :"إن أبيقور هو المؤسس الحقيقي للأخلاق النفعية ... و يجوز أن نعتبر مذهبه محاولة ... من أجل تنظيم الفكر البشري وفقا للمنفعة ...".

-أما سبينوزا فيرى أن الفرق بين الرجل الفاضل والعاجز يتمثل في السعي للحصول على المنفعة المادية التي تحفظ كيانه فيقول :"كلما سعى المرء للبحث عما ينفعه، أي إلى حفظ كيانه، وكلما كان قادرا على ذلك كان إنسانا فاضلا ؛ وعلى العكس فإنه بقدر إغفاله المحافظة على ما ينفعه أي على كيانه كان عاجزا".

- لكن ستيوارت ميل فيجعل معيار الأعمال من حيث الحسن والقبح بناء على ما تحققه من منافع: "يقرر المذهب الذي يؤسس الأخلاق على المنفعة أو على مبدأ السعادة الشاملة أن الأعمال تكون طيبة بقدر ما تساعد على الزيادة في السعادة وقبيحة بقدر ما تسهم في إنتاج عكس ذلك".

-في حين أن برودون يرى أن العدل قيمة مادام يحقق منفعة فيقول :" إننا نسمي مذهبا نفعيا المذهب الذي يرد مفهوم العدل إلى مفهوم المنفعة، والذي يجعل بالتالي من الفائدة مبدأ الحق والأخلاق " [1639]

هذه مجموعة من أقوال رواد الفلسفة في الغرب توضح مبدأ المنفعة الذي يقوم عليه الفكر العلماني في تصوره للحياة، والذي يتطلب الرد عليه، باعتباره أساسا دمر العلاقات الإنسانية، وكان من وراء أكبر مآسيها .

[1639]- جلال الدين سعيد معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 474

❖ **مناقشة أساس النفعية**

إذا كانت العلمانية بمنطقها البراجماتي ركزت على الجوانب الغريزية للإنسان، واجتهدت في البحث عن طرق توفير الحاجيات وإشباعها، مما دفع الإنسان لاستفزاز قدراته، فاستطاع أن يوفر ما يحتاج إلى حد التخمة، فإن هذا الجنوح إلى الجانب المادي في الكيان الإنساني جعل التفكير العلماني يُفقد الحياة خصيصة التوازن التي تجعل منه كائنا مكرما .وبهذا تكون العلمانية قد انحرفت بمنطقها النفعي وأدخلت الإنسان في أزمة أخلاقية، إذ حولته إلى مخلوق شرس، يشعل الحروب ويدمر الحضارة لأجل إشباع الغرائز . فالحضارة الغربية ربطت تفكير الإنسان بالمنافع إلى درجة أنها صنعت منه طفلا رضيعا يطالب باستمرار برضاعته الزجاجية .

بينما نجد أن منظومة التوحيد تتجه بالإنسان اتجاها أخلاقيا، يلبي الحاجات الإنسانية، ويحقق مصلحته الحقيقية، ولكن برؤيا متميزة، إذ لا يمكن تحديد الحاجات إلا بعد معرفة طبيعة الإنسان ومهمته في الأرض، هل لمجرد المتعة وتوفير اللذة وتحقيق المنافع المادية، أم أن المنفعة، واللذة وسائر المتع، هي وسائل لتحقيق غايات أنبل .

لذلك ينطلق التصور الإسلامي في تأكيد قضية مهمة، وهي أن الله خلق الجنس البشري ليثبت الناس أخلاقيتهم من خلال أعمالهم، وأن نتائج سعيهم في الدنيا يحاسبون عليها في الآخرة بالثواب، أو العقاب.ومن ثم يضيف التوحيد أن الله أنشأ الإنسان في الأرض ليعمرها أي: ليسير في أرجائها، ويأكل من ثمراتها، ويتمتع بخيرها وجمالها، فتزدهر الأرض ويكون هو من المفلحين، وفي هذا إبراز لأهمية الوجود الإنساني في الزمان والمكان في هذا العالم، فكل شيء مسخر له ليؤدي فعله الأخلاقي، وبذلك يحقق الجزء الأعلى من إرادة الله، من غير أن يحرم نفسه من تلبية حاجاته وإشباع غرائزه المسؤول عنها،

{قُلْمَنْحَرَّمَزِينَةَاللَّهِالَّتِيأَخْرَجَلِعِبَادِهِوَالْطَّيِّبَاتِمِنَالرِّزْقِقُلْهِيلِلَّذِينَآمَنُواْفِيالْحَيَاةِالدُّنْيَاخَالِصَةًيَوْمَالْقِيَامَةِكَذَلِكَنُفَصِّلُ لآيَاتِلِقَوْمٍيَعْلَمُونَ}[1640].

لا شك أن هذه الرؤية تدفع الإنسان إلى أن يطوِّر قدراته إلى أقصى درجة ممكنه فيستكشف العوالم المحيطة به، حتى يتمكن من الإفادة من جميع خيرات الطبيعة التي بفضلها يحقق البقاء، ويتخذها وسيلة للارتقاء، ومن ثم فهو يخلق العناصر التي تصنع منها الحضارة، و القوى الاجتماعية الضرورية لنموها وتطورها، ويرتقي في سلم الكمال كإنجاز أخلاقي تكون فيه كلمة الله هي العليا .وهنا تكون " الحاجة إلى مبدإ خارق يعلو على جميع الميول والرغبات في الطبيعة، وفي إطاره يمكن فهم جميع تناقضاتها واختلافاتها، هي مسألة يجب إدراكها"[1641] والحاجة إلى أهمية هذا المبدإ تكمن في كونه يوفر الحماية حتى لا يؤخذ الإنسان بجمال الطبيعة وزينتها، فتقوده إلى المأساة أو السطحية في تصور الحياة، ومن ثم تصرفه عن تنظيم سعيه وتحقيق التناسق بين جميع القيم .

والتوحيد بهذا يكون مناقضا للرهبنة والاعتزال والزهد وإنكار العالم المادي،وفي ذات الوقت فإن القبول يؤكد التوحيد أن سعي الإنسان يقوم على أساس ينبغي أن يفحص باستمرار حتى لا ينتقل إلى النقيض بالمبالغة في تحصيل القيم المادية على حساب عناصر أخرى كما حدث وما زال يحدث في الرؤية العلمانية للمنفعة، إذن أين تكمن منفعة الإنسان ومصلحته ؟.

إذا كانت العلمانية ترى أن مصلحة الإنسان في تحقيق كل رغباته، فإن الحضارة الغربية (محضن العلمانية) أخذت تولي اهتماما ب"المذهب الطبيعي"[1642] الذي حملها إلى التطرف في قبول الطبيعة

[1640] سورة الأعراف الآية : 32

[1641]– إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 144

[1642]– المذهب الطبيعي : المذهب الطبيعي في الفلسفة هو تفسير تطور المجتمع بقوانين الطبيعة مثل الأحوال المناخية والبيئية والجغرافية والاختلافات البيولوجية "وظائف الأعضاء "والاختلافات الجنسية بين الشعوب، ويقوم هذا المذهب على مركزية الإنسان في الكون وقام بدور كبير في القرنين السابع عشر والثامن عشر ضد النزعة الروحية، ويتفرع عنه المذهب الطبيعي الأخلاقي الذي من بين مبادئه أن مفهوم الخير يتحدد عن طريق من المفهوم الطبيعي مثل اللذة والتطور البيولوجي، ومن فروعه أيضا المذهب الطبيعي في دراسة الإنسان وهو مذهب مادي سبق الماركسية وأعد لها الأجواء ويعتبر الإنسان النتاج الأعلى للطبيعة ويؤكد وحدة الإنسان

دون أخلاق، أو منفعة دون قيم، حيث كان صراع الإنسان الغربي موجها إلى الكنيسة وجميع ما تمثله.

في حين أن التّصور الإسلامي للإنسان ووظيفته جعلت الضمانة الوحيدة لتحقيق مصلحة الإنسان هو إنتاج الحضارة المتوازنة التي تلبي الحاجات والغرائز، دون إغفال العناصر الأخرى للشخصية الإنسانية.والواقعأن الرؤية التي يقدمها التوحيد لا يتنافى محتواها مع الحياة والعالم والزمان والتاريخ والعقل، ومثل هذا التصوّر "المتوازن" لا يقدمه سوى التوحيد من بين المذاهب الفكرية المعروفة. ف "نتائج الإيمان بالله تكاد جميعا تعود إلى الصلابة في مواجهة إغراء المتع المادية في الحياة وزينتها وهي التي تصورها الآية الكريمة في قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءَ الْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ }[1643] .

فالآية جعلت مصدر الشهوات ثلاثة: المرأة، والولد، والمال بشتى أصنافه. والمفهوم من إغراء المتع المادية هو الوقوع تحت تأثيرها والتبعية لها وبعبارة أخرى إخضاع التفكير والاعتقاد والسلوك لها، أما الاستمتاع بها دون التبعية لها، فذلك أمر طبيعي لا يفوّت على الإنسان حريته في التفكير والاعتقاد والسلوك والارتقاء. قال تعالى:{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[1644] وهنا يفرّق الإسلام إذن بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا في الحدود التي لا تجعل العقل الإنساني الذي يعتبر –مصدر الإرادة– يخضع لسيطرة مصادر الشهوات من : النساء والبنين والأموال في صوّرها المتنوعة، ومن الإغراق فيها وعدم الإفاقة من إغرائها وفتنها[1645].

والطبيعة، ومضاد لمفهوم أن الإنسان جسد وروح .ينظر سعيد بن ناصر الغامدي :الانحراف العقدي في أدب الحداثة، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة المجلد الأول ط1 سنة 2003ص110

[1643]–سورة آل عمران الآية: 14

[1644]– سورة الأعراف الآية : 32

[1645]– محمد البهي : طبقية المجتمع الأوروبي ص 56/55

وبهذا يكون الإسلام دينا ملائما للطبيعة البشرية، لأنه لا يوصي بالحرمان من متع الحياة، ولا بالعزلة عنها، ولا يوصي بالرهبنة التي تجعل المادة أمرا غير مقبول، بل يطلب من المؤمنين عدم تحريم الطيبات، ومتع الحياة المادية، لأن تحريمها يكون خروجا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وإنما يأمر بعدم الإسراف فيها وجعلها غاية نهائية لوجود الإنسان قال تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ }[1646].

وبهذا يؤكد أن روحية الإسلام وأخلقيته ضرورة حتمية لاستقامة التفكير، والاعتقاد، والسلوك، لأن الأخذ بهذه الروحية يوفر للعقل الإنساني ظروف الصحة والسلامة، وهي الظروف التي تجعله يمارس سيادته، وحريته دون أن يحرم من متع بدنه، ودون أن يلزم بتكاليف لا قبل له بها .

وتقوم الروحية في الإسلام على الإيمان بالله أولا، ثم القيام بأداء العبادات الكبرى في الإسلام، التي يسهم كل منها بقسط في تحرير الذات الإنسانية وتدريبها على سلوك الطريق المستقيم حيث يسير العقل في أمان نحو غايته الكبرى التي حددها خالق الإنسان قال تعالى :{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ }[1647].

-ففي الصلاة يواجه الإنسان فيها ربه يناشده فيها أن يحول بينه وبين الإغراء بمتع الحياة الدنيا وأن يعينه للصمود في وجه كل ما من شأنه أن يصرفه عن الغايات النبيلة قال الله تعالى :{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }[1648].

-والصوم تجربة في سني حياة الإنسان يخرج منها المسلم بمعنى التفوق والقدرة على تجاوز الحاجة إلى هذه المتع في الوقت المحدد، وجعلها عديمة الأثر، إذا تعارضت تلبيتها مع تحقيق أهداف روحية وإنسانية أهم وأبعد عمقا في حياة الإنسان.

[1646]- سورة الأعراف الآية : 31

[1647]-سورة الانشقاق الآية :6

[1648]-سورة الفاتحة الآية :5

-وأداء الزكاة ما هو إلا انتصار على الأنانية، وبذل المال لتحقيق التضامن في المجتمع الإسلامي .

-والحج ليس إلا توجها جماعيا للمسلمين لا يفرق بينهم مظهر مادي من مظاهر التفرقة في أعراض الحياة الدنيا، بحيث صَفَت نفوسهم وأمكن لذواتهم أن تكون على قوة وإرادة تحول دون أن تقع تحت إغراء متع الحياة الدنيا، وفيه من البذل ما يسترخص المتع في سبيل تحقيق الغاية العظمى وهي إرضاء الله تعالى .

فالمتع المادية في الإسلام ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسائل لتحقيق البقاء، واستشعار نعم الله على الإنسان، وتقوية الجسم كي يقوى على أداء الطاعة والواجب المنوط به، بل إن المتع المادية في الإسلام لها غاية أخلاقية، بينما هي في التصور العلماني المادي هدف في ذاته يعيش العلماني ليأكل ويستمتع ولا غاية له بعد ذلك.

7- الأساس السابع : التطور.

تعتبر "نظرية التطور" نظرية قديمة ترجع جذورها التاريخية إلى الفلسفة اليونانية (أمبادوقليدس، وأرسطو ...) غير أنها لم تصبح "نظرية علمية" إلا في العصور الأخيرة عندما شرع العالم الطبيعي "لا مارك" (1809) في تعليل نشوء الأنواع الحية وتحولها المستمر بتأثير من البيئة والوراثة ...وذلك على خلاف الفرضية العلمية التي قدّمها داروين في كتابه عن أصل الأنواع (1859م) والتي تفسر تطور الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، بحيث يكون البقاء دوما للأفضل "[1649] وفي هذا المجال ننقل بعض الأقوال للاتجاه الذي يقول بالتطور بالمعنى العلماني :

-يقول برغسون:" يظهر لنا تطور الحياة منذ بدايتها حتى الإنسان على صورة تيار من الوعي يندمج في المادة باحثا فيها عن مسالك تحتية، محاولا التسرب يمينا ويسارا، مندفعا إلى الأمام اندفاعا قويا أو

[1649]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص112/111

ضعيفا ومنكسرا في غالب الأحيان على الصخر إلا أن هذا التيار ينجح في اتجاه ما على الأقلفي الاختراقوفي البروز إلى النور من جديد هذا الاتجاه هو خط التطورالذي يقود إلى ظهور الإنسان ".

– أما "فاندل" فيقول :" ما عسى أن يكون التطور في الأزمنة المقبلة ...فالإنسان ليس سوى مرحلة انتقالية من مراحل حركة التطور وصعود الفكر ".

–وأما جان رستان : "لنتخلى عن الفكرة الخلابة القائلة بلا نهاية التطور، فالإنسان سيبقى أعظم نجاح يكلّل الحياة ".

–ويضيف أرون غراسي :"لم يعد التطور مشكوكا فيه في نظر الطبيعيين المعاصرين، إلا أنهم لا يتفقون في تفسير التحولات التي يشهدها العالم الحي "[1650].

فالنظرة التي تقدمها نظرية النشوء والتطور أن جميع الأنواع تنحدر من نوع بدائي واحد، وأنها ارتقت إلى ما هي عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة، وفي ذلك يقول داروين موضحا نظريته في الباب التاسع من كتابه أصل الأنواع : " ومن الأمور الحتمية عندي أنه إذا أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيوانا مثل الزراف"[1651].

وبهذا تكون فكرة التطور من أهم الأسس التي يقوم عليها الفكر العلماني، إذ ارتفعت هذه النظرية إلى مستوى الحقيقة– بل والحقيقة الحتمية –في الثقافة الغربية المعاصرة. فبالعودة إلى الجذور التي انطلقت منها العلمانية نجد فكرة التطور تتصدر كل الأفكار. ومن ثم كانت أساسا هاما في الفكر العلماني في بداية عصر النهضة الأوروبية، وقد جاءت هذه الفكرة لتنسف مبدأ الثبات الذي رسخته الكنيسة زمنا طويلا. لذلك أصبحت العلمانية الشاملة ترتكز على هذا الأساس في شرحها لكل القضايا.

[1650]– جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 114/113

[1651]– وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ص 129 نقلا عن origion ofspecies ;p.169

فقد كانت الداروينية واحدة من الأحداث الكبرى في الثقافة الغربية الحديثة إذ غيّرت في الفكر والفلسفة، والدراسات الاجتماعية، والحياة العامة، تغييرا كبيرا وخطيرا. ولهذا لا تذكر الخطوط الكبرى للفكر العلماني إلا وتبرز الداروينية في المقدمة، حيث بدأ التطور عضويا عند داروين ثم أصبح التطور قانونا كونيا عاما لا يخرج عنه شيئ، ففي إطار تفسير التحولات الجارية أنكر فكرة الخلق، والقول بالعناية الإلهية، ومن ثم كانت مرتكزا للفكر العلماني المادي الذي تدعم بهذه النظرية لمحاربة الإيمان بالله والتوجه إلى الإلحاد والنظرة المادية للوجود .وما يتبع ذلك من اتصاف الوجود بالعبثية والخلو من الحكمة والغاية، وتجريد الإنسان من إنسانيته بتحويله إلى مجرد حيوان تاريخه يبدأ من الأميبيا .

وعلى أساس النظرة التطورية للإنسان قامت فلسفات وعلوم إنسانية كالفلسفة الماركسية، والوجودية الملحدة، وعلم الاجتماع لدى دور كايم، وعلم النفس لدى فرويد وأتباعه، وكل هذه النظريات جاءت لتعلن هروبها من الدين وتعاليمه. ولما تمكنت هذه النظرية من العقل الأوروبي عُمّمت على الوجود كله، فكل ما في الوجود من الأشياء المادية والعضوية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية هو نتاج لتطور متواصل لا يقف عند حد، ومن ثم ليس هناك حقيقة نهائية، فكل شيئ نسبي، وإنما هناك مراتب في ترقي الوجود [1652].

❖ –مناقشة فكرة التطور :

تعتبر كلمة "التطور "من أهم الكلمات التي شغلت الأذهان في الفكر الحديث، وهي بحق تعبّر عن ظاهرة طبيعية، غير أن مضمون هذا التطور ومجالاته هي موضع جدال كبير بين المنظومة الإسلامية و المنظومة العلمانية، والتي تحتاج إلى مدارسة علمية لمعرفة نطاق عمل فكرة التطور، ومن ثم هل التطور مطلق أم مقيد؟ وما هو المجال الذي تسير فيه عملية التطور؟وما هو القانون الذي يحكمها؟.

[1652] – ينظر عبد الرحمن بن زيد الزنيدي : السلفية وقضايا العصر مركز الدراسات والإعلام دار اشبيليا ط1 سنة 1998 ص 397/396

وإذ نقوم بمناقشة هذه الفكرة نؤكد على مسألة مهمة وهي : أن هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطور عشوائيا، وفي غير نظام أو قانون يحكمها، ذلك أن المفهوم العلمي الصحيح يفرض أن تكون هناك عناصر ثابتة تحفظ هوية الشيء (الجوهر) وعناصر يجري عليها قانون التطور (الأعراض). وأن هناك تناسقا يجري بين الثبات والتطور، هذا المفهوم العلمي يتوافق مع طبيعة الحياة، حيث أن هناك ثبات في كليات الكون[1653] ومظاهره العامة مع وجود تغيرات مستمرة في كثير من الظواهر، كما أنه ينسجم مع نظرية الإسلام في التطور والثبات، فالفكر الإسلامي يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد الكلية، مع إمكانية تطور الجزئيات والتفاصيل والفرعيات التي لا يؤثر تطورها على جوهر الأشياء.

فيؤكد أنور الجندي أن الفكر الإسلامي يستمد هذا المفهوم من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات فيقول :" ويستمد الفكر الإسلامي مفهومه للتطور والثبات من قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعا وعنده أن هناك عنصرين : أحدهما يمثل الثبات والاستقرار، والآخر يمثل التحوّل والانتقال، وأنه لا سبيل لإلغاء أحدهما، ولا سبيل إلى القول بالتّطور المطلق وإنكار عنصر الثبات ولا بد من الارتباط بين العنصرين وإقامة التوازن بينهما، وأنه من المستحيل عقلا ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقف أحدهما أو أن ينفصل ولا أن يستعلي أحدهما أو يسيطر فالثبات والاستقرار هو الجمود، والتطور المستمر هو الفناء "[1654].

أما في الفكر العلماني فقد نشأت فكرة التطورفي مجال الفكر والثقافة نتيجة للخطوات التي اتخذها خلفاء "داروين" الذين نقلوا فكرة التطور من مجال الدراسات البيولوجية إلى مجال الدراسات الاجتماعية، حين تدخلت قوى ذات أهداف معينة، فركزت على فكرة التطور وأعطتها بعدا خطيرا

[1653]– لم تتطور العلوم إلا بعد قبول الرأي القائل إن الأحداث الطبيعية تتبع دائما القوانين الثابتة نفسها، وهذا بالضبط ما قدمه الإسلام لتطوير العلم الطبيعي بين أتباعه، فإصرار الإسلام على انتظام الكون بأمر الله وفر الجو الضروري لنمو الروح العلمية .لكن الاعتقاد المعاكس القائل بأن الطبيعة لا ثبات لها، بل هي مجال فعل آلهة تعسفية تجسدت فيه، أو قوى سحرية تسيطر عليه، هو اعتقاد لا يمكن أن يؤدي إلى علم .

[1654]– ينظر أنو الجندي : مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام (سلسلة البحوث الإسلامية) ص 42

دفعها إلى مجال العقائد الثابتة، مع إفرادها بالسلطان على كل القيم الأخلاقية والاجتماعية، وكان ذلك جريا مع الاتجاه المادي الخالص الذي يحاول تفسير قضايا الوجود تفسيرا ماديا،ويعمل على إنتاج كل ما هو مخالف للكنيسة التي أساءت عرض الدين المسيحي. فما موقف الإسلام من فكرة التطور التي كانت وما زالت تمثل أساسا هاما في التفكير العلماني الرافض للدين والقائل بالتطور اللانهائي وفي كل المجالات؟

أخذت العلمانية بمذهب داروين في التصور للنمو والتطور، وتجسدت في الحداثة والعصرنة والتقدم وتعتبر ابنة " الفكرة العلمانية"، التي تدّعي لنفسها البحث الدائم عن الجديد، ومن ثم تقطع الماضي عن الحاضر، وبالتالي تلغي الدين واللغة والتراث، ولها الرغبة الدائمة في النمو والتطور من خلال النظرة المادية المعزولة عن الدار الآخرة، ولكنها تناقض نفسها فتأخذ من الماضي وَثَنِيَتَه وكفره وإلحاده وأساطيره."[1655].بينما"النمو والتطور في نظر الإسلام يحافظ على الجذور والساق كيف لا ؟وهي جذور الإيمان والتوحيد. والعلمانية والحداثة تقطع الجذور والساق، وتهدم وتدمر ! إنها تجتث الجذور (الفطرة) وتقطع الساق والأغصان، ثم تتوهم أنها ستأتي بشيء جديد"[1656].

كما اعتنق "أوغست كونت" مذهب التطور عندما نادى بضرورة قيام دين جديد هو الدين الوضعي الذي يقوم على أساس عبادة الإنسانية كفكرة تحل محل الله –سبحانه وتعالى –في الأديان السماوية، وخلاصة المذهب أن الفكرة التي استحوذت على" كونت "فكرة التقدم الإنساني حيث وضع قانونا للتقدم الإنساني وهو قانون الحالات الثلاث، الذي يتقدم العقل البشري بمقتضاه من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الميثافيزيقية ثم إلى المرحلة الوضعية الأخيرة ." وقد قسم كونت المرحلة اللاهوتية إلى ثلاث مراحل: المرحلة الوثنية –والمرحلة التعددية –والمرحلة التوحيدية وهي المرحلة الأخيرة التي بدأت بظهور النصرانية والإسلام.

[1655]–عدنان رضا النحوي : المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية ص69.

[1656]– المرجع نفسه ص 70/69

والمرحلة الوضعية بدأت بالثورة الفرنسية، وهي المرحلة التي تفسر الظواهر عن طريق الاستقراء القائم على الملاحظة. ويطبّق كونت هذا القانون في التّطور على جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية مثل الحضارة والسياسة والفن والأخلاق"[1657].

وقد وجه طائفة من المفكرين نقدا لفكرة التطور التي جاء بها "كونت" والمتمثلة في قانون الحالات الثلاث بما يلي:

1-يعتبر"كونت" أن الإنسانية كل لا يتجزأ، وأنها خاضعة لقانون واحد، بينما نجد أن هناك مجتمعات لا تسير في تطورها، وتقدمها على نمط واحد في فهم وإدراك الظواهر.

2-يختلف الطريق الذي سلكه العقل الإنساني عن ذلك الذي حدده كونت، ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعي للأمور يسير مع الفهم الديني، أو الميثافيزيقي.

3-لا يستمد قانون المراحل الثلاث حقائقه من التاريخ، وإنما هو فكرة فلسفية اختار لها كونت مجتمعات معينة، حاول تطبيقها عليها دون استقراء لتاريخ المجتمعات الإنسانية كلها وهو أمر غير ميسور البتة فتعميم الحكم مغالطة مفضوحة.

4- يفسر هذا القانون الحضارة بأنها "التقدم"، بينما نجد الحضارة عبارة عن مستوى عام للحياة المادية والروحية للمجتمع دون النظر إلى تقدمها وتأخرها.

ويتضح مما سبق أن المذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد، يركز المعرفة اليقينية في الظواهر التجريبية، وينكر وجود معرفة مطلقة، ويقول إن التقدم بدأ في العلوم الطبيعية لكي يصل إلى المرحلة الوضعية التي هي قمة التخلي عن كل العقائد الدينية، وبهذا يكون المذهب الوضعي في دعوته للتطور في الحقيقة هو دعوة لرفض الفكرة الدينية من المجتمع الإنساني .

[1657]- مانع بن حماد الجهني الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: المجلد الثاني ص 812

أما فيما يخص القول بتطور الإنسان من الناحية البيولوجية فهذا محض افتراء. ويكفي أن يكون أول من أبطل نظرية داروين تلامذته."إننا نقول إن الإنسان تطور، وهذا صحيح، ولكنه يصدق فقط بالنسبة لتاريخه البشري الخارجي .الإنسان كذلك مخلوق، وقد انصب في وعيه ليس فقط أنه مختلف عن الحيوان، ولكن أيضا أن معنى حياته لا يتحقق إلا بإنكار الحيوان الذي بداخله،فإذا كان الإنسان ابن الطبيعة فكيف تسنى له أن يبدأ في معارضة الطبيعة ؟.

8-**الأساس الثامن: العقلانية**

ذكر الجرجاني في تعريفاته أن: العقل مأخوذ من عقال البعير، يمنع ذوي العقول من العدول عن سواء السبيل.ثم أشار إلى عدة معان تطلق على العقل منها :

-العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد.

-العقل ما يعقل به حقائق الأشياء .

-وقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل.

-وعرِّف العقل ب "الملكة": هو علم بالضرورات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات"[1658].

وجاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية: "يطلق لفظ العقل على معان كثيرة منها :

-أن العقل "جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها "[1659].

يلاحظ من خلال هذه التعريفات أن العقل طاقة إدراكية،لها القدرة على فهم واستيعاب ما يجري حول الإنسان باستخدام المعارف القبلية،والقواعد الكلية لتنظيم المعارف .

[1658]-الجرجاني : التعريفات ص 65

[1659]- جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 390

وجاء في معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية:"والعقلانية: هي الإقرار بأولية العقل وبأن المعرفة تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية لا عن التجارب الحسية، لأن هذه الأخيرة لا تفيد علما كليا .

-والمذهب العقلي مقابل للمذهب التجريبي الذي يزعم أن كل ما في العقل فقد تولد من الحس والتجربة .

-وتعبر النزعة العقلانية عن الإيمان بالعقل وبقدرته على إدراك الحقيقة والواقع باعتبار أن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء "[1660]

والعقلانية: من "العقل" وأضيف لها "الألف والنون" للمبالغة و"الياء للنسبة والتاء" للتأنيث، وهي وصف منسوب إلى العقل، ودلالة النسبة هي ارتكاز الوصف، ويخص الجانب المعرفي، فهو يمثل المبادئ الكلية المنظمة للمعرفة، ولذلك نجد أن هناك تعريفات متنوعة للعقل يختلف من حقل لآخر، إلا أنه عند أصحاب المذهب العقلي يعتبرونه : "عبارة عن مجموعة من المبادئ البديهية القبلية المنظمة للمعرفة، المتميزة بضروريتها "صدقها" وكليتها وعموميتها واستقلالها عن كل تجربة"[1661].

ويقوم هذا الأساس في الفكر العلماني على "تقديس العقل"، حيث اتسم "عصر التنوير" بالإسراف في سلطان العقل واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة، وأنه كفيل بحل كل ألغاز الحياة وأسرار الكون، وهذا الاتجاه العقلي لم يكن موقفه محمودا اتجاه قضايا الدين عموما، وخاصة أن الكنيسة فشلت فشلا ذريعا في عرض قضايا الدين على الصورة التي أنزله الله عليها .

ففي البداية لم تكن النزعة الإلحادية منتشرة بين عامة الناس، وإن كانوا قد فقدوا الثقة في الكنيسة باعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة. ويرجع ظهور العقلانية إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي،حيث غلب على التفكير في هذه الفترة وجود خصومة فكرية بين الدين والعقل واتجه

[1660]--جلال الدين سعيد : معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية ص 291/290

[1661] -ينظر القيم بين الإسلام والغرب ص 119 نقلا عن توفيق الطويل أسس الفلسفة ص 351/350

التفكير فيه إلى إخضاع الدين للعقل، وقد كان هذا رد فعل قوي على الكنيسة التي اضطهدت العلماء واعتبرت كل كشف علمي كفر وزندقة وإن كان صحيحا .

والحق أن معاداة العقل للدين المسيحي كان له الأسباب المعقولة، وخاصة بعد ظهور الفكر العلمي الذي حقق قفزات نوعية في الحياة الغربية، حيث وجد العقلانيون سندهم الذي يؤكد اتجاههم . ومن ثم كان المحور الذي تدور حوله الفلسفة العقلية هو أن العقل وحده هو مصدر المعرفة اليقينية، وأن له الحق الكامل في الإشراف على كل اتجاهات الحياة، سياسية كانت أم أخلاقية أم دينية، وكان لهذا الاتجاه رواد وأنصار، من أبرزهم الفيلسوف الفرنسي "فولتير ""ولا ميتري"،والفيلسوف الألماني "سيديستون وولف"و"ليسنج"، والفيلسوف الانجليزي "جون لوك" وغيرهم[1662] . وقد تميّز عصر التنوير بمميزات منها:

1-نمو الشعور بقيمة العقل وقدرته الكبيرة على تحديد مستقبل الإنسانية بعد أن يتحرر من الكنيسة وتعاليمها .

2-رد كل الأحداث وإخضاعها لحكم العقل، بما في ذلك تكوين الدولة، والجماعة والاقتصاد والسياسة والتربية وحتى الدين نفسه يخضع لأسس عقلية .

3-محاولة إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله، لأن العقلانية من حقها الإشراف والتوجيه لكل مناحي الحياة بلا استثناء .

4- تمجيد العلم التجريبي باعتباره النتاج العظيم للإله الجديد " العقل البشري، ومن ثم فالمقياس الحقيقي الذي تقاس به الحضارة ومدى تقدمها هو العلم التجريبي[1663].

وبهذا تتجلى الرؤية العلمانية وهي أن العالم يتبع قوانين مطردة ثابتة، وأن العقل الإنساني أداة كافية يمكن للإنسان أن يدرك من خلالها الواقع الذي يحيط به، فسيادة المعرفة الإنسانية ضمن إطار

[1662] -محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 322

[1663] - ينظر محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص 323/322

التصور العقلي،والذي أصبح بدوره أساسا لعلمنة المعرفة،و أصبح الإنسان محور الفلسفة الغربية الحديثة، وكل النظريات التي نحت إلى علمنة المعرفة كان لها تأثيرات جوهرية في تشكيل التصور الاجتماعي والسياسي الغربي،ويشير أحمد داود أوغلوا إلى هذا الترابط بين الجانب المعرفي في العقلانية الغربية والجوانب الأخرى فيقول: "إلا أن هنالك ارتباطا مستمرا بين هذه الفلسفاتمن منظور تأثيرها على النظريات الاجتماعية والسياسية.فنظرية كوبرنيكس في الكون كتفسير كوني جديد قد دفعت الرب والإنسان وجوديا من مركز الفلسفة إلى موقع هامشي فيها"[1664].

وانتقلت السيادة للعقل كمصدر للمعرفة على غيره، وغيره الذي ينازعه "السيادة " في ذلك الوقت هو "الدين "، فعصر "التنوير" ويسمى أيضا العصر "الإنساني"[1665] لا يقصد به إلا إبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله فيه ." ويسمى أيضا بعصر الإيمان الفلسفي بإله[1666] ليس له وحي وليس بخالق للعالم، إذ كل مسميات هذه الأسماء من خواصه، كما يذكر محمد البهي[1667] .

ويعتبر محمد قطب أن العقلانية مذهب قديم يمثله أشد ما يمثله سقراط وأرسطو ومعناها " التفسير العقلاني لكل شيئ في الوجود .أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه "[1668].

ففي الحضارة الإغريقية اقتحم العقل ميدانا ليس من شأنه وهو غير مؤهل لاقتحامه بطبيعته،ولا قدرة له على الخوض فيه، فيما يتعلق بقضية البحث في الذات الإلهية، فليس في قدرته أن يلم بها فضلا

[1664] –فتحي حسن ملكاوي : نحو نظام معرفي إسلامي أعمال حلقة دراسية عمان 1998 ص121

[1665] –الإنسانية : التي يبشر بها هذا العصر ليست إلا عوضا عن القربى من الله كهدف للإنسان في سلوكه في الحياة .محمد البهي ص 324/323

[1666] –الإله الذي ليس له وحي ولا خَلق يتفق مع تحكيم العقل وحده وطلب سيادته على أحداث الحياة واتجاهاتها . محمد البهي المرجع السابق ص 324

[1667] – محمد البهي : المرجع نفسه ص323

[1668]– محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ص 500

عن أن يحيط بكنهها.وكان أشد ما يبدو فيه هذا الانحراف معالجة تلك الفلسفة لقضية الألوهية والكون المادي وما بينهما من علاقة .

ولقد ظلت الاتجاهات الفلسفية الإغريقية مسيطرة على الفكر الأوروبي قرونا طويلة، حتى جاءت الكنيسة ففرضت منطقها، ولم يعد العقل هو المرجع في قضايا الوجود، إنما صار هو الوحي –كما تقدّمه الكنيسة – وانحصرت مهمة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسية تلك، ولمحاولة تقديمه في ثوب "معقول"خاضت الكنيسة في قضية الألوهية وتخبطت تخبطا من نوع جديد، حين ألهّت المسيح مرة، وجعلته ابن الله مرة. وبسبب هذه الألغاز حُجِر على العقل الأوروبي أن يعمل وأن يفكر .كما يشير إلى ذلك محمد قطب[1669].

ويؤكد هيمنة هذه العقلنة في مرحلة سيادة النص أو الدين محمد البهي فيقول :"كان الدين أو النص سائدا طوال القرون الوسطى في توجيه الإنسان، سواء في سلوكه أو تنظيم جماعته أو في فهمه للطبيعة .وكان يقصد بالدين " المسيحية "وكان يراد من المسيحية " الكثلكة " وكانت الكثلكة تعبر عن" البابوية " !

والبابوية نظام كنسي ركز "السلطة العليا" باسم الله في يد البابا وقصر حق تفسير الكتاب المقدس "على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى، وسَوَّى في الاعتبار بين نص الكتاب ومفاهيم الكنيسة الكاثوليكية ...وجعل عقيدة "التثليث " عقيدة أصيلة في المسيحية، كما جعل الاعتراف "بالخطأ "و"صكوك الغفران" من رسوم العبادة وغير ذلك مما يتصل بالكاثوليكية كمذهب وكنظام لاهوتي"[1670].

وقد استمر اعتبار الوحي كمصدر للمعرفة وسخرت الكنيسة العقل- عقل رجال الدين الذين زعموا لأنفسهم حق صياغة العقائد وفرضها على الناس بالقوة – لإخراج هذا المزيج المتنافر المتناقض في

[1669]- المرجع نفسه 507/506

[1670]-محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص 320

صورة فلسفية تبدو للناس مستساغة. ولما كان رجال الدين ذاتهم لا يثقون في سلامة بنيان هذه العقائد وصحتها المطلقة لم يسمحوا بمناقشتها، ومن حاول مناقشتها اعتبر "مهرطقا" مارقا، وقد تزهق روحه، أو يهدر دمه لئلا تجر المناقشة إلى القول بأنها عقائد غير معقولة على الرغم من كل الصناعة العقلية التي وضعت فيها، وكان الحجر على العقل في ذلك يتم باسم "الدين".

وبحركة "مارثن لوثر" و"كالفن" الإصلاحية فُتح باب النقاش والجدل الفكري،حيث تعرضت المسيحية –إن صح التعبير – لمراجعات في كثير من القضايا التي أثارها لوثر بحيث أقر أن الإنجيل وحده المصدر للحقيقة المسيحية دون تفسيراته وشرحه، وأوضح رأيه في عقيدة التثليث وقضية صكوك الغفران، كما حارب سلطة البابا، وطالب بحرية البحث في الكتاب المقدس، وفي عهد سيادة الدين كمصدر للمعرفة –سواء في عصر سلطة الكنيسة الكاثوليكية أو في عهد الإصلاح الديني للوثر – نُظر إلى الكتاب المقدس وهو الإنجيل على أنه فوق العقل ...على معنى أن للعقل أن يبحث ويرى إن جاز له أن يبحث ويرى – ولكن للكتاب المقدس الكلمة الأخيرة فيما يرى العقل ويحكم .

حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر لاحت بوادر ما عرف ب " عصر التنوير " في تاريخ الفلسفة الأوروبية، والذي تميّز بطابع فكري مشترك في دوائر الفكر الثلاث : الإنجليزي والألماني والفرنسي:

-فمن فلاسفته في ألمانيا "وولف" "ولسنج".

-وفي انجلترا :جون لوك.

-وفي فرنسا فولتير، وبايل، ولامتري .

هؤلاء الفلاسفة كوّنوا الطابع الفكري لهذه المرحلة حيث بدأ ينمو الشعور بقدرة العقل على صياغة الحياة الإنسانية. فللعقل – في نظر أصحاب عصر التنوير– الحق في الإشراف على كل اتجاهات الحياة،وما فيها من سياسة وقانون ودين.

والحقيقة التاريخية تؤكد أن فكرة سيادة العقل تعرضت لنقد لاذع من أنصار الدين من أرباب الفكر منهم "بلانش "الذي اعتبر أن فلسفة التنوير أخطأت عندما اعتبرت العقل وحده يمكن أن يوجد الحقيقة وينظم الجماعة ... وأخطأت كذلك عندما أرادت أن تقيم صورة العلاقة المشتركة بين الأفراد على ما بينهم من ميل ومحبة إنسانية، دون ما يربطهم من قبل من رباط اللغة والدين والتقاليد ..." ويبرر "بلانش" اتجاهه هذا برد كل شيئ إلى الوحي باعتباره مصدر الحقيقة فيقول:" ولهذا يمكن أن يعتبر "الوحي " وحده أساسا "للجماعة " ونظامها، كما يعتبر أساسا للمعرفة و"الحقيقة "معا"[1671].وفي المقابل دخل في هذا الصراع من أجل "سيادة العقل" الفيلسوف الألماني "فيشته" الذي أقام فلسفته على أساس من استخدام الإنسان لمبدأ النقيض[1672]، ثم تبعه في فلسفته هذه "هيجل"،ثم تبعهما "كارل ماركس" الذي استخدم المبدأ في فلسفته المادية. ومنطق (مبدأ النقيض) على النحو الذي استخدمه فيشته في تصور الإنسان لنفسه، وأكد في هذه الفلسفة على مجموعة من المبادئ :

-أن العقل مستقل تماما عن غيره وموجود من أجل نفسه، ووجوده هو وجوده هو، لا وجود غيره.

- أن ماهية العقل تتضح من العقل نفسه، وليس مما هو خارج عنه مغاير له.

وبهذا وصل فيشته إلى نتائج مفادها :

1-استقلال العقل في الوجود عن الجسم أو أي كائن وإلى سيادته على نفسه، وعلى غيره وهو العالم الخارجي عنه.

[1671]-محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص224

[1672]- مبدأ النقيض : يتلخص مبدأ النقيض في العمل للوصول إلى النتائج من الوجهة الفلسفية، قرر فيشته أن تصور الإنسان لنفسه وحده هو بداية الطريق، وأشبه بالمقدمات التي تستلزم نتائجها ... على النحو الذي حدد به نتائج فلسفته . ينظرمحمد البهي : المرجع السابق ص 327

2-ثم إلى حرية الإنسان في العمل حرية تامة، لا يشوبها شبه تحديد من غير الإنسان نفسه .

3-وأخيرا إلى تبعية عالم الأشياء في تصوره إلى العقل .

ومهما يكن من اتفاق أو اختلاف في بعض الجزئيات عن هؤلاء الفلاسفة،فإن المؤكد أن العقل نال مكانة الأولوية والسيادة المطلقة عند "فيشته" ونال السيادة على الطبيعة عند "هيجل "الذي يراه قانونا عاما للوجود تخضع له كائنات الطبيعة [1673]. ويمكن ان نلخص أهم المبادئ التي ترتكز عليها العقلانية فيما يلي:

1-أن العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كل شيء في الوجود .

2-يمكن الوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقلي .

3-عدم الإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات .

4-العقائد الدينية ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي .

وبعد هذا العرض لأساس العقلانية نحاول أن نوازن بينها وبين ما تذهب إليه الرؤية الإسلامية في تصور العقل وطاقاته ومدى قدرته على انتاج المعرفة .

❖ مناقشة أساس العقلانية :

لا شك أن الإشادة بدور العقل وأهميته تشترك فيه كثير من المذاهب والديانات،إلا أن الخلاف بينها يتركز في تحديد مجال عمل العقل، وعليه فإن العقلانية[1674] بالمفهوم الذي تدعو إليهالعلمانية يتفق

[1673]- ينظر محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار ص 328/ 329 /341

[1674]- رفع الفلاسفة العقل فوق الوحي، وأعطوه موقع الأفضلية عند الحكم، ولا شك أنهم مخطئون في ذلك . فالعقول مختلفة في أحكامها ومحدودة بل متناقضة . بينما يختلف التعريف الإسلامي للعقلانية عن التعريف الفلسفي، فيؤكد بأن العقلانية : هي رفع التناقض الذاتي .وهو تعريف له قيمة إضافية في إدامة ميراث السلف الصالح . ينظر إسماعيل الفاروقي أطلس الحضارة ص 152

مع منظومة الإسلام في بعض النقاط، لكنه يختلف معها في كثير من النقاط يمكن توضيح ذلك فيما يأتي :

على الرغم من اتفاق الجميع على أهمية العقل وقدراته إلا أن العقل مهما أثري عليه فهو مجرد أداة، يستمد قدراته من غيره، وبغير ذلك فلا يستطيع أن يقدم أي معارف للإنسان، لذلك من النقد الذي يوجّه لمن يجعلون السيادة للعقل ما يأتي :

1-إذا كان العقل قاصرا فكيف يعقل أن يتخذ طريقا وحيدا للحقيقة، وهناك في الوجود حقائق ليس من اختصاصه،لأن العقل لا يعمل إلا إذا زوّد بمعطيات من الخارج يطبق عليها القواعد التي ركبت فيه ليصل إلى نتائج يبرهن عليها بما يملك من قواعد، فإذا كانت القضايا من الغيب، فكيف يعلّلها، ويبرهن عليها وهو لا يملك معطياتها ؟ !

2-يؤكد الإسلام أن العقل يلتقط المعلومات ويقوم بتحليلها ثم إصدار أحكامه عليها،ويكون إدراكه للصواب على قدر توفر المعلومات والمعطيات، ومن ثم فالعقل ليس طاقة مستقلة كما يزعم العقلانيون قال تعالى :{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1675].

3-أن هذه الطاقة العقلية يمكن توظيفها بطرق إيجابية كما يمكن توظيفها بطرق سلبية، ومن ثم فليس كل ما يصدر عن العقل يقود إلى الحقيقة.أحيانا يمكن أن يقود العقل إلى كوارث بسبب أنه لم يتفطن لها أو لم يقدر حدوثها فتفاجئه بمعطيات تلحق أضرارا خطيرة بالإنسانية .

4-إذا كان العقل هو الذي يؤسس للمعرفة، فنحن نتساءل أي عقل ؟ هل العقل الأوروبي، أم العقل العربي، وهل هو العقل الفلسفي، أم العقل التجريبي أليس تلك عقول أيضا؟ !ومن هنا يستحيل أن يكون العقل مصدرا للمعرفة بإطلاق باعتبار التباين الكبير فيما يصدر عن العقول. وباعتبار تعدد زوايا كل قضية وليس باستطاعة أي عقل الإلمام بها في نفس الوقت.

[1675]- سورة النحل الآية :78

5- إذا كان الوجود الإنساني غير مُدْرك كله للإنسان، ومن ثم كيف يعقل أن يحلل العقل ما لا يملك معطياته ؟ أليس في هذا مغالطة كبيرة !وإذا افترضنا أن العقل له قدرة على التحليل والبرهنة والقياس، ألا يمكن أن يجري هذه العمليات أيضا للبرهنة على العقائد الدينية؟ فلماذا ترفضها العقلانية إن كانت صادقة في احتكامها للعقل؟ وهل صحيح أنها فعلا تلتزم بأحكام العقل على كل قضايا الوجود ؟. إن الواقع يشهد بخلاف ذلك .

أما من وجهة النظر الإسلامية فإن العقل له مكانته في منظومة عقيدة التوحيد، لكنه ليس عقلا بالمفهوم العلماني الذي يكون مرجعية لكل شيء، فالعقلانية –في نظر الإسلام . تمثل إحدى مكوّنات جوهر الحضارة الإسلامية بوصفها مبدأ منهجيا، فالعقل "أداة " تساهم في البناء المنهجي للمعرفة. ومن ثم فوظيفته تنظيم المعرفة، واستثمار المعطيات المحصّلة عن طريق الحواس وبناؤها منهجيا للوصول إلى الحقيقة، فإن العقلانية الإسلامية من هذا المنظور تقوم على ثلاثة أسس أو قوانين :

-الأول : رفض جميع مالا يتطابق مع الواقع.

-الثاني :إنكار التناقضات المطلقة .

-الثالث: الانفتاح على الأدلة الجديدة أو المناقضة[1676].

ولا شك أن بناء الفكر على هذه الركائز يحقق العلمية في حياة المسلم، وقد أشار إسماعيل راجي الفاروقي إلى أهمية هذه الركائز في ترشيد المسلم،وهو يبحث عن الحقيقة، ففسر الركائز الثلاث فقال:

"فالقانون الأول: يحمي المسلم من الظن، أي من تكوين أي ادعاء بالمعرفة لا يسنده دليل أو إثبات، والقرآن الكريم صريح في وصف المعرفة غير المؤكدة، أنها مثال على " الظن" أو المعرفة المضللة التي يحظرها الله مهما كان هدفها ضئيلا.لذا يوصف المسلم بأنه شخص لا يدّعي بغير الحق .

[1676]- ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 136

والقانون الثاني: يحمي المسلم من التناقض البسيط من جهة، ومن التناقض الظاهر من جهة أخرى[1677]. أما القانون الثالث : أي الانفتاح عن الأدلة الجديدة أو المناقضة فإنه يحمي المسلم من الحرفية والتعصب والنزعة المحافظة المؤدية إلى الركود، كما يميل به إلى التواضع الفكري فيحمله إلى إلحاق عبارة " والله أعلم" بما يثبت أو ينكر من قول، والمسلم على قناعة بأن الحقيقة أكبر من أن يستطيع السيطرة عليها تماما "[1678].

ذلك أن الإيمان يساعد العقل على أن يكون نموه وتطوره خاليا من العقبات التي تجمّده وتعطّله أو تقوده لتبعية الغرائز التي تعد مصادر الشهوات والأنانية، وبهذه المساعدة تفسح له الطريق السليم للنمو والتطور. فيباشر العقل وظيفته في استقامة بعيدا عن ضغط الهوى والشهوة، وتحكُّم الغرائز، أو ما يسمى بالنفس " الأمارة بالسوء" .

لذلك يشيد الإسلام بحرية العقل في البحث عن الحقيقة مادام مسيطرا على الغرائز. لأن الحرية مصدر الإرادة في الإنسان، وبالإرادة وحدها يستطيع الإنسان أن يتجاوز العقبات في حياته . قال تعالى :{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1679] " فانتظار الشكر من الإنسان في هذه الآية على خلق السمع، والبصر، والفؤاد فيه، لا باعتبار أنها أجهزة طبيعية تؤدي دورها الطبيعي العادي للإنسان كما تؤدي ذات الدور للحيوان .ولكن باعتبار أنها مصادر علم وتوجيه، وهداية له...والإنسان في نظر الإسلام إذن

[1677]– العقلانية : لا تعني تقدم العقل على الوحي، بل رفض أي تناقض أساس بينهما، وتنظر العقلانية في الفرضيات المتناقضة وتعيد النظر فيها مرارا وتكرارا بحثا عن وجه ربما يكون قد تخطاه النظر والذي لو تم أخذه بعين الاعتبار لكشف عن العلاقة المتناقضة، وكذلك فإن العقلانية تقود مفسر الوحي –لا الوحي نفسه– إلى تفسير آخر خشية أن يكون قد فاته معنى غير ظاهر أو غير جلي، بحيث لو أعيد النظر فيه زال ما بدا له من غموض .ويؤدي مثل هذا إلى اللجوء إلى العقل أو الإدراك للتنسيق لا في هيئة الوحي نفسه، بل في مستوى التفسير والفهم البشري، ليجعل فهم الوحي عند المسلم متفقا مع ما تجمع من أدلة كشف عنها العقل ...فالعقل الذكي يهتدي بالوحي إذ يصر على وحدة مصدرين للحقيقة : الوحي والعقل ..ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 138/136

[1678]–– ينظر إسماعيل راجي الفاروقي : أطلس الحضارة ص 138/136

[1679]– سورة النحل الآية: 78

ليس بالإدراك –الحسي والعقلي – وحده .إنما هو إنسان بإدراكه الذي وسيلته الرئيسية السمع والبصر، ثم بإيمانه كذلك الذي طريقه القلب أو الفؤاد ...وهي مسؤولية كون الإنسان إنسانا في : توجيهه، وفي سلوكه، وفي مواقفه وحلوله لمشاكل الحياة "[1680] قال تعالى {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً }[1681].

والفرق بين النظرتين –أي الإسلامية والعلمانية – ليس في الثقة في العقل وفي عدمها، بل في الاعتدال والمبالغة فيها، وليس في إبعاده عن وظيفته وهي التوجيه والهداية، وإنما في تمكينه من هذه الوظيفة . تلك – أي النظرة االعلمانية – نظرة تثق تمام الثقة في قدرة العقل الإنساني، وكذلك فإن الإسلام يثق بالعقل الإنساني كما يحتفظ له بدوره في حياة الإنسان، ولكنه فحسب لا يبالغ في هذه الثقة.فحرية العقل وقدرته في البحث تكون ضمن إطار العبودية لله وحده وتوجيهات الوحي، ذلك أن العقل أعجز من الكشف عن كثير من القضايا المتعلقة بالوجود الإنساني ووضع ميزان للخير والشر في علاقاته المختلفة حيث تنطلق الأهواء الفردية والجماعية بعيدا عن أي موجه أو ضابط أخلاقي[1682] .

لاريب أن العلمانية أرادت بمنطقها هذا أن تضع مغالطة مكشوفة إذ جعلت أمام الإنسانية خيارا إما أن تؤمن بالله أو أن تكون حرة، أي بين العقل والعلم والحرية والتقدم من جهة وبين الإيمان بالله والوحي من جهة أخرى، وهو خيار تعسفي وزائف وإفراز لتجربة غربية محدودة ومتصادمة مع الفطرة ومتناقضة فيما بين عقول مفكريها .

بينما تشهد تجربة الحضارة الإسلامية بما تأسست عليه من رؤية شمولية أنه لا تنوير حقيقيا يمكن أن تزدهر فيه كل أبعاد الشخصية الإنسانية المادية والروحية والعقلية،وتتعايش الحضارات والديانات

[1680]– محمد البهي : طبقية المجتمع الأوروبي وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامي المعاصر دار الفكر بيروت ط1 سنة 1970 ص45

[1681]– سورة الإسراء الآية :36

[1682]– ينظر راشد الغنوشي : مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني ص 17/16

والأعراق وتعطي كل امكاناتها الحضارية في غير ما ينتجه العقل في إطار نور الوحي وهدايته، ذلك أن الإسلام يؤكد أن العقل البشري عطاء إلهي، رغم قدراته الهائلة، مصاب بعجز عن الإحاطة بكل أبعاد الإنسان، وغاية الوجود والمعايير الضابطة للاندفاعات والشهوات، الأمر الذي يجعل حرية العقل بدون الوحي كمركبة تسير بلا مصباح [1683] قال تعالى {وَمَنلَّمْيَجْعَلِاللَّهُلَهُنُوراًفَمَالَهُمِننُّورٍ}[1684].

لا شك وأن الإسلام بهذه الرؤية لا يلغي كسب العلمانية الغربية فيما أنجزت من تحرير للعقل وإبداعات علمية وتقنية وحريات ديمقراطية، بل يرحب بها ويهب لها الرؤية التكاملية والفكرة الموجهةبما لا يجعل منها وسائل للتسلط والتدمير. إنما هي مجرد وسائل ينبغي أن تسخَّر لتحقيق رضوان الله وخدمة العائلة البشرية والمحافظة على الكون وإعداد الإنسانية لنيل سعادة الدنيا والآخرة .

وبعد فقد ظهر لنا أن العلمانية الغربية أطلقت العنان للعقل، فكانت بهذا حريته لعنة على البشرية في كثير من جوانب حياتها، بدلا من أن تكون رحمة بها، ومن هنا فالأسس التي بنيت عليها العلمانية في الغرب أو في العالم العربي متهافتة وقاصرة لانفصالها عن الموجِّه والمرشد، ولا تعدو أن تكون في كثير من أسسها إلا أوهاما أو شبهات أُلبست ثوب العلم، واستطاعت أن تجد لها مكانا في هذه المرحلة التاريخية، بما توفر لها من ترسانة إعلامية تروّج لأفكارها، ولكونها تضغط على العقول بتلبية مطالب الغريزة، وباستغلال حالة الفراغ الروحي للشعوب .

فإذا كان قد تبيّن لنا أن الأسس التي بنيت عليها العلمانية هشّة، ولا تصمد أمام الحجة الفطرية ولا العقلية ولا العلمية ولا التاريخية ولا الدينية، وأنها في نفس الوقت تحمل أفكارا خطيرة إلى هذا الحد. فما موقف الإسلام من العلمانية ؟

[1683]- ينظر راشد الغنوشي : مرجع سابق ص 27

[1684]-سورة النور الآية :40

المبحث الثالث:موقف الفكر الإسلامي من العلمانية

المطلب الأول :موقف الفكر الإسلامي من الدخيل:

يؤمن الفكر الإسلامي بمبدإ التفاعل بين الحضارات وهو موقف وسط بين غُلوي "التبعية والتقليد" و"العزلة والانفتاح" وهو الموقف العادل الذي حكم ويحكم اللقاء بين الحضارات عبر كل مراحل التاريخ إلى يومنا هذا.

فالمسلمون في فترة الفتوحات تفاعلوا تفاعلا إيجابيا في كل لقاء حضاري مع مختلف الحضارات، فاستطاعوا أن ينتقوا من تلك الحضارات المزايا التي لا تتعارض مع قيم الإسلام،وتمازجت مع القيم الحضارية فشكلت نموذجا حضاريا تآلفت فيه الخبرة الإنسانية، وهناك نماذج من هذه اللقاءات توضِّح موقف المسلمين من الحضارات الكبرى، وما كان ينبغي أن يؤخذ وما كان يجب أن يترك في معادلة حكيمة يبرزها محمد عمارة فيقول :" -فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة الإسكندرية – في القرن الهجري الأول – ترجموا علوم الصّنعة – تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة – ولم يترجموا ديانات مصر الوثنية والنّصرانية –ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية أي أنهم أخذوا ما يدعم ذاتيتهم الثقافية الإسلامية المتميزة، لا ما يمسخها وينسخها ويشوّه خصوصيتها ..

وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني منذ عصر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب: (40ق هـ-23هـ، 584م-644م) فلقد أخذوا نظم الدواوين دون أن يأخذوا القانون الروماني، لأن عندهم الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها.

-وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية ..فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية .

-وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية ..إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها ..

– ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي ..فأخذوا العلوم الطبيعية والتجريبية دون أن يأخذوا وثنية الإغريق ..."[1685]

والحضارة الغربية عند التقائها بالحضارة الإسلامية إبّان نهضتها أخذت العلوم التجريبية والمنهج التجريبي والخبرات الإسلامية دون منظومة القيم الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين. لكنها لما استعمرت البلاد الإسلامية فرضت عليها منطقا آخر :" فلما جاء الاستعمار الغربي، ودمّر هذه النهضة، قلب الآية، فحرم بلادنا من العلوم التي تحتاجها، وفرض علينا مناهجه في القيم والعلوم الإنسانية والآداب والفنون . بل أصبحنا ندرس ديننا على أيدي المستشرقين وبمناهجهم المادية والوضعية العلمانية !..فدخلنا بذلك عصر التقليد للنموذج الغربي، وذبلت به ملكات الإبداع في محيطنا الإسلامي "[1686].

لذلك واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر مشكلة في غاية التعقيد والخطورة، استدعت من المسلمين أن يقفوا منها موقفا حكيما، ذلك أنه على طبيعة الموقف الذي يتخذه المسلمون اتجاه هذه المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كأمة لها شخصيتها وكيانها، وهي مشكلة الحضارة الغربية الفتيّة، التي تعد من أقوى الحضارات التي عرفها التاريخ، حيث برزت بهذه الإنجازات الضخمة في مرحلة نزل المستوى الحضاري للمسلمين إلى الحضيض. ومنثم مثلت فتنة عظيمة واضطرب الموقف منها. فكان هناك ثلاثة مواقف للعالم الإسلامي أمام هذه المشكلة الطريفة، وتتمثل في :

1_ موقف الرفض المطلق من الحضارة الغربية، والفكر الوافد وهو موقف معارض ثائر معتزل حائد لا يقتبس ولا يقبل منها شيئا، هذا الموقف الرافض ينتج عنه التخلف إذ لا يستفيد هذا الفريق من الخبرة الإنسانية، وهو ليس بموقف طبيعي ولا شرعي.

[1685]– محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ط2 سنة 2005 ص 267

[1686]– المرجع نفسه ص 268

وهذا الموقف يمثّل موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى .والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات، وأصحاب هذا الموقف يحلمون "بالمستحيل " ..! فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديما، فما بالنا في عصر ثورة الاتصال؟ !..

وهذا الخيار ضار – على فرض تحققه- لأن الانغلاق الثقافي يؤدي بأصحابه إلى الذبول والضمور والاضمحلال، وهو يشبه ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب، حيث يتغذى الجسم على ذاته فيستهلك هذه الذات[1687].

ومع ذلك فقد كان لهذا الموقف صداه في الساحة الإسلامية،من منطلق حماية الذات من هذا الخلل المناقض للقيم الإسلامية،وبخاصة في بعض المجالات التي يبدو أن تأثيرها يمس بجوهر القيم الأخلاقية كقضية المرأة وتحررها . وما زال هذا الموقف ساري المفعول ولكن بحدة أقل مما كان عليه، والحق يقال أن هذا الموقف أصيل، لأن في مصادر الأمة وميراثها ما يغني عن الارتماء في أحضان الآخر، والتفكير في تفعيل ما لدينا من القيم أجدى للأمة من الانفتاح غير المنضبط.

2_موقف الاستسلام والتقليد:ويصف محمد عمارة أصحاب هذا الموقف بأن صفحتهم بيضاء خالية من الخصوصية والذاتية الحضارية، تنطبع عليها كل ألوان الوافدوالمستورد[1688] وهو الموقف الذي يدعو إلى قبول الحضارة الغربية بكل حذافيرها، بعقائدها ونظمها وفلسفتها المادية ومناهجها الفكرية. وتبنِّي مفاهيم الحضارة الدخيلة، والتقليد والتبعية لما هو وافد ومستورد من الأفكار والنظريات العلمانية.

و الحقيقة أن محاكاة الحضارة الغربية لم يكن حلا للبلاد الإسلامية، فلم يزد كل من تركيا ومصر إلا ضعفا، وما يزال العالم الإسلامي مع تجربة الأجنبي الدخيل مريضا ممزقا متدهورا في صورته العامة،

[1687]-ينظر محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص 269

[1688]- محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص269

وظلت الهوة الحضارية بينه وبين بلاد العالم المتقدمة تزداد عمقا واتساعا لغير مصلحته.وسر فشل منطق التقليد الدخيل ليس أمرا يصعب فهمه أو تبيين أسبابه الموضوعية، فالأمم ككائن إنساني حي هي أشد تعقيدا من الأفراد في تكوينها وفي صعوبة دفعها وتحريكها للبناء والتغلب على مكامن الداء .فلكل أمة تكوينها (في قيمها وعقائدها ومفاهيمها ودوافعها ونفسيتها وتاريخها) شأنها في ذلك شأن مكوناتها من بني الإنسان، فإذا لم يتم التعامل معها بفهم تلك الجوانب، ومن خلال تلك المكونات والدوافع، فإن من الصعب تحريكها أو تحريك مكامن القوة والكفاح والبناء فيها.

فما يحرك كائنا إنسانيا قد لا يحرك كائنا إنسانيا آخر، وكذلك الحال بالنسبة للأمم، فما يحرك أمة من البشر قد لا يحرك أمة أخرى،ولكل أمة دوافعها وأولوياتها التي تتحرك على أساس منها،ومن الخطإ تجاهل دوافعها وأولوياتها والاندفاع نحو التقليد الأعمى،دون إدراك واع لخصوصيتها ولما بين الأمم من مميزات وفروقات، ومن ثم فالأمة الإسلامية لن يكون مستقبلها خيرا من حاضرها ولو على مدى قرون المحاكاة .

ولنضرب نموذجا نوضح به هذا الأمر: ففي باب الاقتصاد تم تبني المؤسسة البنكية الغربية تقليدا ومحاكاة، حيث أننا نجد المؤسسة البنكية في الغرب أنشئت لتلبي حاجات غربية في بيئتها، ولكن ذات المؤسسة عندما تم نقلها إلى البلاد الإسلامية كانت آثارها سلبية لاختلاف المنطلقات والقيم في المجال الاقتصادي، فوقع المسلم في حالة من التناقض بين طموحه للغنى والإعمار من جهة، وبين التعامل الربوي المحرم من جهة أخرى، وما يترتب عنه في الدنيا والآخرة، والحق أنه لا مجال في بنية هذا الضمير المسلم لتقبل الازدواجية، والتعارض .

ولهذا كان خيار قبول الدخيل المستورد حلا غير مناسب لتخلف الأمة، لأن الحل الحقيقي هو الذي يقدم تفسيرا عميقا وفهما جذريا لمشكلة التخلف، وهو أن تدرك القيادات السياسية والفكرية التي تتبنى هذا الخيار العلماني سواء التيار الماركسي أو القومي أو الليبرالي أن التقليد والمحاكاة لا يجلب لنا إلا مزيدا من ضياع الوقت والمعاناة لنا ولأمتنا،وأن الحل الحقيقي لا بد أن ينبع من واقع الأمة،

حيث تتفاعل فيه المكونات النفسية والبشرية والقيمية لتقوم بأداء الدور الحضاري الذي ينهي المحاولات الفاشلة ويرسم قسمات الحل الأصيل [1689].

3_ موقف الإفادة من الغرب: وهناك اتجاه ذهب إلى الإفادة من الغرب في مجالات محددة وبخاصة فيما يتعلق بالعلم التجريبي ؛لأن العلم محايد لا شرقي ولا غربي، وإنما هو تراكم للجهود الإنسانية عبر قرون من البحث من جميع بني الإنسان على اختلاف جنسياتهم. و إذا كانت الحكمة ضالة المؤمن يظل السؤال المطروح هو: أين هي مجالات الحكمة في التجربة الغربية ؟

حتى لا نخطئ في الإجابة لا بد من التفكير العميق، والدراسة المتأنية لانتقاء ما يجب أخذه من هذه الحضارة التي هيمن عليها التفكير المادي الإلحاديالمستوحى من الحضارة اليونانية والرومانية،ولا يغرنا موقف القبول بالحضارة الغربية بحلوها ومرها وبخيرها وشرها، الذي ذهب إليه "طه حسين "وأمثاله الذين كرسوا مفاهيم العلمانية في البلاد الإسلامية ومكّنوا للفكر العلماني، ورسخت أقدامه في عالم الحكم والسياسة وعالم الاقتصاد والإعلام والاجتماع، وامتدت يد العلمانية إلى كل مجال، وظلت تفرض منطقها إلى اليوم في كثير من بلاد المسلمين .على الرغم من أن تلك النظريات المطروحة في مجال النفس والأخلاق والاجتماع هي مجرد وجهات نظر وفروض لأفراد مطروحة في أفق البحث، وليست علوما بالمعنى المفهوم لكلمة "علم". فقد نجحت في تسويقه وإخراجه إخراجا له طابع علمي براق لتخدع به المسلمين المنبهرين بالتقدم العلمي، بعد أن خدعت به كثيرا من الأمم وتحقق لها ذلك بالفعل.

لكن الحقيقة أن هذه النظريات المتعلقة بفلسفة الحياة من العلوم الإنسانية، قد تستفيد منها أمم أخرى لم تجد لها منهج حياة، أو نظام مجتمع كأوروبا، التي كان دينها مقصورا على العبادة فقط،

[1689]- ينظر عبد الحميد أحمد أبو سليمان : أزمة العقل المسلم سلسلة إسلامية المعرفة دار القارئ العربي ط1سنة 1991ص36/35/34

ومن ثم وجدت نفسها في حاجة أن تضع لها نظاما اجتماعيا وسياسيا وقانونيا، حاولت أن تستمده من الحضارات السابقة، وهي تستهدف بيئاتها أولا .وتحاول هذه النظريات سواء ما اتصل بالنفس أو بالمجتمع أو بالأخلاق أن تقرر بأن الإنسان حيوان مادي لا تهمه إلا الغريزة أو لقمة العيش، وأنه مجبر ولا إرادة له،وأن الأسرة ليست فطرة، وأن الإنسان نبت في الأرض، وأن الدين غريب عنه ولم ينزل من السماء[1690] .

وهذا الموقف الثالث : هو الذي كان ينبغي أن يتعامل به مع الوافد فهو "الموقف العدل "من الثقافات العالمية عموما، والغربية خصوصا، وهو موقف "التفاعل " من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق "أو تفريط يؤدي إلى "التبعية " و"التقليد" و"الذوبان"، ومن شأن هذا "التفاعل" أن يميّز بين الخصوصية الثقافية للأمة الإسلامية والمتمثلة في منظومة القيم الإسلامية (منطلقات، ومفاهيم، وممارسات) والتي هي معايير القبول والرفض لما لدى الأخر .

ومن ثم يمكن التمييز بين "البصمة" الثقافية للأمة التي يجب أن تظل مرعيّة وحيّة ،فاعلّة ومتميّزة، مع إمكانية "مصافحة" كل الثقافات الأخرى والانفتاح على سائر الحضارات، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء كان في مجال العلوم الطبيعية الدقيقة والمحايدة، أو في تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها العمران المادي أو كان من المشترك الإنساني في ميادين الخبرات والتجارب الإنسانية النافعة التي ترقى بها الثقافة واللغة ولا تتناقض مع الأحكام الشرعية، فذلك مشترك إنساني مثله مثل الماء والهواء.

أما المسلمون فليسوا في حاجة إلى هذا الفكر العلماني وهذه النظريات والمناهج، لأن الإسلام كَفَاهم ذلك الأمر، حين يقدم لهم المنهج الرباني الجامع الذي يرسم وسائل التعامل مع الحياة والمجتمع والعلاقات الإنسانية على اختلافها، وذلك حتى يحميهم من هوى النفس ورغبات الذات، وتقلبات الحياة، فأغناهم عن أن يشرعوا لأنفسهم وحرّرهم من عبودية الإنسان، ووثنية الأصنام؛

[1690]-ينظر أنور الجندي : مجلة إقرأ عدد 426 عالمية الإسلام دار المعارف ص 137/136

لأن "الخصوصية الثقافية" هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي يبدع ويجدد.. بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال "[1691]. فما هو الموقف الشرعي من هذا الفكر ؟

المطلب الثاني : موقف علماء الأمة ومفكريها من العلمانية الشاملة :

دار في العالم الإسلامي جدل كبير حول موقف الإسلام من العلمانية، وهل يمكن أن يكون لها مكان في أوطاننا الإسلامية ؟ صحيح أن هذا السؤال كان لا ينبغي أن يطرح، ولكن انخداع كثير من المسلمين ووقوعهم في مغالطات . وذلك بسبب تلبُّس مفاهيمها بالعلم وما أحرزه الغرب من تطوّر كبير في شتى المجالات.. جعل من الواجب بيان حكم اتخاذ العلمانية بمضامينها منهجا للحياة.

فإذا اعتبرنا العلمانية مذهبا من مذاهب الحضارة الغربية الحديثة، لها تصوراتها ومنطلقاتها ومفاهيمها المستوحاة من الموروث الحضاري الغربي، وأنها نشأت في الغرب كرد فعل على استبداد الكنيسة، واحتكار اللاهوت للدنيا والدولة والاجتماع والمعارف والعلوم .فإنها إضافة إلى ذلك عملت على عزل السماء عن الأرض، وتحرير العمران الإنساني من الضوابط الدينية، وإطلاق الحرية للإنسان في سياسة المجتمع، وحررت القانون من القيم الإيمانية –وإذا كان هذا هو حال القضية في النموذج الحضاري الغربي – فإن العلمانية تتناقض مع الإسلام في المنطلقات والمفاهيم والممارسات، ومن ثم فهي مرفوضة من الناحية المبدئية .

والرفض المبدئي للعلمانية في المنظور الإسلامي يقوم على اعتبارات غاية في الأهمية وتتمثل في :

1_ أن التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية يتعدى حدود الخلق للمخلوقات إلى حيث يكون الله سبحانه وتعالى هو المدبر لكل عوالم وأمم وعمران المخلوقات .لذلك نجد أن القرآن الكريم سفه تصور الوثنية الجاهلية وهو ذاته التصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية، فهو في التصورين مجرد خالق، بينما التدبير للدنيا والعمران موكول في الأرسطية للإنسان وفي الجاهلية للشركاء والأصنام

[1691]– محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص 268

والطواغيت أيا كانت قال الله تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ }[1692]

فجعل الخلق لله والتدبير لغير الله تصور جاهلي مرفوض.قال تعالى:{وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ }[1693] فهذه القسمة الشبيهة بالمفهوم العلماني لشعار " الدين لله، والوطن للجميع "يسفهها القرآن الكريم ويرفضها التصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية .

وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام تصوره لنطاق عمل الذات الإلهية بأنه سبحانه خالق كل شيء، ومدبر كل أمر حتى ما هو مقدور للإنسان يدبره الإنسان بإرادة إلهية، وتكليف شرعي كخليفة لله تعالى، يلتزم شريعته التي تمثّل بنود عقد وعهد الاستخلاف، وكعبد لسيد الوجود . فلله سبحانه في التصور الإسلامي "الخلق "والتدبير جميعا. قال الله تعالى :{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }[1694]وقال تعالى:{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى .قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }[1695] .

[1692]- سورة الزمر الآية :38

[1693]- سورة الأنعام الآية :136

[1694] سورة الأعراف الآية :54

[1695]-سورة طه الآية :50/49

ومن هنا يستحيل أن يتوافق في قلب المسلم تصوّر كون الله مدبّركل شيء، مع تصوّر يعزل السماء عن الأرض، ويحرر العمران الإنساني من ضوابط وحدود تدبير الله[1696].

2_ والمبرر الثاني لرفض العلمانية هو تصورهامكانة الإنسان : حيث تميّز ميراثنا الحضاري عن الميراث الحضاري الغربي في تصوّر نطاق عمل الذات الإلهية، ومن ثم في مكانة الإنسان في هذا الوجود ووظيفته ورؤيته لمختلف العلاقات الوجودية حيث يظهر التناقض صارخا مع العلمانية .

3_ أما في مجال التشريع فقد تميّزت فلسفة التشريع في النسق القانوني الإسلامي في المبادئ والقواعد والمقاصد، وهذا الجانب وضع إلهي، و تتضمن جانب الفقه الذي يعد من إبداع الفقهاء المسلمين المحكوم بمبادئ الشريعة وقواعدها وحدودها ومقاصدها .كما تميزت فلسفة الشريعة بكونها ربطت المنفعة بالأخلاق، وربطت المصلحة بالمقاصد الشرعية، وربطت سعادة الدنيا بالنجاة يوم القيامة، ومن ثم أغلقت الطريق أمام القانون الوضعي العلماني .مانعة إمكانية تعايشه مع النسق التشريعي الذي يحكم سلطات الأمة في التقنين بسيادة حاكمية الوضع الإلهي.

فالمصلحة التي يتغيّاها القانون الإلهي (القانون الإسلامي) هي المصلحة الشرعية المعتبرة لا مطلق المصلحةّ ، والمنفعة التي يريد الفقه الإسلامي جلبها ليست اللذة والشهوة أو مطلق المنفعة بالمعايير الدنيوية الخالصة للدنيا كما تذهب إليه الفلسفة الغربية العلمانية وغيرها من القضايا التي يظهر التناقض جليا لا يحتاج إلى بحث كثير.

وبناء على هذه المعطيات أصدر العلماء المسلمون رأيهم في العلمانية سواء الشاملة أو الجزئية لأنهما في النهاية طعن في علم الله تعالى الشامل للزمان والمكان. وقد اخترت بعضالنماذج من المفكرين والعلماء الذين كان لهم موقف صريح من العلمانية :

[1696]- ينظر محمد عمارة : الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية دار الشروق ط1 سنة 2003 ص33إلى 41.

أ- محمد صلاح الصاوي :أوضح محمد صلاح الصاوي موقفه من العلمانية وهو يرد على ما ذهب إليه علي عبد الرازق من زعمه أن أمور الدنيا قد تركها الله ورسوله لاجتهادات الناس، وأن الشريعة روحية محضة . فيقول :وواضح من كلامه أن الشريعة الإسلامية عنده شريعة روحية محضة جاءت لتنظيم العلاقة بين الإنسان وربه فقط .أما ما بين الإنسان من المعاملات الدنيوية وتدبير الشؤون العامة فلا شأن للشريعة به وليس من مقاصدها. فهل في استطاعة الشيخ علي أن يشطر الدين الإسلامي شطرين ويلغي منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا، ويضرب بآيات الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عرض الحائط" ؟

ويتساءل :"هل يرى الشيخ علي أن تدبير أمور الدنيا وسياسة الناس أهون عند الله من مشْيَة يقول الله فيها :{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً }[1697] وأهون عند الله من شيء من المال يقول الله في شأنه :{وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }[1698] وأهون عند الله من صاع شعير أو رطل ملح يقول الله في شأنهما: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ }[1699].

وما يقول الشيخ في مثل قوله تعالى:{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً }[1700] وقوله تعالى:{وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ }[1701] وقوله:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً }[1702].

[1697]- سورة الإسراء الآية :37

[1698]- سورة النساء الآية :5

[1699]- سورة الشعراء الآية :181

[1700]-سورة النساء الآية: 105

[1701]-سورة المائدة الآية :49

[1702]-محمد صلاح الصاوي : بين الإسلام والعالمانية الآفاق الدولية للإعلام ط1سنة 1413 هـ ص40

ب–ويرى مصطفى صبري :" أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه، ولقد كان في كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون في البلاد الإسلامية كيدا للدين ومحاولة للخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أذى وأشد كيدا"[1703] .

ج–ولم يكن رأي محمد نقيب العطاس أقل مما ذهب إليه هؤلاء المفكرون حيث يقول :"إن العلمنة ليست فقط رؤية غير إسلامية للوجود، بل إنها تقف موقفا مناهضا للإسلام نفسه، ولذلك فالإسلام يرفض العلمنة ومآلاتها النهائية ما ظهر منها وما بطن .وذلك يستوجب على المسلمين رفضها وتطهير فكرهم وحياتهم من مظاهرها، إذ هي في الواقع سم يفتك بالعقيدة الحقة والإيمان الصحيح "[1704] .

ويبرر ما ذهب إليه استنادا إلى مضمون هذه اللفظة الذي يهدم رؤية الإسلام لحقيقة الحياة، وأن العلمانية تعد بأفكارها حجابا يستر عنا الحقيقة التي يساق إليها البشر وهي الآخرة فيقول :" إن أقرب كلمة تصلح أن تكون مقابلا لمصطلح العلمانية هي ما أشار إليه القرآن الكريم بعبارة "الحياة الدنيا " . فلفظ الدنيا المشتق من فعل "دنا " يعني كون الشيء قد جعل قريبا، وعلى ذلك فالعالم قد جعل قريبا من وعي الإنسان وخبرته الحسية والعقلية .ولأن ما جعل قريبا منا محيط بنا من كل جانب بحيث إنه يبهرنا ويبعث الدهشة في نفوسنا، فإنه من المحتم أن يصرفنا ويلهينا عن الوعي لمصيرنا النهائي الذي يتجاوز هذه الحياة، أي الآخرة "[1705]

د–أما طه عبد الرحمن وفي معرض حديثه ونقده لجهود الصحوة أو اليقظة، أو كما يسميه "الانبعاث الإسلامي الجديد" وقلة اهتمام الصحوة بالجانب الروحي في الممارسة الإسلامية وتسابقها إلى

[1703]– مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ج4 ص281

[1704]–محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 67

[1705]– محمد نقيب العطاس : مداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية ص 68

الاهتمام بالجانب المادي والسياسي والاقتصادي، وبهذا تكون قد أنزلت الفرع منزلة الأصل، فيرجع سبب تقديم هذا الجانب المادي إلى أمرين :

أحدهما :استعجال المسلم تدارك التقدم الحضاري .

والثاني :وقوعه في محاكاة الحداثة الغربية .

وعند تحليله للسبب الثاني قال :" لا يصح للمسلم أن يقلّد النمط الحداثي للغرب، لأن هذا النمط بني أساسا على نبذ الأخلاق نبذا كاملا، وعلى اعتبار دخولها في العلم أو في التقنية سببا من أسباب التقهقر وإضعاف الإنتاجية فيهما، ومتى خلا العلم أو التقنية من الأخلاق، اتخذ منحى ماديا لا يلبث أن ينقطع عن النفع "[1706].

هـ –ويؤكد القرضاوي على أن العلمانية لا يمكن أن يكون لها موقف محايد من الإسلام، لأن الإسلام يواجه العلمانية بشموله لكل جوانب الحياة الإنسانية التي لا تتجزأ، ويرى الإنسان كيانا واحدا لا ينفصم، ولا يقبل الإسلام إلا أن يوجه الحياة كلها بأحكامه ووصاياه فيقول :"ولا يقبل الإسلام إلا أن يصحب الإنسان بتوجيهه وتشريعه في رحلة الحياة منذ أن يولد، وإلى أن يموت، بل قبل أن يولد، وبعد أن يموت"[1707] وهي لا تسلم له بهذا الشمول "ومن هنا يصطدم الإسلام بالعلمانية ولابد في أكثر من مجال أن يصطدم بها في كل شعبة من شعب تعاليمه الأربع الرئيسية العقائد، والعبادات، والأخلاق، والتشريع"[1708] وإن كان يرى أن بعضها أخف من بعض:

_ **فهناك ملحدون** :وبعض هؤلاء ملحدون ينكرون حقائق الإسلام بل يسخرون من تعاليمه وبخاصة عقائده من وحي ومعجزة ورسالة وغيرها، وهؤلاء بحاجة أن يؤمنوا بالله ورسالته .

[1706]– طه عبد الرحمن : سؤال الأخلاق ص 189/188

[1707]–يوسف القرضاوي :التطرف العلماني في مواجهة الإسلام نموذج تركيا وتونس ص 28

[1708]– يوسف القرضاوي : التطرف العلماني في مواجهة الإسلام نموذج تركيا وتونس ص29

_ **وهناك مقلدون** : وبعض هؤلاء ليسوا ملحدين من الأعماق، وإنما هم مقلدون للملحدين، لكونهم جهلة بالإسلام، وهؤلاء في حاجة إلى تعليم وتنوير بحقيقة الإسلام، وكشف الشبهات من قبل الراسخين في العلم الذين يصلحون لمحاورة العقلانيين المعاصرين، فهم مفتونون بالغرب المسيطر في كثير من مجالات الحياة .

_ **وهناك عملاء** : فبعض هؤلاء حاقدون على الإسلام : دينه وكتابه وتاريخه وأمته، ويحملون روحا صليبية غذّاها تعصب أعمى، وغل دفين، وسياسات ماكرة . فهم أذناب منهزمون يتقربون للغرب ليرضى عنهم، ويحققوا بعض المصالح الذاتية. وفي مثل هؤلاء قال تعالى:{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ }[1709] وهؤلاء لا حيلة فيهم إلا أن يشفي الله صدورهم ويزيح الغشاوة عن أعينهم فيتبيّنوا فضل الإسلام.

و-أما محمد قطب فيرى أنه "إذا صحت دعوى العلمانيين في الغرب بالنسبة للدين الكنسي، أنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما في شؤون الآخر-وهي كما رأينا ليست صحيحة في الحقيقة – فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح على الإطلاق "[1710] . ويدلل على ذلك بأن الدين الحق لا يمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة، فالالتزام بالشريعة –في دين الله الحق – هو مقتضى العقيدة ذاتها، مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله .. بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى، وهو الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم إلى شريعة الله، ورفض التحاكم إلى شريعة سوى شريعة الله "[1711]. قال تعالى {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}[1712]

[1709]- سورة البقرة الآية :120

[1710]-محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 495

[1711]-محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 496

[1712]- سورة النساء الآية :65

ويؤكد محمد قطب أن إخلاص العبادة يقتضي الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى، ويقتضي توجيه الشعائر التعبدية له وحده، ويقتضي كذلك التصديق بكل ما جاء من عند الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، والاحتكام إلى شريعته وحدها دون الشرائع الجاهلية التي يصنعها البشر والمتمثلة في:

1-الاعتقاد بوجود آلهة مع الله .

2-توجيه الشعائر التعبدية لغير الله .

3-التحليل والتحريم من دون الله .

"وكلها مجتمعة شرك، وكل واحدة بمفردها شرك لا يستقيم معه إيمان ..والمعاصي تقع من البشر جميعا :" كل بني آدم خطاء " ولكنها لا تخرجهم من الإيمان باتفاق علماء الأمة ..إلا أن يجعلوها شرعا، فعندئذ يكفَّرون بها . بل يكفَّرون بالتشريع ولو لم يرتكبوا المعصية بأنفسهم ..فالذي يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر بقطع يد السارق، ولكني أرى العقوبة المناسبة للسارق هي: السجن – وهو ما تفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر وإن لم يسرق بنفسه ولم يُفَكِر بالسرقة "[1713] .

ثم يضيف بعد أن ساق مثالا آخر متعلقا بمرتكب فاحشة الزنا فقال: "وكذلك كل شَرْع من شَرْع الله ..من اعتقد بأفضلية غيره عليه، أو حتى مساواته معه، فعَدَلَ عنه إلى غيره، أو رضي بغيره ولم يجاهد بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، فقد خرج من دائرة الإيمان، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم:{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ .وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ .أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[1713]- محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 498

.إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[1714].

ويختم موقفه من العلمانية بقوله :"فإذا كان هذا أمر الله ورسوله فأنّى يقول قائل إن الإسلام يمكن أن يلتقي مع العلمانية التي تقول لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ؟ !أو تقول إن الاقتصاد لا علاقة له بالدين ..أو تفصل بين حكم الدين أو أي شيء في الحياة "[1715].

هؤلاء بعض من المفكرين والعلماء الذين شهدوا زمن العلمانية، ولمسوا آثارها في الحياة الغربية والإسلامية يصدرون أحكامهم المنبثقة من حقيقة العلمانية، ومدى خطورتها على الدين الإسلامي، ومناقضتها له في كل شيء .حتى فيما يتعلق بالعلوم الكونية، فإنه قد يتفق معها في وسائل البحث، لكن في أخلاقيات العلم وغاياته تعود لتتناقض معه، ومن هنا فلا موقع للعلمانية بين المسلمين تصورا وسلوكا وتطبيقا . فطريق التقدم الحقيقي موجود في غير النظريات العلمانية .

أما فيما يخص تصورها للحياة فالتناقض يكبر، فقد قسمت العلمانية الحياة إلى" دين" و"دنيا" و"دولة"، ونحن نتساءل من له الحق في تصنيف قضايا الحياة إلى قضايا دين، ودنيا، و دولة ؟ ومن هذا الذي يحدد نطاق حكم الله تعالى ؟ .

لا شك أن هذا التصنيف فيه مغالطة ناتجة من تصور قاصر لطبيعة الوجود، وهو متعذر لكون القضايا متشابكة جدا، بحيث لا يمكن الفصل بين الديني والدنيوي والسياسي، لأن ما من قضية إلا وللوحي فيها رأي أو حكم من الأحكام الخمسة :الوجوب والاستحباب أو المباح أو الكراهة أو الحرمة .ومن ثم فالعلمانية أيا كانت فهي مخالِفة مخالَفة تامة لرؤية الإسلام سواء لقضايا الوجود أو لقضايا تنظيم الحياة الإنسانية، وبهذا الاعتبار فهي مرفوضة رفضا تاما لأنه ليس من حقها أن تعزل

[1714]- سورة النور الآية:51/50/49/48/47

[1715]- محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ص 499

نظر الشرع في أي جزئية من الجزئيات فكل قضايا الحياة مرتبطة بالشرع، إما بنص صريح أو ظني أو اجتهاد يستصحب روح الشريعة ومقاصدها في إصدار الأحكام .

وأختم بما انتهى إليه محمد عمارة بعد إجرائه لمقارنة بين مضامين العلمانية والإسلام فيقول : " تلك هي مضامين "العلمانية ".. وهذه هي سمات مجتمعها ..وفي المقارنة -الموجزة – بينها وبين معالم "الإسلام السياسي والاجتماعي والحضاري "تظهر جلية حقيقة المقولة التي نزكيها والتي تقول :"إنه لا مكان "للعلمانية " مع الإسلام، ولا حاجة بالمسلمين إليها إذا كانوا حقا مسلمين يسترشدون بالإسلام ؟.."[1716] و لعله يقصد أن فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائقه، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين لأنهم حينذاك ألغوا ألوهية الله تعالى وإن كانوا معترفين بربوبيته.

المطلب الثالث : موقف مؤسسةالأزهر الشريف من العلمانية الشاملة:

من خلال المواقف السابقة يظهر التطابق جليا في موقف هؤلاء العلماء والمفكرين المعتبرين الذين لقوا قبولا في الأمة، وحتى لا يبقى النظر إلى الموقف من العلمانية على أنه قد يكون مجرد رأي لعالم، فإننا نختم مواقف العلماء والمفكرين المتطابقة، بموقف مماثل لمؤسسة عريقة في البلاد الإسلامية وهو موقف مؤسسة الأزهر الشريف، التي تؤكد المواقف السابقة، وتبيّن أنها قد تفطنت مبكرا لمضمون الفكر العلماني، وحددت بجلاء موقفها منه، رغم أن بعض العلماء من أبناء [1717]الأزهر الشريف

[1716]–محمد عمارة : العلمانية ونهضتنا الحديثة دار الشروق القاهرة ط2 سنة 1986 ص18

[1717]– منهم الدكتور محمود "أبو رية" في كتابه "أضواء على السنة المحمدية "،والدكتور "خالد محمد خالد" في كتابه "من هنا نبدأ "، والدكتور "منصور فهمي "في كتابه "حال المرأة في الإسلام"، والدكتور "نصر حامد أبو زيد" الذي توزعت إساءاته للعقل المسلم والشريعة في معظم كتبه. ينظر العلمانية والعولمة والأزهر ص 50/49 .ويشير يوسف القرضاوي في كتابه أعداء الحل الإسلامي ص 218 إلى عودة الكثير ممن زلت أقدامهم من هؤلاء بعد أن انكشفت لهم الحقيقة فيقول :" وبارك الله في رجال انكشفت لهم الحقيقة، فأعلنوها ولم يبالوا .مثل د "مصطفى محمود"، والأستاذ "اسماعيل مظهر"، والأستاذ "خالد محمد خالد" وغيرهم كثير، ممن

قد تأثروا ببريق العلمانية في بدايتها، ثم تراجع بعضهم عما ذهب إليه، إلا أن موقف الأزهر "كمؤسسة " كان موقفا حاسما، حيث صدرت فتوى الشيخ عطية صقر رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ردا على السؤال التالي :

س: يتحدث الناس كثيرا عن "العلمانية" فما هو أصلها، وما موقف الإسلام منها ؟.

ج:" مما هو مقرر أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا بد من تحديد المفاهيم حتى يكون الحكم عليها صحيحا، والعلمانية لفظ وجد في كتبنا العربية حديثا عند ترجمة ما يقابلها في اللغات الأجنبية عن طريق الإدارة العامة للتشريع والفتوى بمجلس الأمة المصري –آنداك –كما هو ثابت في الموسوعة العربية للدساتير العالمية التي أصدرها المجلس المذكور سنة 1966م [1718].

وبعيدا عن صحة النطق بهذه الكلمة الذي ذهب فيه الكتاب مذاهب شتى، وكان فرصة استغلت للدعوة إلى وجه نظر معينة، كما هو شأن المتشابه من النصوص الذي جاء في قوله تعالى {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ }[1719].

بعيدا عن ذلك، فإن نسبة العلمانية إلى العلم أو العالم ليست على قياس لغوي، وهي ترجمة للكلمة الإفرنجية "لاييك " أو " سيكولاريسم " وتعني "لا دينية " على أي وجه تكون، وفي أي ميدان

صدق فيهم قول الله تعالى :" فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب " الزمر 18/17.

[1718]– الشيخ عطية صقر –أحسن الكلام في الفتاوي والأحكام –المجلد الثاني العدد 90 الطبعة الثانية نشر دار الغد العربي – العباسية –القاهرة ص 454 /457.نقلا عن كمال الدين عبد الغني المرسي : العلمانية والعولمة والأزهر دار المعرفة الجامعية ط1 سنة 1999 ص 187/186

[1719]–سورة آل عمران الآية :7

تطبق، وعلى أي شيء تطلق . وهي نزعة أو اتجاه أو مذهب اعتنقه جماعة في أوروبا في مقابل ما كان سائدا في العصور المظلمة التي تسلَّط فيها رجال الدين على كل نشاط في أي ميدان، مما تسبب عنه ركود وتخلُّف حضاري في كل المجالات .

وكان معتنقو هذا المذهب في أول الأمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد وقفوا من الدين موقف عدم المبالاة به، وتركوا سلطانه يعيش في دائرة خاصة واكتفوا بفصله عن الدولة .ومن أشهر هؤلاء " توماس هوبز" الإنجليزي المتوفى سنة 1679م " جون لوك"المتوفى سنة 1716م " جان جاك روسو " المتوفى سنة 1778م.

وفي القرن التاسع عشر كانت المواجهة العنيفة بين العلمانية والدين، وذلك لتغلغل المادية في نفوس كثيرة ممن فتنوا بالعلم التجريبي إلى الحد الذي أنكروا فيه الأديان وما جاءت به من أفكار، واتهموها بتهم كثيرة كرد فعل للمعاناة التي عانوها من رجال الدين وسلطانهم في زمن التخلف الذي نسبوه إلى الدين، ذلك الدين الذي كان من وضع من تولوا أمره، والدين الحق المنزل من عند الله منه بريء [1720].

ومن أشهر المهاجمين كارل ماركس الألماني المتوفى سنة 1883 م، وفريدريك انجلز الألماني المتوفى 1895 م و فلاديمير أوليافوف لينين الروسي المتوفى 1924 م .هؤلاء لم يقبلوا أن تكون هناك سلطة ثانية أبدا حتى لو لم تتدخل في شؤون الدولة ...وقد تأثر بهذا المذهب كثير من الدول الغربية، وقلّدها في ذلك بعض الدول الشرقية، ووضعت دساتير على أساس الفصل بين السياسة والدين عن النشاط السياسي والاجتماعي.

إن العلمانية بهذا المفهوم أي عدم المبالاة بالدين يأباها الإسلام، الذي هو من وحي الله وليس من صنع البشر، فهو منزه عن كل العيوب والمآخذ التي وجدت في الأديان الأخرى التي لعبت فيها الأصابع وحرفتها عن حقيقتها، وذلك لأنه دين الإصلاح الشامل، الذي ينظم علاقة الإنسان بربه

[1720]-عطية صقر : المرجع السابق ص 453/452

وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه، ويوفر له السعادة في الدنيا والآخرة على السواء، فهو كما يقال، دين ودنيا أو دين ودولة أو عبادة وقيادة ...وقد جاءت الفتوى مبررة عدم الحاجة إلى العلمانية في البلاد الإسلامية لاختلاف طبيعة الإسلام كدين عن المسيحية ويتجلى الاختلاف في المظاهر التالية:

1-عقائد الإسلام ليست فيها خرافات ولا أباطيل، فهو يقدس العقل ويأمر بتحكيمه إلى حد كبير.

2-الإسلام ليس منغلقا على معلومات معينة يتلقاها بنصها من الوحى، بل هو كما يقال، دين منفتح على كل المعارف والعلوم ما دامت تقوم على حقائق وتستهدف الخير .

3-الإسلام يمقت الرهبنة التي تعطل مصالح الدنيا، ويجعل النشاط الذي يبذل لتحقيق هذه المصالح في منزلة عالية، لأنه جهاد في سبيل اللّه، والتاجر الصدوق الأمين يحشر مع النبيين والصديقين فهو دين يعمل للدنيا والآخرة معا.

4-الإسلام يقرر أن السلوك الاجتماعي مقياس لقبول العبادة، فمن لم تثمر عبادته، بمفهومها الخاص من العلاقة بين العبد وربه، استقامة في السلوك فهي عبادة مرفوضة لا يقبلها اللّه :{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ .الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ .وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ }[1721].

5- الإسلام ليس فيه كهنوت يتحكم فيه بعض من الناس في مصائر الناس بإدخالهم الجنة أو حرمانهم منها، بناء على اعتبارات خاصة، فمدار ذلك على العقيدة الخالصة والعمل الصالح، وليس المشتغلون بعلوم الدين إلا معلمين ومرشدين، والأمر متروك بعد ذلك لمن شاء أن يستفيد أو لا يستفيد بالتطبيق . وقد يكون المتعلم أقرب إلى اللّه من معلمه، بالتزام الطريق المستقيم الذي رسمه اللّه لهم جميعا، فما دامت العبادة للّه وحده فهو وحده الذي يقبل منها ما يشاء .

6-الإسلام ليس فيه سلطة مقدسة مستمدة من سلطة اللّه، وليس في البشر من هو معصوم من الخطإ، إلا من اصطفاه اللّه لرسالاته، والحكم من ذوي السلطان ليس لذواتهم، بل الحكم للدين أولا و آخرا، فكل شيء فيه اختلاف رأي يرد إلى اللّه وإلى الرسول، أي: الكتاب والسنة .

[1721]- سورة الماعون الآية : 7/6/5/4

7-مبادئ الشريعة تستهدف تحقيق المصلحة، فإذا لم يوجد نص واضح في أمر تعددت فيه وجهات النظر من أهل النظر وكان يحقق المصلحة العامة كان مشروعا، وبخاصة في أمور الدنيا، فالناسأعلم بشؤون دنياهم .

8- الإسلام دين تقدُّم وتطور وحضارة، ليس جامدا ولا متمسكا بالقديم على علاته، فهو ينهى عن التبعية المطلقة في الفكر أو السلوك الذي يظهر بطلانه، بل يقرر أن اللّه يبعث مجددين على رأس كل قرن، يوضحون للناس ما أُبْهِم، ويصححون لهم ما أخطأوا فيه ويوائمون بين الدين والحياة فيما تسمح به المواءمة، لأنه دين صالح لكل زمان ومكان، ومن مبادئ التربية المأثورة عن السلف :لا تحملوا أولادكم على أخلاقكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم . والمراد "بالأخلاق" هنا العادات التي تقبل التغيير، أما أصول الأخلاق فثابتة.

بهذا وبغيره نرى أن الإسلام يرفض العلمانية، وأن المسلمين ليسوا في حاجة إليها، وإنما هم في حاجة إلى فهم دينهم فهما صحيحا، وتطبيقه تطبيقا سليما كاملا كما فهمه الأولون وطبقوه، فكانوا أساتذة العالم في كل فنون الحضارة والمدنية الصحيحة، وضعف المسلمين وتأخرهم ناتجان عن الجهل بحقائق الدين، وبالتالي عن العمل بما جاء به من هدى، وبالجهل قلدوا غيرهم في مظاهر حضارتهم، وآمنوا بالمبادئ التي انطلقوا منها دون عرضها على مبادئ الإسلام، لأنهم لا يعرفون عنها إلا القليل .

ولئن رأينا بعض دول المسلمين الآن قد نقلوا معارف غيرهم ممن يدينون بالعلمانية، فليس ذلك دليلا على أنهم آمنوا بما آمنوا به، وإنما هو للاطلاع على ما عندهم حتى يعاملوهم على أساسه، وإذا كانوا قد قبسوا من مظاهر حضارتهم فذلك للاستفادة من نتائج علمهم وخبرتهم فيما يقوّى شوكة المسلمين ويدفع السوء عنهم، والتعاون في المصالح أمر تفرضه طبيعة الوجود، وهو مشاهد في كل العصور على الرغم من اختلاف العقائد والأديان . والمهم ألا يكون في ذلك مساس بالعقيدة أو

الأصول المقررة وأن يستهدف الخير والمصلحة ، هذا والأدلة على ما قلناه مما جاء به الإسلام كثيرة تركناها للاختصار، والمقصود هو إلقاء بعض الضوء على هذا المصطلح وموقف الدين منه[1722].

يبدو من خلال عرضنا أن الفكر العلماني سواء في أسسه الغربية أو فيما يعرضه العلمانيون العرب، لا يملك أي مستند عقلي أو ديني أو نفسي أو تاريخي أو واقعي، يثبت أن العلمانية هي الأصلح للبشرية، بل العكس تماما فإن التاريخ يشهد أن الإنسانية شهدت أسوأ مراحل حياتها، عندما هيمن الفكر المادي الإلحادي الذي يقيم الحياة على ساق واحدة، ويحاول الطيران بجناح واحد ويحاول أن يرى الحقيقة بعين واحدة، وفي ذات الوقت يؤكد التاريخ أن الحالة الغربية في محاولة ترسيخ العلمانية الشاملة بلغت درجة متدنية من الانحطاط الأخلاقي والإنساني لم تحصد البشرية في ظلها إلا التعاسة على الرغم من المستوى التكنولوجي الذي بلغته الحضارة الغربية .

بل إن هذه التكنولوجيا المسعورة بقدر ما يسّرت الحياة للإنسان كانت تكاليفها باهظة على نفسيته وصحته وعقله وعلاقاته وبيئته وغيرها. وينقل لنا محمد عمارة شهادة "جوتفرايد كونزلن"[1723] من خلال مؤتمر نظمه المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية –بعمان – في أفريل سنة 1997م عن " الدين والعلمانية" حيث قدم بحثا فيه كلام نفيس من مثل قوله :"لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي ..وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني .

ومن نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملا...وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم ..بل وزوال أهميته أيضا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام ..فسلطة الدولة وليست الحقيقة هي التي تصنع القانون وتمنح الحرية الدينية .

[1722]- عطية صقر :المرجع السابق ص 454إلى 458

[1723]–عالم اجتماع ألماني مرموق، وفي ذات الوقت قسيس انجليكاني : أي أنه خبير في الدين والدنيا في إطار الحضارة الغربية .

ويخلص إلى نتيجة مفادها أن" الحداثة العلمانية" غير واثقة من نفسها، فهي مفتقرة إلى اليقين، مع تفكك أنساقها العقلية والعلمية وتحققت فيها نبوءة نيتشه (1844-1900م) عن " إفراز التطور الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه " ..وبعبارة " ماكس فيبر "(1864-1920) "لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم وعلماء لا قلوب لهم " ! وبذلك فقد الناس النجم الذي كانوا به يهتدون وهذه شهادة تحتاج إلى تأمل المخلصين [1724] .

وها هو العلم ذاته الذي تفخر به العلمانية يكشف عن إفلاسها في كل خياراتها ونظرياتها المتعلقة بالجانب الإنساني، وقد اختصر عبد الوهاب المسيري أزمة العلمانية الشاملة في كون إنجازاتها قلبت لديها المفاهيم فتحولت الوسائل غايات، حتى أصبح التقدم العلمي غاية في حد ذاته لا تحده حدود أو قيود، لأن التقدم المنجز كان من خلال التخلي عن كل القيم المطلقة فقال :" ...ولكن ما نعرفه أن هذا العلم كان المارد الذي خرج من القمقم وبدأ يخضع العالم لمنطقه وحركيته وتراكمه، دون أي اكتراث بالإنسان.وتحول الإنسان من كونه غاية في حد ذاته إلى كونه وسيلة توظف وتستخدم.

لقد ظهر عدد من المفاهيم المختلفة التي تحررت تماما من القيمة، فهناك العلمانية الشاملة المتحررة من القيمة، والديمقراطية المتحررة من القيمة، والحرية المتحررة من القيمة، وأخيرا هناك العلم المتحرر من القيمة . لكن التحرر من القيمة يعني في واقع الأمر التحرر من الإنسانية. المسألة ليست مسألة علم مأزوم، بل مسألة حضارة جعلت من الحياد هدفا، ومن التخلي عن القيم سبيلا لتحقيق التقدم "[1725] .

[1724]- ينظر محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة ص 414/413

[1725]- عبد الوهاب المسيري : العلمانية والحداثة والعولمة ص 54.

صحيح يمكن الحديث والاعتراف بدور الفكر العلماني في تحريك طاقة الإنسان الخلاقة في ميدان العلوم الكونية، ولكنه ظل عاجزا أمام الآثار الناجمة عن الغلو في توجيه العلم، لأنه لا يملك فلسفة توجيهه وترشيده، حيث ظن أنه يمكن ضبط كل العناصر معمليا.

ولكن تبيّن فيما بعد أنه غير قادر على التحكم في منجزاته العلمية المخبرية الذي يزعم امتلاكه لقوانينها، وعلى سبيل المثال النفايات النووية التي أكد أنه لا يمكن تسربها قبل مئتين وخمسين ألف سنة لكنها تسربت بعد عامين من دفنها في صحراء "نيفادا "، فإذا كان الأمر مع هذه القضايا على هذا النحو، فهو أعقد مع الظواهر الإنسانية والاجتماعية والنفسية [1726].

وهذا ما يمكن ملاحظته من أن العلم تجاوز حدوده مرة أخرى حين زعم- بما لا يملك إليه سبيلا - قدرته على صياغة الحياة الإنسانية في ميادين وضع الرؤى الفلسفية للوجود والإنسان والأسرة، والعلاقات الإنسانية والمالية والسياسية وغيرها من القضايا التي خاض فيها الفلاسفة العلمانيون، وهم لا يملكون آليات البحث في هذه المجالات، فبلغ الفساد الذي نتج عن نظرياتهم مبلغا عظيما يكاد يفني البشرية.

و لا شك أن هذا لم يأت من تقصيرهم فقد بذلوا كل ما في وسعهم لنصرة مذاهبهم، ولكنه آت من قصورهم، فالعقل البشري له حدود لا يمكن أن يتخطاها مهما بلغ من الاجتهاد والذكاء، ليظل الوحي وحده القادر على اختراق مجالها والكشف عن حقيقتها، ومن ثم يختصر الجهد البشري ويوجّه طاقاته لخدمة وظيفة الاستخلاف المنوطة ببني الإنسان حتى لا تنقطع الصلة بين الأرض والسماء . فالفرصة مازالت سانحة لدراسة التجربة الغربية ومتتاليتها، وذلك من أجل صياغة منظومة تنفعنا وتنفع بقية البشر وتنفع الإنسان الغربي ذاته.

ونخلص في نهاية الفصل إلى أن العلمانية الشاملة لا تملك أي حجة أمام الحجج القرآنية في أي مجال من المجالات، ولا شك أن التناقض واضح جدا بين المنظومتين في الأسس والمنطلقات وفي

[1726]- ينظر المرجع نفسه ص 55/54.

المفاهيم والممارسات، وفي الوسائل والغايات، بل إن منظومة القيم الغربية متناقضة مع ذاتها فهي خليط غير منسجم من النظريات، حاولت العلمانية أن تظهرها منظومة متماسكة، لكنها لم تفلح في ذلك، وظهر عوارها لتناقضها مع الفطرة، واصطدامها مع كثير من الحقائق العلمية الثابتة، ومخالفتها لمنطق العقل، ومعاداتها للدين.

ولعل النتائج المرة التي يتجرعها العالم فيما يعرفه من انتهاكات في جميع مجالات الحياة، يعد دليلا كافيا على عجز هذه المنظومة، التي رشحت نفسها لتقديم بديل إنساني، ومن ثم فهي مرفوضة قطعا في تصورنا الإسلامي .لأنها فضّلت الفصل بين أركان الحضارة الثلاث : (العلم، والإيمان، والعمل) مخالفة ما تعلمته من الحضارة الإسلامية كما ظهرت صورتها الرائعة، فأزاحت ركن الإيمان من المعادلة، وتنكرت له، فأصابها التشوه والمرض الحضاري بسبب اتجاهها العلماني، على الرغم من كونها تتلمذت على الدرس الذي تلقته من الحضارة الإسلامية في الجمع بين العلم، والإيمان، والعمل، وفي ذلك يقول يحي هاشم حسن فرغل :"ومن عجب أن الحضارة الغربية المعاصرة، لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بالتمرد على التراث اليوناني، والأخذ بالمنهج التجريبي كصورة من صوّر الربط بين العلم والعمل : درسا تلقته من الحضارة الإسلامية .

ولكن هذا العجب يلحقه الأسى، إذ أن هذه الحضارة الغربية لم تكمل الدائرة في أركانها الثلاثة، فاستبعدت عنصر "الإيمان ":تسليما لله، وقامت على" العلمانية"[1727].

وعلى الرغم من الخلاف الواضح بين التصور العلماني للقضايا والتصور الإسلامي لها .يصادفنا سؤال وجيه وهو: هل يمكن أن يتعايش الجميع في مجتمع إنساني يتبادل فيه الناس المنافع والمصالح، وينضجون التجربة الإنسانية، ويعملون على إيجاد عالم متوازن يلتقي فيه الجميع على صيانة كرامة الإنسان، ودعم وجوده على الأرض، في أجواء تظللها الأخوة الإنسانية ؟ وهل هناك منظومة

[1727]– يحي هاشم حسن فرغل: الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة دون ط سنة 1998 ص368

مرجعية، ومشتركات إنسانية جامعة ؟ وما هي آليات هذه الرؤية ؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه من خلال الفصل القادم في بيان "قيم المشترك الإنساني".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس: منظومة قيم المشترك الإنساني

وأتناول فيه المباحث التالية

المبحث الأول:طبيعة العلاقة بين الحضارات

المبحث الثاني:علاقة الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية بالإنسانية

المبحث الثالث:القيم المرجعية للإنسانية

المبحث الرابع: منظومة قيم الإنسانية بين المادية والروحية

تمهيد:

تؤكد الدراسات الاجتماعية والنفسية أن العالم اليوم في أشد مراحل الحضارة الإنسانية حاجة لإعادة بناء منظومة قيمية جامعة، وهذه الرؤية التي تدعو للتقارب والتعايش على مبدأ المصلحة المشتركة، إنما هي رؤية العقلاء الذين يريدون الإنصاف وعدم ترجيح كفة أمة على أخرى، فإن ما يمر به العالم من أحداث وصراعات تؤكد على ضرورة البحث عن صيغة جديدة تعيد التوازن لهذا العالم -أقصد التوازن النفسي والأخلاقي- قبل الحديث عن التوازن في ميادين القوة والاقتصاد، لأن إعادة بناء المفاهيم من شأنه أن يترك مساحة للتواصل بين الشعوب، ويمنع من الصدام ومن استغلال الإنسان

لأخيه الإنسان، سواء في علاقات الشعوب بعضها ببعض، أو داخل الشعب الواحد حيث تتعدد المرجعيات والاتجاهات.

ولعل المتأمل في بعض النصوص القرآنية يلحظ هذا المنحى واضحا، وهوالدعوة إلى البحث عن أسس للمشترك الذي يمهّد للتعايش بين المختلفين، ويؤكد للتركيز على الأهم، حتى تتوفر أجواء الحفاظ على العلاقات الإنسانية من جهة، وعلى إنسانية الإنسان من جهة أخرى. والدعوة القرآنية لا تنطلق من فراغ، وإنما من واقع الحياة .

فالإنسان ركّب في فطرته حب الاجتماع والاستئناس بغيره من بني جنسه، كما أنه لا يقبل أن يعيش في حالة دائمة من العزلة، أو الصراع الدائم الذي يمكن أن يطبع الحياة الإنسانية، بسبب الطغيان الممارس من بعض النفوس المريضة، إذ أنه من المفروض أن تكون حالة التوتر بين البشر حالة طارئة واستثنائية. خاصة أن كثيرا من المشتركات أصيلة في النفس الإنسانية.

لذلك نجد أن القرآن الكريم يوجّه النبي عليه الصلاة والسلام كي يركز على النقطة المشتركة مع أهل الكتاب وهو التوحيد، ليجعلها منطلقا يؤسس من خلاله للقاء إنساني تحت مظلة هذا المشترك.

قال الله تعالى :{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[1728].

ونظرا لهيمنة روح الصراع عند جلّ الأطراف –في هذه المرحلة التاريخية – فإن حالة التأزم المزمنة التي يشهدها العالم أرهقت الإنسانية، نتيجة ما في هذا العالم من مظالم، بسبب استغلال بعض الأمم لحالة القوة التي بلغتها، ووظفتها للسيطرة على بعض الشعوب من جهة، ومن جهة أخرى حالة الرخاء الفاحش التي تتمتع بها تلك الأمم على حساب شعوب مستضعفة، ومنطق الاستكبار الذي يحركها وهو يشبه كثيرا منطق حضارات سادت ثم بادت، حيث سيطرت روح القوة على سلوكها :{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ

[1728]– سورة آل عمران الآية :64

أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ }[1729].ولا شك أن هذا السلوك أحدث خللا في قضية التواصل بين الشعوب، وهو ما يجعل إنجازات البشرية في هذا العصر عرضة للانهيار . وقد أدرك "ألبرت شقيتسر"[1730] هذا الخلل ودعا إلى القيام بموقف عقلي يرد اللحمة الإنسانية، وذلك من خلال كتابه "فلسفة الحضارة" في فصل سماه " أخلاق توقير الحياة"[1731] على حد تعبيره، وهذا يتطلب من الدولة الحديثة أن تسعى لتجعل بنفسها شخصية أخلاقية روحية تمارس من خلالها سلوكا أكثر عدالة مع الشعوب المستضعفة فقال:" ولن تستطيع الدول الحديثة أن تتخلص من أوزار آثامها، إلا بمعاملة الشعوب وراء البحار بروح تختلف عن تلك التي عاملتها بها بالأمس، ولا تزال تعاملها بها اليوم "[1732].

وبالنظر في التاريخ الإنساني يمكن أن نلاحظ أن هناك محطات أساسية أمكن التعايش فيها بين الشعوب المختلفة، بحيث تقلّصت مساحات الصراع بين بني البشر، فيمكن الاستئناس بها لاستلهام المشترك الذي يجمع بني الإنسان، وندرس مقومات هذا الاجتماع الإنساني، حتى لا نجعل من الاختلاف وسيلة للتقاتل الدائم . من هذا المنطلق كان السعي لاكتشاف هذا المشترك ضرورة حضارية، لا يمكن التهاون في البحث عنه .

[1729]– سورة فصلت الآية :15

[1730]–هوألبرت شقيتسر (1875 – 1965)فيلسوف وطبيب وعالم ديني وموسيقي وفيزيائي ألماني،أصله من الألزاس .حصل عام 1952 على جائزة نوبل للسلاملفلسفته عن تقديس الحياة. لكن من أعظم وأشهر أعماله تأسيس وإدارة مستشفى في الغابون، غرب وسطأفريقيا .نظر ته للعالم تقوم على فكرته عن تقديس الحياة، التي كان يُعتقد أنها واحدة من أكبر مساهماته للبشرية. و في رأيه أن اضمحلال الحضارة الغربية يعود بالأساس إلى التخلي عن الأسس الأخلاقية. وأعرب عن قناعته الراسخة بأن احترام الحياة هو أعلى مبدأ يجب التحلي به، وهذا التمجيد للحياة ذكرهفي كتابه :فلسفة الحضارة، في الفصل 26.

[1731]– ألبرت شقيتسر : فلسفة الحضارة ترجمة عبد الرحمن بدوي مراجعة زكي نجيب محمود المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سنة 1963 ص 376

[1732]– ألبرت شقيتسر: فلسفة الحضارة ص418

ولما كان القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم قال تعالى : {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً }[1733] رأيت أن أجعل من القيم التي يدعو إليها منهجا يؤسس لهذه الرؤية باعتباره الهداية الإلهية التي جاءت للمحافظة على حق الإنسان في الحياة الكريمة، فالمنظومة القيمية التي جاء بها الإسلام جاءت معبرة عن الفطرة الإنسانية من جهة، قال الله تعالى :" {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1734] وأن الرسالة الإسلامية جاءت للناس كافة من جهة أخرى. قال الله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }[1735].

ومن هنا فالقيم التي تدعو إليها عقيدة التوحيد تعبر بحق عن طموحات الإنسان السوي الذي لا يقطع الصلة بينه وبين بني جنسه، مهما بلغت درجة التباين بينهم، فإن فرص الالتقاء ممكنة إذا لم تكن على كل شيء ففي بعض الأشياء، وإن لم تكن اليوم فغدا، عندما تنتفي المعوّقات وتتقارب الرؤى بفعل الاحتكاك، ونضج الأفكار وتجرد النفوس للحقيقة، ذلك أن رسالة الإسلام رحمة للعالمين وهادية إلى الصراط المستقيم، وكل ما فيها من القيم لا يرفضها العقلاء من الناس، وهي تعبّر بحق عن الرؤية الحضارية للحياة الإنسانية. قال الله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[1736] وقال سبحانه:{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[1737].

[1733]- سورة الإسراء الآية :9

[1734]- سورة الروم الآية :30

[1735]- سورة سبأ الآية :28

[1736]-سورة الأنبياء الآية :107

[1737]- سورة الأنعام الآية :153

وهنا يجدر بنا طرح التساؤلات التالية. ما مفهوم الحضارة الإنسانية؟ وما طبيعة العلاقة بين الحضارات ؟ وأي الحضارات أقدر على بناء منظومة قيمية تجمع الإنسانية على كلمة سواء، وتخفِّف حدة العداء بين الشعوب ؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه في هذا الفصل من خلال مباحثه.

المبحث الأول :طبيعةالعلاقة بين الحضارات

المطلب الأول :مفهوم الحضارة الإنسانية :

أول ما نقرره في هذا الصدد أنه ليس للحضارة مفهوم واحد متفق عليه بين المفكرين، فقد كان هذا المصطلح في القرنين السابع عشر والثامن عشر يعد شكلا من أشكال الثقافة. والثقافة كما يعرفها مالك بن نبي أنها: مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه "[1738].

ويعرفها تايلور الثقافة في كتابه الثقافة البدائية أنها :" ذلك الكل المركب من المعارف والعقائد والفن والأخلاق والقانون والأعراف وكل ما اكتسبه الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع ما"[1739] .

ويعرّف محمد سعيد رمضان البوطي الحضارة بأنها :"ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة "[1740] .

فالحضارة في مفهومها العام مهما اختلف الحديث عنها تمثّل الجهود التي يبذلها الإنسان للانتقال من حالة البداوة وبساطتها إلى حياة العمران وتعقيداتها، وتكون بالضرورة نتيجة انعكاس لنوع الثقافة السائدة في مجتمع ما.

وإذا كانت الثقافة هي المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وفي نطاقه يتحرك الإنسان المتحضر، فهناك تداخل حقيقي بين الثقافة والحضارة، لأن الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة

[1738]– مالك بن نبي :شروط النهضة ص 83

[1739]–تايلور :الثقافة البدائية نشر في 1871 نقلا عن عبد الكريم بكار : من أجل انطلاقة حضارية شاملة دار القلم دمشق ط2 2001 ص 113.

[1740]–محمد سعيد رمضان البوطي: "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم ص19

معينة، وتمكن الفرد من الولوج إلى البعد الإنساني، فكلاهما يشير إلى مجمل أسلوب الحياة لدى شعب ما، وكلاهما يضم المعايير والقيم والمؤسسات وطرائق التفكير، التي علّقت عليها أجيال متعاقبة أهمية أساسية في مجتمع ما، ومن هنا فالحضارة الواحدة تتصف بالوحدة الثقافية لمكونها البشري، وتتميز عن غيرها من الحضارات في قضايا جوهرية .

ومهما يكن من تباين في وضع مفهوم للحضارة ومدى التقائه مع مفهوم الثقافة، فالأمر المتفق عليه بين الباحثين أن للحضارة بعدين أساسيين لا تخلو منهما أي حضارة إنسانية :

أولاهما: البعد الروحي الأخلاقي .

وثانيهما: البعد المادي العمراني .

ومن المفيد هنا أن ننقل هنا شهادة أحد فلاسفة التاريخ وهو ألبير شقيتسر وهو يوازن بين مكونات الحضارة فيقول :" وإني بوصفي طبيبا وجراحا عندي من الروح العصرية ما يجعلني قادرا على تقدير روعة ما بلغه هذا العصر من تقدم في النواحي الصناعية والمادية، لكن برغم هذا كله فإني على يقين من أن العناصر الجمالية والتاريخية والاتساع الرائع في معارفنا المادية وقوانا كل هذا لا يكوّن جوهر الحضارة، وإنما يتوقف هذا الجوهر على الاستعدادات العقلية عند الأفراد والأمم القاطنة في العالم، وما عدا هذا فليس إلا ظروفا مصاحبة للحضارة لا شأن لها بجوهرها."[1741]

والحق يقال أن دعوى التحضر لا تصدق إلا إذا كان التمييز بين ما هو جوهري للحضارة، وما ليس كذلك، ذلك لكون الحضارة مزدوجة الطبيعة، وهذا التحليل للازدواج، يقودنا إلى الوقوف على أي النوعين من العناصر أكثر تأثيرا في الحضارة، ومن ثم يمنحها المعنى الحقيقي للتقدم كما يشير إلى ذلك مصطفى السباعي [1742].

[1741]– ألبيرت شقيتسر :فلسفة الحضارة ص 4/3

[1742]–ينظر مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص45/ 46

نستنتج من كل هذا أن الحضارة الحقيقية هي التي تملك في اتجاهها العام غاية واضحة تتمثل في خدمة أهداف الإنسانية (البقاء) و (الارتقاء) . ولا يمكن أن يتسم مذهب أو تخطيط وحتى سلوك بالسمة الحضارية ما لم يكن متماشيا مع هذا السياق، وكيفما عرفنا الحضارة فإنه يجب أن نقر بأن الصفة الإنسانيةهي أهم مقوماتها بلا ريب.

وبغض النظر عن أي البعدين كان أكثر تأثيرا في الحضارات المختلفة، فإن معظم الباحثين في الحضارة يرون أن الحضارة إذا فقدت بعدها الأخلاقي تفقد روحها، ويسيطر على السلوك الإنساني الجانب الغريزي على حساب البعد الأخلاقي، فيكون سببا لتسارع انهيارها .

وقد أشار أبو الأعلى المودودي لكيفية حدوث الانهيار وفق سنة الله تعالى، وركز على فقدان البعد الأخلاقي، حيث أن الحضارة تبلغ حالة من الرخاء والعمران، وبغياب الضابط الأخلاقي يكثر الغرور والظلم والاستكبار، وهذا ما نلاحظه في كل بقعة من بقاع الأرض من آثار الأمم التي سبقتنا، وقد خلفت تلك الأمم من آيات حضارتها وتمدنها وصناعتها وكمال فنها وبراعة يدها ما يدل على أنها لم تكن بأهون من الأمم الغالبة في زمانها، بل الحق إنها كانت أقوى وأغلب من هذه الأمم المعاصرة لها في ذلك العصر {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }[1743]. ولكن ماذا كان مصيرها ؟

إنهاحضارة انخدع أبناؤها بما وجدوا من حال الإقبال وغرتهم النعم، وفتنتهم الرفاهية فتكبروا وتجبروا لما استتب لهم من الغلبة والقوة فأخذوا يظلمون أنفسهم بما يرتكبون من سيئات الأعمال {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ

[1743]–سورة الروم الآية :9

وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ }[1744] وقد أمهلهم الله على تمردهم وعصيانهم: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ }[1745].

والحقيقة أن المهلة لم تكن يسيرة ، بل أمهلت بعض الأمم قرونا متوالية، غير أنهم زعموا أنهم قد عاجزوا الله بمكرهم وتدبيرهم، وهناك اشتد غضب الله عليهم، فانصرفت عنايته عنهم، وأعقب عهد إقبالهم عهد الخمول والإدبار .قال الله تعالى:{وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }[1746] والمكر الإلهي يجعل سبب الانهيار ينبعث من النفس ويسري إلى الذهن فيسلب من الإنسان البصيرة والحكمة التي كان يشيّد بها الحضارة[1747] {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }[1748].

وإذا فقد المرء نوره الداخلي (البعد الأخلاقي)فسوف يكون تدمير الإنسان في تدبيره. قال الله تعالى :{فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ }[1749] وتفسير ذلك : أنه إذا قلّ في الحضارة العلم بالتاريخ، وأحداث العالم، وسنن الكون، يكثر فيها الهوى، فيكثر الظلم ويغيب العدل – والهوى أكثر ما يكون عند الأطفال والجاهلين – ومن شأنه أن يلوّن الرؤية ويعود بالحضارة إلى التفكير الطفولي فيحجب الرؤية الموضوعية[1750]، وتصبح الغريزة تتحكم في السلوك بدل العلم والعدل، وكل خطوة يخطوها للنجاح تقوده إلى الهلاك، وتكون عكس قصده، فالحركة نحو الهاوية تتخذ خطوات متدرجة حسب سنن الله، حتى تبلغ درجة الانهيار، وينشغل المرء بالظواهر على حساب الجواهر، فتفقد الحضارة عناصر قوتها شيئا فشيئا، ومن أهم العوامل التي تؤدي إلى انهيارها :

[1744]–سورة هود الآية :116

[1745]– سورة الحج الآية :48

[1746]– سورة النمل الآية :50

[1747]– ينظر أبو الأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية دار الشهاب للطباعة والنشر ص 74/73

[1748]– سورة الحج الآية :46

[1749]– سورة النمل الآية :51

[1750]– جودت سعيد : إقرأ وربك الأكرم المطبعة العربية غرداية الجزائر ط 1سنة 1990ص 154

-الانحلال الخلقي والفكري .

-واضطراب القوانين والأنظمة.

- وشيوع الظلم والفقر .

-وانتشار التشاؤم واللامبالاة .

-وفقدان الموجّهين الأكفاء، والزعماء المخلصين [1751].

ويكشف مالك بن نبي عن جانب آخر من الحضارة في معادلة هامة يوضح من خلالها معنى الحضارة واتجاهها، فيرى أن هذه المعادلة مقياس عام يدل على اتجاه الحضارة، وقد حاول صياغتها في معادلة جبرية هكذا : مبدأ أخلاقي +ذوق جمال =اتجاه حضارة .

فيبيّن أن هناك صلة وثيقة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال في تحديد اتجاه الحضارة، الذي يشكل في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة، بحيث أن أسلوب حياة المجتمع وسلوك أفراده تكون مرتبطة بطرفي هذه المعادلة الشائعين في المجتمع قبل ارتباطها بالجانب المادي والاقتصادي من الحضارة، ويكون نموذج المجتمع طبقا لترتيب هذين العنصرين بالتقديم والتأخير. ونتيجة لهذه العلاقة نحصل على نموذجين من المجتمع مختلفان بسبب اختلافهما في ترتيب عناصر الثقافة، ومن ثم لا يتطوران في اتجاه واحد، بل تنشأ بينهما مناقضات جذرية :

1-مجتمع يقوم فيه النشاط أساسا على الدوافع الجمالية .

2-نموذج يقوم فيه النشاط على الدوافع الأخلاقية أولا .

ويوضح مالك بن نبي الفرق بين هذين المجتمعين، وفلسفة كل واحد منهما في ترتيب العنصرين في سلم القيم . ونتيجة هذا الترتيب :

[1751]- ينظر مصطفى السباعي :من روائع حضارتنا ص 62

ففي المجتمع الغربي نجد أن ممارسة الفنون (فن التصوير) وبالخصوص فن تصوير المرأة العارية بسبب الدافع الجمالي.

في حين نجد أن الرادع الأخلاقي في المجتمع الإسلامي لا يطلق العنان للفنان أن يعبّر عن كل ألوان الجمال وعلى الخصوص المرأة العارية.

كما يمكن ملاحظة نفس القاعدة في قضية تطور الملابس، إذ نجد أن المجتمع الغربي ينطلق من نقطة معينة، وهي إبراز مفاتن المرأة في الشارع، بينما أخذ تطور الملابس في المجتمع الإسلامي اتجاها مخالفا يهدف أساسا أن يخفي جمال المرأة في الشارع[1752] .

وما يمكن استنتاجه من هذه المعادلة الحضارية[1753] للأستاذ مالك بن نبي أن كل ثقافة تتضمن وجود علاقة بين "عنصر الجمال (الشكل) وعنصر الحقيقة (الجوهر) " وكل حضارة تجعل محورها أحد هذين العنصرين، وهي بهذا لا تطبع إنتاجه الأدبي فحسب، وإنما تحدد اتجاهه في التاريخ أيضا، فمثلا إذا أخذنا ظاهرة الاستعمار "كظاهرة ثقافية " توضح لنا أن الثقافة الغربية حددت العلاقة بين العنصرين وقدمت عنصر الذوق الجمالي على المبدأ الأخلاقي، وكان من نتيجة هذا الترتيب تأثير كبير في علاقة الإنسان الأوروبي بالإنسانية، فكل ثقافة "سيطرة "و"عدوان" هي في أساسها ثقافة تنمو فيها القيم الجمالية على حساب القيم الأخلاقية .ويخلص الأستاذ مالك بن نبي إلى ملاحظات هامة وهي :

1-أن الثقافة التي تمنح الأولوية لذوق الجمال تغذي حضارة تنتهي إلى فضيحة حمراء، يقود جنونها رجل مثل نيرون[1754]، أي تفسخ وانحلال، وإراقة للدماء.

[1752]-وليس يعني هذا أن الثقافة الإسلامية تفقد عنصر الجمال، وإنما تضعه في مكان آخر في سلم القيم.

[1753]-ينظر مالك بن نبي : شروط النهضة ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر طرابلس 1979 الصفحات 100إلى 104.

[1754]- نيرون : حاكم طاغية حكم إيطاليا (45 إلى 68 م) وكان صغير السن، عاش ماجنا لاهيا طائشا مريقا للدماء ومن آخر جرائمه إحراق روما سنة 64 م وفي عهده كثرت المؤامرات والاغتيالات السياسية وعمت الفوضى والاضطرابات .انتحر بعد أن أرهق روما بمجونه وجنونه .

2- وأن الثقافة التي تمنح الأولوية للمبدأ الأخلاقي، تكوّن حضارة مآلها التحجر والجمود، وتنتهي إلى فضيحة صامتة سوداء تتيه في تصوف متقهقر يقود جنونه مشايخ الطرق :أي تخلف وانحطاط.والتقديم والتأخير هذا يكشف عن مدى أهمية العناصر الثقافية، ليس فقط بالنسبة لقيمتها الفردية في مركَّب الحضارة، ولكن بالنسبة لعلاقاتها في هذا المركب " وبهذا فإنه يتبيّن لنا من هذه الأسطر أن أي خلل يحدث في العلاقات قد ينتهي في آخر المطاف إلى خلل في توازن الحضارة وفي كيانها"[1755].

وفي الأخير نصل إلى نتيجة هامة وهي أن الحضارة التي تجلب للإنسانية السعادة هي التي توزّع اهتماماتها بالمقادير والنسب الدقيقة لحاجات الإنسان، ولا تقصي أي عامل من عوامل سعادة الإنسان المادية والمعنوية، الأخلاقية والجمالية، وأن أي انشقاق يجعل الحضارة تمشي على ساق واحدة ولا تملك توازنها فتسقط سقوطا سريعا.

المطلب الثاني :أنواع الحضارات

الأصل أن العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان تقوم على المودة والرحمة والتعاون، لأن الإنسانية في أصلها واحد، وهذا ما تجمع عليه كل الديانات الكبرى، وحتى الفلسفات الوضعية، إذا سلمنا جدلا أن لها رأيا يخالف ما تذهب إليه الديانات في أصل الإنسان، المهم أنها تقرّ أن البشرية انطلقت في تكاثرها من أب وأم، ومن ثم فهم "إخوة" على الرغم من التباين الموجود بين بني الإنسان في الجنس واللون والعرق وغيرها، فهل العلاقة بين بني الإنسان علاقة صراع وصدام أم علاقة تعارف و وئام ؟

للإجابة عن هذا السؤال، نستقرئ تاريخ الحضارات الإنسانية لنكتشف أنواعها والأصلح منها ليكون نموذجا يعلو بالحياة الإنسانية، ويصلح أن يمنح الإنسانية الفرصة لتحيا في ظل عالم تسوده الأخوة الإنسانية، ومن وجهة نظر الإسلام فإن في الاختلاف البشري حكمة عظيمة، ولو كان البشر كلهم على شاكلة واحدة لشعر الناس بالسآمة والملل، ولما تحققت سنة الابتلاء، فالاختلاف ذاته ليس سر

[1755]- مالك بن نبي :شروط النهضة ص 105

أزمة العالم . ومن هنا تبرز أمامنا ثلاثة أنواع من العلاقة بين الحضارات الإنسانية هي: التصادم، والانغلاق، والتعارف . ويكون تفصيلها كالتالي:

1. علاقة التصادم : تكون علاقة الصدام عادة لدىالحضارات التي يغلب على شخصية أفرادها وشعوبها طابع الإفراط في تقدير قيمة القوة، ومن ثم تكون مندفعة باستمرار للتصادم مع الآخرين، لإبراز قوتها، وبسط نفوذها وهيبتها، سواء كان التصادم داخليا أم خارجيا :

أ–فالحضارات المتصادمة داخليا: وهي الحضارات التي تعمّها الفتن بين أفراد الشعب الواحد، وتحرك هذه الفتن عوامل كثيرة، وتعد هذه أخطر أنواع الصدام، حيث تكون الآثار شديدة والجروح كثيرة، وهي ما تعرف بالحروب الأهلية، حيث تغرق الشعوب في مشاكلها الداخلية التي يغذّيها الاستبداد. قال تعالى :{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ }[1756]وغالبا ماتكون أزماتها مفتعلة، تمارسها الأنظمة الاستبدادية لتغطي إخفاقاتها في تدبير شؤون الدولة، فتصدر الأزمة إلى الخارج ليصرف الناس عيونهم عن السلطة الحاكمة، و في أجواء التصادم يستثمر أصحاب المصالح، وعادة مايكون لليد الخارجية دور فيها، لأن ذلك يمكّنهم من حفظ مصالحهم وتسويق منتجاتهم من السلاح، والتمكين لأتباعهم، وتحريك أسباب التوتر، فالعملاء يساعدهم كثيرا اللعب في أجواء الفتنة، لأن أجواء الاستقرار تكشف خباياهم وتفضح أعمالهم. ومن أمثلة ذلك ما يحدث في لبنان.

ب– الحضارات المتصادمة خارجيا: وهذا النوع من الحضارات عادة ما تكون متجانسة داخليا ومستقرة إلى حد كبير، مما يجعلها تفكر في السيطرة على الخارج لسببين :

1–حالة من العلو والكبر والغطرسة.: {وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ }[1757]وقد تكون هناك أسباب تابعة لهذا السبب:

[1756]– سورة القصص الآية :4

[1757]– سورة العنكبوت الآية :39

أ– تصدير بعض الأزمات الداخلية الطارئة في بعض المراحل التاريخية.

ب– وجود أطماع أو الحصول على امتيازات في الخارج.

ج– البحث عن مناطق نفوذ .

2–العلو العنصري حيث يرى أصحاب القرار في هذه الحضارة أنهم أعلى عرقا، ومن ثم يعتقدون أن البحث عن المصالح المشتركة مساس بكرامتهم، وهضم لحقوقهم، فهم أعلى قدرا وأكثر قيمة، ولذلك لا ينبغي على العالم أن يرفض أستاذيتهم، وأن لا يفكر في اعتراض إرادتهم، وذلك بما يملكون من سطوة القوة التي تدعم نظرتهم للآخرين .

بل إن "فرانسيس فوكوياما "[1758] يذهب إلى سبب غريب يقول فيه "وقد كان الملل الناجم عن السلام والرخاء في الماضي له عواقب أخطر بكثير .خذ مثلا الحرب العالمية الأولى فجذور هذا الصراع لا تزال إلى يومنا هذا تبدو معقدة " وعند تفسيره لأسباب قيام الحرب العالمية الأولى التي تناولتها الدراسات لخصها في : الروح العسكرية، والنزعة القومية والتصلب الزائد، والانهيار في ميزان القوى، وبواعث الردع، وتهور بعض القادة .أردف قائلا :" غير أنه إلى جانب كل هذا ثمة عامل أكثر تعقيدا

[1758]–فوكوياما : هو وشيهيرو فرانسيس فوكوياما كاتب ومفكر أمريكياجنسية من أصول يابانيةيعد من أهم مفكري المحافظين الجدد يعتبر الرجل من أحد الفلاسفة والمفكرين الأميركيين المعاصرين، فضلا عن كونه أستاذا للاقتصاد السياسي الدولي ومديرا لبرنامج التنمية الدولية بجامعة جونز هوبكنز .من كتبه كتاب (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) و(الانهيار أو التصدع العظيم، تخرج فوكوياما من قسم الدراسات الكلاسيكية في جامعة كورنيل، حيث درس الفلسفة السياسية على يد ألن بلوومAllen Bloom ، بينما حصل على الدكتوراه من جامعة هارفاردحيث تخصص في العلوم السياسية.عمل بوظائف عديدة أكسبته الكثير من الخبرة والثقافة، فقد عمل مستشارا في وزارة الخارجية الأمريكية كما عمل بالتدريس الجامعي، في عام 1989حرر مقالة حفرت حروفها في تاريخ النظريات السياسية الحديثة، عندما كتب فرانسيس فوكوياما تحت عنوان " نهاية التاريخ "قائلا إن نهاية تاريخ الاضطهاد والنظم الشمولية قد ولى وانتهى إلى دون رجعة مع انتهاء الحرب الباردة وهدم سور برلين، لتحل محله الليبراليةوقيم الديمقراطيةالغربية. وقد أضاف وشرح فوكوياما نظريته المثيرة للجدل في كتاب أصدره عام 1992 بعنوان" نهاية التاريخ والإنسان الأخير".

وحيوية أدى إلى الحرب، وهو أن الكثير من أفراد الجماهير الأوروبية أرادوا الحرب بكل بساطة لمللهم من رتابة الحياة المدنية، وافتقارهم إلى الحياة الجماعية في الحياة المدنية "[1759].

والحق أن هذا قد يكون صحيحا، ولا سيما عند الحضارات الصدامية، فإن كثيرا من الدول تختلق المشكلات الحدودية لإعادة تنشيط عنصر "الوطنية" في شخصية أبنائها، وإبراز قوتها، وملأ الفراغ، وأحيانا لأسباب تافهة، فالحرب عندهم جولة سياحية ومغامرة ممتعة، وخاصة إذا كان وراءها دخل مادي معتبر وهو كذلك، لذلك يرى "فوكوياما" أن السلام والرخاء أحيانا نقمة وتصبح عواقبه وخيمة لدى الحضارات التصادمية، وهذا ليس غريبا على حضارات تؤمن بالقوة وبالعبثية في الحياة، على غرار الحضارة الغربية، ونتائجها في الأرواح البشرية لا تعنيهم كثيرا، إلا ما كان يسوّق إعلاميا من التأسف والتباكي .

ومن أحسن الأمثلة على الروح التصادمية الشريرة التي لا تعرف إلا الخراب "التتار" قديما، و"الدول الاستعمارية" حديثا، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه الحضارات تكون وبالا على الإنسانية، فكلما سيطرت الروح التصادمية دلّ ذلك على السقوط في السُّلَمِ الحضاري. وأقرب مثال من التاريخ المعاصر الاتحاد السوفيتي الذي كان عدوانه على المشترك الإنساني الأسمى(العقيدة) بارزا فكان سقوطه مدوّيا . وهذا النوع في الواقع لا يستحق أن يطلق عليه لفظ الحضارة، إلا من باب المجاز ليرسم لنا صورة مجتمع معين له صفات محددة[1760].

2- علاقة الانغلاق: وهي تمثل حالة الحضارة التي تعيش في عزلة عن العالم وتتقلص فيها العلاقات وتتقوقع على نفسها. وقد يكون الانغلاق دون اختيار، حيث أدت ظروف معينة إلى عزلها عن العالم، كما يمكن أن يكون الانغلاق باختيار وفق سياسة مدروسة، إلا أن الاستقرار في درجة الانغلاق عسير للغاية، فقد تكون هذه الحضارة عرضة للاكتشاف فيحدث الصدام مع المكتشفين،

[1759]- فرانسيس فوكوياما :نهاية التاريخ وخاتم البشر ترجمة حسين أحمد أمين مركز الأهرام للترجمة والنشر ط1 سنة 1993ص 287

[1760]-راغب السرجاني :المشترك الإنساني مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ص209

أو تنهار بسبب رتابة الحياة، لأن الإنسان بطبعه يحب التغيير والتجديد .وقد يكون الانغلاق داخليا وقد يكون خارجيا :

أ–الانغلاق الداخلي : حيث أن أفراد المجتمع الواحد لا تربط بينهم أي علاقات تعارفية، إلا في الحدود الضيقة جدا، وهذا التوجّه يغذّيه التعصب للطائفة، أو العرق، وتمليه الأنانية، وأحيانا بسبب الهروب من تكاليف الحياة، حيث تنكمش الصِّلات إلى حد كبير، بما في ذلك العلاقات الأسرية .

ب–الانغلاق الخارجي :وقد نجد هذه الحضارات ترفض التقارب مع أي حضارة أخرى إلى درجة أن بعض الدول تحرّم وتجرّم الاتصال مع الخارج، وتتحكم في علاقات الأفراد إلى درجة عالية من الاستبداد، فسياسة الحكومة تدين من يخترق هذه التعليمات، أو يفكر في فتح النوافذ على أي حضارة أخرى، لأن المستبد لا يرى سبيلا يسّهل عليه التسّلط على شعبه إلا بمنعه من معرفة ما يجري في العالم، وهذا ما رأيناه في معظم الأنظمة الشيوعية، والنموذج المشهور في ذلك أن كوريا الشمالية ولأول مرة سمحت ببث تلفزيوني مباشر لمقابلة كوريا الشمالية مع البرتغال في كأس العالم 2010، لأن الأصل هو المنع وعدم التواصل مع الخارج.

وقد يكون الانغلاق له موانع موضوعية كاللغة ومثال ذلك الحضارة الصينية التي ظلت قرونا لم تستطع التواصل بشكل جيد مع العالم الخارجي لأسباب مختلفة وعلى رأسها صعوبة اللغة الصينية، وقد يكون سبب الانغلاق الظروف الجغرافية وقلة إمكانيات التواصل، كما هو الحال مع الهنود الحمر وسكان الأسكيمو، والقبائل الإفريقية.

لكن أخطر انغلاق هو الذي يكون نابعا من عقيدة تحرّم التّعارف، وهذا النموذج اختار فيه أصحابه بإرادتهم الانغلاق، وعدم التعارف على الآخرين، وهذا الانغلاق له أسباب كثيرة منها الإحساس بعلو العنصر إلى درجة أن هذا الشعور يدفعهم لازدراء بقية الشعوب، وعدم الرغبة للتعامل معهم ولا التّزاوج منهم كما نجد ذلك عند اليهود .

3-علاقة التّعارف: هي العلاقة التي يحدث فيها الانسجام بين الأطراف المختلفة سواء في إطار الخصوصيات الحضارية، أم في إطار المشترك الإنساني العام، ومن ثم يتحقق لديها التعارف الداخلي والخارجي :

أ-تعارف داخلي :ويتحقق عندما تكون عناصر الرّباط بين أبناء الأمة عميقة في النفس، والولاء بين أفرادها قائما على العقيدة. قال الله تعالى :{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }[1761].

فهذه الآية الكريمة تكشف أن العامل الفعّال في إيجاد الوحدة النفسية أو الروحية هو "حبل الله "وما ذلك إلا الإيمان الصادق، أو الإسلام الواعي الذي يعد أداة الشّد والربط بما فيه من مبادئ وتعاليم شاملة، ومنسجمة مع واقع الإنسانية، وأن العلاقة بين المؤمنين تتجاوز مجرد التجمع، فلا يعتبر التجمع مجتمعا إلا إذا أبعد عن كل أفراده كل المخاوف الممكنة والمتوقعة، وكانت العلاقات فيه تهدف إلى توفير دواعي الأمن وأسباب الحياة المطمئنة. فالتأليف بين القلوب نعمة جدير بالتنويه إذ بوجوده بين النفوس تنتفي الأحقاد، وتتوارى الخلافات، وتدفع كل ما من شأنه أن يؤدي إلى التنازع والتخاصم الذي هو نذير شؤم، وعلامة خراب ودمار، فلا يمكن بحال أن يكون هناك اجتماع إنساني يتصف بالحياة والنمو تكون فيه عناصر المجتمع وأفراده متدابرة متناحرة متباغضة لا يردعها قانون ولا يخمد لهيب نارها نظام [1762].

وقد تحقق التعارف في التنظيمات الداخلية للمجتمع المسلم بشكل جلي وبصورة لم يسبق لها مثيلا، وقد وضّح السياق العام للآيات أن قوة الجبهة الداخلية هو سر تفويت الفرص على الكيد الخارجي. قال تعالى :{وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ }[1763]وكان

[1761]- سورة آل عمران الآية : 103

[1762]- ينظر محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 270/ 272/171

[1763]- سورة الأنفال الآية :62

هذا التأييد من خلال تحصين الجبهة الداخلية، وبناء علاقات التعارف بلحمة قوية تمنع التفكك، بعد ذلك الخصام، وتلك العداوة التي كانت تمزق المجتمع العربي في الجاهلية، فأبان الله نعمته على رسوله، بأن وفّقه لنعمة التأليف بين القلوب، وهي من أجلِّ النعم .قال الله تعالى :{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[1764] ويعلّق سيد قطب على هذه الآية ويصف الترابط الوثيق بين المسلمين معجزة لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، بمنهجه القويم، و لا تصنعها إلا العقيدة، حيث استحالت هذه القلوب المتنافرة إلى كتلة متراصة متآخية، الذلول بعضها لبعض، المحب بعضها لبعض، المتآلف بعضها مع بعض بهذا المستوى الذي لم يعرفه التاريخ فيقول :" إن هذه العقيدة عجيبة فعلا، إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة وموادت القلوب، التي تلين جاسيها، وترقق حواشيها، وتندي جفافها، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق. فإذا نظرة العين، ولمسة اليد، ونطق الجارحة، وخفقة القلب، ترانيم من التعاطف والولاء والتناصر، والسماحة والهوادة لا يعرف سرّها إلا من ألّف بين هذه القلوب "[1765]. وفعلا يشهد الواقع أن عمل العقيدة عنصر أصيل في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، كما تشهد الأمة التي بناها على الحب أن هذه الرسالة لم تكن مجرد كلمات مجنّحة ومثالية، وإنما كانت واقعا شامخا قام على هذا الأساس الثابت، من الانتصار للمبدأ، وتقاسم أعباء الحياة.

كما نجد مالك بن نبي يعطي بعدا آخر لهذه الفكرة (قوة التماسك) اللازمة للأفراد في مجتمع يريد تكوين وحدة تاريخية، فيرى أنها قوة مرتبطة في أصلها بغريزة (الحياة في جماعة) عند الفرد، وهي نفس الغريزة التي تستخدم لتكوين حضارة، ولكنها تهذّبها وتوظّفها بروح خلقية سامية. هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان، عندما تولد الحضارات، ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض، ومن العجب أن نجد اتفاقا له مغزاه، لأن ما توحي به هذه الآية وبين

[1764]- سورة الأنفال الآية :63

[1765]- سيد قطب : في ظلال القرآن المجلد الثالث ص1548

معنى كلمة "الدين" (religion في أصلها اللاتيني، فهي تعني هنالك: "الربط والجمع . كما يشير إلى ذلك عند تعليقه على الآية السابقة[1766].

ب–تعارف خارجي :

وتتجههذه الحضارة للتعارف الخارجي لأن لها قدرة فائقة في المرونة، وذلك لقوة مبادئها وامتلاكها لقوة الحجة، ولكونها تشعر أنها تحمل رسالة، وهي في انفتاحها على الخارج لا تحركها روح الغطرسة والاستعمار مهما امتلكت من القوة، ولكن شعورها بالواجب يفرض عليها التعارف مع الآخر ؛ لأنها تؤمن برسالتها الإنسانية، وهي تحقيق الرحمة، وما تحمل هذه الكلمة من معاني التعاون، وحماية الكرامة الإنسانية. وترشيد الضالين، ومن أبرز العوامل التي تساعد هذه الحضارة على التعارف، هي قدرة مبادئها على استيعاب الشعوب والعرقيات المختلفة، وسماحة منهجها الذي يتقبَّل الأطياف البشرية داخلها.

ولعل الحضارة الإسلامية هي خير مثال على ذلك حيث استوعبت كل أجناس الدنيا، وربطت بينهم برباط العقيدة، حتى أصبح يشعر كل مسلم أنه عضو من جسد هذه الأمة يتفاعل مع كل أوضاعها، ويتألم لكل أوجاعها: "مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر، والحمى" [1767].

إن هذا الشعور لم يقتصر على أهل الملة فقط، بل تعداه ليشمل الإنسانية كلها. فالمخالف الذي لم يقتنع بها، لا تلغيه أو تقصيه، وإنما تمكّنه من حقوقه الإنسانية الكاملة، وأهمها حقه في الحرية بكل أنواعها ضمن ضوابط معقولة، وتعد هذه الحضارة من أنجح الحضارات عندما تنجح على المستوى الداخلي فيتحقق الاستقرار، ثم تمد الجسور مع الآخرين، فيحدث التعاون والتبادل العادل للمصالح المشتركة، وبهذا يكون التجديد الدائم في هذه الحضارة بفعل تلاقحها مع التجارب الإنسانية المتنوعة

[1766]– مالك بن نبي : شروط النهضة ص 88

[1767]– أخرجه البخاري : كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، الجزء الخامس حديث رقم 5665

عند الشعوب الأخرى، ودخول عناصر جديدة للحياة تبقي حيوية المجتمع، فيطول عمرها وترتفع رايتها.

المطلب الثالث :أهداف الحضارة الإنسانية

لا يمكن وصف "حضارة" بأنها "إنسانية" إلا إذا جعلت الإنسان محور اهتمامها والحفاظ على إنسانية الإنسان هدفها، وعليه فإن كل حضارة جادة في قيادة الإنسانية أن تجتهد في ابتكار الآليات التي تمكنها من تحقيق الأهداف الآتية :

1-الحفاظ على بقاء الإنسان، ومن ثم رفض كل ما من شأنه أن يهدد بقاء الإنسان سواء بالقتل أو الوأد أو الحروب أو الأوبئة أو المجاعات أو غيرها من الظروف الطبيعية أو التي هي من فعل الإنسان.قال تعالى:{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ .وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ }[1768].

2-العمل على الارتقاء بالإنسان وذلك بتهيئة الظروف التي تجعل الإنسان منسجما مع وظيفته في الحياة من جهة، ومن جهة أخرى تجنِّبه كل ما من شأنه أن ينحط بإنسانيته إلى درك الحيوانية. أو كما عبر عنها القرآن:{ أَسْفَلَ سَافِلِين}[1769] " أو {كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ }[1770]

ومن هنا فالمستقرئ للتاريخ يرى أن العلاقة بين البشر تكون في حالة من السّلم والوئام، إذا كانت هذه الحضارة القائمة تملك الروح التعارفية بين بني الإنسان، وهو مؤشّر هام على أن البشرية في سلم الصعود الحضاري، حيث تنتقل الأمم في الغالب، بين هذه الحالات التصادم، والانغلاق، والتعارف. فنجدها مرة في المرحلة التعارفية، ثم في التصادمية، ثم في الانغلاقية، أو العكس، بل إن التّقلب بين هذه المراحل هو السنة الماضية، ارتقاء وهبوطا. قال تعالى : {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ

[1768]. سورة البلد الآية : 11 إلى 16

[1769]. سورة التين الآية : 5

[1770]. سورة الأعراف : الآية 179

مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }[1771] وبناء على ما سبق يمكن ترتيب الحضارات في سلم الحضارة إلى ست درجات من الأعلى إلى الأدنى:

1-أما أعلى درجات السلم فهي الحضارة التي استطاعت بفضل فاعلية مبادئها أن تحقق التعارف والانسجام.

ففي الداخل: ينعم أهلها بالأمان والاستقرار، ويشعرون بالانتماء الكامل لحضارتهم ولهم هوية معروفة، ومحددة يعتزون بها، ويحافظون عليها، ويضحون بكل غال ونفيس من أجل التمكين لها، فعليها يحبون ويكرهون.

وفي الخارج: لها القدرة على بناء علاقات جيدة وإيجابية، بحيث تتقاسم المصالح المشتركة، وتتبادل الخيرات مع غيرها من الحضارات، وهذه الحضارة هي التي تسعد البشرية بسيادتها. أما باقي الحضارات فتتفاوت فيما بينها بحسب دائرة انتفاع البشرية بها.

2-الحضارة المتعارفة داخليا .

3- الحضارة المنغلقة دون اختيار.

4- الحضارة المنغلقة باختيار .

5-الحضارة المتصادمة خارجيا .

6-الحضارة المتصادمة داخليا .

ومن نافلة القول أن نؤكد أن الحضارة التي يرجى منها أن تسعد البشرية وتحقق أهدافها، هي التي تكون مؤهلة للتفاعل مع عناصر المشترك الإنساني، وتملك القدرة على إيجاد الصيغ التوافقية،

[1771]-سورة آل عمران الآية :140

وتستطيع أن تنمي العلاقة التعارفية بين بني الإنسان بغض النظر عن القناعات التي تختلف من أمة لأخرى، وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالبيان وهي أن طول عمر الحضارات وقصرها رهين بأمور كثيرة أهمها:

1-قوة القيم التي تحكمها في صياغة الانسجام الداخلي والخارجي .

2-قابلية مبادئها للانفتاح على الآخر، ووجود المنهج الذي يستوعب الأطياف المختلفة من البشر في إقامة علاقات سوية مع من حولها .

3-قدرة هذه الحضارة أو فشلها في التعامل والتفاعل مع المشتركات الإنسانية بكل مراتبها (الأسمى، والعامة، والخاصة، والداعمة) واحترام اختيار الآخر مهما كان توجُّهه، وتجنب الصدام قدر المستطاع.

4- تقدير قيمة الإنسان باعتباره إنسان بغض النظر عن جنسه وجنسيته ولونه وعرقه.

والسؤال الذي يلح علينا هنا هو : ما علاقة كل من الحضارة العلمانية الغربية القائمة على الأسس العلمانية والحضارة الإسلامية القائمة على التوحيد مع غيرهما من الحضارات ؟ للإجابة على هذا السؤال نستعرض موقف كل حضارة بناء على طبيعتها وخلفيتها الفلسفية في التعامل مع الآخر.

المبحث الثاني: علاقة الحضارة الغربية العلمانية والحضارة الإسلامية بالإنسانية:

إذا اعتبرنا أن العلاقة بالإنسان هي المعيار الحقيقي الذي تقاس به الحضارة، وعلى أساسه تصنف في مدى إنسانيتها وتقدمها، فلا شك أن كلا من هذين الحضارتين تتميز عن الأخرى في رؤيتها لمكانة الإنسان وأهدافه، وغاياته، وبالتالي يترتب عن هذه المنطلقات طريقة معاملته . فما هي علاقة كلا الحضارتين بالإنسانية؟

المطلب الأول : علاقة الحضارية الغربية العلمانية بالإنسانية:

يبيّن الوقوف على طبيعة الحضارة الغربية، أنها حضارة مادية، ومن ثم تنشأ منطقيا العلاقة بينها وبين الإنسانية في الغالب على الأسس المادية، سواء على المستوى الداخلي، أو الخارجي :

أ-أما على المستوى الداخلي فهي حضارة متعارفة ومنسجمة على أساس مادي بحت، اجتهد قادتها في توفير كل ما يعد مادة استهلاكية للفرد الغربي، ولا سيما أن الوفرة المادية في الغرب قائمة على استغلال الشعوب المستضعفة، ولا تكلفهم كثيرا، غير أن هذا المستوى من العيش لا يمكن ضمان بقائه، لأنه مرتبط بعوامل كثيرة، و يمكن أن ينهار التعارف الداخلي بمجرد حدوث الخلل في هذا الأساس، وبالتالي فالقاعدة المادية التي بني عليها الانسجام الداخلي غير كافية لضمان استمراره. ذلك أن كثيرا من مقوّمات هذه الحضارة ليس ذاتيا، وإنما هو من استغلال ظروف معينة قد تزول في أي مرحلة، وبزوال الوفرة المرتبطة بعوامل خارجية يرجح أن ينفرط العقد الاجتماعي، لأن الحكومات عند ذلك تكون عاجزة عن تلبية الجوانب المادية التي عوّدت عليها الشعوب، وقد بدأت المؤشرات في كثير من البلدان الغربية في الآونة الأخيرة، كما في اليونان، ولعل التهديد بالإفلاس يزحف على كل الدول الغربية التي ألفت شعوبها درجة من الرفاه وهي غير مستعدة للتنازل عنها، ناهيك عن التحديات البيئية المختلفة التي تهدد أوروبا كما يشير الخبراء .

ب-وأما من حيث علاقتها بالإنسانية خارج حدودها، فهي حضارة متصادمة خارجيا، ولا تحركها للتعارف إلا الدوافع المادية، فهي غير قادرة على استيعاب المخالف استيعابا صادقا وحقيقيا، بل لا تجد فرصة إلا وتقوم بالعدوان على معظم المشتركات الإنسانية، وأكثر من ذلك فهي لا تحترم المشترك الإنساني إلا إذا حقق لها المصالح، وتضرب به عرض الحائط إذا لم يكن من ورائه مردود مادي، فنجد أن الغرب يسارع بالتدخل في بلدانما يسمى " الربيع العربي"، ويزعم من قبل تحريره للعراق من استبداد صدام حسين، ويحارب الإرهاب في أفغانستان، لأن كل هذه المناطق من ورائها الحصول على مصالح ومكاسب مادية بالأساس.

في حين تنعدم فيهم الروح الإنسانية وتنكمش أيديهم، إذا تعلق الأمر بدول ليس فيها أطماع ذات بال، أو كان الأمر متعلقا بأمن إسرائيل، حيث تنعدم الروح الإنسانية ويتردد الغرب المادي عن

تطبيق المبادئ التي روّج لها كثيرا . وخير مثال على ذلك العدوان الإسرائيلي على غزة، وما يسمى الربيع العربي في سوريا، وقبوله بالانقلاب على الشرعية في مصر، والسكوت عن إبادة شعب الروهينقا، والأمثلة لا حصر لها. وهذا كله من وحي القيّم التي يؤمن بها الغرب الذي نصّب نفسه حاميا لحقوق الإنسان، مما يدفعنا للتشكيك فيما تحمله الحضارة الغربية من شعار الإنسانية، حيث كثرت شرورها المغلّفة بالشعارات البراقة، فقد بدا الخلل في قواعد الحضارة الغربية واضحا والتناقض صريحا، لعدم قدرتها على التفاعل مع الشعوب، وعدم امتلاكها للقيم والقواعد الأخلاقية التي تؤهلها لأن تكون حضارة تعارفية، تمكّنها من أن تعرض نفسها نموذجا حضاريا يصلح لصياغة منظومة قيم إنسانية .

وحتى لا يكون هذا الرأي مجرد تحامل على هذه الحضارة المادية في ظل التفكير العلماني اللاديني، يكفي أن نؤيّد رأينا في هذه الحضارة بشاهد من أبنائها وهو "ألبير شقيتسر" الذي يؤكد أن الحضارة الغربية تفتقر إلى ما يسمية " توقير الحياة" أي أنها لا تملك المؤهلات التي تجعلها "حضارة إنسانية"، لأن أسسها الفلسفية والأخلاقية والروحية لا تتماشى مع أهداف الإنسانية، فيصف وضع الإنسان في الغرب بقوله :"لكن الإنسان اليوم في خطر ليس فقط من راء فقدانه لحريته، وافتقاره إلى قوة التركيز الذهني وإلى فرصة للتطور الشامل، بل هو أيضا في خطر أن يفقد إنسانيته. فالموقف السوي من الإنسان نحو الإنسان قد أصبح صعبا جدا "[1772] .

ثم يضيف لتأكيد هذا المعنى وتوضيحه أن ما تبقّى من إنسانية الإنسان على وشك الاندثار فيقول:" وهكذا ترانا نميل إلى تناسي علاقاتنا مع إخواننا، ونسير في الطريق المؤدي إلى عدم الإنسانية.وحيثما يفقد الشعور بأن كل إنسان هو موضوع اهتمام عندنا، لأنه إنسان، تترنح الحضارة والأخلاق، ويصبح الوصول إلى عدم إنسانية شامل مسألة زمن فحسب "[1773].

[1772]–ألبرت شقيتسر : فلسفة الحضارة ص 26

[1773]– ألبرت شقيتسر : فلسفة الحضارة ص 27/26

وهكذا يعتبر هذا المفكر وغيره كثير، أن الحضارة الغربية أماتت الشعور بالإنسانية في نفس أفرادها، إذ أن الفلسفة التي تغدي الإنسان الغربي تولدت عنها عقلية تميت الإنسانية في الأفراد، حيث شاعت أفكار غير إنسانية، فواجب الإنسانية قد طرح في زاوية النسيان .وقد تجلى ذلك في مظاهر كثيرة، فاختفى الأدب الناشئ عن الشعور الطبيعي، وحل محله سلوك عدم الاكتراث التام، وكف المجتمع عن إضفاء قيمة إنسانية، وكرامة إنسانية على كل الناس بوصفهم ناسا، وقطاعات عديدة من الجنس البشري قد أصبحت مجرد خامات وممتلكات في شكل إنساني . وأصبح الحديث عن الحرب والغزو باستخفاف متزايد، وكأن هذين الحالتين ليسا إلا ألاعيب على رقعة شطرنج[1774].

وهنا يتساءل ألبرت شقيتسر عن خلفية كل ذلك ويجيب في نفس الوقت فيرد كل هذه التراجعات عن القيمة الإنسانية إلى الاتجاه الفكري الذي سارت فيه الحضارة الغربية فيقول :"كيف أمكن أن يقع هذا لو لم يكن نتيجة اتجاه عقلي، لم يعد يرسم لنفسه مصير الأفراد، بل صار يفكر فيهم على أنهم مجرد أشكال أو موضوعات تنتسب إلى العالم المادي"[1775].

ولعل هذا أصدق وصف لما آلت إليه الحضارة الغربية في ظل الفكر العلماني الذي ألغى كل قيمة إنسانية نبيلة واستسلم للجانب الحيواني في الحياة الإنسانية، وفي ذلك إعلان واضح عن إفلاس الفكر الغربي، وهو العامل الحاسم في انهيار الحضارة. والحقيقة أن هناك مفارقة أساسية يبحث الغرب ذاته عن إجابة مريحة لها، وهي ما إذا كان الغرب قادرا على إيقاف وقلب عمليات التآكل الداخلي بصرف النظر عن أي تحد خارجي، أو بعبارة أخرى، هل يستطيع الغرب أن يجدّد نفسه، أم يتفاقم التعفن الداخلي، ويعجّل بنهايته أو تبعيته لحضارات أخرى أكثر حيوية ؟

[1774]– ينظر المرجع نفسه ص 27

[1775]– المرجع نفسه

وإذا كان "صامويل هنتنجتون"[1776] يرى أن الحضارة الغربية تسير على نفس خطى الحضارات الأخرى فيقول :"الدليل التاريخي، وأحكام الباحثين في التاريخ المقارن تبين أن تقدم الغرب حتى الآن لم ينحرف بشكل كبير عن أنماط التّطور التي كانت معروفة في الحضارات عبر التاريخ، كما أن الصحوة الإسلامية، والقوى الاقتصادية المحركة في آسيا تدل على أن الحضارات الأخرى ما زالت حيّة وبحالة جيّدة، وأنها يمكن أن تهدد الغرب. إن حربا رئيسية تضم الغرب ودول المركز في حضارات أخرى ليست أمرا حتميا، ولكنها قد تقع "[1777] إذن فما المانع أن تلقى هذه الحضارة نفس المصير الذي آلت إليه الحضارات المادية السابقة ؟.

كما نجد هنتنجتون يلمّح إلى أن الحضارة الغربية بدأت تنهار، ثم يستدرك بأنها تملك مقوّمات منع الانهيار، وقدرتها على تجديد نفسها، وتأكيد وضعها كقائد، لكن حديثه ليس فيه تحليل واف لطريقة حدوث ذلك. وتبدو أنها مجرد أمنية مبنية على الشّك، كما نلاحظ ذلك في هذا المقطع من حديثه في الصفحات الأخيرة من كتابه صدام الحضارات حيث يقول :"من ناحية أخرى فإن انهيار الغرب التدريجي، وغير المنتظم والذي بدأ في القرن العشرين، قد يستمر لعدة عقود، وربما لقرون

[1776]– هو صامويل فلبس (هنتنجتون) *Samuel Phillips Huntington.* ولد 18أبريل1927 – توفي 24 ديسمبر2008أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، وبحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن اللاعبين السياسيين المركزيين في القرن الحادي والعشرينسيكون بين الحضاراتوليس الدول القومية. درس في جامعة يال، وهو أستاذ بجامعة هارفارد.برز اسم هنتنجتون أول مرة في الستينات بنشره بحث بعنوان "النظام السياسي في مجتمعات متغيرة"، وهو العمل الذي تحدى النظرة التقليدية لمنظري التحديثوالتي كانت تقول بأن التقدم الاقتصادي والاجتماعي سيؤديان إلى قيام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الاستقلال .في 1993 أشعل هنتنجتون نقاشاً مستعراً حول العالم في العلاقات الدولية بنشره في مجلة (فورين أفيرز) مقالاً شديد الأهمية والتأثير بعنوان "صراع الحضارات" ولاحقاً قام هنتنغتون بتوسيع مقالته إلى كتاب، صدر في 1996للناشر سايمون وشوستر، بعنوان *صراع الحضارات وإعادة صياغة النظام العالمي*. خلص إلى القول بأنه لكي نفهم النزاع في عصرنا وفي المستقبل يجب أن تُفهم الثقافة. لذلك فقد حذر أن الأمم الغربية قد تفقد زعامتها إذا فشلت في فهم الطبيعة غير القابلة للتوفيق للاحتقانات المتنامية حالياً.

[1777]– صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ترجمة طلعت الشايب تقديم صلاح قنصوة سطور ط2 سنة 1999ص488

قادمة .أو قد يمر الغرب بفترة يقظة ويقلب نفوذه المتدهور في الشؤون العالمية، ويعيد تأكيد وضعه كقائد تتبعه وتقلده الأمم الأخرى"[1778] .

لعل الدارس لكتاب "صامويل هنتنجتون" يلاحظ أن جوهر ما جاء به هو أن الصراع في العالم الجديد لن يكون إيديولوجيا أو اقتصاديا .بل سيكون ثقافيا أو حضاريا بالمعنى "الأدق". والحضارة هي الكيان الثقافي الأوسع الذي يضم الجماعات الثقافية مثل القبائل والجماعات العرقية والدينية والأمم، وفيها يعرّف الناس أنفسهم بالنسب (الدين، اللغة، التاريخ، القيم، العادات، والمؤسسات الاجتماعية). ومن ثم فالحضارة الغربية نجدها تفتقر للقيم الإنسانية، وتعادي الدين، وبالتالي فهي ليس لها القدرة على استيعاب الآخر .بل إنها تملك عوامل فنائها في ذاتها، لأنها تفتقد لمنظومة أخلاقية وروحية تنقذ إنسانية الإنسان، وهو تدهور مستمر كما يؤكد ذلك علماء الحضارة الآخرون[1779].

صحيح أنه ليس من السهل أن نلاحظ الانهيار، ولكنه من المؤكد أن استمرار سيطرة الفكر المادي العلماني اللاديني المحمّل بأفكار ضد الفطرة، وضد الإنسانية، وضد الدين، سيسرع من عملية الانهيار، وما يقوم به الغرب ليس إلا محاولات لتأخير هذا السقوط الذي يشير إليه هنتنجتون باستحياء عند تحليله لطريقة انهيار الحضارات السابقة فيقول :" في الحضارات السابقة مرحلة العصر الذهبي السعيد هذه بتصوراتها عن الخلود، إما أنها انتهت بشكل درامي وبسرعة انتصار مجتمع خارجي، أو انتهت ببطء وبشكل مؤلم نتيجة للتفسخ الداخلي .ما يحدث داخل حضارة ما مهّم جدا بالنسبة لقدرتها على مقاومة الدمار الذي تسببه مصادر خارجية، كما هو مهم بالنسبة لوقف التآكل الداخلي "[1780].

[1778]–صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص488

[1779]– مثل : توينبي، وأشقيتسر، و شبنجلر.

[1780]–صامويل هنتنجتون :المرجع السابق ص 449

وأكثر ما يخيف هنتنجون هو مدى قدرة الغرب على إيقاف التآكل الداخلي الذي يفني الغرب في صمت بسبب غياب المنظومة القيمية والروحية. فيقول "القضية الرئيسية بالنسبة للغرب هي إذا ما كان قادرا على إيقاف وقلب عمليات التآكل الداخلي بصرف النظر عن أي تحد خارجي. هل يستطيع الغرب أن يجدّد نفسه أم ترى يتفاقم العفن الداخلي ويعجّل بنهايته أو تبعيته لحضارات أخرى أكثر حيوية، اقتصاديا وديمغرافيا"[1781] .

لا شك أن الاحتمالات التي يطرحها لانهيار الحضارات جميعها متوفر في جسم الحضارة الغربية وهو يدرك تماما أن "المصادر الخارجية" تملك قوة ثقافية وبديلا حقيقيا للإنسانية، وهي الحضارة الإسلامية التي تكشف باستمرار أن غياب قيمها عن الحياة الإنسانية، ألحق ضررا هائلا بالمجتمع الإنساني وخسر العالم كثيرا بسبب التغييب القسري للدين، والغرب لا يستطيع أن يعود إلى الدّين لأن الفلسفات التي روّج لها كلها تصف الدين بأبشع الصفات، فليس من السهل إقناع الشعوب بفائدته، ولا سيما أنه قد تشرّبت نفوسهم الفكر المادي الإلحادي الذي قطع الصّلة مع الوحي، وأصبح يرى الانتماء إليه معرّة . فأين تتجلى عوامل الانهيار الأخلاقي التي يشير إليها، وأين تبرز قوة المسلمين والآسيويين ؟

عند تحليل هنتنجتون للمخاوف يكشف أن المشكلات الاقتصادية والسكانية يمكن تجاوزها، لأن خبرة وكفاءة الحكومات الغربية تمكنها من حل هذه المشكلات. إلا أن المشكلات التي تؤرقه هي:" مشكلات الانهيار الأخلاقي والانتحار الثقافي والتفكك السياسي في الغرب. تجليات الانهيار الأخلاقي التي يشار إليها غالبا تتضمن :

1-زيادة في السلوك غير الاجتماعي مثل الجريمة وتعاطي المخدرات وأعمال العنف بشكل عام .

2- التفكك الأسري ويشمل ارتفاع نسب الطلاق والأطفال غير الشرعيين وحمل الفتيات الصغيرات وزيادة عدد الأسر المكونة من ولد واحد.

[1781]-صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص 490

3-التدهور في رأس المال الاجتماعي – على الأقل في الولايات المتحدة – أي: عضوية المؤسسات التطوعية، والثقة المتبادلة المرتبطة بتلك العضوية .

4-الضعف العام في "أخلاقيات العمل" وصعود توجهات الانغماس الذاتي .

5- تناقض الالتزام بالتعلم والنشاط الفكري، ويظهر ذلك في المستويات المتدنية للتحصيل الدراسي في الولايات المتحدة"[1782].

ويخلص إلى نتيجة هامة مفادها أن التحدي الأكبر لديه يتمثل في التفوق الأخلاقي للمسلمين والآسيويين فيقول :"الثقافة الغربية تواجه تحديات من جماعات داخل المجتمعات الغربية .أحد هذه التحديات يجيء من المهاجرين الذين قدموا من حضارات أخرى، ويرفضون الاندماج ويواصلون الالتزام بقيم وعادات وثقافات مجتمعاتهم الأصلية والترويج لها .هذه الظاهرة أكثر ما نلاحظها بين المسلمين في أوروبا وهم أقلية صغيرة على أية حال "[1783].

وقد جانب "فوكوياما " الصواب حين اعتبر أن النموذج الغربي الرأسمالي الليبيرالي هو النموذج النهائي للبشرية. صحيح أن الحضارة الغربية تملك الكثير من عناصر القوة التي امتلكتها بسبب التفوق العلمي، إلا أنه لا يخفى على أي عاقل أن العلم إذا تجاوز الحد المعقول في استخدامه صار هو ذاته وبالا على أصحابه، ويمكن أن يحدث الصدمة غير المتوقعة كما يقول طه عبد الرحمن :"ومتى خلا العلم أو التقنية من الأخلاق، اتخذ منحى ماديا لا يلبث أن ينقطع عن النفع "[1784].وهو ما أشار إليه القرآن وهو يصف حال الحضارة التي يتغوّل فيها العلم المادي غير المنضبط، فاليابانيون مع مفاعلهم النووي بقوا مشدوهين، ولم يتمكنوا من تجنب آثار الخلل الذي حدث في المفاعل إلا بعد خسائر كبيرة، وسوف تمتد تلك الآثار إلى أجل غير مسمى وما ينتظر الإنسانية أكثر. قال الله تعالى: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً

[1782]-صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص 492

[1783]-المرجع نفسه ص 492

[1784]-طه عبد الرحمن :سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربيةص189

فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ }[1785] . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أي حضارة يكون استمرارها في القيادة بناء على التزامها بالسنن الكونية والنفسية والاجتماعية، وذلك بفاعلية الأجيال من خلال أخلاقيات العمل القوية، وتفاعلهم مع المحيط ببناء علاقات متينة، فإذا عجزت الأجيال وتراخت ينتهي معها تمتّعهم بالحضارة المنجزة من الجيل السابق وفق سنة الله التي لا تحابي أحدا. قال الله تعالى : {وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ }[1786] .

فالأجل المسمى هو الدورة الحضارية لكل أمة، فالله سبحانه وتعالى قضى وفق سننه أن يزيل النّعم عن الأقوام العاجزة والمفسدة في الأرض. ومن ثم يعقب الصعود الحضاري الانحدار والسقوط، لأن الأجيال التي ورثت الحضارة لم تكن في مستوى الحفاظ عليها. قال الله تعالى :{ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[1787] والحضارة الغربية كغيرها من الحضارات تحكمها قوانين كونية، يطول عمرها مادامت تسير منسجمة مع قوانين الصلاح في الحياة، فإذا ظهر الفساد، ولم تسارع لتصحيح الخلل حقت كلمة الله. فيذيقهم الله بعض ما كسبوا، لعلهم يراجعون القوانين الأخلاقية التي تسود حضارتهم . قال الله تعالى:{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[1788].

ولعل "فوكو ياما" وغيره من مفكري الغرب يحملون عقدة عنصرية وهي تفوّق الإنسان الغربي والأمريكي بالذات، ولم يتمكنوا من التنفيس عنها إلا من خلال هذا الوهم الذي يحلمون به، وعقدة أخرى أرقتهم وهي عقدة التّفوق الروحي و الأخلاقي للحضارة الإسلامية المؤهلة لقيادة البشرية .

ومن هنا نجد هنتنجتون يصرّح أن التّخوف الحقيقي هو من الحضارة الإسلامية، وإن كان يصف هذه الحضارة تعصبا منه بالبربرية والظلامية . فيشير إلى أن القانون والنظام هما المتطلب الأول للحضارة،

[1785]- سورة الأنعام الآية :44

[1786]- سورة هود الآية :3

[1787]- سورة الأنفال الآية :53

[1788]-سورة الروم الآية :41

وفي أنحاء كثيرة من العالم هما يتلاشيان، وعلى مستوى عالمي تبدو الحضارات وكأنها تستسلم "للبربرية" في جوانب كثيرة، مخلّفة صورة لظاهرة غير مسبوقة. وربما تنزل على الإنسانية عصور كونية مظلمة[1789].

لا شك وأن نظرة سريعة في القيم التي تحرك الحضارات تكشف لنا أن القيم الغربية القائمة على الأنانية، واستغلال القوة، والروح العنصرية، والقومية، ومنطق الصراع الموروث عن الحضارة اليونانية والتي تشكل روح الحضارة الغربية تمنعها من إعطاء البشرية نموذج الحضارة القائدة ذات الخصائص التي سبق الإشارة إليها.

فهل صحيح أن الحضارة الإسلامية حضارة مظلمة، وما هي مميزاتها التي جعلت المخاوف منها كبيرة لدى هنتنجتون ؟ وما علاقة الحضارة الإسلامية بالإنسان ؟

المطلب الثاني : علاقة الحضارة الإسلامية بالإنسانية :

بالنظر إلى النصوص المؤسِّسة للحضارة الإسلامية وتاريخ حركتها، وطريقة تعاملها مع غيرها من الحضارات، نلمح بطبيعتها التّعارفية داخليا وخارجيا، لذا نجد أنها استطاعت احتواء كل الاختلافات البشرية، وضمّت تحت لوائها أجناسا شتى ولمدة قرون. وبهذا فهي تملك من مقومّات القيادة الكثير، والتاريخ يشهد على قدرة مبادئها الفائقة على صياغة منظومة قيمية تسعد بها البشرية، فقد كان العرب قبل الإسلام أمة تصادمية على المستويين الداخلي والخارجي، فكان يُغير بعضهم على بعض ويأكل القوي منهم الضعيف، ولا كرامة لعاجز، ولا حرية لعبد، والصدامات الداخلية لا تنقطع لخصها الشاعر وهو ينقل صورة حية عن منطق تفكيرهم فقال :

وأحيانا على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

[1789]– ينظر صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص 520

فكانت أمة العرب لا وزن لها، تقبع في ذيل القافلة الحضارية، ثم جاءت الرسالة الإسلامية، ومرت الفكرة الحضارية بمرحلة انغلاقيه، حرص فيها الرسول صلى الله عليه وسلم على بناء التعارف الداخلي في جزء من المرحلة المكية التي كان الرسول فيها يعمل على تكوين النواة الصلبة التي تقوم على عاتقها أعباء وتكاليف الدعوة. ثم انتقلت إلى الحضارة التعارفية خارجيا، حيث انفتحت على الحبشة، ثم المدينة المنورة، وعند الانتقال إلى المدينة المنورة، وتأسيس نواة الدولة، وضع دستور يحقق به التعارف الداخلي بين جميع المكونات البشرية الموجودة في المدينة المنورة، حيث وحّد بين جميع الأطياف المختلفة والأعراق المتعددة، بل العقائد المتباينة وشكّل مجتمعا واحدا من ذلك التنوع البشري بميثاق وعهد أخلاقي وقانوني لم يسبق له مثيل، تحت عنوان "المواطنة"، ولهذا تميزت علاقة الحضارة الإسلامية ب:

أ-قدرتها الفائقة على التعارف الداخلي المبني على الأخوة الصادقة، والتي بلغت فيه نماذج الإخاء مبلغا لا نظير له في تاريخ البشرية، فقد حكى عنه القرآن الكريم. فقال تعالى :{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[1790].

فقد ضم المجتمع الإسلامي في كيانه اليهود والمشركين، والمهاجرين القرشيين العدنانيين، والأنصار أوسا وخزرجا القحطانيين، ويضم العرب وغير العرب، وكل فرد وجد نفسه دعامة للدولة، وبلغ التعارف والتعايش ذروته بمسألة المؤاخاة المشهورة، والدستور الذي نظم العلاقات في المدينة بين جميع المكوّن البشري المتنوع .

ب- قدرتها على التعارف الخارجي، لأن طبيعة الدعوة الإسلامية تفرض التعارف مع الآخر والتفاعل مع المكونات البشرية في البلاد المفتوحة، وذلك باستيعاب الشعوب والأعراق والجنسيات الذين يعتبرهم الإسلام محل دعوة وهداية . ولكون هذه الرسالة رحمة الله للعالمين، حيث تطور الكيان

[1790]- سورة الحشر الآية :9

الجديد بسرعة،فدخل في مرحلة التعارف الخارجي، وعرض الدعوة على ملوك العالم، وتواصل المسلمون مع كل الشعوب في سلم وتعاون على البر والتقوى، وهي ما يمكن تسميته مرحلة الحضارة التعارفية في صورتها العليا، فاستوعبت صاحب كل ملة ونحلة، وتحقق في ظلها التعارف الداخلي والخارجي في آن واحد.

إن الحضارة الإسلامية وبتوجيه من مبادئ الوحي (العدل التسامح الرحمة) جعلت منها نموذجا فريدا في التسامح الديني الذي يؤهل كل حضارة، لأن تكون ساحة لالتقاء الشعوب والأجناس والألوان تحت لواء واحد كلٌ يؤدي واجبه وينال حقه مع الاحتفاظ بانتمائه العقدي .

ويذهب علماء فلسفة الحضارة إلى أن الحضارات لا يقارن بينها بالعنصر المادي ولا بالكمية في الأعداد والمساحات، ولا بالترف المادي في المعيشة والمأكل والملبس، وإنما يقارن بينها بالآثار التي تتركها في تاريخ الإنسانية، ومن ثم كان العنصر الروحي الأخلاقي هو المعوّل عليه في تقييم الحضارة وإبراز قيمتها، فهو الذي تَخْلُد به الحضارات، وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام[1791].

لا شك أن دعوة القرآن لتحقيق التعارف الإنساني يؤكد على إمكانية ذلك، كما أن رغبة الإنسان في السّلم والسكينة تنبئ بفطرية هذا التعارف،إضافة إلى ذلك فإن المصالح المشتركة بين البشر تؤيد ضرورة البحث عن هذا المشترك، لاسيما أن واقع الإنسانية اليوم يؤكد أن الغرب فَقَدَ الأهداف في الحياة، وأن الشرق فَقَدَ الوسائل :" ومن ثم ضاع الإنسان بين من فقد أسس المعرفة به وبين من فقد وسائلها" [1792]وكلا منهما في حاجة إلى الأخر ليرتقي، هذه الحاجة يصوّرها راغب السرجاني في تمثيل طريف فيقول :" إذا تعارفنا أدرك كل واحد منا احتياجه إلى أخيه الإنسان ...نحن نسير في صحراء قاحلة مترامية الأطراف ...أنا أعرف الطريق، وأنت معك الماء ! بدوني تتوه وتهلك وبدونك

[1791]–ينظر مصطفى السباعي :من روائع حضارتنا ص 70

[1792]– عبد الكريم بكار : من أجل انطلاقة حضارية شاملة ص 93

أظمأ وأهلك !... لقد صار التعارف حتمية إنسانية من هذا المنظور" [1793]. لكن هل للغرب قابلية التعارف الصادق مع الآخرين ؟ أم أن منطق الصراع الذي يقوم عليه تفكيره يمنعه من ذلك ؟

المطلب الثالث : العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية العلمانية

لعل الفروق الجذرية الضخمة الموجودة بين رؤية الإسلام ورؤية الغرب للحياة الإنسانية توحي باستحالة التعارف والالتقاء، لكن التاريخ يؤكد أن هذه الفروق لم تمنع من لقاءات حضارية خلت من السلاح والحقد والصراع، وكانت غنية بالعطاء والخير. لكن "في ظل العلاقات الإنسانية المتأزمة اليوم نجد عددا من المفكرين الغربيين يطرحون فكرة صراع الحضارات أو صدامها ويعتبرونها حتمية تاريخية،وعلى رأسهم هنتنجتون عام 1996 في كتابه "صدام الحضارات " وفرانسيس فوكوياما في كتابه "نهاية التاريخ ".

ونحن كمسلمين نعتقد أن صدام الحضارات يجافي سنة الله في التاريخ ويتعارض مع طبيعة الحضارة التي تعد مكسبا عالميا فلا طابع لها، فهي خلاصة التجربة الإنسانية، فكل حضارة انتهت دورتها، تخلف انجازات تستفيد منها الحضارة التي تبلغ أوجها، على عكس الثقافة التي هي رمز للهوية وعنوان للتعبير عن الخصوصية في أي أمة. فالحضارة وعاء لثقافات متنوعة امتزجت وعكست المبادئ العامة للإنسانية، وبذلك تعد مشتركا بين بني الإنسان "[1794] .

فقد أصبح من الضروري البحث في طبيعة كل حضارة وتلمُّس فلسفتها في رؤيتها للآخر، وبناء عليه يمكن تحديد هذه العلاقة .ولفهم أكثر لا بد من الرجوع إلى المصادر المؤسسة لفكرة العلاقة مع الآخر.

[1793]–راغب السرحاني :المشترك الإنساني مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة ط1 سنة 2011 ص 9

[1794]– عبد العزيز التويجري: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 2002ص 19/18

وأول ما يجب التأكيد عليه هو الإقرار بوجود حضارتين مختلفتين اختلافا جذريا في المنطلقات والأسس وفي القيم وفي الأهداف والغايات التي تنطلق منها كل حضارة في بناء علاقاتها، فهل وجود هذا التباين يعني الصراع أم الوئام ؟

* أما من وجهة نظر الغرب فإن العلاقة بين الحضارتين هي علاقة "صراع "، وهذا تبعا لفلسفة الغرب عموما القائمة على روح الصراع والقوة، ففلسفته في العلاقة مع الطبيعة هي فلسفة صراع وقهر، ورؤيتهم للوجود والتطور قائم على الصراع من خلال فلسفة الانتقاء والبقاء للأصلح، وحياتهم مع الكنيسة قائمة على الصراع، وعلاقتهم مع الفضاء قائمة على الغزو والصراع، وقد انعكس ذلك على العلاقات الإنسانية، وتشكل لديهم منطق الصراع مع المخالف، وبخاصة إذا كان المخالف مرجعيته دينية، يقول يوسف القرضاوي :" ومن خصائص فكر الحضارة الغربية : أنه فكر حضارة تقوم على الصراع، لحمتها وسدادها الصراع، لا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب .وهو صراع متغلغل في كل النواحي، متنوع الأشكال متعدد المجالات متباين الأسلحة والأساليب .

إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع أيضا بين الإنسان والإله !"[1795].

كما أن الروح العنصرية الموجودة عند الغرب دفعته لهذا السلوك مع الآخر، فبنيت العلاقات على أساس تنافسي مقيت تدفعة روح تفوُّق الأجناس والأعراق والقومية الغربية سواء كانت أوروبية أو أمريكية، ومن هنا ليس غريبا أن نجد هذا التوجس والتخوف من مفكري الغرب في رسم صورة المستقبل في التخويف من الإسلام كإيديولوجية منافسة لحضارتهم .فنزعة الشك وعدم الثقة التي زرعها نتشه تجلت في سلوك الغرب مع الآخر .أليس الإنسان ذئب لأخيه الإنسان؟

وإذا أخذنا ما ذهب إليه هنتنجتون في كتابه صدام الحضارات بعين الاعتبار، يتبيّن لنا بوضوح هذا المنحى الصدامي، على أساس أن هذا المفكر يعبر بشكل أو بآخر عن الرؤية العامة للغرب الذي

[1795]–يوسف القرضاوي : أعداء الحل الإسلامي ص168

يرى أن العلاقة الصراعية ثابت حضاري في تصورهم حيث يقول :" الحضارات هي القبائل الإنسانية النهائية، وصدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كوني في العالم الناشئ، قد تقيم الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارتين مختلفتين علاقات وتحالفات تكتيكية محدودة، وخاصة بغرض تنمية مصالحها ضد كيانات تنتمي إلى حضارة ثالثة أو من أجل أهداف مشتركة أخرى. على أن العلاقات بين الجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة غالبا لن تكون وثيقة، بل عادة ما تكون باردة وعدائية"[1796].

ويؤكد هذا الانطباع على العلاقات ويرجحه، على الرغم من كونه يؤمن بوجود علاقة الثقة والصداقة في العلاقات الإنسانية، إلا أنه يعتبرها نادرة فيقول:"وفي عالم مكون من حضارات، لن تكون تلك هي العلاقة الوحيدة التي توصف بهذا المصطلح. السلام البارد الحرب الباردة حرب التجارة، شبه الحرب، السلام القلق، العلاقات المضطربة التنافس الحاد، التعايش التنافسي، سباق التسلح ..هذه العبارات كلها هي الوصف الأكثر احتمالا للعلاقات بين الكيانات المنتمية لحضارات مختلفة .الثقة والصداقة ستكون عملة نادرة "[1797] .

فالغرب تأثر بمبدأ الشك أيضا فلم يعد يتصور علاقة حوار وتنافس في الخيرات لتحقيق نفع الإنسانية، وبالخصوص مع الحضارة الإسلامية التي يرى أنها تهدد الغرب فيقول :"الصحوة الإسلامية والقوى الاقتصادية المحركة في آسيا تدل على أن الحضارات الأخرى حية وبحالة جيدة وأنها على الأقل يمكن أن تهدد الغرب "[1798] .ومن ثم فهو يتوجس من احتمال وقوع حرب رئيسية أحد طرفيها الغرب ويخشى أن تكون تهديدا للغرب بنهايته "إن حربا رئيسية تضم الغرب ودول المركز في حضارات أخرى ليست أمرا حتميا، ولكنها قد تقع" [1799] .

[1796]– صاموئيل هنتنجتون : صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص335

[1797]– المرجع نفسه : ص336/335

[1798]–المرجع نفسه : ص 488

[1799]– المرجع نفسه : ص 488

فيرى هنتنجتون أن الإسلام هو العدو المرتقب من وجهة نظر الغرب، وهو يوجه هجومه للإسلام لأن الديمقراطية الليبرالية لم تنجح في أن تثبت وجودها في المجتمعات الإسلامية لمدة قرن من الزمن، ومصدر هذا الفشل في رأيه راجع إلى الثقافة الإسلامية والمجتمع الإسلامي الرافض للأفكار الغربية الليبرالية، ويبدو أن هنتنجتون يوجه هجومه على الإسلام بدون أن تكون له معرفة حقيقية عن طبيعة الدين الإسلامي وتاريخ الإسلام .فالأصل في العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو السلام لا الحرب، ولا ندري إن كان هنتنجتون يجهل أم يتجاهل تجربة المسلمين في الأندلس التي تعايش فيها المسلمون والمسيحيون في وئام لعقود طويلة، بل وضم ذلك التعايش أيضا اليهود واستمر ذلك حتى سقوط غرناطة عام 1492م.

في الوقت الذي يؤمن فيه بأن الحضارات السابقة كان انهيارها في صورتين: إما تنتهي بعامل خارجي وبسرعة وذلك بانتصار مجتمع خارجي، وإما بتآكل داخلي . وهو إذ يرجح التخوف من العامل الخارجي، لا يقلل من أهمية العامل الداخلي الذي يرى أنه تحد كبير وقضية رئيسية بالنسبة للغرب، ويتخوف من مدى قدرة الغرب على إيقاف وقلب عمليات التآكل الداخلي بصرف النظر عن التحدي الخارجي .و هو يتساءل عن مدى قدرة الغرب على أن يجدد نفسه أم تُرى يتفاقم التعفن الداخلي ويعجل بنهايته أو تبعيته لحضارات أخرى أكثر حيوية، اقتصاديا وديموغرافيا؟. فيقول :"في الحضارات السابقة، مرحلة العصر الذهبي هذه بتصوراتها عن الخلود، إما أنها انتهت بشكل درامي وبسرعة بانتصار مجتمع خارجي، أو انتهت ببطء وبشكل مؤلم نتيجة للتفسخ الداخلي، ما يحدث داخل حضارة مهم جدا بالنسبة لقدرتها على مقاومة الدمار الذي تسببه مصادر خارجية، كما هو مهم بالنسبة لوقف التآكل من الداخل "[1800].

ومما يلاحظ أن تخوفات هنتنجتون في المستقبل يحددها بالضبط في عاملين:

1. القوة الاقتصادية ومعدلات النمو لدى دول شرق آسيا .

[1800]– صاموئيل هنتنجتون: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص 489

2. القوة الديمغرافية لدى الدول الإسلامية .

ويخشى من حالة التدهور التي قد يمر بها الغرب، وهي الغزو الخارجي فيقول "عندما ا تصبح الحضارة غير قادرة على الدفاع عن نفسها، لأنها لم تعد لديها الإرادة للدفاع عن نفسها فتصبح مفتوحة أمام " الغزاة البرابرة " الذين يجيئون غالبا من حضارة أخرى أكثر شبابا وأكثر قوة "[1801].

والحقيقة أن الغرب على لسان هنتنجتون يكشف بوضوح عن منطق "الاستكبار" و"عقدة العلو" التي يشعر بها الغرب اتجاه الأمم الأخرى، والذي يرى أنه النموذج الحضاري الذي لا يضاهى، ولا ينبغي أن يُكْسَر كبرياؤه. وها هو يسمي الآخرين –ويقصد المسلمين على الخصوص– "برابرة ". ونحن نتساءل من هو "البربري الحقيقي" الذي دمّر الحياة الإنسانية بحروب استباقية لا مبرر لها وبأكذوبة أسلحة الدمار الشامل كما في العراق، وتهديدات الإرهاب كما في أفغانستان، وهو في الوقت ذاته يدّعم إسرائيل في حربها الهمجية، ويبرر جرائمها البربرية ؟ أليس الغرب هو البربري؟!.

بالإضافة إلى ذلك نقرأ وراء السطور ذلك الحقد الدفين الذي يكنّه هذا المفكروغيره للحضارة الإسلامية من غير مبرر، وتناقضه في الوصف، ويتجلى ذلك في وصفه للحضارة التي يتخوف منها "الغزاة البرابرة الذين يجيئون من حضارة أخرى " كيف استطاع أن يصفها "بالحضارة" وفي الوقت نفسه "بالبربرية" فما يوصف بأنه حضاري، لا يمكن أن يكون بربريا . لا شك وأن هذا نابع من قراءة حقيقية لمستقبل الحضارة الغربية التي تتآكل من الداخل، وهو غير قادر على إيقاف هذا الانهيار، وهو يخجل من الاعتراف بالحقيقة المرة التي لم يهضمها بعد، وما سوف تؤول إليه الأمور عاجلا أم آجلا .

وتعليل الانهيار يرجع إلى أن الفرد الغربي بلغ حالة من الغريزية لم يعد بالإمكان إيقافه أو إصلاحه[1802]،وأن فاعليته الاجتماعية تراجعت، وأن هناك انخفاضا مرعبا في مستوى الأخلاق، وأن

[1801]– صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي الجديد ص 490

[1802]–ولابن خلدون رأي في خراب المدينة، حيث يرى : أنه إذا ماج بحر المدينة بالسفلة من أهل الأخلاق الذميمة واستحكم فيهم ذلك، تأذن الله بخرابها وانقراضها، وهو معنى قول الله تعالى :" وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول

عناصر القوة في نقصان على جميع المستويات، ولا وجود في الحقيقة لغزو خارجي يهدد حضارة الغرب، بل هو الإفلاس القيمي، لأن حضارة المادة تقوم على أسس غير متينة، وهذه صيرورة التاريخ، كل حضارة تطير بجناح واحد لا يطول زمان طيرانها، فاستشراف المستقل أكد أن حضارة الغرب بلغت دور الأفول، والسبب بسيط يرجع إلى أنها أصبحت حضارة بلا أخلاق. وأصبحت الغريزة –أي غريزة البطن والفرج – تتحكم في سلوكيات أفرادها .إذن هي أجيال غير قادرة على النهوض بالأعباء الحضارية، ومن ثم ينتظرها دور الذبول والأفول، كما يحدث في كل الحضارات . حيث تأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات وذلك يرجع إلى فساد أجيالها للعجز الذي يحصل لهم بسبب الدعة، وإما ترفعا لما حصل لهم من المربى في النعيم والترف. وكلا الأمرين ذميم [1803]ويضيف ابن خلدون فيقول :" بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه"[1804].

صحيح أن آثار الانهيار المحسوسة لا تزال بعيدة، ولكنها بدأت من وجهة نظر "علم العلل" كما يشير إليه الأستاذ مالك ابن نبي بوضوح، وهو يضع رسما تخطيطيا لتطور الحضارات، ملخَّصُه : أن المرحلة الأولى : هي(مرحلة الروح) حيث تكون قوة الروح بقيّمها النفسية والاجتماعية محركا فعالا يدفع الحضارة بقوة للانطلاق . وتليها (مرحلة العقل) حيث تبلغ الحضارة الأوج وتكون الفاعلية الاجتماعية كبيرة فتزدهر العلوم والفنون. وتنتهي ب (مرحلة الغريزة) حيث تتحرر الغريزة من كل مبدأ أخلاقي كان ينظمها ويضبطها، وهي مرحلة الأفول[1805]. فماذا عن علاقة الحضارة الإسلامية بغيرها ؟ .

فدمرناها تدميرا " ووجهه حينئذ أن مكاسبهم لا تفي بحاجاتهم لكثرة العوائد، ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم، وإذا فسدت أحوال الأشخاص، واحدا واحدا اختل نظام المدينة . ينظر المقدمة ص 413

[1803]–ينظر عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المقدمة ص 414

[1804]– المرجع نفسه ص414

[1805]– ينظر مالك بن نبي: شروط النهضة ص 68/67/66

أما من ناحية الرؤية الإسلامية للعلاقة مع الغرب، فلا يخفى على أي باحث عن الحقيقة أن رسالة الإسلام تقوم على هدف واضح وهو كون هذا الدين جاء "رحمة للعالمين"، ومن ثم فعلاقة الحضارة الإسلامية مع الآخر يضبطها هذا المبدأ . ولتحقيق هذا المبدأ في الواقع كانت وسيلة بناء العلاقات الإنسانية في الرؤية الإسلامية قائمة على أساسين هامين : التعارف، والتعاون على البر والتقوى،وذلك من منطلق وحدة الجنس البشري ووحدة الأصل المنبثق عن المشيئة الإلهية قال تعالى :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[1806]. وقال تعالى :{ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[1807].

أما على مستوى التعارف فالمصطلح القرآني لهذه الكلمة يتعدى المعنى اللغوي المباشر إلى معاني أعمق مفهوما،وأوسع دلالة . فلقد خلق الله الناس وجعلهم شعوبا وقبائل متفرقة يسعون في الأرض من أجل غاية سامية قدّرها الخالق سبحانه وهي التعارف بينهم . ولما كانت حظوظ الناس في الإبداع متفاوتة كان التعارف هو سبيل استفادة الإنسان من أخيه الإنسان، مما يؤدي إلى أن يرتقي التعارف إلى مستوى أعلى، وهو تبادل المعارف بكل ما في الكلمة من دلالات لغوية ومعرفية وإنسانية عميقة. وكلما اتسعت مساحة التبادل ضاقت مساحة الخلاف وأثاره السلبية التي تلحق ضررا بالمجتمعات الإنسانية .

أما على مستوى التعاون على البر والتقوى: فمن معانيه تضافر الجهود لتدعيم كل مشاريع الخير، ومحاربة كل برامج الشر التي تلحق بالإنسانية الأضرار،وهذا المفهوم العميق والشامل "للتقوى" هو الذي يؤكّد أهمية التعاون الإنساني على البر والتقوى،وكل ما يخدم المنافع الإنسانية في كل الأزمنة والأمكنة، وليس معنى هذا أن الحياة الإنسانية تسير في خط بياني صاعد مطّرد تتحقق فيه المنافع والمصالح للناسكافة وفي جميع الأحوال، وأن الحضارة "تتواصل" و"تتلاقح" و"تتدافع" ولا تتصادم.

[1806]–سورة الحجرات الآية :13

[1807]– سورة المائدة الآية 2

وإنما القصد أن "التدافع" ووجود البديل للخيارات السيئة في الحياة الإنسانية موجود، مادامت هناك إرادة إنسانية خيّرة تسير وفق إرادة الله ومشيئته الغالبة، وسنته القاهرة في ظهور الحق والتمكين للعدل اللذين هما قاعدتا الحضارة التي يسعد في كنفها الإنسان، ويبدع ويعمر في الأرض ويبني ولا يهدم ويصلح ولا يفسد .

ولعل المصطلح المناسب في توصيف العلاقة بين النماذج الحضارية هو مصطلح "التدافع " يقول عبد العزيز التويجري: "والتدافع" الحضاري مفهوم قرآني جامع للدلالات التي تؤكد بطلان نظرية "الصراع" من الأساس. قال الله تعالى:{ لَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }[1808] والدفع هنا بالتي هي أحسن في جميع الأحوال، ويكون ذلك بعرض المشروع الحضاري الذي يعالج مشاكل الإنسان، بدل الدفع المتوحش الذي يمارس في بعض الحقب التاريخية على شاكلة ما يكون في عالم الغابة، لأن الأصل في الدفع هو الذي يمنع الفساد والهدم أي : فساد الأرض باختلال النظام الذي وضعه الخالق لصلاح الحياة، فالتدافع قانون أزلي يسير في الاتجاه الصاعد إلى ازدهار الحياة بتراكم العطاء الحضاري والمنجزات الإنسانية في مختلف المجالات .

والحق أن "الرؤية الإسلامية لقضية العلاقات بين شعوب العالم تتسم بالاعتدال والوسطية وبالشمولوالعمق. والمفهوم الإسلامي للحوار بين الحضارات يصطبغ بصبغة التسامح والتسامي، وينطلق من عقيدة التوحيد، ومن الإيمان بوحدة الأصل الإنساني ... وصراع الحضارات في الرؤية الإسلامية حالة عارضة في مسيرة التاريخ، وقوى الخير وتياراته تغالب قوى الشر، وتنتصر عليها في نهاية المطاف" [1809] قال تعالى:{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم

[1808]- سورة البقرة الآية : 251

[1809]-عبد العزيز التويجري :صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة 2002ص 28

بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }[1810].

وإذا كانت الحضارات الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية يكشف تفاوت الحضارات فيما بينها في موقفها من المادية والروحية، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادي، ومنها ما يغلب عليه الجانب الروحي، ومنها ما يسوده التوازن بينهما، وفي كثير من الأحيان نجد تماثلا وتطابقا في الكثير من النقاط، والتماثل والتطابق لا يدعان مجالا للصراع .ولذلك فالحضارات لا تتصارع وإنما تتدافع وتتلاقح ويكمل بعضها بعضا، وتتعاقب وتتواصل،لأنها خلاصة الفكر البشري والإبداع الإنساني[1811] .

وحركة التاريخ في المفهوم الإسلامي هي سنة الله في الكون، إذ تكشف أن الصراع ليس واردا، لأن الدورة التاريخية تطّرد وفق المشيئة الإلهية، ولأن التاريخ هو من صنائع الله، والإنسان الذي يؤثّر في مسار التاريخ ويصوغه ويبدع فيه ويزاحم العاجزين هو من أكرم خلق الله.

و من هنا ففكرة" الصراع" تستبطن المكر، وتشحد همّة الغرب أن يستعد للنزال مع الحضارة الإسلامية بالذات، باعتبارها حضارة معادية في تصوّر هنتنجتون، لذا فهو يحرض الغرب على تجريد القوة الصاعدة من جميع عناصر القوة والنهضة، استعدادا للصراع المقبل منذ الآن، فإذا جاءت لحظة الصراع تكون قدرات العدو ضعيفة، ومن ثم تكون تكاليف المواجهة قليلة، وتدمير العراق يدخل في هذا الإطار، وتدمير أسلحة سوريا مثل ذلك، ولن تتوقف محاولات الغرب بناء على هذه الرؤية من

[1810]– سورة الحج الآية :40

[1811]– عبد العزيز التويجري: صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي ص 19

تدمير كل قوة صاعدة على حد تعبير هنتنجتون، وعليه ففكرة الصراع وهم كبير وهي دعوة للشر ومصدر له، وهي نظرة تشاؤمية تغذيها أطراف لها مصلحة في ذلك [1812].

فإذا كانت نظرية هنتنجتون تركز على أن الصراع هو الذي يحكم العلاقة بين الحضارات، فإن هناك فريقا من العقلاء يدعو إلى "الحوار" بين الحضارات ويشجعه لأهميته الملحة في العصر الحالي، لأن الحوار بين الحضارات دعوة إلى الخير ومصدر للسلم والتعايش وحفظ إنجازات الحضارة الإنسانية في جميع الأحوال، ويشير عبد العزيز التويجري إلى أن جوهر العلاقة بين الحضارات هو السلم والحوار وإن كان الواقع يوحي بخلاف ذلك فيقول :"ويتبدّى لنا الصراع في المفهوم الإسلامي نقيضا للحوار وليس بديلا عنه، والنقيض يُتجاوز، لأنه خروج عن الأصل في حياة المجتمعات الإنسانية حتى وإن بدا الصراع فارضا وجوده، فإن مصيره إلى زوالهما طال به العهد، في حين أن الحوار أصل ثابت، لأنه يتفق مع الطبائع الإنسانية "[1813]قال تعالى:{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ }[1814].

وعليه فلفظة "الصراع" لفظة مرفوضة لأنها تخفي خلفها رصيدا من الحقد، تغذّيه أطراف من مصلحتها إيقاع العداوة بين الناس، وفعلها لا يختلف كثيرا عن فعل الشياطين التي تفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان، على الرغم من التباين والخلاف، ففرص الاتفاق واردة مادام هناك احتكاك ونقاش وحوار، مما دفع التويجري إلى القول بأن فكرة الصراع هجينة وغير بريئة " إن فكرة الصراع فكرة هجينة عارضة تخدم فئة من البشر تحاول السيطرة على أمور العالم وهي أغراض غير بريئة، وليس لها

[1812]– يرجع بعض المحللين أن هذا التحريض لتجريد الدول من عناصر القوة يقوم به اللوبي الصهيوني المهيمن على مصادر القرار في كثير من الدول الغربية .وهذا المكر غير مستبعد ولا سيما أن القرآن الكريم نبه إليه كثيرا ،ولمح إلى أن اليهود لا يتوقفون عن محاولة إشعال فتيل الحروب : {كُلَّمَاأَوْقَدُوانَارًالِّلْحَرْبِأَطْفَأَهَااللّهُوَيَسْعَوْنَفِيالأَرْضِفَسَاداًوَاللّهُلاَيُحِبُّالْمُفْسِدِينَ }المائدة64.

[1813]– عبد العزيز بن عثمان التويجري :صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي ص28

[1814]– سورة الرعد الآية :17

صلة بالأهداف الإنسانية النبيلة التي تنبع من المبادئ والقيم الحضارية البانية للإنسان والعمران والحضارة "[1815] .

ونحن كمسلمين أكثر الناس معرفة بالجهات التي تروّج للأفكار التي تمزق المجتمع الإنساني ودوافعهم في ذلك، فالفكرة دنيئة تروّج لها نفوس مريضة أو مأجورة توظف الفكرة لأغراض مخالفة للأخوة الإنسانية، فسلوك اليهود في المدينة قبل الهجرة وبعدها لا يخفى على كل دارس وكيف كانوا يستغلون كل فرصة للتحريش بين القبائل (الأوس والخزرج) وبين (المهاجرين والأنصار) و كيف كان دورهم في إشعال نار الفتن والحروب في كل الحقب التاريخية، وهو ما يشير إليه كثير من المؤرخين عند الحديث عن الثورات في أوروبا ومن كان وراءها .

وقد أبان القرآن بوضوح طبيعة اليهود ودورهم في إشعال الحروب عبر التاريخ، ولسوء فعلهم يكونون منبوذين ومضطهدين، ولا يملكون أي وسيلة للتخلص من ذلك إلا بإضعاف القوى المحيطة بهم،لذلك كانت هوايتهم إشعال الحروب . قال تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }[1816]. والترويج لفكرة الصراع هو تمهيد لفتن تنتظر البشرية، إذا لم يتفطن العقلاء، فيبطلوا فعل اليهود في تسميم الأجواء وتهديد مستقبل البشرية .

و بناء على هذا يصبح منطق التدافع هو المنطق المقبول، والذي يمنح الفرصة لكل حضارة أن تعرض ما لديها من قيم راقية تنفع بها الإنسانية، وتكون بذلك جديرة بالإتباع في هذا المجال، لأن من سنة الله أن يميّز بين الحق والباطل في خضم الحراك والتفاعل، فيتميّز الخبيث من الطيب فِي قدْرِ

[1815]–عبد العزيز بن عثمان التويجري المرجع السابق ص28

[1816]– سورة المائدة الآية :64

الحياة. قال الله تعالى:{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ }[1817].

ومن هنا " فالتفاعل الحضاري"[1818] هو البديل "للصراع"، وهو من المنظور الإسلامي عملية "تدافع" لا "تنازع"، "تحاور" لا "تناحر"، لأن في التفاعل حياة وازدهار، وفي التصارع فناء ودمار،و في الإسلام دعوة صريحة وقوية للتحاور على اعتبار أن الحوار هو طبيعته وجوهر رسالته، انطلاقا من قاعدة "التسامح"[1819] التي جسّدها رسول الإسلام وهو يضرب المثل الأعلى لأصحابه يوم فتح مكة ليظل النموذج الأمثل للأمة الإسلامية حينما تتمكن من الانتصار على أعدائها :" اذهبوا فأنتم الطلقاء "وهو المبدأ الذي وظّف عند الفتوحات الإسلامية فيما بعد .

ولا يخفى على أحد أن الحوار سلوك حضاري مرحب به عند كل الأسوياء، ففيه نشدان الحق والعدل والفضيلة، فهدفه لا يتجه أبدا إلى الفساد والهدم .وبخاصة قد أثبت التاريخ أن المعالجات التي كانت بوسيلة الصدام كانت تكاليفها باهظة الثمن، بينما رأت البشرية بركة الحوار،وفعله السحري عبر العصور، وقدرته في إيجاد مناخ إيجابي ملائم لاستعراض الأفكار وطرح القضايا الخلافية على بساط البحث، ومعالجة الإشكاليات بروح موضوعية، ولا شك أن ذلك يساهم في تنمية الروح الإنسانية بين الشعوب.

[1817]- سورة الرعد الآية :17

[1818]-التفاعل الحضاري :يعني القبول بالتعدد والتنوع والاختلاف ففي كل عوالم الخلق الحيوان والنبات والإنسان يوجد تنوع، وفي الرؤية الإسلامية يصل إلى مرتبة السنة الكونية والقانون الذي لا تبديل له ولا تحويل، فالواحدية والأحدية لله سبحانه وحده، لذلك يرفض الإسلام فكرة "الصراع " لأنها تعني صرع الطرف الآخر وإنهاءه، ويعتبر الصراع مكرسا للواحدية والانفراد والاستغناء" هذه الحالة تعد في الرؤية الإسلامية مقدمة الطغيان، أما البديل فهو فلسفة "التدافع" التي هي وسط بين "السكون والموات" وبين" الصراع" وهي حراك يعدّل المواقف لتصل إلى لحظة الوسط والعدل يعطي الفرصة للتعايش،مع بقاء التعدد والتمايز والتنوع والاختلاف..

[1819]- حيث أن لكل طائفة الحق في ممارسة شعائرها في المجتمع الإسلامي، كما لها الحق في المساواة في الحقوق والواجبات، ما لم يلحق ضرر بالنظام العام للمجتمع المسلم أو مساس بالمقدسات.

وجدير بالذكر القول بأن حضارة الغرب العلمانية السائدة بمنطقها الصدامي لوثت أجواء العلاقات، على الرغم من ثرائها المادي وجبروتها العسكري، وقد أدى ذلك إلى أن أصبح منطق التفكك والانفصال يتجاوز قوى التعاضد والتماسك. فالقيم التي تجمع الناس تعاني من الاضطراب، ولم تعد العلل مقصورة على قطاع واحد أو عدد قليل من القطاعات بل أصبح نهر الحياة ملوثاكما يشير إلى ذلك التويجري[1820] .

وبناء على هذا فمنطق العلمانية القائم على "فلسفة الصراع" في العلاقات بين الشعوب مرفوض لأنه يقصد إلغاء الآخر، بينما منطق "التدافع" في المنظور الإسلامي ينقّي نهر الحياة والحضارة من التلوث الذي يفرزه الصّراع والصّدام . ولعل هيمنة الفكر المادي العلماني اللاديني علّة أصابت جميع الممارسات وأنماط السلوك ونظم الفكر وأساليب الحياة [1821] .

وبعد هذا التحليل لطبيعة العلاقة بين الحضارتين، وما توصلنا إليه من تباين واضح في منطق كل حضارة في التعامل مع الآخر، منطق يدعو إلى الصراع والإقصاء ومنطق يقوم على التدافع والحوار .فهل هناك إمكانية لصياغة مشترك إنساني ؟ وما هي عناصر هذا المشترك؟ وما مدى فعاليته كمنظومة قيمية تجمع الإنسانية في ظل السلم والسلام بدل الصراع ؟ وما هي الآليات التي تعين على تحقيق التعارف الإنساني ؟ هذا ما سأحاول بيانه في هذا المبحث الآتي .

المبحث الثالث : القيم المرجعية للإنسانية :

المطلب الأول: وجود المشترك الإنساني

هناك فريق من المتشائمين الذين يرون استحالة وجود مشترك إنساني في ظل التناقضات الصريحة وتضاؤل الاعتراف بالثقافات، والخصائص الاجتماعية، والحضارية والعقائدية، التي تمثل شروطا للحوار، ومثله التباين الواضح بين المنظومات القيمية والمصطلحات التي لا يمكن التوافق عليها أو

[1820]– ينظر عبد العزيز التويجري : صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي ص 24

[1821]– ينظرالمرجع نفسه

الوصول إلى مشترك .وقد يقال في هذا السياق إن القيم المرجعية تتعدد ولا يمكن أن تتوّحد، والدليل على ذلك تعدد الشرائع والمذاهب الأخلاقية واختلافها بين الحضارات والثقافات، وأن ذلك دليل على نسبيتها وتغيّرها، فهي غير منضبطة وبالتالي لا مجال لوجود مشترك.

ويجيب الفريق المؤمن بوجود المشترك بالقول : إن سعي الإنسان الدائم لوضع منظومة قيمية دليل قاطع على وجود قيم سوف يتقاطع فيها أكثر الباحثين والعقلاء. وهذا ما يشير إليه محمد الكتاني بقوله :" إن كثرة المذاهب الأخلاقية وتعدد القيم إنما يخفيان سعي الإنسان لتكريس قيم موجودة، وجديرة بالاحترام، فهناك قيم واحدة في نهاية المطاف، إلا أن التعبير عنها، والإحساس بها، وتحديد المنهج الأوفق للحفاظ عليها يختلف بين عصر وآخر وبين مجتمع ومجتمع" [1822] .

ومن المفيد هنا التأكيد على أنه مهما كان الاختلاف بين البشر لا بد أن تجمعهم رابطة أو روابط، فلكوننا جميعا ننتمي إلى الإنسانية فيقينا نحن "نشترك " في أضعاف أضعاف ما نختلف فيه، ولعل هذا هو سر الخطاب الإلهي لكل الناس {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[1823] إنه ليس خطابا لجنس أو عرق أو لون أو حضارة أو لزمان أو لمكان، فهو معنى يمتد طولا وعرضا وعمقا، ليؤكد أن الناس خُلقوا مختلفين لا ليتباغضوا ولا ليتقاطعوا ولكن ليتعارفوا، لذلك نحتاج أن نبحث لاكتشاف المشتركات الكثيرة التي تجمعنا مع إخواننا في الإنسانية .

وهنا نجد الرؤية الإسلامية الناضجة التي تبرهن على وجود المشترك بأي صورة من الصوّر على الرغم من الخلاف العميق في المجتمع الواحد، أو المجتمعات المختلفة. منطلق هذه الرؤية أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من ذكر وأنثى وجعل منهما الشعوب والقبائل، وبالتالي التعدد في جنس الإنسان، ولا يعقل أن لا يكون هناك جامع بين جنس الإنسان في إطار انتمائه لأب وأم.

[1822]– محمد الكتاني : منظومة القيم المرجعية ص18

[1823]– سورة الحجرات الآية :13

فبدون وجود وحدة جامعة لا يتصوّر التنوع والخصوصية ، ومن ثم فالتعددية مستويات يحددها الجامع والرابط يمثل الوسط بين طرفي غلو إفراط وتفريط، فهي ظاهرة ككل الظواهر الاجتماعية والسياسية والحضارية حيث يعتبر التعدد قانونا إلهيا وسنة جارية لا تتبدل ولا تتحول، ولا يمكن تجاوزها في العالم المادي والاجتماع الإنساني .

ولهذا قصرت الرؤية الإسلامية الوحدة على الذات الإلهية وحدها دون كل المخلوقات والمحدثات والموجودات في كل ميادين الحياة . وبهذا المنظار يتصور الإسلام قضية التعدد، فيتحدث عنها القرآن باعتبارها آية من آيات الله في الخلق القائمة على الازدواج، والتعدد والتركب والارتفاق، ولهذا التعدد حكم كثيرة لا يمكن أن يتحقق التواصل الإنساني بصورته المثلى من دونه:

*ففي تعدد القوميات والأجناس يتحدث القرآن الكريم على أنها آية من آيات الله :" {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }[1824].

*وفي الشعوب والقبائل يوجد التعدد الذي يثمر التمايز الذي يمكن توظيفه في إقامة علاقات التعارف بين الفرقاء :"{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[1825].

*وفي الشرائع والمناهج يوجد التعدد الذي ينتج عنه تعدد الحضارات التي تعد الحافز للتنافس في الخيرات، والسبب في التدافع الذي يرشّد حركة التاريخ من خلال كونها الباعث على الاجتهاد في طرح البدائل والاستباق في الإبداع بين المتمايزين :"{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }[1826]، وقال تعالى{ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

[1824]- سورة الروم الآية :22

[1825]- سورة الحجرات الآية :13

[1826]-سورة هود الآية :118

تَخْتَلِفُونَ }[1827] وهناك ألوان أخرى من التعددية التي تفرضها إفرازات اجتماعية كثيرة دينية وسياسية وغيرها، لكن يبقى دائما مع التعددية عناصر جامعة يمكن أن نسميها المشترك الإنساني العام المتميز عن الخصوصيات الحضارية[1828].

فإذا كانَ سِرُ الجمال في الكون مع تنوع مظاهر الإبداع في اللوحة الواحدة، فكذلك الأمر في الاختلاف بين البشر، وقد عبّر راغب السرجاني عن سر الاختلاف بين البشر بقوله : "إن العالم بحضاراته المختلفة، وتنوعاته الهائلة، وأعراقه وأجناسه، وأفكاره ولغاته، ليمثّل منظومة رائعة متكاملة، تعطي ثراء لا نهاية له، وروعة لا حد لها ..ولو كان البشر كلهم على شاكلة واحدة لعانى الناس من السآمة والملل والكآبة والإحباط .. إذا ليس الاختلاف هو سر أزمتنا "[1829] .فسر أزمتنا أننا لم نكتشف عناصر التوافق والاشتراك التي تمنحنا فرصة التعايش في أمن وسلام .

المطلب الثاني :مفهوم قيم المشترك الإنساني :

يؤكد الدارسون لموضوع القيم على أمر أساس في هذه المعادلة وهو أنه "ما من فعل يأتيه الإنسان أيا كان نوعه ووجه مأتاه، إلا وشأنه أن يستند إلى "قيمة " معيّنة تعلو عليه وتوجّهه، سواء أكانت هذه القيمة قيمة دنيوية متعلقة بأمور الدنيا، أم كانت قيمة دينونية متعلقة بشؤون الدين، بدءا من أبسط الأفعال التي يأتيها الإنسان عفوا إلى أعقدها مأخذا، وصعدا من أخسّها مأتى ولو على جهة السلب (سلب القيمة)إلى أشرفها إتيانا " [1830] .

ومن هنا يثبت لدينا أن القيم عنصر أساسي في الشخصية الإنسانية، على أساس أن الإنسان لا يمكن أن يكف عن التعلق بمثال ونشدان الكمال في عالم الواقع .وفي جميع الأحوال ينطوي السلوك

[1827]- سورة المائدة الآية :48

[1828]-ينظر محمد عمارة : التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ط سنة 1997 ص 4،5،20 على التوالي.

[1829]-راغب السرجاني : المشترك الإنساني ص 8

[1830]- مجلة الإحياء: سؤال الأخلاق ونظام القيم الرابطة المحمدية للعلماء العددان 33/32 سنة 2010 ص110

الإنساني الهادف على طلب القيمة، أو استشراف المثل الأعلى، بحيث يعمل الإنسان في ضوئه للاقتراب من نموذج الكمال الذي ينشده، إن لم يستطع تحقيقه على نحو ما يؤمن به، وإذا كان كل إنسان ينشد قيمة، فهل يوجد مشتركين بني الإنسان ؟ وبمعنى آخر هل يمكن أن تكون لبني الإنسان بعض القيم مرجعية المشتركة ؟ .

لا يشك عاقل أن الإنسان كائن أخلاقي في المقام الأول، ومؤهل للتمييز والحكم على كل ما يجري حوله، لذلك فهو يقيّم الوقائع في ضوء الغايات التي ينشدها، فيصدر الأحكام عليها بالاستحسان أو الاستهجان، انطلاقا من نشدان الكمال الذي يسكن وجدانه وعقله، ويفرض نفسه على عقلنا المعياري بالضرورة . ومثال ذلك أنه عندما يتعلق الإنسان بالجمال في صورة من صوره، أو عندما ينتصر للحق في موقف من المواقف أو عندما يفضّل الخير على الشر أو يصغي لضميره في تلبية نداء الواجب، فإنه غير محتاج لتبرير هذا الموقف أو ذاك، لأنه يتعلق بحقيقة بديهية تعد جزءا من طبيعته الفطرية التي تميّزه عن الحيوان . وهي ما يعبر عنها أحيانا بالمبادئ الأخلاقية أو القيم الإنسانية العليا أو(قيم المشترك الإنساني) فما المقصود بقيم المشترك الإنساني ؟

يذهب طه عبد الرحمن إلى أن هناك مسلمتين[1831] أساسيتين في النظرية الأخلاقية هما:

1-مسلمة الصفة الأخلاقية للإنسان :ومقتضى هذه المسلمة أنه لا إنسان بغير أخلاق، ولا يخفى أن هذه الأخلاق تحمل معان شريفة، أو قل قيّما عليا، كما لا يخفى أن ليس في كائنات العالم مثل الإنسان تطلعا إلى التحقق بهذه المعاني والقيم، بحيث يكون له من وصف الإنسانية بقدر ما يتحقق به منها، فإذا زادت هذه المعاني والقيم زاد هذا الوصف، وإذا نقصت نقص :"وإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار "[1832].ويترتب على هذه المسلمة حقائق ثلاث :

[1831]- المسلّمة :هي الأمر الذي لا يستدل عليه لوضوحه .

[1832]عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : المقدمة ص 414

أ-أن هوية الإنسان أساسا ذات طبيعة أخلاقية

ب-أن هوية الإنسان ليس رتبة واحدة وإنما رتب متعددة فقد يكون الواحد من الجماعة إنسانا أكثر أو أقل من غيره فيها .

ج- أن هوية الإنسان ليست ثابتة وإنما متغيّرة فيجوز أن يكون الفرد الواحد في طور من أطوار حياته إنسانا أكثر أو أقل منه في طور سواه.

2- مسلمة الصفة الدينية للأخلاق :ومقتضى المسلمة الثانية للأخلاق الإسلامية أنه لا أخلاق بغير دين، أي أن الأخلاق تنبني على الدين، بحيث تتلقى هذه الأخلاق من الوحي الإلهي والتأسي فيها بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي جاء بهذا الوحي، وبالتالي فالهوية الإنسانية هوية دينية[1833].

وإذا اعتبرنا أن "الفطرة" مطابقة "للدين"، كان من المنطقي اعتبار "القيم الفطرية" مشتركا إنسانيا:"فالقرآن ما يلبث أن يعلن أن النفس الإنسانية مستودع " قانون أخلاقي فطري" نفخ فيها منذ الخلق"[1834] وقد نص القرآن الكريم على ذلك فقال تعالى:{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا أَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا }[1835] .

وهناك أحاديث نبوية كثيرة تعتبر القلب أو النفس مستودع الحس الأخلاقي حيث يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم كلا منا أن يحاكم سلوكه إلى ما اشتملت عليه النفس من مبادئ أصيلة ما دامت الفطرة سليمة.وهي بنفس معنى الضمير في الفكر الأخلاقي الغربي .ومنها ما رواه مسلم عن النواس بن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" البر حسن الخلق والاثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس "[1836] وكذا قوله صلى الله عليه وسلم :" ألا وإن في الجسد مضغة إذا

[1833]- ينظر طه عبد الرحمن :سؤال الأخلاق ص 148/147

[1834]-مجلة الإحياء سؤال الأخلاق ونظام القيم الرابطة المحمدية للعلماء المغرب العددان 33/32 ص102

[1835]-سورة الشمس الآية : 8/7

[1836]-أخرجه مسلم :كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم المجلد الرابع حديث رقم 6553

صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "[1837].إن هذا كله يفيد أن القلب أو النفس تقوم على النسق الأخلاقي الفطري (الضمير)في حكمها على السلوك.

لذلك فإن القيم الإنسانية تعد بمثابة معايير لسلوك أفراد المجتمع تتقبلها الجماعة المحلية أو المجتمع العالمي، لكونها مشتركا نابعا من طبيعة النفس الإنسانية ومنسجمة مع نزوعها، والخروج عنها يجعل الفرد في موقف استهجان أو انحراف، فهي إذن تصورات ومفاهيم للسلوك المعياري للإنسان أو الجماعة أو المجتمع الدولي .

ولما كان كل مجتمع لا يقبل إلا ثقافته على اعتبار أن القيم نسبية عند أمة ومطلقة عند أمة أخرى، فإن هذه القيم منها ما يكون عابرا وهي القيم التي تتعلق بالجوانب الجمالية أو شكل الحياة الإنسانية، ومنها ما يكون دائما وهي القيم ذات العلاقة بالدين والأخلاق، ومن ثم يصبح من المقبول أن تكون هناك نقاط تقاطع بين الأمم والشعوب .

وفي هذا المقام يمكن أن يسعفنا تعريف جمال الدين نادية حين عرفت القيم المشتركة بقولها :" ويقصد بالقيم الإنسانية هنا الاتجاهات والمبادئ الإنسانية العامة التي تدور في ساحات المنظمات الدولية، وتظهر في مواثيقها نظرا لما تحمله من عموم في تطبيقاتها، حيث يمكن أن تجمع تحت لوائها مجتمعات العالم قاطبة "[1838]. ومن أمثلة هذه القيم : "الحرية"، و"العدالة"، و"الحفاظ على البيئة"، و"الكرامة الإنسانية"، و"التضامن"، و"السلام" .وهذه من أهم القيم التي تحفظ الحضارة الإنسانية، وتتحقق التنمية البشرية في ظلها.

والقيم الإنسانية من هذا المنظور ترتبط بحقوق الإنسان، وفيها يراعى البعد الأخلاقي، وتشتبك معها الأبعاد الأخرى. اقتصادية، وسياسية، اجتماعية ... والتي تجعل لها بعدا وظيفيا من الزاوية

[1837]– أخرجه مسلم كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات المجلد الثالث حديث رقم 4110

[1838]– نادية جمال الدين :مقال القيم الإنسانية أو التنمية البشرية لعالم واحد متنوع الثقافات، مجلة البحوث والدراسات العربية سنة 2005 ص258

الاجتماعية بحيث تؤلف بينها نسقا من القيم الإنسانية .فتمثّل بذلك المبادئ العليا التي يمكن أن تنضوي تحت لوائها البشرية، ولا تتحقق إنسانية الإنسان بدونها.

ويشكّل الدين أهم عامل في هوية الإنسان، لأنه لا يتصوّر وجود أخلاق بغير دين على الرغم من أن هذه المسلّمة من وجهة نظر "طه عبد الرحمن" من الراجح لا تطيقها فئة من الناس : "على الخصوص العلماني الذي لا يقرّ إلا بسلطان العقل المجرد، فلا مجال عنده للوحي، و"الناسوتي" الذي لا مجال عنده للألوهية و"الطبيعي" الذي لا يقر إلا بالتعليل الطبيعي للأشياء، فلا مجال عنده للغيب و"المادي" الذي لا يقر إلا بالأساس المادي لكل شيء، فلا مجال عنده للروح، و"التاريخاني" الذي لا يقر إلا بالغير التاريخي للظواهر الإنسانية، فلا مجال عنده للمطلق "[1839]. لذلك فهو يرى أنه :"لا إنسان بغير دين، مما يجوز معه أن نعرّف الإنسان بأنه : الكائن الحي المتديّن، فالهوية الإنسانية تكون في حقيقتها هوية دينية "[1840] . وهذا يقودنا إلى التأكيد على فهم المشترك الإنساني فهما عميقا حتى يسهل وضع أسسه الصحيحة .

المطلب الثالث : المشترك الإنساني بين العالمية والعولمة

وإذا كان المقصود بالمشترك الإنساني مجموع نقاط الالتقاء بين أفراد النوع الإنساني فهي" قيم عالمية" وهي كثيرة تحتاج إلى الرصد والاكتشاف، فإنه لا بد من التأكيد على أن القيم الإنسانية وشمولها للبشر، لا يعني الانسحاق أمام "العولمة " وترك الانتماء والخصوصيات والخضوع لأنماط المتفوّق في اللحظة التاريخية الراهنة. وهنا ينبغي التأكيد على وجود "ثقافة عالمية" تجمع البشر ولا تتعارض مع الخصوصية الثقافية [1841] .لذلك يصبح من الضروري التنويه بأهمية العودة إلى ثوابت كل مجتمع لمحاولة تلمس مجالات الاشتراك والاختلاف بينه وبين غيره من المجتمعات، لتأصيل القيم الإنسانية الأساسية

[1839]–طه عبد الرحمن : سؤال الأخلاق ص 148

[1840]–المرجع نفسه ص 149

[1841]– ينظر نادية جمال الدين : مقال القيم الإنسانية و التنمية البشرية لعالم واحد متنوع الثقافاتص 260

. وسوف نجد حينئذ تنوعا بشريا خلّاقا.لكن ذلك لا يعني عدم وجود نقاط تقاطع هامة تلتقي عليها البشرية جميعا.

لعل فكرة الواحدية والتعدد فكرة أصيلة في الفكر البشري، أما الغرب فينطلق من فكرة الرفض للتعدد في تاريخه ورفض التعددية حتى في المذاهب داخل النصرانية الواحدة وليس فقط التعددية في الديانات، وما قامت به محاكم التفتيش يؤكد ذلك، وهذا ما جعل الفكر الغربي يتجه إلى فكرة العولمة والوحدة الحضارية في الإنسانيات كما في الطبيعيات .

بينما نجد الرؤية الإسلامية تختلف عن ذلك لأنها انحازت إلى التعددية في الأجناس والأقوام والشعوب والقبائل والشرائع والمناهج والحضارات ولم تقف عند الجانب النظري، بل تجسّدت هذه الرؤية واقعا حضاريا معيشا .

فموقف الإسلام واضح وحاسم حيث "يؤكد على أن التعددية هي الأصل والقاعدة، بل إنه يجعلها القانون الإلهي والسنة الإلهية الأزلية الأبدية في ميدان علم الاجتماع الإنساني وشؤون العمران البشري، فالوحدانية خصيصة للخالق الواحد سبحانه أما ماعدا الخالق الواحد من عوالم الكون، وشؤون الاجتماع البشري وميادين الحضارة والعمران فقائمة على التعددية كسنة جارية وحاكمة في جميع الميادين "[1842].

فالقرآن الكريم حين يدعو إلى الحوار والمجادلة فهو بالضرورة يقر بالتعدد ويرى أنه آية من آيات الله في الاجتماع الإنساني لأن التعدد لا يعني القطيعة والتضاد:{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }[1843].

[1842]– محمد عمارة: مقال: حضارة أم حضارات؟ الجامعة العالمية للبحوث الإسلامية الإسلامية :الحضارة الإنسانية بين التصور الديني والنظريات الوضعية الجزء الأول ص 201

[1843]– سورة الروم الآية :22

ومن هنا فالسعي لبلورة الأخلاقيات العالمية لا يعني سلوك مسار واحد،بل هي إطار تستطيع من خلاله المجتمعات إيجاد حلول سلمية للأزمات التي تعيشها، ولعل أروع ما يكون ذلك في ظل القيم الإيمانية الروحية،التي تتميز بالتسامح وتتقدم بالتعاون وترقى بالاعتماد المتبادل، وتتجه بإخلاص للانحياز للقيم الإنسانية الأصيلة التي تعمل من أجل الحفاظ على الكرامة الإنسانية .

ولا شك أن ترك المساحة للتنوع وقبول حرية الآخر في الاختلاف، إنما هو دعوة للتنوع الإنساني المبدع في مجال القيم الإنسانية، بحيث يتفاعل الإنسان وينفعل،ويتعاون الجميع من أجل الأفضل فلا ينزع إنسان من جذور ثقافته ليوضع تحت مظلة ثقافة أخرى .

وبهذا يمكن للمجتمع الإنساني أن يكشف بوضوح عن القيم الإنسانية وهو عمل تشترك في إنجازه كل الأمم والمنظمات في العالم، و به تقاس درجة احترام المعايير الإنسانية، ومنها حق الكرامة وحق الحرية وحق المساواة، وحق الحياة، حق الملكية، وحق اللجوء، ورفض العبودية، وحق العيش المحترم، والعدالة الاجتماعية، ورفض التمييز، ومنع التعذيب، وكل هذه الحقوق تجعل كرامة الإنسان في منأى عن أي تلاعب سياسي، وبهذا يكون انتقال نوعي في عملية صياغة القوانين، ووضع القواعد الأخلاقية والضوابط القانونية للجماعة الإنسانية لتمنع البشر من انتهاك حرمة الإنسان، لأن جوهر ما في القيم الإنسانية، أنها تجعل من هذا المخلوق كائنا محترما لا ينبغي المساس بحقوقه، هذه الحقوق يمكن صياغتها في شكل نصوص قانونية ملزمة يمكن تسميتها ب"الدستور الأخلاقي العالمي" لجميع الدول والذي يحقق العدالة بمفهومها العميق إذا التزم به الجميع .

ف "العدل" مثلا لم يكن قيمة أخلاقية من القيم الحاكمة في تاريخ كثير من الحضارات، وحتى فترات متأخرة حديثة، بل كانت "القوة" هي القيمة التي ميزت تلك الحضارات، ولا شك أننا نرى إصرار الضعفاء وتمسّكهم بالأخلاق والقيم كمنقذ لهم من القوة، مكّنهم من تحقيق بعض المطالب المتعلقة بحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية، باعتبار أن القيم الأخلاقية عامة ترتبط ارتباطا وثيقا بمبادئ حقوق الإنسان، وإن بقيت هذه الحقوق لم ترق إلى التنفيذ في غالب الأحيان،وظلت حبرا على ورق،وما زال منطق القوة متحكما من وراء الستار، فلحد الساعة هناك بلدان فقيرة جدا، وجماعات

مهمشة، وسجناء واحتلال، ونهب الثروات، والكيل بمكيالين في حل الأزمات، وهذا ما يفرض السعي لتعديل موازين القوة من أجل فرض العدالة على الجميع،فلا بد من أوراق قوة توضع على مائدة المفاوضات في منتدى الحضارات لتقرير "مبدأ العدالة" التي لا تستثني أحدا .ولا ينبغي ترك مصير الإنسانية بيد فئات تعبث بكرامة الإنسان كيفما تشاء.

ولا شك أن البشرية كلها –إلا من شذ- يأمل في تحقق العدل بين الناس،وتدل روح الانحياز لمبدأ العدل في النفس الإنسانية على أن هذه التعاليم قيم مشتركة بين جميع البشر،وبفقد شيء من عناصرها لدى أي إنسان تنتقص إنسانيته بقدرها. ويشير محمد عمارة أن هناك شواهد كثيرة على وجود المشترك الإنساني العام الجامع لكل الحضارات الإنسانية...وعلى وجود الخصوصيات الحضارية الممثلة لتمايز الحضارات وتعدديتها،تعدد تمايز لا تعدد تناقض وتنافر. ومن ثم تسقط دعاوى "واحدية الحضارة " في عالمنا. تلك الدعوى التي تخفي أو تحاول أن تخفي مقاصد الهيمنة وأغلال التبعية ومخاطر الاحتواء، كما سقطت دعاوى الانغلاق والتناقض التام بين الحضارات في كل الميادين، لذلك فإن عالمنا من الواجب عليه أن يكون منتدى حضارات يتصافح الجميع دون أن يتنازل أحد عن بصمته وهويته التي تميزه عن غيره وتمثل جوهره وروح حضارته.[1844]

لما كان للحكم القيمي هذه الأهمية في توجيه السلوك الإنساني في إطار المعايير الأخلاقية كان لزاما علينا التعرف على أهم القيم التي تمثل المشترك الإنساني، ويمكن تحديد هذه المشتركات وترتيبها من الأهم إلى المهم حسب تأثيرها في المنظومة القيمية،لكن هذا الترتيب يظل ترتيبا نسبيا، فقد يختلف الناس، في تقديم عنصر على آخر، إلا أنه لا يمكن إلغاؤه،لكونه قيمة حاسمة في بلوغ التعارف مدى مقبولا بين جميع البشر. فما هي المشتركات التي تحقق معنى الإنسانية وتمكّن البشر جميعا من التعايش فيما بينهم ؟

المطلب الرابع: أنواع قيم المشترك الإنساني

[1844]– محمد عمارة: مقال الحضارة الإنسانية. حضارة أم حضارات؟ ص 219

1. قيم المشترك الروحي الأسمى

يمثلالمشترك الروحي الأسمى وهو " العقيدة" أو "الدين" أو "الحق" أهم مشترك بين بني الإنسان باعتباره يحدد "الهوية"، وهو أقوى رباط بين الناس، حيث يتجاوز حدود الزمان والمكان، إذ يجمع بين أبناء العقيدة الذين يختلفون في العرق واللغة والجغرافيا، بل يشعرون بالانتماء إلى أجيال سبقتهم بقرون، فهذا الرابط لا يعلوه رابط آخر،وبخاصة في الأوساط التي تشهد حركات دينية وعودة إلى الأصول،وتتجلى مكانة المشترك الأسمى من القيم الروحية، فيكونه يؤثر على شخصية الفرد تأثيرا بالغا، فيدفعه إلى ترك الأهل والبلد والعشيرة، من أجل ما يؤمن به،ويمكن أن يدفع ثروته ويفدي عقيدته بالنفس والنفيس ف:"في كل الحضارات التاريخية –إذا ما استثنينا القلة المادية المنكرة وجود الله خالق لهذا الوجود –هناك اشتراك بين جميع أمم تلك الحضارات في الإيمان بخالق لهذا الوجود ..ومع هذا الاشتراك هناك خصوصيات حضارية في تصوّر كل حضارة من الحضارات لنطاق وآفاق عمل وفعل وتدبير الذات الخالقة لهذا الوجود"[1845]

فالعقيدة عند كل الشعوب أصعب ما يمكن تغييره، فيمكن أن يغيّر الإنسان وطنه أو شكله أو عمله،ولكن ليس من السّهل أن يغيّر عقيدته؛لأن ذلك يتطلب تغيير قناعاته التي ترسخت في نفسه منذ سنين.فكل النّاس إذن لها انتماء للعقيدة التي تعتبرها الحق الذي لا يناقش،وهو ما يعتبر مشتركا بين بني الإنسان،بغض النظر عن صحة ما يعتقده الإنسان،المهم أن هناك خلفية من التصورات تحكم سلوك الإنسان، فهو لا ينطلق من فراغ في سلوكاته، بل إن كل إنسان له خلفية فكرية وفلسفية ينظر من خلالها إلى قضايا الوجود.

فالعقيدة في المحصلة النهائية مشترك بين كل البشر،أي أن كل إنسان لابد أن تكون له عقيدة، حتى لو كانت هذه العقيدة هي اللاعقيدة، أي أن لكل شخص نظرة للحياة.صحيح أن العقائد

[1845]– محمد عمارة : مقال الحضارة الإنسانية حضارة أم حضارات ؟ ص206

مختلفة، لكنها موجودة في كل الأحوال، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً }[1846] .

وبالنظر إلى تاريخ الإنسان وما شمل عليه من عقائد، يمكن تقسيمها إلى مجموعات ضخمة، تبرز لنا وجود هذا المشترك الروحي، وتكشف عن وجوده وأهميته حتى عند اللادينيين، فهم يستبطنون فلسفتهم في النظر إلى قضايا الوجود، وأهم هذه المجموعات من المشترك الأسمى ما يأتي :

1-**مجموعة الأديان السماوية** :وهذه المجموعة تضم الديانات السماوية الكبرى الإسلام واليهودية والنصرانية، وهي جميعها يمثل أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية 54 % كما يشير إلى ذلك راغب السرجاني[1847].وأصحاب هذه المجموعة يشتركون في أكثر من مبدأ على الرغم من وجود اختلافات جذرية وجوهرية.

2- **مجموعة الأديان الوضعية** :وهؤلاء أتباع الديانات من صناعة الإنسان، اشتهرت في بقع جغرافية، وهي ديانات محلية معروفة كالهندوسية والبوذية والشنتوية، وهي تمثل ما يقارب 30%من سكان العالم .

3-**مجموعة اللادينيين (الملاحدة)**:وهي المجموعة التي لا تؤمن بوجود إله بالكلية من اللادينيين والملاحدة وهم يحسبون على النصرانية لوجودهم في أوروبا وأمريكا وهم في واقع الأمر ملاحدة ويمثلون 16% من سكان العالم[1848] .

وعادة ما نجد أهل كل معتقد يتعصّبون لمعتقدهم ويشعرون أنهم على حق وغيرهم على باطل، ومن الثابت أن تغيير المعتقدات ليس بالأمر الهين، وليس من الممكن الالتقاء في منتصف الطريق، كما أنه ليس بالإمكان دمج الأديان، فليس هناك معنى لما يسمى "بوحدة الأديان " وذلك لتناقض

[1846]- سورة المائدة الآية :48

[1847]-راغب السرجاني :المشترك الإنساني ص148

[1848]- المرجع نفسه ص 149

التصورات في الغالب، فأصحاب الأديان السماوية لا يقبلون مبادئ الملحد العقائدية،والملحد يرى أن أصحاب الديانات يعيشون في وهم كبير، ومن ثم فالالتقاء مستحيل. فما الحل ؟ هل أصبح الصّدام حتمية ؟

هذا ما قد نجده في إطار المجتمعات المسلمة حيث يبلغ التناقض حدا هائلا بين الإسلاميين والعلمانيين في كثير من المفاهيم والقضايا،ومن دون اللجوء إلى منطق الاتهام بالتّعصب أو التكفير، ما هو الحل إذا عرضت قضية الاختلاط مثلا،أو قضية تطبيق الشريعة،من يفصل في هذا، هل يمكن أن تكون الصيغة توافقية ؟ . وهي مستحيلة لتناقض الطرحين . أم يجب أن تكون هناك مرجعية يحتكم إليها الجميع، وبالتالي هي التي تحدد المفاهيم وتضبط المضامين ؟

مما لا شك فيه أن الجميع ينشد "الحق"، فإذا كان "الحق" من المثل العليا،بل أهم قيمة يجمع عليها كل الناس وفي جميع الحضارات،فإنه من المنطقي البحث عن هذه القيمة الجامعة باعتبارها تصوّر مبدئي عن شيئ يعد قيمة في حد ذاته، بحيث يعد تحقيقه كسبا وتضييعه خسارة،فهل يمكن تحديد مفهوم هذه القيمة ومصدرها؟ .

برغم ما يقال عن التشكيك في وجود قيم معيارية هي أساس التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، فإن الإيمان بوجود هذه القيم المرجعية ظل صامدا في وجه كل هذه التحديات،على أساس أن الإنسان لا يمكن أن يكفّ عن التعلق بالمثال، وطلب الكمال في عالم الواقع،وأنه لا يمكن أن يتخلى عن خالقه الذي هو مصدر الكمال.وبتعبير فلسفي لا يمكن للإنسان المحدود أن يتخلى في وجوده عن الوجود اللانهائي الذي هو الحق المطلق.

لقد ثبت لدينا بما لا يدع مجالا للشك الحاجة الفعلية لهذا المشترك، فماذا يترتب على الإقرار بوجوده والحاجة إليه؟ لا شك وأن الإقرار بوجود المشترك يفرض علينا فهم معادلة الاختلاف البشري بشكل سليم قصد تجنب الصدام، والبحث عن آليات للتقارب،ثم التعارف، ثم التفاهم، ثم التعاون، ولبلوغ هذه الغاية لا بد من استصحاب المفاهيم التالية :

1-الاعتراف بتعدد العقائد.

ينبغي الاعتراف بحقيقة أساسية وهي أن الاختلاف بين البشرواقع تبعالسنة اللهفي الخلق: {وَلَوْشَاءرَبُّكَلَجَعَلَالنَّاسَأُمَّةًوَاحِدَةًوَلاَيَزَالُونَمُخْتَلِفِينَإِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }[1849] وهذه السنة الإلهية في الخلق لا ينبغي التفكير في محاولة إلغائها ؛لأن ذلك يناقض فطرة الله في الخلق . وعندئذ يكون الحل الأمثل هو التأقلم مع ظاهرة الاختلاف،والإقرار بوجودها، وعدم اللجوء إلى العنف والجبر لتغيير عقائد الناس،لأن ذلك مستحيل، حتى وإن بدا ممكنا، فإن هذا السلوك لا ينتج مؤمنين بالعقيدة الجديدة، إنما هم معتنقين لعقيدتهم الأصلية في السر، ولعله زاد تمسكه بها، فالإكراه على اعتناق عقيدة تحت سيف القهر ينتج منافقين متربّصين، ينتظرون الفرص المواتية للعودة إلى عقيدتهم التي أُكرهوا على الخروج منها .ومن هنا جاء الخطاب القرآني موضحا :" {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ }[1850] " فما الحل إذن ؟

إن الحل الأمثل هو التزام التوجيه القرآني العميق كما جاء في قوله تعالى:{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَوَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ.لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ }[1851]. إن هذا التوجيه يعترف بالواقع كما هو، بأن هناك دينا يخالف دينا، ويريد من المسلم وغيره الإقرار بهذه الحقيقة، حتى وإن كان الشرك لا يرضينا.لذلك لم يكن من المصادفة أن يكون من السنّة قراءة هذه السورة في عدة مناسبات يومية، فهي من أذكار الصباح والمساء، وكان من سنته صلى الله عليه وسلم أن يقرأها في سنة الفجر والمغرب، وكان يقرأها في الركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام بعد الطواف بحج أو عمرة، وفي مناسبات أخرى . وفي كل ذلك إعلان صريح وواضح أن الاعتراف بوجود دين يخالف دين المسلم، ولكل واحد الحرية المطلقة فيما يعتقد .

[1849]-سورة هود الآية :119/118

[1850]- سورة الكهف الآية : 29

[1851]- سورة الكافرون الآية :1إلى 6

ولعل هذا من أعظم المبادئ التي أقرها الإسلام .أما كيفية معالجة هذا الأمر، فإن الإسلام ذاته أرشد إلى المنهجية المثلى في ذلك، فلا ينبغي أن يتخلى المسلم عن واجبه في هداية الناس والاجتهاد في إخراجهم من الظلمات إلى النور، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة وبطريقة حضارية أي : بالأساليب الشريفة والوسائل الشريفة:{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }[1852].

ولا يخفى على كل ذي عقل ما يستخدمه القرآن في عرض مشاريعه المختلفة على أهل الكتاب والكفار، ويعلّل ويدلّل على ذلك بمعرفة تاريخهم ومنطقهم في التفكير، ويقيم عليهم الحجج المختلفةعلى ذلك. قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ }[1853] وقوله {قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }[1854] . فهو يدعوهم إلى التوحيد باعتباره المشترك بين جميع الأنبياء، فجنوح الإسلام إلى هذا المنطق في معالجة قضايا الحياة التي يفرضها الاجتماع الإنساني، هو تمهيد للإقرار بالحقيقة التي تكون قاعدة للمشترك،وهو بهذا يرفض منطق فرض القناعات بالسيف أو بالحديد والنار، أو بالمكر والخديعة .فالمشترك الذي يحفظ استقرار الأمم ينبغي أن يكون مؤسّسا حتى تلتزم به جميع الأطراف، وتسعى لتأكيده ؛لأن مصلحتها في الحفاظ عليه.

2-احترام اختيار الإنسان:

يؤكد الإسلام أيما تأكيد على مبدأ الحرية في اختيار العقيدة من منطلق قوله تعالى:{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ

[1852]- سورة النحل الآية :125

[1853]-سورة آل عمران الآية :65

[1854]-سورة آل عمران الآية : 84

انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[1855] ومن ثم فهو يدعو إلى احترام اختيار الناس لعقائدهم، بل يدعو إلى عدم المساس بتلك العقائد والتهجم عليها على الرغم من اليقين التام عند المسلم ببطلانها. فالقرآن يعرض علينا أدبا رفيعا في معاملة أهل العقائد الأخرى من خلال هذا التوجيه للرسول صلى الله عليه وسلم :{وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ }[1856]. فنجده يخاطبهم بتواضع كبير، تأكيدا للمخالفين أن الدعوة الإسلامية ليس فيها شيء من الإكراه، ولكنه يعلن البراءة من أعمالهم ما دامت رسالة الله قد بلغتهم . قال تعالى:{قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ }[1857] لأن المساس بعقائد الآخرين من شأنه أن يثير فيهم رد الفعل والعدوان، فكل قوم لهم غيرة على مقدساتهم مهما كانت باطلة عند الطرف الأخر،فاحترازا عن أن تمس الذات الإلهية المقدسة بالسوء نهى القرآن الكريم عن التعرض لمقدسات الآخرين.فقالتعالى:{وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[1858] وهذا يعني عدم التعرض بأي شكل من الأشكال العنيفة لعقيدة الآخرين، بل عدم التعرض لها بالتعليقات السلبية التي من الممكن أن تثير حفيظة قوم فيردّوا بالمثل، ومن ثم تتسع دائرة الصدام، ناهيك أن يرغم أهل عقيدة على تركها أو استبدالها .

وتأكيدا لهذا المعنى نجد أن الفتوحات الإسلامية في جوهرها لم تكن استيلاء على أرض، أو فرض قناعات، وإنما كان هدفها الأساسي هو أن توفر الأجواء لكل إنسان أن يختار ما يشاء، فقد تحركت جيوش المسلمين لتهدم كل الحواجز التي تحول بين الإنسان و الحقيقة، وكل ما يمنع الإنسان من الاختيار الحر لقبول الهداية، أو رفضها، وعلى رأس هذه الموانع الطغيان المسّلط على رقاب العباد من قبل الحكام الظلمة، وسدنة الآلهة المزعومة. فقد دخل الإسلام كثيرا من البلدان، وترك أهلها على

[1855]- سورة البقرة الآية :256

[1856]-سورة يونس الآية :41

[1857]-سورة سبأ الآية : 25

[1858]- سورة الأنعام الآية :108

قناعاتهم، والذين عرفوا في الفقه الإسلامي "بأهل الذمة " وجعل لهم حرمة خاصة في المجتمع المسلم، وظل التعايش بينهم وبين المسلمين قائما، بل أكثر من التعامل العادي، فالإسلام يدعو إلى البر بهم، والعدل معهم. قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }[1859].

3-المجادلة والحوار

الحوار بين الشعوب هو الأسلوب الحضاري الأمثل لتجنب الصدام، وهو القيمة التي ينبغي أن تسود بين المختلفين، حيث يعرض كل فريق مبادئه في هدوء ولطف. قال الله تعالى:{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }[1860]فالدعوة إلى المجادلة لا يطلبها بالحسنى فقط، ولكن بالتي هي " أحسن " ليؤكد أن قضية القناعات قضية حسّاسة تتطلب جوا معيّنا تستجمع فيه آداب عالية، و يقوم على الحوار اللطيف الرقيق، وينبغي ترك الأقل لُطْفاورقَّة، فضلا عن النّزاع والصّدام. والصّراع والصّراخ، فالبديل عن المجادلة بالتي هي أحسن هو الصدام، والمعلوم أن أشرس الحروب وأشدها دموية في التاريخ هي التي كانت حروبا عقدية، وفي غالب الأحيان، يستغلها أصحاب المصالح بالضغط على هذا الوتر لاستمرار الحروب فيطول أمدها، ويتسنى لهم من ورائها تحقيق مصالحهم المتنوعة .

والدعوة إلى المجادلة يعني أيضا أنه ينبغي إعطاء الفرصة للطرف الأخر للتعبير عن وجهة نظره والبوح بكل أفكاره وحججه، ومن وحي هذه الأجواء تنطلق العقول في إبطال أفكار والتمكين لأخرى بناء على الحجة القوية والرأي الوجيه الذي يجعل الطرف الأخر ينقاد عن قناعة للإذعان للحق .فلا

[1859]- سورة الممتحنة الآية :8

[1860]-سورة العنكبوت الآية :46

تفرض القناعات بالقوة والإرهاب الفكري: قال تعالى:{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ }[1861].

4- التعارف بين الشعوب

مما لا شك فيه أن الإختلاف بين البشر ليس بالضرورة أن يكون داعيا للتنافر والتناحر،بل بالعكس تماما فإن آيات الله تعالى وقدرته تجلت في هذا التنوع البشري الذي كان من التقدير الإلهي حتى يكون ميدانا لابتلاء الناس بعضهم ببعض :"{وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً}[1862].لذا تقوم الفلسفة الإسلامية في تصوّرها للكون والوجود على أن هناك "الحق" وهو الله سبحانه وتعالى، وهناك "الخلق" الذي يشمل كل عوالم المخلوقات .بحيث ينفرد الله سبحانه بالوحدانية والأحدية، فلا يشاركه فيها شيء، وكل ما عدا الله سبحانه من العوالم المادية والحيوانية والنباتية والإنسانية يقوم على التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف، وغدا هذا التعدد قانونا إلهيا تكوينيا وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل،الأمر الذي يستلزم تعايش الفرقاء والمختلفين، وتعارف كل العوالم، وتكاملها . أي: سيادة التسامح في العلاقات بين الأمم والشعوب، والثقافات والحضارات، والمذاهب والفلسفات، والشرائع والملل، والأجناس والألوان، واللغات والقوميات، وهو ليس مجرد فضيلة بل إنه فريضة، فبدون هذه السماحة يحل الصراع محل التعارف والتعايش، لأنه يحاول أن يلغي التعددية، ويُفني التنوع، هو المنطق الذي يصادم سنة الله، ولن يتحقق ذلك ؛ لأنه يخالف إرادة الله في الكون . لذلك يعتبر الإسلام أن التسامح فريضة دينية، وسنة حياتية، والسبيل الوحيد لتعارف وتعايش الإنسانية في الإطار العام. وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية نجد قول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

[1861]- سورة المؤمنون الآية :117

[1862]- سورة الفرقان الآية :20

خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[1863].

فتنوع الألسنة والألوان والأفكار والمواهب والمهارات في الحياة، يمنح الفرصة للاستفادة من هذا التنوع، حيث يحتك الإنسان بأخيه الإنسان وتتلاقح هذه المكونات وتتطور الحياة، وتنضج التجربة الإنسانية، ويحدث التعارف الإنساني الذي تنمو معه كل مظاهر الحياة، ويكون التدافع والتسابق بينها جميعا على طريق الحق، وفي ميادين الخيرات، وتكون هناك فرصة لتطبيق المبادئ السامية للحياة الإنسانية. فالتنوع هو سر التسابق والتنافس في العمران .قال الله تعالى:{ وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[1864].

وفي ظل التعارف يمكن أن تتصادم المصالح والمفاهيم، فكان لابد من صيغة توافقية تُبقي التعارف، والتعايش وتتعدى إلى التعاون فيما فيه خير الإنسانية، فينفذالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،أي التعاون للتمكين للمشاريع الخيرية،ومحاربة كل مشاريع الشر التي تلحق الضرر بالإنسانية . من الأدنى إلى الأعلى، ومن الدائرة الصغرى إلى الكبرى حتى تشمل ميادين شتى، فما هو عند البعض من البديهيات هو عند الأخر من المعضلات، فمثلا لو أخذنا موضوع "الحياء" في مفهوم المسلمين، يختلف اختلافا جذريا عند غيرهم، فهل نقاطع شعوبا من أجل تناقض المفاهيم أم نعمل سويا لحفظ الكرامة الإنسانية، وبخاصة كرامة المرأة طبعا إن ذلك يحتاج إلى الإقناع بالحجة العلمية والواقعية، وكل ذلك قد يتطلب سنين بل أجيال، المهم أن تكون هناك روح للتعارف بين الناس .وخارج منطق النزاع، أو إلغاء الآخر . قال الله تعالى :{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً }[1865].

[1863]- سورة الحجرات الآية :13

[1864]-سورة المائدة الآية : 48

[1865]- سورة الإسراء الآية : 84

ويجدر بالباحث عن الحقيقة العمل لإيجاد المساحة الأهم لهذا المشترك، الذي يُبقي ذلك الخيط الرابط بين بني البشر، لتفادي الحروب المدمرة للمنجزات الحضارية البشرية، ويمكن أن تحطّم في أيام ما شيدته في قرون في ظل الأسلحة المعاصرة، ومن هنا فالتعارف لا يكون إلا بين المختلفين، ليختبر أيهما أنفع للإنسانية .

2 :قيم المشترك العام

وهذه المجموعة من المشتركات يجتمع عليها كل البشر، ويكاد يقال أن الذي لا يحمل هذه المشتركات قد يَفقد معنى الإنسانية، وهذه المشتركات ضرورية للحياة، فهي من القيم التي لا يمكن الاستغناء عنها. ويبرر محمد الكتاني وجود هذه القيم بقوله :" إن هذه القيم تتسم في نظرنا بوصفين لازمين وهما: الضرورة[1866] والعموم[1867] الذي يشمل النوع الإنساني برمته .فالحق واحد بالنسبة لجميع البشر،بقدر ما هو ضروري لبناء أخلاق إنسانية "[1868] وكل البشر يقدرونها ويحرصون عليها، وهذه المشتركات تعبّر في حقيقتها عن الفطرة الإنسانية في صورتها السوية، ومن المفيد جدا تحديد هذه القيم المشتركة لتكون فرصة التعارف بين البشر قائمة، باعتبار أن هذه القيم تمثل الدافع الأكبر لاستمرار الحياة وتمثّل قواعد أساسية للتواصل بين الشعوب، ويمكن تلخيص هذه المشتركات فيما يلي :

1–الاعتقاد بكرامة الإنسانية :الكرامةالإنسانية قيمة تدل على أن الإنسان له مكانة خاصة تميز بها عن باقي المخلوقات، وذلك بما وهبه الله من سمات، فهو واسطة العقد في هذا العالم وإن صغر

[1866]– يقصد بالضرورة : أنها قيم ثابتة وموضوعية خارجة عن وضع الإنسان، وهي "القيم العليا" التي تستقر في وجدان الإنسان، من حيث هو إنسان يؤمن بقيم الحق، والعدل، والخير، والجمال، ولا يتردد في مقاومة أضدادها، وهي الباطل، والشر والظلم، والقبح.

[1867]– ويعني بالعموم: أنها تشمل جميع النوع الإنساني، وهي قيم مشتركة بين سائر الثقافات والحضارات، وبين سائر المفكرين والمتخصصين .

[1868]– محمد الكتاني :القيم المرجعية في الإسلام ص 16

حجمه بالنسبة للمكان وقل عمره بالنسبة للزمان، فهو قائد الموجودات، والكرامة الإنسانية ثلاثة أنواع كما يصنفها عبد الله دراز[1869]:

أ-كرامة فطرية : {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً }[1870] والتكريم هنا عام لجميع البشر في أصل خلقهم، بغض النظر عن انتمائهم، فالكرامة ذاتية فطرية .ينالها الفرد منذ الولادة بل منذ تكوينه جنينا في بطن الأم، وهي أوسع الكرامات وأقدمها وأدومها، فهي منحة إلهية لصيقة بإنسانيته، ينال الإنسان بسببها التقدير والاحترام بعيدا عن أي اعتبار آخر مادي أو معنوي. وهذا ما يوضحه موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في موقفه الرائع عندما مرت به جنازة اليهودي فقام لها، ولما استفسر الصحابة عن ذلك قال :" أو ليست نفسا".

ب- كرامة كسبية : يمكن للإنسان أن يرتقي بكرامته الفطرية، فينمي عناصرها بما يوافق إرادة الله من عباده، كما يمكن أن يهبط بها إلى أسفل سافلين . وقد جاء في ذلك آيات كثيرة{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ }[1871] وقوله تعالى { وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }[1872] وقوله سبحانه، { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[1873] وهذه الكرامة يستحقها الإنسان بسببين :

1-كرامة كسبية عقدية: وسببها الإيمان بحيث تتغذى تنبثق عن العقيدة الصحيحة، القائمة على البرهان واليقين، والتي من شأنها أن تكسب المرء العزة والسيادة قال الله تعالى { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ }[1874] وتنمو بالأعمال الروحية الصالحة، من الاستجابة لله

[1869]- عبد الله دراز: نظرات في الإسلام المكتب الفني للنشر القاهرة ط1 سنة 1958 ص 98

[1870]-سورة الإسراء الآية :70

[1871]- سورة التين الآية :5/4

[1872]-سورة الحج الآية :18

[1873]-سورة الحجرات الآية :13

[1874]- سورة المنافقون الآية :8

ورسوله .قال الله تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ }[1875].

2-كرامة كسبية عملية يستحقها الإنسان وينالها بجهده وعمله، وحسن تسخيره للكون من خلال معرفة "كيف بدأ الخلق"، وذلك برؤية سنن الله التي لا تتبدل، وبتفعيل قدرة الإنسان على تغيير مصيره .قال تعالى :{ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ }[1876] ذلك أن الاستخلاف في الأرض، وتحقيق الكرامة هو لمن يقوم بهذا النسك أفضل قيام. قال الله تعالى:{كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً }[1877]ويجعل أساس هذه الكرامة "القراءة "فقال سبحانه:{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ }[1878] لأن الذين ينالون كرم الرب، وغناه هم القرّاء كما يقول سعيد جودت :" إن الإنسان ليتصاغر أمام من هو أقرأ منه ...أجل، إن من يقرأ أكثر، ينل أكثر ..إن ذكاء الإنسان ليس بذي قيمة، بدون تمثل الخبرات البشرية المتراكمة المحفوظة بواسطة الكتابة المستغلة، والمستفادة منها بالقراءة، فأرقى الناس إنسانية، أكثرهم إحصاء لما حدث في العالم بشكل مصفى ومركّز"[1879] .والقراءة الواعية دائما تقود إلى العلم والعدل اللذين يمثلان ركيزتي الاجتماع الإنساني وسبب استقرار المجتمعات وازدهارها.

ويترتب على الاعتقاد بكرامة الإنسان، عدم التمييز بين بني البشر في الحقوق والواجبات، بمقتضى فطرية الكرامة الإنسانية، حيث يتساوى البشر في هذه الدائرة، فيجب أن تقرر الحقوق الأساسية ذات الصلة بحفظ الكرامة الإنسانية مثل : حق الحياة، حق التفكير، حق التدين، حق التعبير، حق الحرية، حق التعلم، حق التملك، حق الكفاية من العيش، حق الأمن .وغيرها من الحقوق التي تحفظ مكانة الإنسان باعتباره إنسانا .

[1875]- سورة الأنفال الآية :24

[1876]- سورة الرعد الآية :11

[1877]-سورة الإسراء الآية : 20

[1878]- سورة العلق الآية :3

[1879]-سعيد جودت : اقرأ وربك الأكرم ص 23

وقد استطاعت البشرية بعد تجارب مريرة أن تصل إلى بعض ما قرره الإسلام منذ أربعة عشر قرنا، فجاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. "المادة 5" :"لا يعرض أي إنسان للتعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملات القاسية، أو الوحشية، أو الحاطة بالكرامة "[1880].

2-قيم الحاجات الأساسية :

والمقصود منها حاجة الإنسان لما يقوم به جسمه من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأسرة وأمن ودواء. وضرورة توفير ما يتطلبه الحفاظ على النفس الإنسانية،فهي وسيلة بقاء الإنسان،لأنه لا يمكن تصور حياة إنسان بدونها، فإن فقدها الإنسان سعى لطلبها ولو بالاعتداء على الآخرين، وتأخذ هذه الاحتياجات مكانا هاما في سلم المشتركات لأسباب أهمها :

أ-أن هذه الاحتياجات حتمية وفطرية لا تقبل التأجيل بأي حال من الأحوال وإلا وقع الإنسان في الحرج أو الهلاك .

ب- أن هذه الاحتياجات تهم كل البشر، وتشكل لديها أولوية الحاجات، وتأخذ جزءا هاما من تفكير الإنسان،وهي من الحاجات التي تمثل أحد مخاوف الإنسان في الحياة.

ج-أن عطاء الإنسان في الحياة وإبداعه فيها لا يكون إلا مع حالة من الاستقرار النفسي اتجاه هذه الحاجات.

د-أن القرآن يؤكد أن تحصيل الاستقامة في الحياة، والوفاء بالوظيفة التي أنيطت بالإنسان، والتفرغ لها يتطلب ضمان هذه الاحتياجات. قال تعالى : {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ

[1880]- الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، نقلا عن محمد الغزالي :حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص 164

فِيهَا وَلَا تَضْحَى }[1881] وجاء في معرض قصة آدم أيضا قوله تعالى :{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا }[1882].

هـ- أن الله تعالى مكّن الإنسان من تلبية هذه الحاجات، فجعل الأرض ذلولا ميسّرة للتسخير، وأوصى الإنسان بأخيه الإنسان، فيعين القوي الضعيف،والغني الفقير، لتبقى الوشائج الإنسانية قائمة، وجعل وسيلتها التقارب عن طريق تلبية هذه الحاجات للعاجزين. قال الله تعالى :{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ .يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ .أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ } [1883].

فالله تعالى علم أن هذا الخلق الجديد وبحكم طبيعته سينشغل بقضايا الطعام والشراب واللباس والمسكن والزوجة، فوفّرله كل ذلك من البداية، وجعل هذه الاحتياجات في سلم المشتركات الإنسانية، واعتبر من أعظم القربات القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية :{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً }[1884] فجُعلت في الإسلام من صوّر العبادة كما في الكفارات، قال تعالى:{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1885] بل أكثر من ذلك. فالإسلام يبيح الحرام في حالات الرّخصة لتحصيل هذه الحاجة التي يفنى الجسم بدونها. قال الله تعالى:{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[1886].

[1881]- سورة طه الآية :119/118

[1882]- سورة الأعراف الآية : 19

[1883]-سورة البلد الآية :16/45/14

[1884]- سورة الإنسان الآية :8

[1885]- سورة المائدة الآية : 89

[1886]-سورة البقرة الآية :73

و-أن تحقيق هذه الحاجات تتكامل بين الشعوب، فما يتوفر لشعب من موارد وعبقريات، قد لا يتوفر لشعب آخر، فمثلا نجد شعبا يمتلك ميراثا ضخما في عالم الطب، لا يتوفر لغيره من الشعوب، فهي فرصة لتدعيم الإخاء الإنساني، فلا ينبغي أن يمنع الإنسان أخاه الإنسان من ميراث الإنسانية لتيسير حياته، والتخفيف من آلامها. ومن ثم يكون احتكار العلم المنتج للأدوية جريمة نكراء، لأن الدواء المكتشف لهذه الأمراض ساهمت في الكشف عنه أجيال وجنسيات، ثم تحتكره شركات بعينها.

3- القيم الأخلاقية :

تتفاوت الأخلاق فيما بين الأمم والحضارات تبعا للتأثير الذي تتركه في الحياة الإنسانية، ومدى التقاء الشعوب على تقدير خلق أكثر من آخر، لذلك يمكن أن نجد بعض الأخلاق مقدّرة، وأخرى أقل اعتبارا، وبناء على ذلك يمكن تقسيم القيم الأخلاقية في هذا المجال إلى قسمين :

أ- القيم الأخلاقية الأساسية

مما لا شك فيه أن الفطرة الإنسانية زوّدت بقواعد السلوك التي يطلق عليها بعض العلماء الأخلاق الفطرية، فكل إنسان لم تمسخ فطرته يحمل في كيانه قيما تمثل أخلاق الشخصية السوية المنسجمة مع الفطرة والتي تشكل القاعدة الأساسية لكل الأخلاق المكتسبة، فمن طمست فيه هذه الأخلاق لا يمكن أن تثمر فيه التربية، ويتعذر عليه الاتصاف بغيرها من الأخلاق، وجميع الجنس البشري يشيد بهذه الأخلاق دون استثناء[1887]، ومن ثم يمكن أن يتعارف الناس على هذه القاعدة التي تضم الأخلاق الأساسية ومنها :

الصدق، والأمانة، والعدل: فقد تختلف شعوب العالم على كثير من الأخلاق، إلا أن كل الشعوب تقدّر هذه الأخلاق وتعظمها، وإن كانت تمارس ضدها، وتظل لا تتجرأ فتمدح الكذب، أو الخيانة، أو الظلم، رغم أنها تلجأ إلى تبرير الكذب، والخيانة، والظلم، فمن خلال هذا المنظور نجد أن هذه

[1887]. يمكن أن تنطمس بعض هذه القيم في بعض الأحيان بفعل المسخ الذي يلحق ببعض الحضارات، ومنها ما سجله القرآن عن قوم لوط عليه السلام في شذوذهم، أو ما سجله التاريخ عن الفلسفة الزرادشتية التي كانت تبيح زواج الرجل بأقاربه .

الأخلاق مشترك إنساني يلقى القبول عند الجميع .فإذا كان التواصل بين الشعوب، والتعارف بينها لا يمكن أن يستمر إلا بالثقة، فإن الأخلاق التي تصنع هذه الثقة وتؤكدها هي هذه الأخلاق .

وإن الفشل في الالتزام بهذه الأخلاق يقضي على هذه العلاقة، وقد يفتح بابا للصدام بسبب خيانة معاهدة،أو ظلم في معاملة، أو كذب في قضية،هذا من جهة.ومن جهة أخرى فإن تفشي أخلاق الكذب والظلم والخيانة في أمة يكون ذلك إيذانا بانتهاء دورتها الحضارية، أي انتهاء دورها في التأثير في منظومة التواصل بين الشعوب بسبب تقلّص دورها الإنساني، وذلك لفقدها مقومات الثقة.

ب –القيم الأخلاقية السامية

تعتبر الأخلاق مكوّنا أساسيا لمنظومة قيم الشعوب، إلا أن كل شعب يقدر نوعا من الأخلاق ويقدّمها على غيرها،ومن ثم تتمايز الشعوب في تقديرها، وهي مهمة جدا لبناء قيم إنسانية فاضلة تتلاقى عليها الشعوب لتحقيق التواصل المنشود والارتقاء بالعلاقات الإنسانية، والانتقال بها من الحد الأدنى (الصدق، والأمانة، والعدل) إلى دائرة أوسع من الأخلاق، التي تكسبها اللياقة الاجتماعية، كضبط المواعيد وحسن الاستقبال، فتنتقل من دائرة الواجب الخلقي إلى دائرة الآداب والفضائل .

ولما كان من خصائص الإسلام الشمول وهو مهيمن على الشرائع كلها فإن ما يدعو إليه من الأخلاق كفيل بأن يكون قاعدة قيمية يجتمع عليها أفراد الإنسانية، ولعل قول النبي صلى الله عليه وسلم يؤكد هذا المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم :" إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق "[1888]. فالرؤية الإسلامية تعترف بوجود أخلاق كريمة عند السابقين من الأمم، وأن الإنسانية جميعا تملك ميراثا من الأخلاق يستحق التقدير من جهة، ويمنح لكل أمة الخصوصية والسحر والخلود لتلك الحضارة في طريقة تطبيقها لتلك القيمة الخلقية الفاضلة، فقد تكون القيمة الخلقية واحدة لكن اللمسة الجمالية لإخراجها تختلف من أمة لأخرى، تبعا لعراقتها، أو طبعها، أو رهافة حسها، أو

[1888]– أخرجه البخاري: في الأدب المفرد، باب حسن الخلق، حديث رقم 273

لتوازنها النفسي . إلا أن الرسالة الإسلامية الخاتمة جاءت لتكمّل، وتتمم ما نقص من الفضائل عند كل أمة . ومن هنا كانت الأمة الإسلامية تشترك مع كل أمم الأرض في تثمين الأخلاق، إذ يمكن التقاط مناطق التوافق من كل حضارة، وجعلها مجالا خصبا للتعاون والتفاهم .والمرجع في ذلك هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جاء ليمثل النموذج الأعلى الذي تجسّد في هديه وشخصه الكمال القيمي للإنسان فقد جاء في الحديث :"مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله، فجعل الناس يُطيفون به يقولون : ما رأينا بنيانا أحسن من هذا .إلا هذه اللبنة، فكنت أنا تلك اللبنة " [1889] . فهدي الإسلام تضمن كل ما من شأنه أن ينقذ البشرية من كل ما يضرها من ذميم الأفعال، وهذا ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث:"مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدي "[1890].

4–قيم اجتماعية :

معلوم أن الأسرة تتألف من زوجين وأولاد، ولا شك أن محور القرابة يتميز بمفهوم واسع، بحيث لا يقتصر على الزوجين، والأولاد الذين هم ثمرة الزواج، وفروعهم الذين هم الأحفاد، بل يشمل أيضا الآباء والأمهات والأجداد والجدات وفروعهما من الأعمام والعمات والأخوال والخالات وفروعهما .إن الشعور بالاستقرار الذي يجده كل من الزوجين نتيجة اتصالهما وملابستهما لبعضهما يعد حقلا خصبا ناميا لتربية العلاقات الإنسانية، وإنعاش وتغذية للصلات الاجتماعية وهو ما يصوره القرآن الكريم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[1891].

[1889]–أخرجه مسلم : كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه خاتم النبيين المجلد الرابع حديث رقم 5982

[1890]– أخرجه مسلم : كتاب الفضائل، باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته ومبالغته في تحذيره مما يضرهم المجلد الرابع حديث رقم 5981

[1891]–سورة الروم الآية :21

فللأسرة دور خطير في تغذية المجتمع بالقيم النبيلة التي تحترم فيها الكرامة الإنسانية وضبط الشهوات والغرائز، لذلك يعد الإسلام الزواج من العبادات، ويرفض وصف النزوع الجنسي بأنه رجس مادام يتحرك في حدود الشريعة، ويمشي وفق ضوابطها، إن هذه الصلة قربة ومن ثمرتها يتصل مركب الحياة على ظهر الأرض[1892].

والذي يهمنا هنا هو السعي لاكتشاف دور الأسرة في بناء القيم المشتركة بين البشر على الرغم من الاختلاف، فمثلا نجد أن الإسلام يبيح الزواج من الكتابية :{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[1893] فرغم أن مساحة المشترك قد تكون ضيقة، إلا أن الإسلام يريد إقامة هذه العلاقات، لأنه يتوقع أنها مفتاح مهم للعلاقات الإنسانية، وهذا رغبة من الإسلام في توسيع الوشائج البشرية واستغلال كل مساحة ممكنة للتقارب بين المختلفين، فالتقارب بهذا المعنى يتجاوز اقتصار العلاقة بين أفراد أسرة في مسكن أو دين واحد، بل تعداه وصارت الوشائج بين أسر مختلفة، وأصبح التقدير بين مجموعات متنوعة ترتبط بمجموعة من العلائق المادية والمعنوية والوجدانية .

فالأسرة لا يزال دورها خطيرا وتأثيرها فعالا في تنمية العلاقات الاجتماعية ليس داخل الأسرة فحسب، بل يتعدى دورها إلى تربية الأفراد على الاتحاد، والتعاون، والتفاعل مع المجتمع، فهي ليست مجرد فنادق للنوم، أو مطاعم للأكل، ولكنها بيوت للتربية، والتعليم، وتبادل العواطف، وتلاقح الأفكار، والتعاون في السراء والضراء بين أفرادها.

فمفهوم الأسرة في عالم الإنسان يتجاوز حدود النمو العددي، إلى نمو العلاقات وتنشئة الصلات، وهذا ما يجعلنا ندرك أن المجتمع ليس ركاما من البشر، ولا حشدا متراصا من الأعداد، بل هو أعداد

[1892]– ينظرمحمد الغزالي: حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص101.

[1893]–سورة المائدة الآية :5

مترابطة وأفراد متواصلة، فنمو المجتمع إذن ليس نموا عدديا فقط. ولكنه نمو في العلاقة بين أعداده، حيث تتحقق معاني السلام، والرحمة، والمودة، وإذا لم يتحقق بين أفراده هذه المعاني يفقد الاجتماع الإنساني معناه.

ومما لا ريب فيه أن شبكة العلاقات الاجتماعية ووشائجها تتسع حتى تشمل كل أفراد المجتمع الإنساني، الذي يعود إلى أب واحد وأم واحدة، وما يقتضي ذلك من حرمة وتقدير واعتبار {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً }[1894].

ومن هنا فهذه المجموعة من القيم ينبغي تحصيل قدر معقول من التوافق حولها فيما بين بني الإنسان، لأهميتها البالغة، وخطورة الآثار الناجمة عن أي خلل يصيبها،وخلاصة محاور هذه المجموعة القيمية ما يأتي :

1-أن أصل الناس واحد قال تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا }[1895] "فكلكم لآدم وآدم من تراب"[1896] .

2-أن المرأة أحد شطري النوع الإنساني، فهي شقيقة الرجل من حيث الأصل والمنشأ والمصير "إنما النساء شقائق الرجال "، تشترك معه في عمارة الكون –كل فيما يخصّه، ويحسنه- بلا فرق بينهما في عموم الدين والاعتقاد والثواب والعقاب، وفي عموم التشريع (في الحقوق والواجبات) قال الله تعالى:{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }[1897].

[1894]-سورة النساء الآية:1

[1895]-سورة النساء الآية :1

[1896]- أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في التفاخر بالأحساب حديث رقم 5116 .

[1897]- سورة النحل الآية :97

3- التأكيد على المسؤولية المشتركة بين الرجل والمرأة في المجتمع وفي داخل الأسرة وفي ميادين الحياة، وأنها يجب أن تقوم على أساس التكامل المنصف والتعاون في دوائر العمل المشتركة، فعلاقة التكامل هذه تقوم على أساس التكامل الوظيفي في أدوارهما لتحقق مقصد التكامل وهو حصول السكينة للرجل والمودة والرحمة بينهما. قال الله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[1898] والسكن يعني جملة من المعاني منها : الأمن، والراحة والطمأنينة والأنس والثقة، وهو ما ينعكس إيجابا عليهما وعلى أولادهما وعلى المجتمع عموما. وأي اختلال في أداء المرأة لدورها في الأسرة ينعكس سلبا على أفرادها، فللمرأة دور أساسي في قوة الأسرة وتماسكها فإذا صلحت صلح الجسد المجتمعي.

4-التأكيد على أن الأسرة هي الوحدة الأساسية والأولية في مؤسسات المجتمع وأنها المصدر الوحيد لأجيال تنشأ نشأة سوية، تكون بعد ذلك أجيالا منتجة ومسؤولة.

5-التأكيد على أن الأسرة المؤسسة على التزاوج الشرعي بين الرجل والمرأة هو الصيغة الوحيدة والأساس في بناء المجتمع الإنساني، وأن محاولات تقنين وشرعنة العلاقات الشاذة يحدث اختلالا بطبيعة الحياة الاجتماعية السوية.

ومن هنا لا يجوز المساس بكرامة المرأة واستخدامها كأداة لمتعة الرجل فيما يعرف في عالم اليوم بتجارة الجنس أو السياحة الجنسية. قال الله تعالى:{ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[1899] فالمرأة مهما كان دينها أو جنسيتها، لا تقبل هذه المهانة إلا تحت ظروف ضاغطة يصنعها تجار الرذيلة، لإرواء غرائزهم، واستثمار أموالهم متغافلين عن كرامتها .ومن ثم يجب الحرص على صناعة حياة نظيفة تصان فيها هذه الكرامة، بعيدا عن الشعارات الفارغة، والبراقة التي تزعم تحرير المرأة، وهي في حقيقتها استعباد لها تحت عناوين خادعة.

[1898]- سورة الروم الآية :21

[1899]- سورة النور الآية :33

وإذا ما تحولنا من الأسرة إلى نطاق المجتمع نجد أن القرآن الكريم يعطي للعلاقات الاجتماعية أهمية كبيرة، ويجعلها أساس الاجتماع، وأصل العمران، لذلك نجد أن المجتمع لا يعد وسطا اجتماعيا ناميا إلا إذا كان مظهره العام كالجسد الواحد وما يستلزم ذلك من انسجام باطني وتبادل شعوري مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فإن القرآن حرص على بيان كل ما من شأنه أن يدخل اضطرابا أو تأزما على علاقة المؤمنين سواء ما تعلق بالجوانب المعنوية أو المادية فقال الله تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ }[1900] .

فالعلاقات الإنسانية داخل المجتمع المسلم تقوم على الرابطة الروحية والآصرة النفسانية فجعلها الله أخوة دينية تقتضي التناصر والتعاون في الأمور المشتركة لتحقيق معنى البقاء والاستمرار، ومن ثم نهى عن الآفات التي تنهك المجتمع المسلم، ولا يرتضيها الإيمان ولا تقرها التقوى.

لا شك أن سخرية البعض من البعض، واستهزاء البعض بالبعض، واحتقار البعض للبعض، والبراعة في تجريح الآخرين والمهارة في سبك العيوب، والخبرة في التقاط النقائص والتفنن في اختلاق الألقاب المستهجنة والإكثار من سوء الظن. وتناول الأعراض بالغيبة والنميمة والبهتان، آفات خطيرة تأباها الأخوة، ولا يتحقق معها البقاء والانسجام، فهي جرائم أخلاقية تمس التماسك الاجتماعي، لأن تبادل المشاعر ليس عملا فرديا، بل هو عمل جماعي لا يتحقق إلا بتعاون جميع الأطراف الاجتماعية على عدم ممارسة ما من شأنه أن يؤذي الأفراد نفسيا ومعنويا[1901].

[1900]- سورة الحجرات الآية : 12/11

[1901]- ينظر محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 277

ولما كانت الحياة النفسية، أو الشعورية لا يمكن فصلها عن المسائل المادية، لم يقتصر الرسول في نهيه عما يؤذي الأفراد نفسيا . بل طالب بالكف عن كل ما فيه اعتداء على المكاسب المادية، ومن ثم فهو عمل جماعي لا يتحقق إلا بتعاون كافة الأطراف الاجتماعية على عدم ممارسة ما من شأنه أن يؤذي الأفراد نفسيا ومعنويا ؛لأنه لا يمكن أن يتحقق التوافق الاجتماعي مع وجود المظالم. جاء في رواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُم عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقوَى هَهُنَا -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسْلِمَ، كُلُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وعِرْضُهُ"[1902].

وإذا ما تأملنا قوله تعالى:{.. وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[1903] نجد نطاق العلاقات يتوسع ليشمل كل أفراد المجتمع الموافقين والمخالفين، وإذا كانت العلاقة بين المؤمنين تقوم على الولاء لمبدأ العقيدة، أو الرابط الروحي، فإن العلاقة معغير المسلمين تقوم على مبدأ المصالح المشتركة، كرابطة المواطنة، والرابطة الإنسانية . وما يمكن أن يفرزه هذا الاجتماع الإنساني من مواثيق تنظم العلاقة. يقول محمد التومي :"إن هذه الآية مدنية وقد جاءت في سياق يبيّن ما يجب على المؤمنين أن يتخذوه أساسا في البر بأنفسهم، وأمتهم، ومجتمعهم، في عبادتهم وفي علاقاتهم بمن يخالفهم في الدين، وخاصة في بنيتهم الداخلية، وفيما يوجبه عليهم تضامنهم الاجتماعي وفيما يطهر مجتمعهم من مساوئ الطغيان المالي، وفيما يجب أن يتذرعوا به من وسائل الاستيثاق في الحقوق المدنية "[1904].

[1902]-أخرجه مسلم : كتاب البر والصلة و الآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، ودمه وعرضه وماله المجلد الرابع حديث رقم 6577.

[1903]- سورة المائدة الآية :2

[1904]- محمد التومي :المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص274

فالآية ترشد إلى البر الذي هو جماع الخير و فتحت الأفاق الاجتماعية لتشمل كل من يستحق تقديم العون وتوسعت في بيان مضمون البر من الناحية العملية ليضم كل ما يعود على الناس بالخير والنفع ولا يختص بشيء من المظاهر والصور والأشكال، سواء كان من الأمور المادية أو المعنوية فالتكافل مع الناس لهدايتهم لا يقل عن التكافل معهم لإطعامهم.

فالتعاون بهذا الشكل عمل اجتماعي صرف يدعم العلاقات ويوثق الصلات ويؤسس لقواعد تربوية تساهم في بناء مجتمع إنساني يدرك قضية الحقوق والواجبات، وفي ذات الوقت جاء التحذير من التعاون على الإثم والعدوان، لأنه يتعارض مع ما يحتاج إليه المجتمع من علاقات تضمن له البقاء ويوضح محمد التومي هذا بقوله :" وإذا كان البر يعني- أولا الارتباط بالحقائق ولب الأشياء وروح التكاليف،ويعني-ثانيا احترام العلاقات الإنسانية، ومراعاة المصالح المشتركة، صار المجتمع من وجهة نظر القرآن هو الوسط الذي يتفاعل فيه الأفراد تفاعلا إيجابيا، أي يتفقون، ويتعاونون على تحقيق المنافع وتوفيرها، ويتناصرون على تلافي الخسائر مادية كانت أو معنوية، خاصة كانت أو عامة "[1905].

5-القيم العقلية

تعتبر المعرفة مكسبا إنسانيا هاما جدا، وهي حصيلة عمل العقل الإنساني لملايين السنين، ومن تراكم الجهود العقلية ارتقت المعرفة الإنسانية، ونضج عقل الإنسان. ومن المتفق عليه بين البشر أن العقل هو أساس المسؤولية، وبغيابه يرتفع التكليف في كل الأعراف والقوانين، فهو من لوازم إنسانية الإنسان.وإذا تقرر هذا، فإن من المنطق أن يكون الاستجابة إلى الأحكام التي يقبلها العقل بشكل عام، من المنطلقات التي تؤسس لمشترك إنساني، ولا داعي للخوض في الأمور التي لا تتفق فيها العقول عادة، والتي تتعلق بالقضايا العقدية والتشريعية، وهذا تماشيا مع توجيهات الإسلام في مخاطبة العقول بما هو معقول لديهم في العادة. إذ يعتبر المعقول أساسا للاستدلال، كما جاء في الأثر "أمرنا

[1905]-المرجع نفسه ص 276

أن نخاطب الناس على قدر عقولهم "وجاء عن علي بن أبي طالب:" حدثوا الناس بما يعرفون"وقال عبد الله بن مسعود " ما أنت بمحدث قوما لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة " .

والفتنة هي ما يمكن أن ينتج عن السخرية من عقول الآخرين من أحد الأطراف – مهما كان رأيهم غريبا – وما يكون من رد الفعل من الطرف الآخر. فكل طرف تأخذه الحمية وتتحول القضية إلى صدام، يبدأ فكريا ولفظيا وينتهي دمويا. ومن هنا فالحوار الذي يرجى منه تحقيق التعارف والتعايش ينبغي أن يكون فيما هو معقول للجميع ابتداء.ثم يمكن أن يتوسع ليشمل كل قضية يملك الأطراف الحجة العلمية للإقناع بها، فالنتائج العلمية ولا سيما النتائج المعلمية المخبرية مما لا مجال للخلاف فيه.

ولا يخفى أن القرآن الكريمكان يعرض القضايا ويدلّل عليها بطريقة عقلية، ليؤكد أن الطريق الصحيح لبلوغ الحقيقة وتحقيق الارتقاء هو الاستخدام الصحيح للعقل،ومن ثم التواصل والتعارف على مسألة العقل كمشترك إنساني فطري يمكن الالتقاء في دائرته أي: على براهينه ودلائله لا على الأمور الروحية .

كما لا ينبغي الحجر على عمل العقل مهما بلغت أخطاؤه فمن خلال الخطأ يصحح الناس مسارهم في الحياة، وينضجون أفكارهم ويقتربون من الحقيقة، فالحجر عليه يجمّد الحياة ويمثل انتكاسة في البشرية، وضياعا في الإنسانية، ويفوّت عليها فرصة تحسين أوضاعها، وطلب الحقيقة، فإذا غاب العقل وقع الصدام ولحق الهلاك بالجميع .

فالرؤية التسلطية غير مقبولة من أي طرف كان، لأنها سلوك يرجّح منطق الإقصاء على منطق المشاركة العقلية التي تساهم في رفع نسبة الصواب وتقود إلى الحلول التوفيقية التي تختفي معها الحروب والنزاعات. ولعل أجمل ما يستدل به في هذا المقام موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من ردود عمرو بن سهيل في صلح الحديبية .حيث اتجه موقف الرسول إلى الحل التوفيقي، على الرغم من أن الصحابة كانوا يرون أن هذا هو الدنية في الدين، ثم تبينت الثمرات اليانعة من هذا الموقف الحكيم

.فمحاولة البحث عن نقاط التقاطع مع الأخر يتيح الفرص للتفاهم وإيجاد صيغ مقبولة عند الجميع، تقدر فيها جميع العقول، بدل المنطق الفرعوني الذي يقول:{ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }[1906]هذا المنطق أقصى شعبا بأكمله، وهمش عقولا ذكية، فقادهم إلى الهلاك غرقا في الدنيا وبئس المصير في الآخرة. قال تعالى: {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ }[1907].

فعلى الرغم من الإشادة بالعقل، لا بد من بيان أن العقل الإنساني مهما بلغ من القدرات، فإن له سقفا لا يمكن أن يتجاوزه، وحدا يقف عنده، ليفسح المجال لمصدر آخر يكْمل المسيرة بالإنسان ويكشف له عن الحقائق التي يعجز العقل عن بلوغها،وهو الوحي . وبهذا يتعاضد الوحي مع العقل في بلوغ كمال الحقيقة، فالمجال الذي أنيط العقل بالبحث فيه هو عالم الشهادة لتحقيق وظيفة العمارة باعتبارها ابتلاء للإرادة الإنسانية، والتي تتناسب مع قدراته وعطاءاته. لذلك يحترم الإسلام الأحكام الصادرة عن العقل ويشجعه على الاستفادة من الخبرات المتراكمة لتأسيس منظومة معرفية تسترشد بها البشرية في عملية الاستخلاف .

6–قيم سياسية :بعد التجربة الإنسانية في عالم السياسة خَلُصَ العقلاء، إلى تثبيت مجموعة من القيم والمبادئ تتفق في بعض جوانبها مع ما يدعو إليه الإسلام، وتأكد للإنسانية أنها ركيزة أساسية لا يمكن وصف نظام حكم بالرشيد إذا غابت هذه القيم عن مسرح الفعل السياسي وأهمها :

1– **قيمة العدل**:فانطلاقا من النظرة القرآنية، وما تجسّد في الحضارة الإسلامية. فإن العدل يعتبر المعيار الذي تأسّست عليه السّماحة الإسلامية العادلة وهو (قمّة القيّم) إذ يطلب منا القرآن العدل مع الذات ومع القرابة فضلا عن العدل مع الغير:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء

[1906]– سورة غافر الآية :29

[1907]–سورة هود الآية :98

لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً }[1908].

ولما كان إقامة العدل ليست بالأمر الهين لما يحفّ به من ملابسات احتاجت إلى قوة مادية ومعنوية[1909] نكتشفها من حرص القرآن على أن تكون الإقامة صفة لازمة لأفراد المجتمع، ومَلَكَة راسخة في نفوسهم، فإذا ترسخ مبدأ العدل في النفس أمكن القيام به في الحياة،ووجب تنفيذه عند ذلك حتى مع من كانت مشاعرنا اتجاهه سلبية.قال الله تعالى :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }[1910] .

وبناء على هذه القاعدة أوجب العدل في النظرة إلى المخالفين في العقيدة، فنحن مدعوون وفق منهج القرآن أن لا نضع المخالفين جميعا في سلّة واحدة، وأن لا نسلك طريق التعميم ونغفل الفروق بينهم حتى لا نقع في الظلم عند معاملتهم:{لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ }[1911].

ذلك أن العدل من الأصول التي يحتاج إليها المجتمع بكل ما فيه من ظواهر ونظم سواء كانت عقائدية أو أسرية أو تربوية أو قضائية أو اقتصادية .لذا اعتنى القرآن ببيانه عناية فائقة، حيث ذكر "العدل" ثماني وعشرين مرة : ثلاث عشرة مرة في اثني عشرة آية في ست سور مكية، وخمس عشر مرة في اثني عشرة آية في خمس سور مدنية، كما استعمل القرآن مادة "القسط "التي هي بمعنى العدل وكرّرها سبعا وعشرين مرة في أربع وعشرين آية، إحدى عشر آية منها في ثماني سور مكية، وخمس

[1908]– سورة النساء الآية : 135

[1909]– وأعني بالقوة المعنوية : ما يسمى اليوم بالموضوعية التي تقضي بأن ينظر إلى أي سلوك، أو أية ممارسة نظرة حيادية مجردة من الاعتبارات الذاتية، والعاطفية، والنفعية التي كثيرا ما تعوق عن إقامة الحق .أي التجرد من الأهواء والجهل في المواقف وفي إصدار الأحكام.

[1910]– سورة المائدة الآية : 8

[1911]– سورة آل عمران الآية :113

عشرة مرة في ثلاث عشرة آية في تسع سور مدنية، وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر كلمة "الحق "حيث بلغت كافة مراتها أربعا وثمانين ومائتين، ومعلوم أن العدل مرتبط ارتباطا جدليا بالحق والحقوق، وكونه يكشف عن البعد الاجتماعي والأهمية الكبرى لهذه القيمة في جميع المجالات الإنسانية [1912] . ولا شك أن هذه القيمة تم التنبيه عليها في القرآن الكريم وفي المواثيق الإنسانية لما يترتب عن تنفيذها من نتائج طيبة تساهم في استقرار المجتمع الإنساني، وتناسقه وتوازنه .

2-**الحرية**: الحرية مطلب إنساني لأنها أساس بناء الشخصية الإنسانية المسؤولة عن أعمالها الذاتية، والمكلفة بالتزاماتها اتجاه المجتمع . والذي يتأمل فيالتاريخ الإنساني يجد أن هذا المطلب يتجدد في كل حقبة .حيث نادت بها الديانات، والفلسفات، والحضارات المتعددة، وهذا يعطي انطباعا أن "الحرية" قيمة من القيم المشتركة بين الإنسانية جميعا، لذلك ثارت الشعوب وتثور وتضحّي بأبنائها لاسترداد هذا الحق المسلوب من الاستعمار أو الحكام الطغاة. ويعود السبب إلى أن الإنسان لا يمكن أن تتحقق إنسانيته إلا بتوفر أنواع من الحرية التي لها اتصال مباشر بإنسانية الإنسان. ولنضرب لذلك مثلا بنوعين من الحرية :

1-**الحرية الشخصية** :أوحرية الذات، وهي أصل الحريات، لتعلقها بنفس الإنسان، وبصميم كرامته . فالإنسان يولد حرا ولا بد أن يعيش حرا. وهذا ما جعل محمد الغزالي يرى أن حرية الإنسان فيه مرادفة لمعنى حياته سواء، يولد بها، ويحقق ذاته في ظلها آمنا من الكبت، والقهر، والإذلال والاستعباد، وهي بهذا المعنى قيمة مقدّسة كالحياة، وتمثل الصفة الأولى التي بها يولد الإنسان، وتظل مستصحبة ومستمرة معه، و ليس لأحد الاعتداء عليها، ولا يجوز تقييدها، أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، أو بالإجراءات التي تقرها [1913]. وفي ذلك جاءت مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :" متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا" [1914] ويترتب عن هذا الحق مجموعة من الحقوق

[1912]-ينظر محمد التومي : المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ص 387/386

[1913]- ينظر محمد الغزالي :حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة دار المعرفة الجزائر ص 174/173

[1914]- من كلمة لعمر ابن الخطاب وهو يعاتب عمرو ابن العاص في قصة القبطي المشهورة.

خلاصتها ضرورة توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد والحفاظ على كرامتهم وعدم إلحاق أي أذى بهم. وبعد أربعة عشر قرنا يكتب ميثاق الأمم المتحدة وتكون أول مادة فيه : " يولد جميع الناس أحرارا في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلا وضميرا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بالإخاء"[1915] .لتؤكد هذه المادة أن القيم الإسلامية لها السبق في تقدير وتقنين طرق معاملة الإنسان لأخيه الإنسان، وأن البشرية في حاجة أن تفعّل ما جاءت به الشرائع بدل أن تجهد نفسها في البحث عن هذه القيم .

2-**الحرية المدنية** : وهي التي تمكِّن الإنسان من أن يكون فاعلا في المجتمع الذي يعيش فيه، ونعني بها كل التصرفات النابعة من شعور الإنسان بذاته، وضرورة اعتراف الجماعة بشخصه وأهليته المطلقة للتصرف وفق ما يريد، وعلى أساس هذه الحرية تظهر شتى أنواع الحريات (الحرية الفكرية، والسياسية، والدينية، وحرية الرأي والتعبير، وحرية الحركة والتنقل، وحرية الملكية)وغيرها من الحريات ذات العلاقة بحركة المجتمع، وحق الفرد أن يكون له دور في هذا المجتمع الذي هو عضو فيه، وذلك كله بداهة وفق قانون يمنع الضرر والعدوان حتى لا يشتط أحد فيؤذي الآخرين وينال من حرياتهم .

وعموما فإن الإسلام يؤكد على أهمية الحرية وحضورها في الحياة الإنسانية، فهو دين فك الأغلال، وتحرير النفوس والعقول من كل سلطان يقف بين الإنسان وبلوغ الحقيقة، وقد تجلى ذلك في عدة سياقات أهمها :

أ-في سياق الاعتقاد بدين من الأديان إذ لا يمكن أن يتم على أساس الإكراه ودلالة النصوص صريحة في احترام حرية المؤمن، أو المعتقد أيا كانت عقيدته.

ب-في سياق الدعوة الصريحة إلى استعمال العقل وتحرير النظر إلى الكون والاستدلال بنظامه الثابت على الحقيقة التي يقتضيها النظام، وهي دعوة صريحة في مجال الإقرار بحرية الفكر، وتفعيل دوره

[1915] الإعلان العالمي لحقوق الإنسان .من كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة لمحمد الغزالي ص 163

الاستدلالي. قال تعالى :{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ }[1916].

ت-في سياق التأكيد على أن الدعوة الإسلامية كان هدفها الأساس تحرير الإنسان من كل مظاهر الخضوع والابتزاز سواء كانت سلطة دينية من الأحبار والرهبان أو كانت سلطة سياسية من الطغاة الحكام. ذلك أن الحرية في الإسلام تنبع من التوحيد، لأن الله هو صاحب السيادة المطلقة على الكون، وغيره عبيد له، لأجل ذلك عمل الإسلام على تضييق جميع مرافد الرق وفتح جميع منافذ العتق . فمقام الحرية يأخذ مكانة هامة في سلم الأولويات، فالرق في نظر الإسلام بمثابة موت للإنسان، فكان على قاتل الخطإ أن يكفر عن ذلك بأن يعيد الحياة إلى رقيق بالعتق والتحرير.

ث-وفي سياق رابع فإن دعوة القرآن للحوار فيه الإقرار المبدئي باحترام العقل الآخر ومنه يؤسس لحرية الفكر في اختيار الرأي بعيدا عن أي وصاية، لذلك نجده يطالب الآخر بالبرهان ليستدل عن رأيه أو يدافع على ما يعتقد أنه حق .قال تعالى { قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }[1917] وبذلك يصبح قبول الحوار في حد ذاته دليلا على قيمة الحرية، فالمخاطب من حقه أن يقبل أو يرفض ما يعرض عليه على أساس الإقناع والاقتناع [1918].

وحتى لا تكون الحرية أداة لإفساد المجتمع والقضاء على قيّمه، كان لابد من وضع ضوابط لها ؛لأن الحرية المطلقة حرية بهيمية، وليست سعادة الإنسان في حرية البهائم، بل في الحرية المسؤولة المنضبطة . التي تجعلها قيمة هامة في الحياة، ومن مبادئها الأساسية ومن أهم الضوابط ما يلي :

أ-أن لا ينتج عن ممارسة الحرية ظلم ولا عدوان ولا هضم لحقوق الآخرين .

[1916]-سورة سبأ الآية :46

[1917]- سورة البقرة الآية :111

[1918]- محمد الكتاني : ثقافة الحوار في الإسلام من التأسيس إلى التأصيل منشورات الأوقاف والشؤون الإسلامية ط1 سنة 2007ص41/40/39

ب—الالتزام بالمسؤولية في المحافظة على قيم المجتمع، وأن لا يؤدّي الحق في الحرية إلى إلحاق الضرر بنظام المجتمع ومصالحه .

ت- أن لا يلحق أي أذى مادي أو معنوي بالأفراد والجماعات عند ممارسة الحرية.

ث-عند ممارسة الحق في التعبير لا ينبغي الإساءة لعقائد الآخرين، أو المساس بأعراضهم ومكانتهم الأدبية[1919] .

5- **العلم** : لا يختلف اثنان أن التعلم والمعرفة هي القيمة التي جعلت آدم عليه السلام جديرا بعمارة الأرض، لذلك يعتبر قيمة من القيم المشتركة، بل من أهم الطرق التي تساهم في تواصل الحضارات والشعوب، وإذا كانت العلوم تشمل ما يتصل بالكون وتسخيره، وما يتصل بالجوانب الروحية، فإن هذه الأخيرة لا تتصل بالمشتركات الإنسانية العامة، لكون كل شعب يتميّز عن غيره، إذ لكل حضارة دين، ومعتقد تؤمن به، وهذا لا يعنينا في هذا المقام .

أما ما يتصل بالعلوم الحياتية، أو الكونية التي تقدم نفعا للإنسانية، وتصلح من شأنها، وتيسّر لها أمور حياتها، كالطب والفيزياء والكيمياء والجغرافيا والفلك والهندسة وغيرها من العلوم ذات الصلة بموضوع العمران، فقد أدى هذا النوع من العلوم دورا بارزا في التقريب بين الشعوب وتبادل المصالح والخبرات . ففي الإنسان نزعة لتغيير حياته، وهذا التغيير لا يتم إلا بابتكار أساليب جديدة، ما فتئت هذه الوسائل أن تحولت إلى بحث دائم على مر العصور، فاكتسب الإنسان من خلاله معلومات بسيطة، ثم ظل يطورها نتيجة الاحتكاك ببني جنسه، فبلغ هذا الحد من التقدم .

ولا يخفى أن مواهب الأمم والحضارات مختلفة فالمهارة التي نجدها عند أمة قد لا تكون بنفس المستوى عند أمة أخرى، مما يجعل كل أمة تسعى لا كتساب المهارة التي تنقصها لتطوير علومها وتحقيق حاجاتها،ومن ثم يكون البحث عن المعلومة هنا وهناك وسيلة للتعارف والتقارب بين الشعوب، فالأمم التي ارتقت في سلم الحضارة تكون العلوم لديها في درجة من النضج تستقطب بها

[1919]- ينظر أحمد فتحي محمد قاسم : إنسانية التربية الإسلامية ودلالتها التربوية رسالة جامعية جامعة اليرموك 2012 ص218

غيرها من الأمم، وإن كانت لا تخلو أمة من فكرة علمية مهما كانت درجتها، سواء تعلقت بتنظيم الإدارة أو تحويل المادة أو تفصيل اللباس أو في النشاط الثقافي .

ومن هنا يمكن أن نسجل أنه ما من حضارة استقلت ببناء صرحها دون الاستفادة من الحضارات السابقة أو المعايشة لها، بل إن بعض الدول كانت فلسفتها في تحقيق الطفرة التكنولوجية، أنها عملت بقاعدة :البداية من حيث انتهى الآخرون، وهذا ما يمكن استخلاصه من التجربة الكورية الجنوبية التي اتبعت سياسة نقل التقنية ثم دراستها والاستفادة منها وتطويرها مع وضع البصمة المحلية لها وذلك لتعويض افتقارها الشديد في الموارد الطبيعية [1920] . وبناء على هذا فكل أمة تعمل على الاستفادة من غيرها، وتنفتح على المستجدات في ميدان العلوم تحقق قفزات نوعية في حياتها العلمية، أما التقوقع على الذات والانقطاع عما يجري في العالم من تحولات في ميدان العلوم فلا يجني أصحابه إلا التخلف والاستغلال من قبل الأمم التي استطاعت أن تطوّر علومها.

ولعل حرص كثير من الأمم على إرسال البعثات العلمية من أبرز مظاهر ذلك التلاقي الذي تؤكد أن العلم مشترك إنساني يفتح أبواب التعارف بين الشعوب، على الرغم من التباعد بين تلك الدول، فإن كانت الحضارات على اختلافها استفادت من بعضها البعض في حدود معينة بحيث تستجلب الأطباء، وتحضر المهندسين لتشييد العمران، فإن الحضارة الإسلامية برؤيتها المتسامحة استطاعت أن تستفيد في بناء إنجازاتها من النابغين دون النظر إلى الدين أو الجنس أو العرق.فكان الأمراء يقربون العلماء في مجالاتهم العلمية المختلفة، وحفظت للعالم تراث البشرية حين قامت بترجمة ما وصل إليها من كتب اليونان والفرس والهند والصين،ولم يكتف بذلك، بل نقدت وصوّبت ثم ابتكرت وأبدعت وأضافت إلى سجل تاريخ العلوم إنجازات لا يمكن تجاهلها .

ولذلك استطاعت الحضارة الإسلامية أن تكون قبلة لطلاب العلم بعد بروز أسماء كبيرة في شتى العلوم،فكان تفوق المسلمين في العلوم سببا في التواصل بين الحضارة الأوروبية والإسلامية في الأندلس

[1920] ينظر راغب السرجاني : المشترك الإنساني ص 426

وصقيلية وطليطلة وغرناطة ولم يكن للموقف السياسي والعسكري أي أثر على التواصل العلمي كما يشير إلى ذلك السباعي[1921] .

و هذا التصرف الحضاري الحكيم مكّن الأوروبيين من تحصيل العلوم وتطويرها، وبذلك تغيّر اتجاه دفة التواصل، فالبعثات العلمية أصبحت تتجه من البلدان الإسلامية إلى أوروبا وأمريكا واليابان، ليدل على أن دورة حضارية انقضت وحل محلها دورة أخرى، وهذا لا يهم لأن سنة الله لا تحابي أحدا، والذي يهم أن العلم في النهاية وسيلة مهمة من وسائل التواصل بين الشعوب، فالعالم المعاصر يشهد علاقات علمية أقوى مما سبق، حيث تعقد المؤتمرات والملتقيات العلمية لمواجهة التحديات المختلفة يلتقي من خلالها الباحثون من كل الجنسيات لتقديم خبراتهم في ميدان تخصصهم عسى البشرية تنتفع ببحوثهم وتجد حلا لمشكلاتها. ويظل ميدان العلم هو الميدان الذي لا يتوقف فيه التواصل على الرغم من وجود الأزمات والتوترات السياسية بين الدول. مما يدل أن العلم لا وطن له وهو رحم بين أهله، ومن المشتركات الهامة التي تقرب بين البشر .

6- **العمل** :يقصد بالعمل كل جهد بشري مثمر سواء كان بدنيا أو فكريا أو روحيا، وبهذا المعنى فهو قيمة سامية من قيم الحياة التي سايرت الوجود الإنساني، لارتباطها ببقائه وعزته وحاجته للحصول على احتياجاته الأساسية، وإذا كان العمل مرتبطا بفطرة الإنسان فإن جميع الأديان جاءت لتؤكد على أهميته لتحقيق الرقي والتقدم لحضارته، وإن كان الإسلام تميّز عن غيره بأن أعطى للعمل قيمة أكبر فربطه بالإيمان، وأعطى له مفهوم العبادة، فذكر في القرآن الكريم مقرونا به في أكثر من سبعين آية، ولم يكتف بمجرد الحث على العمل، ولكنه يطلب عمل الصالحات. قال تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ }[1922] و"عمل الصالحات" هي كلمة جامعة تشمل كل ما تصلح به الدنيا والآخرة، وما يصلح به الفرد والمجتمع وما تصلح به الحياة الروحية والمادية على السواء، وبفضله يجزل الله المثوبة للعاملين في

[1921]-ينظر مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا ص 53

[1922]- سورة العصر الآية :3/2/1

الدنيا والآخرة. قال تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[1923].

ولما كانت الشعوب تتمايز في اهتماماتها ونشاطاتها، فإن حاجتها لخبرات الشعوب الأخرى تزداد ولا تقتصر على جانب واحد،فالاتصال بين الشعوب يجعل التبادل ضروريا، ومن ثم يصبح العمل قيمة إنسانية مشتركة سواء كان تجارة أو زراعة أو صناعة، وهو اليوم وسيلة عملية دولية تعزز به الدول علاقاتها، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يعرف اليوم بالشركات متعددة الجنسياتالتي تتعدى القوميات والأعراق وتعتمد على المؤهلات والكفاءات، وتتكامل في منتجاتها. وهذه الحقائق تؤكد بوضوح قيمة العمل كمشترك إنساني بارز جعل الأمم الحية تتفانى في عرض أنموذجها على الأمم الأخرى، من خلال فتح باب الاستثمار الخارجي لتمنح أبناءها أكبر قدر من فرص العمل في شتى البلدان. ومعظم اقتصاديات العالم تقوم على يد العمالة الوافدة أو المهاجرة فضلا عن العمالة الداخلية، وبهذا تتلاقى الشعوب وتزدهر العلاقات الإنسانية .

3 : قيم المشترك الخاص

لا بد من التمييز بين القيم الثابتة أو المرجعية، التي تعد المثل الأعلى لكل سلوك إنساني، بصرف النظر عن عقيدته أو جنسه أو ثقافته .وبين القيم المتغيرة التي تفرزها كل ثقافة أو حضارة بحسب دواعي التطور العقلي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو الثقافي وهي التي تتجلى فيها خصوصيات الشعوب التي تميز الحضارات عن بعضها .

وخير مثال على ذلك ما أفرزته الحضارة الحديثة من قيم جديدة فرضتها التحولات في عدة مجالات من قيم الإنتاج المادي والمعنوي كالقيمالثقافية، واللغوية، والتاريخية، والعادات، والقانون، والتنظيمات المختلفة.

[1923]- سورة التوبة الآية :105

فكثيرا من الشعوب تجمع بينها هذه القيم التي ينبغي أن تستثمر في تحقيق التعارف والتعاون والتعايش، وتوظف كمحفزات على التواصل بين الأمم، وقد تكون الرابطة المترتبة عن هذه المشتركات أحيانا أقوى من رابطة المشتركات العامة .

4:قيم المشتركات الداعمة :

تعد قيم المشتركات الإنسانية الداعمة إضافات إيجابية للعلاقات الإنسانية . صحيح أنها لا تمثل ركائز حاسمة في بناء العلاقات أو إنهائها، ولكن لها دور كبير لتمتين العلاقات وتقويتها، وتعد مجالا خصبا للتعايش، واهم هذه المشتركات: الفن، الرياضة، السياحة، البيئة، الصحة، القيم الإغاثية، والعمل الخيري، وتندرج قائمة هذه المشتركاتتحت عنوان فعل الخير والبر بالإنسانية، ومن ثم يمكن إنشاء المؤسسات التي تفرج الكروب، وتغيث الملهوفين، وتواسي أصحاب ذوي الحاجات،سواء في أحوال السلم أو الحرب أو الكوارث وغيرها من الحالات التي تفرض على الإنسان أن يكون له موقف مشرّف مع أخيه الإنسان .

وحتى يكون لهذه القيم أثرها الطيب في التقارب بين الشعوب،ينبغي أن توضع لها الضوابط التي لا تلحق الأذى بمشاعر الأمم المشاركة فيها،ولا تمس خصوصيتها العقائدية، والاجتماعية والثقافية، كي لا تتحول هذه المشتركات إلى معاول هدم بدل أن تكون عوامل بناء .

المبحث السابع :منظومة قيم الإنسانية بين المادية والأخلاقية :

المطلب الأول : الحضارة الإنسانية بين المادية والروحية

من حق كل شعب أن يعتز بمنجزاته ويسعى للترويج لها، والعمل على تصديرها، ولكن دون ابتزاز للشعوب المستضعفة ومحاولة استغلال ظروفها للنيل من مبادئها، وفرض رؤيته عليها بمنطق تسلطي، ومن هنا فالفكر العولمي يرفع شعار تعميم النمطالعلماني عموما والنموذج الأمريكي بالذات ويسعلتصدير منتجاتهالثقافية والقيمية، بل وفرضها على الشعوب، وذلك باستغلال ظروف العالم في

هذه المرحلة التاريخية، وذلك لما تملكه في ميدان التكنولوجيا من سبق كبير، فتستخدم السلاح العسكري والاقتصادي لإخضاع الشعوب والعبث بمصيرها، فنجدها تشعل الحروب هنا وهناك، وتموّل الجماعات والأحزاب للتمرد على دولها فتبيع السلاح وتشغل مصانعها، كما نجدها تلقي بالملايين من الأطنان من غذاء العالم في البحر أو تتلفه، وتحرم منه الجياع، حتى تحافظ على ارتفاع أسعار بعض المواد في الأسواق العالمية، ولا تعطيه إلا لمن يقبل المساومة على قيّمه، مقابل لقمة العيش أو الكرامة، أو الحرية، على الرغم من ادعائها لنشر الحرية والقيم الإنسانية .

صحيح قد يحافظ هذا السلوك على مصالح أمريكا الاقتصادية،ولكنه في ذات الوقت هو مخالف للقيم الإنسانية الفاضلة التي تريد أن تروّجها للعالم باعتبارها الدولة المتحضرة، فهو سلوك لا أخلاقي ولا إنساني ولا ينبغي أن يصدر عمن يزعم أن منظومته القيمية عالمية .

ففكر العولمة العلماني المادي يقوم على أنانية مفرطة بلغت حد قهر الشعوب وإبادتها من أجل الوصول إلى أطماعها، ناهيك عن انتهاكات حقوق الإنسان، والفضائح التي تظهر هنا وهناك، والتي لا مبرر لها، إلا أنها خلاصة لفلسفة مجتمعات قيّمها هابطة لا تمت للإنسانية بصلة . بل إنها وحشية وغارقة في الحيوانية، وسلوك الأمريكان في سجن أبي غريب خير صورة تفضح الادعاء الغربي بأنه يحمل حضارة أو خيرا للإنسانية، والذي يؤكد أن هذا ليس فلتة سلوكية بل طبع أصيل كونها تكررت في أفغانستان حينما عرضت وسائل الإعلام تبوّل الجنود الأمريكيين على الجثث الأفغانية . وزاد الأمر تأكيدا تبريرها للعدوان الإسرائيلي على غزة، فالحرب عند الغرب العلماني لا قيّم لها، مما يدل على أن هذا هو منهج الغرب في الحياة، وأن قيم الغرب عاجزة على أن تكون نموذجا يؤسس لمجتمع إنساني متآخ ينصف فيه المظلومون، ويفرج فيه عن المكروبين، كما يزعمون عبر وسائل الإعلام.

في حين إذا عدنا إلى منظومة القيم في الحضارة الإسلامية العالمية، نجد ها تقدم نماذج رائعة لأخلقة العلاقات الإنسانية . وتؤكد على أن المصالح لا ينبغي أن تعلو على القيّم، فبالنظر إلى تاريخ الحضارة

الإسلامية نجد أنها كانت متفتحة في نشر الخير، وجسّدت مبدأ التعاون على البر والتقوى تجسيدا واقعيا، نهل العالم من خيرها وعدلها وتسامحها، مما لا يمكن إنكاره.

والمنصفون من غير المسلمين يقرون بهذا، ويشيدون بفضل الحضارة الإسلامية على العالم كله، حيث استفاد الغرب منها أيما استفادة، ولولا ذلك الانفتاح ما تطورت العلوم في أوروبا. لأن الرسالة الإسلامية جاءت لترتقي بالإنسان، لذلك لم تحجب خيراتها عن الآخرين بغض النظر عن انتمائهم . قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }[1924].وهذا يرجع أساسا إلى أمرين:

أ- خصائص الحضارة الإسلامية: هذه الحضارة المتمثلة في النقاط التالية كما أشار إلى ذلك مصطفى السباعي [1925] :

1- أن الحضارة الإسلامية قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، هذا السّمو في فهم الوحدانية، كان له الأثر الكبير في رفع مستوى الإنسان وتحرير الجماهير، وتصحيح العلاقة بين مختلف فئات المجتمع، ومن ثم تميزت الحضارة الإسلامية بخلوها من مظاهر الوثنية في آدابها وفلسفتها وفي الحكم والفن والشعر والنحت والزخرفة وغيرها، وبهذا تفردت في تجريد التوحيد وطبعت كل جوانب الحياة بطابع الوحدانية .

2- النزعة الإنسانية: فقد اتسمت الحضارة الإسلامية بنزعتها الإنسانية وهدفها الإنساني فهي عالمية الأفق والرسالة، وقد أعلن القرآن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه فكانت حضارته عقدا انتظمت فيه جميع الشعوب والأمم .

3- أنها حضارة متوازنة تؤمن بالعلم في أصدق أصوله وترتكز على العقيدة في أصفى مبادئها، فهي خاطبت العقل والقلب معا، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد .واستطاعت أن تنشئ نظاما

[1924]- سورة الأنبياء الآية :107

[1925]- - ينظر مصطفى السباعي :من روائع حضارتنا ص 66/65/ 64/63

للدولة قائما على مبادئ الحق والعدالة ومرتكزا على الدين دون أن يكون الدين عائقا لرقي الدولة، بل كان الدين من أكبر عوامل الرقي، فمن بين جدران المساجد انطلقت أشعة العلم إلى كل أنحاء الدنيا، فكانت بذلك الحضارة الوحيدة التي لم تفصل بين الدين والدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما بصيغة توفيقية نادرة .

4-أنها الحضارة التي جعلت للقيم الأخلاقية النصيب الأوفروالأولوية في كل نظمها، ومختلف نشاطها، فقد روعيت هذه المبادئ الأخلاقية تشريعا، وتنظيما، وتطبيقا : في الحكم، والعلم، والتشريع، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة، وفي السلم والحرب . ويكفي أن نسوق هنا شاهدا من أخلاقنا الحربية حيث تنعدم الأخلاق عند الأمم والجيوش الأخرى فتقرر الحضارة المبادئ التالية :

1. أن السلم هو العلاقة الطبيعية بين الشعوب .

2-لا يجوز أن تعلن الحرب للغزو، والنهب، وإذلال الشعوب، إنما تكون الحرب مشروعة لغايتين اثنتين : - دفاع عن عقيدة في سبيل الله أي التمكين للحق والخير .

- أو دفاع عن حرية الشعب واستقلاله وحماية المستضعفين.

3-أن الحرب إن وقعت لا مجال فيها للانتقام والتشفي ونشر الخراب والظلم والفساد، بل ينبغي ان تظل إنسانية في وسائلها، لذلك جاءت الوصايا الخالدة :" لا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له" [1926] فإذا كان هذا حال الحرب . فكيف تكون أخلاق الحضارة حال السّلم !؟

4. أنها حضارة التسامح الديني فقد أنشأ الإسلام حضارة لم تضق ذرعا بالأديان السابقة ولا بغيرهم من أصحاب النحل والملل، وتؤكد على أن الناس لا ينبغي أن يؤدي اختلافهم في الأديان إلى أن

[1926]- من وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما .

يقتل بعضهم بعضا، لأن الأديان في أصلها تستقي من معين واحد، ومن ليس لك أخا في الدين، فهو نظير لك في الخلق، وأن العقيدة لا يجوز الإكراه فيها، وأن أماكن العبادة للديانات محترمة ويجب حمايتها، وأن الاختلاف في الدين لا ينبغي أن يمنع من البر والصلة والضيافة، وأن يجادل أهل الديانات بعضهم بعضا بالحسنى وفي حدود الأدب والحجة والإقناع، ولا يجوز البذاءة مع المخالفين أو اضطهادهم أو سلب حرياتهم، وأن تعطى لهم حقوقهم ما داموا مخلصين للدولة. ومواقف الحضارة في التاريخ شاهدة على ذلك.

ب-آثار الحضارة الإسلامية: وقد نتج عن هذه الخصائصبصمات للحضارة الإسلامية في التاريخالإنساني وفي ميادين شتى، شهد بذلك المنصفون من غير المسلمين نجملها في خمسة ميادين أشار إليها مصطفى السباعي[1927] .

1-في ميدان العقيدة في الدين : فقد كان لمبادئ الحضارة الإسلامية دور في حركاته الإصلاحية التي قامت في أوروبا في القرن السابع عشر حتى عصر النهضة، حيث أن الإسلام الذي أعلن انفراد الله تعالى بالسلطان وتنزيهه عن التجسيم، وإعلانه استقلال الإنسان في عبادته ورفض كل الوسائط، كان عاملا كبيرا في عملية الإصلاح الديني في أوروبا" ويؤكد كثير من الباحثين أن "لوثر" في حركته الإصلاحية كان متأثرا بما قرأه للفلاسفة والعلماء المسلمين من آراء في الدين والعقيدة والوحي"[1928].

2-في ميدان الفلسفة والعلوم : ففي الوقت الذي كانت فيه عقول الغربيين تمتلئ بالخرافات والأوهام والأساطير، كان علماؤنا يتحدثون في حلقاتهم العلمية ومؤلفاتهم عن دوران الأرض وكرويتها وحركات الأجرام السماوية، ولما أفاقت أوروبا على أصوات علمائنا في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها كانوا شديدي الإعجاب والشغف بكل ما يستمعون إليه من العلوم في جو من الحرية لا يعرفون له مثيلا في بلادهم، ومن ثم ابتدأت عند الغربيين حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وها هو جوستاف

[1927]- ينظر مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا من ص 72 إلى 85 بتصرف

[1928]-المرجع نفسه ص 73

لوبون[1929] يعترف بهذا الفضل فيقول :" ظلت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلميةالمصدر الوحيد تقريبا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة قرون،أو ستة قرون، ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام إلى أيامنا فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبلييه في أواخر القرن الماضي"[1930].ويقول هذاالعالم أيضا:"على كتب العرب وحدها عوّل روجربيكون وليوناردو ألبيزي وأرنو الفيلفوفي، وريمون لول، وسان ثوما وألبيرت الكبير والاذفونش العاشر القشتالي "[1931].

3-في ميدان اللغة والأدب : تأثر الأدب الغربي بالحضارة الإسلامية في مواضيعه ومضمونه وحتى في مصطلحاته .

4-في ميدان التشريع :فقد كان الاتصال بين الطلاب الغربيين بالمدارس الإسلامية في الأندلس وغيرها مما جعلهم ينقلون مجموعة من الأحكام انبهروا بها في وقت لم تكن أوروبا على نظام متقن ولا قوانين عادلة، ويبرز التأثر في ترجمة نابليون لكتاب خليل في الفقه ليجعل منه النواة الأولى للقانون المدني الفرنسي لما لوحظ من تشابه بين القانون المدني الفرنسي وأحكام الفقه المالكي، وفي ذلك ينقل السباعي عن العلامة "سيديو" قوله :" والمذهب المالكي هو الذي يستوقف نظرنا على الخصوص لما

[1929]-غوستاف لوبون (1942/1831) طبيب، ومؤرخفرنسي، عني بالحضارة الشرقية. من أشهرمؤلفاته "حضارة العرب في الأندلس ."هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر غوستاف لوبون على نهج مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام على العالم الغربي. لكن غوستاف راعى هذا الجحود وهو الذي هدته رحلاته في العالم الإسلامي ومباحثة الاجتماعية إلى أن المسلمين هم من مدنوا أوروبا، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده وأن يبديه للعالم في صورته الحقيقية. ألّف عام 1884كتاب حضارة العربالذي سلك فيه طريقاً غير مسبوق فجاء جامعاً لعناصر حضارتنا وتأثيرها في العالموبحث في قيام دولتناوأسباب عظمتها وانحطاطها ومع أن غوستاف لوبون ليس مسلماً، إلا أنه كان عادلا في نظرته لحضارتنا، وقدمها للعالم تقديم المدين الذي يدين بالفضل للدائن.

[1930]-غوستاف لوبون : حضارة العرب نقلا عن مصطفى السباعي ص 75/74

[1931]- نقلا عن المرجع نفسه إذ يعتبر هؤلاء العلماء من أوائل الذين أسسوا للعلم التجريبي الغربي في مختلف الفنون .

لنا من الصلات بعرب إفريقية، وعهدت الحكومة الفرنسية إلى الدكتور بيرون في أن يترجم إلى الفرنسية كتاب المختصر في الفقه للخليل بن إسحاق بن يعقوب المتوفى سنة 1422م"[1932].

5-مفهوم الدولة وعلاقتها بالشعب :يتجلى التأثر في هذا المجال في كون الغرب عاش في فترة العالم القديم والوسيط أن العلاقة بين الحاكم والشعب هي علاقة السيد بالعبد، فالحاكم يتصرف كما يشاء في المملكة، ونتيجة للقاء الحضاري في محطات مختلفة أدرك الغرب حقائق جديدة في علاقة الحاكم بالشعب، وهو ما كانت تعلنه الحضارة الإسلامية من مبادئها أن الشعب هو صاحب الحق في الإشراف على حكامه، وأن هؤلاء ليسوا إلا أجراء يسهرون على مصالح الشعب، وتأثر الغرب بما سمع ورأى من أن المواطن البسيط يحاسب حاكمه عما يلبس، ومن أين جاء به ؟ولأول مرة يسمعون أن أحد أفراد الشعب يقول للحاكم : السلام عليك أيها الأجير فيعترف الحاكم بأنه أجير، ورأوا في ممالك الخلافة الأندلسية أن الشعوب تراقب حكامها، ومن هذا الوقت بدأت تهب نسمة الحرية والوعي في الشعوب المجاورة للمجتمع الإسلامي، فتتململ الشعوب، ثم تتحرك، ثم تثور، ثم تتحرر، فيكون الفضل بذلك للحضارة الإسلامية التي نبهت فيهم الكرامة الإنسانية فخلعوا الملوك وأسقطوا كل ذي سلطان حرمهم من الحرية [1933].

المطلب الثاني : منظومة القيم ومستقبل الإنسانية

وبعد هذا العرض لقيم عقيدة التوحيد والعلمانية الشاملة وضرورة طرح بديل للحياة الإنسانية، تبيّن لنا أن العلمانية بمنظومتها المادية قفزت بالإنسانية قفزات هائلة في ميدان المادة، مع فقر شديد في جانب القيم الروحية والأخلاقية، والحق أن ما عليه جانب المادة في حاجة إلى ترشيد ليحفظ الحضارة، ويمكّن أهلها من الاستمتاع بثمراتها.غير أن الغرب فيما يبدو عاجزعن صياغة منظومة قيمية متوازنة لإدارة الحياة الإنسانية وإيقاف التدهور الذي يحذر منه كثير من فلاسفتهم .

[1932]- مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص81

[1933]- مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص 83/82

وهنا تبرز قيّم عقيدة التوحيد مرشحة بقوة مؤهلة لإعادة صياغة منظومة قيم الحياة الإنسانية، ليكون حال العالم أفضل، توازن فيه بين المبادئ والمصالح، وبين المادة والروح، وبين العقل والقلب، لأنها تملك مرجعية ربانية يتحاكم فيها الناس إلى ما يريده الله ورسوله لا ما تفرضه أمزجة البشر وأهواؤهم. فهي المرجعية التي اختارها الله لترشدالفكر البشري حتى لا يضل، وإذا ضل حتى يعود إلى رشده. قال تعالى: {ظَهَرَالْفَسَادُفِيالْبَرِّوَالْبَحْرِبِمَاكَسَبَتْأَيْدِيالنَّاسِلِيُذِيقَهُمبَعْضَالَّذِيعَمِلُوالَعَلَّهُمْيَرْجِعُونَ }[1934] خاصة بعد أن غرق الغرب في المادية وأصبح أسيرا في منطقه لمادية ماركس وحيوانية داروين وغرائزية فرويد. فصاروا: {كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}[1935]

لقد لعبت الحضارة الإسلامية بمنظومتها الشاملة المتكاملة المتزنة دورا هاما في تاريخ البشرية .كان ذلك بعد أن هضمت جوانب كثيرة من الحضارات السابقة، وعملت على بلورتها وصقلها وإغنائها، فطورتها وزادت عليها، وقدمت مادة غنية عملت على دفع عملية التطور والارتقاء بالحضارة الإنسانية .ومن ثمتملك الحضارة الإسلامية ميزة السبق والتجربة في صياغة منظومة القيم الإنسانية. وهي اليوم مؤهلة لنفس الدور بشرط أن توظّف فاعلية الإنسان المسلم،ويفقه دوره الحضاري،وحاجة الإنسانية لنموذجه الذي سعدت البشرية بهوما زال العالم يحنّ إليها ليتحول العلم إلى قيمة نافعة للإنسانية، بدل أن أصبح يشكل هاجسا مخيفا وخطرا محدقا في المدى المنظور، إذا استمر الفكر العلماني المادي الملحد يحرك دواليب الحياة الإنسانية على الشكل الحالي. ولعل أقرب مثال على ذلك الخلل البيئي الهائل الذي ينذر بكارثة كونية كما يقول خبراء البيئة، وذلك بسبب المنطق الاستهلاكي الذي يتغذى على الفلسفة المادية العبثية.

وإذا كان المفكرون يجمعون على أن الحضارة هي الجهود التي يبذلها الإنسان لتحسين أحواله المعنوية والمادية في حياته- بغض النظر عن الاختلاف في التعريفات-فهل الحضارة الغربية تحقق هذا المعنى؟.

[1934]. سورة الروم الآية : 41

[1935]- سورة الفرقان الآية :44

وننقل في هذا الصدد شهادة أحد المفكرين والفلاسفة الغربيين الذي قيّم الحضارة الغربية بصورتها الحالية وهو "ألبير أشقيتسر" الذي يرى أن الحضارة تتمثل في الرقي الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء. فقال في كتابه فلسفة الحضارة :" فلما بحثت في ماهية الحضارة، وطبيعتها تبيّن لي في ختام المطاف أن الحضارة في جوهرها أخلاقية، وأنا أعلم أن تقرير هذا الأمر على هذا النحو، أعني القول بأن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية سيثير الدهشة، بل والاشمئزاز في نفوس أبناء هذا العصر، الذين اعتادوا التعلّق بالاعتبارات التاريخية والمادية والجمالية ". ثم يضيف " وتحت تأثير المعتقدات الأخلاقية وحدها تكوّنت مختلف العلاقات في المجتمع البشري على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطوّر بطريقة مثالية.وإذا أعوز الأساس الأخلاقي تداعت الحضارة، حتى لو كانت العوامل العقلية والخلّاقة "[1936].

فكما هو واضح فإن هذا المفكر قدم ملاحظاته حول الحضارة الغربية، وما بلغه هذا العصر في النواحي الصناعية والمادية، وجاهر بأن جوهر الحضارة يتمثل في المقومات الأخلاقية،وهي أساس بقاء الحضارة وانتفاع الإنسان بمنجزاته. أماغير هذا فهو مجرّد ظروف مصاحبة للحضارة، لأن الأعمال المبتكرة في المجالات الفنية والعقلية والمادية، لا تكشف عن أهميتها، إلا إذا استندت في بقائها ونمائها إلى استعداد نفسي يكون أخلاقيا، وبتأثير من المعتقدات الأخلاقية وحدها تتكون العلاقات في المجتمع البشري على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية[1937] .

أما ما يحدث في الحضارة الغربية التي أسستها العلمانية في أوروبا وصاغتها بمنهجها الإلحادي المادي اللا أخلاقي فهو الذي أدى إلى الحالة المزرية التي لحقت البشرية بسبب اللاتوازن بين المادية والأخلاقية، بحيث حقق الإنسان قفزات هائلة في عالم المادة، ولكنه ظل يتراجع في جانب الأخلاق . وهذا ما يؤكده فيلسوف الحضارة توينبي [1938] كما ينقل عنه توفيق الطويل حين قال :" إن مرد

[1936]– ألبير أشقيتسر :فلسفة الحضارة ص 4/3

[1937]– ينظر توفيق الطويل : الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية دراسة مقارنة مكتبة التراث الإسلامي ص 71

[1938]–توينبي :هو أرنولد توينبي، ولد في لندن، وعاش بين (1889–1975) يعد من أشهر المؤرخين في القرن العشرين، بحث في مسألة الحضارات بشكل مفصل ولا سيما في موسوعته التاريخية المعنونة ب"دراسة للتاريخ " والمؤلفة من اثنى عشر مجلدا، انفق في

انحلال الحضارة الغربية المعاصرة يرجع إلى تأخر التطور الثقافي، والأخلاقي عن التطور المادي الذي يبهر الكثيرين، وعن هذا نشأ ما نراه اليوم من انحلال الأخلاق، وشيوع الجرائم التي لم تكن مألوفة من قبل" حتى أنه من الطريف أن توينبي يبتهل إلى الله :" أن يرجئ نهاية عالمنا، ويرى أن دعاءه سوف يستجاب ما دمنا نشعر بالندم حين تخطئ قلوبنا "[1939] وهو يلتقي مع ما ذهب إليه ابن خلدون في التنبؤ ببداية الفساد المؤذن بالخراب فيقول :"ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في شهوات البطن من المآكل والملاذ فيفضي ذلك لفساد النوع فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد [1940]".

ويرى عماد الدين خليل أن هناك خدعة كبرى يمارسها الطاغوت باسم العلم ضد الأمم والشعوب، إنه يفقأ إحدى عينيها، ويكسر إحدى ساقيها موهما إياها أنها العين الوحيدة التي ترى، وأنه أحسن صنعا باكتساح العين الأخرى التي تشوّه رؤياها للأشياء، وأن الساق الوحيدة التي تستطيع أن تواصل السير من أجل التقدم، وأنه أحسن صنعا ببتر الساق المريضة التي تعيق الحركة نحو الأمام .

إن العلمانية الشاملة وهي تلغي "الدين" تماما من برنامج حياة الإنسان، وتجعل من العلم المادي منهجا، فقد بات واضحا أن العلم المادي لا يستطيع أن ينقل الإنسان إلى التجريد، لأن الإنسان يصبح إنسانا بقدر ما يتجاوز عالم التجسيد، ويتطلع إلى آفاق التجريد (عالم الغيب)وآفاقه الرحبة، حيث الحقيقة الكبرى التي تسعد الناس وتفتح تيار وجدانهم المتدفق صوبها، وقد كان الناس دائما في عهود انحطاطهم وجهلهم يتنكرون لقيم الوحي التي رفعتهم إليها الأديان، يتنازلون إلى أرض الحس والتجسيد وكما عبر عنها القرآن الكريم:{ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا

تأليفها واحد وأربعون عاما، ويرى أن الحضارات الأكثر اتساعا زمانا ومكانا هي المجالات المعقولة للدراسة، ويحصي منها سبعة حضارات باقية والأخرى اندثرت، ولا يدري مصير الحضارة الغربية المعاصرة !.

[1939]– توفيق الطويل : المرجع السابق ص72

[1940]– عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : المقدمة ص 414

مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ }[1941]، فكان الإنسان يتخلى عن مبدأ التوحيد، لأن الله لا تراه العيون، ويتجه إلى عبادة الأشخاص والأضرحة والأولياء والقادة والزعماء والأشكال والظواهر الطبيعية ويفتتن بالمتاع الدنيوي .

وفي ظل العلمانية الشاملة تبدو الظاهرة متكررة لكن باسم "العلم"، فرغم أنه أعطاهم مناهج للبحث والابتكار، إلا أنه لم يزدهم إلا اقترابا من الحس، وتحويلهم من التجريد إلى التجسيد، وبهذا يكون "العلم" بمفهومه الغربي القاصر، يساند الجهل ويدعم الغفلة، قال الله تعالى:{ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ }[1942] وقال تعالى:{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }[1943]فالنزعة الشيئية التي ترتكز عليها العلمانية الشاملة والتي أوجدها العلم بمنجزاته الحضارية الهائلة، قد استعبدت الناس من دون الله، وحجبت عنهم ببريقها وتناسقها وتجسيدها الواضح نور التجريد والغيب، وبالتالي حجبت عنهم الاتصال بالله والاستهداء بنور الرسالة الإلهية التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.

ولا يشك أحد أن مروجي هذه النزعة الشيئية في قرننا، والمؤسس للعلمانية الشاملة هم اليهود الذين كانوا على مر تاريخهم يطلبون التجسيد، و لا يقبلون إلا بالحس، حتى فيما يتعلق بالذات الإلهية :{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}[1944]. وقال تعالى {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ }[1945] أو ما تعلق بمعاشهم فقد كانوا يصلون إلى رزقهم الكامل بطريقة سهلة ميسرة، ولكنهم أبوا إلا أن يكون رزقهم من مواد الأرض بعد الشقاء في زراعتها قال تعالى:{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ

[1941]- سورة التوبة الآية :38

[1942]- سورة يونس الآية :66

[1943]- سورة الروم الآية :7

[1944]- سورة البقرة الآية : 55

[1945]- سورة طه الآية :88

أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ }[1946].

لذلك فاليهود وراء كل دعوة علمانية في الفكر و الواقع، فمعظم من أسس للفكر العلماني أصولهم يهودية[1947]، أو كانوا مدعمين من اليهود، وموظفين لتخريب الفكر البشري، سواء في ميدان علم النفس(فرويد) والوجود (داروين) والاجتماع (دوركايم) والاقتصاد (كارل ماركس) والفن والإعلام وغيرها من المجالات، حيث يستخدمون أدوات التزيين والترويج لأفكارهم بما يملكون من مال ووسائل إعلام، ويضغطون على الفكر الإنساني في مناطق ضعفه المال والنساء، وهي أساليب صهيونية تشبه خطط إبليس في الإغراء والغواية والمكر ببني آدم مند الأزل. قال تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ }[1948].

ولعل المتصفح لبروتوكولات حكماء صهيون يلمس هذه الحقيقة بجلاء، وكيف يستغل الأدب والإعلام لخدمة أهداف اليهود والتأثير على العقل الإنساني، وللتدليل على ذلك ننقل هذه العبارة للتوضيح :"الأدب والصحافة هي أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين، ولهذا السبب ستشتري حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات، بهذه الوسيلة سنعطل التأثير السيء لكل صحيفة مستقلة، ونظفر بسلطان كبير جدا على العقل الإنساني " [1949].

فإذا ما عدنا إلى حقيقة العلمانية وجدنا أنها انتهت إلى مركزية "المادة" في تفكيرها، والمحور الأساس الذي تدور حوله كل فلسفتها، وهذا ما جعل عماد الدين خليل يصف الحضارة الغربية بالعرجاء العوراء لأنها قائمة على مبادئ العلمانية الغنية ماديا الفقيرة روحيا، وساق ذلك الوصف في

[1946]–سورة البقرة الآية : 61

[1947]– ينظرعبد الرحمن حسن حبنكة :كواشف زيوف الصفحات التالية على التوالي : 439/333/317/289

[1948]– سورة ص الآية : 82

[1949]– الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون ط5 سنة 1980، من البروتوكول الثاني عشر ص 93

تمثيل طريف فقال: "إن المسيح الدجال ذو العين الواحدة،ربما كان رمزا لهذا الاختيار المر الذي قاد الأمم والشعوب إلى الضياع، يعود هذا الدجال في آخر الزمان ليرى الإنسان الذي استعبد نفسه للطغيان صورة نفسه :إنسان أعور، مشوّه، ذميم الخلقة، من أجل أن يثير الاشمئزاز في نفوس الأجيال المستعبدة، علّها تثور ضد الذين سخروا منها فاقتلعوا عينها وحطموا ساقها ..تماما كما سيعود المسيح العظيم في آخر الزمان لكي يرد–أغلب الظن –على الذين تنازلوا عن حريتهم وقرروا أن يعبدوه من دون الله "[1950].

إن ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا الدرس، أن نؤكد أن محاولة العودة لصياغة منظومة قيم الحياة الإنسانية، وفق قيم عقيدة التوحيد محاولة جادة من أجل إقامة حضارة إنسانية سليمة، تمشي على ساقين، وتبصر بعينين، وهي حركة ضد العمى والكساح الذي اختارته دائما حركات العلمانيين لاستعباد الناس من دون الله، وتقزيم رؤيتهم للحياة، وحصر اهتمام الإنسان في أضيق الحدود.وإن دعوة الإسلام صرخة رجاء بوجه الأمم والشعوب أن تتمرد على أربابها الذين صنعتهم العلمانية، وأن تستعيد سيرها الطبيعي ورؤيتها للحياة في ظل انجازات العقل المستنير بنور الوحي:{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }[1951]،وهل يتم ذلك إلا بالعودة إلى منهج الله، وقيم الله ؟.

قال الله تعالى{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[1952] وصراط الله هو منهجه الذي جاء لتحرير الإنسان، وإعادة التوازن للحياة الإنسانية، وقد استطاع ربعي بن عامر أن يلخّص كل ذلك بكلمته الرائعة حين قال لرستم :"

[1950]–عماد الدين خليل : تهافت العلمانية ص 23

[1951]–سورة النور الآية : 35

[1952]– سورة الأنعام الآية : 153

جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدالة الإسلام ".

إن مبدأ التوحيد الذي تقوم عليه منظومة القيم الإسلامية يستهدف تنسيق وجود الإنسان وعلاقاته مع نفسه ومع الآخرين (المجتمع) ومع العالم (العلاقات السياسية الدولية) ومع الطبيعة (استغلال كنوزها وطاقاتها)، ومع الكون عن طريق العقيدة التي تحدد أصل الإنسان ومصيره ووظيفته وطبيعة العوالم الأخرى من حوله، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان وتلك العوالم. وبتعبير الإسلام علاقة الإنسان ب "عالم الغيب والشهادة ".

فلا شك أن وضوح الرؤية في هذين المجالين، وضبط هذه العلاقة، هو سر سعادة الإنسان في الدنيا وفوزه في الآخرة، ولا يمكن لأي منهج أن يوضح الرؤية في هذا الباب إلا منظومة عقيدة التوحيد.قال تعالى :{أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }[1953]. والسؤال لا يحتاج إلى جواب لبداهته. لأن من يملك رؤية واضحة للماضي والحاضر والمستقبل أفضل ممن لا يتجاوز بصره مواطئ الأقدام.

لا ينكر أحد أن الحضارة الإسلامية –حضارة القيم الأخلاقية والروحية – فضلا عن كونها حضارة مادية بامتياز، أحسنت الاستفادة من خيرات الأرض .وقد نهل منها الغرب ليتحرر ويتطور، وكما يقول مصطفى السباعي وهو ينوّه بأثر الحضارة الإسلامية على أوروبا :" إن الغربيين اتصلوا بحضارتنا في القرون الوسطى عن طريق بلاد الشام، وعن طريق الأندلس، وكانوا قبل اتصالهم بنا لا يعرفون ثورة ملك على رئيس دين، ولا انتفاضة شعب على ملك، ولا يجدون أن من حقهم أن يحاسبوا حاكما أو ينصروا مظلوما .وكانوا حين يختلف بعضهم مع بعض في العقيدة والمذهب يذبح بعضهم بعضا كما يذبح الجزار غنمه! فلما اتصلوا بنا بدأت نهضتهم وثورتهم، ثم كان تحررهم، فهل ينكر بعد هذا

[1953]– سورة الملك الآية :22

أثر حضارتنا في تحرير العالم وإنقاذ الشعوب ؟ "[1954] ويشير كثير من المنصفين أن رواد الثورات الغربية تأثروا أيما تأثر بعد احتكاكهم بالمسلمين .

غير أن الغرب لم يكن ناقلا أمينا، لأنه أخد شطرا من الحضارة، فأنتج الدولة الحديثة (العلمانية) المفتقرة إلى الأخلاقية،والتي يستحيل معها إيجاد ذلك العالم الذي يجتمع فيه الناس على خير الإنسانية، وهو ما يدعو أشقيتسر في كتابه "فلسفة الحضارة" إلى تغييره، وإيجاد دولة بديلة تقوم في فلسفتها على النظرة الأخلاقية للعالم والحياة فيقول: " وفي الوقت نفسه لا بد من خلال التفكير في حقيقة الدولة الحديثة أن يتقرر عند كافة الناس أن الإجراءات الظاهرية لرفع مستوى الدولة الحديثة وتقويم اعوجاجها، مهما تكن نافعة في ذاتها فإنه لن تكون لها غير نتيجة ناقصة، اللهم إلا إذا أصبحت روح الدولة شيئا آخر تماما .فلنحاول إذن أن ندفع الدولة الحديثة، بقدر ما يستطيع فكرنا،إلى روحية الدولة المتحضرة وأخلاقها، كما ينبغي أن تكون بحسب الفكرة المتضمنة في توقير الحياة،إننا نطالبها أن تكون أكثر روحية وأخلاقا..."[1955]

ثم يضيف وهو يرد على من يزعمون أن الدولة لا تستطيع العيش إذا استندت إلى الاعتبارات الأخلاقية فيقول :" وهنا قد يُعترض فيقال أنه حسب كل التجارب لا تستطيع الدولة أن تعيش إذا اعتمدت على الحق والعدل والاعتبارات الأخلاقية وحدها، وأنه لا بد لها في النهاية من الالتجاء إلى الانتهازية .غير أننا نسخر من هذه التجارب، لقد فندتها النتائج الأليمة . ولهذا فإن لنا الحق أن نعلن أن المسلك المضاد، هو الحكمة الحقيقية، وأن نقول أن القوة الحقيقية للدولة والفرد على السواء، إنما توجد في الروحية والسلوك الأخلاقي "[1956].

هذه شهادة من فيلسوف الحضارة "ألبرت أشقيتسر" يسجل فيها أن الدولة العلمانية الحديثة القائمة على إقصاء القيّم يستحيل استمرارها على الحالة الراهنة ؛لأنها عاجزة عن وضع منظومة متوازنة

[1954]- مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص84

[1955]- ألبرت أشقيتسر : فلسفة الحضارة ص 418/417

[1956]- المرجع نفسه ص 418

للحياة الإنسانية، يسعد فيها الإنسان بمنجزاته المادية، والسبب يرجع ببساطة إلى أن الدولة الحديثة تجد نفسها اليوم في حال من الفقر الروحي لم يسبق له مثيل، فمن أين لها أن تتطور إلى دولة متحضرة وهي فاقدة لروحها. ثم يصرح بكل وضوح أن الأسس التي قامت عليها الدولة الحديثة لا تؤهلها لأن تقلّص من مخاوف الإنسانية، فهي عاجزة عن صياغة منظومة قيمية عالمية متوازنة،ولذلك فهو يتبرأ من مسلك الدولة الحديثة فيقول :"ولذلك فنحن في حل من واجب تصوير الدولة الحديثة وفقا لمقتضيات التعصب القومي والحضارة القومية، ونحن أحرار في أن نعود إلى براءة التفكير العميقة التي تتطلب من الدولة أن تسترشد بالروح الأخلاقية للحضارة ...ولا ثقة لنا إلا بالروح "[1957] .

وكما هو واضح في هذه العبارة ومهما كانت أهمية السبق المادي، فإن العنصر الروحي الأخلاقي في الحضارة هو الأهم، أو هو العنصر الحقيقي إذا قيس بالعنصر المادي. ومنظومة قيم عقيدة التوحيد التي جسدتها الرسالة الإسلامية، بلغت حضارتها في هذا المجال شأوا، والدور الذي يمكن أن تؤديه مرة أخرى لم يعد يخفى على كل دارس ومنصف، في ظل إخفاقات متكررة للقيم المادية والإلحادية، هذا " العنصر الأخلاقي والروحي هو الذي تخلد به الحضارات وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية وإبعادها عن المخاوف والآلام، فالغاية من الحضارة هي أن تقرب الإنسان من ذروة السعادة، وقد عملت ذلك حضارتنا ما لم تعمله حضارة في الشرق والغرب.

والذي يعود إلى النص القرآني يلمس العلاج الرباني الذي يمكن أن يقضي على حالة الفساد والتخلف في الحياة الإنسانية استنادا إلى ذلك التوفيق الرائع بين المادية والروحية. نقرأ ذلك بوضوح في أول الحديث عن وضع الإنسان في الأرض كما تصورته الملائكة، فبحكم تركيبة الإنسان تنبأت أنه يفسد في الأرض، فأبان لها رب العزة المنهج الذي إذا سلكه الإنسان نجا من هذا التخوف ويتألف هذا المنهج إجمالا من منظومتين :

[1957]- المرجع نفسه ص 419

1-**منظومة علمية ومعرفية**[1958] : وتتخذ من "علم الأسماء" أو دراسة الطبيعة (الأنفس والآفاق) سبيلا لتسخير الكون والاستفادة من خيراته، وهذه سنة الله في تطوّر الحضارات،فبقدر معرفة "الأسماء" واكتشاف أسرار المادة وقوانينها تزدهر الحضارات. قال الله تعالى :{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }[1959] وعلم الأسماء هو ما يمثل الجانب التقني في أبسط صوّره وأكثرها تقنية .

2-**منظومة قيميةأخلاقية**: وتقوم على علم الهداية الإلهية (الشريعة) عن طريق الوحي الذي جاء على لسان الرسل عليهم السلام، لتأييد الفطرة، وترشيد العقل، وضبط الغرائز وفق برنامج هداية مفصّل في شريعة الإسلام، يشمل كل جوانب الإنسان، وكل مجالات الحياة قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ }[1960].

وبهذايمكن أن يتحقق للإنسانية التقدم الحقيقي.والواقع أننا عندما نحكم على أمة بالتخلف، لا بد لنا من مقياس نستند إليه، ولكن الذي ينبغي أن ينعقد عليه يقيننا، أن ذلك المقياس ليس هو إطلاقا نموذج الغرب وحضارته المادية، وإنما هو النموذج الإسلامي المتكامل الذي تجسّد على أرض الواقع في مرحلة من الزمان، وأشاع بأنواره على العقول كلها، ولا يزال إلى الآن، وسيظل إلى الأبد مثالا ترنو إليه الأبصار والعقول، التي تدرك المعنى الحق للتقدم والحضارة .

والسبب في ذلك واضح وهو أن النموذج الغربي قد قام على أساس مادي صرف وعلى رؤية مبتورة لمفهوم التقدم، مشتقة من رؤيته لله وللكون والحياة والإنسان وهي رؤية لا تحتل منها القيم الأخلاقية والفضائل التي تسمو بحياة الإنسانوتميزه عن الحيوان حيزا يذكر .

[1958]- فرق علماء المسلمين بين العلم والمعرفة فقالوا: إن العلم : هو إدراك الكلي ويستعمل في التصديقات، ويقتضي الإحاطة بالمعلوم، وإدراكه على ما هو عليه . بينما المعرفة : هي إدراك الجزئي وتستعمل في الدلالة على التصورات، وتقتضي الخبرة بالشيء في ظاهره أو في أثر من آثاره، أو في جزئية من جزئياته، ولذلك يقال العارفون بالله، ولا يقال العالمون بالله .ينظر منظومة القيم المرجعية :محمد الكتاني ص53

[1959]- سورة البقرة الآية :31

[1960]- سورة البقرة الآية : 38

و الحقيقة التي يؤكد عليها القرآن وهي أن الإنسان إذا استطاع أن يوازن بين المنظومتين الأخلاقية والمادية فيؤلف بينهما بتوازن كل حسبِ نسَبِه المطلوبة، ترشّح أن يكون مؤهلا لخلافة الأرض ووراثتها، وفق إرادة الله ومنهجه. قال تعالى : {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }[1961].

ولا شك أن سعادة الإنسانية كامنة في القدرة على التوفيق بين علوم التقنية التي تمكّن الإنسان من تحقيق الحاجات المادية الضرورية والكمالية، وعلوم التقوى التي توفر الطمأنينة الروحية والسكينة النفسية، وبهما جميعا تحيا الإنسانية حياة طيبة، وهذا النص الذي يحمل رسالة واضحة لبني آدم يشرح منهج الإسلام في التوفيق بين المادية والروحية. قال الله تعالى {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }[1962] وفي الآية إشارة إلى ما تنتجه الأيدي، والماكنات في المصانع، من ألبسة ضرورية تستر العورات كما نصّ عليه قوله تعالى وهو يوضح غرضا من أغراض اللباس وهو ستر العورة: "لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ " وما تنتجه لتحقيق الجماليات، والكماليات في الحياة في قوله " وَرِيشاً ". كما أشارت في نفس الوقت إلى التقوى باعتبارها قيمة خلقية تستر النفس الإنسانية من عيوبها وتعصمها مما يقودها إلى هلاكها في قوله " وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ "وبهذا التوفيق بين "التقوى" و"التقنية" أو "الشريعة" و"الطبيعة" مع ترجيح لكفة التقوى والشريعة تصل الإنسانية إلى ذروة سعادتها .

إن في هذا العالم صرخات تطالب باسترجاع إنسانية الإنسان، ولا شك أن هذا الأمل لن يتحقق إلا يوم أن تفقه الأمة الإسلامية دورها في التاريخ، وتسعى لاستعادة عافيتها واستشعار مسؤوليتها وحاجة الإنسانية لمنظومتها القيمية لإسعاد البشرية، ويبرز إلى الوجود جيل يفقه هذه الرسالة فقها سليما. قال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

[1961]-سورة الأنبياء الآية : 105

[1962]-سورة الأعراف الآية :26

أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ }[1963].وفي الآية دعوة لكل الأجيال المسلمة أن تتسابق لتشرف بوضع لبنة في سبيل عودة الحضارة الشاهدة، والارتقاء في الأداء لعرض الصورة الوضيئة للإسلام الصحيح، لأن المشروع الحضاري يتطلب طرازا خاصا من الأجيال الفاعلة المؤمنة الواعية المتجردة. وعند ذلك يمكّن الله لهذه المنظومة أن تعود لتقود العالم، وهذا وعد من الله بالتمكين لهذه المنظومة المؤسَّسَة على الدّين بمفاهيمه الصحيحة، ومن ثم تحقيق الأمن للإنسانية جميعا، وعند ذلك يدخل الإسلام كل بيت بعز عزيز أو بذل ذليل. قال الله تعالى :{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }[1964].

ومن هنا يتبين لنا بجلاء أن البشرية تتطلع لنظام أخلاقي عالمي جديد[1965]، ولعل المنظومة القادرة على تجسيد هذا الأمل تجد قاعدتها في القرآن الكريم، لتنظيم حياتها أخلاقيا، وتتمكن من صياغة الحياة وفق منظومة تجلب للإنسانية السلام، ولن تكون إلا استنادا إلى قيم منظومة عقيدة التوحيد التي تكفي نفسها بنفسها، فهي منظومة متكاملة ومتناسقة مع طبيعة الكون والحياة والإنسان ."ومن أجل ذلك كان لنا نحن أبناء الحضارة دَيْنٌ على الشعوب التي حررتها حضارتنا، يجب أن نسترده لا بالتفاخر الكاذب، ولا بالأماني والأباطيل، بل بمعرفتنا لقدر أنفسنا، وقيمة حضارتنا، وسمو تراثنا، واستحقاقنا لأن نكون الأمة الوسط التي تشهد على الناس، وتقودهم إلى الخير والحق والكرامة، ولعلنا فاعلون إنشاء الله"[1966]فرسالة الإسلام هي رسالة الرحمة من رب العالمين. فمتى يعقل العالم حاجة الإنسانية لمنظومة قيم عقيدة التوحيد. قال تعالى :{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }[1967] .

[1963]– سورة المائدة الآية :54

[1964]–سورة النور الآية :55

[1965]– يعبر طه عبد الرحمن عن هذا النظام : بالحضارة العالمية المنتظرة، والعالم المنتظر، والإنسان المنتظر، والإنسانية المنتظرة .ينظر طه عبد الرحمن سؤال الأخلاق ص 146. وقد عبر القرآنعنها بأمة الخيرية وأمة الشهادة والأمة الوسط. وعبرت عنها السنة المطهرة بالخلافة على منهاج النبوة .

[1966]– مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا ص 85/84

[1967]– سورة ق الآية :37

الخاتمة :

1- النتائج: بعد هذه الدراسة التي حاولت فيها توضيح صورة هاتين المنظومتين خلصت إلى النتائج الآتية:

1- أن العلمانية نبتة غربية خالصة ، وهي امتداد لمسار الحضارتين الإغريقية اليونانية و الرومانية لكنها عادت في ثوب جديد.حيث دلست على البشرية فأنزلت النظريات منزلة الحقائق العلمية على الرغم من كونها مجرد آراء قد تؤيدها عينات ، ولكنها لا تصلح في كثير من القضايا أن تكون حقائق .

2-أن الإسلام دين شامل ومنظومة منسجمة ومتكاملة ، وأن العقيدة الإسلامية تطبع كل هذه النظم ، فهو يملك من الثوابت ما يحفظ الهوية ، ومن المتغيرات ما يساير تطور الحياة ، ومن ثم فهو صالح لكل زمان ومكان ،ولا حاجة لغيره من منظومات الحياة التي تفسر الوجود ،وتضع القيم ، وتحدد مصادر المعرفة .

3-من المغالطات التي استند الفكر العلماني عليها قياسه التجربة الغربية مع الكنيسة وأسقطها على جميع الأديان ،ومن ثم صدّ عن سبيل الهداية فحرم الشعوب من رحمة الرسالة الإسلامية التي جاءت هداية للناس كافة ، على الرغم من أن الحضارة الغربية ذاتها حسنة من حسنات حضارة الإسلام التي صاغها الدين ، وكان أهم عامل لرقيها.

4- أن وجود العلمانية في البلاد الإسلامية صناعة استعمارية، تحركها يد خفية ، لإبقاء الأمة في حالةمن التنازع بين التيارات الفكرية حتى تكرّس الضعف والتخلف ، فلا مبرر لوجودها في البلاد الإسلامية .وأصبح واجب الدولة الوطنية الأصيلة أن تقتلع جذورها من مجتمعاتنا لكونها تتناقض كليا مع القيم الإسلامية وتجافيها في المصدر والمفاهيم والأهداف والغايات .

5- أن العجز الذي تحتويه المنظومة العلمانية في تصور طبيعة الإنسان والكون والحياة أدى إلى خلل واضح في الحياة الإنسانية ، إذ اتجهت بها إلى الإغراق في المادية التي نتج عنها الشقاء والحروب المدمرة التي تشهدها الإنسانية.

5-العلمانية تأليفة غير منسجمة من الأفكار والنظريات ربطت بخيوط واهية ، تجتمع في تحريض الإنسان على عبادة الجسد ومتطلباته المادية وهي طبيعة يهودية ،وجميع النظريات التي أسست عليها العلمانية لا تكاد تخلو من اللمسة اليهودية ، وهو ما يؤكده تاريخ النظريات ودين أصحابها.

6-أن ما وصله المجتمع العلماني في ميدان تطوير العلوم الكونية في حقيقته هو امتداد للحركة العلمية الإنسانية ، ولا سيما الإسلامية نتيجة اللقاءات الحضارية في فترة ازدهار الحضارة الإسلامية ،غير أن

الغرب لم يكن أمينا في الاقتباس حيث أخذ من المسلمين قوانين المادة،ورفض أن يأخذ المنهج الأخلاقي الذي يضبط العلم المادي .

7-أن الاختلاف في مرجعية حقوق الإنسان بين المنظور الإسلامي ، وبين المنظور الوضعي أفضى إلى اختلاف في تقدير تلك الحقوق ، فالغاية أولا وآخرا من القوانين الوضعية "غاية نفعية" ، فلا تتمتع بصفة "الإلزام والثبات" إلا من حيث سهر الدولة على حمايتها ، بخلاف القوانين الإلهية ف"غايتها أخلاقية "وتتصف "بالإلزام"، فالمرء محاسب عليها أمام خالقه ،ويمارسها برقابة ذاتية،كما تتصف "بالثبات" فلا تسقط بسقوط سلطة ولا تزول بزوال دولة. وعليه فإنه أصبح من الواجب أن نشارك في عملية بناء صرح حقوق الإنسان بمضامين إسلامية.

9- أن التعايش بين الأمم والحضارات والشعوب ممكن، فالحضارة الإسلامية إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة ، حيث أعلنت مبادئها وحدة النوع الإنساني رغم تنوع الأعراف والمنابت ،فهي حضارة منفتحة كل الانفتاح ، وقوتها في انفتاحها ، لا كما يصوّره المتطرفون من مفكري الغرب أن العلاقة مع الإسلام هي علاقة صدام لا غير .

10-أن استرجاع ثقافة الحوار في المجتمعات الإسلامية بين جميع التيارات كفيل بنسج علاقات جديدة قائمة على التسامح وحق الاختلاف، حتى تتمكن دولنا من تجاوز حالة التدمير الذاتي لمقدراتها .

2-التوصيات :

1-نوصي بتوجيه اهتمام الباحثين للتعمق في دراسة المجالات المختلفة للقيم الجوهرية والمتفرعة عنها ، ومن ثم يكون هذا المجهود لدراسة القيم وتجْلِيَتها بمثابة العمل الاستباقي لتحصين الأمةمن الفتن الداخلية والاختراقات الخارجية .

2-نوصي بضرورة اهتمام الباحثين بدراسة موضوع القيم لاكتشاف الحلقة المفقودة لتحقيق التفاعل بين الفرد والقيم ،وتحديد آليات الانتقال بها من النظرية إلى التطبيق ،فنهضة الأمة مرهونة بالاستجابة لمرجعيتها وتفعيل قيمها.

3- على الباحثين الرصد الدائم للشبهات التي تثيرها العلمانية المدعمة ببريق العلم وتحديد مظاهر التأثير ، والعمل الجاد للرد عليها بالاستناد إلى الأصول الإسلامية ، وبخاصة ما تعلق منها بالجوانب العقدية والتصورية .

4- على الباحثين توجيه الاهتمام لدراسة الفكر الغربي بعمق، والاعتراف بنقاط القوة فيه والعمل على الاستفادة منه، فالحكمة ضالة المؤمن، وليس من المعقول رفض الآخر جملة وتفصيلا فالحضارات نمت حين تلاقحت فَقَبِلت أشياء، ورفضت أشياء أخرى، وضبطت ما اقتبست، وذلك شأن كل حضارة قابلة للنضج والتطور.

5-نوجه انتباه الباحثين إلى التفكير في الدراسات التي تضبط المشتركات الإنسانية الفطرية لتخفيف حالة التوتر في العالم ، وحتى تكون منطلقا حقيقيا للتعايش السلمي بين الشعوب.

الفهارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : فهرس الآيات القرآنية (مرتبة حسب ترتيب المصحف الشريف)

الآيـــة	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
اهدِنَاالصِّرَاطَالمستَقِيمَ	**6**	10
سورة البقرة		
وَإِذَاقِيلَلَهُمْلاَتُفْسِدُواْفِيالأَرْضِقَالُوٓاْإِنَّمَانَحْنُمُصْلِحُونَ	11	21
وَإِذَاتَوَلَّىسَعَىفِيالأَرْضِلِيُفْسِدَفِيهَاوَيُهْلِكَالْحَرْثَوَالنَّسْلَ	205	21
إِنِّيجَاعِلٌفِيالأَرْضِخَلِيفَةًقَالُوٓاْأَتَجْعَلُفِيهَامَنيُفْسِدُفِيهَاوَيَسْفِكُ	30	21
وَإِذْقَالَرَبُّكَلِلْمَلاَئِكَةِإِنِّيجَاعِلٌفِيالأَرْضِخَلِيفَةً	30	26
وَإِذْقَالَرَبُّكَلِلْمَلاَئِكَةِإِنِّيجَاعِلٌفِيالأَرْضِخَلِيفَةً	30	28
وَإِذْقَالَرَبُّكَلِلْمَلاَئِكَةِإِنِّيجَاعِلٌفِيالأَرْضِخَلِيفَةً	30	34
قَالُواْسُبْحَانَكَلاَعِلْمَلَنَاإِلاَّمَاعَلَّمْتَنَاإِنَّكَأَنتَالْعَلِيمُالْحَكِيمُ	32	34
وَإِذَاتَوَلَّىسَعَىفِيالأَرْضِلِيُفْسِدَفِيهَاوَيُهْلِكَالْحَرْثَوَالنَّسْلَ	205	35

يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُتِبَعَلَيْكُمُالصِّيَامُكَمَاكُتِبَعَلَىالَّذِينَمِن	183	03
الْحَجُّأَشْهُرٌمَّعْلُومَاتٌفَمَنفَرَضَفِيهِنَّالْحَجَّفَلاَرَفَثَوَلاَفُسُوقَ	197	03
أَفَتُؤْمِنُونَبِبَعْضِالْكِتَابِوَتَكْفُرُونَبِبَعْضٍ...	85	09
وَكَذَلِكَجَعَلْنَاكُمْأُمَّةًوَسَطاًلِّتَكُونُواْشُهَدَاءعَلَىالنَّاسِ	143	10
قُلْهَاتُواْبُرْهَانَكُمْإِنكُنتُمْصَادِقِينَ	111	10
الطَّلاَقُمَرَّتَانِفَإِمْسَاكٌبِمَعْرُوفٍأَوْتَسْرِيحٌبِإِحْسَانٍ	229	12
لاَيُكَلِّفُاللّهُنَفْساًإِلاَّوُسْعَهَالَهَامَاكَسَبَتْوَعَلَيْهَامَااكْتَسَبَتْ	286	12
يُرِيدُاللّهُبِكُمُالْيُسْرَوَلاَيُرِيدُبِكُمُالْعُسْرَ	185	15
لَّيْسَالْبِرَّأَنتُوَلُّواْوُجُوهَكُمْقِبَلَالْمَشْرِقِوَالْمَغْرِبِوَلَكِنَّالْبِرّ	177	17
الَّذِينَيُؤْمِنُونَبِالْغَيْبِوَيُقِيمُونَالصَّلاَةَوَمِمَّارَزَقْنَاهُمْيُنفِقُونَ	3	21
إِنَّاللّهَبِالنَّاسِلَرَؤُوفٌرَّحِيمٌ	143	28
وَإِذْقَالَرَبُّكَلِلْمَلاَئِكَةِإِنِّيجَاعِلٌفِيالأَرْضِخَلِيفَةً	30	30
قَالُواْسُبْحَانَكَلاَعِلْمَلَنَاإِلاَّمَاعَلَّمْتَنَاإِنَّكَأَنتَالْعَلِيمُالْحَكِيمُ	32	31
إِنِّيأَعْلَمُمَالاَتَعْلَمُونَ	30	31
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُتِبَعَلَيْكُمُالصِّيَامُ	183	39
الْحَجُّأَشْهُرٌمَّعْلُومَاتٌفَمَنفَرَضَفِيهِنَّالْحَجَّفَلاَرَفَثَوَلاَفُسُوقَ	197	39

لَيْسَالْبِرَّأَنتُوَلُّواْوُجُوهَكُمْقِبَلَالْمَشْرِقِوَالْمَغْرِبِوَلَكِنَّالْبِرَّ	177	41
الطَّلَاقُمَرَّتَانِفَإِمْسَاكٌبِمَعْرُوفٍأَوْتَسْرِيحٌبِإِحْسَانٍ	229	67
فَإِنْأَرَادَافِصَالاًعَنتَرَاضٍمِّنْهُمَاوَتَشَاوُرٍفَلَاجُنَاحَعَلَيْهِمَا	233	68
وَإِذْأَخَذْنَامِيثَاقَبَنِيإِسْرَائِيلَلَاتَعْبُدُونَإِلَّااللَّهَوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناً	83	70
كل آمَنَبِاللَّهِوَالْيَوْمِالآخِرِوَالْمَلآئِكَةِوَالْكِتَابِوَالنَّبِيِّينَوَآتَىالْمَالَ	177	70
وَإِذْأَخَذْنَامِيثَاقَبَنِيإِسْرَائِيلَلَاتَعْبُدُونَإِلَّااللَّهَوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناً	83	74
وَإِنكَانَذُوعُسْرَةٍفَنَظِرَةٌإِلَىمَيْسَرَةٍوَأَنتَصَدَّقُواْخَيْرٌلَّكُمْ	280	79
كَانَالنَّاسُأُمَّةًوَاحِدَةًفَبَعَثَاللّهُ النَّبِيِّينَمُبَشِّرِينَوَمُنذِرِينَوَأَنزَلَمَعَهُمُ	213	83
قُولُوٓاْآمَنَّابِاللّهِوَمَاأُنزِلَإِلَيْنَاوَمَاأُنزِلَإِلَىإِبْرَاهِيمَوَإِسْمَاعِيلَ	136	87
لاَإِكْرَاهَفِيالدِّينِقَدتَّبَيَّنَالرُّشْدُمِنَالْغَيِّفَمَنْيَكْفُرْبِالطَّاغُوتِ	256	87
الشَّهْرُالْحَرَامُبِالشَّهْرِالْحَرَامِوَالْحُرُمَاتُقِصَاصٌفَمَنِاعْتَدَى	194	88
وَإِنكُنتُمْعَلَىسَفَرٍوَلَمْتَجِدُواْكَاتِباًفَرِهَانٌمَّقْبُوضَةٌ	283	96
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوٓاْإِذَاتَدَايَنتُمبِدَيْنٍإِلَىأَجَلٍمُّسَمًّىفَاكْتُبُوهُ	282	97
وَإِنكَانَذُوعُسْرَةٍفَنَظِرَةٌإِلَىمَيْسَرَةٍوَأَنتَصَدَّقُواْخَيْرٌلَّكُمْ	280	98
يُؤْتِيالْحِكْمَةَمَنيَشَاءُوَمَنيُؤْتَالْحِكْمَةَفَقَدْأُوتِيَخَيْراً كَثِيراً	269	10
قُلْنَااهْبِطُواْمِنْهَاجَمِيعاًفَإِمَّايَأْتِيَنَّكُممِّنِّيهُدًىفَمَنتَبِعَهُدَايَفَلاَ	38	16

وَعَلَّمَآدَمَالأَسْمَاءَكُلَّهَاثُمَّعَرَضَهُمْعَلَىالْمَلاَئِكَةِفَقَالَ	31	16
وَعَلَّمَآدَمَالأَسْمَاءَكُلَّهَاثُمَّعَرَضَهُمْعَلَىالْمَلاَئِكَةِفَقَالَ	31	17
أَلَمْتَرَإِلَىالْمَلإِمِنبَنِيإِسْرَائِيلَمِنبَعْدِمُوسَىإِذْقَالُواْلِنَبِيٍّلَّهُمُ	246	19
وَاتَّقُواْيَوْماًتُرْجَعُونَفِيهِإِلَىاللّهِثُمَّتُوَفَّىكُلُّنَفْسٍمَّاكَسَبَتْ	281	20
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللّهَوَذَرُواْمَابَقِيَمِنَالرِّبَاإِنكُنتُممُّؤْمِنِينَ	278	22
وَاتَّقُواْاللّهَوَيُعَلِّمُكُمُاللّهُوَاللّهُبِكُلِّشَيْءٍعَلِيمٌ	282	26
إِنَّاللّهَيُحِبُّالتَّوَّابِينَوَيُحِبُّالْمُتَطَهِّرِينَ	222	30
أَفَتُؤْمِنُونَبِبَعْضِالْكِتَابِوَتَكْفُرُونَبِبَعْضٍفَمَاجَزَاءمَنيَفْعَلُذَلِكَ	85	16
وَلاَيَزَالُونَيُقَاتِلُونَكُمْحَتَّىَيَرُدُّوكُمْعَندِينِكُمْإِنِاسْتَطَاعُواْ	217	16
وَدَّكَثِيرٌّمِّنْأَهْلِالْكِتَابِلَوْيَرُدُّونَكُممِّنبَعْدِإِيمَانِكُمْكُفَّاراًحَسَداً	109	17
أَفَتُؤْمِنُونَبِبَعْضِالْكِتَابِوَتَكْفُرُونَبِبَعْضٍفَمَاجَزَاءمَنيَفْعَلُذَلِكَ	85	82
وَإِذْيَرْفَعُإِبْرَاهِيمُالْقَوَاعِدَمِنَالْبَيْتِوَإِسْمَاعِيلُرَبَّنَاتَقَبَّلْمِنَّا	127	93
وَلَنتَرْضَىعَنكَالْيَهُودُوَلاَالنَّصَارَىحَتَّىتَتَّبِعَمِلَّتَهُمْقُلْإِنَّهُدَى	120	97
وَقَالُواْلَنيَدْخُلَالْجَنَّةَإِلاَّمَنكَانَهُوداًأَوْنَصَارَىتِلْكَأَمَانِيُّهُمْ	111	05
قُلْنَااهْبِطُواْمِنْهَاجَمِيعاًفَإِمَّايَأْتِيَنَّكُممِّنِّيهُدًىفَمَنتَبِعَهُدَايَ	38	16
يَمْحَقُاللّهُالرِّبَاوَيُرْبِيالصَّدَقَاتِوَاللّهُلاَيُحِبُّكُلَّكَفَّارٍأَثِيمٍ	276	22

لاَيُكَلِّفُاللّهُنَفْساًإِلاَّوُسْعَهَا	286	26
فِيقُلُوبِهِممَّرَضٌفَزَادَهُمُاللّهُمَرَضاًوَلَهُمعَذَابٌأَلِيمٌبِمَاكَانُوا	10	67
وَإِذَاقِيلَلَهُمُاتَّبِعُوامَاأَنزَلَاللّهُقَالُواْبَلْنَتَّبِعُمَاأَلْفَيْنَاعَلَيْهِآبَاءنَا	170	70
وَلَئِنْأَتَيْتَالَّذِينَأُوْتُواْالْكِتَابَبِكُلِّآيَةٍمَّاتَبِعُواْقِبْلَتَكَوَمَاأَنتَبِتَابِعٍ	145	70
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ	146	71
"وَإِنتُبْدُواْمَافِيأَنفُسِكُمْأَوْتُخْفُوهُيُحَاسِبْكُمبِهِاللّهُ	284	95
لاَإِكْرَاهَفِيالدِّينِقَدتَّبَيَّنَالرُّشْدُمِنَالْغَيِّفَمَنْيَكْفُرْبِالطَّاغُوتِ	256	97
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ	79	03
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللّهَوَذَرُواْمَابَقِيَمِنَالرِّبَاإِنكُنتُممُّؤْمِنِينَ	278	56
وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ	280	59
وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ	120	37
۞لَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ	251	89
لاَإِكْرَاهَفِيالدِّينِقَدتَّبَيَّنَالرُّشْدُمِنَالْغَيِّفَمَنْيَكْفُرْبِالطَّاغُوتِ	256	09
إِنَّمَاحَرَّمَعَلَيْكُمُالْمَيْتَةَوَالدَّمَوَلَحْمَالْخِنزِيرِوَمَاأُهِلَّبِهِلِغَيْرِاللّهِ	73	18
قُلْهَاتُواْبُرْهَانَكُمْإِنكُنتُمْصَادِقِينَ	111	32
وَإِذْقُلْتُمْيَامُوسَىلَننُّؤْمِنَلَكَحَتَّىنَرَىاللَّهَجَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ	55	47

وَإِذْقُلْتُمْيَامُوسَىلَنَنَّصْبِرَعَلَىطَعَامٍوَاحِدٍفَادْعُلَنَارَبَّكَيُخْرِجْلَنَا	61	47
وَعَلَّمَآدَمَالأَسْمَاءَكُلَّهَاثُمَّعَرَضَهُمْعَلَىالْمَلاَئِكَةِفَقَالَ	31	52
قُلْنَااهْبِطُوْامِنْهَاجَمِيعاًفَإِمَّايَأْتِيَنَّكُممِّنِّيهُدًىفَمَنتَبِعَهُدَايَ	38	53
سورة آل عمران		
وَلْتَكُنمِّنكُمْأُمَّةٌيَدْعُونَإِلَىالْخَيْرِوَيَأْمُرُونَبِالْمَعْرُوفِ	140	21
وَلِلّهِمُلْكُالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَاللّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ	189	59
كُنتُمْخَيْرَأُمَّةٍأُخْرِجَتْلِلنَّاسِتَأْمُرُونَبِالْمَعْرُوفِ	110	95
مَاكَانَلِبَشَرٍأَنيُؤْتِيَهُاللّهُالْكِتَابَوَالْحُكْمَوَالنُّبُوَّةَثُمَّيَقُولَلِلنَّاسِ	79	03
أَفَغَيْرَدِينِاللّهِيَبْغُونَوَلَهُأَسْلَمَمَنفِيالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِ	83	37
وَاعْتَصِمُواْبِحَبْلِاللّهِجَمِيعاًوَلاَتَفَرَّقُواْوَاذْكُرُواْنِعْمَتَاللّهِعَلَيْكُمْ	103	47
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللّهَحَقَّتُقَاتِهِوَلاَتَمُوتُنَّإِلاَّوَأَنتُممُّسْلِمُونَ	102	55
الَّذِينَيُنفِقُونَفِيالسَّرَّاءِوَالضَّرَّاءِوَالْكَاظِمِينَالْغَيْظَوَالْعَافِينَعَنِالنَّاسِ	134	79
قُلْيَاأَهْلَالْكِتَابِتَعَالَوْاْإِلَىكَلَمَةٍسَوَاءٍبَيْنَنَاوَبَيْنَكُمْأَلاَّنَعْبُدَ إِلاَّاللّهَ	64	87
وَلاَيَحْسَبَنَّالَّذِينَيَبْخَلُونَبِمَاآتَاهُمُاللّهُمِنفَضْلِهِهُوَخَيْراًلَّهُمْ	180	94
الَّذِينَيُنفِقُونَفِيالسَّرَّاءِوَالضَّرَّاءِوَالْكَاظِمِينَالْغَيْظَوَالْعَافِينَعَنِالنَّاسِ	134	95
وَالرَّاسِخُونَفِيالْعِلْمِيَقُولُونَآمَنَّابِهِكُلٌّمِّنْعِندِرَبِّنَا	7	13
قَدْخَلَتْمِنقَبْلِكُمْسُنَنٌفَسِيرُواْفِيالأَرْضِفَانْظُرُواْكَيْفَكَانَعَاقِبَةُ	137	16

الَّذِينَيَذْكُرُونَاللَّهَقِيَاماًوَقُعُوداًوَعَلَىجُنُوبِهِمْوَيَتَفَكَّرُونَ	191	18
أَلَمْتَرَإِلَىالَّذِينَأُوتُواْنَصِيباًمِّنَالْكِتَابِيُدْعَوْنَإِلَىكِتَابِاللّهِ	23	19
زُيِّنَلِلنَّاسِحُبُّالشَّهَوَاتِمِنَالنِّسَاءوَالْبَنِينَوَالْقَنَاطِيرِالْمُقَنطَرَةِ	14	26
وَمَنيَبْتَغِغَيْرَالإِسْلاَمِديناًفَلَنيُقْبَلَمِنْهُوَهُوَفِيالآخِرَةِ	85	15
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوَاْإِنتُطِيعُواْفَرِيقاًمِّنَالَّذِينَأُوتُواْالْكِتَابَيَرُدُّوكُم	100	16
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُوَاْإِنتُطِيعُواْالَّذِينَكَفَرُواْيَرُدُّوكُمْعَلَىأَعْقَابِكُمْ	149	16
هُمْلِلْكُفْرِيَوْمَئِذٍأَقْرَبُمِنْهُمْلِلإِيمَانِيَقُولُونَبِأَفْوَاهِهِم	167	86
هَاأَنتُمْهَؤُلاءِحَاجَجْتُمْفِيمَالَكُمبِهِعِلْمٌفَلِمَتُحَآجُّونَ	66	11
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ	71	19
هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ	66	68
مَاكَانَإِبْرَاهِيمُيَهُودِيّاًوَلاَنَصْرَانِيّاًوَلَكِنكَانَحَنِيفاًمُّسْلِماً	67	68
وَكَأَيِّنمِّنَّبِيٍّقَاتَلَمَعَهُرِبِّيُّونَكَثِيرٌفَمَاوَهَنُواْلِمَاأَصَابَهُمْفِيسَبِيلِ	146	94
شَهِدَاللّهُأَنَّهُلاَإِلَهَإِلاَّهُوَوَالْمَلاَئِكَةُوَأُوْلُواْالْعِلْمِ	18	98
خَيْرَأُمَّةٍأُخْرِجَتْلِلنَّاسِ	110	65
الَّذِينَيَذْكُرُونَاللَّهَقِيَاماًوَقُعُوداًوَعَلَىجُنُوبِهِمْوَيَتَفَكَّرُونَ	191	77
هُوَالَّذِيأَنزَلَعَلَيْكَالْكِتَابَمِنْهُآيَاتٌمُّحْكَمَاتٌهُنَّأُمُّالْكِتَابِ	7	42

قُلْيَاأَهْلَالْكِتَابِتَعَالَوْاْإِلَىكَلَمَةٍسَوَاءٍبَيْنَنَاوَبَيْنَكُمْأَلاَّنَعْبُدَإِلاَّاللّهَ	64	52
وَاعْتَصِمُواْبِحَبْلِاللّهِجَمِيعاًوَلاَتَفَرَّقُواْوَاذْكُرُواْنِعْمَتَاللّهِعَلَيْكُمْ	103	65
إِنيَمْسَسْكُمْقَرْحٌفَقَدْمَسَّالْقَوْمَقَرْحٌمِّثْلُهُوَتِلْكَالأَيَّامُنُدَاوِلُهَابَيْنَ	140	69
يَاأَهْلَالْكِتَابِلِمَتُحَآجُّونَفِيإِبْرَاهِيمَ	65	09
قُلْآمَنَّابِاللّهِوَمَاأُنزِلَعَلَيْنَاوَمَاأُنزِلَعَلَىإِبْرَاهِيمَوَإِسْمَاعِيلَ	84	09
لَيْسُواْسَوَاءً مِّنْأَهْلِالْكِتَابِأُمَّةٌقَآئِمَةٌيَتْلُونَآيَاتِاللّهِآنَاءَاللَّيْلِ...	113	30
سورة النساء		
وَخُلِقَالإِنسَانُضَعِيفاً	28	35
وَخُلِقَالإِنسَانُضَعِيفاً	28	42
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْلِيالأَمْرِمِنكُمْ	59	01
وَعَاشِرُوهُنَّبِالْمَعْرُوفِفَإِنكَرِهْتُمُوهُنَّفَعَسَىأَنتَكْرَهُواْشَيْئاً	19	16
يَاأَهْلَالْكِتَابِلاَتَغْلُواْفِيدِينِكُمْوَلاَتَقُولُواْعَلَىاللّهِإِلاَّالْحَقِّ	171	28
وَكَيْفَتَأْخُذُونَهُوَقَدْأَفْضَىبَعْضُكُمْإِلَىبَعْضٍ	21	67
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْلاَيَحِلُّلَكُمْأَنتَرِثُواْالنِّسَاءَكَرْهاًوَلاَتَعْضُلُوهُنَّ	19	67
الرِّجَالُقَوَّامُونَعَلَىالنِّسَاءِبِمَافَضَّلَاللّهُبَعْضَهُمْعَلَىبَعْضٍوَبِمَا	34	68
وَإِنْخِفْتُمْأَلاَّتُقْسِطُواْفِيالْيَتَامَىفَانكِحُواْمَاطَابَلَكُممِّنَالنِّسَاء	3	69
وَإِذَاحَضَرَالْقِسْمَةَأُوْلُواْالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينُفَارْزُقُوهُم مِّنْهُ	8	71

وَاعْبُدُواْاللّهَوَلاَتُشْرِكُواْبِهِشَيْئاًوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًوَبِذِيالْقُرْبَى	36	73
وَاعْبُدُواْاللّهَوَلاَتُشْرِكُواْبِهِشَيْئاًوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًوَبِذِيالْقُرْبَى	36	75
وَإِذَاحَضَرَالْقِسْمَةَأُوْلُواْالْقُرْبَىوَالْيَتَامَىوَالْمَسَاكِينُفَارْزُقُوهُممِّنْهُ	8	77
إِنَّالَّذِينَيَأْكُلُونَأَمْوَالَالْيَتَامَىظُلْماًإِنَّمَايَأْكُلُونَفِيبُطُونِهِمْنَاراً	10	77
وَابْتَلُواْالْيَتَامَىحَتَّىإِذَابَلَغُواْالنِّكَاحَفَإِنْآنَسْتُممِّنْهُمْرُشْداً	6	77
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْلاَتَتَّخِذُواْالْكَافِرِينَأَوْلِيَاءمِندُونِالْمُؤْمِنِينَ	144	82
يَاأَيُّهَاالنَّاسُاتَّقُواْرَبَّكُمُالَّذِيخَلَقَكُممِّننَّفْسٍوَاحِدَةٍوَخَلَقَمِنْهَا	1	84
إِلاَّالَّذِينَيَصِلُونَإِلَىقَوْمٍبَيْنَكُمْوَبَيْنَهُممِّيثَاقٌأَوْجَآؤُوكُمْ	9	86
سَتَجِدُونَآخَرِينَيُرِيدُونَأَنيَأْمَنُوكُمْوَيَأْمَنُواقَوْمَهُمْكُلَّمَارُدُّوَاْ	91	86
إِلاَّالَّذِينَيَصِلُونَإِلَىقَوْمٍبَيْنَكُمْوَبَيْنَهُممِّيثَاقٌأَوْجَآؤُوكُمْحَصِرَتْ	9	16
سَتَجِدُونَآخَرِينَيُرِيدُونَأَنيَأْمَنُوكُمْوَيَأْمَنُواقَوْمَهُمْكُلَّمَارُدُّوَاْ	91	16
وَلاَتُؤْتُواْالسُّفَهَاءأَمْوَالَكُمُالَّتِيجَعَلَاللّهُلَكُمْقِيَاماً	5	95
إِنَّاللّهَيَأْمُرُكُمْأَنتُؤَدُّواْالأَمَانَاتِإِلَىأَهْلِهَاوَإِذَاحَكَمْتُم	58	98
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْلِيالأَمْرِمِنكُمْ	59	03
فَلاَوَرَبِّكَلاَيُؤْمِنُونَحَتَّىيُحَكِّمُوكَفِيمَاشَجَرَبَيْنَهُمْثُمَّلاَيَجِدُواْ	65	03
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْأَطِيعُواْاللّهَوَأَطِيعُواْالرَّسُولَوَأُوْلِيالأَمْرِمِنكُمْ	59	04

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ	59	11
أَلَمْتَرَإِلَىالَّذِينَيَزْعُمُونَأَنَّهُمْآمَنُواْبِمَاأُنزِلَإِلَيْكَ	60	14
فَلاَوَرَبِّكَلاَيُؤْمِنُونَحَتَّىيُحَكِّمُوكَفِيمَاشَجَرَبَيْنَهُمْ	65	15
مُّذَبْذَبِينَبَيْنَذَلِكَلاَإِلَىهَؤُلاءِوَلاَإِلَىهَؤُلاء	143	85
يَاأَيُّهَاالنَّاسُقَدْجَاءكُمبُرْهَانٌمِّنرَّبِّكُمْوَأَنزَلْنَاإِلَيْكُمْنُوراًمُّبِيناً	174	08
وَإِذَاجَاءهُمْأَمْرٌمِّنَالأَمْنِأَوِالْخَوْفِأَذَاعُواْبِهِوَلَوْرَدُّوهُ	83	14
فَلاَوَرَبِّكَلاَيُؤْمِنُونَحَتَّىيُحَكِّمُوكَفِيمَاشَجَرَبَيْنَهُمْ	65	34
إِنَّاللّهَيَأْمُرُكُمْأَنتُؤدُّواْالأَمَانَاتِإِلَىأَهْلِهَا	58	46
إِنَّاللّهَيَأْمُرُكُمْأَنتُؤدُّواْالأَمَانَاتِإِلَىأَهْلِهَا	58	58
إِنَّالَّذِينَتَوَفَّاهُمُالْمَلآئِكَةُظَالِمِيأَنْفُسِهِمْقَالُواْفِيمَكُنتُمْقَالُواْ	97	97
رُّسُلاًمُّبَشِّرِينَوَمُنذِرِينَلِئَلاَّيَكُونَلِلنَّاسِعَلَىاللّهِحُجَّةٌبَعْدَالرُّسُلِ	165	11
وَكَانَاللّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍمُّقِيتاً	85	83
وَلاَتُؤْتُواْالسُّفَهَاءأَمْوَالَكُمُالَّتِيجَعَلَاللّهُلَكُمْقِيَاماًوَارْزُقُوهُمْفِيهَا	5	34
إِنَّاأَنزَلْنَاإِلَيْكَالْكِتَابَبِالْحَقِّلِتَحْكُمَبَيْنَالنَّاسِبِمَاأَرَاكَاللّهُ	105	34
فَلاَوَرَبِّكَلاَيُؤْمِنُونَحَتَّىيُحَكِّمُوكَفِيمَاشَجَرَبَيْنَهُمْثُمَّلاَيَجِدُواْ	65	38
يَاأَيُّهَاالنَّاسُاتَّقُواْرَبَّكُمُالَّذِيخَلَقَكُممِّننَّفْسٍوَاحِدَةٍوَخَلَقَمِنْهَا	1	22

يَاأَيُّهَاالنَّاسُاتَّقُواْرَبَّكُمُالَّذِيخَلَقَكُممِّننَّفْسٍوَاحِدَةٍوَخَلَقَمِنْهَا	1	22
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَبِالْقِسْطِشُهَدَاءلِلّهِوَلَوْ	135	29
سـورة المائدة		
فَطَوَّعَتْلَهُنَفْسُهُقَتْلَأَخِيهِفَقَتَلَهُفَأَصْبَحَمِنَالْخَاسِرِينَ	30	39
فَأَصْبَحَمِنَالنَّادِمِينَ	31	41
الْيَوْمَأَكْمَلْتُلَكُمْدِينَكُمْوَأَتْمَمْتُعَلَيْكُمْنِعْمَتِيوَرَضِيتُلَكُمُ	3	95
وَأَنِاحْكُمبَيْنَهُمبِمَاأَنزَلَاللّهُوَلاَتَتَّبِعْأَهْوَاءهُمْوَاحْذَرْهُمْ	49	10
وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوَىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِ	2	74
مِنْأَجْلِذَلِكَكَتَبْنَاعَلَىبَنِيإِسْرَائِيلَأَنَّهُمَنقَتَلَنَفْساًبِغَيْرِنَفْسٍ...	32	79
وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوَىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِ	2	88
الْيَوْمَأُحِلَّلَكُمُالطَّيِّبَاتُوَطَعَامُالَّذِينَأُوتُواْالْكِتَابَحِلٌّلَّكُمْ	5	89
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَلِلّهِشُهَدَاءبِالْقِسْطِ	8	89
وَلِلّهِمُلْكُالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَمَابَيْنَهُمَايَخْلُقُمَايَشَاءُ	17	93
لِلّهِمُلْكُالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَمَافِيهِنَّوَهُوَعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ	120	94
وَالسَّارِقُوَالسَّارِقَةُفَاقْطَعُواأَيْدِيَهُمَاجَزَاءبِمَاكَسَبَا	38	96
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْأَوْفُواْبِالْعُقُودِأُحِلَّتْلَكُمبَهِيمَةُالأَنْعَامِإِلاَّمَايُتْلَى	1	98

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوَىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِ	2	99
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَلِلّهِشُهَدَاءبِالْقِسْطِ	8	05
الْيَوْمَأَكْمَلْتُلَكُمْدِينَكُمْوَأَتْمَمْتُعَلَيْكُمْنِعْمَتِيوَرَضِيتُلَكُمُ	3	11
أَفَحُكْمَالْجَاهِلِيَّةِيَبْغُونَوَمَنْأَحْسَنُمِنَاللّهِحُكْماًلِّقَوْمٍيُوقِنُون	50	18
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَلِلّهِشُهَدَاءبِالْقِسْطِ	8	54
وَتَعَاوَنُواْعَلَىالْبرِّوَالتَّقْوَىوَلاَتَعَاوَنُواْعَلَىالإِثْمِوَالْعُدْوَانِ	2	56
وَأَنِاحْكُمبَيْنَهُمبِمَاأَنزَلَاللّهُوَلاَتَتَّبِعْأَهْوَاءهُمْوَاحْذَرْهُمْأَنيَفْتِنُوكَ	49	35
وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ	2	88
وَقَالَتِالْيَهُودُيَدُاللّهِمَغْلُولَةٌغُلَّتْأَيْدِيهِمْوَلُعِنُواْبِمَاقَالُواْ	64	92
لِكُلٍّجَعَلْنَامِنكُمْشِرْعَةًوَمِنْهَاجاًوَلَوْشَاءاللّهُلَجَعَلَكُمْأُمَّةًوَاحِدَةً	48	96
لِكُلٍّجَعَلْنَامِنكُمْشِرْعَةًوَمِنْهَاجاً	48	05
وَلَكِنلِّيَبْلُوَكُمْفِيمَاآتَاكُمفَاسْتَبِقُواالْخَيْرَاتِإِلَىاللهِمَرْجِعُكُمْ	48	12
لاَيُؤَاخِذُكُمُاللّهُبِاللَّغْوِفِيأَيْمَانِكُمْوَلَكِنيُؤَاخِذُكُمبِمَاعَقَّدتُّمُ	89	17
الْيَوْمَأُحِلَّلَكُمُالطَّيِّبَاتُوَطَعَامُالَّذِينَأُوتُواْالْكِتَابَحِلٌّلَّكُمْ	5	21
وَلاَيَجْرِمَنَّكُمْشَنَآنُقَوْمٍأَنصَدُّوكُمْعَنِالْمَسْجِدِالْحَرَامِأَنتَعْتَدُواْ	2	25
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْكُونُواْقَوَّامِينَلِلّهِشُهَدَاءبِالْقِسْطِ	8	29

يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْمَنيَرْتَدَّمِنكُمْعَندِينِهِفَسَوْفَيَأْتِياللّهُبِقَوْمٍ	54	54

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الأنعام		
قُلْإِنَّصَلاَتِيوَنُسُكِيوَمَحْيَايَوَمَمَاتِيلِلّهِرَبِّالْعَالَمِينَ	161	15
قُلْإِنَّصَلاَتِيوَنُسُكِيوَمَحْيَايَوَمَمَاتِيلِلّهِرَبِّالْعَالَمِينَ	162	62
مَّافَرَّطْنَافِيالكِتَابِمِنشَيْءٍثُمَّإِلَىرَبِّهِمْيُحْشَرُونَ	38	108
وَهُوَالَّذِيخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضَبِالْحَقِّوَيَوْمَيَقُولُكُنفَيَكُونُ	73	121
وَهُوَالَّذِيجَعَلَكُمْخَلاَئِفَالأَرْضِوَرَفَعَبَعْضَكُمْفَوْقَبَعْضٍدَرَجَاتٍ	165	194
قُلْإِنَّصَلاَتِيوَنُسُكِيوَمَحْيَايَوَمَمَاتِيلِلّهِرَبِّالْعَالَمِينَ	162	197
فَلَمَّانَسُواْمَاذُكِّرُواْبِهِفَتَحْنَاعَلَيْهِمْأَبْوَابَكُلِّشَيْءٍحَتَّىإِذَافَرِحُواْ	44	211
وَمَاالْحَيَاةُالدُّنْيَاإِلاَّلَعِبٌوَلَهْوٌوَلَلدَّارُالآخِرَةُخَيْرٌلِّلَّذِينَيَتَّقُونَأَفَلاَتَعْقِلُونَ	32	222
وَهُوَالَّذِيأَنزَلَمِنَالسَّمَاءِمَاءًفَأَخْرَجْنَابِهِنَبَاتَكُلِّشَيْءٍفَأَخْرَجْنَامِنْهُ	99	230
وَمَامِندَآبَّةٍفِيالأَرْضِوَلاَطَائِرٍيَطِيرُبِجَنَاحَيْهِإِلاَّأُمَمٌأَمْثَالُكُم	38	311
قُلْإِنَّصَلاَتِيوَنُسُكِيوَمَحْيَايَوَمَمَاتِيلِلّهِرَبِّالْعَالَمِينَ	162	338
لاَّتُدْرِكُهُالأَبْصَارُوَهُوَيُدْرِكُالأَبْصَارَوَهُوَاللَّطِيفُالْخَبِيرُ	103	406
وَمَاالْحَيَاةُالدُّنْيَاإِلاَّلَعِبٌوَلَهْوٌوَلَلدَّارُالآخِرَةُخَيْرٌلِّلَّذِينَيَتَّقُونَأَفَلاَتَعْقِلُونَ	32	408
قُلْفَلِلّهِالْحُجَّةُالْبَالِغَةُفَلَوْشَاءَلَهَدَاكُمْأَجْمَعِينَ	149	408
وَقَالُواْلَوْلاَأُنزِلَعَلَيْهِمَلَكٌوَلَوْأَنزَلْنَامَلَكاًلَّقُضِيَالأَمْرُثُمَّلاَيُنظَرُونَ.	9/8	418
وَأَنَّهَـذَاصِرَاطِيمُسْتَقِيماًفَاتَّبِعُوهُوَلاَتَتَّبِعُواْالسُّبُلَفَتَفَرَّقَبِكُمْعَنسَبِيلِهِ	153	424
أُوْلَئِكَالَّذِينَهَدَىاللّهُفَبِهُدَاهُمُاقْتَدِهْقُللاَّأَسْأَلُكُمْعَلَيْهِأَجْراً	90	445
وَمَامِندَآبَّةٍفِيالأَرْضِوَلاَطَائِرٍيَطِيرُبِجَنَاحَيْهِإِلاَّأُمَمٌأَمْثَالُكُم	38	445
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ	148	469
لِئَلاَّيَكُونَلِلنَّاسِعَلَىاللّهِحُجَّةٌبَعْدَالرُّسُلِ	165	473
قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ	91	515
فَمَنيُرِدِاللّهُأَنيَهْدِيَهُيَشْرَحْصَدْرَهُلِلإِسْلاَمِوَمَنيُرِدْأَنيُضِلَّهُيَجْعَلْ	125	584
وَجَعَلُواْلِلّهِمِمَّاذَرَأَمِنَالْحَرْثِوَالأَنْعَامِنَصِيباً	136	632
وَأَنَّهَـذَاصِرَاطِيمُسْتَقِيماًفَاتَّبِعُوهُوَلاَتَتَّبِعُواْالسُّبُلَفَتَفَرَّقَبِكُمْ	153	654

فَلَمَّانَسُواْمَاذُكِّرُواْبِهِۦفَتَحۡنَاعَلَيۡهِمۡأَبۡوَابَكُلِّشَيۡءٍحَتَّىٰٓإِذَافَرِحُواْبِمَا	44	678
وَلَاتَسُبُّواْٱلَّذِينَيَدۡعُونَمِندُونِٱللَّهِفَيَسُبُّواْٱللَّهَعَدۡوَۢابِغَيۡرِعِلۡمٖۚكَذَٰلِكَ	108	710
وَأَنَّهَٰذَاصِرَاطِيمُسۡتَقِيمٗافَٱتَّبِعُوهُۖوَلَاتَتَّبِعُواْٱلسُّبُلَفَتَفَرَّقَبِكُمۡۚ	153	750
سورة الأعراف		
وَإِذۡأَخَذَرَبُّكَمِنۢبَنِيٓءَادَمَمِنظُهُورِهِمۡذُرِّيَّتَهُمۡوَأَشۡهَدَهُمۡعَلَىٰٓ	172	53
لَقَدۡأَرۡسَلۡنَانُوحًاإِلَىٰقَوۡمِهِۦفَقَالَيَٰقَوۡمِٱعۡبُدُواْٱللَّهَمَالَكُممِّنۡ	59	62
وَلُوطًاإِذۡقَالَلِقَوۡمِهِۦٓأَتَأۡتُونَٱلۡفَٰحِشَةَمَاسَبَقَكُمبِهَامِنۡأَحَدٖمِّن	81/80	63
وَإِلَىٰمَدۡيَنَأَخَاهُمۡشُعَيۡبٗاقَالَيَٰقَوۡمِٱعۡبُدُواْٱللَّهَ	85	63
وَلِلَّهِٱلۡأَسۡمَآءُٱلۡحُسۡنَىٰفَٱدۡعُوهُبِهَاوَذَرُواْٱلَّذِينَيُلۡحِدُونَفِيٓأَسۡمَٰٓئِهِۦ	180	64
قَالَمَامَنَعَكَأَلَّاتَسۡجُدَإِذۡأَمَرۡتُكَۖقَالَأَنَاْخَيۡرٞمِّنۡهُخَلَقۡتَنِي	12	32
وَإِذۡأَخَذَرَبُّكَمِنۢبَنِيٓءَادَمَمِنظُهُورِهِمۡذُرِّيَّتَهُمۡوَأَشۡهَدَهُمۡعَلَىٰٓ	172	37
وَلَاتُسۡرِفُوٓاْإِنَّهُۥلَايُحِبُّٱلۡمُسۡرِفِينَ	31	94
أَلَالَهُٱلۡخَلۡقُوَٱلۡأَمۡرُتَبَارَكَٱللَّهُرَبُّٱلۡعَٰلَمِينَ	54	00
أَلَالَهُٱلۡخَلۡقُوَٱلۡأَمۡرُتَبَارَكَٱللَّهُرَبُّٱلۡعَٰلَمِينَ	54	02
رَبِّأَرِنِيٓأَنظُرۡإِلَيۡكَۚقَالَلَنتَرَانِيوَلَٰكِنِٱنظُرۡإِلَىٱلۡجَبَلِ	143	21
يَٰبَنِيٓءَادَمَخُذُواْزِينَتَكُمۡعِندَكُلِّمَسۡجِدٖوَكُلُواْوَٱشۡرَبُواْ	31	22
يَٰبَنِيٓءَادَمَقَدۡأَنزَلۡنَاعَلَيۡكُمۡلِبَاسٗايُوَٰرِيسَوۡءَٰتِكُمۡوَرِيشٗاۖوَلِبَاسُ	26	22

وَلَوْأَنَّأَهْلَالْقُرىآمَنُواْوَاتَّقَواْلَفَتَحْنَاعَلَيْهِمبَرَكَاتٍمِّنَالسَّمَاءِ	96	23
يَابَنِيآدَمَقَدْأَنزَلْنَاعَلَيْكُمْلِبَاسايُوَارِيسَوْءَاتِكُمْوَرِيشاًوَلِبَاسُ	26	29
يَابَنِيآدَمخُذُواْزِينَتَكُمْعِندَكُلِّمَسْجِدٍوَكُلُواْوَاشْرَبُواْ	31	29
قُلْمَنْحَرَّمَزِينَةَاللّهِالَّتِيأَخْرَجَلِعِبَادِهِوَالْطَّيِّبَاتِمِنَالرِّزْقِ	32	32
وَلَقَدْذَرَأْنَالِجَهَنَّمَكَثِيراًمِّنَالْجِنِّوَالإِنسِلَهُمْقُلُوبٌلاَّيَفْقَهُونَبِهَا	179	06
قَالَفَبِمَاأَغْوَيْتَنِيلأَقْعُدَنَّلَهُمْصِرَاطَكَالْمُسْتَقِيمَ	16	17
وَلَوْأَنَّأَهْلَالْقُرىآمَنُواْوَاتَّقَواْلَفَتَحْنَاعَلَيْهِمبَرَكَاتٍمِّنَالسَّمَاءِ	96	23
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ	32	28
وَإِذْأَخَذَرَبُّكَمِنبَنِيآدَمِنظُهُورِهِمْذُرِّيَّتَهُمْوَأَشْهَدَهُمْعَلَى	172	10
وَلَقَدْمَكَّنَّاكُمْفِيالأَرْضِوَجَعَلْنَالَكُمْفِيهَامَعَايِشَقَلِيلاًمَّاتَشْكُرُونَ	10	55
قُلْمَنْحَرَّمَزِينَةَاللّهِالَّتِيأَخْرَجَلِعِبَادِهِوَالْطَّيِّبَاتِمِنَالرِّزْقِ	32	03
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ	32	04
يَابَنِيآدَمخُذُواْزِينَتَكُمْعِندَكُلِّمَسْجِدٍوَكُلُواْوَاشْرَبُواْ	31	05
إِنَّرَبَّكُمُاللّهُالَّذِيخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضَفِيسِتَّةِأَيَّامٍثُمَّاسْتَوَى	54	33
كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ	179	68
وَيَاآدَمُاسْكُنْأَنتَوَزَوْجُكَالْجَنَّةَفَكُلاَمِنْحَيْثُشِئْتُمَا	19	17

يَابَنِيآدَمَقَدْأَنزَلْنَاعَلَيْكُمْلِبَاساًيُوَارِيسَوْءَاتِكُمْوَرِيشاًوَلِبَاسُ	26	55
سورة الأنفال		
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاسْتَجِيبُواْلِلّهِوَلِلرَّسُولِإِذَادَعَاكُملِمَايُحْيِيكُمْ	24	42
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاسْتَجِيبُواْلِلّهِوَلِلرَّسُولِإِذَادَعَاكُملِمَايُحْيِيكُمْ	24	90
وَاعْلَمُواْأَنَّمَاغَنِمْتُممِّنشَيْءٍفَأَنَّلِلّهِخُمُسَهُوَلِلرَّسُولِوَلِذِيالْقُرْبَى	41	72
وَاعْلَمُواْأَنَّمَاغَنِمْتُممِّنشَيْءٍفَأَنَّلِلّهِخُمُسَهُوَلِلرَّسُولِوَلِذِيالْقُرْبَى	41	78
هُوَالَّذِيأَيَّدَكَبِنَصْرِهِوَبِالْمُؤْمِنِينَ.وَأَلَّفَبَيْنَقُلُوبِهِمْ	63/62	81
وَالَّذِينَكَفَرُواْبَعْضُهُمْأَوْلِيَاءبَعْضٍإِلاَّتَفْعَلُوهُتَكُنفِتْنَةٌفِيالأَرْضِ	73	82
وَإِمَّاتَخَافَنَّمِنقَوْمٍخِيَانَةًفَانبِذْإِلَيْهِمْعَلَىسَوَاءٍإِنَّاللّهَلاَيُحِبُّ	58	90
إِنَّشَرَّالدَّوَابِّعِندَاللّهِالصُّمُّالْبُكْمُالَّذِينَلاَيَعْقِلُونَ	22	08
وَأَعِدُّواْلَهُممَّااسْتَطَعْتُممِّنقُوَّةٍوَمِنرِّبَاطِالْخَيْلِتُرْهِبُونَبِهِعَدْوَّاللّهِ	60	56
وَإِنيُرِيدُواْأَنيَخْدَعُوكَفَإِنَّحَسْبَكَاللّهُهُوَالَّذِيأَيَّدَكَ	62	66
وَأَلَّفَبَيْنَقُلُوبِهِملَوْأَنفَقْتَمَافِيالأَرْضِجَمِيعاًمَّاأَلَّفْتَبَيْنَ	63	66
ذَلِكَبِأَنَّاللّهَلَمْيَكُمُغَيِّراًنِّعْمَةً أَنْعَمَهَاعَلَىقَوْمٍحَتَّىيُغَيِّرُواْمَاب	53	78
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاسْتَجِيبُواْلِلّهِوَلِلرَّسُولِإِذَادَعَاكُملِمَايُحْيِيكُمْ	24	15
سورة التوبة		
إِنَّعِدَّةَالشُّهُورِعِندَاللّهِاثْنَاعَشَرَشَهْراًفِيكِتَابِاللّهِيَوْمَخَلَقَ	36	14

خُذْمِنْأَمْوَالِهِمْصَدَقَةًتُطَهِّرُهُمْوَتُزَكِّيهِمبِهَاوَصَلِّعَلَيْهِمْ	103	03
أَجَعَلْتُمْسِقَايَةَالْحَاجِّوَعِمَارَةَالْمَسْجِدِالْحَرَامِكَمَنْآمَنَبِاللَّهِوَالْيَوْمِ	19	17
خُذْمِنْأَمْوَالِهِمْصَدَقَةًتُطَهِّرُهُمْوَتُزَكِّيهِمبِهَاوَصَلِّعَلَيْهِمْ	103	40
ذَلِكَبِأَنَّهُمْلَايُصِيبُهُمْظَمَأٌوَلَانَصَبٌوَلَامَخْمَصَةٌفِيسَبِيلِاللَّهِ	122/121	43
وَالْمُؤْمِنُونَوَالْمُؤْمِنَاتُبَعْضُهُمْأَوْلِيَاءبَعْضٍيَأْمُرُونَبِالْمَعْرُوفِ	71	82
وَإِنْأَحَدٌمِّنَالْمُشْرِكِينَاسْتَجَارَكَفَأَجِرْهُحَتَّىيَسْمَعَكَلَامَاللَّهِ	6	90
إِنَّمَاالصَّدَقَاتُلِلْفُقَرَاءوَالْمَسَاكِينِوَالْعَامِلِينَعَلَيْهَاوَالْمُؤَلَّفَةِقُلُوبُهُمْ	60	95
وَالَّذِينَيَكْنِزُونَالذَّهَبَوَالْفِضَّةَوَلَايُنفِقُونَهَافِيسَبِيلِاللَّهِ	34	96
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْاتَّقُواْاللَّهَوَكُونُواْمَعَالصَّادِقِينَ	119	98
أَوَلَايَرَوْنَأَنَّهُمْيُفْتَنُونَفِيكُلِّعَامٍمَّرَّةً أَوْمَرَّتَيْنِثُمَّلَايَتُوبُونَ	126	22
أَفَمَنْأَسَّسَبُنْيَانَهُعَلَىتَقْوَىمِنَاللَّهِوَرِضْوَانٍخَيْرٌأَمَّنْأَسَّسَ	109	31
اتَّخَذُواْأَحْبَارَهُمْوَرُهْبَانَهُمْأَرْبَابًامِّندُونِاللَّهِوَالْمَسِيحَابْنَمَرْيَمَ	31	49
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواْإِنَّكَثِيرًامِّنَالأَحْبَارِوَالرُّهْبَانِلَيَأْكُلُونَأَمْوَالَ	34	58
وَقُلِاعْمَلُواْفَسَيَرَىاللَّهُعَمَلَكُمْوَرَسُولُهُوَالْمُؤْمِنُونَوَسَتُرَدُّونَإِلَى	105	36
اثَّاقَلْتُمْإِلَىالأَرْضِأَرَضِيتُمبِالْحَيَاةِالدُّنْيَامِنَالآخِرَةِفَمَامَتَاعُ	38	46
سورة يونس		
إِنَّمَامَثَلُالْحَيَاةِالدُّنْيَاكَمَاءأَنزَلْنَاهُمِنَالسَّمَاءِفَاخْتَلَطَبِهِنَبَاتُ	24	55

إِنَّرَبَّكُمُاللَّهُالَّذِيخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضَفِيسِتَّةِأَيَّامٍثُمَّاسْتَوَى	3	59
قُلِانظُرُواْمَاذَافِيالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِوَمَاتُغْنِيالآيَاتُوَالنُّذُرُ	101	15
قُلْهَلْمِنشُرَكَآئِكُممَّنيَهْدِيإِلَىالْحَقِّقُلِاللَّهُيَهْدِيلِلْحَقِّ	35	30
فَذَلِكُمُاللَّهُرَبُّكُمُالْحَقُّفَمَاذَابَعْدَالْحَقِّإِلاَّالضَّلاَلُفَأَنَّىتُصْرَفُونَ	32	14
بَلْكَذَّبُواْبِمَالَمْيُحِيطُواْبِعِلْمِهِوَلَمَّايَأْتِهِمْتَأْوِيلُهُكَذَلِكَكَذَّبَالَّذِينَ	39	98
وَإِنكَذَّبُوكَفَقُللِّيعَمَلِيوَلَكُمْعَمَلُكُمْأَنتُمْبَرِيئُونَمِمَّاأَعْمَلُ	41	68
قَالُواْأَجِئْتَنَالِتَلْفِتَنَاعَمَّاوَجَدْنَاعَلَيْهِآبَاءنَاوَتَكُونَلَكُمَاالْكِبْرِيَاء	78	71
وَإِنكَذَّبُوكَفَقُللِّيعَمَلِيوَلَكُمْعَمَلُكُمْأَنتُمْبَرِيئُونَمِمَّاأَعْمَلُ	41	73
حَتَّىإِذَاأَدْرَكَهُالْغَرَقُقَالَآمَنتُأَنَّهُلاإِلَهَإِلاَّالَّذِيآمَنَتْبِهِ	90	11
قُلْهَلْمِنشُرَكَآئِكُممَّنيَهْدِيإِلَىالْحَقِّقُلِاللَّهُيَهْدِيلِلْحَقِّ	35	42
فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ	32	44
وَإِنكَذَّبُوكَفَقُللِّيعَمَلِيوَلَكُمْعَمَلُكُمْأَنتُمْبَرِيئُونَمِمَّاأَعْمَلُ	41	09
وَمَايَتَّبِعُالَّذِينَيَدْعُونَمِندُونِاللّهِشُرَكَاءإِنيَتَّبِعُونَإِلاَّالظَّنَّ	66	47
سورة هود		
هُوَأَنشَأَكُممِّنَالأَرْضِوَاسْتَعْمَرَكُمْفِيهَافَاسْتَغْفِرُوهُثُمَّتُوبُواْإِلَيْهِ	61	26
وَلَئِنْأَذَقْنَاالإِنْسَانَمِنَّارَحْمَةًثُمَّنَزَعْنَاهَامِنْهُإِنَّهُلَيَؤُوسٌكَفُورٌ.وَلَئِنْ	10/9	37

قَالُواْلَقَدْعَلِمْتَمَالَنَافِيبَنَاتِكَمِنْحَقٍّوَإِنَّكَلَتَعْلَمُمَانُرِيدُ	79	39
تِلْكَمِنْأَنبَاءِالْغَيْبِنُوحِيهَاإِلَيْكَمَاكُنتَتَعْلَمُهَاأَنتَوَلاَقَوْمُكَ	49	23
وَإِلَىمَدْيَنَأَخَاهُمْشُعَيْباًقَالَيَاقَوْمِاعْبُدُواْاللّهَمَالَكُممِّنْإِلَـهٍغَيْرُهُ	87 /84	39
هُوَأَنشَأَكُممِّنَالأَرْضِوَاسْتَعْمَرَكُمْفِيهَافَاسْتَغْفِرُوهُثُمَّتُوبُواْإِلَيْهِ	61	43
الرَكِتَابٌأُحْكِمَتْآيَاتُهُثُمَّفُصِّلَتْمِنلَّدُنْحَكِيمٍخَبِيرٍ	1	30
وَلاَتَرْكَنُواْإِلَىالَّذِينَظَلَمُواْفَتَمَسَّكُمُالنَّارُوَمَالَكُممِّندُونِاللّهِ	113	95
فَلَوْلاَكَانَمِنَالْقُرُونِمِنقَبْلِكُمْأُوْلُواْبَقِيَّةٍيَنْهَوْنَعَنِالْفَسَادِفِي	116	57
وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً	3	78
وَلَوْشَاءرَبُّكَلَجَعَلَالنَّاسَأُمَّةًوَاحِدَةًوَلاَيَزَالُونَمُخْتَلِفِينَ	118	96
إِلاَّمَنرَّحِمَرَبُّكَوَلِذَلِكَخَلَقَهُمْوَتَمَّتْكَلِمَةُرَبِّكَلأَمْلأَنَّجَهَنَّمَ	119	07
يَقْدُمُقَوْمَهُيَوْمَالْقِيَامَةِفَأَوْرَدَهُمُالنَّارَوَبِئْسَالْوِرْدُالْمَوْرُودُ	98	28
سورة يوسف		
مَاتَعْبُدُونَمِندُونِهِإِلاَّأَسْمَاءسَمَّيْتُمُوهَاأَنتُمْوَآبَآؤُكُممَّاأَنزَلَاللّهُ	40	14
وَمَاأُبَرِّئُنَفْسِيإِنَّالنَّفْسَلأَمَّارَةٌبِالسُّوءِإِلاَّمَارَحِمَرَبِّيَ	53	38
وَرَاوَدَتْهُالَّتِيهُوَفِيبَيْتِهَاعَنَنَّفْسِهِوَغَلَّقَتِالأَبْوَابَ	23	39
قَالَتْفَذَلِكُنَّالَّذِيلُمْتُنَّنِيفِيهِوَلَقَدْرَاوَدتُّهُعَنَنَّفْسِهِفَاسْتَعْصَمَ	32	39
الآنَحَصْحَصَالْحَقُّأَنَارَاوَدتُّهُعَنَنَّفْسِهِوَإِنَّهُلَمِنَالصَّادِقِينَ	51	40

قَالُواْتَاللّهِلَقَدْآثَرَكَاللّهُعَلَيْنَاوَإِنكُنَّالَخَاطِئِينَ	91	41
وَرَفَعَأَبَوَيْهِعَلَىالْعَرْشِوَخَرُّواْلَهُسُجَّداًوَقَالَيَاأَبَتِ	100	65
قَالَاجْعَلْنِيعَلَىخَزَآئِنِالأَرْضِإِنِّيحَفِيظٌعَلِيمٌ	55	06
وَمَاأَرْسَلْنَامِنقَبْلِكَإِلاَّرِجَالاًنُّوحِيإِلَيْهِممِّنْأَهْلِالْقُرىأَفَلَمْ	109	16
قَالَتَزْرَعُونَسَبْعَسِنِينَدَأَباًفَمَاحَصَدتُّمْفَذَرُوهُفِيسُنبُلِهِإِلاَّقَلِيلاً	47	21
سورة الرعد		
الَّذِينَآمَنُواْوَتَطْمَئِنُّقُلُوبُهُممبِذِكْرِاللّهِأَلاَبِذِكْرِاللّهِتَطْمَئِنُّالْقُلُوبُ	28	40
إِنَّاللّهَلاَيُغَيِّرُمَابِقَوْمٍحَتَّيُغَيِّرُواْمَابِأَنْفُسِهِمْوَإِذَاأَرَادَاللّهُبِقَوْمٍ	11	59
وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُواإِلَيْهَاوَجَعَلَ	21	62
قُلْمَنرَّبُّالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِقُلِاللّهُقُلْأَفَاتَّخَذْتُممِّندُونِهِأَوْلِيَاء	16	72
قُلْمَنرَّبُّالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِقُلِاللّهُقُلْأَفَاتَّخَذْتُممِّندُونِهِأَوْلِيَاء	16	13
وَإِنتَعْجَبْفَعَجَبٌقَوْلُهُمْأَئِذَاكُنَّاتُرَاباًأَئِنَّالَفِيخَلْقٍجَدِيدٍ	5	78
أَنزَلَمِنَالسَّمَاءمَاءفَسَالَتْأَوْدِيَةٌبِقَدَرِهَافَاحْتَمَلَالسَّيْلُزَبَداًرَّابِياً	17	91
أَنزَلَمِنَالسَّمَاءمَاءفَسَالَتْأَوْدِيَةٌبِقَدَرِهَافَاحْتَمَلَالسَّيْلُزَبَداًرَّابِياً	17	92
إِنَّاللّهَلاَيُغَيِّرُمَابِقَوْمٍحَتَّيُغَيِّرُواْمَابِأَنْفُسِهِمْوَإِذَاأَرَادَاللّهُبِقَوْمٍ ً	11	15
سورة إبراهيم		
أَلَمْتَرَكَيْفَضَرَبَاللّهُمَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍطَيِّبَةٍأَصْلُهَاثَابِتٌ	24	20

قَالَتْرُسُلُهُمْأَفِياللَّهِشَكٌّفَاطِرِالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِيَدْعُوكُمْلِيَغْفِرَ	10	72
قَالَتْرُسُلُهُمْأَفِياللَّهِشَكٌّفَاطِرِالسَّمَاوَاتِوَالأَرْضِيَدْعُوكُمْلِيَغْفِرَ	10	12
أَلَمْتَرَكَيْفَضَرَبَاللَّهُمَثَلاًكَلِمَةًطَيِّبَةً كَشَجَرَةٍطَيِّبَةٍأَصْلُهَاثَابِتٌ	24	40
سورة الحجر		
وَلَقَدْخَلَقْنَاالإِنسَانَمِنصَلْصَالٍمِّنْحَمَإٍمَّسْنُونٍ	26	27
وَإِذْقَالَرَبُّكَلِلْمَلاَئِكَةِإِنِّيخَالِقٌبَشَراًمِّنصَلْصَالٍمِّنْحَمَإٍمَّسْنُونٍ	29/28	30
سورة النحل		
مَنْعَمِلَصَالِحاًمِّنذَكَرٍأَوْأُنثَىوَهُوَمُؤْمِنٌفَلَنُحْيِيَنَّهُحَيَاةً طَيِّبَةً	97	51
مَنْعَمِلَصَالِحاًمِّنذَكَرٍأَوْأُنثَىوَهُوَمُؤْمِنٌفَلَنُحْيِيَنَّهُحَيَاةً طَيِّبَةً	97	54
وَلَقَدْبَعَثْنَافِيكُلِّأُمَّةٍرَّسُولاًأَنِاعْبُدُواْاللّهَوَاجْتَنِبُواْالطَّاغُوتَ	36	62
إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى	90	33
إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى	90	60
وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ	70	63
إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى	90	70
وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا	91	85
وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً	78	11
وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً	78	12

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ	13/12..	17
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ	6	28
وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ	8	29
أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ	48	30
إِنَّهُلَيْسَلَهُسُلْطَانٌعَلَىالَّذِينَآمَنُواْوَعَلَىرَبِّهِمْيَتَوَكَّلُونَ.إِنَّمَا	100/99	17
وَمَاأَرْسَلْنَامِنقَبْلِكَإِلاَّرِجَالاًنُّوحِيإِلَيْهِمْفَاسْأَلُواأَهْلَالذِّكْرِ	43	19
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً	89	45
إِنَّمَاقَوْلُنَالِشَيْءٍإِذَاأَرَدْنَاهُأَنَنَّقُولَلَهُكُنفَيَكُونُ	40	13
وَاللّهُأَخْرَجَكُممِّنبُطُونِأُمَّهَاتِكُمْلاَتَعْلَمُونَشَيْئاًوَجَعَلَلَكُمُالْسَّمْعَ	78	20
وَاللّهُأَخْرَجَكُممِّنبُطُونِأُمَّهَاتِكُمْلاَتَعْلَمُونَشَيْئاًوَجَعَلَلَكُمُالْسَّمْعَ	78	23
ادْعُإِلِىسَبِيلِرَبِّكَبِالْحِكْمَةِوَالْمَوْعِظَةِالْحَسَنَةِوَجَادِلْهُمبِالَّتِيهِيَ	125	08
مَنْعَمِلَصَالِحاًمِّنذَكَرٍأَوْأُنثَىوَهُوَمُؤْمِنٌفَلَنُحْيِيَنَّهُحَيَاةًطَيِّبَةً	97	723
سورة الإسراء		
إِنَّهَذَاالْقُرْآنَيَهْدِيلِلَّتِيهِيَأَقْوَمُ	9	15
وَيَسْأَلُونَكَعَنِالرُّوحِقُلِالرُّوحُمِنْأَمْرِرَبِّيوَمَاأُوتِيتُممِّنَالْعِلْمِ	85	31
قُللَّوْأَنتُمْتَمْلِكُونَخَزَآئِنَرَحْمَةِرَبِّيإِذاًلَّأَمْسَكْتُمْخَشْيَةَالإِنفَاقِ	100	37
وَيَدْعُالإِنسَانُبِالشَّرِّدُعَاءَهُبِالْخَيْرِوَكَانَالإِنسَانُعَجُولاً	11	37

وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً	49	57
وَلاَتَجْعَلْيَدَكَمَغْلُولَةً إِلَىعُنُقِكَوَلاَتَبْسُطْهَاكُلَّالْبَسْطِفَتَقْعُدَ	29	12
وَمَاأُوتِيتُممِّنالْعِلْمِإِلاَّقَلِيلاً	85	27
وَقَضَىرَبُّكَأَلاَّتَعْبُدُواْإِلاَّإِيَّاهُوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًإِمَّايَبْلُغَنَّعِندَكَ	23	63
وَآتِذَاالْقُرْبَىحَقَّهُوَالْمِسْكِينَوَابْنَالسَّبِيلِوَلاَتُبَذِّرْتَبْذِيراً	26	70
وَلاَتَقْرَبُواْمَالَالْيَتِيمِإِلاَّبِالَّتِيهِيَأَحْسَنُحَتَّىيَبْلُغَأَشُدَّهُوَأَوْفُواْ	34	77
وَلَمْيَكُنلَّهُشَرِيكٌفِيالْمُلْكِ	111	73
ولا تبذيروَلاَتُبَذِّرْتَبْذِيراً	26	94
كُلاًّنُّمِدُّهَؤُلاءِوَهَؤُلاءِمِنْعَطَاءِرَبِّكَوَمَاكَانَعَطَاءُرَبِّكَ	20	11
وَقُللِّعِبَادِييَقُولُواْالَّتِيهِيَأَحْسَنُإِنَّالشَّيْطَانَيَنزَغُبَيْنَهُمْإِنَّ	53	28
انظُرْكَيْفَفَضَّلْنَابَعْضَهُمْعَلَىبَعْضٍوَلَلآخِرَةُأَكْبَرُدَرَجَاتٍ	21	07
وَقَالُوٓاْأَئِذَاكُنَّاعِظَاماًوَرُفَاتاًأَإِنَّالَمَبْعُوثُونَخَلْقاًجَدِيداً	49	64
وَإِذَاأَرَدْنَاأَننُّهْلِكَقَرْيَةًأَمَرْنَامُتْرَفِيهَافَفَسَقُواْفِيهَافَحَقَّعَلَيْهَاالْقَوْلُ	16	66
وَيَسْأَلُونَكَعَنِالرُّوحِقُلِالرُّوحُمِنْأَمْرِرَبِّيوَمَاأُوتِيتُممِّنَالْعِلْمِ	85	29
وَقَضَىرَبُّكَأَلاَّتَعْبُدُواْإِلاَّإِيَّاهُوَبِالْوَالِدَيْنِإِحْسَاناًإِمَّايَبْلُغَنَّعِندَكَ	23	51
وَقَالُوٓاْأَئِذَاكُنَّاعِظَاماًوَرُفَاتاًأَإِنَّالَمَبْعُوثُونَخَلْقاًجَدِيداً	49	75

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ	36	23
وَلاَتَمْشِفِيالأَرْضِمَرَحاًإِنَّكَلَنتَخْرِقَالأَرْضَوَلَنتَبْلُغَالْجِبَالَ	37	34
إِنَّهَذَاالْقُرْآنَيِهْدِيلِلَّتِيهِيَأَقْوَمُوَيُبَشِّرُالْمُؤْمِنِينَالَّذِينَيَعْمَلُونَ	9	53
قُلْكُلٌّيَعْمَلُعَلَىشَاكِلَتِهِفَرَبُّكُمْأَعْلَمُبِمَنْهُوَأَهْدَىسَبِيلاً	84	13
وَلَقَدْكَرَّمْنَابَنِيآدَمَوَحَمَلْنَاهُمْفِيالْبَرِّوَالْبَحْرِوَرَزَقْنَاهُممِّنَالطَّيِّبَاتِ	70	14
كُلاًّنُّمِدُّهَؤُلاءِوَهَؤُلاءِمِنْعَطَاءِرَبِّكَوَمَاكَانَعَطَاءُرَبِّكَ	20	15
سورة الكهف		
قَيِّماًلِّيُنذِرَبَأْساًشَدِيداًمِنلَّدُنْهُوَيُبَشِّرَالْمُؤْمِنِينَالَّذِينَيَعْمَلُونَ	2	15
مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ	51	33
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ	54	37
قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً	95	57
وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ	32	30
{ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً }	93	25
قَالَأَمَّامَنظَلَمَفَسَوْفَنُعَذِّبُهُثُمَّيُرَدُّ	88/87	55
مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ	51	29
وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ	29	08

سورة مريم		
إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً	93	36
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً	64	12
سورة طه		
فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ	47	44
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى	55	52
قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى	49	64
قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى .قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ	49/50	33
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى،وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى	118/119	17
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى	88	47
سورة الأنبياء		
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا	22	15
لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا	22	30
أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا	30	15
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ	80	22
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ	16	80
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ	107	54

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ	107	40
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ	105	54
سورة الحج		
وَهُوَالَّذِيأَحْيَاكُمْثُمَّيُمِيتُكُمْثُمَّيُحْيِيكُمْإِنَّالْإِنسَانَلَكَفُورٌ	66	36
ذَلِكَبِأَنَّاللَّهَهُوَالْحَقُّوَأَنَّهُيُحْيِيالْمَوْتَىوَأَنَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ	6	30
الَّذِينَأُخْرِجُوامِندِيَارِهِمْبِغَيْرِحَقٍّإِلَّاأَنيَقُولُوارَبُّنَااللَّهُوَلَوْلَادَفْعُ	40	88
الَّذِينَإِنمَّكَّنَّاهُمْفِيالْأَرْضِأَقَامُواالصَّلَاةَوَآتَوُاالزَّكَاةَوَأَمَرُوا	41	06
اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ	75	11
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا	46	16
فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ	35/34	30
وَلِيَعْلَمَالَّذِينَأُوتُواالْعِلْمَأَنَّهُالْحَقُّمِنرَّبِّكَفَيُؤْمِنُوابِهِفَتُخْبِتَلَهُ	54	98
أَفَلَمْيَسِيرُوافِيالْأَرْضِفَتَكُونَلَهُمْقُلُوبٌيَعْقِلُونَبِهَاأَوْآذَانٌ	46	08
وَمِنَالنَّاسِمَنيُجَادِلُفِياللَّهِبِغَيْرِعِلْمٍوَلَاهُدًىوَلَاكِتَابٍمُّنِيرٍ	8	09
الَّذِينَإِنمَّكَّنَّاهُمْفِيالْأَرْضِأَقَامُواالصَّلَاةَوَآتَوُاالزَّكَاةَ	41	15
ذَلِكَبِأَنَّاللَّهَهُوَالْحَقُّوَأَنَّهُيُحْيِيالْمَوْتَىوَأَنَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ	6	79
ذَلِكَبِأَنَّاللَّهَهُوَالْحَقُّوَأَنَّهُيُحْيِيالْمَوْتَىوَأَنَّهُعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ	7/6	80
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	6	86

وَكَأَيِّنمِّنقَرْيَةٍأَمْلَيْتُلَهَاوَهِيَظَالِمَةٌثُمَّأَخَذْتُهَاوَإِلَيَّالْمَصِيرُ	48	57
أَفَلَمْيَسِيرُوافِيالْأَرْضِفَتَكُونَلَهُمْقُلُوبٌيَعْقِلُونَبِهَاأَوْآذَانٌ	46	57
الَّذِينَأُخْرِجُوامِندِيَارِهِمْبِغَيْرِحَقٍّإِلَّاأَنيَقُولُوارَبُّنَااللَّهُوَلَوْلَادَفْعُ	40	90
وَمَنيُهِنِاللَّهُفَمَالَهُمِنمُّكْرِمٍإِنَّاللَّهَيَفْعَلُمَايَشَاءُ	18	15
سورة المؤمنون		
أَفَحَسِبْتُمْأَنَّمَاخَلَقْنَاكُمْعَبَثاًوَأَنَّكُمْإِلَيْنَالَاتُرْجَعُونَ	115	
وَلَوِاتَّبَعَالْحَقُّأَهْوَاءَهُمْلَفَسَدَتِالسَّمَاوَاتُوَالْأَرْضُوَمَنفِيهِنَّبَلْ	71	05
مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ	91	30
وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ	71	33
أَفَحَسِبْتُمْأَنَّمَاخَلَقْنَاكُمْعَبَثاًوَأَنَّكُمْإِلَيْنَالَاتُرْجَعُونَ	115	33
وَالَّذِينَهُمْلِفُرُوجِهِمْحَافِظُونَ .إِلَّاعَلَىأَزْوَاجِهِمْأَوْمَامَلَكَتْ	6/5	67
مَااتَّخَذَاللَّهُمِنوَلَدٍوَمَاكَانمَعَهُمِنْإِلَهٍإِذاًلَّذَهَبَكُلُّإِلَهٍبِمَاخَلَقَ	91	21
يُسَارِعُونَفِيالْخَيْرَاتِوَهُمْلَهَاسَابِقُونَ	61	65
أَفَحَسِبْتُمْأَنَّمَاخَلَقْنَاكُمْعَبَثاًوَأَنَّكُمْإِلَيْنَالَاتُرْجَعُونَ	115	82
وَمَنيَدْعُمَعَاللَّهِإِلَهاًآخَرَلَابُرْهَانَلَهُبِهِفَإِنَّمَاحِسَابُهُعِندَرَبِّهِإِنَّهُ	117	11
سورة النور		
وَلَايَأْتَلِأُوْلُواالْفَضْلِمِنكُمْوَالسَّعَةِأَنيُؤْتُواأُوْلِيالْقُرْبَىوَالْمَسَاكِينَ	22	72

وَلْيَسْتَعْفِفِالَّذِينَلَايَجِدُونَنِكَاحاًحَتَّىيُغْنِيَهُمْاللَّهُمِنفَضْلِهِوَالَّذِينَ	33	93
قُللِّلْمُؤْمِنِينَيَغُضُّوامِنْأَبْصَارِهِمْوَيَحْفَظُوافُرُوجَهُمْذَلِكَأَزْكَىلَهُمْ	30	27
فَلْيَحْذَرِالَّذِينَيُخَالِفُونَعَنْأَمْرِهِأَنتُصِيبَهُمْفِتْنَةٌ	63	19
إِنَّمَاكَانَقَوْلَالْمُؤْمِنِينَإِذَادُعُوااِلَىاللَّهِوَرَسُولِهِلِيَحْكُمَبَيْنَهُمْ	51	34
قُللِّلْمُؤْمِنِينَيَغُضُّوامِنْأَبْصَارِهِمْوَيَحْفَظُوا	30	66
وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ	40	24
وَيَقُولُونَآمَنَّابِاللَّهِوَبِالرَّسُولِوَأَطَعْنَاثُمَّيَتَوَلَّىفَرِيقٌمِّنْهُممِّنبَعْدِ	51 / 47	39
وَلْيَسْتَعْفِفِالَّذِينَلَايَجِدُونَنِكَاحاًحَتَّىيُغْنِيَهُمْاللَّهُمِنفَضْلِهِوَالَّذِينَ	33	23
اللَّهُنُورُالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِمَثَلُنُورِهِكَمِشْكَاةٍفِيهَامِصْبَاحٌ	35	49
وَعَدَاللَّهُالَّذِينَآمَنُوامِنكُمْوَعَمِلُواالصَّالِحَاتِلَيَسْتَخْلِفَنَّهُم	55	55
سورة الفرقان		
وَالَّذِينَإِذَاأَنفَقُوالَمْيُسْرِفُواوَلَمْيَقْتُرُواوَكَانَبَيْنَذَلِكَقَواماً	67	15
أَمْتَحْسَبُأَنَّأَكْثَرَهُمْيَسْمَعُونَأَوْيَعْقِلُونَإِنْهُمْإِلَّاكَالْأَنْعَامِبَلْهُمْ	44	02
وَالَّذِينَإِذَاأَنفَقُوالَمْيُسْرِفُواوَلَمْيَقْتُرُواوَكَانَبَيْنَذَلِكَقَواماً	67	12
وَالَّذِينَإِذَاأَنفَقُوالَمْيُسْرِفُواوَلَمْيَقْتُرُواوَكَانَبَيْنَذَلِكَقَواماً	67	95
أَلَمْتَرَإِلَىرَبِّكَكَيْفَمَدَّالظِّلَّوَلَوْشَاءَلَجَعَلَهُسَاكِناًثُمَّجَعَلْنَا	45	19

وَعِبَادُالرَّحْمَنِالَّذِينَيَمْشُونَعَلَىالْأَرْضِهَوْنًاوَإِذَاخَاطَبَهُمُ	63	30
أَرَأَيْتَمَنِاتَّخَذَإِلَهَهُهَوَاهُأَفَأَنتَتَكُونُعَلَيْهِوَكِيلاً	43	15
وَقَالُوااَسَاطِيرُالْأَوَّلِينَاكْتَتَبَهَافَهِيَتُمْلَىعَلَيْهِبُكْرَةًوَأَصِيلاً	5	91
وَقَالُوامَالِهَذَاالرَّسُولِيَأْكُلُالطَّعَامَوَيَمْشِيفِيالْأَسْوَاقِلَوْلَاأُنزِلَ	7	64
وَمَاأَرْسَلْنَاقَبْلَكَمِنَالْمُرْسَلِينَإِلَّاإِنَّهُمْلَيَأْكُلُونَالطَّعَامَوَيَمْشُونَ	20	11
أَمْتَحْسَبُأَنَّأَكْثَرَهُمْيَسْمَعُونَأَوْيَعْقِلُونَإِنْهُمْإِلَّاكَالْأَنْعَامِبَلْ	44	44
سورة الشعراء		
إِنْهَذَاإِلَّاخُلُقُالْأَوَّلِينَ	137	50
وَتَنْحِتُونَمِنَالْجِبَالِبُيُوتًافَارِهِينَ	149	30
قَالَفِرْعَوْنُوَمَارَبُّالْعَالَمِينَ...قَالَلَئِنِاتَّخَذْتَإِلَهًاغَيْرِيلَأَجْعَلَنَّكَ	29/ 23	14
أَوْفُواالْكَيْلَوَلَاتَكُونُوامِنَالْمُخْسِرِينَ	181	34
سورة النمل		
وَمَامِنْغَائِبَةٍفِيالسَّمَاءِوَالْأَرْضِإِلَّافِيكِتَابٍمُّبِينٍ	75	22
قُللَّايَعْلَمُمَنفِيالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِالْغَيْبَإِلَّااللَّهُوَمَايَشْعُرُونَأَيَّانَ	65	25
قَالَعِفْرِيتٌمِّنَالْجِنِّأَنَاآتِيكَبِهِقَبْلَأَنتَقُومَمِنمَّقَامِكَوَإِنِّيعَلَيْهِ	39	06
وَحُشِرَلِسُلَيْمَانَجُنُودُهُمِنَالْجِنِّوَالْإِنسِوَالطَّيْرِفَهُمْيُوزَعُونَ	17	31
وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن	43	67

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ	14	67
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ	55	69
وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ	14	71
أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ	61	11
وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي	88	21
وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ	50	57
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ	51	57
سورة القصص		
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن	77	11
قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ	26	06
فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ	50	18
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن	77	25
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ	4	55
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي	38	65
قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ	78	66
فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ	50	70

إِنَّكَلَاتَهْدِيمَنْأَحْبَبْتَوَلَكِنَّاللَّهَيَهْدِيمَنيَشَاءُوَهُوَأَعْلَمُ	56	73
وَنُرِيدُأَنَنَّمُنَّعَلَىالَّذِينَاسْتُضْعِفُوافِيالْأَرْضِوَنَجْعَلَهُمْأَئِمَّةً	5	99
إِنَّفِرْعَوْنَعَلَافِيالْأَرْضِوَجَعَلَأَهْلَهَاشِيَعاًيَسْتَضْعِفُطَائِفَةًمِّنْهُمْ	4	61
سورة العنكبوت		
قُلْسِيرُوافِيالْأَرْضِفَانظُرُواكَيْفَبَدَأَالْخَلْقَثُمَّاللَّهُيُنشِئُالنَّشْأَةَ	20	32
اتْلُمَاأُوحِيَإِلَيْكَمِنَالْكِتَابِوَأَقِمِالصَّلَاةَإِنَّالصَّلَاةَتَنْهَىعَنِ	45	02
اتْلُمَاأُوحِيَإِلَيْكَمِنَالْكِتَابِوَأَقِمِالصَّلَاةَإِنَّالصَّلَاةَتَنْهَىعَنِ	45	39
وَلَاتُجَادِلُوااأَهْلَالْكِتَابِإِلَّا بِالَّتِيهِيَأَحْسَنُإِلَّاالَّذِينَظَلَمُوامِنْهُمْ	46	87
قُلْسِيرُوافِيالْأَرْضِفَانظُرُواكَيْفَبَدَأَالْخَلْقَثُمَّاللَّهُيُنشِئُالنَّشْأَةَ	20	15
وَلَئِنسَأَلْتَهُممَّنْخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَوَسَخَّرَالشَّمْسَوَالْقَمَرَ	61	82
وَمَاهَذِهِالْحَيَاةُالدُّنْيَاإِلَّالَهْوٌوَلَعِبٌوَإِنَّالدَّارَالْآخِرَةَلَهِيَالْحَيَوَانُ	64	02
وَلُوطاًإِذْقَالَلِقَوْمِهِإِنَّكُمْلَتَأْتُونَالْفَاحِشَةَمَاسَبَقَكُمبِهَامِنْأَحَدٍمِّنَ	28	66
فَكُلّاًأَخَذْنَابِذَنبِهِفَمِنْهُممَّنْأَرْسَلْنَاعَلَيْهِحَاصِباًوَمِنْهُممَّنْأَخَذَتْهُ	40	94
وَكَأَيِّنمِندَابَّةٍلَا تَحْمِلُرِزْقَهَااللَّهُيَرْزُقُهَاوَإِيَّاكُمْوَهُوَالسَّمِيعُالْعَلِيمُ	60	55
وَقَارُونَوَفِرْعَوْنَوَهَامَانَوَلَقَدْجَاءَهُمُّوسَىبِالْبَيِّنَاتِفَاسْتَكْبَرُوا	39	62
وَلَاتُجَادِلُوااأَهْلَالْكِتَابِإِلَّا بِالَّتِيهِيَأَحْسَنُإِلَّاالَّذِينَظَلَمُوا	46	11

سورة الروم		
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	14
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِالْقَيِّمِمِنقَبْلِأَنيَأْتِيَيَوْمٌلَّامَرَدَّلَهُمِنَاللَّهِيَوْمَئِذٍ	43	14
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	97
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	04
يَعْلَمُونَظَاهِراًمِّنَالْحَيَاةِالدُّنْيَاوَهُمْعَنِالْآخِرَةِهُمْغَافِلُونَ	7	35
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	38
وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُوااِلَيْهَا	21	62
وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُوااِلَيْهَا	21	67
فَآتِذَاالْقُرْبَىحَقَّهُوَالْمِسْكِينَوَابْنَالسَّبِيلِذَلِكَخَيْرٌلِّلَّذِينَيُرِيدُونَ	38	71
قُلْسِيرُوافِيالْأَرْضِفَانظُرُواكَيْفَكَانَعَاقِبَةُالَّذِينَمِنقَبْلُ	42	20
أَوَلَمْيَسِيرُوافِيالْأَرْضِفَيَنظُرُواكَيْفَكَانَعَاقِبَةُالَّذِينَمِنقَبْلِهِمْ	9	07
فَانظُرْإِلَىآثَارِرَحْمَتِاللَّهِكَيْفَيُحْيِيالْأَرْضَبَعْدَمَوْتِهَاإِنَّذَلِكَ	50	07
يَعْلَمُونَظَاهِراًمِّنَالْحَيَاةِالدُّنْيَاوَهُمْعَنِالْآخِرَةِهُمْغَافِلُونَ	7	44
ظَهَرَالْفَسَادُفِيالْبَرِّوَالْبَحْرِبِمَاكَسَبَتْأَيْدِيالنَّاسِلِيُذِيقَهُم	41	66
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	93
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	12

وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَكُممِّنتُرَابٍثُمَّإِذَاأَنتُمبَشَرٌتَنتَشِرُونَ	20	12
وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُوااإِلَيْهَا	21	67
فَأَقِمْوَجْهَكَلِلدِّينِحَنِيفاًفِطْرَةَاللَّهِالَّتِيفَطَرَالنَّاسَعَلَيْهَالَاتَبْدِيلَ	30	53
أَوَلَمْيَسِيرُوافِيالْأَرْضِفَيَنظُرُواكَيْفَكَانَعَاقِبَةُالَّذِينَمِنقَبْلِهِمْ	9	56
ظَهَرَالْفَسَادُفِيالْبَرِّوَالْبَحْرِبِمَاكَسَبَتْأَيْدِيالنَّاسِلِيُذِيقَهُم	41	78
وَمِنْآيَاتِهِخَلْقُالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِوَاخْتِلَافُأَلْسِنَتِكُمْوَأَلْوَانِكُمْ	22	96
وَمِنْآيَاتِهِخَلْقُالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِوَاخْتِلَافُأَلْسِنَتِكُمْوَأَلْوَانِكُمْ	22	02
وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُوااإِلَيْهَا	21	22
وَمِنْآيَاتِهِأَنْخَلَقَلَكُممِّنْأَنفُسِكُمْأَزْوَاجاًلِّتَسْكُنُوااإِلَيْهَا	21	24
ظَهَرَالْفَسَادُفِيالْبَرِّوَالْبَحْرِبِمَاكَسَبَتْأَيْدِيالنَّاسِ	41	45
يَعْلَمُونَظَاهِراًمِّنَالْحَيَاةِالدُّنْيَاوَهُمْعَنِالْآخِرَةِهُمْغَافِلُونَ	7	48
سورة لقمان		
أَلَمْتَرَوْاأَنَّاللَّهَسَخَّرَلَكُممَّافِيالسَّمَاوَاتِوَمَافِيالْأَرْضِوَأَسْبَغَ	20	61
وَمَنيُسْلِمْوَجْهَهُإِلَىاللَّهِوَهُوَمُحْسِنٌفَقَدِاسْتَمْسَكَبِالْعُرْوَةِالْوُثْقَى	22	38
وَإِذْقَالَلُقْمَانُلِابْنِهِوَهُوَيَعِظُهُيَابُنَيَّلَاتُشْرِكْبِاللَّهِإِنَّالشِّرْكَلَظُلْمٌ	13	65
أَلَمْتَرَوْاأَنَّاللَّهَسَخَّرَلَكُممَّافِيالسَّمَاوَاتِوَمَافِيالْأَرْضِوَأَسْبَغَ	20	93

وَإِذَاغَشِيَهُممَّوْجٌكَالظُّلَلِدَعَوُااللَّهَمُخْلِصِينَلَهُالدِّينَفَلَمَّانَجَّاهُمْ	32	11
سورة السجدة		
ثُمَّجَعَلَنَسْلَهُمِنسُلَالَةٍمِّنمَّاءٍمَّهِينٍ.ثُمَّسَوَّاهُوَنَفَخَفِيهِمِنرُّوحِهِ	9/8	30
الَّذِيأَحْسَنَكُلَّشَيْءٍخَلَقَهُوَبَدَأَخَلْقَالْإِنسَانِمِنطِينٍ	7	32
وَقَالُوأَئِذَاضَلَلْنَافِيالْأَرْضِأَئِنَّالَفِيخَلْقٍجَدِيدٍبَلْهُمبِلِقَاءِرَبِّهِمْ	10	75
وَقَالُوأَئِذَاضَلَلْنَافِيالْأَرْضِأَئِنَّالَفِيخَلْقٍجَدِيدٍ	11/10	78
سورة الأحزاب		
إِنَّاعَرَضْنَاالْأَمَانَةَعَلَىالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِوَالْجِبَالِفَأَبَيْنَأَنيَحْمِلْنَهَا	72	37
إِنَّاعَرَضْنَاالْأَمَانَةَعَلَىالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِوَالْجِبَالِفَأَبَيْنَأَنيَحْمِلْنَهَا	72	34
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواإِذَانَكَحْتُمُالْمُؤْمِنَاتِثُمَّطَلَّقْتُمُوهُنَّمِنقَبْلِ	49	68
سُنَّةَاللَّهِفِيالَّذِينَخَلَوْامِنقَبْلُوَلَنتَجِدَلِسُنَّةِاللَّهِتَبْدِيلاً	62	15
وَمَاكَانَلِمُؤْمِنٍوَلَامُؤْمِنَةٍإِذَاقَضَىاللَّهُوَرَسُولُهُأَمْرًاأَنيَكُونَ	36	15
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ	36	34
وَمَاكَانَلِمُؤْمِنٍوَلَامُؤْمِنَةٍإِذَاقَضَىاللَّهُوَرَسُولُهُأَمْرًاأَنيَكُونَ	21	45
مَّاكَانَمُحَمَّدٌأَبَاأَحَدٍمِّنرِّجَالِكُمْوَلَكِنرَّسُولَاللَّهِوَخَاتَمَالنَّبِيِّينَ	40	52
سورة سبأ		
يَعْمَلُونَلَهُمَايَشَاءُمِنمَّحَارِيبَوَتَمَاثِيلَوَجِفَانٍكَالْجَوَابِوَقُدُورٍ	13	23

قُلۡلَّا تُسۡـَٔلُونَعَمَّآ أَجۡرۡمۡنَاوَلَا نُسۡـَٔلُعَمَّا تَعۡمَلُونَ	25	68
قُلۡإِنَّمَآ أَعِظُكُمبِوَاحِدَةٍأَنتَقُومُواۡلِلَّهِمَثۡنَىوَفُرَادَىثُمَّتَتَفَكَّرُوا	46	97
وَقَالَالَّذِينَكَفَرُواهَلۡنَدُلُّكُمۡعَلَىرَجُلٖيُنَبِّئُكُمۡإِذَامُزِّقۡتُمۡكُلَّمُمَزَّقٍ	7	75
وَمَآأَرۡسَلۡنَاكَإِلَّا كَآفَّةٗلِّلنَّاسِبَشِيرٗاوَنَذِيرٗاوَلَٰكِنَّأَكۡثَرَالنَّاسِلَايَعۡلَمُونَ	28	53
قُلۡلَّا تُسۡـَٔلُونَعَمَّآ أَجۡرۡمۡنَاوَلَا نُسۡـَٔلُعَمَّا تَعۡمَلُونَ	25	10
قُلۡإِنَّمَآ أَعِظُكُمبِوَاحِدَةٍأَنتَقُومُواۡلِلَّهِمَثۡنَىوَفُرَادَىثُمَّتَتَفَكَّرُوا	46	32
سورة فاطر		
يَاأَيُّهَاالنَّاسُاذۡكُرُوانِعۡمَتَاللَّهِعَلَيۡكُمۡهَلۡمِنۡخَالِقٍغَيۡرُاللَّهِيَرۡزُقُكُم	3	59
إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا	41	60
يَاأَيُّهَاالنَّاسُاذۡكُرُوانِعۡمَتَاللَّهِعَلَيۡكُمۡهَلۡمِنۡخَالِقٍغَيۡرُاللَّهِيَرۡزُقُكُم	3	30
أَلَمۡتَرَأَنَّاللَّهَأَنزَلَمِنَالسَّمَاءِمَاءٗفَأَخۡرَجۡنَابِهِۦثَمَرَاتٖمُّخۡتَلِفًاأَلۡوَانُهَا	28/27	45
إِنَّمَايَخۡشَىاللَّهَمِنۡعِبَادِهِٱلۡعُلَمَٰٓءُإِنَّاللَّهَعَزِيزٌغَفُورٌ	28	18
سورة الصافات		
وَإِنَّكُمۡلَتَمُرُّونَعَلَيۡهِممُّصۡبِحِينَوَبِاللَّيۡلِأَفَلَاتَعۡقِلُونَ	138/137	16
سورة ص		
إِذۡقَالَرَبُّكَلِلۡمَلَٰٓئِكَةِإِنِّيخَٰلِقُۢبَشَرٗامِّنطِينٖ	71	29
فَإِذَاسَوَّيۡتُهُۥوَنَفَخۡتُفِيهِمِنرُّوحِيفَقَعُواۡلَهُۥسَٰجِدِينَ	72	30

يَادَاوُودُإِنَّاجَعَلْنَاكَخَلِيفَةًفِيالْأَرْضِفَاحْكُمبَيْنَالنَّاسِبِالْحَقِّ	26	06
يَادَاوُودُإِنَّاجَعَلْنَاكَخَلِيفَةًفِيالْأَرْضِفَاحْكُمبَيْنَالنَّاسِبِالْحَقِّ	26	15
إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا	26	39
أَمْنَجْعَلُالَّذِينَآمَنُواوَعَمِلُواالصَّالِحَاتِكَالْمُفْسِدِينَفِيالْأَرْضِأَمْ	28	00
وَمَاخَلَقْنَاالسَّمَاءوَالْأَرْضَوَمَابَيْنَهُمَابَاطِلاًذَلِكَظَنُّالَّذِينَكَفَرُوا	27	79
وَمَاخَلَقْنَاالسَّمَاءوَالْأَرْضَوَمَابَيْنَهُمَابَاطِلاًذَلِكَظَنُّالَّذِينَكَفَرُوا	27	80
أَمْنَجْعَلُالَّذِينَآمَنُواوَعَمِلُواالصَّالِحَاتِكَالْمُفْسِدِينَفِيالْأَرْضِأَمْ	28	82
قَالَفَبِعِزَّتِكَلَأُغْوِيَنَّهُمْأَجْمَعِينَ	82	48
سورة الزمر		
الَّذِينَيَسْتَمِعُونَالْقَوْلَفَيَتَّبِعُونَأَحْسَنَهُأُوْلَئِكَالَّذِينَهَدَاهُمُاللَّهُ	18	21
الَّذِينَيَسْتَمِعُونَالْقَوْلَفَيَتَّبِعُونَأَحْسَنَهُأُوْلَئِكَالَّذِينَهَدَاهُمُاللَّهُ	18	35
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ	18	97
وَلَئِنسَأَلْتَهُممَّنْخَلَقَالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَلَيَقُولُنَّاللَّهُقُلْأَفَرَأَيْتُم	38	32

سورة غافر		
قَالَفِرْعَوْنُمَاأُرِيكُمْإِلَّا مَاأَرَىوَمَاأَهْدِيكُمْإِلَّا سَبِيلَالرَّشَادِ	29	729
سورة فصلت		
قُلْأَئِنَّكُمْلَتَكْفُرُونَبِالَّذِيخَلَقَالْأَرْضَفِييَوْمَيْنِوَتَجْعَلُونَلَهُأَندَاداً	10/9	50
سَنُرِيهِمْآيَاتِنَافِيالْآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّ	53	23
سَنُرِيهِمْآيَاتِنَافِيالْآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّ	53	24
سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ	53	14
وَلَاتَسْتَوِيالْحَسَنَةُوَلَاالسَّيِّئَةُادْفَعْبِالَّتِيهِيَأَحْسَنُفَإِذَاالَّذِي	34	28
كِتَابٌفُصِّلَتْآيَاتُهُقُرْآناًعَرَبِيّاًلِّقَوْمٍيَعْلَمُونَ	3	30
سَنُرِيهِمْآيَاتِنَافِيالْآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّ	53	55
سَنُرِيهِمْآيَاتِنَافِيالْآفَاقِوَفِيأَنفُسِهِمْحَتَّىيَتَبَيَّنَلَهُمْأَنَّهُالْحَقُّ	53	88
فَأَمَّاعَادٌفَاسْتَكْبَرُوافِيالْأَرْضِبِغَيْرِالْحَقِّوَقَالُوامَنْأَشَدُّمِنَّاقُوَّةً	15	52
سورة الشورى		

وَكَذَلِكَأَوْحَيْنَاإِلَيْكَرُوحاًمِّنْأَمْرِنَامَاكُنتَتَدْرِيمَاالْكِتَابُوَلَا	53/52	00
لَيْسَكَمِثْلِهِشَيْءٌوَهُوَالسَّمِيعُالبَصِيرُ	11	11
لَيْسَكَمِثْلِهِشَيْءٌوَهُوَالسَّمِيعُالبَصِيرُ	11	29
اللَّهُالَّذِيأَنزَلَالْكِتَابَبِالْحَقِّوَالْمِيزَانَوَمَايُدْرِيكَلَعَلَّالسَّاعَةَقَرِيبٌ	17	32
قُللَّاأَسْأَلُكُمْعَلَيْهِأَجْراًإِلَّاالْمَوَدَّةَفِيالْقُرْبَىوَمَنيَقْتَرِفْحَسَنَةً	23	71
شَرَعَلَكُممِّنَالدِّينِمَاوَصَّبِهِنُوحاًوَالَّذِيأَوْحَيْنَاإِلَيْكَ	13	87
وَمَاأَصَابَكُممِّنمُّصِيبَةٍفَبِمَاكَسَبَتْأَيْدِيكُمْوَيَعْفُوعَنكَثِيرٍ	30	23
أَنْأَقِيمُواالدِّينَوَلَاتَتَفَرَّقُوافِيهِ	13	20
سورة الزخرف		
وَكَذَلِكَمَاأَرْسَلْنَامِنقَبْلِكَفِيقَرْيَةٍمِّننَّذِيرٍإِلَّاقَالَمُتْرَفُوهَا	23	68
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ	31	70
سورة الدخان		
وَمَاخَلَقْنَاالسَّمَاوَاتِوَالْأَرْضَوَمَابَيْنَهُمَالَاعِبِينَ	38	30
سورة الجاثية		

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ	38	30
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ	18	97
ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ	18	03
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ	24	43
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ	24	75
سورة الأحقاف		
مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى	3	29
وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً	26	08
قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً	23	69
سورة محمد		
فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ...	23/22	72
أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ	23	06
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ	12	38
هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن	38	55
سورة الحجرات		
قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ	14	57
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	62
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ..	10	80

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ	.11/10	83
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	84
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	89
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً	11	32
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	32
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	88
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	95
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	96
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ	13	12
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ	12/11	25
سورة ق		
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ	16	92
وَنَزَّلْنَامِنَالسَّمَاءِمَاءًمُّبَارَكًافَأَنبَتْنَابِهِجَنَّاتٍوَحَبَّ	..10/9	72
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن	45	73
أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ	15	79
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ	37	56

سورة الذاريات		
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	56	26
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	56	51
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	56	63
سورة الطور		
أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ	35	13
أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ	36/35	14
سورة النجم		
وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى	42	00
وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى	4/3	00
سورة الرحمن		
خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ	14	27
وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ .وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ	9/8/7	84
وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ	7	29
وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ	7	32
خلق الإنسان . علّمه البيان	4	31

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سورة الواقعة		
أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ	59/58	14
سورة الحديد		
لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ	23	51
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ	25	85
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ	25	33
آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ	7	94
سورة المجادلة		
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ	8	59
سورة الحشر		
مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى	7	72
مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى	7	78
وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ	9	81
وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ	9	82
سورة الممتحنة		
لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن	8	89
لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن	8	56

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن	8	10
سورة الجمعة		
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ	9/10	11
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ	9	18
سورة المنافقون		
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ	8	15
سورة التغابن		
فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ	16	99
فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ	16	156
سورة الطلاق		
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا	6	69
لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ	7	69
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ	12	17
سورة التحريم		
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ	6	66
سورة الملك		
تَبَارَكَالَّذِيبِيَدِهِالْمُلْكُوَهُوَعَلَىكُلِّشَيْءٍقَدِيرٌ. الَّذِيخَلَقَ	2/1	52

الَّذِيخَلَقَالْمَوْتَوَالْحَيَاةَلِيَبْلُوَكُمْأَيُّكُمْأَحْسَنُعَمَلاً	2	65
أَلَايَعْلَمُمَنْخَلَقَوَهُوَاللَّطِيفُالْخَبِيرُ	14	92
هُوَالَّذِيجَعَلَلَكُمُالْأَرْضَذَلُولاًفَامْشُوافِيمَنَاكِبِهَاوَكُلُوامِنرِّزْقِهِ	15	96
الَّذِيخَلَقَالْمَوْتَوَالْحَيَاةَلِيَبْلُوَكُمْأَيُّكُمْأَحْسَنُعَمَلاً	2	32
أَلَايَعْلَمُمَنْخَلَقَوَهُوَاللَّطِيفُالْخَبِيرُ	14	02
أَوَلَمْيَرَوْاإِلَىالطَّيْرِفَوْقَهُمْصَافَّاتٍوَيَقْبِضْنَمَايُمْسِكُهُنَّ	19	26
أَلَايَعْلَمُمَنْخَلَقَوَهُوَاللَّطِيفُالْخَبِيرُ	14	97
وَقَالُوالَوْكُنَّانَسْمَعُأَوْنَعْقِلُمَاكُنَّافِيأَصْحَابِالسَّعِيرِ	10	07
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا	15	55
أَفَمَنيَمْشِيمُكِبّاًعَلَىوَجْهِهِأَهْدَىأَمَّنيَمْشِيسَوِيّاًعَلَى	22	50
سورة القلم		
إِنَّابَلَوْنَاهُمْكَمَابَلَوْنَاأَصْحَابَالْجَنَّةِإِذْأَقْسَمُوا	..18/17	74
أَفَنَجْعَلُالْمُسْلِمِينَكَالْمُجْرِمِينَ	35	00
سورة الحاقة		
وَلَوْتَقَوَّلَعَلَيْنَابَعْضَالْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَامِنْهُبِالْيَمِينِ	45/44	99
سورة نوح		
وَقَدْخَلَقَكُمْأَطْوَاراً	14	29

أَلَمْتَرَوْاكَيْفَخَلَقَاللَّهُسَبْعَسَمَاوَاتٍطِبَاقاً	15	20
سورة الجن		
عَالِمُالْغَيْبِفَلَايُظْهِرُعَلَىغَيْبِهِأَحَداً	26	25
سورة المزمل		
وَآخَرُونَيَضْرِبُونَفِيالْأَرْضِيَبْتَغُونَمِنفَضْلِاللَّهِوَآخَرُونَيُقَاتِلُونَ	20	96
سورة المدثر		
مَاسَلَكَكُمْفِيسَقَرقَالُوالَمْنَكُمِنَالْمُصَلِّينَوَلَمْنَكُنُطْعِمُ	43/42..	75
سورة القيامة		
وَلَاأُقْسِمُبِالنَّفْسِاللَّوَّامَةِ	2	40
ثُمَّكَانَعَلَقَةًفَخَلَقَفَسَوَّى.فَجَعَلَمِنْهُالزَّوْجَيْنِالذَّكَرَوَالْأُنثَى.أَلَيْسَ	39/38	79
أَيَحْسَبُالْإِنسَانُأَلَّنَنَجْمَعَعِظَامَهُ .بَلَىقَادِرِينَ	4/3	81
أَيَحْسَبُالْإِنسَانُأَنيُتْرَكَسُدًى	36	85
سورة الإنسان		
هَلْأَتَىعَلَىالْإِنسَانِحِينٌمِّنَالدَّهْرِلَمْيَكُنشَيْئاًمَّذْكُوراً	1	29
هَلْأَتَىعَلَىالْإِنسَانِحِينٌمِّنَالدَّهْرِلَمْيَكُنشَيْئاًمَّذْكُوراً	1	50
وَيُطْعِمُونَالطَّعَامَعَلَىحُبِّهِمِسْكِيناًوَيَتِيماًوَأَسِيراً	8	90
هَلْأَتَىعَلَىالْإِنسَانِحِينٌمِّنَالدَّهْرِلَمْيَكُنشَيْئاًمَّذْكُوراً	1	15
إِنَّمَانُطْعِمُكُمْلِوَجْهِاللَّهِلَانُرِيدُمِنكُمْجَزَاءوَلَا شُكُوراً	9	38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إِنَّمَانُطْعِمُكُمْلِوَجْهِاللَّهِلَانُرِيدُمِنكُمْجَزَاءوَلَا شُكُوراً.إِنَّانَخَافُ	10/9	56
وَيُطْعِمُونَالطَّعَامَعَلَىحُبِّهِمِسْكِيناًوَيَتِيماًوَأَسِيراً	8	17
سورة عبس		
فَلْيَنظُرِالْإِنسَانُإِلَىطَعَامِهِ	24	07
فَلْيَنظُرِالْإِنسَانُإِلَىطَعَامِهِ	24	10
قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ	../18/17	81
سورة المطففين		
وَيْلٌلِّلْمُطَفِّفِينَ...أَلَا يَظُنُّأُولَئِكَأَنَّهُممَّبْعُوثُونَ.لِيَوْمٍعَظِيمٍ.يَوْمَ	6 /1	24
وَيْلٌلِّلْمُطَفِّفِينَ .الَّذِينَإِذَااكْتَالُواْعَلَىالنَّاسِيَسْتَوْفُونَ	2/1	59
سورة الفجر		
يَاأَيَّتُهَاالنَّفْسُالْمُطْمَئِنَّةُ.ارْجِعِيإِلَىرَبِّكِرَاضِيَةًمَّرْضِيَّةً	28/27	41
يَاأَيَّتُهَاالنَّفْسُالْمُطْمَئِنَّةُارْجِعِيإِلَىرَبِّكِرَاضِيَةًمَّرْضِيَّةً	28/27	43
كَلَّابَلَّاتُكْرِمُونَالْيَتِيمَوَلَاتَحَاضُّونَعَلَىطَعَامِالْمِسْكِينِ	18/17	74
كَلَّابَلَّاتُكْرِمُونَالْيَتِيمَ	17	75
يَاأَيَّتُهَاالنَّفْسُالْمُطْمَئِنَّةُ.ارْجِعِيإِلَىرَبِّكِرَاضِيَةًمَّرْضِيَّةً	28/27	29
سورة البلد		
يَتِيماًذَامَقْرَبَةٍ	15	76

سورة الشمس		
قَدْأَفْلَحَمَنزَكَّاهَا. وَقَدْخَابَمَندَسَّاهَا	10/9	36
وَنَفْسٍوَمَاسَوَّاهَا.فَأَلْهَمَهَافُجُورَهَاوَتَقْوَاهَا	8/7	40
سورة التين		
لَقَدْخَلَقْنَاالْإِنسَانَفِيأَحْسَنِتَقْوِيمٍ.ثُمَّرَدَدْنَاهُأَسْفَلَسَافِلِينَ.إِلَّا	6/5/4	38
لَقَدْخَلَقْنَاالْإِنسَانَفِيأَحْسَنِتَقْوِيمٍ	4	53
سورة الضحى		
وَأَمَّاالسَّائِلَفَلَاتَنْهَرْ	10	74
فَأَمَّاالْيَتِيمَفَلَاتَقْهَرْ	9	76
وَلَلْآخِرَةُخَيْرٌلَّكَمِنَالْأُولَى	4	38
سورة العلق		
خَلَقَالْإِنسَانَمِنْعَلَقٍ	2	25
كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى	6	36
اقْرَأْبِاسْمِرَبِّكَالَّذِيخَلَقَ	1	95
اقْرَأْبِاسْمِرَبِّكَالَّذِيخَلَقَ	1	09
عَلَّمَالْإِنسَانَمَالَمْيَعْلَمْ	5	11

عَلَّمَالْإِنسَانَمَالَمْيَعْلَمْ	5	02
كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى	6	59
كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى .أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى	7/6/5	81
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ	3	15
سورة البينة		
وَمَاأُمِرُوااِلَّالِيَعْبُدُواااللَّهَمُخْلِصِينَلَهُالدِّينَحُنَفَاء	5	15
فِيهَاكُتُبٌقَيِّمَةٌ	3	15
وَمَاأُمِرُوااِلَّالِيَعْبُدُواااللَّهَمُخْلِصِينَلَهُالدِّينَحُنَفَاء	5	46
سورة الزلزلة		
فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ	7	34
سورة العصر		
وَالْعَصْرِ.إِنَّالْإِنسَانَلَفِيخُسْرٍ	2/1	96
وَالْعَصْرِإِنَّالْإِنسَانَلَفِيخُسْرٍإِلَّاالَّذِينَآمَنُواوَعَمِلُواالصَّالِحَاتِ...	.3/2/1	36
سورة الماعون		
أَرَأَيْتَالَّذِييُكَذِّبُبِالدِّينِ. فَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَ.وَلَايَحُضُّ	2/1	98
فَوَيْلٌلِّلْمُصَلِّينَالَّذِينَهُمْعَنصَلَاتِهِمْسَاهُونَ	5/4	41
أَرَأَيْتَالَّذِييُكَذِّبُبِالدِّينِفَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَوَلَايَحُضُّ	3/2/1	42
فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ	2	76

أَرَأَيْتَالَّذِييُكَذِّبُبِالدِّينِ.فَذَلِكَالَّذِييَدُعُّالْيَتِيمَ	2/1	91
فَوَيْلٌلِّلْمُصَلِّينَ.الَّذِينَ هُمْعَنصَلَاتِهِمْسَاهُونَ.الَّذِينَهُمْيُرَاؤُونَ	.6/5/4	43
سورة الكافرون		
قُلْيَاأَيُّهَاالْكَافِرُونَ....لَكُمْدِينُكُمْوَلِيَدِينِ	6../1	08

ثانيا – فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الرقم	نص الحديث	الصفحة
1	يؤذينيابنآدميسبالدهروأناالدهربيديالأمرأقلباالليلوالنهار	55

2	إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ،	112
3	اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا املك	113
4	الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان	117
5	اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ...	118
6	إفراغك في دلو أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة...	143
7	كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين ...	143
8	أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً...	144
9	اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن..	149
10	المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...	155
11	إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء...	156
12	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ "قلنا بلى يارسول الله...	164
13	و أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ...	164
14	أعطيت سائر ولدك مثل هذا ...	190
15	الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة...	166

16	تنكح المرأة لأربع...	166
17	إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه...	166
18	والله لا يؤمن.والله لا يؤمن.والله لا يؤمن ...	172
19	ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه	173
20	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤد جاره	173
21	ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد	173
22	أنا وكافل اليتيم هكذا...	176
23	الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله...	177
24	ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا...	177
25	ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد...	178
26	المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه ...	179
27	لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا...	180
28	يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها...	319
29	لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع ...	319
30	جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم...	319
31	لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع	320

32	لا تكونوا إمعة تقول إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت...	320
33	نهى عن القزع	320
34	من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي...	321
35	لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق .لا يضرهم من خذلهم...	321
	كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ	446
	لئن قلت ذلك إن فيهم خصالا أربع : إنهم لأحلم الناس عند فتنة	478
36	ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله...	504
37	لعن الله آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه...	556
38	مثل المؤمنين في توادهم ،وتراحمهم ،وتعاطفهم ، مثل الجسد	667
	البر حسن الخلق والاثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس	699
	ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله...	700
39	إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق	720
40	مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله..	721
41	مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها...	721
42	لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا	726

فهرس الأعلام

الرقم	العَلَم	الصفحة
1	سيجموند فرويد	22
2	جون بول سارتر	22
3	كارلماركس	22
4	جاكوب هليوكي	70
5	توماس هوبز	75
6	ماسلو	87
7	جيمس مل	93
8	فيورباخ	93
9	نتشه	93
10	أوغستين	240
11	بولس	242
12	كلاوديوس	243
13	كوبرنيق	254
14	جراندو	255
15	قاليليو	255

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

16	مارثن لوثر	258
17	كالفن	258
18	ديكارت	263
19	مونتسكيو	264
20	ديدرو	264
21	لامتري	307
22	هولباخ	264
23	مالتوس	271
24	برتراند رسل	275
26	دوركايم	325
27	وليم جيمس	284
28	جون ديوي	284
29	تشيلر	285
30	هيدجر	286
31	سبينوزا	287
32	ليبنز	287

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

33	دالمبير	287
34	فولتير	287
35	دافيد هيوم	288
36	شوبنهور	288
37	كيمون	345
38	زويمر	347
39	مرجليوت	347
40	ماسنيون	348
41	جولد زيهر	348
42	سلامة موسى	348
43	جورجي زيدان	348
44	قاسم أمين	371
45	نوال السعداوي	371
46	ميكافيلي	448
47	انجلز	488
48	لينين	489

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

49	آدم سميث	524
50	ماركوز	595
51	تشيلر فرديناند	599
52	دولباك	507
53	فرانك ألن	508
54	كامو	570
55	ياسبرز	571
56	سانتيانا	571
57	شقيتسر	652
58	فوكوياما	662
59	هنتنجتون	674
60	غوستاف لوبون	742
61	توينبي	746

قائمة المصادر والمراجع:

*-القرآن الكريم

1- الشريفعليبنمحمدالجرجاني : التعريفاتالمطبعةالخيريةالمنشأةبجماليةمصرط1 سنة 1306هـ.

2- القرطبي : الجامعلأحكامالقرآندارالكتبالعلميةبيروتلبنانط5 سنة1996 م.

3- مطبوعاتأكاديميةالمملكةالمغربيةأزمةالقيمودورالأسرةفيتطورالمجتمعالمعاصرمطبعةدارالمعار فالجديدةالرباطسنة 2002 م.

4- ابنالقيمالجوزية : الروحدارالكتابالعربيط2 سنة 1986 م.

5- ابنخلدون :المقدمةدارالجيلبيروتدطودت .

6- ابنمسكويه : تهديبالأخلاقوتطهيرالأعراق : منشوراتدارمكتبةالحياةبيروتلبنانط2 دونسنه .

7- ابنمنظورلسانالعربدارالمعارفالقاهرةدطودت .

8- أبوالأعلىالمودودي : الخلافةوالملكتعريبأحمدإدريسشركةالشهابالجزائر 1988 م.

9- أبوالأعلىالمودودي : نحنوالحضارةالغربيةدارالشهابللطباعةوالنشرباتنةالجزائردطسنة 1988م.

10- أبوالأعلىالمودودي : نظامالحياةفيالإسلامدارالشهابباتنةالجزائردطسنة1988م.

11- أبوالحسنالندوي :نحوالتربيةالإسلاميةالحرة،المختارالإسلاميللطباعةوالنشرالقاهرةط2 سنة 1974 م.

12- أبوالحسنعليالحسنيالندوي : ماذاخسرالعالمبانحطاطالمسلمينمكتبةرحابالجزائرط 10 سنة1987 م.

13- أبوحامدمحمدبنمحمدالغزاليإحياءعلومالديندارالفكرللطباعةوالنشروالتوزيعبيروتدطسنة 2003 م.

14- أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر للطباعة والنشر د ط دت.

15- أبيالعباستقيالدينأحمدبنعبدالحليمابنتيمية :درءتعارضالعقلوالنقلتحقيقمحمدرشادسالمط2 سنة 1991م.

16- أبيالقاسمالحسينبنمحمدبنالمفضلالراغبالأصفهاني
:تفصيلالنشأتينوتحصيلالسعادتينمنشوراتدارمكتبةالحياةبيروتلبناندطسنة 1983م.
17- أبعبداللهمحمدبنأحمدبنيوسفالكاتبالخوارزميمفاتيحالعلومطبعةبليدنط1سنة 1930 م.
18- أحمدالزباخالمنهجالقرآنيفيتربيةالقيمالأخلاقيةوالاجتماعية .مطبعةبنيأزناسنالمغرب 2004م.
19- أحمدداودأوغلوالفلسفةالسياسيةترجمةابراهيمالبيوميغانموتقديممحمدعمارةمكتبةالشروقالدولية ط1 سنة 2006 م.
20- أحمدفتحيمحمدقاسم :
إنسانيةالتربيةالإسلاميةودلالتهاالتربويةرسالةجامعيةجامعةاليرموكسنة 2012م.
21- اسماعيلراجيالفاروقي : نحنوالغربالزيتونةللإعلاموالنشرباتنة 1989 م.
22- اسماعيلراجيالفاروقيولوسلمياءالفاروقي :
أطلسالحضارةمكتبةالعبيكانترجمةعبدالواحدلؤلؤةمراجعةرياضنوراللهط1سنة 1998م.
23- إسماعيلعبدالفتاح :القيمالسياسيةفيالإسلامالدارالثقافيةللنشرط1 سنة 2001 م.
24- ألبرتأشقيتسرفلسفةالحضارةترجمةعبدالرحمنبدويومراجعةزكينجيبمحمودالمؤسسةالمصريةالعامة للتأليفوالترجمةوالطباعةوالنشر 1963م .
25- آمنةمحمدنصرإنسانيةالإنسانفيالإسلامدارالشروقط1 سنة 1989م.
26- إنعامأحمدقدوحالعلمانيةفيالإسلامدارالسيرةبيروتلبنانط1 سنة 1995م.
27- أنورالجندي :
سقوطالأيدولوجياتوكيفيملأالإسلامالفراغ،دعوةالحقرابطةالعالمالإسلاميالسنةالثانيةعشرالعدد 139 رجب 1414 هـ.
28- أنورالجندي :
مشكلاتالفكرالمعاصرفيضوءالإسلامسلسلةالبحوثالإسلاميةالعددالحاديوالخمسونالسنةالرابعة جمادىالأولى 1392هـ-1972 م.

29- أنورالجندي :سقوطالعلمانيةدارالكتابباللبنانيدطودت .

30- أنورالجندي :سمومالاستشراقوالمستشرقينفيالعلومالإسلاميةدارالشهابالجزائردطسنة1987م

31- أنورالجنديمجلةاقرأعالميةالإسلامدارالمعارفالقاهرةعدد 426 دطودت .

32- أنورالجندي: مفاهيمالعلومالاجتماعيةوالنفسوالأخلاقفيضوءالإسلامدارالكتبالجزائرسنة 1987م.

33- البخاري ، الصحيح .

34- توفيقالطويلالحضارةالإسلاميةوالحضارةالغربيةدراسةمقارنةمكتبةالتراثالإسلاميالقاهرةدطسنة 1990م.

35- توفيقالطويل: فلسفةالأخلاقدارالنهضةالعربيةط 2سنة 1968م.

36- جابرقميحة : مدخلإلىالقيمدارالكتابالمصريدطبعةودونتاريخ .

37- الجامعةالعالميةللبحوثالإسلامية : الحضارةالإنسانيةبينالتصورالدينيوالنظرياتالوضعية.

38- جانبولرزقبرفلسفةالقيمعويداتللنشروالطباعةبيروتتعريبعادلالعواط1سنة 2001م.

39- جلالالدينسعيد :معجمالمصطلحاتوالشواهدالفلسفيةدارالجنوبللنشرتونسدطسنة 2004م

40- جميلصليبيالمعجمالفلسفيدارالكتابباللبنانيدط. سنة 1982م.

41- جودتسعيد : "إقرأوربكالأكرم " المطبعةالعربيةغرداياةالجزائرط 1سنة 1990م.

42- جورجطرابيشيمعجمالفلاسفةدارالطليعةللطباعةوالنشربيروتط3 سنة 2006م.

43- حسنحنفي : التراثوالتجديدطبعةالقاهرةسنة 1980م.

44- حسنلحساسنة: الحاكميةفيالفكرالإسلاميكتابالأمةالعدد 118 السنة 27ط1سنة 2007م.

45- حسينعباسالأنصاري: العلمفيرحابااللهالأدلةالعلميةعلوجوداللهووحدانيتهالمطبعةالعالميةط 2001م.

46- حواراتمعالدكتورعبدالوهابالمسيري : العلمانيةوالحداثةوالعولمةتحريرسوزانحرفيدارالفكردمشقسنة 2008م.

47- الخطراليهوديبروتوكولاتحكماءصهيونط5 سنة 1980م.

48- راشدالغنوشي

:مقارباتفيالعلمانيةوالمجتمعالمدنيالمؤسسةالإسلاميةللطباعةوالصحافةوالنشرط1 سنة 1999 م.

49- راغبالسرحاني :المشتركالإنسانيمؤسسةإقرألللنشروالتوزيعوالترجمةط1 سنة 2011م.

50- الربيعميمونظريةالقيمفيالفكرالمعاصربينالنسبيةوالمطلقيةالشركةالوطنيةللنشروالتوزيعالجزائردطسنة 1980م.

51- رفيقعبدالسلام

:فيالعلمانيةوالدينوالديمقراطيةالمفاهيموالسياقاتالدارالعربيةللعلومناشرونبيروتلبنانط1 سنة 2008م.

52- زكريإبراهيمالشتول :

أثرالعقيدةالإسلاميةفيالسلوكالإنسانيدارالكتابالثقافيالأردنط..2005م .

53- زكينجيبمحمود :تجديدالفكرالعربيدارالشروقبيروتدطسنة 1971م.

54- زكينجيبمحمود: قصةالفلسفةالحديثةلجنةالتأليفوالترجمةوالنشرالقاهرة 1936 م.

55- سامينشار: نشأةالفكرالفلسفيفيالإسلامدارالمعارفالقاهرةط7سنة 1977م.

56- سعيداسماعيلعلي :أصولالتربيةالإسلاميةدارالسلاملللطباعةوالنشروالتوزيعوالترجمةط1 سنة 2005م.

57- سعيدبنناصرالغامدي: الانحرافالعقديفيأدبالحداثة

:دارالأندلسالخضراءللنشروالتوزيعجدةالمجلدالأولط1 سنة 2003م.

58- سعيدسليمانالقيق :أثرالعلمانيةفيالمجتمعالعربيرسالةجامعيةكليةالآدابوالعلومالإنسانيةالمغرب 1995م.

59- سلامةموسى : حريةالفكروأبطالهافيالتاريخعنيتبنشرهإدارةالهلالبمصردطدت.

60- سلامةموسى: اليوموالغدطبعةالقاهرةسنة 1928م.

61- سيدأحمدفرججذورالعلمانيةدارالوفاءللطباعةوالنشرالمنصورةط4 سنة 1990م .

62- سيدسابقخصائصالشريعةالإسلاميةومميزاتهاالفتحللإعلامالعربيط1 سنة 1988م.

63- سيدقطب : فيظلالالقرآندارالشروقط10 سنة 1982 م.

64- سيدقطبخصائصالتصورالإسلاميومقوماتهدارالشروقط15 سنة2002 م.

65- سيدمحمدنقيبالعطاس : مداخلاتفلسفيةفيالإسلاموالعلمانيةترجمةمحمدطاهرالميساويط1 سنة 2000م.

66- الشاطبي : الموافقاتفيأصولالفقهالمكتبةالتجاريةالكبربمصرج1.

67- الشريفعليبنمحمدالجرجاني : التعريفاتالمطبعةالخيريةالمنشأةبجماليةمصرط1 سنة 1306م.

68- صامويلهنتنجتون

:صداماالحضاراتإعادةصنعالنظامالعالميالجديدترجمةطلعتالشايبتقديمصلاحقنصوةسطورط2 سنة 1999م.

69- الصديقبنمحمدبنقاسمبوعلامجمالياتالإحساسمدخلإلىالرؤيةالجماليةالإسلاميةدارالكتبالعلميةبيروتط1 سنة 2011 م.

70- صلاحالدينبيوميأرسلان:

القيمالإسلاميةبينالذاتيةوالموضوعيةدارالثقافةللنشروالتوزيعالقاهرةدطسنة 1980 م.

71- طهجابرالعلواني : التوحيدوالتزكيةوالعمراندارالهاديللطباعةوالنشروالتوزيعبيروتط1 2003م .

72- طهجابرالعلواني:نحومنهجيةمعرفيةقرآنيةدارالفكردمشقط1 سنة 2009م.

73- طهحسين :مستقبلالثقافةفيمصردارالمعارفالقاهرةط2 سنة 1938م.

74- طهحسينفيالشعرالجاهلي :دارالمعارفللطباعةوالنشرسوسةتونسدطسنة 1997م.

75- طهعبدالرحمن: سؤالالأخلاقمساهمةفيالنقدالأخلاقيللحداثةالغربيةالمركزالثقافيالعربيالدارالبيضاءالمغربط2 سنة 2005 م.

76- عائشةعبدالرحمن: القرآنوقضاياالإنساندارالعلمللملايينبيروتط2 سنة 1975 م.

77- عادلالعوا : القيمالأخلاقيةجامعةدمشقسنة 1960م.

78- عادلضاهر : الأسسالفلسفيةللعلمانيةدارالساقيبيروتط2 سنة 1998 م.

79- عباسمحمودالعقاد : التفكيرفريضةإسلاميةنهضةمصرللطباعةوالنشروالتوزيعط6 سنة 2007م.

80- عباسمحمودالعقاد

:حقائقالإسلاموأباطيلخصومهمنشوراتالمكتبةالعصريةبيروتصيدادونرقمالطبعةودونتاريخ .

81- عبدالحليممحمود : التفكيرالفلسفيفيالإسلامدارالمعارفط2 سنة 1989م.

82- عبدالحميدأحمدأبوسليمان

:الرؤيةالكونيةالحضاريةالقرآنيةدارالسلاملطباعةوالنشروالتوزيعوالترجمةجمهوريةمصرالعربيةط1 سنة 2009م.

83- عبدالحميدأحمدأبوسليمان:أزمةالعقلالمسلمسلسلةإسلاميةالمعرفةدارالقارئالعربيط1سنة 1991م.

84- عبدالرحمنبنزيدالزنيدي : السلفيةوقضاياالعصرمركزالدراساتوالإعلامدارشبيلياط1 سنة 1998م.

85- عبدالرحمنحسنحبنكةالميداني : ابتلاءالإرادةدارالقلمدمشقط 1 سنة1995م .

86- عبدالرحمنحسنحبنكةالميداني : العقيدةالإسلاميةوأسسهادارالقلمدمشقط 8 سنة 1997 م.

87- عبدالرحمنحسنحبنكةالميداني :كواشفزيوفدارالقلمدمشقط1 1985م.

88- عبدالعالسالمكرم: الفكرالإسلاميبينالوحيوالعقلدارالشروقبيروتط1 سنة 1982م.

89- عبدالعزيزالتويجريصراعالحضاراتفيالمفهومالإسلاميمنشوراتالمنظمةالإسلاميةللتربيةوالعلوموالثقافة 2002م.

90- عبدالعزيزمحمدالسلمان : الأسئلةوالأجوبةالأصوليةعلىالعقيدةالواسطيةط8 سنة 1979م .

91- عبدالعظيمالمطعني :الإسلامفيمواجهةالإيديولوجياتالمعاصرةمكتبةوهبةالقاهرةط1 سنة 1987م.

92- عبدالقادرعودة : الإسلاموأوضاعناالسياسيةمؤسسةالرسالةبيروتدطودت.

93- عبدالكريمبكار : منأجلانطلاقةحضاريةشاملةدارالقلمدمشقط2 سنة 2001م.

94- عبدالكريمبكار :منأجلانطلاقةحضاريةشاملةدارالقلمدمشقالطبع 2سنة 2001م.

95- عبداللهالحارثالمحاسبي:رسالةالمسترشدينتحقيقعبدالفتاحأبوغدةمطبعةدارالسلامدونتحديدالبلدط5 سنة 1988م.

96- عبداللهالفيفي : نقدالقيممؤسسةالانتشارالعربيالطبعة 1 سنة 2006 م.

97- عبداللهبنأحمدبنمحمودالنسفي :تفسيرالنسفيدارالكتابالعربيبيروتط1982 م.

98- عبداللهدراز: نظراتفيالإسلامالمكتبالفنيللنشرالقاهرةط1 سنة 1958م.

99- عبداللهناصحعلوان

:التكافلالاجتماعيفيالإسلامدارالسلاملطباعةوالنشروالتوزيعوالترجمةط6سنة 2001 م.

100- عبدالمجيدالنجار : خلافةالإنسانبينالوحيوالعقلالمعهدالعالميللفكرالإسلاميفرجينياط2سنة 1993م.

101- عبدالمجيدالنجار : قيمةالإنساندارالزيتونةللنشرالرباطط1 سنة 1996م.

102- عبدالمجيدمسعود: القيمالتربويةوالمجتمعالمعاصروزارةالأوقافوالشؤونالإسلاميةقطرط1سنة 1999 م.

103- عبدالوهابالمسيري :الحداثةومابعدالحداثةدارالفكرالمعاصربيروتط1 سنة 2003م.

104- عبدالوهابالمسيري :العلمانيةالجزئيةوالعلمانيةالشاملةدارالشروقالمجلدالأولوالثاني ط1 سنة 2002م.

105- عبدالوهابالمسيريالعلمانيةوالحداثةوالعولمةدارالفكردمشقتحريرسوزانحرفيط1 سنة 2009م.

106- عبدالوهابالمسيريدراساتمعرفيةفيالحداثةالغربية :مكتبةالشروقالدوليةط1 سنة 2006م .

107- عبدالوهابالمسيري: الصهيونيةوالنازيةونهايةالتاريخدارالشروقط1 سنة 1997م.

108- عبدالوهابخلاف: علمأصولالفقهالزهراءللنشروالتوزيعالجزائرط1 سنة 1990 م.

109- عدنانرضاالنحوي :المسلمونبينالعلمانيةوحقوقالإنسانالوضعيةدارالنحويللنشروالتوزيعط1 سنة1997م.

110- عدنانمحمدزرزور :القوميةوالعلمانيةمدخلعلميمؤسسةالرسالةعمانط1 سنة 1992م.

111- عطيةصقر :أحسنالكلامفيالفتاويوالأحكاممجلدالثانيالعدد 90

الطبعةالثانيةنشردارالغدالعربيالعباسيةالقاهرةدطدت.

112- عفتالشرقاوي :فيفلسفةالحضارةالإسلاميةدارالنهضةالعربيةط4 سنة 1985 م

113- عليجريشة : الاتجاهاتالفكريةالمعاصرةدارالوفاءللطباعةوالنشروالتوزيعط3 سنة 1990م.

114- عليخليلمصطفىأبوالعينين : مكتبةإبراهيمحلبيبالمدينةالمنورةط1 سنة 1988 م.

115- عليعبدالرزاق

:الإسلاموأصولالحكمبحثفيالخلافةوالحكومةفيالإسلامنقدوتعليقممدوححقّيمنشوراتدارمكتبةالحياةبيروت 1978م.

116- عليعزتبيقوفيتش : الإسلامبينالشرقوالغربترجمةمحمديوسفعدسمؤسسةباقارياط 2سنة 1997م.

117- عمادالدينخليل :تهافتالعلمانيةمؤسسةالرسالةبيروتطسنة 1983م.

118- عمارطالبي : آراءأبيبكربنالعربيالكلاميةالشركةالوطنيةمجلد 1 دطدت.

119- فؤادزكريا : الصحوةالإسلاميةفيميزانالعقلدارالفكرالمعاصرالقاهرةط2 سنة 1987م.

120- فؤادزكريا :التفكيرالعلميعالمالمعرفةطسنة 1978م.

121- فتحيحسنملكاوي : نحونظامعرفيإسلاميالمعهدالعالميللفكرالإسلاميمكتبالأردنط1 سنة 2000م.

122- فخرالدينالرازي: مفاتحالغيبالمطبعةالبهيةالمصريةالقاهرةدطودت.

123- فرانسيسفوكوياما :نهايةالتاريخوخاتمالبشرترجمةحسينأحمدأمينمركزالأهراملترجمةوالنشرط1 سنة 1993م.

124- فهميجدعان:

أسسالتقدمعندمفكريالإسلامفيالعالمالعربيالمعاصرالمؤسسةالعربيةللدراساتوالنشرط2 سنة 1981 م.

125-فهميمحمدعلوان

:القيمالضروريةومقاصدالتشريعالهيئةالمصريةالعامةللكتابسنة1989م.

126- فوزيةدياب : القيموالعاداتالإجتماعيةدارالنهضةالعربيةبيروتسنةم1980م.

127- كمالالدينعبدالغنيالمرسيالعلمانيةوالعولمةوالأزهردارالمعرفةالجامعيةط1سنة 1999 م.

128- ماجدعرسانالكيلاني : فلسفةالتربيةالإسلاميةمؤسسةالريانلطباعةوالنشروالتوزيعط 1998 م.

129- مالكبنبني :شروطالنهضةدارالفكرترجمةعبدالصبورشاهيندارالفكرطرابلس 1979 م.

130- مانعبنحمادالجهني :

الموسوعةالميسرةفيالأديانوالمذاهبوالأحزابالمعاصرةدارالندوةالعلميةللطباعةمجلد2 ط4 سنة 1420هـ.

131-مجدالدينمحمدبنيعقوبالفيروزأبادي : القاموسالمحيطدارالكتبالعلميةبيروتلبنانط1 سنة 2004 .

132- مجلة الإحياء سؤالا لأخلاق ونظام القيم الرابطة المحمدية للعلماء المغرب العددان 33/32 سنة 2010م.

133- محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع دار الفكر العربي القاهرة د ط سنة 1965م.

134- محمد أركون : الفكر الإسلامي قراءة علمية ترجمة هاشم صالح مركز الإنماء القومي بيروت ط2 سنة 1996 م.

135- محمد الأمين التجانيمفهوم العلمانية في الفكر الغربي: مركز التنوير المعرفي ط1 2007 م.

136- محمد البهي الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي دار الفكر ط7 سنة 1991م.

137- محمد البهي الفكر الإسلامي و المجتمع المعاصر مشكلاتا لأسرة والتكافل المكتبة العصرية صيدا بيروت سنة 1967م.

138- محمد التومي : نحو بسيكولوجية إسلامية شركة الشهاب الجزائر .د ط ود ت .

139- محمد التومي المجتمع الإنساني في القرآن الكريم المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ط 2 سنة 1990 م.

140- محمد الطاهر بن عاشور أصول النظام الاجتماعي في الإسلام الشركة التونسية للتوزيع ط2 سنة 1985م.

141- محمد الغزالي الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر : دار الهدى الجزائر ط1 سنة 1988م.

142- محمد الغزالي : الإسلام والأوضاع الاقتصادية مكتبة رحاب الجزائر ط7 سنة 1986م.

143- محمد الغزالي : عقيدة المسلم الشهاب للطباعة والنشر ط16 سنة 1985م.

144- محمد الغزالي :حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة. دار المعرفة ط1 2001 م.

145- محمد الكتاني ثقافة الحوار في الإسلام مناط التأسيس إلى التأصيل منشورات الأوقاف والشؤون الإسلامية ط1 سنة 2007م.

146- محمد الكتاني منظومة القيم المرجعية في الإسلام الرابطة المحمدية للعلماء مركز الدراسات والأبحاث في القيم الرباط المغرب ط2 سنة 2011 م.

147- محمد المبارك : نحو إنسانية سعيدة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع د ط 1961م.

148- محمد خليلا لهراس : شرح العقيدة الواسطية راجعه عبد الرزاق عفيفي مكتبة الزهراء الجزائر ط1990 م.

149- محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن دار الفكر دمشق سوريا د ط سنة 2003م.

150- محمد سعيد رمضان البوطي :على طريق العودة إلى الإسلام مكتبة رحاب الجزائر ط8 سنة .

151- محمد سعيد رمضان البوطي: المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة دار الفكر ط 2008م.

152- محمد سيد أحمد المسير : عالم الغيب في العقيدة الإسلامية نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ط1 سنة 2007م.

153- محمد صلاح الصاوي : بيننا الإسلام والعالمانية الآفاق الدولية للإعلام ط1 سنة 1413هـ.

154- محمد عبد الله الخطيب : خصائص المجتمع المسلم دار الصديقية الجزائر د ط ودت.

155- محمد عبد الله الهدراز

: دستور الأخلاق في الإسلام تقريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالة ط6 سنة 1985م.

156- محمد عبده : الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين دار الشهاب باتنة الجزائر .

157- محمد علي التهانوي

: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم مكتبة لبنان ناشرون تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم تحقيق علي دحرو ج الجزء الأول ط1 سنة 1996 م

158- محمد عمارة الإسلام والتحديات المعاصرة نهضة مصر ط2 سنة 2005م.

159- محمد عمارة : الإسلام والتحديات المعاصرة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ط2 سنة 2005م.

160- محمد عمارة : الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكاني – مكتبة الشروق الدولية ط2 سنة 2007م.

161- محمد عمارة : الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية دار الشروق ط1 سنة 2003م.

162- محمدعمارة : صراعالقيمبينالإسلاموالغربنهضةمصرطسنة 2003م.

163- محمدعمارة :الإسلاموالتحدياتالمعاصرةنهضةمصرللطباعةوالنشروالتوزيعط2 سنة 2005م.

164- محمدعمارة :العلمانيةماهاوماعليها،ندوةالدعوةالإسلاميةالعالمية.

165- محمدعمارة :العلمانيةونهضتناالحديثةدارالشروقط2 سنة 1986م .

166- محمدعمارةالإسلاموالتحدياتالمعاصرةنهضةمصرللطباعةوالنشروالتوزيعالقاهرةط2 سنة 2005م.

167- محمدعمارةالتعدديةالرؤيةالإسلاميةوالتحدياتالغربيةنهضةمصرللطباعةوالنشروالتوزيعالقاهرةطبعةسنة1997م.

168- محمدعمارة: الإسلاموالسياسةدارالسلاملللطباعةوالنشروالتوزيعوالترجمةالقاهرةط1 سنة 2005م.

169- محمدقطب : دراساتفيالنفسالإنسانيةدارالشروقالقاهرةط 1974 م .

170- محمدقطب : مذاهبفكريةمعاصرةدارالشروقط2 سنة 2001م.

171- محمدقطب :الإنسانبينالماديةوالإسلامدارالشروقالقاهرةط5 سنة 1978م.

172- محمدمهديشمسالدين :العلمانيةالمؤسسةالدوليةللدراساتوالنشرطسنة 1996 م.

173- محمدمهرانرشوان: مدخلإلىالفلسفةالمعاصرةدارالثقافةللنشروالتوزيعالقاهرةط2 1984م.

174- محمودالألوسيروحالمعانيفيتفسيرالقرآنالعظيموالسبعالمثانيدارالفكرللطباعةوالنشروالتوزيعبيروتلبنانقرأهوصححهمحمدحسينالعربدطسنة1997 م.

175- محمودالخالدي : قواعدنظامالحكمفيالإسلاممؤسسةالإسراءالجزائرط1 سنة 1991 م.

176-مسلم، الصحيح .

177- مصطفىالسباعي: منروائعحضارتناالاتحادالإسلاميالعالميللمنظماتالطلابيةطسنة 1980 م.

178- مصطفىصبريموقفالعقلوالعلموالعالممنربالعالمينإحياءالتراثالعربيبيروتلبنانط2 سنة 1981 م.

179- مصطفىمحمود: أكذوبةاليسارالإسلاميدارالمعارفط2 سنة1978م.

180- معجمأكسفوردsecularismط 2005م.

181- مقدادياالجن : التربيةالأخلاقيةالإسلاميةمكتبةالخانجيمصرط1 سنة 1977 م.

182- مقدادياالجن :

دورالتربيةالأخلاقيةالإسلاميةفيبناءالفردوالمجتمعوالحضارةالإنسانيةدارالشروقط1 سنة 1983م.

183- مناعالقطانمعوقاتتطبيقالشريعةالإسلاميةمكتبةوهبةالقاهرةط1سنة 1991م.

184- موزةأحمدراشدالعبار: القيمالأخلاقيةبينالفكرينالإسلاميوالغربيالدارالعالميةللنشروالتوزيعط1 سنة 2009 م.

185- الموسوعةالفلسفيةالمختصرةنقلهاعنالإنجليزيةفؤادكاملوآخرونمراجعةزكينجيبمحموددارالقلمبير وتدطودت.

186- مونتسكيو : كتابروحالشرائعترجمةعادلزعيتر . طالأنسكوالقاهرة 1953م.

187- نادية جمالالدين

:مقالالقيمالإنسانيةأوالتنميةالبشريةلعالمواحدمتنوعالثقافات،مجلةالبحوثوالدراساتالعربية 2005 م.

188- نبيلمحمدتوفيقالسمالوطي :

الدينوالبناءالاجتماعيدارالشروقللنشروالتوزيعوالطباعةجدةالسعوديةط1 سنة 1981 م.

189- نجيباسكندر،محمدعمادالدينإسماعيل،رشادمنصور:

قيمناالاجتماعيةوأثرهافيتكوينالشخصيةنهضةمصرالقاهرةدطبعةودت.

190- نخبةمنالعلماءأمريكيين

:اللهيتجلىفيعصرالعلمترجمةالدمرداشعبدالمجيدسرحانراجعهوعلقعليهمحمدجمالالدينالفنديدا رالقلمبيروتلبناندطودت .

191- نديمالجسر : قصةالإيمانبينالفلسفةوالعلموالقرآندارالهدىعينمليلةالجزائرسنة 2000م.

192- نوالكريمزرزورمعجمالألفاظالأخلاقيةوتطورهاالدلاليبينلغةالشعرالجاهليولغةالقرآنالكريممكتبة لبناننا شرونط1سنة 2001م.

193- هدىعلىجوادالشمري: الأخلاقفيالسنةالنبويةدارالمناهجللنشروالتوزيععمانالأردنط2008 م.

194- وحيدالدينخانالإسلاميتحدىتعريبظفرالإسلامخانمراجعةوتحقيقعبدالصبورشاهينمكتبةالرسالة بيروتط1 سنة 1974م.

195- ويلديورانت: قصةالفلسفةمنشوراتدارالمعارفبيروتط6 سنة 1988م.

196- يحيىهاشمحسنفرغل:

الفكرالمعاصرفيضوءالعقيدةالإسلاميةمطبوعاتجامعةالإماراتالعربيةالمتحدةدطسنة 1998م.

197- ينظرعبدالكريمبكار : مقدماتللنهوضبالعملالدعويدارالقلمدمشقط2 سنة 2001 م.

198- يوسفالقرضاويالخصائصالعامةللإسلامشركةالشهابالجزائر د ط ودت.

199- يوسفالقرضاوي : دورالقيموالأخلاقفيالاقتصادالإسلاميمكتبةوهبةالقاهرةط1 سنة 1995 م.

200- يوسفالقرضاوي :أعداءالحلالإسلاميمؤسسةالرسالةبيروتط1 سنة 2001م.

201- يوسفالقرضاوي :الإسلاموالعلمانيةوجهالوجهمؤسسةالرسالةط1سنة 2001م.

202- يوسفالقرضاوي :التطرفالعلمانيفيمواجهةالإسلامنموذجتركياوتونسدارالشروقالقاهرةط2 سنة 2006م.

203- يوسفالقرضاوي :بيناتالحلالإسلاميوشبهاتالعلمانييننوالمتغربين :مكتبةوهبةالقاهرةط3 سنة 2003م.

204- يوسفالقرضاويأمتنابينقرنين :دارالشروقط1 سنة2000م.

205- يوسفالقرضاوي: الإسلاموالعلمانيةوجهالوجهمؤسسةالرسالةط4سنة2001م.

206- يوسفكرم :تاريخالفلسفةالحديثةدارالمعارفالقاهرةط 5سنة 1986م.

207- يوسفكرم: قصةالفلسفةالحديثةدارالمعارفالقاهرةمصرطبعة 5 سنة1986م.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الإهداء

الشكر

مقدمة

الفصلالتمهيدي: ضبطالمفاهيم 1

المبحثالأول : مفهومالمنظومة 4

المطلبالأول :تعريفالمنظومةلغة 4

المطلبالثاني : تعريفالمنظومةاصطلاحا 5

المطلبالثالث : خصائصالمنظومة 6

المبحثالثاني :مفهومالقيم 7

المطلبالأول :تعريفالقيم 7

أ-تعريفالقيم: لغة 7

ب- تعريفالقيماصطلاحا 9

المطلبالثاني :مفهومالقيمفيالثقافةالإسلامية 14

المطلبالثالث :مفهومالقيمةفيالفكرالغربي 22

المبحثالثالث:مفهومالحياةالإنسانية 23

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلبالأول: مفهومالإنسانوطبيعته 24
المطلبالثاني : مفهومالإنسانية 43
المطلبالثالث :مفهومالحياة 48
المبحثالرابع :مفهومعقيدةالتوحيد 58
المطلبالأول :تعريفالتوحيد 59
المطلبالثاني :أنواعالتوحيد 59
المطلبالثالث :علاقةمنظومةالقيمبالتوحيد 66
المبحثالخامس :مفهومالعلمانيةالشاملة 67
المطلبالأول :مفهومالعلمانيةفيالمنظورالغربي 68
المطلبالثاني : مفهومالعلمانيةفيالثقافةالعربية 72
المطلبالثالث :أنواعالعلمانية 76

الفصلالأول : منظومةقيمعقيدةالتوحيد 82

المبحثالأول : أهميةالقيم 83
المطلبالأول :أهميةالقيمفيالحياةالإنسانية 83
المطلبالثاني : أهميةالقيمفيالحياةالفرديةوالجماعية 88
المبحثالثاني : مصادرالقيم 90
المطلبالأول:مرجعيةالقيم الإنسانية 90
المطلبالثاني : مصدرقيمعقيدةالتوحيد 95
المبحثالثالث: خصائصقيمعقيدةالتوحيد 98
المطلبالأول :الربانية 99
المطلبالثاني : الثبات 103
المطلبالثالث: الشمول 107

المطلبالرابع : الوسطية 109
المطلبالخامس : الواقعية 112
المبحثالرابع : تصنيفالقيم 116
المطلبالأول : مستوياتالقيمفيمنظومةعقيدةالتوحيد 116
المطلبالثاني :أنواعالقيمفيمنظومةعقيدةالتوحيد 120
الفرعالأول : القيمالإيمانية 120
الفرعالثاني: القيمالتعبدية 134
الفرعالثالث : القيمالخلقية 149
الفرعالرابع : القيمالاجتماعية 159
الفرعالخامس: القيمالاقتصاديةوالمالية 189
الفرعالسادس: القيمالسياسية 198
الفرعالسابع : الفرعالثامن :القيمالمعرفية 207
الفرعالثامن: القيمالجمالية 223

الفصلالثاني : مفهومالعلمانيةالشاملةوظروفنشأتهاوآثارها 232

المبحثالأول :الجذورالتاريخيةوالفلسفيةللعلمانية 235
المطلبالأول : الجذورالتاريخيةللعلمانيةالشاملة 235
المطلبالثاني : الجذورالفلسفيةللعلمانيةالشاملة 251
المبحثالثاني : ظروفنشأةالعلمانيةالشاملة 292
المطلبالأول : التحولاتمنالعلمانيةالجزئيةإلىالشاملة 292
المطلبالثاني :مراحلالانتقالمنالجزئيةإلىالشاملة 299
المبحثالثالث : آثارالعلمانيةفيالحياةالغربية 302
المطلبالأول :الأثرالفكري 302

المطلبالثاني :الأثرالمعرفي 304
المطلبالثالث : الأثرالاجتماعي 305
المطلبالرابع :الأثرالاقتصادي 306
المطلبالخامس: الأثرالسياسي 307

الفصلالثالث :شبهاتالعلمانيةفيالبلادالإسلاميةومناقشتها 309

المبحثالأول :علاقةالإسلامبالتياراتالفكريةالأخرى 310
المطلبالأول : طبيعةالإسلام 310
المطلبالثاني : التحذيرمنمخالفةالمرجعية 315
المبحثالثاني :أسبابوطرقانتقالالعلمانيةإلىالبلادالإسلامية 322
المطلبالأول : الأسبابالداخلية 322
المطلبالثاني : الأسبابالخارجية 340
المبحثالثالث : آثارالعلمانيةفيالبلادالإسلامية 352
المطلبالأول : أخطرمافعلالاستعمار 352
المطلبالثاني : تجلياتالعلمنةفيجوانبالحياةالإسلامية 353
المبحثالرابع :آثارالعلمانيةفيالبلادالإسلامية 360
المطلبالأول :فيالمجالالفكري 361
المطلبالثاني : فيمجالالتربيةوالتعليم : 362
المطلبالثالث: فيالمجالالسياسي : 366
المطلبالرابع : فيالمجالالاقتصادي 369
المطلبالخامس : : فيالمجالالأخلاقيوالاجتماعي 370

المطلبالسادس : فيمجالالإعلاموالفنون: 373
المطلبالسابع : فيمجالالقانون 374
المطلبالثامن : فيمجالالثقافة 377
المطلبالتاسع : فيمجالالعلومالإنسانية 379
المطلبالعاشر : الترويجللعولمة كحتميةلتجاوزحالةالتخلف 380
المطلبالحاديعشر : تمييعقضيةالحلوالحرمة 380
المبحثالخامس :أنواعالعلمانيةفيالبلادالإسلامية 381
المطلبالأول :العلمانيةالحيادية 381
المطلبالثاني :العلمانيةالمتطرفة 382
المبحثالسادس :مناقشةشبهاتالعلمانييننفيالبلادالإسلامية 385
المطلبالأول : مناقشةالشبهةالأولى(أنالدينخرافة) 386
المطلبالثاني :مناقشةالشبهةالثانية (تعارضالدينوالعلموالعقل) 396
المطلبالثالث :مناقشةالشبهةالثالثة (جمودالشريعة) 412
المطلبالرابع :مناقشةالشبهةالرابعة (أنالشريعةلايصلحتطبيقهافيهذا
العصر) 415
المطلبالخامس: مناقشةالشبهةالخامسة(أنليسفيالإسلامبرامج ...) 420
المطلبالسادس : مناقشةالشبهةالسادسة :(أن "التراثالإسلامي" لايصلحالعمل
بهفيعصر "الحداثة"). 429
المطلبالسابع : مناقشةالشبهةالسابعة : ("مدنيةالدولة "). 435

الفصلالرابع : موازنةبينعقيدةالتوحيدوالعلمانيةالشاملة 460

المبحثالأول :منهجالقرآنفيالجدل 461
المطلبالأول :مصدرالانحرافاتفيالحياةالبشرية 462

المطلبالثاني :طريقةالقرآنفيمناقشةالانحرافات 466
المبحثالثاني : مناقشةبُنَىالعلمانيةالشاملةوأسسها 473
المطلبالأول :الجوانبالسلبيةفيالحضارةالغربيةالعلمانية 473
المطلبالثاني : الجوانبالإيجابيةفيالحضارةالغربيةالعلمانية 475
المطلبالثالث: مناقشةبُنَى (أسس) العلمانيةالشاملة 482
الأساسالأول :إنكارالغيب 485
الأساسالثاني :المادية 523
الأساسالثالث: نسبيةالقيم 532
الأساسالرابع :العبثية 570
الأساسالخامس :الإنسانية 587
الأساسالسادس :النفعية 599
الأساسالسابع :التطور 606
الأساسالثامن :العقلانية 612
المبحثالثالث :موقفالفكرالإسلاميمنالعلمانيةالشاملة 625
المطلبالأول :موقفالفكر الإسلاميمنالدخيل 625
المطلبالثاني :موقفعلماءالأمةومفكريهامنالعلمانيةالشاملة 631
المطلبالثالث :موقفمؤسسةالأزهرمنالعلمانيةالشاملة 640

الفصلالخامس : منظومةقيمالمشتركالإنساني 650

المبحثالأول :طبيعةالعلاقةبينالحضارات 654
المطلبالأول :مفهومالحضارة 654
المطلبالثاني :أنواعالحضارات 660
المطلبالثالث :أهدافالحضارة 668

المبحثالثاني :علاقةالحضارةالغربيةالعلمانيةوالحضارة الإسلاميةبالإنسانية 670
المطلبالأول : علاقةالحضارةالغربيةالعلمانيةبالإنسانية 671
المطلبالثاني : علاقةالحضارةالإسلاميةبالإنسانية 679
المطلبالثالث :علاقةالحضارةالإسلاميةبالحضارةالغربيةالعلمانية 682
المبحثالثالث : القيمالمرجعيةللإنسانية 694
المطلبالأول : وجودالمشتركالإنساني 694
المطلبالثاني : مفهومالمشتركالإنساني 697
المطلبالثالث : المشتركالإنسانيبينالعالميةوالعولمة 701
المطلبالرابع: أنواعقيمالمشتركالإنساني 704
المبحثالرابع : منظومةقيمالإنسانيةبينالماديةوالأخلاقية 737
المطلبالأول : الحضارةالإنسانيةبينالماديةوالروحية 737
المطلبالثاني : منظومةالقيمومستقبلالإنسانية 743
الخاتمة 756
فهرسالآيات 760
فهرسالأحاديث 792
فهرسالأعلام 794
قائمةالمصادروالمراجع 797
فهرسالموضوعات 813

ملخص باللغة العربية

تحاول هذه الدراسة الموازنة بين رؤيتين مختلفتين لمنظومة القيم الإنسانية ، الأولى هي منظومة عقيدة التوحيد ولها مرجعية دينية مصدرها الوحي ،ومنظومة العلمانية الشاملة ذات المرجعية الوضعية بخلفيتها الفلسفية المستمدة من الفلسفة اليونانية والقوانين الرومانية ،وشتى المذاهب الفلسفية والمدارس الأدبية . وقد تناولت في هذه الدراسة جوانب مختلفة ،وقسمت البحث فيها إلى فصل تمهيدي وخمسة فصول :

فتعرضت في البداية لبيان المفاهيم الأساسية الواردة في عنوان الأطروحة كمفاتيح تضبط المقصود منها :المنظومة، القيم ،الإنسانية ،عقيدة التوحيد ،العلمانية الشاملة .ثم تناولت المجالات المختلفة لقيم عقيدة التوحيد المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية. وفي مقابلها تناولت البُنى (الأسس) التي قامت عليها العلمانية الشاملة بخلفيتها التاريخية والفلسفية والتي كانت تمثل رد فعل على ما اقترفته الكنيسة في حق العلماء وسوء تمثيلها للقيم المسيحية .

وإذا كانت العلمانية الشاملة وليدة الغرب ، فقد انتقلت إلى البلاد الإسلامية ،ومن هنا فقد تناولت الدراسة ظروف وأسباب انتقالها إلى البلاد الإسلامية ،ومظاهر العلمانية فيها ، ورأي الأمة ومؤسساتها العلمية في تبني الدول الإسلامية للعلمانية .

كما تطرق البحث لبيان الموازنة بين الرؤيتين للقضايا الجوهرية في الحياة، ومن ثم مناقشة الرؤى التي تطرحها العلمانية وتفنيدها وبيان انحرافها وتناقضها مع نفسها ومع الحقائق العلمية التي تدعي أنها تتحاكم إليها .

في حين كان البحث في الأخير عن إمكانية صياغة مشترك إنساني للتعايش على الرغم من التباين الواضح بين المنظومتين القيميتين .فالحضارة الإنسانية على مر التاريخ فيها محطات مشرقة للتعايش بين الشعوب ومن تلك المحطات نستلهم إمكانية التقاء الحضارات.

وأخيرا خلصت إلى مجموعة من النتائج من أهمها أن المنظومة التي تصلح للحياة الإنسانية هي التي تتماشى في رؤيتها مع الفطرة الإنسانية ،وقادرة على الاستجابة لمختلف الحاجات الإنسانية بصورة متوازنة ولا يملك هذه الميزات إلا منظومة عقيدة التوحيد ،كما خلصت إلى أن العلمانية الشاملة نبتة غربية خالصة ،فإن كانت تمثل علاجا للحالة الغربية فهي تظل غريبة عن البلاد الإسلامية .

RESUMÉ

Nous proposons de par cette étude de faire l'arbitrage entre deux visions distinctes du système de valeurs humaines. Le premier est le système monothéiste à connotation religieuse émanant de la révélation, tandis que le second est la laïcité totale qui se réfère à une philosophie humaine issue d'anciennes pensées Grecques, et lois Romaines en plus de doctrines philosophiques et écoles littéraires variées. Nous avons, dans ce travail, investit différents aspects de la question et l'avons structuré en un préambule plus cinq chapitres.

Au début nous avons commencé par définir les principales notions citées en titre de ce mémoire, tels que les clés fixant le sens contextuel de « *système, valeurs, humanité, monothéisme, laïcité totale.* » Ensuite, nous avons exploré les différents domaines de valeurs du monothéisme inspirés du Saint Coran et de la Sunna. En contrepartie, nous avons aussi examiné les fondements sur lesquels est basée la laïcité totale sur fond historique et philosophique et qui apparut en réaction aux excès de l'église envers les homes de science et sa mauvaise représentation de la foi chrétienne.

Bien que la laïcité globale soit le produit de l'occident, elle a réussi à migrer vers certains pays musulmans. D'où notre intérêt d'étudier les conditions et les causes par lesquelles s'est effectuée cette migration et les aspects de la laïcité en ces lieux, ainsi que l'opinion de la nation musulmane et ses institutions scientifiques sur l'adoption de cette dernière dans le bastion musulman.

Cette recherche s'est aussi attelée à comparer les deux visions quand aux questions primordiales de la vie et par là à observer les différentes vues représentées par la laïcité, leurs applications, et la preuve de leur dérive et

contradiction avec la réalité scientifique à laquelle elles prétendent se référer.

En dernier lieu, nous avons considéré la possible élaboration d'une plateforme humaine commune de cohabitation malgré les divergences sensibles entre les deux systèmes de valeurs, car la civilisation humaine a bien connu des exemples probants de coexistence entre des peuples de confessions et visions différentes et par ces exemples mêmes inspirer une éventuelle réconciliation des civilisations.

Enfin, nous sommes arrivés à établir un nombre de conclusions et dont la plus importante est que le système le plus approprié à la vie humaine est celui qui se prête le mieux à la nature et à l' instinct humain et qui est capable de répondre aux différents besoins de l'homme de façon équilibrée, et que le seul possédant cette qualité est le monothéisme. Nous avons également établit que la laïcité totale est un fruit purement occidental qui reste étranger à la nation musulmane même s'il se targue d'offrir une alternative existentielle au monde occidental.

ABSTRACT

This study proposes to arbitrate two different views about the system of human values. The first one is the monotheist religious system of divine revelation while the second one is total secularism designed by man on an ideological background and inspired from ancient Greek and Roman philosophies together with several philosophical doctrines and literature schools. In this work, we have investigated various aspects of the question and divided it into a preamble and five Chapters.

Firstly, we have defined the main notions mentioned in the title like determining key words' meaning such as ‹*system, values, monotheism, total secularism*›. Then we examined the different domains of monotheist values inspired from the Holy Quran and the Sunnah. In counterpart we have also inquired into the basements on which total secularism was founded with its historical and philosophical settings and that came as a reaction to church extremism towards men of science and its bad representation of Christianity.

Even if total secularism was a western creation, it moved to some Muslim countries, which led us to focus on the reasons and circumstances of this transition and aspects of secularism in the Muslim world as well as the opinion of the Muslim community and its scientific institutions about its adoption.

This research is also comparing both views on fundamental questions of life and from there comparing the visions set by secularism and their applications in order to demonstrate its deviation and its ambivalence and inconsistency with science facts to which it suggests to be referring.

We have considered at last the possible elaboration of a common platform of human cohabitation despite the obvious divergence between the two systems, because human civilization throughout history has experienced

bright and convincing examples of co-existence between peoples of different denominations and visions; which could inspire a possible reconciliation between civilizations.

Eventually, we have established a set of conclusions, the most important of which, is that the system that is best appropriate to human life is the one that goes, in its core vision, with the human nature and primitiveness, and able to respond to the different needs of man in a balanced manner, and that the only system qualifying for this role is the monotheist one. We also found out that total secularism is a purely western product that remains extraneous to the Muslim nation even if it boasts about offering an existential alternative to the occidental world.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية